اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام (اليونسكو)

تاريخ إفريقيا العام

المجلد الأول

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا

المشرف على المجلد: ج. كي ــ زيربو



جين أفريك / اليونسكو

تاريخ أفريقيا العام

المجلد الأول

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا

اشراف: ج. كي — زيربو

المجلد الثاني

أفريقيا القديمة

اشراف: ج. مختار

المجلد الثالث

أفريقيا من القرن السابع الى القرن الحادي عشر

اشراف: م. الفاسي

المجلد الرابع

أفريقيا من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر

اشراف: د. ت. نياني

المجلد الخامس

أفريقيا من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر

اشراف: ب. أ. أوجوت

المجلد السادس

القرن التاسع عشر في أفريقيا حتى ثمانينياته

اشراف: ج. ف. آدى آجايى

المجلد السابع

أفريقيا في ظل السيطرة الأجنبية ١٨٨٠ — ١٩٣٥

اشراف: أ. آدو بواهن

المجلد الثامن

أفريقيا منذ عام ١٩٣٥

اشراف: ع. مزروعي

تاريخ
إفريقيا
العام

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام (اليونسكو)

تاريخ إفريقيا العام

المجلد الأول

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا

المشرف على المجلد: ج. كي ـ زِربو

جين أفريك / اليونسكو

الترقيم الدولي الموحد للكتب

ISBN Jeune Afrique 2-85258-314-3
ISBN UNESCO 92-3-201707-5

المحتويات

ملاحظات: ساهمت السيدة كاترين بيرلس في تنظيم الفصول الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين والحادي والعشرين والرابع والعشرين
أدخلت السيدة هيلين روش بعض اضافات على الفصل التاسع عشر.

المجلد الأول من
الطبعة العربية من تاريخ أفريقيا العام

الترجمة: من المقدمة الى الفصل الرابع عشر: السيد م. السويسي، كلية الآداب بجامعة تونس.
من الفصل الخامس عشر الى الخاتمة: السيد ر. الحمزاوي، تونس
المراجعة: من المقدمة إلى الفصل الرابع عشر: السيد ع. البهنسي: المدير العام للآثار، دمشق
من الفصل الخامس عشر الى الخاتمة: السيد ح. بنعيسى، الجزائر

نظرت لجنة القراءة العربية، المتفرعة من اللجنة العلمية الدولية، في جميع فصول المجلد ونقحتها. وتتألف لجنة القراءة هذه من السادة: م. الفاسي (المغرب)؛ ى. ا. طالب (سنغافورة)؛ هـ. جعيط (تونس).

مقدمة

السيد أحمد مختار أمبو
المدير العام
لليونسكو

لقد ظلت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تخفي عن العالم لزمن طويل التاريخ الحقيقي لأفريقيا. فقد اعتبرت المجتمعات الأفريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ. وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليو فروبينيوس، وموريس ديلافوس، وأرتورو لابريولا، فان عددا كبيرا من الأخصائيين غير الأفريقيين المتشبثين بمسلمات معينة قد ظلوا ينحازون الى القول بأن هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية، مستندين في قولهم هذا بصفة خاصة الى نقص المصادر والوثائق المكتوبة.

وإذا كان من الممكن أن تعتبر الألياذة والأوديسا بحق مصادر أساسية لتاريخ اليونان القديمة، فان ذلك كان يقابله انكار كل قيمة للتراث الأفريقي المنقول، الذي يعتبر بمثابة ذاكرة تنتظم في نسيجها الكثير من الأحداث التي تميزت بها حياة شعوب أفريقيا. وقد اقتصر الاهتمام عند كتابة تاريخ جزء كبير من أفريقيا على مصادر خارجة عن أفريقيا، فانتهى ذلك إلى رؤيا لا تكشف عن المسار المرجح لشعوب أفريقيا عبر تاريخها، بل تعبر عن رأي البعض في الطريق الذي لا بد وأن يكون هذا المسار قد سلكه. ونظرا لأن «العصر الوسيط» الأوروبي هو الذي كان يتخذ في الغالب منطلقا للدراسة ونقطة للاحالة، فان أساليب الانتاج والعلاقات الاجتماعية والنظم والمؤسسات السياسية في أفريقيا لم تكن تدرس الا من منطلق المقارنة مع ماضي أوروبا.

وقد كان ذلك في الواقع رفضا للاعتراف بأن الأفريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرخ أن يدركها الا اذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، والا اذا جدد منهجه.

كذلك يبدو أن القارة الأفريقية لم تعتبر قط كيانا تاريخيا له ذاتيته المتميزة. وانما انصب التأكيد

بصفة خاصة على كل ما من شأنه أن يعزز الرأي القائل بوجود انفصام منذ الأزل بين «أفريقيا بيضاء» و «أفريقيا سوداء» تجهل كل منهما الأخرى. وكثيرا ما صورت الصحراء الكبرى على أنها فضاء منيع يحول دون امتزاج الاثنيات والشعوب وتبادل السلع والمعتقدات والتقاليد والعادات والأفكار بين المجتمعات التي تقوم على الجوانب المختلفة من تلك الصحراء. وبذلك رسمت الدراسات حدودا مصطنعة صارمة بين حضارتي مصر القديمة والنوبة وبين حضارات الشعوب القاطنة جنوبي الصحراء.

حقيقة ان تاريخ أفريقيا شمالي الصحراء كان أكثر ارتباطا بتاريخ حوض البحر المتوسط من تاريخ أفريقيا جنوبي الصحراء، ولكن من المعترف به الآن على نطاق واسع أن حضارات القارة الأفريقية ــ عبر لغاتها وثقافاتها المتنوعة ــ تشكل بدرجات مختلفة الروافد التاريخية لمجموعة من الشعوب والمجتمعات التي تربط بينها روابط عريقة.

وهناك ظاهرة أخرى أضرت كثيرا بالدراسة الموضوعية للماضي الأفريقي. وأنا أعني هنا ما اقترنت به تجارة الرقيق والاستعمار من ظهور أفكار عنصرية جامدة عن الأجناس تولد عنها الازدراء وعدم الفهم، وكانت من شدة الرسوخ بحيث امتد تشويهها الى مفاهيم كتابة التاريخ ذاتها. فمنذ أن بدأ استخدام عبارات مشحونة بأفكار معينة، مثل «البيض» و «السود» لتمييز نوعين عامين من البشر هما المستعمرون منظورا اليهم كنوع ممتاز من ناحية وأهالي المستعمرات من ناحية أخرى، صار لزاما على الأفريقيين أن يقاوموا عبودية مزدوجة، اقتصادية وسيكولوجية. أما وقد صار الأفريقي موسوما بلون بشرته، وتحول الى سلعة بين السلع، وسخر للأعمال التي لا تتطلب الا القوة العضلية، فقد أصبح يمثل في أذهان قاهريه ماهية جنسية خيالية، هي ماهية الزنجي المنحطة التي توهموها. وأدى هذا التصنيف الزائف الى الهبوط بتاريخ الشعوب الأفريقية في عقول الكثيرين الى مستوى التاريخ الاثنى، الذي لا يمكن فيه تجنب التزييف في تقدير الوقائع التاريخية والثقافية.

وقد تطوّر الوضع كثيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الأفريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فتزايد حرص المؤرخين على دراسة أفريقيا بمزيد من الدقة والموضوعية والتفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الأفريقية ذاتها، وان لم يخل ذلك بطبيعة الحال من التحفظات التي رسخت بحكم العادة. أما الأفريقيون أنفسهم فقد بدأوا يشعرون اذ يمارسون حقهم في المبادرة التاريخية بحاجة عميقة الى أن يعيدوا الى مجتمعاتهم صفتها التاريخية على أسس راسخة.

ومن هنا كانت أهمية «التاريخ العام لأفريقيا»، الذي تبدأ اليونسكو اصداره في ثمانية مجلدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهموا في المؤلف أن يرسوا أولا أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات المخلة التي نتجت عن تصور خطي ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلما كان ذلك ضروريا وممكنا. وجدّوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الأفريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.

وفي هذه المهمة التي تتميز بالجسامة والتعقيد والعسر نظرا لتنوع المصادر وتشتت الوثائق، سارت اليونسكو على مراحل. فكانت المرحلة الأولى (١٩٦٥ ـ ١٩٦٩) هي مرحلة الأعمال الخاصة بتوثيق الكتاب وتخطيطه، حيث تم القيام بأنشطة ميدانية في الموقع: ما بين حملات لجمع التراث المنقول، وانشاء لمراكز التوثيق الاقليمية المخصصة لهذا التراث، وجمع للمخطوطات غير المنشورة بالعربية و «العجمية» (اللغات الأفريقية المكتوبة بالحروف العربية) وحصر للمحفوظات، واعداد لدليل لمصادر تاريخ أفريقيا بالاستناد الى محفوظات ومكتبات البلدان الأوربية، وهو الدليل الذي نشر في تسعة مجلدات. ومن ناحية أخرى، نظمت للأخصائيين لقاءات تولى فيها الأفريقيون وغيرهم من القارات الأخرى مناقشة القضايا المنهجية وحددوا الخطوط العريضة للمشروع بعد فحص دقيق للمصادر المتاحة.

ثم كانت مرحلة ثانية خصصت لوضع الكتاب في صورته وتقسيمه وتفصيله، وامتدت من ١٩٦٩ الى ١٩٧١. وفي هذه الفترة اضطلع اجتماعان دوليان لخبراء عقدا في باريس (١٩٦٩) وأديس أبابا (١٩٧٠) بدراسة وتحديد المشكلات التي تتعلق بصياغة الكتاب ونشره، وهي: ظهوره في ثمانية مجلدات، وطبعه طبعة رئيسية بالانجليزية والفرنسية والعربية، وكذلك ترجمته الى لغات أفريقية مثل السواحيلية والهاوسا والبيول واليوروبا واللينجالا. ومن المتوقع كذلك اعداد ترجمات الألمانية والروسية والبرتغالية والاسبانية والسويدية، فضلا عن اصدار طبعات مختصرة ميسرة للجمهور الأفريقي والدولي على نطاق أوسع.

وخصصت المرحلة الثالثة للصياغة والطبع. وقد بدأت بتشكيل لجنة علمية دولية من ٣٩ عضوا، ثلثاهم من الأفريقيين والثلث الآخر من غير الأفريقيين، عليها أن تنهض بالمسؤولية الفكرية عن الكتاب.

ولما كان المنهج المتبع يتسم بالجمع بين عدة تخصصات، فقد تميز بتعدد المناحي النظرية وتعدد المصادر. وينبغي أن يذكر في مقدمة ذلك علم الآثار، الذي يفتح كثيرا من المغاليق في تاريخ الثقافات والحضارات الأفريقية، والذي بفضله أصبح من المتفق عليه اليوم أن أفريقيا كانت على أرجح الاحتمالات مهد البشرية، وأنها شهدت احدى أوائل الثورات التكنولوجية في التاريخ وهي ثورة العصر الحجري الحديث، وأنها بفضل وجود مصر فيها كانت موطنا لازدهار حضارة من أكثر الحضارات القديمة تألقا في العالم. ثم ينبغي بعد ذلك ذكر التراث المنقول، فقد استهين به في الماضي، لكنه يبدو اليوم مصدرا ثمينا من مصادر تاريخ أفريقيا، يتيح تتبع مسيرة شعوبها المختلفة في المكان والزمان، ومن ثم تفهم الرؤيا الأفريقية للعالم من داخلها، وادراك السمات الأصيلة للقيم التي ترتكز عليها ثقافات القارة ومؤسساتها.

واننا لنشعر بالامتنان للجنة العلمية الدولية المسؤولة عن هذا التاريخ العام لأفريقيا ولمقررها وللمشرفين على مختلف المجلدات والفصول ولمؤلفيها لأنهم ألقوا ضوءا أصيلا على ماضي أفريقيا في مجموعه، وتجنبوا كل نزعة قطعية في دراسة المسائل الجوهرية، مثل تجارة الرقيق التي كانت «استنزافا لا ينقضي» نتجت عنه عملية من أقسى عمليات الترحيل في تاريخ الشعوب وأدى الى تفريغ القارة من جزء من قواها الحيوية، في حين أنه لعب دورا حاسما في الازدهار الاقتصادي

والتجاري لأوروبا ومثل الاستعمار بكل ما ترتب عليه من نتائج في نواحي الاقتصاد والسكان والنواحي النفسية والثقافية؛ ومثل دراسة العلاقات بين أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى والعالم العربي؛ وعملية ازالة الاستعمار والبناء الوطني التي مازالت تحرك العقول والعواطف في اناس لا يزالون أحياء ولا يزال بعضهم يمارس نشاطه كاملا. وقد عولجت جميع هذه المسائل بروح الحرص على التزام الأمانة والدقة، وهما ليسا أهون ما في هذا الكتاب من مزايا؛ اذ أن له كذلك مزية كبرى، هي أنه يطلعنا على آخر تطورات معارفنا عن أفريقيا و يعرض الثقافات الأفريقية من وجهات نظر شتى، و يقدم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.

ان هذا الكتاب الجديد اذ يبين قصور مناهج البحث التي ظلت تستخدم زمنا طويلا في دراسة أفريقيا، فإنه يدعو الى تجديد وتعميق تناولنا للإشكالية المزدوجة المتعلقة بكتابة التاريخ و بالذاتية الثقافية، وبما يجمع بينهما من روابط متبادلة. وهو مثل أي مؤلف تاريخي قيم يفتح الطريق لبحوث جديدة متعددة.

وقد حدا ذلك باللجنة العلمية الدولية بدورها الى أن تحرص ـــ بالتعاون الوثيق مع اليونسكو ـــ على اجراء دراسات تكميلية للتعمق في عدد من المسائل التي تتيح رؤية أكثر وضوحا لبعض الجوانب في ماضي أفريقيا. ومن شأن هذه البحوث التي تطبع في سلسلة «اليونسكو ـــ دراسات و وثائق ـــ التاريخ العام لأفريقيا» أن تكون تكملة مفيدة لهذا الكتاب. وسوف يتابع هذا الجهد كذلك عن طريق اعداد دراسات عن التاريخ الوطني أو شبه الاقليمي.

ان هذا التاريخ العام يلقي الضوء في نفس الوقت على وحدة تاريخ أفريقيا وعلى علاقاتها بالقارات الأخرى ـــ وخاصة الأمريكتين ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الابداعي لدى أحفاد الأفريقيين في الأمريكتين وتصنيفها تحت عبارة جامعة غريبة باسم الخصائص الأفريقية. أو «الأفريقيات». وغني عن الذكر أن مؤلفي الكتاب الذي نحن بصدده لا يعتنقون هذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيق الذين رحلوا الى أمريكا، وفي ظاهرة «التهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الأفريقيين دوما وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمريكي الأولى وفي حركات التحرير الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للانسانية. وانه لمن الواضح اليوم أن التراث الأفريقي قد أثر بدرجات متفاوتة في أساليب الشعور والتفكير والتخيل والعمل لدى عدد من البلاد في نصف الكرة الغربي، كل حسب موقعه. فمن جنوب الولايات المتحدة حتى شمال البرازيل مرورا بمنطقة الكاريبي، وعلى ساحل المحيط الهادي، تبدو الآثار الثقافية المنقولة عن أفريقيا واضحة في كل مكان. بل انها في بعض الحالات هي الأسس الجوهرية للذاتية الثقافية لدى عدد من أهم القطاعات بين السكان.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لأفريقيا من علاقات بجنوب آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدمته من مساهمات أفريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة.

واني لعلى اقتناع بأن ما تبذله شعوب أفريقيا من جهود لنيل استقلالها وتوطيده ولتأمين تطورها وترسيخ خصائصها الثقافية حريّ بأن يتأصل في وعي تاريخي مجدد يؤثر تأثيرا عميقا في حياة أصحابه و يتناقلونه جيلا بعد جيل.

وان ما تلقيته من تعليم، وما حصلته من خبرة كمعلم ورئيس، منذ بدايات الاستقلال ومنذ أول لجنة أنشئت لاصلاح برامج تعليم التاريخ والجغرافيا في بعض بلاد أفريقيا الغربية والوسطى، قد أتاح لي أن أقدر كم هو ضروري لتعليم النشء ولاعلام الجمهور أن يوجد كتاب للتاريخ أعده علماء يعرفون من الداخل مشكلات أفريقيا وآمالها، ويملكون القدرة على النظر الى القارة ككل.

ولجميع هذه الأسباب، ستعمل اليونسكو على أن ينشر هذا التاريخ العام لأفريقيا على نطاق واسع و بلغات عديدة، وعلى أن يكون أساسا لاعداد كتب للأطفال وكتب مدرسية و برامج اذاعية أو تلفزيونية، وبهذا يمكن للنشء والتلاميذ والطلاب والكبار في أفريقيا وفي غيرها أن يكونوا صورة أفضل عن ماضي القارة الأفريقية وعن العوامل التي تفسر هذا الماضي، وأن يتوصلوا الى فهم أصدق لتراثها الثقافي ولاسهامها في التقدم العام للانسانية. فهذا الكتاب جدير اذن بأن يشجع التعاون الدولي و يوطد تضامن الشعوب فيما تطمح اليه من عدالة وتقدم وسلام؛ أو هذا على الأقل هو ما أرجوه بكل اخلاص.

و يبقى لي أن أعرب عن امتناني العميق لأعضاء اللجنة العلمية الدولية ومقررها والمشرفين على مختلف المجلدات والى المؤلفين وجميع الذين ساهموا في تحقيق هذا المشروع الضخم. فان ما قاموا به من عمل وما قدموه من مساهمة هو خير دليل على ما يمكن أن ينجزه في الاطار الدولي الذي تتيحه اليونسكو رجال جاءوا من آفاق متباينة تحفزهم نية صادقة واحدة وعزيمة واحدة الى خدمة الحقيقة الخالصة، فتمكنوا من إنهاء مشروع تكاد أهميته العلمية والثقافية أن تكون بلا حدود. كما أقدم شكري كذلك الى المنظمات والحكومات التي مكنت اليونسكو بفضل هباتها السخية من أن تصدر هذا الكتاب بلغات مختلفة وأن تكفل له ما يستحقه من انتشار عالمي النطاق في خدمة المجتمع الدولي بأكمله.

عرض المشروع

بقلم الأستاذ بثويل أ. أوجوت
رئيس اللجنة العلمية الدولية
لتحرير تاريخ أفريقيا العام

طلب المؤتمر العام لليونسكو، في دورته السادسة عشرة، من المدير العام الشروع في تحرير تاريخ عام لإفريقيا. وقد عهد بهذا العمل الضخم الى لجنة علمية دولية أنشأها المجلس التنفيذي في ١٩٧٠.

ووفقا للنظام الأساسي للجنة، الذي اعتمده المجلس التنفيذي لليونسكو في ١٩٧١، تتكون هذه اللجنة من ٣٩ عضوا (الثلثان من الأفريقيين والثلث الباقي من غير الأفريقيين) يشتركون في اجتماعاتها بصفتهم الشخصية و يعينهم المدير العام لليونسكو لمدة صلاحية اللجنة.

وكانت المهمة الأولى للجنة تحديد الخصائص الرئيسية للمصنف. وقد حددتها في دورتها الثانية على النحو التالي:

- ان هذا التاريخ، ولئن كان يستهدف بلوغ أرفع مستوى علمي ممكن، لا يتوخى شمول كل شيء وانما هو مصنف يجمع بين عناصر شتى دون تعصب لرأي معين. وسيتكون في أحيان كثيرة من عرض للمشكلات مع توضيح للوضع الراهن للمعارف والتيارات الكبرى للبحث، ولا يتقاعس عن التنويه عند الاقتضاء، بتباين المذاهب والآراء. وهو بذلك يمهد السبيل لوضع مؤلفات لاحقة.
- تعتبر أفريقيا كلا واحدا. والغرض هو اظهار العلاقات التاريخية بين مختلف أجزاء القارة، التي غالبا ما كانت تخضع لتقسيمات فرعية كثيرة في المؤلفات التي ظهرت حتى الآن. وتحظى صلات أفريقيا التاريخية مع القارات الأخرى بالعناية التي تستحقها، وتحلل تلك الصلات من زاوية المبادلات والمؤثرات متعددة الأطراف على نحو يبرز بصورة ملائمة اسهام أفريقيا في تطور البشرية.

● تاريخ أفريقيا العام، هوقبل كل شيء، تاريخ أفكار وحضارات ومجتمعات ومؤسسات. وهويقوم أساسا على مصادر متعددة بالغة التنوع يدخل فيها التراث المنقول والتعبير الفني.

● ينظر الى هذا التاريخ أساسا من الداخل. ففضلا عن كونه مصنّفا علميا، فهو أيضا. الى حد بعيد انعكاس أمين لكيفية رؤية المؤلفين الأفريقيين لحضارتهم. وعلى الرغم من اعداد هذا التاريخ في نطاق دولي واستعانته بجميع البيانات العلمية المتوفرة حاليا، فانه سيمثل أيضا أحد العناصر الأساسية في التعرف على التراث الثقافي الأفريقي وسيبرز العوامل التي تسهم في وحدة هذه القارة. و يشكل هذا الاتجاه نحو رؤية الأشياء من الداخل الجانب الجديد في هذا المصنّف، ويمكنه أن يضفي عليه فضلا عن مزاياه العلمية، قيمة كبيرة بالنسبة للأحداث الراهنة. واذ يظهر هذا التاريخ الوجه الحقيقي لأفريقيا، في عصر تهيمن عليه ضروب المنافسة الاقتصادية والتقنية، فانه يمكن أن يطرح للبحث تصورا خاصا للقيم الانسانية.

وقررت اللجنة أن يصدر هذا المصنف، الذي يتناول ما يربو على ثلاثة ملايين سنة من تاريخ أفريقيا، في ثمانية مجلدات يقع كل منها في حوالي ٨٠٠ صفحة من النصوص، و يتضمن عددا من اللوحات والصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم الخطية.

و يعين مشرف رئيسي لكل مجلد يساعده، عند الاقتضاء واحد أو اثنان من المشرفين المعاونين.

وتنتخب اللجنة المشرفين على المجلدات من بين أعضائها أو من غير أعضائها بأغلبية الثلثين. و يناط بالمشرفين اعداد المجلدات وفقا للقرارات التي تتخذها اللجنة والخطط التي تضعها. و يكون المشرفون مسؤولين من الناحية العلمية أمام اللجنة أو أمام مكتبها بين دورات انعقادها، عن مضمون المجلدات وعن الصياغة النهائية للنصوص وعن الصور، و بوجه عام عن جميع الجوانب العلمية والفنيه للتاريخ. و يكون المكتب هو المرجع الأخير في اقرار المخطوط النهائي. و يقوم بتسليمه للمدير العام لليونسكو عندما يرى أنه أصبح معدا للنشر. وتظل السلطة اذن منوطة باللجنة، أو بالمكتب بين دورات انعقاد اللجنة.

ويحتوي كل مجلد على قرابة ثلاثين فصلا. ويحرر كل فصل مؤلف رئيسي يساعده عند الاقتضاء معاون أو اثنان.

وتختار اللجنة المؤلفين بعد الاطلاع على بيانات المؤهلات والخبرة الخاصة بهم، و يفضل المؤلفون الأفريقيون بشرط أن يكونوا حائزين على المؤهلات المطلوبة. وتحرص اللجنة بوجه خاص على أن يراعى قدر المستطاع في اختيار المؤلفين أن تكون جميع مناطق القارة وكذلك جميع المناطق التي كانت لها علاقات تاريخية أو ثقافية مع أفريقيا ممثلة تمثيلا عادلا.

و بعد أن يعتمد المشرف على المجلد نصوص مختلف الفصول ترسل الى جميع أعضاء اللجنة لكي يقدموا تعليقاتهم عليها..

وفضلا عن ذلك، يعرض النص المرسل من المشرف على المجلد على لجنة قراءة لدراسته، وتعين هذه اللجنة من بين أعضاء اللجنة العلمية الدولية، تبعا لاختصاصات الأعضاء، وتكلف هذه اللجنة باجراء تحليل متعمق لمضمون الفصول وشكلها.

و يتولى المكتب إقرار المخطوط بصورة نهائية.

وقد تبين أن هذه الاجراءات التي قد تبدو طويلة ومعقدة هي اجراءات لازمة لأنها تضمن أكبر قدر من الدقة العلمية للتاريخ العام لأفريقيا. فقد حدث فعلا أن رفض المكتب بعض المخطوطات أو طلب إجراء تعديلات هامة لها بل وعهد باعادة تحرير الفصل الى مؤلف آخر. وأحيانا يستشار اخصائيون في فترة معينة من فترات التاريخ أو في مسألة معينة من أجل وضع المجلد في صيغته النهائية.

و يصدر المؤلف بادىء الأمر في طبعته رئسية بالانجليزية والفرنسية والعربية وفى طبعة عادية بنفس اللغات.

وتصدر نسخة مختصرة من المؤلف بالانجليزية والفرنسية تتخذ أساسا للترجمة الى اللغات الأفريقية. وقد اختارت اللجنة العلمية الدولية اللغة السواحلية ولغة الهوسا كأول لغتين أفريقيتين يترجم اليها المؤلف.

ومن المزمع أيضا العمل، بقدر المستطاع، على أن ينشر تاريخ أفريقيا العام في عدة لغات واسعة الانتشار على الصعيد الدولى (ومنها الأسبانية والألمانية والايطالية والبرتغالية والروسية والصينية واليابانية، الخ...)

فالأمر يتعلق اذن، كما نرى، بمشروع ضخم يشكل مخاطرة كبرى بالنسبة لمؤرخي أفريقيا والأوساط العلمية بوجه عام وكذلك بالنسبة لليونسكو التي تشمله برعايتها. ذلك أنه ليس من المتعذر ان نتصور مدى تعقيد مهمة مثل تحرير مصنف عن تاريخ أفريقيا يغطي في المكان قارة بأكملها وفي الزمان الأربعة ملايين عام الأخيرة و يلتزم بأرفع المعايير العلمية و يستعين كما ينبغي، بأخصائيين ينتمون الى شتى البلاد والثقافات والمذاهب الفكرية والتقاليد التاريخية. انه لمشروع قاري ودولي وجامع لفروع العلم على اوسع نطاق.

واود في النهاية أن أنوه بأهمية هذا المصنف بالنسبة لأفريقيا والعالم أجمع. ففي الوقت الذي تكافح فيه شعوب أفريقيا من أجل اتحادها وتعمل سويا من أجل صنع مصائرها، يمكن للمعرفة الصحيحة بماضي أفريقيا وللوعي بالروابط التي توحّد ما بين الافريقيين من ناحية، و بين أفريقيا وسائر القارات من ناحية أخرى، أن تيسر الى حد بعيد التفاهم بين شعوب الأرض بل وأن تنشر على الأخص المعرفة بتراث ثقافي هو ملك للبشرية جمعاء.

بثويل . أ. أوجوت
٨ أغسطس/آب ١٩٧٩
رئيس اللجنة العلمية الدولية
لتحرير تاريخ أفريقيا العام

التاريخ

لقد تقرر تدوين التواريخ الخاصة بعصر ما قبل التاريخ على النحو التالي:

ــ إمّا بالاشارة الى الحاضر باعتبار سنة الأساس + 1950 وتكون جميع التواريخ لليبية بالنسبة الى + 1950.

ــ أو بالاشارة الى بداية التاريخ الميلادي وتوضع علامة + أو ــ أمام التواريخ المحددة بالنسبة للتاريخ الميلادي.

أمثلة:
(1) 2300 قبل الحاضر = ــ 350
(2) 2900 قبل الميلاد = ــ 2900
1800 ميلادية = + 1800
(3) القرن الخامس قبل الميلاد = القرن الخامس قبل العصر الحالي
القرن الثالث ميلادي = القرن الثالث من العصر الحالي

المنهجية، وعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا

بقلم ج. كي زيربو

مقدمة عامة

لافريقيا * تاريخها، فلقد انقضى الزمن الذي كانت فيه أجزاء كاملة من خرائط الكرة الأرضية أو من أدلة السواحل، تمثل هذه القارة، على أنها هامشية مستعبدة، وكانت معرفة العلماء تتلخص بهذه الصيغة الاستطرادية التي تنم عن غياب افريقيا: «هنا توجد أسود». و بعد الأسود، اكتشفت المناجم ذات المردود الكبير، وبهذه المناسبة نفسها اكتشفت «القبائل الوطنية» التي كانت تملك هذه المناجم، الا أنها ألحقت في حساب الأمم المستعمرة بالمناجم. و بعد «القبائل الوطنية» بدت شعوب نفذ صبرها من النير، فشرع نبضها يدق على ايقاع محموم لنضالات التحرير.

* ملاحظة للمشرف على المجلد: يصعب حتى الآن توضيح أصل كلمة أفريقيا. وقد فرضت هذه الكلمة نفسها منذ عهد الرومان في شكل «أفريقيا» الذي أعقب اللفظ اليوناني أو المصري الأصل «ليبيا» بلد الليبو أو اللوبيين المذكورين في سفر التكوين. و بعد أن كانت كلمة «أفريقا» تدل على شاطئ شمال أفريقيا أصبحت تنطبق منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد على القارة في جملتها.

ولكن ما هو الأصل الأول لهذا الاسم؟

ـــ يمكننا أن ندلي بالتفسيرات التالية: بدءاً بأيسرها قابلية للتصديق:

ـــ قد يكون أصل كلمة أفريقيا اسم شعب من البربر كان يعيش جنوبي قرطاج وهو: «الأفريج». ومن ثم «أفريجا» أو «أفريقا» للدلالة على بلاد الأفريج.

ـــ وثمة أصل لغوي آخر لكلمة افريقيا مصدره لفظان فينيقيان يعني أحدهما سنبلة، وهي رمزا لخصوبة هذه المنطقة، والآخر «فاريكيا» و يعني بلاد الفاكهة.

ـــ وقد تكون كلمة أفريقا مشتقة من الكلمة اللاتينية «أبريكا» (مشمش) أو من الكلمة اليونانية «أبريكي» (خال من البرد).

ـــ وقد يكون أحد الأصول الأخرى المصدر الفنيقي «فرق» الذي يعبر عن فكرة الافتراق أي التشتت. ومن الجدير بالذكر أن هذا المصدر ذاته يوجد في عدد من اللغات الأفريقية (البمبارا).

ـــ وفي اللغتين السنسكريتية والهندية يدل المصدر «أبارا» أو «أفريقا» على ما يقع، جغرافيا، «بعد» أي الغرب. فأفريقيا هي القارة الغربية.

ـــ وعن رواية تاريخية نقلها ليون الأفريقي أن قائدا يمنيا يدعى «أفريقوس» غزا شمال أفريقيا في القرن العشرين قبل الميلاد وشيد مدينة تسمى «أفريقيه». ولكن الأرجح هو أن المصطلح العربي أفريقيا هو المرادف بالحروف العربية لكلمة أفريقا.

ـــ وذهب بعضهم الى حد القول بأن «آفر» كان من أحفاد ابراهيم ومن رفاق هرقل!

ان تاريخ افريقيا كتاريخ البشرية جمعاء هو تاريخ انبعاث الوعي، ومن الواجب أن تعاد كتابة تاريخ افريقيا، اذ هو حتى الآن كثيرا ما كان مقّنعا، وممّوها، ومشوّها ومبتورا، بالضرورة أي بسبب الجهل أو المصلحة الخاصة.

وهذه القارة التي أنهكتها قرون من الضيم، قد شهدت أجيالا من المسافرين ومن النخاسين، ومن الرواد المستكشفين ومن المبشرين الدينيين، ومن الحكام الطغاة، ومن العلماء من كل الفئات، يمثلون صورتها في شناعة البؤس والوحشية واللامسؤولية والهمجية. وأسقطت هذه الصورة، وتكاملت الى ما لا نهاية له مع مر الزمن مبررة بذلك واقع الحال والمستقبل.

وليس ما يهمنا هنا أن نشيّد تاريخا مقابلا يرمي مصنفي التاريخ الاستعماري بقذيفة معاكسة، بل أن نغيّر المنظور، وأن نحيي الصور المنسية «أو الضائعة». ومن الواجب أن نعود الى العلم كي نبعث في هؤلاء وأولئك وجدانا صادقا، ومن الواجب اعادة بناء المخطط الحقيقي، فلقد آن الآوان أن نغير محور الكلام.

ولئن كانت هذه هي أغراض هذا المشروع وأسبابه، فالكيفية، أعني المنهجية، تبقى كالعادة أشد عسرا. وهذا فعلا أحد أغراض هذا المجلد الأول من تاريخ افريقيا العام والمحرر باشراف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).

الأسباب

يتعلق الأمر بمشروع علمي. و يتمثل الظلال والظلام الذي اكتنف ماضي هذه القارة تحديا مثيرا لحب الاطلاع البشري. ولا يعلم من تاريخ افريقيا الا القليل، فكم من أجيال عرجاء وكم من تواريخ مفقودة وكم من بنيات تبدو منقطة شأن الاشكال الانطباعية، أو هي عاتمة وراء ضباب كثيف. وكم من شفافات فلمية تبدو لغوا اذا ألغي ما سبقها من أجزاء الشريط!. وهذا الشريط المفكك الجزئي، وهو صورة عن جهلنا، قد جعلنا منه بشكل مثير للأسف أو الغضب، تحريفا للصورة الواقعية لتاريخ افريقيا كما جرى بالفعل. فهل يبقى من المستغرب اذن أن يخصص للتاريخ الافريقي مكان ملحق بين جميع تواريخ البشرية أو الحضارات.

على أنه منذ بضع عشرة سنة عمل آلاف من الباحثين، وللكثير منهم فضل كبير بل استثنائي في إزاحة الغبار عن جوانب كاملة من وجه افريقيا القديم، وتظهر كل سنة عشرات من المطبوعات الجديدة ذات النظرة الايجابية أكثر فأكثر، وثمة اكتشافات افريقية، مذهلة أحيانا، تعيد النظر في مدلول بعض الأطوار في مجمل تاريخ البشرية.

ولكن وفرة المصادر هذه ليست في مأمن من المخاطر، كخطر البلبلة الناشئة عن كثرة البحوث غير المنسقة وغير المرتبة، والجدال الأجوف بين مدارس تفضل الباحثين بالنسبة الى موضوع البحث الخ...

لذا كان من المهم احتراما لكرامة العلم أن يتم جلاء الحقيقة بصورة منزهة تعلو على الشبهات وبرعاية منظمة اليونسكو، ومن قبل جماعات من العلماء الافريقيين وغير الافريقيين، وتحت اشراف لجنة علمية دولية ومديرين أفارقة.

وهذه تجربة لا تقدر للتعاون الدولي نظرا لوفرة وكفاءة الباحثين الذين جندوا لهذا الكشف الجديد العظيم لافريقيا.

ولعل التاريخ هوعلم بشري أكثر من أي اختصاص آخر، اذ هو يخرج بكامل الحرارة من مصهر الشعوب المدوّي الصاخب، يصنع الانسان التاريخ حقا في معامل الحياة، هو يبنيه عقليا في المختبرات والمكتبات وحقول التنقيب الأثري، والتاريخ عدا ذلك قد جُعل للانسان وللشعب لكي ينير وجدانه و يثيره.

وليس تاريخ أفريقيا عند الافريقيين،مرآة نرجسية لعشق النفس،ولا هو ذريعة دقيقة لتبديد أعباء اليوم، فهذا الاتجاه المهووس قد يعوق ما للمشروع من أغراض علمية. و بالعكس أليس جهل الانسان لماضيه أي لجزء كبير من ذاته، استلابا للشخصية؟ إن الآلام التي تصيب افريقيا في يومنا هذا، وكذلك الفرص التي تتراءى فيها، هي حاصلة قوى لا تحصى قذف بها التاريخ. وكما أن تشخيص تطور مرض ما هو المرحلة الأولى من مشروع منطقي لتحديد المرض ولمعالجته، كذلك فان العمل الأول للتحليل الشامل للقارة الافريقية، هو العمل التأريخي.

واذا نحن لم نختر اللاشعور او الاستلاب فانه لن يكون بوسعنا آن نعيش بدون ذاكرة أو بذاكرة الغير.

والتاريخ ذاكرة الشعوب، وعودة الانسان الى نفسه قد تؤدي الى تطهير النفس وتحريرها، كما يتم عند الغوص في الذات بواسطة التحليل النفسي، فتظهر أسباب كبت شخصيتنا، وتحل في الآن نفسه العقد التي تقيد وعينا في الجذور القاتمة مما تحت الشعور.

ولكن لكيلا يستبدل وهم بآخر، ينبغي آن تكون الحقيقة التاريخية قالب الضمير الحر والأصيل، وأن تكون ممتحنة بشدة ومستندة الى حجج.

الكيفية

و ينتج عن ذلك مسألة عويصة، هي مسألة الكيفية، أي مشكلة المنهجية، وفي هذا المجال كما في غيره ينبغي الحذر معا من تمييز افريقيا تمييزا متطرفا أو ربطها ربطا وثيقا بالنظم الأجنبية. فيزعم بعضهم أنه من الواجب أن نسعى للعثور على وثائق تشابه تلك الموجودة في أوربا، وأن نحصل على عين المجموعة من الحجج المكتوبة أو المخطوطة، كي نتحدث عن تاريخ حقيقي لافريقيا، وعندهم اذن أن مشاكل المؤرخ هي هي في كل مكان سواء في خط الاستواء أو في القطب. ويجب أن نؤكد هنا مرة أخرى و بكل وضوح، أنه ليس القصد أن نخمد العقل اذا لم يكن لدينا ما نمده به. فلم يكن العقل ليعتبر استوائيا بتعلة أنه قام بعمله في خط الاستواء، وللعقل سيادة مطلقة فهو لا يعترف بسلطان الجغرافيا، ان نظمه ومساعيه الأساسية ولا سيما تطبيق مبدأ العلّية، كل ذلك يبقى كما هو، أنى كان. وليس العقل أعمى، لذلك كان عليه أن يميّز ما اختلف في الواقع، كي يكون لتمكنه منه دائما، عين الدقة والصواب.

فمبادئ النقد الداخلي والخارجي تطبق بمنهج ذهني مختلف عن منهجنا ازاء النشيد الحماسي

«سند جاتا فاسا» (١) وكذلك الأمر بالنسبة الى أوامر «دي فليس» أو المناشير الموجهة الى عمال نابليون. أي أن الأساليب والطرق المادية تبقى مختلفة، على أن هذا المنهج لا يستمر صالحا بعينه في كل أجزاء افريقيا، وتقويم تاريخ وادي النيل وواجهة البحر الأبيض المتوسط، يبقى أقل طرافة، بالنسبة الى أوربا، من افريقيا الواقعة جنوب الصحراء.

وفي الحقيقة أن الصعوبات النوعية في تأريخ افريقيا تتوضح أولا في ملاحظة حقائق الجغرافيا الطبيعية لهذه القارة. ان افريقيا قارة منعزلة ان صح التعبير، فهي تدير ظهرها لبقية العالم القديم الذي لا تربط به الا بحبل سرى هزيل هو مضيق السويس، و بالعكس هي تغمس، بدون تحفظ، كتلتها المتراصة في مياه الجنوب وعلى جنبيها مرتفعات ساحلية تقتحمها الأنهار عن طريق مضائق صماء، تشكل هي ذاتها عراقيل في وجه التدخل الغريب في البلاد. والممر الوحيد المهم الذي يقع بين الصحراء وجبال الحبشة تعترضه مروج بحر الغزال الفسيحة. وتهب الرياح والتيارات البحرية العنيفة ممتدة من الرأس الأبيض الى الرأس الأخضر، بينما في قلب القارة ثلاث صحار تتحمل العزلة الخارجية بممارسة التقسيم الداخلي.

ففي الجنوب صحراء كالاهاري، وفي الوسط الصحراء الخضراء المكونة من الغابة الاستوائية، ذلك الملجأ الرهيب الذي ينبغي على الانسان ان يصارع كي يفرض سيطرته عليه، وفي الشمال الصحراء، رأس الفيافي، تلك المصفاة الاقليمية العظيمة، وذلك المحيط الاشقر من الكثبان ومن مساحات الأرض الرخوة، وهو بما يحيطه من جبال الأطلس، يفصل مصير منطقة البحر الأبيض المتوسط عن مصير باقي القارة.

واذا لم تكن هذه القوى البيئية جدارا عازلا ولا سيا طيلة ما قبل التاريخ، فانها أثرت تأثيرا قويا في المصير الافريقي في جميع الميادين، وانها منحت الشرفات الطبيعية قيمة فريدة، فلعبت دور الجسور في استكشاف المجال الافريقي، ذلك الاستكشاف الذي قامت به الشعوب منذ آلاف الآلاف من السنين، ولنكتف بذكر الانهدام الطولاني العملاق بوادي (الرفت) الممتد من حجر افريقيا بالذات الى العراق عبر الرصيف الحبشي، وفي اتجاه العرض فان الأودية في صنعاء والاوبنغي والزايير قد مثلت أيضا ممرا ممتازا. وليس من قبيل المصادفة أيضا أن قامت أولى الممالك في افريقيا السوداء، في هذه الجهات من البلاد المفتوحة، هذه السواحل (٢) التي استفادت في الوقت نفسه من قابلية النفوذ الى الداخل ومن بعض الانفتاح على الخارج، ومن الاتصالات مع المناطق الافريقية المجاورة ذات الموارد المختلفة المتكاملة.

وهذه المناطق المفتوحة وذات النظام التطوري السريع هي برهان «خلف» على أن العزلة كانت أحد العوامل الأساسية في سير افريقيا على مسارب بعض التقدم (٣).

---

(١) «مدح سندجاتا» بلغة ملنكي. سندجاتا هو منشئ امبراطورية مالي في القرن الثالث عشر وكان بطلا من الأبطال الأكثر شعبية في التاريخ الافريقي.

(٢) الكلمة مأخوذة عن العربية ـــ وتعني الساحل كما هو واضح ولكن تعني هنا سواحل الصحراء المعتبرة بمثابة محيط من الرمال.

(٣) ليس من الممكن اهمال العامل المناخي، ولقد أكد الاستاذ ثورتن شاو أن بعض الحبوب التي تتأقلم مع المناخ المتوسطي (أمطار الشتاء)، لا تستطيع أن تتأقلم مع وادي النيجر، وذلك لأنه في جنوب البحرة الموازية للارتفاع في الشمال، ولسبب سد الجبهة ما وراء الاستوائية، فإن التأقلم يصبح مستحيلا، انظر، ج. أ. هـ. ١٢ ـــ ١ ـــ ١٩٧١ ص ١٤٣ ـــ ٤٥٤.

يقول ف. برودل: «ان الحضارات تعتمد على الأرض و يضيف «ان الحضارة وليدة العدد». وعلى هذا فان اتساع رقعة هذه القارة مع سكانها المنتشر ين المتنقلين بسهولة في طبيعة كريمة (ثمار، معادن، الخ..) وقاسية (الأمراض المستوطنة والأو بئة) (٤) قد منعت من ادراك الحد الأدنى من التجمع البشري الذي كاد أن يكون دائما من الشروط الأولية للتحولات الكيفية الجسيمة في الحقل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، أضف الى ذلك أن ما قامت به النخاسة من ابتزازات بشر ية قاسية منذ عصور عر يقة في القدم، ولا سيما منذ تجارة العبيد في القرن الخامس عشر الى القرن العشر ين، قد كان من شأنه أن يحرم افر يقيا من الحيو ية البشر ية، ومن الاستقرار اللازمين لعملية ابداع معتبر، حتى في المستوى التكنولوجي، فلم تكن الطبيعة ولا الناس، ولا الجغرافية ولا التار يخ رافقة بأفر يقيا.

ولابد من العودة الى هذه الظروف الاساسية للحركة التطور ية كي نضع المشاكل في حدود موضوعية وليس في شكل أوهام مذهلة مثل الانحطاط العرقي والقبلية الوراثية والقصور الذاتي التاريخي الذي وصم به الأفارقة. وهذه الآراء الذاتية اللامنطقية ليس من شأنها في أحسن الأحوال، الا أن تسبب جهلا اراديا.

المصادر الصعبة

لابد أن نعترف فيما يخص هذه القارة، أن الحصول على المصادر مهمة صعبة: فركائز المعرفة التاريخية تتمثل في ثلاثة مصادر رئيسية: الوثائق المكتوبة وعلم الآثار والتواتر الشفاهي. و يدعم هذه المصادر الثلاثة علم اللغات وعلم الأجناس البشر ية، اللذان يمكنان من تمييز وتعميق تأو يل المعطيات، تلك المعطيات التي قد تكون أحيانا خاما أو شديدة العقم إن لم تمارس هذه الممارسة الأشد تعمقا. على أنه قد يكون من الخطأ أن ترتب هذه المصادر المختلفة مسبقا ترتيبا تسلسليا قطعيا.

المصادر المكتوبة

ان لم تكن المصادر المكتوبة قليلة جدا فهي على الأقل موزعة توز يعا فاسدا في الزمان والمكان. و«أحلك» العصور في التار يخ الافر يقي هي التي لا تتمتع بانارة واضحة مدققة نابعة من شواهد كتابية، كالقرون السابقة للميلاد واللاحقة له، بينما كانت افر يقيا الشمالية في هذا الوقت متقدمة.

ولكن حتى ولو وجد هذا الشاهد، فان تفسيره كثيرا ما تكتنفه الالتباسات والصعو بات. فانطلاقا من قراءة جديدة لرحلة ابن بطوطة مثلا و بعد إعادة قراءة الأسماء المختلفة للمواقع التي استعملها هذا الرحالة كما استعملها العمري، نرى ان بعض المؤرخين آل بهم الأمر الى مناقشة كون نياني ــ سور ــ سنكراني هي عاصمة المالي القديم (٥).

وعلى المستوى الكمي، فان أكداس عظيمة من المواد الكتابية ذات الطابع الوثائقي أو القصصي لم يتم بعد استغلالها، كما تدل على ذلك الفهارس الحديثة الجزئية الخاصة بالمخطوطات التي لم تنشر

(٤) انظر في هذا الموضوع ــ جون فورد ــ اكسفورد ــ ١٩٧١.

(٥) انظرج. أ. هنو يك ١٩٧٣ ص ١٩٥ ــ ٢٠٨. يخاطر المؤلف بحجة السكوت: «لو عبر ابن بطوطة النيجر أو نهر السنغال لذكره».

والمتعلقة بتاريخ افريقيا السوداء، هذه الفهارس التي يتم اجلاء الغبار عنها في خزانات المغرب (٦) والجزائر وأوربا، وكذلك في خزانات الأعيان والعلماء السودانيين عبر مدن منعطف النيجر (٧)، واستنادا على عناوينها، يمكن الوقوف على مصادر جديدة تعد بالكثير. وقد أنشأت منظمة اليونسكو بطنبكتو مركز أحمد بابا للبحث عن أمثال هذه الوثائق. وفي مستودعات الوثائق بايران والعراق وأرمينيا والهند والصين علاوة على أمريكا، نبذ عديدة من تاريخ هذه القارة، تنتظر من الباحث الفكر الثاقب الخلاق، وفي دار الوثائق بالوزارة الأولى باسطنبول، حيث رتبت دفاتر أوامر الديوان السلطاني العثماني، توجد رسائل لم تنشر مؤرخة في ماي (أيار) ١٥٧٧ مرسلة من السلطان مراد الثالث الى ماي ادريس علاوة، والى باي تونس، تلقي ضوءا جديدا جدا على ديبلوماسية (الكارم برنو) في ذلك العهد وعلى الحالة في الفزان (٨).

واستطاعت معاهد الدراسات الافريقية ومراكز البحوث التاريخية في البلدان الافريقية التي دخلتها الثقافة الاسلامية، القيام بعمل حثيث لجمع الوثائق، ومن جهة أخرى قد نشرت أدلة جديدة كالتي قام بنشرها المجلس الدولي للوثائق تحت اشراف منظمة اليونسكو، الغرض منها توجيه الباحثين الى الوثائق المكدسة والمودعة في كل أطراف العالم الغربي.

ويبقى المجهود المتمكن في مجال النشر العلمي واعادة النشر وفي الترجمة والتوزيع، مع هذه التحولات المتزايدة الحديثة، قادرا على اجتياز نقطة جديدة حرجة في كيفية رؤية الماضي الافريقي. وكذلك سيكون للعدد المتراكم من الوثائق أهميته في تحديد الرؤية الجديدة التي ستعتمد على هذه الوثائق. واننا لندعو بشدة الى اعادة قراءة العديد من النصوص التي تم استغلالها في القرن التاسع عشر في عهد الاستعمار، والى تطهيرها من كل حكم مسبق مضى عهده واضفاء طابع المسيرة الداخلية عليها. ونذكر مثلا أنه لا ينبغي التهاون بالمصادر المكتوبة بالكتابة الصحراوية الجنوبية، (فاي، باموم، عجمي).

علم الآثار

كثيرا ما تكون الشواهد الصامتة التي أظهرها علم الآثار أفصح من الشهود الرسميين المتمثلين في بعض مصنفي التواريخ، وعلم الآثار قد أحرز كثيرا من الجدارة من قبل التاريخ الافريقي من جراء مكتشفاته الرائعة ولا سيا (ما يرجع الى عدة آلاف من آلاف السنين من ماضي افريقيا) حيث لم يتوفر وجود أخبار شفاهية أو كتابية. فالأشياء الشواهد وحدها، المدفونة مع من تشهد لهم، تحفظ من وراء الكفن الثقيل الذي غلفت به أموات الأرض، ماضيا لا وجه له ولا صوت، وبعض هذه الأشياء الشواهد تدل دلالة متميزة على معالم ومعايير الحضارة، مثل أدوات الحديد وصناعتها والخزفيات وطرق إنتاجها ونماذجها ومصنوعات البلور والكتابات والأقلام التي ضبطتها، وتقنيات البحارة والصيد البحري، والنسج والمنتوجات الغذائية، وكذلك بنيات شكل الأرض وهياكل الري والأوضاع النباتية التابعة لتطور الإقليم.. وفي لغة اللقى الاثرية، بطبيعتها، شيء من الموضوعية التي لا

(٦) انظر يونسكو: مجموعة مختارة من نصوص عربية مستمدة من وثائق مغربية بقلم الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني. س ش: ن س: ٢٩٤.

(٧) انظر دراسات مالية. أ. س. هـ. م. عدد ٣ سبتمبر ١٩٧٢

(٨) ب. ج مرتان ١٩٦٩ ص ١٥ — ٢٧.

ترد، فدراسة نماذج الخزفيات مثلا ومصنوعات العظم والمعدن في الصحراء النيجرية التشادية، تقيم الدليل على الارتباط بين شعوب قبل الاسلام (ساو) في حوض التشاد، وبين المجالات الثقافية الممتدة حتى النيل والصحراء الليبية. ان تماثيل صغيرة من صلصال مشوي، ذات حمائل متقاطعة، وزينات بدنية على التماثيل تحمل أشكال الأوعية والأساور والرماح والعظام ورؤوس السهام أو شوكاتها وسكاكين الرماية، كل ذلك يحيي ما بينها من قرابة الأواصر الحية في الزمن الماضي من وراء المنظور المعاصر، وقد أناخ عليها الجمود والعزلة بكلكلها (٩). ان تحديد المواطن الاثرية الافريقية وتصنيفها وحمايتها تفرض نفسها كأولوية متأكدة جدا قبل أن ينهبها المفسدون أو الجهال غير المسؤولين، والسياح المجردون من نية العلم فيبددونها ويجردونها من كل قيمة تاريخية جدية. ولكن استغلال هذه المواقع الاثرية بواسطة مشاريع ذات أولوية للتنقيب على مستوى فسيح، لن ينمو الا في اطار برامج مشتركة افريقية يعاضدها تعاون دولي قوي.

النقل الشفاهي

الى جانب المصدرين الأولين للتاريخ الافريقي، أي الوثائق المكتوبة وعلم الآثار يبدو النقل الشفاهي، الحافظ والحامل لرأس مال الايداعات الاجتماعية الثقافية الذي جمعته الشعوب التي لم تستخدم الكتابة بعد: فهو حقا متحف حي. والخبر التاريخي هو مجرد خيط عنكبوتي له من الهشاشة ما لا يمكنه من اجتياز السراديب المظلمة في متاهات الزمان، يحمله القدامى ممن ابيضت رؤوسهم وتقطع صوتهم واغبرت احيانا ذاكرتهم، ممن لا تسامح لديهم في آداب السلوك (للشيخوخة الاستحقاق): فهم أجداد بالقوة.. وهم بمثابة جزيرات أخيرة متبقية من منظر كان قديما قائما، يدعمه في عناصره جمعاء نظام دقيق، انجرف اليوم وتطرق وصرعته أمواج «المعاصرة» الحادة. وأصبح من المتحجرات المؤجلة.

وكلما اختفى أحدهم، تقطع سلك من الخيط وهو جزء من المنظر الذي يصير تحت الارض. ذلك أن النقل الشفاهي هو المصدر التاريخي الأكثر الفة وهو أعذب المصادر، وما يغذيه، أكثر من غيره، رواء الصدق. يقول مثل افريقي «فم الشيخ أبخر لكنه يتفوه بالأمور الطيبة المنجية»، والكتابة مهما كانت مفيدة تتجمد وتتيبس، وهي تضفي وتشرح وتختزل وتتحجر. والحرف يقتل. الخبر يكسو هيكل الماضي لحما وألوانا ويرويه دما ــ وهو يعرض في مدى الأبعاد الثلاثة ما انطبق كثيرا على سطح ذي بعدين من صفيحة ورقة. ان فرح أم (سندجاتا) اذ اضطربت لبرء ابنها المفاجئ، مازال يرن في صوت سحرة مالي الجهوري الحار. أجل، انه من اللازم اقتحام الكثير من العقبات لتصفية مادة النقل الشفاهي وغربلة حبوب الوقائع من تبن الكلمات الفخوخ، مما يشبه النوافذ الكاذبة التي تقام قصد التناظر، وتجاوز زيف العبارات وبريقها، والتي لبست الغلاف الظرفي للرسالة الآتية من بعيد.

لقد قيل إن الخبر المتواتر لا يوثق به اذ هو وظائفي، كذلك فان أي رسالة بشرية بحسب تعريفها ليس وظائفية، بما في ذلك وثائق المخطوطات، وهي بجمودها ذاته وتحت حيادها الموضوعي الظاهر كم تخفي من أكاذيب لما أغفلته ومع ذلك فهي تكسو الخطأ بصبغة الاحترام.

مما لا شك فيه أن الخبر وبخاصة الحماسي منه، هو اعادة خلق شبه اسطوري للماضي، هو نوع

(٩) انظر: ب. هوارد، ١٩٦٩، ص ١٧٩ ــ ٢٢٤.

من التمثيل النفساني يكشف للمجموعة جذورها ومجموعة القيم التي تدعم شخصيتها، هو زاد سحري لقصد العودة على نهر الزمان نحو مملكة الأجداد، ولذا لا يطابق القول الحماسي مطابقة مدققة الخبر التاريخي، بل هو يمتطيه مسقطا اياه اسقاطات فات وقتها من قبل، ومن بعد بالنسبة الى الزمان الواقعي، مصادما معه اصطدامات شبيهة بتلاشي التضاريس في الآثار. ولكن هل تتخلص الكتابات نفسها من هذه التداخلات اللغوية؟ وفي هذا كما في غيره يجب البحث عن الكلمة المتحجرة الموجهة. و ينبغي اذا أمكن أن نجهز أنفسنا بكاشف المعدن الخالص، لاخراج الشوائب والخبث.

نعم، يمثل وهن التسلسل التاريخي موطن الضعف الحقيقي في الخطاب الملحمي، واللقطات الزمانية المبعثرة تكون تركيبا معقدا لا تأتينا منه صورة الماضي واضحة مستقرة كما تأتينا من المرآة الصالحة، ولكنها كالخيال الخاطف الراقص على الماء المضطرب، ومعدل عمر الممالك أو الأجيال من الأمور التي يشتد فيها الخلاف، حيث لا يوثق كثيرا بالاستكمالات المستمدة في الفترات الحديثة، ولو من جراء التحولات العمرانية والسياسية. فأحيانا يستقطب ملك فذ، كالمغناطيس، الوقائع السابقة التي حدثت لسابقيه وتابعيه وقد اختفت صورتهم تماما، ومن بين هؤلاء سلالة ملوك روندا، ومثل الملك دامنزن ملك سيقو (أوائل القرن التاسع عشر) اذ ينسب اليه السحرة كل فتح عظيم في هذه المملكة.

وعدا ذلك فان النص الادبي الشفاهي اذا ما اخرج من سياقه يكون كالسمكة خارج الماء فيموت و يتحلل. واذا ما عزل الخبر يكون كتلك الاقنعة الافريقية المقتلعة من الرسوم الدينية التي يقوم بها المؤمنون، فتعرض كي يطلع عليها العالمين. فيفقد مضمونه ومعناه وحياته. على أن الخبر بطبيعته ــ اذ تحمله دائما شهود جدد كلفوا بنقله ــ فهو يلائم انتظار مستمعين جدد، ملاءمة تتعلق خاصة بنقل الرسالة، الا أنه لا يبقي المحتوى على حاله. ألسنا نرى أيضا منتفعي أو مرتزقة الخبر يعرضون عند الطلب نسخا من النصوص المكتوبة، يلقي بها من جديد في سياق الخبر المنقول!

وأخيرا كثيرا ما يكون محتوى الرسالة نفسه مستغلقا بل مستبطنا، والكلمة عند الافريقي ثقيلة، وهي قوة ذات حدين في امكانها الفعل والنقض، وفي امكانها أن تحمل الشرور، ولذا لا يتلفظ بها بوضوح ومباشرة، بل تحيط بها الأمثال والتلميحات والمعاني الخفية والأمثال الواضحة والمغلقة بالنسبة الى العامة، لكنها نيّرة عند من أوتي حساسية استشعار الحكمة. وفي افريقيا الكلمة الثقيلة لا تبتذل، وكلما ارتفعت منزلة الانسان وسلطانه كلما قلل من الحديث بين العموم. فاذا ما قيل لشخص: «أكلت الضفدع ورميت برأسه» فيعلم حالا أنه اتهم بالتخلص من بعض مسؤولياته (١٠)، وهذا الاستغلال المتمثل في «نصف القول» يدل على قيمة الخبر الشفاهي الفائقة وعلى حدودها، اذ يكاد يكون من المتعذر نقل قيمته كاملة من لغة الى أخرى، ولا سيما اذا كانت اللغة المنقول اليها غريبة عن الأولى بنية ومجتمعا. ولا يتحمل الخبر الترجمة الا قليلا جدا، فاذا ما اقتلع من وسطه فقد نسغه وأصالته، ذلك أن اللغة هي «بيت الوجود» والعديد من الأخطاء المنسوبة الى الخبر، انما هي ناشئة عن مترجم عاجز أو غير مسؤول.

(١٠) انظر هـ. أقسى ١٩٧٢ ص ٢٦٩ ــ ٢٩٧.

ومهما يكن من أمر، فلقد قام على شرعية الخبر الشفاهي الدليل اليوم بصورة وثيقة و يؤكده تأكيدا واسعا ما يقابل به مع مصادر أثر ية أو كتابية، كما هو شأن موقع «كمي — صالح»، وأنقاض بحيرة «كيسال»، أو أحداث القرن السادس عشر التي نقلتها «الشونا»، والتي أثبت د. ب. ابراهم مطابقتها لكتابات الرحالة البرتغاليين في ذلك الزمن.

والخلاصة أن سرد الخبر، سواء كان ملحميا أو نثر يا أو تعليميا أو أخلاقيا، قد يكون تاريخيا أيضا من أوجه نظر ثلا ثة. أولا هو يكشف عن مجموعة من العادات والقيم التي تحرك شعبا وتتحكم في أعماله المقبلة بتمثله نماذج الأمس. وهكذا فان الملحمة تعكس التار يخ ولكنها أيضا تخلقه. فاذا ما توجه الإنسان الى دامنزن قائلا: «يا مولى المياه ومولى البشر» فهو يقرر بذلك طابع سلطان دامنزان المطلق، على أن الأقصوصات عينها تر ينا اياه مستشارا بلا انقطاع، من جنوده وكهنته ونسائه (١١). ومعنى الشرف والسمعة يتضح في الجواب الشهير في «نشيد القوس» ممجدا سندياتا (سندياتا فاسا) «سايا كوسا ملو يا» (١٢). وتكشف هذه القيمة عن نفسها أيضا في فصل مأثرة «بكري ديان» على «بولس الكرناري»، فلقد انعزل البطل بكري ديان في قر يته (دنقورنقو) وتوسل الناس اليه أن يرجع على رأس جيوش (سيقو). فسلّم في النهاية حين مسّوا وتره الحساس، وتر الكبر ياء والمجد: «عليك أن تتناسى ما وقع تبادله من الكلام القديم، وعليك الآن أن تنظر الى اسمك، فنحن نأتي هذه الدنيا لنكتب اسما، وإذا ما أنت ولدت وترعرعت ومت بدون اسم، فانك تكون قد جئت عبثا وانصرفت عبثا» فيصيح قائلا: «يا كهنة (سيقو)، اذ أنتم أتيتم فلن يكون ثمة مستحيل. وسأفعل ما تطلبون في سبيل سمعتي، ولن أفعل ذلك في سبيل (دامنزن) ولن أفعله لأي كان في (سيقو)، سأفعله فقط من أجل سمعتي، وحتى بعد مماتي سيضاف فعلي الى اسمي».

وأذكر أيضا هذه النكتة الحضار ية الحقوقية، قال سلامكا: «انكم لمحظوظون اذ حرم علي أن أقتل الرسل».

وعلى ذلك فان اعادة تركيب الماضي بعيدة أن تكون خيالية تماما، ففي الماضي شرائح من الذكر يات ومسالك من التار يخ كثيرا ما تكون أشد التصاقا بالمألوف من تزو يقات الخيال الملحمي الملونة: «وهكذا نشأت منظمة الرعاة الجماعيين هذه في مدن (بمبرا). وان اصطفيت وصرت راعيا فقد صرت (بولس) عموميا وكان البوالسة العموميون يرعون قطعان الملك، وكانوا رجالا من جنسيات مختلفة، وكان رئيس الرعاة فيهم يسمى «بنكي» أو هكذا: «في ذلك العهد لم يكن الناس ينتعلون الأحذية بل سمارات من جلد البقر المدبوغ، في أنفها حبل حول ابهام الرجل وفي العرقوب حبل». وأخيرا ان القصة الملحْمية تلونها تلميحات الى الصنائع ولأشياء ليست أساسية في سير الحديث، الا أنها تشير الى بيئة الحياة «أرسل (دامنزن) ستين من ملاحي جذعية سومونو، ثلا ثين في مقدم الجذعية وثلا ثين في مؤخرتها، وكانت الجذعية مز ينة بأفخر الز ينات» «هيئت السلالم ونصبت على السور وتسلقها صيادو (سيقو) مهاجمين وتسللوا الى المدينة... ورمى خيالة (سيقو)

---

(١١) نظر ل. كسطلوط، ج ١ — ٣ — ٤.

(١٢) الموت أفضل من العار.

بسهام ملتهبة. واشتعلت النيران في بيوت القرية»، «وتأهبت ساران، المرأة المولعة بدامنزن، لتبلل بارود بندقيات محاربي كوري».

ويمارس المؤرخ تشخيصا مدققا يصل أحيانا الى التحليل النفسي، لهوس الجمهور أو ناقلي الأخبار، محاولا ادراك زبدة الواقع التاريخي.

وتعدد الروايات المنقولة من قبل فرق متناوئة، كما تم عند كهنة موالي سيد شريف (هوروت، دياتيقي) لايشكل عامل نقص بل هو ضمان اضافي للنقد التاريخي. أما توافق الروايات، كما في صورة كهنة بمبارا و بولس المنتمين الى شقين متعاديين، فانه يبرز بروزا خاصا صدق هذا الشاهد، وكما يبدو من حالة «الكوروا» الذين تربط بينهم تقاليد باطنية متحررة اندماجية تتناقلها الأجيال، وتتعايش مع تقليد الجمعية السرية الباطني الفوضوي. ان الخبر التاريخي بما له من توليدات متعددة يتضمن عناصر للنقد الذاتي. وذلك أنه ليس ملكا خاصا بل ملك مشاعا تسأل عنه زمرات مختلفة من المجتمع، والمهم أن يعتني بالنقد الداخلي لهذه الوثائق وذلك بمعرفة دقيقة للأسلوب الأدبي المستعمل، بموضوعه وأساليبه ورموزه وقوالبه وعبارات الحشو فيه والاستطرادات الاصطلاحية، واللغة في تطورها والجمهور وما ينتظره من الكاتب التقليدي. و ينبغي خاصة الاعتناء بالطبقة الشعبية التي ينتمي اليها هؤلاء وقواعد عيشها وتكوينها ومثلها ومدارسها. ومن المعلوم مثلا أنه في مالي وغينيا وجدت مدارس حقيقية للمعارف الأولية منذ قرون، كذلك الأمر في كيلا وكيتا ونياقسولا ونياني الخ.

وهذا التقليد الصامد المقتن الوضعي هو عادة، أقوى بنية، وأشد دعما من موسيقى البلاط التي تتجسم فيه، وترتله على فقرات تعليمية وفنية. و بعض الآلات المستعملة، كالسوسوبلا (بالافون سوما أوروكنتي) مازالت هي عينها كمعلمة تستحق ان يبحث فيها بحثا أثريا.

الا أن الأواصر بين نماذج آلات الموسيقى ونماذج الموسيقى والأناشيد والرقصات، تمثل عالما دقيق التنظيم، تميز به بسهولة، البدع والملحقات المضافة مؤخرا.

وهكذا فلكل فن أدبي شفاهي آلته الخاصة في كل منطقة ثقافية، الآلة الخشبية (بالا) والبولون (قانون ــ عود) للملحمة مندنق، و بندري الموسّي. (طبل ضخم مدور ذو وجه واحد، مقطوع من ثمرة الدباء يضرب عليه بالأكف العارية) للتحميس، في جو كثيرا ما يكون صامتا، واسامي الحرب (زابيويا) للملوك، والميات (قيثارة) لشعراء الفنق الموسيقيين في ملحماتهم الاستوائية، هذه الآلات تحمل الكلمة التاريخية فتقدرها وتقدسها، فهي تتحد مع الفنان في الواقع، ومكانتها تزداد أهمية في أداء الرسالة، بفضل لغات ذات جرس تصير بها الموسيقى مركزة بصورة مباشرة، وتصير الآلة صوت الفنان دون أن يضطر هذا الى التفوّه بكلمة واحدة. و يصير هذا الايقاع النغمي الثلاثي، من الكثافة والاستمرار موسيقى ذات دلالة داخل هذا الضرب من «الدلالة ــ الترنمية» التي تحدث عنها مارسيل جوس. والحق أن الموسيقى صارت جزءا من التقاليد، اذ لا يمكن أن تنقل بعض الأقاصيص الا في الشكل الغنائي، والانشودة الشعبية نفسها التي تنم عن نبض «الارادة العامة» في شكل هجائي يحتد أحيانا التهكم القائم فيه، والذي يبقى حيويا حتى خلال الحملات الانتخابية في القرن العشرين، هو نوع نفيس يعدل ما ترويه «الوثائق» الرسمية و يكملها.

ومـا قـيل هنا عن الموسيقي ينطبق تماما على وسائل أخرى للتعبير، كالفنون التشكيلية التي تقدم لـنـا نتاجها أحيانا، كما في ممالك أبومـاي و بنين (حفر بارز) أو في بلاد كوبا (تماثيل) وفيها التعبير المباشر للأشخاص والأحداث أو للثقافات التاريخية.

و باختصار ان الخبر الشفاهي ليس مجرد مصدر يلجأ اليه في آخر المرحلة حين يضطرنا اليأس من غيـره، بـل هـو مـصدر له حظ كامل ومنهاجية تم الآن إرساؤها، ثم هويوفر لتاريخ القارة الافريقية أصالة قوية.

علم اللغات

لـيـس عـلم اللغات علما مساعدا للتاريخ الافريقي، بل هو اختصاص يسير بالتاريخ مباشرة الى صميم مـوضـوعـه، ونـقـف على ذلك بوضوح في مثال النوبة التي غابت وراء صمت مزدوج، صمت أطلال (مـيـروي) الـكـثـيـف، وصمت الخط الميرورتي الذي لم يكشف سره اذ بقيت اللغة مجهولة (١٣).

لا شك أن هناك أمورا كثيرة يجب القيام بها في هذا المجال، بدء من اثبات اللغات اثباتا علميا، فـلا يـنـبـغي أن يضحى بالعمل الوصفي لفائدة العمل التنظيري والتأليفي بدعوى التصنيفية والتوليد. ان الـتـحليل القاسي المدقق للغة ما بما لها من مميزات في الأحرف الصوتية وأحرف المد والجرس، وبما لها من حرية التوليفات في الرسوم التخطيطية المركبة التعبير، وبما لها من مدلول عاشه المتلفظون به في مجتمع محدد (١٤)، هذا التحليل يمكن من بناء استكمالات للماضي، هي عملية عسيرة لعدم وجود عـمـق تـاريخـي لمـعـرفـة هـذه اللـغات، اذ ليس في الامكان قياسها على غيرها الا ابتداء من الطبقة المـعـاصـرة بـواسـطـة طريقة التزامن، وهذا الأساس لا بد منه لكل تأليف تطوري توليدي. ان الأمر صـعـب، ولـيـس غريبا ان وجدت صراعات علمية هنا وهناك، خاصة في مادة البانتوية. «فلكولم قـتـري» يـقرر نظرية التكوين الذاتي، بينما يدافع «جوزيف غرينبرغ» ببراعة عن نظرية تقول إنه يجب أن تـوضـع اللغات البانتوية في اطار قاري أكثر اتساعا. و يبرر هذا الاطار، بأواصر ليست من بـاب الـتشابه العرضي الناشئ عن التأثيرات الخارجية، بل بأواصر قرابة وراثية ذاتية، يكشف عنها الـشـبـه في الـضمائر، وفي المفردات الأساسية وفي الخواص النحوية، كنظام الأصناف الاسمية، فيما بين مـئـات من اللغات من (الولوف) الى (الباكا) (جمهورية السودان). وليس كل هذا الجدل عند المؤرخ، محض تـمـاريـن مـدرسية. فنحن نرى مثلا أن مصنّفا يعتمد على توزيع مجموعات الألفاظ المـتـشـابهـة التي تـدل على مـعنى الحروف في افـريـقـيـا الـوسـطى على حافة الغابة، يلاحظ أن هذه المجـمـوعات المتجانسة لا تخترق الحافة النباتية بل تنتشر موازية لها، ممّا يوحي أن هذه الأغنام تنتشر حـسـب المنطقتين الجغرافيتين الملاصقتين للسهل والغابة، بينما تترتب الصورة اللسانية في الشرق على امـتـداد شـرائـط طـولانية من افريقيا الشرقية الى افريقيا الجنوبية، مما يدعو الى فرض وجود طريق يـتدخل عموديا على الأول، و يوضح، بقياس التقابل، الدور المعطل للغاية في نقل التقنيات (١٥). ولـكـن هذا الدور يختلف باختلاف التقنيات، و باختصار ان الدراسات اللسانية تبرهن أن طرقات

(١٣) نظمت اليونسكو سنة ١٩٧٤ ملتقى علميا للكشف عن هذه اللغة الافريقية.

(١٤) انظر موريس هو يس ١٩٧١ ص ٤٥.

(١٥) انظر كرستوف اهرت ١٩٦٣ ص ٢١٣ — ٢٢١.

النزوح ومسارها، وأن انتشار الثقافات المادية والروحية، مرتبط بانتشار الألفاظ المتقاربة. وهذا يدل على أهمية التحليل اللساني التطوري وأهمية التسلسل الصوتي عند المؤرخ الذي يريد أن يقف على حركية التطور واتجاهه.

وهكذا أوضح ج. غرينبرغ ما أتى به «الكنوري» للهوسا من المصطلحات الثقافية ومن الفن الحربي، مما يظهر تأثير الامبراطورية البرنوانية في تطور ممالك الهوسا، وبخاصة ألقاب الممالك البرنوانية القريبة من ألفاظ كاموری، مثل كيقاما، ماجيرا الخ.. التي انتشرت انتشارا ملحوظا حتى في قلب الكمرون والنيجيريا، وثمة دراسة نظامية لأسماء الأماكن وأسماء الأشخاص من شأنها أن تقدم دلالات محددة، شريطة أن يعاد النظر في هذه الأسماء عن طريق نظرة محلية. وذلك أن كثيرا من الأسماء قد تم تحريفه بسبب النطق به أو كتابته بكتابة أجنبية من قبل غير الأفريقيين، أو من قبل افريقيين استخدموا تراجمة وكتابا أجانب، ويبقى اصطياد اللفظ الصحيح حتى ولو استقر بالكتابة منذ قرون عملا من الأعمال الأشد تشعبا بالنسبة للنقد التاريخي الإفريقي.

مثال: ان لفظ (ڤاوڤا) الذي استعمله ليون الافريقي للدلالة على مملكة السودان، كثيرا ما قرون بلفظ (قاو)، ولكن تحليل اسم المكان هذا بالاعتماد على لغة التيدا والكانوري يمكننا من تعيين موقع مملكة (القاوقا) بين الوادي (تشاد) والدارفور (السودان) والفرتيت (افريقيا الوسطى) (١٦).

وأما الرجوع الى اليمن لتعيين بلد الأصل للعديد من الأسر المالكة السودانية، فلقد أعيد النظر فيه بصورة جدية من قبل هـ. ر. بلمر. ولا ينبغي لنا أن نفسر لفظ يمن حسب ما يذكره مؤرخو المسلمين من معنى ديني يتجه نحو منطقة «العربية السعيدة»، بل الاحالة الى البلد القديم يم (منه يمن)؟(١٧). ويبدو النظر في المعجم السواحلي المحشو بألفاظ من أصل عربي، وفي معجم بلدان الساحل الشرقي الملغاشي (انتيمورو انتالوترا، انوزي) المغمورين بالتيارات العربية، سيكشف عن معلومات جديرة أن يستمد منها المؤرخ.

وعلى كل ان (علم اللغات) أو اللسنية التي كان لها فضل على التاريخ الافريقي، يجب أن تنتزع منذ البداية الاحتقار العنصري الذي اصطبغت به اللسنية الافريقية التي حررها أ. شليقل وأوغست شليشر، وعندهما: «ان لغات الاسرة الهندية الاوروبية في قمة التطور، ولغات السود في أسفل درجة من السلم، على أنه فيما يظن أن هذه اللغات قد يكون لها أهمية في عرض وضع قريب من الوضع الأصلي للغة، حيث كانت اللغات بدون نحو والكلام مكون من سلسلة كلمات ذات المقطع الواحد، ويقتصر المعجم على كشف أولي للألفاظ» (١٨).

علم الانسان وعلم اللغات

وتبقى الملاحظة نفسها مقبولة في مجال علم الانسان وعلم الأجناس. والواقع أن الكلام

---

(١٦) انظر بيار كلك ١٩٧٢ ص ٥٢٩ ــ ٥٤٨.

(١٧) انظر أبو والدريج محمدو ص ١٣٠ ــ ١٥٥.

(١٨) انظر ج. هويس ١٩٧١، ص ٢٧.

الاجنـاسـي (١٩) كـان بطبيعة الحال، كلاما ذا دلالة واضحة التميز والعنصر ية وذا نتائج سياسية واضحة، و بينها ممارسة «علمية» غامضة بالطبع.

وأهـم فرضياته المسبقة كانت التطور الخطي، وعلى رأس القافلة البشر ية أور با رائدة الحضارة، وفي المؤخـرة، «الأقـوام» الـبـدائـيـة في الاقيانوس و بلاد الأمازون وافر يقيا. فكيف يمكن أن يكون الانـسان هنديا، أسود، بابو أو عر بيا؟ «فالغير» هو متأخر متوحش بر بري على درجات، وهو مختلف دائما. ولـذلـك كـان مـوضوع اهتمام الباحث أو مجال نهم المعالج. فالا تنولوجيا تلقت تفو يضا عاما لـتـصـبـح وزارة للـفضول الأوربي، إزاء «مواطنينا». إن النظر الإنترو بولوجي يتمتع بحالات البؤس والـعـراء، والـفـلـكـلـور كـثيرا ما كان ساديا شهوانيّا، وفي أحسن الظروف يتظاهر ببعض العواطف الأبـو يـة. وكانت المذكرات والتقار ير الناشئة عن هذه النظرة، الا ما شذ منها، تبرر الوضع الراهن وكـانـت تعمل على «انماء التخلف في النمو» (٢٠). فالنظر ية التطور ية التي جاء بها دارو ين، رغم مـزايـاهـا الـرفـيـعة الأخرى، والانتشار ية في اتجاه واحد التي طالما نظرت الى افر يقيا كموطن خامل لـلاكتشافات الأخرى، وأخيرا وظائفية مالينوفسكي و رادكليف براون التي كانت تحجب كل بعد تـاريخي لـلـمـجـتـمعات البدائية، كل هذه المدارس كانت بالطبع تتعاطف مع الوضع الاستعماري الذي كانت تنمو فيه كما لو كانت في تر بة خصبة (٢١).

ونـظـرتها، التي فقدت قيمتها في النهاية في تفهم المجتمعات النائية الخارجية، تجردت من الجدارة أيـضـا، اذ أن المجـتـمعات التي اهتمت بها بصورة خاصة كانت بالفعل أكثر المجتمعات شذوذا، أعني نماذج مـن الـبـشـر يـة استقرت في البدائية، بينما كانت هي لا تمثل سوى جراثيم لا يستهان بدورها الـتـاريخي، بـل هـو أحـيـانـا دور هـام، الا أنـه في أغـلـب الأحيان، هامشي بالنسبة الى المجموعات الاجتماعية السياسية الأشد قوة والأكثر عراقة في تيار التار يخ.

وهـكـذا فـلـقـد رمـز الى جمـيـع افر يقيا بصور قد كان الأفارقة أنفسهم يستغر بونها، تماما كما لو شـخـصـت أورو با في بداية القرن العشر ين باستعمال الخوان والمسكن أو بالمستوى التقني في مجموعات بر يطانيا الداخلية أو في الكنطال أو سردينيا.

على أن الـطـر يـقـة الانتولوجية انما تعتمد على الاستقصاء الفردي الموسوم بميسم التجر بة الذاتية الـتـامة، لأنه مكثف، ولكنها تامة في مستوى الانسان فقط وتؤول الى نتائج «موضوعية» هز يلة جدا اذا ما زعم استكمالها من الخارج.

وأخـيـرا فـان مـوضـوع الا تنولوجية نفسه من جراء جدلية حتمية، و بتأثير الاستعمار، قد تضاءل

---

(١٩) خـصـص لـفـظ جنس الى الشعوب المعروفة بانعدام الكتابات فتضمن منذ البداية رأيا مسبقا عنصر يا، يقول كليمان مارو في القرن ١٦ «وثني أو جنسي» الا تنوغرافيا جمع وصفي للوثائق ــ الا تنولوجيا هي عين التأليف التنظيري.

(٢٠) انـظـرج. كـوبنس، ١٩٧١ ص ٤٥ «المذهبية الاستعمار ية والا تنولوجيا ترتفع الى عين التشكيلة، و يوجد بين هاتين المرتبتين من الظواهر، عمل مشترك يتحكم في نموه النسبي».

(٢١) انـظـرج. رفي ١٩٧٧، ص ٤٢٩ «أنـه يـشـبـه الـدارو يـنـيـة الـثـقـافية التي توحي الى الفكر في القرن ١٩؛ الانتر بولوجية تبرر الاستـعـمـار، فـلا يـكون هذا ثمرة ظرف سياسي بل نتاج بنية بيولوجية، أي صورة خاصة من المزاحمة الطبيعية. وانترو بولوجيا القرن التاسع عشر تر يح ضمير أور با الامبر يالية».

شيئا فشيئا. والشعوب البدائية التي كانت تعيش من جني الثمار والصيد، اذا لم يكن من «أكل البشر»، تحولت شيئا فشيئا الى الطبقة الكادحة المتنقلة من المراكز المحيطية، في نظام عالمي للانتاج، أقطابه يقيمون في نصف الكرة الأرضية الشمالية.

وكان العمل الاستعماري يلتهم و يستهلك موضوعه ذاته، فلذا قرر أولئك الذين وضعوا الأفارقة في قائمة الأشياء، ان يشرعوا في محاولة مبادهة، لصنع التاريخ، زاعمين أنه في بعض الأوجه، ليس البدائيون كما حسبوا.

و بعيدا عن حكم سابق، وفي الوقت نفسه، فإن الباحثين الذين عملوا على كشف خيط التاريخ والوقوف على بنيات أصيلة في المجتمعات الافريقية الدولية أوغيرها، هؤلاء الرواد أمثال فربينيوس ودولافوص و بالمر وايفانس بريتشارد، قد واصل مساعيهم وأخذها عنهم وأعادها ودققها بحاثون آخرون معاصرون. ورأى هؤلاء أنه اذا ما طبقت الأدوات العقلية عينها للعلوم والانسان، واذا ما تمت ملاءمتها للمادة الافريقية، يكون بالامكان أن ندرك نتائج موضوعية. وهكذا نبذت النظريات الفاسدة المستندة اما الى الفرق الوراثي والمادي لمواطنين، واما الى وضعهم البدائي في طريق الحضارة. و يكفي أن نعترف أنه اذا كان الكائن الافريقي هو هو الكائن الانسان الناطق، فان «وجودهم في العالم» مختلف. وعندها يمكن شحذ أدوات جديدة للوقوف على تطورهم الفريد.

وفي نفس الوقت فإن النظرة الماركسية، على أن لا تكون عقائدية، ونظرة ليفي ستراوس البنيوية، تأتيان أيضا بوجهات نظر مقبولة، ولكنها متباينة فيما يخص تطور الشعوب المعروفة بانعدام الكتابة فيها. فالطريقة الماركسية والتي تقوم على أساس تاريخي، تعتبر التاريخ ضميرا جماعيا في العمل، وهي تؤكد كثيرا على القوى المنتجة وعلاقة الانتاج، كما تؤكد على البراكسيس (السلوك) والنظم، بينما ترمي الطريقة البنيوية الى ممارسة الآلية اللاشعورية ولكن المنطقية، وممارسة المجموعات المنسقة التي توتر عمل العقول والمجتمعات وتؤطرها. ونأمل أن تكون الانتروبولوجيا المرتوية من منابع جديدة، شيئا مغايرا لعنقاء تظهر فجأة، لضرورة الحالة، من رماد بعض الاتنولوجيات (٢٢).

على الانتروبولوجيا اذن أن تنقد مسلكها الخاص، وأن تؤكد كل التأكيد على المثل وعلى التطبيقات، والا تتداخل عندها العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تتكشف بالتجربة، يالبنيات التي توترها، و بذلك تُغني الواحد بالآخر، المثل والبنيات والآراء، مستخدمة بكثرة التقنيات الكمية والجماعية الخاصة بالبحث، بمنطقة الكلام جاعلة اياه موضوعيا. وتهم التفاعلات بين العوامل الانتروبولوجيا على الخصوص، وكذلك التأليف التاريخي. وتشاهد مثلا تقابلات بين المسالك التجارية التي يوجد عليها امتياز ملكي من جهة، و بين الأشكال السياسية المتمركزة من جهة أخرى: (غانة والمالي القديمين، وفي امبراطورية اشنطي في القرن الثامن عشر وفي مملكة لندا بالزايير الخ) بينما في التجربة العكسية الحاسمة خلافا للنقوندو (والزولو)، وهي شعوب لها عين اللغات

(٢٢) تكون السوسيولوجيا علما اجتماعيا داخليا في نظر العالم المعاصر، بينا تكون الانتروبولوجيا نظرة مقارنة (بين المجتمعات)، ولكن أليس في ذلك احياء للأصناف. الفرق القابلة للجدال يتبعها من تاريخ جنسي وآثار ـــ جنسية ونبات ـــ جنسي ورياضيات ـــ جنسية.

وعين العوائد (النيا كوسا والكوسا) ولكنها تعيش بمعزل عن هذه التيارات، لم تبلغ مرحلة الملكية (٢٣). وقد نحاول أن نستنتج من ذلك شبه «قانون» انترو بولوجي أو سوسيولوجي سياسي. ثم ان بنيات القرابة قد ينجم عنها عدد من الآثار الهامة في تحديد التطور التاريخي. فاذا التقت مجموعتان من اللغات المتباينة، فان لغة القرآن بينها تقرر اللغة التي يكون لها التفوق، اذ أن لغة الأم لا يمكن أن تتغلب الا اذا اتخذت النسوة زوجات لا اماء وجواري. وهكذا فان المجموعات «نقوني» تحتفظ بلغتها الأصلية، بينما فقد البعض الآخر ممّن اتخذوا أزواجا «سوتهو»، لغتهم لفائدة السوتهو. كذلك شأن رعاة الفلانيين القادمين من مسينا ومن فوطا جالون الذين تزوجوا منديقات وأنشأوا مقاطعة «واسولو» فلم يبق لهم من الفلانيين سوى الاسم، وسوى بعض الملامح الطبيعية، فلقد أضاعوا لغتهم الأصلية لفائدة المالنكي أو (بمبرا).

ان أهم مصادر التاريخ الافريقي التي أشرنا اليها آنفا ليس بالامكان تصنيفها مسبقا حسب سلم قيم يمكن أن يفضل باستمرار واحدة أو أخرى من بينها، ومن الواجب أن ينظر في كل حالة على حدة، فليس الأمر، أمر شواهد من أجناس متباينة تباينا تاما، اذ أن كل ذلك يستجيب لتعريف الاشارات التي أتتنا من الماضي، حاملة الرسالات، فهي اذن ليست محايدة بل هي تجسّم نوايا صريحة أو ضمنية.

وهكذا تخضع جميع هذه المصادر للنقد المنهجي بحسب الصور، فقد يحتل كل منها المحل الأفضل، وقد يؤدي كل منها الى الأنواع الأخرى. فالخبر الشفاهي مثلا، كثيرا ما ساق الى موقع أثري، بل في وسعه أن يوازن بين بعض الوثائق المكتوبة.

فالمؤرخ الكبير ابن خلدون مثلا في كتابه «تاريخ البربر» يقول عن سندجاتا: «وخلفه ابنه منسا والي، ومنسا في لغتهم الكتابية تعني سلطان، ووالي يقابل عليا» بينما يفسر التقليديون اليوم «منسا والي» بمعنى «الملك ذو البشرة البيضاء».

المبادئ الأربعة الكبرى

واذا ما أردنا أن نحدد حدا جديدا للجبهة الرائدة في تدوين التاريخ الافريقي، لابد أن يتحكم في البحث أربعة مبادئ كبيرة.

أولا: اشتراك الاختصاصات وهو من الأهمية بدرجة تجعلنا نعتبره في ذاته مصدرا متميزا. فالسوسيولوجيا السياسية اذا طبقت على الرواية الشفاهية في مملكة سيقو فهي تثري النظرة اثراء عظيما، ولولاها لاقتصرت على خطوط هزيلة من شجرة نسب عليها بعض المآثر المتحجرة. و يلوح التشعب والتداخل بين بنيات قولبت على الهيمنات القديمة (الانموذج المالي) وعلى واقعهما الملموس الحي. وفي بلدان الدلتا النيجرية تمكنت الروايات الشفاهية من اكمال عوامل النهضة التي طالما اقتصرت على تأثيرات تجارة النخاسة وزيت النخيل. فثمة علامة وطنية سابقة، من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب، حتى لاغوس وحتى بلد اجبو يشهد بها الخبر الشفاهي المؤيد، والذي أغنته بكيفية عجيبة تلميحات (بشيكوبريرا) في الاسمرلدو (٢٤).

---

(٢٣) انظر طومسون، ١٩٦٩، ص ٧٢ — ٧٣.

(٢٤) انظر ج. الاقوا، ١٩٧٣.

عنصر من الانترو بولوجيا الثقافية (النص التعليمي للرعاة الفلانيين) (٢٥) هو الذي مكن بعض الاخصائيين به ما قبل التاريخ من التفسير الصحيح، لالغاز (رسوم) التاسيلي وما فيها من حيوانات بدون أرجل في اللوحة المدعوة، الثور ذو الافعوان، وحرف « U. » السحري لأوان درباوان الخ..

و بعد فاصل يزيد عن ١٠٠٠٠ سنة نرى طقوس اليوم تساعد على معرفة الأخوات الخمس الخرافية من أصل سبعة أبناء للجد الكبير كيكالا، وتطبيقها على الراقصات الخمس البديعة في لوحات جبارين.

ان انتشار البنتو ـ الذي تشهد به مصادر متطابقة من اللسنية والخبر الشفاهي وعلم الآثار والانترو بولوجيا، وأولى المصادر المكتوبة بالعربية والبرتغالية والانكليزية والافريقية، يصبح واقعا ملموسا يمكن أن يرتب ضمن تأليف، تتدفق حروفه عند تلاقي هذه المستويات المختلفة، وتتلاقى حجج اللسنية أيضا مع حجج التكنولوجيا لتؤكد انتشار الصنوج الملكية والنواقيس المتزاوجة للزينة في المناطق الممتدة من افريقيا الغربية الى الزايير السفلى والشحابا وزامبيا. ولكن ثمة براهين أثرية قد تأتي بالطبع بحجج كبيرة القيمة. وتشتد الحاجة الى تكتل المصادر اذا كان الأمر يتعلق بضبط الصعوبات المتعلقة بتاريخ الأحداث. اذ لا يتوفر لنا دائما تحديد التاريخ بطريقة الفحم ١٤. على أنه ينبغي أن تفسر هذه الارشادات وأن تقابل مع معطيات أخرى كالمعادن والفخار (مواد ونماذج)، ولئيس لدينا دائما شبه ما يوجد في شمال التشاد (٢٦) من أكوام عظيمة من كسور الفخار، تمكننا من انشاء نموذج لسلم زمني على ستة مستويات. وثمة دلالة رائعة تأتي عن تضافر كل المصادر المتوفرة، تمكننا من وضع علم أشكال متطور لأساليب الرسم والفخار. وذلك بمقابلة بعضها ببعض، كي تتضح سلسلة زمنية تمتد عبر ثمانية آلاف من السنين. كل ذلك تدعمه أسبار لدراسة الطبقات وتؤيده تأريخات الفحم ١٤، ودراسة النبات والحيوان والمسكن والرواية الشفاهية (٢٧).

ان خارطة الكسوفات المؤرخة والمرئية بحسب المناطق، قد تمكن من الوقوف على توافقات عجيبة اذا ما كانت هذه الأحداث مرتبطة بملك سلالة واحدة من سلالات الملوك، ولكن التاريخ عادة لا يدرك الا بتعبئة الكثير من المصادر خاصة، وان معدل طول سلطة أو جيل قد تدخل عليه تغيرات، وأن طبيعة العلاقة بين الملوك وأعقابهم ليست دائما واضحة،واذ أن مدلول لفظ ابن ليس دائما بيولوجيا بل اجتماعي، وقد يعطي الملك الواحد أحيانا ثلاثة أو أربعة أسماء أو «القاب»، وكما هو الأمر عند البمبا تندمج قائمة المرشحين الى السلطة مع قائمة الرؤساء.

ودون أن ننقص من قيمة تسلسل الأحداث، الذي هو العمود الفقري للمادة التاريخية ودون أن نتخلى عن الجهود المبذولة في سبيل ارسائه على قواعد متينة، نتساءل مع ذلك ما اذا كان من الضروري أن نقع أسرى مرض الدقة مهما كانت التكاليف، اذ سيؤول الأمر الى خطر الوقوع في الدقة المخطئة؟ لماذا نحرص على كتابة عام ١٠٨٦ كتاريخ لسقوط كمبي صالح، بينما نستطيع أن

(٢٥) انظر همباتي وجرمان ديترلان، ١٩٦١.
(٢٦) انظر ايف كوبنس، ١٩٦٠ ص ١٢٩ وما بعدها.
(٢٧) أ. بايود، ١٩٦١ ص ٥١ وما بعدها.

نقول «في نهاية القرن الحادي عشر»؟ اذ ليس لكل التواريخ عين القيمة، وما يتطلب حدا من التدقيق، يختلف من حادث الى آخر ويجب أن لا نجعل من كل حدث صنما.

وعدا ذلك فانه من الضروري ان يرجع تيار السياق التاريخي كله في اطار الزمن الافريقي. وليس لهذا حساسية مرهفة ازاء تركيب معطى الحادث ليصبح تركيبا مفصليا ضمن سلسلة من الأحداث ينشئ أحدها الآخر بموجب السببية والعلية. نعم، ان للافارقة راي في الزمن مرتكز على مبدأ العلية، الا أن هذا المبدأ يطبق حسب نظم طريفة تسري فيها عدوى الخرافة في السلوك المنطقي وتثنيه، ولا يخلق فيه الطور الاقتصادي الابتدائي الحاجة الى الزمن المرقم، وهي المادة الأولية للربح، وحيث ايقاع الأعمال والأيام تصبح توقيتا كافيا للنشاط البشري، وتكون فيها التقاويم التي ليست مجردة ولا عالمية تابعة للظواهر الطبيعية (هلال، شمس، جفاف) ولحركات الحيوانات والناس، وتحدد كل ساعة بأعمال محسوسة، ففي برندي مثلا: في اماكانا (وقت الحلب: تكون الساعة السابعة) وفي متوروكا (وقت خروج القطعان: هو الساعة الثامنة) وفي كواساز (انتشار الشمس: في الساعة التاسعة) وفي كوماساز (اذا امتدت الشمس على الهضاب: فيعني ذلك الساعة العاشرة) الخ.. وفي هذا البلد الريفي يحدد الوقت بحياة الرعي والفلاحة، وفي غيره من البلدان تسمى الأطفال بيوم ميلادها و بالحدث الذي سبقه أو تلاه، ومسلمو افريقيا الشمالية قد يسمون أولادهم بأسماء الأشهر التي ولدوا فيها: رمضان، شعبان، مولود.

وهذا التطور الزمني، تاريخي من عدة جوانب، وفي المجتمعات الافريقية الخاضعة لسلطة الشيخ، فكرة الاسبقية في الزمن لها معنى أرجح مما في غيرها، فعليها وحدها تعتمد الحقوق الاجتماعية، كالخطبة في الناس والمساهمة في رقصة مخصصة، وتناول بعض الأطعمة، والزواج واحترام الغير الخ. واذا لم يكن للوليد الأول حق مقصور عليه في خلافة الملك، يكون عدد المرشحين (أعمام، اخوة، أبناء) عددا مرتفعا دائما وللسن دور في المزاحمة المفتوحة، مما يجعل للتوقيت والتاريخ أهمية متزايدة، وليس من الضروري أن نعرف أنه ولد في سنة كذا بل المهم أن يثبت الشخص أنه ولد قبل فلان. ولا تتوحد المراجع الدقيقة في المجتمعات الأكثر اتساعا وعمومية.

وليس مفهوم الزمن الاجتماعي جامدا، إذ انه في سياق الفلسفة الافريقية في حركية كل العالم، يكون الأمر دائما أن ينمي الفرد شكله الحيوي، وهو اجتماعي الى أعلى درجة، وهذا ما يتضمن فكرة الرقي في المجموعة و بواسطتها كما يقول بكري ديان: «حتى بعد موتي سيضاف الى اسمي».

وفي بعض اللغات فان اللفظ الواحد (بونيا مثلا بالبمبرا) يدل على عدة معان تدل على العطاء المادي والشرف والنمو.

وحسب الفصول كثيرا ما يعتمد على المشاهدة الفلكية بالنسبة الى سلسلة من الكوكبات كالدب الأعظم، فعند الكومو (الزايير الأعلى) تشبّه الثريا بسلة من السواطير، مما ينبئ بزمن شحذ هذه الأدوات لاستصلاح الحقول. وعند الحاجة صار مفهوم الزمن هذا ألصق بالرياضيات: فحزات من أخشاب خاصة تحفظ كوثائق في كهوف بلدة دوغون، ووضع حبة من التبر كل عام في آنية من

قصدير في معبد العروش في مملكة بونومانسو، أو حصاة في جرة في بيت الملوك في بلد مندنغ، دون أن نذكر بالطبع الآثار الجليلة في مصر الفرعونية وفي الممالك الاسلامية (كالموحدين مثلا). واذا ما ذكرنا صعوبة تحويل متتالية من عصور الملوك الى متتالية من التواريخ، وحتمية الوقوف في نقطة ثابتة تتخذ معلما، لاحظنا أن هذه النقطة في أغلب الأحيان هي معلم خارجي مؤرخ، مثال ذلك هجوم اشنطي على بونومانسو.

ان استعمال الكتابة والدخول في الديانات المعممة عالميا، والتي كانت لديها، تقاويم تقف عند نهاية محددة، كما أن الدخول في عالم المردود وتجمع المال، كل ذلك قد غير شكل مفهوم الزمن التقليدي الا أن هذا المفهوم كان يوافق في عصره، موافقة جيدة، حاجيات المجتمعات المعنية بالأمر.

ومن اللازم الحتمي أيضا أن ينظر الى هذا التاريخ من الداخل، انطلاقا من قطب افريقي، لا أن يقاس باستمرار بمقياس القيم الأجنبية، اذ أن الوعي الذاتي وحق التميز مبدآن مسبقان وجوبيان لتكوين شخصية جماعية مستقلة.

ولا شك أن اختيار البحث الذاتي ونظرته، لا تعني أن يقطع قطعا اصطناعيا ما بين افريقيا وبين القارات الأخرى من العالم القديم والجديد من ارتباطات تاريخية، الا أن هذه الارتباطات سيتم تحليلها على أنها تعويضات تبادلية، وتأثيرات متعددة الجوانب، ستتجلى فيها المساهمات الايجابية لافريقيا في تطور البشرية. والنظرة التاريخية الافريقية لن تكون نظرة انتقام أو نظرة الرضى عن النفس. بل هي ممارسة حيوية للذاكرة الجماعية تمسح حقل الماضي لتتعرف فيه على جذورها الذاتية.

وبعد العديد من النظرات الخارجية وحتى الاشرطة المعاصرة التي كونت لافريقيا صورة نموذجية، تتفق مع المنافع الخارجية، فان الوقت قد حان لكي تنتشر النظرة الداخلية المتمثلة بالذاتية والأصالة والوعي «عَوْد الى الوطن» كما يقول جاك برك، كدلالة على الرجوع الى المصادر.

واذا ما نظرنا الى قيمة الفعل والاسم في افريقيا حيث يكاد اسم الشخص أن يصير ملكه، كما أن الأشخاص المحترمين (الأب، الزوج، الملك) كان يشار اليهم بجمل أو بألقاب. بهذا ندرك لماذا كانت سلسلة المسببات كلها وسلسلة التصورات ومجموعة الصيغ المتحجرة والأشكال الذهنية المتعلقة بتاريخ افريقيا، تتبع الاستلاب الأكثر نفاذا. فمن اللازم هنا أن نثور ثورة كوبرنيكية حقيقية، تبتدئ بالمعنى، فهي وان لا تنكر متطلبات العلم العالمي، تسترجع صبغة هذه القارة التاريخية في قوالب جديدة (٢٨).

كما سجل ج. مكنزي منذ سنة ١٨٨٧ بالنسبة الى الطسوانا (بوطسونا). كم من شعوب لم يذكر أحد اسمها بل لم تتفوه به هذه الشعوب نفسها ولا غيرها من الشعوب الافريقية. لقد مرت هذه الشعوب بمحنة الاستعمار، وخرجت منه الى الاستلاب. والطريق الاقوم للخروج منه نهائيا، ان تكتب أكثر فأكثر كتب التاريخ الافريقية باللغة الافريقية، وهذا يتطلب منا اصلاحات أخرى في

---

(٢٨) انظر في هذا المعنى البرهان المفيد الذي أدلى به أ. أ. اكنجقبين، ١٩٦٧. انطلاقا من المقارنة بين نظام الايبي (الاسرة الموسعة) الذي قد يكون مصدر سلطة الدو يو على الاسر، و بين النظام الدهومي الرامي الى ملاءمة النخاسة بواسطة ملكية قوية على الافراد، وهو يفسر الخلاف بين النظامين، انظر أيضا ب. فرناقن ١٩٧٤ ص ١٥٦: «الحدث الخام خيال، واللغة التي تدل عليه هي نظرية الحديث».

هيكل الكتاب. فكم من كتاب في تاريخ افريقيا لم يمدنا بأكثر من بضعة عشرة من صفحاته في تاريخ فترة ما قبل الاستعمار، بتعلة أننا لا نعرف الماضي كما ينبغي، فنقفز مباشرة من «العصور الحالكة» الى سائح مكتشف عظيم، أو الى حاكم ترعاه العناية من اله نجم فجأة، فعنده يبتدئ التاريخ الحق، اذ قرر أن يكون ماضي افريقيا كله ضربا من قبل التاريخ المخجل. نعم ليس الشأن أن ينكر ما كان للتأثيرات الخارجية من عمل اسراع أو تفجير، فادخال الاسلحة النارية مثلا في القرن السادس عشر الى السودان الأوسط، جعل للمشاة المكونين من العبيد الأولوين هيمنة على الخيالة الاقطاعيين. كان لهذا التحول أثره في بنية السلطة في السودان الأوسط، فحل الملك الكسيلا أو الكيغما من اصل العبيد، محل الوزير الشريف سيروما، الا أن التفاسير الآلية المعتمدة على التأثيرات الخارجية (يدخل في ذلك مساند الرؤوس) والمقابلات الاتوماتيكية، بين التأثيرات الخارجية وحركات التاريخ الافريقي، لابد أن تنبذ وأن يقام بتحليل دقيق جدا لابراز التناقضات والحركات الوطنية (٢٩).

ثم ان هذا التاريخ لن يكون الا تاريخ الشعوب الافريقية في مجموعها، باعتباره كلا يشمل الكتلة القارية، والجزر المجاورة لها، كمدغشقر حسب تحديد وثيقة «منظمة الوحدة الافريقية». يضم تاريخ افريقيا بالطبع قطاع البحر الأبيض المتوسط في وحدة أقرتها كثرة الروابط منذ آلاف السنين (أحيانا دامية) ولكن في غالب الأحيان أغنت بعضها البعض، فجعلت من افريقيا على ضفتي مفصل الصحراء مصراعي باب واحد ووجهي ميدالية واحدة.

وهو تاريخ للشعوب، اذ نرى في افريقيا أن استبداد بعض الأسر المالكة نفسه قد خففت منه دائما المسافة وانعدام الوسائل التقنية التي تزيد ثقل التمركز خطرا، كما خففت منه استمرار الديمقراطيات القروية، فمن جميع المستويات، من القاعدة الى القمة، يلتئم المجلس من النقاش من أجل النقاش وهو يمثل عقل الجسد السياسي، هو تاريخ شعوب، اذ فيما عدا العشريات المعاصرة، لم يتقولب هذا التاريخ ضمن الحدود التي أقرها الاستعمار وذلك لان المجال الجغرافي للشعوب الافريقية تجاوز من كل جانب، الحدود الموروثة عن التقسيم الاستعماري.

لنأخذ مثلا من بين ألف مثل، السنوفو المنتشرين على جزء من مالي ومن ساحل العاج ومن فولطا العليا. وفي الاطار القاري العام يجب التأكيد على العوامل المشتركة الناجمة عن أصول مشتركة ومن مبادلات جهوية خلال آلاف السنين موضوعها الرجال والبضائع والصنائع والافكار، وبعبارة واحدة، الخيرات المادية والفكرية.

فرغم العقبات الطبيعية ورغم ضعف مستوى الصناعات، كان من قبل التاريخ ثمة تضامن تاريخي قاري، بين وادي النيل والسودان حتى الغابة الغينية، وبين وادي النيل نفسه وافريقيا الشرقية، ومع الأحداث انتشر اللولو بين السودان وافريقيا الوسطى، وتفرق البنتو بين واجهة المحيط الاطلسي والساحل الشرقي بواسطة التجارة عبر القارة من خلال السحابا.

---

(٢٩) انظر ر. س س. لاو. يفسر المؤلف انحطاط ايدو بالاعتماد على التوترات الداخلية بين الأصناف الاجتماعية التي كان لها مطمع في السلطة: العبيد، عمال الالافنع (الملك) في المقاطعات، المقاطعات في الحكم الثلاثي من الخصيان الملكيين (من الوسط، ومن اليمين، ومن اليسار).

ينبغي أن لا تحلل ظواهر الهجرة على مدى كبير في الزمان والمكان كتيار جارف لكتل متدفقة يجلبها الخلاء أو يتكون الخلاء عقب مرورها. وحتى «الساقا» المتهاطلة في شاكا والمفكان فلا يمكن تفسيرها بهذه الصبغة فقط، وصعود جموع نحو الشمال (فولطا العليا) انطلاقا من داقوما وممبروسي (غانة)، انما تم بجماعات من الخيالة تملكوا المناطق مرحلة مرحلة، الا أنه لم يكن في وسعهم ان يقوموا بعملهم هذا الا بالالتحام مع أهالي المناطق عن طريق الزواج من نسائهم. والامتيازات القضائية التي كانوا يمنحونها أنفسهم بعثت بسرعة على نشرة عادة تشريط وجوههم (وهو ضرب من التعريف بالهوية) يتسم على العديد من الوجوه، استطاعت لغتهم ونظمهم الأولية أن تمحي تلك التي للشعوب الأخرى، بينما بقيت عادات، تتصل مثلا بالطقوس الزراعية أو التي كانت ترتب حقوق الاقامة، بقي ذلك باشراف، رؤساء الارض المحليين، وانتظمت علاقات «القرابة بالمداعبة» مع بعض الشعوب التي صادفتها في طريقهم. والفاتح العظيم «موسى» أبرى كان من قبل أيضا «هجينا» وصورة التطور بالامتصاص هذه لابد أن يحل محلها في الغالب السنار يو الرومنتي البسيط للزحف الكاسح والمخرب، كما صور طويلا و بصورة خاطئة استيلاء بني هلال على شمال افريقيا.

ان تطرفات الانترو بولوجيا الطبيعية ذات الآراء المسبقة العنصرية، قد ألقى بها اليوم ظهر الحائط المؤرخون الجديون، ولكن «الحاميين» وغيرهم من «الأجناس السمراء» الذين افترض وجودهم لأسباب ما، تخامرهم السرابات وأوهام عقلية أصبحت علمية.

يقول هرنيو (٣٠) في نص مهم: «لا يمكن أن يكون مثل هذا وحدة دراسية بيولوجية فلا يؤلف الفلانيون مجموعة بيولوجية بل ثقافية، وأقرب أقرباء الفلانيون في جنوب الكمرون مثلا، من الناحية البيولوجية، هم الهيا في تنزانيا. وأما القرابة البيولوجية بين المغاربة والورسالي بالصومال، فهي وراثية من جهة كما هي ناشئة عن البيئة الحيوية المتشابهة التي تتحكم فيهم بيئة السهوب القاحلة».

ولا تخلو المعطيات البيولوجية بالذات والتي أدخل عليها الانتقاء أو التغيير الوراثي من الاضطراب المستمر منذ آلاف السنين، لذلك لا تشكل مرجعا ثابتا للتصنيف، كذلك الأمر فيما يخص المجموعة الدموية، وتكاثر (العنصر الوراثي) الذي يحدد خضابا دمويا مشوها اذا ما أشرك مع عنصر وراثي طبيعي ضاعف المقاومة ضد حمى الملاريا. وهذا هو الدور الرئيسي الذي تقوم به المواءمة مع الوسط الطبيعي. مثلا أن القامة الطويلة والوركين الاعرضين تتطابق مع المناطق ذات الجفاف القوي والحرارة الشديدة. وعلى هذا الاساس فان شكل الجمجمة الأكثر ضيقا وارتفاعا (ذات الشكل المستطيل) هو مواءمة تمكن من امتصاص الحرارة بكيفية أقل. ان لفظ القبيلة (٣١) اذن سوف يهجر ما أمكن ذلك فيما عدا بعض الجهات في افريقيا الشمالية، سوف يهجر عند كتابة هذا التاريخ بسبب ما احيط به من مدلولات الاحتقار وما يثيره من أفكار مخطئة، وكثيرا ما أكد على أن القبيلة

---

(٣٠) ج. هرنيو، ١٩٦٧. الصفحة ٥٣ وما بعدها.

(٣١) ان لفظ (قبيلة) باللغة العربية يدل على مجموعة من الأشخاص تربطهم أواصر النسب الى جد مشترك و يعيشون على أرض محددة. وعند الشعوب السامية (العرب ــ البربر ــ الخ) يبقى للانساب أهمية بالغة. والقبيلة وتعني بالفرنسية (TRIBU)، قد لعبت في تاريخ كثير من بلاد شمالي أفريقية ومازالت تلعب أحيانا دورا هاما لا يمكن اغفاله. ولكي نحفظ لهذه الكلمة مدلولها التاريخي والاجتماعي الثقافي، فاننا سنستعملها كما هي في صورتها الأصلية.

هي أساسا وحدة ثقافية وأحيانا سياسية، ولكن بعضهم يستمر على رؤيته لها كرصيد بيولوجي متمين، و يبرز ما في الحروب القبلية من قساوة، تلك الحروب التي كانت تنتهي غالبا ببضع عشرات من الضحايا أو أدنى، بينما هم يتعامون عن كل التبادلات الايجابية التي ربطت بين الشعوب الافريقية، في المستوى البيولوجي والصناعي والثقافي والديني والاجتماعي والسياسي الخ، مما يضفي على الآثار الافريقية صبغة عائلية لا شك فيها.

و ينبغي أيضا أن يتجنب هذا التاريخ أن يكون تاريخ أحداث فقط، فيكون اذاك عرضة لأن يبرز ابرازا مفرطا، التأثيرات والعوامل الخارجية. نعم، ان اقرار الأحداث الموجهة عمل أساسي لابد منه حتى لاظهار الملامح الاصيلة للتطور الافريقي. ولكن ما هو أهم أن يتجه الى الحضارات والمؤسسات والبنيات التقنية والزراعية والمعدنية، والى الفنون والصناعات التقليدية، الى الدورات التجارية وتطورات السلطة وتعديلاتها، الى المعتقدات والرأي الفلسفي أو الديني، والى مشكلة التقنية والمعاصرة عند الأقوام وما قبل الأقوام. و يتطلب هذا الاختيار المنهاجي تطلبا أقوى فكرة تعدد الاختصاصات.

وفي النهاية، لماذا هذا الرجوع الى المصادر الافريقية؟ فلئن كان البحث عن هذا الماضي بالنسبة الى الأجانب، لمجرد ارضاء حاجة حب الاطلاع لديهم أو لممارسة رياضة فكرية منشطة لعقل متلهف، لاستجواب أبي الهول، فانه ينبغي أن يتجاوز هذا المشروع هذه النظرات الفردية. فتاريخ افريقيا ضروري لادراك التاريخ العالمي الذي سيبقى عدد من لوحاته الغازا قاتمة، ما لم ينيره الأفق التاريخي للقارة الافريقية.

وعلى المستوى المنهجي فان صياغة التاريخ الافريقي حسب الانماط الواردة في هذا المجلد، من شأنها أن تدعم خطة اتباع التاريخ التام المكتشف في كل مستوياته وكل أبعاده، بواسطة مجموعة أدوات البحث الموجودة الممكنة.

وهكذا سيصير التاريخ ذلك النهج السمفوني الانسجام حيث تعطى فيه الكلمة بصورة متوافقة لجميع أنواع الاختصاص، و يتحول اقتران الأصوات الفريد النوع حسب مواضيع البحث وحسب أوقاته كي توافق متطلبات الخطاب.

ولكن اعادة تشييد البناء بعد فنائه، ذلك البناء الذي كان في الماضي من حجارة حيّة، يهم أيضا و بالذات الأفارقة الذين يجدون فيه مصلحة محسوسة، والذين يلجون هذا الميدان بعد أن حرموا منه طيلة قرون أو عشرات السنين من الحرمان، شأنهم شأن المنفي الذي يكتشف، في وقت واحد، الخطوط الجديدة والقديمة لمشهد الوطن الذي يحن اليه، لأنه سبق أن أقام فيه.

ان من عاش بدون تاريخ عاش على شكل حطام أو لنقل عاش كمن يحمل جذور غيره، أو هو كمن تخلى عن أن يكون هو ذاته، جذرا لغيره ممن يأتي بعده، ؟ وهو وسط خضم التطور البشري يرتضي بدور مجهول الاسم، دور كغلق البحر أو أحادية الخلية. فعلى رجل الدولة الافريقي أن يهتم بالتاريخ كجزء أساسي من التراث القومي، هو وصي عليه، خاصة وانه لن يكون بوسعه أن يتعرف على سائر البلدان الافريقية من خلال منظور الوحدة الافريقية الا بالتاريخ.

على أن هذا التاريخ ضروري للشعوب نفسها وهو حق أساسي لها، وعلى الدول الافريقية أن تكون جماعات تعمل على انقاذ أقصى ما يمكن من الآثار التاريخية قبل أن يفوت الأوان، ولا بد من

إنشاء متاحف ومن سن قوانين لحماية المواقع التاريخية والأشياء.

ويجب أن تـمـنـح المنح لتكوين علماء في الآثار، ويجب أن تحور المناهج والشهادات طبقا لمنظور افريقي. فالتاريخ منهل يمكننا أن لا نرى فيه خيالنا فحسب، وأن نتعرف على نفوسنا منه، بل ان نرتوي ونجدد القوى لتحقيق التقدم ضمن قافلة الرقي البشرية. واذا كانت تلك غاية تاريخ افريقيا هذا، فالبحث المضني الممل وما يتخلله من تجارب قاسية، سوف يكشف بلا شك عن طريق بحث مثمر غني عن ايحاءات متعددة الأشكال.

وتحت رماد الماضي الهامد، تتحرك دائما في موضع ما، شرارات تحمل نور البعث.

الفصل الأول

تطوير التدوين التاريخي في أفريقيا

ج. د. فاج

ان أولى محاولات تأريخ افريقيا هي قديمة قدم بداية التاريخ المكتوب. فمؤرخو عالم البحر الأبيض المتوسط القديم ومؤرخو الحضارة الاسلامية في العصر الوسيط، اتخذوا كلهم اطارا معتمدا هو مجموع العالم المعروف، وكان يشمل جزءا هاما من افريقيا. وكانت افريقيا الكائنة شمال الصحراء جزءا لا يتجزأ من هاتين الحضارتين، وكان ماضيها واحدا من مواضيع اهتمام مؤرخيهم بنفس قوة اهتمامهم بأوربا الجنوبية وبالشرق الأدنى، بل ان تاريخ افريقيا الشمالية بقي قسما أساسيا من الدراسات التاريخية حتى امتداد الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر.

واثر حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ صارت افريقيا الشمالية من جديد حقل دراسات لا يستهان به تولاه المؤرخون. ومع انتشار السلطة الاستعمارية الأوربية على افريقيا الشمالية الذي أعقب الاستيلاء على الجزائر من قبل الفرنسيين سنة ١٨٣٠، واحتلال مصر من قبل البريطانيين سنة ١٨٨١، سادت أعمال تأريخ شمال افريقيا وجهة نظر أوربية استعمارية، على أنه منذ سنة ١٩٤٠ ظهرت حركة التجديد في الاسلام، وانتشر التعليم على النمط الاوربي في مستعمرات شمالي افريقيا، ونشأت حركات قومية بشمالي افريقيا. كل ذلك أدى لظهور مدارس محلية للتاريخ، كانت تحرر لا بالعربية فحسب، بل وبالفرنسية والانكليزية فحققت لافريقيا الشمالية التوازن في الدراسات التاريخية.

فهذا الفصل سيهتم اذن بصورة أولية بتدوين التاريخ في افريقيا الغربية والوسطى والشرقية والجنوبية. ورغم كون المؤرخين الكلاسكيين والمؤرخين الاسلاميين في العصر الوسيط، لم يعتبروا افريقيا الاستوائية عديمة الاهتمام، فان آفاقهم كانت محدودة، اذ كانت الاتصالات التي من

الممكن أن تكون لهم معها قليلة، عبر الصحراء نحو الحبشة أو بلاد السودان أو على طول سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، حتى الحدود التي كانت تسمح بها البحارة الموسمية.

ان أخبار المؤرخين القدامى، لا سيما فيما يخص افريقيا الغربية، كانت ضئيلة متفرقة. فهيرودوت ومنيتون و بلين القديم واسترابون وآخرون غيرهم، لم يسردوا باختصار الا عن رحلات قليلة أو زحف عبر الصحراء، أو أسفار بحرية على سواحل المحيط الأطلسي، على أنه أثيرت حول صدق بعض هذه الأحاديث جدالات حادة بين الاخصائيين. وأما الارشادات المعهودة عن البحر الاحمر والمحيط الهندي فلها أساس أكثر جدية، إذ من المحقق أن تجار البحر الأبيض المتوسط وعلى الأقل تجار الاسكندرية، قد نشروا التجارة على هذه الشواطىء. «فرحلة بحر ارتريا» (حوالي سنة ١٠٠ +) وآثار كلود بطليموس (حوالي ١٥٠ +) (ولكن يبدو أن النص الذي وصلنا منها يتعلق أكثر بتاريخ يقارب عام ٤٠٠ +). وأعمال كوزماس هنديكوبلطس (٦٤٧ +)، هي المصادر الرئيسية للتاريخ القديم في افريقيا الشرقية.

ولقد كان المؤلفون العرب أكثر اطلاعا، ففي عصرهم كان استخدام الجمل من قبل شعوب الصحراء قد سهل انشاء تجارة منظمة مع افريقيا الغربية، وامتداد تجار شمالي افريقيا في أهم مدن السودان الغربي، ومن جهة أخرى فقد تطورت التجارة مع الجزء الغربي من المحيط الهندي، حتى أن عددا عظيما من تجار جزيرة العرب ومن الشرق الأدنى، انتشروا على طول السواحل الشرقية من افريقيا.

فالآثار التي قدمها أمثال المسعودي (المتوفي حوالي ٩٥٠ +) والبكري (١٠٢٩ — ١٠٩٤) والادريسي (١١٥٤) و ياقوت (حوالي ١٢٠٠) وأبي الفداء (١٢٧٣ — ١٣٣١) والعمري (١٣٠١ — ١٣٤٩) وابن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٦٩) والحسن بن محمد الوزان المعروف في أوربا باسم ليون الافريقي حوالي (١٤٩٤ — ١٥٥٢) لها أعظم الأهمية لاعادة بناء تاريخ افريقيا، ولا سيما تاريخ السودان الأوسط، خلال فترة تتراوح تقريبا بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادي.

على أنه مهما كانت هذه الأعمال مفيدة للمؤرخين المعاصرين، فانه يشك أن نعتبر أحدا منهم أو من الدارسين السابقين، من المؤرخين الرئيسيين لافريقيا. فمعظم ما يقدمه كل منهم وصف لجهات افريقيا حسب معلومات أمكنهم جمعها في العصر الذي كتبوا فيه. ولا وجود لدراسة نظامية للتغييرات التي طرأت عبر العصور، وهذا هو الهدف الحقيقي للمؤرخ. وحتى الوصف الوارد لديهم، لم يكن متزامنا فعلا، فان صح أن بعضا من المعلومات كان معاصرا للكاتب، فإن أجزاء أخرى، وان اعتبرت حقيقية في عصر الكاتب، فإنها قد استمدت من تقارير سابقة. و يعاب أيضا على هذه الكتابات أنها عامة، لا تحوي أي وسيلة تساعد على تقويم الخبر، ومعرفة ما اذا كان الكاتب قد تلقاها من ملاحظته الشخصية أم من ملاحظة مباشرة لمعاصر له، أو هل هو يروي فقط، ما شاع في عصره، أو يروي رأي مؤلفين سابقين. و يقدم ليون الافريقي مثلا مفيدا في هذا الشأن، فهو نفسه مثل ابن بطوطة ارتحل في افريقيا، ولكن، خلافا لابن بطوطة، ليس من يقين البتة، أن ما يورده من خبر مستمد من ملاحظاته الشخصية.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير الى أن لفظ «تاريخ» ليس مما لا يداخله الالتباس. ومدلوله المتداول اليوم يمكن تعريفه على أنه عرض منهجي لاحداث فترة محددة، ولكنه أيضا من الممكن أن يعرّف حسب التعريف القديم «من أنه: وصف منهجي للظواهر الطبيعية» وبهذا المعنى، أساسا، استخدم في العنوان المحدد بالانكليزية في كتاب ليون الافريقي (ليون الافريقي: التاريخ الجغرافي لافريقيا - وبالفرنسية: وصف افريقيا) ويبقى هذا المعنى صحيحا حقا اليوم في العبارة القديمة. التاريخ الطبيعي (وقد كان فعلا عنوان كتاب بلين).

لكن من بين مؤرخي افريقيا الأوائل هناك مؤرخ هام جدا، مؤرخ عظيم بأتم معنى الكلمة، هو ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) فلو كان معروفا أكثر عند العلماء الغربيين، لاضطروا أن ينزعوا عن هيرودوت لقب «أب التاريخ». وابن خلدون من شمالي افريقيا، ولد في تونس. وقد خصّ قسما من كتابه عن افريقيا (١) وعلاقتها بسائر شعوب البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى. وحسب فهمه لهذه العلاقات، استقرى ابن خلدون مفهوما للتاريخ، جعل منه ظاهرة دورية يستولي فيها أعراب السهوب والبوادي على الأراضي الزراعية من الشعوب المستقرة، ويركزون فيها ممالك فسيحة، وبعد ثلاثة أجيال تقريبا تفقد حيويتها وتصير هي نفسها معرضة لغزوات جديدة من قبل أهل البادية، وهذا بالفعل انموذج صالح لقسم كبير من تاريخ افريقيا الشمالية. واستعمل مؤرخ عظيم هو مارك بلوك (٢)، آراء ابن خلدون ليدلي بتفسير وضاء لتاريخ أوربا في بداية القرون الوسطى. وابن خلدون يتميز عن معاصريه، ليس لكونه ارتأى فلسفة للتاريخ، بل لأنه أيضا أو بالأخص لكونه خلافا لهم، لم يكن يرتبط بذات الوزن وذات القيمة، بنبذ الأخبار التي كان بامكانه الحصول عليها عن الماضي، وكان يعتبر أنه من الواجب الاقتراب من الحقيقة خطوة خطوة عن طريق النقد والقياس.

وابن خلدون في الواقع مؤرخ عصري شديد المعاصرة، ونحن مدينون له بما يكاد يكون تاريخ افريقيا الاستوائية بالمعنى العصري، فبوصفه من شمالي افريقيا وكذلك — ورغم جدة فلسفته وطريقته — لكونه كان يعمل في اطار التقاليد القديمة المتوسطية والاسلامية، انه لم يتخل عن الاهتمام بما كان يجري وراء الصحراء، فثمة باب من أبواب مؤلفه (٣) هو في الواقع تاريخ امبراطورية مالي التي وصلت في عهده الأوج أو كادت. وهذا الباب كان يعتمد جزئيا على الرواية الشفاهية التي كانت تجري في عصره، ولهذا السبب فانه يبقى حتى اليوم، من المصادر الرئيسية لتاريخ هذه الدولة الافريقية الكبرى.

ولم يكن في امكان أي دولة عظيمة قوية مثل مالي، أو حتى الدول الأقل أهمية كممالك الهوسا الأولى أو المدن المستقلة على الساحل الشرقي الافريقي، أن تحتفظ بهويتها وكمالها، بدون رواية معترف بها تتعلق بنشوئها وتطورها، ولما اجتاز الاسلام الصحراء وانتشر على طول الشاطىء الشرقي

(١) أهم العروض عن افريقيا توجد في مؤلفه الأعظم، المقدمة (ترجمة فرنسية لفنسان مونتال) وفي جزء من تاريخه الذي ترجمه دي سلان بعنوان «تاريخ البربر».

(٢) انظر مارك بلوك ١٩٣٩، ص ٩١.

(٣) في ترجمة م. ج. دي سلان المعنون «تاريخ البربر» (١٩٢٥ — ١٩٥٦) يقع هذا الباب في الجزء ٢، ص ١٠٥ — ١١٦.

آتيا معه بالكتابة العربية، أضاف سود الأفارقة الى الوثائق الشفاهية استعمال النصوص المكتوبة التي كانت بين أيديهم للحفاظ على تاريخهم.

ومن بين النماذج الأولى من هذه المؤلفات التاريخية التي نعرفها اليوم، فان أنجحها قد يكون كتاب «تاريخ السودان» «وكتاب تاريخ الفتاش» (٤) وقد كتبا في معظمها، في تنبكتو خلال القرن السابع عشر.

وفي كليهما يعرض المؤلفان أحداث عصرهما والفترة السابقة له، مباشرة، مع عديد من الارشادات الجزئية غير غافلين عن تحليلها وتفسيرها، ولقد قدما هذه العروض النقدية، باشارة تتعلق بالروايات الشفوية المتعلقة بعهود أقدم، فكانت النتيجة لا تقتصر على تاريخ امبراطورية صنغاي وعلى فتحها واستيلاء المغاربة عليها فحسب، بل كانت محاولة لتعيين ما كان مهما في تاريخ المنطقة السابق، ولا سيما في تاريخ الامبراطوريات القديمة بغانة ومالي.

لهذا يتعين تمييز تواريخ تمبكتو على سائر المؤلفات التاريخية القديمة المكتوبة بالعربية من قبل أفارقة، كالتي تعرف باسم «تاريخ كانو» و «تاريخ كلوا» (٥) فهي تروي لنا تسجيلات كتابية مباشرة لروايات بقيت ولا شك، متداولة شفاهيا حتى ذلك العصر. وان يبدو أن ترجمة تاريخ كلوا قد استغله المؤرخ البرتغالي دوبرّوس في القرن السادس عشر. وليس ما يدل أن تاريخ كانو كان موجودا قبل بداية القرن التاسع عشر تقريبا.

ومن الجدير بالذكر أن التواريخ العربية من هذا النوع، لم تقتصر حتما على أجزاء افريقيا التي تم ادخالها في الاسلام. ففي وسط غانا الحالي مثلا، قد انتج «كتاب الغنجة» في القرن الثامن عشر، ثم ان أبحاث العلماء الجديدة مثل أبحاث «افورولكس» قد كشفت عن مئات من المخطوطات العربية، أصلها من هذه المنطقة أو من الجهات المجاورة (٦)، ولا ننسى أيضا أن قسما من افريقيا الاستوائية التي صارت اثيوبيا، كان له لغته الخاصة الساميّة، لغة القُيز في البداية ثم الأمهرية، وفيها حفظت تقاليد أدبية وتطورت طيلة ما يقرب من ألفي سنة. ومما لا شك فيه أن هذه التقاليد أنشأت مصنفات تاريخية منذ القرن الرابع عشر مثل تاريخ حروب أمداسيون (٧). ولم تظهر المصنفات التاريخية في اللغات الافريقية الأخرى، كالهوسا والسواحلي، وهي الكتابات المختلفة عن الكتابات العربية المستوردة، ولكنها تستعمل حروفه، الا في القرن التاسع عشر.

وشرع الأوربيون في الاتصال بالجهات الساحلية من افريقيا الاستوائية في القرن الخامس عشر، فنتج عن ذلك بسرعة، انتاج أدبي يوفر مواد ثمينة جدا للمؤرخين المعاصرين. ووقع الاهتمام

---

(٤) ترجم تاريخ السودان الى الفرنسية وعلق عليه أ. هوداس (١٩٠٠) وتاريخ الفتاش لمؤلفيه هوداس و م. دولافوس (١٩١٣).

(٥) توجد ترجمة انكليزية لتاريخ كانولدى هـ. ر. بلمر: مذكرات سودانية (١٩٢٨) مجلد ٣، ص ٩٢ — ١٣٢، ومن تاريخ كلوامندج س، ب وفريمن قرنفيل «الساحل الشرقي الافريقي» (١٩٦٢) ص ٣٤ — ٦٩.

(٦) عن كتاب الغنجة ومجموعة المحافظات العربية بغانة المعاصرة، انظر نهمين لفتزيون «المسلمون والرؤساء في غرب افريقيا» ١٩٦٨، خاصة الصفحات ١٥ — ٢٢، وافرولكس «نشأة التعليم الاسلامي في غانة» مجلة تاريخ الاجتماع، نيجيريا، ٤ (١٩٦٣) ص ٤٠٩ — ٤١٧، وطوماس هدقكين «التقاليد الادبية الاسلامية في غانة» ولدى أ. م. لويس (مؤلف كتاب) الاسلام في افريقيا الاستوائية (١٩٦٦) ص ٤٤٢ — ٤٦٠.

(٧) توجد عدة ترجمات لهذا الكتاب ولا سيما واحدة بالفرنسية قام بها ج. قروشون في المجلة الاستوائية ١٨٨٩.

خاصة بأربع جهات من افريقيا الاستوائية: السواحل الغينية في افريقيا الغربية، وجهة الزايير الأدنى والانقولا، ووادي الزمبار والمرتفعات المجاورة له، وأخيرا اثيوبيا. وتوغل التدخل في أراضي هذه الجهات الثلاث الأخيرة، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولكن كما كان الأمر بالنسبة الى المصنفين السابقين الا تباعيين أو العرب، لم تكن النتيجة دائما ومباشرة، القيام بتأليف كتب عن تاريخ افريقيا.

ان ساحل غينيا هو أول ما اكتشفه الأوربيون من افريقيا الاستوائية، وألفت في شأنه عدة كتب منذ عام ١٤٦٠ تقريبا (كادامستو) حتى بداية القرن الثامن عشر (بربو وبسمان)، وكان للكثير من هذه المواد قيمة تاريخية كبرى، اذ توفر شهادات عيان مؤرخة، فيمكن بها أن تعيّن عددا كبيرا من العلاقات ذات الصبغة التاريخية.

كما اشتملت هذه الكتب على كميات من المواد التاريخية (أي مما لم يكن معاصر لها) وبخاصة عند دبر (١٦٨٨) الذي لم يسلك مسلك غيره من المؤلفين في الملاحظة المباشرة، بل اقتصر على جمع روايات غيره. الا أن الغرض الأساسي لدى هؤلاء المؤلفين جميعا، كان يتمثل في وصف الحالة المعاصرة، في كتابة التاريخ. بيد أننا اليوم فقط، وقد تم احياء قسم كبير من تاريخ افريقيا الغربية أصبح بامكاننا أن نقدر أقوال هؤلاء المؤلفين حق قدرها (٨).

وأما في سائر الجهات التي أعارها الأوربيون اهتماما في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد كانت الحالة على خلاف ذلك قليلا، ولعل هذا ناشيء عن كونها كانت مجال نشاط المبشرين الأولين، بينما كان المحرك الاساسي للاوربيين في غينيا هو التجارة. فطالما كان الافارقة يوفرون للاوربيين من البضائع ما يبتغون اقتناءه، كما كان الأمر بصورة عامة في غينيا، لكن ما كان بوسع التجار أن يشعروا بدافع نحو ما يغير المجتمع الافريقي بل اقتصروا على ملاحظته، على نقيض المبشرين الذين كانوا يحسون الى حد ما بوجوب القيام بتأريخ افريقيا. ففي اثيوبيا كانت الأسس موجودة من قبل، وكان بالامكان استغلال التواريخ وسائر كتابات البلاد، وشرع رائدان جليلان من المبشرين في كتابة تاريخ أثيوبيا، هما بدرو بايز (ت ١٦٢٢) ومانول الالميدي (١٥٦٩ — ١٦٤٦) كما ألف تاريخ كامل بقلم أحد المستشرقين الأوربيين الاولين جوب لودلف (١٦٢٤ — ١٧٠٤) (٩).

وفي وادي الكنغو السفلي والانقولا، كما في وادي الزمبير وحواليه، كانت المصالح التجارية بدون شك أقوى من مصالح التبشير. ولم يكن المجتمع التقليدي الافريقي بجمله، مستعدا دون ضغط قوي، لأن يوفر للاوربيين ما كانوا يبغون، فنتج عن ذلك أن أرغم بكيفية مأسوية على التغيير، فلم يكن بمقدور المحاولات الوصفية نفسها الا أن تصبح الجانب التاريخي. وثمة عناصر مهمة للتاريخ

(٨) رحلات كاد أمستو، ج. ر. كرون (١٩٣٧)، جون بربو (١٧٣٢) و يليام بسمان (نشرة معلق عليها ١٩٦٧).

(٩) في كتاب س. بكاري: الامور الاثيوبية في الكتابات الغربية غير المنشورة (روما ١٩٠٥ — ١٩١٧) يحل كتاب بايز في المجلدين الثاني والثالث وكتاب الميدا في المجلدين ٥ و ٧. وتوجد ترجمة جزئية انكليزية لالميدا في س. ف. بكنقهام وج وب هنتقفرد: بعض ذكريات اثيوبيا (١٥٩٣ — ١٦٤٦) (١٩٥٤) ونشر تاريخ اثيوبيا للودلف في فرنكفورت سنة ١٦٨١.

توجد فعلا في كتب مؤلفين من أمثال، بقافقا ولوبيز (١٥٩١) وكافاتزي (١٦٨٧)، ونشر كادور يقا سنة ١٦٨١ تاريخ الحروب الانغولية (١٠).

ومنذ القرن الثامن عشر يبدو أن افريقيا الاستوائية نالت من المؤرخين الأوربيين ما تستحق من الاهتمام، وكان بالامكان مثلا أن يستغل الكتابُ السابقون الذين يغلب على أسلوبهم الوصف كمصادر تاريخية، أمثال ليون الافريقي ودبر، بحيث تمكنت كتب التاريخ والجغرافيا العامة في تلك المدة، كالتاريخ العالمي المنشور بانكلترا بين ١٧٣٦ و ١٧٦٥، الذي أمكن أن يخصص لافريقيا عددا من الصفحات لا يستهان به (١١).

ووجدت أيضا محاولات أحادية الموضوع «كتاريخ انقولا» بقلم سلفا كرين (حوالي ١٧٩٢) و«لمحة تاريخية عن غينيا» بقلم بنزيت (١٧٧٢) وكتابا تاريخ الداهماي: مذكرات ملك بُسّا أهادي بقلم نريس (١٧٨٩) وتاريخ الداهماي بقلم دلزل (١٧٩٣)، الا أنه ينبغي الاشارة هنا الى أن كتاب سلفا كرّين لم ينشر إلا خلال القرن الحاضر (١٢).

وأما الكتب الثلاثة المذكورة أعلاه، فانها نشرت في ذلك العصر فذلك لأن في القرن الثامن عشر، بدأ الجدل يحتد حول نخاسة العبيد التي كانت العنصر الرئيسي في العلاقات بين أوربا وافريقيا الاستوائية منذ مائة وخمسين سنة على الأقل. فدلزل ونريس اللذان كانا يستغلان خبرتهما في تجارة العبيد في الداهماي كما فعل بنزيت، قد كانا يقومان بعمل مؤرخين، الا أن كتبهما كانت تهدف الى توفير الحجج لمؤيدي أو معارضي الغاء تجارة الرقيق.

ولو كان الأمر بخلاف ذلك،لما وجدت هاتة الكتب من يشتريها، اذ في ذلك العصر بدأ الاتجاه الرئيسي للثقافة الأوربية يعتبر أكثر فأكثر المجتمعات غير الاوربية متخلفة، مصرحا أن ليس لها تاريخ يستحق أن يدرس. ونجمت عن هذه العقلية تيارات التفكير المنبثقة عن النهضة الأوربية الى عصر النور وحتى الثورة العلمية والصناعية الزاهرة. فبالاعتماد على ما اعتبر تراثا موحدا، اغريقيا رومانيا، ظن المثقفون الأوربيون أن أغراض مجتمعهم ومعارفه وقوته وثروته، كان لها من السيطرة ما أوجب تقدم الحضارة الأوربية على ما سواها، فكان تاريخه مفتاح كل معرفة وتاريخ، في سائر المجتمعات التي لم يكن لها قيمة. واتخذ هذا الموقف على الأخص ازاء افريقيا، وذلك أن الاوربيين، صاروا لا يعرفون افريقيا والافارقة الا من زاوية تجارة الرقيق، بينما كانت هذه التجارة عينها هي التي تسببت في فوضى اجتماعية تتفاقم أكثر فأكثر في العديد من أقسام القارة.

وحدد هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) هذا الموقف صراحة في كتابه «فلسفة التاريخ» الذي يحتوي على تأكيدات من هذا النوع: «ليست افريقيا قارة تاريخية، اذ لا تبدي تغييرا ولا تطورا». والشعوب السود (ليس في وسعهم أن يتطوروا ولا أن يتأدبوا، نراهم نحن اليوم على هذه الحال، وهم كانوا دائما كذلك). ومن الجدير أن نلاحظ أنه منذ سنة ١٧٩٣ رأى المسؤول عن نشر كتاب دلزل أنه من اللازم أن يبرر نشر تاريخ للداهماي. فيقف موقف هيجل نفسه و يصرح: «لندرك حقا

(١٠) أ. دي اليفيرا دي كادرنقا: التاريخ العام للحروب الانكليزية شرح م. دلقادو و أ. داكنها (لشبونة ١٩٤٠ — ١٩٤٢).
(١١) تشتمل نشرة «التاريخ العالمي» على ٢٣ مجلدا خصص ١٦ منها للتاريخ المعاصر ومن بين هذه اثنان لافريقيا.
(١٢) لشبونة ١٩٣٧.

الطبيعة البشرية، لا بد من أن نشق طريقا عبر تاريخ أكثر الأقوام تخوشنا[....] ولا سبيل الى الحكم على قيمة الثقافة في تقويم السعادة البشرية، الا بمقارنات من هذا النوع» (١٣).

وتأثير هيجل المباشر على تحرير تاريخ افريقيا كان ضعيفا، ومع ذلك فان الرأي الذي كان يظهره، استقاه أصحاب الرأي التاريخي المستقيم في القرن التاسع عشر. وهذا الرأي الذي أكل عليه الدهر وشرب، والذي يفتقد الى مستند، مازال له حتى اليوم أنصار. أفلم يصرح أستاذ تاريخ معاصر في جامعة اكسفورد: «قد يصير في المستقبل تاريخ يدرس لافريقيا، أمّا اليوم فليس لها تاريخ، وهناك فقط تاريخ الأوربيين في افريقيا. وما عدا ذلك ظلمات. وليست الظلمات موضوعا للتاريخ. افهموني جيدا، اني لا أنكر أن أناسا قد أوجدوا حتى في البلدان الحالكة والعصور القاتمة، كما لا أنكر أنه كان لهم حياة سياسية وثقافة مفيدة لعلماء الإجتماع والانتروبولوجيا، ولكني أعتقد أن التاريخ أساسا هوضرب من الحركة، بل من الحركة المقصودة. وهو ليس مجرد أشباح أشكال وعادات متحولة ومعارك وغزوات، وأسر مالكة واغتصابات و بنيات اجتماعية وتفكك اجتماعي...»

لقد كان يعتبر أن «التاريخ بل دراسة التاريخ، ترمي الى هدف. فنحن ندرسه[....] لنكتشف كيف وصلنا الى ما وصلنا اليه» و يضيف قائلا: ان العالم الحاضر تسيطر عليه أفكار أوربا الغربية وتقنياتها وقيمها سيطرة تجعل تاريخ أوربا وحده هو الذي يعتد به، على الأقل خلال القرون الخمسة الأخيرة، و بقدر ما لتاريخ العالم من أهمية. فلا يمكننا اذن أن نسمح لأنفسنا «أن نتسلى بحركات لا جدوى من ورائها لقبائل بربرية في مناطق جميلة في العالم، لكن لم يكن لها أي أثر على ما عداها» (١٤) ومن عجائب الصدف أنه في حياة هيجل، شرع الأوربيون في اكتشاف افريقيا اكتشافا حقيقيا عصريا علميا، وشرعوا هكذا في وضع أسس للتقويم المنطقي لتاريخ المجتمعات الافريقية وما حققته من أعمال، وكان هذا الاكتشاف مرتبطا من جهة برد الفعل ضد الرق وتجارة العبيد، و بالمزاحمة على الأسواق الافريقية من جهة أخرى.

وكان بعض من الاوربيين الأولين يحدوهم حبّ صادق للاطلاع على ما في امكانهم ان يقفوا عليه من ماضي الشعوب الافريقية، يجمعون المواد التي يعثرون عليها من وثائق مكتوبة ان وجدت، أو من روايات شفاهية وشواهد من آثار الماضي يكتشفونها. وكان انتاج هؤلاء المكتشفين عظيما واشتمل بعض أجزائه على التاريخ بأدق معانيه، وفي جملته كون مادة كبيرة القيمة للمؤرخين الذين أتوا بعدهم. ومن بين قائمة قصيرة للعناوين، يمكن أن نذكر: رحلات لاكتشاف منابع النيل بقلم جيمس بروس (١٧٩٠)، والفصول التاريخية في روايات زيارة كوماسي، عاصمة الأشنتي بقلم ت. أ. بوديش (مهمة من ساحل كواس الى اشنتي) (١٨١٩) و بقلم جوزيف دو بوي (مذكرات اقامة في اشنتي ١٨٢٤) وكتاب هنرتش بارث (١٨٥٧ ــ ١٨٥٨)، (ووثائق التاريخ والجغرافيا والتجارة في افريقيا الشرقية) بقلم م. قلان (١٨٥٦) والصحراء والسودان بقلم قُسطاف نَشْتِقال (١٨٧٩ ــ ١٨٨٩).

(١٣) ارشيبالد دلزل: تاريخ الداهماي ١٧٩٣، ص ٥.
(١٤) هذه الاستشهادات مقتبسة من ملاحظات عرض أول محاولة لسلسلة من الدروس ألقاها الأستاذ اوغ طريفور هوبر حول «ظهور أوربا المسيحية» انظر: المستمع ٢٨ ــ ١١ ــ ١٩٦٣، ص ٨٧١.

ان طريق نشتقال استمر متبعا في طور جديد تماما من تاريخ افريقيا، طور شرع فيه الأوربيون في غزو القارة والهيمنة على سكانها. وكان يبدو أن هذا السلوك يتطلب تبريرا أخلاقيا، واذاك دعمت الآراء الهيجلية بتطبيق مبادئ داروين.

وكان لهذا التطور نتيجة عرضية تمثلت بظهور علم جديد، هو الانتروبولوجيا وهو طريقة غير تاريخية لدراسة الثقافات ومجتمعات الشعوب «البدائية» وتقييمها، أولئك الذي لم يكن لهم «تاريخ يستحق الدرس» أولئك الذين «أدنى من الأوربيين، وكان من السهل التمييز بينهم و بين هؤلاء بلون بشرتهم.

ومن المفيد أن نذكر هنا مثل ريشارد برتن (١٨٢١ — ١٨٩٠) فهو من أكبر الرحالة الاوربيين في افريقيا في القرن التاسع عشر، وقد كان فكرا منيرا مثقفا متوقدا دائما ومستشرقا جليلا. وكان سنة ١٨٦٣ من مؤسسي الجمعية الانتروبولوجية اللندنية (التي صارت فيما بعد المعهد الانتروبولوجي الملكي)، ومع ذلك فان مسلكه الذي اتسم به كان أكثر نقدا من مسلك نشتقال، أصبح نهاية الاستكشاف العلمي لافريقيا بدون فكرة مسبقة، ذلك الاستكشاف الذي بدأ مع جميس بروس. فتجد مثلا في كتابه مهمة الى سليلي، مسلك الداهماي (١٨٦٤) «خروجا ملحوظا عن الموضوع في موقع الزنجي في الطبيعة» (وفي الامكان أن يسجل أنه لم يقل «موقع الزنجي في التاريخ»)، ونستطيع أن نقرأ جملا مثل هذه: «ان الزنجي المحض يحل في الاسرة البشرية تحت العرقين العظيمين العربي والآرى» (على أن معظم معاصريه كانوا يرتبون هذين الاخيرين ترتيبا معاكسا).

و «الزنجي في الجملة، لن يتحسن ولن يتجاوز نقطة معينة لا تستحق الاحترام، وهو يبقى من الناحية الذهنية صبيا...» (١٥) وعبثا كان بعض المثقفين الافارقة يقومون بالرد، أمثال جيمس افريقانس هرتن، عند جدله مع أعيان أعضاء الجمعية الانتروبولوجية اللندنية.

وزاد الطين بلة بالنسبة الى تاريخ افريقيا، أنَّ ثمة مفهوما لمهنة المؤرخ قد ظهر في ذلك العهد، ولا سيما في المانيا حيث صار التاريخ، لا فرعا من الأدب أو الفلسفة، بل علما يعتمد على التحليل الدقيق للمصادر الاصلية. فبالنسبة الى تاريخ أوربا بالطبع، كانت هذه المصادر في معظمها كتابية، وكانت افريقيا تلوح في هذا المجال ضعيفة ضعفا ملحوظا. ولقد عرض هذا المفهوم بدقة، الاستاذ أ. ب نيوطن سنة ١٩٢٣ في محاضرة أمام الجمعية الافريقية الملكية في لندن وموضوعها «أفريقيا والبحث التاريخي»، فصرح ان «افريقيا لم يكن لها تاريخ قبل قدوم الاوربيين». و يبدأ التاريخ حين يشرع الانسان في الكتابة. ان ماضي افريقيا قبل بداية الامبريالية الاوربية لا يمكن احياؤه اذن الا «بالاستناد الى شواهد البواقي المادية من لغات وعادات بدائية» وهي أمور لا تهم المؤرخين بل تهم علماء الآثار واللسنيات وعلماء الانتربولوجيا (١٦).

على أن نيوطن نفسه كان هامشيا نوعا ما بالنسبة الى مهنة المؤرخ كما تصورها هذا العصر. وطيلة قسم كبير من القرن التاسع عشر، كان بعض المؤرخين البريطانيين الاجلاء أمثال جيمس اسطيفن (١٧٨٩ — ١٨٥٩) وهرمن مريفال (١٨٠٦ — ١٨٧٤) وج. أ. فرود (١٨١٨ — ١٨٩٤)

---

(١٥) نفس المرجع أعلاه، طبعة ١٨٩٣، مجلد ٢، ص ١٣١ و ١٣٥.

(١٦) افريقيا والبحث التاريخي مجلة الجمعية الافريقية، ٢٢ (١٩٢٢ — ١٩٢٣).

و ج. ر. سيلي (١٨٣٤ ــ ١٨٩٥) (١٧) قد اهتموا أكثر بنشاطات الاوربيين (او على الاقل بنشاطات مواطنيهم) في بقية أنحاء العالم. وخلف «سيلي» كأستاذ تاريخ معاصر بكمبريدج، لورد اكتن (١٨٣٤ ــ ١٩٠٢) الذي درس في المانيا، فشرع حالا بانجاز «تاريخ كمبريدج المعاصر» فنشر أجزاءه الأربعة عشر فيما بين ١٩٠٢ و١٩١٠. وركز هذا المؤلف على أوربا بحيث تجاهل كلية تقريبا، حتى نشاطات الاوربيين في العالم. ثم أصبح التاريخ الاستعماري عموما، بيد رجال أمثال السير شارل لوكاس أو ڤبريال هانوتو في فرنسا (١٨) اللذين اشتغلا أول أمرهما بالشؤون الاستعمارية كما فعل اسطفين وماريفال وفرود.

بيد أن التاريخ الاستعماري أو الامبريالي ولو كان هامشيا بالنسبة للمهنة، أصبح مقبولا مع الأيام، «فتاريخ كمبريدج الجديد المعاصر» شرع في نشره منذ ١٩٥٧ باشراف السيرجورج كلارك، فخصص بعض الفصول لافريقيا وآسيا وأمريكا في كل مجلداته الاثني عشر، ولكن من جهة أخرى أثريت مجموعة تاريخ كمبريدج في تلك الفترة، بسلسلة تاريخ كمبريدج للامبراطورية البريطانية (١٩٢٩ ــ ١٩٥٩) وكان نيوطن واحدا من مديريها المؤسسين. ولكنه يكفي أن نلقي نظرة سريعة على هذا المؤلف، كي نشاهد أن التاريخ الاستعماري حتى بالنسبة لافريقيا، مختلف جدا عن تاريخ افريقيا.

ومن ضمن مجلدات هذا التاريخ الثمانية، خصصت أربعة لكندا واستراليا ونيوزيلندا الجديدة والهند البريطانية. ويبقى ثلاثة مجلدات عامة موجهة توجيها قويا نحو السياسة الامبريالية، (فمن ضمن ٦٨ فصلا توجد أربعة فصول فحسب تتعلق مباشرة بالعلاقات بين انكلترا وافريقيا) ومجلد واحد خصص لافريقيا الجنوبية، أي الزاوية الوحيدة من افريقيا جنوبي الصحراء التي استقر فيها المستعمرون الأوربيون استقرارا قويا. ويكاد هذا المجلد بأكمله ــ وهو أضخم المجلدات حجما، أن يكون مخصصا لشؤون هؤلاء المستعمرين الاوربيين المتشعبة، منذ وصول الاولين منهم سنة ١٦٥٢. وأما الشعوب الافريقية التي تشكل معظم السكان فلقد حشرت في فصل تمهيدي (ليس هو تاريخي أساسا) حرره عالم اجتماعي انتروبولوجي، وفي فصلين كتبهما مؤرخان من جنوبي افريقيا، هما الأشد تبصرا في جيلهما وهما، س. و. دوكيفيت و و. م. مكميلان، ومع ذلك فهما ينظران الى الأفارقة، بالضرورة من خلال رد فعلهم ازاء الحضور الاوربي. وهكذا فان تاريخ افريقيا، كان يبدو باختصار في مجموعات مغلمية ضخمة، ومن ذلك كتاب «شعوب وحضارات» تاريخ عام في ٢٠ مجلد، نشر بباريس ١٩٢٧ - ١٩٥٢؛ و ج. قلوتز نشر التاريخ العام ١٠ مجلدات باريس ١٩٢٥ ــ ١٩٣٨، وبروبيلان ولتاقشخت ــ ١٠ مجلدات برلين ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣، وتاريخ العالم مختصر

(١٧) كان اسطفين موظفا في المكتب الاستعماري من ١٨٢٥ الى ١٨٤٧ وأستاذ تاريخ معاصر بكمبردج من ١٨٤٩ الى ١٨٥٩، أما مريفال فكان استاذ الاقتصاد السياسي باكسفورد قبل أن يخلف اصطفين كاتبا أعلى دائما، في المكتب الاستعماري (١٨٤٧ ــ ١٨٥٩)، وقضى فرود معظم حياته باكسفورد حيث كان استاذ التاريخ المعاصر من ١٨٩٢ الى ١٨٩٤ ولكنه أرسل في السبعينات للكتابة الاستعمارية بافريقيا الجنوبية، وكان سيلي أستاذ تاريخ معاصر بكمبردج من ١٨٦٩ الى ١٨٩٥.

(١٨) كان لوكاس موظفا بالمكتب الاستعماري البريطاني من ١٨٧٧ الى ١٩١١، وارتقى حتى درجة مساعد الكاتب الأعلى، ثم حصل على منصب في السوال كوليدج باكسفورد. وكان لهنوتو (١٨٥٣ ــ ١٩٤٤) مسلك مزدوج، فكان سياسيا ورجل دولة لعب دورا مهما في الشؤون الاستعمارية والخارجية منذ سنة ١٨٩٠، ومؤرخا انتخب بالاكاديمية الفرنسية.

ولتاقشخت في ١٠ مجلدات برن ١٩٥٢؛ «فاسمرناجا اسطوريا = تاريخ عالمي، ١٠ مجلّدات، موسكو ١٩٥٥، ونشر الايطالي س. كنتي روسني برومة سنة ١٩٢٨ كتابا ضخما عن تاريخ اثيوبيا.

لقد كان المؤرخون الاستعمار يون المحترفون اذن ككل المؤرخين المحترفين عامة، مقيدين بمفهوم للشعوب الافريقية في جنوب الصحراء، مفاده أن لا تاريخ لهم جدير أن يدرس أو يستحق الدرس. وكما رأينا أن نيوطن كان يعتبر هذا التاريخ مجالا لاختصاص علماء الآثار واللغويين والانترو بولوجيين، وإن صح أن علماء الآثار كالمؤرخين يهتمون بموجب مهنتهم بماضي الانسان والمجتمعات، فهم مع ذلك لم يجتهدوا اجتهادا يفوق كثيرا اجتهاد المؤرخين، ليستخدموا مهنتهم في البحث عن تاريخ المجتمع البشري في افريقيا جنوبي الصحراء، وفي توضيحه. ولذلك سببان رئيسيان:

أولا: ان أحد الاتجاهات الرئيسية لعلم الآثار الذي كان يتمخض إذاك، كان يعلن أنه، كالتاريخ توجهه أساسا المصادر الكتابية، فكان يقتصر على مسائل من نوع مسألة البحث عن موقع مدينة طروادة القديمة، أو على رصد أحداث لم تعرفها بعد المصادر الأدبية المتعلقة بالمجتمعات القديمة في اليونان وروما ومصر، وكانت معالمها الرئيسية مصادر تأملات طيلة قرون، فكان، ومازال غالبا، مرتبطا ارتباطا وثيقا بفرع المهنة التاريخية المعروف باسم التاريخ القديم. وكثيرا ما ينصرف الى البحث عن الكتابات القديمة وحل رموزها، أكثر من انصرافه الى العثور على ذخائر أخرى. ونادر جدا - كما في اكسوم وزمباواي وحول موقعها أن إعترف أن في افريقيا على جنوب الصحراء معالم لها من الأهمية ما من شأنه أن يلفت نظر هذه المدرسة الاثرية. ثانيا: ان ثمة نشاطا أساسيا آخر للبحث الأثري كان يتمركز حول أصول الإنسان، من خلال منظور جيولوجي أكثر منه تاريخي ازاء ماضي الإنسان. نعم إن قسما كبيرا من هذا البحث تجمع في النهاية في افريقيا الشرقية والجنوبية، على اثر أعمال علماء أمثال ل. س. ب ليكي وريموند دارت. إلا أن هؤلاء كانوا يبحثون عن ماض متوغل في القدم، مما يصعب معه التأكيد من أن المجتمع كان موجودا، وكان عادة هوة مفتوحة على الفرضيات، بين المستحاثات التي كانوا يكشفون عنها، وبين السكان المعاصرين الذين كان في وسع المؤرخين أن يدرسوا ماضيهم.

فبينما كان علماء الآثار والمؤرخون في جملتهم حتى الخمسينات يعتبرون أن افريقيا على جنوب الصحراء لم تكن لتليق بهم، فان عظيم الاختلاف في نماذجها الطبيعية ومجتمعاتها ولغاتها لفت حتما انتباه الانترو بولوجيين واللغويين كلما شرعت اختصاصاتهم في التقدم، وكان بالامكان لزمن طويل أن يبقى أحد النوعين أو الآخر، علماء في بيت مغلق ولكن رجالا أمثال برتن و س. و. كوال (تعدد اللغات الافريقية ١٨٥٤) قد برهنوا مبكرا على قيمة العمل الميداني، وكان الانترو بولوجيون خاصة، هم رواد ذلك في افريقيا. ولكن الانترو بولوجين أو اللغويين، خلافا للمؤرخين والاثريين لم يحسوا بضرورة الكشف عما جرى في الماضي، ووجدوا في افريقيا كثرة من الأحداث تنتظر فقط من يصفها و يرتبها ويحللها مما كان يمثل عبئا ثقيلا، وكثيرا ما كانوا لا يهتمون بالماضي بقدر ما كانوا يحاولون أن يشيدوا من جديد تاريخا كانوا يظنون أنه قد يوجد عند أصل الأحداث المجموعة، وأنه قد يفسرها.

ولكنهم لم يكونوا يفطنون الى أي حد كانت هذه التشييدات تخمينية خيالية، ومن الأمثال الدراسية مثل العالم الانتروبولوجي س. ج. سليقمان الذي كان يكتب بفظاظة في كتابه (عروق افريقيا) الذي أصدره سنة ١٩٣٠: «ان حضارات افريقيا هي حضارات الشاميين وتاريخها هو تاريخ هذه الشعوب، وعلاقتها المشتركة مع العرقين الافريقيين الآخرين، الزنوج والبسمان..» (١٩).

و يستنتج أن «هذين العرقين الافريقيين الآخرين» في مرتبة متخلفة، وان كل النجاحات التي قد تكون قد أنجزتها هي من اثر «الشاميين» الذين أثروا فيها تأثيرا قويا أو ضعيفا. وفي موضع آخر من هذا الكتاب يتحدث سليقمان عن قدوم رعاة «شاميين» موجة بعد موجة «أشد سلاحا وأذكى في آن واحد» من «المزارعين الزنوج المتأخرين» الذين كانوا يؤثرون فيهم (٢٠). ولكنه في الواقع لا يوجد أي برهان تاريخي مهما كان يؤيد التصريحات القائلة «ان الحضارات الافريقية حضارات أبناء الشام» أو أن الترقيات التاريخية التي انجزتها افريقيا على جنوب الصحراء تعزى اليهم وحدهم، أو حتى بصورة أساسية. ومن المؤكد أن الكتاب نفسه لم يأت بأي برهان تاريخي، وان الكثير من الفرضيات التي يستند اليها لا أساس لها كما ثبت ذلك فيما بعد. فقد بين ج. هـ. غرينبرغ نهائيا أن لا مدلول لألفاظ «شامي أو شاميتي» ماعدا في أحسن الحالات كونها مصطلحات لتصنيف لغوي (٢١).

لا شك أن ليس هناك ارتباط لازم بين لغة التخاطب عند شعب ما و بين أصل هذا الشعب العرقي وثقافته، فمن ذلك أن غرينبرغ يذكر فيما يذكر هذا المثال البديع: «ان المزارعين الهوسا المتكلمين بلغة «شامية» هم تحت سلطة الرعاة الفلانيين المتكلمين بلغة نيجر ــ كنغو» (أي لغة زنجية) (٢٢) و يدحض أيضا القاعدة الشامية في قسم كبير مما أعاد تشييده سليقمان من تاريخ السود الثقافي، في أجزاء أخرى من افريقيا، خاصة لدى السكان من ناطقي بنتو.

ولئن اخترنا هنا سليقمان خاصة، فذلك لأنه كان من الشخصيات المرموقة في مهنته ببريطانية العظمى (ومن الأولين الذين قاموا بأعمال جدية ميدانية في افريقيا) ولان كتابه صار الى حد ما مصدرا اتباعيا وأعيد طبعه مرات عديدة، وفي سنة ١٩٦٦ عرضه اعلاميا على كونه «اتباعي في نوعه». ولكن اعتناقه لخرافة تفوق الشعوب ذات البشرة الواضحة على الشعوب ذات البشرة المظلمة، كان ليس الا جزءا من الآراء العامة المسبقة لدى الاوربيين في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين. وكان الاوربيون يظنون أن ادعاءهم التفوق على الافارقة السود، أيده الغزو الاستعماري. وفي العديد من الجهات بافريقيا ولا سيما في المنطقة السودانية وجهة البحيرات الكبرى، نرى الناس موقنين أنهم يتابعون نقل الحضارة التي بدأ بارسائها غزاة آخرون من اللون

---

(١٩) الكتاب المذكور ط. ١٩٣٠، ص ٩٦، وط ١٩٦٦، ص ٦١.

(٢٠) الكتاب المذكور ط. ١٩٣٠، ص ١٥٨، وط ١٩٦٦، ص ١٠١.

(٢١) ج. هـ. قرينبرغ ١٩٥٣ و ١٩٦٣ والواقع أن قرينبرغ كمعظم اللغويين المعاصرين يتجنب استعمال لفظ شاميتي و يضم اللغات التي كانت تسمى شاميتية مع اللغات السامية وغيرها في مجموعة تسمى الافروــ اسيوية أو اريترية، وهم لا يعرفون بمجموعة شاميتية متميزة.

(٢٢) قرينبرغ ١٩٦٣، ص ٣٠.

الأبيض، يسمون في جملتهم «شاميين» (٢٣) ونجد نفس المعنى في عدد عديد من الكتب في هذه الفترة من ١٨٩٠ الى ١٩٤٠ تقريبا. تلك المصنفات التي تشتمل على أكثر العناصر الجدية للتاريخ، كما لا يوجد في كتب سليغمان. وقد حرر هذه المؤلفات في الغالب رجال ونساء ممن ساهموا في الغزو أو الاستعمار، ولم يكونوا انتروبولوجيين ولا لغويين ولا مؤرخين محترفين، ولكنهم اهتموا صادقين بالمجتمعات الغربية التي اكتشفوها، وودوا التعرف على المزيد من الارشادات عنها واعلام غيرهم بها، فكانوا هواة بأحسن معاني الكلمة: فالسير هنري جونستن وموريس دولافوس مثلا، قد ساهما فعلا بكيفية عجيبة في اللغوية الافريقية كما ساهما في عدد آخر من المجالات، ولكن الأول سمى دراسته العظيمة الجامعة «تاريخ استعمار افريقيا من العروق المستلبة» (١٨٩٩) نقح وزيد فيه (١٩١٣). وفي الفروع التاريخية من دراسته العظيمة التي قام بها الثاني حول السودان الغربي، «السنغال الاعلى والنيجر» (١٩١٢)، يلوح الغرض العام حين يتعرض الى الهجرة اليهودية السورية لانشاء غانة القديمة، وفلورا شاو في كتابها (تبعية استوائية ١٩٠٦) كانت دهشة من مساهمة المسلمين في تاريخ افريقيا. أما مرجري برهام، صديقة لورد لوقارد وكاتبة تاريخ حياته، فانها تتعرض بألفاظ ملائمة الى «هذه الحركة الجليلة في التاريخ، من أولى غزوات العرب لافريقيا الى غزوات قلدي ولوقارد» (٢٤).

وأخطأ تماما مؤرخ جيد هو، إيف ارفو في كتابه (تاريخ سكان السودان الأوسط ١٩٦٣ وتاريخ برنو ١٩٤٩)، في تفسير معنى التفاعلات بين رجل الصحراء والسود المستقرين، تلك التفاعلات التي يصفها بدقة، بينا يستمر السير رشمند بلمر (مذكرات سودانية ١٩٢٨ وصحراء برنو والسودان ١٩٣٦) وهو عالم آثار موهوب، على البحث عن دوافع عمل الشعوب النيجرية بعيدا في طرابلس أو اليمن.

على أن العلماء السوسيولوجيين الانتروبولوجيين البريطانيين، تمكنوا بعد سليغمان تقريبا، من الانفلات من قبضة الفكرة الخيالية الشامية وساد تكوينهم منذ ذلك تأثير. ب. مالينفسكي و أ. ر. رد كليف براون، وكانا مناوئين بجزم لكل ضرب من التاريخ المستند الى الفرضيات. وكانت الطريقة الوظائفية المدققة المتبعة في دراسة المجتمعات الافريقية من قبل علماء الانتروبولوجيا البريطانيين بين ١٩٣٠ ــ ١٩٥٠، تتجه نحو تثبيت الاهتمام التاريخي فيهم حتى ولو بفضل عملهم الميداني، فلقد كانوا في وضع استثنائي ملائم للحصول على المعطيات التاريخية. ولكنه بقي تقليد أقدم من الإتنوغرافيا على القارة الاوربية (وأيضا في أمريكا الشمالية ولو أن قليلا من علماء الانتروبولوجيا الاميركان عملوا في افريقيا قبل سنة ١٩٥٠) تقليد يضم من بين خواصه أنه كان يعير الثقافة المادية من الانتباه أكثر مما يعيره للبنية الاجتماعية.

فكانت نتيجة ذلك كمية كبيرة من الاعمال ذات الأهمية التاريخية ككتاب «ملك جندا»

(٢٣) من الطريف أن نلاحظ أن الطبعة الحالية المصلحة، أي الرابعة، من «عروق افريقيا» (١٩٦٦) يوجد فيها ص ٦١، جملة مهمة لا توجد في الطبعة الاصلية سنة ١٩٣٠، يحدد فيها الشاميون بكونهم «أوربيين»، أي أنهم ينتمون الى غين العرق العظيم من البشرية العرق الابيض.

(٢٤) مرجري برهام: لوقارد، سنون السلطة (١٩٦٠) ص ٢٣٤.

لطور ارستام (١٩٤٤)، «وتجارة غينيا» للسير سند ستروم (١٩٦٥). على أنه مما يستحق خاصة مؤلفان (Völkerkunde Von Afrika) لهرمن بومن (١٩٤٠)، و «عمل افريقيا» لديدرش وسترمن (١٩٥٢) الكتاب الأول هو دراسة موسوعية للشعوب والحضارات الافريقية التي اهتمت اهتماما كافيا بما عرف من تاريخها، ولا يقاس به أي مؤلف آخر في مجلد واحد. أما الكتاب الثاني: «افريقيا شعوبها وتاريخ ثقافتهم» (١٩٥٩) بقلم الانترو بولوجي الامريكاني ج. ب. مردوك فانه ضعيف المقارنة اذا أعوزت مؤلفه، في هذا المجال، تجربة زيارة مباشرة لافريقيا، كان من شأنها أن تمكنه من تقييم مواده، وكذلك لأنه تقدم أحيانا بصور تخيلية لها من التطرف في نوعها، ما لصور سليقمان ولو أنها أقل خبثا (٢٥). وأما وسترمان فقد كان خاصة لغويا، وكتابة عن تصنيف لغات افريقيا، هو في كثير من النقاط رائد لكتاب قرينبرغ. كما وفرلكتاب بومن قسما لغويا، الا أن كتابه (عمل — Geschichte Afrikas) قد أفسدته من سوء الحظ النظرية الحامية وهو أيضا مجموعة ثمينة من الروايات الشفاهية الافريقية كما كانت موجودة في عصره.

ومن الممكن أن نضيف الى هذه الكتب كتاب هـ. أ. و يشوف «ثقافة زمبواي ومنوموتابا» (١٩٤٣)، على الاقل، لنقدم استاذه ليو فرو بينيوس. كان هذا عالم أجناس انترو بولوجي متخصصا في الثقافات، ولكنه أيضا عالم آثار ومؤرخ. وفي مدة نشاطه الموافقة تقريبا للاربعين سنة الاولى من القرن العشرين، كان بلا شك أخصب مؤرخي افريقيا نتاجا، فقام بعدد وافر من الأشغال الميدانية في كل أقسام القارة الافريقية تقريبا وعرض نتائجه في سلسلة منتظمة من المنشورات، ولكن قليلا من الناس من يطالعها اليوم. لقد كان يحرر بالالمانية وهي لغة تضاءلت قيمتها منذ ذلك الوقت بالنسبة الى افريقيا والاختصاصيين في الدراسات الافريقية. وقد ترجم عدد قليل من آثاره، وكثيرا ما يصعب نقل مدلولها اذ تتراكم فيها النظريات الخرافية المتعلقة بالاطلنتيد و بتأثير أترسكي على الثقافة الافريقية الخ...

في نظر المؤرخين وعلماء الآثار والانتربولوجيين العصريين الذين نشأوا نشأة صارمة، يلوح فروبينيوس عصاميا أصيلا، ولكن قيمة أعماله تتناقص ليس فقط بسبب تفسيراته المغامرة بعض الشيء، بل أيضا بطريقة عمله السريعة السطحية وأحيانا الهدامة، الا أنه حصل على نتائج، سبق البعض منها سبقا واضحا نتائج باحثين أشد علما أتوا بعده، والبعض الآخر قد يكون من الصعب أو المتعذر الحصول عليها في الظروف الراهنة. و يظهر أنه كان له بالطبع موهبة بل ثقة المخبرين لاكتشاف المعطيات التاريخية. وقد يكون المؤرخون العصريون ملهمين اذا بحثوا عن هذه المعطيات في

(٢٥) انظر العرض الذي قدمته في مقال «الانترو بولوجيا وعلم النبات والتاريخ» في مجلة التاريخ الافريقي مج ٢، ج ٢، (١٩٦١) ٢٩٩ — ٣٠٩.

مؤلفاته وقومها بحسب المعارف الحالية، متحررين من التفاسير الاعتباطية التي كان يضيفها اليها (٢٦).

ومظاهر الطرافة التي تتميز بها عبقرية عصامية كعبرقية فرو بينيوس التي كانت تستمد وحيها من ذاتها، كان لها من النتيجة أن دعمت المؤرخين المحترفين في ما كان لهم من رأي، من أن تاريخ افريقيا لم يكن حقلا مقبولا لمهنتهم، وعملت على غض الطرف عن كثير من الاعمال الجدية التي تم القيام بها في الفترة الاستعمارية. ومن العوامل التي كان لها دور، زيادة اهتمام الاوربيين بافريقيا مما أعطى الافارقة أنفسهم صنوفا مختلفة من الثقافات المكتوبة، فكنتهم من التعبير عن اهتمامهم الذاتي بتاريخهم الخاص: وكان هذا هو الشأن خاصة في افريقيا الغربية، حيث كان الاحتكاك بالاوربيين أطول مدى وأبق، وحيث وجد اقبال على العلم الاوربي منذ بداية القرن التاسع عشر، وبخاصة في الجهات التي صارت فيما بعد مستعمرات بريطانية. كما أن علماء طنبكتو الذين اعتنقوا الاسلام شرعوا في كتابة تواريخهم باللسان العربي، أو بلغة أعجمي، كذلك في نهاية القرن التاسع عشر أحس الافارقة الذين تعلموا الأبجدية اللاتينية بالحاجة الى تسجيل معلوماتهم عن تاريخ شعوبهم بالكتابة خشية أن يتم استلاب الشعوب من قبل الاوربيين وتاريخهم.

ومن أشهر الآثار من هذا النوع، تلك التي كتبها أفارقة كان لهم نشاط كما كان لمصنفي التواريخ قبلهم — في دين الثقافة المستوردة، واشتقت منه أسماؤهم، نذكر منها «تاريخ شاطئ الذهب وأسنت» لصاحبه كارل كريستيان ريندورف (١٨٩٥) «وتاريخ اليوربا» لصامويل جونسون (تم سنة ١٨٩٧ الا أنه نشر سنة ١٩٢١) فكلاهما كتاب تاريخ جدي للغاية. وحتى اليوم ما من أحد في وسعه أن يقوم بعمل في تاريخ اليوربا بدون أن يرجع الى جونسون. ولكنه لا مناص بدون شك من أن تتبع محاولات في التاريخ من هذا المستوى، بأعمال رواد القومية الأولين ابتداء من ج. أ. ب. هرتن (١٨٣٥ — ١٨٨٣) وأ. و. بليدن (١٨٣٢ — ١٩١٢) الى ج. م. سرباح (١٨٦٤ — ١٩١٠) وج. أ. كازلي هيفرد (١٨٦٦ — ١٩٣٠) وج. ب. دنكه (١٨٩٥ — ١٩٦٥) الذين تناولوا العديد من المسائل التاريخية. ولكن غالبا لأغراض دعائية. ولعل ج. و. دوكرفت جونسون، (بين القومية في افريقيا الغربية) (١٩٢٨)، (الجغرافيا التاريخية لساحل الذهب) (١٩١٩) وأ. ج. ب. براون (قارئ ساحل الذهب وأسيانت) (١٩٢٩) ينتميان الى كلا النوعين: ولكن فيما بعد يلوح أحيانا في بعض الأعمال اتجاه الى تمجيد الماضي الافريقي لمقاومة وهم التفوق الثقافي الأوربي، مثلا لدى ج. و. لوكا «ديانة يوروبا (١٩٤٩)» وج. س. كرافت جونسن (مجد افريقيا) (١٩٥٤)، وقد أظهر بعض المصنفين الاوربيين عين الوجهة، مثلا ايفا ل ر. ميير وفتز في

(٢٦). من المستحيل في فصل من هذا الطول أن نعطي كثرة انتاج فرو بينيوس حقه، وكان آخر كتاب تأليفي له «العمل الثقافي الافريقي» (فيينا ١٩٣٣)، ومؤلفه الأكثر أهمية كما يبدو مجموعته في ١٢ مجلدا: اطلنطيس.. (فيينا ١٩٢١ — ١٩٢٨)، ولكنه ينبغي أن نذكر ايضا كتبا وصفتها رحلاته: مثلا اليوروبا ومنسّي: وافريقيا تقول (برلين شرلوطبورغ ١٩١٢ — ١٩١٣). انظر المصادر الكاملة في فريد كرتشمر: ليوفرو بينيوس (١٩٣٨)، وبعض الفصول الانكليزية الحديثة (مثلا د. ك. م. ايتا فرو بينيوس في تاريخ افريقيا الغربية) «المجلة التاريخ الافريقي» ،٤، (١٩٧٢)، والمصنفات المذكورة في هذا الفصل كل ذلك يوحي بتجدد الاهتمام بآثار فرو بينيوس.

كتبها عن الاكان، فهي تسعى الى منحهم أجدادا وأمجادا من البحر الابيض المتوسط، شبيهين بما كان يرمي اليه لوكا بالنسبة الى اليوروبا (٢٧).

على أنه في اطار أضيق، تمادى بعض الافارقة في تسجيل التقاليد التاريخية المحلية بكيفية جدية موثوق بها. و يبدو أنه كان لأهمية الاتصالات بالمبشرين المسيحيين وعمقها دور كبير. فاوغندا مثلا قد أنجبت مدرسة مهمة من المؤرخين المحليين منذ عصر أ. كغوا (الذي نشر كتابه الأول سنة ١٩٠٦) بينما استقرأ ر. س. س. لاو، ٢٢ مؤرخا، في بلد يوربا، نشروا تآليفهم قبل ١٩٤٠ غالبا (٢٨)، كمصنفي أوغندا، باللغات المحلية. واشتهر أحد مصنفات هذا النوع وهو كتاب «تاريخ مختصر لبنان» ألفه ج. أ. اقارفبا الذي أعيد طبعه عدة مرات، منذ نشرته الأولى سنة ١٩٣٤.

ومن جهة أخرى، فان بعض المستعمرين ذوي العقل الذكي النابه، كانوا يسعون الى الوقوف على تاريخ من كانوا أتوا لتسييرهم والى تسجيله، فكان في نظرهم للتاريخ الافريقي أيضا قيمة عملية، فكان في وسع الاوربيين أن يكونوا اداريين أفضل مما هم عليه لو كان لهم بعض المعرفة بماضي الشعوب التي استعمروها، ثم انه كان من المفيد أن يلقن شيء من التاريخ الافريقي في المدارس التي أنشأوها شيئا فشيئا هم ومواطنوهم المبشرون، على الأقل كتمهيد لدراسة موسعة للتاريخ الانكليزي أو الفرنسي، المخصص لتمكين الافارقة من اجتياز الشهادات المدرسية والبكالوريات، ولانتدابهم كمساعدين شبه اوربيين ذوي قيمة ثمينة.

وقد ذكرنا آنفا فلورا شاو وهنري جونسون وموريس دولافوص، وأيضا إيف ارفاي وريشمند بلمر. وقد الف غيرهم مصنفات تاريخية عن افريقيا خالية تقريبا من قبليات ثقافية، ولو أنهم أحيانا (هم أو ناشروهم) اختاروا عناوين غريبة، مثلا «خرافات الاصيل من باقندا السوداء» (١٩١٢) لروث فشر، و«بلاد الزنج» لـ س. هـ ستيغند (١٩١٣)، «أسرة مالكة متضائلة: اشنتي» (١٩٢١) للسير فرنسيس فلر، وهي على حسب تقاليد بوديش ودبوى، و«قوافل الصحراء القديمة» أ. و. بوفيل (١٩٣٣)، والعديد من المصنفات ذات الصبغة العلمية لشارل مونتاي (مثلا: امبراطوريات مالي ١٩٢٩) أو لويس طوكيه (مثل: تاريخ البمبرا ١٩٤٢). ولعل الفرنسيين قد نجحوا أكثر من الانكليز في كتابة تاريخ افريقي صرف، فكان من أقوى مؤلفات هؤلاء المتجهة بعزم نحو محور أوربي، كتاب «تاريخ ساحل الذهب والشنتي» (١٩١٥) لـ و. و. كلاردج أو «تاريخ القمبيا» (١٩٤٠) لسيرجون قراي — ولكن ماعدا بعض الفصول الحديثة من نفس المؤلف، عن افريقيا الشرقية، ومن الجدير بالذكر أيضا أن عددا من المديرين الفرنسيين عند عودتهم الى فرنسا (مثلا دولافوص، جورج هردى، هنرى لابورى) (٢٩) شرعوا في كتابة تواريخ مختصرة عامة، إما للقارة بأكملها، أو لمجموعة افريقيا جنوبي الصحراء. وسبب ذلك أن الادارة الاستعمارية الفرنسية، كانت ترمي الى الحصول على هياكل أكثر تدقيقا من الادارة الانكليزية للتكوين والبحث، ولنذكر من ذلك (سنة ١٩١٧) انشاء لجنة دراسات تاريخية وعلمية في افريقيا الغربية الفرنسية ومجلتها، وقد

(٢٧) «دولة الاكان المقدسة» (١٩٥١) «التقاليد الأصلية للاكان» (١٩٥٢) الاكان في غانة معتقداتهم القديمة (١٩٥٨).

(٢٨) انظر، ر. س. س. لو. أقدم كتابة تاريخية عن اليوروبا (١٩٤٠).

(٢٩) موريس دولافوص: سود افريقيا (باريس ١٩٢١)، جورج هردي: نظرة عامة من تاريخ افريقيا (باريس ١٩٣٧)، هنري لابوري: تاريخ سوكا افريقيا (باريس ١٩٤٦).

آل الى المعهد الفرنسي بافريقيا السوداء الذي كان مركزه داكار (١٩٣٨) مع نشرته وسلسلة مذكراته ومن هناك الى آثار ضخمة كاللوحة الجغرافية لغربي أفريقيا في القرون الوسطى (١٩٥١) بقلم ريمون موني. ومع ذلك فان مؤرخي الفترة الاستعمارية بقوا هواة خارج التيار الرئيسي لمهنة المؤرخ. وكان ذلك يصح بالنسبة الى فرنسا كما يصح بالنسبة الى بريطانيا العظمى، اذ أنه لئن أحرز رجالا أمثال دولافوص ولابوري على مناصب جامعية عند عودتهم الى فرنسا، فان هذه المناصب كانت لتدريس اللغات الافريقية أو الادارة الاستعمارية، لا كمؤرخين دراسيين.

ومن ١٩٤٧ عملت الجمعية الافريقية للثقافة، ومجلتها: «الحضور الافريقي» على ارساء تاريخ افريقي مجرد من الصبغة الاستعمارية، وفي الوقت نفسه شرع جيل من المثقفين الافارقة الذين تمكنوا من التقنيات الاوربية لسبر الماضي، في تحديد نظرية خاصة ازاء الماضي الافريقي، والبحث فيه عن مصادر الاصالة الثقافية التي أنكرها الاستعمار، فدقق هؤلاء المثقفون تقنيات المنهجيّة التاريخية وافسحوا مجالها، مطهرين اياها من عدد من الخرافات والقبليات الذاتية. ولابد في هذا الصدد من ذكر الملتقى الذي عقدته اليونسكو بالقاهرة ١٩٧٤. فسمح لباحثين افارقة وغير افارقة ان يقابلوا آراءهم بحرية عن مشكل عمران مصر القديمة وسكانها.

وظهر في عام ١٩٤٨ «تاريخ ساحل الذهب» لو. أ. ف. ورد وفي السنة نفسها أنشىء بجامعة لندن منصب «محاضر» في التاريخ الافريقي بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية، وأسند هذا المنصب الى الدكتور رولاند أليفيه، ومنذ ذلك العهد شرعت بريطانية العظمى في برنامج نشر الجامعات في الاراضي التابعة لها: انشاء معاهد جامعية في ساحل الذهب ونيجيريا، رفعت كلية قوردن بالخرطوم ومكريري يكمبلا الى المستوى الجامعي. وتم عين العمل في المستعمرات الفرنسية والبلجيكية. فأنشئت سنة ١٩٥٠ المدرسة العليا للآداب بداكار، ثم صارت بعد مضي سبع سنوات جامعة فرنسية ذات حظ كامل. وبدأت لوفانيوم أولى جامعات الكونغو (فيما بعد الزايير) في عملها سنة ١٩٥٤.

ومن وجهة نظر التدوين التاريخي الافريقي، فان تعدد الجامعات الجديدة منذ ١٩٤٨ كان له معناه أكثر مما كان لوجود المعاهد القليلة التي أنشئت من قبل، فكانت تعيش بضعف نظرا الى قلة امكانياتها، ومن تلك كوليج ليبيريا بمنروفيا وكوليج فوره باي بالسيراليون وقد تم انشاؤهما سنتي ١٨٦٤ و١٨٧٦.

ثم ان الجامعات التسع التي كانت سنة ١٩٤٠ في افريقيا الجنوبية، كانت تفتّ في ساعدها سياسة التميز العنصري لنظام بريتوريا: فكان البحث التاريخي والتعليم في هذا الميدان يدوران حول مركز أوربا وما كان تاريخ افريقيا سوى تاريخ المستوطنين البيض.

وكل الجامعات الحديثة، بالعكس، قد أحدثت أقساما للتاريخ مما دعا، لأول مرة، المؤرخين المحترفين بعدد وافر الى العمل في افريقيا. ولم يكن من بد في البداية من كون أغلب هؤلاء المؤرخين من جامعات غير افريقية. ولكن الافرقة أتت بسرعة، وأول مدير افريقي لقسم التاريخ كان الاستاذ ك. و. ديك الذي عين في إبادان سنة ١٩٥٦. وتكوّن عدد من الطلبة الأفارقة، وأحس المدرسون الافارقة عندما صاروا مؤرخين محترفين بالحاجة الى الزيادة في نصيب التاريخ الافريقي في

مناهجهم، واذا ما كان هذا التاريخ مازال لم يعرف الا قليلا، أحسوا بحاجة اكتشافه بواسطة بحوثهم.

فمنذ ١٩٤٨ صار التدوين التاريخي بافريقيا يقترب تدريجيا مما هوعليه في أي جزء آخر من الدنيا، نعم ان له مشاكله الخاصة كالضآلة النسبية للمصادر المكتوبة بالنسبة الى الفترات القديمة، مما أوجب تنمية المصادر الأخرى كالروايات الشفاهية واللغوية وعلم الآثار.

على أن التدوين التاريخي الافريقي، وان هوساهم مساهمات جليلة فيما يخص استغلال هذه المصادر وتفسيرها. فهو لا يتميز أساسا عنه في سائر بلدان الدنيا (أميركا اللاتينية وآسيا وأوربا)، التي تواجه مشاكل مشابهة لمشاكله.

على أن مردود المواد ليس بالأمر الاساسي عند المؤرخ، بل ان العمل المهم يتمثل في استعمال الشواهد استعمالا نقديا ومقارنيا، لخلق وصف ذكي دال على الماضي. والمهم أيضا أنه منذ خمس وعشرين سنة أكبت جماعات من الجامعيين الافارقة على مهنة المؤرخ. ودراسة التاريخ الافريقي اليوم نشاط مركز لاختصاصيين من أعلى مستوى. وسيضمن نشرها فيما بعد بفضل التبادلات بين الافارقة، والروابط بين جامعات افريقيا وجامعات بقية الدنيا. ولكنه ينبغي أن نؤكد أن هذا التطور الايجابي لم يكن ممكنا لولا تحرير افريقيا من نير الاستعمار. فثورة مدغشقر المسلحة سنة ١٩٤٧، واستقلال المغرب سنة ١٩٥٥، وحرب الشعب الجزائري البطولية وكفاحات التحرير في المستعمرات الافريقية كلها، قد ساهمت مساهمة قوية في هذا العمل اذ هي كانت تخلق للشعوب الافريقية امكانية الرجوع الى الالتصاق بتاريخها الذاتي وتنظيم مراقبته. وقد أدركت اليونسكو مبكرا هذه الحاجة، فأثارت أو شجعت لقاءات الاخصائيين، ووضعت وهي على حق، كشرط مسبق ضروب الجمع المنسق للروايات الشفاهية. وتلبية لرغبة المثقفين والدول الافريقية، أوعزت اليونسكو منذ ١٩٦٦ بفكرة تحرير تاريخ عام لافريقيا. ويجري التنفيذ الفعلي لهذا المشروع العظيم منذ سنة ١٩٦٩ تحت اشرافها.

مكانة التاريخ في المجتمع الأفريقي

بوبو هاما و ج. كي. زيربو

الانسان حيوان تاريخي ولا يشذ الانسان الافريقي عن هذا التعريف. فلقد كوّن الافريقي تاريخه كما هو الشأن في كل مكان، وكوّن لنفسه فكرة عن هذا التاريخ. وفي مستوى الوقائع، ان الأعمال وبراهين الطاقة المبدعة، هي هنا، تحت أبصارنا تحمل شكل أعمال تطبيقية زراعية وأساليب في الطبخ، ومعالجات بالأدوية، وحقوق عرفية، ونظم سياسية، ومنتجات فنية، ومناسك دينية، وآداب سلوك مدققة. لقد انشأ الأفارقة منذ ظهور بني البشر الأولين وطيلة آلاف السنين، مجتمعا مستقلا تشهد حيويته، على عبقرية منشئيه التاريخية. وهذا التاريخ الذي ولده العمل التطبيقي تصوره فيما بعد مبدئيا كمشروع بشري. ثم هو انعكس واستبطن من قبل الافراد والمجموعات، وصار بذلك اطارا للفكرة ومرجعا ومحلا شعوريا وفكريا، ومبررا للعيش، واطارا للحياة أي «انموذجا».

ولكن الضمير التاريخي انعكاس لكل مجتمع، بل لكل طور ذي دلالة من تطورات كل مجتمع، فلا غرابة اذا حل تصور الأفارقة لتاريخهم وللتاريخ بصفة عامة علامة نموهم الخاص. و يكفي انعزال المجتمعات وحده ليكيف النظرة التاريخية تكييفا دقيقا. فملك موسى (فولتا العليا) مثلا كان يلقب بموغونابا، أي ملك العالم، مما يوضح اثر الضغوط التقنية والمادية على الفكرة التي تكوّن عن الوقائع الاجتماعية السياسية، فيلاحظ مثلا أن الزمن الافريقي زمن خرافي اجتماعي، ولكن الافارقة أيضا يشعرون أنهم صانعو تاريخهم الذاتي، ثم اننا سنرى أن هذا الزمن الافريقي زمن تاريخي حقا.

الزمن الخرافي والزمن الاجتماعي

يحس القارئ لأول وهلة وعند مطالعة العديد من المؤلفات الاتنولوجية، أن الافارقة كانوا مغمورين غارقين في الزمن الخرافي، وهو محيط فسيح لا شاطئ له ولا معالم، بينما كان سائر الاقوام يقطعون شارع التاريخ، وهو محور لاحد له تقوم عليه مؤشرات الرقي. نعم ان الخرافة أي تصوير الماضي تصويرا عجيبا طالما ساد فكر الافارقة في تصورهم لدور حياة الشعوب.

وصل ذلك الى حد، أن اختيار الأحداث الواقعية ومدلولها كانا تابعين لأنموذج «خرافي» كان يقدر حتى أتفه الحركات لدى الملك أو الرعية. وكانت الخرافة تتحكم هكذا في التاريخ بأصناف من العوائد المنتمية الى ما وراء الزمن، وتتحمل أيضا مسؤولية تبرير التاريخ. وفي هذا السياق ظهرت ميزتان واضحتان للتفكير التاريخي: عدم تقيده بالزمن، وما له اساسا من بعد اجتماعي.

في هذه الحالة، ان الزمن ليس هو الديمومة التي تنظم المصير الفردي بل هو النظام التنفسي للمجموعة. وليس هو نهرا يجري في اتجاه واحد من منبع معلوم الى مصب معلوم. وفي البلدان النامية صناعيا حتى النصارى يجعلون فرقا واضحا بين «نهاية الأزمان» وبين الأزل. وقد يكون ذلك لأن الانجيل يقابل مقابلة واضحة بين هذه الدنيا الانتقالية وبين العالم الآتي، ولكن لأن الزمن البشري، بهذا الطريق ولأسباب أخرى، زمن علماني فعلا، والزمن التقليدي الافريقي يشمل ويضم الأزل من قبل ومن بعد، فالأجيال الماضية ليست مفقودة بالنسبة للزمن الحاضر، بل تبقى بشكل ما دائما معاصرة ولها من الاثر ما كان لها منه في حياتها بل أكثر منه، وهكذا تعمل السببية بدون شك من السابق الى اللاحق ومن الماضي الى الحاضر ومن الحاضر الى المستقبل ليس بواسطة الأحداث وبما للحوادث الماضية من وزن فقط، بل بجملة مباشرة قد تكون على كل الاتجاهات، فلما أرسل امبراطور مالي كنكوموسا (١٣١٢ ــ ١٣٣٢) رسولا الى ملك ياطنقا يدعوه الى الدخول في الاسلام، أجابه الأمير موسّى أنه لا بد له من أن يستشير أجداده قبل أخذ هذا القرار. فيلاحظ هكذا كيف يرتبط الماضي مباشرة بالحال عن طريق العقيدة، وكيف ينتصب الأجداد قيّمين مباشرين ممتازين على أمور تحدث بعد قرون. وفي بلاطات العديد من الملوك نرى موظفين مكلفين بتفسير الرؤى، كان لديهم نفوذ كبير في العمل السياسي المزمع القيام به، فكان هؤلاء المعبرون للأحلام بمثابة وزراء المستقبل. ويذكر في ذلك أن ملك روندا «مازي مباكا يوهي» الثالث (في نهاية القرن السابع عشر) رأى في المنام رجالا وضاحي اللون قادمين من الشرق، فحمل الأقواس والسهام ولكنه قبل أن يرميهم بالسهام زينها بوزناضج، فجاء هذا السلوك تعبيرا عن صفة المهاجم والمستقبل في آن واحد، أي عن السلوك المرتبك غير الواضح، مما غرس في الضمير الجماعي الروندي صورة متميزة قد لا تكون غريبة عن ظاهرة عدم الصمود في القتال عند هذا الشعب، الذي مارس رغم ذلك الحروب ضد جحافل الألمان في القرن التاسع عشر، وقد شبهت بالوجوه البيض التي رآها الملك في حلمه قبل ذلك بقرنين. وفي مثل هذا الزمن «المعلق» قد يكون للحاضر عمل فيما يعتبر ماضيا، ولكنه يبقى معاصرا. ودم ضحايا اليوم تدخل السرور على أجداد الأمس، وحتى اليوم، فان بعض الأفارقة يحرضون أقرباءهم كي لا يغفلوا عن تقديم القرابين باسم من مات من آبائهم، اذ من لا يتقبل شيئا من القرابين يبقى ضمن الطبقة الفقيرة في العالم الموازي، عالم الأموات، ويضطر الى العيش بما يمده به

المحظوظون الذين قدمت «ضحايا» جليلة باسمهم. و بصفة أعمق، ان بعض المذاهب الكونية تسجل في حساب زمن خرافي، انجازات تقدمية تحققت في زمن تاريخي، لم يعرف بنفس الشكل من كل شخص، فرددته ذاكرة المجموعة اللا تاريخية. ومن ذلك قصة جيكو يو التي تخبرعن مولد صناعة الحديد: إن موقاي (الإله) قسم الحيوانات بين الرجال والنساء، الا أن النساء كن قاسيات جداء، ففرت حيواناتهن وصارت وحشية. فتوسط الرجال لدى موقاي في سبيل نسائهم وقالوا: «نر يد أن نكرمك بذبح حمل الا أننا لا نود أن نذبحه بموسى من خشب لكي لا نقع فيما وقع فيه نساؤنا من الأخطار» فشكرهم موقاي على حكمتهم، وعلمهم طريقة صهر الحديد ليحصلوا على أسلحة أشد فاعلية.

وكان لهذا المفهوم الخرافي والجماعي من القوة ما جعل الزمن من علامات سلطة الزعماء، فكان الملك شلوك المستودع الفاني لسلطان أبدي، اذ تجمع فيه الزمن الخرافي (و يتجسم فيه البطل الفاتح) والزمن الاجتماعي و يعتبر منبع الحيو ية للمجموعة. ولدى البغولارو في الزايير الشرقي، كما لدى البونيورو (أوغندا) ولدى الموسي (فولتا العليا) فان الرئيس هودعامة الزمن الاجتماعي: «اذا المو امي حاضر فالشعب يحيا، وان غاب المو امي يموت الشعب. فموت الملك قاسم للزمن، يوقف كل نشاط والنظام الاجتماعي، وكل عبارة للحياة من الضحك حتى الزراعة والإجتماع الجنسي لدى الحيوانات أو الناس، وفترة ما بين ملكين، هي بمثابة قوسين في الزمن، وانتصاب ملك جديد يخلق وحده، من جديد، الزمن الاجتماعي، و ينفخ فيه روحه و يعمره من جديد، وكل شئ شامل الحضور في هذا الزمن الخارج عن الزمن في الفكرة الوثنية، حيث يمثل الجزء الكل وقد يكون دالا عليه، مثل ذلك الشعر والأظافر التي يتحفظ الانسان من اسقاطها بين يدي العدو خشية أن يكون له أن يضع يده على الشخص ذاته.

نعم انه ينبغي أن نرتفع الى مستوى المفهوم العام للعالم كي ندرك نظرة الزمن عند الأفارقة ومدلوله العميق. فنشاهد عند ذلك في التفكير التقليدي. ان الزمن الواقع تحت حواسنا ما هو الا مظهر من مظاهر زمن آخر عاشته أبعاد أخرى من الانسان، وعندما يأتي المساء ويمتد الرجل على حصيره أو فراشه قصد النوم، فذاك هو الوقت الذي يختاره شخصه الثاني ليذهب كي يستعيد الطر يق الذي سلكه الانسان طيلة اليوم، ويحل بالاماكن التي حل بها، وان يعيد الحركات والأعمال التي قام بها في حالة الشعور مدة الحياة اليومية، وخلال هذه التحولات يصطدم الشخص الثاني بقوى الخير و بقوى الشر وبملائكة الخير، كما يصطدم بالسحرة آكلي الأشخاص النسخة الثانية أو «سركو» (في لغة سنغاي وزرما). وانما تحل شخصية الفرد في خياله أو نسخته الثانية، يقول السنغاي ان خيال الرجل ثقيل أو خفيف ليعبرعن كون شخصيته قو ية أو هزلية، والغرض من التمائم تقو ية الخيال وحمايته، والمطمح الاعلى أن يصل الانسان الى أن ينطبق على خياله وأن ينصهر فيه حتى لا يتكون منهما سوى هو ية واحدة تبلغ من الحكمة والقوة درجة فوق البشر ية.

وحيث لا يكون الزمان (والمكان) من العقبات، لا يبلغ هذه الحالة سوى العر يف الأكبر، المعلم (كرتي كونينو، زمباء) وكذلك كان خال سي جد العائلة المالكة، كان والد السي مفزعا، أبو الرعود، واذا ما تعفن سنه عمد الى أكل الحصى؟ واذا ما كان له التهاب في الملتحمة أذاك يوقد النار باهرة، وهو يمسح الارض بخطاه الفسيحة وهو في كل مكان ولا يحل بمكان.



• تمثال صغير من البرونز يمثل سلطة سلالة السنغابي (تيرا، النيجر)، (كليشيه أ. ساليفو).

ان الزمن الاجتماعي والتاريخ الذي عاشته المجموعة هكذا، يجمع السلطان الذي يرمز اليه غالبا و يتمثل في شئ يسلمه الجد أو رئيس القبيلة أو الملك الى من يليه، وقد يكون هذا الشئ كرة من ذهب محفوظة في طبل الحرب مجتمعة مع عناصر اقتلعت من جسم الأسد والفيل والفهد، وقد يحتفظ بهذا الرمز في علبة أو كنار، كالرق (طيبو) التي كانت للملك موسّي. وعند السنغاي ــ زرما هو قضيب من حديد حاد من أحد الطرفين، وعند السركو من امبراطورية قاو القديمة كان ذاك صنما في شكل سمك عظيم في خيشومه حلقة، وعند الحدادين هو موقد حدادة يحمر أحيانا ليلا ليعبر عن غضبه، وكان نقل هذه الأشياء يمثل الاسناد القانوني للسلطة. وأعجب مثل هو مثل السونينكي ذرية سني علي. اذ لهم سلاسل من ذهب وفضة أو نحاس تمثل كل حلقة منها جدا من الأجداد، وتمثل المجموعة السلسلة العائلية المالكة حتى سني العظيم. وأثناء حفلات سحرية تلفظ هذه السلاسل بمحضر جمهور معجب، وعند الممات ينقل الأب الأكبر السونينكي مرة أخيرة قاذفا السلسلة، و يبلعها من طرفها الثاني الشخص الذي اختاره خلفا له، ويموت اثر تسليمه السلسلة الى من يكون عليه أن يكون استمرار له، وهذه الوصية العملية توضح بجلاء قوة المفهوم الافريقي للزمن الخرافي والزمن الاجتماعي، وقد ظن أن هذه النظرة للحركة التاريخية نظرة لا حركية عقيمة، اذ وضعت المثل الأعلى في الماضي عند أصل الزمن و يبدوا أنها تفرض على جحافل الأجيال أن يكون مثلها في تكرار محجر لحركات الجد ولمآثره. أفليست الخرافة المحرك لتاريخ ساكن؟

سنرى أنه لا يمكن أن نكتفي فحسب بنظرة التفكير التاريخي عند الأفارقة وحدها.

على أنه لا بد أن نعترف أن النظرة الخرافية توجد في أصل التاريخ عند عامة الشعوب، وكل تاريخ في البدء تاريخ مقدس، وهذه النظرة نفسها تتبع التطور التاريخي، فتلوح من حين الى آخر في أشكال عجيبة أو غريبة. ومن ذلك الرمز القومي الذي جعل أحد رؤساء الدول المعاصرين المشهورين يتوجه بالحديث الى بلاده، كما لو توجه الى انسان حي، بينما تتجسم خرافة العرق في النظام النازي في طقوس نابعة من أعماق التاريخ، فتعبئ ملايين العباد في سبيل المذابح التي نعرفها.

هل يشعر الأفارقة أنهم هم صانعوا تاريخهم؟

نعم ان للانسان الافريقي منذ عدة قرون أسبابا متعددة لكي لا يكون بؤرة لوعي مسؤول. فكثيرا ما روضته أوامر الضغط الخارجية المزيلة للشخصية، وحتى بعيدا عن شاطئ العبيد وعن المركز الذي يسيطر عليه الحاكم الأبيض، لم يخل من أن يوسم في زاوية من زوايا روحه بميسم العبودية المبيد.

وكذلك في الفترة السابقة للاستعمار، فلقد كان يبدو على عديد من المجتمعات الافريقية البسيطة شبه المغلقة، أن أفرادها ما كانوا يعون أنهم يصنعون التاريخ، الا على سلم محدود جدا، وفي مستوى محدود غالبا وضمن نطاق الإسرة العظمي، وفي اطار رقابة تقليدية عسيرة ثقيلة تقوم على زعامة الشيخ. على أنه حتى في هذا المستوى بل خاصة في هذا المستوى، كان الشعور بالتنظيم الذاتي للمجموعة و بالحكم الذاتي حادا قويا، فالفلاح اللوبي والكباري في قريته، عندما يكون «رب

بيت» (١) كان يشعر أنه يتحكم تحكما فسيحا في مصيره الذاتي. وأقوى دليل، هو أنه في هذه الجهات ذات «الفوضى» السياسية حيث كانت السلطة أحسن الأمور المقسمة بين الناس، قد لاقى الفاتحون من بين المستعمرين أشد الصعوبات في تمركزهم وفرض سلطتهم.

وكان الاعتصام بالحرية هنا الحجة على تذوق المبادرة ورفض الاغتراب. و بالعكس في المجتمعات ذات البنيات القوية كان المفهوم الافريقي للرئيس يمنحه مكانة بارزة في تاريخ الشعوب التي يتجسم فيه مشروعها الجماعي. فلا غرابة اذن أن تسرد الرواية كل التاريخ الأصلي للمالنكي في صورة «مدح سندجاتا»، والأمر نفسه بالنسبة الى سني علي عند السنغاي في منعطف النيجر، فلا يعبر هذا البتة عن اشتراط ايديولوجي يقتل الفكر النقدي، وكذلك في المجتمعات التي يكون فيها القول اداة الأخبار الوحيدة، كان للسلطات التي تراقب شبكة قوية من الكهنة امتياز خاص تقريبا لنشر «الحقيقة» الرسمية. ولكن الكهنة ليسوا جمعا موحدا «مؤمما».

ثم أن أحداث تاريخ لافريقيا قبل الاستعمار، يبرهن أن مكانة الزعماء الافارقة في تصورات أذهان الناس ليست من المغالى فيه. فمن ذلك حالة «شاكا» الذي صنع حقا «قوم» الزولو في خضم المعارك. إن كل ما تمكنت الشواهد المكتوبة أو المروية شفاهيا من لمسه من عمل شاكا، كان ولاشك حادثا،عدة مرات في التطور التاريخ الافريقي. و يرجع تشكيل الفرق الموكلة، كما قيل لنا، الى سندجاتا، وعمل اسي توتو كعمل انوكي في انشاء «القومية» الاشنتي، يلوحان في مستوى الفكرة التي كانت للاشنتي فيها حتى اليوم، خصوصا وان فكرة الزعيم المحرك للتاريخ تكاد لا تقتصر أبدا على صورة مبسطة تعزو كل النمو البشري الى شخص واحد.

وفي غالب الأحيان ينحصر الأمر في مجموعة دينامية عرفت بذلك، ولم يغفل عن مصاحبة الزعماء. حتى من كانوا من مستوى وضيع (الكهنة والناطقين باسمهم والخدمة) فيلجون التاريخ كأبطال.

و يصبح الأمر نفسه فيما يخص النساء اللائي يحللن في الضمير التاريخي الافريقي، خلافا لما صرح به وكرر تكرارا كبيرا، مكانة بدون شك أهم من مكانته في خارج افريقيا. وهذا يدرك بسهولة في المجتمعات ذات النظام الخطي الامومي. ففي وانزربا التي تقع قرب تيرا (بالنيجر) حيث السيادة على نظام الامومة، عين الفرنسيون في عهد الاستعمار رجلا ليحكم في هذه المجموعة حتى يكون لسكان هذه القرية عين النظام الذي كانت عليه سائر القرى السنغاي، الا أن السونينكي (٢) من جهتهم قد احتفظوا بكاهنتهم التي لم تفتأ حتى اليوم تتحمل مسؤولية السلطة الفكرية. وفي غيرها من البلدان قد بدت النساء للناس على أنهن قمن بدور من المرتبة العليا في التطور التاريخي للشعوب. فبنات الملوك وأخواتهم وزوجاتهم وأمهاتهم ـــ كتلك المرأة العجيبة لكودجي التي كانت على التوالي كل ذلك، واستحقت لقب «أم شعب لوندا» ـــ كن في المحل اللائق للتأثير على الاحداث.

---

(١) ان عبارة بمبارا «سوتيغي» تعادل سلما أدنى مرتبة من دوقوتيقي (رئيس قرية) ودياماني تيقي (رئيس مقاطعة) وكيلي تيقي (قائد عام)، تدل تدليلا قويا على هذه السلطة.

(٢) في هذه القبيلة فان السلطة تنتقل (عن طريق الحليب) وعلى الرغم من اعتبار رابطة الدم تقوى هذا الانتقال، ولكن عند السيركو فان السلطة تنتقل فقط عن طريق رابطة الحليب.

وأمينة الشهيرة في بلاد الهوسا التي فتحت في القرن الخامس عشر عددا من الأراضي لصالح زاريا، والمدن التي مازالت تحمل اسمها ما هي الا انموذج آخر من بين آلاف النماذج من الفكر، التي عرفت النساء كيف تجعلها في المجتمعات الافريقية تعبر عن نفوذها التاريخي. ومازالت هذه الفكرة حية حتى اليوم في افريقيا، اثر ما قامت به المرأة من دور في حرب الجزائر وفي الأحزاب السياسية خلال الكفاح القومي في سبيل استقلال جنوبي الصحراء.

نعم ان المرأة الافريقية تستعمل أيضا للمتعة والزينة كما توحي به لنا أولئك اللائي يعرضونها علينا مرتديات أقمشة مستوردة، وتحطن بملك داهماي عند اشرافه على حفلة تقليدية، لكن يشارك في عين هذه المشهد فارسات الأمازون، وهي القوة الضاربة في الجيوش الملكية ضد أو يووضد المهاجمين الاستعماريين في معركة كانا (١٨٩٢). فالنساء الافريقيات، لما ساهمن به في خدمة الأرض وفي الصناعة والتجارة، وبنفوذهن الأدبي على ابنائهن أمراء كانوا أو فلاحين، وبحيويتهن الثقافية، اعتبرن دائما كممثلات جليلات في تاريخ الشعوب. وقد كانت معارك في سبيل النساء أو بموجبهن وما فتئت قائمة دائما، اذ أن النسوة أنفسهن كثيرا ما لعبن الدور المنوط بالحيلة أو الخديعة بواسطة الاغراء، ومثل ذلك مثل أخت سندجاتا أو النساء اللائي أرسلهن ملك سيقو دامنزن الى أعدائه. وبالرغم من التمييز الظاهر في الاجتماعات العامة، كل يعلم أن المرأة في افريقيا دائمة الوجود في التطور، فالمرأة هي الحياة، وهي أيضا الوعد بانتشار الحياة، وبها أيضا يتم التحالف بين الفرق المختلفة، هي قليلة الكلام بين الجمهور ولكنها تحل وتعقد الأحداث في سر البيوت، و يلخص الرأي العام هذا المعنى في المثل «في استطاعة النسوة أن يفسدن كل شيء، وفي استطاعتهن أن يصلحن كل شيء».

وبالجملة ان الامر في افريقيا يبدو كما لو أن استمرار البنيات العنصرية للقاعدة الشعبية خلال الحركة التاريخية، قد منح العمل كله طابعا شعبيا ملحوظا. وضعف امكانيات المجتمعات جعل التاريخ من شأن كل الناس (رغم ضعف تقنية وسائل الابلاغ. ولو أن الطم طم تكفل الابلاغ من قرية الى أخرى)، على أن قلة سعة المجال التاريخي كانت على قدر التخوف الذهني لدى كل واحد، فنشأ عن ذلك حس «ديموقراطي» لا ينكر، نشّط تصور التاريخ عند الافارقة في معظم الحالات. لقد كان كل واحد يحس أن له دورا وسلطة وان في امكانه، في النهاية أن ينفلت من السيطرة ولو بالانشقاق، اذ أدى الحال للجوء الى المدى الممكن. وأحس بذلك شاكا نفسه في نهاية عهده. وهذا الشعور الذي يحس به الانسان، من أنه يكوّن التاريخ، حتى على مستوى العالم الصغير القروي والاحساس أيضا بانه هباء في التيار التاريخي الذي أنشأه في القمة الملك الشبيه بالخالق، كل ذلك له أهمية كبيرة الى المؤرخ، فهو في ذاته حدث تاريخي يعمل بدوره على خلق التاريخ.

الزمن الافريقي زمن تاريخي

هل في الامكان أن يعتبر الزمن الافريقي كزمن تاريخي، لقد أنكر بعضهم ذلك وزعم أن الافريقي انما يتصور العالم كتكرار محجر لما كان. فا الزمان اذا الا تابع للماضي لا يتكرر أمام كل قادم. يقول: «هكذا فعل أجدادنا» ليبرر أعماله وحركاته، ولكن لو كان الأمر كذلك لوجد ابن بطوطة في محل امبراطورية مالي مجموعات مما قبل التاريخ تسكن مآوي منحوتة في الصخور وترتدي

جلود الحيوانات. ان الطابع الاجتماعي نفسه في المفهوم الافريقي للتاريخ يجعل له بعدا تاريخيا لا ينكر، اذ ان التاريخ هو الحياة النامية للمجموعة. وفي هذا الشأن يمكن أن يقال ان الزمن في نظر الافريقي زمن حركي، وليس في المفهوم التقليدي، أو في النظرة الاسلامية التي أثرت في افريقيا، ما يشير إلى أن الانسان سجين حركة قارة في مكانها، أو تكرار دوري. نعم «انه ما دام لا وجود» لفكرة الزمن الرياضي والطبيعي المحسوب بجمع وحدات متجانسة تقاس بأدوات صنعت لهذا الغرض، يبقى الزمن عنصرا معاشا اجتماعيا، ولكنه في هذا السياق ليس عنصرا محايدا لا مباليا. في المفهوم العام للعالم لدى الافارقة، أن الزمن هو المحل الذي يستطيع الانسان فيه دائما مصارعة الضمور من أجل تطوير طاقته الحيوية. وهذا هو البعد الرئيسي «للوثنية التجسيمية» (٣) الافريقية، حيث الزمن حقل مغلق وسوق تحتك فيها القوى المصاحبة للعالم وتتبادل. والمثل الأعلى عند الافراد كما هو عند المجموعات انما هو في مكافحة كل ما ينقص ذاتيتها ولا يحسن صحتها، فيزيد في القوة البدنية وفي مساحة الحقول التي للشخص، وفي ضخامة قطعانه وعدد أولاده ونسائه وقراه. وهذا التصور حركي ولا شك، فقبيلتا شركو وسنونينكي (النيجر) متباينتان، الأولى تمثل الماضي وتسعى الى بسط سلطانها على الليل وتهاجم المجتمع، والثانية بالعكس هي مالكة النهار وهي تمثل الحال وتدافع عن المجتمع. وهذه الرمزية في حد ذاتها فصيحة بينة. ولكن دونك قطعة شعرية ذات دلالة، من الابتهال السحري عند السنغاي.

ليس هذا من فمي
هو من فم أ
الذي وهبه ب
وهو اعطاه ج
الذي منحه د
وهو اعطاه هـ
الذي وهبه و
الذي منحني اياه
فما هو لي ليكن في فمي أفضل مما كان في فم القدماء.

وهكذا يوجد لدى الافريقي ارادة دائمة للانتماء الى الماضي الذي يمثل لديه نوعا من التبرير. ولكن هذا الابتهال لا يعني السكون ولا يتضارب مع القانون العام المتعلق بتجمع القوى و بالرقي، لذلك جاءت العبارة: «فما هو لي ليكن في فمي أفضل مما كان في فم القدماء».

يعبر عن السلطان في افريقيا السوداء بلفظ معناه القوة (٤). وهذا الترادف يشير الى الأهمية التي تعطيها الشعوب الافريقية للقوة، ان لم نقل للشدة في جريان التاريخ، ولكنها ليست هي القوة المادية الفظة، بل هي الطاقة الحيوية التي يتجمع فيها عدد من القوى، تمتد من الكمال الطبيعي الى الحظ والى الكمال الاخلاقي، فالقيمة الاخلاقية تعتبر شرطا حتميا لممارسة السلطان ممارسة صالحة،

(٣) الوثنية التجسمية أو بالاحرى الديانة التقليدية في افريقيا، تتميز بعبادة الله، و بقوى الارواح الوسيطة.
(٤) فنكا (في لغة بمبرا)، ينكا (في لغة موري)، يان (في لغة سامو).

و يشهد على هذه الفكرة ما يوجد في الحكمة الشعبية، اذ تروي القصص عروضا للرؤساء الغاشمين الذين يحيق بهم العقاب في النهاية، ومن ثم تستخلص العبرة الأخلاقية من القصة. ولا يقصر «تاريخ السودان» ولا «تاريخ الفتاش» في الإشادة بفضائل «الحاج عسكية محمد» ولو أنهما كانا في الواقع يطمعان في نفع مادي من وراء ذلك، إلا أنهما جعلا علاقة منتظمة بين خصال هذا الملك الجيدة وبين «حظه» وهكذا كان يفكر محمد بلّو حين دعا «يعقوبا باوتشي» أن يعتبر من تاريخ امبراطورية سنغاي: وتمكن محمد عسكية بفضل عدله من المحافظة على ميراث «سني علي» بل قام بتنميته، وعندما خرج أبناء عسكية عن عدل الاسلام، تبددت امبراطوريتهم وتقسمت الى العديد من الدويلات التي لا تملك أي قوة.

وفي نظر ولد عثمان دان فوديو، يصح المبدأ نفسه فيما يخص حكومتهم. «ألق نظرة الى الماضي والى كل من قاد قبلنا في الماضي... قبلنا وجدت أسر حاكمة منذ آلاف السنين في بلاد هوساء، وهناك أحرزت شعوب عدة سلطات كبيرة، الا أنها خسرت اذ كانت بعيدة عن أصولها المتمثلة في العدل وفي العرق والتقاليد، فأفسدها الظلم. ولكي ندوم نحن ينبغي أن تكون قوتنا قوة الحق وقوة الاسلام. وفي نظرنا ان قتل يونقا (٥) وتحطيم عمل نفاتا (٥) وأبرشي (٥) و بوازنقرزا (٥) يمكن أن يؤثر في الأجيال الحاضرة حتى خارج تأثير الاسلام. ولكن الأجيال التي ستأتي بعدنا لن تلاحظ كل ذلك، سوف تحكم علينا بحسب قيمة النظام الذي نكون قد أبقيناه لها، وبحسب قوة الاسلام الدائمة التي نكون قد ركزناها، و بالحق والعدل الذي نكون قد فرضناهما في الدولة».

وهذه النظرة الرفيعة لوظيفة الاخلاق في التاريخ، لا تنبعث من معتقدات الزعيم سوكوتو الاسلامية فقط، ففي الأوساط الوثنية أيضا، توجد الفكرة القائلة إن نظام القوى الكونية قد يختل بموجب أعمال منافية للاخلاق، وان هذا الخلل لابد أن يضر بفاعله. وهذه النظرة للعالم، حيث تكون القيم والمتطلبات الاخلاقية جزءا لا يتجزأ من نظام العالم نفسه، قد تبدو خرافية. الا أنها كانت تؤثر تأثيرا موضوعيا في سلوك الرجال و بخاصة في سلوك عدد من الزعماء السياسيين الافارقة. و بذلك يمكن أن يقال إن التاريخ إن كان غالبا تبريرا للماضي، فهو أيضا حث على المستقبل. وفي النظم السابقة للنظام الحكومي، كانت السلطة الأدبية التي تضمن سير الشؤون العامة أو تعد لها أحيانا، بيد جمعيات مخصصة، وأحيانا سرية كجمعية «اللوفي» في شعب «سينونو» أو البورو في غينيا العليا. وكانت هذه الجمعيات غالبا تكوّن سلطات موازية، مكلفة بأن تلعب دور المرجع المسؤول خارج النظام المقرر. ولكنها في النهاية، كانت أحيانا تحل سرا محل السلطة النظامية، فكانت تبدو للناس كمراكز سرية للحكم، فتسلب من الشعب ماله من سيطرة على تاريخه الذاتي. وفي هذا النمط من المجتمعات، فان التنظيم حسب فئات الأعمار، يبقى بنية لها أهمية أساسية في مسيرة تاريخ الشعب. وهذه البنية المقررة حسب دورية معلومة، تمكن من الصعود مع تاريخ الشعوب حتى القرن الثامن عشر، ولكنها أيضا كانت تلعب دورا خاصا في حياة المجتمعات في المجموعات الريفية حيث لا تجديد تقني يعتد به ــ فهي اذن جامدة، ولم تكن نزاعات الأجيال غائبة. فكان من المهم اذن أن

---

(٥) امراء من غبير.

نأخذ على عاتقنا ــ ان صح القول ــ ترتيب مد الأجيال وتشييد هيكل العلاقات بين هذه الأجيال، لتجنب ما قد تؤول اليه من مواجهات عنيفة نتيجة تحول سريع. فلينتدب الجيل الملتزم بالعمل عضوا من أعضائه يبقى في صفوف جيل الشبان اللاحق له مباشرة، ولكن دور هذا العضو ليس في اخماد حماسة الشبان وقلة صبرهم بل في توجيه اندفاعهم الغير المتروي، حتى لا يصبح وبالا على المجموعة كلها، وحتى لا يساء اعداد المعنيين بتحمل مسؤولياتهم العامة (٦).

ان الوعي بالزمن الماضي كان حادا جدا لدى الافارقة، وهذا الزمن الذي ينزل بكل ثقله على الحاضر لا يحطم مع ذلك حركيته، كما يشهد بذلك عديد الأمثال. ومفهوم الزمن كالذي يكتشف في المجتمعات الافريقية ليس حقا ضربا من «الطبيعة» الافريقية أو من المصاحبات لعنصرها. بل هو علامة على مرحلة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، وبرهان ذلك ما يلاحظ من فروق واضحة حتى اليوم بين الزمن ــ المال الذي يقول به أهل المدن من الأفارقة، والزمن الذي يدركه معاصروهم واخوانهم من المروج. فالمهم هو وجود فكرة التطور ابتداء من أصول يبحث عنها. وحتى تحت قشور القصص والأمثال وأدران الخرافات، فان الأمر يتعلق ببذل الجهد لتعقيل التطور الاجتماعي، ولقد بذلت أحيانا الجهود الايجابية للشروع في حساب الزمن التاريخي. ومن الامكان أن يرتبط هذا بالفضاء، كقولك الزمن اللازم لخطو خطوة للدلالة على المدة الدنيا. وقد يرتبط بالحياة البيولوجية كزمن الشهيق والزفير، ولكنه غالبا يتقيد بعوامل خارجة عن الانسان الفرد كالظواهر الكونية والاقليمية والاجتماعية، خاصة اذا كانت مستقرة. ففي منطقة المروج السودانية، يعد عادة العمر عند أهل الديانات التقليدية بعدد فصول الأمطار. فلكي نقول عن انسان إنه مسن، يصرح عادة اما بعدد فصول الأمطار (التي عاشها) أو يستعاض عن ذلك بكيفية مقتضبة بقولهم: «قد شرب ماء كثيرا».

وقد وضعت أحيانا أنظمة أكثر تقديرا للحساب (٧)، ولكن المرحلة الحاسمة كانت في هذا الميدان عند استعمال الكتابة، على أن وجود طبقة مثقفة لا يعني البتة توفر وعي الشعب بكامله بتاريخ جماعي، ولكنها تمكن على الأقل من نصب معالم وسط التيار التاريخي تنظم به سيره.

ثم ان اعتناق الديانات التوحيدية المرتبطة بتاريخ معلوم، ساهم في مضاعفة تصور الماضي الجماعي، بأنماط كانت تظهر في المرويات، مثلا في شكل ربط الأسر المالكة ربطا اعتباطيا بأصول الاسلام التي ساعدت قيمها ومثلها، الرسل السود، على قلب مجرى الأحداث في بلادهم الاصلية.

ولكن انقلاب الزمن تم على الخصوص، عندما دخل العالم مجال المردود الاقتصادي والتراكم

---

(٦) مثلا عند الالديان من موسّو (قرب ابيجان) فان التنظيم حسب الأجيال (وعددها ٥ كل يحكم ٩ سنوات) مازال ساري المفعول حتى في الأشغال ذات الطابع «العصري»: انشاءات، افراح، بمناسبة الحصول على شهادة أو ارتقاء الى درجة أعلى.

(٧) ان ايفور ولكس عند نقده لكتاب د. ب هينج: «تاريخ الرواية الشفاهية» البحث عن شيميرا. يبين هكذا أن الاكان (فنشي، اشنتي..) كان لديهم نظام تقويم معقد اسبوعه ٧ أيام وشهره ستة أسابيع وسنته تسعة أشهر ويعدل دوريا لموافقة الدورة الشمسية بطريقة لم توضح تماما حتى الآن، «فكان اذن من الممكن ضمن تقويم أكان أن يرجع الى اليوم الثامن عشر من الشهر الرابع من السنة الثالثة من ملك الاشنتيهان اسي بنصو» وهي طريقة للتاريخ ما فتئت تستعمل في البلدان الأوربية حتى القرن الثامن عشر وحتى التاسع عشر. أنظر أ.ولكلس ١٩٧٥، صفحة ٢٧٩ و ٥٥.

المالي. عندها فقط تغير مدلول الزمن الفردي والجماعي، عن طريق تقمص الثقافات الاشكال الذهنية السائدة في البلدان التي أثرت في الأفارقة اقتصاديا وثقافيا. فاكتشف الافارقة أنه غالبا ما ينشيء المال التاريخ، والانسان الافريقي القريب الملتصق بتاريخه، كان يشعر انه هو الذي يصنعه في مجتمعات مصغرة، وهكذا يواجه هذا الانسان في آن واحد خطر اغتراب عظيم، وفرصة المشاركة في الرقي الشامل.

الفصل الثالث

الاتجاهات الحديثة في البحوث التاريخية الافريقية وإسهامها في التاريخ بصورة عامة

ف. د. كورتن

ان الغرض من هذا المجلد ومما يليه من المجلدات، التعريف بماضي افريقيا كما يراه الافارقة. وهو منظور عدل، وقد يكون هو الطريق الأوحد للوصول الى مجهود دولي، وهذا ما يفضله مؤرخو افريقيا في افريقيا وخارجها. في نظر الافارقة، معرفة ماضي مجتمعاتهم الخاصة تمثل وعيا بالذات لا بد منه لاقرار هويتهم في عالم مائج متنوع. وهكذا فان إحياء افريقيا لاح في العشريّات الأخيرة، لا على أنه مشروع اعتباطي غالي الثمن و ينبغي إرجاؤه الى أن تتوفر عناصر نمو أشد تأكدا، بل على أنه عنصر أساسي للنمو الافريقي، ولذا كان همّ المؤرخين الأوئل في افريقيا وخارجها، أن يتجاوزوا رواسب التاريخ الاستعماري، وان يربطوا الوثاق من جديد مع التجربة التاريخية للشعوب الافريقية.

وتستعرض أبواب أخرى ومجلدات أخرى هذا التلاقي الجديد، وتدرس التاريخ كتقليد حي دائم الانتشار، ووظيفة المعارف التاريخية في انشاء نظم حديثة للتربية قصد العمل بها في افريقيا المستقلة. وسنعرض في هذا الفصل بالذات مدلول تاريخ افريقيا في الخارج أولا، في نظر مجموعة المؤرخين الدولية، ثم بالنسبة الى مجموع الجمهور المثقف الفسيح.

ان الاهمال الفظيع لتاريخ افريقيا حتى الخمسينات، ما هو في حقل الدراسات التاريخية الا علامة من علامات ظاهرة أوسع. وليست افريقيا وحدها التي ورثت من العصر الاستعماري ميراثا ثقافيا من الواجب تعديله. ففي القرن التاسع عشر غزا الاوربيون معظم آسيا وأخضعوها لنيرهم، أمّا في أمريكا الإستوائية فلقد كان التخلّف وهيمنة أوربيي ما وراء البحار على الأهالي الافريقيين الاميركيين والهنود، قد أنتجا ظروف الاستعمار في أراض أشارت اتفاقيات القانون الدولي فيها الى

وجود مجموعة من الدول المستقلة. وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حرّف طابع النظام الاستعماري الذي طبع المعلومات التاريخية، منظورات مفهوم أوربي مركزي لتاريخ العالم الذي تم اقراره في عصر الهيمنة الأوربية، وانتشر هذا المفهوم بفضل النظم التربوية التي وضعها الأوربيون في العالم الاستعماري، وحتى في المواطن التي لم تنتصب قط فيها الهيمنة الأوربية، كانت الكلمة لمعلوماتهم نظرا لعصريتها حتى في مظاهر التدوين التاريخي المتمركز حول أوربا.

وانقرضت اليوم هذه النظرة الاوربية المتمركزة للعالم من أهم المؤلفات التاريخية الحديثة، الا أنها مازالت سائدة عند عدة من المؤرخين، وعند الجمهور الأعظم الغير الغربي منه والغربي (١). ويرجع هذا الثبات لكون التاريخ «كان يلقن» عادة في المدرسة، وانه لم تتح الفرصة لتعديل المعطيات المكتسبة، وحتى المؤرخون المتخصصون في البحث، كانت تعترضهم عقبات كي يكونوا على علم بما تم اكتشافه في ميادين خارجة عن نطاق نشاطاتهم. وحسب البحوث الأخيرة، فان الكتب المدرسية كانت متأخرة بقدر عشر سنوات الى عشرين سنة، بينما كانت مصنفات التاريخ العام تحتفظ غالبا بقبليات من معارف أخنى عليها الدهر. فلا يتمركز أي تفسير حديث، أو أي عنصر جديد بلا كفاح.

ورغم المدد الفاصلة بين الاكتشاف وبين تعريفه للجمهور، فان دراسات التاريخ تمر في جملتها بثورة مزدوجة، بدأت هذه الثورة اثر الحرب العالمية الثانية وهي لم تنته بعد، فالشأن من جهة أن يحول التاريخ ابتداء من الأخبار، حتى ينتهي الى علم اجتماعي يهتم بتطور المجتمعات البشرية، ومن جهة أخرى ان تعوض الآراء الوطنية المسبقة بنظرة أكثر اتساعا.

وأتت المساهمات نحو هذه الاتجاهات الجديدة من كل الجهات، من أوربا نفسها ومن مؤرخي المدرسة الحديثة في افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، ومن أوربيي ما وراء البحار، ومن أميركا الشمالية ومن القارة الاوقيانوسية، وشملت جهودهم في افساح اطار التاريخ، في آن واحد، شعوبا وأقاليم مازالت مجهولة حتى ذلك الوقت، كما شملت مظاهر من التجربة الانسانية، طالما دفنت تحت مفاهيم تقليدية ضيقة للتاريخ السياسي والعسكري. ونشأة التاريخ الافريقي في هذا السياق هي ذاتها مساهمة ثمينة، على أن ذلك كان في الامكان أن يؤدي الى اضافة تاريخ جديد انعزالي الى تواريخ أخرى، وقد تكون لهذا قيمة في حد ذاته، من شأنها أن تعين على تنمية افريقيا، دون أن توفر لتاريخ العالم أبلغ المساهمات.

ومما لا شك فيه أن التزمت الوطني كان الصفة التي طبعت التقليد القديم التاريخي، أعمق الطبع، وفي النصف الأول من القرن العشرين شرع المؤرخ الضليع في التخلي عن الاتجاه القديم الذي يعتبر التاريخ ملكا شبيها بالخاص.

وحسب هذه النظرة، فان تاريخ مجتمع معين لا قيمة له الا في ذاته، وأما في الخارج فيفقد كل دلالة. وفي أحسن الحالات ان ما يبديه الأجانب من اهتمام ينتمي الى التطفل، وفي أسوء الحال هو تجسس تقليدي. وهذا التأكيد على الاستحواذ على التاريخ، كان واضحا خاصة في التقليد الاوربي

---

(١) ان لفظ «الغرب» استعمل في هذا الفصل للدلالة على مناطق في العالم مثقفة ثقافة أوربية أو مشتقة منها، ويشمل أيضا أميركا بأجزائها واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية واستراليا وزيلاندا الجديدة.

في بداية القرن العشرين، وكانت السلطات المسؤولة عن التربية، تميل الى اعتبار التاريخ كتاريخ قومي لا كتاريخ عام لأوربا ولا كنظرة معتدلة لتاريخ العالم. التاريخ خرافة معترف بها استغلت لخلق العزة القومية ولبعث فكرة التضحية في سبيل الوطن. لقد كتب لورد ماك اولي (ان التاريخ في آن واحد قصة واداة للتربية السياسية والأخلاقية) (٢) وكان من المتوقع منه ان يلقن الوطنية لا أن يوحي بنظرات صائبة في تنمية البشرية. و بقيت هذه النظرة سائدة في معظم النظم التربوية.

وقد أدلى بعض المؤرخين باعتراضهم، اما باسم العلم أو باسم الشمول الدولي، ولكن أكثرهم اعتبروا الآراء المسبقة القومية طبيعية مهما كانت غير مرغوب فيها. ففي فرنسا من الممكن أن يحصل الطالب على التبريز في التاريخ مع كونه لا يعرف عن أوربا من وراء الحدود الفرنسية سوى معلومات هزيلة، وذلك بقطع النظر عن آسيا وافريقيا وأميركا. وفي العديد من الجامعات الانكليزية من الممكن دائما أن يحرز على الاجازة في الآداب على أساس دراسة التاريخ الانكليزي وحده. واستعمال لفظ «انكليزي» عوض لفظ «بريطاني» استعمال مقصود. فالتلميذ «الانكليزي» قد تكون له كل الحظوظ ليعرف عن تاريخ روما أكثر مما يعرف عن تاريخ بلاد الغال واسكوتلاندا أو ارلندا قبل القرن الثامن عشر. ومع اعتبار الفروق الايديولوجية، فان المشكل يكاد يكون عينه في أوربا الشرقية. و يبدو أن البلدان الأوربيّة الأقل أهمية كمجموعة البينيلوكس واسكندنافيا، هي وحدها التي تعتبر أوربا كلا لا يتجزأ.

ثم إن طريقة أميركا الشمالية المعتمدة ــ كنظائرها الأوربية ــ في تاريخ الحضارة مازالت مركزة على الاجناس. و يتمثل سؤالها في «كيف صرنا على ما نحن عليه؟» لا في «كيف صارت البشرية على ما نراه اليوم؟».

وكلما رفض مؤرخو كل قارة الاتجاهات المركزة على أوربا في تاريخهم القومي الخاص، الا و يرجع اليهم واجب الاجلاء الحقيقي نحو تاريخ العالم، حيث يكون لافريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية دور مقبول في المستوى الدولي، وهذا الواجب تحمله خاصة، المؤرخون الذين اهتمت أعمالهم بالثقافات المختلفة، والمؤرخون الافارقة الذين شرعوا في الكتابة عن آسيا أو أميركا اللاتينية، والاوربيون أو الأميركان الشماليون الذي أخذوا في تفسير تاريخ افريقيا أو آسيا لصالح مواطنيهم محاولين التحرر من الآراء المسبقة المركزة على أوربا.

وفي اطار هذا المجهود العام، أصبح لدور مؤرخي افريقيا ــ في القارة وخارجها ــ أهمية خاصة وذلك على الأقل لكون تاريخ افريقيا قد أهمل اهمالا أكبر من اهمال تاريخ سائر المناطق الغير الاوربية، ولكون الخرافات العنصرية شوهتها أكثر من غيرها، ومن المعلوم أن العنصرية داء من العسير جدا اقتلاعه لكونه متنوع الشكل. وقد جعلت له نظريات في أشكال مختلفة منذ القرن السادس عشر فتجسم في التاريخ بكيفية حادة، وأحيانا في شكل ابادة جماعية في بعض العهود كعهد النخاسة العبيد السود، والحرب العالمية الثانية، ومازالت العنصرية قائمة في صورة تحد فظيع في

(٢) طوماس بانقتن ماكولي: مذكرة ٢ فيفري (شباط) ١٨٣٥ في موضوع «تربية لمعرفة الهند» اذيع نشرا اذاعة فسيحة، وأخيرا في «امبرالية» بقلم ب: د. كرتين (نيويورك، ١٩٧١) ص ١٨٢.

افريقيا الجنوبية وغيرها وذلك رغم أعمال اليونسكو (٣) ومنظمات أخرى، قصد البرهنة على ما في ذلك من طبيعة غير معقولة، ولكن علاج الآراء المسبقة يطول، اذ أن العنصرية منتشرة ماثلة في الكتب المدرسية، وفي العروض السمعية البصرية المتحيزة، وفي تراث «المعطيات» النفسانية الواعية أو الغير الواعية التي تحملها أحيانا التربية الدينية، وفي الأغلب في الجهالة والظلامية. وفي هذه المعركة يمثل التعليم العلمي لتاريخ الشعوب السلاح الاستراتيجي الحاسم، فمذ كانت العنصرية الغربية التي وردت ادعاء التعليم في القرن التاسع عشر، ترتب سلم القيم معتمدة على الفروق الجسمانية، وبما أن أوضح هذه الفروق هو لون البشرة، كان الأفارقة يجدون أنفسهم بكيفية أوتوماتيكية في أسفل السلم، اذ كانوا يبدون مخالفين للأوربيين الذين خصصوا انفسهم بأعلى السلم. وما فتىء العنصريون يصرحون أن تاريخ افريقيا لا أهمية له ولا قيمة: وحيث أن الافارقة لم يكونوا لينشؤوا «حضارة» جديرة بهذا الاسم، فان ما من أمر عندهم يبعث على الاعجاب الا قد تم نسخه وتقليده عن الغير. وهكذا صار الافارقة مفعولا للتاريخ لا فاعلا له، واعتبروا قادرين على تلقي التأثيرات الأجنبية دون أن يأتوا مقابل ذلك بأية مساهمة لبقية العالم.

فمنذ زمن بعيد، منذ بداية القرن العشرين كان للعنصرية الشبه العلمية أكبر الأثر، وضعف هذا الأثر بعد ١٩٢٠ لدى الاخصائيين في العلوم الاجتماعية والطبيعية، وبعد ١٩٤٥ زال هذا الأثر بالقوة في الأوساط العلمية المحترمة. ولكن أثر هذه العنصرية كان يستمر، ففي مستوى معلومات إنسان الشارع كانت العنصرية تغذيها الزيادة في التوترات العرقية في الأوساط المعرضة وقد وافق ظهورها في المدن الغربية ظهور مهاجرين من أصل افريقي أو آسيوي زاد عددهم، فبقيت آثار ردود الفعل الشعبية واضحة. وكان يدعم ذلك ذكر الدروس التي حفظها الناس من المدارس، وبالنسبة لتلامذة عام ١٩١٠، أي الفترة التي كانت فيها العنصرية التي توصف باطلا بالعلمية، هي التي تمثل المذهب البيولوجي الرسمي، فان ساعة التقاعد لن تدق الا بعد سنة ١٩٦٠. وأخطر من ذلك ما بقي حيا من استنتاجات اعتمدت على ادعاءات عرقية لم يبق لها معنى بعد. فالمسلّمة القائلة: «ليس لتاريخ افريقيا أهمية، لأن الأفارقة من جنس أدنى» لم يبق لها ما يدعمها. إلا أن بعض المثقفين الغربيين كانوا يتذكرون من بعيد أن «ليس لافريقيا ماض» ثم انهم نسوا علة ذلك.

وبهذه الصفة أو بأخرى، فإن ارث العنصرية ما فتئ يدعم تعصبا وطنيا ثقافيا يميل الى اعتبار الحضارة الغربية هي «الحضارة الوحيدة الحقيقية». وفي نهاية الستينات عرضت الاذاعة البريطانية بعنوان «حضارة» سلسلة طويلة من النشرات، مخصصة للتراث الثقافي بأوربا الغربية فحسب. نعم. من حين الى آخر، قد اعتبرت بعض المجتمعات كمجتمعات «حضارية». ولكن في منتصف القرن صارت درجة محو الأمية تعين الخط الفاصل بين الحضارة.. وبين ما بقي. وكانت المجتمعات الافريقية في معظمها قبل العصر الاستعماري مجتمعات أمية، فرمي بها في صنف «البدائيين». على أن غالب افريقيا في الواقع كان مثقفا، بمعنى أن طبقة من الكتاب كانوا يعرفون القراءة والكتابة لا بمعنى محو الأمية الجماعي الذي لم يكن في كل مكان الا ظاهرة من ظاهرات العصر بعد الصناعي.

(٣) انظر الفصل الحادي عشر من دراسة عن (العروق وتاريخ افريقيا).

فكان لاثيوبيا خطها القديم «جيز». وكل افريقيا الاسلامية، شمال افريقيا والصحراء والشريط الشمالي من المنطقة السودانية، من السنغال الى البحر الأحمر، والمدن الساحلية من الشاطئ الشرقي حتى مضيق موزنبيق كانت تستعمل الكتابة العربية، وحتى قبيل العهد الاستعماري، فان العربية كانت قد دخلت هنا وهناك عبر الغابة المدارية بواسطة تجار (جوُولا)، بينما كانت اللغات البرتغالية والانكليزية والفرنسية تستعمل عادة كلغات للتجارة على طول السواحل الغربية. ومع ذلك فان التعصب القومي الثقافي وقد عززته الجهالة، أدى بالسلطات الغربية الى جعل حدود الصحراء وهي التي تفصل بين الأمية ومحو الأمية، وكان في هذا دعم للنظرية المشؤومة الرامية الى فصل تاريخ افريقيا الشمالية عن تاريخ باقي القارة.

على أن إبعاد «اللامتحضرين» من مملكة التاريخ، لم يكن الا وجها من عنصر أهم من عناصر التقاليد التاريخية الغربية، وكانت الجموع الغربية نفسها تتعجب من هذا الابعاد، ليس تبعا لقبليات طبقية واضحة ولا شك، بل لما للتاريخ من طابع تعليمي، كلما مكن مدح مشاهير الرجال من تقديم مثل يقتدي به. ولكن ليس من باب الصدفة أن تكون هذه المثل مأخوذة عن الأغنياء وأصحاب السلطة، فصار التاريخ سردا لوقائع وأعمال طبقة قليلة من الاعيان. وكانت انماط السلوك التي تشمل عامة مجتمع يقلل من قيمتها أو تجهل تماما. وتاريخ الأفكار لم يكن تاريخ آراء الناس بل كان تاريخ «النوايا العظمى». والتاريخ الاقتصادي لم يكن تاريخ الاقتصاد أو السلوكات الاقتصادية، بل تاريخ بعض السياسات الاقتصادية الحكومية المهمة وبعض المؤسسات الخاصة، وبعض الأعمال الطريفة في الحياة الاقتصادية. واذا ما كان المؤرخون الاوربيون لا يولون أي اهتمام لقطاع فسيح من مجتمعهم ذاته، فكيف يكون في الامكان أن يهتموا بمجتمعات أخرى وبثقافات أخرى؟

حتى الآن، فان الاتجاهين الثوريين اللذين ظهرا في الدراسات التاريخية الحديثة اتبعا نهجين متوازيين أتم التوازي، وذلك لأن التاريخ المركز على أوربا، وتاريخ الأعيان كانا يتغذيان من نفس المعين. ولكن شيئا فشيئا تم الارتباط الضمني بين من كانوا يعملون على افساح حقل الدراسة في المجتمع الغربي، ومن كانوا يسعون الى دفع البحوث التاريخية خارج العالم الغربي دفعا أقوى. ففي البداية تقدم الجمعان محتفظين بما بينهما من فروق، وكان الهم الرئيسي لمؤرخي افريقيا، أن يدحضوا الزعم القائل أن ليس لافريقيا ماض أو ماض ذو قيمة، وفي الصورة الأولى كان الهدف أن تجابه الصعوبة مجابهة. وكان بامكان أخصائيي افريقيا أن يردوا على من كانوا يزعمون، بان ليس لافريقيا ماض، منكرين بوجود ممالك وامبراطوريات فسيحة يشابه تاريخها السياسي تاريخ أوربا في بدايتها، وكان اشمئزاز الجمهور الغربي من نظرية النخبة (كما هو الشأن لدى الجمهور الافريقي المثقف ثقافة غربية) من شأنه أن يمثل وسيلة لاقامة الدليل في النهاية على أهمية التاريخ الافريقي، وما تلك الا بداية متواضعة كانت تكفي لابراز مظاهر الماضي الافريقي التي كانت تشابه ماضي الغرب دون أن تصادق على ما ينجم عن سوء التفاهم من تباينات الثقافة. وقليلا من المؤرخين أيقنوا حتى ذلك الوقت، أن الامبراطوريات ما هي الا مؤسسات مضنية فظيعة ليست هي حتما علامة على الرقي السياسي، وقليل منهم كان مستعدا أن يعترف مثلا، أن من أعظم منجزات افريقيا، انشاءها

لمجتمع بدون دولة يعتمد على التعاون أكثر مما يعتمد على الضغط. وان الدولة الافريقية نظمت نفسها لكي تحقق استقلالات ذاتية محلية حقيقية.

وهذا الاتجاه الرامي الى قبول بعض الخصائص للتدوين التاريخي الدراسي، كخطوة لتجريد التاريخ الافريقي من النظريات الاستعمارية توجد عموما في دراسة الفترة الاستعمارية، حيث يوجد من قبل تاريخ «استعماري» رسمي يسعى الى التأكيد على النشاطات الاوربية والى تجاهل النصيب الافريقي.

وفي أسوإ الحالات، كان هذا التاريخ يصور الافارقة في صورة وحوش جبناء أو مختلين. و ينتج عن ذلك أن كائنات رفيعة أتت من أوربا فحققت ما لم يكن للافارقة أن يحققوه، وحتى في أعلى درجات الموضوعية فان «التاريخ الاستعماري» لم يكن ليمنح الافارقة سوى أدوار ثانوية على مسرح التاريخ.

ودون أن نغير الأدوار، فان أول مجهود لاصلاح هذا التأويل يقتصر على تغيير القيم. فبعد أن كانوا أبطالا في خدمة الحضارة في سيرها، روادا وولاة مستعمرات وضباط جيش، أصبحوا مستغلين أفظاظا. وصار الافريقي ضحية بريئة، الا أنه ليس له من حيلة الا أن يكون سلبيا، ومازالت حفنة من الأوربيين هي التي جعلت افريقيا وتاريخها كما هما عليه. (لا شك أن الاوربيين كان لهم احيانا الادوار الاولى في الفترة الاستعمارية، ولكن المراجعات المستندة الى البحوث الحديثة في المستوى المحلي، تمكن من التقليل من الأثر الاوربي كما كان يلوح في «التاريخ الاستعماري» المنشور قبل سنة ١٩٦٠).

وثمة خطوة ثانية نحو تحرير تاريخ الفترة الاستعمارية من النزعة الاستعمارية سارت بموازاة موجة الحركات القومية المنادية بالاستقلال، وها قد ظهر أن للافارقة دورا في التاريخ وصار ينبغي ابرازه للعيان. وأزاح الحواجز اخصائيو العلم السياسي الذين كتبوا في عهد الحركات التحريرية (٤). وبعد ذلك بقليل، خاصة في الستينات، شرع العلماء في الرجوع الى الماضي، باحثين عن جذور المقاومة وحركات الاحتجاج في بداية العصر الاستعماري، وأكثر من ذلك، بحثوا عن القفزات الاولى لمقاومة النير الاوربي (٥). ان هذه المؤلفات عن حركات المقاومة والاحتجاج مصحح مهم، ولكن تاريخ افريقيا لم يتصور بعد تصورا موضوعيا. وفي النهاية، ان تحرير التاريخ الافريقي في العصر الاستعماري من النزعة الاستعمارية، سوف ينشأ عن صهر الثورة ضد المركزية الاوربية، مع الحركة المضادة للاعيان. وأخذت الثورة السلوكية تؤثر في تدوين التاريخ الافريقي، الا أن هذا التأثير مازال جديدا محدودا، وبقي الكثير مما يجب نشره، على أن بعض المؤرخين شرعوا في البحث عن طريقة مشتركة متعددة الاختصاصات تمكنهم من تعاطي دراسة تاريخ الفلاحة أو

---

(٤) انظر مثلا طوماس هودقكين: القومية في افريقيا الاستعمارية لندن ١٩٥٦، ودافيد ابتر: ساحل الذهب في تحول (برنستون ١٩٥٦) وجامس س. كولمان: نيجيريا، أرضية القومية (بركلاى ١٩٥٨)، وشارل أندرى جوليان: افريقيا الشمالية تسير (باريس ١٩٥٢).

(٥) انظر مثلا جورج شبرسون وطوماس برايس ١٩٥٨: الافريقي المستقل وجون شيلمبوي وجذور ثورة الأهالي بنياسالاند سنة ١٩١٥، واستقرارها ومدلولها (ادنبرغ ١٩٥٨)، ي. و. رنجز: الثورة في جنوبي روديسيا، دراسة مقاومة افريقية (لندن ١٩٦٧)، جون اليف: طنغانيكا تحت حكم الألمان ١٩٠٥ ــ ١٩١٢ (كمبردج ١٩٦٩)، روبرت رتبرغ وعلي أ. مزروعي: الاحتجاج والسلطة في افريقيا السوداء، ايف برسن: ساموري: ثورة ديولا ــ ٣ مجلدات (داكار ١٩٦٨).

تاريخ التعدين، كي يستغلوا سائر العلوم الاجتماعية، وأخذ بعضهم يهتمون بمناطق صغيرة منعزلة راجين من دراسات العوالم الصغيرة هذه، أن توضح شبكة تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية الأكثر أهمية والأشد تشعبا (٦). وشقّ البحث طريقه في مجال المشاكل الخاصة في التاريخ الاقتصادي والديني، ولكن التحرر الحقيقي للتاريخ الافريقي من الفكرة الاستعمارية ما فتئ في بدايته.

وتقدم التاريخ التحليلي ــ وهو أيضا (التاريخ الميداني) المستند الى البحوث والأسئلة الميدانية، وليس الى تصفح الوثائق فقط ــ وهو خطوة مهمة في هذا الاتجاه، والاستغناء عن الوثائق يلوح أيضا أساسيا بالنسبة الى الفترة الاستعمارية، كما هو بالنسبة الى الفترة التي قبلها حيث كانت الوثائق قليلة نسبيا. وخلافا لما جرى ولما يجري في أوربا والولايات المتحدة، فإن مشكل «التاريخ الاستعماري دائما» في الوثائق التي تضخم من قبل الأجانب. فكل من ترك مخطوطا ضمنه حتما آراءه المسبقة ومشاعره ازاء نفسه وازاء من كانوا يحكمونه وإزاء ما كان لهم من دور. وذلك شأن تاريخ السياسة الداخلية في أوربا والولايات المتحدة، حيث الآراء المسبقة ليس الا لفائدة الحكومات. وفي العالم الاستعماري قد يكون للمؤرخ عواقب وخيمة، اذ ما اغفل امكانية اسماع صوت آخر يتضمن الشهادة الشفاهية لمعاصري الفترة الاستعمارية.

ومن الممكن أن يكون مؤرخو افريقيا قد تأخروا بعض التأخر عن سائر زملائهم في بعض الطرق الحديثة، ولكنهم باستعمالهم للروايات الشفاهية فيما قبل عصر الاستعمار أكثر منه في عصر الاستعمار، قد قاموا بعمل رائد. و ينقسم هذا العمل الى فترتين، فهي ما بين عامي ١٨٩٠ و ١٩١٤ شرع جيل من الادار يين المثقفين العاملين في مصالح السلطات الاستعمارية، في تأكيد الاحتفاظ بالروايات الشفاهية ذات الأهمية التاريخية. والفترة الثانية ترجع الى نحو الخمس عشرة سنة وانتهت في العشرية ١٩٥٠ ــ ١٩٦٠ الى الرأي الذي صرح به ج. ب. مردوك سنة ١٩٥٩. فحسب رأيه «لا سبيل الى الوثوق بالروايات الاهلية الشفاهية» (٧) وتفتحت العشرية ١٩٦٠ ــ ١٩٧٠ على نشرة جان فانسينا «الرواية الشفاهية دراسة في المنهجية التاريخية»، فأشارت هذه النشرة الى المراقبات اللازمة والنقد اللازم لاستعمال الروايات الشفاهية استعمالا علميا. والأعمال التاريخية الحديثة المستندة الى الرواية الشفاهية المستخدمة الى جانب مصادر أخرى للوثائق، يمكن أن تعتبر نجاحا ملحوظا (٨). وأكدت ندوة داكار المنعقدة سنة ١٩٦١ باشراف «المعهد الدولي الافريقي» حول موضوع (المؤرخ في افريقيا المدارية) وندوة دار السلام سنة ١٩٦٥ حول موضوع (منظورات جديدة عن التاريخ الافريقي)، أكد على النظرات الجديدة الضرورية، مشيرين خاصة الى دور

---

(٦) انظر بولي هيل: مزارع كووكا في جنوبي غانة (كمبردج ١٩٦٣).

(٧) مردوك: افريقيا بشعوبها وتاريخ ثقافتها، نيو يورك ١٩٥٩، ص ٤٣.

(٨) انظر مثلا جان فانسينا: مملكة طيومي ١٨٨٢ الى ١٨٩٥ (اكسفورد ١٩٧٣)؛ ريموند ك. كنت أقدم الممالك بمدغشقر ١٥٠٠ ــ ١٧٠٠ (نيويورك ١٩٧٠)؛ دافيد وليام كوهين: الرواية التاريخية بوساقا، وكنتو (اكسفورد ١٩٧٢)؛ دراسة أ. ج. ألقوا، الملخصة جزئيا في باب (دول دلتا النيجر وجيرانها ١٦٠٩ ــ ١٨٠٠ في تاريخ افريقيا الغربية لـ. د. ج. ف. أ أجاي وميخائيل كراودر جزآن، لندن ١٩٧١، ج ١ ٢٦٩ ــ ٣٠٣؛ أ. روبرتس، طنزانيا قبل ١٩٠٠ (نيروبي ١٩٦٨) نيان د. ت: سندجاتا على الملحمة المندنقية، الحضور الافريقي.

الرواية الشفاهية الذي لا مثيل له كمصدر للتاريخ الافريقي، كما أشار الى ما في وسع المؤرخ أن يستمده من اللسنية ومن علم الآثار المؤكد بالرواية الشفاهية.

واثر مؤرخو افريقيا على سائر العلوم الاجتماعية بواسطة أعمالهم حول الفترة قبل الاستعمارية. ويلوح هذا الأثر في مستويات عدة. وفوق كل شئ نحن مدينون له بكونه فرض الاعتراف بان افريقيا «التقليدية» لم تبق ساكنة، واتجه علماء الاقتصاد وإخصائيو العلوم السياسية وعلماء الاجتماع الى دراسة التحولات المسايرة، راجعين الى ظروف «قبل» و «بعد». «قبل» مطبقا على «المجتمع التقليدي» باعتباره غير متغير، و «بعد» مطبقا على نظام هذا التحول متضمنا نحو يلا حركيا للصورة السابقة. وكان المؤرخون مترصدين للتطور، مراقبين للتغيرات التي لا تفتأ تجري في المجتمعات البشرية. وأقامت بحوثهم في العشريات الأخيرة الدليل على أن المنظمات والعوائد وظروف العيش والديانات والاقتصاد، في افريقيا قبل الاستعمار، تغيرت بنفس السرعة التي تغيرت بها في مجتمعات أخرى بين الثورتين الزارعية والصناعية، وهذه السرعة أقل منها في النظام بعد الصناعي التقليدي الذي مازال يصانع افريقيا اليوم. على أن جمود الماضي (التقليدي) لا نفاق له في أي مكان.

على أن استعمال قاعدة ما واستخدام منطلق «تقليد» سبّبا لعلماء الانترو بولوجيا أشد المشاكل خطرا. فمنذ العشرينات عمل علماء الأنترو بولوجيا الناطقون بالانكليزية، انطلاقا من نمط اجتماعي، مكن من التأكيد على الدور الذي كان لكل عنصر تأسيسي في الحفاظ على نشاطات الكل. واعترفوا أن المجتمعات الافريقية التي نظروا فيها، قد تغيرت تغيرا كبيرا منذ بداية النظام الاستعماري، واعتبروا ذلك فاسخا لدلالاتهم، ففي نظرهم كان من اللائق أن ترتب الأمور متمركزة في فترة واحدة منتقاة بالصدفة من الماضي السابق مباشرة للغزو الاوربي. وكانوا يزعمون أنه بالامكان ان تكتشف طبيعة هذا المجتمع التقليدي بجمع معطيات المشاهدات الحالية، وبقطع النظر عن كل ما كان يشابه التأثير الأجنبي، وكانت النتيجة «الحاضر الانترو بولوجي».

وهذا العمل التمهيدي الوظائفي مدين كثيرا لبرونسلاف مالينوفسكي الذي ساد الانترو بولوجيا البريطانية خلال العشريتين الثانية والثالثة من هذا القرن، وساهم هذا العمل كثيرا في فهم «مسيرة» المجتمعات البدائية. وقد أحرز «علماء الوظائفية» تقدما هاما باستكشاف المواقع استكشافا مدققا مطولا وبالمشاهدة المشتركة، وليس باستنطاق المخبرين فقط. ولكن كل عملة لها قفاها، لقد شرع علماء الانترو بولوجيا في البحث عن مجتمعات بدائية وعن جزر منعزلة ثقافيا فقلبوا الآراء الغربية عن الحضارة الافريقية رأسا على عقب. فنشأ عن ذلك فجوات خطيرة في الميدان الوثائقي الخاص بالمجتمعات الافريقية الأكثر أهمية وتشعبا، فزيدت اضافة جديدة لخرافة «افريقيا البدائية». وساعد مجهودهم الرامي الى تجريد الحاضر الانترو بولوجي من الحاضر الواقعي، على تقوية الاعتقاد بأن التغير في افريقيا، انما كان وجوبا يأتي من الخارج، وذلك لكون فرضياتهم بدت تنكر كل تطور للمجتمعات الافريقية قبل دخول الاوربيين.

ومجهودهم الرامي الى تمجيد المجتمع الشاهد لدارسة سيره الاساسي، قد أدى بهم غالبا الى الغفلة عن كون المجتمع الذي يعالجونه قصد تحليله على أنه مجتمع ساكن، ليس هو كذلك في الواقع. وأكثر من ذلك كله، ان مجهودهم سيمنعهم من التساؤل عن أسباب هذا التطور ووسائله. ولو

تساءلوا عن ذلك لظهر المجتمع الذي يرصدونه في مظهر آخر تماما. ولاشك ان الوظائفية قد تتابع رغم كل شيء سيرها دون مزاحمة النظام التاريخي. فهي تأثرت بدراسات التأقلم الثقافي في الاربعينات والخمسينات، بينما اتجه كلود ليفي ستراوس واتباعه اتجاها مخالفا تماما في العشريات الموالية للحرب. على أنه فيما يخص الانتروبولوجيا السياسية وبعض مظاهر الانتروبولوجيا الاجتماعية، فلقد أوضحت من جديد، أعمال المؤرخين قبل العصر الاستعماري حركية التطور، وساهمت في منح الانتروبولوجيا قفزة جديدة.

وقد تغيرت دراسة الديانات والمنظمات الدينية الافريقية بتأثير البحوث التاريخية الحديثة. وكان أوائل المنقبين عن الديانة الافريقية في معظمهم، اما علماء الانتروبولوجيا الباحثين عن مجموعة ساكنة من المعتقدات والعادات، واما مبشرين قبلوا فكرة الحاضر الانتروبولوجي في دراستهم للديانات التي كانوا يؤملون احتلال محلها. فهم اعترفوا بحركية الاسلام التي لا تنكر، وقد كان انتشاره في الفترة الاستعمارية أسرع من انتشار النصرانية، على أن أهم الدراسات عن الاسلام أشرفت عليها الحكومة الفرنسية في افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية، بقصد احباط كل حركة انفصالية متوقعة. وكان موضوع هذه الدراسات يهتم بالمنظمات الدينية ورؤسائها أكثر مما يهتم بالتطور داخل الديانة. وفي خلال العشريات الأخيرة أسهمت عدة عوامل وليس المؤرخون فحسب، في احياء الدراسات الخاصة بالتطور في اطار الديانة. واهتم إخصائيو البعثات التبشيرية بانتشار الديانات الافريقية الجديدة المعتمدة على قواعد بعضها مسيحي، كما اهتموا بالكنائس المستقلة التي انشقت عن البعثات الاوربية. وأكب علماء الانتروبولوجيا المولعون بالتأقلم الثقافي على أعمال مشابهة، وكان للمؤرخين مساهمة ايجابية بما كان لهم قبل كل شيء من فضول إزاء الديانة في حركات التمرد الاستعمارية وحركات الاحتجاج.

وأما فيما يخص الفترة قبل العصر الاستعماري، فقد وقفوا أيضا على ما كان لحركة الاصلاح الديني في مجموع العالم الإسلامي من أهمية عظمى وواضحة. ونتج عن ذلك وعي اقوى بتطور الديانات الغير المسيحية والغير الاسلامية، ولو أن الاخصائيين في مختلف العلوم الاجتماعية، لم يكادوا يشرعون في دراسة خواص هذا التطور بما يستحق من دراسة نظامية.

وفي هذا الموضوع، من الجدير أن نشير الى ما نالت الديانات «الاحيائية» من اهتمام حديث، وكذلك جمعياتها السرية غالبا ذات الوظيفة التاريخية المهمة.

وبينما يلوح للاخصائيين في مختلف العلوم الاجتماعية أنه في الامكان أن تدرس الديانة الافريقية في جملتها دراسة مفيدة، وذلك بتبادل فسيح في الآراء والطرق، فان الدراسات في الاقتصاد الافريقي مازالت مقسمة تقسيما قاسيا. وقد أظهر الاخصائيون في الاقتصاد، كما أظهر مؤرخو الديانة، في السنوات الأخيرة، أن أنماط الاقتصاد المختلفة ما فتئت تتطور، وان هذا التطور نابع من محركات داخلية، كما أثرت فيه مؤثرات من وراء البحار، على أن الاقتصاديين وخاصة إخصائيي الانتشار، منقطعون دوما الى دراساتهم غير مكترثين بالثقافة الاقتصادية التي يحاولون التحكم فيها. ولا يكفي أنهم يميلون الى تجاهل آلية التطور الجاري، بل ان الكثير منهم لا يعيرون كبير اهتمام للانماط الانسانية الساكنة، التي وضعها علماء الانتروبولوجيا الاقتصاديون.

ولكي تبرر نظرية النمو مثلا، كان من المناسب ان يقرر أن افريقيا الى حد بعيد مكونة من

اقتصادات «عيش» تنتج كل واحدة عائلية في اطارها معظم الخيرات التي تستهلكها وتحقق خدماتها الذاتية. وأكد هذه النظرة خاصة هلامينت حوالي ١٩٦٥، كما أكد في آن واحد نظرية التطور الاقتصادي، المتركزة على تحرير الموارد ووسائل الانتاج التي لم يتم استخدامها استخداما كافيا (٩). والواقع أنه لا وجود لمجموعة في افريقيا قبل الاستعمار تفي تماما بحاجياتها الخاصة حتى لا تتعاطى بعض التجارة، وكانت عدة من المجتمعات الافريقية تملك شبكات متشعبة للانتاج وللصادرات المخصصة لجيرانها. وعلى حدود الصحراء كان عدد من القبائل الرعاة تقتني نصف استهلاكها السنوي من الحروريات أو أكثر بمقايضة منتجات ماشيتهم بالحبوب، وكان البعض الآخر ينتج بانتظام ما زاد عن حاجته في الزراعة، و يبيعه قصد اقتناء بعض المأكولات المستوردة ــ الملح والماشية وزبدة قلام وجوز كولا والتمور. والخطأ الذي يختفي في جدول الاقتصاد الافريقي الساكن، هو بدون شك الخرافة الدائمة لافريقيا «البدائية»، و يقوي هذا الخطأ اتجاه علماء الانترو بولوجيا في اختيار أبسط المجموعات، واتجاههم القديم إلى تجريد تصوراتهم من الزمن.

وقد أوضح أهمية التجارة في افريقيا قبل الاستعمار هؤلاء الاقتصاديون وعلماء الانترو بولوجيا الذين درسوا الاقتصاد الافريقي دراسة ميدانية. وقد لاحظ بعضهم أن الاقتصادات الافريقية كانت تتطور بسرعة قبل دخول الأوربيين في جماعات كثيفة، على أن فريقا جاد عن خط التفكير التقليدي، فأبرز الفروق بين الثقافات الاقتصادية أكثر مما أبرز التشابهات. وقد نعت أعضاء هذا الفريق «بالجوهرية» اذ أكدوا على دراسة طبيعة الانتاج والاستهلاك الجوهرية، وسعوا الى ربط كيفية ارضاء الانسان حاجياته المادية بالاطار الفسيح لمجتمع خاص لا لنظرية رسمية. فحاولوا أن يبرهنوا على أن النظرية الاقتصادية لا تنطبق على ميدان بحوثهم (١٠)، مما جعل الهوة فسيحة بين اقتصاديي التوسع العاملين بوحي نظريات الاقتصاد الضخم لا يعلقون أهمية للوقائع الاقتصادية في الحاضر، وبين الجوهريين الذين لا يعبأون بالنظريات المعاكسة لهم. ولم يسد إخصائيو تاريخ الاقتصاد هذه الهوة بعد، كما أنهم لم يؤثروا في الآراء الاقتصادية المتعلقة بافريقيا تأثيرا شبيها بما كان للمؤرخين من أثر على الانترو بولوجيا أو على دراسة الأديان، فتقدم التاريخ الافريقي خطوات شاسعة في السنوات الأخيرة خاصة، مستخدما طرقا جديدة ممتدا الى مناطق لم تكد تكتشف بعد، الا أنه لم يستفد كما يلزم من طرق جديدة فتحت في مجالات أخرى، ولم يقابل بسرعة، مثل الاختصاصات الأخرى، تحدي الثورة السلوكية. ولم يستعد من امكانات التاريخ الكمي العجيبة في المادة السياسية أو ما في ميدان الاقتصاد الكمي.

وخلال جولات معمقة أكثر فأكثر لا في ماضي افريقيا، كان اشعاع التاريخ الافريقي الحديث من عمل مجموعة من المؤرخين المحترفين ممن أصبح هذا التاريخ عندهم الموضوع الأساسي في تعليمهم وفي كتاباتهم. واذا كانت معرفة تاريخ افريقيا في العالم الغربي لم تتقدم ولو بالنسبة الى تدوين التاريخ بآسيا أو أميركا اللاتينية، فذلك لأنها كانت من عمل مؤرخين هواة، لهم نشاطات مهنية

---

(٩) هلامينت: اقتصاد الجهات المتنامية، لندن ١٩٦٤.

(١٠) للخلاصة المفيدة لهذا الموقف انظر جورج دلتن (١٩٦٨) الاقتصادات البدائية والعتيقة والعصرية، بحوث كارل بولانيي (نيو يورك ١٩٦٨).

أخرى، ولكن لبس لهم منزلة ثابتة في العالم الجامعي، فصارت تعوزهم امكانية التأثير على الأوساط التاريخية في أي بلد غربي. وقبل الحرب العالمية الثانية، قامت بعض البحوث عن افريقيا في معاهد اسكنديـنافيا أو أوربا الوسطى والشرقية، ولكن هذه البحوث بقيت هامشية بالنسبة الى البرنامج العام للتعليم العالي، فلم تساعد على تكوين المؤرخين. و يستثنى من ذلك الدراسات المصرية القديمة و بعض المظاهر من ماضي افريقيا الشمالية في العصر الروماني، وفيما عدا ذلك لم يكن قبل ١٩٥٠ الا قليل من المحترفين من بين مؤرخي افريقيا، فكان يوجد عدد من الادار يين الاستعمار يين ومن المبشرين الدينيين، كما كان يوجد عدد من أهل الكنيسة أو من رجال الدين الأفارقة المتكلمين باحدى اللغات الدولية، أمثال كارل كرستيان رايندوف في ساحل الذهب وصامو يل جونسون عند اليوروبا والشيخ موسي كمارة في السنغال، وكتابه «زهور البساتين في تاريخ السوادين» لم ينشر بعد بأكمله، ولم يكد غيره من المؤرخين يشرع في الرجوع اليه (١١).

وقد انكب بعض علماء الانترو بولوجيا أيضا على مواضيع تاريخية، ولكن في افريقيا حتى ١٩٥٠ لم تعرض أي جامعة برنامجا لائقا للتخصص في التاريخ الافريقي في مستوى الاجازة، وسنة ١٩٥٠ ما من مؤرخ محترف قصر عمله على تحرير التاريخ الافريقي وعلى تدريسه، و بعد ذلك بعشرين سنة، أحرز نحو خمسمائة مؤرخ على الدكتوراه أو على ما يعادلها اختاروا تاريخ افريقيا ضمن نشاطهم الرئيسي.

وسرعة هذا التحول عجيبة، واذا ما نظر اليها بعد مرور الزمن، فانها تجد لها تفسيرا حسنا، ففي افريقيا وأوربا وأميركا الشمالية — وعلى كل قارة لأغراض مختلفة — كان الظرف السياسي والثقافي والجامعي ملائما خاصة لبروز مجموعة من المؤرخين المحترفين الموجهين نحو افريقيا. ففي افريقيا، منذ نهاية الاربعينات، كانت الحاجة اليهم ملحة ولا سيما أن حركة هامة لتحقيق الاستقلال، تشتد شيئا فشيئا كانت متوقعة، على الأقل فيما يخص معظم افريقيا الشمالية والغربية. و بعد ١٩٥٠ خلق انشاء جامعات جديدة الحاجة الى تاريخ افريقي متجدد معتبر من وجهة النظر الافريقية — في مستوى الجامعة في البداية — ثم هو انحدر الى المدارس بعد المرور بمعاهد التكوين التربوي. ومن رواد هذا المجهود العارم الرامي الى تجديد التربية، ينبغي أن نذكر أنووكاديك، فهو رأس جيل جديد من المؤرخين الأفارقة تجاوزوا مراحل التكوين التربوي الاعتيادي، وتم له ذلك بجامعة لندن. وانخرط في هذه الحركة مؤرخون منفيون عن أوطانهم مثل: د. فاج من جامعة غانة (ساحل الذهب سابقا)؛ ج. د. هوقريف في فوره باى بالسيراليون وكريستوفر ويلي وسيريل اهرليش بماكريري كليج.

وفي افريقيا المستعملة للفرنسية ظهرت تدريجيا حركة موازية، فاستمرت الجامعات بالاراضي الفرنسية القديمة، طويلا بعد الاستقلال، تتبع النظام الجامعي الفرنسي، محتفظة أيضا بالتقاليد التاريخية الفرنسية. على أن بعض الرواد اتجهوا بهدوء نحو تاريخ افريقيا، وتمت في هذا الاطار

---

(١١) جونسون: تاريخ اليوروبا (لاقوس ١٩٢١)، كارل كرستيان رايندوف تاريخ ساحل الذهب (بال، د. ت. ١٨٨٩)، الشيخ موسى كمارة: حياة الحاج عمر، نشرة افان، ٣٢ (سلسلة ب)؛ ٣٧٠ — ٤١١، ٧٧٠ — ٨١٨ (١٩٧٠)، ترجمه ونشره عمار صمب.

مساهمات جسيمة: في السنغال من قبل أحمد مختار أمبو وفي فولطا العليا من عمل جوزيف كي زربو، وفي الكامرون من الأب إنجلبرت مونغ ومنذ بداية الخمسينات أكب على البحث المؤرخون الذي أتوا من الخارج، واستقروا في افريقيا المستعملة للفرنسية، والذين سيكون لهم دور فعال في الجامعات فهذا جان فانسينا الذي سيكون له دور في تدريس التاريخ الافريقي بجامعة لوفانيوم، قد كان مايزال يعمل في منشآت البحث للحكومة البلجيكية بالكنغو ورواندا. وفي الايفان بداكار كان ريموند موني الذي أصبح مدرسا للتاريخ الافريقي في الصربون يشتغل بالبحث عن افريقيا الغربية. وأما إيف برسن الذي مازال حاكما استعماريا، فقد شرع في بحوث ستكون سنة ١٩٦٨ موضوع كتابه «ساموري» وستمكنه من غرس التاريخ الافريقي في جامعات أبيدجان وداكار. وكان «الحضور الافريقي» بواسطة مجلته ومؤتمري الكتاب والفنانين السود بباريس وروما سنة ١٩٥٦ و ١٩٥٩ يدفع دفعا قويا لهذا الاتجاه.

وكانت هذه النشاطات تساير في افريقيا نفسها نمو الدراسات التاريخية الافريقية، وفي هذا التلاقي بين تاريخ افريقيا وتاريخ العالم، كانت الساعة الرئيسية هي تلك التي تقدمت فيها دراسة التاريخ الافريقي على سائر القارات، وكان هذا التقدم مزامنا لتقدم تاريخ افريقيا في الجامعات الافريقية، فمنذ ١٩٥٠ شرع رولان اليفيه في تدريس التاريخ الافريقي بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن. وفي الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الروسية دشن د. أ. الدروج وزملاؤه من المعهد الاتنوغرافي بلييننغراد برنامجا نظاميا للبحوث، من شأنه أن يتم في وقت ما، نشر كل الوثائق المعروفة عن افريقيا جنوبي الصحراء منذ القرن الحادي عشر، وأكثره باللغة الشرقية مع ترجمة وتعليقات روسية (١٢)، وفي هذه العشرية نفسها أنشئ أول كرسي للتاريخ الافريقي بالصوربون، كما أنشئ كرسي ثاني، كرسي الحاكم السابق للمستعمرات هوبرت ديشان وكرسي ريمون موني، وأشرف هنري برنشفيك من جهته على ادارة البحوث عن التاريخ الافريقي بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بينما كان روبرت كرنوفان ينشر النشرة الأولى من خلاصته لتاريخ افريقيا، وقد روجعت عدة مرات وأكملت مرارا منذ ذاك الوقت.

وخارج أوربا وافريقيا كان التقدم أقل سرعة، وفي أوربا نفسها لم يقبل التاريخ الافريقي في الدورة الجامعية الا في البلدان المستعمرة. وفي أميركا، حيث جزء كبير من الأهالي من أصل افريقي، كان من المتوقع أن يظهر بعض الاهتمام بذلك. ولكن مهما كانت أهمية الآثار الثقافية الافريقية، فلا البرازيل ولا الكرييب أبديا كبير الاهتمام بها، وفي هايتي أبدى المثقفون شيئا من الميل الى الثقافة الفولكلورية المحلية المرتكزة على الافريقانية الراجعة الى أولى اثار الدكتور برايس (١٩٢٠). وفي كوبا شعر بأثر الثقافة الافريقية الكوبية بعض الشخصيات من عالم الآداب، ومن بينهم نيكولا قيلان. على أنه في كوبا أو في البرازيل لم يسبب الميل الى الثقافة الافريقية الاميركية شيئا من الاهتمام بافريقيا ولا بتاريخها. وفي الهند الغربية البريطانية، حظيت حركة ازالة

(١٢) كوبل، ل. وف مستفيف (بالروسية): مصادرعربية لتاريخ افريقيا جنوبي الصحراء واثنوغرافيتها مجلد ١: من القرن السابع الى القرن العاشر (موسكو ١٩٦٠) المجلد الثاني من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر (موسكو ١٩٦٥).

الاستعمار بما فيها تحرير التاريخ المحلي بالاولوية البارزة، فلم يكن للافريقانية السياسية حتى بعد عام ١٩٦٠ صدى تاريخي في نفوس مثقفي الانتيي.

وكان الاهتمام أقل حدة في الولايات المتحدة قبل (١٩٦٠)، والقليل من الدراسات التي وجد منها كان مركزا على شمال افريقيا. وأدى سبر حديث لاطروحات الدكتوراة المتعلقة بالتاريخ الافريقي المقدمة منذ ١٩٦٠ الى ضبط عددها بـ ٧٤ والحق أن هذا المجموع عجيب، ولكنه يخدع. فمعظم الرسائل تتعلق بافريقيا الشمالية وهي من قبل مؤرخين إخصائيين في التاريخ أو الآثار التقليدية أو في افريقيا الشمالية والشرق الاوسط أو — عامة — في الاستعمار الاوربي فيما وراء البحار. وكانت الصدفة وحدها أو تكاد هي التي جعلت موضوع الرسالة يتعلق بافريقيا. وأما موضوع التاريخ الاستعماري فقلما صار إخصائيا حقيقيا بافريقيا، ونجد من الرواد في جامعة يال هنري . ر. رودن. فقد نشر منذ الثلاثينات محاولات عن تاريخ الاستعمار الالماني في افريقيا، وما فتئ اهتمامه بافريقيا يزداد بعد ١٩٥٠. وكون الأفارقة الاميركيون جمعا أكثر أهمية. فأكب و. أ. ب. دوبوا منذ بداية عمله على دراسة افريقيا، ولو أنه لم يتمكن من الاشتغال بها إلاّ زمن احالته عن التقاعد وهجرته الى غانة. وقبله بكثير سنة ١٩١٦ أسس كارتر. ج. وودسن «صحيفة تاريخ السود» وكانت النشرة في الواقع نشرة افريقية أمريكية أكثر مما كانت افريقية. ولكن التاريخ الافريقي كان رسميا في منظورها، وكان يوجد فيها من حين الى آخر فصول عن ماضي افريقيا. ولكن الداعية الحق لتاريخ افريقيا هو ويليام ليوهنسبري من جامعة هورد، فقام بحملة منعزلة لتسجيل تاريخ افرقيا ضمن منهاج التدريس بالجامعات الاميركية، وحيث كان التميز العنصري ما فتئ قائما، خاصة في المدارس ذات الأغلبية القوية من السود في الولايات الجنوبية.

وهكذا فان ظروف نشر التاريخ الافريقي خارج افريقيا وجدت قبل ١٩٦٠ على درجات مختلفة. وحوالي هذا التاريخ جعل الكفاح في سبيل استقلال افريقيا الشمالية وافريقيا الاستوائية اشعاعا جديدا لافريقيا، فأثار الاهتمام الشعبي الذي اتجه نحو الماضي لا الى الحاضر أو الاستقبال. على أن تقدم التاريخ الافريقي في عدة بقاع قد خيب الأمل. فرغم ما أعيرت الوحدة الافريقية من أهمية سياسية فان جامعات افريقيا الشمالية وطلبتها لم يتقدموا الا شيئا فشيئا نحو تصور قاري لدراسة ماضيهم ذاته. فكان المغرب يرتبط مع عالم البحر الأبيض المتوسط ومع العالم الاسلامي ومع العالم الثقافي الناطق بالفرنسية الذي كانت باريس مركزه. وكانت هذه العوالم الثلاثة كافية لتعبئة كل اهتمام الجمهور المثقف. وكثيرا ما أكد لسان الحال الرسمي المصري، أن مصر كانت افريقية بقدر ما كانت عربية اسلامية، ولكن دراسات التاريخ بمصر كانت دائما تنتمي الى فكرة تخييرية في الحين نفسه الذي لفت فيه سد أسوان وأعمال الجماعات الأثرية الدولية في نوبيا النظر الى النيل الأعلى.

ان موضوع «الفكرة التخييرية» تلك، كان — بل أكثر من ذلك — فكرة الدراسات التاريخية في افريقيا الجنوبيّة. فلم تضعف الرقابة السياسية التي كان يقوم بها اروبيوما وراء البحار في جمهورية افريقيا الجنوبية. وفي الجامعات لم يكن يشعر بالتاريخ الافريقي، وأما «التاريخ» فكان تاريخ أوربا وتاريخ الاقلية الاوربية في افريقيا الجنوبية. ومع كتاب «تاريخ اكسفورد لافريقيا الجنوبية» (١٩٦٩ — ١٩٧١) انفسح المجال حتى حوى الأغلبية الافريقية، الا أن أحد مؤلفيه،

المؤرخ ليونارد طومسون لم يزل يدرس في افريقيا الجنوبية، والمؤلفة الثانية، مونيكا ولسن، وان كانت مولعة بالتاريخ، فقد كانت عالمة بالانتروبولوجية، وفي زمبراى، حوالي ١٩٦٠، كان الاتجاه يرمي الى اقحام لمحة عن التاريخ الافريقي ضمن الدراسات التاريخية، ولكن التصريح الوحيد الطرف، المعلن لاستقلال الأقلية البيضاء ازاء بريطانيا العظمى قد عكس الاتجاه، ومن الغريب أن زمبواى قد انتجت من الطلبة في تاريخ افريقيا نسبة أعلى من نسبة افريقيا الجنوبية، ولكن معظمهم اضطر الى مواصلة ممارسة مهنتهم في المنفى.

وكانت افريقيا الاستوائية أول بؤرة لدراسة التاريخ الافريقي على القارة الافريقية وفيها سجلت التقدمات المهمة في العشرية الأولى من الاستقلال، فكان التاريخ الافريقي مادة من منهاج التدريس بالجامعات الاستوائية ولكن الشئ الهام كان ان يبحث عن توازن لائق بين التاريخ المحلي والجهوي والافريقي والعالمي، أي وبكلمة أدق أن ينزع الاستعمار عن مجموع برنامج التاريخ لا أن يضاف اليه مؤلفة افريقية، وتمت أكبر التغيرات في افريقيا الناطقة بالانكليزية، وبها صارت النظم القاسية التي وضعها الاوربيون أشد طواعية منها في البلدان الناطقة بالفرنسية. فحلت مواد أخرى محل تدريس تاريخ بريطانيا العظمى وامبراطوريتها، وأخذ تاريخ الامبراطورية البريطانية يضمحل تماما، بينما انصهر تاريخ بريطانيا العظمى مع تاريخ أوربا. وفيما يخص تدريس تاريخ أوربا بافريقيا، كان التيار الجديد يرمي الى جعل مختلف التواريخ القومية تابعة لدارسات مواضيع عظمى تتجاوز الحدود، كمواضيع تخطيط المدن أو الثورة الصناعية. وفي الآن نفسه أخذ المؤرخون الافريقيون يعنون بتاريخ مناطق أخرى ـــ منطقة العالم الاسلامي شمالا مع التأكيد خاصة على اثره في جنوبي الصحراء ومنطقة أميركا اللاتينية أو منطقة آسيا الجنوبية الشرقية، اذ كان في الامكان أن تعتبرا موافقتين لبعض مظاهر التجربة الافريقية، ومنطقة آسيا الشرقية حيث كانت التنمية الاقتصادية باليابان تمثل مثالا قد يكون لافريقيا أن تعتبر به. وتمثل هكذا اثر التاريخ الافريقي في تجديد الاتجاه العام نحو تصور للعالم وللماضي متمركزا حقا على افريقيا دون أن يعني بافريقيا والأفارقة فحسب، كما كانت السيرة الاوربية القديمة تقصرهما على الاوربيين، بل في اطار نظرة عالمية يكون منطلقها افريقيا لا أوربا.

ولم يدرك هذا الهدف حتى في أشد الجامعات الناطقة بالانكليزية تقدما، وأنه لا مناص من قضاء مدة لتكوين جيل جديد من المؤرخين الافارقة المجددين، سوف يقتحمون مسالك جديدة يكونون هم أنفسهم قد اختاروها. وبقيت الجامعات الناطقة بالفرنسية متأخرة بنحو عشر سنوات. فجاءت ابيجان وداكار ولمباشي (الوارثة لجامعة لوفان في حقل التاريخ) هي أقدم الجامعات الناطقة بالفرنسية، ولم يصبح معظم أساتذة التاريخ فيها أفارقة الا في بداية السبعينات، بينما تم هذا التطور في أقدم الجامعات الناطقة بالانكليزية في بداية الستينات. والآن وقد احتل المؤرخون الأفارقة مناصبهم في الجامعات الناطقة بالفرنسية، فانه من المتوقع أن يتم تعديل مشابه في تصورات التاريخ العلمي. الا أن اصلاح برامج التاريخ في المدارس الثانوية في البلدان الناطقة بالفرنسية تم سنة ١٩٦٣، وتبعه مباشرة اصلاح برامج الدراسات التاريخية الجامعية في اطار منهاج المجلس الافريقي والملغاشي للتعليم.

وكان اثر التاريخ الافريقي على البحث التاريخي وعلى تدريس التاريخ في أوربا الغربية، مرتبطا بالعلاقات القديمة الاستعمارية، ولذا كانت فرنسا وانكلترا أهم المراكز الاوربية لدراسة التاريخ الافريقي.

على أنه في غيرهما من المراكز سجل بعض التقدم في دراسة التاريخ الافريقي، ولا سيما في تشيكوسلوفاكيا وبولونيا كما في الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الروسية، حيث يدرس تاريخ افريقيا تدريسا نظاميا في جامعة باتريس لومومبا بموسكو، وتتمثل رسالتها الخاصة في تكوين الطلبة الافارقة. وفي بلدان أخرى يتابع إخصائيون منعزلون بحوثهم في مختلف المراكز الجامعية، على أن ذلك انما يتم بانتظام في معاهد البحث المتبعة للتقليد الالماني في التنظيم الجامعي. فالباحثون المتخصصون في افريقيا، منعزلون بعض الانعزال، وقد يعلل ذلك كون الدراسات التاريخية في العديد من الجامعات الاوربية، ما عدا انكلترا وفرنسا، لا تخصص أي نصيب لافريقيا.

والتقاليد العامة في الدراسات التاريخية مستوحاة من فكرة تجزية في هذه البلدان، ولكن تكوين الحكام الاستعمار يين كان له وزن خاص فيها. وبدأت عملية ارجاع هؤلاء الحكام الى بلدانهم منذ ١٩٥٥ تقريبا، وشرع عدد منهم في شغل وظيفة جديدة تتمثل في تاريخ البلدان التي كانوا موظفين فيها.

وهكذا كان الأمر في فرنسا كما يشهد عليه أمثال الاستاذين ديشان وبروسن، فبالنسبة الى هذا البلد كما بالنسبة الى انكلترا فان انشاء جامعات جديدة افريقية ونموها — منذ الخمسينات — قد فتحا في افريقيا مواطن للشغل، واختار مؤرخون شبان مواضيع افريقية للتدرب على البحث، أو هم عنوا بالتاريخ الافريقي عندما ذهبوا الى افريقيا قصد التدريس فيها. ثم في الستينات والسبعينات ارجع هؤلاء المؤرخون تدريجيا الى بلدانهم وحلّ محلهم الأفارقة، فأدمجوا في سلك التدريس في وطنهم الأب أحيانا، بعدما قضوا ثمانية أوعشرة أعوام في افريقيا. ولم يدّرس كل من رجع منهم التاريخ الافريقي ولكن عدد من قام بذلك منهم، عدد له معناه، فعدد المؤرخين العائدين من الجامعات الافريقية الى الجامعات البريطانية بين ١٩٦٥ و ١٩٧٥ قد يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ أي أنه يمثل من ٨ الى ١٠ ٪ من جملة المؤرخين المدرسين في الجامعات البريطانية في تلك الفترة. وفي سنة ١٩٧٤ كان ثمة ثلاثة كراس «للتاريخ المعاصر» (والمقصود بذلك عادة تاريخ بريطانيا العظمى المعاصر)، يشغلها مؤرخون، أهم مواضيع بحوثهم كانت مخصصة لافريقيا. وانه لمن السابق لأوانه أن نحدد أثر هذه العودة من افريقيا على التقاليد التاريخية البريطانية عامة، ولكنه قد يكون مقبولا في فرنسا، ولو أن الاعداد المشابهة أضعف، وأن المدرسين العائدين من افريقيا يمثلون نسبة مئوية أصغر من الملاك الجامعي. فاننا نلاحظ ظاهرة شبيهة بالسابقة (هناك جيل جديد من المؤرخين أخذ يعني بافريقيا).

ففي باريس وفي مختلف الجامعات كما في مركز الدراسات الافريقية وهو مشترك بين الجامعات، يوجد عدد من الاخصائيين في التاريخ وفي علم الاجتماع وعلم الاثار كانوا عملوا مدة تطول أو تقصر في الجامعات الافريقية، وبقوا مرتبطين بها ارتباطا وثيقا، والامر عينه في اكس وبوردو وليون.

وعملت الجامعات الفرنسية والبريطانية بصورة متوازية على تكوين مؤرخين أفارقة يحلون محل

العائدين الى بلدانهم (١٣) فالمعاهد من نوع «مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية» بلندن، والفروع المنتشرة المتفرعة عن الصوربون وعن المدارس العليا بباريس، كانت ترمي الى القيام بدور خاص، ففي المدرسة الأولى (SOAS) مثلا ٥٨٪ ممن حصلوا على الدكتوراه من ١٩٦٣ الى ١٩٧٣ بدؤوا بالتدريس في افريقيا، وأقل من ٢٠٪ من المجموع بريطانيون و٣٠٪ فحسب حصلوا على منصبهم الأول في جامعة بريطانية (١٤). وهذا مما نقص قليلا من اثر هذه المدرسة المباشر على التربية البريطانية، ففيها اجتمع أهم مجموع من المؤرخين لافريقيا في أي جامعة من الدنيا، ولكن اثرها الغير المباشر كان عظيما، وعلاوة على هذه المدرسة فإن جامعات برمنغهام سوسكس وادمبرغ قد خصصت ضمن برامجها مهمة خاصة للتاريخ الافريقي، وعلى الأقل ثمان من الجامعات الأخرى يوجد فيها أخصائي للتاريخ الافريقي يدرس هذه المادة بانتظام لطلبة الحلقة الاولى.

ولعل هذا المستوى الخاص من التطور في بريطانيا العظمى كان متوقعا، نظرا للاهتمامات الاستعمارية والاستعمارية الجديدة الخاصة بهذا البلد ازاء البنيات الجامعية الافريقية. وبالعكس فان النمو العظيم للبحث عن تاريخ افريقيا في الستينات من قبل أميركا الشمالية، لم يكن متوقعا، خصوصا وان مؤرخي الولايات المتحدة لم يشتهروا بمعالجة موضوع الأفارقة الاميركان في مجتمعهم ذاته معالجة عادلة. والأقلية الكبيرة من سلالة الأفارقة في الولايات المتحدة منذ الأصل، لم تثر اهتماما ملحوظا بافريقيا حتى لدى معظم الأفارقة الاميركان. على أن الازدهار المفاجئ لدراسة التاريخ الافريقي يلاحظ في كندا، كما يلاحظ في الولايات المتحدة، ولو أن كندا لم تحكم في أي جزء من افريقيا كما حكمت بريطانيا العظمى، ولا هي ضمت من بين رعاياها أقلية مهمة من الافارقة الأميركان، كما هو الشأن في الولايات المتحدة.

وقبل ١٩٦٠ لم يكد تاريخ افريقيا يدرس في أمريكا الشمالية، وحوالي ١٩٥٩ بعيد انشائها لم تضم «جمعية الدراسات الافريقية» سوى ٢١ عضوا في الولايات المتحدة أو كندا، يمكن أن يدعى صفة المؤرخ، ومن بينهم أقل من النصف كانوا يشغلون مناصب جامعية تتطلب منهم أن يخصصوا لتاريخ افريقيا أحسن أوقاتهم.. ثم أن أول مؤتمر دولي لافريقيين عقد في أكرا سنة ١٩٦٢ ضم نحو ثمانمائة مشترك، القى أمامهم الرئيس كوامي نكروما خطاب الافتتاح، فوصف مسؤوليات الاختصاص التاريخي ازاء افريقيا الجديدة، ثم كان السيل المهم، فسنة ١٩٧٠ كان عدد الاميركان الشماليين الاخصائيين في التاريخ وفي علم الآثار الإفريقية قد بلغ ٣٥٠، وكان بعضهم مؤرخين كانوا قد بدؤوا باختصاص آخرثم غيروا طريقهم، ولكن معظمهم كانوا طلبة أحداثا لم يكادوا يفارقون الدورة الثانوية.

ومن ١٩٦٠ الى ١٩٧٢ خرجت المدارس الاميركية أكثر من ٣٠٠ دكتور في فلسفة التاريخ الافريقي. وكان من بينهم شبان أتوا من افريقيا وينوون العودة اليها، وكان البعض قد جاء من

---

(١٣) اني لأشكر الاستاذ ج. ف. أجايي من جامعة لاقوس، والاستاذين ج. د. فاج ورولان اوليفيه، على الارشادات التي أمدوني بها عن اثر التاريخ الافريقي في التاريخ عامة في أوربا، على أن كل خطأ في الواقع أو في التقرير الذي قد يشتمل عليه هذا النص، انما هو محمول علي وحدي.

(١٤) رولاند أوليفر «الدراسات الافريقية التي أجريت في لندن ١٩٦٣ ــ ١٩٧٣» دراسة لم تنشر قدمت الى المؤتمر الدولي الثالث لأخصائي الدراسات الافريقية، أديس أبابا، ديسمبر ١٩٧٣.

أوربا ولكن الأغلبية الساحقة كانوا أميركان شماليين، وفيما بين الأفارقة الأميركان والأوربيين الأمريكان كانت النسبة هي عينها في جملة السكان ــ نحو ١٠٪ في الولايات المتحدة، وأقل بكثير في كندا.

وهكذا قد أدى الى نشر تاريخ افريقيا في أميركا الشمالية اتجاهان متناقضان في اطار الدراسات المتاريخية، فمن آراء المجموعة الأفريقية الامريكية نشأ ايمان ثابت بأن افريقيا ملك للشعوب الافريقية ولأبنائهم المستقرين في سائر القارات، شأنها شأن أوربا حيث كانت التواريخ القومية ملكا لكل أمة أوربية. أي أن الفرق بدا واضحا بين أهداف «تاريخ افريقيا للافريقيين» و«تاريخ افريقيا في اطار التاريخ العالمي»، على أن الفرق لا يعني المناوءة «فالتاريخان» ليسا متنافرين، ولو أن كلا منهما اختار التأكيد على جوانب مختلفة من الماضي.

فالاتجاه المتمركز الا تنولوجي في التاريخ قد زعزع جديا في أميركا الشمالية أكثر من خارجها. ففي العديد من المدارس حل محل «تاريخ العالم» القديم، وما هو في الواقع الا تاريخ الحضارة الغربية الذي فسح المجال خلال الستينات ولاتجاهات جديدة أشد أصالة تضع التاريخ في منظور عالمي، حيث وضعت افريقيا على قدم المساواة مع مناطق ثقافية عظمى أخرى مثل آسيا الجنوبية أو الشرقية. وشرعت عدة أقسام للتاريخ في الجامعات الأمريكانية الشمالية في تجاوز التقسيم القديم للتاريخ الى أمريكي وأوربي، الى تقسيم التاريخ الى ثلاثة فروع الثالث منها ــ تاريخ العالم الثالث ــ يعادل الفرعين الاولين.

ولما ينتبه هذا التطور، ولكن بصورة موازية لنشر التاريخ الافريقي في بريطانيا العظمى وفرنسا، ولاعادة التوجيه لبرنامج تدريس التاريخ في الجامعات الافريقية، توقف التطور في مرحلة على طريق، سوف يمكّن التاريخ الافريقي من كامل التأثير على التاريخ عامة. وعلى مدى طويل يرتبط النجاح بتضافر الجهود من قبل إخصائيين أفارقة يحررون تاريخ مجتمعهم الخاص، وكذلك جهود مؤرخين غير أفارقة يؤولون التاريخ الافريقي لمجتمعات أخرى، كما يؤدي افساح مجال العلوم الاجتماعية الدولية الى أن ينتبه الاخصائيون في سائر الاختصاصات للمعطيات الافريقية قبل المجازفة بكل تعميم حول حياة المجتمعات البشرية.

الفصل الرابع

المصادر والتقنيات الخاصة بالتاريخ الافريقي لمحة عامة

ت. أوبنجا

ان القواعد العامة للنقد التاريخي التي جعلت من التاريخ تقنية الوثيقة، والفكر التاريخي الذي يتطلب دراسة المجتمع البشري في مسيرته خلال العصور، لمن المكتسبات الأساسية التي في امكان كل المؤرخين في كل البلدان أن يستخدموها. واغفال هذه المصادر قد جعل شعوب افريقيا خلال زمن طويل، خارج حقل المؤرخين الغربيين، وقد كانت أوربا وحدها عندهم هي كل التاريخ، وفي الواقع ان ما كان خافيا لا يظهر بوضوح، هو اعتقاد مستمر بأنه لا وجود لتاريخ في افريقيا، لفقدان النصوص وفقدان الآثار المعلمية. فصار من البيّن اذن أن أول عمل تأريخي، يبتدئ بتحقيق المصادر، و يقترن هذا العمل بشكل نظري أساسي هو التعرف على الطرق التقنية في العمل التاريخي.

حدث بالباحثين حاجة جديدة عميقة الى المعرفة والادراك مرتبطة ببداية عصر ما قبل الاستعمار، فأنشؤوا التاريخ الافريقي، ولو أن بناء منهجية خاصة مازال مستمرا. واكتشفت قطاعات فسيحة من الوثائق، فمكنت البحث من التساؤل تساؤلات جديدة. ومهما عرفت مخبئات التاريخ الافريقي ازداد هذا التاريخ تنوعا وتم بناؤه بناء مغايرا لم يكن متوقعا؛ فمذ خمسة عشرة عاما تقريبا قلبت آلات العمل رأسا على عقب، واعترف اليوم أنه توجد مصادر تستخدم خاصة التاريخ الافريقي: علم الجيولوجيا والاتنولوجية القديمة وما قبل التاريخ وعلم الآثار والنبات العتيق والباليتولوجيا وقياسات النشاط الاشعاعي للنظائر، في امكانها أن توفر معطيات زمنية مطلقة عن عمر أزمان البشرية، وثمة جغرافيا طبيعية ومشاكل بشرية، مشاهدات اتنولوجية اجتماعية وتحليها، رواية شفاهية، السنية تاريخية أو مقارنة، وثائق كتابية أوربية، عربية، هندية، صينية، وثائق اقتصادية أو ديموغرافية ملائمة للعلاج الالكتروني.

وبقيت مطاوعة المصادر التاريخية الافريقية عجيبة، فمن اللازم دائما أن يبحث بانتظام عن تواردات ذهنية تربط بين قطاعات كانت في الماضي متميزة، أما استخدام المصادر استخداما متقاطعا فقد بدأ من باب التجديد الكيفي، ولا يمكن تحقيق بعض العمق الزمني الا باستعمال عدة أصناف من المصادر في آن واحد، فالحالة المنفردة تبقى، ان صح القول، هامشية بالنسبة الى حركة المجموع، ويمثل التكامل الكلي للطرق وتقاطع المصادر، مساهمة فعالة من افريقيا للعلم، بل وحتى للوعي التدويني للتاريخ المعاصر.

وعلى فضول المؤرخ أن يسير على مسارات عدة في آن واحد. ولا ينحصر عمله في تحقيق المصادر، بل الشأن أن نتملك الماضي البشري بواسطة ثقافة متينة متعددة الأبعاد، فالتاريخ نظرة الانسان الحاضر الى مجموع الأزمنة.

وفي هذا المجلد وصف معظم هذه المصادر والتقنيات المخصصة لتاريخ افريقيا وصفا فسيحا مستمدا من الرياضيات ومن الفيزياء الذرية والجيولوجيا والعلوم الطبيعية والعلوم الانسانية والاجتماعية. وهنا سنؤكد على مظاهر ومشاكل لم يجر تحليلها في محل آخر.

ولا شك أن الحديث المنهجي الحاسم الذي تم في السنوات الأخيرة هو تدخل العلوم الفيزيائية العصرية في دراسة الماضي البشري، بواسطة قياسات النشاط الاشعاعي للنظائر، والذي أكد بيان التسلسل الزمني في الماضي حتى في العصور الأولى من ظهور انسان سابيان (بواسطة الفحم ١٤)، أو في الأزمنة التي تزيد عن المليون من السنوات (بواسطة البوتاسيوم ــ الارغون).

وتختصر طرائق تحديد العمر المطلقة اليوم، اختصارا عظيما النقاشات في مجال الانتولوجية القديمة البشرية وما قبل التاريخ (١). في افريقيا يؤرخ أقدم وجود للانسان الهوميني بقدر ٥،٣٠٠،٠٠٠ سنة بطريقة البوتاسيوم ــ ارغون، وهذا العمر هو عمر قطعة من فك أسفل، به ضرس سالم من انسان هوميني عثر عليه الاستاذ بريان بترسن سنة ١٩٧٠ بلوطاغم في الكينيا. ثم إن أسنان الانسان الهوميني التي وجدها في الطبقات التي تنسب الى فيلا برانش بوادي أمو بجنوب اثيوبيا، جماعات من الفرنسيين (كاميل ــ ارمبوغ ــ ايف كوبنس) والاميركان (ف. كلارك هول)، ترجع من ٢ الى ٤ ملايين سنة. ومستوى زنجنطروب (المستوى ١) من المعدن الشهير بالالدووواي في تنزانيا يؤرخ بقدر ١٧٥٠٠٠٠ سنة، وذلك بطريقة البوتاسيوم ــ الارغون أيضا.

وبفضل طريقة نظائر البوتاسيوم ــ ارغون، فان التكوين البشري بالشرق الافريقي، وهو أقدم الوجود فيما نعلم اليوم، هو حقا التكوين البشري، المطلق، بقدر ما صارت العرقية الوحيدة أكثر فأكثر اليوم، النظرية المقول بها في الانتولوجيا القديمة العامة. وهكذا تمدنا المتحجرات الافريقية المعروفة اليوم بعناصر حاسمة للجواب على هذا السؤال الأساسي لأصول البشرية الذي عرض بكيفيات عديدة على طول تاريخ البشرية: «اين ولد الانسان؟ ومنذ كم؟»

وتغيرت الآن تماما الأفكار القديمة المتحجرة التي كانت تضع افريقيا على ثغور امبراطورية كليو وعلى تخومها. فالأحداث التي أبرزتها مصادر مختلفة وطرق متنوعة، هنا الانتولوجية القديمة البشرية

(١) ج ب، بردسل، ١٩٧٢، ص ٢٩٩.

والفيزياء النووية، تظهر بالعكس وبوضوح، ما للتاريخ الافريقي من عمق، وقد انطبقت بالفعل أصولها بأصول البشرية الصانعة لنفسها.

وتنير ارشادات مستمدة من مصادر أخرى، من علوم الأرض مثلا، تاريخ افريقيا، بقطع النظر عن كل وثيقة مكتوبة. فحياة سكان الحوض البحيري للتشاد مثلا، وتاريخها قد يكون من العسير فهمها لولا تدخل الجغرافيا الفيزيائية. ويجدر أن نشير الى قيمة هذه الطريقة المنهجية.

فالحياة والبشر داخل حوض بحيرة التشاد، لم يوزعا توزيعا عشوائيا. ويبدي هذا الحوض جدول القياسات الارتفاعية (عن سطح البحر) الاتي: سهل مركزي تجمعي بين ارتفاع ١٨٥م و٣٠٠م؛ ومن حول حلقة متقطعة بعض التقطع من الهضاب القديمة المتآكلة وقد أخفت أحيانا عوامل تحولها الى شبه سهول تخفي نشاطا بركانيا حديثا؛ وبين هذه الهضاب ذات ١٠٠٠م من الارتفاع الوسطي ومناطق التجمع السفلي؛ منحدرات عامة قوية، نتجت عن عوامل تحات شديدة في مناخ قوي الرطوبة. وبالفعل ان منطقة الأراضي الحتاتية السهلة القابلة للمطر تبدي أقوى كثافة ديموغرافية، أي من ٦ الى ١٥ نسمة في الكيلومتر المربع. وفي المناخ الساحلي تشاهد كثافة طيبة أيضا على أراضي النقل التي أخصبتها رشوحات التشاد أو فيضاناته. وعلى الهضاب المرتفعة في الشرق والجنوب في دارفور وآدماوا حيث تنزل روافد البحيرة، تنحط الكثافة السكانية الى حد نسمة واحدة في الكلم٢. وهي تزيد انحطاطا في الشمال وقد آل الى صحراء. وهكذا يرتبط وجه البشرية في هذا الحوض بقوة بمشكل من مشاكل الجغرافيا الطبيعية وعلم شكل الأرض الذي يحدد بذلك التطور البشري.

وتأخرت الحضارة اذن أمام الصحراء وانحصرت ضمن حدود زراعة الذرة والدرع بدون ري تقريبا، الى خط عرض تشاد الجديد (تجري الزراعات السقوية للخضر والتبغ والقمح على ضفاف لوقون والشاري) ويعيش المزاعون والرعاة والصيادون في المنطقة الجنوبية حيث تحيى مياه الأنهار والبحيرات والأراضي، فتخضر المراعي وتجلب دوريا عددا من الصيادين. وبالعكس ان التحات في المناطق الصحراوية الشمالية يجعل التربة غير ثابتة كما يجعل النبات ضعيفا يتميز بالأدغال الشوكية القتنة.

ولكن هذه البنيات الجيومرفية قد بعثت أيضا نشاطا بشريا آخر، فكثيرا ما طردت غزوات الغاصبين المزارعين الأهالي من الهضاب الصحية والسهول الخصبة دافعة بهم الى المناطق (المنحدرة أو القمم) الغير الصالحة لتربية المواشي. وهكذا دفع الفليون البوم والدورو الى الأراضي الأقل خصبا في الادماوا والكيروي شمالي الكامرون، وعلى الركامات الغرانيتية في سلاسل جبال المندرا. وخدمة الأراضي المنكشفة عن الفيضان أو المنحدرة هي ولا شك خدمة شاقة وجاحدة لهؤلاء الشعوب ولكنها تلائم ملاءمة أفضل أدواتهم البسيطة، ثم ان وجود مساحات مستنقعية دورية أو بصورة دائمة على مناطق النقل، يتبعه كثرة من البعوض (بعوضة الملاريا ذات السوق) وهناك من جهة أخرى أعشاش ذباب النعاس على جانبي اللوقون والشاري في الوحدات الواطئة المحبة للماء بسالكس وميمُزا اسبراتا، التي تمتد على الرواسب الحالية. فتصير هذه المناطق مهجورة لما ينتج عن ذلك من مرض الملاريا ومرض النعاس.

وبالجملة كي يدرك المؤرخ ادراكا محسوسا الحياة البشرية في حوض التشاد الذي عرف في الماضي عدة تموجات في العصر الرابع الجيولوجي بسبب تحولات المناخ، يكون حتما عليه أن يرجع

الى جملة متنوعة من المصادر والتقنيات الخاصة المستمدة من علوم الأرض وعلوم الحياة: فالتوزيع الحالي للسكان، وحركات الهجرة الماضية، والنشاط الزراعي والرعوي الخ، كل ذلك يتبع بدقة حالة المحيط.

وما مثل حوض التشاد الا صورة من بين عديد الصور الأخرى. وحيث تحرر الفضول العلمي من بعض التصورات المقيدة، لم تكن النتائج أقل اضاءة وأقل توضيحا. فيوجد فرق ساطع بين دماء من اختبروا من الناس (٣٠٠ شخصا سنة ١٩٧١ و ٣٥٩ سنة ١٩٧٢) النيانقاطوم أو البومي بوادي الاوموقرب التركرا في الشمال الغربي من كينيا. ولم تلاحظ هذه الظروف من الناحية الوبائية بين الأجناس بل بين القرى (التي تحوي من ٢٠ الى ٣٠٠ نسمة). وهذه القرى يسكنها اناس يعيشون بتربية الماشية وبالزراعة وبقطف الثمار والصيد البري والصيد البحري أو النهري، وهي تخضع لنظام قبلي دقيق يشعبه توزيع الى مناطق ترابية، ولكن في هذا المجتمع لا وجود لرئيس على الأكبرسنا. فالفروق الناشئة عن التنظيم الاجتماعي الترابي عند النيانقاطوم ترى معكوسة على علم المصول، وخريطة تفاعلات المصول على المولدات المضادة تصور حرفيا احصاء السكان المختبرين (٢).

وهذا المثال من الاشتراك الحركي بين عالم الطفيليات وعالم الانتروبولوجيا، فيه عبرة للمؤرخ الذي قد يخرج منه بغنم كبير. وليس من الخارج عن اهتمامه أن يتعرف وجود مثل هذه المادة الوثائقية التي قد تظهر نجاعتها في تحليل السلوكات الجنسية، وفي دراسة التزايد الديموغرافي عند النيانقاطوم.

و يبقى مشكل الإستكشاف، ومشكل المعرفة الأساسي هو هو: فعلى المؤرخ في افريقيا أن يكون يقظا تمام اليقظة لكل أنواع طرق التحليل، كي يركب خطابه الذاتي بالاعتماد على موسم خصب من المعارف.

و يبقى «تفتح الفكر» هذا، مطلوبا بصورة خاصة، بالنسبة الى العصور القديمة، حيث لا وجود للوثائق الكتابية ولا للروايات الشفاهية المباشرة. فنحن نعلم مثلا أن القمح والشعير والذرة في آسيا وأوربا وافريقيا والذرة في أميركا، كادت تكون قاعدة الزراعة بالنسبة الى الانسان في العصر الحجري الحديث. ولكن كيف يمكن ضبط النظم الزراعية الأولى التي ظهرت منذ هذا الزمن البعيد؟ وكيف يكون في الامكان أن يميز بين عمران مكون من مستقرين... عمران أساسه الفلاحون؟ كيف تم تأهيل النباتات على مختلف القارات ومتى تم ذلك؟ فلن تعيننا الرواية الشفاهية كبير الاعانة في هذا المجال ولا الميثولوجيا أيضا، بل ان علم الآثار وطرق الدراسة للنباتات القديمة وحدها هي التي تمدنا بالجواب المقبول عن هذه الأسئلة المهمة المتعلقة بالتراث الثمين للعصر الحجري الحديث أعني الزراعة.

ان بنية غبار الطلع تواجه الزمان بمقاومة كبيرة في التربة الصالحة غير الحامضة، فيوفر لنا علم الباليونولوجيا القديمة تحليلا مجهريا لهذه البقايا النباتية، ويمكن الحصول على غبار الطلع المتحجر بالتحليل التدريجي لعينة من التراب بواسطة الحوامض في حالة الحرارة (الحامض الفلورهدريك أو

---

(٢) أعمال فرانسوا رودان، عالم الحشرات، وسيرجي طرناي عالم التولوجيا، وكلاهما أعضاء البعثة الفرنسية في الأوموبادارة السيد ايف كوبنس (١٩٧١ — ١٩٧٢).

الكلورهدريك) فتلغي مادة الغضار والكلس دون أن تؤثر في غبار الطلع، ثم تلقى المواد العضوية والبوتاس. و يعالج الباقي بواسطة الحركة الجابذة و يصبغ ثم يعلق بالهلام. ولم يبق اذن للدارس سوى أن يعرف كل حبة ويحدد عدد الحبات، لتركيب جدول مئوي يمكن من تمثيل غبار الطلع في الراسب المدروس، وبذلك يثبت وجود الزراعة في موقع ما. وتطور المشهد المذكور والمناخ المستوحى من خلال تغيرات النباتات، وكذلك العمل المتوقع للانسان والحيوانات على الغشاء النباتي.

لقد كشفت تحاليل من هذا النوع عن نشاط للتأهيل الزراعي بافريقيا تقع في عدة مراكز متوزعة على مناطق فسيحة. فالذرة (قد تم تأهيلها على السهوب الممتدة من بحيرة التشاد الى الحد الفاصل بين السودان واثيوبيا) والذرة الصغيرة والارز الافريقي والوندزو وجلبان المرعى ونخيل الزيت (المؤهل على ضفة الغابات) و «ذرة الاصبع» والقناوية والأنيام الافريقي الخ. كانت تلك اذن النباتات الرئيسية المزروعة.

وأما النباتات الأميركية فحديثة الدخول نسبيا كما تشهد ذلك هذه المرة عدة مصادر مكتوبة. فالمنيوك مثلا هو اليوم الغذاء الأساسي لعدة شعوب بافريقيا الوسطى، لم يدخل مملكة الكنغو من الساحل الاطلسي الا بعد القرن السادس عشر، وذلك أن رسالة بيقافتا لوبز (١٥٩١) لم تذكر من بين النباتات المزروعة على هضبة بمنزاكنغو عاصمة المملكة سوى اللكو أي الالوزين كوروكنا وبذرتها مستوردة من ضفاف النيل، في الجهة التي ينصب فيها النهر في البحيرة الثانية (٣) «والمساماكنغو من الحبوب وهي نوع من الذرة، والقطاني، مسنغو أو مسامامبوتو» وهي أخسها وبها تعلف الخنازير (٤)، والارزلووز و«ليس له كبير قيمة أيضا» (٥)، وأخيرا شجر الموز، ديكندو ونخيل الزيت المسمى «با».

وقليلا ما نعرف أن هناك نباتات افريقية انتشرت هي أيضا انطلاقا من هذه القارة، فرور الأنواع الافريقية الى الهند مثلا، والى غيرها من الجهات الآسيوية أمر ثابت ولكنه متأخر، فنوعا الذرة (الذرة الصغيرة وذرة الاصبع) تشهد الاكتشافات الأثرية بوجودهما في الهند حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م وأما الدرع (الذرة البيضاء) فلقد عرفت هناك فيما بعد، اذ لا وجود للفظ سنسكريتي يدل عليه.

وقد تفيد المؤرخ كل هذه الارشادات التي يوفرها علم الآثار وعلم النباتات القديمة عند فقد أي وثيقة مكتوبة وأي رواية شفاهية، وتضوح له سلسلة المراجع التي مر بها أجدادنا في العصر الحجري الحديث، من اقتصاد جني الثمار الى اقتصاد الانتاج، وتبدو هذه الأحداث للعيان كتيارات ارتباط بين الحضارات في العصر الحجري الحديث، لا ضربا من الانتشارية.

وتوحي بقايا الكلب والخنزير والضأن والماعز، بأنه شرع في تأهيل الحيوانات، في مراكز الشرق الأدنى، من العصر الحجري الحديث، حوالي الفترة نفسها التي استنبتت الأرض أي بين ٩٠٠٠ و٨٠٠٠ق. م، ومنذ ذلك الوقت تسلسل تاريخ نظري لتأهيل مختلف المجموعات من الحيوانات. ثم

(٣) ف. بيقافتا ـــ لوبز، ص ٤٠.
(٤) ف. بيقافتا ـــ لوبز، عين المرجع.
(٥) ف. بيقافتا ـــ لوبز، عين المرجع.

ابتداء من آكلي الجيف كالكلب، ثم الحيوانات الرحالة كالرنة والمعزة والخروف، وفي النهاية ما من الحيوانات يتطلب الحياة القارة: كالمواشي الضخمة والخنازير. وأما الحيوانات الصالحة للحمل والنقل وتشمل الحصان والحمار واللاما، فقد يكون تأهيلها راجعا الى فترة متأخرة جدا. الا أن هذا التسلسل التأريخي العام لا يهم دائما افريقيا.

فالحصان الذي لعب مع الثور والحمار دور «المحرك للتاريخ على مر العصور»، لم يظهر في افريقيا، وبالضبط في مصر، كما تشهد بذلك المصادر المخطوطة أو المصورة، الا حوالي نهاية زحف الهكسوس في حدود ١٦٠٠ ق. م. وانتقل الى الليبيين كحيوان حربي منذ القرن الثالث عشر ق. م. وفيما بعد انتقل الى النوبيين في بداية الألف الأولى، وفيما عدا المناطق التي وصلتها الحضارة الرومانية، فان بقية افريقيا لم تستخدم الحصان استخداما كبيرا الا ابتداء من الفتوح الوسيطية العربية. وحسب رواية الكاتب ابن بطوطة (١٣٠٤ ــ ١٣٧٧) فان من شعارات ملك مالي، حصانين مسرجين ملجمين بجانبها كبشان.

وأما الجمل ذو السنام الواحد، فلم يكن هو الآخر متأخر الدخول في الحضارة الافريقية، فهو يبدو بصورة واضحة في رسم صخري في الصحراء التشادية، من القرن الثالث ق. م. وأدخله رجال قمبيز سنة ٥٢٥ ق. م الى مصر حيث سيكون له دور مهم في الاتصالات بين النيل والبحر الأحمر، وأما دخوله الصحراء الغربية فلقد جاء في فترة متأخرة. فالجمل وهو حيوان صحراوي أساسا حيث يحل غالبا محل الثور والحمار، قد انتشر في المغرب على ما يظهر، عن طريق الجيوش الرومانية ذات الاصل السوري. وتحرر بفضله البرابرة الثائرون على السلم الروماني وعلى عملية تسجيل الأراضي، وقد مكنهم من الاستقرار خارج الثغور على السبسب والصحاري، وبذلك دفع السود المستقرون نحو الجنوب أو هم أدخلوا تحت ربقة العبودية.

ونتيجة لما عرضناه سابقا، نصل الى الاعتقاد من أنه غنم منهجي حاسم: يمكن من الحصول على جهاز وثائقي ثري متنوع، انطلاقا من المصادر والتقنيات المستمدة من العلوم الصحيحة والعلوم الطبيعية. ويضطر المؤرخ الى القيام بمجهودات في البحث تصل به الى الجرأة.. واعتنقت بعد ذلك الوقت كل الطرق المفتوحة. ونقص حظ: (العلوم المساعدة) بهذه المناهجية الجديدة، الا اذا فهم الآن بـ «العلوم المساعدة للتاريخ» تقنيات أساسية للتاريخ مستمدة من أي أفق علمي كان وهي تقنيات لم يتم بعد اكتشافها كلها. وتقنيات البحث صارت جزءا لا يتجزأ من العمل التاريخي ورجحت ماديا كفة التاريخ الى جهة العلم.

وغنم التاريخ هكذا من حصيلة علوم الارض وعلوم الحياة. ولكن جهازه البحثي والنقدي صار غنيا على الخصوص بما ساهمت به علوم البشرية والاجتماعية الأخرى من علم المصريات والالسنية والرواية الشفاهية والعلوم الاقتصادية والسياسية.

ان علم المصريات حتى الآن مازال مصدرا لم يستغل استغلالا كافيا في تاريخ افريقيا فمن الواجب اذاك أن يؤكد عليها.

وتتضمن الدراسات المصرية علم الآثار التاريخي وكشف رموز النصوص، وفي كلا الحالتين يكون من اللازم مسبقا معرفة اللغة المصرية، وهذه اللغة التي عاشت نحو ٥٠٠٠ سنة (اذا أخذنا اعتبار القبطية) تبدو ماديا في شكل خطوط ثلاثة متميزة:

ــ الخط الهيروغليفي وتتوزع علاماته على صنفين كبيرين: رموز أو علامات ــ **كلمات** (مثلا صورة سلة من الخيزران لكتابة لفظ «سلة» وأهم مركباته الصوتية نب) وصور الأصوات أو العلامات الأصوات (مثلا صورة السلة التي يحتفظ بقيمتها الصوتية نب فتستعمل لكتابة ألفاظ أخرى لما عين القيمة الصوتية نب، «سيد»، نب «كل»). **وتصنف صور الأصوات هكذا: الثلاثية** وهي رموز تجمع بين ثلاثة حروف صائتة؛ الثنائية وتجمع صوتين؛ الأحادية وليس فيها سوى حرف صائت أو صامت. هذه هي الأبجدية المصرية الصوتية.

ــ الكتابة الكهنوتية (الهيراطيقية): أما النسخية في الهيروغليفات وتظهر حوالي الاسرة الثالثة (٢٧٧٨ ــ ١٤٨٣ ق. م) وهو خط موجه من اليمين الى الشمال دائما، يكتب بقلم على أوراق البردي وعلى قطع الخزف والكلس.

ودامت هذه الكتابة مدة طويلة كالهيروغليفات (أحدث نص هيروغليفي مؤرخ سنة + ٣٩٤).

ــ الكتابة الشعبية (الديموطيقية): وهي تبسيط للكتابة الكهنوتية، ظهرت حوالي الاسرة الخامسة والعشرين (٧٥١ الى ٦٥٦) وانقرضت في القرن الخامس. وفي مستوى الحروف الضيق هناك اشتراك في الأصل معترف به بين الكتابة الشعبية المصرية والكتابة الميروئيتية النوبية (التي تحمل لغة لم يكتشف سرها بعد).

وحتى هذا المستوى فحسب من النظام الخطي المصري، تعترضنا أسئلة منهاجية مفيدة. وذلك أنه من خلال هذا الانفاق الخطي ذي الوجه الخاص، يلمس المؤرخ وقد انقلب مكتشفا للرموز ضمير الناس في القديم وعزيمتهم بقدر ما يترجم العمل الكتابي المادي دائما قيمة بشرية عميقة. فكشف الرموز هو حوار بفضل ما يقام به من مجهود دائم من الدقة والموضوعية. ثم ان تنوع النظام الخطي المصري وتشعباته وتبسيطاته المتوالية هي ذاتها جزء من التاريخ: تاريخ كشوف الرموز الذي هو من المصادر الأساسية لكل طبيعة تاريخية ــ ومع النظام الخطي المصري حلت افريقيا محلا مهما من الدراسات العامة عن الكتابة كنظام من العلامات ومن التبليغ المشترك بين بني البشر (٦).

ومشكل نشر الكتابة المصرية في افريقيا السوداء، يزيد جهاز المؤرخ المنهاجي توسعا وتنفتح هكذا آفاق جديدة تماما في وجه البحث التاريخي الافريقي. والأحداث القليلة التالية ملائمة تماما للموضوع، فكان الجيكندي نظاما من الرموز المستعملة قديما لدى الكيكويو في الكينيا، وبين صور هذا النظام الخطي وبين الرموز المصرية شبه ملحوظ. كما اعترف العالم البريطاني ب. اموري طلبو وأشار منذ ١٩١٢ الى الشبه البنيوي بين الرموز النسيبدي في بلاد الافيك (نيجيرا الجنوبية الشرقية) وبين الرموز المصرية. وتبدو قرابة كتابية واضحة بين العديد من الهيروغليفات المصرية وبين رموز كتابة منده في جنوبي سيراليون. وكذلك شأن بالنسبة الى معظم الرموز في كتابة لوما شمالي ليبيريا. ويوجد ارتباط سببي لاشك فيه بين الهيروغليفات المصرية وبين العديد من رموز الكتابة في جوار منروفيا (ليبريا). وكتابة البمون بالكامرون التي عرفت هي الأخرى نظامين خطين لا تقل شبها ملحوظا من الشكل الخارجي، مع هيوروغليفات وادي النيل. وتماما كما في مصر فان هيوروغليفات دوقون وبمبرا وبوزو قابلة للتفكيك والتحليل. ولكن أشد الأمور دلالة ان رموز الغرب

---

(٦) ارنست دبلهوفر، ١٩٥٩.

الافريقي هذه تصيربها الأشياء والكائنات المكتوبة بواسطتها واعية لنفسها، وهذا تصور نموذجي لقدرة الكتابة المتسامية التي نجدها حرفيا في مصر في خط بعض النصوص المتعلقة بالمصير بعد الموت.

وبقيت هكذا الامكانية كبيرة لانشاء وتطوير علم للنقوش وعلم قراءة الكتابات القديمة لم يعرفا اطلاقا حتى الآن وغرضهما دراسة مدققة لمجموعات ككتابات السود الأفارقة وما بينها من علاقات مشتركة. وفي ذلك يجد بالطبع المؤرخ ما يرضيه، اذ من خلال تاريخ الكتابة واكتشافات قراءتها يوجد تاريخ البشر المسؤولين عن الخطوط المدروسة. والنظر في الانظمة الخطية في حد ذاته مصدر ثمين للتاريخ. الا أن المؤرخ دائما لا يفقد الاحساس بالزمن، فلا ينبغي أن نتوقع من رواء هذه الكتابات وهي غالبا حديثة، أن تكشف لنا كشوفا قديمة، على أن أهميتها تبرز ما للواقع المصري من عمق زمني عجيب. وقد انقرضت هذه الكتابة المصرية على ما يظهر بعد ٣٩٤ ب. م. على أن يبدو لنا منها باستمرار انبثاقات جديدة من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر.

فالقطيعة بين العصور الخالية وبين ماضي افريقيا الحديث ما هي إذن الا وهم انتجه جهلنا، والواقع أن نفقا يجمع بين هذين القطبين.

ان معرفة الكتابة المصرية واكتشاف قراءة النصوص يمكنان من الوصول الى اللغة الفرعونية. وان المؤرخ لينصح دائما بالرجوع قدر الامكان الى النصوص الأصلية اذ أن الترجمات، حتى أحسنها، قلما تكون سالمة من العيوب. فمن عرف اللغة المصرية من المؤرخين في وسعه أن يقرأ مباشرة، أي من قبله، عديد النصوص المختلفة من مصر القديمة: ومثالها نصب مأتمية وكتابات منقوشة على المعالم، ورسوم ادارية، وأناشيد دينية، وآثار فلسفية وكتب في الطب والرياضيات، ومحررات أدبية (روايات، قصص، أساطير).

وتوضح سلسلة من النصوص أن الحاجز الذي أزمع تصوره بين مصر الفرعونية وسائر الجهات الافريقية المجاورة، في العصور الخالية لا يوافق مادية الأحداث في شيء.

ونذكر في هذا الشأن الرسالة التي بعث بها نيفر ــ كا ــ رع (بيبي الثاني) الفرعون من الأسرة السادسة، حوالي ٢٣٧٠ ق. م، الى هرخوف رئيس البعثة الاقتصادية الى المناطق الجنوبية النائية، «الى بلدان نهاية الدنيا» كما جاء في النص، أي في الراجح الى جهة البحيرات العظمى الافريقية، ورجعت البعثة وهي الرابعة من نوعها بقزم. ويمدنا نص آخر مصري من القرن العشرين ق. م (من البداية الأولى للاسرة الثانية عشرة) بارشادات نفيسة مفيدة جدا عن حياة التجارة في ذلك العهد، والملاحة في البحر الأحمر والعلاقات الاقتصادية بين الساحل الشرقي الافريقي ووادي النيل. وهذا النص هو «قصة الغريق».

ونظمت الملكة حتشبسوت - وقد جلست على العرش المصري طيلة ٢١ عاما (١٥٠٤ ــ ١٤٨٣) ــ عدة بعثات تجارية، ولا سيما في السنة التاسعة من ملكها، الى بلاد البونت (الساحل الصومالي) وظهرت هذه البعثة في نقوش دير البحري البديعة في صعيد مصر.

وفي ذلك وجهة جديدة للبحث ليس في الامكان الا يهتم بها مؤرخ افريقيا. و يلوح ما في اقحام المصرية القديمة بالمنهج التدريسي في الجامعات الافريقية، من أهمية يرتجى منها الكثير لفائدة الدراسة الحية للتراث الثقافي الافريقي، بما له من عمق في الزمان وفي المكان.

أما عن الانتماء الالسني للمصرية القديمة، فهذه تدقيقات مستمدة من التقرير النهائي للملتقى الدولي الخطير حول «عمران مصر القديمة واكتشاف قراءة اللغة الميروتية» (القاهرة ٢٨ جانفي (كانون الثاني) ـــ ٣ فيفري (شباط) (١٩٧٤) فلا يمكن الفصل بين اللغة المصرية وبين السياق الافريقي، ولا تفي السامية بالجواب عن مشكل مولدها، فصار اذن من المعقول أن يبحث عن آباء وأعمام في افريقيا (التقرير النهائي ص ٢٩ فقرة ٥).

وبعبارة أوضح أن اللغة الفرعونية ليست لغة سامية، فمن الواجب حينئذ أن تخرج اللغة المصرية في مجال «الشامية السامية» أو «الأفرو ـــ آسية» التي وضعها فيها بعض الكتاب ولو أنهم في الغالب ليسوا إخصائيين في السامية ولا في المصرية. فيمثل المشكل الأساسي المطروح للتقريب بين المصرية القديمة ولغة السود الافريقية الحالية، باستخدام تقنيات ألسنية ملائمة، قصد ارجاع صيغ سابقة مشتركة، قدر المستطاع ، انطلاقا من التقابلات والمقارنات الشكلية والمعجمية والصوتية. وينتظر الالسني عمل عملاق، وعلى المؤرخ هو الآخر أن يترقب تغيرا جذريا في المنظور، اذا ما كشف عن بنية ثقافية عظمى مشتركة بين مصر الفرعونية وسائر افريقيا السوداء. وهذا الاشتراك هو بالمعنى الرياضي بديهية حدسية تترقب البرهان الشكلي عليها، وهنا، أكثر مما في محل آخر، يكون المؤرخ والألسني مضطرين الى العمل يدا واحدة، وذلك أن الألسنية مصدر تاريخي، وهي كذلك خاصة في افريقيا، حيث تتشعب اللغات العديدة.

والمقصود خاصة الالسنية المقارنة أو التاريخية. والطريقة المستعملة هي المقارنة والاستقراء، اذ أن هدف المقارنة اعادة البناء أي البحث عن نقطة التجمع لكل اللغات المقارنة. وسنسمي هذه النقطة التجمعية «اللغة المشتركة قبل اللهجية».

ولكنه من الواجب أن يكون الباحث شديد الحذر. «فالبنتو المشترك» مثلا المبني انطلاقا من دراسة معمقة لمختلف لغات البنتو المثبتة اليوم، ليست لغة قديمة ولا لغة واقعية أعيدت عناصرها. فعبارة «البنتو المشترك» أو «البنتو الأول» لا تعني سوى نظام التطابق بين لغات البنتو المعروفة، فيرجع به الى عهد كانت فيه هذه اللغات تقريبا هي ذاتها. وكذلك الأمر بالنسبة الى «الهندية الاوربية» مثلا. ففي المستوى الدقيق من الواقع أن الأثرية الالسنية هي، في النهاية محض وهم لأن العصر المستغرق في القدم، قبل التاريخي، الذي كانت فيه اللغة المشتركة المستعادة مستعملة في التخاطب، لم يبق منه أي أثر تاريخي أو حتى ألسني.

ولا تكمن صلاحية الالسنية التاريخية كثيرا في كونها توجد «لغة مشتركة قبل اللهجية» بل لكونها تلمس، ان صح القول، المساحة الالسنية الكاملة للغات مختلفة في الظاهر، غريبة الواحدة عن الأخرى. فقلما تحصر لغة في منطقة محددة أتم التحديد، بل هي تفيض في غالب الأحيان عن مساحتها الخاصة، رابطة بينها وبين سائر اللغات المتفاوتة البعد عنها علاقات، أحيانا لا يشعر بها في البداية. ومن وراء ذلك بالطبع مشكل مهم هو مشكل تنقل السكان. فالوحدة الالسنية لا تنطبق حتما على وحدة العرق. بل هي ترشدنا ارشادا لائقا الى وحدة أساسية، هي الوحدة الفريدة في الواقع، أعني الوحدة الثقافية الأساسية للشعوب الموحدة ألسنيا، المختلفة أحيانا اختلافا كبيرا من حيث الأصل ومن حيث النظم السياسية المتغايرة.

فعائلة «النيجر ـــ الكنغو» مثلا اذا ما تم قط اثباتها تمكن من الاستنتاج أن روابط اجتماعية

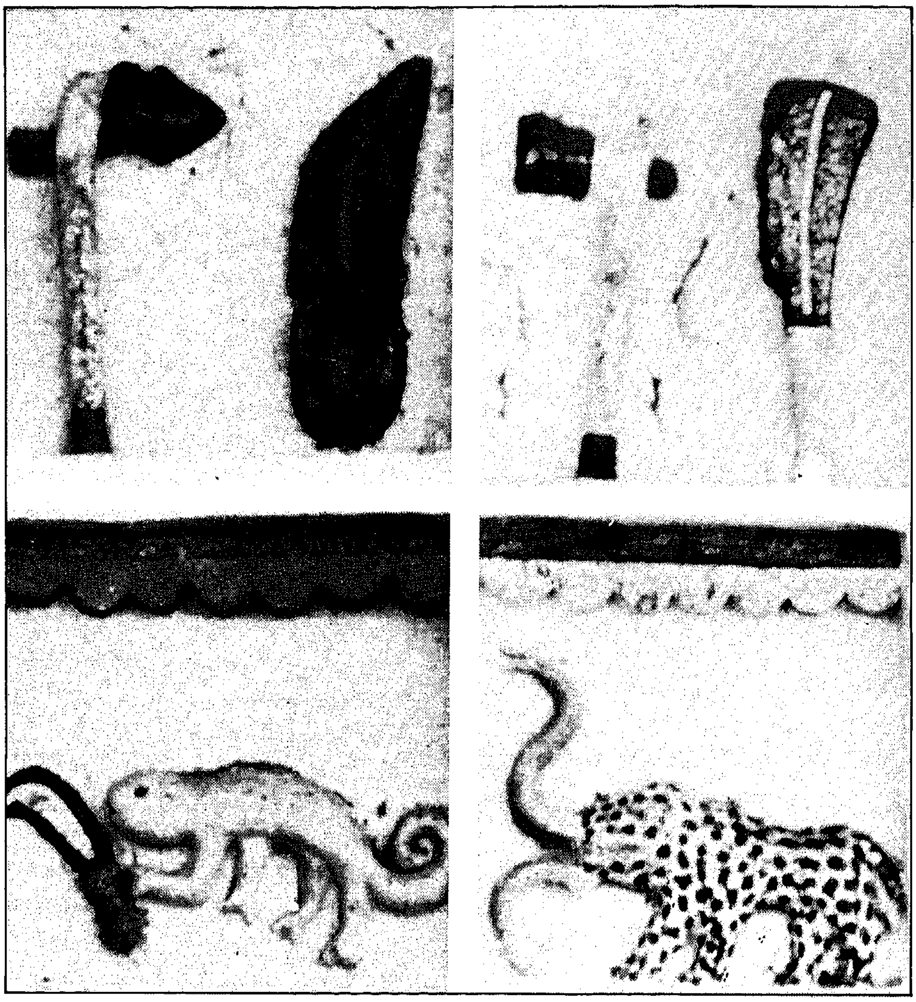
ثقافية عريقة جدا وجدت بين شعوب الغرب الاطلسي، شعوب منده وقور وكوا. والشعوب الكائنة بين البنوي والكنغو (زايير) وشعوب الآدماوا الشرقي وشعوب البنتو في افريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية.

الالسنية التاريخية اذن مصدر ثمين للتاريخ الافريقي كالرواية الشفاهية التي طالما استخف بها. والحال أنه أحيانا تكون الرواية الشفاهية هي المصدر الوحيد المتوفر مباشرة بين أيدينا. وذاك هو مثلا شأن مبوشي الكنغو. اذ أن تاريخ مختلف أماراتهم لم يكن بالمستطاع استعادته في المكان وفي الزمان (وهذا الزمان نسبيا قصير) الا بالاعتماد على الرواية الشفاهية. وقد تأتي هذه الرواية أيضا بالجواب الحاسم لمسألة عجزت في حلها الوثيقة المكتوبة. فؤرخو الأحداث (دولابورت ١٧٥٣، وبروبا ١٧٧٦) أجمعوا على أن ملوك لونقو (افريقيا الوسطى الغربية) دفنوا في مقبرتين متميزتين: في لوبوو في لواندجيلي. فلماذا تم هذا التمييز ومتى وقع؟ ان الوثائق المكتوبة المعروفة حتى الآن بقيت ساكتة بالنسبة الى هذا السؤال، وفي هذا الشأن ان الرواية الشفاهية عند الفيلي الحاليين هي وحدها التي تمكن من تفسير هذه الازدواجية. وذلك أن خصومة شديدة جدا بين بلاط ملونقو وسكان لواند جيلي بعثت الملك وامراء ذلك العصر على تبديل مكان دفنهم. فهجرت مقبرة لوندجيلي اذن لفائدة مقبرة لوبو تبعا لخصومة بين الأسرة المالكة وسكان مقاطعة غنية من المملكة. و يوجد في افريقيا عدد عديد من الأمثلة حيث توجه الرواية الشفاهية — ان صح التعبير — التنقيب الأثري كما تلقي أضواء على الخبر المؤرخ المكتوب.

فتنقيبات (نقداوست) في مملكة غانة (بالسودان الغربي) أشرف عليها في نهاية ١٩٦٠ الأساتذة ج دوفيرو د. وسن روبرت، وكانوا اذاك في جامعة داكار، فاستغلوا في آن واحد وبكيفية متقاطعة الروايات المحلية والتواريخ العربية الوسيطية والتقنيات الأثرية الخاصة. وهكذا تم استرجاع فترة من تاريخ افريقيا لم تكن تعرف كما يجب (القرنان السابع والثالث عشر) الى ذاكرة البشر بفضل علم الآثار نفسه طبعا، ولكن كذلك بفضل الرواية المحلية والوثائق المكتوبة.

ويمكن تعدد هذه الأمثلة، وهي توضح ان في افريقيا أكثر مما في سواها، تمثل الرواية الشفاهية جزءا لا يتجزأ من القاعدة الوثائقية للمؤرخ. وهكذا تتسع هذه القاعدة. ولم يعد في الامكان أن يمارس التاريخ الافريقي كما في الماضي بالغاء الرواية الشفاهية من البحث التاريخي وهي مفصل من مفاصل الزمن.

ولم يؤكد بعد على هذه النقطة الأساسية بالذات أي كيف تقدم الرواية الشفاهية الزمن، من جهة، وكيف تعرض الرواية الشفاهية الأحداث خلال الزمان، من جهة أخرى؟ كيف اذن يقدم التاريخ الشاعر القصاص؟ ذاك سؤال حاسم. فالقصاص الافريقي يكاد لا يعمل على لحمة زمنية، وهو لا يعرض مجرى الأحداث البشرية بتسارعاتها أو بنقاط انقطاعها، وما يقوله وما يستعيده جدير بأن يسمع مسقطا على المستقبل. وليس خلافا لذلك. وذلك أن القصاص لا يهمه الانسان الا ضمن الوجود كحامل للقيم، وكعامل في الطبيعة، بدون فكرة زمنية، ولذا لا يميل القصاص الافريقي الى تأليف مختلف فترات التاريخ التي يذكرها، وهو يعالج كل فترة في ذاتها، كأن لها معنى خاصا، ولا علاقة مدققة لها مع سائر الفترات، وفترات الأحداث المروية مقطعة. انه حقا التاريخ المطلق،



● نقش بارز (تصویر نوبیا).

وهذا التاريخ المطلق الذي يعرض، اجمالا بدون أزمنة، مراحل التطور هو، التاريخ البنيوي، لا أكثر ولا أقل.

ويجهل القصاص الافريقي عمليا كعبارات ممكنة في خطابه ما يطفو زمنيا أو يظهر أحيانا و يدعى عند غيره «دورا» (فكرة الدائرة) أو «طورا» (فكرة الزمان والمكان) أو «فترة» (فكرة التوقف أو الوقت الذي يبرزه حدث مهم) أو «جيل» (فكرة الدوام وانسياب الزمان) أو «سلسلة» (فكرة متتالية والتتابع) أو «حصة» (فكرة البرهة والظرف والزمن الحاضر)الخ... نعم ان القصاص الافريقي لا يجهل الزمن الكوني (الفصول، السنين الخ) ولا الماضي البشري اذ هو يعي فعلا ما مضى وانقضى. ولكنه من الصعب عليه ان يصور انموذجا من الزمن بل يدلي دفعة واحدة بالجزئيات التي بها يمتلئ الزمان.

وفي حقل العلوم البشرية والاجتماعية أيضا فان مساهمة علماء الاجتماع وعلماء السياسة تمكن من اعادة تعريف المعارف التاريخية والثقافية وذلك ان مفاهيم «المملكة» و «الأمة» و «الدولة» و «الامبراطورية» و «الديموقراطية» و «الاقطاعية» و «الحزب السياسي» الخ. المستعملة في غير افريقيا استعمالا لا شك لائقا لا تنطبق دوما وحتما على الواقع الافريقي.

فماذا نعني حقا «بمملكة الكنغو» مثلا؟ والقوم أنفسهم يسمون الأشياء هكذا نسي اكنغو أي حرفيا «البلد «نسي» التباع لأهالي كنغو» فلنا اذن مجموعة جنسية (أهالي كنغو) بمنطقة (نسي) ووعي هذه المجموعة بانها تسكن هذه المنطقة التي تصير هكذا بلد (نسي) المجموعة الجنسية المشار اليها. والنهايات أو الحدود شديدة التموج وهي تابعة لتشتت العصبيات وتحت مجموعات الجنس المتميز. ولفظ «مملكة» يدل هنا على منطقة ترابية لا يسكنها سوى رجال ونساء ينتمون كلهم الى جنسية واحدة. والتجانس الجنسي والالسني والثقافي، تجانس دقيق و «الملك» (مفومو) هو في الواقع الأكبر (مفومو) والخال (مفومو) لكل الأسر (نزو) وكل العصبيات المرتبطة بالأم (مكندا) وهم يتميزون عن الجدود المنشئين المشتركين (بنكلو مبنغو).

واذا ما نظر الواقع من قريب ان «مملكة كنغو» ترجع في النهاية الى امارة فسيحة، أي الى نظام حكم يتضمن الامارات الصغيرة المحلية و«الملك» هو أكبر الأكابر والخال الأقدم بين الأحياء، ولذا هو «نتينو» (الرئيس الأعظم) «فلكة كنغو» لا تعني اذن دولة يحكمها ملك بالمفهوم الغربي، على أن هذا المفهوم (مملكة لويس الرابع عشر مثلا) هو معنى هجين متأخر، غير لائق، وهو بالجملة صورة خاصة من المرور من الدولة الى الدولة القومية بواسطة الحكم الفردي المطلق.

وبالعكس ان مملكة دنكسو «بنان الحالية» تقترب أكثر من نمط الحكم الفردي المطلق، في صورة المسخ المنكر من حكم هنري الرابع الى حكم لويس السادس عشر في الاطار الفرنسي. وذلك انه توجد أرض أساسية مستمرة تتمتع كما يؤكد الاستاذ م. غليلة بسلطة قضائية مركزية: الملك ووزراؤه ونوابهم المفوضون. فالملك جوهر السلطة نفسه، بيده كل خواص السلطان والقيادة، له على رعاياه حق الحياة والموت، ورعاياه هم الاناتو «رجال الشعب» ويختار من بينهم الملك، سولى الخيرات كلها (دوكنو) و يصطفي (القليسي) أي الفلاحين الذين يعدهم لأراضيه أو يهديهم للأمراء والقواد. وتمارس السلطة المركزية في القرى والجهات، بواسطة قواد باسم الملك. فمملكة دنكسوم «تلوح حينئذ كمنظمة دولية شديدة التمركز يتدرج فيها نظام اللامركزية الادارية المتمثل في

«القيادة». فلها سلطة مركزية تراقب الشعب (دنكسومنو) من خلال محفظات القيادات. وعلى مر التاريخ وحسب صدف الغزوات، تضاف البلدان المغزوة الى النواة الجنسية القديمة والى الأرض الدائمة. في وقت ما تم الغزو وتم عمل التأقلم الثقافي والهضم بين شعوب وأقارب وجيران مثل (فن، ماهي، الداء، سافي، جودا الخ) وصارت «المملكة» بذلك دولة متعددة الأجناس لها بنيتها وممركزة بفضل تنظيم اداري وحربي قوي وكذلك بفضل اقتصاد موجه حركي. وقبيل التدخل الاستعماري كانت مملكة دنكسوم حقا دولة شعب، حيث كان الحوار والخطاب وموافقة السكان (عن طريق المحافظات) مبدأ من مبادئ الحكم.

على أن كلمة «مملكة» ليس لها عين المدلول في كل مكان من افريقيا. فعلى المؤرخ اذن أن يكون متحفظا عند استعماله هذا اللفظ. وقد يلاحظ أيضا أن المحافظة تقابل نظام حكم في الكنغو، بينما هي نمط من اللامركزية الادارية في المملكة القديمة بالدنكسوم (أبو ماي).

وأما لفظ «اقطاعية» وضمن نطاق الملاحظة المتمثلة في أوربا الغربية (وهو لم يكن له دائما خاصية نموذجية) فيمكن أن يعني به مفهوم الاقطاعيين في القرون الوسطى أصحاب النزعة القانونية، ان الاقطاعية هي ما يرتبط بالاقطاع (وقد ظهر حوالي القرنين العاشر أو الحادي عشر) ومجموعة العلاقات (وفاء وولاء وأتاوة) التي تربط بين الولي والسيد صاحب الملك. و يبعد عن هذا المدلول، الفلاحون الذين ليسوا من الطبقة العليا من المجتمع.

وأما الماركسيون فيجعلون للفظ «الاقطاعية» مدلولا أفسح. هي نمط من الانتاج يتميز بالاستغلال الاقتصادي للطبقات السفلى (عبيد الأرض) من قبل الطبقات المسيرة (الاقطاعيين). فعبيد الأرض مقيدون بها تابعون للسيد الذي لم يعد في امكانه أن يقتل القن بل في وسعه أن يبيعه (له ملكية محددة على العامل). فنظام القن حل محل نظام العبودية، ولكن عددا من مظاهر العبودية مازالت قائمة. وليس للقن أو الفلاحين أن يشتركوا في ادارة الأمور العامة وليس لهم أي مسؤولية في أي وظيفة ادارية. والنظام الاقطاعي من وجهة نظر تطور المجتمعات الاوربية. مرحلة وسطى من مراحل تكوين الاقتصاد الرأسمالي. ولكن الكثير من الماركسيين مازالوا يخلطون بين مفهوم «الاقطاعية» السياسي وبين مفهوم «السيادة» الاجتماعي الاقتصادي. وقد علم ماركس المؤرخين منذ ١٨٤٧ كيفية التمييز بين المفهومين.

ومهما يكن المدلول المحتفظ به، فهل النظم الوسيطية الاوربية توجد بحذافيرها في افريقيا السوداء في ما قبل الاستعمار؟ والدراسات الاجتماعية المقارنة وحدها (وهي لم توجد بعد) قادرة أن تجيب على هذا السؤول جوابا لائقا بما يقتضيه من الفروق الدقيقة.

وقد أشير سابقا الى صفة «الاقطاعية» في نظام البار يبا (داهماي) وذلك خاصة كفرضية للعمل. وقلة تقدم البحوث في هذا الموضوع أي في مسألة «الاقطاعية» في افريقيا السوداء من شأنها أن تقود المؤرخ الى المزيد من الحذر، وفيما يبدو ان «الاتجاهات الاقطاعية» التي تقدمها المجتمعات السوداء الافريقية لم تكن لتحدد تبعا لحقوق عينية يكشفها اسناد أرض «مقطعة»، بل هي تحدد شكلا من التنظيم السياسي يعتمد على نظام من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة.

فمن الممكن هكذا أن تكون تحاليل علماء الاجتماع وعلماء السياسة مصدرا قابلا للاستغلال من

قبل المؤرخ و «خزانة وثائق» المؤرخ بافريقيا تتغير تغيرا كبيرا بحسب المواد والفترات التاريخية وبحسب فصول المؤرخ نفسه أيضا.

وفي افريقيا المجموعات الوثائقية تتجمع من كل أنواع العلوم، الصحيحة والطبيعية والبشرية والاجتماعية، و «العرض» التاريخي يتجدد تماماً بقدر ما تمثلت المناهجية في استخدام عدة مصادر وتقنيات خاصة في آن واحد و بكيفية متقاطعة. فأخبار الرواية الشفاهية والمخطوطات العربية النادرة والحفريات الأثرية وطريقة الفحم المتخلف أو فحم ١٤، كل ذلك ادخل من جديد و بصفة نهائية شعب صاو «الخرافي» (تشاد، كامرون، نيجيريا) في تاريخ افريقيا الأصيل...

وقد احتلت هضبة مداقا في جمهورية التشاد مدة طويلة جدا أي طيلة ما يقرب من ٢٥٠٠ عام، من القرن الخامس ق. م. الى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. ولولا استغلال جملة المصادر المتنوعة استغلالا متقاطعا لكان من المتعذر أن نصل الى ما وصلنا اليه من استنتاجات موفقة غير متوقعة.

ونبذت الآن التصورات الدراسية للنقد التاريخي «كالعلوم المساعدة» و«اختيار المصادر» و«المواد التاريخة الشريفة» الخ. نبذا من البحث التاريخي الافريقي الذي مثل هكذا مرحلة مهمة في التدوين المعاصر للتاريخ.

وصارت ممارسة التاريخ في افريقيا حوارا مستمرا بين مختلف الاختصاصات، وتلوح آفاق جديدة بفضل مجهود نظري لم يسبق له مثيل.

واستخرجت فكرة «المصادر المتقاطعة» من خفايا المناهجية العامة، طريقة جديدة لكتابة التاريخ. ويمكن حينئذ اعداد تاريخ افريقيا وتفصيله أن يلعبا دورا مثاليا رائدا، في اشراك اختصاصات أخرى لفائدة البحث التاريخي.

المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر

هـ. جعيط

ان فكرة المصدر الكتابي فسيحة الى حد تصبح فيه مبهمة. فاذا ما قصد بالكتابي كل ما يوصل الصوت والحس، فان ذلك يشمل الشاهد الكتابي والرسوم المحفورة في الحجر وفي الصبخر أو في قطع النقود... و بالاختصار كل رسالة تحفظ اللغة والفكرة، بقطع النظر عن حاملها (١)، وقد يحدو بنا تمديدنا هذا الى أن نقحم في ميداننا العملة والخطاطة وسائر العلوم «المساعدة» التي صارت في حقيقة القول مستقلة عن دائرة النص المكتوب، لذا سنقصر بحثنا على ما هو مخطوط أو مطبوع في علامات تواضعية على حامل ما ــ بردي أو رق أو عظم أو ورق، وان هذا الحقل فسيح للبحث والنظر: أولا لأنه يشمل جزءا من الزمن يبتدئ باستنباط الكتابة و ينتهي بعتبة الأزمنة المعاصرة (القرن الخامس عشر). ثم لأنه ينطبق على قارة بأكملها، حيث تجاوزت وتعاقبت حضارات متنوعة. وأخيرا لأن هذه المصادر تجد التعبيرعنها في لغات مختلفة، وتتطور ضمن تقاليد متغايرة وعلى أنماط متنوعة.

وسننظر فيما تعرضه هذه المصادر من مشاكل عامة (ضبط الفترة والتقسيم الى مناطق ودراسة الأنماط) قبل أن نقيم منها استقراء نقديا.

المشاكل العامة

لا وجود حتى الآن لدراسة عامة للمصادر الكتابية للتاريخ الافريقي، ولأجل التخصيص في الزمن أو في المنطقة، بقيت الدراسات القيلة التي أنجزت معقلة بميادين مفصلة من البحث العلمي. فمصر الفرعونية مثلا ميدان لدارس الحضارة المصرية القديمة، ومصر البطلمية والرومانية ميدان

(١) أ. دين، ١٩٦١ ص ٤٤٩.

للباحث الكلاسيكي، ومصر الاسلامية للباحث في الاسلاميات: هي فترات ثلاث واختصاصات ثلاث تدور حول مدارات أفسح (العالم الكلاسيكي والاسلام). والأمر نفسه بالنسبة الى المغرب، ولو أن الباحث في البونيقيات هو في نفس الوقت مستشرق و باحث كلاسيكي، كما أن باحث البربريات هامشي لا يحصر في فئة ما.

وامتد فيما بعد، التاريخ الكتابي، والبحث العصري أيضا، الى افريقيا السوداء في مجال متنوع يتضمن لغات عدة واختصاصات مختلفة، وفيه مصادر كلاسيكية ومصادر عربية ومصادر افريقية صرفة. ولئن وجدنا نفس المصادر الثلاثية الموجودة في شمالي الصحراء، فاننا لا نرى فيها الامتداد نفسه أو المعنى المماثل. وثمة منطقة واسعة لم تكن قبل القرن الخامس عشر تحوي أي مصدر كتابي، وفيما تبقى من مناطق تحوي مصدرا عربيا ذا قيمة ثانوية في المغرب مثلا، هوذو أهمية أساسية فيما يخص حوض النيجر، ولكن اذا ما أكب مؤرخ افريقيا السوداء على وثيقة كتابية عربية فلا ينكب عليها انكباب مؤرخ المغرب عليها، ولا انكباب مؤرخ الاسلام بصورة عامة.

وتنمّ هذه التقسيمات وهذه التداخلات عن بنية التاريخ الافريقي الموضعية، وكذلك على اتجاه العلم التاريخي المعاصر منذ القرن التاسع عشر. فالواقع أن مصر فعلا قد ضمت الى العالم الهلنستي والى الامبراطورية الرومانية والى بيزنطة، وعند اعتناقها الاسلام، أصبحت مركز اشعاع له. والواقع أيضا أن الكتاب الكلاسكيين رأوا تاريخ افريقيا كما لو أنه صورة من تاريخ روما، وان ثمة افريقيا قد ارتبطت ارتباطا عميقا في مصير الرومانية، ولكن ما هو حقيقي أيضا أن المؤرخ العصري لافريقيا الرومانية استمر تابعا للاتجاه الروماني قبل أن ينتسب للافريقانية، وأن القسم الاسلامي قد انتفى من حقله الاستيمولوجي.

وهكذا فان ادراك التاريخ الافريقي ككل والقاء نظرة من خلال هذا المنظور على المصادر الكتابية، مازال مشروعا دقيقا عسيرا جدا.

مشكل ضبط الفترة

ونحن حين نقوم بدراسة المصادر الكتابية نتساءل كيف يمكن تبرير الانقطاع الموجود في بداية القرن الخامس عشر؟ أيتم ذلك بالبنية الداخلية للكتلة الوثائقية التي بين أيدينا وهي رغم الخلافات الثقافية والزمنية، تحتفظ ببعض الوحدة، أم بحركة التاريخ العام نفسها وهي يجمعها بين العصور الخالية والقرون الوسطى في مدة طويلة واحدة تفصل بينها و بين الزمن المعاصر.

والواقع أن الحجتين تشد إحداهما الاخرى وتتكاملان: فالمصادر العتيقة والوسيطية تتميز بكتاباتها الادبية، فهي شواهد واعية في معظمها، سموها حوليات و يوميات ورحلات او جغرافيات، بينما صارت منذ القرن الخامس عشر المصادر الوثائقية والشواهد اللاواعية متكاثرة، ومن جهة أخرى لئن كانت النصوص (الكلاسيكية) العربية، في هذه الفترة، اكثر انتشارا فان المصادر العربية قد نضب معينها منذ القرن الخامس عشر، بينما ظهرت الوثيقة الاروبية (الايطالية او البرتغالية الخ..) في حقل الشواهد، كما ظهرت الوثيقة الاهلية في افريقيا السوداء. ولكن هذا التغيير في طبيعة المصادر وفي أصلها يعبر أيضا عن تحول في المصير التاريخي الحقيقي لافريقيا. فالقرن

الخامس عشر هو قرن الانتشار الاوربي (٢): زحف البرتغاليون سنة ١٤٣٤ على سواحل افريقيا السوداء وقد اقاموا قبل ذلك بعشرين سنة في سبتة ١٤١٥ (٣) وأما الشريط الافريقي الاسلامي على البحر الأبيض المتوسط (المغرب ــ مصر) فظهر فيه فصل بين عصرين تاريخيين منذ القرن الرابع عشر، وقد أحس هذا العالم بآثار توسع الغرب البطيء كما أحس بلا شك بعمل قوى الانحلال الداخلية. ولكن القرن الخامس عشر كان حاسما، اذ به انقطعت التجارة الاسلامية في الشرق الأقصى فانتهى بذلك ما كان لهذه التجارة من دور بين القارة. ومنذ ذاك انزلق الاسلام الافريقي المتوسطي على هاوية انحطاط، ما فتئ يتفاقم وتجد النهاية الفاصلة في القرن الخامس عشر ما يبررها تبريرا واسعا على أن تبقى مرنة، ولكن تبريرها قد يزداد، اذا ما تجاوزت الزمن بقرن (الى بداية القرن السادس عشر).

هذا وسوف نقسم الفترة، موضوع دراستنا، الى ثلاثة أقسام رئيسية نظرا لحتمية مزدوجة، حتمية التنوع وحتمية الوحدة.

ــ العصور العتيقة حتى الاسلام: الامبراطورية القديمة حتى ٦٢٢ م؛

ــ العصر الاسلامي الأول: من ٦٢٢م الى منتصف القرن الحادي عشر (١٠٥٠م)؛

ــ العصر الاسلامي الثاني: من القرن الحادي عشر الميلادي الى القرن الخامس عشر الميلادي.

ومن المؤكد أن مفهوم «العصور العتيقة» هنا لا يشابه نظيره في تاريخ الغرب، من حيث أنه لا ينطبق الا جزئيا على «العصور العتيقة الكلاسيكية»، فلا ينتهي بزحف أقوام «البربر» بل بانتشار الواقع الاسلامي. ولكن الاسلام، بما كان لأثره من عمق وسعة، يمثل القطيعة مع ماض في الامكان أن ينعت «بالعتيق» أو بما قبل التاريخ، أو ببداية التاريخ حسب المناطق. ثم انه في الواقع أيضا فان معظم مصادرنا القديمة منذ العصر الهلنستي مكتوبة باليونانية واللاتينية.

ولئن كان من اللازم حسب بنية وثائقنا وحسب الحركة التاريخية الشاملة، أن نعتبر القرن السابع، عصر ظهور الاسلام والمصادر العربية، كبداية لعصر جديد، فان العهد الاسلامي يقضي أن يقسم الى قسمين فرعيين: الأول من الفتح الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، والثاني من القرن الحادي عشر الميلادي الى القرن الخامس عشر الميلادي. وبالنسبة الى تاريخ افريقيا شمالي الصحراء، فان الطور الأول يوافق طور تنظيم هذه المنطقة على النمط الاسلامي وارتباطها بالامبراطورية العالمية (الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية)، وأما الطور الثاني، فيشاهد بالعكس ظهور مبادئ التنظيم الوطني، بينما يطرأ على المستوى الحضاري تحول عميق، ففي المغرب، يمثل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي عهد تشكل مملكة المرابطين واسترجاع الحكم الذاتي من قبل بني زيري وما نتج عنه من زحف الهلاليين، وفي مصر تقع القطيعة بعد ذلك بقرن مع الايوبيين، على أن هذا العصر شهد تحول المراكز الحية للتجارة العظمى من الخليج العربي الى البحر الأحمر، وقامت تدريجيا تشكيلات للتبادل على المقياس العالمي، كان لها وقع عظيم.

---

(٢) يقترح موني تاريخ ١٤٣٤ وهو تاريخ الانتشار البرتغالي البحري على افريقيا السوداء: مشكل مصادر تاريخ افريقيا السوداء حتى الاستعمار الاوربي ضمن المؤتمر الدولي الثاني عشر للعلوم التاريخية، فينا، ٢٩/٨، ٥/٩/١٩٦٥، ٢، تقارير تاريخ القارات ص ١٧٨، انظر أيضا موني، ١٩٦١، ص ١٨.

(٣) العروي، ١٩٧٠ ص ٢١٨.

وتوثقت في جنوبي الصحراء أيضا، ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، علاقات مستقرة مع الاسلام، ولا سيما في الحقلين التجاري والديني.

وجهازنا الوثائقي نفسه قد تغير شكله، فمن حيث الكم، صار غزيرا متنوعا ومن حيث الكيف وكلما انحدرنا مع الزمن، في افريقيا المتوسطية، عثرنا على مصادر لم نشعر بها (وثائق السجلات، فتاوى قضائية)، كما وجدنا في افريقيا السوداء ارشادات مدققة.

المناطق العرقية الثقافية وأنماط المصادر

ليس تصنيف المصادر حسب العصور التاريخية فحسب كافيا، بل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار انفصال افريقيا الى مناطق عرقية ثقافية تعمل فيها عدة قوى وذلك لابراز فردية هذه المناطق. ومن ثم ايضاح نموذجية المصادر التي بين أيدينا فيما وراء العصور التاريخية والفروق المكانية.

المناطق العرقية الثقافية

اذا ما نظرنا في النقطة الأولى فقد نندفع منذ البداية نحو الفصل العنصري بين افريقيا شمال الصحراء — أي افريقيا البيضاء المعربة المسلمة، والتي أثرت في أعماقها حضارات البحر الأبيض المتوسط ونزعت عنها افريقيتها وبين افريقا جنوب الصحراء، السوداء الافريقية الى أقصى حدود الافريقية، وما لها من نوعية عرقية تاريخية متميزة. ودون أن ننكر ما لهذه التنوعات من وزن، فان النظر التاريخي الأشد تعمقا يكشف في الواقع عن خطوط فصل أشد تشعبا وأشد تميزا.

فالسودان السنغالي والنيجري مثلا، عاش في اتحاد وثيق مع المغرب العربي البربري، فكان من جهة المصادر أقرب اليه منه الى العالم البنتو، وكذلك الأمر بالنسبة الى السودان النيلي ازاء مصر، بالنسبة الى القرن الشرقي الافريقي ازاء جزيرة العرب الجنوبية، وقد يستهوي الانسان أن يقابل بين افريقيا المتوسطية الصحراوية والسهوب التي تشمل المغرب ومصر والسودانين واثيوبيا والقرن الافريقي والساحل الشرقي حتى زنجيبار، وبين افريقيا أخرى وثنية، عميقة، استوائية أو فوق الاستوائية — حوض الكنغو، والساحل الغيني ومنطقة الزمباز لمبوبو، ومنطقة ما بين البحيرات، وأخيرا منطقة افريقيا الجنوبية، وهذا النوع الثاني من التمييز له ما يبرره الى حد بعيد من جراء عامل الانفتاح على العالم الخارجي أي بسبب أهمية التسرب الاسلامي.

وتؤكد المصادر المكتوبة هذا الحدث الحضاري، بما تجعل من افتراق بين افريقيا لها نصيب كبير من هذه المصادر — بتدرج من الشمال الى الجنوب، وافريقيا أخرى تعوزها هذه المصادر، على الأقل في الفترة المدروسة، الا أن هذا الاعتبار المزدوج للانفتاح على الخارج والحالة المصادر المكتوبة، قد يؤدي الى أحكام تقويمية، وقد تسدل حجابا قاتما على نصف افريقيا تقريبا (افريقيا الوسطى والجنوبية) وقد لفت عدد من المؤرخين النظر الى خطورة «الرجوع الى المصادر العربية» اذ تبعث على الظن بما أكدت به على المنطقة السودانية، ان هذه المنطقة كانت المركز الوحيد للحضارة وللدولة المنظمة (٤) وسيكون لنا عود الى ذلك، الا أننا نعترف منذ الآن أن هناك رابطا بين حالة حضارة ما

(٤) هريك، ١٩٦٥ مج ٥، ص ٣١١.

وحالة مصادرها، وان هذا الرابط ليس من شأنه أن يوحي تماما بحركة التاريخ الحقيقية. فالمؤرخ الموضوعي لا يسمح لنفسه بالحكم على القيم انطلاقا من جهازه الوثائقي، ولكنه كذلك غير قادر أن يغفل عما يوفره له هذا الجهاز، بدعوى أنه قد يكون في استغلاله افراط.

واذا ما كان بمقدور تاريخ عام يشمل كامل المدة التاريخية و يعتمد على المادة الوثائقية المتوفرة بأكملها، أن يعير حوض الزايير من الأهمية ما يعيره لحوض النيجر أو لمصر. فالدراسة المحددة بالمصادر المكتوبة حتى القرن الخامس عشر لا يمكنها ذلك.

و بناء على كل الملاحظات التي قدمناها، يمكننا أن نعرض الهيكلية الجهوية الآتية:

أ ــ مصر، ليبيا الشرقية، السودان النيلي.

ب ــ المغرب بادخال الشريط الشمالي من الصحراء، مناطق أقصى الغرب طرابلس وفزان.

ج ــ السودان الغربي، بالمعنى الواسع أي حتى بحيرة التشاد من الشرق شاملا جنوبي الصحراء.

د ــ اثيوبيا وارتريا والقرن الشرقي والساحل الشرقي.

هـ ــ بقية افريقيا أي خليج غينيا، وافريقيا الوسطى والجنوب الافريقي.

وان من مزية هذا التقسيم ألا يعارض بين الافريقيتين، وأنه يجعل للقارة بنية موافقة لمواءمات جغرافية تاريخية موجهة نحو منظور افريقي، كما يعتبر ما للمصادر المكتوبة التي بين أيدينا من طابع خاص. فافريقيا الوسطى أو الجنوبية مهما كانت ثروتها الحضارية، تظهران في مظهر الفقر في المصادر المكتوبة بالنسبة الى أصغر جزء من الوحدات الأخرى (فزان وارتريا مثلا).

ومن جهة أخرى ما من شك في أنه علاوة على التضامن العام الذي يربط بين مصادر افريقيا المعروفة، يوجد تضامن نوعي أدق بين ما لدينا من معلومات عن كل المناطق المحددة، وثمة كشف مفصل لابد أن يمر عبر النصوص حسب العصور وحسب المناطق، ولكننا نعترف مسبقا أن من وراء المناطق و بكيفية أقل، من وراء الفترات التاريخية، تبدو هذه المصادر ببعض اللغات فحسب، وترجع الى بعض الأنماط المحددة، وانها ليست دائما مستمدة من المنطقة التي تعالجها ولا هي معاصرة للأحداث التي تصفها.

نموذجية المصادر المكتوبة

أ ــ ان اللغات التي كتبت بها وثائقنا متعددة الا أنها ليس لها عين الأهمية. فاللغات الأكثر استعمالا والتي حملت أكبر كمية من الأخبار هي: المصرية القديمة والبربرية واللغات الاثيوبية والقبطية والسواحلي والهوسا والفلفلد. وأكثر اللغات انتاجا هي لغات من أصل غير افريقي: مثل اليونانية واللاتينية والعربية، ولو أنه تم تقبل العربية كلغة قومية من قبل عدد من الشعوب الافريقية. واذا صنفنا الوثائق مرتبين اياها ترتيبا حسب كمية وكيفية الأخبار معا، حصلنا على القائمة التقريبية الآتية: العربية، اليونانية، اللاتينية، المصرية القديمة (الكهنوتية والشعبية) القبطية، العبرية، الآرامية، الاثيوبية، الايطالية، السواحلية، الفارسية، الصينية، الخ..

وبحسب التاريخ ان أولى مصادرنا المكتوبة برديات كهنوتية مصرية ترجع الى الامبراطورية الحديثة، ولكن تحريرها الأول قد يرجع الى بداية الامبراطورية الوسطى (بداية الألف الثاني قبل

الميلاد) وخاصة البردي المعروف بعنوان «تعليم للملك ميريكاري» (٥) ولدينا برديات الامبراطورية الحديثة والمحاذيات كلها بالمصرية الكهنوتية. والمصادر اليونانية التي تعود الى القرن السابع قبل الميلاد المستمرة بلا انقطاع الى فترة متأخرة، تنطبق تقريبا مع انتشار الاسلام (القرن السابع ب. م) والمصادر العبرية (التوراة) والآرمية (يهود فيله) التي تعود الى الأسرة السادسة والعشرين، والنصوص الشعبية من العصر البطلمي والأدب اللاتيني القبطي (باللغة المصرية لكن باستعمال الأبجدية اليونانية مضافا اليها بعض الحروف)

ودشنت هذه ابتداء من القرن الثالث للميلاد، والعربية والصينية (٦) والفارسية فيما يظن، الايطالية ثم الاثيوبية التي يرجع أقدم نص مكتوب فيها الى القرن الثالث عشر الميلادي (٧).

ب ــ واذا ما صنفت هذه المصادر حسب نوعها فانها تتوزع الى مصادر قصصية والى مصادر وثائقية، وقد سجل بعضها بأمانة كي تبقى شاهدا، وأما غيرها فينتمي الى الحركة العادية للحياة البشرية. وفيما يخص افريقيا ماعدا مصر ولكن بادخال المغرب، فان المصادر القصصية تمثل تقريبا كل الجهاز الوثائقي المكتوب حتى القرن الثاني عشر الميلادي، فهي تضم اذا الجاهلية وفجر الاسلام. ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي ظهرت التسجيلات الوثائقية، ولو كانت قليلة، و بالمغرب (سجلات موحدية، فتاوى أو استشارات قضائية من العصر الحفصي) وتكثفت هذه الوثائق في عهد الايوبيين والمماليك (ق ١٢م، ١٥م) بينما كانت مخطوطات الديارات الاثيوبية تذيل بوثائق رسمية، ولكن هذا النمط من النصوص بقي عمليا مفقودا من سائر افريقيا في كل الفترة المشار اليها (٨). وعلى كل فإن المصادر القصصية كانت هي الغالبة، وظهرت منذ القرن الثاني عشر الميلادي المصادر الوثائقية أو هي تكاثرت نسبيا في افريقيا المتوسطية، وكانت هذه مفقودة بافريقيا السوداء. ولكن بصفة عامة فان جهازنا الوثائقي قد تضخم تضخما لا بأس به بعد القرن الحادي عشر الميلادي حتى بلغ القمة في القرنين الثاني عشر والرابع عشر. ودونك خاصيات فترتنا:

يمكن تعداد أنماط المصادر كما يلي:

المصادر القصصية:

- تواريخ وحوليات.
- مصنفات جغرافية ورحلات ومؤلفات علماء الطبيعة.
- مصنفات فقهية ودينية سواء كانت كتب الفقه أو الكتب المقدسة أو المدائح.
- مصنفات أدبية حقا.

---

(٥) غولينشاف: البرديات الكهنوتية رقم ١١١٥ و ١١١٦ أو ١١١٦ ب من المنسك الامبر يالي بسان بترسبورغ ١٩١٣، وقد ترجم الرقم ١١١٦أ. قاردنار في «مجلة الآثار المصرية» لندن ١٩١٤ ص ٢٢ وما بعدها. انظر في الموضوع أ. بريوتون وج. فنديي ١٩٦٢، ص ٢٢٦.

(٦) يوجد نص صيني من النصف الثاني من القرن الحادي عشر ولكن أهم المصادر الصينية التي لم تخصص بعد بالبحث تعنى بالقرن الخامس عشر وساحل الشرق الافريقي ويمكن أن نشير الى الأعمال الآتية: ج. ج دو يفندك ١٩٤٩، ف. هرث ١٩٠٩ ــ ١٩١٠؛ فيلزي ١٩٦٢، ابرا ١٩٦٣ ب. و يتلاى ١٩٦٤.

(٧) سرجيو هابل سلاسيي، ١٩٦٧، ص ١٣.

(٨) بين أيدينا محارم، وهي رسائل أعطاها ملوك برنو قد ترجع الى نهاية القرن الحادي عشر: رسالة أم جلمي ورسالة أسرة مسبرما. انظر في الموضوع موني ١٩٦١، بلمار ١٩٢٨ ج ٣، ص ٣.

مصادر وثائقية:

- وثائق خاصة: رسائل عائلية ومكاتبات تجارية الخ.
- وثائق رسمية نابعة عن الدولة أو ممثليها: مكاتبات رسمية، قرارات، رسائل تحريم نصوص تشريعية ووثائق تتعلق بالضرائب.
- وثائق فقهية دينية.

ونلاحظ أن المصادر القصصية ظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد مع هوميروس وهي تشمل عددا وفيرا من أمهات الفكر والمعرفة البشريين. ونجد فيها عددا من أسماء الاعلام ولو أن معظم شواهدها لا يعالج افريقيا بصفة خاصة ولكنها تجعل لافريقيا مكانة تزداد أهميتها أو تقل في اطار نظرة الى آفاق أفسح. ومن بين هذه الأسماء: هيرودوت وبوليب وبلين القديم وبطليموس وبروكوب والخوارزمي والمسعودي والجاحظ وابن خلدون. والتسجيل الوثائقي هو الأقدم في العالم، بينما برديات رافينا المحفوظة في أوربا وهي أقدم وجود للوثائق تؤرخ ببداية القرن السادس بعد الميلاد، على أن برديات الامبراطورية الحديثة المصرية سابقة لها بعشرين قرنا. أجل ان هذا النمط من الشواهد لم يتجاوز في فجر الاسلام حدود مصر، ولم ينتشر انتشارا كبيرا حتى نهاية الفترة التي ندرسها. ويعود ذلك بدون شك، الى كون الحضارة الاسلامية الوسيطية تجاهلت عمليا مبدأ الحفاظ على وثائق الدولة، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهي أغنى الفترات بالوثائق المكتوبة، فإن المؤلفات الموسوعية هي التي أمدتنا بهذه الوثائق. وينبغي أن ننتظر الفترة الحديثة العثمانية والاوربية، لنشاهد تأسيس مستودعات حقيقية للوثائق.

الاحصاء حسب الفترات

الجاهلية: (من البداية الى سنة ٦٢٢م)

ان ما يميز هذه الفترة عن الموالية لها هو أولوية المصادر الأثرية، وبصفة عامة المصادر الغير الأدبية، على أن الوثائق المكتوبة رغم وضعها الثانوي فهي تمدنا أحيانا بتدقيقات تفصيلية، وهي تتكاثر وتزداد دقة كلما انحدرنا مع الزمن، وفيما يخص التوزيع المنطقي نلاحظ أن افريقيا الغربية والوسطى لا وجود لها تماما فيها.

مصر، النوبة، افريقيا الشرقية

أ) ان المصادر المكتوبة الخاصة بمصر حتى الألف الأولى قبل الميلاد هي مصرية تماما وهي برديات كهنوتية وأسطراكا لا يتجاوز أصلها أبعد من الامبراطورية الحديثة. ولكنها كما ذكرنا، قد تروي أخبارا أقدم (٩)، والبردي والمحاذيات هي عبارة عن المواد المكتوبة: الأول هونبات والثاني كسرة كلسية. وتميز الرسوم الكهنوتية عن الهيروغليفية لشكلها النسخي الذي كان يعدها خاصة الى أن ترسم لا أن تحفر. فالبرديات والاسطراكا المتعددة بالنسبة الى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين من الامبراطورية الحديثة أو فترة الرمامسة (١٣١٤ — ١٠٨٥) عنيت بالحياة الادارية عنايتها بالحياة الخاصة، ففيها تقارير ادارية وعدلية، ووثائق محاسبة، ورسائل خاصة كما فيها

(٩) دريوتون وفنديي ١٩٦٢ ص ٧ — ٩، جان يويوط، مصر القديمة ضمن التاريخ العالمي مجموعة الثريا.

القصص والروايات. والبرديات الفقهية القضائية (١٠) والبرديات الأدبية (١١) خصت بدراسات متقنة وبنشريات منذ القرن التاسع عشر.

واذا لم تأت اكتشافات جديدة بما يخالف ذلك، فان معرفتنا للنوبة ولبلاد البونت ليست مدينة بشيء الى المصادر المكتوبة، بل هي تعتمد على المادة الأثرية والخطية (ولا سيما النقوش الاثرية).

ب) ان فترة الالف الأولى قبل الميلاد ولا سيما بداية القرن السادس قد نوّعت ما أتت به المصادر وجددته، وانضمت الوثائق القصصية الى التسجيلات الوثائقية وأحيانا عوضتها، فهذا «سفر الملوك» وهو جزء من التوراة يمدنا بارشادات قيمة عن انتصاب الاسرة الثانية والعشرين (حوالي ٩٥٠) ويبقى كبير الفائدة بالنسبة الى الفترة الموالية أي حتى سيادة الفرس (٥٢٥)، وحرر «سفر الملوك» أولا قبل تخريب القدس أي قبل ٥٨٦ (١٢) وتناول زمن النفي، الا أنه يرى تقاليد ترجع الى بداية الألف الأولى. وتلقي المصادر الأجنبية ولا سيما اليونانية أضواء على الفترة الدنيا، منذ أسرة السايت الأولى (القرن الثامن): ميناندر وارستوديموس وفيلوكوروس وهيرودوت. ومن وجهة النظر الوثائقية فان البرديات تكتب الآن اما باليونانية واما بالشعبية، وهي كتابة منقولة أقرب الى النسخي من الكهنوتية. وفي القرن الخامس فان المصدر الرئيسي مستمد من برديات يهود فيله، بينما حررت في القرنين الرابع والثالث تسلسل التاريخ الديموطيقي أي الشعبي.

ج) والفترة الفاصلة بين حكم البطالسة في مصر (نهاية القرن الرابع) والفتح العربي ٦٣٩م تمتد على ألف عام تتميز بالأهمية الكمية للمصادر اليونانية وبروز المنطقة الاثيوبية الاريترية في حقل معرفتنا. فيحدثنا عنها بوليب واسطرابون وديودور وبلين القديم بدقة نسبية لا تخلو من جهل أو بساطة. ويمدنا عالم الطبيعيات الروماني في «تاريخه الطبيعي» بجملة من المعلومات عن العالم الاثيوبي وبخاصة عن منتجات التجارة ودورات التبادلات. نعم ان هذا المؤلف عمل استقرائي تتفاوت قيمته، ولكنه ثري بتفاصيل متنوعة. وفي منتصف الألف الذي يلي ظهور المسيحية تصبح معلوماتنا أكثر دقة. وكما نعلم أصبحت مصر في القرن الثاني المركز الرئيسي للثقافة الهلنستية فكان من الطبيعي أن تنتج مؤرخين وجغرافيين وفلاسفة وآباء للكنسية. وقد ضمت سياسيا للامبراطورية الرومانية ثم البيزنطية فعني بها عدد من الكتابات اللاتينية أو اليونانية الخارجية، سواء منها القصصية أو الوثائقية (قانون تيودوز مثلا أو أحداث جوستنيان) ومن الملاحظ أيضا أن تيار البرديات لم ينضب. ويبرز من هذه المجموعة الوثائقية الداخلية والخارجية مؤلفات ذات أهمية

(١٠) من الوثائق القضائية نذكر بردي أبوط برديات أمهرت وميير، وكذلك بردي طور ينو وعليها تركز معرفتنا الملك رمسيس التاسع والعاشر والحادي عشر. وقد نشرت هذه البرديات، انظر برديات مختارة بالحروف الكهنوتية من مجموعات المتحف البريطاني لندن ١٨٦٠، نيوبري: بردي امهرت لندن ١٨٩٩، بيت: بردي ميير لندن ١٩٢٠، بيت: القبور الكبيرة: الاسرة المصرية العشرون مجلدان. اكسفورد ١٩٣٠.

(١١) ان مجموعة المتحف البريطاني ثرية بالبرديات الأدبية، نجد فيها قصة الحق والكذب وقصة هوروس وساث. وقد استقرى بوسنر الاخصائي في هذه المادة استقراء مستوفى الآثار الأدبية المصرية فبلغ ٥٨ عنوانا: مجلة الدراسات المصرية، ٦١، ١٩٥١ ص ٢٧ — ٤٨ ونشر بوسنر أيضا بعض المحاربات: جدول الاسطراكا الكهنوتية الأدبية بدير المدينة القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦.

(١٢) أ. لودس: رسل اسرائيل وبداية اليهودية، باريس ١٩٥٠ ص ٧ دريوتون وفنديي: الكتاب المذكور قبله، دورس ١٩٧١ ج ١ ص ٤٧ — ٦١.

خاصة. الجغرافيا لبطليموس (حوالي ١٤٠٤) (١٣) رحلة بحر ارتيريا (١٤) وهي من عمل كاتب مجهول و يعتقد أنها أنشئت حوالي عام ٢٣٠م وقد زعم أنها ترجع الى القرن الأول، الطبوغرافيا المسيحية (١٥) لكسماس انديقبلوستاس (حوالي ٥٣٥م) وتمثل هذه الكتب قاعدة معرفتنا فيما يخص اثيوبيا والقرن الشرقي لافريقيا. ولكن هذا العرض الخاطف يبرز في الجملة اختلالين للتوازن، عدم توازن معرفتنا لمصر ازاء معرفتنا للنوبة وللعالم الاريتري.

المغرب القديم

ان التاريخ المكتوب للمغرب القديم نشأ عن مجابهة قرطاج لرومة، أي أنه ليس لدينا أي معلومات هامة سابقة للقرن الثاني قبل الميلاد، فهناك بدون شك اشارات مبعثرة عند هيرودوت وفي آثار مؤرخين يونانيين آخرين، والفترة البونيقية حقا مدينة لعلم الآثار وللخطاطة، ومن جهة أخرى فان تاريخ قرطاج قبل هنيبعل كما هو الشأن أيضا بالنسبة الى تاريخ مجابهتها لرومة ثم بقائها المؤقت، يكاد لا يدين بشئ الى المصادر البونيقية المكتوبة، وقد أثبت الآن أن رحلة حانون التي يمتد وصفها الى السواحل الشمالية الغربية لافريقيا مزورة، وأن انشاءها باليونانية، لا يتجاوز القرن الأول. و بقيت الأعمال الفلاحية المنسوبة الى ماقون، فلم يحفظ لنا منها الا مقتبسات اقتبسها المؤلفون اللاتينيون، الا أنه من بين المصادر الوطنية ينبغي أن نذكر ملاحظات يوبا الثاني وقد استغلها بلين القديم في كتابه «**التاريخ الطبيعي**».

وهكذا فإن أكثر، بل جميع المصادر المكتوبة عن تاريخ المغرب العتيق ــ الاطوار القرطاجية والرومانية والفاندالية والبيزنطية، يتمثل في مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين، أي الذين حرروا كتاباتهم باليونانية أو اللاتينية: وهؤلاء المؤلفون في جملتهم، غرباء عن افريقيا، ولكن كلما كانت افريقيا تنغمس في الرومانية كل ثمة كتاب مواطنون يظهرون، وخاصة منهم آباء الكنيسة.

أ) في الفترة بين ٢٠٠ قبل الميلاد و١٠٠ بعده، أي الفترة التي تقابل بلوغ قرطاج أوج مجدها، ثم سقوطها وتنظيم المقاطعة الرومانية في افريقيا ابان الجمهورية والامارة، لدينا من المصادر عدد من الكتابات اليونانية واللاتينية المعروفة مثل: بوليب (٢٠٠ الى ١٢٠ ق.م) وهو مصدرنا الرئيسي، واسطرابون وديودور الصقلي وسلوست (٨٧ الى ٣٥ ق . م) وتيت ليف وابيان و بلين وتاسيت و بلوتارك (القرن الأول الميلادي) و بطليموس (القرن الثاني الميلادي) بقطع النظر عن الكثير من الكتاب الصغار (١٦).

(١٣) من علماء الجغرافيا الكلاسيكيين وغير الكلاسيين الذين تعرضوا لافريقيا، انظر المؤلف الأساسي ليوسف كامل: المعلمة الخرائطية لافريقيا ومصر، القاهرة وايدة ١٩٢٦ الى ١٩٥١، ١٦ مجلدا ومن المأمول أن يعاد نشر هذا العمل مع جهاز نقدي جديد مهم.

(١٤) نشره ملّر: جغرافيون يونانيون صغار باريس ١٨٥٣ ج ١، أعاد نشره هيلمارفرسك بقوتبرغ سنة ١٩٢٧، ونشر هذا العمل الهام عدة طبعات منذ القرن السادس عشر ١٥٣٣م ثم ١٥٧٧م.

(١٥) كسماس رحالة زار اثيوبيا وجزيرة سومطرا. و يوجد مؤلفه ضمن «آثار آباء الكنيسة اليونانية» ليني مجلد ٨٨، وهي مجموعة لا بد من الاطلاع عليها فيما يخص القرون الخالية، بجوار آثار آباء الكنيسة اللاتينية ليني نفسه: ونشر مصنف كسماس نشرة حسنة جدا في ثلاثة مجلدات بمنشورات دار سيرف بباريس ١٩٦٨ ــ ١٩٧٠، كما نشير لأهمية معلوماتنا عن تنصير أثيوبيا الى كتاب «تاريخ الكنيسة» الروفينوس و «آثار آباء الكنسية اليونانية» ليميني الذي يمدنا بترجمة لاتينية.

(١٦) نذكر ارسطو (السياسة) وقيصر (الحرب الأهلية وحرب افريقيا) أو تروب وجستان وأوروز. وفيما يخص تاريخ هنيبعل وحده فهناك أكثر من ٣٠ مصدرا مكتوبا.

جدول تاريخي لأهم المصادر القصصية

التواريخ	الأخبار والحوليات	الجغرافيا الرحلات	مصنفات قضائية دينية	نصوص أدبية
	المصادر المكتوبه			
٢٠٦٥				
١٥٨٠				
٨٠٠				هوميروس (ق ٨)
٥٠٠			سفر الملوك (قبل ٥٨٦)	
	هيرودوت (٤٨٥ — ٤٢٥) أخبار شعبية (ق ٣)			
٢٠٠	بوليب(٢٠٠—١٢٠)			
١٠٠	ديودور	اسطرابون، رحلة حانون المزعومة		
٠	سلوست(٨٧—٣٥)			
٠		بلين القديم		
+١٠٠	طاسيت، بلوتارك			
+٢٠٠		بطلميوس	القديس سيبريان (٢٠٠ — ٢٥٨)	
+٣٠٠		رحلة بحر ارتريا (٢٣٠)		
+٤٠٠			القديس اغستان (٣٥٤ — ٤٣٦)	
+٥٠٠	بروكوب (٤٩٢ — ٥٦٢)	كسماس انديكوبلستس (٥٣٥)		
+٦٢٢				
+٨٠٠	ابن عبد الحكم (٨٠٣م— ٨٧١م)	الفزاري، الخوارزمي (قبل ٨٣٣م) اليعقوبي	الموطأ، المدونة أحكام السوق	الجاحظ
+٩٠٠	الكندي الرقيق (١٠٢٨م)	المسعودي (٩٤٧م) ابن حوقل (٨٧٧م)	غاوثي نعمان (شيعي) ابوالعرب (سني) ابن الصغير (خارجي)	
+١٠٥٠				
		البكري (١٠٦٨م)	المالكي	
+١١٠٠	الاستبصار مجهول المؤلف	الادريسي	ابوزوركوجا المخزومي مناقب حفصية	القاضي الفاضل
+١٢٠٠	ابن الأثير (١٢٣٤م) ابن العذاري	ياقوت (١٢٢٩م) ابن سعيد (قبل ١٢٨٦م)		
+١٣٠٠	النويري ابن ابي زرع، الذهبي ابن خلدون	العبدري (١٢٨٩م) العمري (١٣٣٦م) ابن بطوطة التجاني الأطلس الميورقي (١٣٧٦م) لكرسك	مخطوطات الديارات الاثيوبية	الصعدي
+١٤٠٠	ابن تغري بردي	المقريزي		
١٤٥٠	زراره			

المصادر الوثائقية			
أوراق رسمية	وثائق خاصة		الأحداث التاريخية
		٢٠٦٥	الامبراطورية الوسطى
		١٥٨٠	الامبراطورية الحديثة
		٨٠٠	اختطاط قرطاج. العصر المصري المتأخر
برديات كهنوتية	برديات يهودية في فيلة	٥٠٠	
		٢٦٠	البطالسة
		١٠٠	الفتح الروماني (١٤٦م) لافريقيا
		٠	
		+١٠٠	ترمين افريقيا
		+٢٠٠	اوج المدرسة الاسكندرية
		+٣٠٠	اكسوم ـ تنصير اثيوبيا (٣٣٣)
أخبار حديثة		+٤٠٠	
		+٥٠٠	استرجاع بيزنطة لافريقيا (٥٣٣)
		٦٢٢	الهجرة
برديات اغريقية وقبطية برديات عربية بافروديت		+٨٠٠	الفتح العربي الخلافة الاموية (٦٦١ ـ ٧٤٩) افريقيا الاغلبية (٨٠٠ ـ ٩١٠) ثورة الزنج (٨٦٨)
مراسلة فاطمية في افريقية برديات عربية بالفيوم واشمونين		+٩٠٠	انتصاب الفاطميين في مصر (٩٦٩)
صكوك فاطمية في مصر		١٠٥٠	
رسائل مرابطيّة محم ام جلمي	الجنيزة		الهلاليون في افريقيا. فتح المرابطين لغانة ١٠٧٦
		+١١٠٠	
رسائل موحدية		+١١٥٠	الموحدون بالمغرب، الايوبيون بمصر
وثائق ايطالية	الجنيزة وثائق ايطالية	+١٢٠٠	الحفصيون في افريقيا، المرينيون بالمغرب، المماليك بمصر
رسوم وقف	فتاوى	+١٣٠٠	امبراطورية مالي كنكوموسى (١٣١٢ ـ ١٣٣٥)
القلقشندي		+١٤٠٠	سقوط مالي، بروز سنغاي احتلال سبتة من قبل البرتغاليين (١٤١٥) اكتشاف البرتغاليين لرأس بوجدور (١٤٣٤)
المقريزي		+١٤٥٠	

وكان من المفيد جدا أن يجمع ما بعثر من الكتابات الخاصة في افريقيا الشمالية، ولكن هذا لم يتم الا بالنسبة الى المغرب الأقصى (١٧)، فصار لزاما على الباحث أن يتصفح نظام المجموعات الكلاسيكية الكبرى، تلك المجموعات التي عرض فيها التبحر العلمي الاوربي في القرن التاسع عشر كل ما كان لديه من وسائل النقد ومن العمل الجبار: الخزانة الطبنرية، الخزانة الكلاسيكية لوب (نص وترجمة انكليزية)، مجموعة ج. بودي (نص وترجمة فرنسية) مجموعة جامعات فرنسا، المخطوطات الكلاسيكية في خزانة اوكسونيونزيس. يحسن أن يضاف الى هذه المصادر القصصية مصادر أكثر مباشرة متمثلة في نصوص القانون الروماني، ولو أن هذه النصوص كانت في أصلها من النقوش الكتابية (١٨).

ولم تكن كتابات الحوليات ومؤرخي اليوميات والجغرافيين اليونانيين واللاتينيين ذات قيمة واحدة بالنسبة الى الفترة الفرعية المدروسة كلها. فالبعض يرمي الى اقتباس المعلومات من الكتاب السابقين، بينما يقدم غيرهم معلومات طريفة قيمة، وأحيانا شواهد مباشرة. فهذا بوليب مثلا قد عاش في ظل أسرة سيبيون ولعله حضر حصار قرطاج سنة ١٤٦ق. م. وهذا كتاب سلوست حرب يوغرتا الذي يعتبر «وثيقة ممتازة عن الممالك البربرية» وكتاب قيصر «الحرب الأهلية» هو كتاب صانع للتاريخ.

وتسيطر على هذه الفترة صورة بوليب وآثاره. فقد قيل (١٩) إن بوليب وليد العصر الهلنستي وثقافته. ولد حوالي سنة ٢٠٠ ق. م أي في الوقت الذي التفت فيه رومة، عند انفجار امبراطوريتها، بعالم البحر الأبيض المتوسط وخاصة منه الهلنستي. ثم سجن وعرف النفي بروما وذاق ضروب المرارة، وهو «المعلم القاسي» المؤرخ والفيلسوف. ولقد راقته الحياة برعاية آل سيبيون بل انه مدين لها بمعرفة الكثير عن تاريخ رومة وقرطاج، ثم عاد الى موطنه اليونان بعد سجن دام ستة عشر عاما، ولكنه ما لبث أن هاجر سائحا في الدنيا، وخلال اقامته في افريقيا يقال إن سيبيون اميليان عرض عليه اسطولا يمكنه من استكشاف الساحل الأطلسي الافريقي، فنحن اذن أمام رجل مقدام مجرب لا يفتر له فضول. ولم يكن بوليب فحسب المصدر الرئيسي لكل ما يتصل بالصراع البونيقي الروماني، بل هو بصفة أعم مشاهد من الطراز الأول لما يجري في زمنه في افريقيا ومصر، ولو كانت الأجزاء الاربعون من كتابه «الذرائعية» باقية بين أيدينا، لكانت معلوماتنا أكثر بكثير مما نعلم الآن، وقد يكون لنا فيها معلومات أدق منها في أي مكان آخر عن افريقيا السوداء نفسها. ان ما تبقى لدينا من أجزائها الستة تتميز تميزا كبيرا عن سائر مصادرنا بجودة المعلومات والنظرة الثاقبة.

ب) وبعد القرن الأول وطيلة القرون الأربعة التي تعمقت فيها جذور التنظيم الامبريالي الى أقصى حد في افريقيا، ثم أهميتها اعتبرتها أزمنة مطولة، صارت المصادر الأدبية ضئيلة ووجد فراغ يكاد يكون تاما في القرن الثاني الميلادي، وتميز القرنان الثالث والرابع بهيمنة الكتابات المسيحية ولا سيا كتابات سيبريان وأغستان. وهي مصنفات عامة تتجاوز الاطار الافريقي واضعة أهم

(١٧) روجي: المغرب عند المؤلفين القدامى ١٩٢٤.
(١٨) ب. أ. جيرارد: نصوص من القانون الروماني، الطبعة السادسة ١٩٣٧.
(١٩) «التاريخ القديم، كيمبريدج» المجلد الثامن: «روما والبحر المتوسط».

المشاكل الدينية دون أن تساهم في القول التاريخي المباشر، بل هي لها وقع مباشر على الأحداث بما اتصفت به من كتابات جدلية ظرفية.

فمعرفتنا للحركة الدوناتية انما تعتمد على تهجمات أكبر مناوئيها القديس أغستان (٣٥٤ ــ ٤٣٠)، ولذلك صار من اللازم أن نحترز بشأنها احترازا جديا.

و بالنسبة الى المصادر المكتوبة أيضا، فإن آثار الآباء في الفترة الامبريالية تبدو كأداة رئيسية ولكنها جزئية لمعرفتنا. وفي هذا الشأن أيضا يمكن للباحث أن يرجع الى المجموعات الكبيرة.

ــ مجموعة برلين باليونانية (النص وحده)

ــ مجموعة فينا باللاتينية (النص وحده)

ولهذه المعالم من التبحر العلمي الالماني ما يقابلها في التبحر الفرنسي، وهي مجموعتا ميني:

ــ آثار الآباء اليونانية (نص وترجمة لاتينية).

ــ آثار الآباء اللاتينية (نص لاتيني فحسب).

وكان التدخل الفندالي واعادة الفتح البيزنطي والحضور البيزنطي طيلة أكثر من قرن، شديدة الاثارة للاستلهامات، فتكاثرت الكتابات الموضوعية «الصغيرة» وظهرت المصادر الوثائقية (مراسلات ونصوص تشريعية)، ومن حسن حظنا ان كان لنا مشاهد خصب بارع هو بروكوب (القرن السادس) فكان الى حد بعيد مصدرنا المعتمد، بكتابه «الحرب الفندالية».

ويمكن العودة الى «المجموعة البيزنطية» في بون والاستعانة «بالقطع التاريخية اليونانية فيما يخص النصوص اليونانية، وتوجد النصوص اللاتينية المتعددة اما في «آثار الآباء اللاتينية» (وآثار القديس فلقانس لها بعض الأهمية بالنسبة الى معرفة الفترة الفندالية) واما «المعلمة الجرمانية التاريخية، لمؤلفين قدامى» (٢٠) وهي من معالم التبحر الالماني، فهي تجمع «التواريخ اليومية الصغيرة» من الفترة البيزنطية: كسيودور و برسبرتير ولا سيما فكتور دي فيتا وكوربوس، و يستحق هذان الأخيران أكبر العناية، الأول فيما يخص الفترة الفندالية والثاني بالنسبة الى الفترة البيزنطية اذ هما يلجان باطن افريقيا و يلقيان بعض الأنوار على افريقيا هذه «العميقة» التي طالما أغفلت (٢١). و يوضح شارديهل في كتابه الدراسي عن افريقيا البيزنطية انه في الامكان استغلال المادة الأثرية ومادة النصوص في آن واحد لتمثيل الواقع التاريخي تمثيلا أتم ما يمكن. لقد استخدم من المصادر المكتوبة لوحة فسيحة قدر ما يمكن: فأولا بروكوب وكذلك كوربوس، ولكن أيضا أقاطيباس وقاسيودورو وجورج القبرصي (٢٢)، ورسائل البابا قريقوار الكبير وثائق قضائية كالأحداث وقانون جوستنيال، النافعة ايما نفع لاستكشاف الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

و يبدو أن الاحتمال ضعيف بامكان اثراء القائمة الميتة لوثائقنا المكتوبة بواسطة اكتشافات

(٢٠) في «معلمة ممسن» مجلد ٩/١ ــ ٢ (١٨٩٢) ١١ (١٨٩٤) و١٣ (١٨٩٨) يوجد نص فكتور دي فيتا في المجلد ٣ ــ ١ (١٨٧٩) نشره ص. هولم، و يوجد نص كوربوس في المجلد ٣ ــ ٢ (١٨٧٩) نشره ج. بارتش.

(٢١) عن افريقيا الفندالية والبيزنطية لدينا مصنفان عصريان أساسيان يوضحان تفاصيل المصادر الممكن استغلالها: كرستيان كورتوا ١٩٥٥ وش. ديهل ١٩٥٩، وفيما يخص الفترة القديمة: التاريخ القديم لافريقيا الشمالية لاستيفن قزال ولو أنه تقادم فهو مازال صالحا للمطالعة.

(٢٢) وصف العالم الروماني نشر جلزر.

جديدة، على أنه، بالعكس، من الممكن أن تستغل استغلالا أحسن وأن تعمق وأن يتم عليها تحقيق دقيق وأن تقابل بالمادة الأثرية والنقشية التي لم تنفد بعد، وخاصة أن تستخدم بنزاهة وموضوعية (٢٣).

افريقيا الصحراوية والغربية

ليس لدينا في حقيقة الأمر أي وثيقة يوثق بها عن افريقيا السوداء الغربية. فاذا ما وافقنا موني (٢٤) على أن القدامى ــ قرطاجيين و يونانيين ورومانيين ــ لم يتجاوزوا رأس جوبي وخط عرض الجزر الخالدات ــ وهذا هو الأرجح، فإن الارشادات التي توفرها لنا كتاباتهم انما تخص الجنوب الأقصى المغربي. نعم هي على حدود العالم الأسود ولكنها لم تدخله.

ورحلة حانون مزيفة، ان لم تكن بأكملها ففي معظمها (٢٥) وهي مؤلف خليط تتلاقى فيه اقتباسات من هيرودوت ومن بوليب و بوسيدونيوس وسيلاكس المزعوم الذي قد يؤرخ بالقرن الأول، وتآليف هذه المصادر هي أشد جدية، ففي هيرودوت صدى للتجارة الصامتة التي كان القرطاجيون يجرونها مع الجنوب المغربي. ويمدنا تابع سيلاكس المزعوم (القرن الرابع ق. م) بدوره بأخبار ثمينة عن علاقات القرطاجيين بالليبيين البربر، الا أن بوليب يلوح مرة أخرى، المصدر الأقرب الى الواقع، اذ أن بقايا نصه التي اقتبسها بلين القديم توفر لنا أولى المسميات المكانية في العصور الخالية التي يمكن تحقيق مواقعها، الا أن في ذلك أيضا تقف ارشاداته عند حد رأس جوبي، وفيما يخص أرخبيل الخالدات ينبغي أن تكمل تقريراته بمذكرات الجوبا الثاني التي جمعها بلين واسطرابون وديودور الصقلي. ولم يقم سائر المؤرخين الجغرافيين في القرن الأول ق. م. وب. م الا بتصفح المؤلفين السابقين، اذا استثنينا بعض التفاصيل الجزئية. وأخيرا في القرن الثاني، كرر بطليموس ما جاء عند كل سابقيه، واعتمد خاصة على بوسيدونيوس وماران الصوري، فقيّد في «جغرافيته» أوسع المعلومات عن محيط افريقيا في العصور القديمة (٢٦)، وقد استغلت الخريطة التي أبقاها لنا الجغرافي الاسكندري عن «ليبيا الداخلية» عن ما جمعه الجيش الروماني من معلومات خلال حملاته العقابية من رواء الحدود حتى فزان، مثل حملة بلبوس سنة ١٩ ق. م وحملة فلكوس سنة ٧٠ ب. م ومترنوس سنة ٧٦ ب. م. وقد توغل الى أقصى حد في الصحراء الليبية (٢٧)، و بقيت من العصور الخالية أسماء شعوب ومناطق مثل مور يطانيا وليبيا والقوارامنت والجيتول والنوميديون والهسبريد وحتى النيجر الذي تقدم عبره بطليموس، واسترده ليون الافريقي من جديد ثم الاوربيون العصريون. هذا ما أتت به نصوصنا التي أمدتنا علاوة على ذلك، بالتشخيص الذي تصورته به

(٢٣) عن التحريفات الناشئة عن قراءات متحيزة للنصوص، ان النقد الذي قدمه عبد الله العروي سنة ١٩٧٠ على التدوين التاريخي الغربي وجيه بقدر ما هو عجيب الاطلاع.

(٢٤) (ر. موني ١٩٧٠ ص ٨٧ ــ ١١١).

(٢٥) عين المصدر ص ٩٨، طوكسيي ١٨٨٢ ص ١٥ ــ ٣٧، ج جرمان ١٩٥٧ ص ٢٠٥ ــ ٢٤٨.

(٢٦) يوسف كامل: معلمة، المصدر المذكور ج ٢ فصل ١ ص ١١٦ وما يليها، ر. موني (غرب افريقيا عند بطليموس)، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني للعلماء الافريقانيين للغرب: بساو ١٩٤٧.

(٢٧) مارين الصورى (احد مصادر بطليموس)، ذكر ذلك، انظر يوسف كامل ج ١ ١٩٢٦، ص ٧٣.

العصور القديمة عن افريقيا، أكثر مما أمدتنا بمعطيات حقيقية. على أن الاشارات التي تبدو من ذلك، إنما تهم الصحراء الليبية وسواحل الصحراء الغربية، أما افريقيا السوداء، فتبقى مجهولة غامضة على حدود المعرفة.

العصر الأول الاسلامي (حوالي ٦٢٢م ــ ١٠٥٠م)

كان الفتح العربي وتشكل الخلافة سببا لتوحيد المجالات السياسية الثقافية التي كانت قبل متفرقة (الامبراطورية الساسانية والامبراطورية البيزنطية) وافساح الأفق الجغرافي للانسان، وتحوير تيارات التبادل، والولوج الى أعماق شعوب لم تعرف من قبل. فلا غرابة اذن أن يكون لنا لأول مرة معلومات أدق فأدق عن العالم الأسود، الشرقي والغربي. ولكن بينما كانت مصر والمغرب الأقصى مندمجين في صلب الامبراطورية ثم الأمة الاسلامية، كان العالم الاسود مجرد جزء من منطقة النفوذ الاسلامي، ولذا كان الخبر عنه جزئيا، متقطعا أحيانا وخرافيا ولكنه مع ذلك خبر ثمين.

واذا استثنينا المصادر الوثائقية التي استمرت تقاليدها في مصر (برديات قبطية و يونانية في أفروديت، و برديات عربية في الفيوم وفي اشمونين (٢٨) وأخيرا في القرن العاشر الميلادي بعض النسخ من الوثائق الفاطمية، وهي خاصة بهذا البلد، فان معظم المصادر القصصية بالمعنى الاوسع أو الغير المباشر كانت متداولة في افريقيا كلها. والأمر واضح بالنسبة الى الكتابات الجغرافية التي ترى في عدة نصوص قانونية. ولذا يبدو من الملائم أن نقوم باحصاء حسب الاغراض، مسجلين مع ذلك التتابع الزمني، غير غاضين الطرف عن البنية الجهوية.

الأخبار التاريــخية

أ) ليس لدينا أي خبر تاريخي قبل القرن التاسع، ولكن الخبر الشفاهي قد تم اعداده، ومركزه بلا منازع مصر، فيما عدا الساحل الشرقي الافريقي المرتبط تجاريا مباشرة مع العراق الجنوبي، ومن جهة أخرى نظرا لصفته اللامركزية بالنسبة الى مصر، فان المغرب الاقصى ومن باب أولى السودان، حظيا بمكانة ضعيفة في التواريخ الكبرى (٢٩) (الطبري والدينواري والبلاذري في أنساب الاشراف) التي كانت مركزة على المشرق. و يشذ عن ذلك تاريخ يكاد يكون مجهولا حتى زمن قريب: تاريخ خليفة بن خياط (٣٠) ولم يكن هذا الكتاب مجرد أقدم كتاب عربي في الحوليات (توفي خليفة سنة ٢٤٠ هـ ولكنه احتفظ بمواد قديمة أغفلها الطبري) واشاراته حول فتح المغرب خاصة، لها أهمية كبرى. فبينما تركت روايات المغازي المدنية فتح مصر والمغرب جانبا، فاننا نرى منها الأحداث البارزة فقط و بصفة مقتضبة في كتاب فتوح البلدان «للبلاذري». وثمة قاص

(٢٨) أعمال قروهمان هي المعتمدة: برديات عربية في الخزانة المصرية ٥ مجلدات ١٩٣٤ ــ ١٩٥٩ «مختارات من البرديات العربية» براغ ١٩٥٥. وقد درس هـ. بل البرديات اليونانية والقبطية عن الرسوم الفاطمية: الشيال: مجموعات الوثائق الفاطمية القاهرة ١٩٥٨.

(٢٩) على أنه من المهم أن نشير الى أن أحد المدونين الاولين للتاريخ العربي، وهو عمر بن شابه، أبقى لنا أقدم شاهد عربي متعلق بالسود، وروى هذا النص الطبري، التاريخ مجلد ٧ ص ٦٠٩ ــ ٦١٤. وهذا الشاهد هو ثورة السودان في المدينة سنة ١٤٥هـ ٧٦٢م. مما يدل على حضور افريقي قوي في ذلك العصر. ولم يشر الى هذا النص ولم تتم ملاحظته حتى الآن.

(٣٠) نشره في النجف ١٩٦٥ العمري مع مقدمة لـ أ. س. العلي ٣٤٤ ص.

مصري كرس نفسه من أجلها في مؤلفه الذي كان أهم وثيقة عن القرن التاسع، ان كتاب «فتوح مصر والمغرب» (٣١) لابن عبد الحكم شبيه بالحوليات أو بكتب المغازي، وهو في الواقع مجموع تقاليد قانونية تتصل بالتاريخ (٣٢).

ب) وبعد سكوت قرن (٨٥٠ ــ ٩٥٠) (٣٣) ظهر مؤلف سياسي لا يبدو أنه استغل من جميع أبعاده: هو كتاب «ولاة مصر وقضاتها للكندي» (ت: ٩٦١) وهو كتاب تراجم لا تواريخ يومية ولكنه قد يشابهها ويحتوي لا على معطيات مدققة مباشرة عن مصر فحسب، بل هو بموجب ما كان لهذا البلد من صلات اولى مع المغرب يلوح مصدرا من اثبت المصادر لمعرفة المغرب في القرن الثامن الميلادي (٣٤).

والقرن العاشر الميلادي هو قرن الإسماعلية في الاسلام، الاسلام الافريقي أولا وبالذات وعليه فمن الممكن أن نتصفح في ذلك كتابات الشيعة مثل «سيرة الحاجب جعفر» ولا سيما «افتتاح الدعوة» للقاضي النعمان، وهو مؤلف أساسي لا يذكر الكثير من التواريخ، ولكنه غني بالأخبار عن بداية الحركة الفاطمية (٣٥).

ج) وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، ظهر الكتاب الشهير «تاريخ الرقيق» (ت: ١٠٢٨) وهو مصدر أساسي، وتعتبر النسخة الأصلية من هذا الكتاب مفقودة، ولكن أهم ما فيه نقله المؤرخون من بعده مثل ابن عذارى. قد عثر أخيرا العالم المغربي المنوني على جزء منه مخصص للعصر القديم الافريقي ونشره الكعبي في تونس عام ١٩٦٨. دون أن نشق بصحة نسبته الى الرقيق (٣٦).

في كل هذه التواريخ نرى المكان المخصص لافريقيا السوداء يضيق بل انه يتطلب أن يقوم المؤرخ بنقد دقيق لها، وبمقارنة مستمرة مع معطياتها، فيما بينها، ومع المعطيات التي تعود لأصول مختلفة أيضا. وليس بمقدور مؤرخ المغرب ومصر بصورة خاصة، أن يقفا عند هذا الحد، بل ان حصولهما على معرفة معمقة عن الشرق، هو ضرورة مطلقة. و يقتضي ان تكتمل ملازمته لهذه المصادر بملازمة معمقة للتواريخ الشرقية الكلاسيكية.

---

(٣١) نشره طري سنة ١٩٢٢ وترجمه جزئيا قاتو، وأعيد طبعه في القاهرة. نشره عامر سنة ١٩٦١ وعن التحفظات عند استعماله: (برنشفيك ابن عبد الحكم وفتوح افريقيا الشمالية: **حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر**٦، ١٩٤٢، ٤٧ دراسة نقدية لاذعة لا تنقص في نظرنا مساهمة هذا النص الأساسي بالنسبة الى مصر، والمفيد بالنسبة الى افريقيا والمهم بالنسبة الى العالم الأسود (اتصالات عقبة المحتملة مع فزان التي ينكرها برنشفيك في مقال آخر، الاتفاق الشهير المدعو بقت مع النوبيين).

(٣٢) لا شيء يستمد من جامع مؤخر عبيد الله بن صالح الذي اكتشفه ليفي بروفنسال ونوه به. انظر **ارابيكا** ١٩٥٤ ص ٣٥ ــ ٤٢ كمصدر جديد لفتح المغرب، و يساير ليفي بروفنسال ماني «جدول»، المصدر المذكور ص ٣٤ وتحليله للمصادر العربية المثابر الشامل لا يعني كثيرا بالنقد الدقيق.

(٣٣) باستثناء بعض التواريخ مجهولة المؤلف وهي مهمة: «كالامامة والسياسة» القاهرة ١٩٠٤ المنسوب لابن قتيبة والأخبار المجموعة مدريد ١٨٦٧.

(٣٤) نشره ر. جاست سنة ١٩١٢ وأعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٥٩.

(٣٥) نشره في تونس م. الدشراوي ونشر أيضا في بيروت.

(٣٦) يرفض محمد الطالبي رفضا باتا نسبته الى الرقيق (انظر **كراريس تونس** مجلد ١٩، ١٩١٧، ص ١٩ وما بعدها، دون أن يأتي بالحجة المقنعة، فالشك باق في شأنه.

مصادر جغرافية

المصادر الجغرافية هامة ووافرة منذ القرن التاسع الميلادي، فسواء كانت تنتمي الى نوع رسم الخرائط، كصورة الأرض التي أوضحها الخوارزمي، أو الى الجغرافية الادارية، أو الى نوع المسالك والممالك، أو الى مجرد فن الرحلة المروية كقصة قليلا أو كثيرا، فان الكتابات الجغرافية العربية تدل على رغبة لادراك المعمورة بأكملها. فلا غرابة اذا أن تكون افريقيا السوداء ممثلة فيها، وأن تكون هذه المصادر هي الأساسية لمعرفة هذا الجزء من افريقيا. وحسب المجموعة المستقرأة من قبل كوبل وماتفيف (٣٧) التي تنتهي عند القرن الثاني عشر الميلادي، تبين أن من بين ٤٠ مؤلفا ذكراها يوجد ٢١ جغرافيا، نصوصهم هي أكثر النصوص مادة. ولكنه لا يمكن استثمار هذه المصادر استثمارا حقيقيا مالم تقرن بعمل نقدي مسبق، فعلى مؤرخ افريقيا السوداء أن يحل الآثار الجغرافية العربية محلها في اطاره الثقافي الخاص. فالى أي حد مثلا يوافق وصف ما الواقع الحقيقي، والى أي حد لا يكون سوى خيال لأغراض رددها الأدب بمختلف مركباته؟ (٣٨) وما هو نصيب التراث الاغريقي والتراث الفارسي والتقاليد العربية الخاصة، وما هو حفظ التصفح كما هو نصيب المشاهدة الحسية. ولكن لابد، ومن جهة أخرى، أن يجري على هذه النصوص النقد من الداخل، أي بدءا من معرفة معمقة للتاريخ الافريقي، مع التحفظ من الاطلاع على هذا التاريخ من المصادر الجغرافية فقط، وتبقى غير مقبولة وجهة النظر الايديولوجية الضيقة لدى من يرفضون النظر الى المعمق في هذه المصادر بسبب كرههم للاسلام — (٣٩) وهو اتجاه في غير محله يفسر افريقانية منكمشة على نفسها — (٤٠).

جملة من الجغرافيين أفردوا نصيبا لافريقيا، من منتصف القرن التاسع الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي — بل كلهم تقريبا فعلوا ذلك — ولكن هناك قلة فحسب ساهمت بخبر طريف جدي مثل ابن خرداذبه واليعقوبي (ت ٨٩٧) والمسعودي (٩٦٥) وابن حوقل (٩٧٧) والبيروني (٤١). فاليعقوبي سافر الى مصر والمغرب فأبقى لنا منها لوحة خصبة، ففي «تاريخه» كما في «بلدانه» (٤٢) قد أمدنا بارشادات عدة عن العالم الأسود: عن أثيوبيا والسودان والنوبة والبجة والزنج. وفي السودان ذكر الزغاوى من كانم، ووصف مسكنهم، ثم هو يصف مملكة غانة العظيمة

(٣٧) كوبل وماتفيف ١٩٦٠ و ١٩٦٥، انظر أيضا ج كووك.

(٣٨) أ. ميكال ١٩٦٧ و ١٩٧٧.

(٣٩) انظر في هذا الشأن موقف ج. فروبنيوس النقدي الحرج وموقف ج. روش: مساهمة لتاريخ السنغاي، داكار ١٩٥٣، الذي يشهر خاصة بالتحريف الايديولوجي الوارد في التواريخ السودانية.

(٤٠) صحيح أن هذه النصوص تنطبق خاصة على الحزام السوداني، وإن الاقتصار على قراءة المصادر العربية وحدها دون الاستعانة بعلم الآثار، يمكن بالتالي أن يزيف الصورة. غير أنه ليس صحيحا أن نقول أن المؤلفين العرب كانت تعوزهم الموضوعية. أما أن ناخذ عليهم افتقار كتاباتهم الى التكامل والنظام فمعناه اغفال وجه نظر المؤرخ المحض للأخذ بوجهة نظر مؤرخ الأدب. وفي هذا الصدد، أصدر ن. ليفيتسيون أحكاما غير قاطعة. كذلك من المفيد الرجوع الى الدراسة التي قدمها أ. هربك الى المؤتمر الدولي الثاني عشر للعلوم التاريخ في فيينا أعمال المؤتمر، الصفحات ٣١١ وما يليها، أنظر أيضا ت. ليفينشكي «نظرات جديدة على التاريخ الافريقي»، محاضر مؤتمر دار السلام ١٩٧١، و «المصادر العربية الخارجية» لتاريخ افريقيا جنوبي الصحراء روكلو— وارسو— كراكو ١٩٦٩.

(٤١) انظر— مجلة كورييه التي تصدر عن اليونسكو— عدد الشهر السادس ١٩٧٤.

(٤٢) نشره ضمن «الخزانة الجغرافية العربية» ج ٧، دوقوجي، كمعظم الجغرافيين العرب ترجمة ج. فيت بعنوان «كتاب البلدان» مفيدة ولكنها غير مدققة.

و يعالج بصددها مشكل الذهب كما يتعرض لمشكل العبيد عن حديثه عن فزان. «ومسالك» (٤٣) ابن حوقل أكثر تفصيلا، فلقد زار المؤلف النوبة، واحتمالا السودان الغربي، وتكمن قيمة وصفه فيما يوفره من فكرة عن العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ويمدنا معظم الجغرافيين الآخرين في القرن العاشر الميلادي بمعلومات عن افريقيا السوداء: ابن الفقيه عن غانة وكوكي، والرحالة بزرتي بن شهريار عن الساحل الشرقي والزنج، والمهلبي الذي حافظ في مؤلفه على مقاطع من كتاب الاسواني. وفي النهاية ان «مروج الذهب» للمسعودي (٩٦٥ م) غنية بالمعلومات عن الزنوج والساحل الشرقي. ولفتت هذه النصوص من بعيد نظر الاخصائيين الافريقيين والمستشرقين، أمثال دولافوص وتشرولي (٤٤) وكرامرس (٤٥) وموني (٤٦).

المصادر القضائية والدينية

ان مؤلفات القانون ومراحل السير في الطبقات، من مدونة «سحنون» حتى مؤلفات الخوارج هي منجم للمعلومات عن المغرب، و بعضها صالح فيما يخص المنطقة الصحراوية الموصلة الى افريقيا السوداء، وحوليات الأئمة الرستميين بتاهرت لابن الصغير (بداية القرن العاشر الميلادي) (٤٧) تمكننا من القول بوجود روابط تجارية منذ نهاية القرن الثامن الميلادي بين الامارة الاباضية و بين ثاو، كما تمكننا بعد اكمالها بما جمع في المؤلفات الموالية مثل «السير» للوسياني، من افساح ذلك الى كل الحدود الصحراوية ولكن هذه المؤلفات في المناقب لا تعرض أخبارها الا تلميحا، ومن الواجب أن تطالع في اطار اشكالية موضوعة مسبقا وأن تقارن دائما بأنماط أخرى من المصادر. وهي لا تسمح في نظرنا ببناءات واستنتاجات جريئة من نوع ما يتقدم به لويكي.

العصر الاسلامي الثاني (١٠٥٠م ــ ١٤٥٠م)

تمتاز هذه الفترة الطويلة بتراثها و بنوعية ما تمدنا به من خبر و بتنوعه. على أن المصادر الوثائقية رغم ثانويتها بالنسبة للكتابات الأدبية ذات أهمية مثل: وثائق الجنيزة، ورسائل مرابطية وموحدية، عقود الوقف، فتاوى، وثائق ايطالية، أوراق رسمية مودعة في كبريات المجموعات.

و ينتج المؤرخون أعمالا من طراز أول، تكتسب قيمتها من مشاهدة الأحداث المعاصرة، وكذلك مما تنقله عن المصادر القديمة المفقودة، ثم انه فيما يخص افريقيا السوداء تبلغ معرفتنا الأوج عند ظهور وثائق افريقية جديدة متمثلة في المخطوطات الاثيوبية.

---

(٤٣) «كتاب المسالك والممالك» ب. ج. أ. ٢، كوبل وما تفيف ،٢، ص ٣٣ وما بعدها.

(٤٤) وثائق عربية لتاريخ اثيوبيا ١٩٣١.

(٤٥) جغرافيا: دائرة المعارف الاسلامية، ارتريا موصوفة في مصدر عربي من القرن العاشر، أعمال المؤتمر التاسع عشر للمستشرقين، رومة ١٩٣٨.

(٤٦) الباب الأول من «لوحته» احصاء منهجي للمصادر الجغرافية.

(٤٧) نشرت في أعمال المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين (الجزء الثالث) ١٩٠٨ ودرسها لويكي ١٩٧١، مجلد ١٣ ص ١١٩ وما بعدها.

المصادر الوثائقية

لها قيمة خاصة بالنسبة الى مصر والمغرب

أ) لدينا الآن وثائق الجنيزة الخاصة بالقاهرة، والتي تمتد على الفترة المدروسة كلها، على أن معظمها من العهد الفاطمي، وقليلا منها ينتمي الى مصر المماليك، وهذه الوثائق خليط من الأوراق العائلية ومن المراسلات التجارية فتعكس اهتمامات المجموعة اليهودية بمصر وغيرها من البلدان، كتبت هذه الوثائق باللغة العربية وبحروف عبرية بدون تأريخ، فلزم اتخاذ عديد من الاحتياطات الفنية عند استخدامها، ولكنها على حالها تلك تمثل ذخيرة من المعلومات لا تنضب (٤٨).

ويمكن أن يجمع في عين الصنف ــ صنف الوثائق الخاصة ــ رسوم رسم الوقف الكثيرة في عصر المماليك المحفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة (٤٩) وكذلك بدون شك فتاوى العهد الحفصي.

ب) وبالعكس فان الوثائق الاوربية الخاصة بمصر والمغرب والتي تعود الى القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر للميلاد، والموجودة في البندقية وجنوة وبيزا وبرشلونة، تقع في منزلة بين الحقل الخاص وبين الحقل العام. وهي محفوظة في مستودعات الوثائق العامة والخاصة، وهي تتألف من معاهدات وعقود ورسائل تهتم عادة بالعلاقات التجارية، وقد نشر اماري وماس لتري (٥٠) البعض منها فحسب. وهي توفر في مجموعها مادة وثائقية من شأنها أن توسع مجال البحث في حقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

ج) وليس بين أيدينا وثائق دولة بالمعنى الكامل فيما يخص هذه الفترة، بل هي أوراق رسمية مرابطية وموحدية حفظت ونشرت، فألقت أضواء جديدة على المذهبية التي أفرزتها هاتان الحركتان العظيمتان وعلى منظماتها (٥١). ويقول العروي في هذا الصدد: «بدأنا نشاهد الموحدية من الداخل ولم يعد من المتعذر أن يكتب تاريخ ديني سياسي لهذ الاسرة» (٥٢) وفيما بعد نجد في مصر موسوعات تاريخية شرعية انتحلت عددا من الوثائق الرسمية، وما تمدنا به من وصف مفصل للبنيات المالية والتنظيمية في مصر مأتاه عامة من المطالعة المسبقة للوثائق العامة. في هذا النوع الوثائقي والاخباري في آن واحد يمكن أن نضم «قوانين الدواوين» لماتي (العصر الأيوبي) و«المنهاج» للمخزومي، وصبح الأعشى للقلقشندي (القرن الرابع عشر الميلادي)، وعديد من مؤلفات

(٤٨) إن أعمال كويتين معتمدة: مقال «جنيزة» في دائرة المعارف الاسلامية ١، ٢: جنيزة القاهرة كمصدر للتاريخ الاجتماعي بالبحر الابيض المتوسط، مجلة الجمعية الشرقية الاميركية ١٩٦٠. س: د. وقد شرع كويتين في نشر دراسة مهمة جدا عن مصادر الجنيزة، جمعية البحر الابيض المتوسط: المجموعات اليهودية بالعالم العربي كما تصورها وثائق الجنيزة القاهرية مجلد ١ أسس اقتصادية بركلاى لوس انجلاس ١٩٦٧، ص ١. شاكد: محاولة للمصادر والمراجع لوثائق الجنيزة باريس، لاهاي ١٩٦٤، هـ. رابي ١٩٧٢ ص ١، ٣، يوجد كثير من هذه الوثائق في المتحف البريطاني وفي كمبردج.

(٤٩) رابي ١٩٧٢ ص ٦ ــ ٨ و ٢٠٠.

(٥٠) اماري شهادة عربية بالمجلة الوثائقية الفلورنسية، فلورنسا ١٨٦٣، ماس لترى: معاهدات صلح وتجارة ووثائق مختلفة عن علاقات النصارى بغرب افريقيا الشمالية في العصر الوسيط باريس ١٨٦٦ ملحق ١٨٧٢.

(٥١) رسائل رسمية مرابطية نشرها ح. مؤنس وأ. م مكي، سبع وثلاثون رسالة رسمية موحدية نشرها وترجمها ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٤١، (البيدق: وثائق غير منشورة عن التاريخ الموحدي نشر وترجمة فرنسية بقلم ليفي بروفنسال باريس ١٩٢٨.

(٥٢) العروي ١٩٧٠، ص ١٦٢.

المقريزي ومنها «خططه» العظيمة القدر (القرن الخامس عشر الميلادي) (٥٣). والمقريزي مصدر ثمين ليس بالنسبة الى تاريخ مصر الاسلامية كله وحسب، بل كذلك فيما يخص النوبة والسودان واثيوبيا (٥٤).

المصادر القصصية

أ) **الأخبار:** بعد قرن من الصمت ــ القرن الثاني عشر الميلادي، حيث لا نجد أكثر من كتاب «الاستبصار» المجهول المؤلف ومصنفات صغيرة ــ أمدنا القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بعدد من الأخبار الثرية من كل الوجوه، من الكامل لابن الأثير الى كتاب العبر لابن خلدون مرورا بابن عذاري والنويري، وابن أبي ذرع والذهبي. كان هؤلاء المؤلفون شهودا لزمانهم كما قاموا أيضا بمجهود قصد التأليف فيما يخص القرون الخالية. فالنويري هام بالنسبة للمماليك، كما هو هام بالنسبة لفتوح المغرب (٥٥). وابن عذاري هام بالنسبة للتاريخ الموحدي، كما هو كذلك بالنسبة لكل الماضي الافريقي، ابن خلدون، أخيرا، هو الحجة القصوى في مادة تاريخ افريقيا.

ب) **الجغرافيا:** كانت مصنفات الجغرافيا خصبة طيلة هذه القرون الأربعة وقيمتها تتفاوت في حد ذاتها كما تتفاوت حسب المنطقة الموصوفة. ومن بين مجموعة المؤلفين يمتاز جغرافيان بسعة مشاهدتها وجودتها: البكري: (١٠٦٨م) في القرن الحادي عشر، والعمري (١٣٤٢م) في القرن الرابع عشر. واذا كان عمل شهير كعمل الادريسي محل نقاش ومناقشا بالفعل، ففي الامكان أن نحصل على أخبار طريفة من خلال مؤلفات جغرافية أقل شهرة، كمؤلفات ابن سعيد المفيدة جدا فيما يخص السودان (٥٦). وتمثل «المسالك والممالك» (٥٧) للبكري ذروة معرفتنا الجغرافية عن المغرب والسودان والبكري نفسه لم يقم بأسفار الى هذه الجهات، ولكنه استغل استغلالا ذكيا ملاحظات الوراق ــ وقد ضاعت اليوم ــ كما استخدم أخبار التجار والرحالة.

وينقل الادريسي (١١٥٤م) في كتابه «كتاب روجر» ــ وهو بصدد الطبع بايطاليا ــ الكثير عن سابقيه، ووصفه مضطرب فيما يخص اثيوبيا، ولكنه أكثر دقة بالنسبة الى افريقيا الغربية، على أننا نجد فيه، هنا وهناك ملاحظات طريفة أحيانا وثمينة.

«وجغرافيا» ابن سعيد الغرناطي (قبل ١٢٨١م) تنقل عن الادريسي في وصفه لاثيوبيا ولكننا نعثر فيه على معلومات جديدة. ولكن الأكثر أهمية في وصفه للسودان وقد استخدم فيه كثيرا

---

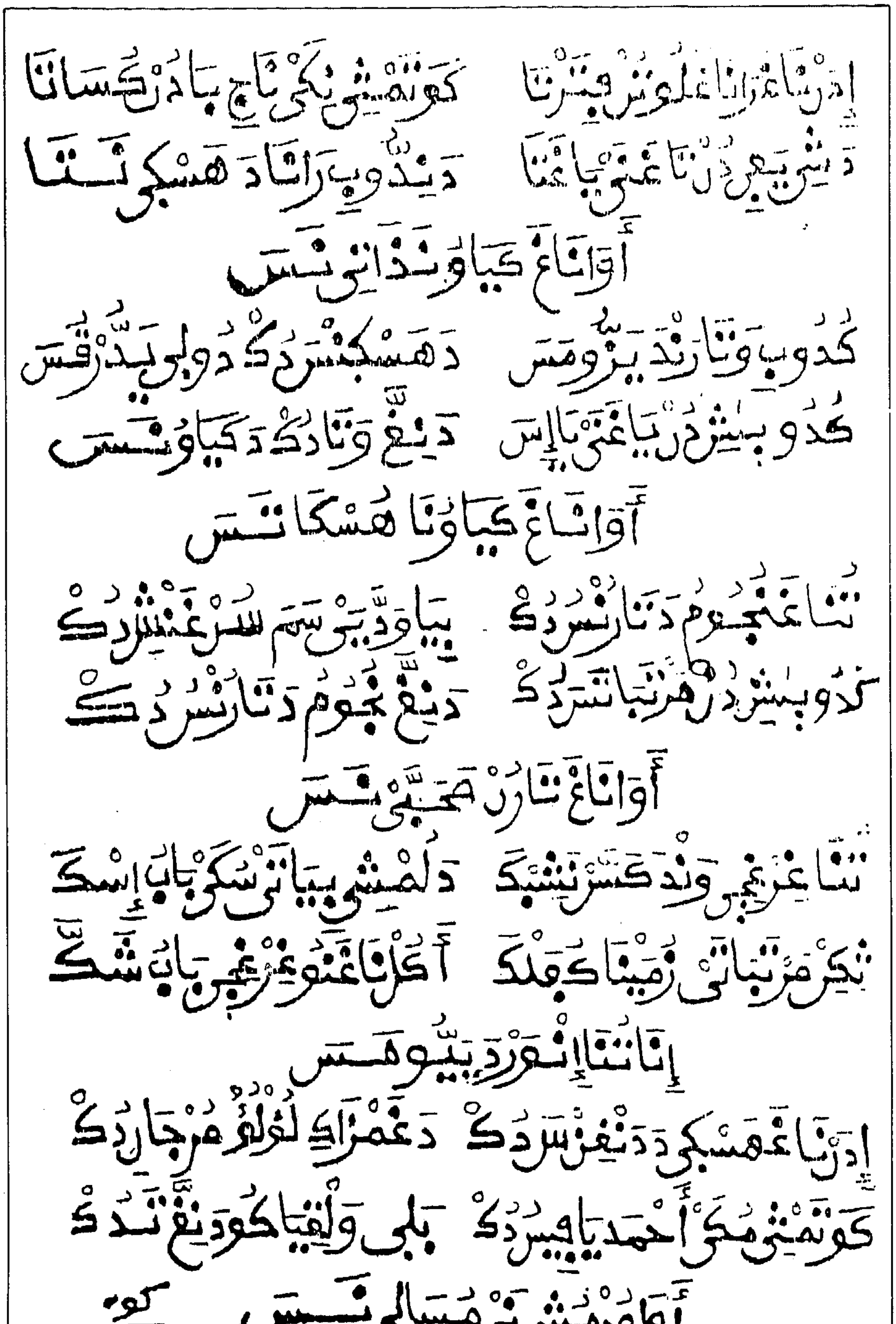
(٥٣) رابي ١٩٧٢، ص ١٠ ــ ٢٠.

(٥٤) مؤلف كتاب الالمام يمدنا بقائمة الممالك الاسلامية باثيوبيا مستمدة من العمري نشر منه اقتباس في لايدن سنة ١٧٩٠ بعنوان «تاريخ الممالك الاسلامية بالحبشة».

(٥٥) ومازال هذا الجزء مخطوطا بالمكتبة الوطنية بالقاهرة. ونشير الى أن ابن شداد الذي كتب تاريخا للقيروان قد ضاع اليوم، يعتبر مصدرا من المصادر الرئيسية لابن الاثير وللنويري. ونشر حديثا «كتاب العيون» المجهول المؤلف، نشره بدمشق م. السعيدي فيمدنا بارشادات مفيدة عن المغرب.

(٥٦) عن قائمة الجغرافيين المستقراة انظر كوبل وما تفيف مضافا الى ذلك الباب الأول من موني ١٩٦١، وتقييد لويكي ١٩٧١ ومقدمة أ. ميكال لرسالة دكتوراه ١٩٦٧.

(٥٧) نشره وترجمه دوسلان بعنوان «وصف افريقيا الشمالية» باريس ١٩١١.



• ظهر الورقة رقم ١٠٣ من المخطوطة العربية رقم ٢٢٩١ المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس «رحلة ابن بطوطة ــ الجزء الثاني».
والشعر هنا مكتوب بالحروف العربية ولكن بلغة مالي، حيث الاشارة اليها. (صورة عن المكتبة الوطنية بباريس).

كتابات رحالة من القرن الثاني عشر الميلادي هو ابن فاطمة. وأهم مؤلف في القرن الرابع عشر الميلادي عن افريقيا السوداء هو تأليف العمري، «مسالك الأبصار» (٥٨) وهو شهادة ملاحظ قدير، يعتبر مصدرنا الرئيسي لدراسة مملكة مالي في تنظيمها الداخلي كما في علاقاتها مع مصر والبلاد الاسلامية. وهو أيضا أغنى عرض عربي للممالك الاسلامية في الحبشة في القرن الرابع عشر، وعلاوة على أهمية وصفه يضع كتاب العمري قضية ظهور الدولة في العالم الأسود، وقضية دخوله في الاسلام، كما كان البكري قبله بثلاثة قرون، قد عرض قضية تجارة الذهب الكبرى، و بينما أشار هذا الأخير الى متانة الروابط بين المغرب والسودان، يشير الأول الى تحول هذه الروابط نحو مصر.

ويجب أن يكمل مؤلف العمري بمؤلف مراقب مشاهد مباشر للواقع السوداني والمغربي، وهو ابن بطوطة.

على أن الجغرافيين الأقل أهمية، ومصنفي الرحلات متعددون، وعلى كل فمن الواجب أن يتم الاطلاع عليهم. ونذكر منهم الزهري (القرن ١٢م) و ياقوت الدمشقي (القرن ١٤م) والجغرافيا المنعوتة «بالمظفرية» وابن جبير و ياقوت والبغدادي والعبدري والتجاني والبلوي والحميري.

ج) مصادر ذات روح دينية وأدبية: ان المصادر الدينية ترد من آفاق متنوعة، ونذكر منها كتب الطبقات والسير السنية، وسير الخوارج والطرفية وحتى النصرانية (من المجموعة القبطية) ونذكر أيضا مخطوطات الكنائس الاثيوبية وقد نقلت في هوامشها وثائق رسمية، وتبدو هذه الكتابات مفيدة ليس لمعرفة الاحساس الديني والعالم الديني فحسب، بل وكذلك لمعرفة تطور العالم الاجتماعي. فكتاب «الرياض» للمالكي مثلا أو كتاب المدارك لعياض، ثريان بما يتخللهما من ملاحظات اجتماعية. ومصادر الخوارج كما هو معلوم أساسية بالنسبة الى كامل المنطقة الصحراوية في المغرب، أي منطقة الاتصال بالسود. ومن أهم ممثليها الوسياني والدارجيني وأبوزكريا وكاتب متأخر كالشماخي. وأخيرا فإن جملة المخطوطات باللغة العربية أو القبطية التي أنتجتها الكنيسة المحلية في مصر الوسيطية تنير العلاقات بين الكنائس والعلاقات بين طبقات القساوسة والدولة (٥٩). وأما المصادر الأدبية بأتم معنى الكلمة، فكثيرة في هذه الفترة، وهي تكاد لا تعني بسوى المغرب ومصر. على أن لرسائل القاضي الفاضل مكانة خاصة في هذا النوع، كذلك الأمر خاصة بالنسبة لموسوعة الصفدي العظمى: الوافي بالوفيات.

وهكذا في هذا العصر الثاني الاسلامي يبدو أن وثائقنا غزيرة، متنوعة وذات نوعية جيدة، و بصورة عامة، خلافا لما كان عليه الأمر في العصر السابق، ففي افريقيا الاسلامية تنير كتاباتنا سير المنظمات وحركة التاريخ العميقة. وهي لا تكتفي بعد بمجرد الرسم للاطار السياسي. وفي افريقيا السوداء فان القرن الرابع عشر الميلادي يشكل ذروة معرفتنا، حتى تمكننا الوثائق الاوربية والأهلية من التعمق في هذه المعرفة، ومن افساح الميدان لمناطق بقيت الى الآن في حلكة ظلام لا ينقشع.

---

(٥٨) ترجمه جزئيا قودفروا ديمومبيني بعنوان «افريقيا ما عدا مصر» باريس ١٩٢٧.

(٥٩) مؤلفات شرقية لآباء الكنسية. مجموعة أساسية، ومن المؤلفات التي تهمنا نذكر مؤلفات سيفار الاسكندري (القرن الأول م) وابن مفرج (القرن الحادي عشر م) فيما يخص اثيوبيا، كتاب سير الآباء البطارقة، انظر أيضا ميشال السوري نشره وترجمه شابو، ٣ مجلدات ١٨٩٩ ــ ١٩١٠.

النتيجة

يبقى من الخطأ أن يظن أن حالة المصادر المكتوبة في القارة الافريقية قبل القرن الخامس عشر كانت قليلة قلة تبعث على اليأس، ولكن الواقع ان ما توفر منها لافريقيا بمجمله أقل مما كان لاوربا أو آسيا. واذا ما كان قسم كبير من القارة تعوزه تمام المصادر المكتوبة، فان معرفتنا للتاريخ بالنسبة لباقي القارة ممكنة، وهي تعتمد ـ بالنسبة الى مصر ـ على مجموعة وثائقية شديدة الغنى. أي ان استغلال هذه النصوص استغلالا دقيقا حكيما، اذا انعدمت اكتشافات جديدة غير محتملة، من شأنه أن يزيد امدادنا بالكثير، فمن الضروري اذن أن يشرع في عمل كامل لنقد النصوص، واعادة نشرها والمقارنة بينها وترجمتها، وهذا عمل قد شرع فيه بعض الرواد و ينبغي أن يستمر.

ومن جهة أخرى، اذا ما حررت مصادرنا في اطار ثقافات «عالمية» بؤرتها خارج افريقيا ـ ثقافات «كلاسيكية»، «ثقافات اسلامية» ـ فان لها مزية انها في معظمها مشتركة، وفي الامكان أن تقرأ حسب نظرة افريقية مع التحفظ الحتمي ازاء كل فكرة مسبقة مذهبية، و يصح ذلك خاصة بالنسبة الى المصادر العربية وهي القاعدة الأساسية لمعرفتنا. وكونها خارجية نسبيا، أو بصفة مطلقة بالنسبة الى موضوعها، فان هذا لا ينقص شيئا من قيمتها الا فيما توحيه المسافة والبعد.

واذا ما وجب الاعتراف بالفروق الاجتماعية الثقافية، فان هذه المصادر تبرز قيمة بعض التضامن في الاتصال الافريقي، لم يكن علماء الاسلاميات والافريقانيون حتى ذلك ليشعروا به، ولتكون لهم حساسية به.

الفصل السادس

المصادر المكتوبة بدءا من القرن الخامس عشر

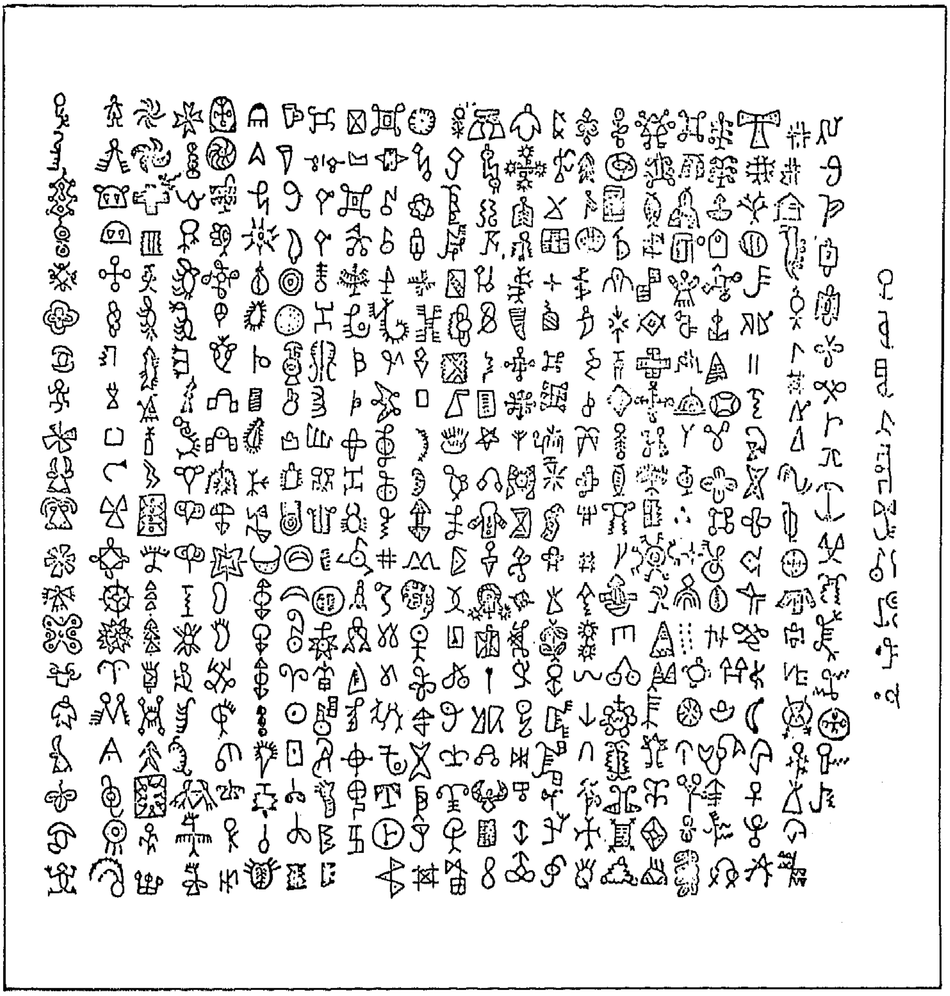
أ. هربك

على توازي التغيرات العميقة التي حدثت في العالم وبخاصة في افريقيا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، نلاحظ تغيرات في طبيعة المواد المكتوبة الصالحة كمصادر لتاريخ افريقيا ومأتاها وحجمها، وبالمقارنة مع الفترة السابقة يمكن تمييزعدد من الاتجاهات الجديدة في انتاج هذه المواد، بعضها ينتمي الى القارة جمعاء، والبعض ينتمي فقط الى بعض أجزاء افريقيا في جنوبي الصحراء.

يبدو الآن بالارتباط مع التزايد المستمر للمصادر الروائية من كل نوع (روايات الرحالة، أوصاف، تواريخ يومية الخ) أن ثمة عددا كبيرا من المواد الأولية الجديدة كالمراسلات والتقارير الرسمية، والتقارير الصادرة عن التجار والمبشرين، عقود وسائر الوثائق المحفوظة، لم يرجع إليها قبلا الا من حين الى آخر. وتكاثر هذه المواد المتزايد من شأنه أن يعين المؤرخ اعانة ناجعة، ولكن في الوقت نفسه يكون من العسير أكثر فأكثر، أن يحصل الانسان على نظرة عامة.

ثم اننا نلاحظ نقصا واضحا في حجم المصادر الروائية العربية فيما يخص افريقيا جنوبي الصحراء. على أن هذه الفترة بالعكس، هي التي شاهدت ازدهار التأليف التاريخي المكتوب بالعربية من قبل الأهالي. وبدءا من هذه الفترة فحسب، أصبح بمقدورنا أن نستمع الى أصوات أفارقة أصيلين تتحدث عن تاريخها الخاص. والنماذج الأولى وأشهرها من هذا التدوين التاريخي المحلي أتت من المنطقة السودانية ومن الساحل الشرقي الافريقي، وأما في سائر أقسام افريقيا المدارية فإن هذا التطور لم يطرأ الا متأخرا.

وخلال القرنين الاخيرين شرع الأفارقة أيضا في التحرير بلغاتهم الخاصة، مستخدمين الأبجدية



● نسخة طبق الاصل من مخطوط باموم (تصوير ايفان).

العربية (مثلا بالنسبة الى السواحلي والهوسا والفلفلد والكانمبو والديسولا والملغاشية) ثم الأبجدية اللاتينية، وتوجد أيضا مواد تاريخية (وغيرها) في الكتابات الأصلية الافريقية المحضة أمثال أبجديات باموم وفاي.

والنزعة الثالثة، وهي تابعة للسابقة، تتمثل في ظهور أدب كتابي بالانكليزية (و بقدر أقل باللغات الاوربية الأخرى) حرره أفارقة، عبيد محررون أو أحفادهم في أميركا، وهم مدركون لماضيهم الافريقي.

وفي النهاية ان المصادر العربية الخارجية تترك محلها تدريجيا لروايات في لغات أوربية مختلفة، و يتكاثر عدد الآثار من هذا النوع تدريجيا، فصارت الكتب التي تشير الى المراجع الكتابية وحدها تعد بالعشرات، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومن المؤكد أنه رغم هذه التغيرات فثمة استمرار في التدوين التاريخي تم في بعض المناطق من افريقيا، ولاسيا في مصر والمغرب واثيوبيا. وفي هذه البلدان واصل المؤرخون ومؤلفوا التراجم تقليدا ورثوه من الفترة السابقة، واذا ما لوحظ في مصر ــ و بكيفية أقل في اثيوبيا ــ بعض الهبوط الكيفي وحتى الكمي بالنسبة الى هذه المؤلفات فالمغرب ولا سيما المغرب الأقصى، قد استمر في انتاج أدباء أكفاء كانت مساهماتهم في تأريخ بلادهم عظيمة.

و يلوح تطور الوضع أيضا في المناطق الجغرافية التي تغطيها المصادر المكتوبة، فبينما كانت حدود الساحل السوداني وشريط ضيق من الساحل الشرقي الافريقي، هي نهاية المعرفة الجغرافية و بالتالي التاريخية، قبل القرن السادس عشر، فان العصور الجديدة سوف تضم شيئا فشيئا مناطق جديدة كانت تجهل حتى ذلك الوقت مصادر من هذا النوع. و بالطبع فإن عدد هذه المصادر وقيمتها يختلفان اختلافا كبيرا من جهة الى أخرى ومن قرن الى آخر، وصار تصنيف هذه الوثائق حسب اللغة والطابع والهدف والأصل أشد تشعبا وعسرا.

و بصورة عامة سينمو الانتشار من الساحل الى داخل البلد، ولكن هذه الحركة كانت بطيئة شيئا ما ولم تتسارع بكيفية محسوسة الا منذ نهاية القرن الثامن عشر. وقد وصف البرتغاليون الساحل الافريقي وما اتصل به مباشرة من البلاد منذ القرن الخامس عشر. وخلال القرون التالية أخذت المصادر المكتوبة، في عدة لغات تدلي بمعلومات أكثر عددا وأشد دقة عن سكان الجهات الساحلية. وتوغل الاوربيون داخل البلاد في عدد قليل من الجهات فقط (في السنغال وقمبيا وفي دلتا النيجر والبنين وفي مملكة الكنغو وعلى طول الزمبار حتى امبراطورية مونومتابا) فأضافوا هذه الجهات الى مجال المصادر المكتوبة.

وفي الفترة نفسها صارت بعض الأجزاء من افريقيا معروفة ــ ولم تكد تكتشف قبل ــ ومن ذلك الساحل الجنوبي الغربي ومدغشقر.

وكانت المصادر الكتابية العربية تغطي منطقة أفسح، وأصبحت المدرسة التاريخية السودانية كلما حصلت على معلومات عن جهات مجهولة في السابق، تمتد الى بلدان أخرى و بخاصة نحو الجنوب، حتى أصبح من الممكن أن تعتبر في القرن التاسع عشر ــ كل المنطقة الكائنة بين الصحراء والغابة وفي بعض النقاط حتى الساحل، مشمولة بالمصادر المكتوبة المحلية، ولكن مناطق فسيحة من داخل القارة انتظرت حتى القرن التاسع عشر كي يظهر في شأنها أول التواريخ المرتقبة.

وعلى الجهات الساحلية، نلاحظ فروقا كبيرة في طبيعية الخبر التاريخي، و بصورة عامة تتوفر في الساحل الاطلسي الوثائق المكتوبة أكثر مما تتوفر في الساحل الشرقي، وما يتوفر من المواد فيما يخص الكنغو القديم وصنغان والساحل بين رأس بلماس ودلتا النيجر أكثر بكثير مما يوجد منها في شأن ليبيريا والكامرون والقابون أو ناميبيا مثلا وتتغير الحال أيضا بحسب الأزمنة، فالساحل الشرقي والبنين أو اثيوبيا تمدنا بمعلومات مكتوبة في القرنين السادس عشر والسابع عشر أكثر منها في الثامن عشر، وهي متوفرة في الصحراء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر أكثر منها في النصف الثاني.

ونظرا لعدم الانتظار في توزيع المواد بحسب المكان والزمان والطابع، وكذلك بحسب أصلها ولغتها، فإنه لمن المفضل أن ينظر فيها تبعا لمعايير متنوعة عوض التقيد بطريقة واحدة، وهكذا سنقدمها أحيانا حسب الجهات الجغرافية وأحيانا حسب أصلها وطابعها الخاص.

افريقيا الشمالية واثيوبيا

أ ـــ ان المواد الصالحة لافريقيا الشمالية العربية اللسان تعرضت هي وجهات أخرى من القارة، لتغيرات عميقة بالنسبة الى الفترة السابقة. ولم تؤثر هذه التغيرات كثيرا في اليوميات التاريخية المحلية التي استمرت كما في الماضي تسجل الأحداث الرئيسية حسب الطريقة التقليدية. ولم توجد من بين مؤرخي اليوميات أو أصحاب المنتخبات في هذه الفترة شخصية فذه تشابه شخصية كبار المؤرخين في القرون الوسطى، ولم يقم من جاء بعد ابن خلدون باتباع ما كان قد نصح به من طريقة نقدية للمؤرخ. ولم يظهر التدوين التاريخي العربي العصري الا في القرن العشرين.

وأما التغيرات فهي تمس خاصة ضربين من المصادر: وثائق الخزانات المتجمعة من أصول مختلفة، وكتابات الاوربيين. اذ لم تظهر المواد الأولية بالعربية والتركية بكثرة الا انطلاقا من بداية القرن السادس عشر. وخزائن الوثائق العثمانية تضاهي أغنى الخزائن الاوربية من حيث حجمها ومن حيث قسمتها، ولكنها في تلك الفترة لم يستخدمها مؤرخو هذا الجزء من افريقيا الا قليلا، ولم يستغلوها بكثرة. والى هذه الفترة أيضا ترجع الوثائق الثانوية للبلدان التي كانت تحت الخلافة العثمانية (مصر، طرابلس، تونس، الجزائر) (١)، وأما المغرب الاقصى فهو نسيج وحده، فقد حافظ دائما على استقلاله، وستحوي خزائنه مواد تاريخية ثرية (٢). وأهم الوثائق محفوظات حكومية وادارية وقضائية، والمواد التي تعالج التجارة والصناعة والحياة الاجتماعية والثقافية أقل عددا على الأقل قبل القرن التاسع عشر. وهذا يرجع جزئيا لانعدام الوثائق الخاصة التي تمدنا بكثرة بالمعلومات الثمينة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في أوربا. و بالنسبة الى بعض البلدان و بعض الفترات أصبح من الممكن سد الثغرة: فما يمكن وجوده من المواد الخاصة بالمغرب الأقصى في عدد من البلدان الاوربية، قد تم تجميعه ونشره في المؤلف الفخم الذي صنفه هنري دي كستري (٣). على أن

(١) ج. دني ١٩٣٠، ر. منطران ١٩٦٥، ر. لوطرنو ١٩٥٤.

(٢) أ. مكناسي ١٩٥٣، ج. عياش ١٩٦١.

(٣) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب الاقصى ٢٤ مجلدا. باريس ١٩٠٥ ـــ ١٩٥١.

الحصول على مجموعات مماثلة أو على الأقل على سجلات وثائق تابعة لبلدان افريقيا الشمالية الأخرى يشكل جزءا من مهمات عاجلة جدا لا بد من انجازها في المستقبل القريب.

واذا ما تصفحنا المصادر الروائية، نلاحظ انتقاصا مستمرا كما وكيفا في الكتابات التاريخية عن افريقيا الشمالية، باستثناء المغرب الأقصى وحده، حيث واصلت مدارس المؤرخين اليوميين التقليديين في توفير تواريخ مفصلة للاسرتين الشريفتين حتى عهدنا هذا (٤). ويمكننا أن نذكر مثلا المعمول للمختار السوسي المتوفي مؤخرا، والذي كتب في ٢٠ مجلدا، وتاريخ تطوان لداود، وهو بصدد النشر.

ومن بين سلسلة المؤرخين المتصلة لابد أن نذكر بعض أسماء أشهر المشاهير فلقد وجدت أسرة السعديين مؤرخا جليلا هو الافراني (توفي حوالي ١٧٣٨) (٥) فشمل السنوات ١٥١١ — ١٦٧٠ وحظيت الفترة التالية (١٦٣١ — ١٨١٢) بوصف مفصل من قبل أكبر مؤرخ مغربي منذ القرون الوسطى، الزياني (ت. ١٨٣٣) (٦)، بينما حرر الناصري السلاوي (ت ١٨٩٧) تاريخا عاملا لبلاده، عالج بزيادة من التفصيل القرن التاسع عشر وجمع بين الطريقة التقليدية والطريقة العصرية مستخدما أيضا وثائق الخزائن. كما ألف كتابا في الجغرافية يمدنا بالكثير من المواد على الحياة الاجتماعية والاقتصادية (٧). أضف الى هذه المؤلفات التاريخية المحضة روايات الرحالة، وكانوا في الغالب من الحجاج الذين لم يصفوا المغرب الأقصى فحسب، بل أيضا سائر البلدان العربية حتى جزيرة العرب. وأحسن الكتابات من هذا النوع بلا شك كتب العياشي المتوفي (سنة ١٦٧٩) وأحمد الدرعي من تامكروت على حدود الصحراء (ت ١٧٣٨) (٨)، ومن النصوص المفيدة نذكر أيضا تقرير التامكروتي، سفير المغرب الى البلاط العثماني بتاريخ ١٥٨٩ — ١٥٩١ (٩) ورحلة ابن عثمان سفير المغرب الى بلاط مدريد.

أما البلدان التي بين المغرب الأقصى ومصر، فلم تكن التواريخ المحلية فيها بعين الغزارة ولا مماثلة في القيمة. ففي الجزائر نجد تواريخ مجهولة المؤلف بالعربية والتركية عن أرو وخيرالدين بربروس (١٠)، وتاريخ حربي حتى سنة ١٧٧٥ بقلم محمد التلمساني (١١).

ويمكن أن نتتبع خطى التاريخ التونسي بفضل سلسلة من الحوليات ابتداء من الزركشي (حتى سنة ١٥٢٥ (١٢) حتى مقديش الصفاقسي) (ت ١٨١٨) (١٣). وكتب محمد غلبون (١٧٣٩) (١٤) تاريخ مدينة طرابلس، وتستحق يوميات الاباضية وتراجمهم، كمؤلفات الشماخي

(٤) أ. ليفي بروفنسال ١٩٢٢، المختار السوسي المعسول: ٢٠ مجلدا منشورا، داود تاريخ تطوان.
(٥) نشره وترجمه أ. هوداس، باريس ١٨٨٩.
(٦) نشره وترجمه أ. هوداس، باريس ١٨٨٦.
(٧) نشر بالقاهرة سنة ١٨٩٤ في ٤ مجلدات. عدة ترجمات جزئية الى الفرنسية والاسبانية.
(٨) ترجمها كليهاس. بربروجر، باريس ١٨٤٦.
(٩) ترجمه هـ. دي كستري، باريس ١٩٢٩.
(١٠) نشره نورالدين، الجزائر ١٩٣٤.
(١١) ترجمها أ. روسو، الجزائر ١٨٤١.
(١٢) ترجمه. أ. بانيا، قسنطينة بدون تاريخ.
(١٣) نشره بتونس ١٩٠٣.
(١٤) نشره اطوررسي، بولونيا ١٩٣٦، توجد أيضا يوميات تركية عن طرابلس.

(ت ١٥٢٤) عناية خاصة، اذ هي تحتوي على معلومات ثمينة عن الصحراء والسودان (١٥).

والتراجم أو معاجم التراجم العامة أو الخاصة اقتصرت غالبا على شخصيات لامعة (أدباء، قضاة، أمراء، متصوفين، كتاب الخ)، وكثيرا ما ضمت الى مواد التراجم أخبارا تاريخية وأنارت عديد الجوانب من التاريخ الثقافي الاجتماعي. وكانت آثار هذه الصنف غزيرة في كل البلدان العربية وخاصة في المغرب الأقصى، وبعض القصائد الشعرية نفسها في اللهجات المحلية، من الممكن أن تكون أحيانا مصادر تاريخية، مثلا اهاجي الشاعر المصري السجزي (ت ١٧١٩) التي لم يصف فيها أهم أحداث عهده (١٦).

وفيما يخص تاريخ مصر العثمانية يجب الرجوع الى يوميات لم تنشر في معظمها ولم تستغل. فلم تنتج البلاد في هذه الفترة سوى مؤرخين عظيمين أحدهما في بداية الهيمنة العثمانية والثاني عند نهايتها: سجل ابن اياس (ت ١٥٢٤) يوما يوما تاريخ زمنه موفرا كثرة من التفاصيل قلما توجد عنا غيره من الكتاب (١٧)، والجبرتي (ت ١٨٢٢) هو مؤرخ الأيام الأخيرة من السيطرة التركية والاحتلال النابليوني وصعود نجم محمد علي، فيضم فترة حاسمة من التاريخ المصري (١٨)، ولو أنه تم نشر الكثير من اليوميات ومن المصنفات التاريخية من كل البلدان العربية، فمازال عدد كبير منها مخطوطا موزعا في عدد كبير من الخزانات في بلدانها الأصلية أو خارجها، يترقب من ينشره و يستغله.

وازدادت أهمية روايات الرحالة الاوربيين في ذلك العصر، ورغم كون أصحابها لهم رأي مسبق مناوئ للاسلام الا قليلا من الادلاء بتقارير موضوعية حقا، فاننا نجد فيها كمية من التأملات والملاحظات لا توجد فيما عداها وذلك أن الكتاب المحليين كانوا يعتبرون الكثير من مظاهر الحياة عاديا غير جدير بالاهتمام. وجمهور الاوربيين من رحالة وسفراء وقناصل وتجار وحتى الاسرى (ومنهم ميقال سرفانتس) — الذين أبقوا لنا ذكرياتهم وأوصافا تتفاوت تفصيلا لبلدان المغرب التي زاروها: هذا الجمهور من الاوربيين، لا نهاية له وبخاصة بالنسبة الى مصر التي كانت تجلب زوارا عديدين لما كان لها من أهمية تجارية ولقربها من الأرض المقدسة (١٩). وكتاب «وصف مصر» الضخم في ٢٤ مجلدا (باريس ١٨٢١ — ١٨٢٤) الذي حققه أفراد البعثة العلمية المصاحبة لغزوة نابليون بونابرت له أهمية خاصة، فهو مصدر لا ينضب من المعلومات من كل الأنواع عن مصر قبيل العصر الحديث.

ومصادر تاريخ افريقيا الشمالية في القرن التاسع عشر لها من الغزارة ما لها بالنسبة الى أي بلد أوربي، وتراجعت التواريخ المحلية وروايات السياح الى مستوى ثانوي آمام مصادر أكثر موضوعية، مثل خزائن الوثائق واحصائيات وصحف وسائر الشهود المباشرين، وغيرهم مما يمكن المؤرخين من استعمال الطرق الدراسية الدقيقة المستعملة في تأريخ أوربا.

وثمة منطقتان لغتها هي العربية، وهما موريتانيا والسودان الشرقي، يجب أن تعالج معالجة

(١٥) ت. لوكي ١٩٦١.

(١٦) استغلها الجبرتي.

(١٧) ج. فيات: يوميات مواطن بالقاهرة.

(١٨) عدة طبعات، ترجمة لا يعتمد عليها لشفيق منصور، القاهرة ١٨٨٦ — ١٨٩٦.

(١٩) ج. م. كرى القاهرة ١٩٣٢.

متميزة، اذ لها وضع خاص على حدود العالم العربي، و يغلب على مصادر هذين البلدين التراجم والانساب والشعر أكثر من الحوليات التاريخية الحقيقية، استمر ذلك على الأقل حتى نهاية القرن الثامن عشر. ففيما يخص مور يتانيا نشر اسماعيل حامد عددا من التراجم وكتب الانساب (٢٠)، وأضيف اليها عدد من القصائد الشعرية ومن أدوات الأدب الشعبي، جمعها روني باسي، وحديثا هـ. ت. نوريس (٢١)، وعمل العالم المور يتاني المختار ولد حمدون عملا نشيطا ناجحا قصد دراسة مواد جديدة، وأول أثر تاريخي حقا يرجع الى بداية القرن الحالي الوسيط كان بقلم أحمد الشنقيطي وهو موسوعة تاريخية ثقافية مور يتانية عن الماضي والحاضر (٢٢). وتوجد عدة يوميات محلية مخطوطة متفاوتة القيمة في شكل أخبار قصيرة من نيما وولاته وشنقيط (٢٣). وللمصادر العربية الواردة من مور يتانيا قيمة وأهمية خاصتان اذ هي في الكثير من الأحيان تشمل مور يتانيا بالذات وتتجاوزها أيضا الى كل البلدان المجاورة للسودان الغربي. ونظرا لما كان في الماضي من علاقات وثيقة بين مور يتانيا والمغرب الأقصى، فان خزانات هذا البلد الأخير ومحفوظاته ستوفر مواد تاريخية ثمينة عن مور يتانيا. ولدينا علاوة على المصادر العربية، روايات الاوربيين، وهي تبتدئ في القرن الخامس عشر بالنسبة للمناطق الساحلية وفي المناطق النهرية في نهاية القرن السابع عشر، وبداية القرن التالي نجد حتى المراسلات الديبلوماسية والتجارية مكتوبة باللغة العربية واللغات الاوربية.

و يبدو أن تدوين التاريخ المحلي في السودان الشرقي بدأ في السنوات الأخيرة من سلطنة فنج فحسب، أي في بداية القرن التاسع عشر حيث سجلت الرواية الشفاهية كتابة في نص سمي تاريخ الفنج و يوجد منه عدة روايات (٢٤).

وتكون الانساب في مختلف المجموعات العربية (٢٥) مصدرا ثمينا وكذلك المعجم الكبير لتراجم العلماء السودانيين، الطبقات الذي ألفه ولد ضيف الله وهو منجم من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في مملكة الفنج (٢٦). وأقدم زائر أجنبي معروف هو الرحالة اليهودي داوود روبيني (سنة ١٥٢٣). وحتى القرن التاسع عشر لم يكن يوجد سوى عدد صغير من الآثار القيمة، الا أننا نجد من بينها روايات ملاحظين متبصرين أمثال جامس بروس (سنة ١٧٧٥) و و. براون (١٧٩٢ ــ ١٧٩٨) والتونسي (١٨٠٣) وهذان الأخيران هما أول من زار درفور (٢٧).

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر زار السياح بلاد السودان أكثر من اي جزء آخر من افر يقيا المدارية، فكانت رواياتهم عديدة ومتفاوتة القيمة كمصادر تاريخية، وحتى سنوات ١٨٣٠ لم يكن يوجد أي مصدر مكتوب عن مناطق وادي النيل العالي (جنوبي ١٢ درجة من

---

(٢٠) يوميات مور يتانيا السنغالية، بار يس ١٩١١.

(٢١) ر. باسي ١٩٠٩ ــ ١٩٤٠، نور يس، ١٩٦٨.

(٢٢) أحمد الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة ١٩١٠ وعدة طبعات جديدة ترجمة فرنسية جزئية، سان لو يز ١٩٥٣.

(٢٣) ب. مرتي بار يس ١٩٢٧، نر يس في ب. ى. ف. ان ١٩٦٢، منتال في بيفان ١٩٦٥ ج ٣ ــ ٤.

(٢٤) درس هذا النص مكي شبيكة في كتابه «تار يخ ملك السودان» الخرطوم ١٩٤٧.

(٢٥) جمعها هـ. أ. مالك ميخايل في «تار يخ العرب في السودان»، ٢، كمبر يدج ١٩٢٢ مع وثائق تاريخية أخرى.

(٢٦) أحسن نشرة مشروحة هي نشرة يوسف فضل الحسن، الخرطوم ١٩٧١.

(٢٧) جامس بروس ١٧٩٠ و. ج. براون ١٨٠٦ عمر التونسي ١٨٤٥.

العرض)، بينما تغطي القسم الشمالي وثائق الخزائن المصرية (خزائن القاهرة)، وبصورة أقل الوثائق الاوربية. وخزائن وثائق المهدية التي تشمل نحو ٨٠٠٠٠ وثيقة عربية، وهي محفوظة الآن في معظمها بالخرطوم تمثل مصدرا ذا قيمة استثنائية فيما يخص العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر.

اثيوبيا

ولا تقل الحالة شبها بما سبق في اثيوبيا فيما يخص المصادر المكتوبة، فللمؤرخ كما في بلدان شمال افريقيا وثائق داخلية وخارجية متنوعة أشد التنوع. وفيما يخص بعض الفترات الحاسمة يكون في وسعه أيضا ان يستعمل مواد من مصادر متناقضة: فالزحف الاسلامي مثلا الذي قام به أحمد قران في النصف الأول من القرن السادس عشر تغطيه من وجهة النظر الاثيوبية «اليومية الملكية» (بلغة القاز) للامبراطور لبني دنجل. ومن الجانب الاسلامي اليومية المفصلة التي حررها سنة ١٥٤٣ كاتب أحمد قران عرب فقيه بقطع النظر عن روايات شهود العيان البرتغاليين (٢٨).

وشرع في تحرير اليوميات الملكية منذ القرن الثالث عشر، ويوجد بالنسبة الى كل مملكة تقريبا في عصر الانحطاط، يومية أو عدة يوميات مفصلة تروي الأحداث الرئيسية في تلك المدة (٢٩). واستمرت هذه التقاليد طيلة القرن التاسع عشر وجزء كبير من القرن العشرين، كما توضح ذلك اليومية الامهرية للامبراطور منيليك الثاني (٣٠). وقد يوفر العديد من الآثار الأدبية الاثيوبية من أصناف أخرى مواد تاريخية مفيدة، مثلا تاريخ القديسين والجدالات الدينية والشعر والخرافات وتواريخ الاديرة، وتاريخ الكالا للراهب بهري (١٥٩٣) وهو شاهد عيان لزحف القلا الكالا على اثيوبيا يمثل وثيقة فريدة (٣١).

وبعد ذلك بقرن جمع هيوب لودلف،منشئ الدراسات الاثيوبية في أوربا، ونقلا عن أخبار اثيوبي مثقف، أحد التواريخ العامة الأولى لهذا البلد (٣٢).

وحيث كانت اثيوبيا البلد الوحيد الذي بقي على المسيحية في افريقية، فإنها بالطبع جلبت اهتمام أوربا إليها أكثر من اهتمامها بالأقسام الأخرى من افريقيا وذلك منذ القرن الخامس عشر. فلا غرابة اذن ان ارتفع عدد الأجانب الذين زاروا البلد ووصفوه، من سياح ومبشرين وديبلوماسيين وجنود وتجار ومغامرين.

ولم يكن يوجد من الأجانب، البرتغاليون والفرنسيون والايطاليون فحسب، بل أيضا من ينتمون

---

(٢٨) عرب فقيه ١٨٩٧ — ١٩٠١، م. كستنهوز و١٥٤٨، ترجمة انكليزية ١٩٠٢.

(٢٩) انظر، بنكهرست ١٩٦٦، بلندل (هـ. و.) ١٩٢٣.

(٣٠) كتبها جبري سيلاسيى، ترجمت الى الفرنسية، باريس ١٩٣٠ — ١٩٣١.

(٣١) انظر بكنغام ج. وب هنتنفرد ١٩٥٤، علاوة على تاريخ بحري يحتوي هذا الكتاب على قطع من «تاريخ اثيوبيا العليا» لألميدا (١٦٦٠).

(٣٢) هيوب لودلفوس ١٦٨١ ترجمة انكليزية ١٦٨٢ — ١٦٨٤.

الى العديد من البلدان الأخرى، روسيون وتشيكيون وسويديون وأرمن وجرجانيون (٣٣)، ومن حين الى آخر تكمل الوثائق التركية أو العربية سائر المصادر (٣٤) بشتى الكيفيات.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، صارت وثائق الخزائن من كل الدول الاوربية العظمى، ووثائق أديس أبابا وحتى الخرطوم، هي التي توفر أهم المواد التاريخية. وقد أقيم الدليل في التحليل اللامع الذي قدمه سفان روبنسون (٣٥) لمعاهدة و يشال (١٨٨٩) على ما في الدراسة اليقظة للوثائق الامهرية الأصلية من أهمية للحصول على التفسير التاريخي الصحيح.

افريقيا الجنوبية

ازاء سائر أقطار القارة (ماعدا البلدان العربية اللسان و اثيوبيا التي نظرنا فيهما قبله) فان افريقيا الجنوبية تمدنا فيما يخص الفترة التي ندرسها هنا، بعدد أكبر من المواد المكتوبة المهمة، اما وثائق واما أخبار. على أن انعدام المصادر الافريقية الاصل المحضة قبل القرن التاسع عشر هو نقص لاشك فيه، ولو أن العديد من الأخبار الاوربية قد احتفظ بأجزاء من الروايات الشفاهية بين السكان المحليين.

وأقدم الأخبار التاريخية ما ذكره تجار هولنديون أو برتغاليون غرقوا على الساحل الجنوبي الشرقي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر (٣٦).

و بقيام المستعمرة الهولندية في الكاب (١٦٥٢) ازداد انتاج المواد التاريخية غنى وتنوعا، من بينها وثائق رسمية حفظت الآن في خزائن افريقيا الجنوبية نفسها وكذلك في لندن وفي لاهاي، وطبع البعض منها أو نشر بوسائل أخرى ولكن معظمها لم يطبع (٣٧)، ووثائق روائية من جهة أخرى، تمثلها كتب حررها البيض، من سياح وتجار وموظفين ومبشرين ومستعمرين — الذين شاهدوا المجتمعات الافريقية مباشرة. ولكن كثيرا ما كان افق البيض الجغرافي محدودا اذ هم لم يشرعوا فعلا في التوغل داخل البلاد الا أثناء النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فمن الطبيعي اذن أن تذكر الأخبار الأولى جماعة النحوي في الكاب (وقد انقرضوا اليوم). وأول وصف مفصل لهذا الشعب، بعد بعض المحاولات في القرن السابع عشر (٣٨)، هو ما كتبه بيتر كلب (٣٩) (١٧٠٥ — ١٧١٢).

---

(٣٣) انظر المجموعة المعلمية للبكاري: كتابات غربية عن الامور الاثوبية، لم تنشر، من القرن ١٦ الى القرن ٢٠، ١٥ مجلدا، رومة ١٩٠٣ — ١٩١٠. واكتشف الكثير من المواد الأخرى بعد بكاري وهي تنتظر النشر والاستغلال.

(٣٤) مثلا الرحالة التركي الشهير اوليا شلبي (ت ١٦٧٩) وكتابه (كتاب رحلات) يشمل في المجلد العاشر وصفا لمصر واثيوبيا والسودان. وابقى السفير اليمني الخيمي الكوكباني (سنة ١٦٤٧) ملخصا حيا لمهمته لدى الامبراطور فاسيلاداس، ولا يوجد أي تاريخ اثيوبي فيما يخص مدة ملكه. نشره ف. أ. بيسر في مجلدين، برلين ١٨٩٤ و ١٨٩٨.

(٣٥) سفان روبنسن: فقرة الحماية في معاهدة و يشال ج. أ. هـ. ك، ١٩٦٤ عدد ٢ ومناقشة مع س. جيليو ج أ هـ ٢ و ٦، ١٩٦٦ عدد ٢ و ٧، ١٩٦٦ عدد ٣.

(٣٦) انظر ج. م طيل ١٨٩٨ — ١٩٠٣ و س ر. بو ير.

(٣٧) توجد مقتطفات من مجلات رسمية ووثائق أخرى تتعلق بالسكان المتكلمين لغات سان وخوي و بانتو في د. مودي ١٩٦٠، انظر أيضا ج. م. طيل ١٨٩٧ — ١٩٠٥.

(٣٨) شابرس (١٦٦٨)، و يلهلم تن راين (١٦٨٦) وج. ج جريفبروك (١٦٩٥)، الكاب ١٩٣٣.

(٣٩) بيتر كاب ١٧١٩.

وزار العديد من الاوربيين بلاد الكاب في عهد الهولنديين، ولكنهم قلما أبدوا ازاء الافريقيين غير الاهتمام العابر، وقلما غامروا متوغلين داخل البلاد. وجمع عدد من تقاريرهم كودي ملسبركن والفاضل نابر. وعملت جمعية فان ريبيك في الكاب على نشر عدة مواد لم تعرف معرفة كافية، وذلك منذ سنوات ١٩٢٠ (٤٠) وقد نجد صورة أكثر تفصيلا عن المجتمعات الافريقية في خزائن المبشرين (٤١) أو بناء على تقييدات بعض الملاحظين المجربين منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أمثال سبرمان ولوفيان وألبرتي وجون باراو وليشتنشتاين (٤٢) ويجدر أن نحل جون فيليب محل الشرف فقد أهدى عمله وحياته للدفاع عن حقوق الأفارقة، فيكشف بذلك عن جوانب لا توجد عادة في التقارير الأكثر انسجاما (٤٣).

وعند انتشار التجارة والتبشير والاستعمار في القرن التاسع عشر، صار في متناولنا عدد أكبر وأغنى من المواد عن مجموعات عنصرية أشد بعدا. فنميبيا وان قد تمت زيارتها زيارات متقطعة حوالي نهاية القرن التاسع عشر (٤٤) الا أنه لم يشرع في تقديم أوصاف مفصلة لحياة السان والناما والهريرو، الا منذ عام ١٨٣٠، اذ منذ ذلك الوقت فحسب، اهتم المبشرون (٤٥) ورواد الاستكشاف أمثال ج. الاسكندروف. كلتون وج تندال اهتماما نشيطا بهذا البلد (٤٦).

والأمر شبيه بذلك فيما يخص الجهات الواقعة شمالي نهر اورانج، فعوضت تقارير التجار الاولين والصياديين بعدد أكثر من المؤلفات المكتوبة التي صنفها الرواد والمبشرون، وقد تطور استعدادهم للملاحظة، بفضل تجربة أكثر اتساعا، ومعرفة أحسن للغات الافريقية، ومن بينهم روبرت معرفات، وأ. كازليس وت. اربوس وأشهرهم بالطبع دافيد ليفنستون (٤٧)، وجمع ج. هـ. تيل (٤٨) الوثائق المختلفة عن بداية تاريخ ليسوتو (وثائق خزائن مراسلات، عقود وأوراق رسمية الخ).

وتسجل ظاهرة ايجابية في هذه الفترة وهي ظهور وثائق تعبر عن رأي الأفارقة كالرسائل التي كتبها مصباح (موشيش) وغيره من الزعماء الأفارقة.

وخلافا للساحل فان داخل بلاد الناطال و بلاد الزولو لم يشرع الأجانب في معرفتها إلا في

---

(٤٠) كودي ملسبركن ١٩١٦ ــ ١٩٣٢، الفاضل نابر ١٩٣١.
(٤١) انظر مثلا د. ك. مللر ١٩٢٣.
(٤٢) أ. سبرمان ١٧٨٥، ج لوفيان ١٧٩٠، ل. البرتي ١٨١١، جون باراو ١٨٠١ ــ١٨٠٣، هـ. ليشتنشتاين ١٨١١.
(٤٣) ج فيليبس ١٨٢٨.
(٤٤) اد . واطس، ١٩٢٦.
(٤٥) المصنف الدراسي لمؤلفه هـ. فيدير (افريقيا الجنوبية الغربية في الزمن القديم) اكسفورد ١٩٣٨، حرر بالاستناد أساسا الى تقارير المبشرين الالمان.
(٤٦) سيرجامس الكسندر ١٨٣٦، ف كالتون ١٨٥٣، يومية جوزاف تيندال ١٨٣٩ ــ ١٨٥٥ الكاب ١٩٥٩.
(٤٧) روبرت موفات ١٩٤٢ ــ ١٩٤٥.
أ. كازاليس: جماعة البسوتو، باريس ١٨٥٩، ط. انكليزية لندن ١٨٦١، ت. اربوس: خبر رحلة استكشافية باريس ١٨٤٢، ط انكليزية: الكاب ١٨٤٦ د. ليفنستون ١٩٥٧.
(٤٨) ج. م. تيل: ذكريات باسوتولند، ٣ مجلدات الكاب ١٨٨٣ (لم ينشر المجلدان ٤ و ٥ و يوجد مخطوطهما بخزانة محفوظات الكاب).

العشريات الأولى من القرن التاسع عشر. فأول الملاحظين أمثال ن. اسحاق أو هـ. ب فن (٤٩) لم يكونوا من الاخصائيين، فكان يعوزهم الدقة كما تعوزهم الموضوعية اذا ما تعلق الأمر بغيرهم من البيض، وأما الزولو فعلى العكس، قد كان لهم من الحظ ما جعل تسجيل الروايات الشفاهية يشرع فيه مبكراً منذ سنوات ١٨٨٠. ولم يتم نشرها الا مؤخرا من قبل أ. ت. بريانت، على أنه لا ينبغي أن يستخدم كتابه الا مع الحيطة والحذر (٥٠).

وهنا كما في سائر أجزاء افريقيا، فان كمية المواد المكتوبة من قبل الاوربيين تضخمت تضخما كبيرا خلال القرن التاسع عشر، وليس من اللازم أن ينظر بتعمق في أنواعها كافة وفي جملة مؤلفيها. ولكن المهم هو ما قدم من ملاحظات عن ردود فعل الأفارقة الاولين، الذين انخرطوا في سلك التعليم، أو ردود فعل الرؤساء التقليديين وملاحظات قدمت وحفظت ضمن مراسلات وصحف وشكايات و يوميات شخصية وعقود أو، فيما بعد، ضمن أولى المحاولات لكتابة تاريخ شعبهم.

فعلاوة على المراسلة الضخمة بين رؤساء أفارقة (مشيش وودنقتان وستوايو ومزيليكازي ولوبنيكويلا وو يطبوي ورؤوساء الكريكا الخ) و بين السلطات الاستعمارية، توجد وثائق أخرى أمثال قوانين الاسلاف (فادرليك و يط) لمجموعة ريـــهوبوث منذ سنة ١٨٧٤، أو يومية هنريك و يبوي (٥١) وكلاهما بلغة افريقيان.

وتوجد عدة عرائض وشكايات من الأفارقة محفوظة بخزانة محفوظات افريقيا الجنوبية أو في لندن، كما توجد دراسات ونسخ تسجيل واحصائيات ضبطت بناء على معلومات افريقية شفاهية.

و بفضل ما ظهر من جرائد باللغات المحلية، صار في وسعنا ان نتتبع آراء الممثلين القدامى لمجتمع يسير في طريق التطور. ففي الصحيفة الاسبوعية اسيدميجيمي (الصادرة بين ١٨٧٠ و ١٨٨٠) نشر أول نقد للسياسات الاوربية وآثارها السلبية على الحياة الافريقية، كتبه أول الوطنيين أمثال طيو سوكا (ت سنة ١٨٧١). أو ج. شمزاش (ت ١٨٦٠) مع مجموع التقاليد التاريخة عند الكسوزا بقلم و. و. كقوبا (ت ١٨٨٨). ومنذ سنة ١٨٨٤ وجد لسان حال آخر للرأي الافريقي: ابن ز يانتسوندو (صوت الشعوب السوداء)، وكان رئيس تحريرها لمدة طويلة ت. جباوو (ت ١٩٢١). وقبيل الحرب العالمية الأولى كانت احدى عشرة صحيفة تصدر باللغات الافريقية، ولكنها لم تكن كلها تدافع عن قضية الافارقة. وكان نيوكي (ت ١٩٢٤) من أعظم شخصيات هذه الفترة. فبعد أن ساهم نشيطا في حرب الزولو سنة ١٨٧٩، نشر (في الولايات المتحدة) ذكرياته وعددا من الفصول عن الحياة في افريقيا الجنوبية (٥٢). ولم تظهر أولى التواريخ التي كتبها الأفارقة الا في

---

(٤٩) ن. اسحاق ١٨٣٦ عن. ف. فن. ١٩٥٠.

(٥٠) أ. ت. بريانت ١٩٢٩، انظر أيضا مصنفه «تاريخ الزولو» وقد نشر أولا في شكل سلسلة من المقالات سنة ١٩١١ — ١٩١٣ ثم في صورة كتاب بالكاب ١٩٦٤، انظر أيضا جون برد: حوليات الناطال ١٤٩٥ — ١٨٤٥، مجلدان بيترمار يتسبورغ ١٨٨٨.

(٥١) القوانين محفوظة في ريهوبوث ووندهوك، نشرت «يومية و يتبوي» بالكاب سنة ١٩٢٩.

(٥٢) انظر ل. هـ. طرنر ١٩٥٥.

القرن العشرين (٥٣) مدشنة عصرا جديدا للتدوين التاريخي الافريقي الجنوبي. نعم ان تاريخ هذا الجزء من القارة قد اعتبر طويلا من وجهة نظرة المجموعة البيضاء التي كانت تميل الى معاملة تاريخ الشعوب الافريقية على انه أمر تافه لا قيمة له، والصراع الجاري اليوم في كل ميادين النشاط البشري يتطلب أيضا سلوكا جديدا ازاء المصادر، ويجدر ان ينظر الى كل المواد المكتوبة والشاهدة عليها للكفاح المر المنتصر الذي قاموا به في سبيل حقوقهم، نظرة اعتبار خاص (٥٤).

والبحث المركز على هذه الشهادات وهذه المواد هو وحده الذي سوف يمكن من كتابه تاريخ حق لافريقيا الجنوبية.

المصادر الروائية الخارجية

اذا ما كانت الفترة بين القرنين التاسع والخامس عشر تدعى «عصر المصادر العربية» وذلك بسبب سيطرة المواد المكتوبة في هذه اللغة، فان الفترة المدروسة هنا تنطبع بنقصان فجائي في هذا الميدان. وحيث أن أسباب هذا التغير ترتبط بالتطور العام السياسي والثقافي للعالم الاسلامي، فاننا سننظر فيها في محلها في مجلد تابع. ولا يعني ذلك أنه لا وجود لأي مصدر عربي، بل ان عدد المصادر وقيمتها قليلة، الا في حالات استثنائية، ولا سبيل لمقارنته بالفترة السابقة ولا بالمصادر من أصل آخر.

وآثار ليون (أوجان ليون) الافريقي (في الأصل الحسن الوزان الزياتي) ولو أنها كتبت بالايطالية، فانها تنتمي للتقاليد الجغرافية العربية، ثم انه انما شرع في رحلاته عبر السودان الغربي والأوسط في بداية القرن السادس عشر بصفته عربيا مسلما. ولا تخلو هذه الآثار من عيوب جغرافية وتاريخية، ولكنها هي التي أمدت أوربا خلال ما يقرب من ثلاثة قرون بالمعلومات الحق الوحيدة التي كانت فيها عن داخل افريقيا (٥٥).

ومصنفات أحمد بن ماجد عن الملاحة (في بداية القرن السادس عشر)، وهو الربان الذي قاد فاسكو دي چاما من مالندي الى الهند، لها أهمية كبيرة جدا. ومن عديد كتبه عن نظرية الملاحة وتطبيقها، يبقى أهمها هو ذاك الذي يتحدث عن الساحل الشرقي لافريقيا، اذ هو يحتوي علاوة على مادة طوبوغرافية غزيرة وعلى خطط الطرقات البحرية، على آراء قطعية عن البرتغاليين في المحيط الهندي (٥٦).

وفي يومية قلعة عدن التي حررها أبو مخرمة (ت ١٥٤٠) (٥٧) نجد عدة تفاصيل طريفة عن

---

(٥٣) انظر س. ت. بلاتج ١٩١٦ — ١٩٣٠، مولنا ١٩٢٠، سوقا. ج. هـ. بنتو الجنوب شرقي جوهنسبرغ ١٩٣٠ كذلك أما كسوزا: الحياة والعادات، جوهنسبرغ ١٩٣٠ ت. ب. سوقا لوفدال ١٩٢٩.

(٥٤) انظر مثلا د. ت. جابفو ١٩٢٠ وج. ماهابافا ١٩٢٢.

(٥٥) الطبعة الأولى في رومة ١٥٥٠، وأحسن ترجمة معاصرة هي: جان ليون الافريقي وصف افريقيا لـ أ. إبولارد علق عليه إبولارد وث. مونو وهـ. لوط وزموني، مجلدان باريس ١٩٥٦.

(٥٦) شومفسكي: ثلاثة كتب مجهولة للقيادة البحرية لأحمد بن ماجد بقلم أ. بن م. موسكو ١٩٣٧.

(٥٧) أ. لوفچرن: نص عربي من قلعة عدن في القرون الوسطى ٣ مجلدات ليبزيغ أبسالا ١٩٣٦ — ١٩٥٠.

افريقيا الشرقية وعن الزنج. وتدرس عين المنطقة، يومية أحدث من الأولى هي يومية سليل بن رزيق (ت ١٨٧٣)، عنوانها «تاريخ الأئمة وسيد عمان» وقد أقحم فيها مؤلفا سابقا حرره سنة ١٧٢٠ سرحان بن سرحان العماني (٥٨).

ولا يمدنا القرن الثامن عشر بأي مصدر عربي متأخر ذي قيمة عن تاريخ جنوبي الصحراء. ولم تلاحظ بعض النهضة في هذا الميدان الا في بداية القرن التالي. فيزور التونسي (ت ١٨٥٧) المذكور آنفا بلاد السودان و يروي قصة اقامته بها في يوميات هي الأولى من نوعها عن هذه المملكة، علاوة على تقريره الجدي عن الدرفور (٥٩). وقبل ذلك ببضع عشرات من السنين نقل المغربي عبد السلام الشيباني بعض المعلومات عن تمبكتو وعن منطقة مسينا قبل تسلم السلطة من قبل الدينا (٦٠).

وتاريخ امبراطورية سنغاي وسقوطها والتطور اللاحق لوادي النيجر كل ذلك سجل من المؤرخين السودانيين بل أيضا من قبل المؤرخين المغاربة المذكورين آنفا. وقد اكتشف أخيرا في الخزانات المغربية عدد من المصادر المجهولة قبلا، عن العلاقات بين المغرب والسودان، وهي الآن تنتظر من ينشرها و يستغلها من مؤرخي افريقيا. ولابد انه يوجد عدد آخر من المواد الثمينة بالعربية أو التركية مشتتة في سائر بلدان افريقيا الشمالية وفي تركيا لا نعلم عنها حتى الآن الا القليل. وفي ذلك ما يفتح للمؤرخ آفاقا مفيدة و يكون من أكثر الأعمال الحاحا للمستقبل المباشر، أن يتم ضبط مواطن هذه المصادر والتعليق عليها وترجمتها.

والمواد في سائر اللغات الشرقية أقل منها في العربية، ولا يعني ذلك طبعا انه ليس في الامكان أن نعثر على مواد مجهولة تتفاوت قيمتها مثلا في الفارسية أو في بعض لغات الهند. و يبقى حتى الآن المصدر الأساسي متمثلا في الرحالة التركي أوليا شلبي الذي زار مصر وبعض مناطق السودان واثيوبيا، ولكن معرفته لمناطق أخرى من افريقيا كانت معرفة غير مباشرة (٦١). وكذلك الأمر بالنسبة الى مواطنه أمير البحر سيدي علي الذي نسخ عن العربية وترجم أجزاء من مصنف ابن ماجد عن المحيط الهندي، في كتابه «المحيط» مضيفا اليه بعض الجزئيات لا غير (٦٢). وفي بداية القرن التاسع عشر زار أديب اذربيجاني هو زين العابدين الشرواني بلاد الصومال واثيوبيا والسودان الشرقي والمغرب ووصف أسفاره في كتاب عنوانه «بستان السياحة» (٦٣)، و يبدو أنه كان ثمة اهتمام كبير بافريقيا وخاصة اثيوبيا من قبل بلدان ما وراء القوقاز ولا سيما الاهالي الأرمن. ففي نهاية القرن السابع عشر شرع قسيسان أرمنيان استفاكاتور طمبوك وافاتيك بقداسريان في رحلة عبر افريقيا انطلاقا من اثيوبيا ومرورا بالنوبة والدارفور وبحيرة تشاد و بلاد التكرور حتى المغرب

---

(٥٨) ترجمة ج. ب. بدجر، لندن ١٨٧١.

(٥٩) رحلة الى كوادى. ترجمة الدكتور برون باريس ١٨٥١.

(٦٠) نشر ج. ج. جكسن: خبر عن تمبكتو وهوسا، من الأراضي الداخلية الافريقية، لندن ١٨٢٠ (أعيد طبعه ١٩٦٧).

(٦١) اوليا شلبي: سياحت نامه، اسطنبول ١٩٣٨.

(٦٢) م. بتز ١٨٩٧.

(٦٣) أنظر م. خانيهوف في «كشكول آسيوي» سان بترسبرغ ١٨٥٩، والأجزاء الخاصة بافريقيا الشرقية بصدد الأعداد لترجمتها من قبل ف. ب. سمرنوفا في لينغراد.

الاقصى. وأبقى ثانيهما وصفا لرحلتها (٦٤). وفي عام ١٨٢١ اخترق واركا الارمني الاسترخاني الصحراء منطلقا من الشمال، وزار طمبكتو وبلغ ساحل الذهب حيث حرر بالانكليزية وصفا مختصرا مليئا بالمعلومات المفيدة عن رحلته (٦٥). وتوجد مواد أخرى بالارمنية والجيورجانية عن افريقيا بخزانات هذه الجمهوريات السوفياتية ومحفوظات وثائقها (٦٦).

في اللغات الاوربية

ان ضخامة الأدب الاوربي عن افريقيا المدارية منذ بداية القرن السادس عشر تجعل من المتعذر حتى تعداد أهم الآثار أو المؤلفين. فيكفي لفائدة هذا الفصل، أن يؤخذ هذا الأدب كمصدر لتاريخ افريقيا وأن يدرس طابعه العام. وهذا أفضل من الرجوع الى قائمة لا نهاية لها من الاسماء والعناوين.

ويبقى ما طرأ على الحدود الجغرافية من تغيرات معلوما: ففي بداية القرن السادس عشر كان الساحل بأكمله من السنغال الى رأس كادرفوي معروفا من قبل البرتغاليين، ولكنهم، في نهاية القرن نفسه، لم يتوغلوا حقا داخل البلاد إلاّ في الكنغو القديم وانقولا وعلى امتداد نهر الزمبار.

ولم يضف القرنان التاليان شيئا الى معلومات الاوربيين، فكانت ثمة محاولات من حين الى آخر لاختراق الصحراء، واستتبت اتصالات أوثق على طول السنغال وقمبيا، وسافر رحالة من الزمبار الى كلوا متوقفا على بحيرة ملوي. والأخبار عن أهالي السواحل، ولا سيما أهالي افريقيا الغربية قد أصبحت مفصلة متنوعة. ولم يشرع في الرحلات الاستكشافية المنظمة عبر افريقيا الا في نهاية القرن الثامن عشر، وانتهت بتقسيم القارة بين الدول الاستعمارية.

وأما من جهة التمثيل القومي فيمكن أن يقال أن القرن السادس عشر هو أساسا قرن البرتغاليين، والقرن السابع عشر للهولنديين والفرنسيين والانكليز. والقرن الثامن عشر، انكليزي وفرنسي على الخصوص، والقرن التاسع عشر انكليزي الماني فرنسي، وبالطبع فان سائر البلدان الاوربية كان ممثلا خلال هذه القرون المختلفة، مثلا الايطاليون في الكنغو في القرن الثامن عشر وفي السودان الشرقي في القرن التاسع عشر، والدانمركيون على ساحل العبيد وعلى ساحل الذهب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن بين مؤلفي الرحلات والأوصاف (لكن بصفة خاصة في القرن الأخير)، نجد من ينتمون الى اسبانيا وروسيا وبلجيكا والمجر والسويد والنرويج وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وسويسرة والولايات المتحدة والبرازيل، ونجد فيهم أحيانا حتى اليوناني والروماني والمالطي. ومن حسن الحظ أن ترجم معظم الكتب في لغات قليل من يعرضها الى لغة أو عدة لغات من أكثر اللغات انتشارا.

---

(٦٤) ج. خالاتيانك، ارمينانسكيف باميانيك ١٧ (مذكرة أرمينية من القرن السابع عشرعن جغرافية اثيوبيا وافريقيا الشمالية بصفة عامة) ضمن زملدنيا مجلد ١ — ٢ موسكو ١٨٩٩.

(٦٥) انظر فيليب د. كرتين (مدير النشر): ذكرى افريقيا، مديسن ١٩٦٧ (ص ١٧٠ — ١٨٩: إ. ولكس «واركي استراخان» انظر أيضا أولدروج (استراخان في طمبكتوسنة ١٨٢١ افريقانا ٨ لينغراد ١٩٧١).

(٦٦) بصدد النشرمن قبل معهد الدراسات الشرقية بالجمهورية الروسية الاشتراكية السوفياتية بارمينيا، إريوان، مجموعة من الوثائق المتعلقة بالعلاقات الاثيوبية الارمنية من العصور الخالية الى القرن التاسع عشر.

وكي نقوم المواد الاوربية ينبغي أن لا نعتبر جنسية المؤلف فحسب بل، وعلى الخصوص، تغير موقف الاوربيين ازاء الافارقة ومجتمعاتهم بصفة عامة. فقد يكون في الامكان أن نبسط الأمر بقولنا ان الكتاب البرتغاليين كانوا أميل الى النظر الى الشعوب التي يصفونها من زاوية الآراء المسبقة المسيحية، أكثر مما كان عليه الانكليز مثلا، أو ان الهولنديين كانوا أقدر على الملاحظات الموضوعية من كتاب سائر البلدان. وبالطبع ان هناك فرقا بين صاحب اليوميات البرتغالي في القرن السادس عشر وقد اتصلت طريقته بالقيم الوسيطية، وبين العالم الفيزيائي الهولندي في نهاية القرن السابع عشر، وهو حصيلة ثقافة مرتكزة أكثر على العقل. وما لدينا من مواد متعددة متنوعة لا يسمح لنا بالتعميم السريع، ولا يمكن أن نصل الى حكم قطعي الا بعد تحليل كل أثر على حدة حسب مزاياه، معتبرين بالطبع، تاريخه وموضوعه. كما ينبغي أن نتجنب الاعتقاد بأننا لاحظنا تحسنا مستمرا في موضوعية الأخبار مع تقدم الزمن، واننا كلما اقتربنا من العصر الحاضر. أصبحت ملاحظات الواقع الافريقي ملاحظات علمية، وهذا يؤول الى الاعتقاد مسبقا أن خبر رحالة من القرن التاسع عشر، له بطبيعة الحال قيمة أكثر من خبر كتب منذ ثلاثمائة سنة. فبرتن وستانلي باعتبارهما ملاحظين، كانا أسيري فكرة قدمت على أنها علمية موثوقة، وهي فكرة تفوق الجنس الابيض، كما كان المؤلفون البرتغاليون أسرى للتفوق المزعوم الذي كان لعقيدتهم المسيحية، وبصفة عامة ان عصر نخاسة السود لم يكن يلائم المعلومات الموضوعية عن الأفارقة.

ولكن ضرورات النخاسة العملية كانت تتطلب دراسة فطنة لنشاطهم الاقتصادي ونظم حكمهم، بحيث انه توفرت لنا، حتى منذ ذلك العهد سلسلة من المصادر النفيسة جدا.

لقد حرر الكتابات عن افريقيا والأفارقة مبشرون وتجار وموظفون وضباط جيش البر أو البحر، وقناصل ومستكشفون ورحالة ومستعمرون وأحيانا مغامرون وأسرى الحرب. ولكل منهم مصلحة خاصة بحيث اختلفت أهدافهم وطرقهم اختلافا عظيما، «فالرحلات» كانت انموذجا لغرض أدبي معين اذ كانت تهتم بعالم مجهول غريب طريف، وكانت ترمي الى ارضاء ما يتطلبه قراؤها بصفة عامة. واستمر هذا التذوق للغرائب والمغامرة تحليه آراء تتفاوت أوهامها وخرافاتها عن الشعوب الافريقية، أو أوصاف مجاملة لعديد الأخطار التي لاقاها السائح البطل، وبقي الأمر مستمرا حتى القرن التاسع عشر (٦٧). وحاول المبشرون القدامى أو من كان منهم أقرب منا أن يفهموا الديانات الافريقية، ولكنهم في معظمهم كان يعوزهم التكون وحسن الاستعداد اللازمان لادراكها حقا، فتقيدوا خاصة بعرض «أخطائها» و«وحشيتها» على أنهم بالعكس كانوا في حاجة الى معرفة اللغات المحلية، وبهذا كان يمكن أن يكونوا في وضع أحسن من غيرهم لادراك الاطار الاجتماعي، بيد أنهم أبدوا أحيانا اهتماما بالتاريخ، وأخذوا في جمع الروايات الشفاهية المحلية.

وفي القرن التاسع عشر كان جل الادب القصصي يصدر عن المستكشفين، فكانوا يهتمون بحل المشاكل الجغرافية العظمى، حسب هواية العصر، بحث غنمت من مساهمتهم الجغرافيا الطبيعية أكثر من معرفة المجتمع الافريقي، وكان معظمهم يعني بالطرق الصالحة للملاحة أكثر عناية بطرق

(٦٧) انظر الآن ر. أ. روتبرغ ١٩٧١.

الثقافة (٦٨) وكان العديد منهم من الطبيعيين، فأعوزتهم حاسة التاريخ أو هم كانوا يعتقدون خرافة انعدام التاريخ الافريقي، وبالطبع ان لهذه القاعدة شواذ أشهرها شذوذ هينريش بارت.

وظهرت بالعكس، منذ القرن الثامن عشر، بعض التواريخ الخاصة بشعوب أو بدول افريقية، كتاريخ الداهماي لارشيبا لـ دلزل (لندن ١٧٩٣) الذي يبدو بعد تمحيصه في صورة كتيب مضاد لمنع النخاسة.

بعد أن عرضنا بعض عيوب المصادر القصصية الأوربية، لننظر الآن في جوانبها الايجابية، فهي توفر لنا قبل كل شيء الاطار الزمني الذي نحن في حاجة أكيدة اليه فيما يخص تاريخ افريقيا، حيث ضبط الزمن المؤرخ به هو نقطة الضعف في التراث المنقول. فالتاريخ الوحيد الذي ينص عليه رحالة أو مؤلف من نوع آخر، كتاريخ علاقاته بشخصية افريقية، قد يكون المنطلق لتاريخ كامل لشعب أو حتى لعدد من الشعوب. ولا يعني ذلك أن كل التواريخ صحيحة حتما لكونها مسجلة بالكتابة، ففي بعض الأحوال قد أخطأ المؤلفون الاوربيون أخطاء تتفاوت خطورة عند نقلهم أخبارا مبنية على «يقال»، أو عند محاولتهم أن يحسبوا فترة زمنية بناء على مصادر لا يمكن مراقبتها. على أن الاوربيين بصفة عامة كان لديهم قياس للزمان متقدم تقنيا.

ان الأدب القصصي كبير الأهمية كمصدر للتاريخ الاقتصادي: فسالك التجارة وأهم الأسواق، والبضائع والأسعار، والفلاحة والصناعة، والمواد الطبيعية، كل ذلك كان في الامكان أن يشاهد وأن يوصف بدون تحيز، وقد تم ذلك فعلا. فكان الاوربيون محتاجين في هذا الشأن، لصالحهم الخاص، الى تقييدات أقرب ما تكون الى الموضوعية. نعم ان الموارد الطبيعية أو الامكانيات الاقتصادية في بعض الجهات قد صورت بألوان براقة مضخمة للمبالغة في فضائل المكتشف، ولكن المؤرخ قد تعود على هذا الضرب من المبالغة وهو يحسب له حسابه.

ان أهم ما نجح فيه الاوربيون هو ملاحظة المظاهر الخارجية في المجتمعات الافريقية وهو ما يسمى «بالعرف والعادات»، فتشتمل الوثائق على أوصاف مدققة رائعة للغاية، لحفلات مختلفة وللملابس والتصرفات والخطط والأساليب الحربية وطرق تنفيذها وتقنيات الانتاج الخ. ولو أن هذه الأوصاف تتبع أحيانا بنعوت من نوع «وحشي» «بدائي» «أخرق» «تافه» أو ما شابهها من الفاظ الاستهجان التي لا معنى لها سوى أنها حكم تابع لعادات الملاحظ الثقافية. وأما الأمر الأخطر فهو الانعدام التام لتفهم البنية الداخلية للمجتمعات الافريقية، والشبكة المتشعبة للعلاقات الاجتماعية، وتفرع الالتزامات المشتركة، والعلل العميقة لبعض التصرفات. وباختصار ان هؤلاء المؤلفين لم يكن في مقدورهم أن يكتشفوا العلل العميقة لأنواع النشاط الافريقي.

ومع ذلك فان تدوين التاريخ الافريقي قد يكون شبه مستحيل بدون المواد التي توفرها لنا المصادر الروائية الاوربية، وقد يكون لها عيوبها، وقد تغفل عن عدد من التفاصيل، أو قد تعالجها باحتقار وبتحيز، أو قد تفسرها تفسيرا خاطئا، ولكن لابد من مجازفات عادية يتضمنها كل عمل للتدوين التاريخي. فلا موجب اذن لرفض هذا المجموع الضخم الكبير الأهمية من الأخبار. بل أنه

---

(٦٨) أ. أ. مزروي ١٩٦٦.

من الضروري أن يعاد طبع أكثر ما يمكن من الروايات من هذا النوع، وان تنشر بشروح وتعليقات لائقة حتى نتمكن من تقويمها ومن اعادة تفسيرها على ضوء التدوين الجديد للتاريخ الافريقي.

المصادر الروائية الداخلية

في الفترة المدروسة هذه، نشاهد ظاهرة جديدة لها عظيم النتائج وهي ظهور أدب تاريخي مكتوب من قبل أفارقة جنوبي الصحراء، وانتشار هذا الأدب.

لم تكن وسيلة التعبير حتى ذلك الوقت لغة افريقية محلية، بل كانت في البدء اللغة العربية، ودورها في العالم الاسلامي بمثابة دور اللاتينية في أوربا في القرون الوسطى، أي سبيل الاتصال بين شعوب مثقفة. ثم ظهرت فيما بعد بعض اللغات الاوربية.

ويبدو أن عادة التدوين التاريخي قد بدأت في آن واحد في المنطقة السودانية وعلى الساحل الشرقي الافريقي، أي بالضبط في الجهتين الكبيرتين التي غطتها حتى ذلك الوقت المصادر العربية الخارجية، والتي أثر فيهما الاسلام تأثيرا طويل المدى. وأقدم التواريخ الموجودة ترجع الى بداية القرن السادس عشر، ولكنها تذكر بصيغة الماضي أحداث فترات أقدم. فالأول «تاريخ الفتاش» من تحرير ثلاثة أجيال من أسرة القيطي من جنه، وهو يغطي تاريخ السنغاي والبلدان المجاورة حتى الفتح المغربي سنة ١٥٩١. «وتاريخ السودان» هو أضخم وأغنى بالتفاصيل، ولقد قام بتحريره المؤرخ التمبكتي السعدي، وهو يشمل جزئيا عين الفترة، ولكنه يستمر حتى سنة ١٦٥٥. وكلا المؤلفين من عمل أدباء طرفاء يتسع اهتمامهم الى ميدان فسيح ولهم دراية معمقة بالأحداث المعاصرة. والأهم هو أننا لأول مرة نستمع الى صوت أفارقة أصيلين، ولو أن المؤلفين يتحيزون الى الاسلام، وينظرون الى الأمور من وجهة النظر هذه. وفي القرن الثامن عشر يبدأ تاريخ مجهول المؤلف ولكنه مفصل جدا للبشوات المغاربة في تمبكتو من ١٥٩١ الى ١٧٥١. وفيه أيضا مواد مفيدة عن البلدان والشعوب المجاورة (٦٩).

ولدينا ضرب آخر من المصادر في معجم التراجم لأدباء السودان الغربي حرره العالم الشهير أحمد بابا التمبكتي (ت سنة ١٦٢٧) (٧٠)، والى عين الجهة من امبراطورية سنغاي ينتسب «تاريخ ساي» وهو يومية عربية لابن ادور كتبها على ما قيل سنة ١٤١٠، فان ثبتت صحته سيكون هذا الكتاب أقدم وثيقة موجودة مكتوبة عن افريقيا الغربية، ولكنه يبدو أنه من الأرجح أن يكون نسخة مؤرخة من رواية شفاهية (٧١).

ومن تمبكتو ومن جنه انتشرت عادة تحرير اليوميات الى جهات أخرى، ولا سيما نحو الجنوب والغرب في المنطقة الكائنة بين الساحل والغابة المدارية، وأحيانا بتوغل أكثر نحو الجنوب. وشرع

---

(٦٩) «تاريخ الفتاش» ترجمه وعلق عليه أ. هوداس و م. دولافوص، باريس ١٩١٣ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤)، تاريخ السودان «ترجمه وعلق عليه» أ. هوداس باريس ١٩٠٠ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤)، «تذكرة النسيان» ترجمه وعلق عليه أ. هوداس باريس ١٨٩٩ أعيد طبعه سنة ١٩٦٤).

(٧٠) نشر بفاس سنة ١٨٩٩ وبالقاهرة سنة ١٩١٢.

(٧١) انظر فنسان منتال بيفان ٢٨، ١٩٦٦، ص ٦٧٥.

الأدباء المسلمون منذ منتصف القرن الثامن عشر أو قبله، في كتابة التواريخ المحلية وانساب القبائل والتراجم المختصرة والرسائل الدينية. وأبرز مثال لذلك «كتاب الغنجة» المكتوب بعد سنة ١٧٥٢. وهو تاريخ مملكة الغنجة و يستند جزئيا الى الروايات الشفاهية(٧٢).

وهناك عدد كبير من اليوميات الأقل أهمية، ومن المؤمل أن يعثر على مصادر مشابهة في أجزاء أخرى من هذه الجهة، تحت نفوذ مجموعات ديولا أو الهوسا أو كليهما. ومعظم هذه الآثار مكتوبة بالعربية. كما حرر عدد من اليوميات بلغات العجمي أي لغات جنوب الصحراء المكتوبة بالحروف العربية (٧٣).

والحالة عينها في الجهات الناطقة بالفلفودية، ولا سيما في الفوطاطورو والفوطاد جالون، ففي غينيا وفي الخزانات بداكار أو بباريس، يوجد عدد من اليوميات المحلية محرر بالعربية أو الفلفودية (أو كليهما) ومعظمها مؤرخ بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ولم تنشر مواد الفوطاد جالون الا مؤخرا، واستغلت في مؤلفات علمية. ولنذكر في هذا الشأن مجموعة جلبرت فيايارد في ايفان (المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) بداكار. على أن الوضع في فوطاطورو أحسن، وقد جعلت «يوميات فوطا السنغالية» لسيري عباس صوح، من القرن الثامن عشر، في متناول الباحث منذ خمسين سنة (٧٤) وأثر آخر قديم وهو معجم تراجم لمحمد البرطايلي بعنوان «فتح الشكور» (حوالي ١٨٠٥) هو الآن، بصدد الاعداد من قبل جون هو يك قصد نشره. وهناك تاريخ معاصر لفوطاطورو كتب سنة ١٩٢١ بقلم الشيخ كمرا موسى الكانكالي، عنوانه «زهور البساتين» وهو لم ينشر بعد (٧٥).

والنيجيريا الشمالية يمكن اعتباره أيضا بلدا لم تظهر فيه التواريخ وسائر المصادر العربية الا في وقت متأخر نسبيا. فترك لنا الإمام ابن فرتوة (نهاية القرن السادس عشر) وصفا مفصلا ممتعا لحياة ماي ادريس وعصره وحروبه (٧٦). وقريبا منا نجد مختلف القوائم لقواد برنو و يوميات لهذا البلد. ويمثل المحارم مصدرا مهما جدا (٧٧). وهي رسوم امتيازات يمنحها الرؤساء لأسر الأعيان من رجال الدين، وهي تمكن من معرفة الظروف الاقتصادية والاشتراكية.

وفي بلاد الهوسا لا يوجد شيء يذكر من المواد التاريخية السابقة للجهاد، ولو أن مستوى التعليم ولا سيما لدى (رؤساء الدين الفلانيين) كان مرتفعا جاد نسبيا (٧٨) ولكن بعض القصائد بلغة الهوسا أو الكنوري (برنو) تتضمن شروحا للأحداث المعاصرة (٧٩).

---

(٧٢) انظر في هذا الشأن وعن مواد أخرى افورولكس ١٩٦٣، ث. هودقكين ١٩٦٦، ٤٤٢ ــ ٤٥٩.

(٧٣) أ. ا. شو ١٩٦٨، طيرنوديالو ١٩٦٨.

(٧٤) أ. سو ترجمه م. دولافوص وهـ كاهان، باريس ١٩١٣.

(٧٥) مخطوط بخزانة ايفان (المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) انظر ف. مونتال ١٩٦٥ ص ٥٤٠.

(٧٦) نشره هـ. ر. بلمر، ١٩٣٠، ترجم ضمن «مذكرات سودانية» لاقوس ١٩٢٨ وفي «تاريخ العشرين السنة الاولى لماى ادريس الوما» لاقوس ١٩٢٩.

(٧٧) جمعه هـ. ر بلمر في «مذكرات سودانية» المجلد ٣، لاقوس، ١٩٢٨ وفي كتابه «البوربو»، الصحراء، والسودان. لندن ١٩٣٦. انظر أيضا ي. اورفوا «أخبار بورنو» جورن جمعية الافريقيين ٢ ــ ١٩٤١.

(٧٨) م. هسكت ١٩٥٧، ٥٥، ٥٧٨، أ. د. هـ. بيفاروم. هسكت ١٩٦٢، ١٠٤ ــ ١٤٨.

(٧٩) انظر ج. ر. بترسن ١٩٢٦.

وشاهدت بداية القرن التاسع عشر ظهور نهضة حقيقية للأدب العربي في السودان الأوسط والغربي، وعلاوة على المؤلفات باللغة العربية، فكان ثمة عدد متزايد من الكتب تحرر في اللغات المحلية كالهوسا والفلفودية والكنوري والمندرا والكوطوكو، الخ.. بحروف عربية.. وأخصب الكتاب كانوا رؤساء (الجهاد الفلاني) في نيجيريا الشمالية، ولو أن معظم انتاجهم الأدبي يعالج قضايا دينية وان عددا قليلا منها فحسب يمكن اعتباره تواريخ حقا (٨٠). وكل هذا الانتاج الأدبي سواء بالعربية أو باحدى اللغات المحلية، يعين في الحصول على فكرة أشد تنسيقا عن الحياة الاجتماعية والفكرية في هذه الجهة. ومع أن يوميات مدن الهوسا (كانو، كتسينا، أبوجا، الخ) لا تراجع الا الى نهاية القرن التاسع عشر، فهي الى حد ما تستند الى وثائق أقدم أو الى روايات شفاهية (٨١). وطرأ تطور مماثل جهة الشرق في الباقيمي والكوتوكو والمندرا والواداي. وقد نشرت فيما بعد بعض اليوميات أو قوائم الملوك، ولكن الكثير منها مازال مخطوطا، ومن المؤمل أن يعثر على غيرها ضمن المجموعات الخاصة (٨٢).

وتوجد يومية مسجعة في اللغة الفلفودية تصف حياة المصلح العظيم التكروري الحاج عمر (٨٣) ونشاطه ــ وهو نفسه مؤلف الكتاب الديني «رماح حزب الرحيم» وفيه عدد من التلميحات التاريخية الى ظروف العيش في السودان الغربي (٨٤).

ويمكن للساحل الشرقي الافريقي أن يقارن بالسودان فيما يخص عدد يومياته. فلعدد من المدن يومياتها المكتوبة بالعربية أو السواحيلية بحروف عربية تعرض فيها قوائم الملوك وأخبار الحياة السياسية ومن بينها واحدة.. لا غير قديمة حقا، يومية كلوا، وقد تم تحريرها حوالي سنة ١٥٣٠ ولنا منها روايتان مختلفتان، روى احداها دي باروس ونسخت الأخرى في زنجبار سنة ١٨٧٧ (٨٥). وأما معظم اليوميات الأخرى فلم تحرر الا مؤخرا، وبعضها يرجع الى ما وراء النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويتركز عدد منها على الأحداث قبيل مجيء البرتغاليين. فهي إذن والى حد ما تسجيل لروايات شفاهية، وينبغي أن تعالج وتقوم على هذا الأساس (٨٦) ومازال عدد كبير من

(٨٠) محمد بلو «انفاق الميسور» نشره س. أ. ج. وتينغ، لندن ١٩٥١، ترجمة انكليزية مع شرح قسم الهوسا بقلم أ. ج. ارنط: «ظهور السوكوتو الفلانيين» كانو ١٩٢٢، عبد الله دان فوديو: تزيين الورقات، ترجمة وتعليق بقلم: هـ. هسكت، لندن ١٩٦٣، حاجي سعيد: تاريخ سوكوتو ترجمة س. أ. ج ويتنغ، كانو بدون تاريخ وهناك ايضا ترجمة فرنسية أ. هوداس ضمن «ذخيرة النسيان» باريس ١٨٩٩.

(٨١) يومية كانو: ترجمة هـ. ر. بلمر ضمن «مذكرات سودانية ٣»، عن كتسينا انظر المصدر المذكور ص ٧٤، ٩١، عن ابوجا انظر معلم حسن وشعيبو: يومية ابوجا، نقلا عن الهوسا بقلم ب. ل. هيث إبادان ١٩٥٢.

(٨٢) انظر بلمر ١٩٢٨ وعدة مصنفات لـ ج. ب. لوبوف وم. رودنسن ضمن «دراسات كامرونية» ١٩٣٨، ١٩٥١، ١٩٥٥، وبيفان (مجلة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) ١٩٥٢، ١٩٥٦، م. أ. طوبيانا عن الواداي ضمن «كراريس الدراسات الافريقية» ٢، ١٩٦٠.

(٨٣) م. أ ريام: حياة الحاج عمر ــ قصيدة بلغة البولار، ترجمها هـ. كاهن باريس ١٩٣٥.

(٨٤) كتاب رماح حزب الرحيم، القاهرة ١٩٢٧، ويعد ج. ر. و. يليس طبعة جديدة وترجمة له.

(٨٥) حللها ج. د. س. فريمان جرينفيل: التاريخ الوسيطي لساحل طنجانيكا، اوكسفورد ١٩٦٢.

(٨٦) عن اليوميات العربية والسواحلية عامة انظر فريمان جرينفيل ١٩٦٢، أ. هـ. ج برينس ١٩٥٨، ج. ر. ط ألسن، ١٩٥٩، ٢٢٤ ــ ٢٢٧.

المخطوطات ضمن المجموعات الفردية الخاصة، فاكتشف منذ سنة ١٩٣٥ أكثر من ٣٠٠٠٠ صفحة مخطوطة سواحلية (وأيضا عربية). ومن المؤمل بعد التنقيب المدقق على كل الساحل ان توجد مواد من شأنها أن تنير عددا من الجوانب التي مازالت مجهولة من تاريخ الشرقي الافريقي (٨٧). على أن المؤرخين في وسعهم أن يستثمروا اليوميات بل وغيرها من الأصناف الأدبية، كالشعر السواحلي مثلا، ولا سيما قصيدة «الانكشافي» (وقد نظمت خلال العشرية الثانية من القرن التاسع عشر) وهي تصف صعود باتي (٨٨) وانحطاطه.

ولم يظهر الانتاج الأدبي الافريقي باللغات الاوربية الا قرنين بعد الانتاج بالعربية، وكانت النماذج الأولى ــ كما هو متوقع ــ صادرة عن سكان الساحل الغربي، حيث كانت الاتصالات مع العالم الخارجي أكثر منها عند غيرهم.

ولو أنه يجدر أن تحفظ أسماء جاكوبس كبتان (١٧١٧ ــ ١٧٤٧) وأ. و يليام أمو (المولود حوالي ١٧٠٣، ت حوالي ١٧٥٣) وفيليب كواك (١٧٤١ ــ ١٨١٣)، وثلاثتهم من أصل فنطي، كالرواد الاولين للأدب الافريقي باللغات الاوربية، فان مساهمتهم في تدوين التاريخ الافريقي ضئيلة جدا. وبالعكس ان مؤلفات العبيد المعتقين في النصف الثاني من القرن الثامن، لا نظير لها من حيث القيمة كمصادر تاريخية، ومنها مؤلفات انياتوس صنشو (١٧٢٩ ــ ١٧٨٠) وأطوبة كوقوانو (حوالي ١٧٤٥ - ١٨٠٠) وألودوه أكويانو قسطافوس فاسا (حوالي ١٧٤٥ - ١٧٨٠). وعني ثلاثتهم أساسا بمنع نخاسة السود، فكانت كتبهم جدالية، ولكنها في آن واحد تمدنا بالكثير من مواد التراجم الذاتية عن وضع الأفارقة في افريقيا كما في أوربا (٨٩). والى هذا العهد ترجع وثيقة وحيدة فريدة، يومية انتيرا ديوك، من أهم تجار كالابار، وكتبت بلغة «بدجن الانكليزية» المحلية وغطت مدة طويلة، وهذه اليومية مع قصرها تلقي أضواء ساطعة على الحياة اليومية في ميناء من أهم موانئ تجارة العبيد السود (٩٠).

وعن مدغشقر لدينا نوع من اليومية سجلها الملك العظيم المرينا، رداما الأول (١٨١٠ - ١٨٢٨) بحروف عربية. وحوالي ١٨٥٠ حرر اثنان من أعيان المرينا وهما راومبانا ورهانيرا كاأخبارا بحروف لاتينية تعين على استعادة بناء الصورة الكاملة للحياة اليومية عند المرينا في القرن التاسع عشر (٩١).

وخلال القرن التاسع عشر ساهم عدد من الأفارقة أو الافروأمريكيين في رحلات الاستكشاف، ونشروا تأملاتهم عن الحياة الافريقية تتخللها أحيانا جدالات ذات صبغة عامة.

---

(٨٧) أهم اكتشاف من هذا النوع في السنوات الأخيرة «كتاب الزنج» الذي يعالج تاريخ بلد الصومال الجنوبي وكينيا الشمالية، انظر شرتي ١٩٥٧.

(٨٨) انظر هريس، ١٩٦٢.

(٨٩) انياتوس صنشو ١٧٨١، اطوبه ١٧٨٧، القصة الممتعة لحياة الودوه اكويانو أو قستافوس. فاسا الافريقي، لندن (١٧٩٨).

(٩٠) داريل فورد ١٩٥٦. اتلف المخطوط الاصلي أثناء الرمي بالقنابل في ايقوسيا أثناء الحرب الأخيرة، ولكن ثمة نصوص تتعلق بالفترة ١٧٨٥ ــ ١٧٨٧ كانت محفوظة بشكل نسخ.

(٩١) هـ. برتيي ١٩٣٣، مخطوطة راوميانا وراهانريكا، نشرية الأكاديميا الملغاشية ١٩، ١٩٣٧ ص ٤٩ ــ ٧٦.

فساهم صموئيل كروثر من يوروبا ــ قد واصل دراساته في سيراليون وفي بريطانيا ــ في استكشافات النيجر سنة ١٨٤١ و١٨٥٣. وترك لنا أوصافا عن هذه الرحالات (٩٢).

وانتقل طوماس ب. فريمان، المولود بانكلترا من أصل هجين، انتقالات كثيرة في افريقيا الغربية، ووصف شعوب ساحلها وداخل ترابها وصف تعاطف ملهم (٩٣). وسافر أميركيان من أصل افريقي هما، روبرت كمبل ومرتان ر. دولاني الى نيجيريا في السنوات ١٩٥٠ للبحث عن منطقة من شأنها أن تليق بمستعمرة محتملة من الافرو ــ أميركين (٩٤)، ووصف مواطن من ليبيريا هو بنيامين أندرسن، بكثير من التفاصيل ملاحظات مدققة لاحظها أثناء رحلته في وادي النيجر الأعلى (٩٥). ومن الواجب أن يصنف زعيمان افريقيان عظيمان هما، ادوارد و. بليدن وجامس افريقانس هرطن، في صنف على حدة .فبعض كتب بليدن وبعض مقالاته تمثل في حد ذاتها مصدرا تاريخيا، ويكتسي البعض الآخر صبغة التفسير التاريخي. ولكنها كلها لازمة للبحث عن ظهور الوعي الافريقي (٩٦) وكذلك الشأن بالنسبة الى آثار هرطن، مع وجود فرق وهو أنه كان أميل الى الملاحظات الدقيقة للمجتمعات التى اتصل بها اتصالا وثيقا جدا(٩٧).

وتكوّن هاتان الشخصيتان مرحلة انتقال مع مجموعة الأفارقة الذين شرعوا في كتابة تاريخ بلدهم أو شعوبهم. وثمة محاولة أولى تمت، ولكن مع التأكيد على الاتنوغرافيا، قام بها الراهب بوالات وهو مولد سان لويز، ضمن كتابه «نظرات سنغالية مجملة» (٩٨) فيلاحظ لديه اهتمام أكبر بتدوين التاريخ، يتسند أساسا على الروايات الشفهاية، وذلك في أجزاء القارة الخاضعة للهيمنة البريطانية، ولكن في نهاية القرن التاسع عشر فقط. ونشر ج. س. ريندوف سنة ١٨٩٥ ببال كتابه «تاريخ ساحل الذهب والاسنتي» ويعتبر هذا المؤلف أول مؤرخ عصري من أصل افريقي. وبدأت به وبصموئيل جونسون ــ ويعاصر كتابه «تاريخ اليوروبا» كتاب ريندوف، الا أنه لم ينشر الا سنة ١٩٢١ ــ بدأت بها سلسلة غير منقطعة من مؤرخين أفارقة، هاوين في البداية (ومعظمهم مبشرون) ثم محترفين. وعولجت آراؤهم ومؤلفاتهم في الفصل المخصص لتطور التدوين التاريخي الافريقي.

وكل هذه المصادر الروائية المكتوبة بالعربية أو بعدة لغات افريقية وأوربية، هي مجموعة من المواد التاريخية فسيحة ثرية. وهي بالطبع لا تعطي كل أوجه السير التاريخي، ولها طابع جهوي فلا تمدنا أحيانا الا بصورة جزئية. وما كتب منها من قبل كتاب مسلمين، كثيرا ما تبدي تحيزا واضحا يظهر في الكيفية التي يعالجون بها المجتمعات غير المسلمة. وأما غيرهم من مؤلفي المصادر الروائية في اللغات الاوربية، فكانوا في آن واحد جدليين مكافحين ضد نخاسة السود، أو في سبيل المساواة. وبذلك قد كانوا يجنحون الى التحيز. ولكن تلك عيوب طبيعية في كل المصادر السردية. وحتى لو أننا

(٩٢) انظر يوميات الأفضل ج. ج. شون وم. كروثر، لندن ١٨٤٢، صموئيل كروثر ١٨٥٥.
(٩٣) طوماس ب. فريمان ١٨٤٤.
(٩٤) روبرت كمبيل ١٨٦١، مرتان ر. دولاني ١٨٦١.
(٩٥) بنيمين اندرسن ١٨٧٠.
(٩٦) عن بليدن، انظر هليس ر. لنش ١٩٦٧.
(٩٧) ج. أ. ب هستن ١٨٦٨، رسائل عن الظروف السياسية في ساحل الذهب، لندن ١٨٧٠.
(٩٨) باريس، ١٨٣٣.

كنا شاعرين بذلك، فإن هذه الوثائق تتقدم لنا بمزية حاسمة: هي أصوات أفارقة يصورون لنا المنقلب الثاني من التاريخ، ذلك الذي غمرته أمواج الآراء الأجنبية.

مصادر خزائن الوثائق الخاصة، والتقارير السرية وغيرها من الشهادات

نعني بمصادر خاصة: أساسا، الوثائق المكتوبة الناتجة عن حاجة التسجيل لمختلف أنواع النشاط البشري التي لم تكن في البداية موجهة للجمهور الكبير، بل لجمع صغير من الأشخاص الذين يهمهم الأمر فقط، فهي تشتمل خاصة على المراسلة الرسمية أو الخاصة، والتقارير السرية، وعروض مختلف المعاملات والسجلات التجارية والاحصائيات والوثائق الخاصة باختلاف أنواعها، والمعاهدات والاتفاقيات، و يوميات السفن الخ. وهذه المواد هي حقا المادة الخام للمؤرخ الباحث، اذ هي تمده، خلافا للمصادر الروائية المنشأة لغرض معين، بشهادة موضوعية خالية مبدئيا من كل قصد خفي، موجهة لجمهور فسيح أو للأجيال القادمة. وتوجد هذه المواد أساسا في خزائن الوثائق والخزانات العامة أو الخاصة.

ان الرأي القديم القائل بأن ليس لتاريخ افريقيا ما يكفي من المصادر الخاصة، قد تراجع. فعلاوة على ما يوجد من المجموعات الغنية جدا من الوثائق في الدول المستعمرة السابقة، ومن المواد المهمة جدا في افريقيا نفسها مما انتج في فترات ما قبل الاستعمار والحقبة الاستعمارية، من قبل منشآت خاصة أو تابعة للدول الأوربية، فان البحوث الحديثة قد جددت مواقع كمية من المواد الخاصة، أو كشفت عنها: المواد الصادرة عن أفارقة والمكتوبة بالعربية أوبلغات أوربية. فبينما كان يعتبر في السابق، أن الوثائق من هذا النوع شاذة، وانها لم تكن لتوجد الا في أماكن متميزة، فلقد اتضح الآن أنه يوجد عدد من المصادر المكتوبة من أصل افريقي في الكثير من أقسام القارة، كما في خزائن الوثائق في أوربا وآسيا.

فلننظر أولا في المواد المكتوبة بالعربية، ففي الفترة السابقة عن القرن التاسع عشر، لم يكتشف بعد نماذج مجزأة من المراسلة المحلية أو الدولية، ولا سيا الصادرة عن افريقيا الغربية.

فهناك رسائل من السلطان العثماني الى ماي ادريس ببرنو (سنة ١٥٧٨) اكتشفت في المحفوظات التركية، ورسائل ترجع لنهاية القرن السادس عشر أيضا من سلطان المغرب الى أسكيا من السنغاي والي كنتا من الكي. وكانت العربية مستعملة كلغة دبلوماسية، ليس في البلاطات المسلمة بالسودان وحسب بل أيضا من قبل الأمراء الغير المسلمين. وأشهر هذه النماذج هم «الأسنتهان» الذين استكتبوا كتابا مسلمين بالعربية، لمراسلتهم مع جيرانهم في الشمال ومع الاروبيين على الساحل. ووجد عدد من هذه الرسائل في الخزانة الملكية بكوبنهاكن. واستعملت العربية لمسك دفاتر القرارات الادارية والقضائية والحسابية الخ. وفي الطرف الآخر من افريقيا، لدينا مثل المعاهدة بين النخاس الفرنسي موريس وسلطان كلوا سنة ١٧٧٦.

وشهد القرن التاسع عشر انتشارا عظيما للمراسلة العربية على كل القارة. فقد تطلب انشاء دول متمركزة في السودان، نشاط اداري ودبلوماسي ازداد أهمية أكثر فأكثر، واكتشفت مادة خصبة من

هذا النوع خصوصا في سلطنة سوكوتو والامارات التابعة لها، من كواندو الى آدماوا. وفي دولة معينة أو دولة لبتاكو وفي امبراطورية برنو. وحافظ كل المسلمين رؤساء الدول كبارا وصغارا على مراسلة نشيطة فيما بينهم ومع السلطات الاستعمارية المتقدمة. ففي الكثير من خزائن الوثائق ببلدان أفريقيا الغربية (وأحيانا في أوربا) نجد آلافا من الوثائق العربية الصادرة عن شخصيات، أمثال الحاج عمر، وأحمد ساكو، ومابا ولات ديور، ومحمد دولامين، وسموري، والبكائي ورابح، وكثير من سائر الرؤساء الأقل أهمية. وأقامت الادارة الاستعمارية أيضا مراسلة عربية معهم بسيراليون وغينيا ونيجيريا وعلى ساحل الذهب.

و يوجد تبادل رسائل بين الباشا العثماني بطرابلس ومشايخ برنو، و بين سلطان دارفور ومصر، و بين تمبكتو والمغرب الأقصى. وكان الوضع مماثلا في افريقيا الشرقية. على أنه يبدو أن محفوظات زنجبار ليس غنية بالوثائق التي كانت ترتجي منطقيا من مدينة كان لها ما لها من علاقات تجارية وسياسية، و بالطبع لا بد أنه يوجد في خزانات خاصة عدد من الوثائق المتفاوتة القيمة. وسوف يكون جمع هذه الوثائق وفهرستها عملا عسيرا، ولكنه لابد منه في المستقبل القريب.

ولعين الصنف، تنتمي النصوص المكتوبة بحروف فاي وهي كتابة استنبطها حوالي سنة ١٨٣٣ مومولو دو يلا بركيلي، وانتشرت بسرعة بين شعب فاي، بحيث كان الكل تقريبا يعرفون هذه الكتابة في نهاية القرن، و يستعملونها بكيفية اعتيادية في المراسلة الخاصة والرسمية ولمسك دفاتر الحساب، ولتسجيل القوانين العرفية والأمثال والقصص والروايات. وكثير من الشعوب المجاورة مثلا المندى والطوما (لوما) والكرزي والباسا استعملوا كتابة الفاي في لغاتهم، واستخدموها لعين الأغراض (٩٩).

وفي بداية القرن الخامس عشر، استنبط السلطان نجويا من باموم (كامرون) كتابة خاص للغة الباموم، حورها أربع مرات خلال حياته، ولكن خلافا لكتابة الفاي التي عمم استعمالها على معظم الأهالي، فان كتابة الباموم لم تكشفه الا لجمع صغير في بلاط السلطان، ومع ذلك فان نجويا قد ألف مجلدا ضخما في التاريخ، وفي عادات شعبه حرره بهذه الكتابة، وهو مجلد جدّ في كتابته طيلة سنين عديدة، وهو يمثل كنزا حقيقيا من المعلومات الثمينة عن الماضي (١٠٠). و ينبغي أن يضاف اليه نصوص بالنسيبيدي (١٠١) من وادي نهر الصليب (الجنوب الشرقي من نيجيريا) تتمثل في نقوش على معابد وعبارات للتعارف بين أعضاء بعض الجمعيات السرية.

وأما المواد المحررة باللغات الاوربية، فتمتد من القرن السادس عشر الى عصرنا هذا، وقد كتبت في نحو اثنتي عشرة لغة وهي غزيرة جدا مشتتة في العالم كله ومحفوظة في مئات من البقاع المختلفة في خزائن وثائق أو خزانات أو مجموعات خاصة. ونتج عن ذلك ان استغلالها من قبل المؤرخ كان صعبا نوعا ما، خاصة اذا لم يوجد دليل أو فهرست. ولذا شرع المجلس الدولي للوثائق باشراف اليونسكو

---

(٩٩) انظر د. أ. دلبي ١٩٦٧، ١ — ٥١.
(١٠٠) تاريخ الباموم وعاداتهم، حرر بادارة السلطان نجويا، ترجمة ب. هنري مرتان باريس ١٩٥٢ وحفظ الأصل بقصر السلطان بفمبام.
(١٠١) انظر دايرل ١٩١٠ — ١٩١١ وماك كريكور ١٩٠٩.

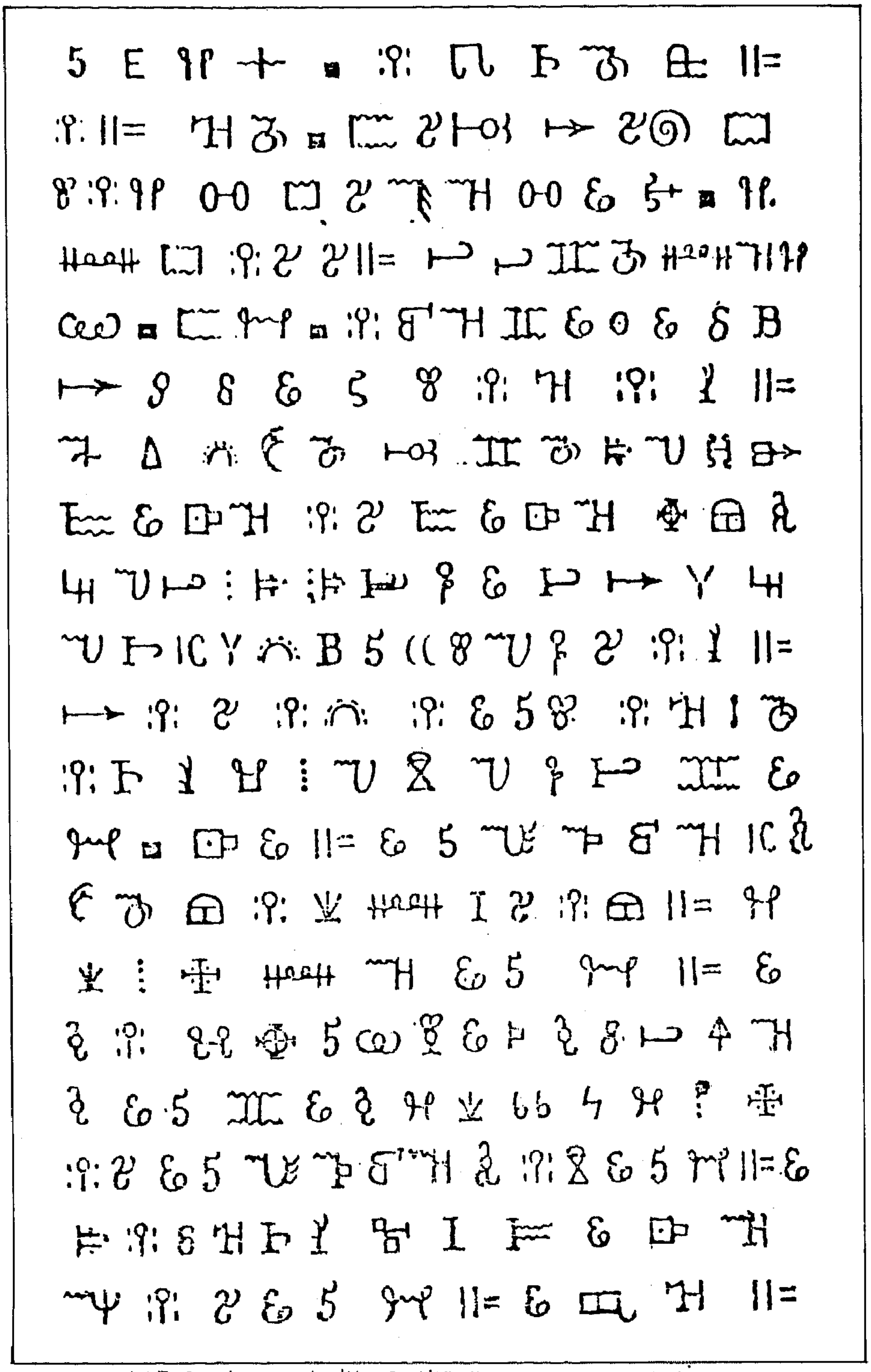
وبدعمهما الأدبي والمالي في اعداد سلسلة من الأدلة لمصادر التاريخ في افريقيا. وكان الغرض الرئيسي من ذلك ارضاء حاجيات الباحثين العاملين في تاريخ افريقيا وجعل الوصول الى كافة المصادر الموجودة سهل المنال. واذ تركز البحث التاريخي طويلا على عدد قليل من خزائن الوثائق مما يتصل بذكريات الفترة الاستعمارية. فقد كان من المفيد أن يلفت النظر أيضا، الى وجود مجموعة مهمة مشتتة تشتتا كبيرا، من المواد التي لم تستغل بعد. واذا ما خصصت الأدلة أولا وبالذات لخزائن الوثائق العمومية والخاصة، فهي أيضا تأخذ بعين الاعتبار المواد ذات الأهمية التاريخية المحفوظة في الخزانات والمتاحف. وستشتمل هذه السلسلة على أحد عشر مجلدا، تمدنا بمعلومات عن المصادر الوثائقية المحفوظة في بلدان أوربا الغربية والولايات المتحدة الدراسة لافريقيا على جنوبي الصحراء وقد تم حتى الآن نشر المجلدات الآتية: المجلد ١ الجمهورية الألمانية الاتحادية ، ١٩٧٠، المجلد ٢ اسبانيا ١٩٧١، المجلد ٣ فرنسا ١٩٧١، المجلد ٥ ايطاليا ١٩٧٣، المجلد ٦ ايطاليا ١٩٧٤، المجلد ٨ اسكندنافيا ١٩٧١. وينتظر اصدار المجلدين ٤ (فرنسا ٢) و٧ (فاتيكان) عما قريب وستصدر المجلدات التي تغطي بلجيكا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة كل على حدة، ولكنها ستتبع نفس طريقة العرض (١٠٢)، وكما قال جوزيف كي زربو في مقدمته للسلسلة: «في المعركة في سبيل استكشاف الماضي الافريقي من جديد، فان دليل مصادر التاريخ لافريقيا يمثل سلاحا جديدا، تخطيطا وعمليا» (١٠٣).

وعلاوة على هذا المشروع المهم، توجد من قبل أدلة أخرى للمصادر خاصة، أدلة حسب المناطق أو تبعا لشروط خاصة. ومن أكملها الأدلة الثلاثة لتاريخ افريقيا الغربية، وقد نشرت في السنوات ١٨٦٠. وهي تغطي خزائن الوثائق بالبرتغال وايطاليا وبلجيكا وهولندا (١٠٤).

وأما نشرات وثائق الخزائن، مطولة أو في شكل سجلات، فهي أشد طموحا والى حد ما أكبر جدوى، وحتى الآن فان المواد الوثائقية البرتغالية وحدها هي التي عرضت في هذا الشكل، فلدينا اليوم، علاوة على أعمال پايفا منصو (نهاية القرن التاسع عشر) (١٠٥) مجموعتان عظيمتان من وثائق المبشرين، مصدرها خزائن الوثائق البرتغالية (وخزائن غيرها)، احداهما من عمل أ. داسلفا ريقو (١٠٦)، والأخرى من عمل أ. براز يو (١٠٧). ومنذ بضع سنوات شرع في مجموعة معلمية أعدتها الجهود المتضافرة لخزائن البرتغال وروديسيا، ستنشر فيها الوثائق البرتغالية الخاصة بالجنوب الشرقي بنصها الأصلي مع ترجمة انكليزية (١٠٨).

وتوجد أيضا مطبوعات مختصرة في الزمن وفي مضمونها أو موضوعها، ويتمثل هذا النوع من جهة

(١٠٢) مجلدات الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى سوف تمدنا بقوائم من الوثائق تتعلق بكامل القارة.
(١٠٣) دليل مصادر التاريخ لافريقيا مجلد ١، زوق، سويسرة ١٩٧٠ مقدمة ص ٧.
(١٠٤) ب. كرسن ١٩٦٢، ريدر أ. ف. س ١٩٦٥، قراي و د. شمبرس ١٩٦٥.
(١٠٥) پايفا منصو ١٨٧٧.
(١٠٦) أ. دا سلفاريقو ١٩٤٩ — ١٩٥٨.
(١٠٧) أ. براز يو ١٩٥٢.
(١٠٨) الوثائق التاريخية لافريقيا الشرقية والوسطى لشبونة، سلسبوري منذ ١٩٦٥ ستشمل ٢٠ مجلدا تقريبا.



● نسخة طبق الاصل من مخطوط «فاي»، مستخرج من مقال بالانجليزية بعنوان «An Early vai manuscript» بقلم سقند أ. هولسو، نشره المعهد الافريقي الدولي.

في «الاوراق البرلمانية الانكليزية» وفي عدة كتب زرقاء أو كتب بيضاء مؤرخة على الخصوص في الفترة الاستعمارية، ومن جهة أخرى هناك منتخبات حديثة لها صبغة علمية أكبر (١٠٩)، من ذلك أعمال كوفلبي و ل. جادان عن وثائق الفاتكان حول تاريخ الكنغو القديم (١١٠) أو مختارات س. و. نيوبوري عن السياسة البريطانية في افريقيا الغربية. ودراسة ج. أ. ميتكالف الوثائقية عن العلاقات بين بريطانيا العظمى وغانة (١١١). والى هذا النوع أيضا تنتمي المجموعة الفسيحة من المواد الوثائقية عن السياسة الايطالية ازاء اثيوبيا والبلاد المجاورة، والتي هي بصدد النشر من قبل «جيليو» (١١٢) وعدد كبير من المنشورات الأخرى من هذ النوع، انطلاقا من خزائن وثائق أوربية، قد يسر الوصول الى الوثائق الخاصة لهذا الوجه أو ذاك من التاريخ الاستعماري. ونقطة الضعف في هذه المقتطفات فعلا وبدون شك، هي في الطابع الانتقائي، وذلك ان كل مؤلف يتبع في اختيار مواده قواعده الخاصة الذاتية، بينما يحتاج الباحث الذي يدرس مسألة من المسائل، الى كل الارشادات والى مراجع كاملة.

ويوجد اليوم في كل الدول الافريقية المستقلة، خزائن وثائق حكومية تحفظ المواد الموروثة عن الادارة الاستعمارية السابقة. وان نشرت في بعض البلدان أدلة أو فهارس، فعظم وثائق افريقيا مازالت بصدد التصنيف والوصف (١١٢) فصار اذن من الحتمي الضروري اليوم، ان تنشر سلسلة من الأدلة عن كل الوثائق العامة والخاصة لافريقيا، كالتي هي بصدد النشر بالنسبة الى الوثائق الاوربية.

وخزائن الوثائق الحكومية في افريقيا اذا ما قورنت بوثائق الدول المستعمرة القديمة فان لها حسناتها كما لها مساوئ، وبقطع النظر عن بعض الشواذ فان الوثائق المفصلة لم يبدأ بحفظها في افريقيا الا في السنوات ١٨٨٠. وفيها كثير من النقص وكثير من المواد المفقودة. فينبغي أن تسد هذه الثغرات بواسطة مصادر أخرى، أهمها وثائق المبشرين ورجال الأعمال والوثائق الخاصة، بقطع النظر طبعا عن خزائن الوثائق بالعواصم الاوربية.

وبالعكس، فان مزايا الوثائق الافريقية على وثائق الدول المستعمرة السابقة عديدة، أولا: الوثائق الافريقية تحفظ مواد ووثائق لها صلة أشد مباشرة بالحالة المحلية، بينما تشتمل «الوثائق الاستعمارية» خاصة، على وثائق عن سياسة المستعمر، والخزائن الافريقية تحفظ غالبا وثائق من فترة ما قبل الاستعمار، كتقارير رواد الاستكشاف الاولين والأخبار التي جمعها مختلف التجار والموظفين في جهات داخلية نائية، ولم تعتبر هذه التقارير جديرة بأن ترسل الى أوربا، ولكنها ذات أهمية كبرى بالنسبة الى التاريخ المحلي، وتشتمل هذه الخزائن على عدد من الوثائق الصادرة عن أفارقة يفوق عددها الموجود في خزائن أوربا. وبصفة عامة لئن وجد في افريقيا كثرة من الوثائق هي

(١٠٩) أدلة المواد لتاريخ افريقيا الغربية في خزائن الوثائق الاوربية نشرتها جامعة لندن بمطبعة اثلون منذ ١٩٦٢ انظر تعليق ١٠٤.
(١١٠) ج. كوفلبي و ل. جادان ١٩٥٤.
(١١١) نيوبوري ١٩٦٥، متكالف ١٩٦٤.
(١١٢) جيليو كارلو: ايطاليا في افريقيا. السلسلة التاريخية مجلد ١.
(١١٣) لدراسة الوضع قبيل الاستقلال انظر فيليب د. كورتن ١٩٦٠، ١٢٩ — ١٤٧.

تكرار لما وجد في أوربا، فان الباحث الذي استخدم فقط المصادر الموجودة في الدول المستعمرة القديمة، قد يكون ميالا الى كتابة تاريخ المصالح الاوربية في افريقيا، أكثر من كتابة تاريخ الأفارقة، وبالعكس، فإن استخدام الخزائن الموضوعة في افريقيا وحدها قد لا يعطي صورة كاملة، اذ قد ينقصها عدد من الوثائق أو من التقارير أو هي قد تكوم مبتورة.

وأخيرا يجب أن نذكر بعض الوثائق الأخرى المنتمية الى هذا الصنف. أولا الخرائط وسائر المواد الخرائطية. فلو أن عدد الخرائط المطبوعة عن افريقيا ازداد سنة بعد سنة منذ القرن السادس عشر، فان كثيرا منها مازال محفوظا في شكل مخطوطات في عدة خزائن للوثائق، وعدة خزانات في أوربا، بعضها مزركش وملون أجمل تلوين.

فمن هذه الخرائط نتمكن غالبا من العثور على أسماء المدن التي اندثرت اليوم، أو التي تعرف باسم آخر، بينما تذكر الأسماء القديمة في مصادر أخرى شفاهية أو مكتوبة. مثلا أن بعض شعوب البنتو الشرقيين كان لهم عادات الهجرات انطلاقا من جهة تدعى شنقوايا، ولا تعرف اليوم مدينة بهذا الاسم، ولكننا نجده مرسوما على بعض الخرائط القديمة، كخريطة فان لنشوتن (١٥٩٦) أو خريطة وليام بلاو (١٦٦٢) وغيرهما، حيث تظهر شنقوايا بكتابات مختلفة على أنها مدينة، ثم على أنها جهة قريبة من الساحل. وتفيدنا هذه الخرائط القديمة أيضا بارشادات عن توزيع المجموعات العرقية، وعن حدود الدولك والمقاطعات، وتسمي الانهار بأسماء متباينة، وكذلك الجبال وسائر العناصر الطبوغرافية، وبالجملة توفر لنا مواد خاصة باسماء البقاع مفيدة جدا وهي بدورها تفيدنا أخبار «تاريخية» نفيسة. وعرض و. ج. ل. رندلس طريقة عملية لاستغلال المواد الخرائطية لأغراض تاريخية بالنسبة الى افريقيا الجنوبية الشرقية في القرن السادس عشر (١١٤) وقد اعترف بصلاحية هذه المادة، وبين يدي المؤرخ المؤلف الكبير الذي وضعه يوسف كمال «المعلمة الخرائطية الافريقية والمصرية» وبه أيضا عدد من النصوص السردية في روايتها الأصلية وضمن ترجمات، ولكنه يقف عند القرن السادس عشر (١١٥). فمن الواجب اذن أن نوافق على طلب جوزيف كي زربو الرامي الى نشر مجموعة من كل الخرائط القديمة لافريقيا ضمن اطلس مع نصوص للشرح (١١٦). وثمة خطوة في هذا الاتجاه تمت عندما نشرت أخيرا نحو مائة خريطة في لايبزغ ولكن الشروح ناقصة واستمدت الخرائط كلها من مواد مطبوعة (١١٧).

كما يوجد في المصادر المكتوبة مواد أخرى هي المعطيات اللسنية، واذا خصص فصل متميز من هذا المجلد للنظر في اللسنية كعلم تاريخي مشارك، فاننا نترك جانبا مسائل المنهاجية ونقصر نظرنا على الاشارات الى طبيعة المصادر التي يمكن أن يعثر فيها على هذه المعطيات اللسنية، ومنذ عهد الاتصالات الأولى في افريقيا، كان من حسن الذوق أن يضاف الى أخبار الرحالة الاوربيين والى تقاريرهم المتنوعة قوائم تطول أو تقصر من الألفاظ باللغات المحلية، وترجع المعاجم الأولى الى القرن

(١١٤) و. ج. ل. رندلس ١٩٥٨.
(١١٥) القاهرة ١٩٢٦ — ١٩٥١.
(١١٦) انظر التعليق ٢ ص ٣٢.
(١١٧) خرائط افريقيا من القرن الثاني عشر الى القرن الثامن عشر.

الخامس عشر. وحتى القرن التاسع عشر قلما نجد كتابا عن افريقيا لم يذيل بملحق من هذا النوع مشفع أحيانا بملخص نحوي. وبالرغم من كون الرسم لم يكن دائما منظما، فليس من الصعب ان يوقف على هوية الألفاظ واللغات. وأهم نشرة من هذا الصنف، المجموعة الكبيرة اللغوية الجامعة لنحو ١٦٠ لغة ونشرها كولي (١١٨). وقيمة هذا العمل لا تقتصر على اللسنية كما أظهر ذلك كرتين وفانسينا وهير (١١٩). وكانت مملكة الكنغو القديمة، محظوظة في هذا المجال: فنشرت كتب تتحدث عن الكنغو منذ القرن السابع عشر مثل كتاب نحو بقلم بروشيوطو (١٦٥٩) ومعجم بقلم دي كيل (ت ١٦٥٢) (١٢٠) وعلاوة على هذه المصنفات المطبوعة، يوجد غيرها في مختلف الخزانات وخزائن الوثائق (الفاتكان، المتحف البريطاني بيزنسون الخ) وقيمتها بالنسبة الى المؤرخ أكبر من قيمة قوائم الألفاظ المجردة اذ هي أكمل، وهي تمكن من الدراسة في أزمنة مختلفة، لمجموعة المصطلحات الاجتماعية والثقافية (١٢١).

ان المصادر السردية أو الوثائقية المكتوبة باللغات الافريقية والشرقية أو الاوربية، تمثل مجموعا ضخما من المواد لتأريخ افريقيا، فهما كانت الوثائق غزيرة من كل نوع، كالكتب والتقارير المعروفة، فما هي حسب كل احتمال الا أجزاء من المواد الموجودة، وسواء في افريقيا أو خارجها، لابد أنه توجد بقاع عديدة لم تستكشف بعد من وجهة نظر المصادر الممكنة لتأريخ أفريقيا. وهذه المناطق التي لم تستكشف هي الآن «لطخات بيضاء» على خريطة معارفنا لمصادر تاريخ افريقيا. وبقدر ما تزول بسرعة تكون الصورة التي سنعطيها عن الماضي الافريقي أثرى وأغنى.

---

(١١٨) س. و. كوال ١٩٦٣.

(١١٩) ب. د. كرتين وج. فانسينا ١٩٦٤، ب. ي. هـ. هير ١٩٦٥.

(١٢٠) كتاب نحوبروسيوطو، رومة ١٦٥٩، ج. فان ونغ وس. بندرس: أقدم معجم بنتو، معجم ب. جورجي جلنسيس لوفان ١٩٢٨.

(١٢١) استعانة د. أ. أولديروج بكتاب نحو بروسيوطو لهذا الغرض، وذلك في مقاله القيم « Sistema rodstva Bakongo v XVII. » المنشور في: Afrikanskiy etnograficheskiy sbornik III. Moscou, 1959

الفصل السابع

المأثور المنقول ومنهجيته

جان فانسينا

ان الحضارات الافريقية في الصحراء الكبرى وجنوبيها كانت الى جانب كبير حضارات كلمة، ولو أن الكتابة كانت معروفة في افريقيا الغربية منذ القرن السادس عشر، غير أن معرفة الكتابة كانت وقفا على قلة قليلة من الناس، وكثيرا ما بقي دور الكتابات هامشيا بالنسبة الى مشاغل المجتمع. وقد يكون من الخطأ أن تقتصر حضارة الكلمة على نفي «انعدام الكتابة» فقط وان يحتفظ بما يبديه فطريا المثقفون من احتقار للأميين، ذلك الاحتقار الذي يلمس في الكثير من العبارات كما في المثل الصيني: «ان أبهت الحبر أحسن من أقوى كلمة» و يكون ذلك إنكارا تاما لطابع هذه الحضارات الشفاهية. ويحكم على ذلك ما كان يقوله طالب منتم لسلوك باطني: «ان قوة الكلمة رهيبة فهي تقيدنا الواحد بالآخر، وفي افشاء السر هلاكنا» (وذلك باهلاك المجتمع اذ هي تفسد السر المشترك).

الحضارة الشفاهية

فعلى من أراد استخدام المأثور المنقول، أن يتعمق قبل كل شئ في موقف الحضارات الشفاهية ازاء الخطاب، وهو موقف يخالف تماما موقف الحضارات التي سجلت فيها الكتابة كل الرسالات المهمة. فالمجتمع الشفاهي يعلم الكلام الدارج ولكنه يعلم الخطاب الأساسي، تلك الرسالة التي أورثنا أجدادنا اياها، أي المأثور المنقول. نعم المأثور يحدد بكونه شاهدا سلمه شفاهيا جيل الى جيل. و يكاد يكون «اللفظ» في كل مكان قوة سرية، اذا أن الكلمات تخلق الأشياء، وعلى الأقل ان ذلك هو الموقف السائد في معظم الحضارات الافريقية. ولا شك ان الدوكون قد عبروا عن هذه الاسمية أوضح تعبير، ولكننا نلاحظ دائما في المناسك، ان الاسم هو الشيء وان «القول» هو «الفعل».

وتتضمن صفة الشفاهية موقفا ازاء الواقع وليس ازاء نقصان شيء ما وحسب. فبالنسبة الى مؤرخ العصور الحاضرة وقد غرق في أكوام البلاغات المكتوبة، فصار مرغما على تطوير تقنية تمكنه من القراءة بسرعة ولو أنه لا يبلغ الادراك الكامل الا بفضل تكرار المعطيات عينها في العديد من البلاغات، وهكذا فان المأثورات قد تدخل عليه الحيرة. فهي تقتضي بالعكس، العودة المستمرة الى المصدر. و يلفت الزايري فو كياو النظر فعلا، الى أنه من السذاجة أن نقرأ نصا شفاهيا مرة أو مرتين وأن نظن أننا فهمناه، بل ينبغي أن نستمع اليه و ينبغي أن نحفظه وأن نستبطنه استبطان القصيد، وان نسأله كي نكشف عن معانيه المتعددة، وهذا على الأقل اذا ما كان الخطاب هاما. فعلى المؤرخ اذن أن يتعلم كيف يخفض من السرعة، وكيف يتأمل، ليتوغل خلال تمثيل جماعي أجنبي، اذ أن مجموع المأثورات يشكل ذاكرة جماعية لمجتمع يوضح نفسه لنفسه. وقد عبر عدد من العلماء الأفارقة أمثال أهمباياتي با أو بوبوهاما عن التفكير تعبيرا بليغا. وعلى المؤرخ أن يبدأ بالاطلاع على طرق التفكير في المجتمع الشفاهي قبل أن يفسر مأثوراته.

طبيعة المأثور المنقول

يحد المأثور المنقول بكونه شهادة ينقلها شفاهيا جيل الى جيل من الأجيال التالية. وصفاته الخاصة هي اللفظية والنقل الذي يختلف عن المصادر المكتوبة. ومن الصعب جدا أن نعرف اللفظية، فالوثيقة المكتوبة هي شيء محسوس، هي مخطوط ، وأما الوثيقة الشفاهية فقد تحدد بعدة طرق، اذ أن الشاهد قد يوقف شهاداته وقد يصلحها وقد يستأنفها الخ. لذا لا بد من بعض الاعتباطية لتحديد الشهادة كمجموعة من كل التصريحات التي صرح بها شخص فيما يخص سلسلة واحدة من الأحداث الماضية، ما لم يحصل الشاهد على معلومات جديدة فيما بين التصريحات. وذلك أنه في هذه الصورة قد يتغير النقل، وقد نجد أنفسنا أمام رواية جديدة، ومن الناس من يعلم روايات تتعلق بسلسلة أحداث مختلفة بأكملها، ولا سيما الاخصائيون أمثال القصاصين.

ونحن نعلم حالة شخص يروي روايتين مختلفتين في موضوع تطور تاريخي واحد و يقص الرواة الروندي‌ون رواية أولى تذكر أن أول توتسي، سقط من السماء والتقى بالهوتو على الأرض، وفي آن واحد، رواية ثانية تنص على أن توتسي، هوتو كانا أخوين،فهذه روايتان متميزتان،يرويهما شخص واحد، في موضوع واحد، ولهذا أدخلت عبارة «سلسلة واحدة من الأحداث» في تحديد الشهادة.

وأخيرا الكل يعلم قضية الراوي المحلي الذي يقص قصة ملفقة مؤلفة من مختلف الروايات التي يعرفها.

والمأثور رسالة تنقل من جيل الى الجيل الذي يليه، ليست كل المعطيات الشفاهية مأثورات. فنفرق بين الشهادات الشفاهية والتي تصدر عن شاهد عيان، اذ لها قيمة كبيرة فهي مصدر «مباشر» غير منقول يقل فيه خطر تحريف محتواه، وكل مأثور منقول مقبولا لابد أن يرجع الى شاهد عيان، ومن الواجب أيضا، ترك الشائعات التي هي نقل لخبر، الا أن طابعها الخاص هو أنها تعالج «الأصداء» الجارية. ولذا فهي تدعى في يومنا هذا «اذاعة الرصيف»، و بداخلها من التحريف

ما يجعلها لا تصلح الا للتعبير عن رد الفعل الشعبي ازاء حدث معين. وهي عينها قد تولد تراثا اذا ما رددتها الأجيال المتتالية، وأخيرا يبقى المأثور الحق الذي ينقل وثيقة الى الأجيال المقبلة.

و يقع منشأ المأثور اما في شهادة العيان أو في الاشاعة أو في خلق جديد انطلاقا من مختلف النصوص الشفاهية الموجودة، بعد عجنها وتنقيحها قصد خلق خبر جديد. ولكن المأثور المعتمد عن شهادة العيان هو وحده الصالح، وقد أدرك مؤرخو الاسلام ذلك ادراكا جيدا، فكونوا طريقة مشعبة للتحقق من الحديث الشريف، هذه الأحاديث التي تعلمها عن النبي مجموعة من أصحابه. و يزداد عدد الأحاديث مع الزمن مما يوجب الغاء ما لم يكن في الامكان اثبات صحة اسناده الواصلة بين العالم الذي سجله كتابة و بين أحد أصحاب النبي. وطور علم التدوين التاريخي الاسلامي بالنسبة الى كل تواتر، معايير الاحتمال والتصديق بشكل يطابق قوانين النقد التاريخي المعاصر. فهل كان في امكان الشاهد الوسيط أن يعلم المأثور؟ وهل كان في وسعه فهمه؟ وهل كان له فائدة في تحريفه؟ وهل أمكنه نقله؟ ومتى وكيف وأين؟.

ومن الملاحظ أن حد المأثور المعطى هنا لا يتضمن قيودا سوى اللفظية والنقل الشفاهي. فهو لا يتضمن فحسب البلاغات التي تريد قصدا أن تقص أحداث الماضي، كاليوميات الشفاهية في مملكة ما، أو شجرات الانساب في مجتمع مجزأ، بل هو يشمل كل النصوص الشفاهية المنقولة عمليا ضمن أدب شفاهي بأكمله. وفي الأدب اشارات ثمينة، بقدرما تكون شهادات غير مقصودة تتعلق بالماضي، و بقدر ما تكون أيضا مصدرا عظيما لتاريخ الأفكار والقيم والفن الشفاهي.

وأخيرا ان جميع المأثورات هي في آن واحد اثر أدبي ينبغي أن ينظر فيه من هذه الزاوية، كما أنه من اللازم أن تدرس الأوساط الاجتماعية التي أنشأته وسلمته الى غيرها، والنظرة الى العالم التي يعبر محتواها عن حضارة معينة. لهذا ستعالج الأقسام التالية على الترتيب، النقد الأدبي والنظر في الوسط الاجتماعي، وفي الوسط الحضاري قبل أن تتعرض للمشكل الزماني ولتقويم المأثور تقويما عاما.

المأثور، أثر أدبي

ان معظم الأعمال الأدبية هي من المأثورات. وكل المأثورات الواعية هي خطب شفاهية، وكما هو الأمر في كل خطاب، فان الشكل والقوانين الأدبية تؤثر في محتوى الخبر، وهذا الموجب الأول لكي يوضع المأثور في الاطار العام للنظر في البنيات الأدبية، وكي ينفذ من هذه الوجهة.

وأول مشكل هو مشكل الخبر نفسه، فهناك أربعة أشكال أساسية حاصلة من التآلف العملي بين مبدئين. فأحيانا تحفظ الألفاظ عن ظاهر قلب وأحيانا يبقى الاختيار للفنان، وفي بعض الأحيان يخضع نحو اللسان العادي لسلسلة من القواعد الشكلية الخاصة، وأحيانا أخرى لا وجود لهذا الجهاز الاتفاقي.

الأشكال الأساسية للمؤثرات الشفاهية

الشكل	المحتوى: جامد	المحتوى: حر (اختيار الكلمات)
مقعد	قصيدة	ملحمة
حر	عبارة	سرد

ولفظ «قصيدة» ماهو الا علامة تدل على جميع المعطيات المحفوظة عن ظهر قلب، المخصصة ببنية متميزة، و يشمل الأغاني.

ولفظ «عبارة» تسمية تشمل غالبا الأمثال والأحاجي والأدعية وقوائم الميراث، أي كل ما يحفظ عن ظهر قلب ولكنه ليس خاضعا لقواعد تركيب خاصة، غير قواعد النحو العادي.

وفي كلا الحالتين فالمأثورات لا تشمل الخبر بمفرده، بل تتضمن أيضا الكلمات التي صلحت لحمله. ففي الامكان اذن نظريا أن يعاد بناء انموذج أصلي، بالفعل كما يمكن ذلك في المصادر المكتوبة. اذ يمكن بناء قياسات تاريخية، على الكلمات وليس على المعنى العام للخبر فقط. وقد تتعذر بالنسبة الى العبارات و بصفة أقل، بالنسبة الى القصائد، اعادة بناء انموذج، اذ ان الاستكمالات تكون متعددة جدا، مثلا اذا ما تعرفنا أن شعار «قبيلة» نشأ عن سلسلة اقتباسات من شعارات أخرى دون أن نتمكن من فرز ما كان يتركب منه النص الأصلي المتمين. وفي الحقيقة يبقى واضحا لماذا يكون الاستكمال سهلا في العبارات، اذ لا قاعدة تحدد هذا العمل.

و بالمقابل فان المصادر الجامدة مبدئيا هي أكثر أهمية، اذ هي أدق من ناحية النقل. وعمليا فإن عدد هذه المصادر التي تقوم بنقل المعطيات التاريخية بأمانة عدد قليل. و بالطبع نجد هنا ألفاظا قديمة لا تفسر أحيانا. وقد نعبر على مدلولها في صورة لغات البنتو، ذلك لأن الفرص كبيرة، تلك التي توفرها لغة مجاورة تحتفظ بلفظ، جذره عين جذر اللفظ القديم المدروس. وفيما عدا ذلك نضطر الى الأخذ بشرح الرواية الذي يكون نقل شرحا تقليديا... أو يكون استنبطه، ومن المقلق أكثر من ذلك أن يختلط هذا النوع من النصوص بتلميحات شعرية و بتشابيه غامضة و بنكت تتحمل معاني متعددة. فلا يمكن أن يفهم النص المستغلق بدون شرح، بل أكثر من ذلك، في غالب الأحيان، فان صاحبه وحده هو الذي يكون ملما بكل دقائقه. ثم أنه لا ينقل كل شيء من الشرح المفسر للنص بكيفية تتفاوت صلاحية، وقد ينقل في آن واحد مع القصيدة نفسها.

وهذه الخاصية منتشرة جدا، ولا سيما بالنسبة للقصائد أو الأغاني المدحية الافريقية الجنوبية (تسوانا، سوتو) والافريقية الشرقية (منطقة مابين البحيرات) والافريقية الوسطية (لوبا كنغو) أوالافريقية الغربية (ايجو).

ولفظ «ملحمة» تسمية، مدلولها أنه داخل اطار مفروض من القواعد الشكلية كالقوافي، والأنماط التابعة للمقام ولطول المقاطع الخ، يحتفظ الفنان لنفسه باختيار ألفاظه. ولا ينبغي أن يختلط هذا بالقطع الأدبية ذات الاسلوب الحماسي الطويلة المدى، كأخبار سندجاتا ومر يندو

(الزاير) وغيرهما كثير. ففي الغرض المقصود هنا يشمل الأثر، علاوة على الخبر، الاطار الشكلي لاغير، على أنه أحيانا توجد في أبيات متميزة على سبيل الحشو أو لتذكير الفنان بالاطار والقالب الشكلي. ومن المحتمل أن بعض هذه الأبيات تعود الى عهد انشاء الملحمة، فهل توجد ملاحم من هذا النوع في افر يقيا؟ اننا نرى الجواب بالايجاب ونظن أن بعض الأغراض الشعرية بروندا على الخصوص، تدخل في هذا الصنف، وكذلك منشدو الأمثال القنغ (كامرون ــ غلبون)، ثم اننا نلاحظ أنه نظرا لكون اختيار الالفاظ باقيا حرا، فليس في الامكان أن يعاد بناء انموذج حقيقي لهذه الملاحم. ولكننا نضيف في الحال، أن متطلبات الشكل تكمن في احتمال أن يرجع قالب «الملحمة» الى أصل وحيد. وتدل على ذلك في الغالب دراسة الروايات المختلفة.

بقيت «الروايات» وهي تشمل غالب الوقت أخبارا تاريخية واعية. ان الحرية المتروكة هنا للفنان تمكنه من عدد من التأليفات، ومن التنقيحات المتعددة، ومن اعادة تنظيم المشاهد ومن التمديد في الأوصاف وتحليل المواضيع الخ.. و يكون اذن من الصعب أن يعاد بناء انموذج. فحرية الفنان كاملة، لكن من وجهة النظر الأدبية فقط: وقد يفرض عليه الوسط الاجتماعي أحيانا أمانة قاسية ازاء المصادر. ورغم العوائق المذكورة فانه في الامكان أن يكشف عن الاصل الهجين للتراث، بجمع كل رواياته بما فيها ممّا لا يعتبر تاريخيا و باللجوء الى روايات صادرة عن الشعوب المجاورة.

وقد ننزلق هكذا دون أن نشعر من الأمر التاريخي الى العجيب، ولكننا نتوصل أيضا الى حذف سلسلة من الروايات الشفاهية التي لا يرجع فيها الى شاهد عيان. وهذا نقد أساسي لا بد من تطبيقه.

وكل أدب شفاهي له تقسيمه الخاص الى أغراض أدبية، فالمؤرخ يعني بالتعرف ليس فقط على ما تمثل هذه الأغراض بالنسبة للحضارة المدروسة، بل على الأقل سيجمع عينة ممثلة لكل منها، اذ من المتوقع في الأغراض أن توجد معطيات تاريخية، وما يهتم به بصفة خاصة من المأثورات يكون أقرب للفهم في الاطار العام. و يأتي التصنيف الداخلي بارشادات نفيسة. وسوف يكتشف هل ان مروجي هذه النصوص يقيمون حدا، مثلا بين الأخبار التاريخية وغيرها.

وأخيرا ان الأغراض الأدبية خاضعة لمواضعات أدبية ينبغي الاطلاع عليها كي يفهم معنى النص الحق، وليس الأمر هنا القواعد الشكلية، بل اختيار الألفاظ والعبارات والسوابق الغير المألوفة ومختلف الجوازات الشعرية. و ينبغي أن يلفت النظر بخاصة الى الألفاظ أو العبارات ذات الاصداء المتعددة، ثم ان الالفاظ «المفاتيح» المرتبطة أوثق الارتباط بالبنية الاجتماعية و بتصور العالم وهي عمليا لا تقبل الترجمة، يجب تأو يلها من خلال شبكة السياق الادبي الذي تظهر فيه.

وليس في الامكان أن نجمع كل شيئ، فالمؤرخ يضطر الى قبول المتطلبات العملية وسيتقيد بها ــ مع كامل الوعي بذلك ــ اذا ما حصل على عينة تعبر عن الأغراض الادبية.

وفيما يخص المرو يات فان قائمة بأصناف المرو يات التابعة للجنس المدروس أو لغيره، هي وحدها الكفيلة بالكشف عن التشابيه أو العبارات المحببة. بل أيضا عن المشاهد المحجرة مثلا في العلاقات التي يمكن أن توصف «بالخرافات الهجر ية» (واندرساغن). وثمة رواية من لوبا على ضفاف بحيرة طنقانيكا تصف كيف تخلص بعض الامراء من آخر باستدعائه الى الجلوس على حصير قد حفر من تحته بئرا غرست فيها أوتاد مدببة، فجلس الضيف ولقي حتفه. و يوجد عين السينار يو في

مناطق البحيرات العظام حتى المحيط، بل أيضا حتى لدى الفلانيين من لبتاكو (فولطا العليا) كما لدى الهوسا (نيجيريا) والموسي في ياطنغا (فولطا العليا). وقيمة هذه الصور الرواسم واضحة. ومن سوء الحظ أنه ليس لدينا أي مرجع في موضوعها، ولو أن هـ. بومان يمدنا بارشادات عن سلسلة من الرواسم المتعلقة «بالاصول» (١) و يبدو لنا من الضروري اعداد فهارس عملية للبحث عن هذه الصور المتحجرة. ففهارس الأغراض الشعبية صعبة الاستعمال، غامضة لأنها تعتمد على أوصاف صغيرة اختيرت اعتباطا، بينما يمثل المشهد في المرويات الافريقية وحدة طبيعية في مصنف ما.

فاذا وجدنا روسما من هذا النوع، فليس من الحق أن يرمي بكل الأثر أو حتى بالجزء الذي وجدت فيه هذه اللقطة على أنه غير صالح، بل يجب أن يفسر لماذا استعمل هذا الروسم، والمثال المذكور يوضح فقط أن رئيسا ما تخلص من رئيسا آخر، ولكنه يضيف شرحا اصطناعيا يروق للمستمعين. وسيلاحظ في الغالب أن هذا النوع من الرواسم يدعم تفاسير وشروحا على معطيات قد تكون صالحة.

والنقد الأدبي بمعناه الصحيح لا يهتم بالمعاني اللفظية والمعاني التي يقصدها الأثر فحسب، بل كذلك بالضغوط المفروضة على عبارة الخبر بسبب المتطلبات الشكلية والاسلوبية. وهو سيقوم اثر التحريف الجمالي، ان كان موجودا، وهذا ما يحصل غالبا. وفي الواقع حتى رسائل الماضي يجب أن لا تكون شديدة الازعاج. وهنا تكتسي ملاحظة التمثيلات الاجتماعية الخاصة بالمأثور أهمية أساسية. ونحن نقول «تمثيلات» لا «نسخا» اذ في معظم الحالات يلعب العنصر الجمالي دورا. فاذا ما تفوقت العلامات الجمالية، على أمانة النسخ ينتج عن ذلك تحريف جمالي عميق يعكس ذوق الجمهور وفن الأديب التقليدي. وحتى في غير ذلك من الحالات فاننا نجد غالبا اصلاحات للنصوص تصل الى إكساء المأثورات ذات المحتوى التاريخي المدقق، كسوة القوانين الفنية الجاري بها العمل.

ففي المرويات مثلا يرتب العقدة الأساسية سلسلة من المشاهد توصل الى القمة، بينما يمثل غيرها اعادات موازية، ومع ذلك فان غيرها أيضا ما هو الا معابر ينتقل الخبر فيها من درجة الى أخرى. وبصفة عامة يمكن أن نقبل أنه كلما اقترب نص من النموذج المتوقع الرائق للجمهور، كلما ازداد انحرافا. ومن بين سلسلة من الروايات، فان الرواية الصحيحة تتميز بكونها تسير على عكس الانموذج، كما أن الرواية التي تناقض الوظيفة الاجتماعية للمأثور، من المحتمل أن تكون أصح من غيرها. ولا ننسى هنا أنه ليس كل فناني الكلام جيدين. فمنهم من هو سيء وسيكون نصيب روايته دائما الخيبة. ولكن موقف الجمهور وهو في هذا كتركيب تمثيلية ليس حدثا فنيا فقط بل هو قبل كل شيء حدث اجتماعي، وهذا ما يفرض علينا أن نعتبر المأثور في وسطه الاجتماعي.

(١) بومان ١٩٣٦.

الاطار الاجتماعي للمأثور

ان كل ما يراه المجتمع مهما لحسن سير منظماته ولتفهم الأوضاع الاجتماعية والوظائف المنوطة بها تفهما حسنا، ولحقوق كل شخص وواجباته، كل ذلك ينقل باتقان. في المجتمع الشفاهي يتم ذلك بالرواية، بينما في المجتمع الكاتب لا يترك للرواية سوى الذكريات الأقل أهمية. وهذا ما أوقع طويلا المؤرخين في الخطأ، اذ ظنوا أن الروايات ضرب من حكايات بيرو ومن أناشيد تنويم الأطفال أو الألعاب الصبيانية.

لكل مؤسسة اجتماعية ولكل مجموعة اجتماعية أيضا هوية خاصة يتبعها ماض مسجل في التمثيلات الجماعية لتقليد يفسرها و يبررها. ولهذا يكون لكل مأثور «سطحه الاجتماعي» حسب تعبير هـ. مونيو. فلولا سطحه الاجتماعي لانقطع المأثور عن الانتقال، وأصبح غير ذي وظيفة، فيفقد مبرر وجوده وتهمله المؤسسة التي تشده.

وقد يميل الى اتباع بعض ممن ظنوا أنه في الامكان أن يتكهن بملامح الجمهور من خلال المأثور التاريخي لمجتمع معطى، انطلاقا من تصنيف الجماعات الى أنماط، أمثال «دول» «مجتمعات فوضوية» الخ. فلئن صح أنه يمكن تصنيف سلسلة المجتمعات الافريقة تصنيفا تقريبا الى أنماط من هذا النوع، فليس من الصعب أن يبرهن أن هذه النموذجية في وسعها أن تتابع الى مالا نهاية، اذ يختلف كل مجتمع عن غيره، عدا أن المعايير المستعملة هي اعتباطية محددة. فلا وجود لدولتين متطابقتين أو حتى متشابهتين بالتفصيل. وتوجد فروق عظيمة بين الخطوط العظمى لتنظيم مجتمعات مساي (كينيا ــ تنزانيا) وامبو (كينيا) وورو (كينيا) وكالا (كينيا ــ اثيوبيا) ولو أنه في وسعنا أن نصنفها جميعا كمجتمعات «ذات فئات أعمار» وهي كائنة في جزء واحد من افريقيا. وان أردنا أن نتخذ كمثال مجتمعا منعوتا «بالفوضوي البسيط» يشتمل على جماهير صغيرة ترتبط بقرابات متعددة، فقد يكون مجتمع الكورو (ساحل العاج) مثالا حسنا لذلك. ونتوقع هنا «ملامح» للمأثور لا تحتفظ الا بتواريخ الانساب والأجيال، ونجد فعلا تلك التواريخ. ولكننا نجد أيضا تاريخا باطنيا ينقله مجتمع سري. ولئن أخذنا مثال الكونكا الطونك بزامبيا، فاننا نجد من جديد تاريخ النسب، ولكن في الوقت نفسه نجد تاريخ مراكز المناسك التي يحركها «الممطرون». فما من مجتمع من هذا الصنف لا توجد فيه مؤسسة رئيسية «غير متوقعة». والمثال النهائي للدول، هو مثال مملكة باتيكي (طيو)، حيث لا ترجع التقاليد الملكية الى أكثر من جيلين، بينما يفترض أن تكون للممالك تقاليد قديمة جدا. ثم اننا ونحن نجمع المأثورات من الرموز السحرية للاسياد. نطلع بعيدا في الزمن أكثر مما نطلع إذا نحن تتبعنا الرموز المتعلقة بالرمز الملكي.

والتعميمات السريعة ليست في محلها. وانما تعين لاحقا «ملامح» مجموع المأثورات المعطاة.

ومن الواضح أن ما تقوم به المأثورات من وظائف تعمل على تحريفها، ولو أنه ليس في الامكان أن يوضع سجل كامل للوظائف، اذ أن مأثورا ما في امكانه أن يقوم بعدة وظائف، وأن يلعب دورا مدققا أو غامضا بالنسبة لما يقوم به من وظائف. ولكن السبب الرئيسي هو أن لفظ وظيفة فيه لبس، فيستعمل في غالب الأحيان للتعبير عن كل ما من شأنه أن يقوي المؤسسة التي يتبعها أو أن يحافظ عليها. ونظرا لكون الرابط غير محسوس، فقد يوفر الخيال قائمة الاختيار بينها. على أنه في الامكان أن يميز بعض المأثور وذلك «كالمواثيق الاسطورية» تلك التواريخ الخاصة بعائلات الملوك

والانساب وقوائم الملوك التي يمكن اعتبارها حقا، كدساتير غير مكتوبة. ويمكن افساح هذا الصنف بأن يضم اليها كل المأثور المتعلق بالأغراض القضائية العامة، كالذي يعمم الحقوق العامة على نطاقات. وهو عادة مأثور رسمي، بمعنى أنه يدعي الصلاحية المطلقة للمجتمع. وأما المأثورات الخاصة المقترنة بجمهور أو بمؤسسات تنضوي تحت غيرها، فقد تحفظ حفظا أقل، اذ هي أقل قيمة، ولكنها غالبا أصدق من سواها. على أنه يجدر أن يشار الى أن المأثور الخاص هو رسمي بالنسبة الى الجمهور الذي ينقله، فتاريخ أسرة من الأسر تاريخ خاص بالنسبة لتاريخ الدولة كلها، وما من شأنه أن يتضمن أمورا عن الدولة لا يقبل المراقبة من الدولة بقدر ما يقبله المأثور العام الرسمي. ولكن المأثور الخاص يكون رسميا داخل الاسرة، وفي كل ما يخص الاسرة ينبغي أن يمارس هكذا. فمن المفهوم اذن أنه ليس مفيدا أن يستعمل المأثور العائلي أو المحلي لتوضيح نقط من التاريخ السياسي العام. وشهادته من شأنها أن تحرف أقل من غيرها فتمكن من مراقبة التصريحات التي ينص عليه المأثور الرسمي مراقبة ناجعة. وبالعكس فلان الأمر يهم «تحت مجموعات» فان عمق نقله والعناية به كثيرا ما يكونان غير مرضيين، كما تدل على ذلك روايات متعددة.

ومن الوظائف الأخرى المتداولة نذكر باختصار الوظائف الدينية والطقسية (كيفية القيام بالشعائر) والوظائف القضائية الخاصة (السوابق)، والوظائف الجمالية والتعليمية والتاريخية، ووظيفة شرح نص سري، وما يسميه علماء الانتروبولوجيا بالوظيفة الاسطورية.

فاذا ما وضعنا الوظائف في جهة والغرض الأدبي في جهة أخرى، أمكننا أن نكون للمؤرخ نموذجية صالحة تجعله قادرا على القيام بتقويم عام للتحريفات المحتملة التى تحملتها مصادره، مع اعطائه ارشادات عن نقلها. واذا ما اقتصرنا على النماذج التي أنتجها هذا التصنيف، فبوسعنا أن نميز الأسماء والالقاب والشعارات أو الرموز والعبارات التقليدية والعبارات التعليمية (الأمثال) وقوائم أسماء المكان وأسماء الأشخاص والانساب الخ. وفي كل ذلك فإن الأمر يتعلق «بعبارات» ينظر اليها من خلال الشكل الاساسي. فالقصائد التاريخية والمدائح والاشعار الدينية أو أشعار المناسبات الابتهالية أو الشخصية (الغنائية أو غيرها) والأغاني من كل الانماط (لتنويم الأطفال، وأغاني الشغل، والصياديين والقذافين، الخ...) كل ذلك «قصائد» من وجهة النظر هذه. و«الملحمة» كشكل أساسي تتمثل في بعض القصائد التي تقابل ما يسمى عادة بهذا الاسم. وأخيرا تشمل «القصة السردية» الأخبار العامة، التاريخية أولا، والأحاديث المحلية والعائلية والملحمية والباحثة عن أسباب الأمراض والجمالية والذكريات الشخصية. و يضاف الى ذلك هنا السوابق القانونية التي قلما تنقل بواسطة الرواية الشفاهية، وشروح النصوص والمذكرات والأحاديث العرضية، وهي أساسا أجوبة مختصرة عن أسئلة كهذه: كيف توصلنا الى زراعة القطاني؟ من أين أتى قناع الرقص؟ الخ...

من القائمة السابقة نشاهد في الحال ما يمكن أن يكون العمل المحرّف لمؤسسة من المؤسسات على كل هذه النماذج. على أنه يجب أيضا أن يبين أن هذا العمل تم بالفعل أو أن احتمال التحريف فيه قوي جدا. وقد نصل أحيانا الى أن نظهر مأثوراتنا صالحة حقا لكونها لا تخضع للتحريف المتوقع — مثلا، هذا شعب يدعي «أصغر» من آخر، أو أن يومية ملكية تقر بهزيمة، أو تلك العبارة التي من شأنها أن تفسر الجغرافيا الطبيعية والبشرية لبلد ما لم تعد تنطبق على الواقع الحاضر. في كل هذه

الحالات يبين التحليل صلاحية الأثر لكونه قاوم عملية التسوية.

زعم كودي وواط في كتابهما الخاص بظاهرة الكتابة، أن المجتمع الشفاهي يقوم دائما وتلقائيا بعملية انضباط ذاتي تمحو من الذاكرة الجماعية ــ ومن ثم عبارة سهوبنيوي ــ كل تناقض بين المأثور وبين سطحه الاجتماعي، وتدل الأمثلة السابقة على أن هذا الانضباط ما هو الا جزئي، ولذا لا يمكن أن نرفض رفضا اجماليا قيمة المأثورات التاريخية بدعوى أنها تخدم بعض الوظائف، ويتبع ذلك أيضا أنه من الواجب أن يُجرى نقد اجتماعي دقيق لكل أثر من المأثورات.

ويزعم هذان المصنفان في عين الكتاب أن ثقافة المجتمع الشفاهي متجانسة، أي أن محتوى المعلومات في مخ كل مراهق هي ذاتها تقريبا. وليس ذلك صحيحا تمام الصحة، فالاختصاصيون الصناع والسياسيون ورجال الدين يعلمون عدة أشياء لا يعلمها معاصروهم من بين جنسهم، ولكل جنس مفكروه، فلدى الكوبا (زايير) مثلا، وجدنا ثلاثة أشخاصٌ انطلقوا من نظام واحد من الرموز، فبلغوا ثلاث فلسفات متباينة، ونظن أن الأمر هو ذاته عند الدوكون. وفيما يخص التراث فاننا نلاحظ في عدد كبير من الجماعات وجود تراث باطني سري من نصيب جماعة صغيرة، في نفس الوقت عدا تراثا باطنيا عموميا. فأسرة أشنتي المالكة مثلا كانت تعرف خبرا سريا عن أصلها، بينما لم يكن في متناول الجمهور العظيم الا الرواية العامة. وفي رواندا كان الاخصائيون بايرو وحدهم يعلمون شعائر الملك، ومع ذلك كان من اللازم أن يلتئموا جميعا لتكون معرفتهم كاملة، اذ لم يكن بين يدي كل جماعة بايرو الا جزء منها. وفي معظم الحفلات التذكارية التاريخية في نيجيريا كما في معظم تقاليد الملوك في أفريقيا، توجد أعمال وتقاليد سرية. فهل يعني ذلك أن المأثور السري هو حتما أصح من المأثور الظاهر؟ إن الأمر تابع للسياق، فقد يحرف المأثور السري نفسه لأسباب قاهرة خصوصا وان الهيئة التي بيدها السر جماعة أساسية في المجتمع. ولنلاحظ هنا أننا بالتجربة لا نعرف الا القليل من المأثور الباطني، اذ أن النظام القديم الذي تمتد فيه جذوره لم ينقرض تماما. وما نعرفه منه منشؤه المجتمعات التي انقلبت حتى أعماقها. ولا شك أن الكثير من هذا المأثور سيضمحل دون أن يتمكن المؤرخ من جمعه. ولكننا انطلاقا من النتف التي بين أيدينا نستطيع مع ذلك أن نؤكد أن بعض المأثور الاوكبوني من بلاد ياروبا قد حرف الى حد أنه لم يعد يؤلف خبرا صالحا عن أصول الأوكبوني. بينما يبدو البايرو مثلا أكثر صلاحية، وليس منشأ ذلك طابعه الباطني بل هدف هذه المأثورات، فالأول يبرر سلطانا قويا في يد جماعة صغيرة من الناس، والثاني ما هو الا حفظ شعائر عملية داخل الذاكرة.

ولكل مأثور سطحه الاجتماعي. فللحصول على المأثور التابع له وللنظر في قيمة نقله، ينبغي للمؤرخ أن يعرف الى أقصى حد ممكن هذا المجتمع. فعليه أن يفحص مؤسساته كلها للوقوف على المأثور، تماما كما يفحص كل الأغراض الأدبية كي يكتشف فيها المعطيات التاريخية. ففي يد الجمهور المسير للمجتمع المأثور الرسمي، وغالبا ما يتم نقله بواسطة إخصائيين يستعملون طرقا مقربة للذاكرة (غالبا الغناء) ليتذكروا نصوصا، عليهم حفظها. ويراقبهم أحيانا زملاء لهم عند تلاوتها في مجلس خاص، وعند التباري بين العموم أثناء احتفال عظيم. ولكن الاخصائيين ليسوا دائما مقيدين

بالسلطة، وكذلك الشأن بالنسبة لعلماء الأنساب وطبالي الرؤساء أو الملوك وحراس القبور (٢) وكهنة المعتقدات القومية. و يوجد أيضا إخصائيون من مستويات أخرى. فعند الكسوزا (افريقيا الجنوبية) وجد نسوة إخصائيات في فن التمثيل للاخبار المسلية نتسومي ــ وبجوارهن نسوة أخريات يحسن هذا التمثيل أيضا ولكنهن لم يجعلن منه اختصاصا. وهذا الأمر متداول في الحفلات الشعبية، وأحيانا يكون بعض القائمين بالأعمال الدينية من الاخصائيين في المأثور المنقول: فحراس مهندوروشونا (روديسيا) مثلا يعرفون تاريخ الارواح التي انتدبوا لحراستها. وأخيرا فان بعضهم من رواة الشعر كالسحرة يجمعون المأثورات من كل المستويات ويمثلون النصوص الاصطلاحية أما مستمعين مناسبين في ظرف معين: عرس، موت، حفل عند الرئيس الخ. وقلما توجد صورة لا اختصاص فيها حتى في مستوى تاريخ الأراضي او الاسرة، فهناك دائما أفراد من مستوى عال اجتماعيا (مثلا الأبشنكا نتابي في البدرندي في مسائل الارض)، او ممن له مواهب أحسن يترك لهم السهر على حفظ المأثور وعلى نقله. وفي النهاية هناك صنف أخير من الناس أحسن علما (ولا نجرؤ على استعمال لفظ إخصائيين) هو صنف الذين يسكنون بجوار المواقع التاريخية الهامة. فهنا الحياة وسط المنظر نفسه الذي شاهد معركة مثلا تكون وسيلة لادخار التراث في الذاكرة.

فتفحص السطوح الاجتماعية، يمكن من الكشف عن المأثور الموجود ومن وضعه في سياقه، ومن ايجاد الاخصائيين الذين ينقلونه، ومن النظر في نقله. كما يمكن من العثور على اشارات نفيسة عن تردد التمثيلات نفسها وشكلها. ان التردد معيار صدق النقل، فعند الدوكون (مالي) لا تنقل مناسك السيجي إلا مرة كل ستين سنة تقريبا. وهذا مما يساعد على النسيان، وقلما شاهد انسان مرتين السيجي وفهم هويته، المرة الاولى حتى يتمكن من مسايرة الثانية، ولا يتمكن من ذلك الا أشخاص عاشوا ٧٥ سنة على الأقل، ومن المفروض أن محتوى السيجي وما يلقي من تعليم، يتغير تغيرا أشد من أي شكل من أشكال المأثور، ومثال ذلك شكل حفل سنوي في نيجيريا الجنوبية.

ومن جهة أخرى فان تكريرا كبيرا لتمثيلية لا يعني بالضرورة ان صدق النقل كان كبيرا أيضا. فهذا يتبع المجتمع. فاذا كان المجتمع يتصف بصدق دقيق جدا. فان التكرار يساعد عليه، وذلك الشأن في العبارات السحرية كتلك التي يتفوه بها لدفع السحر مثلا. فبعض العبارات مبوون (زايير) لطرد المطر تحل في اطار جغرافي عتيق جدا، بحيث لا وجود الان لاي عنصر يذكر فيها في بلاد مبوون الحالي. وبالعكس اذا كان المجتمع لا يعير أي أهمية لصدق النقل، فتكرار التمثيل الكبير يفسد النقل بكيفية أسرع من التكرار الصغير. وهذه حال الأغاني الدارجة وبخاصة الروايات الشعبية الأكثر وضوحا، على أنه يمكن، بل يجب أن يراقب كل ذلك بدراسة الروايات المجموعة، و يكون مداها قياسا مباشرا لصدق النقل.

و يبدو أن التغيرات تقع دائما في اتجاه يقوى الارتباط بين المؤسسة والأثر الذي يتبعها. وهكذا فان كودي وواط لم يكونا مخطئين تماما، فاذا ما وجدت روايات واذا ما اصطفت على محور معين، فلسوف نستنتج ما كان منها أقل تنسيقا مع الهدف، ومع وظائف المؤسسة الأكثر صلاحية. ثم إنه قد

(٢) على أنه في بعض البلدان يمثل هؤلاء جزءا لا يتجزأ من الفئة المسيرة، مثلا فيما يخص البند ــ نابا (رئيس الطبول) عند الموسي.

يدل على أن أثرا ما غير صالح، سواء في حال ما اذا فقدت الروايات، وما اذا صار الأثر محجرا من نوع «أتينا كلنا من (س)» وان (س) موافق تماما لحاجيات المجتمع أو في حال تباين الروايات تباينا، كما في الأخبار الشعبية، بحيث نكاد لا نتعرف على ما يتكون منه الأثر وما يميزه على غيره. فيصير من الواضح اذاك أن معظم الروايات هي من صنع يتفاوت جدة، عن أخبار شعبية أخرى. ولكنه في كلتا هاتين الحالتين القصويين يجب التمكن من البرهنة على أن فقدان الروايات يقابل حقا معللات قوية للمجتمع، كما أن تكاثر الروايات يقابل حقا أغراضا جمالية أو تسليات تحل محل كل اعتبار آخر. و يقتضي أن نتمكن من البرهنة، على أن مصادرات الحضارة غير الواعية هي التي عملت على تجانس الاثر الى حد تحجيره في روسم لا تنوع فيه. وهذا هو فعلا تأثير الحضارة الذي يجب النظر فيه الآن بعد قيامنا بالنقد الاجتماعي.

الاطار الذهني للأثر

نعني بالاطار الذهني التمثيلات الجماعية اللاواعية لحضارة ما والتي تؤثر في كل عباراتها وتكون في آن واحد نظرتها للعالم. ويختلف هذا الاطار الذهني من مجتمع الى آخر، وعلى مستوى سطحي فاننا نجد بسهولة جزءا من هذا المجموع، ونحن نتفحص محتوى المأثورات بأكملها، بواسطة النقد الأدبي الدراسي، وبمقارنة هذا المجموع بسائر مظاهر الحضارة ولاسيما الرمزية منها. فالأثر، و بخاصة عندما يكون بصورة قصيدة أو قصة، يرتفع الى المثالية، وهو يخلق صورا مثالية. ويميل كل تاريخ الى أن يصير نموذجا و بالتالي اسطوريا. سواء أكان محتواه «حقا» أم لا. وهكذا نجد أنماطا من السلوكات المثالية وقيما، وليس من الصعب كثيرا أن نكتشف أن في التراث الملكي يصير الافراد محجرين كما في أشرطة الوسترن؛ فهذا الملك «الساحر» وذاك السلطان «العادل» وذاك «بطل الحرب»: وفي هذا ما يحرف المعطيات اذ قد تنسب سلسلة من الحروب مثلا الى ملك محارب بينما تمت معاركها في الواقع على يد غيره، ثم ان كافة الملوك يشتركون في سمات تعكس فكرة الملكية المثالية، وليس من الصعب أيضا أن نجد تحجيرا لشخصيات مختلفة، ولا سيما الزعماء، في مجتمعات أخرى. وذاك مثل «البطل الثقافي» الذي يحول الفوضى الى نظام اجتماعي والذي نلقاه في كل مكان. وتحجير الفوضى يتمثل حينئذ في وصف عالم انقلب بالضبط رأسا على عقب. فعند الايجالا (نيجيريا) ان بعض المنشئين صيادون والبعض الآخر من سلالة الملوك. فيمثل البعض الأول انموذج الوضع المكتسل، ويمثل الثاني الوضع الوراثي، وقد يفسر (التأمل وجود الوضعين وهو يوحي كما لاحظنا أن التحجير الأول يحجب الجموع الجديدة عن السلطة وان التحجيرين يعكسان وضعين تاريخيين متباينين حقا.

ولكن الشرح المرضي حقا يجب أن يصل الى استنباط كل نظام القيم والأمثلة المرتبطة بأوضاع وأدوار هي قواعد كل عمل اجتماعي وكل نظام عام. وكان من اللازم أن ننتظر السنوات الأخيرة كي يجد ماك كافي لدى أهل الكنغو (زايير/الجمهورية الشعبية الكنغولية) نظاما متحجرا بسيطا يعتمد أربعة أنظمة مثالية: الساحر والكاهن والرئيس والنبي، وهي أوضاع تكاملية، والتعرف على أن قيمة عامة هي ايجابية أو سلبية أمريسين، وتذوق الكرم ورفض الحسد على أنه علامة سحر و وظيفة القدر، كل تلك قيم تشاهد مباشرة في تقاليد خليج البنين، كما في البلدان الواقعة بين البحيرات

أيضا. ولكن القيم تكشف واحدة واحدة كنظام منسجم يشمل كل التمثيلات الجماعية: اذ أن القيم والمثاليات لا تصف الا مثلا للسلوك الأفضل، أو أحيانا السلوك الواقعي الصلف، ومن شأنها أن تهدي السلوك الواقعي، وما يرتجى من كل فرد من الأدوار... والأدوار مرتبطة بالأوضاع وهي ترتبط بالمؤسسات والكل يكون المجتمع. وهكذا فنظريا يجب أن «يفكك» المجتمع للوقوف على أنماط عمله وعلى مثله وقيمه. و يقوم المؤرخ بذلك غالبا دون أن يشعر و بكيفية سطحية، وهو يتجنب ما اتضح من الافخاخ ولكنه يعود بسهولة دون أن يعلم، الى المقدمات التي يفرضها النظام بأكمله. ولا يوفق في «قلع» مصادره من وسطها. ونحن نعلم ذلك جيدا اذ قضينا ثمانية عشر عاما في الكشف عن علاقات من هذا النوع، في تحوير المأثورات التي أصلها قبيلة كوبا بالزايير.

ومن التمثيلات الجماعية التي تؤثر أكبر تأثير على المأثورات نذكر خاصة سلسلة من المقولات الأساسية تتقدم على تجربة الحواس وهي مقولات الزمان والمكان والحقيقة التاريخية والسببية. و يوجد غيرها كمثل تقسيم الطيف الى ألوان، وهي أقل قيمة، وكل شعب يقسم المدة الى وحدات، اما استنادا الى النشاط البشري المرتبط بعلم البيئة، أو الى النشاط الاجتماعي المستقرأ (الزمان البنيوي) وكلا الشكلين من الزمان استعمل في كل مكان، كالفصل بين اليوم والليل، وتقسيم اليوم الى أجزاء تقابل الشغل أو الوجبات الغذائية، وجعل النشاط مرتبط بارتفاع الشمس كما أخذت أصوات بعض الحيوانات لتقسيم ساعات الليل الخ.

ويحدد عادة الشهر (القمري) بالبيئة وما يتبعها من نشاط، وكذلك الفصول والسنة. وفيما بعد ذلك يصير من اللازم أن يتم العد بواسطة الوحدات البنيوية للزمان، وفيما أقل من ذلك يحدد الاسبوع بالتواتر الاجتماعي، بسير دورية الأسواق وهي تقرن كذلك بدورية دينية في الكثير من الحالات.

وفيما وراء السنة يكون العد بتلقين ديني، أو بطبقات العمر أو بمدة الملك أو بالجيل. وفي التاريخ العائلي قد تتبع الولادات وقد يستعمل تقويم بيولوجي، و بصفة مبهمة قد يتم الرجوع الى أحداث استثنائية كالمجاعات الكبرى والجوائح الحيوانية أو الأوبئة المشهودة، أو ذوات الذنب أو اجتياحات الجراد، و بالطبع ان هذا التقويم المبني على الكوارث ليس منتظما في مسيرته، ولأول وهلة قد تبدو قليلة الفائدة بالنسبة الى التاريخ، بينما يلوح أن الأحداث المستقرة تعد بامكانية تحويل التاريخ النسبي الى تاريخ مطلق، اذا ما علم تكرار الأجيال وأصناف العمر ومدد الملك الخ...

والعمق الأقصى للزمان الذي وجدته من جديد الذاكرة الاجتماعية يتبع مباشرة المؤسسة المرتبطة بالمأثور، فلكل منها عمقه الزماني الخاص، ولا يرجع تاريخ العائلة الى بعيد، اذ أن الاسرة لا تعد سوى ثلاثة أجيال، وانه في الغالب لا فائدة كبرى في تذكر الأحداث السابقة، فالمؤسسات التي تشمل أكثر عدد من الناس، لديها الحظ الأوفر لكي تدفعنا الى الغوص في الزمان الى أبعد مدى. ويحقق ذلك فيما يخص القبيلة، والنسب الأقصى وصنف العمر من نوع «ماساي» والملكية. وفي السهوب السودانية فان تقاليد الممالك والامبراطوريات بتكرور وغانة ومالي، التي عالجها المؤلفون العرب والسودانيون تصل حتى الى القرن الحادي عشر. على أن المؤسسات كلها تكون محددة أحيانا، بنفس مفهوم عمق الزمان، كما هو الأمر عند البتيكي (الجمهورية الشعبية الكنغولية). حيث يرجع الكل الى جيل الأب أو جيل الجد. و يدخل الكل في باب الزوج والفرد، فالفرد يقع في زمان «الآباء» والزوج في عهد «الأجداد» بما في ذلك التاريخ الملكي.

و يبين هذا المثال أن فكرة شكل الزمان مهمة جدا. في منطقة ما بين البحيرات تعترضنا فكرة الزمان الدورية. ولكن حيث أن الأدوار تتعاقب فإن هذا المفهوم يؤدي الى الحلزونية، وفي منظور آخر للمجتمعات عينها نميز فترات، وعلى الخصوص فترة الفوضى والفترة التاريخية. وفي بلدان أخرى كما عند البتيكي، فان الزمان ليس خطيا، وهو يتأرجح بين أجيال متعاقبة، ولا يخفي ما لذلك من النتائج في عرض المأثورات.

وأما أن يكون تصور المكان ذا أهمية، فإنه في هذا السياق أقل وضوحا. ولكننا غالبا نميل الى جعل أصل شعب من الشعوب في مكان أو في اتجاه التقويم: اتجاه «مقدس» أو «علماني»، حسب ما يظن من أن الانسان يسير من المقدس الى العلماني أو العكس. وكل شعب يفرض نظاما من اتجاهات جغرافيته. وكثيرا ما كانت الأنهار محور الاتجاهات الاساسية. فيسجل معظم الشعوب اتجاه قراهم وحقولهم أحيانا (كوكويا في جمهورية الكنغو) في هذا النظام من المحاور، كما يعمل الكثير منهم أيضا على توجيه قبورهم. وتكون النتائج أحيانا غير متوقعة، والفضاء المرتب حسب محور واحد، داخل في جملة التضاريس، يتغير بحسب الوضع النسبي لعناصر هذه التضاريس. فهنا يكون «الحضيض» في الغرب وهناك يكون في الشمال، وهنا يكون «نحو القمة» جهة الشرق وهناك جهة الغرب، فيلاحظ أن الهجرات قد يكون منشؤها اتجاهات محيرة كما هو الشأن لدى الكوبا (زايير) والكاكورو (تنزانيا). و يدخل هذا الخبر في علم الكونيات أكثر منه في التاريخ، ولكن قد يؤدي الأمر الى أن تشاهد تغيرات في نقط الأصل، نتيجة مفاجآت مما يبرز أمامنا، فالمجتمعات التي تستعمل سير الشمس لتعيين محور الفضاء هي وحدها التي قد توفر ارشادات صحيحة في مادة حركات الهجرة العامة، ولكن من سوء الحظ هذه الشعوب قلة فيما عدا ربما افريقيا الغربية، حيث معظم الشعوب يرجعون الى الشرق لتعيين أصلهم.

وفكرة السبب ضمنية في كل مأثور منقول، وقد تعرض في شكل سبب مباشر متميز بالنسبة لكل ظاهرة. في هذه الصورة لكل أمر أصل يقع مباشرة في بداية الأزمنة، وتدرك السببية أحسن ادراك بالنظر في الأسباب المنسوبة الى الداء. فهي مرتبطة بقوة مباشرة بالسحر و بالأجداد الخ. والرابط مباشر، و يبدو من هذا النمط من السببية أنه يشعر بالتغير أساسا في بعض الميادين المحددة كالحرب وتتابع الملوك الخ، حيث تتدخل المتحجرات. ولنذكر أخيرا أن هذه اللمحة عن فكرة «السبب» هي ملخصة جدا ويجب أن تستكمل بفكرات سببية أكثر تعقيدا ولكنها موازية لها، وهي لا تهم سوى مؤسسات اجتماعية ثانوية.

وأما الحقيقة التاريخية فتبقى مرتبطة جدا بصدق الكلمة المنقولة، وهكذا فقد تكون نتيجة اجماع المسيرين (إيودوما، نيجيريا) أو التأكد من أن المأثور موافق لما قاله الجيل السابق.

وتتآلف مقولات المعرفة فيما بينها وتترابط مع عبارات ترمز للقيم وتتآلف، لانتاج نص يصفه علماء الانتروبولوجيا «بالاسطورة». والمأثورات الأكثر ارتباطا بالبيئة الاسطورية، هي تلك التي تعبر عن بدء الخليقة حيث الجوهر هو علة وجود الشعب. وهكذا فان كتلة متشعبة من أخبار الكوبا التي تعالج الأصول والهجرات على متن الزوارق الجذعية، وجد لها أخيرا تفسير بفضل ما اكتشف من تصور باطن للهجرة: وعند الكوبا تتم الهجرة في زوارق جذعية من المصب (المقدس) الى (اللاديني)، وكذلك تفسير عدد من أسماء الهجرات، ومن مشاهد الخلق التي تقدم بألفاظ علم الكونيات. ولم

يكن الأمر هنا واضحا، بينما كان الترابط جليا في كثير من الأجناس الأخرى. وهكذا فان عددا من علماء الانتولوجيا، ممن ساروا على منوال بيدلمان من سوء الحظ، ومن العلماء البنيويين أو الاجتماعيين الوظائفيين قد آل بهم الأمر، الى انكار أي قيمة لكل المأثورات السردية اذ ربما يكون كله عبارة عن بنيات معرفية للعالم توتر كل فكرة مسبقة، كالمقولات الحتمية. والرأي نفسه يطبق على ما أمامك من نص كما على نص بيدلمان... ومن الواضح أن هؤلاء الانترو بولوجيون تجاوزوا الحدود. ثم ان عددا من تفاسيرهم تبدو افتراضية. ولكن على المؤرخ أن يتذكر أنه ملزم في كل صورة خاصة، ان يدقق بما لديه من موجبات لرفض مأثور أو للشك فيه. وليس في امكانه أن يرفض مأثورا، الا اذا كان احتمال الابداع فيه مدلول رمزي، حصرا، وانه احتمال قوي حقا يمكن اقامة الدليل عليه. ذلك أن المأثور يعكس عموما «اسطورة» بالمعنى الانترو بولوجي لهذا اللفظ وللمعطيات التاريخية. وفي هذه الظروف، فان كتب التاريخ هي نصوص من علم الاساطير، اذ أن كل نموذج متحجر نابع عن نظام من القيم والأغراض، هو خبر اسطوري، ولكنه في آن واحد شبكة تاريخية يجب فك رموزها.

التأريخ اليومي

لا تاريخ بلا يوميات والا فاننا لا نميز بين السابق واللاحق. ويمدنا المأثور المنقول دائما بيوميات نسبية تتمثل في قوائم أو في أجيال. وبصفة عامة تمكن هذه اليوميات من وضع كامل مجموع المأثور للجهة المدروسة في اطار الانساب أو قائمة الملوك أو أصناف الأعمال التي تشمل الساحة الجغرافية الواسعة، ولكنها لا تمكن من الربط بين المتوالية النسبية وبين أحداث خارج المنطقة. وتمر أكبر الحركات التاريخية وحتى بعض التطورات المحلية دون أن يشعر بها، أو تبقى مشكوكا فيها، ذلك أن الوحدة المتوفرة للتأريخ اليومي، ضيقة جدا من الناحية الجغرافية. فنسب الاسرة لا يصلح الا لها وللقرية أو القرى التي تسكنها، فيوميات الامبو مثلا مؤسسة على طبقات الأعمار مما لا يشمل لكل منطقة ضيقة يلقن فيها الشبان في آن واحد. ومن اللازم اذن أن يربط في ما بين اليوميات النسبية وان أمكن أن تحول الى يوميات مطلقة، و ينبغي قبل ذلك أن يحل مشكل آخر وهو أن يتم التحقق من كون المعطيات المستعملة توافق واقعا لم يحرف من الناحية الزمانية.

هذا و يتضح أكثر فأكثر أن اليوميات المنقولة خاضعة لبعض عوامل التحريف المتصاحبة العاملة على اتجاهات متعاكسة، فبعضها يقلص المدة الحقيقية للماضي و بعضها يمددها. ثم انه يوجد اتجاه الى جعل الأجيال والوراثات وسلسلة أصناف الأعمال منتظمة حتى تصير موافقة للنظم المثالية الحالية للمجتمع. والا توفر المعطيات لنا سوابق من النزاعات من كل نوع. وعملية الانضباط واقعية حقا، وفي بعض الصور الممتازة كما في رواندا تناط عهدة التصرف في المأثور بجمع متشعب من الاخصائيين، أكدت أقوالهم التنقيبات الأثرية.

لقد أثبت الانتولوجيون أن المجتمعات المنعوتة بالمتقطعة ترمي الى الغاء الأجداد الذين «لافائدة فيهم»، أي الذين لم يكن لهم أعقاب ومازال فريق منهم يعيش اليوم كفريق متميز. وهذا ما يفسر السبب الذي من أجله يؤول العمق النسبي في كل جماعة من مجتمع معين الى أن يبقى ثابتا. ولا يستعمل الا الأجداد «الصالحون» لتفسير الحاضر. و ينشأ عن ذلك أحيانا تصادم قوي في العمق

النسبي. ثم أن الأحداث الديموغرافية قد تقصر فرعا من الأعقاب على عدد قليل جدا بالنسبة الى سائر الفروع المتفرعة عن إخوة أو أخوات مؤسس الفرع الأول، بحيث لا يتمكن هذا من البقاء في الموازاة من جموع كبيرة مجاورة، فيمتصه أحدهم، واذاك يعاد تعديل النسب و يعوض مؤسس النوع الصغير بمؤسس الجمع الأكبر. ويختزل النسب، و يعبر غالبا عن وحدة العرق بوضع جد وحيد في بداية النسب، فهو الرجل الأول والبطل المؤسس الخ. وسيكون أب أو أم الجد «الصالح» الأول وهكذا يتم موازاة الفجوة بين الخلق و بين التاريخ الواعي. ومن سوء الحظ فان عمل هذه الطرق قد أدى في غالب الأحيان الى وضع يتعذر فيه الرجوع بأمان الى أكثر من بضع أجيال سابقة. وقد ظن أن عددا من المجتمعات الافريقية أفلتت من هذا العمل ولا سيما الدول. فلا موجب لكون قائمة تعاقب الملوك مخطئة، أو لكون نسبهم مشكوكا فيه، ماعدا أنها أحيانا زيفت عندما عاوضت أسرة منه أسرة أخرى متبنية نسب الأولى لتبرير نفسها. ولكن عدد الملوك وعدد الأجيال كان في الظاهر صحيحا. وعمل التصادم والتمديد واعادة التنظيم قد يلحق المعطيات التابعة للأسر المالكة كما يلحق غيرها. ففي قوائم الملوك مثلا قد يحذف أسماء الغاصبين أي الذين اعتبروا غاصبين في الحال أو في أي وقت لاحق لحكمهم. وقد يغفل عن الملوك الذين لم يمروا بكل الطقوس الرسمية التدريبية التي قد تكون طويلة جدا، وقد يعد ملكا واحد ملك تخلى عن العرش ثم استعاد السلطة. وفي كل ذلك ما يقصر السير التاريخي.

ولارجاع الامور الى نصابها حيث تكون الوراثة على خط الابوة وحسب أولوية الولادة كما هو الأمر في المنطقة بين البحيرات، يوجد عدد عجيب من التعاقبات النظامية أبا عن جد، تتجاوز بكثير المعدل وحتى الارقام القياسية التي شوهدت في غيرها من المناطق بالعالم. و ينتج عمل التنظيم هذا نسبا نموذجيا خطيا، يستمر منذ البداية حتى القرن التاسع عشر تقريبا حيث يصير متداخلا متشعبا.

والنتيجة أننا نطيل في امتداد الاسرة، ونحن نزيد في عدد الأجيال، حيث يقدم الورثة من الحواشي في مقام الأب والابن، وقد يحدث التمديد أو التقصير ما يوجد من اشتباه بين الترادف، و بين الاسم في الحكم أو اللقب و بين الاسم الشخصي، وخواص أخرى من هذا القبيل. وكما كان الشأن في العهد الاستعماري ولا سيما في جهات الادارة غير المباشرة، فان الضغط في تمدد الاسر كان قويا، اذ أن الاوربيين يولون احتراما كبيرا للقديم، شأنهم شأن عدد من المجتمعات الافريقية أيضا، فاستخدموا كل ابهام وكل الوسائل التي من شأنها أن تمدد الاسر الحاكمة، واستعملت كل الأسماء الممكنة، وضوعفت عند الإقتضاء دورات أسماء الملوك أوزيد فيها، وشذبت الحواشي كي يستطيل الجذع.

وأخيرا وضمن نطاق الممالك أيضا، فإننا كثيرا ما نجد الهوة واسة بين البطل المؤسس الذي ينتمي الى عالم الكونيات و بين أول ملك تاريخي «صالح». والنتيجة أنه يجب القيام ببحث مدقق لمعرفة هل ان السبل الموصوفة قامت بعملها أولا في الحالات الخاصة. وفي هذا الشأن وجود مواطن خلل في الخلافة وفي الانساب هي أحسن ضمان للاصالة اذ هي تظهر مقاومة للتسوية الانضباطية.

ولم تكن مجتمعات طبقات الاعمار موضوع بحث منظم هكذا، و بعض الحالات تظهر ان عمليات التعديل تتدخل لاصلاح الدورات أو الحد من الخلط بين الترادفات. ولكن ضروب تعاقب

فئات الأعمار لم تدرس بعد، ولا يمكن التعميم الا بالقول بأن المشكل المعروض شبيه بمشكل الأجيال، اذ يتم العد بواسطة الأجيال.

و ينتج عن دراسة احصائية مدققة أتت بالمعطيات السابقة، أن معدل الجيل الحاكم يقع عادة فيما بين ٢٦ و ٣٢ سنة. وكانت العينة غالبا على الخط الابوي. ولكن الاسر الحاكمة على الخط الامي لا تتجمع مثلا في الجزء الاسفل من التوزيع الاحصائي، وتكون المعطيات صحيحة أيضا في هذه الصورة. ومعدل مدة الملك يتغير تغيرا كبيرا مع نظام الخلافة حتى أنه لا يمكن أن نتقدم بمعطيات عامة صالحة. وحتى في صور الخلافة المتطابقة توجد انحرافات عظيمة بين مختلف الاسر الحاكمة.

واذا ما تجهزنا بالمعطيات التي عرضناها آنفا، يكون في الامكان أن تحول اليومية النسبية للأجيال بيومة مطلقة، على الأقل اذا لم يكن التفاوت في الأجيال كبيرا بحيث تصير ممارستها تافهة. فيحسب أولا المعدل بين أول علامة زمنية مطلقة يوفرها تاريخ مكتوب، و بين الحاضر، و يطبق هذا المعدل على الماضي اذا وقع بين ٢٦ و ٣٢ سنة، ولكن المعدلات الوسطية ليست غير ذلك، و يقوى احتمالها مع عدد الأجيال المعتبرة، ولا يمدنا الحساب بتاريخ معقول الا فيما يخص رؤوس المتتاليات، وفي أحسن الحالات مرة في القرن. وثمة خطأ ينشأ عن كل تدقيق أكثر تركيزا، وعلى كل يقتضي أن تسبق هذه التواريخ المطلقة المشتقة هكذا بعلامة تدل على ذلك. فتاريخ ١٦٣٥ (المسبوق بهذه العلامة) بالنسبة الى قيام مملكة كوبا يشير الى أن هذه القيمة حسبت انطلاقا من أجيال ومن قوائم الملوك.

وذلك أن هذا العمل ينطبق على قرار مدة الملك المعدلة. وقد شاهدنا لماذا يكون هذا المعدل أقل صلاحية منه بالنسبة الى الأجيال وأحد الأسباب في ذلك، هو أننا اذ طبقنا المعدل على الماضي نفترض أنه لم يقع أي تغيير في سنن الخلافة، على أنها ربما تغيرت على مر الزمان، وفعلا انها تغيرت حقا منذ عهد مؤسس الاسرة اذ أن التأسيس تجديد، وقد تكون التعاقبات على العرش قد اقتضت بعض الوقت كي تستقر في نمطها، و ينبغي أيضا أن تعتبر التغيرات التي تكون قد طرأت على معدل الحياة، واذ أن مجال الخطأ أكبر، فيكون من المفيد أن يكون لدينا تواريخ مطلقة مثبتة بالكتابات أو بوسائل أخرى ترجع بعيدا الى الماضي.

وفي مادة اليوميات النسبية يمكن السعي أيضا للتنسيق بين متتاليات مختلفة متجاورة وذلك عن طريق التزامن، فمعركة بين ملكين ذكر اسمهما تمدنا بتزامن، وهذا مما يمكن من التأليف بين يوميات نسبية متضمنة كما يمكن من صهرها في يومية واحدة. وقام الدليل بالتجربة على أن التزامنات بين أكثر من ثلاثة وحدات منعزلة ليست صالحة، و يبرهن على أن أ ـ وب ـ تعايشا في فترة واحدة أو أن أ وج تعايشا لانها كليهما التقيا مع ب، اذن أ = ب = ج ولا يمكن تجاوز ذلك، وكون التقاءات أ ـ وج ـ مع ب، قد تمد على طول مدة الحياة النشطة لـ (ب) يبرر لماذا أ = ج يمثل الحد النهائي. وأقامت الدراسات التجريبية على يوميات الشرق الاوسط الدليل على هذه النقطة، ولا مانع اذا استعملنا التزامنات بتحفظ من أن نبني حقولا موحدة كبيرة بما فيه الكفاية، ذات يوميات نسبية مشتركة.

و بالنظر في معطيات الأجيال يمكن الحصول على تاريخ مطلق، فاذا ذكر المأثور كسوف للشمس، واذا كان لدينا عدة تواريخ للكسوفات يجب اقامة الدليل على الكسوف الأكثر

احتمالا. ويمكن القيام بعين العمل بالنسبة الى أحداث فلكية أخرى، أو الى أحداث مناخية خارقة للعادة تسببت عنها بعض الكوارث. وهنا يكون اليقين أقل منه في صورة كسوفات الشمس، اذ يوجد مثلا في افريقيا الشرقية عدد من المجاعات أكثر من عدد كسوفات الشمس، وفيما عدا هذه الظاهرة الطبيعية فان سائر المعطيات من هذا النوع صالحة على الخصوص للقرنين الأخيرين مع أن قليلا من الشعوب احتفظ بذكرى كسوفات ترجع الى مدة أقدم بكثير.

تقويم المأثور المنقول

بعدما أخضعت المصادر الى نقد معمق من الناحية الأدبية والاجتماعية، يكون في الامكان أن تلحق بها درجة من الاحتمال، ولا يمكن أن يكون هذا الحكم كميا ومع ذلك فهو لا يقل واقعية، وفي الامكان أن يزداد بقوة، في الحظوظ التي توفر صحة أثر، اذا أمكنت مواجهة المعطيات التي تحتوي عليها بالمعطيات المستمدة من آثار أخرى مستقلة أو من مصادر أخرى. فاذا ما اتفق مصدران مستقلان تحول الاحتمال الى ما يقرب من اليقين. و يصبح الأمر ان نبرهن على استقلال المصادر. ومن سوء الحظ لقد وثق كثيرا بنقاوة النقل وانعزال الخبر انعزالا محكما من عرق الى آخر. وفي الواقع فان قوافل التجار كالامبنقلا بانغولا، و بلا شك كالديولا والهوسا، قد تأتي بنتف من التاريخ تقحم في التاريخ المحلي، اذ هي تجد لها فيه محلا لائقا. وثمة روابط تكونت بين ممثلي جموع مختلفة في بداية العهد الاستعماري فتبادلوا أخبارا تهم تقاليدهم. و يلاحظ ذلك بوضوح في الجهات ذات الادارة الغير المباشرة حيث، حض الامتياز العملي الممالك على انشاء تاريخها. أضف الى ذلك أن هذه الوثائق تأثرت بالانماط الأولى التي كتبها الافارقة، ككتاب جونسن عن ملكة أوبو (نيجيريا) أو كتاب كاكوا (أوغندا) بالنسبة الى بوكندا. ونشأ عن ذلك عدوى عامة بين كل التواريخ المكتوبة بعد. أو أنها في بلاد يارو با، وفي منطقة ما بين البحيرات الناطقة بالانكليزية، مع محاولات للتزامن حتى ترغم القائمة المسلكية الى بلوغ ما للنماذج من طول. وهذان المثالان يوضحان مدى ما يجب من الحذر قبل أن نصرح بأن المأثورات مستقلة حقا. فيجب التنقيب في خزائن الوثائق والنظر في العلاقات القائمة قبل الاستعمار، وتقدير كل شيء باهتمام قبل أن نصرح بالحكم.

وقد تمدنا المواجهة مع المعطيات المكتوبة أو الاثرية باثبات الاستقلال المنشود، بيد أنه ينبغي هنا أيضا أن يقام الدليل على هذا الاستقلال. فاذا ما خصص الأهالي موطنا مشهودا لأول المحتلين للبلاد بالاستناد الى المأثور، وذلك بموجب ما يشاهد من آثار الاحتلال البشري المخالفة للآثار التي يبقيها السكان الذين يعيشون هناك حاليا، فلا يمكن بكيفية آلية أن يعزى هذا المواطن للمحتلين الاولين للبلد. وليست المصادر مستقلة اذ ينسب الموطن الى هؤلاء السكان بعمل منطقي مسبق، وهذا مثل من تعظيم الصور، وتفرض هذه الملاحظة تخمينات مفيدة ولا سيما فيما يخص الآثار المدعوة (تلسم) ببلاد دوكون (مالي) وكذلك بالنسبة لمناطق سير يكوا (كينيا)، اذا ما اقتصرنا على هذين المثالين المشهورين، على أن أمثلة مواقع كمبي صالح (موريتانيا) وبحيرة كيسال (زايير) الشهيرة توضح ان علم الآثار قد يوفر الدليل الساطع على صحة المأثور المنقول.

وكثيرا ما يعسر التوفيق بين المصدر الشفاهي والمصدر المكتوب، واثبات ذلك اذ يتحدث المصدران عن أمور مختلفة. فالأجنبي الذي يكتب يقتصر عادة على الأحداث الاقتصادية والسياسية

التي لم تدرك بعد ادراكا حسنا في بعض الأحيان. والمصدر الشفاهي الموجه الى الداخل لا يذكر، اذا ما ذكر الاجانب. ولذلك تتكرر المواطن التي لا يلتقي فيها المصدران ولو أنهما عالجا فترة واحدة. وتوجد حالات التوافق، ولا سيا التوافق الزمني، في الأماكن التي أقام فيها الأجانب منذ عهد بعيد، حتى صاروا يهتمون بالسياسة المحلية و يدركونها. ووادي السنغال مثال لذلك منذ القرن السابع عشر.

وفيما اذا اختلف مصدران شفاهيان، فالاولوية للأشد احتمالا. ولا معنى للبحث عن حل وسط، كما هو السلوك المتداول بكثرة، واذا ما كان التخالف واضحا بين مصدر شفاهي ومصدر أثري يكون الحل بجانب الأثري، ان كان من المعطيات المباشرة، أي شيئا محسوسا لا نتيجة استقراء، وفي الحالة الأخيرة يكون احتمال المصدر الشفاهي أقوى. والتناقض بين المصدر المكتوب والمصدر الشفاهي يفصل بالضبط كما لو كان الأمر خاصا بمصدرين شفاهيين. ولنذكر ان المعطيات الكمية المكتوبة غالبا ما تكون هي الأحسن، وأن معطيات الحفز الشفاهية كثيرا ما تتفوق على المصادر المكتوبة.

ولكن المؤرخ يسعى في النهاية الى اثبات الأمر الأكثر احتمالا. وأخيرا، اذا ما كان لدينا مصدر واحد شفاهي، بينما أنه من المحتمل أن تكون لحقته تحريفات، فمن الواجب تأويله بعد أخذ التحريفات بعين الاعتبار، ومن الواجب استغلاله. واذا ما تعذرت اقامة الدليل «عامة» أو «منطقيا» على عمل التحريف، فلا يكون في الامكان تأويل المصدر، تماما كما لو قامت التحريفات بعملها الكامل. وهذا عيب علماء الانتولوجيا الذين ينكرون كل قيمة تاريخية للمأثور. وكثيرا ما يشعر المؤرخ بعدم الرضى بمعطياته المنقولة، وقد يسجل أنه لا يثق حقا بصحتها، ولكن يتحتم عليه أن يستخدمها ما لم تكتشف مصادر أخرى.

الجمع والنشر

ينتج عن كل ما عرض أنه يتحتم أن يتم ميدانيا جمع كل العناصر التي تخول تطبيق النقد التاريخي على المأثور، وهذا يقتضي معرفة حسنة بالحضارة والمجتمع واللغة أو اللغات المعنية بالأمر، وفي امكان المؤرخ أن يحصل عليها أو أن يضم اليه إخصائيين، ولكن حتى في هذه الحالة يكون عليه أن يتعمق في كل المعطيات التي يعرضها عليه عالم الانتولوجيا والالسني والمترجم، الذين يساعدونه في عمله، وعليه أيضا أن يتخذ سلوكا منظما ازاء المصادر التي يجب جمع كل رواياتها. وهذا كله يفترض مسبقا اقامة ميدانية طويلة، يزداد طولها كلما كان المؤرخ قليل الاستئناس بالحضارة المعنية. ويجب أن نؤكد أن ثمة معرفة فطرية تحصل لمن يدرس تاريخ مجتمعه الخاص، لا تكون كافية، بل لا بد من تأمل اجتماعي ولابد من اعادة اكتشاف حضارة الباحث الخاصة، وحتى التجربة الالسنية تبين أن المؤرخ المنتسب الى البلد المعني، لا يفهم بسهولة بعض الوثائق كالمدائح، أو هو يلقى صعوبة لأن اللهجة المتحدث بها غير لهجته. على أنه ينصح بمراقبة ما نقله الالسني في لهجته الأم ولو مراقبة جزئية للوثوق من أن النقل يشمل كل العلاقات اللازمة لفهم النص بادخال الجرس الصوتي مثلا.

يتطلب جمع المأثورات اذن وقتا طويلا، وكثيرا من الصبر ومن التأمل، فبعد الفترة الأولى للمحاولة يجب أن ينظم الباحث تصميا لعمله مع الانتباه الى ما لكل حالة من خصائص. وعلى كل، فلا بد من زيارة المواقع المقترنة بالسير التاريخية المدروسة وقد يضطر الباحث أحيانا الى استعمال عينة من المصادر الشعبية، ولكنه لا يمكن استعمال عينة عشوائية. ويجب أن تدرس في منطقة ضيقة، القواعد التي تعيّن نشأة روايات مختلفة وان يستخرج منها المبادئ التي يجب الاحتفاظ بها لتكوين العينة، ولا يمكن أن تضمن النتيجة عينها بالجمع المكثف العشوائي، ولو أن العمل يسير بسرعة. فعلى الباحث أن يعتني بدراسة النقل. ونحن نجد مخبرين يأخذون معلوماتهم أكثر فأكثر عن مؤلفات نشرت عن تاريخ المنطقة: كتب مدرسية، صحف أو نشريات علمية، ولعلهم أخذوها عن محاضرات اذاعية أو تلفزية، ولا مناص من تأكد هذا المشكل كلما تكاثرت البحوث.

ويلاحظ الآن وجود عدوى أقوى، فقد أخذ المأثور، بعض المخطوطات من عهد قديم جدا أحيانا، وخاصة تقارير بداية الادارة الاستعمارية، على أنها حقيقة «الأجداد» ومن الواجب أن تراقب خزائن الوثائق كما يراقب وجود كتب علمية وكتب مدرسية واذاعات الخ. اذ أنه اذا درس الأمر ميدانيا، يكون في الامكان غالبا أن تصحح هذه المداخلات بالبحث عن روايات أخرى، وبالتوضيح للمخبرين، ان الكتاب أو الاذاعة ليسا حتما على حق في هذه المادة، ولكن اذا ما ترك الميدان فقد فات الأوان.

وينبغي أن تكون للبحث بنية حسب وعي تاريخي واضح. وليس بالامكان جمع «كل المأثورات» واذا ما حاولنا القيام بذلك، فلا نجني سوى كومة مضطربة من المعطيات. ويجب أن نعلم قبل كل شيء ماهية المشاكل التاريخية التي نريد درسها، وأن نبحث عن مصادرها تبعا لذلك. ولعرض المواضيع، يجب بالطبع آن نتعمق في الحضارة المعنية. ويمكن اذن كما هو الشأن غالبا، أن نقرر متابعة درس التاريخ السياسي. ولكن في الامكان أيضا أن نختار مسائل من التاريخ الاجتماعي أو الاقتصادي أو الديني أو الثقافي أو الفني الخ... وفي كل حالة تكون الطريقة المستعملة في جمع المعطيات متباينة. وأكبر عيب في البحث حاليا، هو انعدام الوعي التاريخي، وانقيادنا بقوة الى ما نجد أمامنا.

وفقدان الصبر عقبة أخرى، يريد المرء أن يقطع بسرعة ميدانا كبيرا، وتكون المصادر المجموعة في هذه الظروف عسيرة التقويم وتبقى متباينة جزئية. وتنعدم الروايات، ولا يكون لدينا كثير من الارشادات عن تغير المصدر وتمثيله ونقله، فالعمل عقيم، وشر الآثار هو ما يخلقه العمل في نفوس الباحثين الآخرين من انطباع يظن بمقتضاه أن هذه «المنطقة» تم درسها. وفي ذلك ما يوقف احتمال بحوث أحسن في المستقبل. ولكن لنذكر أن المأثور المنقول يضيع، ولو أنه من حسن الحظ انما يضيع بسرعة أقل مما يظن عامة، وليست ضرورة العمل بمبرر لعدم اتقانه.

ولقائل أن يقول ــ وقد قيل ذلك بالفعل ــ إن ما نعرضه هنا خيالي مثالي مستحيل. ومع هذا فانها الطريقة الوحيدة التي تمكننا من العمل كأحسن ما يمكن مما لدينا من وسائل في فترة من الزمان معينة. وليس هناك طريق أقصر. وان رأى بعضهم أن هذا المجموع من العمل لا يوفر لنا الا حصيلة هزيلة للتاريخ في بعض الأحيان، فهو يغفل عن أننا أثرينا في الوقت نفسه المعلومات العامة في اللغة والأدب والتفكير الجماعي والبنيات الاجتماعية للحضارة المدروسة.

ولا يكون العمل كاملا بلا نشر، اذ هو لايكون في متناول مجموعة العلماء. فيجب أن نفكر على الأقل في تصنيف المصادر مع مقدمة وتعليقات وفهارس لنكوّن رصيدا من الوثائق مفتوحا للجميع. وكثيرا ما يقرن هذا العمل بنشر مؤلف مستند جزئيا أو كليا على هذا الرصيد. وما من ناشر ينشر المجموع بأكمله، مع الروايات وتأويل المعطيات. ولا يليق بالتأليف أن يكون مغمورا وسط كتلة من الوثائق الخام. ولكن كل مؤلف سيفسر كيف جمع المأثور، وسيعطي فهرسا مختصرا للمصادر والشواهد من شأنه أن يمكن القارئ من الحصول على رأي عن قيمة الجمع وعن مسايرة المؤلف على حدة في المؤلف، بعين السبب. والمؤلف الذي يصرح: «يذكر الأثر...» يكون قد قام بتعميم خطير.

و يبقى أن نتحدث عن نوع من المطبوعات الاختصاصية، وهو نشر النصوص. هنا يطبق نفس الأسلوب المتبع في نشر المخطوطات. و يؤدي هذا عمليا، وفي أكثر الأحيان، الى تعاون بين اختصاصيين مختلفين. لا يجمع الواحد منهم أكثر من صفة واحدة، مؤرخ، لغوي أو عالم أجناس. والواقع أن أفضل مطبوعات النصوص، المتوفرة اليوم، هي كلها تقريبا عبارة عن مؤلف ضخم بقيادة واحدة، يشترك فيها عدد من المساعدين، أحدهم لغوي.

ونشر النصوص عبء جحود وصعب. وهذا ما يفسر سبب قلة ما يحقق منها، بيد أن عددها يزداد بفضل المؤازرة التي يقوم بها اختصاصيون في الآداب اللفظية الافريقية.

النتيجة

يتابع حاليا جمع التراث المنقول في كل بلدان افريقيا. وتهم مادة المعطيات المجموعة خاصة القرن التاسع عشر، وهي لا تمثل سوى مصدر من المصادر لاعادة البناء التاريخي، وتمثل الوثائق المكتوبة المصدر الآخر الرئيسي لهذه الفترة.

وتعرض سنويا خمسة أو ستة مصنفات دراسات تكاد تكون مبنية كلها على المأثورات. وهي تعالج خاصة التاريخ السياسي والممالك، بصورة نموذجية، بينما نجد من الوجهة الجغرافية تجمعا أقوى في افريقيا الشرقية والوسطى والاستوائية، حيث المأثور هو الوثيقة الوحيدة غالبا. وقلما ترجع اليوميات الى ما بعد عام ١٧٠٠ وتصبح مشكوكا فيها فيما قبل هذا التاريخ. ولكن معرفة ظاهرة المأثور بكيفية أعمق تساعد على تقويم ما جمع منها من قبل تقويما أحسن، فن ذلك أن استغلال المأثور الذي رواه كفازي في القرن السابع عشر، لم يعد ممكنا الا بعد دراسة ميدانية أجريت سنة ١٩٧٠.

وعلاوة عن المأثورات الحديثة يوجد رصيد فسيح من المعطيات الأدبية، كالقصص الملحمية والمعطيات الكونية التي يمكن أن تكون أخبارا تاريخية تتعلق أحيانا بفترات بعيدة جدا. وملحمة سندجاتا مثال من ذلك. فالمأثور لا يمكن أن يؤرخ من ذاته، فالذاكرة المحرفة فيما يخص بعض المواقع التاريخية فيما بين البحيرات، احتفظت بذكرى تؤرخ بالقرن الأول من التاريخ الميلادي أو حتى بما قبل هذا التاريخ. ولكن المأثور المنقول يصمت عن التأريخ، ولم يحل هذا المشكل سوى علم الآثار. و يلوح أيضا أن مأثورات كفازي تحتوي على راسب تاريخي على قيمة عالية بالنسبة الى ماضي شعوب انغولا. فيوجد فيه مراجع مكثفة عن أسر مالكة تعاقبت، والى أشكال حكم توالت، و بالاختصار هو يعرض باقتضاب عن جهة كوانغو العليا تغيرات اجتماعية سياسية قد ترجع الى عدة قرون، أو حتى ألف عام قبل ١٥٠٠. ولكن هذا المنظور لا يوجد عليه علامات زمانية.

ولنشر الى عقبة أخيرة وذلك ان جمع المأثورات مازال سطحيا على الأغلب وتأويله ما زال متقيدا بالنص الحرفي «ملتصقا» بالحضارة التي نشأ عنها. وتساهم هذه الظاهرة في الابقاء على صورة لافريقيا يكون فيها التاريخ حديثا عن أصول وهجرات، والمعلوم أن لا شيء من ذلك حق. ولكن لابد أن نلاحظ أن هذه الصورة هي التي يعكسها المأثور الرامي الى اثبات «هوية». على أن التأويل الغير المتعمق والجمع الذي يعوزه النظام تلحقهما معظم الانتقادات الموجهة ضد استعمال المأثور المنقول، ولا سيما من بين علماء الانتولوجيا.

وبرهنت التجربة المحسوسة على أن أنفس قيمة للماثور تتمثل في تفسيره للتغيرات التاريخية داخل حضارة ما. وذاك حق الى حد أنه، كما يشاهد ذلك في كل مكان، ورغم غزارة المصادر المكتوبة للفترة الاستعمارية، يجب اللجوء دائما اما لشاهد عيان واما للمأثور لتكميلهما قصد توضيح التطور السكني. ولكننا نلاحظ أيضا أن المأثورات كثيرا ما تقود الى الخطأ بسهولة في مادة الترتيب الزمني وفي المعطيات الكمية. ثم ان كل تغيير لا واع، كالتحول المرتبط بمذهبية دينية مثلا، ينفلت بسبب بطئه، عن ذاكرة المجتمع. فلا يوجد سوى نتف من التغيرات في النصوص التي لا تتعرض بوضوح للتاريخ، ومع ذلك يكون من الواجب أن يؤتى بتفسير مركب. ومعنى ذلك أن المأثور المنقول ليس دواء لكل داء، ولكنه يتضح في الواقع أنه مصدر من أعلى طراز بالنسبة الى القرون الأخيرة. وفيما قبل ذلك ينحط دوره فيصير علما مساعدا لعلم الآثار. ولم يقم الدليل بعد كما ينبغي على دوره بالنسبة الى المصادر الألسنية الاثنوغرافية، ولو أن هذه النماذج الثلاثة من المصادر المجتمعة من شأنها مبدئيا أن تساهم بقوة في معارفنا عن افريقيا، كما هو شأن علم الآثار.

وقد برهنت المأثورات على قيمتها التي لا عوض لها. وليس الشأن أن تأتي بما يقنع أنه قد يكون مصدرا، فكل مؤرخ يعلم ذلك. والمسألة الآن هي أن نحسّن طرقنا العملية كي تمدنا المصادر بكل ما تشتمل عليه بالقوة، وذلك هو العمل المطلوب منا.

الفصل الثامن

المأثور الحي

أ. همباتي با

«أن الكتابة شيء، والمعرفة شيء آخر.
والكتابة صورة المعرفة وليست المعرفة ذاتها،
والمعرفة نور كائن في الانسان، هو تراث كل
ما أمكن الأجداد معرفته وما أبلغونا أياه في صورة نبتة،
كما أن شجر الباوباب موجود بالقوة في بذرته». تيرنو بوكار (١).

ان من يتحدث عن المأثور في التاريخ الإفريقي يعني المأثور المنقول، ولا يمكن لأي محاولة أن تلج التاريخ الإفريقي وروح الشعوب الإفريقية بكيفية مقبولة، ان لم ترتكز على هذا التراث من المعارف، من كل الرتب، والذي نقل بصبر بواسطة السماع من شيخ الى تلميذة عبر الأجيال. ولم يضع بعد هذا التراث، وهو جاثم في ذاكرة الجيل الأخير من حفظته العظام الذين يمكن أن يقال فيهم إنهم ذاكرة افريقيا الحية.

وفي الأقوام المعاصرة، حيث تسمو الكتابة على القول، وحيث يكون الكتاب الحامل الرئيسي للتراث الثقافي، لطالما ظن ان الشعوب الخالية من الكتابة كانت شعوبا بدون ثقافة. وهذا الرأي الذي لا مبرر له بدأ من حسن الحظ يتفتت منذ الحربين الأخيرتين بفضل الأعمال المعتبرة التي قام بها بعض كبار الاثنولوجيين من كل القوميات. واليوم بفضل عمل منظمة اليونسكو التجديدي الشجاع، ارتفع الحجاب ارتفاعا عن كنوز المعرفة التي نقلها المأثور الشفاهي والتي تنتمي الى التراث الثقافي للبشرية جمعاء.

و يتمثل المشكل كله لدى بعض الباحثين في معرفة هل يمكن أن نمنح النقل الشفاهي عين الثقة التي نمنحها للنقل الكتابي ليكون شاهدا على أمور الماضي. وفي رأينا أن المشكل بهذه الصفة أسيء وضعه، فالشاهد الكتابي والشفاهي، ما هو في النهاية سوى شاهد بشري وقيمته هي قيمة الانسان.

---

(١) تيرنو بوكار سالف، توفي سنة ١٩٤٠ وقضى كل حياته في بندياكارا (مالي) شيخ الفرقة الاسلامية التيجانية قد كان أيضا تقليديا في المواد الافريقية أنظر أ. همباتي با و م. كردار، ١٩٥٧.

أو لم تكن الشفاهية أم الكتابي خلال العصور كما هو الأمر في الفرد نفسه؟ ان أول خزائن الوثائق أو الخزانات في العالم كانت أدمغة الرجال.

ثم ان الكاتب أو العالم، قبل أن يرسم على الورق ما يتصوره من أفكار، يشرع في حوار سري مع نفسه، وقبل أن يحرر الانسان القصة فانه يتذكر الأحداث كما رويت له أو، ان هو عاشها، كما يرويها لنفسه.

ومبدئيا لا شيء يدل على أن الكتابي يحكي الواقع بأمانة أكثر من الشاهد الشفاهي المنقول من جيل الى جيل، وتدل يوميات الحروب العصرية كما يقال على أن كل حزب أو كل قوم «يرى الزوال على عتبة بابه» من خلال موشور أهوائه وعقليته الذاتية أو مصالحه، أو غرض تبز يره لوجهة نظره. على أن الوثائق المكتوبة نفسها لم تكن محمية من التدليسات والتغييرات، ارادية كانت أو لا ارادية من فعل النساخ المتعاقبين، الأمر الذي نشأت عنه، على الخصوص، الجدالات المتعلقة «بالكتابات المقدسة».

وموضوع الخلاف في النهاية، من وراء الشاهد ذاته، هو حقا قيمة الانسان الشاهد ذاته، وقيمة سلسلة الرواية التي يرتبط بها، وصدق الذاكرة الفردية والجماعية، وما يعطي للحقيقية من قيمة في مجتمع معين. و بالاختصار الرابطة بين الانسان والكلمة...

و وظيفة الذاكرة هي أقوى لدى المجتمعات الشفاهية، وفيها تكون العلاقة بين الانسان والكلمة أشد، فحيث لا كتابة، يتقيد الانسان باللفظ و به يلتزم، فهو كلمته وكلمته تشهد عما هو، وترابط المجتمع نفسه يرتكز على قيمة الكلمة وعلى مدى احترامها.

والعكس، كلما ازداد زحف الكتابي نشاهد أنه يحل محل الكلمة فيصير الحجة الوحيدة والمرجع الأوحد، فيصير الامضاء الالتزام الوحيد المعترف به، بينما ينحل تدريجيا ما كان يجمع بين الانسان والكلمة من رابط مقدس لفائدة الشهادات الجامعية المتفق عليها.

وعلاوة على الكلمة الاخلاقية الاساسية فقد كانت في التراث الافريقي ــ على الأقل ما أعرفه منه المتعلق بمنطقة السهوب جنوبي الصحراء ــ تكتسي طابعا مقدسا يرتبط بأصلها الالهي و بالقوى الباطنية المودعة فيها، فهي عامل سحري من أعلى طراز وحامل عظيم «هي قوى اثيرية» لم تكن لتمارس بدون حذر.

كانت اذن عدة عوامل دينية وسحرية أو اجتماعية تتضافر لحماية صدق النقل الشفاهي و بدا لنا من اللازم أن نقدم فيما يلي دراسة موجزة عن ذلك، كي نضع بكيفية أحسن، المأثور الافريقي المنقول في اطاره وكي ننيره، ان صح القول، من الداخل.

فاذا ما قيل لعالم افريقي تقليدي حقيقي. «ما المأثور المنقول؟» فانه سيحتار بدون شك، وربما أجاب بعد صمت طويل: «هو المعرفة التامة» ولا يزيد شيئا.

فماذا تحت لفظ «مأثور منقول؟» وما هي الأمور الواقعية التي يحملها، وما هي المعارف التي ينقلها والعلوم التي يلقنها؟ ومن هم نقلته؟ وخلافا لما يظن بعضهم، فان المأثور المنقول الافريقي لا يقتصر على القصص والخرافات، أو حتى على الأخبار الاسطورية أو التاريخية، وليس القصاصون هم الحفظة الأوحدون والنقلة الفريدون المؤهلون.

فالمأثور المنقول هو مدرسة الحياة الكبرى، يغطي كل وجهها واياها يعني. وقد يعتبر سديميا لمن لا يسبر سره، وقد يحير فيه الفكر الديكارتي، وقد تعود أن يفصل كل شيء الى مقولات مضبوطة معينة. ففيه لا يفترق الروحي عن المادي.

وبمروره من الباطن الى الظاهر، يعرف المأثور المنقول كيف يكون في متناول بني البشر، وكيف يكلمهم بما يفهمون، وكيف ينتشر حسب ملكاتهم وهو في آن واحد دين ومعرفة وعلم بالطبيعة وتدرب على مهنة وتاريخ وسلوى واستراحة، وكل جزئية تفصيلية قد تساعد دائما على الرجوع الى الوحدة الأساسية.

يرتكز المأثور المنقول على المبادهة والتجربة، فهويلزم الانسان كليا، وهكذا يصح القول بأنه ساعد على خلق انموذج خاص من الانسان وعلى تكوين الروح الافريقية.

و«الثقافة» الافريقية اذ ترتبط بالسلوك اليومي للانسان وللمجموعة، ليست هي مادة مجردة يمكن عزلها عن الحياة، وهي تتضمن نظرة خاصة للعالم، أو بالاحرى حضورا خاصا في العالم، وقد تصور ككل ترتبط فيه كل الأشياء وتعمل فيما بينها الواحد في الآخر.

و يرتكز المأثور المنقول على تصور معين للانسان ولمكانته في العالم ووظيفته فيه. ويجب علينا اذن كي نحسن وضعه في اطاره الجملي وقبل أن ندرسه على مختلف ظواهره، ان نعود الى السر ذاته في خلق الانسان، وفي الانشاء الاساسي للكلمة، كما تعلمه وكما تنبعث منه.

منشأ الكلمة الإلهي

نظرا لأنني لا أستطيع أن أتحدث حديثا صالحا عن تراث لم أعشه أو لم ادرسه شخصيا، ولا سيما المأثورات التابعة لبلاد الغابة. سأتناول أمثلتي الأساسية من مأثورات السهوب جنوبي الصحراء (أي ما كان يسمى سابقا البافور، وما تكونت منه مناطق السهوب من افريقيا الغربية الفرنسية قديما).

ان مأثور بامبارا بكومو (٢) يعلم أن الكلمة، كوما، هو قوة أساسية تنبعث من الخالق ذاته مانكالا بارئ الأشياء كلها. وهو إله الخلق. فيقول منشد الآله كومو: «ما قاله مانكالا كان».

واسطورة خلق العالم والانسان التي يلقنها المعلم المدرب بكومو (وهو حداد دائما) للشبان المختونين، تكشف لنا أنه لما حنّ مانكالا الى مخاطب، خلق الرجل الاول: ما.

وقديما كان سفر التكوين يلقن المختونين في الحادية والعشرين من عمرهم أثناء الخلوة المفروضة عليهم طيلة ثلاثة وستين يوما، ثم كانوا يقضون احدى وعشرين سنة لدراسته والتعمق فيه.

فعلى حدود الغاب المقدس، حيث موطن كومو، يرتل المختون الأول هذا القول:

مانكالا ! مانكالا !
من هو مانكالا ؟
أين مانكالا ؟

فيجيبه المنشد:

«مانكالا هو القوة اللانهائية

(٢) احدى المدارس العظمى للتدريب بالماندي (مالي).

ليس لأحد أن يضعه في الزمان ولا في المكان
فهو دومبالي (لايعرفه أحد)
دومبالي (لم يخلق ولا نهاية له)».

ثم، بعد التدريب، تبدأ قصة الخلق الأساسي:

«ما كان أحد، سوى كائن
وكان هذا الكائن خلاء حيا
يحضن بالقوة الوجودات المحتملة
وكان الزمن اللانهائي مأوى هذا الكائن الأحد
وتسمى الكائن الأحد باسم مانكالا
وهكذا خلق «فان»
بيضة عجيبة ذات أقسام تسعة،
فأولج فيه الحالات الأساسية التسع للوجود».

«وعند فقس هذه البيضة الأساسية أنجبت عشرين كائنا خرافيا، منها تكون العالم بأكمله، وكذلك كامل القوى الموجودة للمعرفة الممكنة.

«ولكن وأسفاه لم يبد أحد من المخلوقات العشرين الأولى قابلية ليكون المخاطب (كومانيون) الذي رغب فيه مانكالا لنفسه.

«عندها أخذ جزءا من كل المخلوقات العشرين الموجودة، وخلط الأجزاء ثم نفخ في الخليط شرارة من روحه الناري، وخلق كائن جديدا، الانسان، وأعطاه جزءا من اسمه ذاته: ما، فكان هذا الكائن الجديد يحمل، من اسمه ومن الشرارة الالهية التي داخلته، جزءا من مانكالا ذاته».

فما، الإنسان، محطة لكل ما وجد، وقابل ممتاز للقوة العليا، ومجمع كل القوى الموجودة ما، الانسان يرث جزءا من طاقة الخلق الالهية، أي هبة الفكر والكلمة.

وعلم مانكالا مخاطبه، ما، السنن التي تكونت كل عناصر الكون بمقتضاها، واستمرت موجودة. وجعله حارسا لعالمه، وكلفه بالعمل على الحفاظ على التآلف العام، ولذا أن يكون الإنسان إنسانا عبء ثقيل.

و بدافع من خالقه نقل «ما» فيا بعد لاعقابه مجموع المعارف الكاملة، وكانت بداية السلسلة الكبرى للرواية التلقينية التي ترى فرقة الكومو (كما في مالي أو ناما أوكوري الخ) انها هي المتابعة لها.

وعندما خلق مانكالا مخاطبه، ما، كلمه وأمده في الوقت نفسه بملكة الجواب، ودار حوار بين مانكالا، خالق كل الاشياء، وما، نتاج تآلف الاشياء كلها.

ولقد كانت الكلمات وهي تنزل من مانكالا الى الإنسان، إلاهية اذ لم تكن قد اتصلت بالمادية، وبعد ملامسة الجثمانية أضاعت شيئا من الاهيتها ولكنها صارت حاملة للقداسة، تقدس الجسم اذن بالكلمة الالهية، فاشع بدوره هزات مقدسة ستقيم الصلة مع مانكالا.

ان المأثور الافريقي اذن يتصور الكلمة كهبة من الله، فهي في آن واحد إلاهية في الاتجاه التنازلي ومقدسة في الوجهة التصاعدية.

الكلمة في الإنسان كقدرة خلاقة

وجاء في التعليم أن مانكالا وضع في ما الامكانيات الثلاث من القدرة والمشيئة والمعرفة الموجودة في العناصر العشرين التي منها ركب. ولكن كل هذه القوى التي ورثها تكمن فيه كالقوى الصامتة، وتكون في حالة سكون قبل مجيء الكلمة لتحركها، وبفضل حيوية الكلمة الإلهية تشرع هذه القوى في الإهتزاز، فتصير في مرحلة أولى فكرة وفي ثانية صوتا وفي ثالثة كلمة، فالكلمة إذن تعتبر تجسيما أو إظهارا لهزات القوى.

ولنشر مع ذلك في هذا المستوى إلى أن لفظي «كلمة» و «استماع» يغطيان أمورا واقعية أفسح مما ننسب اليها عادة. فيقال «ان كلمة مانكالا تُرى وتُسمع وتُشم وتُذاق وتلمس» فهو احساس كامل ومعرفة تندرج فيها الذات كلها.

واذ أن الكلمة اظهار لهزات القوى، وكل ظهور لأي قوة في أي شكل من الأشكال سيعتبر اعتبار كلمتها، ولذا الكل يتكلم في العالم، والكل كلمة أخذت لها جسما وشكلا.

وبالفلفلدية ان لفظ «كلمة» (هالا) مشتق من مادة الفعل (هال) ومعناها «أعطي القوة» ومن ذلك المعنى المجازي «التجسيم»، ويروي المأثور الفلاني أن كوينو، الكائن الاعلى، منح القوة كيكالا أي الانسان الأول بتوجيه الكلام اليه. فيقول السيلاتيقي (أي شيوخ التدريب الفلانيين): «قد أعطى كيكالا الاله القوة للانسان حين كلمه».

وان كانت الكلمة قوة، فذلك لكونها تخلق رابطة ذهاب واياب (يا ورطا بالفلانية) مولدة للحركة والتناسق، أي للحياة والعمل، وترمز رجلا الحائك الصاعدتان النازلتان الى هذا الذهاب والاياب، وذلك كما سنشاهد فيما بعد عند ذكر الصناعات التقليدية. (فرمزية المنوال ترتكز تماما على الكلمة الخلاقة أثناء عملها).

وكلمة الانسان، على صورة كلمة مانكالا التي هي صداها، تحرك القوى الباطنة وتنشطها وتثيرها كمثل الانسان الذي ينتصب واقفا، أو يلتفت اذا ما سمع نداء باسمه.

وقد تخلق الكلمة السلم كما قد تحطمه. فهي بمثابة النار، فكلمة واحدة في غير محلها قد تثير حربا كجزئية القش الملتهبة التي قد تتسبب في حرب عميم. وفي المثل المالي هذا القول «ما الذي يهيىء الشيء؟» (أي يرتبه و يعدّه) ذاك هو الكلمة، «وما الذي يفسد الشيء؟ إنها الكلمة، وما الذي يقّر الشيء في وضعه؟ هي الكلمة».

ويمنح المأثور للكلمة، (كوما) وليس فحسب القدرة الخانقة، ولكن أيضا وظيفة مزدوجة للمحافظة وللهدم. ولذا هي أكثر من كل شيء، العامل الأعظم النشيط في السحر الافريقي.

الكلمة عامل منشط للسحر

ينبغي ألا يغيب عن ذهننا أن التراث الافريقي، بصفة عامة، يفترض رؤية دينية للعالم. و يتصور

العالم المرئي ويحس به كعلامة وكتجسيم أو كقشرة بالنسبة لعالم خفي حي متكون من قوى في تحرك دائم. وفي صميم هذه الوحدة الكونية الفسيحة، يبقى الكل مرتبطا الواحد بالآخر، ومتضامنا، وسيكون سلوك الانسان نحو نفسه كما هو نحو العالم المحيط به (العالم المعدني والنباتي والحيواني والمجتمع البشري) موضوع تنظيم مدقق للطقوس ـــ وقد يكون مختلفا في شكله بحسب العروق أو الجهات.

وكان من المفروض أن يستتبع خرق القوانين المقدسة اضطرابا في توازن القوى تعبر عنه مختلف التشويشات. ولذا كان العمل السحري، أي ممارسة القوى، ترمي عادة الى اصلاح الموازنة المختلفة والى ارجاع التآلف، وقد وضع الانسان كما شاهدنا من قبل، حارسا عليه من قبل الخالق.

وفي أوربا يتحمل لفظ «السحر» دائما المعنى الرديء، بينما هو في افريقيا يدل فحسب على ممارسة القوى، وهو أمر محايد في حد ذاته، وقد يبدو نافعا أو مضرا بحسب الوجهة التي يوجه بها. وقد قيل: «لا السحر ولا الحظ قبيحان في حد ذاتهما، بل ان استعمالهما هو الذي يجعلهما حسنين أو قبيحين».

فالسحر الحسن، سحر المريدين أو «الشيوخ العارفين»، يهدف الى تطهير البشر والحيوانات والأشياء، لكي يعاد الى القوى ترتيبها، وفي هذا المجال تكون قوة الكلمة حاسمة.

فكما جاءت كلمة مانكالا الالهية لتحيي القوى الكونية الساكنة القارة في ما، كذلك كلمة الانسان تأتي لإحياء القوى الساكنة في الأشياء وتحريكها واثارتها. ولكن الكلمة كي يكون لها أثرها الكامل تتطلب أن ترتل ترتيلا متوازنا، اذ لابد للحركة من توقيع وايقاع. ذاك الذهاب والاياب الذي هو جوهر الايقاع.

وفي الأناشيد الطقسية كما في عبارات التعزيم، الكلمة هي تجسيم لايقاع الحركة، واذا ما اعتبرت كأنها من شأنها أن تؤثر في العقول فذاك لان تآلفها يخلق الحركات، تلك الحركات التي تولد القوى، تلك القوى العاملة في العقول التي هي في ذاتها قدرات على العمل.

ان الكلمة عندما تستمد القدرة الخلاقة العاملة من الأمر المقدس، حسب التقليد الافريقي، تدخل مباشرة، مع الحفاظ على التآلف أو مع قطعه، داخل الانسان وداخل العالم الذي يحيط به.

لذا يعتبر معظم المجتمعات الشفاهية التقليدية أن الكذب جذام أخلاقي، ومن ينكث كلمته في افريقيا التقليدية يقتل شخصه المدني والديني والباطني، و يقطع نفسه عن المجتمع، و يكون موته أفضل من بقائه بالنسبة لذاته و بالنسبة لذو يه أيضا.

وأنشد المنشد من أهل كوموديبي، من كوليكورو بمالي، ضمن قصيدة له دينية:

«ان الكلمة حق بصفة الهية
فمن اللائق أن تكون معها محقا
ان اللسان الذي يفسد الكلمة
ليسمم دم الذي قد كذب»

و يرمز الدم هنا الى القوة الحيوية الباطنة والتي أخل الكذب تآلفها. يقول المثل: «ان من أفسد كلمته أفسد نفسه»، فاذا ما فكر المرء بشيء وصرح بغيره، يكون قد انفصل عن ذاته، وهكذا تنقطع الوحدة المقدسة، وهي انعكاس للوحدة الكونية، ويخلق التنافر داخل الذات وفيما حولها.

وهكذا نزداد ادراكا للاطار السحري الديني والاجتماعي الذي يحل فيه احترام الكلمة داخل المجتمعات ذات المأثور الشفاهي، ولا سيما عند نقل الكلمات الموروثة عن الأجداد، وعن من هو أكبر منا سنا. وما تتشبت به افريقيا التقليدية أكثر من كل شيء، هو كل ما ورثته من الأجداد. وفي القول (أخذته عن أستاذي) (أخذته عن أبي) «رضعته من ثدي أمي» ما يعبر عن التقيد الديني بالتراث المنقول.

العلماء التقليديون

ان أعظم الخازنين لهذا المأثور الشفاهي، هم من ندعوهم بـ «التقليديين» فهم ذاكرة افريقيا الحية وأحسن شهودها. فمن هم هؤلاء الشيوخ؟.

فهم يدعون في البامبارا دوما أو سوما أي «العارفين» أو دونيكبا أي «صانعي المعارف»، وفي اللغة الفلانية هم يدعون سيلا تيقي أو جندو أو تشيورنكي هذه الألفاظ، تشتمل على مفهوم (العارف).

وقد يكونون شيوخا متدربين (أو مدربين) في فرع تقليدي خاص (التدريب على الحدادة أو النسج أو الصيد البري أو الصيد البحري الخ.).

أو قد يكون لهم المام بالمعرفة الكاملة للمأثور في كل مظاهره. فمن الدوما اذن من هو مطلع على علم الحدادة أو علم الرعي أو الحياكة مثل ما تم من اطلاع عليها من قبل المدارس العظمى التدريبية في السهوب، مثال ذلك ما في مالي، والكومو والناما والدو والدياراوارا والنياورولي الخ.

ولكن لا نخدع أنفسنا في ذلك فالمأثور الافريقي لا يقسم الحياة قطعا وقلما يكون العارف «اخصائيا» بل هو في الغالب «ذو معرفة عامة». فالشيخ ذاته مثلا قد يكون له معرفة في علم النباتات (معرفة منافع كل نبات ومضاره) كما في «علم الأراضي» (الخصائص الزراعية أو الطبية التابعة لكل أنواع الأراضي) أو في «علم المياه» والفلك وعلم الكونيات وعلم النفس الخ، و يتعلّق الأمر بعلم الحياة مع المعارف التي يكون في امكانها دائما أن تستخدم إستخداما تطبيقيا.

واذا ما ذكرت علوم «التدريب» أو العلوم «الباطنية» وفي هذه الألفاظ ما قد يحير القارئ العقلاني فالمقصود دائما، بالنسبة الى افريقيا التقليدية، هو علم تطبيقي في أساسه، يمكن من الاتصال اتصالا ملائما بالقوى التي تتعلق بالعالم المرئي والتي تستخدم في صالح الحياة.

والعالم التقليدي، الحافظ لأسرار الخلق الكوني ولعلوم الحياة المجهز عادة بذاكرة عجيبة، كثيرا ما يكون أيضا حافظا لوثائق الأحداث الماضية المنقولة من قبل التراث أو الأحداث المعاصرة.

والتاريخ الذي يريد لنفسه أن يكون أساسا افريقيا، لابد أن يرتكز على الشهادة التي لابديل لها ونابعة من الأفارقة الأكفاء. وكما يقول المثل: «لايزين رأس المرء وهو غائب».

وكان الدوما العظام، ممن كانت معرفتهم كاملة، مشهورين مبجلين يستحضرون من بعيد للاستفادة من معرفتهم وحكمتهم.

وكان من لقنني أمور الفلانيين، أردو ديمبو، من دوما فلانيا (سيلا تيقي) وقد توفي الآن. أما علي عيسى وهو سيلا تيقي آخر فما زال على قيد الحياة.

ودانفوسيني الذي كان يتردد على منزل أبي زمن طفولتي قد كان دوما يكاد يكون عاما؛ فعلاوة على كونه شيخا عظيما مدربا بالكومو، فقد كان له علم بسائر المعارف (التاريخية والتعليمية أو التي تتعلق بعلوم الطبيعة) في عصره. وكان الجميع يعرفه في البلدان الممتدة بين سيكاسو و باماكو أي بين المملكات القديمة في كيني دوكو و بيلي دوكوو.

ولطيف أخوه الأصغر، وكان مطلعا على ما كان لأخيه من علم، قد كان أيضا دوما عظيما. وكان له ميزة التأدب بالعربية كما قد قام بالخدمة العسكرية (ضمن القوات الفرنسية) بالتشاد، مما سمح له بجمع الكثير من المعلومات في سهوب التشاد، فبدت شبيهة بما كان قد تلقنه في مالي.

وإيوا، من طبقة القصاصين، من أعاظم التقليديين بمندي وهو يعيش حاليا في مالي، مثله مثل بنزومانا الموسيقي العظيم الأعمى.

ولنوضح منذ الآن أنه ليس من الحتمي أن يكون القصاص تقليديا «عارفا» ولكنه قد يصير كذلك اذا كانت ملكاته تساعد على ذلك. على أنه لن يمكنه ادراك العرافة بالكومو وقد طرد منها القصاصون (٣) (كريوا).

و بصفة عامة فان التقليديين قد أبعدوا ان لم يطاردوا من قبل السلطة الاستعمارية التي كانت تسعى، بالطبع، الى قلع التقاليد المحلية لتزرع آراءها الخاصة. اذ، كما يقال: «لا يزرع في الحقل المغروس ولا في الأراضي المستريحة». ولذا التجأ المدربون غالبا الى الأدغال وهجروا العواصم المسماة «طوبابودوكو» (٤) «مدن البيض» (أعني المستعمرون».

على أنه مازال في مختلف بلدان السهوب الافريقية المكونة لبافور القديم — وبدون شك في غيره من البلدان — «عارفون» واصلوا نقل المستوى المقدس لمن قبلوا أن يحفظوه و يسمعوه، وأظهروا جدارة في تقبل تعليمهم بصبرهم وكتمانهم، وهي القواعد الأساسية المفروضة من قبل الآلهة... وفي ظرف عشر سنوات أو خمس عشرة سنة يحتمل انقراض كل أواخر الدوما العظام وكل الشيوخ الاخيرين وارثي مختلف فروع التراث. فان لم نسرع بجمع شهاداتهم وتعليمهم، سيغرق في النسيان معهم كل التراث الثقافي والروحي لشعب، تاركا شبابا بدون جذور.

صدق النقل

ان التقليديين الدوما كبارا وصغارا، أكثر ممن سواهم، مقيدون باحترام الحقيقة. والكذب في نظرهم، ليس عيبا أخلاقيا فحسب بل هو تحريم شعائري اذا ما خرقوه حرم عليهم القيام بوظيفتهم.

ولم يكن الكاذب ليكون ملقنا أو «صاحب السكين» أو دوما أيضا، فاذا ما ثبت الأمر الخارق للعادة المتمثل في كذب تقليدي دوما، لم يعد أحد يرجع اليه في أي مجال من المجالات، وتضمحل وظيفته في الآن نفسه.

و بصفة عامة ان التقاليد الافريقية تخشى الكذب، وقد قيل: «حذار من لغة تنقطع عن ذاتك، ولئن يقطع العالم عنك، فخير من أن تنقطع أنت عن ذاتك» على أن التحريم الشعائري المتمثل في

(٣) عن «السحرة» انظر ما بعده.

(٤) انظر به طوبا بودوجو.

الكذب يمس خاصة «القائمين بالقداسات» (أي المضحين أو أصحاب السكين) (٥) من كل الدرجات، ابتداء من أب الأسرة وهو القائم بالقداس العائلي الى الحداد والحائك أو الصانع التقليدي، حيث ان ممارسة الصناعة نشاط مقدس، كما سنرى. و يقع التحريم على كل من أنيطت بهم مسؤولية سحرية دينية، و يقومون بأعمال شعائرية، فهم بمثابة الوسطاء بين عامة الناس والقوى الحافظة، وفي القمة القائم بالقداس للبلد (مثلا الهوكون عند الدوكون) وعرضاء الملك.

وهذا التحريم الشعائري موجود فيما أعلم، في كل التقاليد في السهوب الافريقية.

وتحريم الكذب يرجع الى كون القائم بالقداس اذا ما كذب فهو يفسد الأعمال الشعائرية، ولم تعد تتوفر فيه الشروط المطلوبة ممن يقوم بالعمل المقدس، والشرط الأساسي هو أن يكون المرء متآلفا في ذاته قبل أن يمارس قوى الحياة. ولنتذكر أن كل النظم السحرية الدينية الافريقية ترمي الى الحفاظ على توازن القوى أو الى اعادة هذا التوازن الذي به يتعلق تآلف العالم المحيط، المادي والروحي..

والدوما، أكثر ممن سواهم، مقيدون بهذا الالتزام، اذ بصفتهم شيوخا عرفيين هم حاملوا الكلمة العظام، الكلمة التي هي أهم عامل نشيط في حياة البشر وفي العقول، وهم ورثة الكلمات المقدسة التعزيمية التي نقلها سلسلة الأجداد التي ترجع الى أولى الهزات المقدسة المنبعثة من ماء الانسان الأول.

وان كان التقليدي الدوما هو حامل الكلمة، فسائر الناس هم خازنو المحادثة. وسأذكر مثل صاحب سكين دوكون، من بلاد بنياري (دائرة بندياكارا) وقد عرفته في شبابي فاضطر يوما الى أن يكذب لانقاذ حياة امرأة مطاردة فأخفاها في بيته، و بعد هذا الحادث تخلى تلقائيا عن وظيفته، اذ هو رأى أنه لم تعد تتوفر فيه الشروط الشعائرية لتحملها كما ينبغي.

وفي الأمور الدينية والمقدسة لا يخشى الشيوخ التقليديون العظام معارضة الجمهور، فان هم أخطأوا يعترفون بخطئهم على رؤوس الملأ ولا يلتمسون أعذارا مدبرة، ولا يلجأون الى تعلة أو مهرب.

والاعتراف بأغلاطهم المحتملة واجب عليهم، اذ فيه تطهير من الدنس. واذا كان التقليدي أو العارف محترما هكذا في افريقيا، فذلك لكونه يحترم نفسه قبل كل شيء، فهو منظم داخليا اذ لا ينبغي له أبدا أن يكذب، وهو إنسان «مستقيم تماما» مالك للقوى التي تسكنه. ومن حوله تترتب الأمور وتخمد الاضطرابات.

و بقطع النظر عن تحريم الكذب فيعمل العارف على ضبط الكلمة ولايلقيها بلا روية، اذ أن كل كلمة، كما رأينا آنفا، تعتبر اظهارا لهزة القوى الباطنة، و بالعكس فان القوة الباطنة تنشأ عن استبطان الكلمة.

وندرك بهذه النظرة أحسن ادراك ما تمنحه التربية الافريقية التقليدية لعملية التحكم في النفس، من قيمة. فقلة الكلام دليل على حسن التربية وعلامة الشرف، فالصبي الصغير سرعان ما

---

(٥) لا تتضمن حتما كل الحفلات الشعائرية التضحية بحيوان، وقد تتمثل «الضحية» في هدية ذرة أو لبن أو نتاج طبيعي آخر.

يتعلم كيف يتحكم في التعبير عن مشاعره أو ألمه، وكيف يكبح ما فيه من قوى، على صورة ما الاساسي الذي يحبس في نفسه، القوى الكونية، بصورة خاضعة منظمة.

فيقال عن العارف المحترم أو عن الانسان المالك لنفسه: (هو «ما» او ندّو بالفلاني) أو إنسان كامل.

و ينبغي ألا يلتبس الأمر أمامنا بين التقليديين «دوما» الذين يعرفون كيف يعلمون الناس وهم يلعبون ويخاطبون المستمع بما يفهم، و بين الشعراء المتجولين والقصاص والمنشطين العموميين الذين هم عامة من فريق «الدييلي» (القصاصي) أو وولوسو «سجناء كوخ» (٦) ان انتظام الحق لا يوجد لدى هؤلاء، وتعترف لهم التقاليد بحق طمسه أو تجميله ولو بصفة تقريبية، ما داموا يسلون جمهورهم أو يثيرون اهتمامه، كما سنرى فيما بعد. و يقال «يسمح للقصاص أن يكون ذا لسانين».

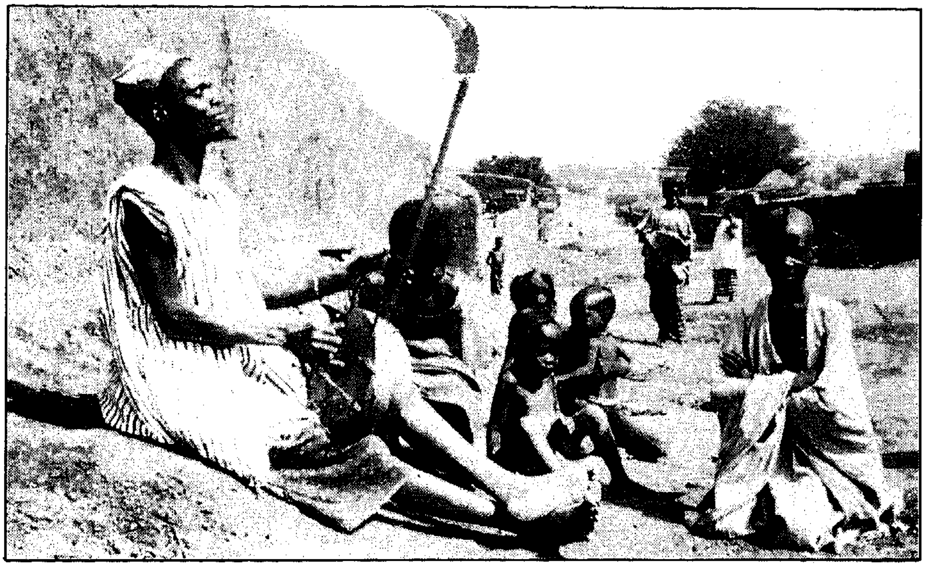
و بالعكس انه لن يخامر ذهن أي افريقي مكون تكوينا تقليديا أن يشك في صدق أقوال التقليدي «الدوما» ولا سيما اذا كان الأمر يهم نقل المعارف عن سلسلة الأجداد.

فيتوجه «الدوما»، قبل أن يتكلم، الى أرواح أجداده محترما أياها طالبا منها أن تساعده كي لايزل لسانه وكي لا يعتوره سهو ينسيه بعض الأمور.

وكان «دانفوسيني»، «الدوما» الأعظم من «بامبارا» وقد عرفته في طفولتي في بوكوني وكان منشد الكومو، كان يقول قبل الشروع في الحديث أو التعليم:

«أيا روح أستاذي طيا بلن ساماكي!
يا أرواح الحدادين الشيوخ وكبار الحائكين،
الأجداد الأوائل الملقنين القادمين من الشرق،
أيا جيجي، أيها الكبش الكبير الذي كان أول من نفخ في بوق الكومو،
يامن قدمت على الجليبا (النيجر)!
تعالوا جميعا واستمعوا اليّ.
سأشرع، تبعا لأقوالكم،
وسأقص على مستمعي
كيف وقعت الأمور
وكيف مرت منكم الينا في الزمن الحاضر.
لكي يبقى هذا القول محفوظا بعناية بالغة
وكي ينقل بأمانة
الى رجال الغد
وهم أولادنا
وأولاد أولادنا.
فامسكوا (يا أجدادنا) بعنان لساني!

(٦) وولوسو (حرفيا: المولودون في البيت) أو «سجناء الكوخ» كانوا خداما أو أسر خدام ارتبطوا منذ أجيال باسرة واحدة. وكانت التقاليد تعترف لهم بحرية كاملة في الحركة والقول، كما تعترف لهم بحقوق مادية جسيمة على مكاسب أسيادهم.



● ١) موسيقي من شعب التكولور، يعزف على آلة الاردين. (كايس، مالي، أ. و. ٢٩٢).

● ٢) مغن من الـ «مقيت» (مجموعة التوثيق الفرنسي).



٢

واهدوا خروج كلماتي،
كي تتبع وتحترم
ترتيبها الطبيعي»

ثم كان يضيف:
«أنا دانفوسيني»، من فريق «ساماكي» (الفيل الذكر)، سأقص كما تعلمت أنا بين يدي شاهدي «ماكور و ومانفين» (٧).
كلاهما يعلم مثلي اللحمة (٨) فسيكونان لي حاميين ودعامتين.

واذا ما أخطأ المنشد أو اذا ما أظهر نقصا، قال شاهده: «يا هذا، تحر كيف تفتح فاك» فيقول: «انه لساني الجامح الذي خانني».

وثمة تقليدي «دوما» لم يولد حدادا ولكنه يعرف العلوم المتعلقة بالحدادة، مثلا يقول، قبل الشروع في الخطاب: «اني مدين بهذا لفلان وهو نقله عن فلان الخ..» ويحيي جد الحدادين، وكعلامة ولاء يجلس القرفصاء واضعا مرفقه الايمن على الأرض رافعا ساعده.

وقد يذكر «الدوما» أيضا شيخه قائلا: «احيي كل الوسطاء حتى نونفايري» (٩) دون أن يلتزم بذكر الأسماء كلها.

ولابد من عودة دائما الى السلسلة التي يمثل «الدوما» نفسه حلقة منها. في كل فروع المعرفة التقليدية يكون لسلسلة الرواية أهمية كبرى، وبدون رواية منظمة لا يوجد «السحر» بل توجد فقط ثرثرة أو قصة. ولا اثر اذن للكلمة، ومن المفروض أن تحمل الكلمة التي نقلتها السلسلة، منذ النقل الأصلي، قوة تجعلها فعالة جوهرية.

وهذه الفكرة «احترام السلسلة» أو «احترام النقل» هي التي تجعل الافريقي غير المتأقلم ثقافيا يميل الى رواية الخبر في الصورة نفسها التي سمعه بها، تعينه في ذلك ذاكرة الاميين المدهشة.

واذا ما عورض فهو يكتفي بالاجابة قائلا: «علمنية فلان» ذاكرا دائما مصدره.

وعلاوة على ما للتقليديين الدوما من قيمة أخلاقية خاصة وعلى تعلقهم «بسلسلة الرواية» ان هناك ضمانا اضافيا لصدق رواية توفره المراقبة الدائمة من قبل نظرائهم أو من قبل القدماء المحيطين بهم، وهم يسهرون بعناية قصوى على صدق ما ينقلونه، و يصححون روايته عند أقل خطأ، كما شاهدنا في مثال دانفوسيني.

وأثناء خروجاته الشعائرية الى الأدغال، قد يضيف المنشد للكوموتأملاته الخاصة أو موحياته للكلمات التقليدية التي ورثها عن «السلسلة» والتي يتغنى بها لرفاقه. وتأتي كلماته كحلقات

(٧) ماكورو ومانفين هما زميلاه.
(٨) لكل خبر تقليدي لحمة أو قاعدة قارة لا يمكن أبدا أن تتغير ولكنه في الامكان أن تطرز حولها استطرادات أو تحسينات حسب الوحي أو حسب اهتمام المستمعين.
(٩) سلف الحدادين.

ـديدة لـتشري كـلمات سابقية، ولكنه يلفت النظر اليها قائلا: «هذا من ز يادتي وهذا من قولي، لسـت مـعـصوما، وقد أخطئ، واذا ما أخطأت فتذكروا أني مثلكم أتغذى بقبضة من الذرة وبجرعة ن الماء و بنفخات من الهواء. وليس الانسان معصوما».

ويحفظ كلماته الجديدة من تبعه من المدربين ومن الاتباع الجدد بحيث تكون كل أناشيد الكومو عروفة محفوظة في الذكرات.

وتقـاس درجـة الـتطـور لـدى الـتـابـع للكومولا بكمية الكلمات المحفوظة بل بتطابق حياته مع كلـمـاته. فاذا ما كان لرجل عشر كلمات أو خمس عشرة فحسب، واذا ما كان يحياها، اذن يكون ابـعـا صـالحا للكومو ضمن الجمعية. وكي يكون منشدا للكومو، أي شيخا متدربا، ينبغي أن يعلم كامل الكلمات الموروثة وأن يحياها.

والتـعـليم التقليدي، خاصة اذا تعلق بمعارف مرتبطة بالتدريب، هو مرتبط بالتجربة ومقحم في لحياة. ولذا فان الباحث الاوربي أو الافريقي اذا ما رام أن يقترب من الأحداث الدينية الافريقية، ـضـى على نـفـسـه أن يـبـقى على حـدود المـوضـوع أن رفض أن يعيش التدريب التابع له، وأن يتقبل واعده، وهذا ما يفترض على الأقل أن يعرف اللغة. فمن الأمور ما لا يمكن «تفسيره» بل ما يجب أن برب وأن يعيشه الباحث.

وأذكـر أنـه في سنة ١٩٢٨، اذ كنت في مأمورية بطوبجان، قدم عالم شاب بالاتنولوجيا الى البلد ٍجراء بحث على ديك الضحية بمناسبة الختان، فوجهه الضابط الفرنسي الى رئيس المقاطعة الاهلي ـالبا منه أن يعمل كل ما يمكن كي يحصل العالم الاتنولوجي على ما يرضيه ومؤكدا على أن «يقال ه شيء».

وجمع رئـيـس المـقـاطـعـة بـدوره الأعـيـان وعـرض عليهم الأمر مكررا كلام الضابط فقال كبير لجـمـاعـة، وهـو صـاحـب الـسـكين بـالمـكـان، أي أنـه المسؤول على حفلات الختان وما يتبعها من لدريب:

«يريد أن نقول له كل شيء؟
ــ قال رئيس المقاطعة: نعم.
ــ قال: «ولكن هل أتى كي يختن؟
ــ قال: لا، بل أتى ليستخبر».

فآدار كبير الجماعة رأسه قائلا:

«كيف نقول له كل شيء، ان لم يكن أتى بقصد الختان؟
أنـت تـعـلـم، أيها الرئيس، ان الآمر مستحيل. فعليه أن يعيش حياة المختونين كي نتمكن من تعليمه كل شيء.
ــ قـال: اذ نحـن مرغمون على ارضاء القوة الحاكمة، عليك أنت أن تجد الحل كي نخرج من هذا المأزق».
ــ قال: حسنا سنصرفه دون أن يشعر، وذلك اعتمادا على عبارة «الوضع على التبن».

واستنبطت بالفعل هذه الطريقة «للوضع على التبن» المتمثلة في امداد شخص برواية مختلفة اذا تعذر اعلامه بالحقيقة، استنبطت انطلاقا من الوقت الذي أرسلت فيه السلطة الاستعمارية أعوانها أو ممثليها للقيام ببحوث اثنولوجية، دون أن يعيشوا الظروف المطلوبة. وكم اتنولوجيا فيما بعد صار ضحية لا واعية لذلك... ودون أن نصل الى ذلك، فكم منهم تخيل أنه فهم أمرا بأكمله، بينما هو لم يعشه. فكان من المتعذر أن يعرفه حقا.

وعلاوة على التعليم الباطني الذي كان يلقى داخل المدارس التدريبية الكبرى — كالكومو وغيرها مما ذكر آنفا — فان التعليم التقليدي يبدا في الواقع في كل أسرة حيث يكون الأب أو الأم أو الأفراد الأكبر سنا في آن واحد معلمين ومربين، و يكونون أول خلية تقليدية. فهم الذين يلقون الدروس الأولى في الحياة ليس حسب التجربة ولكن أيضا بواسطة القصص والروايات والخرافات والأمثال والحكم الخ... والأمثال هي رسائل أورثها الاجداد والأحفاد وعددها لا نهاية له.

وقد حرر بعض المدربين العابا للأطفال كي تحمل على مر السنين بعض المعارف الباطنة «المرموزة»، ولنذكر مثلا لعبة البينكولو بمالي المعتمدة على نظام عدّي يتعلق بالسقيبا بأرقامها ٢٦٦ أو العلامات المقابلة لصفات الله.

ثم ان التعليم ليس نظاميا بل مقترنا بظروف الحياة، وقد تبدو هذه الحالة فوضوية ولكنها في الواقع عملية حية جدا. فالدرس المستمد بمناسبة حادثة أو تجربة ينقش في أعماق ذاكرة الطفل. وأثناء جولة في الأدغال فان العثور على قرية نمل سيعطي المعلم الشيخ فرصة لتلقين معلومات متنوعة بحسب نوعية مستمعيه. فاما أن يتحدث عن الحيوان ذاته أو عن القوانين العاملة في حياته، أو عن «صنف الكائن» الذي ينتمي اليه، أو أنه يلقي درس أخلاق على الأطفال مبينا لهم كيف تعتمد حياة المجموعة على التضامن ونكران الذات. أو أنه يفسح المجال الى معلومات أرق، اذا كان يشعر أن مستمعيه في وسعهم ادراكها. وهكذا فإن كل حدث في الحياة وكل حادث صغير يمكن دائما أن يكون مناسبة لشروح متعددة ولرواية اسطورة أو قصة أو خرافة. وقد تسمح كل ظاهرة يلاقيها الانسان بإمكان الرجوع الى القوى التي انبثقت منها و بالتذكير بأسرار وحدة الحياة التي يحركها كلها السي، القوة المقدسة الأساسية، التي هي نفسها مظهر الإله الخالق.

في افريقيا كل شيء «تاريخ» وتاريخ الحياة العظيم يشمل تاريخ الأراضي والمياه (الجغرافيا) وتاريخ النباتات (علم النبات والاقراباذين) وتاريخ أبناء قبل الأرض (المعادن والفلزات) وتاريخ الكواكب (فلك وتنجيم) وتاريخ المياه الخ...

وفي تقاليد السهوب ولا سيما تقاليد بامبارا والفلانيين، ان مجموع مظاهر الحياة على الأرض يقسم الى ثلاثة أصناف، أو أن «أصناف الكائنات» تقسم بدورها الى ثلاثة فروع:

— في أسفل السلم الكائنات الغير الحية، المسماة «صما» التي تعتبر لغتها لغة باطنية اذ هي لا تدرك أو لا تسمع من عامة الناس. و يشمل هذا الصنف من الكائنات كلما يقع على سطح الأرض (رمل، ماء الخ..) أو يكمن في أعماقها (معادن، فلزات الخ..).

ومن بين الكائنات الغير الحية الصماء توجد، الغير الحية الجامدة والسائلة والغازية (حرفيا الدخانية).

ـ وفي الدرجة الوسطى تقوم الكائنات «الحية الساكنة»، وهي كائنات حية لا تتنقل، وذلك صنف النباتات التي قد تمتد أو تنتشر في الفضاء ولكن ساقها لا تتحرك.

ومن بين الكائنات الحية الساكنة توجد النباتات الزاحفة والمتسلقة والرأسية وهاته الأخيرة هي أرفع الأصناف.

ـ وفي النهاية «الكائنات الحية المتحركة» وتشمل كل الحيوانات حتى الانسان.

وتشتمل الكائنات الحية المتحركة الحيوانات الارضية (منها ذات العظم ومنها ما بدونه) والحيوانات المائية والحيوانات الطائرة.

فيمكن اذن أن يرتبط كل كائن موجود بأحد هذه الأصناف (١٠) ومن بين كل «التواريخ» فان أعظمها وأكبرها دلالة تاريخ الانسان نفسه ملخص كل «التواريخ» اذ، حسب الاسطورة، هو مؤلف من جزء من كل ما وجد قبله. فكل ممالك الحياة توجد فيه (معدني، نباتي، حيواني) مقرونة بالقوى العديدة وبالملكات العليا. و يرتكز ما يهمه من التعاليم على أساطير علم الكونيات معينة مكانته ووظيفته في العالم كاشفة عن ماهية علاقته بعالم الأحياء والأموات. وتفسر رمزية جسمة كما يفسر تشعب حياته النفسية، «ان شخصيات الشخص متعددة في الشخص» هكذا تقول مأثورات بامبارا والفلانيين.

و يعلم السلوك الذي يجب أن يكون له ازاء الطبيعة وكيفية احترامه لتوازنه وعدم اقلاق القوى التي تنشطه والتي هو مظهرها المرئي. و يكشف له التدريب عن علاقته مع عالم القوى و يقوده شيئا فشيئا الى تمالك النفس، و يبقى الهدف النهائي أن يصير «ما» «وانسانا كاملا» ومخاطبا لمانكالا حارس العالم الحي.

الصنائع التقليدية

ان الصنائع التقليدية حوامل كبرى للمأثور المنقول

في المجتمع الافريقي التقليدي كثيرا ما يكتسي النشاط البشري طابعا مقدسا أو باطنيا، ولا سيما منها ما يتمثل في التأثير على المادة وفي تحويلها باعتبار كل شيء ككائن حي.

وكل وظيفة صناعية كانت، ترتبط بمعرفة خفية نقلها جيل عن جيل، وأصلها الوحي الأول. فكان عمل الصنائع مقدسا اذ كان «يحكي» عمل مانكالا و يتمم خلقه. فتقول مأثورات بامبارا إن الخلق ليس تاما وان مانكالا عند خلقه لأرضنا أبقى فيها أمور ناقصة كي يأتي ما، مخاطبه، ليتممها أو ليغيرها حتى يقود الطبيعة نحو الكمال، وكان من المفروض أن «يردد» النشاط الصناعي في عمله سر الخلق. وهو «يركز في البؤرة» قوة باطنة لا يمكن الاقتراب منها بدون احترام الظروف الشعائرية الخاصة.

و يصاحب الصناع التقليديون شغلهم بأناشيد شعائرية أو بكلمات موقعة جوهرية. وتعتبر حركاتهم نفسها كلغة، وذلك ان حركات كل حرفة تعيد في رمزية خاصة بها، سر الخلق الاساسي المرتبط بقدرة الكلمة، كما أشرنا الى ذلك آنفا. فيقال:

---

(١٠) انظر أ. همباتي با، ١٩٧٢، ص ٢٣ وما يليها.

«يصنع الحداد الكلمة
والنساج يحوكها
والاسكافي يملسها و يطريها».

ولنتخذ مثل النساج وصناعته مقترنة برمزية الكلمة الخلاقة المنتشرة في الزمان وفي المكان.

فنساج الفريق (مابو، لدى الفلانيين) مستودع لأسرار القطع الثلاث والثلاثين التي تتركب منها القاعدة الاساسية للمنوال، والجميع يعلم معناها. فالهيكل مثلا يكون من ثماني خشبات رئيسية: أربع رأسية لا ترمز الى العناصر الاربعة فحسب (التراب والماء والهواء والنار) بل أيضا الى الجهات الأساسية الاربع، و ٤ خشبات مستعرضة ترمز الى الجهات الاربع الملحقة، ويمثل النساج في وسطها الإنسان الاصلي ما، في قلب الجهات الثمان في الفضاء. وبحضوره تحصل على تسعة عناصر تذكرنا بحالات الوجود الاساسية التسع، و بأصناف الكائنات التسعة، و بفتحات الجسم التسع (أبواب قوى الحياة) و بأصناف البشر التسعة عند الفلانيين الخ.. الخ..

فقبل الشروع في العمل يمس النساج كل قطعة من المنوال متفوها بكلمات أو ابتهالات توافق قوى الحياة التي تجسمها.

وحركات الأرجل ذهابا وايابا صعودا ونزولا لتحريك الدواسة، تذكر بالايقاع الاصلي للكلمة الخلاقة المرتبطة بثنائية كل شيء و بقانون الدورات، فكأن رجليه تتكلمان قائلتين:

«فونيونكو فونيونكو ثنائية ثنائية
اذا ما ارتفعت واحدة تنزل الأخرى
يموت الملك و يتوج الأمير
ويموت الجد و يولد الحفيد
خصومات طلاق تمتزج بأصداء حفلة الزواج....»

و يقول المكوك من جهته:

«أنا سفينة القدر
أمر بين صخور خيوط اللحمة
التي تمثل الحياة
من الجانب الايمن الى الجانب الأيسر
ناشرا أمعائي (الخيط)
لأساهم في البناء
ثم من الجانب الايسر الى الجانب الايمن
ناشرا أمعائي
والحياة ذهاب وإياب مستمر
تضحية مستمرة بالذات»

وقطعة النسيج المتجمعة المطوية على عصى مرتكزة على بطن النساج تمثل الماضي بينما يرمز

مطوى الخيوط المنسوجة الى سر الغد والمصير المجهول. وسيقول النساج دائما: «أيها الغد لا تحتفظ لي بمفاجأة كريهة».

ويمثل شغل النساج في الجملة ثماني حركات من الذهاب والاياب (بالرجلين واليدين والمكوك والتقاطع الايقاعي لخيوط اللحمة) تقابل خشبات الهيكل الثمان وسوق العنكبوت الاسطورية الثمان تلك التي علمت علمها حد النساج.

وحركات النساج وهويشغل المنوال هي الخلق أثناء عمله، وكلماته المصاحبة لحركاته هي انشودة الحياة نفسها.

واما الحداد التقليدي، فهو مستودع سر الاستحالات، فهو «سيد النار» من أعلى طراز أصله اسطوري، وفي مأثوري البامبرا، يدعى «ابن الأرض الأول» وترجع معلوماته الى ما الانسان الأول. وقد علمه الخالق مانكالا فيا علمه، أسرار «الحدادة»، ولذا سمي كور الحدادة فان أي باسم فان، البيضة الاصلية التي خرج منها العالم كله وكانت المصهر المقدس الأول.

وترتبط عناصر المصهر برمزية جنسية هي عبارة عن عمل كوني للخلق أو انعكاسه.

فالزقان المستديران اللذان يحركهما مساعد الحداد يشبهان بخصيتي الذكر، وما يمتلئان به من الهواء هي مادة الحياة المرسلة، من خلال نوع من الجعاب يمثلها القضيب، الى موقد المصهر المتمثل في الرحم حيث تعمل النار المحولة.

فلا يدخل الحداد التقليدي المصهر الا بعد الاستحمام الشعائري كي يتطهر، يهيأ له الحمام بطبيخ بعض الاوراق والقشور والجذور من الاشجار، تختار بحسب اليوم. فالنباتات (كالمعادن والحيوانات) تقسم الى سبعة أصناف تقابل أيام الاسبوع وتقترن بقانون «التقابل القياسي» (١١) ثم يرتدي الحداد زيا خاصا اذ لا يمكنه أن يدخل المصهر وعليه ثياب غير لائقة. وكل صباح، يطهر الحداد المصهر ببخورات خاصة مستمدة من نباتات يعرفها.

واذا ما تمت هذه العمليات، واذا ما اغتسل الحداد من كل ما لاصقه في الخارج يكون في حالة طقوسية و يصير طاهرا شبيها بالحداد الأصلي، واذاك فحسب يكون في امكانه الاقتداء بمانكالا، أن «يخلق» بتغيير العادة وصنعها (واسم الحداد بالفلانية هوبيلو أي، حرفيا، المحول المغير) و يذكر الحداد قبل الشروع في العمل العناصر الاصلية للخلق الاربعة (التراب والماء والهواء والنار) وهي جميعا، يتحتم تمثيلها في المصهر، ففيه دائما حوض ماء والنار في الموقد والهواء يبعث به الزقان وبجوار المصهر كدس صغير من التراب.

و يتفوه الحداد أثناء شغله بكلمات خاصة عند لمسه كل آلة، فعند لمسه للسندان، رمز القابلية النسائية، يقول: «لست مانكالا، بل أنا ممثل مانكالا. فهو الخالق، لا أنا» ثم يأخذ الماء أو بيضة ويهديها السندان قائلا: «هذا مهرك».

و يأخذ مطرقته الضخمة، رمز القضيب، و يضرب بها ضربات على السندان «ليحسسه» و يتم هكذا الإتصال، و يصير في امكانه أن يشرع في العمل.

(١١) عن قانون التقابل القياسي انظر أ. همباتي با: مظاهر من الحضارة الافريقية الحضور الافريقي، باريس، ١٩٧٢، ص ١٢٠ وما بعدها.

وعلى المساعد ألا يسأل أي سؤال، وما عليه الا أن ينظر وأن ينفخ. وهذا هو الطور «الصامت» في التدريب. وكلما تقدم في المعرفة يكون نفخه حسب ايقاعات تزداد تشعبا، ولكل ايقاع مدلوله، ثم أثناء الطور الشفاهي من التدريب، ينقل المعلم كل معلوماته الى تلميذه شيئا فشيئا، ويمر به ويسدد خطاه الى أن يحصل على الأستاذية، فيمكن الحداد الجديد بعد «حفلة تحرر» أن يفارق أستاذه وأن يجعل لنفسه مصهرا خاصا.

وعموما ان الحداد يرسل بأبنائه للتدريب عند حداد آخر. وكما يقول المثل: «ليس أزواج المعلم وأبنائه خيرة تلاميذه».

وهكذا فان الصانع التقليدي، عندما ينسج على منوال مانكالا «مكررا» بحركاته الخلق الأول، لا يقوم «بعمل» بالمفهوم الاقتصادي المحض بل بوظيفة مقدسة تدخل فيها قوى الحياة الاساسية وتجعل الصانع ملتزما بكل ذاته. ففي سر مصنعه أو مصهره هو يساهم في السر المتجدد للخلق الازلي.

و ينبغي أن تغطي معارف الحداد قطاعا فسيحا من الحياة. هو باطني شهير ومهارته في أسرار النار والحديد تؤهله وحده لعملية الختان، وكما شاهدنا فإن «مالك السكين» في تدريب الكومو هو الحداد دائما. فليس هو مجرد عالم بكل ما له صلة بالمعادن، بل انه يعرف تمام المعرفة تصنيف النباتات وخصائصها.

وحداد الفرن العالي في آن واحد مستخرج للمعدن وصاهر وهو الأقوى معرفة. فيضيف الى معارف الحداد الصاهر معرفة تامة بأنباء قلب الأرض (علم المعادن) ومعرفة أسرار الأدغال والنباتات. وهو يعرف العمران النباتي الذي يغطي الارض اذا ما حوت معدنا معلوما، و يعرف كيف يتحسس مناجم الذهب بمجرد النظر في النباتات والحجارة.

وهو يعلم تعزيمات الارض وتعزيمات النباتات. واذا اعتبرت الطبيعة حية تنشطها قوى، فكل عمل لابد أن تصحبه «آداب للسلوك شعائرية» من شأنها أن تحفظ توازنه المقدس وأن تحميه، فكل الأمور مرتبطة بعضها ببعض، ولكل صدى في الكل، وكل عمل يزعزع قوى الحياة وتتبعه سلسلة من النتائج التي يتحمل الانسان ردود فعلها.

وكانت علاقة الانسان التقليدي اذن بالعالم علاقة حية من المشاركة لا مجرد علاقة استعمال. ومن المفهوم في هذه النظرة الشاملة للعالم ان مكانة الجاهل ضئيلة.

ففي بلاد باولي القديمة مثلا، كان الذهب الذي تعج به الارض يعتبر معدنا إلاهيا، ولم يكن مادة استغلال متطرفة. فكان يستخدم بخاصة لصنع أدوات الملك أو أدوات الثقافة، وكان يقوم أيضا بدور العملة للتبادل في صورة هدية. وكان في امكان الكل أن يستخرجوه ولكنه لم يكن في وسع أحد أن يحتفظ لنفسه بتبر يتجاوز حجما معينا.

وكل تبر تجاوز الوزن العادي يسلم الى الاله و يفخم «الذهب الملكي» ذلك المستودع المقدس الذي لم يكن في وسع الملوك أنفسهم أن يغترفوا منه. وتناقلت هكذا بعض الكنوز الملكية دون أن تتغير حتى الاحتلال الاوربي، فالارض لله وليس لاحد ان يملكها، بل له منها فقط حق الانتفاع.

ولنعد الى الصانع التقليدي، فهو المثال النموذجي لتجسيم معارفه ليس في حركاته وأفعاله فقط بل في حياته كاملة، اذ من واجبه ان يتجنب مجموعة من المحرمات، وأن يقوم بعدة واجبات مقترنة بوظيفته، وذاك قانون حقيقي للسلوك ازاء الطبيعة وازاء بني جنسه.

فيوجد ما يسمى «طريق الحدادين» في (البامبرا، نوموسيرا أو نوموريا) و «طريق الفلاحين» و «طريق النساجين» الخ وفي مستوى الجنسية طريق الفلانيين (لوول فلفلد) وهي قوانين حقيقية أخلاقية واجتماعية وقضائية خاصة بكل مجموعة، نقلت بأمانة واحترمت عن طريق المأثور المنقول.

ويمكن القول إن الصناعة أو الوظيفة التقليدية تجسم ذات الانسان وذلك هو كل الفرق بين التربية العصرية والمأثور المنقول.

فكل ما يدرس في المدرسة الغربية مهما كان مفيدا فاننا لا نعيشه دائما بينما تتجسم المعرفة المتوارثة بواسطة الرواية الشفاهية في الكائن بأكمله:

وتجسم الآلات وأدوات الصناعة الكلمات المقدسة،فيضطر المتعلم عند اتصاله بالصناعة، وعند كل حركة أن يعيش الكلمة.

ولهذا فان التراث المنقول في مجموعه، لا يتلخص في نقل الأخبار أو بعض المعارف، بل هو يولد و يكوّن انموذجا خاصا للانسان ويمكن أن يقال، توجد حضارة الحائكين وحضارة الرعاة الخ...

اني اقتصرت هنا على التعمق في مثال الحائكين والحدادين، اذ هي انموذجية خاصة، ولكن كل نشاط تقليدي يكون عموما مدرسة عظمى للتدريب، أو هي سحرية دينية، ومسلك نحو الوحدة التي هي «حسب المدربين» إنعكاس لها أو عبارة من عباراتها الخاصّة.

وللاحتفاظ داخل النسب بالمعلومات السرية والقوى السحرية المتوارثة، فان على كل مجموعة غالبا أن تراقب المحرمات الجنسية القاسية ازاء الاشخاص الخارجة عن المجموعة، وان تتعاطى التزاوج داخلها. وليست علة ذلك اذن فكرة النبذ والتحذر من التعاطي مع الغير، بل هي ارادة الاحتفاظ في المجموعة بالأسرار الشعائرية. ونرى هكذا كيف وصلت هذه الجموع المتخصصة تخصصا ضيقا، والمتصلة بالوظائف المقدسة شيئا فشيئاالى فكرة «الطبقة» كما هي موجودة اليوم في افريقيا السهوب. يقول المثل: «إن الحرب والشريف هما اللذان صنعا الاسير، ولكن الله هو الذي كون الصانع (نياماكالا)».

ان فكرة التفوق أو الدونية بالنسبة الى الطبقات، لا ترتكز على أي واقع اجتماعي تقليدي، وقد ظهرت على مر الازمنة في بعض الجهات فحسب، ومن الراجح أن يكون ذلك تابعا لظهور بعض الامبراطوريات، حيث قامت الوظيفة الحربية المخصصة للاشراف، بمنح هؤلاءضربا من التفوق. وفي الازمنة العتيقة بدون شك، فان فكرة النبالة لم تكن هي عينها، وكان للسلطة الروحية الأولية تفوق على السلطة الزمنية. وفي تلك الازمنة كان السيلاتيقي (الشيوخ العارفون الفلانيون) وليس الأردو (الرؤساء والملوك) هم الذين يسيّرون المجموعات الفلانية.

وخلافا لما كتب أو ظن بعضهم، فان الحداد في افريقيا يخشى أكثر مما يحتقر هو «أول ابن للارض»، مالك للنار وممارس للقوى السرية. فيخشى على الأخص ماله من سلطة.

وعلى كل فان التقاليد أوجبت على الاشراف أن يحققوا القيام بشؤون الفئات «الطبقية» أو فئات النياماكالا (في البامبرا) (نيانيو وجمعه نيايبي بالفلانية) فكان لهذه الفئات ميزة امكانية طلب الخيرات (أو المال) لا كأجر عن عمل، بل كحق لاسبيل للاشراف أن يرفضوه.

وفي تقاليد مندي ومجاله في مالي، وان كان يمتد قليلا أو كثيرا على كامل تراب بافور القديم (أي

قديما افريقيا الغربية الفرنسية ما عدا مناطق الغابة وشرقي النيجر) فان الفئات الطبقية تشتمل على:

ـــ الحدادين (نومو في لغة بمبارا، بايلو بالفلانية)

ـــ الحائكين (مابو، بالفلانية كما في البمبارا)

ـــ عمال الخشب (من حطابين ونجاري الاثاث، ساكي بلغة بامبارا ولابو بالفلانية)

ـــ عمال الجلد (كرانكي بالبامبارا، سكي بالفلانية)

ـــ المنشطين العموميين أي القصاصين (ديالي بالبامبرا، و يسمون بالفلانية بالاسم العام نيايبي، نيامكالا) و يعرفون بالفرنسية باسم قْريو (Griots).

ومع أنه لاوجود للتفوقية بالمعنى الكامل، فإن الفئات الأربع للنياماكالا الصناع، لهم الاولوية على القصاصين، اذ هي تقابل تدريبات ومعرفة. في القمة يوجد الحداد، ثم يليه الحائك اذ صناعتها أكثر تدريبا. وللحدادين والحائكين أن يتزوجوا على السواء من نساء الفريقين اذا كنّ من الفخارين التقليديين ولهن عين التدريب النسائي.

وفي تصنيف ماندي يكون الصناع نياماكالا مصنفين دائما ثلاثة ثلاثة: فهناك ثلاثة حدادين (نومو في البامبارا و بايلو في الفلانية).

احدهم حداد منجم (أو ذو فرن عال) يستخرج المعدن و يصهر الفلز. وكبار العارفين منهم يمكنهم العمل أيضا في المصهر.

والثاني حداد الحديد الأسود، وهويعمل في المصهر ولا يستخرج المعدن.

والثالث حداد المعادن الكريمة، او الصائغ، وهوعامة من أهل البلاط وبهذه الصفة يستقر في سقيفة الرؤساء أو النبلاء.

وهناك ثلاثة نساجين: مابو

ـــ نساج الصوف، وهواعرفهم، والصور المرسومة على البطانيات دائما رمزية، وترتبط بأسرار الأعداد وعلم الكونيات، ولكل رسم اسم.

ـــ نساج الكركا، و ينسج بطانيات كبيرة والناموسيات أو الكلات من القطن، يمكن أن يبلغ طولها ستة آمتار ، وعليها لا نهاية من الصيغ التصويرية. و يشاهد منها ما يشتمل على ١٦٥ عنصرا فنيا (ولكل عنصر اسم ومدلول، والاسم نفسه رمز يدل على الكثير من المعاني).

ـــ النساج العادي، و يصنع أشرطة بسيطة بيضاء ولا يتلقى تدريبا كبيرا وقد يستعمل الاشراف النسج العادي، ومن ذلك بعض البامبرا حيث يصنعون قطعا بيضاء دون أن يكونوا من فريق النساجين، ولكنهم ليسوا عارفين وليس في وسعهم أن ينسجوا الكركا ولا الصوف ولا الناموسيات.

و يوجد ثلاثة أنواع من عمال الخشب (ساكي في بامبرا ولاتو في الفلانية).

ـــ صانع المهاريس والمدقات والدميات المقدسة. فالمهراس الذي تدق فيه الادوية المقدسة آلة شعائرية ولا يصنع من أي نوع من الأخشاب. وهو، كالمصهر، يرمز الى القوتين الأساسيتين: فالمهراس كالسندان يمثل القطب المؤنث بينما يمثل المدق ، كالمطرقة، القطب المذكر.

وتصنع الدميات المقدسة بطلب من عارف ـــ دوما «يشحنها» بطاقة مقدسة بقصد استعمال



١



٢

● ١) عـازف على آلـة الـ «ڤاليها» الخـشـبيـة ذات الاوتـار الـفـولاذيـة. (مجموعة متحف الانسان).

● ٢) فنـان (شاعر وقصاص وعازف) متـجول من شعب الـ «هوتو» يمثل دور الموامـي (السيـد) الـذي تـدهورت به الحال. (مجموعة ب. مانتيه).

معين. وعلاوة على شعائرية «الشحن» يجب أن يتم اختيار الخشب وتفصيله في ظروف خاصة يعلم الحطاب سرها.

وصانع الخشب يقطع هو نفسه ما يحتاج اليه من خشب، فهو أيضا حطاب و يقرن تدريبه بمعرفة أسرار الادغال والنباتات. وحيث ان الاشجار تعتبر حية مكونة من أرواح أخرى حية، فلا تقلع ولا تقطع بدون تحفظات طقوسية خاصة يعلمها الحطاب.

ـــ صانع الأدوات أو أثاث المنزل من خشب.

ـــ صانع الزوارق الجذعية، ويجب عليه أن يكون عارفا أيضا بأسرار الماء.

وفي مالي ان السومونو وقد صاروا صيادي أسماك دون أن يكونوا من جنس البوزو، شرعوا في صنع الزوارق الجذعية بدورهم. وهم اللذين يشاهدون بصدد العمل بين كوليكورو وموبيتي على ضفاف النيجر.

وهناك ثلاثة أصناف من عمال الجلد (كرانكي بالبامبرية وساكي بالفلانية):

ـــ صانعوا الأحذية.

ـــ البرادعيون.

ـــ السراجون.

وعمل الجلد يقابل أيضا تدريبا، فالكرانكي اشتهروا كثيرا بكونهم سحرة. والصيادون وصيادوا الأسماك والفلاحون لا يعتبرون طبقات بل أجناسا، ونشاط من أقدم أنواع النشاط في المجتمع البشري، و «الجني» (فلاحة) و «الصيد» (و يشمل صيدين: في البر وعلى الماء) يمثلان مدرستين كبيرتين للتدريب، اذ لا تواجه قوى أرض الام المقدسة مواجهة كما يتفق، ولا كذلك قوى الأدغال حيث تعيش الحيوانات.

فالصياد كحداد الفرن العالي يعرف عموما كل «تعازيم الادغال» و ينبغي له أن يملك بتعمق علم العالم الحيواني.

والمتطببون (بواسطة الأعشاب و «بموهبة الكلمة») قد ينتمون الى أي طبقة أو أي جنس، وهم غالبا من الدوما.

ولكل شعب غالبا ميراث من المواهب الخاصة نقل بالتدريب جيلا بعد جيل. فالدوكون في مالي اشتهروا بمعرفة سر الجذام الذي يعالجونه بسرعة كبيرة دون أن يبقى أي أثر، وكذلك سر معالجة السل. وهم علاوة على ذلك مجبّرون بارعون، يعلمون كيف يرجعون العظام المكسورة الى محلها حتى في حال الكسور الخطيرة جدا.

المنشطون العموميون أو «القصاصون» (الدييلي في البامبرا)

اذا كانت العلوم الباطنية الخفية نصيب «أصحاب السكين» ومنشدي الالهة، فالموسيقى والشعر الغنائي والقصص التي تنشط التسليات الشعبية والتاريخ أحيانا، ترجع كلها الى «القصاصين» وهم نوع من المنشدين المتجولين أو الشعراء الموسيقيين الذين يجوبون البلاد أو يخدمون أسرة من الأسر.

وكثيرا ما ظن خطأ أنهم «التقليديون» الوحيدون الممكنون. فمن هم؟
انهم يقسمون الى ثلاثة أصناف:
— «القصاصون» الموسيقيون الذين يوقعون على الآلات كلها (وحيدة الوتر والقيثارة والكُر والدف الخ)، هم أحيانا مغنون رائعون يحفظون الموسيقى القديمة و ينقلونها وهم في آن واحد ملحنون.
— «القصاصون المسفراء» والملحقون بالبلاطات وهم يتكفلون بالوساطة بين كبار العائلات اذا كانت بينها خصومات. وهم دائما مرتبطون بأسرة مالكة أو شريفة وأحيانا بشخص واحد.
— القصاصون النسابون، المؤرخون أو الشعراء (أو ثلاثتهم معا) وهم بصورة عامة أيضا قصاصون ورحالون غير مرتبطين حتما بأسرة من الأسر.

وتمنحهم التقاليد نظاما خاصا ضمن المجتمع. وخلافا للهورون (الاشراف) كان لهم الحق في الجسارة وفي حرية كبيرة في القول ففي وسعهم أن يبدوا غير متحرجين بل وقحين وقد يمزحون في أمور كبيرة جدية أو كبيرة التقديس دون أن يؤاخذوا على ذلك. وليسوا مقيدين بحفظ السر أو باحترام الحق احتراما مطلقا. فقد يكذبون بكل جرأة وليس لأحد أن يقسو عليهم «هكذا قال الدييلي فليس هذا هو الحقيقة الحق، ولكننا نقبله على هذا الشكل» فهذا المثل يبين الى أي حد تقبل التقاليد دون اغترار تزييفات الدييلي وتقول عنهم «ان لهم فما ممزقا».

وفي تراث البافور كله يحجر على الشريف أو الرئيس أن يتعاطى الموسيقى في الاجتماعات العامة، كما هو يلتزم بالتلطف في العبارة أو الكلمة يقول المثل: «لا يليق الهذر بفم الهورون» لذا يؤول الأمر طبعا بالقصاصين المرتبطين بالاسر الى أن يقوموا بدور الوساطة أو حتى السفارة اذا نجمت مشاكل كبيرة أو صغيرة، وهم «لسان» مولاهم.

واذا كان بينهم و بين أسرة أو شخص ولاء، فهم يكلفون عادة بقضاء الحوائج العادية وخاصة بالقيام بالمساعي الرامية الى عقد زواج، فالشاب الشريف مثلا لايخاطب مباشرة امرأة ليبوح لها بحبه، بل يكلف بذلك «قصاصه» الذي يتصل بالبنت أو «بقصاصتها» ليصرح لها بمشاعر مولاه وليطري لها مزاياه.

و يعتمد المجتمع الافريقي أساسا على الحوار بين الأفراد، والخطاب بين المجموعات أو الأجناس، فيكون الدييلي أي «القصاصون» العمال الناشطين الطبيعيين لهذه المحاورات واذا سمح لهم أن يكون لهم «لسانان في فيهم» فقد ينكثون كلمتهم اذ اقتضى الأمر دون أن يؤخذوا على ذلك، وهذا ما لا يمكن للشريف، اذ لا يسمح له بالرجوع فجأة في كلمته أو في القرار الذي أخذه، بل ان «القصاصين» قد ينسبون لأنفسهم ذنبا لم يقترفوه لارجاع المياه الى مجاريها أو لالتماس مخرج للشرفاء.

وللحكماء الشيوخ في المجموعة وحدها أن يجلسوا جلسات سرية وأن يتحملوا العبء الثقيل المتمثل في «النظر الى الأمور من الكوة اللائقة» ولكنه من خصائص «القصاصين» أن ينفذوا ما أقره الحكماء وسطروه. ولقد درّب «القصاصون» على تلقي الأخبار وعلى نشرها، فهم الحملة الكبار للأخبار ولكنهم في الوقت ذاته هم مثيروا القيل والقال.

واسمهم بالبامبرا، ديلي، يعني «الدم» فهم بمثابة الدم يحلون في جسم المجتمع، يبرئونه من علة أو يمرضونه، كما يلطفون به الخصومات بكلامهم و بأناشيدهم أو يشعلون اوارها.

على أننا نصرح منذ الآن، أن تلك هي الخاصيات العامة، ولكن ليس كل القصاصين حتما

وقحين سيئي الخلق، بل بالعكس، انه يوجد من بينهم من يسمون «القصاصين الملوك» ديبلي فاما. لا ينقصون شيئا عن الشرفاء من حيث الشجاعة وحسن الخلق والفضائل والحكمة، وهم لا يتجاوزون أبدا ما يمنحهم العرف من حقوق.

وكان القصاصون عاملا نشيطا عظيما للإتصال البشري ولتبادل الثقافة، فكثيرا ما كان لهم ذكاء كبير، وقد قاموا بدور عظيم في المجتمع التقليدي ببافور بفضل نفوذهم على الاشراف والرؤساء. وفي كل المناسبات، حتى اليوم، هم يحمسون أَنَفَة الشريف العصبية و يثيرونها بأناشيدهم، أحيانا للحصول على الجوائز، وأخرى لتشجيع الشريف في ظرف عصيب.

وفي السهرة قبل الختان مثلا، يشجعون الطفل أو الشاب حتى يعرف بصبره كيف يبدو جديرا بأجداده. فيقول المغني عند الفلانيين: «ان أباك (١٢) فلانا في ساحة الوغى ابتلع عصيدة الحديد الحامية» (الخراطيش) دون أن يحرك جفنا، فأرجو لك غدا أن لا تبدي خوفا من سكين الحداد المرهف. وفي حفلة العصا أو سور لدى فلانيي برورو بالنيجر، يعاضد القصاصون الشاب بأناشيدهم حتى يبرهن على شجاعته وصبره عند تلقية ضربات العصا القاسية على صدرة، دون أن يرتجف له جفن ولا تفارقة الإبتسامة.

وساهم القصاصون في كل معارف التاريخ بجانب مواليهم محمسين لهم بذكر أنسابهم وايادي آبائهم وأجدادهم. وذاك لما في ذكر الاسم من قوة عند الافريقي، فبترديد عمود نسبه يحيى الافريقي ويمدح.

وكان نفوذ الديلي عبر التاريخ طيبا أو رديئا بحسب ما كانت كلماتهم تثير من نخوة الرؤساء وتدفعهم الى تجاوز الحدود أو بحسب ما كانت تذكرهم باحترام واجباتهم التقليدية — كما كان الشأن غالبا.

وكما نرى فان تاريخ الامبراطوريات العظيمة في افريقيا البافور لا ينفصل عن دور الديبلي الذي يستحق وحده دراسة معمقة.

وانما يكمن السر في قوة الديبلي ونفوذهم في الهورون (الشرفاء) في معرفتهم للانساب ولتاريخ أسرتهم. حتى أن بعضهم قد جعل من هذه المعرفة له اختصاصا، وهذا الصنف من القصاصين كثيرا ما لاينتمي الى اسرة بعينها، فهم يجوبون البلاد باحثين عن أخبار تاريخية دائما في اتساع. وذاك يضمن لهم الامتلاك لوسيلة تكاد تكون سحرية لايقاد التحمس لدى الاشراف عند انشادهم لهم انسابهم وشعاراتهم وتاريخهم فيتلقون منهم بصفة آلية جزيل العطايا، فقد يتخلى الشريف عن كل ما يحمل معه وكل ما ببيته ليكافىء قصاصا عرف كيف يضرب على وتره الحساس. وأنّى ذهب القصاصون فهم آمنون أمنا كبيرا للحصول على قوتهم.

ولا يظنن أحد مع ذلك أن الأمر متعلق «بأجر عن عمل»، ففكرة الأجر عن العمل منافية للتصور التقليدي لحق النيامكالا على الطبقات الشريفة (١٣)، فمهما كانت ثورة الأشراف وحتى

(١٢) أبوك في اللغة الافريقية قد يعني أيضا عمك أو جدك أو جدك الأعلى هو نسب كامل من جهة الأب.

(١٣) شريف ترجمة تقريبية جدا لهورون، والواقع أن الهورون، هو كل من لا ينتمي الى طبقة النيامكالا ولا الى طبقة الجون (الأسرى) التي نشأت اثر سبي حروب قديمة. ويجب على الهورون أن يحققوا الدفاع عن المجموعة وان يبذلوا حياتهم في سبيلها وان يضمنوا شؤون سائر الطبقات.

لدى افقرهم فانه يجب على هؤلاء تقليديا أن يبذلو العطايا للدييلي كما لكل نياماكالا أو وولوزو (١٤) «أسير الكوخ» ولو كان السائل أغنى بكثير من المعطي. و بصفة عامة أن طبقة الدييلي هي الاكثر سؤالا، ولكن الدييلي مهما كان ربحه فهو دائما فقير اذ هو ينفق بدون احتراز معتمدا على الاشراف ليتمكن من العيش.

فينشد القصاصون السائلون: «الا ان يد الشريف لا تبقى مغلولة الى عنقه ببخل، بل هي دائما مستعدة للغوص في جيبه ليتبرع على السائل» وان اتفق أن توقفت الهدية فحذار من أذى «الرجل ذي الفم المخرم» «فلساناه» قد يفسدان الكثير من الامور ويحطان من الصيت.

ومن الوجهة الاقتصادية فان طبقة الدييلي، كسائر طبقات النياماكالا و الولوزو كلها يتحملها تماما المجتمع وخاصة طبقات الاشراف، وان ما تم من تغيير تدريجي للأوضاع الاقتصادية وللأخلاق نقص من هذا الوضع اذ حصل أشراف قدامى أو قصاصون قدامى على وظائف ذات رواتب، ولكن هذا التقليد بقي حيا وما يزال الناس ينفقون أموالهم بمناسبة أعياد التعميد أو حفلات الزواج ليدروا الهدايا على القصاصين الذين يقدمون لتنشط هذه الحفلات بغنائهم. وقد حاولت بعض الحكومات العصرية القضاء على هذه العادة ولكنها فيما أعلم لم تنجح بعد.

ومبدئيا فعلى الدييلي وهو من النياماكالا، أن يتزوج من طبقات النياماكالا.

لقد شاهدنا كيف تمكن القصاصون النسابون المتخصصون في معرفة تاريخ العائلات وقد وهبوا غالبا ذاكرة عجيبة، من أن يصبحوا بطبيعة الحال بمثابة المثقفين للمجتمع الافريقي وأحيانا مؤرخين عظاما ولكن لا ننسى أنهم ليسوا وحدهم المختصين بهذه المعارف، فيمكن في الأكثر أن نسمي القصاصين المؤرخين «علماء تقليديين» ولكن مع الاحتراز ان هذا انما هو فرع تاريخي محض من التراث الذي له عدة فروع أخرى.

ولأن يولد الشخص، قصاصا (دييلي) فلا يلزم عنه حتما أن يكون الدييلي مؤرخا، بل ذاك يهيؤه لأن يكونه، كما يترتب عليه أن يكون عالما في مادة التقاليد، «عارفا» و بصفة عامة ان طبقة الدييلي أبعد الطبقات عن مجالات التدريب التي تفترض وجوب الصمت والستر وامتلاك الكلمة.

على أن امكانية صيرورتهم «عارفين» ليست محرمة عليهم ولا على غيرهم. وكما أن التقليدي الدوما (العارف التقليدي) قد يكون في الوقت نفسه عالما جليلا بالانساب ومؤرخا، فان القصاصة ككل فرد من أي صنف اجتماعي، في وسعه أن يصير تقليديا دوما اذا مكنته مواهبه من ذلك، واذا عاش التدريبات التابعة لذلك (ما عدا تدريب الكومو المحرم عليه).

لقد ذكرنا أثناء هذه الدراسة مثالا من قصاصين «عارفين» يعيشان حاليا بمالي: إيوا و بنزومانا وهذا الأخير موسيقي كبير ومؤرخ وتقليدي دوما.

ان «القصاص» التقليدي الدوما في نفس الوقت، يمثل مصدرا للإرشادات موثوقا به تماما. اذ تمنحه صفة «العرافة» التي يتصف بها قيمة أخلاقية عالية، وجدارة لامتناعه عن الكذب و يصبح إنسانا آخر. إنه هذا «القصاص الملك» الذي تحدثت عنه آنفا، والذي يستفتي لحكمته ولمعارفه، وهو وان كان يعرف كيف يسلي لا يبالغ في التمتع بحقوقه العرفية.

فاذا ما روى «القصاص» قصة يقال له عموما: «أهي قصة دييلي أم قصة دوما؟» فاذا كان

(١٤) وولوزو أي «أسير كوخ» انظر تعليقنا أعلاه الشرح ٦.

الاحتمال الأول قيل: «هذا قول ديبلي» وبهذا يتوقع السامع بعض التجميل للحقيقة قصد ابراز ما كان لأسرة أو أخرى من دور، ولا يفعل التقليدي الدوما ذلك، اذ يهمه قبل كل شيء النقل الحقيقي.

فهذا تميز لا بد منه اذا كنا أمام قصاص مؤرخ، ومن المناسب أن نعرف هل هو اعتيادي أو دوما، على أنه يجب أن نعترف أن أساس الأحداث قلما يغير، ولكنه منطلق القفز الى الوحي الشعري، أو المدح الذي يأتي على الأقل «لتزيينه» ان لم يكن ليحرفه.

ويجب أن نزيل سوء فهم ما زالت رواسبه تبدو في بعض المعاجم الفرنسية. فقد عني بالقصاص (ديبلي) أن يكون «ساحرا» وهذا لا يطابق أي واقع. فقد يتفق أن يكون قصاص كرتي تيجي «ملقيا الاذى بالسحر» كما قد يتفق ان يكون دوما «عارفا تقليديا» وذلك لا لكونه ولد قصاصا، بل لأنه درب وتحصل على المهارة، الصالحة أو الطالحة، في مدرسة شيخ في الفن.

ويأتي سوء الفهم من ابهام لفظ «كريو» (قصاص) الذي يعني بالفرنسية أحيانا مجموع النيامكالا — والديبلي جزء منها — وفي الأغلب طبقة الديبلي وحدها.

ويصرح المأثور أن النيامكالا كلهم سباء، ويعني ذلك الرجل المضطلع بالمعارف الخفية التي لا يعلمها الا المدربون، أي من بعض الجهات «العالم الباطن».

على أنه يخرج عن هذا المعنى طبقة فريق الديبلي وهم لا يتبعون أي مسلك خاص للتدريب فالنياماكالا الصناع هم السباء، ومن بين هؤلاء الكرانكي عامل الجلد، يتمتع بشهرة كونه «سباكا» أي ساحر بالمعنى السيء للفظ، واني قد أظن أن لفظي سباء وسباجا اشتبها على المترجمين الأوربيين الاولين (لقربهما في النطق) وان ابهام لفظ «كريو» (القصاص) أكمل بقية الخلط.

فإذا جاء في الاثر أن «كل النيامكالا» هم من السباء «علماء الباطن» فقد فهموا، من ذلك ان النيامكالا هم من «السحرة» ونتج عن ذلك الاستعمال المزدوج للفظ كريو الجماعي أو الخاص: «كل القصاصين سحرة» ومنه جاء سوء الفهم.

ومهما يكن من الأمر، فان قيمة الديبلي لا تكمن في خصائله المحتملة السحرية، بل في براعته في ممارسة الكلمة وهي شكل آخر من السحر.

وقبل أن نفارق «القصاصين» لنشر الى بعض الحالات الاستثنائية التي تجعلهم يلتبسون علينا. فقد نجد بعض النساجين وقد تركوا ممارسة الصناعة التفكيرية، فصاروا عازفي قيثارة. ويسميهم الفلانيون ممبادو (حرفيا «يحملون على الظهر») اذ يتحمل عباهم دائما الرجل أو المجموعة: وهؤلاء الممبادو هم قصاصون دائما، وقد يكونون شعراء ونسابين ومؤرخين.

وقد يستعيض بعض الحطابين أدواتهم بالقيثارة، فيصيرون موسيقيين ونسابين طيبين. فبوكارايلو وادريس نكادا وقد كانا في علمي من بين كبار النسابين في فولطا العليا، كانا حطابين وصارا موسيقيين، ولكن ذلك من باب الاستثناء.

وقد يصير أيضا بعض الاشراف، وقد سقطوا، منشطين مسلين عموميين على أنهم ليسوا

موسيقيين (١٥) و يطلق عليهم اسم تيابورتا (بالبمبرا كما في الفلانية) وهم أكثر وقاحة وفجورا من أوقح القصاصين، ولا يحمل أحد أقوالهم على محمل الجد. و يسألون القصاصون الهدايا، فيفر هؤلاء كلما رأوا واحدا منهم.

ولئن كانت الموسيقى، عامة، هي الاختصاص الأعظم للدييلي، الا أنه توجد مع ذلك موسيقى شعائرية يعزفها «العارفون» يصاحبون بها الحفلات أو الرقصات الطقوسية. وأدوات هذه الموسيقى المقدسة هي أدوات ثقافية حقة تمكن من الاتصال بالقوى الخفية. وسواء أكانت ذات أوتار أو هوائية أو ايقاعية فانها تبقى متصلة بالعناصر: التراب والهواء والماء.

والموسيقى الصالحة «لتعزيم» أرواح النار هي من اختصاص جماعة «آكلي النار» الذين يطلق عليهم اسم كرسي ـــ كولونين أو دونكاصورو.

كيف يصير المرء تقليديا؟

كما أشرنا فان جميع الناس في افريقيا البافور كان بامكانهم أن يصيروا تقليديين دوما أي «عارفين» في مادة أو عدة مواد تقليدية. وكانت المعرفة في متناول الكل (مع وجود التدريب في كل مكان بشكل أو بآخر) وكان الحصول عليها تابعا لمواهب كل منهم.

وكان للمعرفة من القيمة ما جعلها تفوق كل شيء وتكسب الشرف. فالعارف، في أي مادة من المواد، كان له أن يجلس في مجلس القدماء المكلفين بادارة المجموعة، مهما كان صنفه الاجتماعي، هورون (شريف) نيامكالا أو ولوزو (أسير الكوخ). والمثل يقول: «ان المعرفة لا تعرف العرق و الباب الأبوي (أي الفريق)، وهي تكسب صاحبها الشرف.

ولم تكن التربية الافريقية نظامية تشابه التدريس الاوربي. وكانت تكتسب على طول الحياة، وكانت الحياة ذاتها هي التربية. فحتى سن الاثنين والاربعين في البافور، كان من المفروض أن يكون الانسان في مدرسة الحياة «ولا حق له في الكلمة» في الإجتماعات، الا بصفة استثنائية. فهو من المفروض أن لا يزال «مستمعا» معمقا المعارف التي كان تلقاها انطلاقا من تدريبه في الحادية والعشرين من عمره.

وابتداء من سن ٤٢ من المفروض أنه هضم التعاليم التي تلقاها منذ الصغر وتعمّق فيها، وصار له حق الكلمة في المجالس وصار بدوره معلما يعيد الى المجتمع ما كان قد أخذه منه، ولكن ذلك لا يمنعه اذا كان له غرض في ذلك، أن يتابع تعلمه من لدى من هم أكبر منه سنا ملتمسا نصائحهم. وكان يجد الشيخ من هو أسن منه أو من هو أعلم منه يسأله رأيا أو تكملة لخبر. و يقال: «ان الاذن كل يوم تسمع ما لم تكن سمعته من قبل» وهكذا كان في الامكان أن تدوم التربية كل الحياة.

فبعدما تعلم الشاب النيامكالا الصانع صناعته و بعدما تناول التدريب التابع لها، يكون مستعدا لأن يطير بجناحيه وكثيرا ما كان ينتقل من قرية الى قرية طالبا المزيد من معارفه لدى

(١٥) لنذكر ان الهورون (الاشراف) البيل أو البمبرا لا يعزفون أبدا أي نوع من الموسيقى على الأقل بين العموم ولقد حافظ التيابورتا عامة على هذه العادة.

شيوخ جدد. فيقول الناس: « من لم يسافر لم ير شيئا» لذا كان يذهب من معمل الى معمل متجولا الى أبعد ما يمكن في البلاد. فأهل الجبل كانوا ينزلون الى السهل، وأهل السهل يصعدون الى الجبل، وأهل بلي دوكو الى مندي الخ. الخ.

وللتعريف بنفسه، كان الحداد الشاب يتأبط زقه في سفره، والحطاب شاقوره، أو بليطته، وكان النساج يحمل منواله على ظهره، وعلى كتفه مكوكه أو بكرته، والحذائي كان يمسك حقق ألوانه الصغيرة.

ولما كان الشاب يصل إلى قرية كبيرة حيث تكون الحرف متجمعة حسب الأحياء كان يوجه الى الحي الذي يضم المحترفين الذين ينتمي الى حرفتهم.

وكان أثناء سفراته وبحوثه، يحصل على مقدار من المعلومات يكبر أو يصغر بحسب براعته وطبيعة ذاكرته، وبصفة خاصة بحسب طبعه. فان كان مهذبا سهل الجانب، سريعا في مد يد المساعدة، كان الشيوخ يكشفون له أسرارا كانوا يخفونها عن غيره اذ كما قيل: «ان سر الشيوخ لا يقتنى بالمال، ولكن بالسلوك الحسن».

وأما الشاب الهورون فيقضي طفولته في قصر أبيه وفي القرية حيث يحضر كل الاجتماعات ويسمع ما يحكيه كل أحد، ويحفظ كل ما يمكنه أن يحفظه. وفي جلسات المساء في «جمعية السن» كان كل طفل يروي ما سمع من القصص التاريخية والتدريبية — ولكن في هذه الحالة دون أن يدرك كل مغزاها.

ومنذ السابعة من عمره يلحق آليا بجمعية التدريب في قريته، ويشرع في تلقي التعاليم منها. وهذه التعاليم كما رأينا آنفا تخص كل أوجه الحياة.

واذا ما روى شيخ قصة تدريبية في جمعية، فهويشرح رمزيتها بحسب نوعية مستمعيه وملكة فهمهم، فقد يجعل منها مجرد قصة عجيبة للأطفال تتضمن معنى أخلاقيا تربويا، أو درسا معمقا عن أسرار الطبيعة البشرية وعلاقتها بالعوالم الخفية. وكل يحفظ أو يدرك بحسب مؤهلاته.

وكذلك الأمر بالنسبة للأخبار التاريخية التي تنشط الإجتماعات، حيث تذكر الأحداث وحركات القدامى أو أبطال البلد بأقصى تفاصيلها. ويسمع الغريب المار بالقرية أخبار البلدان النائية. وهكذا يكون الطفل منغمسا في محيط ثقافي خاص يتشبع منه حسب خصال ذاكرته. ويصبح التاريخ والقصص والروايات والأمثال والمغازي معالم في حياته.

وبصفة عامة فان الهورون الشاب لا يتغرب، اذ هو مهيأ للدفاع عن بلده. فيساهم في أشغال أبيه، وقد يكون فلاحا أو خياطا أو ممارسا لنشاط من سائر الأنواع المخصصة لطبقة الهورون، وان كان فلانيا تبع مخيم آبائه، وتعلم منذ زمن مبكر كيف يحرس وحده قطعانه في قلب الأدغال ليلا ونهارا، ويتلقى التربية الفلانية المقترنة برمزية البقريات.

وبصفة عامة لا يصير الرجل تقليديا دوما وهو باق في قريته. فالمداوي اذا اراد التعمق في معارفه، يجب عليه أن يسافر ليتعرف على مختلف أنواع النباتات، وأن يتلقى المعلومات من سائر العارفين في هذه المادة.

والانسان الذي يسافر يكتشف ويعش تدريبات أخرى، ويسجل الفروق أو التشابهات،

و يفسح مجال ادراكه. ومهما يكن فهو يساهم في الاجتماعات و يستمع الى أخبار تاريخية و يتوقف عند ناقل ضليع في التدريب أو في الانساب، و يتفتح على تاريخ البلدان التي يمر بها وعلى عوائدها.

ويمكن أن يقال ان من صار تقليديا دوما قد كان كل حياته بحاثا سائلا وأنه لا يفتأ دائما كذلك.

وكان الافريقي في السهوب يسافر بكثرة، ونتج عن ذلك تبادل للمعارف وانتقالها. وهكذا قلما كانت الذاكرة التاريخية الجماعية في افريقيا مقتصرة على مكان واحد، بل هي مرتبطة بالسلالات والعروق التي هاجرت عبر القارة.

وكانت قوافل عدّة تشق البلاد على شبكة من الطرقات الخاصة المحمية تقليديا من قبل الالهة والملوك، حيث يأمن المسافر من الغزو والتعدي. ولولا ذلك الأمن لكان عرضة الى غارة من الغارات، أو دون أن يعلم، الى ارتكاب خرق حرمة محلية، ودفع الغالي من جراء ذلك. وعند ما يحل المسافرون ببلد مجهول، يتجهون عند أحد أعيانه كي «يمنحوه رأسهم» فيصير هكذا هو الضامن لهم، اذ «من مس الضيف مس المضيف ذاته».

وأما عالم الأنساب الكبير فهو حتما ودائما، رحالة كبير. فان أمكن للقصاص أن يكتفي بمعرفة نسب الأسرة التي تعلق بها، فعالم الأنساب الحق ــ سواء كان قصاصا أو لا ــ يجب عليه حتما، أن يخترق البلدان ليوسع معلوماته، وليستخبر عن أهم الفروع لعرق معين، ثم يجب عليه أن يرحل الى الخارج ليسترشد عن تاريخ الفروع المهاجرة.

وهكذا فان مولوم كاولو، كان أكبر عالم بالأنساب الفلانية عرفته، كان متمكنا من أنساب كل الفلانيين بالسنغال. واذ منعه كبر سنه من التنقل أرسل ابنه ممادو مولوم، ليتابع بحثه لدى عائلات الفلانيين المهاجرة عبر السودان (مالي) مع الحاج عمر. في المدة التي عرفت فيها مولوم كاولو، كان قد جمع وحفظ تاريخ الماضي لنحو الأربعين جيلا.

وكان من عادته أن يحضر في كل حفلات التسمية أو المآتم في الاسر الكبيرة ليسجل ظروف الولادات والوفيات التي كان يضيفها الى القوائم المستودعة في ذاكرته العجيبة. في امكانه أن يقول لكل شخصية فلانية « انت ابن فلان وابوه فلان بن فلان وابوه فلان بن فلان بن فلان الخ» وقد توفوا في المحل الفلاني و يذكر أسباب وفاتهم وأين دفنوا أو يقول: «أسمي فلان في يوم كذا وساعة كذا، على يد الولي فلان. . . » بالطبع أن كل هذه المعلومات كانت وما زالت تنقل شفاهيا، وتسجل في ذاكرة عالم الأنساب وحده. وليس في الامكان أن نتصور ما يمكن أن تختزنه ذاكرة الأمي. فخبر يسمعه مرة واحدة ينقش كما لو أنك نقشته في قالب يظهر من جديد من أول كلمة إلى آخر كلمة، اذا ما طلبت منه الذاكرة ذلك.

وتوفى مولود كاولو عن سن ١٠٥ سنة حوالي عام ١٩٦٨ فيما أظن، وأما ابنه ممادو كاولو فعمره اليوم ٥٠ سنة، وهو يعيش في مالي حيث يواصل عمل أبيه، بعين الطرق الشفاهية المحضة اذ هو أيضا أمي.

ووهاب كاولو، معاصر لمامادو وكاولو، وهو ما زال على قيد الحياة وقد قام من جهته ببحث عن العروق الفلفدية اللسان (فلانيين ونكروا) في التشاد والكامرون وفي جمهورية افريقيا الوسطى وحتى الزايير، ليسترشد عن الانساب والتاريخ فيما يخص العائلات المهاجرة الى هذه البلدان.

وليس آن كاولو من الديبلي (القصاصين) بل هم من عرق فلفلدي اللسان مشبه بطبقة نيامكالا

له عين الامتيازات. وهم متملكون منشدون أكثر منهم موسيقيون (ما عدا النسوة اللائي يغنين مصاحبات غناءهن بآلات بسيطة جدا) وقد يكونون حاكين ومسلين، و يضمون من بينهم عددا من علماء الانساب.

وعند المركا (عرق مندي) يسمى النسابون «كسيري» باسم عرقهم المرتبط بالمركا.

ومن قال «نسابا» قال أيضا «مؤرخا» اذ ان النساب الحسن يعلم التاريخ والاحداث وحركات كل من الشخصيات المذكورة، وعلى الأقل من اشتهر منهم. وهذا العلم هو أساس تاريخ افريقيا نفسه، اذ أنه اذا ما اهتممنا اهتماما كبيرا بالتاريخ، فما ذاك من أجل معرفة الأزمنة بل من أجل الأنساب، كي نتمكن من رسم انتشار أسرة أو فريق أو عرق عبر الزمان والمكان رسما جديدا.

ولذا كان كل شخص في افريقيا عالما بعض العلم بالانساب، قادرا أن يعود الى بعيد في نسبه الخاص. ولولا ذاك يكون كأن قد حرم «بطاقة تعريف». في مالي قديما، لم يكن لأي شخص أن لا يعلم على الأقل عشرة أو اثنى عشر جيلا من أجداده. ومن بين التكرور القدامى الاتين الى المسينا مع الحاج عمر، لم يكن واحد يجهله نسبه في فوتا السنغال (البلد الاصلي) أو يجهل كيف يتصل بالعائلات الباقية هناك. وهم الذين أتاهم ممادو مولوم إبن مولوم كاولو يسترشدهم في مالي لمواصلة بحث أبيه.

لقد كان النسب في آن واحد شعورا بالهوية ووسيلة بعث المجد العائلي ومرجعا اذا ما ثار جدال. فخصومة من أجل أرض مثلا قد تفصل بفضل النسّاب الذي يبين مَنْ من الأجداد أحياها ثم زرعها، ولمن أعطاها وفي أي الظروف الخ...

و يوجد ضمن السكان حتى اليوم، عدد كبير من العارفين في الانساب والتاريخ ليسوا لا من طبقة القصاصين ولا من فريق الكاولو. و يكون هذا بالنسبة لتاريخ افريقيا، مصدرا عظيما من الأخبار مفيدا على الأقل، لمدة أخرى معينة.

وكل شيخ هو نساب لفريقه الخاص. وفي الواقع فان القصاصين والكاولو إليه يرجعون واياه يسترشدون لإكمال معلوماتهم.

و بصفة عامة، كل شيخ في افريقيا هو دوما «عارف» في مادة أو أخرى تاريخية أو تقليدية.

وليس للقصاصين وللكاولو وحدهم خاصية معرفة الأنساب، بل لهم وحدهم خاصية «الإنشاد» يتقدمون بها لدى الاشراف، ليحصلوا على ثواب.

تأثير الإسلام

ان خصائص الذاكرة الافريقية وطرق نقلها الشفاهي لم يغيرها دخول الاسلام الذي عم جانبا وافرا من بلدان السهوب، أي بافور القديم. فحيثما انتشر الاسلام لم يطمس التراث الافريقي على تفكيره الخاص، بل أنه تلاءم هو مع النقل الافريقي، كلما كان هذا النقل غير مخالف لمبادئه الأساسية. وذاك كان الشأن في غالب الاحيان. وكان التوافق بينهما وثيقا الى حد أنه صار أحيانا من الصعب أن يميز الانسان بين أحد التراثين و بين الآخر.

فلما أدخلت أسرة كنتة الكبيرة العربية البربرية البلاد في دين الاسلام قبل القرن الحادي عشر بكثير، ومنذ أن تعلم الأهالي اللغة العربية، شرعوا في استخدام تراث الجدود لنقل الاسلام وشرحه.

فشوهدت هكذا مدارس عظمى اسلامية شفاهية محضة، تعلم الاسلام باللغات المحلية، ما عدا القرآن والنصوص المستعملة في أداء الصلاة.

وأذكر من بين العديد منها، مدرسة جلكوجي الشفاهية (المدعوة كابي) ومدرسة براني، ومدرسة أمادو فدية في الفارماكي (دائرة نيافنكي في مالي) ومدرسة محمد عبد الله سعادو، في دلي (دائرة نارة في مالي) ومدرسة الشيخ عثمان دان فوايو، في نيجيريا والنيجر، حيث يلقن كل التعليم بالفلانية. وقريبا منا نذكر زاوية تيرنوبوكار سالف في بندياكارا ومدرسة الشيخ صالح الوالي الكبير الدوكوني، الذي مازال على قيد الحياة.

ولتصور قابلية الذاكرة الافريقية، فلنذكر أن معظم الأطفال عند خروجهم من المدارس القرآنية، كان في وسعهم أن يتلوا القرآن كاملا عن ظاهر قلب، يرتلونه بالعربية ترتيلا مناسبا، دون أن يفهموا معناه.

وفي كل المدارس لم تهجر المبادئ الاساسية للتراث الافريقي، بل بالعكس انها استعملت وشرحت على ضوء الوحي القرآني. واشتهر بتطبيق معمق لهذه الطريقة التعليمية تيرنوبوكار، وقد كان في آن واحد تقليديا في المادة الافريقية وفي الاسلاميات.

فبقطع النظر عن الرؤية المقدسة المشتركة للعالم، وعن التصور المشترك للانسان وللاسرة، فاننا نجد في كلا التراثين عين الاهتمام دائما بذكر المصادر (بالعربية اسناد)، وبعدم تغيير أقوال الشيخ. وعين الاحترام لسلسلة الاستاذ التعليمية، وعين النظام للطرق التدريبية (الطرق الصوفية بالجمع، طريقة بالمفرد وتنتهي سلسلتها الى الرسول نفسه) مما يمكن من تعميق معطيات العقيدة بالتجربة الشخصية.

وانضاف الى أصناف «العارفين» التقليديين المشهورة أصناف الفقهاء (المثقفين بالعربية أوفي الفقه الاسلامي) وكبار مشائخ الصوفية، بينما احتفظ ببنيات المجتمع (طبقات وصناعات تقليدية) حتى الاوساط الأكثر تمكنا في الاسلام فقد بقيت حاملة لتعليماتها الخاصة. وصارت معرفة المواد الاسلامية مصدرا جديدا للشرف. فألفا علي المتوفي سنة ١٩٥٨ وأصله من الكاولو، كان أكبر مرجع اسلامي بدائرة بندياكارا ككل أفراد عائلته من قبله، وكابنه من بعده (١٦).

تاريخ جني

لكي أصور تصويرا عمليا كيف تعيش الاخبار التاريخية أو غيرها وكيف تبقى بأمانة مدققة في الذاكرة الجماعية لمجتمع ذي تراث منقول، سأقص كيف أتيح لي أن أجمع العناصر التي مكنتني من

(١٦) بصفة عامة حيث ان الاسلام أتى من الشمال ومن الشرق فقد أثر على الخصوص في بلاد السهوب بينما أتت النصرانية من البحر فأثرت تأثيرا أكبر في مناطق الغابات من الساحل ولا يمكنني أن أتحدث عن التقاء التقاليد بالنصرانية اذ ليس لي علم بالموضوع.

تحرير تاريخ «الامبراطورية الفلانية بالمسينا في القرن الثامن عشر» (١٧) بالاعتماد فحسب على المأثور المنقول.

وحيث أنني أنتسب لأسرة التجاني، الذي كان يرأس مقاطعة، وجدت نفسي منذ الصغر في أحسن الظروف لأسمع وأحفظ. فبيت أبي ببندياكارا، كان دائما عامرا بالناس، وكانت تقام فيه اجتماعات كبيرة، ليلا ونهارا حيث كان كل واحد يروي فيها المواد المختلفة من المأثور.

واذا كانت أسرتي داخلة في أعماق أحداث العصر، فكثيرا ما كانت الروايات تهم التاريخ، فيروي أحدهم جزءا معروفا من معركة أو من حدث مشهور. وكنت دائما أحضر هذه الاجتماعات، فلم أفلت منها كلمة، وكانت ذاكرتي بمثابة الشمع الصقيل، تسجل كل شيء.

فهناك، منذ صغري، عرف كولّل القصاص الكبير وكان نسابة ومؤرخا فلفلدي اللسان، وكنت اتبعه في كل مكان، وتعلمت منه الكثير من القصص والأخبار التي كنت فخورا بروايتها فيما بعد لاقراني الصغار في «جمعية السن» حتى أنهم لقبوني «آمكولل» أي «كولل الصغير».

وقد حدت بي ظروف خارجة عن ارادتي، باتباع أسرتي، الى أن أزور الكثير من البلدان، حيث كان في وسعي أن أتصل بكبار التقليديين. فحين أرغم أبي مثلا على الاقامة الجبرية في بوكوني، حيث تبعنا كولل، تعرفت على الدوما الكبير البمبري دانفوسيني، ثم على أخيه الصغير لطيف.

وفيما بعد، في باماكو كما في كاتي، أعيدت سلطة أبي أو كادت وكان التقليديون يردون من كل البلدان ليجتمعوا عنده، علما منهم أنهم سيلتقون «بعارفين» آخرين، يمكنهم بجوارهم أن يراقبوا معارفهم الخاصة أو أن يتوسعوا فيها، اذ أن المرء يجد دائما من هو أعلم منه.

وهناك، شرعت في معرفة الكثير من الأمور الخاصة بتاريخ الامبراطورية الفلانية بالمسينا وذلك في رواية مسيننكا (أي من كان أصلهم من المسينا من أتباع أسرة الشيخ أمادو) كما في الرواية التكرورية، لمناوئيهم، وحتى عروق أخرى (بامبرا، مركا، سراكلي سنغاي الخ) ممن ساهموا في الأحداث أو حضروها.

وقد انطلقت هكذا من قاعدة شخصية، مهيئة أحسن تهيئة فشرعت بعد ذلك في جمع الأخبار بكيفية منتظمة. وتمثلت طريقتي أولا في تسجيل كل الأخبار، غير مكترث بصحتها أو بما قد يداخلها من المبالغة. ثم اني عارضت أخبار المسيينكي بأخبار التكرور وغيرها من الأجناس المعنية. ففي كل منطقة يمكن أن نجد أجناسا تمكننا رواياتها من مراقبة تصريحات أهم المعنيين بها.

وكان عملا طويل النفس. وتطلب مني جني هذه الارشادات خمس عشرة سنة وتنقلات قادتني من فوطاجالون (السنغال) الى كانو (نيجيريا) كي أستعيد كل رحلات الشيخ امادو، والشيخ عمر، وكل الطريق التي قطعاها.

فسجلت بهذه الطريقة ما لا يقل عن أخبار ألف مخبر، ولم أحتفظ في النهاية الا بما توافق من هذه التصريحات أي ما كان مطابقا في الآن نفسه لروايات مسيينكي والتكرورا وغيرهما من الاجناس التي يهمها الأمر، فأوردت ذكر المصادر في كتابي.

وأمكنني أن ألاحظ في الجملة، أن مخبري الالف قد راعوا حقيقة الأحداث. فلحمة الخبر كانت

(١٧) أمادوهمبتي باوج. داجي ١٩٦٢.

هي هي في كل مصدر وانما تسببت الفروق المتعلقة ببعض الجزئيات الصغيرة، اما عن قيمة ذاكرة الخبر أو عن ذلاقة لسانه الخاصة. فبحسب انتاء الناقل الى عرق أو آخر، قد يكون ميالا الى الحط من بعض الهزائم أو الى السعي في تبريرها. ولكنه لم يكن ليغير المعطيات الأساسية. وقد يستسلم القصاص بتأثير الموسيقى المصاحبة له الى الحماس يهزه، ولكن العناصر تبقى هي نفسها كذلك الأماكن والمعارك والانتصارات والهزائم والتلاقيات وما تبودل من أقوال، وما تفوه به أهم الشخصيات الخ....

وبرهنت لي هذه التجربة أن المأثور المنقول له القيمة الكاملة من الوجة العلمية. فليس في الامكان فقط، كما فعلت، ان يقارن بين روايات من مختلف الأجناس لمراقبتها، بل ان المجتمع عينه يقوم بمراقبة ذاتية مستمرة. ولن يسمح راو لنفسه أن يغير الأحداث، اذ يكون بجواره دائما أصحاب أو من هم أسن منه، يشيرون في الحال الى كل خطأ و يلقون في وجهه سبة الكذب الخطيرة.

وذكر لي الاستاذ منتي، أنني رويت في تاريخ الامبراطورية الفلانية بالمسينا، أخبارا جمعها أبوه قبل ذلك بخمسين سنة، فلم يتغير منها حرف واحد. وفي ذلك ما يعطي فكرة عن أمانة الاحتفاظ بالمعطيات في المأثور المنقول.

خاصيات الذاكرة الإفريقية

لقد لوحظ أن من بين كل شعوب الدنيا، ان الذين لا يكتبون هم الذين لهم أقوى ذاكرة.

وقد ذكرتُ مثال النسابين الذين في وسعهم أن يحتفظوا بعدد من العناصر، ويمكن أن نذكر كذلك مثال التجار الاميين (وأعرف منهم الكثير) ممن يمارسون أعمالا تقدر أحيانا بعشرات الملايين مقرضين المال للعديد من الأشخاص أثناء تنقلاتهم ويحفظون في أدمغتهم أدق الحسابات عن حركات البضائع والمال، دون أي مذكرة مكتوبة ودون أقل غلط.

وتسجل المعطاة التي يجب الاحتفاظ بها في ذاكرة التقليدي دفعة واحدة كما لو كانت على شمع بكر، وتبقى في متناوله بأكملها (١٨).

واحدى خاصيات الذاكرة الافريقية، هي أنها تسترجع الحدث أو الخبر المسجل بأكمله كالشريط الذي ينتشر من بدايته الى نهايته، وترجع ذلك بصيغة الحاضر. وليس الأمر تذكرا، بل هو تحويل حدث منصرم الى الحاضر حدث ساهم فيه الكل. الراوي ومستمعوه.

وهنا يكمن كل فنّ القصاص. ولا يكون القصاص قصاصا اذ لم يقدر على رواية الخبر كما وقع فعلا، بحيث يصير المستمعون كالقصاص نفسه شهودا أحياء نشيطين من جديد. وكل افريقي نسبيا قصاص. فاذا وصل غريب الى قرية فهو يسلم فيقول: «أنا غريبكم» فيقال له: «مدنا بأخبار»

---

(١٨) يمكن أن تقرب هذه الظاهرة من كون الملكات الحساسة عند الانسان هي أقوى كلما كان مضطرا الى استخدامها بقوة، وتتضاءل في الحياة العصرية. فالصياد التقليدي الافريقي مثلا في وسعه أن يسمع بعض الأصوات على بعد عدة كيلومترات وأن يعرف هويتها. ونظره حاد للغاية، و بعضهم «يحس» بالماء، شأن كشافي الينابيع بدون عصا. وللطوارق في الصحراء حاسة التوجه تشبه المعجزة الخ.. بينا يغمر الانسان العصري من كل جانب بالاصوات والأخبار فتتضاءل ملكاته شيئا فشيئا — ومن الثابت طبيا أن ساكن المدن تنقص حاسة سمعه شيئا فشيئا.

فيقص اذن حكايته، منذ انطلاقه من موطنه وما شاهد وما سمع وجرى الخ. وذلك بحيث يشهد مستمعوه رحلته و يعيشونها معه. ولذا تستعمل دائما صيغة الرواية في الحاضر.

و بصورة عامة فان الذاكرة الافر يقية تسجل المشهد كله: المهاد والاشخاص وكلامهم وحتى زيهم في أدق جزئياته. ففي أخبار الحرب عند التكرور يعرف أي بوبو مطرز كان يلبسه البطل الأعظم عمر لصمبا دوندو في معركة من المعارك ومن كان سائسه وماذا جرى له، وما كان اسم حصانه وما جرى له الخ... وكل هذه الجزئيات تحيي القصة وتجعل المشهد حيا.

لذا لا يستطيع التقليدي أن «يلخص» او هو لا يقدر على ذلك الا بصعوبة، فاذا ما طلب منها أن يلخص مشهدا، فذاك يعني عنده أنه يبتره، وليس له تقليديا الحق في ذلك، فلكل جزئية قيمة في حقيقة اللوحة.

فاما أن يقص الحدث بأكمله واما أن لا يقصه، واذا ما طلب منه ذلك يقول: «ان لم يكن لديك الوقت الكافي لتسمعني فسأقصه عليك يوما آخر».

وكذلك فهو لا يخشى أبدا التكرار، ولا يمل أحد من الاستماع اليه وهو يروي قصته، بعين الألفاظ، كما قد يكون حكاها عدة مرات، وكل مرة ينتشر الشريط بأكمله من جديد، والحدث هو هناك، وقد استعيد و يصير الماضي حالا والحياة لا تلخص.

وعند الاقتضاء قد تقتضب القصة للأطفال بتداخل بعض الفصول، ولكنها في هذه الصورة لا تبق حقيقية. واذا ما كان الأمر موجها للكهول، فاما أن يروي الحدث بكامله واما أن لا يروي.

وهذه الخاصية للذاكرة الافر يقية التقليدية المقترنة بسياق الاثر المروي، هي في حد ذاتها ضمان للصحة والصدق.

وأما ذاكرة التقليديين، ولا سيا التقليديين الدوما أو «العارفين» التي تجمع بين مجالات فسيحة من المعرفة التقليدية، فهي تمثل خزانة حقا لم «تصنف» فيها الوثائق ولكنها مجردة تماما.

و بالنسبة للعقل العصري، فان هذا فوضى، ولكن بالنسبة للتقليديين اذا ما كانت هناك فوضى فهي على شاكلة ذرات الماء الممتزجة في البحر لتكون «كلا حيا»، وفي هذا البحر هي تنتقل بسهولة تنقل السمكة في الماء.

والجذاذات اللامادية للمأثور المنقول هي المغازي والأمثال والقصص والخرافات والاساطير الخ... وهي تمثل مجمل ما سيشرح، أو مدخلا لخبر تربوي قديم أو مرتجل. ففيما يخص القصص مثلا ولا سيا القصص التدريبية، هناك لحمة لا تتغير أبدا، لكن القصاص في وسعه أن يضيف اليها تحسينات وشروحا أو تعاليم ملائمة لفهم المستمعين. وكذلك الشأن بالنسبة الى الأساطير، وهي خلاصات للمعارف في شكل تأليفي يمكن المدرب دائما أن يشرحها أو يعمقها لتلامذته.

ويجب أن نكون يقظين لمحتوى الأساطير وأن لا نبوبها بسرعة فقد تغطي حقائق من مراتب مختلفة جدا بل أحيانا قد تدرك في عدة مستويات في آن واحد.

واذا ما عاد بعضها الى معارف باطنية و «ستر» المعرفة مع نقلها عبر العصور، فان البعض الآخر قد يكون له صلة بأحداث واقعية. ولنذكر مثل الطيانابا، الحية الاسطورية الفلانية، وتروي خرافتها ومغامراتها وهجرتها خلال السهوب الافر يقية منذ المحيط الأطلسي. وحدا حب الاطلاع بالمهندس بليم الذي كلف حوالي ١٩٢١ ببناء سد سنصندنغ ان يتبع اثر الاشارات الجغرافية الموجودة في

الاسطورة التي علمها اياه حمادي جنكودو «العريف الكبير الفلاني». ووقع له عجب كبير حين اكتشف هكذا، اثر المجري القديم لنهر النيجر.

الخلاصة

ان العصر الحاضر بالنسبة لافريقيا عصر التشعب والتحرك، تتراكم فيه عوالم وعقليات وأزمنة متباينة، يتداخل بعضها في بعض، متأثرة أحيانا بعضها ببعض لا يفهم أحدها الآخر دائما. فيتجاوز فيه القرن العشرون مع القرون الوسطى، و يساير الغرب المشرق، والديكارتية تلك الطريقة الخاصة «لتعقل» العالم تحاذي «الاحيائية» وذلك الوجه الخاص لعَيشه وتجربته بكل ذاته.

ان الموجهين الشبان المعاصرين يسيرون الادارة بعقليات وأنظمة قانونية أو مذاهب موروثة مباشرة، من أنماط أجنبية، شعوبا وحقائق تنتمي الى قوانين أخرى وعقليات أخرى. مثلا في معظم أراضي افريقيا الغربية الفرنسية كان القانون القضائي المقرر عقب الاستقلال من قبل أهل القانون الشبان عندنا، وهم حديثو العهد بالجامعات الفرنسية، نسخة مجردة لقانون نابليون. وتبع ذلك أن الأهالي، وقد كانت تتحكم فيهم حتى ذلك الوقت عادات مقدسة ورثوها عن الأجداد وضمنت تكتل المجتمع، صاروا لا يفهمون لماذا يحكم عليهم باسم «عادة» ليست عادتهم لا يعرفونها ولا تلائم واقع البلاد العميق. ان مأساة ما سأسميه «افريقيا القاعدة» هي انها كثيرا تسيرها أقلية مثقفة لم تعد تفهمها، حسب مبادئ لا توافقها.

فبالنسبة للطبقة المثقفة الجديدة في افريقيا، وقد كونتهم النظم الجامعية الاوربية، وفي كثير من الأحيان فان التقاليد عندهم ماتت، أو انها مجرد «خرافات شيوخ»، على أنه يجدر أن نقول إن جزءا هاما من الشباب المثقف يشعر أكثر فأكثر، منذ بعض الوقت، بالحاجة الملحة لتولية وجوههم نحو المأثور المنقول عن الأجداد، وابراز قيمه الأساسية لاكتشاف جذوره الخاصة وسر هويته العميقة. وبالعكس ففي «افريقيا الأصل» التي تعيش غالبا بعيدا عن المدن الكبيرة التي — وكأنها جزر من أوربا — مازال التراث حيا ويمكن العثور حتى الآن — كما أشرت الى ذلك آنفا — على عدد كبير من ممثليه أو من حفظته، ولكن الى متى سيدوم ذلك؟

ومشكل المشاكل في افريقيا التقليدية هو بالفعل مشكل الانقطاع في النقل. وأول قطع تم في المستعمرات الفرنسية القديمة، مع حرب ١٩١٤، اذ جند معظم الشبان للقتال في فرنسا ولم يعد منهم الكثير. فقد فارق الشبان البلاد في فترة كان من الواجب أن يخضعوا فيها الى التدريبات الكبرى، وأن يعمقوا معارفهم باشراف من هم أكبر منهم سنا.

وساعد أيضا على هذا العمل الايفاد الاجباري لابناء الأعيان الى «مدارس البيض» بقصد قطع الصلة بينهم وبين التراث. وكان الهم الأعظم للسلطة الاستعمارية — وهذا متروف — ان تقتلع بقدر ما يمكن التراث الاهلي لتغرس في مكانه تصوراتها الذاتية. وكانت المدارس العلمانية أو الدينية هي الآلات الأساسية لهذا العمل التمهيدي.

وما تلقاه شبابنا من تربية عصرية منذ نهاية الحرب الأخيرة، أكمل هذا العمل وخلق ظاهرة حقيقية من الانسلاخ الثقافي.

فـفـر الـتدر يب من العواصم والتجأ الى الأدغال حيث صار «الشيوخ» يجدون من حولهم الأقل فالأقـل مـن «الآذان المـطيـعة» التي ينقلون اليها تعليمهم،من جراء الجاذبية الكبيرة،من قبل المدن والحاجـات الجديدة، فهذا التعليم لا يمكن أن يمنح الا بحسب العبارة الشائعة، «من فم عطر الى أذن مطيعة نظيفة» (أي حسنة التقبل).

ونجد أنفسنا الآن في كل ما يخص المأثور المنقول أمام آخر جيل من كبار المستودعين، لذلك لابد أن يـقـوى مجـهـود الجمع في السنوات العشر أو الخمس عشرة المقبلة، والا سيضيع آخر المعالم العظيمة الحيـة مـن الـثقافة الافريقية، ومعها ستضيع الكنوز التي لا تعوض من تعليم خاص، مادي ونفساني وروحاني في الآن نفسه، معتمد على الشعور بوحدة الحياة، تعليم يغرق مصدره في ظلمات الزمان.

وعلى البـاحث أن يتسلح بالصبر للقيام بعمل الجمع هذا، كما ينبغي عليه ذكر واجب أن يكون لـه «قلب يمامة وجلد تمساح ومعدة نعامة». قلب يمامة لكيلا يغتاظ أو ينفعل ولو قيل له ما يكره من الامـور، واذا ما رفض سؤاله فلا فائدة في الالحاح، بل عليه أن يستقر على فرع آخر. فالخصومة هنا لها آثـار في مـكـان آخر، بينما اذا ما انصرف بهدوء فقد يتأسف عليه وكثيرا ما يطلب من جديد. وجلد تـمـسـاح كـي يـتمكن من الرقاد في أي مكان وعلى أي فراش بدون كلفة. وأخيرا معدة نعامة كي يتمكن من أكل كل شيء دون أن يحصل له سوء أو يتقزز.

ولـكن الشرط الأهم هو أن يعلم كيف يتخلى عن الحكم على كل شيء حسب معاييره الذاتية، ومن يشأ أن يكتشف عالما جديدا لا بد أن يعلم كيف ينسى عالمه الخاص، والا فما هو الا ناقل عالمه معه ولا يكون في موقف «المستمع».

وافر يـقـيـا الـشـيـوخ العارفين، تحذر الباحث الشاب، على لسان تيرنو بوكار، حكيم بندياكاوا بقولها:

«ان أردت أن تعرف من أنا
وان أردت أن أعلمك ما أعلم
توقف مؤقتا عن أن تكون ما أنت
وتناس ما أنت به عليهم».

الفصل التاسع

علم الآثار الافريقي وتقنياته بما في ذلك أساليب تحديد تاريخ الآثار

زكي اسكندر

اذا ما اكتشف عالم الآثار حادثا عارضا فهو يبدأ عامة بحثه في المستوى الاثري المحض، فيسجل الطبقة التي وجدت فيها العينة، ويحل رموز النص المحتمل المصاحب له، و يصف شكلها و يقدر أبعادها الخ... ثم تدرس هذه المعطيات في مستوى علم الطبقات وفقه اللغة والنموذجية، وتنتج عن ذلك معلومات أثرية مهمة فيما يخص القدم والاصول الخ... على أنه في غالب الأحيان يتعذر عليه أن يحصل على معطيات تبوح بالجواب على سؤالاته، أو تساعده على اثبات الاستنتاجات المرجوة. ولذا لزم الالتجاء الى اختصاصات أخرى كي يكمل بحثه العلمي، ومن المفروض أن يمده هذا البحث بالمعلومات المطلوبة عن مادة الشيء وأصله وتقنية صنعه وعمره وما أعد له في الاستعمال. ويجدر مع ذلك أن نشير الى أن هذه البحوث لا تتجاوز زاوية جديدة يزمع عالم الآثار أن يدرس من وجهتها مشكلا من المشاكل الخاصة، و ينبغي أن تكون المعطيات العلمية كلا مع الاعتبارات الاسلوبية واللغوية والتابعة للطبقات (١).

وقد تأتي التقنيات العلمية أيضا بمساعدة علم الآثار في دراسة الطبقات الجيولوجية التحتية، باستثناء الحفريات، وفي حفظ المعالم والانقاض المكتشفة.

وللتقنيات العلمية المستخدمة في علم الآثار ميزة العالمية. فهي تنطبق على افريقيا تماما كما تنطبق على أوربا وآسيا أو أميركا مع اللجوء احيانا الى طريق نوعية متميزة. وهذا موضوع واسع جدا، ولذا سنعالج النقاط التالية في جملتها دون أن ندخل في كثرة من التفاصيل المخبرية.

(١) هال أ. ت. ١٩٧٠، ص ١٣٥ — ١٤١.

ـ التقنيات التحليلية المستعملة في القياسات الاثرية.
ـ اهداف البحث والتحليل في القياسات الاثرية.
ـ تقنيات تعيين التواريخ.
ـ التنقنيات المستعملة في البحث الاثري.
ـ تقنيات الاحتفاظ.

التقنيات التحليلة في القياسات الأثرية

ان تقنيات التحليل قد انتشرت حتى أصبح من العسير أحيانا أن نختار التقنية اللائقة بالنسبة الى عينة معطاة للحصول على الارشادات المطلوبة. وستراعي الفقرات الموالية جميع أوجه المشكل.

إختيار طريقة التحليل

ان العينات الاثرية ثمينة من وجهين، وذلك أن عدد العينات المتوفرة عادة قليل جدا بحيث تكاد لا تكفي لحاجيات تحليل كامل، وقد يتعذر تعويضها اذا ما استعملت بأكملها، ومن جهة أخرى ينبغي الاحتفاظ بالعينة على الأقل لتكون مرجعا أو لصالح العروض المقبلة. لذا سيقام بالتحاليل القياسية الاثرية بكل عناية حتى نحصل منها على أهم الارشادات. ويمكن تلخيص المعايير التي تفرض الاختيار لتقنية أو أخرى فيما يلي (٢).

أهمية مجموعة العينات المتوفرة

اذا كانت مجموعة العينات المتوفرة كبيرة، يحسن القيام بتحليل كيماوي في وسط مائي لتعيين النسبة لأهم مركباتها، وقد يستعمل التحليل الذري لاثبات نسبة المعادن القلوية، كالصوديوم والبوتاسيوم والليتيوم. واذا كانت العناصر او المركبات لا موزونة (آثار) يكون من الافضل استعمال التحاليل بطريقة التفلور أو المتعلقة بحيود أشعة اكس ولو أن نتائجها تشتمل على خطأ بين (١٠ و ٢٠ ٪).

واذا ما كانت كمية العينات ضئيلة، واذا كان من اللازم أن تحلل عدة عناصر، يكون من اللائق أن يلجأ الى الاستضواء الطيفي او الى حيود أشعة اكس. واذا تعذر على الاثري ان يوفر عينة مهما كانت صغيرة، فتعالج المادة المزمع تحليلها بواسطة التحليل الطبقي او التفلور في صورة ما اذا مكّن حجمها وشكلها من استخدام هذا التحليل.

نوعية المواد المحللة

ان تنوع الانقاض الاثرية كبيرا جدا، فبعضها كالغذائيات والمراهم والراتنجيات والزيوت والشموع الخ... مواد عضوية في جلها أو في القليل منها وغيرها ـ كالفلزات والادهان والخزف والزجاج والجبس الخ.... ليس عضوية.

(٢) هال أ. ت (المرجع السابق).

أما المواد العضوية فتعرض عامة على معالجة النار، والتصبن والتحلل والأشعة تحت الحمراء والتحاليل الحرارية والكرواماتوغرافية.

كما تعرض على التحاليل العيارية في وسط مائي، والي التحليل الطيفي والي التفلور والحيود لاشعة اكس، او كذلك التنشيط بواسطة الكهرباء المحايدة، حسب انموذج الارشاد المطلوب.

انموذج الارشاد المطلوب

كي نربح الوقت ونختصر التكاليف يجري التحليل طبقا لبرنامج مثبت يضعه عالم الآثار للحصول على الجواب على اسئلة معينة. فالبرونز والنحاس القديمان متشابهان في المظهر، وإنما يميزهما القصدير، فيعالج بصورة عامة جزء من العينة بواسطة محلول الحامض النتري المركز، ويحل في الماء المقطر ما ينتج منه من راسب الحامض الميتاستانيك المائل الى البياض، وهذه التجربة البسيطة في متناول كل عالم اثري. وكذلك كانت معادن الرصاص تستعمل قديما في مصر لاعطاء الخزف مظهر الزجاج، فيكفي الرصاص اذن لتعيين، تاريخ صنع الشيء المزجج بالتقريب.

عرض النتائج

ان الاثريين المدعوين لدراسة نتائج البحوث العلمية ولاستعمالها في شروحهم وفي استنتاجاتهم ليسوا، هم انفسهم من أهل العلم الا في قليل من الأحوال. فيجدر اذن ان تعرض عليهم النتائج في شكل يسهل عليهم فهمه، فتقدير عنصر من عينة وزنها ١٠٠ غرام بواسطة كسور الغرام يليق ان يعوض بعض لكل النتائج طبقا لفكرة سهلة الادراك من الجميع، فكرة النسبة المئوية. و يكون لهذا التعويض مزية تسهيل مقارنة النتائج بين عدة مختبرات.

طريق الفحص والتحليل

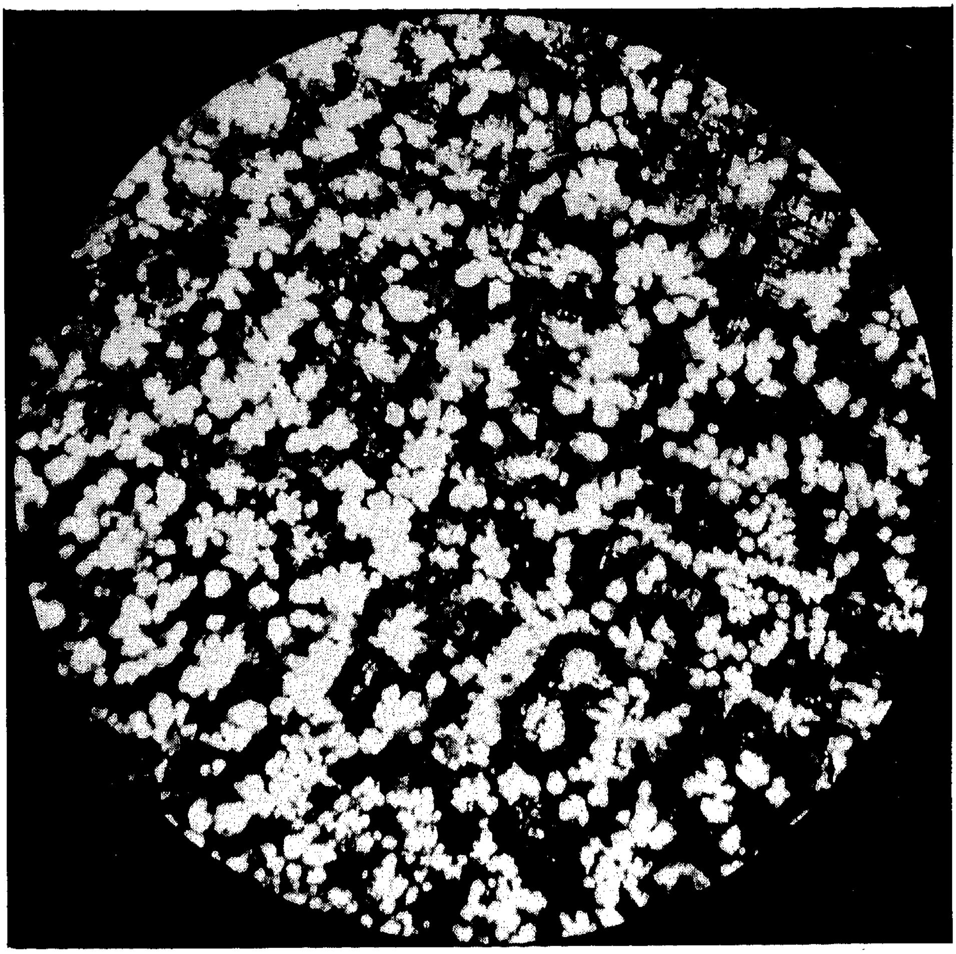
سنشير فيما يلي، في اطار هذه الاعتبارات، الى أهم الطرق المستعملة للتحليل في القياسات الاثرية.

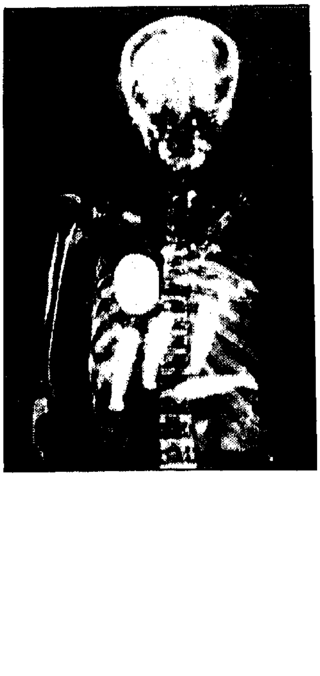
الفحص المجهري

ان الفحص بواسطة عدسة مكبرة بسيطة (تضخيم ١٠ أو ٢٠) كثيرا ما يكون مفيدا للحصول على انطباع أول من حادث عارض أو من عينة قديمة. ومن المفضل استعمال مكبرة مزدوجة العينية ذات تضخيم مقداره ٧ مرات أو ١٠ أو ٢٠ مرة وذات مجال فسيح بين العدسة والمستوى البؤري. و يستطيع هذا الجهاز سبر تجاويف عميقة لا يمكن للمكبرة الاعتيادية أن تدخله.

و يتم الحصول على معطيات أدق بواسطة مجهر مركب يشتمل على عدسة ذات تضخيم ١٠٠ أو ٢٠٠ أو٤٠٠ أو١٢٥٠ منغمس في الزيت. ويمكن استعمال الفحص المجهري للغايات التالية:

- تعيين الهوية: في معظم الحالات يكون من الممكن أن تعين هوية عينة معطاة (في حالتها الخالصة أو في حالة تركيبها من عناصر متباينة، وذلك بدرس تركيب الجسم بالمجهر أو درس الخواص البلورية لمركباته.
- التحليل الكيفي: ان التقنيات العصرية تمكن من الترسيب والحل ومن مشاهدة التطور الغازي


١


٢

● ١) صـورة شـمـسـيـة مـكـبـرة (مـيـكـروفـوتـوغـرافـيـة) لقطاع في مرساة نحاسية من سفينة الملك خوفو (مركب الشمس) في الجيزة.
● ٢) صـورة أمـامـيـة بـالاشـعـة لـصـدر مـومـيـاء المـلـكـة نيجيميت من الاسرة الـفـرعـونـيـة الحـاديـة والعشرين. (متحف القاهرة).

وغير ذلك من الأساليب الممكن تطبيقها على قطعة صغيرة من العينة (٣). مثلا اذا ما بللت قطعة العينة الموضوعة على صفيحة من زجاج قد ينتج عن ذلك تحليلها اولا. فاذا ما أضيفت الى المحلول المحتمل قطرة من نترات الفضة، واذا ما ظهر راسب مائل الى البياض غير محلول في الحامض النتري يمكن أن نستنتج وجود كهيرب موجب من الكلورور.

التحليل الكمي: وتكتسب الطرق المجهرية كل اهميتها في التحاليل الكمية بمركبات متباينة مشعبة من الصعب ان تعالج بالطرق الكيماوية الاعتادية (٤) فهي تمكن من تعيين عدد مختلف المركبات وحجمها. واذا ما علمت كثافة كل منها، امكن تحويل نسبة مئوية في الحجم الى نسبة مئوية في الوزن (٥).

التصوير الاشعاعي

يبقى التصوير الاشعاعي كبير الفائدة في فحص الآثار الفنية، فيمكن من اكتشاف وجود اجسام خارجية داخل مومياء مغطاة بعصاباتها، او وجود نقوش مزينة تحت طبقات البلسمات الخ.... وهذه الارشادات تساعد على تعيين التقنية التي يجب استعمالها لتجريد المومياء من العصابات، وهي مفيدة للحفاظ على الاحداث العارضة المعدنية وتستخدم اثناء الدراسات العلمية والاثرية. وفي متحف القاهرة كشف التصوير الاشعاعي للموميات الملكية عن كون البعض منها حتى التي ازيلت عصاباتها، يحتوي على مصوغات أخفته عن عيون الباحثين طبقات سميكة من الراتينج (٦) (الشكل ١).

تحديد الوزن النوعي

في العصور الخالية كان الذهب يحتوي عامة على الفضة أو النحاس، والأشياء الذهبية لها من النفاسة مالا يسمح في غالب الأحيان لاي قطعة مهما كانت ضئيلة ان تستهلك في التحلي. ولذا فكر كالاي أن يلجأ في ذلك الى تحديد وزنها النوعي، ولا يداخل هذا الأسلوب أي خطر للافساد وهو يمكن من الكشف عن معدل الذهب الخالص المستعمل في الاحداث العارضية الذهبية (٧). والطريقة سهلة جدا تعتمد مبدأ أرخميدس. فاذا كان وزن الشيء في الهواء الطلق (و) غراما وفي الماء (س) غراما كان وزنه

$$\frac{و}{و - س}$$

واذا كان وزن الذهب النوعي (١٩٫٣) يساوي تقريبا ضعف الوزن النوعي للفضة (١٠٫٥)

(٣) ج. و. ايونغ، ١٩٥٤، ص ٤١١.
(٤) أ.م شاموو. س. و. ماسن، ١٩٣٨، ص ٤٣١.
(٥) أ. م. كلتهوف، أ. ب. صندل، أ. ج ميهان وس. بركنستاين ١٩٦٩.
(٦) ج. وهلبرن. ج. أ. هريس وس. برنس. يوليه (تموز) ١٩٧١، ص ١٨.
(٧) أ. ر. كالاي، ١٩٤٩، ص ٧٣ — ٨٢.

أو للنحاس (٩ر٨) صار من اليسير الكشف عن وجود عناصر ضعيفة من النحاس والفضة. واذا ما فرض غياب البلاتيين ومعرفة مركب المزيج (فضة أو نحاس) واستحالة التقلص أثناء عملية المزج، فالمتوقع أن مجال الخطأ في حساب معدل الذهب الخالص لا يتجاوز ١٪.

التحليل الكيماوي المعياري في وسط مائي

هذه التقنية لازمة في علم الآثار لدراسة المادة التي يتكون منها حادث عارض كما هي لازمة لاختيار احسن طريقة للحفظ. فهي تستعمل للتحليل الكيفي والكمي للملاحظات والجصوص وبقايا الحوادث العارضة المعدنية المتآكلة وبقايا الطعام وادوات التجميل وبقايا البلاسم وغيرها من المواد المشابهة لها الخ...

ولا محل لوصف التقنيات المستعملة للتحاليل المشابهة في هذا الفصل، وهي مألوفة عند كل الكيماويين البارعين في الآثار، وتوجد معروضة مفصلة في كتب الكيمياء التحليلية، ككتب كلتهوف ومن معه من مؤلفيها (٨) بالنسبة الى المواد العضوية. واعمال اسكندر (٩) وسطروس (١٠) بالنسبة للمواد العضوية والغير العضوية وثمة أدوات من حديد اكتشفت في نياني (غينيا)، مؤرخة فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، عرضت على التحليل الكيمياوي فكشف انه يوجد فيها النحاس والفسفور والنيكل والتغنستين والتيتان والمولبدان، وهي من المحتمل ان تكون ادرانا موجودة في المعادن المستعملة (١١).

القياسات الطيفية

استعملت هذه التقنية في تحليل البقايا القديمة كالبرونزيات والخزف والملاط والاصباغ الخ..

هناك عدة عوامل في هذه التقنية متميزة بالنسبة لسائر الطرق الخاصة لتحاليل هذه البقايا. ان لها حساسية مرضية، ثم انها تمكن من تقدير نسب عالية (حتى ٢٠٪) من معظم العناصر. ثم انه في الامكان ان تكشف كل العناصر الموجودة في العينة بتسجيل الحزوز الطيفية على صفيحة تصويرية خلال بث واحد. وينتج عن ذلك وثيقة يمكن الرجوع اليها فيما بعد. وهناك انموذج آخر من القياسات الطيفية يتمثل في «اللازمليبروب مقياس طيفي» (١٢). ان التحليل الطيفي لكل البرونزيات النيجرية الطبيعية في إيفي، قد اظهر أن هذه الأدوات ليست من البرونز بل هي من الليط (١٣).

---

(٨) أ.م. كلتهوف: أ.ب. صندل، ا. ج. ميهان، س. بركنستاين، ١٩٦٩.
(٩) ن. فرج وأ. اسكندر، ١٩٧١، ص ١١١ — ١١٥.
ز. اسكندر، ص ٥٩ — ٧١: «ديرفوبون في الطيبية» مجلد ٣، نشر بشاتلي، القاهرة، جمعيات الاثار القبطية ١٩٦١؛
ز. اسكندر وأ. و. شابين، ١٩٦٤، ص ١٩٦ — ٢٠٨.
أ. زكي وز. اسكندر، ١٩٤٢، ص ٢٩٥ — ٣١٣.
(١٠) ف. هـ. سطروس واودنال، ١٩٧٢، ص ١ — ١٦.
(١١) أ. موزو وأ. نوزيك، ١٩٧٤، ص ١ — ٩٦.
(١٢) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ — ١٤١.
(١٣) ف. ويلت، ١٩٦٤، ص ٨١ — ٨٣.

التحليل بواسطة الامتصاص الذري

تليق هذه الطريقة تماما بعينات من المادة الغير العضوية (فلزات، اسمنتات، خلائط زجاج، خزفيات، املاح الخ....) ولها في القياسات الاثرية المزايا الآتية: يمكن بلوغ درجة مرتفعة من الدقة (نحو ١٪ من الخطأ) باستعمال عينات بوزن ٥ الى ١٠ مليغرامات فيمكن ان تعين على انموذج واحد عناصر كبرى وصغرى او مجرد آثار، وفي النهاية فان هذه التقنية متداولة الاستعمال. وبواسطتها تكون المقارنات يسيرة بين نتائج مختلف المختبرات، و يكون من اليسير ايضا ان تراقب الاسباب المحتملة للاخطاء التجريبية (١٤).

تفلور أشعة اكس

ان تنشيط عينة بواسطة أشعة أكس هي طريقة للحل مفيدة جدا. ومبدؤها: ان قذف ذرة بواسطة اشعة مرتفعة التردد يمكن من قلع كهيرب من مدارها الداخلي و يسد الفراغ المكون بواسطة كهيرب من مدارها الخارجي. والتغير في الطاقة بين المستويين الأعلى والسفلى منشأة اشعة ثانية او تفلورات مميزة للعناصر المكونة للعينة (١٥) وحيث ان قوة خرق اشعة اكس محدودة، فان هذه التقنية ليست صالحة الا لسطح الاشياء، فلا تطبق إذن الاّ لتحليل البقايا الغير العضوية، كالزجاج والخزف الصيني والخزف المزجج والابسيديان ومعظم الاحجار. ولكن الاشياء المعدنية القديمة قد تضررت من اتلاف الزمان، و يسعى المعدن الخبث الذي تشتمل عليه الى الظهور على السطح. ولذا فان تحليلا لسطح هذه الأشياء قد يمدنا بنتائج مخالفة جدا للتي يكشفها لنا تحليل الشيء في كليته (١٦).

التحليل بتنشيط الكهيربات المحايدة

تتمثل هذه التقنية في الاستشعاع بواسطة الكهيربات المحايدة، البطيئة (او الحرارية) لمجموعة من العينات، ومن منتجات كيماوية معيارية موضوعة في مفاعل نووي ذري. و يكون لبعض النظائر المشعة الناتجة وجود يمكنها من بث أشعة غاما. وحيث ان كل نظير مشع يبث أشعة غاما طول موجتها خاص مميز لكل منها، فان تحليل هذا الطول للموجة يمكن من التعرف على هوية العناصر المكونة للعينة، ومن تعيين تمركز هذه العناصر، كبيرة كانت أم مجرد بقايا.

وقوة خرق الكهيرباث المحايدة وخرق اشعة غاما اكبر من قوة خرق اشعة اكس، فهي تمكن اذن بالنسبة لعينة معطاة، من الاغارة على عمق اهم، و ينتج ان ظهور النحاس على السطح يمكن تجاهله في الفلزات (١٧).

واثناء هذه التحاليل، واذا كانت العينة المدروسة ستعود الى المتحف، يصبح من اللازم ان

(١٤) أ. ورنر، ١٩٧٠، ص ١٧٩ — ١٨٥.
(١٥) أ. م. كلتهوف، ا. ب. صندل، أ. ج. ميهان، وس. بركنستاين، ١٩٦٩.
(١٦) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ — ١٤١.
(١٧) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ — ١٤١.

نسعى الى تخفيض الاشعاعية المتبقية الى مستوى غير ضار، في فترة من الزمن معقولة. مثلا نظير الفضة المشع له بقية عيش قدرها ٢٢٥ يوما،فاشعاع قوي لشيء فضي يحجر ارجاعه الى المتحف الاصلي قبل مئات السنين (١٨).

وفي هذه الحالة يقتضي ان تتخذ الفضة من عينة معطاة بواسطة الفرك بقرص صغير من الصوان الحرش. ويتعرض هذا الصوان لتشعيع داخل المفاعل، ويبحث التحليل عن الفضة والذهب والنحاس والاثمد والزرنيخ المعهودة. وطبقت هذه التقنية في اطار الاثار الآفريقية لدراسة لآلىء الزجاج المنشطة مرتين بواسطة الكهيرباء المحايدة فقيم بالقذف الاول في مدة قصيرة ثم بحث في الحين عن النظائر المشعة ذات الدورة القصيرة في اللآلىء، وكان القذف الثاني قويا متواصلا ودام ثماني ساعات وحفظت اللآلىء بضع أيام عرضت للبحث عن النظائر المشعة ذات الدورة المتوسطة، ثم خزنت اللآلىء من جديد واجريت عليها تجارب قصد الحصول على نظائر مشعة طويلة الدورة (١٩) ونشر سايرمييرس دراسة عن تطبيقات عديدة لهذه التقنية في علم الآثار (٢٠).

أهداف التحليل في القياسات الأثرية

اهم اهداف البحث العلمي والتحليل في القياسات الاثرية هي التالية:

التعرف المدقق على هوية الأشياء

لا بد ان يجري التعرف على البقايا الاثرية بكل دقة، ولا بد ان يكون في وسع الاثري ان يصفها بدقة في المنشورات الاثرية وفي أدلة المتاحف.

والتعرف بالضبط على هوية مادة الاحداث العارضة لا يقل أهمية، اذ ان مرمى المشاهدات التابعة للمواد المدروسة يتبع عامة طبيعتها الحق. ومن سوء الحظ الأخطاء لا تغيب عن الوثائق الاثرية السابقة، فخلقت الكثير من البلبلة، واشتبه النحاس احيانا بالبرونز على الرغم من ان اكتشاف البرونز واستعماله يتضمنان ظهور ثورة ثقافية معينة. واشتبه البرونز بدوره بالليط، وفي ذلك ما يجعل التقدير في قدم الشيء مخطئا، فأولى المنتجات من الليط تعود تقريبا الى منتصف القرن الاول قبل الميلاد، بينما عرف البرونز واستخدم حوالي عشرين قرنا قبل ذلك (٢١).

واذا كان معظم الاخطاء في معرفة هوية الاشياء تعود الى تقديرات بصرية مختلة، يكون من الجدير ان نشير الى أننا اذا اردنا تجنب كل خطر في التقدير المخطئ، يجب أن نجري عملية التعرف للبقايا الاثرية بواسطة التحاليل الكيماوية او التحاليل على حيود اشعة اكس.

(١٨) نفس المرجع.
(١٩) س. س. دافيزون، ١٩٧٣، ص ٧٣ — ٧٤.
(٢٠) ا. ف. سايروب. مييرس، ١٩٧١، ص ١١٥ — ١٥٠.
(٢١) أ. ر. كالاي، ١٩٤٨، صفحة ١ — ٨.

نقل الفاظ قديمة مجهولة

وقد يتفق أن يمكن التعرف المدقق الى ترجمة أسماء مجهولة، ففي سقارة بمصر اكتشف في مقبرة الملك حورع حا (الاسرة الاولى، حوالي ٣١٠٠ ق. م) وعاءان من الخزف وعلى كل منهما كتابة هيروغليفية تقابل كلمة «سيريت» المجهولة المعنى. وأدى التحليل الكيماوي الى ان هذين الوعاءين كانا يحويان الجبن، فاستنتج ان لفظ سيريت يعني الجبن (٢٢).

مثال ثان: وجدت على بعض التماثيل الصغيرة كتابة هيروغليفية تكون لفظ «بخين» وتعرف في بعض الحالات ان الحجارة كانت من النضيد، وان الكلمات كانت في نصوص تتعلق بوادي الحمامات (٢٣)، فاستنتج ان «بخين» من الراجح أن يكون حجر النضيد بوادي الحمامات.

الكشف عن أصل الانقاض الأثرية

ان وجود عدد من العينات من مادة اصلها اجنبي، في موقع اثري معين يبدو كإشارة واضحة الى استيراد هذه المادة عن الطرق الصناعية او التجارية. واذا ما امكن ضبط المصادر فسرعان ما يتم تصوير السبل التي اتبعتها؛ فنحن نعلم مثلا ان الابسديان لا توجد في مصر، ومع ذلك فهي كانت مستعملة في عصر ما قبل الاسرات (قبل ٣١٠٠ ق. م) ففحصت ابسيديان بعض القطع التي تعود الى هذا العصر وقورنت مع مثيلها مما كانت تنتجه البلدان المجاورة. فكانت خصائصها قريبة جدا من خصائص ابسيديان الحبشة. وهكذا من الواضح انها استوردت عن هذه المنطقة، وان ثمة علاقات تجارية كانت موجودة من عهد بعيد بين البلدين (٢٤).

والتعرف على بقايا الخزف بواسطة التنشيط بالكهيرباء المحايدة، أو بفلورة اشعة اكس، يمكن من دراسة المسالك التجارية المحلية والدولية (٢٥). وان شوائب في شكل بقايا في معدن النحاس او في الاحداث العارضة من هذا المعدن قد تساعد على ربط الحادث بالمعدن الذي استعمل في صناعته (٢٦).

و يساعدنا اكتشاف النيكل في حادث من الحديد القديم من التعرف هل ان هذا الحديد من رجم من الرجوم ام هو قد صنع تصنيعا، اذ ان حديد الرجوم يشمل دائما من ٤ الى ٢٠٪ من النيكل.

واستعمل المؤلف اشعاعا طيفيا ليفحص خنجر توت عنخ آمون الشهير، فوجد ان حديد الشفرة يشتمل على نسبة مئوية من النيكل كبيرة، فكان الحديد المستعمل اذن مستمدا من رجم.

البحث عن الإستعمال السابق للاشياء المفحوصة

قد يكون من الصعب أحيانا أن نعرف لم اعدت هذه الاداة أو تلك، وقد يلوح التحليل

(٢٢) أ. زكي وز. اسكندر، ١٩٤٢، ص ٢٩٥ — ٣١٣.
(٢٣) أ. لوكا، ص ٤١٦، ٤١٩ — ٤٢٠.
(٢٤) أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ٤١٦ وص ٤١٩ — ٤٢٠.
(٢٥) أ. بيرلمان وف. البارو، ١٩٦٩، ص ٢١ — ٥٢.
(٢٦) ب. ر. فليدس، وج. ملستد، ا. هنركسن ور. و. رامات، ١٩٧١، ص ١٣١ — ١٤٣.

الكيماوي مساعدا قويا في هذا المجال. فاكتشف مثلا سنة ١٩٥٦ في الفيوم بمصر في قبر نفربتاح (تقريبا سنة ١٨٠٠ق م) جرة كبيرة من الالباتر فيها نحو ٥ر٢ كغ من مادة غريبة، فأوضح التحليل الكيماوي انه مركب يشتمل خاصة على اجزاء مساوية تقريبا ، ٢٥ر٤٨٪ من القالان (كبزيتيت الرصاص الطبيعي) و٦ر٥١٪ من الراتينج. وحيث ان هذا التركيب لم يوقف على مثله من قبل، فقد كثرت التخمينات فيما يخص وجودها في القبر ولكن تفحص الاشارات الطبية الموجودة في بردي ايبرس، مكن من الوقوف تحت رقم ٤٠٢ على «دواء جديد من شأنه أن يمحو اللطخات البيضاء الظاهرة في العينين، كحل أسود (قالان)، وخطوة (راتينج) أنعم سحقهما ليذرا في العينين». ان هذا النص المتضمن التركيب الكيماوي للمادة المكتشفة في الجرة، كشف أن نفربتاح كانت تتألم من بياض باحد عينيها، وقد يكون بكليهما. ولذا قدمت لها كمية كافية من هذا الدواء لمعالجتها والعمل على شفائها (٢٧).

البحث عن الطرق القديمة للصناعة

ان البحث المطلوغرافي للادوات المعدنية يمكن من الوقوف من جديد على أشغال القدامى وصناعاتهم الكيماوية. وتعطينا الامثال التالية نظرة عن ذلك:

صناعة الازرق المصري

عرضت نماذج من هذا الصبغ الازرق على الفحوص الكيماوية والمجهرية وعلى تشتت اشعة اكس، بل تم الوصول الى ما يسمى «فريت» أي اعادة الصنع تجريبيا لخليط (٢٨) ازرق مشابة. فكشفت كل هذه الدراسات انه يحصل على هذا الصبغ الازرق في العهود الخالية بتسخين الى درجة ٨٤٠ درجة مئوية خليط من مسحوق الرمل أو المرو ومن الكلس والمالاكيت وصبة من الملح الاعتيادي أو من ملح الصودا (٢٩).

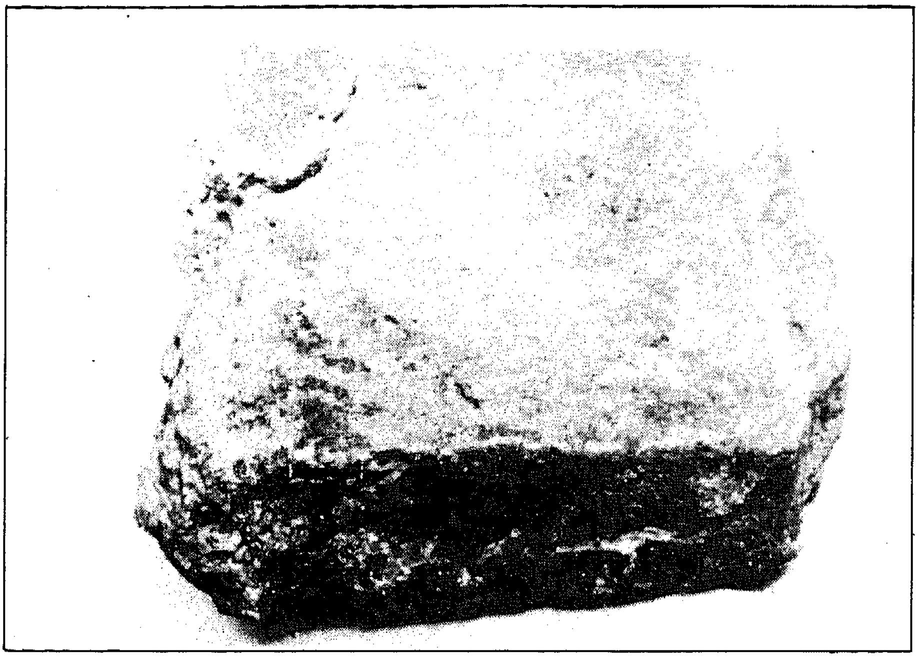
فحص الادوات المعدنية بالمجهر

ان الفحص المطلوغرافي للادوات المعدنية يمكن من توضيح هل هي صبت صبا او طرقت او دخلت في صنعها التقنيتان، واظهر الفحص لمرساة من نحاس تابعة لسفينة كيوبس وقد اكتشفت سنة ١٩٥٤ وراء الهرم الكبير بالجيزة، سنينات ضمن المعدن (الشكل ٢)، فقد صنع المعدن اذن بالتطريق (٣٠).

فحص بقايا التحنيط

أظهر فحص بقايا التحنيط المكتشفة في سقارة والاقصر والمطرية (مصر) أنها كانت تشتمل على نسبة صغيرة من صوابين الحوامض الدهنية الجامدة، وهذا نتيجة تصبين الشحوم الجسمانية بتأثير الصودا

(٢٧) ن. فرج و أ. اسكندر، ١٩٧١، ص ١١١ — ١١٥.
(٢٨) تعبير قديم يشير الى خليط من الرمل والصودا يستخدم في صناعة الزجاج والخزف.
(٢٩) أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ٤١٩ — ٤٢٠.
(٣٠) أ. اسكندر، ١٩٦٠، ص ٢٩ — ٦١، القسم الاول.


١

● ١) كتلة تزجيج، وقد ظهر منها السطح الاعلى المستوى، والحواف الجانبية، وجزء من البوتقة لايزال لاصقا بالحافة الجانبية اليمنى.

● ٢) قاعدة لاحد الاعمدة المنحوتة من الحجر الرملي في معبد بوهن (النوبة). و يلاحظ ما طرأ عليها من تزهر في الطبقة السطحية.


٢

أثناء تهيئة المومياء، فاستنتج من ذلك ان هذه المواد كانت تسد موقتا تجاويف الجسم قبل تجفيفه في كتلة من الناطرون (٣١) على فراش التحنيط (٣٢).

بوتقات التزجيج (أو إذابة دقيق المعادن)

ان البحوث التي اجريت بوادي النطرون على انقاض معمل زجاج، تظهر ان الزجاج صنع في مصر في العصر الروماني، ويمكن تمييز مرحلتين، فخلال الأولى كان يحصل على التزجيج في بوتقة خاصة، تسمى بوتقة التزجيج (٣٣)، وذلك بحمل خليط من الرمل الخالص (المرو) ومن ثاني فحمات الكلسيوم، والنطرون او الرماد النباتي، وكليهما الى درجة من الحرارة تحت ١١٠٠ درجة مئوية، وكان صلصال البوتقة غنيا بالرمل وبالتبن المدقوق قطعا صغيرة. وكان هذا الصلصال في الفرن يمكن من انضاج فخار نفيذ جدا ــ وتلك خصلة كان الزجّاج يتطلبها في العصور الخالية ــ اذ كانت تمكنه من تحرير قالب التزجيج (الشكل ٣) بكسر البوتقة، التي كانت اذن لا تستعمل الا مرة واحدة. وفي المرحلة الثانية يحصل الزجاجون على زجاج من نوع حسن مختلف الالوان، وكانت التزجيجات الاولية تدق حتى تعطي مسحوقا متجانسا، وتجزأ الى صبات صغيرة، و يضاف الى كل منها بعض المقادير من الاكاسيد الملونة ومن المكثفات او المزيلات للاصباغ، ويجري الطبخ حتى يتم الصهر قصد الحصول على نوع الزجاج المطلوب (٣٤).

إختيارات الأصالة

طيلة سنين عديدة كان اثبات تابعا لمعايير تاريخية جمالية فقط، ومؤخرا سمح التقدم العظيم في ميدان البحث العلمي، بالحكم مع ثقة أكبر على صدق واصالة اداة معطاة. واثبت التقنيات هي:

الفحص بواسطة الاشعة ما فوق البنفسجية

هذا الاسلوب صالح على الخصوص في تقويم ادوات العاج والرخام. و ينشر مختلف انواع الرخام اشعاعات مختلفة تحت الاشعة ما فوق البنفسجية اذ يسقط سطح قطع الرخام القديمة لونا متميزا بعيدا جداعن لون الكلسيات من عين النوع ولكنها أجد. وكذلك الأمر بالنسبة لقطع العاج اذ حتى التنقيحات او الاصلاحات التي اصلحت بها هذه الادوات من العاج او الرخام، وحتى الرسوم وقد صارت غير ملاحظة في الضوء الطبيعي، فهي تصير ملحوظة تحت الاشعة ما فوق البنفسجية. وكذلك فان اشعة اكس والأشعة ما تحت الحمراء مفيدة جدا لكشف الغش (٣٥).

---

(٣١) الناطرون: فحمات الصود يوم المتبلور.

(٣٢) ز. اسكندر، وا. و. شاهين ١٩٦٤، ص ١٩٧ ــ ٢٠٨.

(٣٣) التزجيج الاولي او اذابة دقيق المعدن قصد ازالة العناصر المتبخرة (تعليق الترجمة).

(٣٤) س. أ. صالح،ا. و. جورج، وف. م. حلمي، ١٩٧٢، ص ١٤٣ ــ ١٧٠.

(٣٥) ا. ر. كالاي، ١٩٤٨، ص ١ ــ ٨.

فحص التآكل السطحي

ان المعادن القديمة عامة تتآكل شيئا فشيئا، ومع الزمن يولد هذا التآكل قشرة متجانسة. وفي صورة الادوات المعدنية المغشوشة فان طلاء سطحيا يمر على وجهها يعتبر من شأنه ان يمنحها طابعا قديما. وعامة هو «يلتصق» التصاقا رديئا وتزيله المحللات كالماء والكحول والاسيتون او البيريدين، ثم ان هذه الاضافة الاصطناعية لا تشتمل في غالب الأحيان الا على طبقة واحدة ويمكن تمييزها بسهولة عن القشرة الطبيعية التي تنشطر عموما على أدوات النحاس والبرونز الى شريط اول باطن أحمر من اكسيد النحاس، والى شريط ثان خارجي اخضر وهو من فحمات النحاس او كبريتاته او كلوراته. ومن العسير ان يستعمل هذا المحلل بحيث يغتر به كيماوي متحف أثري نبيه.

تحليل مادة الشيء

ان تحليل حبة الخزف الصيني المصري العتيق، لتوضح كثيرا من مزايا هذه التقنية. فبينما كانت حبة الصيني القديم الأصيل في مصر مركبة من الكوارتز المزجج فان التقليدات العصرية لها تتكون عامة من الصلصال والطفل الأبيض أو من الخزف الصيني فتعرفها اذن سريع ثابت.

مثال آخر: كانت تقنيات العدانة في العصور الخالية تعوزها طرق الفحص الملائمة، فكانت المعادن القديمة تشتمل على بعض الشوائب — زرنيخ — نيكل — منغنيز الخ... فيكفي اذن أن تتخذ عينة منفصلة من الحادث المصطنع المشكوك فيه، وان تعرض على فلورة أشعة اكس أو على تنشيط الكهيربات المحايدة، واذا لم توجد هذه الشوائب في صورة بقايا فذاك ما يرجح الكشف عن الغش.

تعرف الاصباغ والملونات في التصوير الملون

ان التقنيات الكيماوية المجهرية تمكن من التعرف ببعض الدقة على الاصباغ المستعملة في لوحة من اللوحات. فاذا ما كان الصبغ من بين الملونات المحدثة مؤخرا، فيكون سن اللوحة موضوع نقاش، مثلا ان فحص يونغ لصورة جانبية منسوبة الى رسام من القرن الخامس عشر الميلادي، قد اظهر ان الصبغ الازرق المستعمل فيه مستمد من اللازوردي الاصطناعي الذي لم يكتشف ولم يستخدم كصبغ الا منذ القرن التاسع عشر، واما الصبغ الابيض فمستمد من اكسيد التيتان وكان عالم التصوير يجهله قبل ١٩٢٠م. وهكذا كانت هذه الصورة مزيفة (٣٦).

فحص الزنجرة والصقالة السطحية

ان معظم الحجارة على مر الزمن تكتسي زنجرة سطحية: هي طلاء الصحراء. وهذه الظاهرة ناشئة عن البروز التدريجي لاملاح الحديد والمنغنيز التي تتأكسد على السطح مكونة ضربا من القشرة أو البشرة تتحد مع الحجارة فتختلط مع السطح. ومن الصعب ازالتها بالغسل بواسطة محلل او بالحك. وفي ذلك ما ييسر التمييز بين سطح قديم حقا وسطح آخر نقش مؤخرا ولوانه كسي بقشرة اصطناعية.

---

(٣٦) و. ج. يونغ، ١٩٥٨، ص ١٨ — ١٩.

وعلاوة على هذه القشرة الطبيعية، فان آثار النقش والصقل القديمة تمدنا بوسيلة اخرى للحكم على الاصالة. فهذه البقايا مازالت تلوح من تحت القشرة السطحية للحجارة او المعدن في شكل خطوط غير منتظمة التقاطع. فلم يكن للشعوب في العصورالخاليه محكات للنقش ولا مبارد دقيقة ولا قماش خاص للصقل، وتميز هذه الخطوط بسهولة عن الخطوط المتوازية المنتظمة التي هي علامات الصقل الحديث.

تجربة اللمعان الحراري للخزف

ان الخزف كالارض التي دفن فيها يحتوي على نسبة مئوية ضئيلة جدا من العناصر المشعة. فتنشر هذه العناصر اشعة تتجمع كهاربها على مر آلاف السنين في مادة الخزف. فاذا ما خضع الخزف الى ما فوق ٥٠٠ درجة من الحرارة، ينبعث من الكهارب المتجمعة لمعان حراري يختلف بحسب عمر الخزف. وهكذا يساعد اللمعان الحراري محافظي المتاحف على الحكم بروية على اصالة خزف معين. وقد تؤخذ العينة اللازمة بواسطة حفر منعزل فيسخن المسحوق الناشئ عن ذلك، في الظلمة، الى ما يزيد على ٥٠٠ درجة مئوية. فاذا ما لوحظ لمعان حراري، فذاك دليل على قدم الخزف، واذا كان العكس فهو مزيف (٣٧).

تقنيات تعيين التواريخ

تسمح عدة تقنيات علمية بالقيام بتعيين تواريخ الاشياء القديمة وهذه أهمها:

تعيين التاريخ التقريبي بالتحليل القياسي الأثري

ان تحليل عينات من مجموعة واحدة (املاط، زجاج، صيني، معادن، اصباغ) الا انها ترجع الى عصور مختلفة، يمدنا بنتائج يمكن استخدامها كاشارة، فتوحي تقريبا بعمر عينات أخرى مازال مجهولا. ولنا في الأمثلة التالية ما يؤيد ذلك.

تعيين التاريخ بواسطة جواهر الزجاج في افريقيا الغربية

ان جواهر آكوري المتلونة التي تبدو زرقاء اذا سقط عليها ضوء منعكس، وخضراء اذا كان الضوء مباشرا، قد عرضت على التحليل بواسطة فلورة اشعة اكس. ولقد امكن هذا التحليل من تصنيفها الى مجموعتين أ و ب، فعينات المجموعة (أ) افقر في الرصاص (٠٥ر٠٪) وفي الزرنيج (٠٥ر٠٪) من عينات المجموعة (ب) حيث تكون النسبة المئوية من الرصاص تقارب ٢٧٪ ونسبة الزرنيخ ٢٪ والفرق النسبي في المنغنيز أصغر (مجموعة أ: ٣ر٠+١ر٪، مجموعة ب: تقريبا ٥ر٠٪) ومن العناصر الأخرى المكتشفة الحديد والكوبالت والزنك والروبيديوم والترونتيوم والقصدير والا ثمد والباريوم، ولم يسجل اي فرق ملحوظ، وتوجد جواهر المجموعة (أ) في افريقيا الغربية بمواطن جزرية

(٣٧) م.ج ايتكن، ١٩٧٠، ص ٧٧ — ٨٨.

قديمة نسبيا (٤٣٠ الى ١٢٩٠ ب.م) بينما لا توجد جواهر المجموعة ب الا في اطار اجد. فاذا ما اكتشفت هذه الجواهر في قبر او في طبقة معينة فهي توحي بعمرها، بدقة يتفاوت مقدارها (٣٨) بالزيادة أو النقصان.

تعيين تواريخ الرسوم الصخرية بتحليل املاطها شبه الزلالية

يمكن تقدير سن الرسوم باحصاء عدد الحوامض الامينية التي تشتمل عليها املاطها شبه الزلالية بواسطة التحليل بالماء. ولقد سمحت هذه الطريقة بتعيين عمر ١٣٣ لوحة من الرسوم الصخرية في افريقيا الجنوبية الغربية مع مجال للخطأ يقرب ٢٠٪ «فالسيدة البيضاء» ببرندبرغ ترجع فيما يبدو الى ما بين ١٢٠٠ و ١٨٠٠ سنة، ولوحات ليميو يوتقع بين ١٠٠ و ٨٠٠ سنة، وعينات دراكنبرغ تمتد فيما بين ٦٠ و ٨٠٠ سنة. و ينحط عدد الاحماض الامينية المتماثلة مع عمر الصورة من ١٠ (في المحشرات من ٥ الى ١٠ سنوات من العمر) الى سنة واحدة (وفي المواد القديمة من ١٢ الى ١٨ قرنا) (٣٩).

تحديد التواريخ بتحليل الاملاط

ان تحليل مختلف الاملاط في مصر يظهر ان ملاط الجير لم يظهر فيها قبل بطليموس الاول (٣٢٣ — ٢٨٥ ق. م) (٤٠) فكل مبنى من (احجار او اجر) كون بواسطة هذا الملاط انما يرجع الى ما بعد ٣٢٣ ق. م.

تعيين التواريخ بالفحم المشع

المبدأ:

اذا لاقت الاشعة الكونية ذرات الهواء في الطبقات العليا من الجو حطمتها الى اجزاء صغيرة من بينها الكهيرب الحايد، وتقذف الكهيرباء المكونة للذرة التي يكون جوها أكثر غنى، الازوت ذا كتلة ١٤، فتحولها الى فحم وزنه الذري ١٤. وهذا الفحم ١٤ الجديد التكوين مشع، فيمتزج باكسيجان الهواء ليكون (CO_2) ١٤ ويمتزج مع ثاني اكسيد الفحم الاعتيادي الذي يشتمل على ذرات فحم كتلتها ١٢ (٩٩٪) و ١٣ (١٪) فيدخل هذا الفحم ١٤ في النباتات مع عناصر الفحم الاعتيادية CO_2 12 و CO_2 13 وتكون أنسجتها حسب عملية التركيب الضوئي. وحيث ان الحيوانات تتغذى بالنباتات فان العالم الحيواني والنباتي بأكملها يكونان مشعان اشعاعا خفيفا لوجود نسبة ضئيلة من الفحم ١٤ (تقريبا ذرة واحدة من فحم ١٤ لكل مليون مليون من ذرات الفحم الاعتيادي) و يدخل ثاني اكسيد الفحم أيضا في تركيب المحيطات في شكل فحمات فيكون من المحتمل أيضا أن

(٣٨) دافيسون س. س، جياك ر د، كلارك ج. د.، ١٩٧١، ص ٦٤٥ — ٦٤٩.
(٣٩) دننجر أ. ١٩٧١، ص ٨٠ — ٨٤.
(٤٠) لوكا أ. ١٩٦٢، ص ٤١٦ و ٤١٩ — ٤٢٠.

يكون ماء البحر مشعا اشعاعا خفيفا، وكذلك الشأن بالنسبة الى كل المحار يات والرواسب الّتي يشتمل عليها (٤١).

وعند الموت فان المادة العضوية القديمة من المحتمل أن تكون قد اشتملت على عين الاشعاعية التي تشتمل عليها المادة العضوية الحية حاليا. ولكن بعد الموت يكون العزل، اي انه ينقطع كل نقل او كل مبادلة مع الفحم الاشعاعي، فيأخذ الفحم ١٤ في الانحطاط او قل، حسب عبارة الاستاذ تبي، «آنت ساعة الفحم الاشعاعي أن تشرع في العمل» (٤٢) فاذا ما قيست الاشعاعية ونظر بينها في عينة قديمة وفي عينة شاهدة ومعاصرة، يكون في الامكان براعاة طول عمر الفحم ١٤ (٤٣) ان يحسب عمر العينة القديمة، بحل المعادلة المتعلقة بانحطاط الاشعاعية.

المواد الملائمة لتحديد التواريخ بواسطة الاشعاع

تطبق هذه التقنية على المواد العضوية (خشب، فحم، عظم، جلد، انسجة، نباتات، اغذية، فخار الخ...) ولكن قبل كل شيء تطبق على النباتات السنوية كالقصب، والحبوب والعشب او الكتان. فاذا ما جمعت العينات ينبغي الا تجري عليها اي معالجة كيماوية، بل يجب ان تعزل في قوارير من زجاج او اكياس من نايلون كي يُتجنب اتصالها المحتمل بمواد عضوية اخرى.

و يتم العمل على خمس مراحل وهي، تطهير العينة، واحراقها، وتطهير غازات ثاني اكسيد الفحم الناتجة، ثم عد الجزئيات المنتشرة.

النتائج والاحتمالات

قد مكنت دراسة مقارنة على عينات شواهد وعلى تحديدات للتواريخ بواسطة الفحم الاشعاعي (٤٤) من التحقق من دقة هذه الطريقة. وحيث ان اقدم طريقة تاريخية واشهرها طريقة التأريخ المصرية، فقد تقرر على المستوى الدولي ان يقاس الفحم المشع في سلسلة طويلة من العينات المصرية، مدققة التأريخ، والتي تنتمي الى فترة تمتد من الاسرة الأولى الى الاسرة الثلاثين (تقريبًا من ٣١٠٠ الى ٣٤١/٣٧٨ ق. م) واخذت عدة مختبرات تواريخها باعتبار أن دورات النشاط الاشعاعي للفحم تقابل لـ ٥٥٦٨ سنة او بصفة ادق ٥٧٣٠ ± ٤٠ سنة، فاظهرت النتائج ان التاريخ المعتمد على دورة تساوي ٥٧٣٠ سنة يقابل تسجيل الأحداث التاريخية حتى عهد سنوسرت (حوالي ١٨٠٠) ولكن تاريخ العينات السابقة أثار عدة جدالات، على أن تطبيق طريقة ستوفييي سواس للاصلاح على العينات السابقة لـ ١٨٠٠ سنة، قد يمكن من الحصول على نتائج توافق التأريخ الاثري بتقريب ٥٠ او ١٠٠ سنة (٤٥) وعلى سبيل المثال قام مختبر البحث في المتحف البريطاني

---

(٤١) م. ج. ايتكن، ١٩٦١، × و ١٨١ ص.

(٤٢) و. ف بيتي، ١٩٧٠، ص ١ — ١٠.

(٤٣) طول العمر او دورة الفحم ١٤ (اي مدة تبديد نصف الجسم المشع) يقدر بقدر ٥٥٦٨ سنة او بكيفية ادق ٥٦٣٠ ± ٤٠ سنة.

(٤٤) ر. برجر، ١٩٧٠، ص ٢٣ — ٣٦؛ ا. و. س. ادوردس، ١٩٧٠، ص ١١ — ١٩؛ د. ن. ميخائيل وأ. ك. رالف ١٩٧٠ ص ١٠٩ — ١٢٠؛ أ. ك. رالف و. هـ. ن. ميخائيل وم. ج هن، ١٩٧٣، ص ١ — ٢٠.

(٤٥) ر. برجر ١٩٧٠، ص ٢٣ — ٣٦. هـ. ن. ميخائيل وأ. ك. رالف، ١٩٧٠، ص ١٠٩ — ١٢٠؛ أ. ك. رالف وهـ. ن. ميخائيل وم. ج هن، ١٩٧٣، ص ١ — ٢٠؛ م. ستوفيي وهـ. أ. سواس، ١٩٦٦، ص ٥٣٤ — ٥٤٠.

بتحديد تاريخ قصبات مصطبة القاع، من الاسرة الأولى، بسقارة. فكان التاريخ الناتج عن طريقة الفحم ١٤ هو ٢٤٥٠ ± ٦٥ بعد الاصلاح، وهوما يطابق التسجيل التاريخ ٢٩٠٠ ق. م (٤٦).

و يظن الآن ان انتقاص الحقل المغنطيسي الارضي (٤٧) وتغيرات قوة الريح الشمسية التي تميّل الاشعة الكونية، هي الأسباب الرئيسية للانحرافات التي نلاحظها (٤٨).

ومن جهة اخرى فان مدة دورة الفحم المشع ليست مثبتة اثباتا قويا. ونحن بصدد البحث عن اسباب اخرى، و يعمل العديد من المختبرات في هذا الاتجاه.

واذا ما علمنا الجواب فسيكون في الامكان ان نصل الى تعيين تواريخ بقايا العصر العتيق فيما قبل ١٨٠٠ ق. م. وحتى ذاك اليوم يجب ان تخضع التقديرات الاصطلاحية للبقايا العضوية بواسطة الفحم المشع الى التصويب المشار اليه.

تحديد التواريخ بواسطة البوطاسيوم — أرغون

ان تحديد التواريخ بواسطة الفحم ١٤ حتى ٧٠٠٠٠ سنة تقريبا يحدث فراغا في تاريخ التطور البيولوجي والجيولوجي حتى ما يقرب من ١٠ ملايين من السنين، الا انه صار من الممكن ان نطبق بعض الطرق الجيولوجية الاشعاعية، امثال نسبة تحول الاورانيوم ٢٣٥ الى رصاص ٢٠٧ اي ٧١٠ ملايين من السنين، او تحول الروبيديوم ٨٧ الى سترنسيوم ٨٧، اي ١٣٩٠٠ مليون من السنين. ويمكن سد هذا الفراغ الى حد ما بتحديد التواريخ بواسطة البوطاسيوم — ارغون (٤٩). والواقع ان هذه الطريقة مستعملة في الغالب لتواريخ العصور الجيولوجية القديمة، فتستخدم عناصر مهمة من مادة لحمتها دقيقة نسبيا (الا أنها لا تقل عن ١٠٠ ميكرون) لا تشتمل الا على القليل من الارغون الجوي. وفي الامكان ان تستعمل لعصور جديدة نسبيا، مما يسمح بمراقبة النتائج الحاصلة بواسطة الفحم ١٤ (٥٠).

المبدأ الاساسي

ان البوطاسيوم كما تجده في الطبيعة يشتمل على ٩٣٫٢٪ من البوطاسيوم ٣٩ و٦٫٨٪ من البوطاسيوم ٤١ و٠٫١١٨٪ من البوطاسيوم ٤٠. وكانت نسبة البوطاسيوم ٤٠ وقت تكوين الارض تقارب ٠٫٢٪ ولكن، في قسم كبير منه، تجزأ لكي يحدث مشتقين اثنين الكلسيوم ٤٠ والارغون ٤٠. ودورة البوطاسيوم ٤٠ الكبيرة جدا (١٣٣٠ مليونا من السنين تمكنه من البقاء بنسبة ضئيلة جدا، تقرب من ٠٫١١٨٪.

ومن بين ١٠٠ ذرة من بوطاسيوم ٤٠ تتبدد، تتحول ٨٩ الى كلسيوم ٤٠ بزوال الأشعة بيتا وتصير ارغون ٤٠ اثر امساكها لجزئيات بيتا. والارغون جسم غازي محبوس في حبة المعدن (٥١).

---

(٤٦) و. س ادوردس، ١٩٧٠، ص ١١ — ١٨.
(٤٧) ف. بوشا، ١٩٧٠، ص ٤٧ — ٥٥.
(٤٨) س. ز. لوين، ١٩٦٨، ص ٤١ — ٥٠.
(٤٩) م. ج. ايتكون، ١٩٦١.
(٥٠) وجنتنر و هـ. ج لبلت، ١٩٦٣، ص ٧٢ — ٨٤.
(٥١) نفس المرجع والصفحات، أ. ا هملتن، ١٩٦٥، ص ٤٦ — ٦٩.

و يتم تحديد التوار يخ بواسطة البوطاسيوم ارغون للاسباب الا تية :

أ ـــ ان البوطاسيوم الموجود في القشرة الأرضية يمثل ٨ر٢٪ من وزنها اي انه من العناصر الغز يرة جدا، ثم انه يكاد يكون موجودا في كل الأجسام المركبة.

ب ـــ ان طول عمر البوطاسيوم يمكن من تكو ين الارغون ٤٠ في بعض المعادن أثناء الفترات المهمة من الوجهة الجيولوجية. وبحساب تركيز الارغون ٤٠ وكمية البوطاسيوم الموجود في المعدن، يكون في الامكان تعيين عمر هذا المعدن بواسطة معادلة تابعة لتبديد الاشعاعية (٥٢).

مشاكل يجب حلها عند تعيين التوار يخ بواسطة البوطاسيوم ـــ ارغون

استعملت حديثا طر يقة لتعيين التوار يخ بالفحم المشع لحساب الثابتة من المرتبة الاولى في الوضع، قصد مرازمة الحامض الاسبرتي في العظام القديمة. فاذا ما تمت معايرة تفاعل المرازمة في موقع ما، يصير من الممكن ان يستعمل هذا التفاعل لتعيين توار يخ لعظام اخرى من عين المنجم. وتوافق الاعمار المحسوبة هكذا الاعمار التي تم الحصول عليها بواسطة الفحم المشع. وتبرهن هذه النتائج على أن تفاعل المرازمة هو الة زمنية مهمة لتعيين توار يخ العظام القديمة جدا او الصغيرة جدا، والتي لا يمكن معالجتها بالفحم المشع.

وكمثال على تطبيق هذه التقنية في تعيين توار يخ المحجرات البشر ية ثمة تجربة تمت على عظم بشري وهي قطعة من إنسان روديسيا من الهضبة المكسرة «بروكن هل» في زامبيا، وعندما حللت اعطيت موقتا عمرا....١١ سنة (٥٣). وتعيين التوار يخ بالبوطاسيوم ـــ ارغون لعصور البليوسين والبليستوسين من شأنه ان يسمح باقرار تأر يخ مطلق، يقدر اصول الانسان وعمر المتحجرات التي يتفق وجودها في عدة نقط من الارض، واصل «التكتيت» وعددا اخر من المشاكل الجيولوجية.

ان تعيين التوار يخ بالبوطاسيوم ـــ ارغون اعان في الالدفاي على تعيين عمر الطبقات البازلتية وطبقات الفليس التي كانت تغطيها، بأمل تدقيق العمر الحق لبقايا الزنجنتروب المكتشفة في قعر الطبقة الاولى من الفليس، في «الطبقة ١» واستنتج كرتيس وايفرندن ان بازلتيات الالدفاي هذه تؤرخ على الأقل باربعة ملايين من السنين على أنها ليست صالحة لتعيين التار يخ بكيفية مدققة من جراء تغييرات كيماو ية تلوح في الجزء الضيق من كل البازلتيات المؤرخة بالألدفاي باستثناء ما يمكن ربطه بالصناعة السابقة «للحصى المشذبة». وهذا رأي كنتنر وليبولت عن مختلف النتائج الحاصلة «وحيث لا وجود لتنافرات أخرى بين تعيينات التوار يخ الخاصة بالبازلتيات و بالفليس الذي يغطيها، فليس من غير الممكن ان يكون عمر الزنجنتروب نحو المليونين من السنين (٥٤).

التعين الأثري المغنطيسي للتوار يخ

كي نعطي فكرة مبسطة عن هذه التقنية يجب ان نطرق النقط الآتية :

(٥٢) و. جنتنز وهـ. ج. لبلت، ١٩٦٣، ٧٢ ـــ ٨٤.

(٥٣) ج. ل. بودا ور. أ. شرودر، وز بروتس ور. برجو، ١٩٧٤، ص ١٢١.

(٥٤) انظر تعليق ا.

المغنطيسية القديمة

ان المقصود دراسة المغنطيسية المتبقية في الانقاض الاثرية وتستند هذه الدراسة الى كون الحقل المغنطيسي الارضي يتغير دائما اتجاها وقوة، وتفيد المشاهدات الممتدة خلال خمسين السنة الأخيرة، ان الحقل المغنطيسي يتنقل نحو الغرب بقدر ٢ر٠ درجة طول سنويا (٥٥).

واجريت بحوث على المغنطيسية القديمة تعتمد على المنغطيسية المتبقية في الطين المشوي الاثري وفي الصخور، فاظهرت انه بالنسبة الى قوتها الحالية المرموز اليها بواحد، فان قوة الارض المغنطيسية بلغت حوالي ٤٠٠ الى ١٠٠ ق. م قيمة قصوى قدرها ٦ر١٥ ومرت بقيمة دنيا حوالي سنة ٤٠٠٠ ق. م قدرها ٦ر٠ (٥٦) وتسمى هذه الآثار او التغيرات في الاتجاه والشدة (تغيرات قرنية). ولها طبيعة جهوية، فتشمل القاعدة لتعيين التواريخ المغنطيسية، اذ ان تغيرات الحقل المغنطيسي الارضي تبقى اثرا في الخزف على شكل مغناطيس حراري متبق.

تطبيق المغناطيس الحراري المتبقي لتعيين التواريخ الأثرية

لتعيين تاريخ طين مشوي بقي في محلة منذ شيّه، بواسطة المغنطيس، يجدر أولا اثبات احتمال الحقل المغنطيسي الارضي بقياسات تجري في الجهة التي اختيرت، لتطبيق الطريقة على بنيات اثرية عمرها معروف. وترسم النتائج على منحنى يمثل التغييرات الطويلة المدى في هذه الجهة طيلة فترة ممتدة. واذا ما عرف اتجاه الحقل المغنطيسي المسجل في طين مشوي مجهول العمر في هذه الجهة نفسها، يصير من اليسير تعيين تاريخه بالمقارنة مع منحني التغيرات الطويلة المدى.

واليق العينات المعدة للتأريخ المغنطيسي، عينات الطين المشوي المستمدة من أفران او مواقد بقيت في محلها حتى يومنا هذا. ولعدم وجود آلة قياس المغنطيس القابلة للحمل والتي من شأنها ان تسهل على العين حساب اتجاه الحقل المغنطيسي الارضي، تحمل العينات الى مختبر تكون فيه هذه الآلة. ومن الاساسي ان يمثل على العينة اتجاهها الاصلي كي يكون هذا الاتجاه مرجعا بالنسبة الى اتجاه المغناطيس المتبقي.

وفي التطبيق، تتمثل العملية في طلي العينة بجص باريس، مع التحفظ من كون السطح العلوي للقالب افقيا و يشير الى اتجاه الشمال الجغرافي قبل قلع العينة. وهكذا يمكن في آن واحد من تعيين زاوية الحدود المنغطيسية (س) وزاوية الميل القديمة (م) (٥٧) وكي نحترز من الشوائب يجدر بنا ان نتزود على الأقل بنحوست من العينات المستمدة من بقاع مختلفة البنية الاثرية، مع مراعاة شيء من التناظر (٥٨).

وسجلت نتائج مغنطيسية اثرية فيما يتعلق بالانحراف والميل في انكلترا وفرنسا واليابان

---

(٥٥) م. ن. ايتكن، ١٩٦١؛ ر. م. كوك، ١٩٦٣، ص ٥٩ — ٧١.

(٥٦) ف. بوشا، ١٩٧٠، ص ٤٧ — ٥٥؛ ف. بوشا، ١٩٧١، ص ٥٧ — ١١٧.

(٥٧) م. ج. ايتكن، ١٩٧٠، ص ٧٧ — ٨٨.

(٥٨) ر. م. كوك، ١٩٦٣، ص ٥٩ — ٧١.

وايسلاندا وروسيا. ولم يقم، فيما اعلم، بمحاولة لتطبيق هذه الطريقة على افريقيا. فالمرجوان يقام بذلك عما قريب خصوصا وانها تقدمت كثيرا في السنوات الأخيرة.

تعيين التواريخ بالإضاءة الحرارية

الاضاءة الحرارية هي بث للضوء ينتج عند تسخين مادة معطاة تسخينا قويا، وهي تختلف تماما عن التأجج (الحاصل نتيجة الوصول بالجسم الجامد الى الحمرة) وتنتج عن تحرير الطاقة المتجمعة في شكل كهيربات محايدة محبوسة في المادة المسخنة.

اصلها

كل خزف أو صيني يشمل نسبا ضعيفة من المركبات المشعة (بعض الأجزاء من مليون من الاورانيوم والطوريوم وبعض الاجزاء من المائة من البوطاسيوم) ثم ان الارض المجاورة لموضع اكتشاف الخزفيات قد تشتمل على الاوساخ، وقد تكون الاشعة الكونية تخللتها اشعة قذفت بها المادة المبلورة كالمرو في الخزف. وينتج عن تأينها كهيربات قد تحبس في البنية البلورية، و «افخاخ الكهيربات» هذه في وضع غير مستقر، فتزول اذا ما سخنت عينة الخزف محررة مازاد من الطاقة في شكل ضوئيات، وقوة الضوء أي الاضاءة الحرارية تتبع طردا عمر الخزف، وهي تتبع أيضا الطبيعة الخاصة لمولدات الاضاءة الحرارية الموجودة في الخزف وفي الجوار المباشر للموضع الذي اكتشف فيه (٥٩)، ويمكن قياس عناصر الاورانيوم والبوطاسيوم بالاشعة التي تقبلتها كل سنة. و يعين العمر مبدئيا بواسطة المعادلة التالية (٦٠):

$$\text{العمر} = \frac{\text{شدة الأشعة المتجمعة}}{\text{شدة الاشعة السنوية}}$$

دقة النتيجة والاحتمالات

ان النتائج في عصرنا صحيحة الى ± ١٠٪ فهي اذن من مرتبة ادنى بعض الشيء مما يوفره تعيين التواريخ بالفحم المشع، يعزى السبب في ذلك الى عدد من الترددات المتعلقة بالظروف التي دفن فيها الشيء المدروس، والى درجة رطوبة الأرض المجاورة التي تتبعها شدة النظائر المشعة في قطعة الخزف. ومن المؤمل ان تذلل البحوث المقبلة هذه الصعوبات، الا ان عدة اسباب عملية تجعلنا نعتقد ان تحسين النتائج لن يتجاوز اكثر من ± ٥٪ (٦١).

وعلى كل ورغم قلة الضبط هذه، فان هذه التقنية تتقدم على تقنية تعيين التواريخ بالفحم المشع، لان الخزف موجود في المواطن الاثرية اكثر من المواد العضوية، ثم ان الحدث الذي يجدر

(٥٩) م. ج. ايتكن، الجمعية الملكية، لندن، مجلد أ، ٢٦٩، عدد ١١٩٣، ١٩٧٠، ص ٧٧ — ٨٨؛ أ. ت. هل، ١٩٧٠، ص ١٣٥ — ١٤١.

(٦٠) م. ج. أيتكن، ١٩٧٠، ص ٧٧ — ٨٨.

(٦١) نفس المرجع.

تعيين تاريخه هو شي الخزف، بينما يرمي تعيين التاريخ بالفحم المشع لعينة من الخشب او الفحم الى تقدير زمن قطع الشجرة، لا تاريخ استعمالها فيما بعد.

وفي مصر، سيكون لهذه التقنية مجالات فسيحة لاستغلالها، وحتى الآن فان نباتات العصر الحجري الحديث، وعصرما قبل الاسرات كان تعيين تواريخها في اكثر الأحيان حسب انموذج الخزف الذي تتميز به طبقا لنظام تاريخ اللقطات المتعاقبة الذي ابتكره فلندرس ـ بتري (٦٢)، فبفضل الاضاءة الحرارية سيكون في الامكان ان يعين العمر الحق لهذه النباتات.

التقنيات المستعملة في التنقيب الأثري

ان الغرض الاساسي من استعمال التقنيات العلمية في استكشاف الارض هو البحث عن ارشاد عن المواقع الاثرية المدفونة لتحضير الحفريات او تعويضها. والامر هو ان نربح اكثر ما يمكن من الوقت ومن الجهد ومن التكاليف.

والبحث الاثري المعتمد على الطرق العلمية يستخدم التقنيات التالية:

التصوير الجوي

ويستعمل على الخصوص للتعرف على بنية معطاة حسب رسمها الهندسي، وله استعمالان رئيسيان: وهو يمكن من النظر من على اي من مشهد اوضح للنقط التي تلوح فيها البقايا او التباشير البارزة كأنها تجتمع كي تكون رسما أكثر ايحاء (٦٣) وتسمح دراسة الصور الجوية بتحديد المناطق التي يكون من اللائق ان تستكشف للحصول على فكرة عامة من البنية الاثرية. واستعملت هذه الطريقة في مصر، بالاقصر لدراسة معابد الكرنك في مساحة ١٥٠ هكتار تقريبا.

وثمة استعمال آخر يمكن من الكشف عن وجود بقايا أثرية تغطيها الاراضي المزروعة بواسطة العلامات النباتية، ان هذه الآثار بصمات حقيقية تنتج عن تغيير الرطوبة في الاتربة، فالنبات على جدار من حجارة مغمورة يتميز قليلا بواسطة خط اكثر وضوحا و يكون أغنى، و يبدو أشد دكنة عندما يكون فوق حفير مردوم، ويمكن الشكل الهندسي لهذه الآثار من التعرف على الانقاض المدفونة ومن الشروع في استكشافها (٦٤).

تحليل التربة

نستطيع بصورة عامة تعيين الانقاض القديمة للمدن المسكونة والمقابر، بتحليل التربة، فاذا كان فوسفاط الكلسيوم هو المكون الرئيسي للهيكل العظمى ولمختلف ما يتبقى مما يتركه الانسان، فستكون نسبتها المئوية بالطبع مرتفعة على الأراضي التي سكنها الانسان في الماضي او في التي كانت له

(٦٢) و. م. ف. بترى، ١٩٠١.
(٦٣) ر. أ. لينينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩ ــ ١٠٨.
(٦٤) م. ج. ايتكن، ١٩٦١.

مقابر، لذا تحدد هذه القطاعات الاثرية بواسطة التحليل لعينات من الاتربة مأخوذة على مسافات منتظمة قصد استنتاج نسبة الفوسفاط.

تحليل غبار الطلع

ان تلقيح النباتات الزهرية يتم عامة بفعل الطيور والحشرات أو الريح. والأزهار التي لقحتها الريح تنتج كميات كبيرة من حبات غبار الطلع يسقط معظمها على الارض دون ان يساهم في عملية التلقيح. وتتحلل هذه الحبات بصفة عامة، ولكنها ان وقعت على تربة ملائمة، كالوحل او الترب، فقد تتحجر، و يكون اذن من اليسير ان تفحص بالمجهر. وقد يكون للتعرف على مختلف نماذج غبار الطلع الموجودة في عينة ولتعدادها اهمية في علم الآثار من جراء ما يوفر من وسائل الاسترشاد، عن المحيط الذي كانت فيه بقايا بشرية واحداث عارضة، ويمكن معرفة هذا المحيط بدورها من توضيح نمط العيش الذي كان يسود في تلك الفترة.

على ان تحليل غبار الطلع لا يصلح كتقنية لتعيين التواريخ، الا اذا امكن ربط عينات غبار الطلع بتأريخ، يعتمد على طريقة مباشرة لتعيين التاريخ كطريقة الفحم المشع.

ولزيادة التفاصيل عن هذه التقنية انظر فاكري وافرسن (٦٥) ودمبلابي (٦٦).

دراسة المقاومة الكهربائية

هي أول تقنية لفيزياء الارض تم تطبيقها على الآثار وهي تتمثل في ارسال توتر كهربائي في الارض، وقياس مقاومة التيار الكهربائي، وهذه المقاومة تتبع طبيعة التربة وكمية الماء التي احتفظت بها مسامها ونسبة املاحها المحولة. فللصخور الصلدة المتراصة كالكرانيت والديوريت مقاومية مرتفعة جدا بالنسبة الى مقاومية الاتربة الصلصالية. وتطبق دراسة المقاومية الكهربائية خاصة على البحث عن بنيات حجرية مغمورة تحت ارض ذات أوحال، او بنيات حفرت في الصخر وردمت (٦٧).

و يتمثل الجهاز المستعمل عادة لذلك في ادخال اربعة مسابر معدنية في الارض، وامرار تيار كهربائي بين المسبارين الخارجيين، وقياس المقاومية بين الاثنين الباقيين، وقيمة المقاومة الناتجة هي معدل تقريبي بالنسبة للمادة الكائنة تحت المسبارين الداخليين، على عمق يساوي تقريبا مرة ونصف المرة من البعد بينهما، مادامت هذه المادة في الجملة متجانسة (٦٨).

وفي العادة، تتمثل معظم تطبيقات دراسة المقاومية في رسم خطوط قياس مع الاحتفاظ بنظام الوصل وبنفس المسافات بغية تحديد التغييرات التي تطرأ على قيم المقاومية. وكثيرا تضم هذه الخطوط لكي تكون معا شبكة مستطيلة من القيم، و يتبين موضع البنى المدفونة من الأجزاء، التي تنتج قيما غير عادية.

(٦٥) ك. فاجرى وج افرسن، ١٩٥٠.
(٦٦) ج. و. دمبلاي، ١٩٦٣، ص ١٣٩ — ١٤٩.
(٦٧) م.ج. ايتكن، ١٩٦١.
(٦٨) لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩ — ١٠٨.

وقد حل محل هذا الأسلوب جزئيا أسلوب التنقيب المنغطيسي، وذلك بسبب ما يشوبه من عيوب يذكر منها بطء الفحص، ولأن النتائج تتأثر في المدى البعيد بالظواهر المناخية، بالاضافة الى أن تفسير النتائج الى الصعوبة في كل الحالات إلا أبسطها (٦٩).

الفحص المغنطيسي

وهو التقنية الأكثر انتشارا في البحث عن الآثار، وتتضمن قياس شدة الحقل المغنطيسي الارضي، في نقاط كائنة فوق السطح الحالي للموقع المراد سبره. وقد تدل التغييرات في هذه القياسات على وجود بينات اثرية، فتتمكن هذه التقنية من الكشف عن بقايا حديد مردومة، وعن منشآت من الطين المشوي، وعن الافران مثلا، اوعن آبار حفرت في الصخر وتم ردمها، اوعن بنيات من الحجارة مغمورة في تربة صلصالية.

وتسبب الادوات الحديدية المدفونة تغيرات مهمة جدا، وفيا عدا الحديد فان التغيرات ضئيلة. ولا تكون تقنية الدراسة المغنطيسية صالحة اذن، ان لم تكن آلة الاستكشاف حساسة بالنسبة للتغيرات الصغيرة جدا، ثم انه ينبغي ان تكون سريعة سهلة المراس (٧٠). وقد نجح مختبر البحوث الاثرية في جامعة اكسفورد، في ضبط مقياس للمغناطيس يستخدم البروتونات، تتوفر فيه كل هذه الشروط (٧١). وهو يتركب من قسمين: قارورة الاستكشاف والآلة المسجلة. وتحمل قارورة الاستكشاف على ثلاث ارجل من خشب، و ينقلها عامل المختبر من نقطة الى اخرى على المساحة المراد درسها، و يراقب عامل ثان اشارات المسجلة و يرسم بواسطة القياسات مستويا يؤول تعبيره الى الاشارة الى موقع العناصر الاثرية، والخطوط العريضة لها داخل الارض (٧٢).

وهناك أصناف أخرى من مقاييس المغناطيس قد دقق صنعها ولا سيا «المقياس الفرقي ذو البروتونات» (٧٣) والمقياس ذو الجيز يوم، والمقياس بالضخ للرنين الالكتروني (٧٤) ولكل مزاياه، ولكن انفعها في غالب الحالات هو المقياس الفرقي ذو البروتونات.

وللطريقة المغنطيسية كثير من المزايا بالنسبة الى المقاومية، فهي ابسط واسرع، وتفسير نتائجها ايسر (٧٥).

سبر الأهرام المصرية بواسطة الأشعة الكونية

ان الأشعة الكونية هي تيار من جزئيات ذات شحنة كهربائية تسمى (ميزون مو) او (موون) تبلغ هذه الاشعة الارض بشدة متساوية من كل نقاط السماء. فيدخل كل متر مربع، نحو ١٠٠٠٠

(٦٩) لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩ — ١٠٨.
(٧٠) م. ج. ايتكن، ١٩٦٣، ص ٥٥٥ — ٥٦٨.
(٧١) م. ج. ايتكن، ١٩٦١.
(٧٢) نفس المرجع.
(٧٣) أ. ت. هل، ١٩٦٥، ص ١١٢.
(٧٤) باسكولان، ١٩٧٠، ص ١٠٩ — ١١٩.
(٧٥) ر. أ. لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩ — ١٠٨.

مليون في الثانية، مهما كان اتجاهها. وللاشعة الكونية قوة نفوذ كبيرة جدا، اكبر بكثير من قوة اشعة اكس، وتكاد تكون سرعتها مساوية لسرعة الضوء.

ويستند سبر الاهرام بواسطة هذه الاشعة الى كون الموون تفقد من طاقتها عند اختراق المادة. ان ضياع الطاقة (او امتصاص الموون) يتناسب مع كثافة المادة التي تخترقها ومع سمكها، ولشدة او كمية الاشعة الكونية التي تنفذ تقدر بجهاز معروف باسم «غرفة الشرارت» يوضع في حجرة تحت الارض داخل الهرم. والموون التي اخترقت الفراغ (او غرفة او ممرا مجهولا) تخفض سرعتها تخفيضا اقل، اذا ما مرت خلال صخرة صماء، فتكون الاشعة الكونية التي اخترقت الفراغ أشد وتظهر ذلك غرفة الشرارات. وبواسطة غرفتين للشرارات موجهتين اتجاها افقيا على بعد ٣٠ سنتيمرا تقريبا الواحدة عن الاخرى في الاتجاه الرأسي، يمكن ان تستكشف كل حجرة خفية بل ان يتعرف على موقعها بتقريب بعض الامتار، فتوجه الحفريات في ذلك الاتجاه كي يتم الوصول الى الفراغ او الحجرة التي اشارت اليها الاشعة.

وبدأ السبر بالهرم الثاني، هرم الملك خفرع، من الاسرة الرابعة (٢٦٠٠ سنة ق. م) وحللت الارشادات بواسطة الحاسب ونشرت النتائج يوم ٢٠ أبريل — (نسيان) ١٩٦٩ فكشف عن امرين مهمين: ان حجرة الميت الملك لا تقع بالتدقيق وسط قاعدة الهرم، بل تقع بضعة امتار نحو الشمال. ووافق هذا الاكتشاف النتائج التي تم الحصول عليها بواسطة الدراسة المغنطيسية، وهو يدل اذن على صلاحية هذه التقنية لسبر الاهرام. ثم ان الثلث الاعلى من الهرم لا يشتمل على غرف او معابر مجهولة.

واعيدت التجربة بواسطة جهاز آخر رُكب لاستكشاف الهرم كله. ودل التحليل للنتائج ان الهرم لا يشتمل على أي تجويف مجهول وبذلك تاكدت التكهنات الاثرية.

تقنيات الحفاظ

ليس الغرض من هذا العرض ان نصف الطرق التقنية المستعملة للحفاظ على الاحداث العارضة المؤلفة من مختلف العناصر كالخزف والصيني والزجاج والخشب والجلد والبردي والأنسجة والفلزات الخ. وان هذا التنوع يخرج عن نطاق هذا الفصل، وقد عولج الموضوع في عدة كتب تقنية (٧٦) وفي عدة دوريات، من بينها دراسات في الحفاظ وهي صحيفة المعهد الدولي للحفاظ على الأعمال التاريخية والفنية في لندن.

على أن أهم المشاكل التابعة للحفاظ في أفريقيا هي التي تتعلق بهشاشة الأشياء الكبرى، والعطب العظيم للمعالم الحجرية.

هشاشة مختلف المواد الكبيرة

بسبب الحرارة والجفاف الشديدين، في كثير من البلدان الافريقية، صارت الاحداث العارضة المصنوعة من مواد عضوية (رق، بردي، جلد، خشب، عاج، الخ...) عرضة للكسر السريع، مما

(٧٦) ر. م أرجان، ١٩٦٨؛ هـ. ج. بلندرليث، ١٩٦٢؛ أ. بيدوك، ١٩٦٣؛ ج. سافاك، ١٩٦٧.

دعي الى معالجتها بكل عناية حتى لا تهدد بالتفتت، و يقتضي اولا حفظها في محل مغلق رطب وان تلف في انسجة ندية، او ان تعالج بالبخار في وعاء خاص حتى تتمكن من استرجاع بعض او كل مرونتها. فيصير في الامكان اذن ان تنشر او تبسط دون أن يخشى عليها من الكسر.

واذا ما رجعت لها مرونتها يجب ان تحفظ هذه الأحداث او ان تعرض في متاحف مجهزة بالهواء المكيف، او في مستودعات طقسها ١٧ ± ٢ درجة مئوية ورطوبتها النسبية من ٦٠ الى ٦٥٪ حتى لا تصير من جديد سهلة الكسر باتصالها بظروف مناخية اشد قساوة.

الفساد الملحوظ للمعالم الحجرية

ويجدر ان ينظر عن قرب في هذا المشكل الهام:

أهم اسباب العطب

ان اهم هذه العوامل هي عطب المباني الحجرية بافريقيا:

ـــ تجول الاملاح: عن طريق الماء او الرطوبة تنتقل الاملاح القابلة للتحلل من التربة المالحة الى حجر المعالم الاثرية وذلك بتأثير عامل ظاهرة التسرب، وتمر هذه الاملاح في المناخ الجاف من داخل الحجارة الى سطحها الخارجي في صورة محلولات مائية، وقد تتبلور على السطح نفسه وتتسبب في تفكيكه، او تتبلور تحت السطح وتعمل على فرقعته. وتتضخم هذه العمليات في قاعدة الجدران او الاعمدة حيث تتصل الحجارة بالتربة المالحة كما يشاهد ذلك على بعض الأعمدة في معبد بوهان بالسودان (الشكل ٤).

ـــ العوامل الجوية: تتحمل الحجارة في افريقيا قساوة التغيرات المتطرفة في الطقس وفي الرطوبة، فتؤول بها الى فصل العناصر السطحية في معظم الاحجار.

وفي عدة مناطق، ولا سيما في الجهات الساحلية، يتضافر عاملا العطب، فيتسبب عنهما افساد كبير للمعالم، كما يلاحظ ذلك بسهولة في ليبيا في المعابد الرومانية في لبدة (لبتيس باكنا) وفي صبراتة.

معالجة السطوح ـــ عدم نجاعتها

وقعت عدة تجارب مؤخرا لتقوية سطوح الأحجار بمعالجتها بمولد حافظة عضوية أو برمليات (سيليكات) لاعضوية. وبدت كل هذه العلاجات ليس فحسب غير نافعة، بل مضرة حيث تزيد في سرعة العطب وفي كسر الاحجار. ونبه على خيبة هذه المساعي في الملتقى الدولي للحفاظ على المعالم الحجرية. واعترف ان مشكل تقوية الحجارة لم يحل بعد، وانه يجدر الاشتغال به بكل سرعة.

الجهود الدولية لحل المشكل

ان الصعوبات الملازمة لهذا المشكل وخطورتها قد دعت سنة ١٩٦٧ منظمتي الايكوم والايكوموس والمركز الدولي للحفاظ لتكوين هيئة مؤلفة من عشرة اخصائيين في المحافظة على الحجر لدرس القضية، فتمت بعض الدراسات وقدمت عدة تقارير واستمر نشاط هذه اللجنة الى سنة

١٩٧٥ لتقترح سلسلة من التجارب المعيارية التي تمكن من تقدير درجة عطب الحجارة وما يحتمل من نجاعة في علاجات الوقاية.

امل جديد

لقد أعد الاستاذ لوين اسلوبا جديدا لحماية سطوح الرخام والكلس (٧٧) يتمثل في معالجة الاجزاء الفاسدة بمحلول قوي التركيز من هيدرو اكسيد الباريوم (نحو ٢٠٪) يشتمل على كمية من الاوربا (نحو ١٠٪) والغليسرول (نحو ١٥٪) فمن الناحية الكيماوية ترتكز الطريقة على التعويض في الحجارة المعطوبة عن ايونات الكلسيوم بايونات الباريوم. وبعد المعالجة تبين ان الحجارة تبدي صلابة واضحة ومقاومة افضل لعوامل العطب، اذ يلتصق بالحجارة فحمات الباريوم الجديد التكوين دون ان يكون كساء سطحيا، له خواص مغايرة لخواص الباطن، ويرجى من هذه الطريقة الا تتفتت السطوح المعالجة وأن تعمل على حماية الطبقات التحتة من تعديات التغيرات الطقسية.

استخدم هذا العلاج في شهر يوليو (تموز) ١٩٧٣ لتقوية التمثال الكلسي لابي الهول في الجيزة الآخذة في التآكل. وتبدو النتيجة حتى الآن مرضية، ولكن علينا ان نراقب هذه الرقبة طيلة عشر سنين على الاقل، قبل ان نقر نهائيا ان هذه التقنية قمينة بحماية الاحجار والصخور الكلسية والمحافظة عليها.

التدابير العلاجية للوقاية

مهما كانت الثقة التي نوليها لتقنية لوين فان مشكل الحفاظ على المعالم الحجرية بالمعالجة الكيماوية لم يحل بعد، على ان هناك بعض التدابير الميكانيكية يوصي بها لحامية هذه المعالم من عوامل التخريب، ومن هذه التدابير:

— لا ينبغي استخدام اي مادة وقائية من شأنها ان تسد مسام الحجارة لمعالجة سطوح المعالم الاثرية الموجودة في الهواء الطلق والمعرضة مباشرة لأشعة الشمس فقد تتقشر الطبقة الخارجية من السطح بسبب ذلك.

— ينبغي القيام بانتظام بعملية ازالة الملح من التربة التي بنيت عليها المعالم الاثرية ويجب ان يجلي الماء المستعمل لهذه الغاية بواسطة مصارف لائقة.

— يجب ان تعزل المعالم الحجرية بقدر الامكان عن الأراضي المالحة لايقاف تنقل الاملاح القابلة للتحلل من الأرض الى الحجر. ويمكن الحصول على هذا العزل بازلاق ورقة من الرصاص او بافراغ طبقة سميكة من القار تحت التمثال او الجدار أو العمود التي تقصد حمايتها.

— اذا اشتمل المبنى الاثري على املاح قابلة للتحلل، وقد تتسبب في العفن او تكوّن فطريات يجدر ان تزال هذه الاملاح بالغسل بالماء وان تطلى الاجزاء المصابة بصلصال رملي حتى تتخلص الحجارة منها تماما او تكاد.

---

(٧٧) س. ر. لوين، ١٩٦٨، ص ٤١ — ٥٠.

ــ اذا ماكان حجم المعلم متوسطا يكون من الممكن نقله الى متحف او الى ملجأ لوقاية جوانبة من تأثيرات العمل المناخي المضرة. وحل اخر يتمثل في حفظه في محله الاصلي بتغطيته ببناء اخر.
ــ واذا ما اتلف السقف، فيجب اعادة بنائه لحماية الرسوم الجدارية والتصاوير الناتئة، و بذلك يحد شيئا ما من الاضرار الناشئة عن التغيرات الكبيرة للحرارة والرطوبة.

توصيات فيما يخص التجديدات

ان معالمة الأحداث العارضة والمعالم الاثرية بكيفية غير مناسبة، قد يتبعها عدد من الاضرار، بل حتى الخراب الكلي لبعض هذه الاثار، ولعله ينبغي التذكير ببعض القواعد المهمة الموصى بها اثناء المؤتمرات الدولية.

أ) ينبغي باي حال ا لا تغسل القشرة التي تغطي المعالم القديمة، وان لا تزال بقصد الكشف عن لون الحجر الاصلي، و يقتصر في تنظيف الواجهات على ازالة الغبار بحيث تبقى القشرة كاملة، وهذا هو الطابع الاهم للمعلم.

ب) عند تجديد المعالم القديمة ينبغي الا يعاد البناء الا بالنسبة الى الاجزاء المتداعية الآيلة للسقوط، و يعاد البناء في مكانه الاصلي. و ينبغي ان نتجنب التعويضات والاضافات الا ما دعت اليه الحاجة لتدعيم الاجزاء المنهارة او لوقاية الواجهات القديمة من تغيرات الطقس.

ج) في جميع حالات اعادة البناء، يجب ان يوضع الملاط بين الاحجار حتى يتوزع وزنها توزيعا متساويا والا يتسبب عنها تبديل في الشكل ولا شقوق.

د) يجب أن يكون الملاط المستعمل، بصفة عامة، في تجديد الجدران مطابقا للملاط الاصلي، الا فيما اذا كان هذا الاخير من الجبس. ولا يوصي باستعمال الاسمنت في المنشآت المبنية بالصخور الرسوبية، كالكلس أو الصوان.

هـ) ان أحسن ملاط بالنسبة لجميع أعمال اعادة البناء، هو ملاط الجير بلا ملح، فهو مرن، مسامي و بذلك لا يمنع تنقلا صغيرا للحجارة بموجب تغيرات الحرارة، ولا يخشى معه حدوث توترات أو شقوق.

و) وأما الطرق التي تمكن من تمييز واجهات الاحجار المضافة فدونك ما يستحق الذكر منها:
ــ يمكن الزينة الجديدة ان تختلف قليلا عن مستوى العمل الاصلي.
ــ ليس محظورا ان تستعمل مواد مختلفة، لكنه يجب التقيد بابعاد القطع الاصلية.
ــ يمكن ان تستعمل ايضا عين المادة ولكن في هذه الصورة يمكن ان يختلف الشكل والابعاد بالنسبة الى العناصر الاصلية.
ــ ان صفوف الاحجار وكل المفاصل يمكن صفها على البناء الاصلي ولكن القطع الجديدة يمكن صنعها من مجموعة من الحجارة ذات احجام مختلفة.
ــ يمكن وضع علامات للتعريف بتاريخ اعادة البناء تنقش على كل الاحجار الجديدة.
ــ يمكن ان تختلف واجهة الاحجار الجديدة تماما عن واجهة الاحجار القديمة. و يكفي لذلك ان تعالج بآلة ذات حد، او ان تنقش في عمقها بمكشط حتى يكون لها بعض الشكل الهندسي ومن الافضل ان يكون من خطوط متوازية ومن قواطع.

الفصل العاشر

القسم الأول

اللغات والتاريخ الافريقي

باتية دياني

آدا كوي دمنكا! ووني (فلفلدية)
لمي أي دكّال دمب (وولوف)
انّ الكلمة هي التي تشكل الماضي.

ان الزنجي الافريقي يربط التاريخ باللسان، وتلك نظرة مشتركة بين البنتو واليوربا والماندانك. ولكن ليس هذا هو الطريف فالعربي واليوناني قبل توسيديد يتفقان على القول، مع الفلاني، «ان الخبر هو المحل الذي يوجد فيه الماضي» (هنكي كوى دارل اوراتي)

وما يميز الرابطة بين التاريخ واللسان، في التراث الزنجي الافريقي يرجع الى ما احتفظ به عموما هذا التراث، من تصور لهاتين الظاهرتين.

فهو يطابق بسهولة بين اللغة والتفكير، والتاريخ لديه ليس علما بل هو المعرفة وفن الحياة.

ان التاريخ يهدف الى معرفة الماضي، واللسانيات هي علم اللسان والكلام. والخبر والعمل التاريخي من محتويات التفكير ومن أشكاله. وأما اللغة فهي محل التفكير وهي الحاملة له.

وللِّسنيات وللتاريخ بالطبع مجال خاص بكل منهما، ولكل موضوعه الخاص وطرقه. ولايمنع ذلك من تداخلهما على الأقل باعتبارين اثنين:

أولا: ان اللغة كنظام وكآلة للابلاغ هي ظاهرة تاريخية، ولها تاريخها الذاتي. ثم هي كحامل للفكرة وبالتالي كحامل للماضي ولمعرفته، هي المحل والمصدر المفضل للوثيقة التاريخية، وبالمعنى الواسع الذي نعطيه هنا للسانيات فانها تشمل حقلا لبحوث تمد التاريخ على الأقل بانموذجين من المعطيات، خبر لساني محض من جهة، ووثيقة يمكن أن تسمى فوق اللسانية من جهة أخرى. وهي

تمكن بفضل معطيات التفكير وعناصر التصور المستعملة في اللغة وفي النصوص الشفاهية والكتابية، من مطالعة تاريخ البشر وحضاراتهم.

واذا وضعت المشكلة هكذا، يبدو لنا، بكيفية أحسن، ما بين المؤرخ والعالم باللسانيات العاملين في افريقيا من مجال مشترك.

العلوم اللسانية والتاريخ

من شأن جميع العلوم التي يكون اللسان والتفكير موضوعا لها ان تساهم في البحث التاريخي، على أن عددا منها أكثر ارتباطا مباشرة بالتاريخ. وهذا من التقاليد المستقرة، ولو أنها عند التأمل تبدو محل نقاش. فبموجب التعود ترجع دراسة القرابة بين اللغات دفعة واحدة الى نقطة التقاء بين اللسانيات والتاريخ، وذلك بكيفية أسهل من ارجاع تحليل تطور المادة المستمدة من النصوص المكتوبة أو الشفاهية، ومن مفردات لهجة من اللهجات. هذا على أن كلا البحثين يتعلق بالأحداث اللسانية أو الفكرية وبالتالي بالتاريخ.

وأوحى تدوين التاريخ الاوربي هنا بالفصل بين العلم التاريخي الحق وبين التاريخ الأدبي أو تاريخ الأفكار. ولا يبرر هذا التمييز الا في بعض السياقات.

ان البكنغو من حضارة البنتو، والايبو من البنين والسوسو ذوو الثقافة السودانية، لم يبقوا لنا الا القليل أو لا شيء، من النصوص التي تتوفر فيها الشروط النظامية لعلم تاريخي عصري. وبالعكس انهم انتجوا كمصادر للخبر أدبا شفاهيا غزيرا تميز أغراضه تميزا كبيرا أو صغيرا، وفتحوا كذلك آثارا قد نهم اليوم بادراجها مع القصص والروايات والأخبار واليوميات الخاصة بالملاحم التاريخية، والخرافات والأساطير والأعمال الفلسفية أو التابعة لنشأة الكون، والتأملات التقنية والدينية أو المقدسة، فيخلطون فيها بين الواقع الذي عاشوه وبين الخيال، بين الحدث الذي يمكن تعيين تاريخه وبين الأسطورة الخيالية المحضة. وتمر اعادة البناء لتاريخ البكنغو والايبو أو السوسو بالتحليل النقدي لهذه الآداب وهذا المأثور المنقول. ولا يمكن أن نغفل عن خطبهم وتقنياتهم ومعارفهم، وعن حل ألغاز لغاتهم وعن تصوراتهم وما استعملوا من تعبير مما هو باق يكشف عن تاريخ كل منهم.

والعلوم والطرق التي نرجع اليها هنا على أنه من شأنها أن تنير الطريق للمؤرخ الإفريقي، ليست إذن نتيجة استقراء مستوف. وهذا ليس عيبا في مستوى الوضوع. واذا ما حدد الاخصائي في اللغة لنفسه حدودا معقولة، فهو يوفر لنفسه وسائل أحسن للتعمق في قطاعات مدققة. ويبقى هكذا لغيره من الباحثين، كمؤرخي الافكار واخصائيي العلوم والاقتصاد أو الآداب، مهمة الالمام بهذه القطاعات مع اعتبار ما لبحوثهم من بعد لساني.

العلم التصنيفي وتاريخ الشعوب الافريقية

ان تصنيف اللغات فيه ما يكشف عن القرابة بين الشعوب التي تتكلم بها وعن تاريخها، وهناك عدة نماذج من التصانيف:

التصنيف التوليدي

وهو يثبت القرابة رابطة التسلسل داخل أسرة لسانية من الاسرات، وهو يساعد ولوجزئيا، على اعادة الوحدة التاريخية للشعوب والثقافات التي تستعمل لغات من أصل واحد.

التصنيف النموذجي

وهو يجمع بين لغات بينها تشابهات او توافقات واضحة في مستوى البنيات والنظم.

فلغات من أصل واحد أو من أصول مختلفة تماما، قد تستعمل عين الأنماط من التكوين المعجمي، الاسمي والفعلي والضمير، مع كونها من ناحية التوليد والتاريخ أو الجغرافيا بعيدة جدا الواحدة عن الأخرى.

فيوجد مثلا في الوولوف والانكليزية ميل الى استعمال عين الصيغة الاسمية والفعلية.

جاي = عمل	جاي بي = العمل
To work = عمل	The work = العمل

ومع ذلك فان هاتين اللغتين من ناحية التوليد، ومن ناحية الجغرافيا بعيدتان جدا رغم ما ذكر من التوافقات النموذجية. و يتفق أحيانا أن تكون اللغات من أسرة واحدة ومن نماذج متباينة. وتقام القرابة بينها على أساس الألفاظ المعجمية المشتركة، ولو أن هذه اللغات قد تطورت حسب اسس بنيوية متفرقة، وقد يظهر أحيانا حدث الألفاظ المستعارة (من الخارج) أو التخليات عن الألفاظ المستعملة حتى في المستوى المعجمي. وما أعد من تصنيفات تابعة للغات الافريقية لم يجمع مثلا بعض العناصر من الاسرة المعروفة بالتشادية أو الاسرة المسماة السنغالية الغينية.

على أن النظم الصوتية والظواهرية والبنية النحوية تفرض على النظر أن يتم التجميع النموذجي لأكبر عدد منها على الأقل.

التصنيف الجغرافي

يعبر هذا التصنيف عن ميل طبيعي الى المقارنة بين لغات توجد مع بعضها، وضمها الواحدة الى الأخرى، و يتم هذا غالبا نتيجة لخبر غير كاف.

وما اقترح من تصانيف كي تطبق في افريقيا هي في غالب الأحيان من النوع الجغرافي في القطاعات الأساسية. فهي تغفل من جراء ذلك ظاهرة الهجرة وتشابك الشعوب، ويحيل كموال وم. دولافوص ود. وسترمان وج. غرينبرغ أساسا الى مسميات وتجمعات اتوبولوجية وجغرافية. فرتبوا اللغات الى «الغربية الأطلسية» و«النيجرية، الكنغولية»، و«السنغالية الغينية» «والنيجرية التشادية» الخ.

و يتضمن التصنيف الدقيق للغات الافريقية استعمال طرق تبين أن ما عرض من الأشكال والمفردات والبنيات اللسانية كعناصر للمقارنة ليست تمثيلية فقط بل هي كذلك خاصة بالتراث الاصلي للغات المقارن بينها. ولايكون الشبه اذن نتيجة للاستعارة أو للاتصالات القديمة أو الحديثة.

فمن المعلوم أن العربية واللغات السامية، كما أن الفرنسية والبرتغالية والافريقندرية أو الانكليزية، قد أودعت بفعل التاريخ منذ عدة قرون أو حتى بضع الآلاف من السنين عددا كبيرا من المفردات في كثرة من اللغات الافريقية، فبعض اللهجات الكسواحلية، وهي من لغة البنتو، تشتمل على أكثر من ٦٠٪ من المفردات العربية. وما هي الا خطوة كي يتم الاستنتاج، بموجب العاطفة الدينية أو بنتيجة لعدم التحلي بالتحفظ العلمي، بأن الكسواحلية تنتمي الى المجموعة السامية العربية، وقد اجتاز بعضهم أحيانا هذه الخطوة.

وقد تكون الصيغ المشتركة في البداية بين عدة لغات قد تعرضت على مر الزمن الى تغيرات صوتية أو صرفية أو بنيوية. وهذا التطور خاضع لبعض القوانين، وهي ظاهرة معروفة يمكن تحليلها. فقد تتغير معاني الصيغ أو مدلولات المفردات المتخذة للمقارنة في حدود حقل دلالي يحاط به بسهولة أو بصعوبة. مثاله: ان الوولوف في شكله العصري يعرف حذف المصوتة الختامية اذ كانت بعد حرف مضعف مثل «بوب» أو «فطّ» عوض «بوبّا» و «فطّا» كما ينطق بها حتى الآن أهل كامبيا والليبو. وصيغة (ندس) في المصرية القديمة صارت في الفلفدية العصرية (ندو) و بالوولوف، (نيت) و يقول البونتو «موتومنتو» والهوسا «موتو» والمندنغ «ميكسي» أو «موكسو» وعند الفون «كبيتو» والمينا «أكبتيو» الخ واللفظ المصري «كيميت» كان يعني محروق، أسود، و يؤدي اليوم معنى الرماد والحروق الخ.

اعادة البناء التاريخي للغة من اللغات

وهي تقنية لاعادة الإكتشاف المعجمي والتراث البنيوي المشترك، آخذة بعين الاعتبار أحداث التغيير هذه.

وهذه العملية تمكن من اعادة تاريخ لغة أو أسرة لسانية، وتساعد على اثبات اللغة الأم الأولى، وعلى تعيين الفترات الفاصلة بين مختلف الفروع، وبهذا المعنى هي مساعد ممتاز للعلم التصنيفي بالذات. وتوجد عدة معايير وعدة تقنيات لاعادة بناء لغة من اللغات واستنباط معطياتها الاصلية من جديد

وتلعب الأواصر الصوتية دورا أساسيا في اعادة بناء اللغة الأم، أو لاثبات قرابة من القرابات، فاذا ما علم مثلا أن الياء قد تصير في رواية ثانية ف أو أن أو قد يصير أ وهكذا اذا اعتبرنا أن فا تساوي با وأن لو تساوي ل أمكننا أن نعيد الصوتية والصيغ الاصلية.

اعادة البناء الصوتي

هي خطوة في اعادة بناء الرصيد المعجمي والمفردات الاصيلة. وليست النبرات هي وحدها التي تتغير، فالصرف والبنيات تتطور أيضا، فوظيفة الفاعل في اللاتينية يدل عليه باعراب خاص يسمى رفعا، وفي اللغات ذات الاصل اللاتيني أو المتأثرة باللاتينية الفاعلية تعرف بمحل الفاعل في الجملة

هومو فيديت = فيديت هومو = رأى الرجل

وعند وضع أصول اللغات مثل البانتو والتشادي ونحوهما تقع الاحالة دائما الى المفردات والرصيد المعجمي المشترك، وهكذا يمكن أن تقام «نسب مئوية» للكلمات المشتركة بانشاء

لوحات من «العد المعجمي». و يلجأ تصنيف ج. غرينبرغ (١) الى هذه التقنية في غالب الأحيان. كما يستعمل هذه الطريقة د. سابير في دراسته لمجموع غربي المحيط الاطلسي (٢) و يقرر هكذا أن السيرير والبوكار المحشودين في جمع واحد يشتركون في ٣٧٪ من الكلمات. والباكاكوبا والتمني في ٧٩٪ والتمني والسيرير في ٥٪ فحسب، والتشري والسافين في ٥٪.

والحالة أن هذه اللهجات تجتمع كلها في أسرة واحدة ولكن لا يكفي الاشتراك في المفردات المعجمية، التي قد تكون بكثرة من الدخيل، لنفي العلاقة التاريخية أو لإثباتها. فيلجأ الى الشبه في السمات النموذجية أو الى تطابق البنيات (المقارنة بين نظام الضمائر والنظام الفعلي أو الاسمي الخ).

ويمكن العنصر النموذجي مضافا الى معطيات التحليل المعجمي أو المعطيات الصوتية، من الحصول على نتائج قطعية بقدرما يعتبر التاريخ والتأثيرات. وترمي اعادة البناء أيضا اى تعيين التاريخ الذي فيه توزع هذا الميراث المشترك ضمن اللغة الاصلية، ثم استخدم من قبل لغات متقاربة آخذة في طريق التمين. وإعادة البناء تهتم كذلك بتسخيرطبيعة اللغة القديمة التي منها نشأت مختلف اللغات التي يمكن ربطها بأصل لغوي واحد.

اعادة البناء وتعيين التاريخ

يمكننا من ضبط عمر المواد المعجمية والبنيوية المجموعة أثناء دراسة اللغات،حتى يتيسر بالمقارنة تدقيق المستوى الذي تقع فيه القرابة اللسانية تدقيقا كبيرا أو صغيرا. وعليه فهما يمداننا باشارات مدققة عن تاريخ تفرقة الشعوب الذين انتموا الى عالم ثقافي ولساني واحد. وهما يلقيان ضوءاً مدهشا على تاريخ العروق وتواريخ الحضارات المتعددة القوميات والمتعددة العروق.

وفي اطار البحث المتعلق بفترة حديثة، وفيما يخص اللغات المكتوبة، فان الجهود أيسر نسبيا. وقلة الوثائق عما وراء الالف الرابعة قبل الميلاد تجعل العمل أصعب بصفة عامة. على أن المقصود في هذه المرحلة أن يوضح تاريخ فترات حاسمة من التحول اللساني. وعمليات تحول المعجم أو البنيات التي نعتبرها في هذا المستوى هي كما سنرى، بطيئة جدا ولكن يصعب وضع الاصبع عليها، ولمعالجة هذا النقص في الخبر يلجأ الى أساليب لها نجاعة تكثر أو تقل.

التأريخ المبني على تطور المفردات والصيغ

وهو من احدث التقنيات في هذا الموضوع، ولقد جرى العمل به في الحقل الافريقي. و يرتكز مبدأ هذه الطريقة على تأريخ التطور المعجمي في لغة ما، بالرجوع الى حركة تغيير معجمها، المعجم الثقافي (المفاهيم الفلسفية والتقنية الخ) والمعجم الأساسي (أسماء أعضاء الجسم، العد من واحد الى خمسة، مفردات تدل على أحداث طبيعية الخ) وتهدف هذه التقنية الى الأخبار عن عمر المفردات والاشكال المعجمية ومراحلها وحالة تطورها.

(١) ج. غرينبرغ، ١٩٦٣.
(٢) د. سابير، ١٩٧٣.

وتطور المعجم الأساسي نسبيا بطيئ في المجتمعات القديمة، فيا عدا حالات التحول العنيفة التابعة لأحداث حاسمة.

في افريقيا السوداء على الخصوص مكنت أعمال دولافوص من تصور حركة هذا التطور بالرجوع الى احصاء الكلمات التي أثبتتها الكتابة منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وهذا هو معجم اللغات السودانية الذي جمعته النصوص العربية. وقد بقيت هذه الألفاظ تقريبا بدون تغير بعد ما يقرب من ألف سنة من التاريخ. على أن أنصار هذه الطريقة يتجاوزون هذا الحد قائلين: ان تطور المعجم الأساسي ليس بطيئا فقط، بل انه قار في كل اللغات. وهذا رأى م. سوادش الذي حاول أن يطبق هذه النظرية على اللغات الافريقية. وتبدو المحاولات المجربة في بعض الحالات الدقيقة قطعية حاسمة. و يقدر التاريخ المبني على تطور المفردات أن حركة تحول بين ٨١ ± ٢ و ٨٥±٠٫٤٪ لمدة قدرها ١٠٠٠ سنة. وأمدتنا هذه الطريقة، على هذا الأساس، بنتائج ملخصة في المعادلة الشهيرة:

$$د = \frac{لوغ\ م}{٢ر١\ لوغ\ ح}$$

حيث د يمثل المدة، و م النسبة المئوية للألفاظ المشتركة بين اللغات المقارنة و ح نسبة الاحتفاظ.

فهل في الامكان ما أحرزناه من نتائج، أن نعتبر هذه التقنية قياسا زمنيا لائقا، أي ضربا من «الساعات» التاريخية؟ لقد كانت النتائج أقل من المأمول، وذلك لسبب بسيط: في سياق من التداخل اللساني ومن تراكم المعاجم، مما لا نعلم الا القليل عن غايته، ،حيث تعوزنا الوثائق المدققة المكتوبة أو غيرها،ليس من اليسير في الحالة الراهنة للبحوث أن تصنف الأحداث،وان ميز مثلا بين التغير العادي والتحول الناتج عن الدخيل، هذا حتى في المعجم الاساسي.

على امكانية علم تصنيفي يستخدم كل هذه التقنيات، وقد يمدنا بمفتاح العلاقة العرقية واللسانية.

تصنيفات لسانية وقرابات عرقية ثقافية

بالرغم عن الأعمال الجليلة التي أجريت، فان مشكل القرابة اللسانية والعرقية مازال بعيدا عن الحل في افريقيا، وفي الكثير من القطاعات تتغلب الحدس بهذه الرابطة، على الحجة العلمية الثابتة.

ان فكرة المجموعة البنتو والاعتقاد بأنها تجمع معظم السكان في افريقيا الوسطى والجنوبية، قد نشأ في القرن التاسع عشر مع اعمال و. بليك. فكان هذا يثبت في مؤلف شهير نشره سنة ١٨٦٢، القرابة بين اللغات ومختلف صورها اللهجية في منطقة فسيحة جدا تسكنها عروق عدة تستخدم لغات تقتضي الفهم فيا بينها فهما قليلا أو كثيرا، فقرابة اللغة والثقافة قد تكون واضحة من أول وهلة بالنسبة الى عروق تعيش جنبا لجنب وهذه حال الشعوب المعروفة بالبنتو.

وتقوم أحيانا مشاكل من جراء المسافة في المكان أو في الزمان والفلانيون يقدمون مثلا يوضح

هذا. فهم يشكلون، من حوض السنغال الى حوض النيل، مجموعات كثيرا ما تكون منعزلة في قلب عروق متجاورة أحيانا ولكنها مختلفة عن بعضها كثيرا.

و يتكلم دوالا الكامرون لغة البانتو، ويمكن عمليا أن يعتبر الدوالا كنسخة مغايرة من البانتو وهي لهجة مثل اللنكالا، وكما هو الشان بالنسبة للغتين مباندا كا وكينشاسا. وهذا رغم الابتعاد والانعزال النسبي للمجموعتين اللتين تتكلمان هاتين اللغتين.

وتقدم اللغة المصرية الفرعونية التي كان يتلكم بها قبل خمسة آلاف سنة، تشابها واضحا مع الهوسا والولوف والسنغاي (٣).

وهنا أوضاع التراكب. فمازالت كبار اللغات الموحدة تستعمل لأسباب مختلفة (سياسية واقتصادية وثقافية الخ) كحوامل لإدماج العروق المتباينة. وتلغي من جراء الضغط الاجتماعي والوزن التاريخي لهجات وثقافات لم يبق منها غالبا الا بعض البقايا.

فملايين من الأشخاص من أصول مختلفة أو قل عشرات الملايين تتكلم اللينكالا والهوسا والكيسواحلي واليوروبا والتوى والايبو والبمبراجولا والفلفلدى والعربية والولوف. وكحوامل للابلاغ تجاوزت هذه اللغات اطارها العرقي والجغرافي الاصلي، فصارت لغات حضارة مشتركة بين شعوب كانت في البداية متباينة جدا.

ففي السنغال تكون الفلانية والسيرير معظم الاغلبية من الأشخاص الذين عمتهم الولوفية، وفي الأصل لغة الولوف هي لغة عرق ليبو الذي يوجد منه بقايا على الحدود السنغالية المورِيتانية. والآن ليس الليبو الا أقلية ضعيفة محصورة في شبه جزيرة الرأس الأخضر. ومع هذا فان ثقافة الولوف ولغتهم تطمس تحت أعيننا، بفضل تكاثر المدن بالسنغال، لغات ولهجات عديدة: سيرير وليبو وفلفلدي وديولا ونوون الخ. وهذه اللهجات لشعوب مختلفة، ومع ذلك لعبت في فترة تزيد عن عدة قرون، دورا مهما في تاريخ المنطقة.

وهذا التطور عام في الكيسواحلي يتكلمه عدة عشرات من الملايين من ذوي اللسان البنتو، وقد نشأ عن لهجة من الزنجبارية كانت مستعملة في البداية في بعض القرى. ثم انتشر بسهولة بمناطق تستعمل لغة متجانسة نسبيا، من أصل البانتو اليوم، مع اللنكالا، أهم أداة تخاطب في افريقيا الوسطى والجنوبية. ففي البلدان الآتية: الزايير والجمهورية الشعبية الكنغولية والامبراطورية الافريقية الوسطى * و (أوغندا وطانزانيا والكينيا وزامبيا والملاوي وافريقيا الجنوبية، والسودان، وأثيوبيا الخ). خمسون أو ستون مليونا من البشر يتكلمون لغة من هاتين اللغتين أو لهجة قريبة منهما.

وكثيرا ما كان التفكير الافريقي التقليدي واعيا، لا بهذا التراكب فحسب، بل أيضا بما قد يكون للظاهرة اللسانية من دور في توضيح التاريخ.

ونجد في التقاليد عددا من النوادر تتحدث عن القرابة بين اللغات أو عن أصل تفرقها الاسطوري

(٣) عن هذه المسألة من المفيد الرجوع الى أعمال الانسة همبركر، والى فصول الاستاذ غرينبرغ واوبنكا والى تلخيص ملتقى القاهرة. (الجزء الثاني)

* سابقا: اما الآن فهي جمهورية أفريقيا الوسطى (تعليق مراجع الترجمة العربية. محمد الفاسى)

من قريب أو من بعيد، وهي في الغالب ملاحظات صحيحة، وهذا الشأن بالنسبة لما قام به الفلانيون والسيرير من مقارنات مؤكدين بصفة تكاد تكون تنبعث من إحساس باطني، ما بينهم من قرابة عرقية ولسانية، والمندانك البنتو والاكان والفلانيين وهم يتقدمون كأشخاص لهم عين اللغة يشعرون أحيانا، بصفتهم جماعة أو بطنا، انهم يكونون أسرة عظيمة مشتركة.

وفي أكثر الأحيان، فان القرابة الثابتة لم تنشأ الا بموجب الحاجة الى الاندماج أو الى التعايش مع تاريخ مجموعة «من المفروض» أنها ستظهر بكيفية أو أخرى في عالم عرقية معينة. وكي تكون الاسطورة التقليدية منسقة، يصبح من اللازم أن توجد روابط حقيقية أواسطورية بين المجموعات التي تعمر اليوم موطنا مشتركا.

على أن المعرفة التقليدية للمجتمعات الافريقية في مادة اللسانيات لا تمدنا باشارات مدققة من شأنها أن توحي بوجود علم قديم أو تأمل نظامي حول هذه القرابات. وخلافا لما يلاحظ في مواطن أخرى، كما في علم الاشتقاق مثلا، وتحليل اللغة نفسه، أو كذلك كما هو الشأن في الظواهر المعجمية. فان المتضلع في الكلمة والفصاحة من البيل الفلانيين أو البانتو أو الولوف كثيرا ما يعني عن قصد بأصل الكلمات. وكثيرا ما يكون عالما به. فيلذ المؤرخ الكيور مثلا أن يسجل الكلمات المستعارة أو أن يحلل لفظا للكشف عن أصله. فيقول التقليدي بالكيور أن **برجل** مشتق من بار وجلّ. وهو يشرح في آن واحد ما طرأ على مركبات اللفظ من تقلص في الشكل والسياق ومعاني هذا اللفظ. و يوجد في مقال أ. طل (٤) بعض الأمثلة من عمل علماء الاشتقاق التقليديين بالموسي ولدي الكرمنتشي.

وقد ظهر العلم التصنيفي في مادة اللسانيات بصورة خاصة مع دراسات س. كول و و. بليك والبحث العلمي الأوربي وهو الذي استنبط هذا العلم في القرن التاسع عشر مع اعمال علماء مقارنة الهندية الاوربية، وأصبح الباحثون في مادة اللسانيات الافريقية من تلامذته.

وكان و. هـ. بليك (٥) من أوائل المجتهدين في اثبات ما بين لغات البانتو من قرابة. وله فضل السبق في هذا المجال على مؤلفين من أمثال ماينهوف أو هـ. جونستون. على أن مساهمة دولافوص (٦) فيما يخص لغات افريقيا الغربية مساهمة مشهورة. وكذلك الشأن بالنسبة لمساهمة س. ل لبسيوس (٧) و ا .ن. تكر (٨) وج. و. مري (٩) فيما يخص اللغة النيلية وباسي فيما يخص البربرية. وكانت دراسة اللغات المصرية القديمة الاساسية للبحث في اللغة الزنجية الافريقية، وكذلك دراسة اللغات السامية والهندية الاوربية في أفريقيا الشمالية، بل حتى اللغات البونيقية واليونانية اللاتينية. قد أتت كلها بنتائج وافرة.

---

(٤) انظر «التراث الشفاهي» المركز الجهوي لتوثيق التقاليد الشفاهية، نيامي، ١٩٧٢.

(٥) و. هـ. ج. بليك، ١٩٦٢ — ١٩٦٩.

(٦) م. دولافوص: عن أ. ميلي وكوهان — ل. همبركر، اللغات الزنجية الافريقية الخ. ولنذكر أيضا من بين من اقترحوا تصنيفات: ا. و بين ١٩٢٥.

(٧) ش. ل. لبسيوس، ١٨٨٨.

(٨) أ. ن. تكر، ١٩٤٠.

(٩) ج. و. مري، مجلد ٤٤.

وكما يشير الى ذلك ج. هـ. غرينبرغ (١٠) مؤلف كتاب تصنيف اللغات الافريقية، وهو أحدث التصنيفات وأكثرها عرضة للنقاش الآن، ان الاعمال العصرية التي تهم مجموع القارة والتي لفتت الانتباه أكثر من غيرها، هي أعمال دركسل (١١) وماينهوف (١٢). ولم تكن هذه الأعمال هي الاولى ولا الوحيدة. ومنذ عام ١٩٥٦ *عرض كوال (١٣) وكذلك ميجود (١٤) سنة ١٩١٤ ** طرقا وأنماطا للتصنيفات. ويمدنا بومان ووسترمان (١٥) سنة ١٩٤٠ بنظام طريف في عين الموضوع.

على أن هذه الأعمال بقيت محل نقاش ونوقشت فعلا من عدة وجوه، اولا لأن اللسانيات الافريقية لم تنج من المذهبية العرقية المركزية، وفي هذا المستوى فان الانتقادات الحديثة ج. هـ. غرينبرغ نفسه، تتفق تماما مع النقد الذي صرح به منذ عشرين سنة الشيخ أنتاديوب في «القوميات الزنجية والثقافات» والذي ردده ت. أوبنكا مجددا المعطيات في كلمته في مهرجان لاجوس ١٩٧٧.

والوجه الثاني علمي محض، يتفق عليه علماء اللسانيات في شبه اجماع، يتلخص في أن مساعي التصنيف سابقة لأوانها، وأن التحفظات والاحترازات المنهجية اللازمة لم يتم اتخاذها، ولم تجمع بعد المادة المحللة حتى تحليلها والمهيأة للمقارنة التوليدية أو حتى النموذجية.

عدم كفاية الأعمال

ان تعدد اللغات الافريقية وحده تعترضه عقبات، ولم ينته احصاؤها الى نتائج مدققة جدا، على أن عدد اللهجات المصنفة كلغات في القارة يقدر تقريبا بين ١٣٠٠ و ١٥٠٠.

وتتلخص أحيانا الدراسات الخاصة بهذه اللهجات في جمع نحو العشرين كلمة مكتوبة بقليل أو كثير من التحريف وانعدام تحليل معمق للبنية والمعجم وإمكانية التفاهم بين مختلف هذه اللهجات، أمر عادي بالنسبة الى الاغلبية الساحقة من اللهجات الافريقية. وبذلك سرعان ما تسقط التصانيف التي تجري محاولات القيام بها دوريا. وكم من لهجة صنفت تحت عنوان «لغة» ولم تكن الا نسخة مختلفة من عين اللهجة.

وبناء على بعض شهادات مبهمة تستند اليها استنتاجات مصنفين أو مخبرين قليلي التجربة والعلم، صنفت بسرعة روايات مختلفة ليس فحسب، كلغات متباينة ولكن كعناصر لاسر مختلفة. كما لو زعم أن البامبرا لغة تخالف المنديكو في كازامنس، أو أن اليوروبا في البنين يخالف اليوروبا

---

(١٠) ج. هـ. غرينبرغ، انظر ١٩٥٧ خصوصا التحليل النقدي المنشور في «النيلية الحامية والسامية الحامية في افريقيا، ١٩٥٨. وكذلك، لغات افريقيا، لاهاي ١٩٦٣.

(١١) انظر ج. هـ: غرينبرغ.

(١٢) س. ماينهوف، ١٩٠٤، ١٩٠٦، ١٩١٢، ١٩٣٢.

(١٣) س. و. كوال، ١٨٥٤.

(١٤) ف. و. ميجود، ١٩١١.

(١٥) هـ. بومان، ود. وسترمان ١٩٦٢.

* في النسخة المطبوعة ١٨٥٤ (تعليق مراجع الترجمة العربية محمد الفاسي).

** في النسخة المطبوعة ١٩١١ (تعليق مراجع الترجمة العربية محمد الفاسى).

في الإيف. والامر مع ذلك يتعلق في الحالين بروايات مختلفة لأصل واحد. وفي مثل هذا، اشتهر ماينهوف بصدد لغات الكردفان بأخطائه الجسيمة.

نعم انه قد تم أخيرا بعض التقدم، ولكنه لم يتوفر بعد سياق ملائم لعمل تأليفي دقيق. وكذلك ليس في الامكان أن تصنف لغات مازالت هويتها غير معروفة بدقة ولم تحلل تحليلا مضبوطا، وتوضح الأمثلة المحسوسة التالية مدى الجدالات ومجموعة الشكوك.

يتعلق المثالان الاولان باللهجات الكائنة على الحدود الجغرافية الحالية للاسرة الهندية الاوربية السامية من جهة وللاسرة الزنجية الافريقية من جهة أخرى، و يتعلق المثال الثالث بمجموعة «الاطلسي الغربي» أو كذلك «السنغالي الغيني».

فمن أعمال ماينهوف ١٩١٢ (١٦) وم. دولافوص ١٩٢٤ (١٧) وش. ميك ١٩٣١ (١٨) وج. لوكا ١٩٣٦ (١٩) وم. كوهان ١٩٤٧ (٢٠) الى أعمال غر ينبرغ المؤرخة بسنة ١٩٤٨ أو أ. تكر وأ. بر يان سنة ١٩٦٦ (٢١) والى دراسات النقدية الحديثة التي قدمها ث. او بنغا (٢٢)، لا يوجد اتفاق تام لا في المعطيات ولا في المنهاج ولا في مركبات المجموعات او الانتماء وطبيعة العلاقات بين اللهجات؛ فالجغرافيا على الخصوص والاتصال يجمعان حقا بكيفية لاشك فيها بين اللغات الممتدة من النيل الى حوض التشاد. وان التعايش طيلة آلاف السنين بين الزنجية الافريقية والسامية ترك فيها رصيدا مشتركا كبيرا من الدخيل من كليهما. وتمنع هذه التبادلات من امكانية التمييز بين المعطيات الاصلية والمكتسبة من الخارج. ومشكل من المشاكل يتمثل في معرفة الى أي حد تكون المفردات الخاصة بالمصرية القديمة وبالهوسا والقبطية والبغيرمية والسّرا واللغات التشادية والتي توجد في البربرية أو في اللغات السامية كالعربية والامهرية شاهدا على قرابة أو على تأثيرات بسيطة.

ان معطيات المصرية القديمة ترجع الى ٤٠٠٠ سنة، ومعطيات السامية الى ٢٥٠٠ سنة. وأما التشادية والبربرية والكوشيتية التي درست في نفس الاطار لا تمدنا بارشادات دسمة الا انطلاقا من القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد.

ونشر م. كوهان سنة ١٩٤٧ كتابه «محاولة مقارنية حول المعجم الشاميتي السامي وصوتياته» و يقرب فيه بين المصرية والبربرية والسامية والكوشيتية والهوسا التي يذكرها من حين لآخر.

وانتقد ليسلو (٢٣) وهنتز (٢٤) استنتاجات كوهان حتى في مستوى المنهاجية. و بناء على أن مبدأ الحقل «الحامي السامي» نفسه محل جدال أوحى غر ينبرغ بعنصر خامس متميز هو،

(١٦) س. ماينهوف، ١٩١٢.
(١٧) م. دولافوص، ١٩٢٤.
(١٨) ش. ميك، ١٩٣١.
(١٩) ج. لوكا، ١٩٣٢.
(٢٠) م. كوهان ١٩٤٧، ج. غر ينبرغ «الحامية السامية» س. ج. أ، ٦ - ٤٧ - ٣٦ - ١٩٤٨.
(٢١) أ. تكر، وأ. بر يان، ١٩٦٦.
(٢٢) ث. او بنغا، ١٩٧٧.
(٢٣) و. ليسلو، ١٩٤٩.
(٢٤) ف. هنتز، ١٩٥١.

التشادي. وسمي المجموع باسم «الحامي» أو «الافريقي الآسيوي». وأثارت هذه الاستنتاجات الجدال منذ نشرها. فعارض بولوتسكي (٢٥) امكانية وجود الفروع الخمسة في الحالة الراهنة. بدون أن يقنع الى اقتراح يستند بالخصوص على الناحية الجغرافية ورد في «لغات العالم» و يكفي أن نتصفح تصانيف ج. غريبرغ وتكرو بريان المتباينة والمنقحة دائما من قبل أصحابها أنفسهم لكي نقف على مدى الصفة الموفقة لهذه الاستنتاجات.

وثمة أشغال حديثة للواقع التشادي تضع تجسيا حدوده أبعد بكثير من ضفاف البحيرة. وعمق نيومن وما (٢٦) سنة ١٩٦٦ وإلى سفيتيا (٢٧) سنة ١٩٦٧ معرفة التشادية القديمة. ودققت أعمال ي. ب. كابريل (٢٨) محى انتشار هذه اللغة في التشاد نفسه. ويمكن بالاستناد الى ملاحظات نظامية، أن يوحي برابطة توليدية بين مجموعة لغة سرا ومجموعة لغة التشادي، وعدد من اللغات المصنفة ضمن «الاطلسي الغربي» (سيريرو بولار، وولوف، وسافين) (٢٩) الخ. وهذه المساهمات وحدها تعيد النظر في مجموع الجهد الذي بذل قصد الترتيب، كما يلاحظ ذلك س. ت. هودج في مقال نفيس (٣٠).

وإن المشكل الأعظم المتعلق بطبيعة الروابط بين لغات الحد الزنجي الافريقي والهندي الأوربي لم يحل بعد وأهمية الأعمال التي تدمج العالم الثقافي الافريقي في السامي مازالت محل اشكال.

وذلك ان مشكل الهوية نفسه، ومشكل مركبات الزنجي الافريقي مازالا قائمين، وأكد ذلك الملتقى الذي نظمته اليونسكو في القاهرة سنة ١٩٧٤ حول «عمران مصر القديم». فذكر س. سونرون، بالمناسبة ولتوضيح هذه الشكوك، أن «المصرية مثلا لا يمكن أن تعزل عن سياقها الافريقي وان السامية لا تعرف بولادتها».

والكوشيتية تصور مثالا آخر يوضح الشك القائم الآن حول البحث والتصنيفات. فيعرض اليوم ج. هـ. غرينبرغ وتكرو بريان والسوفياتي دلكوبلسكي ثلاثة تصنيفات مختلفة، ان لم تكن متباينة لهذا المركب من اللغات المسماة بالكوشيتية (صومالية، كلا، سيدامو، مبوكو الخ) و يتركب تصنيف دلكوبلسكي حول اعادة بناء صوتي انطلاقا من أمثلة محدودة، فيقارن على الخصوص بين الشفويات (ب. ب. ف) والاسنانيات (ت، د) في اللغات التي يحللها و يصنفها الى نحو العشر من تحت المجموعات، بينما يتعرف زملاؤه على ٣ أو ٥.

ويهمل ج. غرينبرغ المعطيات الصوتية والشكلية الصرفية والنحوية و يعتني خاصة بالمقارنة المعجمية، ولكن الدخيل له دور كبير في هذا المستوى. و يعيب تكرو بريان على ج. غرينبرغ منهجه، و يضعان تصنيفا يعتمد على مقارنة نظام الضمائر والبنية الفعلية. وهما نفسهما يعتقدان ان

(٢٥) هـ. بولوتسكي، ١٩٦٤.

(٢٦) ب. نيومن «التشادي المقارن» مجلة لسانيات افريقيا الغربية ٥، ٢، ١٨، ٢٥.

(٢٧) اللي سفيتيا: «تاريخ الصوامت التشادية» انظر س. هودج، المصدر المذكور.

(٢٨) ي. ب. كابريل، ١٩٧٢.

(٢٩) انظر ب. دياني، ١٩٧٦.

(٣٠) س. ت. هودج، ١٩٦٨.

بعض اللهجات «مبهمة» ويجمعان بينها هنا، مع تأكيدهما على ما يكتسبه مجهودهما من صبغة المحاولة البسيطة. كما أننا نلاحظ ان قيمة الاستنتاجات المقدمة ما هي الا في طابعها المؤقت.

ونجد عين المشاكل فيما يخص اللغات التي حددت جغرافيا بغربي المحيط الاطلسي. فهي تمتد على الساحل من جنوبي مور يتانيا إلى السيراليوني. و يصنفها كوال سنة ١٨٥٤ في كتابه «تعدد اللغات الافريقية» تحت عنوان «الغربي الاطلسي» و يعرّفها على أساس ما فيها من تغيرات السوابق أو الإمالة الصوتية في الحرف الأول أو الأخير. وهذا وصف نموذجي للبانتو. ولا يكفي لتحديد مجموعة من المجموعات. على أن كوال سيعتبر جملة هذه اللغات على أنها «غير مصنفة».

و يصرح م. دولافوص سنة ١٩٢٤ (٣١) ود. وسترمان سنة ١٩٢٨ ان هذه مجموعة توليدية.

وسنة ١٩٦٣ اغرق ج. غر ينبرغ (٣٢) في هذا الاتجاه، فهو يعتبر هذه اللغات كمجموعة متطرفة غربي الاسرة النيجر ية الكنغولية.

وفي سنة ١٩٦٣ نفسها رغم ما سجله ولسن (٣٣) و د. دلبي (٣٤) من عناصر نموذجية للتشابه داخل هذه المجموعة، فهما ينكران كل امكانية لأن يجعل منها جمعا لسانيا متقاربا متجانسا، ففي تفاصيل الصرف والنحو والمعجم، كما يقول ولسن، ان «الاطلسي الغربي» أو المجموعة «السنغالية الغينية» بعيد كل البعد عن الوحدة، وفعلا ان الأعمال الحديثة التي نشرها د. ساير (٣٥) سنة ١٩٧٤ تدل على أنه لا يوجد أكثر من ٥ الى ١٠٪ من المعجم المشترك بين الأغلبية الساحقة من هذه اللغات التي يبدو أن الجغرافيا هي الوحيدة التي توحد بينها. فعملية الهجرة قد مزجت هنا كما في المنطقة النيلية التشادية شعوبا من أصول مختلفة، وربما أن في التقريب بينها عند انعدام الارشادات المدققة التي تنير التاريخ والمؤرخ تسرعا في الحكم.

وعلى هذا المستوى بالذات تكون الحدود الحالية للسانيات كآلة للبحث التاريخي متسعة فسيحة. و يتعرض الباحث هنا، العقبة المزدوجة التي ذكرناها آنفا، فلم يصل البحث الى نتيجة، لأنه لايزال جزئيا و بصدد التكون، ثم أن نتائجه مؤقتة فهي غالبا غير قابلة للاستغلال اذ تفسدها نظرات ومذهبيات محرفة.

الايديولوجيا المحرفة

ان التاريخ هو موطن الايديولوجيا بالذات. والأعمال الاولى عن ماضي افريقيا واللغات الافريقية وافقت فترة الزحف الاستعماري الاوربي. فتأثرت تأثرا قويا بالنظرات التفوقية السائدة اذاك.

والتفكير العرقي الخاص يعبر عن اهتمام قطري بالحكم على قيم الحضارات بمقارنتها مع ذاته،

(٣١) م. دولافوص «الجمع السنغالي الغيني» ضمن «لغات العالم» نشر ميلي وكوهان. باريس.

(٣٢) ج. غر ينبرغ، ١٩٦٣.

(٣٣) و. ولسن، ١٩٦٦.

(٣٤) د. دلبي، ١٩٦٥.

(٣٥) د. ساير، ١٩٧٤.

وذاك ما يؤدي الى الاستحواذ على آيات الحضارة العليا، كي يبرر الانسان نفسه كفكرة وقوة مسيطرتين على العالم.

ونظريات التفوق الهندي ـ الاوربي والآرى أو الابيض باعتبار أهلها ممدنين تشهد على تطرفات مازال حتى اليوم يتردد صداها العميق في عدد من المؤلفات التاريخية واللسانية حول افريقيا (٣٦).

وهكذا طالما وضعت مصر بين قوسين بالنسبة الى سائر القارة، وأحيانا قد ينقص من قدمها لصالح وادي الرافدين أو غيره من المراكز الهندية ــ الاوربية أو السامية المفروضة بالاعتماد على تخمينات خطيرة. وقد بحث أحيانا عن ملقنين خياليين لفن البنين، وركبت نظرية «الحامية» تركيبا اصطناعيا لشرح كل ظاهرة ثقافية ايجابية في افريقيا السوداء وتفسيرها بتأثير خارجي (٣٧).

على أن ج. غرينبرغ عند سعيه في وضع منهاجية دقيقة علمية، وقد كانت مساهمته طريفة هامة على الرغم مما احتوت عليه من أمور قابلة للنقاش، فانه أحيانا، كان لسان حال هذا الأثر السلبي من المذهبية العرقية.

و يدلي سليجمان وماينهوف، وكذلك بعدهما مصنفون قيمون أمثال دولافوص و بومان وسترمان أو ملر، بحجج ذات ضعف مذهل من الوجهة العلمية، وذلك انهم يستندون الى أحكام مسبقة من نوع الرأي الذي يصرح به ماينهوف بالعبارة التالية: «خلال التاريخ تكرر حدث باستمرار، أعني ان الشعوب الحامية قد اخضعت الشعوب ذات البشرة السوداء وساسوهم كأسياد لهم».

ان مثل هذه الملاحظة تبرر ما يجدر أن يتخذ من الاحتراز عند استعمال ما توفره اليوم الأعمال اللسانية من مادة للمؤرخ أو للأخصائيين في العلوم الانسانية عامة.

يقول ج. غرينبرغ: «ان الاستعمال المبهم للفظ حامي كمقولة لسانية واستعماله في تصنيف الأعراق لتعيين نموذج يعتبر أساسا شبه قوقازي، قد أديا الى نظرية عرقية ترى أن معظم الأهالي المتأصلين في افريقيا السوداء هم نتيجة خلط بين الحاميين والسود».

وهكذا فان تسمية «شعوب اللغة النيلية الشاميتية» ترجع الى مؤلف س. ج. سليجمان «اعراق افريقيا». «هذه الشعوب تعتبر عرقيا من أنصاف الحاميين» ويمثل البانتوصنفا آخر من السود المنتسبين الى الحامية. و يضيف غرينبرغ شارحا: «وذلك على أساس تخمينات ماينهوف، وهي تخمينات لم يدل قط بأي حجة في شأنها، اذ لا وجود لحجة على أن البانتوكما يقول سليجمان، لغة مختلطة، وعلى أن الانسان البانتو، ان صح القول، تناسل من أب حامي وأم سوداء».

(٣٦) انظر بعده ج. هـ. غرينبرغ في هذه النقطة.

(٣٧) ان العبارات (الحامية) (الحامتية) (الشامية) (الشاميتية) قد استعملت كثيرا في العالم الغربي خلال قرون ضمن المعجم العلمي والمعجم اليومي، وهي تتضمن قراءات محرفة وموجهة مأخوذة عن التوارة. ولقد ظهرت اسطورة لعنة الاعقاب السود من نسل شام نتيجة هذه القراءات. ولئن كان حقا انه في القرن التاسع عشر، و بتأثير علماء اللسانيات والاتنولوجيين، أخذت هذه العبارة معنى بدأ أقل سلبية، وفي جميع الحالات أصبحت مستقلة عن أي دلالة دينية، فانها مازالت تستخدم كتميز لبعض السود المعتبرين كفئة أعلى من غيرهم. ولهذه الأسباب فان الجمعية العلمية الدولية، تشجع الدراسات النقدية المتصلة بالاستعمالات التاريخية لهذا المعجم الذي يجب عدم استخدامه الا بتحفظ شديد.

و يستنتج ج. غر ينبرغ ان هذه الايديولوجيا في الواقع تفسد تماما حتى اليوم وضع علم لساني من شأنه أن ينير العلاقات الحق بين اللغات والحضارات في افر يقيا.

ان الهجرة في الاتجاه شرق ــ غرب أو شمال ــ جنوب للشعوب الافر يقية، قد شوشت المظهر العرقي والنسبي واللساني في القارة. و يشير الى ذلك أسماء الأشخاص والأماكن والاحداث اللسانية المحضة المتعلقة بالمعجم الأساسي ذاته. و يظهر ذلك في عدة دراسات، وتشهد اللغات في السنغال كالولوف والديولا والفلفلدي والسير ير بأوجه شبه مع لغات البانتو في افر يقيا الجنوبية وفي طانزانيا والكامرون والزايير أعمق منها مع لغات أسرة ماندانك التي اقحمت الجغرافيا داخلها. ومعجم المصر ية القديمة و بنيتها ومبادئ كتابتها عينها، كما سنرى فيا بعد، أقرب الى واقع لغات الولوف والهوسا أو التراث الخطي الداهومي، منها الى البنيات اللسانية السامية أو الهندية الاور بية التي تضم اليها بدون احتراز.

فقد ربطت المصرية القديمة والهوسا ولغات الرعاة الرواندية والحبشية والفلانية والنو بية بلغات سامية أو هندية أور بية على أسس واضحة الضعف، أو انطلاقا من منهاجية واختيار المعايير الاقل اقناعا.

والفلانيون تهجنوا، تماما كالبالو با والسوسو والسنغاي اذ أن عددا من الشعوب السوداء في موطنهم القديم أو الحديث كان لهم اتصالات بالسكان البيض، على أن هذه الفرضية للتهجين قد أعيد فيها النظر اليوم بناءعلى مكتشفات حديثة عن عملية تحول التلون.

ولا تبدي الفلفلدية من حيث صوتياتها ومعجمها و بنيتها شبها مع أي لغة معروفة أقوى منه مع السير ير. حتى أنالشعبين اللذين يتكلمان هاتين اللغتين يوحيان نفسهما بقرابتهما لا اللسانية فحسب بل أيضا العرقية، وهذا لم يمنع بحاثين أمثال ف. ملر وجفر يس وماينهوف ودولافوص و سترمان من السعي في اثبات اصل أبيض الفلانيين، بتصريحهم ان الفلفلدية هي حامية قديمة (٣٨) بل يصل تايلر الى حد أن كتب: «ان الفلانية بما لها من ثروة في المفردات ومن رنة في الالقاء ومن لطف كبير في العبارات، لا يمكن ان نتتمي الى الاسرة السوداء السودانية». وهذه الملاحظات جميعها تبين الى أي مدى تعممت الفوضى بين مقولات متباينة كاللغة ونوع العيش و«العرق»، بقطع النظر عن مفهوم الجنسية المستعمل، حسب الظروف للاحالة الى مفهوم من المفاهيم السابقة أو الى غيره.

وكما لاحظ ج. غر ينبرغ أن ما أقر من علاقة بسيطة بين الماشية والغزو واللغة الحامية قد اتضح خطأه على كامل القارة الافر يقية، فيقول: «انه لمن السخر ية في السودان الغربي أن يشاهد المزارعون ذوو اللغة الحامية تحت سلطة الرعاة الفلانيين الذين يتكلمون لغة سودانية غر بية (نيجر ية كنغولية)،وقد تكون سخر ية أخرى،اذا ما اتبعنا القوالب المثبتة،ان نلاحظ قدم سلطان الماندانك أو الولوف ودوامه في هذه الاسرة اللسانية السودانية، على شعوب تم ضمها بسرعة الى «الحامية» أمثال الفلانيين المنعوتين الحاميين القدماء أو أمثال «البر بر».

وحتى اليوم لا يوفر أي تصنيف موضوع على المستوى القاري أو الاقليمي ضمانات علمية لا خدش فيها، وقد ساهمت العرقية مساهمة قو ية في افساد تحليل المواد.

---

(٣٨) ج. هـ. غر ينبرغ، المصدر المذكور.

وفي الكثير من الحالات نبقى في التخمينات وإصدار قرارات مبدئية وفي اللمحات الخاطفة.

وهناك عدد من الشروط لدراسة اللغات الافريقية في إطار العلم المدقق تنير لنا تاريخ شعوب القارة وحضارتها.

أولا يجدر أن تحرر هذه الدراسة من وساوس الحكم المتجه كليا الى الخارج انطلاقا من السامية أو الهندية ــ الاوربية، أي بناء على الماضي التاريخي للانسان الاوربي.

ومن جهة أخرى يجب الاحالة على المادة اللسانية القديمة لاثبات القرابة بين اللغات الافريقية، لا الاحالة على المعطيات الجغرافية الحالية أو على التأثيرات القديمة أو المتأخرة، أو على المخططات الشارحة المختارة مسبقة، أو على الأشكال اللسانية الهامشية، بالنسبة الى الأحداث السائدة في الانظمة اللغوية.

العلوم المساعدة

التحليل الراجع للتأثيرات الاجنبية

ويسمى «طوبولوجيا» (٣٩) في الاصطلاح الانكليزي وهو يعود الى علم غرضه دراسة أصل الآثار الثقافية وطرق نشرها (الأفكار والتقنيات الخ) وقد دشن بحاثون ألمان هذه الطريقة معارضين بها دراسة الأدوار الثقافية التي وضعها فروبنيوس، ووسترمان ــ بومان الخ.

وكثيرا ما ألفت النظر الى هذا المستوى، نشر تقنيات المزراعين وثقافاتهم، وطرق الرعاة، واستنباط تقنيات الحديد وسائر المعادن ونشرها، واستخدام الحصان، واقرار التصورات التابعة للكون ولمجمع الالهة أو للاشكال الفنية.

على أن الطوبولوجيا قد جاوزت مجالها أحيانا، وعلى الخصوص انها أدخلت الكثير من الأخطاء في العلم التصنيفي. وذلك ان عددا من المؤلفين قليلي التحفظ قد ظنوا انه في الامكان أن تستنتج قرابة لسانية بناء على ملاحظة بسيطة لآثار ثقافية، والحال أن هذه الآثار كثيرا ما تعود الى ظاهرة الاستعارة أو الاتصال أو التقارب.

علم الأعلام

هو علم أسماء: أسماء المكان (أسماء المواقع) وأسماء الأشخاص (الأعلام) أو أسماء أماكن الماء (أسماء المياه الخ). وعلم الأعلام مقترن اقترانا وثيقا بمعجم اللغات. فالجماعات العرقية المتجانسة نسبيا في فترة معينة، والمجموعة العرقية اللسانية الأكثر تنافرا ولكنها تتكلم بلهجة مشتركة، تكون أسماؤها خاصة بالاحالات على واقعات لغاتها. ايطلقون على العالم الأرضي والجغرافي الذي كان لهم أو لايزال موطنا، أسماء يركبونها على هذا الاطار. وعلى هذا فباستكشاف أسماء الأشخاص، نتعرف في الوقت نفسه على العناصر العرقية التي تكون مجموعة ما. فالسر يرهم عامة (جون وجووف

(٣٩) م. كتري، ١٩٦٩.

وسيين الخ) والفلانيين (سو، وجالو و باوكا، الخ) الماندانك (كيتا وتوري وجارى الخ) وللبربر والبانتو أسر من الأسماء خاصة بهما.

ولعلم الأعلام دور كبير في دراسة تاريخ العروق والجماعات السياسية أو الثقافية. وتدل دراسة الأسماء المستعملة لدى التكرور (٤٠) في السنغال اننا أمام جماعة عرقية لسانية متباينة جدا.

ان هذه المجموعة المتكلمة بالفلفلدية، المتأصلة بالسنغال، على طول النهر، على حدود المالي وموريتانيا، متجانسة تجانسا كبيرا في المستوى الثقافي، وعن هذا نتج احساس «قومي» قوي جدا، وفي الواقع هذه المجموعة تكون انطلاقا من عناصر فلانية تغلبت لغتهم ومن الماندانك والسيرير واللبوولوف والبربر.

ويمثل علم أسماء المكان وعلم أسماء المياه، أيضا علمين أساسيين لدراسة هجرات الشعوب. ويمكن رسم خرائط مدققة انطلاقا من أسماء القرى المندثرة أو الباقية حتى الآن تمكن من تتبع طريق الماندانك حيث تحمل القوى أسماء مركبة انطلاقا من الدوكو. ومن الممكن أيضا أن ترسم بالطريقة نفسها خريطة مسميات الأماكن للمواطن القديمة أو الحالية عند الفلانيين الذين يستعملون لمنشآتهم اسم ساري، وكذلك بالنسبة للوولوف الذين يستعملون لفظ كر، وللعرب والبربر: دار والهوسا الخ.

الانتروبولوجيا الدلالية

وهي تكون طريقة جديدة لادراك الامور، وتسعى الى الكشف عن ثقافة الانسان عن طريق لسانه، وتستند الى تحليل جلي لمجموعة المعطيات التي تمدنا بها لغة عرق من الاعراق، أو جماعة لا متجانسة والتي تستعمل لغة مشتركة، كي تظهر للعيان في آن واحد، ثقافتها وتفكيرها وتاريخها.

وتتجاوز الطريقة مجرد جمع المأثور والأدب المكتوب أو المنقول، انها تتضمن اللجوء الى اعادة بناء كامل للافكار التي تحملها اللغة والتي لا ترجع حتما الى أثر معين، أو الى خطاب منظم. ويجري البحث في هذا الشأن في مستوى تحت المستوى اللساني وفي مستوى فوق المستوى اللساني. وهي تفك الرموز انطلاقا من المفردات، ومن تقسيم الفكرة، ومن وسائل التعقيد ومن ايجاد بنية اللغة، تفك رموز مختلف نماذج المعرفة التي تتبلور فيها النظرة الى العالم والتاريخ الخاص بالمجموعة التي تستخدم اللغة المعطاة. وهذه اللغة العرقية تصل الى الكشف عن نظم هي: التصور الميتافيزيقي، الأخلاق، علم الكائن، الجمالية، المنطق، الدين، التقنيات الخ.

وهكذا فان الأدب المكتوب أو المنقول عن ماضي الهوسا بما فيه من الوثائق الدينية والأمثال والأعمال القضائية والطبية والعدائية والتربوية، يخبرنا في الآن نفسه عن تطور محتوى فكرة الهوسا وكذلك عن تاريخها وثقافتها.

وفي الحضارات التي تغلب فيها الرواية الشفاهية، حيث تكون نصوص المراجع قلية، لا وجود عمليا للتفسير التطوري المعتمد على مقارنة النصوص من فترات مختلفة. وتصير اذن اللسانيات وسيلة لاعادة اكتشاف التراث الفكري، وسلما لتسلق الزمن.

---

(٤٠) ينقل هذا الاسم عادة في شكل: «Toucouleur».

والثقافات ذات العبارة الشفاهية التي تكتشفها الانترو بولوجيا الدلالية، تمدنا بآثار يجب جمعها واقرارها وتمدنا بمؤلفين و باختصاصهم. وقد أبقت كل ثقافة افريقية شفاهية أو مكتوبة، كما لدى الوولوف، حكيمها مثل ندامال كساس، وعالمها في السياسة مثل ساباسي، وكوكو بورما، وصاحب الكلمة والفصاحة فيها، وصاحب الملحمة أو القصة كابن مبنك (٤١) وأبقت كذلك مبتكري التقنيات في الأقراباذين أو الطب أو الفلاحة أو الفلك (٤٢).

وتصبح هذه الآثار ومؤلفوها مصادر جليلة للتحليل الحركي التطوري للثقافة في مجتمع على مختلف أشكاله.

ويمكن حل رموز الكائن البنتو، بل يمكن تفسيره وتنظيمه بالاحالة الى الألفاظ البنتوعن الكائن في العالم، انطلاقا من عمل التكوين والتصور الذي يعطي، من خلال المفردات والنصوص البنتو، شكل التصورات التي تكون للبنتوعن هذه الظاهرات.

واذا كانت اللغة محل تبلور كل الوسائل الذهنية أو المادية التي صنعتها الأجيال المتعاقبة، استطعنا القول إن التجربة التاريخية لشعب، مسجلة في طبقات متتالية من نسيج اللغة نفسه.

حامل الوثيقة والفكرة التاريخية

تم الاتفاق عامة اليوم على ما للمأثورمن دور في التاريخ الافريقي، بل ان «الرواة» التقليديين يلتمس حضورهم الى المؤتمرات، و يقترح بعضهم أن يخصص لهم مناصب جامعية أو حتى يكلفوا بالبحث و بتدريس التاريخ.

نعم ان أولوية المقول على المكتوب قد بقيت في الجملة ضمن الثقافات التقليدية التي يغلب فيها الريف في افريقيا كما في غيرها من البلدان.

والشفاهية كوسيلة لاعداد المنتجات الفكرية وضبطها لها تقنياتها. واذا كان المجال، بالنسبة لأشكال الفكرة المكتوبة أو المنقولة، مشتركا على مدى كبير، فالطرق و وسائل تصورها ونقلها ليست دائما هي ذاتها (٤٣).

ونلاحظ ببساطة أن الفكرة المكتوبة، والأدب بالمفهوم الاشتقاقي، اذا ما تثبتا، فانهما يميلان الى التحجر بكيفية أيسر في شكل دائم. وفي ذلك القطيعة مع المأثور المنقول الذي يوفر مجالا أكبر للاستنباط وللاسطورة. وفي مستوى اللغة تزداد امكانيات استعمال اللهجات، من جراء التطور غير المراقب. فاللغة التي يغلب عليها التعبير الشفاهي تبقى أكثر شعبية، حساسة للتحريفات الصوتية التي يفرضها عليها التطبيق في مستوى البنية والأصوات المستعملة، بل حتى في مستوى الأشكال المقتبسة.

واللغة الأدبية بالعكس، يداخلها العمل في اتجاه التوحيد، وهي تكتسي من جهة أخرى، بعدا مرئيا أوسع وتدمج كعناصر معبرة للمعطيات البيانية التي تمنحها نوعية خاصة: ضبط الاملاء بقطع

---

(٤١) كلهم شخصيات تاريخية مشهورة في التفكير الوولوف.

(٤٢) آثار جونستون عن اليوروبا، وطمبلس عن البنتو، وكريول عن الدوكون، وطرات عن الطب الافريقي وكتري عن العدالة الخ.. كلها تمثل مع الآثار الدراسية الادبية المثبتة مساهمات مهمة للانترو بولوجيا الدلالية.

(٤٣) انظر ب. دياني، المصدر المذكور أعلاه.

النظر عن أصواته، ووضع علامات الوقف الخ. أما اللغة الشفاهية على العكس فانها تستمر في الرجوع الى العنصر الصوتي. وهي تبرز بالايقاع والأوزان والاسجاع أو التنافرات ما للخطاب من بيان. وأهمية دورة الذاكرة في معاوضة انعدام الحامل الكتابي، يعدل أيضا طابع الشفاهية في أشكالها التعبيرية، بل هو يفرض نفسه بما للتحفيظ من تقنيات، ومن علم متخصص للاحتفاظ بالنصوص. وتصير هكذا الوثيقة المكتوبة والمأثور المنقول ظاهرتين متكاملتين، وذلك بتضافر ما لكليهما من مزايا ومن خصائص (٤٤).

ثم أن النصوص الشفاهية اذا ما سجلت صارت بدورها من الآداب (٤٥).

المأثور المكتوب ـــ الكتابات الافريقية

ان ابتكار الكتابة يستجيب الى حاجيات لم يعلم دائما كيف توضح حسب الظروف والطابع والأصل. والكتابة كوسيلة للتجارة والادارة تعني طبعا المدنيات الحضرية. ولكن دوافع الانطلاق قد تتغير كثيرا، وفي افريقيا سواء في العهد الفرعوني أو في عهد ملوك الداهماي أو المنسا الماندانك، كان استعمال الكتابة يستجيب أساسا الى حاجيات لا مادية.

ان الكتابة المصرية وكتابة النقوش الداهمية ورسوم البامبرا أو الدوكون، كان لها في البداية وفي اطار ظروفها الخاصة وظيفتان: تجسيم الفكرة، و يتم بذلك تحقيق عمل له مرمى ديني أو مقدس. فللكتابة المصرية التي استنبطها حسب الاسطورة الاله توت بقيت محصورة خاصة في المعابد بين يدي الكهنة، وكانت تختم الأسرار. وهي تستعمل كوسيلة عمل، لفكرة لوحظت كمادة يمكن تجسيمها في شكل كلمة أو خط.

وثاني وظيفة كبيرة جعلت للكتابة في الحضارات الافريقية توافق الحاجة الى التخليد التاريخي. فالكتابة المصرية ككتابة قصور أبوماي هي تمجيد الملوك وشعوب اهتموا بابقاء ذكرى مآثرهم الى من هم بعدهم. وكان البامبرا أو الدكون حتى يخطون على جدران بندياكارا علاماتهم الرمزية، يرمون الى عين الهدف.

فبين لوح الملك كليلي، ساطور الحفل الحاملة للرسالة، و بين لوح نرمر يوجد الكثير من أوجه الشبه، الروح واحدة وكذلك المبادئ وتقنيات الكتابة (٤٦).

تعزى الكتابة المصرية للالة توت، وهو أيضا مبتكر السحر والعلوم على غرار الاله ذي رأس ابن آوى عند الدكون، وهو أيضا حافظ الكلمة والمعرفة وقول الفعال.

والقليل من الاخصائيين الذين انكبوا على نظم الكتابات ذات الأصل الافريقي، ولو أن عملهم هذا كان في غاية الدقة، لم يعيروا جميعا أي اهتمام للعلاقة التي تبدو واضحة وسهلة الابانة تقنيا بين الهيروغليفات وأشهر الكتابات في افريقيا السوداء.

---

(٤٤) انظر بدياني، المصدر المذكور أعلاه.

(٤٥) انظر عديد المنشورات في هذا المستوى: أعمال همباتي باو أ. ابراهيم سوومونوتا وا. دمبيا وك. مو ين ف. ولا كروا ود. كريول وك. ديترلان ونريس ول. كستلوود. ت. نيان وم. ديابات وج. مبتي الخ، وقد نشروا في هذا الشأن مصنفات دراسية، ضمن مجموعات اكسفورد، وجليار وكاليمار في مركز نيامي الخ.

(٤٦) م. جليلي، ١٩٧٤.

وبقي الهيروغليف المصري أساسا على شكل تصويري في وظيفته الأصلية كوسيلة للمعابد. وهو كنظيره الداهومي يرجع حسب الامكان الى الصورة. فهي كتابة واقعية بصورة ارادية، همها تجسيم الكائنات والأشياء والآراء. و يتم ذلك بأشد الطرق حسية وأكثرها مادية، كما لو كان ذلك لارجاع بعض صفاتها الطبيعية أو للاحتفاظ بها.

وليس من باب الصدفة أن يكون تحريف الكتابة التصويرية الى الكتابة بالخط اللين الذي يغير العناصر الممثلة ويجردها، مسموحا به خارج المعابد فقط. فالخط الكهنوتي (الهيراطيقي) المستعمل في الأكثر خارج الوسط الكهنوتي، خلافا لما يوحي به الاشتقاق اليوناني للفظ، والخط الشعبي (الديموطيقي) وقد ازداد بساطة في رسم هذه العناصر، كلاهما خط غير مقدس، انتفاعي. وكما يلاحظ حقا م. كوهين فإن الهيروغليفية تتضمن في فكر الكاهن المصري «قوة ايحاء سحرية» وهذا يفسر حسب قوله، «انه كان يحترز من تصوير الكائنات النحسة أو أن صورها كانت تشوه» ونحن هنا تجاه تصور للذات تتصل جذوره بالتراث الزنجي الافريقي و تسبح في أعماقه. فلم يصل هذا التراث خلال الآف السنين، بالهنود ــ الاوربيين وخاصة باليونانيين، الى نزع القداسة عن الفكرة وعن حواملها الشفاهية أو الخطية، وتلك نظرة البامبرا واليوروبا والنصيبيدي أو كهنة دوكون، ازاء النظم المرسومة التي يستخدمونها في معابدهم أو في جلسات طقوسهم.

ووحدة الرسوم المبتكرة في افريقيا، لا تكمن فحسب في المسبقات الايديولوجية التي تمنح لنظمها وظائفها وطبيعتها، بل هي أيضا في التقنية الوحيدة للنقل.

وفي تاريخ الكتابة الافريقية يبدو الرجوع المستمر الى تقنيات ثلاث لتثبيت الفكرة بالترسيم: الالتجاء الى نسخ صورة الكائن أو الشيء بواسطة علامات تصويرية، الالتجاء الى الرمز لتثميل واقع بواسطة علامات الرموز وهي اشارت لا علاقة مباشرة لها من الشبه الطبيعي مع المفهوم الذي ترمز اليه، وأخيرا استعمال الحاكي لتمثيل ذوات الأصوات المتماثلة كلها، أي كل الظواهر الواقعية التي يشير اليها صوت واحد أو مجموعة واحدة من الأصوات. وهذا مبدأ الخط التصويري.

هذا وان المقارنة بين لوح نرمر وساطور كليلي أو دكادونو لشديدة الايحاء، فهي تنقل الخطاب حسب المبادىء ذاتها.

وعلى لوح نرمر صورة ملك يقبض على عدوه المنهزم من شعره، و يصرعه، بينما يلوذ باقي الجيش المنهزم بالفرار بين رجلي الفرعون العملاق، والرسوم المصورة واضحة ناطقة. وأما باقي الاشارات فعلامات رمزية، يميز من بينها شكل بيضوي «تا» يرمز الى الأرض، ومن أعلى مجموعة من الرموز واطار مربّع لطابع اسم الفرعون حورس. سمكة وطائر يمثلان اسم الفرعون، وهما صورتان لرسوم الأصوات.

وساطور كيزو تمثل الملك الداهمي في شكل جاموس، كما يمثل الفرعون في شكل باز. و يكشر الجاموس عن أسنانه مما يفيد انه ينشر الرعب بين أعدائه. وفي هذه الصورة ايحاء رمزي، وفي حالات أخرى يكون أكثر دلالة.

وساطور الملك داكودو أو دوكودونو وهو أقدم يرجع الى عام (١٦٢٥م ــ ١٦٥٠م) ووصفها لو هريسي وهي تبين بوضوح مبدأ «الهيروغليف» الداهومي. وهذا مضمون النص تقريبا، النقوش على شفرة الساطور: هناك رمز به رسم يمثل صوانا «دا» ومن أسفله صورة الارض «كو» بها ثقب في

وسطها «دونون». فهذه رموز تصويرية استعملت كرموز للأصوات. فاذا ما جمعنا بينها كما بالنسبة لاسم الفرعون على لوح نرمر، فاننا نقرأ اسم الملك الداهومي داكودونو. و يلتقي الخط الداهمي مع الهيروغليف الفرعوني مبدأ ومعنى، وهويكشف عن التقنيات الثلاث التي يحيل اليها الخط المصري أي الصورة الرسمية، الرمز، وعلامة رسم الأصوات (٤٧).

وقد ذكر العالم السوفياتي دميترى أ. الدروج في مقال تاليفي جليل على اثر ش. انتاديوب بان نظام الهيروغليفات بقي قائما حتى عهد متأخر في افريقيا السوداء.

و يصرح كافاسي دى مولوكولو في كتابه «الوصف التاريخي للممالك الثلاث في الكونغو والماتمبا والانكولا» المنشور سنة ١٦٨٧ ان استعمال الكتابة الهيروغليفية مازال قائما في هذه المناطق.

واكتشفت سنة ١٨٩٦ كتابة هيروغليفية منقوشة على صخور التيتبي في الموزمبيق،على نهر الزمباز ونشر نصها اذاك. و يلاحظ ش. انتاديوب أيضا استعمالا متأخرا لخط ذي رسوم في الباول، حيث أمكن العثور في عصر قريب على نقوش هيروغليفية على أشجار باو باب عميقة جدا واستعمل الفاي في ليبيريا مدة طويلة خطا ذا رسوم على شرائط من اللحاء. والخط الميروي في الحدود الجنوبية لمصر القديمة امتداد للخط الفرعوني ومنه كان يقتبس، الا أن يكون هو الذي أثاره أو أن يكون قد اشترك معه في أصل واحد.

على أنه يبدو أن نظم الخطوط الرمزية قد كانت على الأرض الزنجية الافريقية الغربية أشد مقاومة من الهيروغليفيات. وعمليا فان معظم الشعوب الزنجية الافريقية تعرف استعمال الكتابة الرمزية، إما عن طريق التقنيات الكهنوتية، أو بناء على ما يقوم به رجال الدين من أعمال أو عن نقاشي لآثار فنية الخ.

وخط الرمل عند الكورمانتشي له تقنية فنية راقية (وهو المسمى عندهم كامبييوالو)، يرسم الرمال والرموز على الرمل و يعبرها، ثم يتقدم بضرب من «الوصفة» تتمثل في رموز منقوشة بالموسى على قطعة من الدباء.، وتشير هذه العلامات المجردة الى الهياكل والمذابح التي يجب المثول فيه قصد تقديم القرابين، والى نوع الدابة التي يجب ذبحها والى عدد القرابين الخ. وهذه «كتابة رمزية».

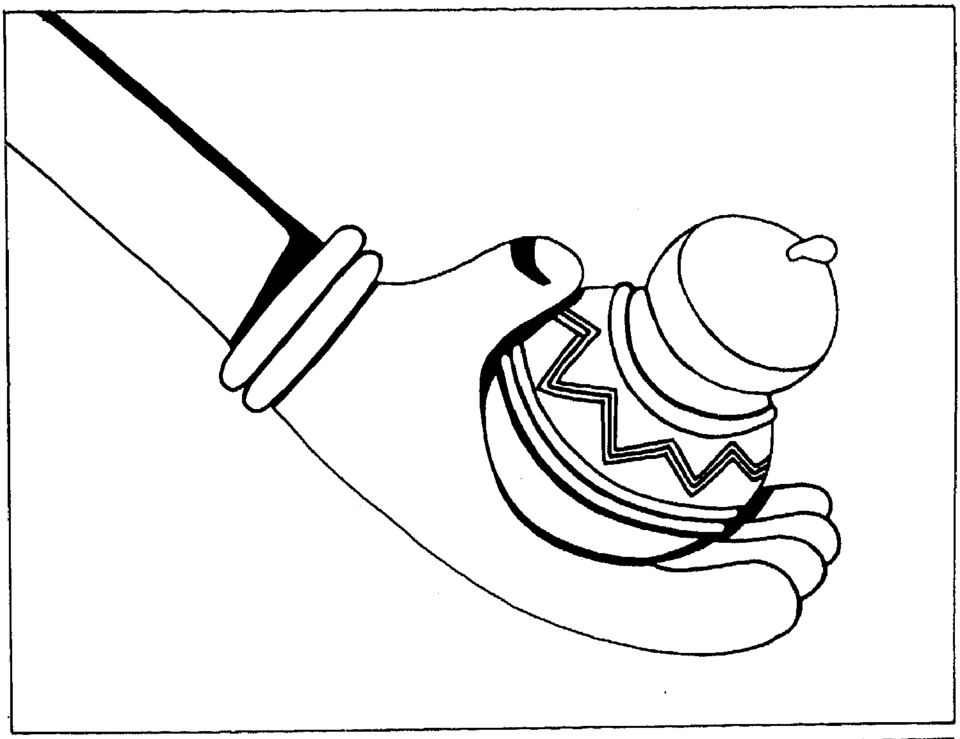
والتكهن بواسطة علامات «فا» غزير الثروة: وذلك أن الكاهن يقوم بعمليات شعوذة ماسكا بعدد من جوز النخيل بيد ناقلا اياها من يد الى أخرى ثماني مرات. و يسجل كل مرة على طبق مرشوش بالغبار أو على الأرض، عدد الجوزات الباقية في يده اليسرى. وتكون جداول (عددها الممكن ٢٥٦) منها ستة عشر أساسية، هي الـ «دو» التي تمثل القدر فيها «خيوط» الالهة أو كلامها، و يتحكم فيها «الفا». فكل انسان مطالب بعبادة الدو الذي ينتمي اليه ولكنه في آن واحد، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار ما لأقاربه وأجداده و بلاده من «دو» الخ.. والتأليفات متعددة جدا. وتعدد «الدو» يتآلف في ضرب من الاستراتيجية الأسطورية، وهي أيضا تقنية خطاطية. و يستعمل التكهن «بالفا» على طول ساحل البنين.

وكان ما جمع من نظم الرسوم الرمزية (٤٨) غزيرا خاصة في بلاد السهوب، وقد بقيت تقليدية

(٤٧) انظر الفصل الرابع.
(٤٨) انظر نينكوران بواه: «بحوث عن الصنجات لوزن الذهب عند الاكان» رسالة دكتوراه دولة نوقشت سنة ١٩٧٢.

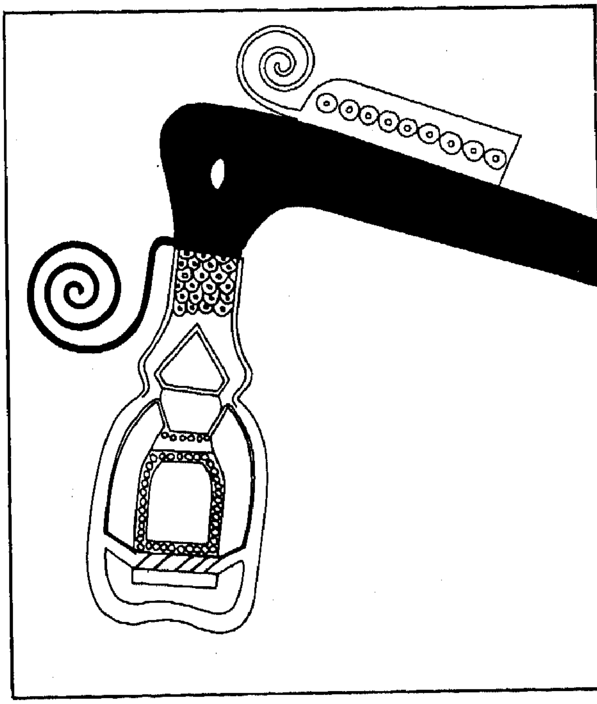


● لوحة الملك الثعبان (مصوّرة من متحف اللوفر بباريس).



١

● ١) رسم يمثل يقطينة، وهي رمز القوة (تصوير نوبيا).
● ٢) رسم مهدى الى داكونودو (تصوير نوبيا).
● ٣ و ٤) شبل ينشر الرعب (تصوير نوبيا).



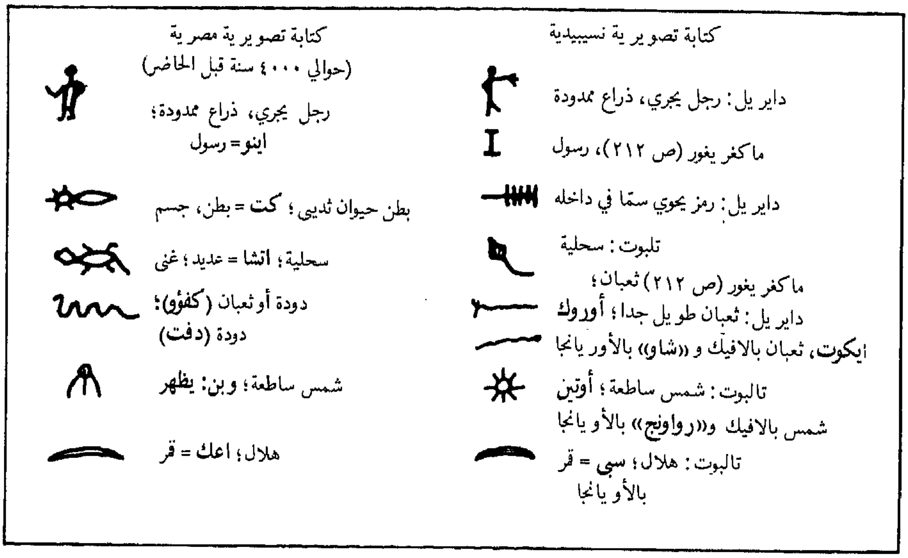
٢



٣

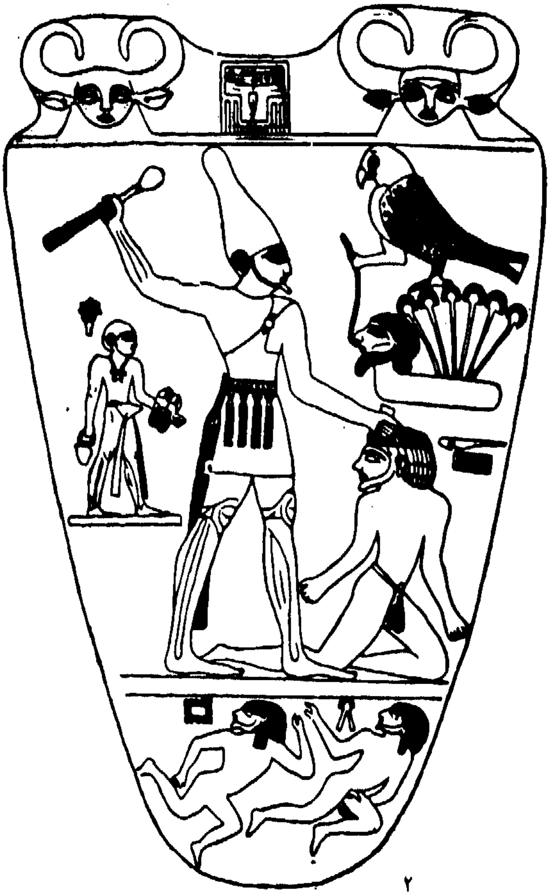


٤

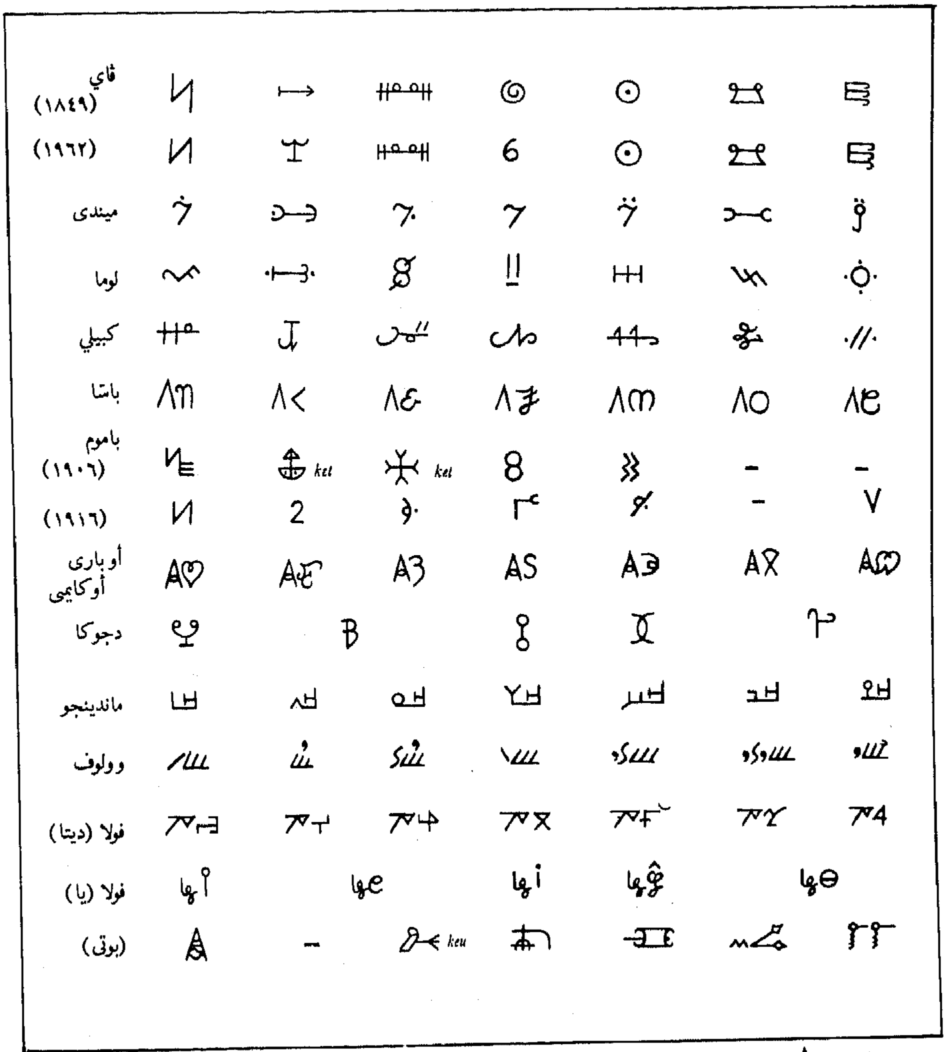


● ١) مفردات من الكتابة التصويرية المصرية والنسيبيدية (مأخوذة من كتاب «افريقيا في العصور القديمة». والهامش السفلي ٣٤ في الصورة يحيل الى: ج. ك. ماكغريغور ١٩٠٩؛ أ. ديريل ١٩١١؛ تالبوت ١٩٢٣).

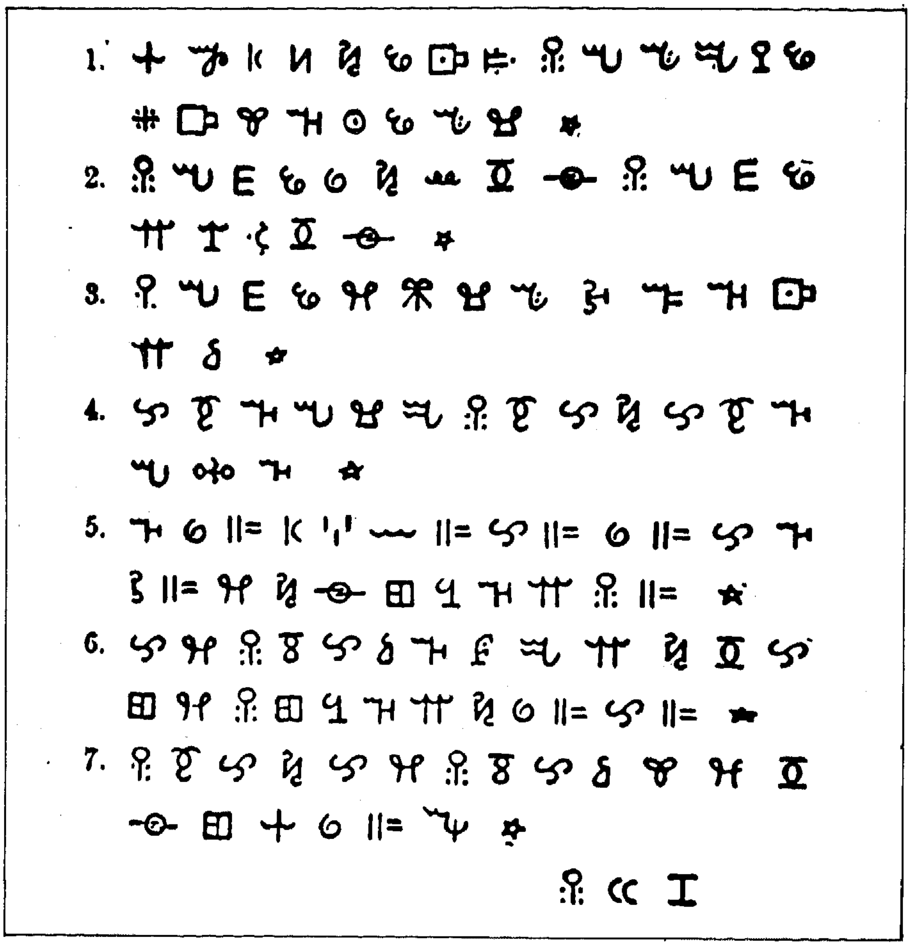
● ٢) لوحة نارمر (مأخوذ من: شيخ أنتاديوب، ١٩٥٥).



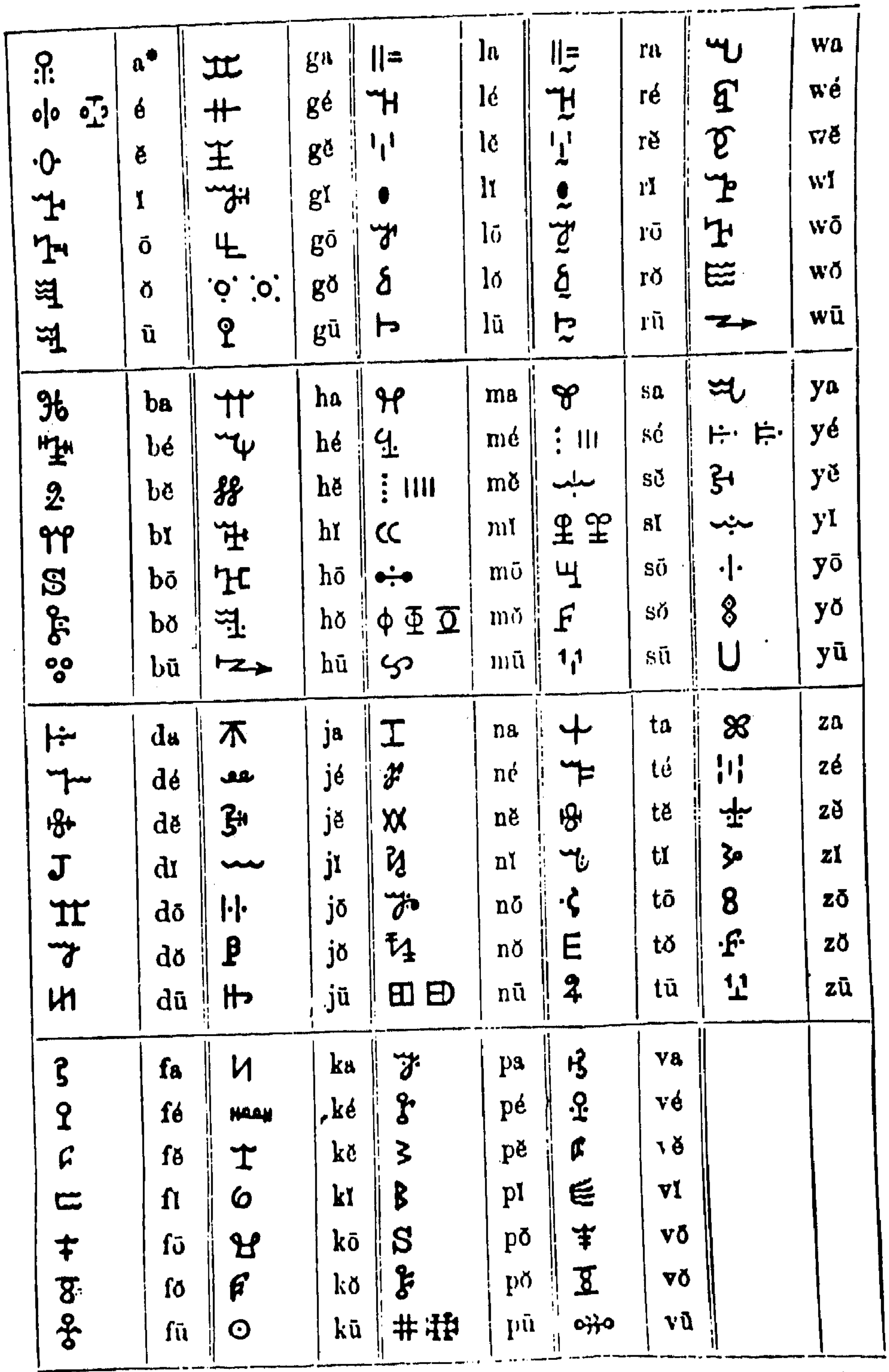
٢



● عينات من أنواع متعددة من الكتابات الافريقية القديمة (مأخوذة من: د. دالبي، ١٩٧٠، ص ص ١١٠ – ١١١).



● الصفحة الأولى من القرآن (سورة الفاتحة) مكتوبة بلغة الـ «ڤاي» (مأخوذة من كتاب «أفريقيا في العصور القديمة» لمؤلفه ت. أوجنغا، نشر الحضور الافريقي — بالفرنسية).



• رموز (عناصر) من كتابة الـ «ڤاي» (مأخوذة من كتاب «أفريقيا في العصور القديمة» لمؤلفه ت. أوجنغا، نشر مؤسسة الحضور الافريقي — باللغة الفرنسية).

	cha		kpa		nda		nya		zha
	ché		kpé		ndé		nyé		zhé
	chĕ		kpĕ		ndĕ		nyĕ		zhĕ
	chī		kpī		ndī		nyī		zhī
	chō		kpō		ndō		nyō		zhō
	chŏ		kpŏ		ndŏ		nyŏ		zhŏ
	chū		kpū		ndū		nyū		zhū
	dha		lba		nga		sha		
	dhé		lbé		ngé		shé		
	dhĕ		lbĕ		ngĕ		shĕ		
	dhī		lbī		ngī		shī		
	dhō		lbō		ngō		shō		
	dhŏ		lbŏ		ngŏ		shŏ		
	dhū		lbū		ngū		shū		
	gba		lda		nja		tha		
	gbé		ldé		njé		thé		
	gbĕ		ldĕ		njĕ		thĕ		
	gbī		ldī		njī		thī		
	gbō		ldō		njō		thō		
	gbŏ		ldŏ		njŏ		thŏ		
	gbū		ldū		njū		thū		
	hna		mba		nkpa		wha		
			mbé		nkpé		whé		
	hnĕ		mbĕ		nkpĕ		whĕ		
	hnī		mbī		nkpī		whī		
			mbō		nkpō		whō		
	hnŏ		mbŏ		nkpŏ		whŏ		
	hnū		mbū		nkpū		whū		

متنوعات

	faa
	hn
	kpna
	nwa
	nwo
	whew
	ahn

الترقيم والعلامات الأخرى

	شرطة
	فاصلة
	علامة استفهام
	نقطة
	علامة تعجب
	علامة تشديد
	علامة خفض
	صوت أنفي
	علامة استمرار الوصت

العلامة المسجلة في ١٩٠٧ (غورنغ)	العلامة المسجلة في ١٩٠٠ (كلابوت)	معناها	الكلمة بلغة «موم»
		حبّة الكولا	Pé بي
		ملك	Fom فوم
		بيت	Ntab نتاب
		عجل	Nyad نياد

● نظام الكتابة «موم» (عن كتاب «أفريقيا في العصور القديمة» بقلم ث. أوجنغا، نشر «الحضور الافريقي — بالفرنسية).
الى أعلى: نظام الكتابة التصويرية (بالصور)
جانبا: نظام الرموز المقابلة للافكار، وفي المستطيل الاسفل نظام المقاطع الصوتية.

بورين أو بورين ، الناس = 
نغو أو نغويمي ، الموطن = 
نديا ، اليوم = 
نسي ، الأرض = 
يو ، الغذاء = 
بو ، نحن = 
نى ، و = 
غبيت ، يعمل/يصنع = 
مى ، أنا = 
فا ، يعطى = 
يوام أو مبويم ، يبدى اعجابه = 

المقطع «با» من «إيبا» ومعناها: إثنان = 
المقطع «بين» من «بين»: نوع من الرقص = 
المقطع «بي» من «بييت»: يختن
أو من «بي»: يمسك = 
المقطع «تشا» من «نتشا»: سمكة = 

ونسبيا ضعيفة الانتساب الى الاسلام. وليس ذاك من باب الصدفة وقد عرّف الاخصائيون ببعضها، ومن أول هؤلاء م. نيجود..

وقدم م. كريول وج. ديترلان الكتابة الرمزية للدوكون، ونحن ندين لهما كذلك بتحليل نظام بامبرا وتقديم مركب جيد لكتابات المنطقة:

واكتشف الاوربيون في نهاية القرن الماضي الخط الرمزي النصيبدي المستعمل عند الايبو في جنوبي نيجيريا وهويتركز على مبادئ النقل التي انتشرت انتشارا قويا على ساحل غينيا بأكمله.

والكتابات الصوتية (٤٩) التي تعمم بانتظام استعمال صور الأصوات سواء البسيطة أو المركبة بعلامات منتظمة، تظهر في نظرنا، بافريقيا، كثمرة لتطوير متأخر. وكانت الهيروغليفات في مصر القديمة كما هي في الداهوماي، تمثل العديد من الأصوات بواسطة الرموز.

ولكن النظم الصوتية المحضة التي أساسها الكلمة، والمقطع أو الصوت البسيط ـ النقل الالفبائي ـ تشير الى مرحلة جديدة (٥٠).

ولعل الكتابة البربرية المستعملة عند «طوارق» الصحراء والمعروفة باسم تيفيناغ قد انتشرت بتأثير البونيقية بالاتصال مع قرطاج.

وتكوّن نظام الكتابة النوبية في القرن العاشر عن طريق الاتصال بالخطاطة القبطية، التي نشأت هي بدورها بتأثير اليونانية. والخط الاثيوبي في تيكرينيا وفي الأمهارا مشتق من الخط السبئي بجنوب الجزيرة العربية.

أما الكتابات المقطعية والالفبائية الافريقية الغربية المنتشرة انتشارا كبيرا منذ نهاية القرن الثامن عشر على السواحل الغينية وفي البلاد السودانية، فلعلها نشأت عن تطور داخلي، أو قد تكون اكتست صبغتها النهائية، بتأثير قريب أو بعيد من دخيل أوربي أو عربي (٥١).

والكتابة الفاي التي أظهرها لأوربا سنة ١٨٣٤ ايريك باطس الاميركي وكويل سنة ١٨٤٩، قد انتشر على أرض لوحظت فيها خطوط من النظام الهيروغليفي. ووصف مومولو مساكو قنصل ليبيريا في انكلترا في القرن التاسع عشر، مبادئ النظام الهيروغليفي المستعمل في منطقته وفي عصره (٥٢).

وللدلالة على الانتصار على العدو، يروي، مومولوان الفاي يصورون على اللحاء الذي يقوم مقام البردي عندهم، خيال رجل يجري و يداه فوق رأسه. وتضاف نقطة بجانب صورة المتشرد للدلالة على عدد كبير من الناس الفارين، وعلى جيش ولى الأدبار، و يوجد هنا من جديد حتى علامة الجمع بوضع نقطة عوضا عن عدة خطوط كانت مستعملة في وادي النيل العتيق، وهي من معطيات الكتابة الفرعونية.

---

(٤٩) يعرض د. دلبي استقراء مهما لها في «اللغات والتاريخ في افريقيا» لندن ١٩٧٠.

(٥٠) أ. هاو، ١٩٥٩.

(٥١) تجمع الخطاطات السودانية بين الصور الواقعية والعلامات ذات المعاني الرمزية (انظر مرسال كريول وج. ديترلان) فبالجمع بين هذه العلامات، ينقل الخطاب و يثبت و يصير في الامكان حل رموزه من قبل متعلم الكتابة المدرك لما يحويه من معارف.

(٥٢) أنظر المقال التأليفي المهم بقلم د. الدورج في «رسالة اليونسكو» مارس ١٩٦٦ بعنوان: «خطوط مجهولة في إفريقيا السوداء».

ولعل الفاي حولوا نظامهم القديم في اتجاه النقل الصوتي، ولنا اليوم أنماط مشابهة من كتابة الفاي لدى عدد من الشعوب الافريقية الغربية: مالنكى، مندي، بسّا، كرزي، كْبيلي، طوما الخ. وحتى الولوف والسير يرفانهما تجهزا أخيرا بكتابة مستوحاة من هذه المبادىء.

وخلافا لما يعتقد عادة، فان فكرة الكتابة بقيت مستمرة في التاريخ وفي التفكير الافريقي، من لوح نرمر الى ساطور كليلي. وتشهد بذلك كثرة الاعمال وتعدد الخطوط.

والكتابات الافريقية بعد الفرعونية، قد اتبعت لعدة أسباب، مجرى تطور اعتيادي، وتلاءم هذا المجرى مع الظروف ومع متطلبات التاريخ لمجتمع واقتصاد ريفيين أحرزا الكفاية الذاتية، ولم يدفع هذا الأخير بضغط الحاجة الى أن يدعم، مع الأيام المكاسب المادية أو الذهنية المهددة باستمرار. هذه البيئة السهلة وهذا التوازن اليسير بين الموارد والديموغرافيا في معظم الحضارات الافريقية ولاحداث ثقافتهم، قد جعلت ولمدة طويلة من الزمن، امكانية الحل والعقد الشكليين في المدى الواسع، غير محتفظة الا بالأمر الأساسي: المبادئ. فعل مستوى التوازن الباطن لم يكن الخطر كبيرا جدا، وتجاه الخارج، وتجاه تراكم التقدم قد كان هذا الضعف مضرا.

الخلاصة

لابد من اللسانيات لانشاء علم تاريخي افريقي، وسيكون لها دور كبير يعادل ما قدم من جهد هام في المجال الذي هو مجالها، وحتى الآن كانت مساهمتها نسبيا مساهمة ضعيفة وأحيانا قليلة الفائدة في المستوى العلمي. ومازالت الأعمال جارية، وازدادت الطرق دقة وتوسع حقل البحوث كثيرا. ومن المتوقع في هذا السياق ان يتمكن تحليل اللغات الافريقية في القريب العاجل، من المساهمة في توضيح نقط مهمة من تاريخ القارة.

القسم الثاني

النظريات المتعلقة بـ «العروق» وتاريخ أفريقيا

ج. كي زربو

ان مفهوم العرق من أصعب المفاهيم حصرا من الناحية العلمية، فإذا ما أقررنا كمعظم العلماء، بعد داروين أن أصل الجنس البشري واحد (١)، فان نظرية «العرق» لايمكن علميا أن تنتشر الا في اطار التطورية.

وذلك أن تكوّن العرق ينخرط ضمن العملية العامة للتطور المتنوع. وكما يلاحظ ج. رفي فان ذلك يقتضي شرطين: أولا الانعزال الجنسي، وهو غالبا نسبي، و ينشيء شيئا فشيئا منظرا وراثيا ومورفولوجيا. فتكون العرق إذن مبني على ذخيرة نطفية مختلفة، أنشأها اما الانحراف الوراثي، اذ أن الصدفة في نقل عناصر الوراثة قد تجعل تكرار النقل في فصيلة ما، أشد منه في أخرى اذا لم يكن بالعكس، أي ان المتباين هو الذي ينتشر انتشارا فسيحا، واما الاصطفاء الطبيعي. و يستتبع هذا تنوع تلاؤمي يعمل بفضله جماعة على المحافظة على الجهاز الوراثي الذي يلائم أكثر ملاءمة بينه و بين محيط محدد. وفي افريقيا قد يكون للوجهين دور. وذلك أن الانحراف الوراثي الذي يعبر عن نفسه الى أقصى حد في الجموع الصغيرة، قد عمل في العرقيات الضيقة الخاضعة الى عمل اجتماعي تقسيمي بمناسبة الخصومات في الارث أو في شأن الأراضي بسبب المساحات الفسيحة البكر المتوفرة. ومن المحتمل أن هذا العمل قد أثر خاصة في التراث التناسلي لدى العرقيات المتزاوجة مع بعضها أو التي تقطن الغابات. وأما الاصطفاء الطبيعي فكان من شأنه أن يقوم بدور مساعدة البيئات المتنافرة، كبيئة الصحراء والغابة الكثيفة والهضاب العليا والسواحل التي يوجد بها المنغروف.

---

(١) عن نظريات تعدد المراكز ومختلف مظاهرها، انظر أعمال، ج. وابندنرايش وكوون ومناقضات رو برتس.

و بصورة عامة من الوجهة البيولوجية،فان أهل «عرق» من الأعراق يشتركون في بعض العوامل الوراثية التي يستعاض عنها في مجموعة «عرقية» أخرى بعوامل مباينة لها، و يتعايش النمطان من النطفات عند الهجناء.

وكما كان متوقعا، فان التعرف على العروق تم في البداية انطلاقا من معايير ظاهرة، ثم اعتبر شيئا فشيئا مظاهر واقعية أعمق. على أن الخواص الخارجية والظواهر الباطنة ليست منفصلة انفصالا مطلقا.

فاذا ما كانت بعض النطفات تتحكم في الأجهزة الوراثية المنظمة للون البشرة فهذا اللون مرتبط أيضا بالمحيط، ولوحظ ترابط ايجابي بين القامة وأقوى حرارة في أحرّ شهر،وترابط سلبي بين القامة والرطوبة. وكذلك فان الانف الضيق يعمل على اسخان الهواء بكيفية أحسن في مناخ أبرد، و يندي الهواء الجاف المستنشق. وهكذا تزداد الاشارة الانفية عند الأهالي جنوبي الصحراء، من البيداء الى الغابة مرورا بالسهوب ومع ان عدد الغدد المفرزة للعرق عند الزنج هو نفسه عند البيض،فان الزنج يعرقون أكثر، مما يبقي جسمهم وجلدهم في درجة من الحرارة أقل.

فهناك عدة مراحل في البحث العلمي عن العروق.

التمهيد الشكلي

يعرف ايكستدت، مثلا، العروق على أنها «مجموعات حيوانية طبيعية تنتمي أشكالها الى جنس البشريات، يبدي أفرادها عين التناسق النموذجي في الطباع العادية والموروثة في المستوى الشكلي وفي المستوى السلوكي».

فسجلت مجموعة من الملاحظات والقياسات، من لون البشرة وشكل الشعر أو الجهاز الشعري، الى الخواص القياسية أو غير القياسية الى التقوس الخلفي الفخذي والكؤيسات والشقوق المرسومة على الأضراس. فتجمع من كل هذا مجموعة مهمة من الملاحظات والقياسات. و وقع الاهتمام خاصة بالاشارة الدماغية لعلاقتها بالجزء من الرأس الذي يحمي الدماغ. وهكذا وضع دكسن الأنواع المختلفة حسب نماذج ثلاثة تبعا لثلاث اشارات مركبة، مع بعضها بكيفية مختلفة: الاشارة الدماغية الافقية، والاشارة الدماغية الرأسية والاشارة الانفية.

ولكن من بين التأليفات السبع والعشرين الممكنة، قد احتفظ بثمانية فحسب (أكثرها ترددا) على أنها تمثل نماذج أساسية. واعتبرت الثمانية عشر الباقية * على أنها أخلطة. ولكن الخواص الشكلية ما هي الا انعكاس منحرف قليلا أو كثيرا من الرصيد التوليدي. وقليلا ما يتم بصفة كاملة تجمعها في انموذج مثالي، وذلك أنها تفاصيل وجزئيات واضحة على حدود الإنسان والبيئة، فهي لذلك ذاته فطرية أقل منها مكتسبة.

وهذه من أكبر نقائص النظرة الشكلية والنموذجية حيث ينتهي الاستثناء الى أن يكون له من الأهمية أكثر مما للقاعدة. على أنه من اللازم ألاّ نتهاون بخصومات المدارس حول أساليب القياسات

* في النسخة المطبوعة: التسعة عشر. وهو الصواب.

(كيف ومتى الخ) مما يمنع المقارنات المفيدة. فاحصائيات البعد المتعدد التغير، ومعاملات وجوه الشبه العرقية، واحصائيات «المقاس» و«الشكل» والمسافة المعممة لنهالا نوبيس، كل ذلك مما يرجع الى المعالجة الرتيبة. وهكذا فان الاعراق كيانات بيولوجية واقعية من الواجب فحصها ككل، وليس قطعة قطعة.

النظرة الديموغرافية أو السكانية

ستؤكد هذه الطريقة من البداية على واقع المجموعات(رصيد توليدي أو «جينوم»)وهي أكثراستقرارا من البنية التوليدية الظرفية لافراد. فما يميز العرق أكثر من الخواص التي تلاحظ فيه، هوتردد هذه الخواص. وحيث تركت الطريقة الشكلية عمليا (٢) كان من الممكن أن تعرض العناصر المصلية أو التوليدية على قواعد تصنيف أكثر موضوعية. وفي نظر لندمان، العرق «هو مجموعة من الكائنات البشرية يظهر بعضها مع البعض الآخر (فيما عدا قليلا من الاستثناءات) في كثير من التشابه في الخلقة النموذجية، وكذلك غالبا في الطباع الخلقية، مما هو الشأن مع أفراد مجموعات أخرى».

و يبسط الكسايف أيضا تصورا ديموغرافيا للاعراق مع مسميات جغرافية محضة (أوربيون، شماليون، أفارقة جنوبيون الخ) وألح سويدكي وبويد على النظامية التوليدية: توزيع المجموعات الدموية أ. ب. أ. وتآلفات عامل الزمرة، نطفة الافرازاللعابي الخ.

و يتعاطى عالم النموذجية الدموية أيضا التشريح،لكن في مستوى الجزئية،فهويتعاطى الشكلية المجهرية واصفا الخلايا البشرية التي تميزت ببنيتها المانعة وجهازها الخميري، وتكون المادة الأكثر عملية في هذا الشأن متكونة من النسيج الدموي. وهذه المؤشرات الدموية تقفز بنا قفزة كيفية تاريخية في التعرف العلمي على الجموع البشرية، ومزاياها على المعايير الشكلية حاسمة. فأولا تكاد تكون دائما وحيدة القياس أي أن وجودها تابع لنطفة واحدة، أما الاشارة الدماغية مثلا، فهي نتيجة مركب من العوامل التي يعسر استكشافها (٣).

ومن جهة أخرى بينما تترجم المعايير الشكلية بأرقام تستخدم للتصانيف على حدود اعتباطية أو غامضة، مثلا بين الاصلع النموذجي والمستطيل الرأس النموذجي، فان المثيرات الدموية تخضع هي الى قانون الكل أو لا شيء. اما ان نكون (أ) أو لا (أ)،زمرة ايجابية أو زمرة سلبية الخ. ثم ان العوامل الدموية تكاد تنفلت تماما عن ضغط البيئة. فالنموذج الدموي يحدد نهائيا منذ تكوين البيضة. ولذا لا تخضع المؤشرات الدموية للاحساسات الباطنية النموذجية الشكلية. فالفرد يعرف هنا بمجموعة من العوامل التوليدية ومجموع السكان بسلسلة من الترددات النطفية. وتعوض دقة هذه العوامل الكبيرة ما لها من طابع جزئي بالنسبة لكتلة النطف في مجموع نطفية (جينوم). وهكذا تم وضع أطلس «للاعراق» التقليدية.

على أنه يظهر ثلاثة أنواع من العوامل الدموية. و يوجد البعض منها مثل نظام أ. ب. أ.، في

---

(٢) انظرو يرسنكى، ١٩٦٥.

(٣) انظرج. روفيه.

كل الأعراق التقليدية بدون استثناء. فقد كانت بدون شك موجودة قبل المرور الى جنس الإنسان. وأما البعض الآخر كعوامل نظام الزمرة فوجود دائما لكن مع بعض التفوق العرقي، فصبغية (ر) توجد خاصة لدى البيض والصبغية رو (RH) المسماة «الصبغية الافريقية» تتردد ترددا كبيرا خاصة عند السود جنوبي الصحراء. ومما لا شك فيه أن ثمة أنماطا ترجع الى الوقت الذي شرعت فيه البشرية في الإنتشار في مخبئات بيئية مختلفة. و يظهر نوع آخر من النظم توز يعا عرقيا أوضح. مثلا عوامل ستر وهنشا والتي تكاد لا تظهر الا في نطاق السود. وعامل كل الموجود خاصة عن البيض ولو ان هذه العلامات ليست دائما خاصة تماما، فانها وصفت بعبارة «المؤشرات العرقية» وأخيرا ان بعض العوامل محددة تحديدا جغرافيا كبيرا مثلا الخضاب (ج) عند أهالي النجد الفولطاني.

ورغم كون العوامل الدمو ية عديمة القيمة التلاؤمية، فهي لا تنجو تماما من عمل الوسط المعدي أو الطفيلي الذي قد يحث غرزا بين العوامل الدمو ية التي لها قيمة انتقائية، فينتج عن ذلك مثلا وجود خضاب مميز كخضاب S المقترن بوجود خلايا منجلية الشكل من بين الكر يات الحمر. ولقد اكتشفت في دم السود في افر يقيا وآسيا، وهي خطيرة بالنسبة لواقع الدم فحسب، والخضاب هـ. ب. س. (H b s) هو عنصر مواءمة لحضور (البلسموديوم الفلسيباروم) المتسبب في حمى المستنقعات. ان دراسة نماذج الدم في مساحات فسيحة تمكن من رسم منحنيات متماثلة النطف، تجسم للعيان التوز يع الجملي للعوامل الدمو ية. وتشترك هذه الدراسة مع حساب الابعاد التوليدية فتعطينا فكرة عن الكيفية التي تقع بها مجموعات السكان احدها بالنسبة للأخرى، أن يمكن اتجاه التدفق التوليدي من تشخيص العملية السابقة لتطورها.

ولكن الطر يقة النموذجية الدمو ية والاسكانية رغم نتائجها الاستثنائية، تعترضها عقبات، أولا لأن الثوابت التي تعتمد عليها مدعوة الى التضاعف بكثرة، فتؤدي هكذا الى نتائج غر يبة حتى يراها بعضهم شاذة.

فالشجرة النسالية للسكان التي أقامها ل.ل. كفلي - سفرزا تختلف عن الشجرة القياسية الانسية. فعلى هذه يقع «البكمي» (الاقزام) والسان في افر يقيا على فرع واحد قياسي إنسي مع سود غينيا الجديدة واستراليا، بينما على الأولى يقترب «البكمي» (الاقزام) والسان من الفرنسيين والانكليز اقترابا أكبر، و يقترب سود استراليا أكثر من اليابانيين والصينيين (٤). و بعبارة أخرى الصفات القياسية الانسية، تتأثر بالمناخ أكثر مما تتأثر به النطف، الى حد أن التوافقات الشكلية تتبع البيئات المتشابهة أكثر مما تتبع الوراثات المتشابهة. و بينت أعمال ر. س. لونتين على أساس بحوث العلماء النموذجية الدمو ية، انه بالنسبة الى العالم كله، أكثر من ٨٥٪ من قابلية التغير تقع داخل القوميات، و٧٪ فقط تفصل القوميات المنتمية لعرق تقليدي واحد، و٧٪ تفصل الاعراق التقليدية. و بصورة عامة فإن الافراد من عين المجموعة العرقية، يختلفون فيما بينهم أكثر من اختلاف «الاعراق» فيما بينها.

ولذا يتخذ عدد أكثر فأكثر من العلماء موقفا قطعيا يتمثل في انكار وجود أي عرق فحسب ج.

(٤) ذكره ج. رلي، المصدر قبله ص ٣٨٥. وكذلك من جراء التهجين في الولايات المتحدة ان نسبة الخلط الابيض عند سود أميركا باعتبار بعض الصفات الفصيلية (فصيلة FY من نظام دفي، مختلط RO الخ) قد تكون ٢٥ الى ٣٠٪ واستنتج بعض العلماء أن هذه مجموعة سرعان ما لقبوها «عرق أمر يكي شمالي ملون».

رفي، في بداية البشرية كانت جموع صغيرة من الأفراد موزعة في مناطق بيئية متنوعة متباينة خاضعة لضغوط انتقائية قوية جدا، وكانت الوسائل التقنية ضئيلة، فكان من الممكن أن تتميز الى حد أنها أدت الى نسخ مختلفة، منها الانسان القائم، وانسان نياندرتال، والانسان العاقل في بدايته. فمجموع الوجه مثلا، وهو المعرض أكثر من غيره للأوساط المتميزة، يتطور تطورا متباينا، فازدادت ثروة البشرة في الملونات القاتمة في المنطقة المدارية الخ. ولكن هذا الميل الى التمين، وقد أوقف بسرعة، بقي في مستوى بسيط.

و يتلاءم الانسان في كل مكان من حيث الظروف الثقافية (في الملبس والمسكن والمأكل الخ) ولكن لا يتلاءم شكليا مع بيئته. فالانسان المولود في البلاد المدارية ذات المناخ الحار تطور سريعا كإنسان الجنوب وكالانسان البار وحتى الانسان القائم، «ففي العهد الجليدي الثاني فقط و بفضل المراقبة الناجعة للنار، اتخذ الانسان القائم مسكنه في المناخات الباردة، وتحول الجنس البشري من النموذجية المتعددة الى النموذجية الوحيدة، و بدت عملية نزع العرقية هذه بلا رجعة. و ينبغي أن تعتبر البشرية جمعاء اليوم، كمجتمع واحد لنطف متداخلة في ما بينها (٥).

وفي عام ١٩٥٢ نشر ليفنجستون مقالة الشهير «في عدم وجود الأعراق البشرية» فامام التشعب النعظيم للمسألة وكذلك امام ضعف المعايير المحتفظ بها لوصف الاعراق، يوصي ليفنجستون بالتخلي عن نظام العالم لينى في التصنيف، و يوحي باستعمال «شجرة النسب» ففي المناطق الغير المنعزلة فإن تردد بعض الصفات أو بعض الفصائل يتطور تدريجيا في اتجاهات متنوعة، وتكون الفروق بين مجموعتين من السكان مناسبة لبعدهما الطبيعي، طبقا لضرب من الانخفاض الجغرافي (ممال)، واذا ما قورن كل وصف مميز بعوامل الانتقاء والملاءمة التي تكون قد ساعدت عليه، تسجل ترددات ترتبط أكثر فيما يبدو بعوامل تقنية وثقافية وغيرها، ولا تنطبق البتة على خريطة «الاعراق» (٦). وبحسب المعيار المختار (لون البشرة والاشارة الدماغية، والاشارة الانفية، والطباع النطفية الخ) نحصل كل مرة على خرائط متباينة. ولذا يستنتج عدد من العلماء ان «كل نظرية للاعراق غير كافية هي اسطورية».

«ان التقدمات الأخيرة في الموراثيات البشرية أصبحت اليوم في وضع جعل كل البيولوجيين يرفضون وجود أعراق في الجنس البشري» (٧) ومن الوجهة البيولوجية ان لون البشرة عنصر تافه بالنسبة الى جملة النطف (الجينوم). و يري بنتلاي كلاص أن لا وجود لأكثر من ستة أزواج من النطفيات يخالف بها العرق الأبيض العرق الأسود. وكثيرا ما يختلف البيض فيما بينهم وكذلك السود فيما بينهم بعدد كبير من النطفيات ولذا صرحت اليونسكو، بعد أن جمعت ندوة من الاخصائيين الدوليين أن «العرق ظاهرة بيولوجية أقل مما هو أسطورة اجتماعية» (٨) وفي ذلك من الصحة ما جعل الياباني في افريقيا الجنوبية «أبيض شرقيا» والصيني يعتبر «ملونا».

---

(٥) مايو، رواه ج. رفي، المصدر المذكور ص ١١٥.
(٦) انظر منتاجو «مفهوم العرق».
(٧) ج. روفي، المصدر المذكور ص ١١٦.
(٨) أربعة تصريحات حول المشكلة العرقية، اليونسكو، باريس، ١٩٦٩.

وفي نظر هيرنو، الجنس البشري يشابه شبكة من الاراضي الوراثية، وفي «الجينومات» الجماعية التي تكون سكانا يتشابهون كثيرا أو قليلا، و يعبر عن بعدهم الكيفي بتقدير كمي (علم قوانين للتصنيف العددية) وحدود هذه الأراضي انطلاقا من الانخفاض المالي تتأرجح مع كل التغيرات التي تبقى صداها في الظواهر (الطباع الوراثية) والمعطيات المصلية (الأمثلة الخلقية) للمجموعات.

وطبقا لما كان لدارو ين من حدس عبقري يكون في الجملة عملا يتحرك، يتبع، ان صح القول، حركية المواقع، وتكون الشعوب، هجناء تم تهجنهم أو هم بصدد التهجن. ويحلل كل لقاء بين شعوب في الواقع كهجرة فصيلية، و يعمل هذا التدفق النطفي على اعادة النظر في الرصيد البيولوجي لدى الفريقين المتقابلين.

ولكن وان كانت هذه النظرة أكثر علمية، وان كانت هذه الاراضي الوراثية المائجة تعترف بها المجموعات المعنية، فهل سيلغى من جراء ذلك الشعور بالنموذج «العرقي»، اذ هو يحتفظ بأساس مادي مرئي ملموس في شكل الظواهر الوارثية.

ومنذ أن أكد واضعو النظرية النازية، ابتداء من هتلر، ومن بعدهم من المفكرين المزعومين، أن بين الآري «بروميثيوس الجنس البشري» و بين الاسود «الذي هو حسب أصله نصف قرد» يوجد انسان البحر الابيض المتوسط المعتبر واسطة، ولم تمت الاسطورة العرقية. واستمر علماء المورفولوجيا المتعددون على تأجيج هذه النار الفظيعة ببعض الأغصان الميتة (٩) وكان ليني يقسم الجنس البشري الى ستة أعراق: الاميركي والاوربي والافريقي والآسيوي والمتوحش والشاذ، و بلا شك ان العنصرين يحلون في أحد الصنفين الاخيرين.

ولنحتفظ من كل هذه النظريات، قضايا وفرضيات، بطابع الحركية للظواهر «العرقية» من كون هذه الحركية بطيئة كثيفة تعمل على عدة سجلات، فلون البشرة ولوقيس بواسطة المستضوي الطيفي الكهربائي ــ وكذلك شكل الأنف، ليسا سوى ظاهرة تافهة أو تكاد. وفي هذه الحركية يجب الاحتفاظ بمركبتين محركتين متداخلتين، التراث الوراثي ويمكن أن يعتبر مصرفا عظيما للمعطيات البيولوجية حال عملها، والبيئة بالمعنى الاعم اذ هي تبتدىء في الوسط الجنيني.

وما يطرأ من التغيرات من جراء العمل المشترك لهذين العاملين الاساسيين، يتم اما في شكل غير مراقب من الانتقاء وهجرة النطفة (تهجين)، واما في شكل خطير من الانحراف النطفي أو التحول. وبالاختصار هذا هو كل تاريخ مجموعة سكنية تفسر ملمحها «العرقي» الحالي، بما في ذلك عن وساطة التمثيلات الجماعية والأديان والانماط الغذائية واللباسية وغيرها.

وفي هذا السياق ماذا يمكن أن يقال في الوضع العرقي بالقارة الافريقية؟ يصير التحليل التاريخي صعبا في هذا المجال من جراء صعوبة الاحتفاظ بالمتحجرات البشرية بموجب الرطوبة

(٩) يذكر ج. رفي معجما فرنسيا للطب والبيولوجيا يبقى سنة ١٩٧٢ مفهوم الاعراق التي توجد منها ثلاثة جوع أساسية (البيض والسود والصفر) تعتمد على معايير تشكلية وتشريحية الخ. وكذلك نفسانية.
في بداية القرن كتب سينيبوس في مؤلفه «تاريخ الحضارة» ان الرجال المعمرين للأرض يختلفون أيضا في اللسان والذكاء والاحاسيس. وتمكن هذه الفروق من تقسيم سكان الارض الى جوع عدة تسمى «اعراقا».

وحموضة الارض، على أنه يمكن أن يقال، خلافا للنظريات الاوربية المفسرة لعمران افريقيا بواسطة هجرات قادمة من آسيا (١٠)، ان سكان هذه القارة في معظمهم من الأهالي.

وأما لون بشرة أقدم سكان القارة في خطوط العرض المدارية، فان الكثير من المؤلفين يعتقدون أنه كان ادكن (براس ١٩٦٤) اذ إن اللون الأسود نفسه هو مواءمة احتياء ضد الاشعاعات الضارة ولا سيما أشعة ما وراء البنفسجي. وأما لون البشرة الفاتحة وكذلك لون العينين لدى شعوب الشمال، فقد يكونان طابعين ثانويين ولدهما التحول أو الضغط الانتقائي (كول ١٩٦٥).

واليوم، ودون أن نتمكن من رسم حدّ خطي بين المجموعات «العريقية»، فانه يمكن أن نقف على مجموعتين كبيرتين منها من جهتي الصحراء. في الشمال المجموعة العربية البربرية و يغذيها تراث وراثي من «البحر الابيض المتوسط» (ليبيون، ساميون، فينيقيون، آشوريون، يونان، رومان، أتراك الخ) وفي الجنوب مجموعة زنجية. ولنلاحظ أن التذبذبات المناخية التي محت أحيانا الصحراء، قد أنشأت الكثير من الامتزاجات خلال آلاف السنين.

وانطلاقا من بعض العشرات من المؤشرات الدموية، عرض ناى ماساطوشي وأ. ر. روي كودوري على الدرس، الفروق الوراثية داخل المجموعة الواحدة و بين المجموعات وذلك في المجموعتين القوقازية الشكل والمنغولية الشكل (١١). وحددا معاملات الارتباط ليضبطوا الفترة التقريبية التي انفصلت فيها المجموعتان وتكونتا كل واحدة على حدة. وقد استقلت المجموعة الزنجية الشكل منذ ١٢٠ ٠٠٠ سنة، بينما تخصص القوقازيون والمنغوليون منذ ٥٥ ٠٠٠ سنة فقط. وحسب ج. روفي أن هذا «المخطط» يتفق مع معظم المعطيات من النموذجيةَ الدموية الأساسية (١٢).

ومنذ ذاك طرأت امتزاجات عدة على القارة، وقد وقع السعي في تشخيص المسافات البيولوجية للمجموعات السكنية بفضل التقنية الرياضية للمركبات الرئيسية. حاول ذالك أ. جاكوار على سبع وعشرين مجموعة سكنية متوزعة من جهة البحر الابيض المتوسط الى جنوبي الصحراء، موصوفة بخمسة نظم دموية تمثل ثمانية عشر عاملا (١٣)، فحصل على ثلاثة جموع رئيسية توزع على أربع تراكمات، احدها في الشمال وهم القوقازيون المركبون من أوربيين، والرقيبات، والعرب السعوديين وطوارق كل ـــ كمر.

و يشتمل التراكم الجنوبي على جموع السود في أغادس. والتراكمان الوسطيان يشتملان على الفلانيين المنعوتين بورورو و طوارق الغير التاسيلي والأثيوبيون الخ، ولكن أيضا الحرافين وقد اعتبروا تقليديا من السود. وقد يكون اذن من الخطأ أن يظن أن هذا التقسيم تأكيد للقسمة الى أعراق تقليدية اذ بقطع النظر عما قيل أعلاه، فان ملامح التقسيم تنتج عن كمية المعلومات المحتفظ بها، فاذا كانت هذه المعلومات قليلة، تمكنت جميع النقاط من التجمع.

وفيما يخص الانسان في جنوبي الصحراء، فانه ينبغي أن نسجل أن تسميته الاصلية عند لتي

---

(١٠) ان النظرية الحامية (سولينيان وغيره) الناشئة جزئيا عن جهل بعض الأحداث وجزئيا من ارادة تبرير النظام الاستعماري، أشد الاشكال العنصرية لهذه التركيبات التي تدعي العلمانية.

(١١) ناي ماساطوشي وأ. ر. رو يكودورى ١٩٧٤، ٢٦، ٤٢١.

(١٢) ج. روفي، المصدر المذكور، ص ٣٩٩.

(١٣) جاكوار، ١٩٧٤، ص ١١ ـــ ١٢٤.

كانت «الانسان الافر» (الافريقي) ثم وقع الكلام عن الزنج، ثم السود، وأحيانا عن لفظ أوسع بمعنى «زنوج الشكل» ليضم كل من يشابه السود على حدود القارة أو في قارات أخرى.

واليوم، رغم بعض الأصوات المعارضة، فان معظم العلماء يقرون بالوحدة الوراثية الاساسية لشعوب جنوبي الصحراء. فحسب بويد، مؤلف فكرة التصنيف التوليدي للعروق الانسانية، لا يوجد الا مجموعة زنجية الشكل تشمل كل القسم من القارة الكائن جنوبي الصحراء، وتشمل أيضا أثيوبيا، وهو يختلف اختلافا محسوسا عن سائر الجموع.

وأثبتت أعمال ج. هيرنو هذه النظرة بوضوح عجيب ودون أن ينكر التغيرات المحلية الظاهرة، بين هيرنو بالتحليل لقدر ٥٠٥٠ مسافة بين ١٠١ مجموعة من السكان، وحدة الشكل لسكان المدى العظيم الواقع جنوبي الصحراء الذي يشمل «السودانيين» كما يشمل «البنتو» وأهل الشواطىء والسواحليين، و«الخوازان» والأقزام وأهل النيل والفلانيين وغيرهم من «أشباه الاثيوبيين». وبالعكس انه يبين البون الشاسع من الناحية الوراثية بين «السود الآسيويين» والسود الافريقيين.

ولقد أوضحت التصنيفات أكثر فأكثر الوحدة الأساسية للغات الافريقية حتى في اللسانيات التي لا علاقة لها بالحدث «العرقي»، ولكنها جندت نفسها ضد النظريات العنصرية لاستنباط سلسلة لغوية تعكس الطبقية «العرقية» المزعومة التي يحتل فيها «الزنوج الحق» الدرجة السفلى من السلم. والتغييرات الجسدية تفسر علميا بأسباب التغيرات التي ذكرت أعلاه، وخاصة البيوطوباث (المدى الجغرافي) التي تثير أحيانا التراكمات السكنية المتنوعة (وادي النيل)، وأحيانا الجماعات المتوحدة من الشعوب المظهرة قليلا أو كثيرا لخصائص لا نموذجية (جبال، غابات، مروج، الخ). وفي النهاية أن التاريخ يفسر بعض الشواذات الأخرى بواسطة الغزوات أو الهجرات، ولا سيا في المناطق الحدودية. فالتأثير البيولوجي للشبه في الجزيرة العربية على القرن الافريقي يشعر به على شعوب هذه الجهة: الصومال والقلا والاثيوبيين، ولكن أيضا بدون شك يشعر به التوبو والفلانيين والتوكولور والسنغاي والهوسا الخ... واتفق أن شاهدنا من المركا (فولطا العليا) من له ملامح «السامي» المتميزة جدا.

وخلاصة القول، ان التنوع العجيب في الطباع الوراثية الافريقية، يشير الى تطور طويل المدى في هذه القارة. وما لدينا من بقايا متحجرة مما قبل التاريخ يبين انتشارا واسعا جدا لنموذج جنوبي الصحراء، من افريقيا الجنوبية حتى شمال الصحراء، وكان لمنطقة السودان دور مفترق الطرق بالنسبة الى هذا التفشي.

نعم ان تاريخ افريقيا ليس تاريخ «أعرق» ولكنه قد أسرف كثيرا في استعمال الاسطورة العلمية المزعومة القائلة بتفوق بعض «الاعراق» لتبرير نوع من التاريخ. وحتى اليوم ان الهجين مازال يعتبر أبيض في البرازيل وأسود في الولايات المتحدة. وعلم الانتروبولوجيا، وقد برهن أن لا علاقة بين العرق وبين درجة الذكاء، يلاحظ بالعكس أن هذا الترابط موجود أحيانا بين العرق والطبقة الاجتماعية.

ومن الأمور الواضحة منذ ظهور الانسان على هذا الكوكب أن الثقافة كان لها عبر التاريخ قصب السبق على البيولوجيا. فمتى يفرض هذا المبدأ نفسه على الأذهان؟

معجم المصطلحات

مختلط: (أو مدغوش) نسخة من الجينة.

انتقاء: توليد مفرّق للطرازات العريقية من جيل لآخر.

هجرة جينية: انتقال الأفراد المولدين لمجموعتهم السكنية الاصيلة، الى مجموعة متبناة (تهجين.) والتهجين الذي يعتبره العنصريون انحطاطا للعرق الاعلى، هوبالعكس هنا اثراء للمجتمع البشري للجينات، ومع كونه ايجابي من الوجهة البيولوجية فهويثير مشاكل اجتماعية.

انحراف وراثي: اضطراب التراث الوراثي في مجموع بشري محدود منعزل، من جراء حادث تسبب في انحطاط التردد أو في اضمحلال نسبة جينية.

تغيار إحيائي: ظهور تغير موصوف وراثي من جراء التبدل في جينة أوعدة جينات.

تعليق: أجريت هذه الدراسات في اطار الاعداد لمشروع التاريخ العام لافريقيا بطلب من اليونسكو:

ج. هيرنو: تقرير عن مفهوم العرق، باريس، ١٩٧٤.

ج. ب. ريتمير، شروح عن تاريخ العرق والعمران البشري في افريقيا، نيويورك، ١٩٧٤.

أ. ستروهال، مشاكل الدراسة للاعراق البشرية، براغ، ١٩٧٦.

الفصل الحادي عشر

الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية

د. أولدروج

اعتقد المؤرخون طويلا أن الشعوب الافريقية لم تحدث تاريخا مستقلا في اطار متطور متمين. فكل ما كان يمثل مكسبا ثقافيا كان يبدو واردا اليهم من الخارج، أتت به موجات من الهجرات من آسيا. وانتشرت هذه النظريات في عدد عديد من المؤلفات الاوربية في القرن التاسع عشر. وتقعدت وتبلورت في شكل مذهب لعلماء من الألمان (من علماء خصائص الشعوب أو اللسانيين) في العشريات الاولى من القرن التاسع عشر. وكانت المانيا في ذلك العصر مركزا رئيسيا للدراسات الافريقية.

وبعد اقتسام القارة الافريقية من قبل السلطات الامبريالية، وجد في انكلترا وفرنسا والمانيا عدد كبير من المؤلفات عن عادات الشعوب المستعمرة، ولكنه في المانيا على الخصوص جرى الانتباه الى أهمية الدراسة العلمية للغات الافريقية. فمنذ ١٩٠٧ انشئ في همبورغ، المعهد الاستعماري المعد لان يكون فيما بعد مركزا عظيما اعدت فيه أجل الأعمال النظرية للمدرسة الالمانية عن الدراسات الافريقية. وفي هذا الشأن كانت المانيا متقدمة جدا عن سائر البلدان الاستعمارية، فسنة ١٩١٦ فقط شرع في تدريس اللغات الافريقية في انكلترا، بمدرسة الدراسات الشرقية، بينما كانت مدرسة اللغات الحية الشرقية في فرنسا في ذلك العهد لا تخصص اي جزء من مناهجها لهذه المسألة. ويجب ان ننتظر إلى سنة ١٩٤٧ لتنشأ مدرسة للدراسات الشرقية في لندن وهي مدرسة اللغات الشرقية والافريقية. وبعد ذلك بقليل، شرع أيضا في فرنسا في تدريس اللغات الافريقية تدريسا منتظما.

نظريات المدرسة الألمانية والاكتشافات الحديثة

وهكذا، حتي قبيل الحرب العالمية الا ولى، كانت لألمانيا الزعامة في تدريس التاريخ والا تنوغرافيا واللغات الافريقية، وكانت آراء علماء الالمان تظهر خلال المؤلفات المنشورة بانكلترا أو فرنسا أو بلجيكا. لذا كان علماء الا تنوغراافيا في أوربا الغربية يؤكدون في بداية القرن العشرين، ان الشعوب الافريقية لا تاريخ لها. وبناء على ذلك استنبط علماء اللسانيات النظرية الحامية القائلة بأن تطور الحضارة في افريقيا انما تم بتأثير الحاميين الواردين من آسيا ونلاحظ هنا أثر آراء هيجل الذي كان يقسم العالم الى «شعوب تاريخية» والى «شعوب لا تاريخية»، وكان الاولون هم محركو الرقي البشري، بينما كانت سلبية الآخرين تجعلهم في موقع هامشي بالنسبة للتطور الفكري العالمي.

فحسب هيجل، فاننا لا نستطيع ان نكتشف اي تطور تاريخي واقع في افريقيا الحق، وفي رأيه ان الشريط الشمالي من القارة قد يلحق بالمصير الاوربي. وقرطاج كمستعمرة فينيقية، ما هي الا زائدة ملحقة بآسيا، بينما تصبح مصر غريبة عن الفكر الافريقي.

وقد اصطبغت معظم البحوث العلمية الخاصة في افريقيا خلال القرن التاسع عشر بآراء هيجل، والامر واضح في اول محاولة لرسم لوحة عن التاريخ الافريقي بقلم هـ. شورتس. فيشبه هذا المؤلف تاريخ الاعراق الاوربية بالنشاط الذي يتسم به يوم مشرق مضيء، بينما قد يشبه تاريخ افريقيا سباتا عميقا لا يكشف بعده شيء عند اليقظة.

وهكذا ففي نظر هيجل، نور الفكر قد اشع من آسيا حيث يرى ان التاريخ قد بدأ منها، وكان العلماء الاوربيون يعتقدون ان لا شك في كون آسيا، مهد البشرية، قد كانت منبت الشعوب التي زحفت على اوربا وافريقيا. ولذا كان يبدو من الواضح للعالم بالا تنوغرافيا الانكليزي ستو أن جماعة السان وهم من اقدم المجموعات البشرية في افريقيا قد جاؤوا من آسيا على فريقين متمزين: جماعة سان الرسامين، وجماعة سان النقاشين، فسلكوا مسلكين مختلفين لعبور البحر الاحمر بمضيق باب المندب، وبعد ان قطعوا الغابات الاستوائية، التقوا من جديد على حدود افريقيا الجنوبية.

واننا لنجد في مؤلفات ف. ستولمان الجغرافي والرُحالة الالماني صورة مدققة عن موجات الهجرات وعن مختلف المراحل التي مر بها عمران القارة الافريقية بالسكان. ويعرض المؤلف في كتابه النظريات التي قدمتها المدرسة الالمانية للتوجيه التاريخي الثقافي. فعند مفصل القرنين التاسع عشر والعشرين، قامت حملة عنيفة ضد المذهب التطوري الذي يكون الأساس النظري لاعمال ر. تايلور ول. هـ. مورغان ولبوك الخ. فكان علماء المدرسة التوجيهية التاريخية الثقافية يرفضون قبول فكرة التطور المنتظم الشامل لجملة البشرية. بل اتخذوا موقفا مقابلا لهذه النظرية، وصرحوا بوجود دوائر متميزة للحضارة، يمكن التعرف عليها بواسطة معايير ملائمة تتعلق خاصة بالثقافات المادية.

وفي نظر هؤلاء المؤلفين فان بث المكاسب الثقافية قد يتم خاصة عن طريق الهجرات. وكان العالم الالماني ليو فروبينيوس هو اول من صرح بهذا الرأي، ثم جاء دور أنكرمان الذي يصف انتشار دوائر الحضارة عبر افريقيا. ولكننا انما نجد عرضا مفصلا لهذا العمل في كتب ستولمان. ففي رأيه ان شعوب الاقزام يكمي وسان ـــ هي المكونة للعمران السكني الاهلي الاقدم في افريقيا، وتكاد هذه

الجموع لا تملك اي عنصر ثقافي. ثم اقبل الزنوج ذوو البشرة الدكناء والشعر الجعد، آتين موجات مهاجرين من اعماق الجنوب الشرقي الاسيوي. وانتشر هؤلاء الزنوج خلال السهوب السودانية، وتوغلوا في الغابة الاستوائية مدخلين معهم فلاحة بسيطة وغرس الموز والقلقاس، واستعمال الآلات الخشبية والقوس والسهام والبيوت المدورة او المربعة. وكانت هذه الشعوب تتكلم لغات متقطعة. ثم تبعهم اول الحاميين من اصل آسيوي أيضا لكن من مناطق تقع شمالي المهد الاصلي للزنوج وكان هؤلاء الفلاحين الجدد يتكلمون لغات. ولعلهم علموا الاهالي الفلاحة بالمسحاة وزراعة الذرة وغيرها من الحبوب وتربية الماشية الصغيرة ذات القرون الخ. وقد يكون تهجين الحاميين الاولين بالزنوج ولد شعوب البانتو. ثم جاءت زحوفات الحاميين ذوي البشرة المفتوحة وقد تمت إما عن طريق برزخ السويس، واما عن طريق مضيق باب المندب. وقد تكون هذه الشعوب هي اجداد الفلانيين والماساي والباري والكلا والصومال والخوي خوي. وقد يكونون ادخلوا عناصر جديدة ثقافية مثل المواشي الكبيرة ذات القرون، والرمح ومختلف الاستعمالات الجلد، والترس الخ. ويجعل ستولمان البلاد الأصل للحاميين ذوي البشرة المفتوحة في سهوب آسيا الغربية، وفي نظره تكون موجه الهجرة التالية اتت بالساميين الذين يكونون قد اسسوا الحضارة في مصر القديمة، وأتوا بزراعة الحبوب وباستخدام المحراث وباستعمال البرونز. ثم اتى دور الهكسوس واليهود القادمين الى مصر ودور الحبشات والمهري النازحين الى هضاب اثيوبيا. وآخر من قدم مصر العرب في القرن السابع. وعند دخول هذه الشعوب القارة أدخلوا اليها عناصر جديدة من الحضارة لم تكن البتة معروفة عند اهالي البلاد السابقين. وظهر كتاب ستولمان سنة ١٩١٠ في همبورغ، قبيل الحرب العالمية الاولى، ولكن آراءه فيما يخص البناء التدريجي للحضارة الافريقية بفضل اعراق اجنبية قد كررها وطورها فيما بعد علماء اتنوغرافيا آخرون: سبانوس ولوشان في المانيا، وسليغمان في انكلترا وهونيا في النمسا الخ.

وطبقا لنظريات المدرسة التاريخية الثقافية، فاننا نشاهد في اللسانيات ظهور جملة من النظريات توصف بأنها المذهب الحامي. فيرى س. ماينهوف، وهو باعثها،ان اجداد السان كانوا أقدم شعب أهلي في افريقيا. فكانوا يمثلون عرقا متميزا تماما، و يتكلمون لغات ذات تنغم خاص. واما الزنوج فكانوا يعتبرون من اهالي المنطقة المدارية والسودانية، وكانوا يتكلمون لغات متقطعة ذات اصوات وجذور وحيدة المقطع ثم تظهر الشعوب من العرق الحامي الواردة من جزيرة العرب الى السودان مرورا بافريقيا الشمالية، وهي تتكلم لغات اعرابية وتتعاطى تربية المواشي،وهم في نظره ثقافيا من درجة اعلى من الزنوج، على ان جزءا من الزحف الحامي امتد على سهوب افريقيا الشرقية واختلط بالاهالي في تهجين أدى الى الشعوب الناطقة بالبانتو.و بصورة عامة يمكن اختصار هذا التطور التصاعدي في صورة شريط ذي اربع لقطات، في البداية اللغات ذات تنغم خاص، ثم اللغات المتقطعة البسيطة جدا التي يتكلم بها الزنوج السودانيون.

وعند الاختلاط باللغات الحامية ظهرت اللغات البانتو الملتصقة وهي لغة الإشراف. واخيرا اتت لغات الفاتحين الحاميين لغات ذات إعراب وهي من مستوى عال جدا. وقد انتصر عدد كبير من العلماء للنظرية الحامية التي فرضت نفسها انطلاقا من المانيا مرورا باوربا الغربية جمعاء وبما وراءها.

على ان هذه النظرية انهارت فيما بين الحربين العالميتين، واكتشاف الانسان الجنوبي القديم سنة

١٩٢٤ بمقاطعة الكاب كان باعثا على وجوب اعادة النظر فيها، وتبع ذلك اكتشافات اخرى، وهي مستمرة دائما في شمال افريقيا وفي جنوبها ولكن بصفة خاصة في الشرق، في طانزانيا وكينيا واثيوبيا. فتثبت كل هذه الوثائق بصفة قطعية لاشك فيها ان تطور الانسان وكل النماذج العرقية وقع داخل هذه القارة نفسها منذ الاصول. واكتسحت بذلك ذاته نظرية الموجات الهجرية الواردة من الخارج. وكما يصرح بذلك حقا العالم الباليونتولوجي الشهير س. أرمبرج ، ان افريقيا هي القارة الوحيدة التي يوجد فيها، في خط تطور غير منقطع، كل مراحل التطور البشري. فالانسان القديم الجنوبي وانسان جاوة والنيندرتالي والانسان العاقل تتعاقب فيها مع الوسائل الملائمة، منذ العصور الخالية حتى العصر الحجري الجديد. وهكذا تتأكد فكرة داروين الذي كان يضع اصل الانسان الاول في افريقيا. ثم ان هذه الاكتشافات قد اتت بالحجة الملموسة على أنه من المشين أن ننكر لافريقيا تطورا ثقافيا داخليا. وفي هذا الشأن فان الرسوم والنقوش الصخرية في الاطلس وفي افريقيا الجنوبية وفي الصحراء، تقدم لنا عن ذلك شهادة ساطعة لها أهمية قصوى.

واما قدم البقايا الاثرية فلا شك فيه منذ ان شفعت اليوم التاريخية النسبية المرتبطة بصنعة الاشياء وبموقعها داخل الطبقات،بتأريخ مطلق يرتكز على طرق توقيتية علمية كطريقة الفحم ١٤ والبوتاسيوم ــ ارغون. فتغير بذلك جدول التطور الثقافي للشعوب الافريقية وقلب ظهرا على عقب. وقد لوحظ مثلا في خطوط العرض الصحراوية والساحلية، ان العصر الحجري الحديث يرجع الى فترة اقدم من التي كانت تظن، وهذا مما قبل جدول التطور الافريقي بالنسبة الى عالم البحر الابيض، وبالخصوص الشرق الاوسط.

وما اكتشف من البقايا في تاسيلي ناأجر كما في تادرارت اكاكوس على حدود الجزائر وليبيا قاطع حاسم: ففحص المواقد وشظايا الخزف فيها يدل على ان الفخار كان مستعملا منذ ٨٠٠٠ عام، وفي اكاكوس يحمل هيكل لشخص من نوع الزنجي الشكل وقع الكشف عنه، آثار ثياب من جلد، ولما درست هذه المواد، اعتبرت من تاريخ يرجع الى ٩٠٠٠ عام، وكذلك ان البقايا التي عثر عليها في الهكار والتي وقع تحليلها بثلاثة مختبرات مختلفة، كشفت كلها عن سن مشابهة. و ينتج عن ذلك ان العصر الحجري الحديث في تاسيلي ناجر وفي اللايندي يبدو أنه أقدم من مثيلة في المغرب ومعاصرا لنظيره في اوربا الجنوبية وفي برقة (شرقي ليبيا).

واعجب من ذلك ما استنتج من فحص القطع العضوية المجموعة في النوبة السفلى في حقول العصر الحجري الجديد. و يقدر انه في سنة ١٣٠٠٠ ق. م. تقريبا وفي هذه الجهة، كانت تجني مواسم الحبوب البرية وكانت تهيأ للطعام. فالتحاليل بالفحم المشع للبقايا المتحجرة في بلدة بلانا، اعطى تاريخ ١٢٠٥٠ ± ٢٨٠. وعين التجربة وعلى انقاض طوشكي كشفت عن تاريخ ١٢ ٥٥٠ ± ٤٩٠ مما يدل على أن زراعة النباتات في وادي النيل كانت جارية اربعة آلاف سنة قبل العمل بها في الشرق الأوسط.

وحسب تقليد مستقر، كان كل عرض عن تاريخ افريقيا يبدأ دائما في مصر. واليوم، كل شيء يدل على وجوب اعادة النظر في هذا التقليد.

وقد سمى عالم المصريات الاميركي بريستد جملة البلدان المكونة من مصر وفلسطين وما بين الرافدين باسم «الهلال الخصيب». وذلك ان هذه المنطقة شبه هلالا عظيما ازدهرت في صلبه ومن

اجله الحضارة الفرعونية وحضارات المدن الدول في سومر وأكاد. والواقع ان هذا العمل لم يشرع فيه الا حوالي ٥٠٠٠ او ٦٠٠٠ قبل الميلاد.

هذا بينما قبل ذلك بكثير كانت الظروف المناخية من وادي الهندوس الى المحيط الاطلسي ملائمة لانتشار تربية الماشية وللزراعة البدائية، اي كل مامن شأنه ان يكون مجتمعا تشاهد فيه اولى خطوط الطبقات والدولة.

وهكذا فان «الهلال الخصيب» لا يمثل سوى النهاية والشاهد لمجال فسيح مفعم بالحياة، اخذ الناس يستأنسون فيه بالحبوب البرية وشرعوا في جعلها اهلية في آن واحد مع الدواب الضخمة، من البقر الى الماعز. و يشهد على هذا التطور العظيم ما تعبر عنه الرسوم والنقوش الصخرية بالصحراء، وما يمدنا به الفحم المشع وتحليل غبار الطلع المتحجر من ارشادات الخ. ومن الممكن ان تصلح بعض الخطوط التوقيتية بفضل التدقيقات الواردة فيما بعد، ولكن الصورة المقدمة حتى الآن فيما يخص العمران في العالم القديم، قد تجاوزتها الأحداث على الإطلاق، وعوضا عنه فلابد ان يعترف لافريقيا بدورها كقطب لانتشار الناس والتقنيات في أقدم العصور من التاريخ البشري (اول عصر الحجارة القديم). وفيما بعد قد لوحظت تيارات للهجرات المعاكسة اي رحلات العودة الى القارة الافريقية.

مشاكل انتروبولوجية ولسانية

تمدنا الاشارات الأنتروبولوجية بصورة عامة بعلامات اثبت واشد استقرارا من أحداث اللغة التي تخضع لتغيرات سريعة أحيانا في ظرف بضعة أجيال، مثلا اذا هاجر شعب الى وسط لساني جديد، أو كذلك في حالة الغزو اذا ما كان الفاتحون يتكلمون لهجة تخالف لهجة الاهالي.

ومثل الاستيطان الزنجي في اميركا الشمالية له دلالة في هذا الشأن: حين حل هذا المجتمع البشري بمناخ وفي وسط جغرافي يخالفان ما كان سائدا في قارته الاصلية، فقد احتفظ عمليا بنموذجه الانتروبولوجي (الاصلي كاملا) بينما هو فيما يخص اللغة او الحضارة لا يختلف في شيء عن السكان البيض في الولايات المتحدة ولا تبقى عناصر الثقافة الافريقية القديمة الا في المجالات الثقافية والروحية: الموسيقى والرقص والمعتقدات. ويجدر ان نشير الى وضع مقابل لهذا هو وضع مجموعة قليلة العدد جدا نعني السيدي احفاد الافارقة الذين نقلوا من الساحل الشرقي الافريقي الى الهند منذ بضعة قرون. فقد كانوا في بداية القرن التاسع عشر يتكلمون لغتهم الاصلية، ولكنهم اليوم يتكلمون لغات الشعوب الهندية المحيطة بهم، الكوجاراتي، الاردو الخ. ولم يحتفظوا من آثار تعكس نسبتهم الافريقية الا بملامحهم الطبيعية.

في كلتا الحالتين اذن، فإن الافارقة الذين فارقوا موطنهم قد غيروا لغتهم في فترة قصيرة من الوقت، احيانا في ظرف جيل او جيلين.

ويجدر ايضا ان نذكر اللغات التي يتكلمها اهالي افريقيا الشمالية. فبعد الفتح العربي لبلاد المغرب، وخاصة بعد اندماج «القبائل» العربية في القرن الحادي عشر، صارت شعوب افريقيا الشمالية كلها ثقافيا، عربا من حيث اللغة ومن حيث الحضارة، ولم تبق اللهجات القديمة الا في بعض الجهات من المغرب الاقصى و بلاد القبائل بالجزائر، وفي جبل نفوسة وفي الواحات. وحسب


١


٢


٣

• ١) امرأة هاراتينية من ايديليس في الجزائر (تصوير أ. أ. نود).
• ٢) رجل من شمال أفريقيا، المغرب. (تصوير هوا ــ كوى، ريشيه).
• ٣) امرأة جزائرية وطفلها (تصوير أ. أ.، جيهانت).

علماء الانترو بولوجيا فإن الملامح الاساسية التي كانت للانموذج القديم الطبيعي مازالت باقية. فالعناصر الانترو بولوجية اذن، في جملتها، ما لم تؤثر البيئة الحيوية على الجسم، اكثر استقرارا من المعطيات التي تمدنا بها اللغة والحضارة. وما لدينا اليوم من الاحداث، يمكننا من التصريح بان توزيع النماذج العرقية المعاصرة في القارة الافريقية، يعيد في اهم الامور، الخريطة القديمة للجموع الكبيرة الانترو بولوجية الموصوفة احيانا في عجالة بـ «الاعراق». فمختلف النماذج من «عرق» البحر الابيض المتوسط، كانت ممثلة في افريقيا الشمالية منذ عهد بعيد جدا، وفي الشرق كانت تسكن شعوب من الانموذج الا تيودي الشكل وهذا ما تؤيده اكتشافات علماء الانترو بولوجيا في الكينيا. وأما القطاع الجنوبي من القارة فكانت تشغله جموع سان.

وكانت الغابة المدارية والاستوائية تمتد قديما على مساحة افسح بكثير، ومن المحتمل ان يكون هناك تغيير جمع طريف، هو جمع الاقزام، وسماتهم مدنية بالكثير للرطوبة الكبيرة والى انعدام يكاد يكون تاما للاضاءة في الغابة. و «العرق» الزنجي من الانموذج المعروف بالسوداني والكنغولي قد يكون قد تميز في خطوط العرض المدارية ولا سيا في افريقيا الغربية. وفي هذا الموضوع ليس لدينا عدد كبير من المتحجرات الممتحنة المؤرخة كما ينبغي، وذلك بدون شك من جراء التحلل الكيماوي التابع لحموضة التربات. ومع ذلك فبعد انسان اسلار، اكتشفت في الصحراء وفي نيجيريا الجنوبية هياكل عظمية من انموذج زنجي الشكل، تعود الى فترات مختلفة وأحيانا قديمة جدا. وهي فيما يبدو، تشير الى أن هذه المنطقة بؤرة أصلية لهذا الانموذج البشري.

وثارت جدالات قوية حول مشكل الاستيطان الاصلي بالصحراء، ولكن دراسة الفن الجداري لا تبقي اي شك في هذا الموضوع. ان الاستيطان البشري الاسود كان سائدا في هذا القطاع، وهو لا يمنعنا ان نجد منذ عهد بعيد في هذه الجهات نماذج بشرية أخرى، هي مجموعات ملامح وجهها افريقية متوسطية (نسبة البحر الابيض المتوسط). وفي مصر، في الوثائق وعلى معالم الامبراطورية القديمة، يشار الى الليبيين تامهو ذوي البشرة المفتوحة والعيون الزرق، ولكن تذكر ايضا شعوب تهنو ذات بشرة أقتم. وفي المصادر اليونانية ايضا نجد إحالات خاصة باثيوبيين ذوي بشرة مفتوحة، ولكن كذلك احالة اخرى خاصة باثيوبيين جنوبيين لهم بشرة ادكن، فيبدو حينئذ ان السكان الاصليين في ليبيا كانوا خليطا. و يصرح كاتب لا تيني مثلا: «شبه البعض من الليبيين الا ثيوبيين والبعض الآخر هم من أهل جزيرة إقريطش (١).

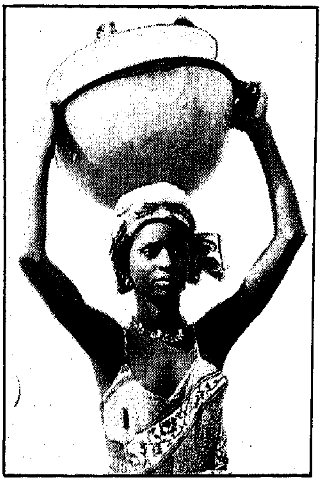
و يبدو ان التركيب العرقي لعمران وادي النيل كان متشعبا، ان شعوب هذه الجهة فروا من جفاف الصحراء فانزووا الى رطوبة الوادي. واختلطت مجموعات «اثيوبية» وافارقة متوسطيون بالسود من الانموذج السوداني. ولابد ان امتزاجات من هذا القبيل قد تمت للاسباب ذاتها في الاحواض النهرية ـــ البحيرية الملاصقة لصحراء السنغال الادنى والنيجر الأوسط والتشاد.

وان صح ما اشير اليه اعلاه من كون الملامح انترو بولوجية تتمتع بثبات عجيب احيانا الى حد عدة آلاف من السنين، فليس من الممنوع ان نستكمل في ما قبل التاريخ بعض الصفات الرئيسية للشبكة العرقية الحالية، وعلى كل ان عملية تكوين «الاعراق» هي حاصلة تفاعل بين عوامل

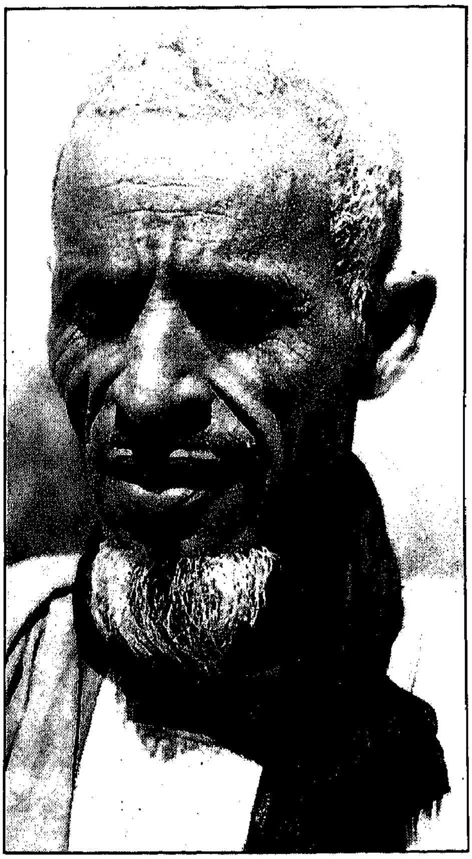
(١) نشر ر. فورستر، أ، ١٨٩٣، ص ٣٨٤.



١



٢



٣

● ١) رجل من سكان الڤولتا (تصوير أ. أ. ، نود).
● ٢) امـرأة مـن شـعـب الـ «ساراكولية»، موريتانيا، منطقة النهر، جماعة سونينكية. (تصوير ب. نانتيه).
● ٣) رئيس عشيرة رحّل من الركيز في موريتانيا (تصوير ب. نانتيه).

متعددة تخصص شيئا فشيئا الملامح الموروثة، ولكنها أيضا تنقل بالوراثة الملامح المتميزة. وكانت هاته الملامح تخصص اساسا بموجب ظاهرة الملاءمة للوسط المحيط: أثر الشمس، الحرارة، الغشاء النباتي، درجة الرطوبة الخ. وحسب قاعدة عامة، تضعفها بالطبع استثناءات كثيرة، في نظر علماء الانتروبولوجيا فان افريقي الغابة اقصر قامة واضح اللون، بينما يكون إنسان السهوب والساحل طويل القامة ادكن اللون. ولكن لا ينبغي ان ينظر الى الامور بطريقة جزئية، اذ ان كل العوامل اتت بفعلها في آن واحد، فهكذا انتقال للمجموعات الحاملة لتراثات وراثية متباينة يكشف في الحال عن مصدرين ممكنين للتحولات: اولا تغير البيئة الحيوية ثم التقاء مجموعات مختلفة تساعد على امكان تهجنات متنوعة. فاذا ما لوحظ شبه بدني عجيب بين اعراق بعيدة جدا الواحد عن الآخر في المدى، كما بين الدينكا في الصعيد المصري والولوف في السنغال وهم يتشابهون في دكنة البشرة وطول القامة فيبدو ان وجودهم على خط عرض واحد يوفر امكانية مرضية للتفسير. ولكن يجب ان لا نغفل عن تظافر العوامل المستخدمة من حركة التاريخ نفسها (٢).

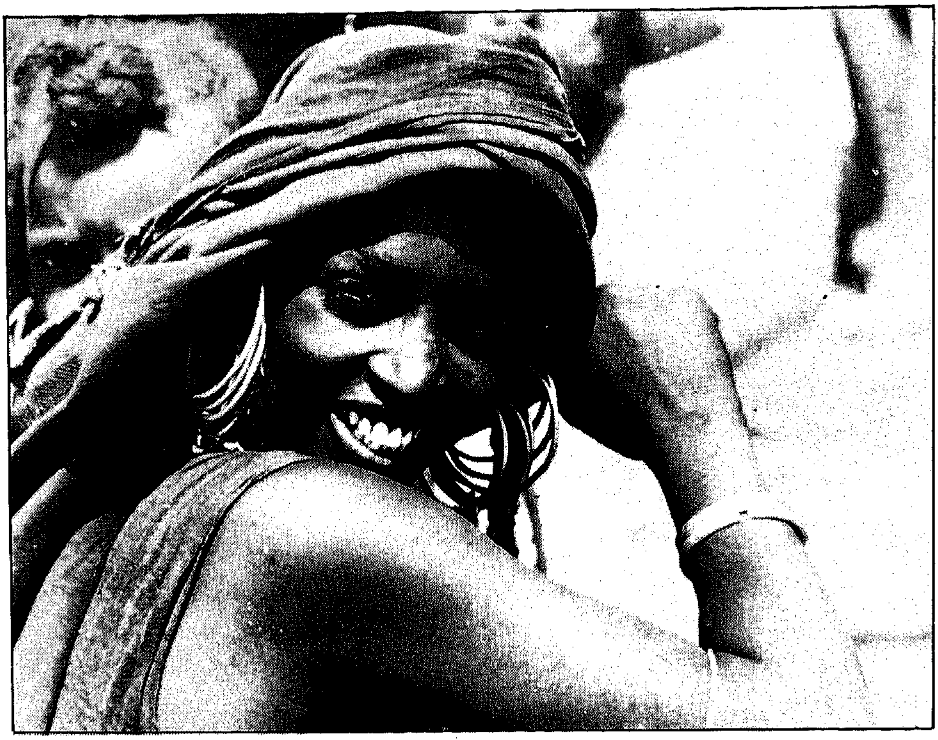
وفي هذا السياق ان المثل المثير للكثير من الجدال، مثل الاقزام والسان، يجدر ان ينظر فيه بالتفصيل.

وفي القديم كان يظن ان هناك تطابقا عرقيا بين الاقزام في افريقيا واقزام آسيا الجنوبية. و يبدو ان وجهة النظر هذه قد تركت اليوم. فكل يرجح الظن بان ذلك نتيجة مواءمة قديمة جدا بين انموذج بدني مع الوسط المحيط، وان هذا العمل قد جرى في فترة طويلة من الانعزال، واليوم نجد الاقزام في غابات الكامرون وفي الكابون وفي المناطق في افريقيا الوسطى، بالزايير وروandا. ولكنه يظهر من المتحقق ان مجال انتشار الاقزام في القديم كان اكثر امتداد. وفي المأثور المنقول لدى بعض الشعوب من افريقيا الغربية، يروى ان مجموعات من الاقزام كانت تسكن الغابة قبل مجيء الشعوب ذوي القامات الطويلة. نعم ان بعض الخرافات في اوربا الغربية ايضا تذكر اقزاما حدادين استقروا على الجبال. ولكن المأثور المنقول الافريقي لا يبدو وليدا للمخيلة الشعبية فقط، فهو ينطبق من بعض المصادر التاريخية التي تكشف عن وجود الاقزام في مناطق لا وجود لهم فيها اليوم.

وفي مصر، ؤ كتابة تعود الى الاسرة السادسة من الامبراطورية القديمة على جدران قبر هرهوف (٣) في اسوان نشاهد نقل من رسالة الفرعون بيبي الثاني يشكر فيها الملك الشاب الأمير الذي أهداه قزما اسمه دنك، و يوجد هذا اللفظ في اللغات الحالية في اثيوبيا، بالامهرية ومختلف لهجاتها، كما في التكرينيا والكلا والكمباطا بالصيغ الثلاثة: دنك، دانك، دنكي، دنكو، دينكا، (٤) وتذكر رسالة الفرعون ان قبل ذلك بقرن، في عهد الأسرة الخامسة، اتى بقزم مشابه للفرعون ايزيسي، وفي هذا السياق، لنذكر ان رحالة انكليزيا اثبت وجود اقزام دوكو في اثيوبيا الجنوبية. ويمكن ان نستنتج وجودا قديما للاقزام في المناطق التي يحلها اليوم السودان واثيوبيا.

---

(٢) انظرج هيرنو، ١٩٧٠، مجلداء، ص ٥٣ و ٥٥.
(٣) ان النقل الحرفي لهذا الاسم: هير ـــ هو يف ، (هرزق، ١٩٣٨، ص ٩٠).
(٤) و. ليسلو، ١٩٦٣، ص ٥٧.



١

● ١) امرأة من عشيرة الـ «بورورو» من شعب الفلاني، تاهورا، النيجر (تصوير ب. نانتيه).
● ٢) طفلة طارقية، أغاديس، النيجر (تصوير ب. نانتيه).
● ٣) امرأة من جرما سنغاي، بالاييرا، النيجر (تصوير ب. نانتيه).



٣



٢

وشيئا فشيئا حل أقوام أتوا حديثا محل اقزام الغابة الاستوائية والمدارية، وهم شعوب تتركب من اشخاص طويلي القامة يتكلمون لغات بانتو. وكما يروي النسونك اليانجا، في الدورة الملحمية للمنكو عن استيطان وادي الزايير، فإن الاقزام الاهالي تراجعوا شيئا فشيئا الى المناطق النائية في غابات الا توري والاو يلي. ولشعوب بانتو آخرين قصص اصلها متشابه. ويمكن ان نستنتج ان ما بقي من مجموعات الاقزام اليوم هي كجذيرات تشهد على استيطان قديم أوسع بكثير تم في غابات افريقيا الاستوائية والمدارية.

والسان يمثلون جمعا آخر طريفا في القارة الافريقية، لهم قامة قصيرة ولون نحاسي واصفر وشعر محبب «كحب الأبزار» ومازالت كتب الانتروبولوجيا تحشرهم مع الخوي خوي في «العرق» الخويسان. وبدون شك ان هذا امتدا خارجيا للتصنيف اللساني الذي يجمع بين السنة السان والخوي خوي في مجموعة واحدة، خاصتها المشتركة هي وجود مصوتات ممطقة ذات تنغم خاص لها قيمة صوتية. ولفظ «خويسان» الذي اقترحه ج. شابرا وتبناه عدد من المصنفات، وارد في الاصل من لفظين خوى وسان *: خوي بمعنى «انسان» وسان حيث المادة سا معناها «كدس، جنى الثمار، قلع الجذور، قبض على حيوانات» اي انه وصف لجمع من الناس بكيفية عيشهم «بنمط انتاجهم». وفي الواقع ان الصفات المشتركة بين الخوى خوى والسان قليلة جدا: نذكر منها اللون المفتوح واللغات ذات تنغم خاص. ولكن هذه الصفة الاخيرة ليست خاصة، اذ هي توجد في اللغات البانتو في الجنوب الشرقي كالزولو والكسوزا والسوطو الخ.

على انه توجد فروق عديدة بين المجموعتين: اذ يتميز الخوى خوى بقامة اطول و بوضع الشعر والعلامات الجمجمية (٥) وضخامة الارداف لدى النسوة، بينما يختص السان بوجود ظفرة على عيونهم، ثم ان لغات الخوى خوى تختلف عن لغات السان من حيث المعجم ومن حيث النظام النحوي. وبيّن أ. ج. وستفال ** الاخصائي الكبير في هذه المادة ان الضمائر عند خوى وهي تمثل أقدم قسم واثبته في الخطاب، لها صيغ واضحة وضوحا كبيرا، اذ يوجد فيها جنسان والمفرد والمثنى والجمع مع صيغ الضمنية والحصر بينما لا يوجد شيء من ذلك في لغات السان (٦). وليس الامر هنا يتعلق بمجموعة واحدة لسانية. واما من حيث الثقافات فهما يختلفان من كل وجه، كما سجل ذلك منذ القرن السابع عشر الرحالون الاولون ومن بينهم بيتر كلب. فكان الخوي يعيشون في القرى و يتعاطون صناعة المعادن و يشتغلون بتربية الماشية. بينما كان السان رحالة يعيشون على الصيد وجني الثمار. وهكذا فان عملي الانتروبولوجيا واللسانيات يعارضان في تجميع هذين الشعبين في كتلة واحدة. وكل منهما ايضا كان له تطور تاريخي متميز. فالسان بدون شك، يكوّنون بقايا الاستيطان الاصلي في الجنوب الاقصى من افريقيا. واليوم لقد دفعوا الى المناطق الصحراوية المنفرة في نميبيا والكلاهاري، وتوجد منهم كذلك جموع منعزلة في انكولا، ولكنهم في القديم كانوا ينتشرون خلال السهوب الجنوبية والشرقية حتى حدود الكينيا، كما تشهد بذلك اسماء الأماكن واسماء المياه، اذ ان

---

(٥) انظر الكسياف: في التنصيف الانتروبولوجي لأهالي افريقيا «ضمن المشاكل الأساسية ـــ للدراسات الافريقية» *.

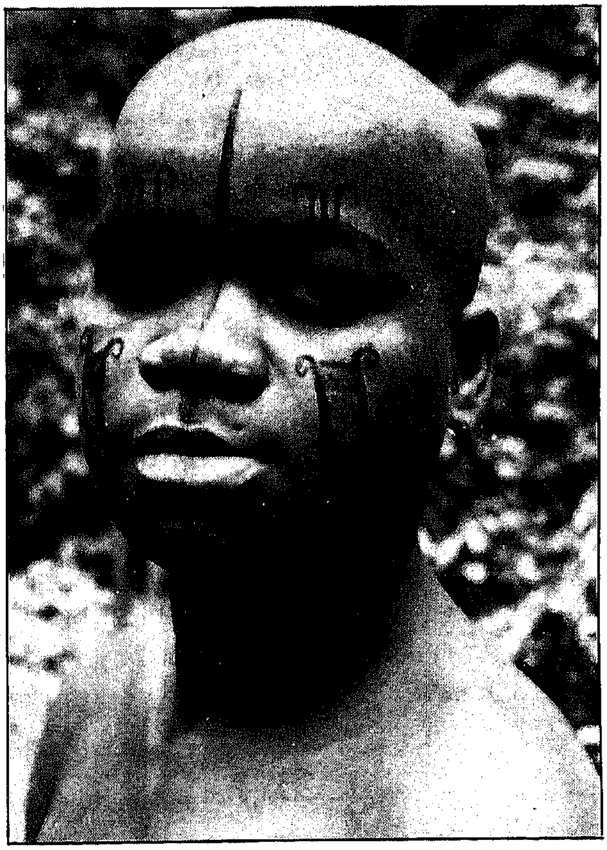
(٦) انظر أ. و. ج. وستفال: ١٩٦٢، ص ٣٠ ـــ ٤٨.

* الأصل المترجم عنه وكما في المطبوع خوي خوي.

** ليس في المطبوع وستفال: انظر الكسابدي.


١


٢


٣

● ١) قزم من الـ «توا»، رواندا (تصوير ب. نانتيه).
● ٢) جماعة من الـ «سان» (تصوير ف. بالسان، مجموعة متحف الانسان، باريس).
● ٣) قزم من الكونغو (تصوير كونغو - بريس، دانداي، مجموعة متحف الانسان).

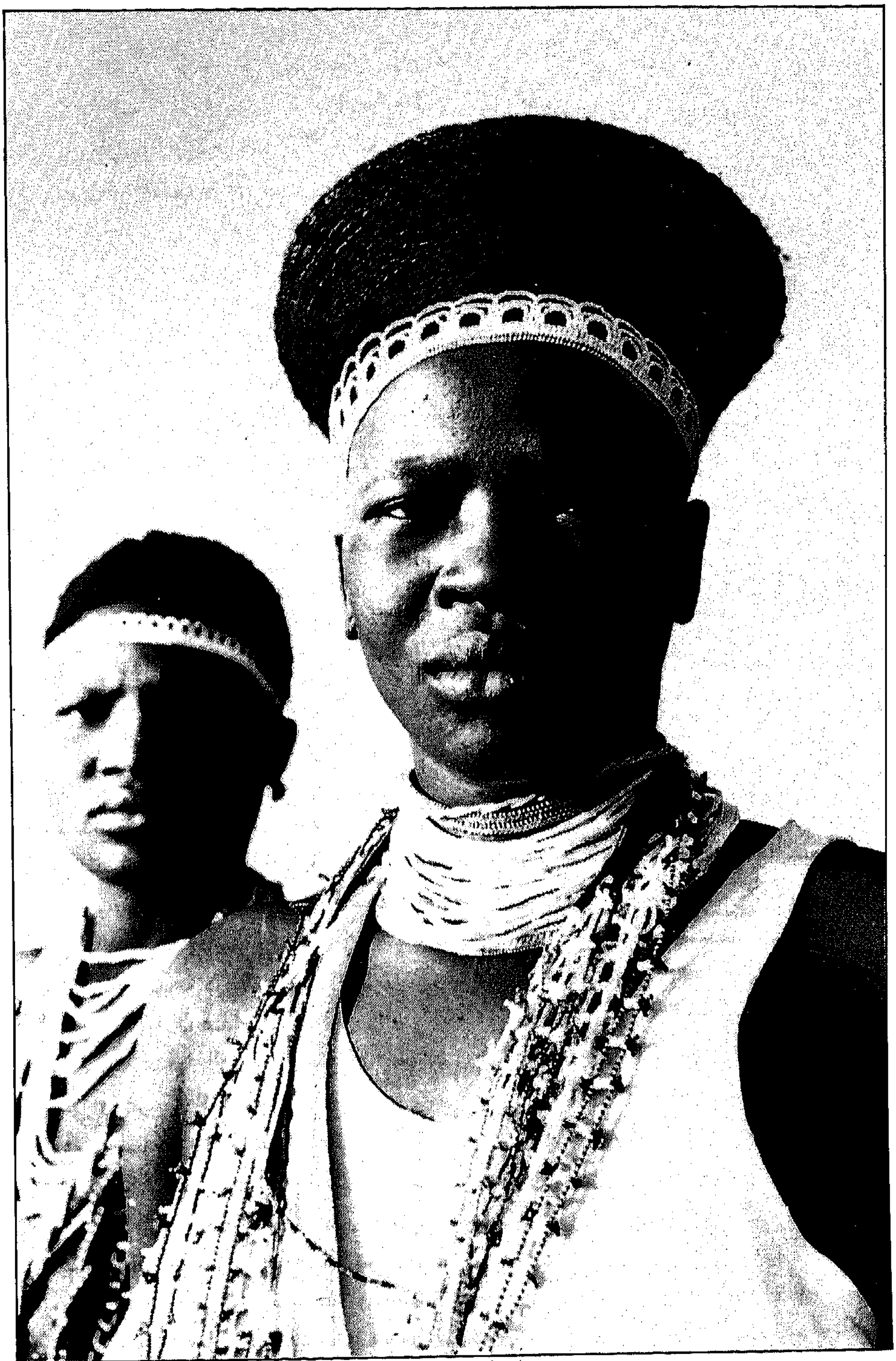
مسميات الانهار المحلية والجبال مقتبسة من لغات السان. وكذلك المصوتات ذات التنغم الخاص قد اقتسبتها عدة لغات بانتو. ثم ان الرسوم الجدارية على الهضاب العليا في افريقيا الجنوبية تمثل احيانا معارك بين السان ذوي القامة القصيرة واللون المفتوح، وبين محاربين سود ذوي قامة طويلة يمكن تعيين انتمائهم العرقي حسب شكل التروس التي يستعملونها.

والهدزابي، وهم جمع عرقي صغير يعيش قريب بحيرة اياسي (طانزانيا) يمكن اعتبارهم شهودا على الانتشار القديم لاستيطان السان عبر افريقيا، ومع ان لغتهم لم تدرس درسا عميقا فانه من الغالب على الظن، انها قريبة من لغة السان. وتأييدا لنظرية قائلة بانتشار السان انتشارا قديما على اماكن افسح، نذكر الحجارات المستديرة المثقوبة الوسط التي توجد أيضا في افريقيا الشرقية. ويسمى السان هذه الحجارات كوى وكانت تستعمل لأثقال العصي المستخدمة لقلع الجذور الصالحة للاكل. ولكن نشر هذه التقنية عن السان، لم يقم عليه الدليل. فعند الكالا مثلا في اثيوبيا الجنوبية وبالحرار، يستعمل الدوندار وهو وتد مثقل بحجارة لحفر الأرض، ويستعمل الجهاز نفسه لاثقال المدق المستخدم لسحق التبغ.

وعلى كل، فانه من اللازم الا نقصر الاستطيان الاقدم في افريقيا الجنوبية على الاقزام في الغابات وعلى السان في السهوب. فقد تكون مجموعات اخرى وجدت معهم. وهكذا فقد اكتشف مثلا في انكولا مجموعة الكوادي وهي قريبة جدا من السان من حيث اللغة ومن حيث نوع العيش. وفي بداية القرن العشرين درس أيضا فيدار المجموعة العلمية الاوطان ورغم قامتهم القصيرة وعيشهم من جني الثمار ومن الصيد، فإنهم يتميزون عن السان بلون بشرتهم الشديدة السواد وبشفاههم الثخنة، وهم يسمون بالنوخوا أي «الرجال السود» خلافا للخوى خوى الموصوفين «بالرجال الحمر» ونظامهم الطريف في العد يتميز عن النظام العشري المستعمل لدى الخوي خوي. ومثل هذه المجموعات، وهي بدون شك مازالت باقية في مناطق أخرى، تلقي ضوءا ثمينا على تاريخ الاستيطان الاصلي المتشعب في الغابات والسهوب في افريقيا الوسطى والجنوبية، ويظهر هذا التشعب في لغات البانتو في المستوى المعجمي والصوتي، مثلا عندما يدل وجود الاصوات ذات التنغم الخاص على اتصالات قديمة جدا بين الأعراق. ويتبع ذلك فروق بين لغات البانتو وقد يصل الامر احيانا كما هي حال مجموعة دزنيك في الشمال الغربي من منطقة البنتو، الى فروق في بنية جذور الكلمات. ومن دون شك فان هذا الخلاف ناشيء عن اسس لسانية سابقة، ويشكل الاقزام والسان اليوم جموعا ضئيلة عدديا بالنسبة الى مجموعة «الدزينك» السائدة، بل وحتى بالنسبة الى العرق الافريقي الوسيطي في افريقيا الشمالية.

وفي يومنا هذا لا تنطبق الخريطة اللسانية في القارة مع توزيع النماذج «العرقية» ولعل هذا الانطباق كان موجودا ف البداية، ولكن منذ عهد بعيد. وقد تطورت الديموغرافيا والهجرات والتهجينات، وزال الانطباق بين التطور اللساني والعمل التكويني للنماذج «العرقية» ونعني بالعبارة الاخيرة، ارث المؤشرات الوراثية وملاءمتها التدريجية للوسط، واختلاف الخريطتين «العرقية» واللسانية واضح بالنسبة لشعوب السودان، منطقة التجمع لنموذجين مختلفين من الاسر اللسانية.

وينتمي شمال افريقيا، بما فيه موريتانيا واثيوبيا، الى حقل فسيح من اللغات السامية الشاميتية. ويظهر ان هذه التسمية غير صحيحة، اذ هي تتضمن وجود مجموعتين: السامية من جهة



● امرأة من الزولو (تصوير أ. روبيار، مجموعة متحف الانسان).

والشاميتية من جهة أخرى، وفي القرن التاسع عشرقد سميت بالفعل سامية، لغات هذه المجموعة التي كانت مستعملة في الشرق الاوسط، وسميت شاميتية لغات افريقيا. ولكن م. كوهان، عالم الساميات الفرنسي، لا حظ انه لا موجب ولا حجة تبرر هذا التقسيم الى مجموعتين، وتصنف اليوم بصفة عامة، لغات هذه الأسرة الى خمس مجموعات: السامية والكوشية والبربرية (٧) والمصرية القديمة (٨) والمجموعة التشادية اللسانية. فيتكلم لغات هذه العائلة اللسانية الكبيرة عدد كبير من الاعراق (ساميين وسود). وفي اقصى جنوب القارة الافريقية فان لغات السان مع ما يضاف اليها من لغات كوادي في بانكولا وهدزابي في طانزانيا، تنتمي فيما يبدو الى مجموعة متميزة، صفاتها المشتركة هي وجود الاصوات ذات التنغم الخاص والمطقة والبنيات المقطعة.

وقد يكون من الاضمن ان تسمى هذه المجموعة باللغات الافريقية القديمة كما يتحدث عن اللغات الاسيوية القديمة في الحدود الشمالية الشرقية من القارة الاسيوية. ولا يمكن حصر لغات الخوي خوي في هذه المجموعة لاختلاف نظامها النحوى. فالخوي خوي شعب من الرعاة قد هاجر بدون شك من الشمال الشرقي من القارة نحو الجنوب، حيث احاطت به جموع السان الاهلية. وقد اقتبس البعض من هؤلاء، كاهالي جبال أوتافي وحتى النارون بالمنطقة الوسطى، لغة الخوي خوي، وهناك ما يؤيد فرضية التطريف المشار اليه اعلاه لانتشار الخوى خوي ابتداء من مناطق الصعيد المصري مرورا بالسهوب الشرقية، وهو اننا نجد في طانزانيا قرب بحيرة اياسي جمعا من السنداوي تبدو لغتهم منتسبة الى لغة الخوي خوي على ان تاريخ هؤلاء الخوي خوي من اغمض النقط في التطور العرقي في افريقيا. فحسب أ. وستفال ان الاصوات المطقة ذات التنغم الخاص في لغات الخوي خوي قد تكون مقتبسة من لغات السان وهذا رأي مفيد ولكن لا حجة تؤيده.

ومن المحتمل ان تكون سهوب افريقيا الشرقية اقدم منطقة استوطنت في القارة. ويحتلها اليوم سود يتكلمون لغات البانتو. ولكن، كما تدل على ذلك الشعوب الشواهد السنداوي والهدزابي، وجد قبلهم السان والخوي خوي، وهناك شعوب اخرى من المنطقة ذاتها يتكلمون الكوشية، وغيرهم له لغات تابعة لجموع مختلفة كالاراكو وقد سبق هذه اللغات كلها زحف اللغات البانتو التي ظهر البعض منها في فترة متأخرة نسبيا.

وبين اللغات السامية الشاميتية في الشمال، واللغات الافريقية القديمة في الجنوب، يقع مجال فسيح هو مجال اللغات التي سماها العالم اللساني دولافوص «اللغات الزنجية الافريقية»، ويصفها، س. ماينهوف ود. وسترمان بكونها لغات سودانية بانتو، بينما يحشرها ج. غرينبرغ في الاسر الكنغو-كردوفانية والنيلية الصحراوية.

وتعرفت منذ عام ١٦٦٣ على هذه اللغات واقترحت تسميتها بالزنجية، وفي الاطار العام قد تميز اسر او جماعات لسانية، عرضا بحسب نتائج البحث.

والتعبير «اللغات الزنجية الافريقية» المتقرح من م. دولافوص غير موفق، فالجزء الاول من العبارة فيما يبدو يمزج بين مفهومي العرق واللغة، على ان الزنوج في اميركا الشمالية والجنوبية كما في

(٧) يلحق بعض المؤرخين اللغة البربرية بالمجموعة السامية.

(٨) حسب بعض علماء المصريات الافارقة، المصرية القديمة تنتمي الى اللغات «الزنجية الافريقية» (انظر فصل ١، من المجلد ٢).

افريقيا نفسها يتكلمون لغات متباينة تماما. والجزاء الثاني من العبارة ايضا ليس في محله، اذ كل اللغات المستعملة من الشعوب القاطنة في افريقيا بما في ذلك الافريقان، هي لغات افريقية.

على أن تصنيف هذه اللغات الى مجموعتين ــ السودانية والبانتوــ هو ايضا مخطئ منذ ان بينت دراسات د. وسترمان القرابة المعجمية والبنيوية بين لغات افريقيا الغربية واللغات البانتو. وقد مهدت هذه الدراسات لاعادة النظر الشاملة في تصنيف اللغات الافريقية، الذي التزمته خطأ المدرسة اللسانية الالمانية، و يعتمد تصنيف ج. غرينبرغ على الطريقة المدعوة «المقارنة الجملية» فمع اعتبارها للعناصر الاساسية في النظام النحوي فهي تعتمد ايضا على المعجم. لقد ميزغرينبرغ سنة ١٩٥٤، عند تطبيق هذه الطريقة ست عشرة اسرة لسانية في افريقيا، ثم جعلها اثنى عشرة فحسب، ثم اختصر هذا العدد الى أربع سنة ١٩٦٣، وان هذا التخفيض السريع في عدد العائلات اللسانية ليبرهن على ان الطريقة لم تركز تركيزا لائقا، وانه افرط في الاسراع قصد الحصول على تصنيف مهما كان الامر.

ومن الاسر الاربع المحتفظ بها،فإن المجموعة الافريقية الآسيوية ما هي الا الاسرة السامية الشاميتية. واما الاسرة المسماة باللغات المطقة ذات التنغم الخاص ثم المسماة الكويزان، فتجمع لغات شعوب سان والخوي خوي. وكما صرحنا بذلك اعلاه، فان هذا الادماج خاطئ.

وعلاوة على الاسرة النيجرية الكنغولية التي يضيف اليها غرينبرغ لغات كردوفان، انه يميز مجموعة رابعة تكونها اللغات النيلية الصحراوية. وحتى الآن فان بنية المجموعة الاخيرة لم تدرس الا قليلا. وسنة ١٩٧٢ طبق ادغار كريكرسن طريقة غرينبرغ على هذه اللغات،فادى ذلك الى نتيجة، هي ان كل اللغات في هاتين الاسرتين يمكن ارجاعها الى اسرة واحدة يقترح لها اسم الكنغولية الصحراوية. وتلتقي هذه النظرة بما كنت قد اقترحته من جمع هذه اللغات تحت عنوان مجموعة الزنج. واما المجموعة المميزة بالنبرات المختلفة وبالفئات الاسمية، فقد يتعارض مع اللغات السامية الشاميتية او الارثيرية التي تقع معاييرها الخاصة في النبرة وفي الجنس النحوي. على انه ليس من المتعذر ان تكشف الدراسات المقبلة عن خصوصية للغة من اللغات، او مجموعة من اللغات داخل اسرة الزنج او الكنغولية الصحراوية. ولكنها من الآن تبدي من الترابط والا تساق ما يوجد في الاسرة الهندية الاوربية مثلا.

وداخل هذه الاسرة الكبيرة الزنجية، فإن لغات البانتوبلا شك، تبدي وجها كثير التجانس اقرته أعمال و. هـ. ل. بليك وس. ماينهوف وم. كثري. ومن بين المجموعة التي كشف عنها د. وسترمان ضم المجموعة اللسانية السودانية، فان اوضحها هوية هي مجموعة المندي.

وعلى شرقي هذه المجموعة الاخيرة. وعلى غربها لغات سماها وسترمان اللغات غورأو الاطلسية. و يعوزها ما للماندي من تجانس، حتى ان علماء اللسانيات الانكليز حددوا فيها جمعا متميزا هو جمع للغات الميل. وفعلا فان هذه المنطقة الكائنة في اقصى الغرب من القارة، قد اوت اليها امواج من الشعوب الصغيرة او التقت بهاثم ازاحها القادمون الجدد. فاحتفظت لغاتهم ببعض خاصيات اللغة البانتو، واوضح الامثلة لغة بلوم. واتت مصنفات مانسي الاخصائي في هذه اللغات، على الفرضية السابقة القائلة بوحدة لغات الغور، وقوضتها.

وان ما يوجد في هذه اللغات من الاصناف الاسمية المكونة بطريقة متنوعة، بواسطة السوابق

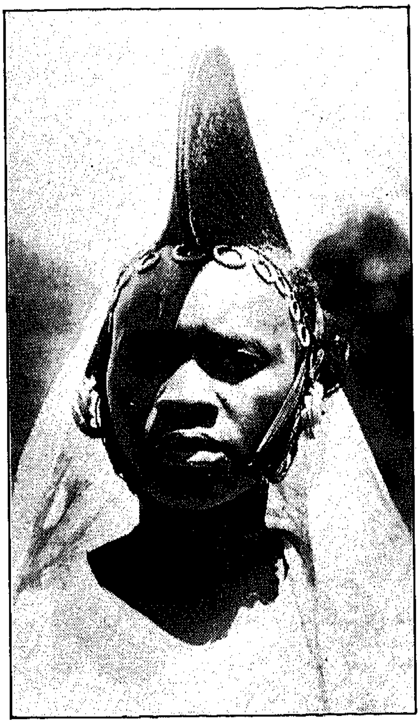
واللواحق، بل حتى الحشو، ليعكس التشعب العرقي في هذه المناطق التي كانت تمثل ملجأ لعدة جموعا بشرية تسمى «زنجية قديمة»، وتمتد على مناطق الجبال عبر السودان باكمله من السنغال الى كردوفان... وقد اعتبروا أقدم الاهالي المستوطنين في السودان، على ان ذلك يبدو غير محتمل تبعا للتنوع اللساني واختلاف النماذج البدنية في هذه الفسيفساء من الجموع التي اتت هذه المناطق المنفرة، وتكدست فيها. وتشير التواريخ السودانية الى البعض من هذه الاحداث، مما يدل اذن على ان هذا العمل ليس عملا عتيقا. ان التقسيم اللساني في افريقيا اذن، لابد ان يعزى كل شيء الى اسباب تاريخية دفعت موجات الهجرة الى الامام.

ومن بين لغات السودان الشرقي التي هي من أقل ما درس من اللغات، نذكر اللغات النيلية القديمة؛ وتمثل جمعا متميزا كثيرا وضربا من الاسرة المندمجة وراثيا، لعلها تكونت اثناء فترة طويلة من العزلة.

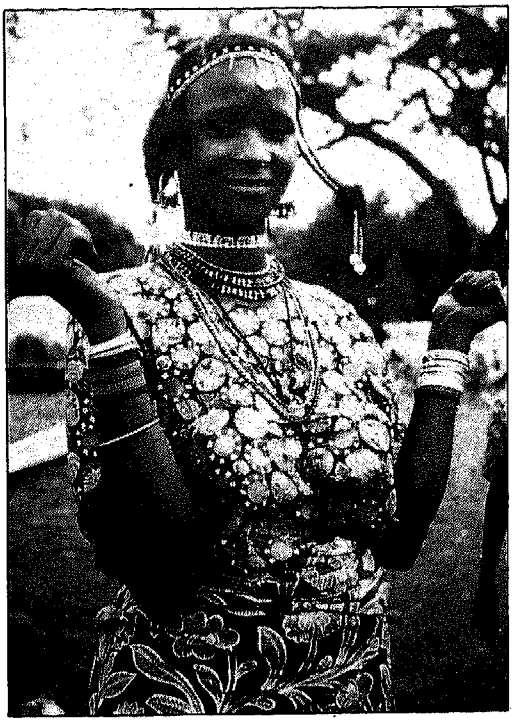
وتكشف المصنفات الجليلة التي قدمها عالما اللسانيات الانكليزيان م. أ. بريان وأ. ن تركس، تشعبا قويا في السودان الشرقي، في المستويين العرقي واللساني. وقد استعملا طريقة تبدو موفقة، متخذين كمعايير بعض العناصر اللسانية المميزة للمقابلة بين لغات ت/ك و ن/ك.

ومن بين المجموعات اللسانية كلها في هذه الاسرة العظمى الكنغولية الصحراوية، تبدي اللغات البنتو قرابة وراثية ملحوظة، الى حد جعل هذا الامر يعتبر حدثا جديدا.

وعلاوة على اللسانيين، فان المؤرخين وعلماء الآثار حاولوا ان يوضحوا «كيف تكون البانتو» ولكن فرضياتهم متباينة. فيقول بعضهم ان هجرة البانتو انطلقت من الشمال من جهة الكامرون أو من حوض التشاد، فسايرت الغابة في الشمال، ودارت معها شرقا مارة بافريقيا الشرقية، ثم انتشرت في افريقيا الجنوبية. ويرى غيرهم امثال هـ. هـ. جونستن ان البانتو قدموا مباشرة من جهة وسط افريقيا عبر الغابة الزاييرية. واخيرا فان بعض العلماء طبقا لنظرية العالم باللسانيات م. كشري، التي تجعل النواة اللسانية النموذجية الاولى للبانتو تقع في أعلى الزايير لدى اللوباو وبيمبا، يجعلون الموطن الاصلي للبانتو في هذا القطاع. بل قيل اكثر من ذلك، وعرضت الشعوب الناطقة بالبانتو كوحدة بيولوجية وثقافية. على ان بعض علماء الآثار يربطون بين انتشار الحديد في جنوبي القارة وبين هجرة البانتو الذين وردوا عليه مجهزين بتقنيات رفيعة. ولكن البرتغاليين، عندما وصلوا في آخر القرن الخامس عشر الى جزيرة فرناندوبو، وجدوا فيها اهالي يتكلمون البوبي وهي لغة بانتو ولكنهم يجهلون استعمال الحديد. وهذا الخطأ المتمثل في الخلط بين اللغة وبين نمط العيش او الانتاج، قد وقع فيه من قبل علماء الاتنوغرافيا الذين جمعوا في مفهوم الشاميتي وحدة العرق واللغة والحضارة. وفي التطور التاريخي يجدر الا نعمل، مهما كان الامر، على ايجاد نماذج خالصة. فالشعوب البانتو تختلف كثيرا من الوجهة الانتروبولوجية من حيث اللون والقامة والقياسات البدنية الخ. وبانتو الغابات لهم اوصاف بدنية مخالفة لاوصاف بانتو السهوب وكذلك فان نموذج النشاط الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي متنوع جدا، والبعض يتبعون النظام الابوي والبعض الآخر يتبع النظام الاموي. وفي موضع ما تستعمل الاقنعة وتوجد الجمعيات السرية وفيما عداه لا جود لذلك، والعامل المشترك الوحيد هو البنية اللسانية المعتمدة على اصناف الاسماء، ولكل اشارات هذه الاصناف في كل مكان عبارة صوتية متشابهة ترتكز على نظام موحد للافعال.



١



٢

● ١) امرأة من الفلانيين (صورة من محفوظات ما وراء البحار).
● ٢) امرأة من الفلانيين، قرب غاروا ــ بولاي (تصوير هوا ــ كوي).
● ٣) فتاة من الفلانيين، مالي (تصوير أ. أ. أ. نود).



٣

وبالعكس في سهوب السودان، يبدو ان الشعوب الناطقة بلغات ذات اصناف اسمية، يلعب فيها ارتفاع الصوت دورا مهما، قد ساكن بعضها بعضا مدة طويلة. وكلما ازدادت الصحراء جفافا انزوت هذه الشعوب متنقلة الى مناطق أشد رطوبة: الجبال في الشمال ووادي النيل شرقا والبحيرة الكبرى في تشاد القديم جنوبا، وعاوض هذه الجماعات من الصيادين الرعاة الشعوب الاهلية الذين توغلوا نحو الجنوب داخل الغابة أو دائرين بها من جهة الشرق. ودون أن تكون هذه الهجرات مقترنة ببداية انتشار الحديد فانها كانت تجري لصالح القادمين الجدد، وقد كانت لهم براعة في صناعة المعادن. واتفق ان حددت المناجم وعمل النحاس القديم بالمنطقة ذاتها التي اليها أشارم. كثرى كبؤرة المجال البانتو حيث تشتمل اللغات اللوبا والبما على أكبر نسبة من الكلمات المنتمية للمعجم «المشتركة بين كافة اللغات البانتو».

وكان من شأن ازدهار صناعة النحاس هذه، ان دفعت بانتشار لاحق للحضارة وكلما ابتعدنا من البؤرة المشار اليها، انتقص صفاء النموذج اللساني البانتو، اذ كلما تم ذلك اختلط الناطقون بالبانتو اختلاطا اكبر بالشعوب المستعملة للغات الأخرى.

وهذا المثال الدقيق يدلنا على أنه لا يجب الخلط بين مفاهيم اللغة والنموذج الانتروبولوجي والحضارة، بل انه حسب تشبع القارة ببطء بهذه الموجات البشرية المتنوعة فان نوع الانتاج كثيرا ما كان يصلح كوسيلة أساسا للتوسع اللغوي، بل ولتغلب ذاك الوجه البيولوجي او غيره.

الفصل الثاني عشر

القسم الأول

تصنيف لغات افريقيا

ج. هـ. غرينبرغ

ان عدد الطرق التي يمكن أن تصنف بها اللغات، كغيرها من سائر الأشياء، لا نهاية له. على أنه ينبغي أن نضع على حدة طريقة خاصة، تسمى طريقة التصنيف الوراثي، لها صفات فريدة مهمة، مما يجعلنا اذا استعملنا لفظ «التصنيف» بدون تدقيق فيما يخص اللغات، انما نلمح الى هذا النموذج من التصنيف. وعليه فان هذه الطريقة هي التي سوف تكون دعامة التصنيف المفصل المعروض في الأقسام الأخيرة من هذا الفصل.

طبيعة تصنيف اللغات وأهدافه

يلوح التصنيف الوراثي في شكل سلسلة من وحدات مرتبة، لها من التنظيم المنطقي ما للتصنيف البيولوجي الذي يقسم الى أنواع وأجناس وأسر، الخ. حيث يكون كل مستوى من السلسلة مشمولا ضمن عناصر المستويات العليا. وفي الامكان أيضا أن يعرض في صورة شجرة نسب. فاذا ما كان للغات جد مباشر مشترك على شجرة النسب، فذاك يعني أن الشأن هو نهايات ميزها التطور مما كان في القديم لهجات من لغة واحدة. ويمكن أن نوضح هذا التصنيف بواسطة مثال بمشهور جدا مثال الهندية ـ الاوربية. واذا لم يثبت بعد أن الهندية ـ الاوربية كانت تنتمي الى جمع أوسع فستكون هي مستوانا الاعلى.

تنقسم الاسرة الهندية الاوربية الى عدة فروع من بينها الجرمانية والسلتية والسلافية والهندية الايرانية، وهذا يؤول الى القول بأن المجموعة اللسانية الاصلية الهندية الاوربية قد تفرعت الى عدد من

اللهجات الجرمانية، السلتية الخ. والجرمانية، بدورها، تنقسم الى ثلاث لهجات، الغوطية والجرمانية الغربية والسكندينافية.

أما الغوطية فانقرضت، ولكننا نعرفها من خلال وثائق قديمة. بينما انقسمت الجرمانية الغربية الى انكليزية فريزية، والمانية سفلى متأخرة والمانية عليا قديمة، و يكّون كل من هذه الأخيرة مجموعة من اللهجات المحلية، يكون البعض منها قاعدة لغات موحدة الانماط مثلا: الالمانية (لهجة المانية عليا) النيرلندية (لهجة المانية سفلى) والانكليزية (لهجة انكيزية فريزية).

وقيمة هذه التصنيفات المبنية على هذه المبادئ أنها أولا تعكس التاريخ الواقع للتميزات العرقية في ميدان اللغة. ثم انها تكون الاساس اللازم لتطبيق ما للسانيات المقارنة من أساليب، ذلك الاساس الذي يمكّن من اعادة بناء الجزء الكبير من التاريخ اللساني بمختلف المجموعات. وأخيرا ان معرفة التاريخ اللساني توفر عناصر لابد منها للاستنتاجات المتعلقة بتاريخ الثقافة الغير اللسانية للمجموعات المعنية.

تاريخ تصنيف لغات افريقيا

من الواضح أنه لولا مجموعة كافية من المعطيات التجريبية عن اللغات في افريقيا لما أمكن السعي في تصنيف كامل هذه اللغات. ففي بداية القرن التاسع عشر فقط أمكن الحصول على عدد كاف من المعطيات للقيام بأول محاولة للتصنيف. على أنه، قبل ذلك تمت بعضن الملاحظات حول التصنيف تبعا لجملة من الأحداث يمكن ضبطها في بداية القرن السابع عشر، تلك الفترة التي ظهرت فيها كتب النحو الأولى والمعاجم للغات افريقيا (١). فلاحظ مثلا لويس موريانو في بداية القرن السابع عشر أن لغة المرينا «شبيهة بالماليزية» مما يدل بصفة شبه قطعية على ان السكان الاولين قدموا من «مواني مالكا» (٢).

وحوالي الفترة نفسها، سجل بعض البحاثين البرتغاليين، الشبه الموجود بين لغات الموزمبيق على الساحل الشرقي لافريقيا ولغات انغولا والكنغو في الغرب، مما فتح المجال الى تصور للغات البانتو المنتشرة على معظم الثلث الجنوبي من القارة. ويمكن أيضا أن نذكر وصف الكيز والامهرية من قبل جوب لودلفوس، في القرن السابع عشر، فابان هذا الوصف قرابة بين اللغات الاثيوبية والعبرية والآرامية والعربية.

ولم يشاهد القرن الثامن عشر سوى اضافات زهيدة الى معرفتنا باللغات الافريقية، ولكن، حوالي نهاية هذه الفترة، نلاحظ أن الفكرة الأساسية للتصنيف الوراثي أخذت تبدو في شكل فرضيات متميزة حول وجود بعض الأسر اللغوية. وكانت هذه الفرضيات هي التي كانت في القرن التاسع عشر الأساس لتطور اللسانيات كعلم تاريخي مقارن.

---

(١) لزيادة الارشادات عن تاريخ اللسانيات الافريقية أنظر س. م. دوك ود. ت. كول ١٩٦١، ص ١٢٩ ود. ت. كول ص ١ — ٢٩، ١٩٧١. توجد أحيانا بعض الالفاظ من لغات افريقية في مؤلفات القرون الوسطى، أنظر في هذا الشأن م. دولافوص، ١٩١٢ — ١٩١٤، ص ٢٨١ — ٢٨٨ وس. ماينهوف ١٩١٩ — ١٩٢٠، ص ١٤٧ — ١٥٢.

(٢) رحلة استكشافية الى جزيرة سان لوران سنة ١٦١٣ — ١٦١٤، مخطوط برتغالي نشرت ترجتمه الفرنسية عند أ.و.ج. كرانديديي ١٩٠٣ — ١٩٢٠، ص ٢٢.

ان كتب تاريخ اللسانيات تذكر عادة تصريحا لو يليام جونس سنة ١٧٨٦ كحدث حاسم في هذا التطور، وكانت الآراء منتشرة في الجو كما يدل على ذلك، قبل ذلك بخمس سنوات، اذ أن مرسدن صرح بصورة واضحة على الأقل، بفرضية مشابهة في شأن اللغات الماليزية ــ البولينزية، بينما كان جيارماثي يقوم بعين العمل بالنسبة الى اللغات الفنية الاوغرية.

وتبع هذا التطور هواية حقيقية لجمع مواد المقارنة في عدد كبير من اللغات. وأول مصنف من هذا النوع كتاب «معجم مقارني للغات العالم كله» لسنة ١٧٨٧ وقد شجعت عليه الامبراطورة الروسية كاترينا العظمى، وكان يشمل معطيات عن ثلاثين لغة افريقية، في طبعته المنقحة سنة ١٧٩٠ ــ ١٧٩١.

وفي بداية القرن التاسع عشر لوحظ تسارع واضح الى انتاج كتب النحو والمعاجم في اللغات الافريقية، كما شوهد نشر قوائم مقارنية من الكلمات من عدد كبير من اللغات الافريقية، كقوائم كلهام (١٨٢٨) نوريس (١٨٤١) وكلارك (١٨٤٨) (٣) وأهم هذه القوائم، من بعيد، من حيث محتواها ومن حيث الطابع المنهاجي لتنظيمها ولرموزها الصوتية، الكتاب الدراسي «تعدد اللغات الافريقية» ووضعه س. و. كوال (٤) في فريتاون (سيراليوني).

ان تجمع هذه المعطيات في الجزء الأول من القرن التاسع عشر واكب المحاولات الأولى لتصنيف المجموع، كمحاولة بالبي ومحاولة بريشارد في الطبعات المتوالية لكتاب «بحث عن التاريخ الطبيعي للبشرية» (٥).

ورغم بعض الفروق في الجزئيات، قد برزت استنتاجات تم تقبلها عامة أثناء النصف الاول من القرن التاسع عشر وتحمل بعضها بنجاح محنة التجارب الموالية، وكان للبعض الآخر على الأقل مزية اثارة المسائل التي عمل المصنفون المتأخرون على حلها. ويمكن تلخيص النتائج المتجمعة سنة ١٨٦٠ فيما يلي:

ــ ان لفظ «سامي» الذي أدخله شلوزر سنة ١٧٨١ كان له تقريبا معناه الحالي (٦) وقد ثبت وجود فرع اثيوبي لهذه الاسرة يشمل الكيز (الا ثيوبي الكلاسيكي) واللغات العصرية كالامهرية والتغرينا

ــ قد لوحظ منذ ذلك العهد تشابه وقرابة بين بعض اللغات الأخرى وبين السامية. وكانت هذه اللغات، المصرية القديمة والبربرية واللغات الكوشيتية، وكان يتكلم بهذه الأخيرة خاصة في اثيوبيا وفي بلاد الصومال. وأقحم بعض المصنفين الهوسا في افريقيا الغربية في هذا الصنف، وسميت هذه اللغات أحيانا باسم «السامة الفرعية» ولفظ الشامية استعمله رينان سنة ١٨٥٥ (٧).

---

(٣) هـ. كلهم، ١٨٢٨، أ. نوريس، ١٨٤١، ج. كلارك، ١٨٤٨، ص ١٠٤.

(٤) س. و. كوال، ١٩٦٣.

(٥) أ. بالي، نقح. أ. هريس الطبعة الأخيرة من بريشارد وزاد فيها، ج. س. بريشارد ١٨٥٥.

(٦) أل. فون شلوزر، القسم ٨، ١٧٨١، ص ١٦١.

(٧) أ. رينان، ١٨٥٥، ص ١٨٩.

ـ يعزى الى ليختنشتاين فضل التمييز الواضح ، لأول مرة، بين لغات افريقيا الجنوبية، لغات خوي وسان من جهة، ولغات بانتومن جهة أخرى (٨).
وقد تم التعرف بوضوح، منذ تلك الفترة، على هذه المجموعة الأخيرة، من اللغات الوثيقة القرابة. وسموها أيضا أسرة الكافر أو أسرة اللغات الافريقية الجنوبية. ولفظ بانتووهومشتق في عدد كبير من هذه اللغات من أصل معناه الرجال، قد عرضه و. هـ. أ. بليك الذي وضع سنة ١٨٥١ أسس الدراسة المقارنة للغات البانتو، وهذا اللفظ مستعمل منذ ذلك الوقت وحتى اليوم من قبل كل الناس.
ـ بقيت مجموعة كبيرة من اللغات تشمل معظم اللغات المستعملة في السودان الغربي والشرقي، ولم يكن في الامكان أن تصنف ضمن المجموعة المذكورة أعلاه. كالمجموعة التي لم تكن سامية ولا شاميتية ولا سانا ولا بانتو. وكانت عموما تسمى لغات «زنجية» وفيها يتمثل أكبر مشكل للمصنفين، فاعترف نوريس في تنقيحه لكتاب بريشارد سنة ١٨٥٥ انها « فلتت من التصنيف» وأن «السود اعتبروا حتى ذاك مكونين لعرق، لأسباب فيزيولوجية أكثر منها لغوية»؟ (٩).
ورغم كون التصنيفات العامة للغات الافريقية حتى وقت قريب قد فصلت لغات البانتو تماما عن اللغات المسماة «زنجية»، فان بعض الملاحظين سجلوا أن بعض اللغات المعتبرة «زنجية» أو الكثير منها، ولا سيا في افريقيا الغربية، تظهر قرابته مع مجموعة البانتو. و يبدو أن أول من لاحظ ذلك القس و. أ. فيدال في مقدمته لنحويوروبا لصاموئيل غروثر (١٠) وأعطى بليك للفظ «بانتو» حدا عاما مفسحا تطبيقه على معظم افريقيا الغربية حتى الدرجة الثالثة عشرة من خطوط العرض الشمالية، من السنغال الى النيل الاعلى (١١). وأعيد القول بهذه الفكرة الاساسية بعد ذلك بكثير، في شكل منقح، من قبل وسترمان، وبكيفية أوضح من قبل غرينبرغ في التصنيف الذي صار اليوم أمرا عاديا.
ـ لوحظ منذ القرن السابع عشر ـ كما أشرنا الى ذلك ـ ارتباط المرينا باللغة الماليزية البولينيزية وبذلك انعدمت قرابتها باللغات الافريقية وأذعن الى ذلك الجميع.
امتازت عشرية ١٨٦٠ بالتصنيفين التامين اللذين نشرا خلالها واللذين سادا هذا المجال حتى حوالي ١٩١٠. وأولهما تصنيف لپسيوس وظهر في طبعتين احداهما سنة ١٨٦٣ والاخرى سنة ١٨٨٠ (١٢) وثانيهما تصنيف فريدريك مولّر وعرض أيضا في طبعتين سنة ١٨٦٧ وسنة ١٨٨٤ (١٣) وكان كتاب مولّر أساسا للدراسة المهمة التي قام بها ر. ن.كوست والتي ساهمت في نشر أعماله في البلدان الناطقة بالانكليزية. ودراسة كوست مصدر نفيس جدا فيا يخص بيبليوغرافيا اللسانيات الافريقية حتى تلك الفترة.

(٨) هـ. ليختنشتاين، ١٨١١ ـ ١٨١٢.
(٩) ج. س. بريشارد. المصنف المذكور، مجلد ١، ص ٤٢٧.
(١٠) و. أ. فيدال، عند غروثر، ١٨٥٢.
(١١) و. هـ. أ. بليك، ١٩٦٢ - ١٩٦٩، مجلد ١ ص ٨.
(١٢) ر. لپسيوس ط. ٢، ١٨٦٣، ١٨٨٠.
(١٣) ف. مللر ١٨٦٧، ١٨٧٦ ـ ١٨٨٤ عن اللغات الافريقية أنظر مجلد، ١، ٢ (١٨٧٧) ومجلد ٣، ١ (١٨٨٤).

وأخرج لبسيوس ومولر في تصنيفهما المر ينا كلغة غير افر يقية، وفيما عدا ذلك فان أهم مشكل شغل بالهما هو مشكل اللغات «الزنجية» ووضعها بالنسبة الى البانتو، اذ ثبت أن هذه هي المجموعة الوحيدة الفسيحة من اللغات التي تنطق بها الشعوب السود. وكان للاعتبارات العرقية دور مهم في هذين التصنيفين لكن بأساليب مختلفة.

اتخذ لبسيوس قاعدة لتصنيفه معيار فئات الاسماء. وهي فكرة مستمدة من عمل سابق لبليك (١٨٥١) (١٤)، فقد تأثر هذا الأخير بما كان يعتبره فرقا أساسيا بين لغات البانتو التي كان لها نظم مشعبة من أصناف الاسماء، لا دور للجنس فيها، و بين اللغات السامية والشامية التي يوجد فيها تمييز بين الجنسين يعتمد على العضو الجنسي كمبدأ لتصنيف الأسماء. و بناء على هذا المعيار صنف بليك الخوي خوي ضمن اللغات الشاميتية اذ يوجد فيه تمييز الجنس، ولو أن معظم الخواص الأخرى تقر به من لغات سان.

وانطلق لبسيوس من الفكرة العامة عند بليك واعتبر من بين اللغات التي ينطق بها الأهالي السود، ان البانتو، بموجب تصنيفه للأسماء غير المعتمد على الجنس، هي اللغة الأصلية بينما تهجن سائر اللغات بتأثير اللغات الشامية. وهو يصنف اللغات الى أربع مجموعات (١) البانتو (٢) الزنجي المختلط (٣) الشاميتي (٤) السامي على أنه يوجد قسمان أساسيان:

أ ـــ لغات البانتو، والزنجية المختلطة (لغات ذات أصناف اسمية).

ب ـــ اللغات السامية والشاميتية (لغات ذات جنس). وفي النهاية لابد أنه من الممكن أن يبين أن هذه الأخيرة لها قرابة بالهندية الاوربية التي هي بدورها لها تمييز يعتمد على الجنس. وفعلا فإنه يضم الهندية ـــ الاوربية والسامية والشاميتية في أسرة واحدة يسميها «النوحية» لها ثلاثة فروع تقابل أبناء نوح الثلاثة: سام وشام و يافت. وهو يصرح بوضوح أن اللغات ذات الجنس هي العليا.

«على أنه يبدو مما لا شك فيه، أن الفروع الثلاثة الكبيرة من اللغات ذات الجنس، لم تكن فحسب في الماضي مستودع السير التاريخي للحضارة البشرية وأعضائها، بل أيضا انه عليها هي، وخصوصا على فرعها الأحدث، اليافيثي، يرتكز أمل العالم المقبل» (١٥).

والقرابة الفكرية بين «النظريات الشاميتية» واضحة، من بليك الى نظريات ماينهوف المتأخرة مرورا بنظريات لبسيوس.

وفي كتاب مولّر الشامل المنشور سنة ١٨٨٤ صنفت لغات العالم المعروفة حسب الفرضية القائلة بوجود علاقة أساسية بين اللغة و بين النموذج البدني للناطقين بها. وأقسامه الرئيسية، «لغات الشعوب ذات الشعر الصلب» و«لغات الشعوب ذات الشعر الجعد» الخ، وتؤدي هذه الفرضية مثلا الى تصنيف الخوي خوي لا مع الشاميتية كما فعل لپسيوس، ولكن مع الپاپوضمن لغات العروق ذات الشعر الصوفي، ومعظم اللغات «الزنجية» وزعت الى اللغات الزنجية الافر يقية والبانتو. وفرضه في هذه النقطة معاكس تماما لفرضية لپسيوس، اذ هو يعتبر أن بعض اللغات الزنجية الافر يقية تمثل النموذج الأصلي وأن البانتو مشتق منها و يعتبر أن بعض اللغات المستعملة لدى الأهالي السود تنتمي

(١٤) و. هـ. أ. بليك، ١٨٥١.

(١٥) لپسيوس، ١٨٨٠، ص ٩٠.

الى مجموعة متقدمة عليها ثقافيا تقدما كبيرا وهي المجموعة المسماة نوبا فوله، و يقارن الناطقون بهذه اللغات بدنيا بأهالي البحر الأبيض المتوسط و بالدرافيديين وهم مصنفون من بين الشعوب ذوي الشعر المجعد. وفي نشر آراء مولّر من قبل كوست بجعلها في متناول قراء اللغة الانكليزية صنفت لغات افريقيا الى ست مجموعات، ١ ــ السامية ٢ ــ الشاميتية ٣ ــ النوبا فوله ٤ ــ الزنجية ٥ ــ البانتو ٦ ــ الخويسان.

و بقيت مسائل التصنيف معلقة مدة من الزمن، وتمركز الاهتمام على العمل العلمي العظيم المتمثل في وصف اللغات الافريقية. وفتح مصنف وسترمان عن اللغات السودانية (١٩١١) وكتاب ماينهوف عن اللغات الشاميتية (١٩١٢) الباب الى الفترة العصرية (١٦)

وأول هذين المصنفين، و يبدو أن فكرته الأساسية مستوحاة من ماينهوف، قد أدخل لفظ «السوداني» وكان يشمل تقريبا كل اللغات في افريقيا الغير التابعة للمجموعة السامية والشاميتية (بالمعنى الفسيح الذي أعطاه اياها ماينهوف) والسان. وهويعني بذلك أساسا كل اللغات التي كانت في ما قبل تسمى «لغات زنجية». واختار وسترمان من بين هذه المجموعة الفسيحة ثماني لغات (ولا يقدم أبدا قائمة كاملة) خمس منها من السودان الغربي وثلاث من السودان الشرقي، وحاول أن يوجد القرابة بينها بواسطة سلسلة من الاشتقاقات ومن الصيغ القديمة بعد أن ركبها من جديد.

وقام ماينهوف، وقد اشتهر من قبل بمصنفه الاساسي عن الدراسة المقارنة للبانتو، بمحاولة في كتابه عن اللغات الحامية، ليفسح حدود الاسرة الحامية الى ما وراء ما كان مسلما به عادة، فأقحم فيها لغات كالفلفلدية والماساي والخوي خوي (متبعا في هذا لپسيوس) مستندا أساسا الى معيار الجنس. و يبرز هذا الكتاب بوضوح اعتقاده بتفوق العرق «الحامي» (١٧).

و يبرز اذن من عملي ماينهوف ووسترمان، اذا جمعناهما تقسيم الى خمس مجموعات (السامي والحامي والسوداني والبانتو والسان) ونشرت هذه الاستنتاجات في البلدان الناطقة بالانكليزية، نشرتها اليس و يرنر وصارت القاعدة في كتب الانتروبولوجيا واللسانيات (١٨).

وقد وقع الرد على هذا التصنيف منذ الفترة التي ساد فيها (حوالي ١٩١٠ ــ ١٩٥٠) ولو أن النقد لم يبرز في الكتب المعهودة فقد أتى الأهم منه من وسترمان نفسه، في دراسته الجليلة سنة ١٩٢٧ عن اللغات السودانية الغربية (١٩)، في هذا المؤلف يقصر تصوره السابق عن اللغات السودانية على لغات غربي افريقيا، وصار يميز بواسطة وثائق معجمية ونحوية مفصلة، بين عدد من المجموعات الفرعية المتخصصة ضمن السودانية الغربية (مثلا الاطلسي الغربي وكوا وجور). وأشار وهذا أشد أهمية ــ الى أوجه شبه جزئية من حيث المعجم ومن حيث البنية النحوية بين السودانية الغربية والبانتو، ولكنه لم يقل بالقرابة بينهما بكيفية صريحة: فكان السر هنري جونستون في كتابه الواسع عن

(١٦) د. وسترمان ١٩١١، س. ماينهوف ١٩١٢.

(١٧) صارت الفرضية الحامية قاعدة متقدمة للتفسير الثقافي والتاريخي. أنظر عن هذه المسألة إ. ر. صندر، ١٩٦٩، ص ٥٢١ ــ ٥٣٢.

(١٨) أ. ورنر ١٩١٥، و ١٩٣٠.

(١٩) د. وسترمان، ١٩٢٧.

البانتو ونصف البانتو هو الذي راى أن كثيرا من اللغات في افريقيا الغربية لها قرابة بالبانتو (٢٠) وهي التي كان يشير اليها بتعبيره «نصف بانتو». على أنه استمر على الأخذ بالمعيار النموذجي للأصناف الاسمية، بحيث اذا كانت لغتان وثيقتي القرابة وكان لواحدة فقط أصناف اسمية، فهي التي تعتبر نصف بانتو بينما الأخرى ليست كذلك.

ويجدر أن نشير باختصار الى تصنيفات أخرى في الفترة ١٩١٠ — ١٩٥٠ لم يشتهر من بينها سوى تصنيف دولافوص. وأحد هذه التصانيف اقترحه أ. دريكسل، فحاول أن يظهر علاقة بين أسر اللغات في افريقيا والثقافات، وكانت هذه العلاقة موضوعة كمبدأ مسلم به من قبل دارسي الثقافة الالمان. وخلافا للباحثين الالمان في هذه الفترة، جعل الباحث الفرنسي دولافوص الإخصائي في الدراسات الافريقية «الحامية» محدودة في البربرية (٢١) والمصرية وللكوشيتية واعتبرت سائر اللغات الأخرى الغير السامية أو الخويسانية كأسرة كبيرة زنجية افريقية (٢٢) فعلاوة على الفروع الستة عشر المتبقية من غير البانتو، وقد حدد كثيرا منها بناء على معايير جغرافية أكثر منها لسانية، يبدو أن دولافوص اعتبر أنه يجب أن يكون البانتو ضمن اللغات الزنجية الافريقية، ومازالت بعض المصطلحات التي استخدمها دولافوص مستعملة بين علماء الدراسات الافريقية الناطقين بالفرنسية. ويجب أيضا أن نذكر الآنسة همبركر التي انطلقت من فكرة الوحدة اللسانية الافريقية، لكن بصورة أفسح، فاتخذت نظرية المصدر المصري كتفسير لهذه الوحدة بل، بقطع النظر عن التضارب، نظرية الاشتقاق البعيد انطلاقا من لغات درافيدية هندية (٢٣).

وسنة ١٩٤٩ — ١٩٥٠ حدد صاحب هذا الفصل، في سلسلة من المقالات المنشورة في المجلة الجنوبية الغربية للانتروبولوجيا، تصنيفا كان جديدا من عدة وجوه وتم التسليم به نهائيا بصفة عامة (٢٤). وكان هذا التصنيف يخالف التصانيف السابقة في عدة نقاط. فكان وراثيا تماما بالمعنى المحدد في مقدمة هذا الفصل، فيعتبر أوجه الشبه المتعددة بين مجموعات اللغات أوجها قطعية، فهي تتعلق في آن واحد بالصوت وبالمعنى، سواء كان الشأن درس الجذور (للمعجم) أو المركبات النحوية.

فكانت التشابهات المتعلقة بالصوت فقط، كوجود النبرات مثلا أو المتعلقة بالمعنى فقط، كوجود الجنس النحوي دون مطابقة في الأشكال الصوتية للخواتم، غير مقنعة.

---

(٢٠) هـ. هـ. جونستون، ١٩١٩ — ١٩٢٢.

(٢١) أضيف هذا التعليق بطلب من عضو من اللجنة: ان هذا التصنيف ليس فحسب معاكسا لآراء الباحثين الألمان، ولكنه معاكس فعلا للحقيقة العلمية المحضة. لقد اكتشف علماء اللسانيات بافريقيا الشمالية العلل السياسية التي دفعت المدرسة الاستعمارية الفرنسية لعلماء البربرية، الى تصنيف اللغة البربرية ضمن اللغات السامية الشاميتية، والواقع أن البربرية لغة سامية بل هي من أقدم اللغات السامية، ولها علاقات وثيقة جدا مع الأكادية والعبرية. فليست إذن حامية سامية ولا أفروآسيوية كما سبق أن قيل في هذا الفصل. أنظر خاصة بالعربية م. الفاسي: البربرية شقيقة العربية، مجلة مجمع القاهرة ١٩٧١.

(٢٢) م. دولافوس، ١٩٢٣ ص ٤٦٣ — ٥٦٠.

(٢٣) ل. همبرجر ١٩٤١.

(٢٤) عن النسخة الحديثة من تصنيف كرينبرك أنظرج. هـ. كرينبرك. وتوجد بيلبليوغرافيا للمؤلفات التي ناقشت هذا الموضوع لدى د. ونستن: تصنيف غرينبرغ للغات الافريقية دراسات عن اللغة الافريقية، مجلد ٧، ١٩٦٦، ١٦٠ - ١٧٠ ولوجهة نظر أخرى، أنظر الفصل ١١ للأستاذ ألدروج.

وكانت هذه الصفات النموذجية كما شاهدنا تلعب دورا مهما في التصنيفات السابقة. فوجود الجنسين مثلا، المذكر والمؤنث لم يكن وحده يعتبر حجة قرابة، اذ أن هذا التميز للجنس قد يظهر، و يظهر فعلا بكيفية مستقلة في أجزاء مختلفة من الدنيا. و بالعكس فإن وجود حرف ك كعلامة للتأنيث في كل الفروع الافروآسيوية (حامية ــ سامية) اشارة ايجابية للقرابة. كما أن انعدام التميز للجنس بفقدان النوع ليس في حد ذاته حجة سلبية.

و بصفة عامة، فان هذه المبادئ من المسلم بها في المجالات التي استقرت فيها الاساليب المقارنية، مثلا في الهندية ــ الاوربية، الفارسية والآرامية والحثية على الخصوص لا تميز بين الجنسين، بينما نجد تمييزا لذلك في معظم اللغات الأخرى من هذه الاسرة.

ثم ان التصنيفات القديمة، كتصنيف لپسيوس، لم تستندولم تدل بأي حجة مادية لجمعها في تصنيف واحد. ووسترمان في كتابه عن السودانية أعطى الاشتقاقات الا أنه اقتصر على ثماني لغات من بين مئات منها، والمصنف الوحيد الذي أتى بالحجة مفصلة قبل سنة ١٩٥٠، وهو كتاب لوسترمان عن السودانية الغربية، ولم يعين الا بجزء من افريقيا..

وفي تصنيف صاحب هذا الفصل قدمت اشتقاقات وخاصيات نحوية مشتركة الميزة بالنسبة لكل المجموعات المهمة، بناء على دراسة استقصائية للأدب.

وأهم المقترحات المادية، وقد أثار بعضها جدالات عنيفة هي الآتية:

ــ تتقبل قرابة البانتو مع السودانية الغربية حسب معطيات وسترمان، فيصير البانتو لا فرعا متميزا من هذه الاسرة الفسيحة، بل مجموعة فرعية مما سماه وسترمان المجموعة الفرعية بينوي ــ كنغو (نصف البانتو) من فرع السودانية الغربية. ثم ان عددا كبيرا من اللغات المستعملة جهة الشرق (فرع اداماوا الشرقي) ينتمي الى هذه الاسرة التي صار لها اسم جديد النيجر ــ كونغو.

ــ من بين امتدادات الحامية التي اقترحها ماينهوف بقيت واحدة فحسب هي الهوسا. ثم ان الهوسا ما هي الا عنصر من فرع أفسح (التشادي) من الحامية السامية، والسامية مقحمة فيها إلا أنها ما هي الا فرع في رتبة سائر الفروع. فتصير الحامية افروآسوية للفروع غير السامية من أسرة أفسح تسمى اليوم افروآسوية، و يعتبر انها تشمل خمسة فروع: (٢٥) ١ ــ البربرية ٢ ــ المصرية القديمة ٣ ــ السامية ٤ ــ الكوشيتية ٥ ــ التشادية.

ــ واللغات «الزنجية» التى لم تدخل ضمن المجموعة نيجر ــ كنغو قد صنفت في مجموعة أخرى كبيرة سميت النيلي ــ الصحراوي.

ــ كان الخوي خوي مصنفا كلغة سان، و ينتمي الى المجموعة الوسطى من الخويسان في افريقيا الجنوبية.

والنتيجة العامة هي أن لغات افريقيا ما عدا (المرينا) صنفت الى أربع أسر رئيسية توصف في الأقسام التالية، وخصص كل قسم بالتفصيل لكل اسرة من هذه الاسر (٢٦) وسيذكر العرض

(٢٥) ج. لوكا، ١٩٣٨، ص ٢٨٦ ــ ٢٩٩، ج. ركوهان، ١٩٤٧.

(٢٦) توجد قوائم من اللغات أكثر تفصيلا مما هو ممكن في مثل هذا الفصل في غرينبرغ، المصدر المذكور، وفي مجلدات السلسلة، كتاب الجيب للغات الافريقية نشرها المعهد الدولي الافريقي في لندن، وفي فوكالين (س. ف. و ق. م): فهرس لغات الدنيا، واشنطن، ديوان التربية، مكتب البحث، ماي، ١٩٧٣، ٦ أجزاء.

الآتي، عند الحاجة، المقترحات الحديثة التي تعدل تحور أو توسع مجال التصنيف الاصلي، وكذلك الانتقادات الموجهة له في المحتوى.

اللغات الافروآسيوية (٢٧)

هذه اللغات المدعوة أيضا حامية سامية تمتد على كامل افريقيا الشمالية وتقريبا على كامل القرن الشرقي الافريقي (اثيوبيا، الصومال) وبعض اللغات من فرعها الكوشيتي نحو الجنوب حتى طانزانيا، ثم ان الفرع السامي يشمل لغات تغطي اليوم أو غطت في الماضي كل الشرق الاوسط تقريبا.

وتعتبر الافروآسيوية عامة مشتملة على خمسة فروع متساوية التميز تقريبا: البربرية (٢٨) المصرية القديمة، السامية، الكوشيتية والتشادية. على أن فليمنج تقدم مؤخرا بما مفاده، أن من بين اللغات المصنفة حتى الآن ضمن الكوشيتية الغربية مجموعة تضم الكافا وعدة لغات من الجنوب الغربي في اثيوبيا تكون في الواقع فرعا سادسا، اقترح لها اسمي: الاوموتي وآري يانّا (٢٩).

و يعرض الفرع البربري من الافروآسيوية من التفريقات الداخلية أقل مما تعرض سائر فروع هذه الاسرة ماعدا المصرية، وأهم تقسيم له يبدو بين لغات مختلف المجموعات الطوارق في الصحراء وبين البربرية الحق المتكلم بها في افريقيا الشمالية وفي موريتانيا. ومن المحتمل ان لغة الغوانش التي انقرضت من الجزر الخالدات، كانت تنتسب الى البربرية. ثم انه يجدر أن نذكر ما يوجد من نقوش بالليبية القديمة لم تفهم تمام الفهم، ولعلها تكوّن شكلا سابقا للبربرية.

و يشهد على فرع ثان من الافروآسيوية، وهو فرع المصرية في أقدم فترة له، نقوش بالهيروغليفية وبرديات كهنوتية (هيراطيقية)، وأخيرا، وثائق بكتابة شعبية (ديموطيقية). وتسجل كل هذه الكتابات نفس اللغة المتكلم بها، وفي العهد المسيحي تواصل التكلم بهذه اللغة، فانتجت أدبا جليلا كتب بألفبائية مقتبسة من الالفبائية اليونانية. وفي هذا الشكل المتأخر المدعو بالقبطية، وجدت عدة لهجات أدبية، منها البحيرية وهي مازالت باقية كلغة دينية طقسية في الكنيسة القبطية. وبعد فتح العرب لمصر، تقلص ظل اللغة المصرية شيئا فشيئا. ومن المحتمل أنها انقرضت كلغة تخاطب في القرن السابع عشر الميلادي.

وأما الفرع السامي من الافروآسيوية ففيه من الفروق الداخلية أكثر مما في البربرية أو المصرية. ومن المسلم به عامة أن أهم تقسيم لها هو وجود سامية شرقية وسامية غربية. ولا يمثل الاولى سوى الأكادية المكتوبة بالخط المسماري. وقد انقرضت منذ عهد بعيد، وكان لها لهجتان جهويتان أساسيتان، هما البابلية في الجنوب والآشورية في الشمال. وتقسم السامية الغربية بدورها

(٢٧) ذكر البحاثون الافارقة في لقاء القاهرة عن «عمران مصر القديمة» ان الأستاذ غرينبرغ كان أغفل في تصنيفه معطاة رئيسية: وضع القواعد الصوتية. وكان موقفهم هو موقف الأستاذ استفان فودور. وقدم هؤلاء البحاثون الافارقة حججا تدل على القرابة اللسانية الوراثية بين المصرية القديمة واللغات الافريقية المعاصرة.

(٢٨) انظر تعليق رقم ٢١.

(٢٩) هـ. س. فليمنج ١٩٦٩، ص ٣ - ٢٧.

الى سامية الشمال الغربي وسامية الجنوب الغربي. وتشمل الاولى الكنعانية (عبرية، موابية، فينيقية ومن المحتمل اوغاريتية) والآرامية. ولم يبق من هذه اللغات سوى العبرية وقد تم احياؤها خلال القرن الفائت كلغة لاسرائيل و بعض اللهجات الآرامية. وتمثل الأشكال المعاصرة من الآرامية أحفاد الآرامية الغربية، بالجبل المقابل لجبل لبنان في سوريا. والآرامية الشرقية في العراق الشمالي.

ولسامية الجنوب الشرقي أيضا فرعان، فرع الشمال وفرع الجنوب، و يشمل الأول معظم اللهجات المعروفة في الجزيرة العربية، واللهجات العصرية السائدة في منطقة فسيحة تشمل شمال افريقيا والشرق الاوسط وبعض اجزاء السودان وهي اللغة العربية الحق. وفرع الجنوب يشمل عربية الجنوب من جهة ولغات اثيوبيا السامية من جهة أخرى، وعرفت العربية الجنوبية في أشكالها القديمة من خلال نقوش كتابية منوية وسباية وكتبانية وفي أشكالها العصرية المهرية والشهرية، في جنوب الجزيرة، والسوقطرية، لغة جزيرة سوقطرا في المحيط الهندي.

وتقسم اللغات السامية الاثيوبية الى مجموعة شمالية (تغرينيا، تيكري وكاز أوالاثيوبية الكلاسيكية) ومجموعة جنوبية (أمهرية وكوارج وأركُبّا وكافات وحرارية).

وأما المجموعة الرابعة من اللغات الافروآسيوية أي الكوشيتية فتشمل عددا كبيرا من اللغات تتوزع الى خمسة فروع قوية التميز: الشمالي والأوسط والشرقي والجنوبي والغربي.والكوشيتيةالشمالية تشمل أساسا لغة واحدة، البجة، والوسطى تسمى أحيانا لغات أغاو. ومن المحتمل أنها في الماضي كان يتكلم بها على مساحة متصلة، ولكن الناطقين بها القدامى قد استعملوا بنسبة قوية اللغات السامية الاثيوبية وكان الفالاش أي اليهود الاثيوبيون في القديم يتكلمون بلغة أغاو. وتشتمل اللغات الكوشيتية الوسطى على مجموعة شمالية (بيلين، خمير قمنت) وعلى الآويا في الجنوب. وتشتمل الكوشيتية الشرقية على اللغتين الكوشيتين اللتين يتكلم بهما أكبر عدد من الناطقين وهما الصومالية والكلا. وتتوزعان على المجموعات الآتية: ١ ــ أفار ساهو، ٢ ــ الصومالية البيسو الرنديل، البوني، ٣ ــ الكلا، كنسوجيدولي، اريوري، وزري، تساماي، جلابا، موكوكودو. ٤ ــ سيدامو، ألابا، دراسا، هاديا، كمباطا، برجي، ويمكن بدون شك أن يعتبر المجموعة الأخيرة أي «سيدامو ــ برجي» فرعا معاكسا للمجموعات الثلاث الأخرى. وتستعمل الكوشيتية الجنوبية في طانزانيا وتشتمل على البرنجي والكُزوا والالاوا والنكومفيا (أسو) والساني والمبوجو، وهذه المجموعة الجنوبية أقرب لسانيا الى المجموعة الشرقية منها الى سائر المجموعات، ومن الممكن جدا أنه ينبغي أن تعتبر مجرد مجموعة فرعية. وقد تأثرت لغة كوشيتية جنوبية، المبوجو، تأثرا قويا بالبانتو، من حيث النحو ومن حيث المعجم، فيعتبرها بعض الباحثين لغة مختلطة.

وتختلف اللغات الكوشيتية الغربية اختلافا كبيرا عن سائر اللغات المعتبرة تقليديا كوشيتية. وعلى الأقل يجب تقسيم الكوشيتية الي مجموعتين، الغربية وغيرها. وكما ذكرنا أعلاه فان فيلمنج اقترح أن تعتبر الكوشيتية الغربية فرع سادس متميزعن الأفروآسيوية، ويمكن تقسيم اللغات الكوشيتية الغربية الى مجموعتين: الآري ــ بنا (وقد استعمل في الأدب القديم لفظ باكو عوضا عن آري) وغيرها. ويمكن تفريع هذه الاخيرة بدورها كما يلي: ١ ــ ملجي، ناو، مشيكو؛ ٢ ــ جنجيرو؛ ٣ ــ كفا، موشا، شيناشا، ماو الجنوبي؛ ٤ ــ جيميرا؛ ٥ ــ المجموعة أوميتو

«سيداموغربي» و يضم الشارا والمالي والبسكيتو، والمركب و يلامو والزياس والكويرا ــ جيديشو.

وآخر فرع من الافروآسيوية يجب اعتباره هو الفرع التشادي، و يتضمن الهوسا، أكثر اللغات انتشارا في افريقيا الغربية، ومن المحتمل على الأقل وجود مائة لغة أخرى يستعملها ناطقون بها، عددهم أقل بكثير. وقسمت اللغات التشادية عند غرينبرغ (١٩٦٣) الى تسعة مجموعات فرعية: ــ (أ) الهوسا الغوندرا، (ب) بيد نغيزم، (ج) ١ مجموعة ورجوا (البنشي الشمالي) ٢ مجموعة بروا (البنشي الجنوبي)، (د) ١ ــ مجموعة بلوا ٢ ــ مجموعة انكاس ٣ــ مجموعة الرون، ٢ ــ مجموعة كوتوكو، ٣ ــ بتامرجي، ٤ ــ (أ) مجموعة مسغوي (ب) مجموعة مكتام، ٥ ــ جدر، ٦ ــ مندرا كامركو، ٧ ــ مسكو، ٨ ــ مجموعة ماسا بانا، ٩ ــ التشادي الشرقي (أ) مجموعة سمراي (ب) مجموعة كابري (ج) مجموعة سوكورو (د) مدجل (هـ) توبوري (و) مجموعة موبي.

وأوحى نيومن وما، أن من بين الاسرات الفرعية أعلاه عددي ٣ و ٦ متقاربان جدا، الواحدة من الأخرى، وكذلك الرقمان ١ و ٩. وهما يقترحان للأولين اسم بيومندارا وللآخرين اسم نجد ــ ساحل (٣٠) وهما لا يقترحان أي تبديل فيما يخص سائر المجموعات الفرعية.

النيجر الكردوفاني

تشمل هذه الاسرة فرعين مختلفي القيمة من حيث عدد الناطقين بها ومن حيث انتشارها الجغرافي، فالفرع الأول، النيجر ــ كنغو يمتد على جزء كبير من افريقيا جنوبي الصحراء، يشمل تقريبا كل افريقيا الغربية، وعدة جهات من السودان الاوسط والشرقي، وبجزئه ألبانتو، معظم افريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية، والفرع الثاني من النيجر الكرد وفاني وهو الكردوفنية بالذات، محصور في منطقة محددة من جهة الكردوفان الكائنة بالسودان.

والتقسيم الاساسي في مجموعة النيجر ــ كنغو هو التقسيم بين لغات مندي وغيرها. فيتميز المندي من جهة بانعدام عدد من الوحدات المعجمية الموجودة في سائر لغات النيجر ــ كنغو، ومن جهة أخرى بانعدام كل أثر موثوق به من تصنيف الاسماء الموجود عامة في الكردوفانية وفي سائر لغات النيجر ــ كنغو. و بالطبع يوجد عدد كبير من هذه اللغات قد أضاع هذا النظام اضاعة فردية. واقترح موكارفسكي بموجب هذا التخالف من قبل لغة مندي، ان تعتبر الاسرة الكبيرة الثانية من اللغات الزنجية، فرعا من النيلية الصحراوية، الا أن الخبير الشهير بلغات مندي و يليام أ. ولمرس لا يقبل هذا الاقتراح (٣١).

ومن المسلم به بالاجماع اليوم، هو أن التقسيم الداخلي للمندي الى مندي ــ طان ومندي ــ فو الذي اقترحه دولافوص (٣٢) والمعتمد على اللفظ الدال على رقم العشرة هو تقسيم لا قيمة له. وتصنف لغات مندي كما يلي:

---

(٣٠) ب. نيومن و ر. ما، ١٩٦٤، ص ٢١٨ ــ ٢٥١.

(٣١) هـ. غ. موكارفسكي، ١٩٦٦، ص ٦٧٩ - ٦٨٨.

(٣٢) م. دولافوص، ١٩٠١.

ــ مجموعة الشمال الغربي: ١ ــ المجموعة الفرعية الشمالية وتشمل اليالونكا الفرعية والسونينكي والكوالا نومو، اللكبي والوادي كونو والخصنكي والماننكا بمبرا ــ ديولا؛ ٢ ــ المجموعة الفرعية الجنوبية الغربية: مندي ــ بندي، لوكو لوما، كبالّي.

مجموعة الجنوب الشرقية: ١ ــ المجموعة الفرعية الجنوبية، مانو، دان، تورا، مْوا، نْوا، كان، كورو؛ ٢ ــ المجموعة الفرعية الشرقية: سامو، بيسا، بوسا؛ ولغة واحدة، السيا (بوبوفنك) لا تجد لها محلا في هذا الجدول. وهي مندي بوضوح، ولكن يمكن اعتبارها فرعا أولا متميزا من هذه المجموعة، بحيث أنها قد تمثل وراثيا إحدى مجموعتين ثانيتهما المندي بالمعنى الدقيق.

وتصنف سائر لغات النيجر ــ كونغو عند غرينبرغ (١٩٦٣) في خمسة فروع: ١ ــ الغربي الاطلسي؛ ٢ ــ كور؛ ٣ ــ الكوا؛ ٤ ــ البينوي كنغو؛ ٥ ــ آدماوا الشرقي. الا أن المجموعات ٢ و ٣ و ٤ متقاربة بصورة خاصة وتكوّن نوعا من نواة ليس الحد داخلها واضحا فيما بين البينوي ــ كنغو والكوا (٣٣).

وقد أدخل وسترمان تسمية لغات أطلسية غربية سنة ١٩٢٨ فهي تغطي تقريبا عين اللغات التي تغطيها السنغالية ــ الغينية عند دولافوص والباحثين الفرنسيين من بعده. وتكوّن هذه اللغات مجموعتين محددتين واضحتين، مجموعة شمالية ومجموعة جنوبية. وذلك مع ما يوجد من تنوع داخلي بين المجموعة الشمالية مما دفع دالبي الى أن يقترح التخلي عن مفهوم الأطلسي الغربي واعتبار المجموعة الجنوبية كفرع مستقل متكون من المجموعة الاطلسية الجنوبية الغربية عند غرينبرغ ما عدا الليمبا. و يقترح اسم ميل (٣٤) لهذه المجموعة، ومع ذلك فان دافيد ساپير في دراسة قريبة العهد، مدعمة بحجج تسلسل زمني صوتي، يؤكد من جديد الوحدة الاساسية للغرب الاطلسي كما تم تصوره تقليديا، و يدخل الليمبا ضمن فرعه الجنوبي (٣٥). وأهم تجديد يتقدم به هو اعتبار البجاكو لغة لجزء بيجاكو، كفرع منفصل، له عين الرتبة التي للفرع الشمالي والفرع الجنوبي. وهذا يوافق ملّلدي من شعور بمباينة هذه اللغة لغيرها، ويجدر أن نذكر أن الفلفلدية (فولا أو فوليا) التي اعتبرها ماينهوف كلغة شاميتية وكانت محل عديد من الجدالات، صارت اليوم في رأي الجميع، ضمن الغرب الاطلسي، وتصنيف هذا الأخير كما يلي:

الفرع الشمالي: ١ ــ (أ) فولا، سيرير، (ب) وولوف؛ ٢ ــ مجموعة نون؛ ٣ ــ ديولا، منجك، بلنتي؛ ٤ ــ (أ) تندا، بساري، بديك كونياجي؛ (ب) بيافادا، باجادي؛ (ج) كُبيانا ــ بنهوم ــ (د) تالو.

الفرع الجنوبي: ١ ــ سوا (كوننتي)؛ ٢ ــ (أ) تمي، باكا؛ (ب) شربرو ــ كريم، كيسي؛ (ج) كولا؛ ٣ ــ ليمبا.

بيجاكو: ويمثل الكور داخل النيجر ــ كنغو مجموعة أخرى منها. و يسمى أيضا، خاصة في

(٣٣) عن هذا الموضوع انظر ج. هـ. غرينبرغ، ١٩٦٣، ص ٢١٥ ــ ٢١٧.
(٣٤) د. دلبي، ١٩٦٥، ص ١ ــ ١٧.
(٣٥) أنظر هـ. ساپير، ص ١١٣ - ١٤٠ في المجموعة المنشورة باشراف سبيك، المصدر المذكور، الا أن ساپير احترز ببعض الاحترازات عن النتائج المذكورة في النص.

الأدب الفرنسي، فلطاني. وأحدث الآراء عن التصنيف داخل مجموعة كورهي آراء بندر ــ ساموبل ونحن نتبع خطوطها العريضة.

ويجدر أن نلاحظ معظم اللغات التى اعتبرت ضمن الغور تنتمى الى مجموعة فرعية فسيحة جدا سماها بندر ــ ساموبل بالكور الاوسط (٣٦) وهويقابل الموسي كرنشي في البحوث السابقة. ويمكن تقسيم الكور الأوسط الى ثلاثة مجموعات فرعية: ١ ـ المور كورما؛ ٢ ـ مجموعة كروسي؛ ٣ ـ التمري. أما سائر المجموعات الفرعية للكُور فهي: ١ ـ بركو (باريتا)؛ ٢ ـ اللوبيري؛ ٣ ــ بوامو؛ ٤ ــ كولنكو؛ ٥ ــ كرما طيوراما؛ ٦ ــ و ين؛ ٧ ــ مجموعة سنوفو؛ ٨ ــ سيمي؛ ٩ ــ دوكون.

وحتى ولوسلم بوجود مجموعة كوا متميزة عن البينوي ــ كنغو المذكور أعلاه، فانه يوجد مجموعتان فرعيتان، الكرو في أقصى الغرب، والايجو في أقصى الشرق، وقد يثار الشك في انتمائهما لمجموعة كوا. وفيما عدا هذا الاحتراز فان أهم المجموعات الفرعية للكوا هي الآتية: معددة بقدر الاستطاعة من الغرب الى الشرق: ١ ــ لغات كرو؛ ٢ ــ الكوا الغربي و يشمل الاو ــ فووا لا كان ـ كنك (ويسمى اليوم أحيانا فولطا ــ كاموي) والكا ـ ادنكي واللغات المتبقية في الطوغو؛ ٣ ـ اليوروبا، الايكالا؛ ٤ ـ مجموعة النوب؛ ٥ ـ مجموعة الايدو؛ ٦ ـ مجموعة ايدوما؛ ٧ ـ ايبو؛ ٨ ـ ايجو.

أما البينوي ــ كنغو فهو أساسا مجموعة النيجر ــ كنغو التي كانت تسمى بينوي كروس، أو نصف بانتو من قبل وسترمان باضافة البانتو لقسمه «الشبيه بالبانتو». وهناك أربعة أقسام أساسية في البينوي ـ كونغو: ١ ـ لغات النجد؛ ٢ ـ الشبيه بالجوكو؛ ٣ ـ وادي كروس وأهم لغة فيه هي مجموعة إفيك إيبيبيو؛ ٤ ــ الشبيه بالبانتو و يشمل البانتو والتيف وعددا كبيرا من لغات أصغر في جهة بينوي الاوسط.

وعدد من لغات نيجيريا التي كانت تعتبر سابقا نصف بانتو بالمعنى الأعم، صارت اليوم تعتبر عامة بانتو، ومن الممكن أن نذكر في هذا القبيل مجموعتي إكوي وجراو. والتقسيم الأساسي للبانتو نفسه قد يكون بين اللغات المذكورة أعلاه والبانتو بالمعنى التقليدي.

وفي هذا المعنى الأخير يبدو مقسما الى مجموعة شرقية ومجموعة غربية. ولزيادة التدقيق في القسمة تستعمل عامة قسمة كشري الى مناطق معينة بالحروف، تتغير بطرق مختلفة حسب عدة اخصائيين (٣٧).

وكان تصنيف مجموعة البانتو في جملته كمجموعة فرعية من البنيوي ـ كنغو الذي هو نفسه فرع من الاسرة العظمى النيجر ــ كنغو، أحد الأوجه التي داخلها النقاش الأكبر في تصنيف غرينبرغ. فتبنى كثرى على الخصوص النظرية القائلة بأن البانتو مستقل وراثيا وان عديد وجوه الشبه الموجودة بين البانتو وسائر لغات النيجر ــ كنغو هي نتيجة لتأثيرات البانتو على مجموعة من اللغات متباينة أساسا. وهو يستنتج من هذه الفرضية أن نقطة الأصل للبانتو هي «نواة» الشابا الجنوبي، بينما يجلعها

---

(٣٦) أنني أتبع هنا، من أجل تفاصيل المجموعة الفرعية، ج. ت، بندر ساموبل النيجر ــ كونغو، كور، ص ١٤١ ــ ١٤٨ في سيبوك، المرجع قبله.

(٣٧) عن هذا التصنيف انظر م. كثري، ١٩٤٨.

غر ينبرغ في الوادي الاوسط من البنيوي في نيجير يا، اذ هناك تستعمل اللغة الأوثق تناسبا مع المجموعة الفرعية الشبيهة بالبانتو في بينوي ــ كنغو (٣٨).

وآخر مجموعة تنتمي للنيجر ــ كنغو هي فرع آدماوا الشرقي، فجموعة آدماوا يشمل عددا كبيرا من المجموعات اللسانية الصغيرة نسبيا، ومن بينها نذكر كمثالين التشمبا والمبوم. والفرع «الشرقي» يشمل عددا من اللغات ذات الاهمية الكبرى كالغبيا، في الجمهورية الافريقية الوسطى، والزندي (٣٩).

على العكس الاسرة الواسعة نيجر ــ كنغو، التي نظرنا فيها قبلا، فان الآخر من النيجر ــ كردوفاني، أعني اللغات الكردوفانية لا يشتمل على أي لغة ذات قيمة كبيرة، وهو يتقاسم هضاب الكردوفان مع لغات متنوعة. من الأسرة النيلية الصحراوية. ويمكن تقسيم هذا الفرع الى جموع فرعية خمسة متميزة كثيرا، ابعدها مجموعة التومتوم: ١ ـ كوالب؛ ٢ ـ تكالي؛ ٣ ـ طالودي؛ ٤ ـ كانلا؛ ٥ ــ تومتوم (و يسمى أيضا كوغلي ــ كرونكو) (٤٠).

الأسرة النيلية الصحراوية

الاسرة الأخرى الكبرى من اللغات الزنجية الافريقية، هي النيلية الصحراوية، و يتكلم بها بصفة عامة في شمال لغات نيجر ــ كنغو وشرقيتها، وهي سائدة في وادي النيل الاعلى وفي الجهات الشرقية من الصحراء ومن السودان. ولكن لها مركز متقدم غربي في السنغاي في وادي النيجر السفلي. وتشمل فرعا متسعا جدا، الشاري ــ نيل، وهو يحوي معظم لغات الاسرة وفروعها، ونحن نسير من الغرب الى الشرق كلما أمكن ذلك. فان فروع الاسرة النيلية ــ الصحراوية هي التالية:
١ ــ السنغاي؛ ٢ ــ الصحراوي: أ ــ كانوري ــ كانمبو، ب ــ تيدا ــ دازا، ج ــ زغاوا ــ برتي؛ ٣ ــ مابان؛ ٤ ــ فرو يان؛ ٥ ــ شاري نيل (ولز يادة التفاصيل انظر الأقسام والفقرات بعده)؛ ٦ ــ كومان (كوما، غنزا، أدك، غولي، كوموز، وماو).

ولغات الشاري ــ نيل تشمل مجموعتين رئيسيتين، السوداني الشرقي والسوداني الاوسط، كما تشمل لغتين منعزلتين، البرتا والكوناما.

والسوداني الشرقي، هو المجموعة الأكثر أهمية من بين اللغات النيلية الصحراوية، وتحتوي على عشرة مجموعات فرعية هي: ١ ــ النوبي: أ ــ نوبي النيل، ب ــ نوبي كردوفان، ج ــ ميدوب، د ــ بركاد؛ ٢ ــ مجموعات مورلي ديدينغا؛ ٣ ــ بار يا؛ ٤ ــ انكسانا (طابي)؛ ٥ ــ نيما أفيتّي؛ ٦ ــ تمين طويس ــ أوم ــ دنب؛ ٧ ــ مجموعة مرار يت؛ ٨ ــ داكو (مجموعة داجو)؛ ٩ ــ نيلي مقسم الى: أ ــ نيلي غربي، بوروم، مجموعة لوو ودينكا نو ير، ب ــ نيلي شرقي: (١) ــ مجموعة

---

(٣٨) عن النقاش حول البانتو انظر م. كثري، ١٩٦٢، ص ٢٧٣ ــ ٢٨٢، ر. اليفيي ١٩٦٦، ص ٣٦١ ــ ٣٧٦ وج. هـ. غر ينبرغ، ١٩٧٢ ــ ص ١٨٩ ــ ٢١٦.

(٣٩) توجد قائمة مفصلة للغات آدماوا الشرقية لدى غر ينبرغ، ١٩٦٦، ص ٩.

(٤٠) توجد ارشادات أكثر تفصيلا عن اللغات الكردوفانية عند غر ينبرغ، ١٩٦٦، ص ١٤٩.

باري (٢) ــ .كراموجونج، تيسو، تور كانا) ماسيا؛ ج ــ نيلي جنوبي، ناندي، سوك، تاتوجا. ١٠ ــ نيانغيا، توسو (ايك).

وتصنيف مجموعتين النيلي الفرعيتين، الشرقية والجنوبية، أثار جدالات حادة، فحين ضم ماينهوف الماساي الى اللغات الشاميتية، كان على ما يظهر ينوي ادخال لغات أخرى من هاتين المجموعتين، رغم شبهها مع اللغات المصنفة هنا. ضمن المجموعة النيلية الغربية، كالشكلوك واللوو والدينكا.

وان هو فرق بين لغتين متشابهتين مثل الشلوك والماساي مثلا، فذاك أساسا لأن الماساي له ميزة الجنس. وحاول وسترمان حلا وسطا بتسميته بالنيلية الشاميتية للغات النيلية الشرقية والجنوبية، معتمدا بدون شك، على فرضية انها لغات مختلطة. وخصص لفظ النيلي للنيلي الغربي. وتبنى توكر في البداية رأيا مشابها، ثم انه قرب أكثر هذه اللغات من النيلي مسميا اياها ملحقات النيلي (٤١). وتوجد آراء أخرى حديثة متباينة: عنها رأي هو هنبركر الذي يقارن الماساي بالسامي، ورأي هنتنغفرد الذي يبدو أنه حاول احياء فكرة ماينهوف القديمة القائلة ان هذه اللغات شاميتية (٤٢).

والمجموعة الثانية من الشاري ــ نيل، هي السوداني الاوسط. و يقسم الى ست مجموعات فرعية: ١ ــ البنكو ــ باكرمي؛ ٢ ــ الكرايش؛ ٣ ــ مورو ــ مادي؛ ٤ ــ مانكبيتو؛ ٥ ــ مانكبيتو إيفي؛ ٦ ــ لندو.

أسرة خويسان

لكل اللغات الخويسان، مصوتات ذات نغم خاص، ومعظم الذين يتكلمون بها ينتمون الى نموذج سان المتميز جسمانيا.

وتستعمل معظم اللغات الخويسان في افريقيا الجنوبية، الا أنه توجد مجموعتان صغيرتان من السكان منقطعين بعيدا جدا نحو الشمال في طانزانيا، هما الهاتسا والصنداوي وتختلف لغاتها كثيرا فيما بينهما، كما تختلف مع لغات مجموعة افريقيا الجنوبية، وتقسم الاسرة الى ثلاثة فروع: ١ ــ الهاتسا: ٢ ــ الصنداوي؛ ٣ ــ خويسان افريقيا الجنوبية. و يقسم هذا الأخير ذاته الى ثلاثة فروع: ١ ــ الفرع الشمالي و يشمل لغات سان الشمالية و بعض آون والكنغ؛ ٢ ــ خويسان الوسط و به مجموعتان: أ ــ الكيشوار؛ ب ــ نارون، خوي خوي؛ ٣ ــ سان الجنوب، وهو الذي يظهر أكبر تفرقة داخلية، و يشمل عددا كبيرا من لغات سان المتميزة (٤٣).

وكما شاهدنا في قسم من هذا الفصل خاص بتاريخ التصنيف فإن عددا من علماء اللسانيات، بليك ولبسيوس وفيما بعد ماينهوف، قد فصلوا الخوي خوي عن السان، وجعلوا هذه اللغة ضمن

(٤١) انظر أ. ن. توكر، و. م. أ. بريان، ١٩٦٦.
(٤٢) انظر عن ذلك ج. و. ب. هنتنغفرد، ١٩٥٦، ص ٢٠٠ - ٢٢٢، ج. هوهنبركر، ص ٢٨١ - ٢٨٧ وج. هـ. غرينبرغ، ١٩٥٧، ص ٣٦٤ - ٣٧٧.
(٤٣) انظر الرأي المعاكس للأستاذ أولدروج، الفصل الحادي عشر.

الشاميتية، و يدعم حاليا أ. و. ج وستفال (٤٤) شكلا منقحا من هذه النظرية، وهو يقسم المجموعة الموصوفة هنا باسم خويسان إلى أسرتين مستقلتين، أحدهما الصنداوي وخوي خوي و يشمل الصنداوي ولغات خويسان الوسطى. ولكل هذه اللغات ما عدى الكيشوار تمييز للجنسين، ولا يتقدم وستفال باي رأي فيما يخص القرابة الممكنة مع الشاميتية ـــ السامية. ومجموعة وستفال الثانية، الهندزاسان، يشمل الهاتسا ولغات سان الشمالية والجنوبية. ولكنه يعتبر أن القرابة بين الهاتسا ولغات سان غير ثابتة كامل الثبات.

ولغة مرينا التي فرضت نفسها بالنسبة الى اللغات من أصل افريقي المتداولة في بعض الجهات من الجزيرة الكبرى، ليست ضمن التصنيف أعلاه، فلم تناقش قط نسبتها الى الاسرة الجزرية الجنوبية (ماليزية بولينيزية) وأقرب قريب لها داخل الاسرة في الراجح هو المانيان بورنيو (٤٥). وهناك لغة أخرى لم تذكر في هذا التصنيف: الميرويتية (٤٦) وهي لغة ميتة كتبت بألفبائية ذات شكلين شكل هيروغليفي وشكل عادي لين وقد انقرضت هذه اللغة منذ القرن الرابع للميلاد تقريبا وليست معروفة الا من اكتشافات أثرية تمت في منطقة تمتد تقريبا من أسوان في مصر الجنوبية الى الخرطوم في السودان. ورغم كوننا نجهل قيمة الحروف المستعملة الصوتية، فليس لنا، بسبب انعدام النقوش المزدوجة اللغات، الا معرفة محدودة غير ثابتة بالمفردات والنحو، وأقدم نظرية كانت، أن هذه اللغة من النوبية (غريفيث) ورفضت فرضية حامية (ماينهوف، زهلارز) بمقال جليل لهنتز.

وأعيد عرض الفرضية النوبية مؤخرا في شكل أوسع، قدمها ترجر الذي يذكر أنها تنتمي الى الفرع الثانوي السوداني الشرقي من النيلي ـــ الصحراوي، وهو يشمل النوبية (٤٧) حسب تصنيف غرينبرغ.

وفي النهاية ينبغي أن نذكر اللغات الاوربية والهندية المستوردة حديثا و يتكلم بها، في بعض الحالات سكان مولودون في افريقيا. فالانكلزية، علاوة على كونها يتكلم بها في افريقيا الجنوبية وفي زيمبابوي، هي لغات أحفاد السود الاميركان الذين أسسوا ليبيريا، وهي مستعملة أيضا في صورة مزيج (كريو) فريطاون (سيراليوني). والافريقان، قريب من النيرلندية، وهو مستعمل في افريقيا الجنوبية. و يوجد في افريقيا الشمالية عدد كبير من السكان يعرفون الفرنسية والاسبانية والايطالية، و يوجد شكل مزيج من البرتغالية وهي اللغة الاولى لبضع الآف من الاشخاص في غينيا وفي جهات أخرى. وأخيرا عدة لغات ذات أصل هندي مستعملة في افريقيا الشرقية، وهي تشمل اللغات الآرية والدرافيدية، وأهمها الكجراتي.

---

(٤٤) أ. و. ج. وستفال، ١٩٧٧، ص ١٥٨ ـــ ١٧٣.

(٤٥) الاشارات التي تستند اليها هذه الفرضية مقدمة عند و. س. داهل، ١٩٥١.

(٤٦) نذكر أن في جانفي (كانون الثاني) وفيفري (شباط) ١٩٧٥، أقيمت ندوة مهمة التأمت في القاهرة للاشراف على جلة البحوث عن حل: الغاز الميرويتية، (انظر المجلد الثاني).

(٤٧) عن هذه المسألة انظر ف. هينتسية، ١٩٥٥، ص ٣٥٥ ـــ ٣٧٢ وترجر (ب. ج.)، كوش مجلد ١٢، ص ١٨٨ ـــ ١٩٤.

مختلف مراحل التصنيف التي اقترحها صاحب المقال

١ ــ (١٩٤٩ م ــ ١٩٥٠ م)

١ ــ النيجر ــ كنغو
٢ ــ السنغاي
٣ ــ السوداني الأوسط
٤ ــ الصحراوي الأوسط
٥ ــ السوداني الشرقي
٦ ــ الافروآسيوي (حامي سامي)
٧ ــ «كلك»
٨ ــ «مابان»
٩ ــ «ميمي ناشتكال»
١٠ ــ «فور»
١١ ــ تماني
١٢ ــ كردوفاني
١٣ ــ «كومان»
١٤ ــ «برتا»
١٥ ــ «كوناما»
١٦ ــ نيانغيا

٢ ــ (١٩٥٤ م)

١ ــ النيجر ــ كنغو
٢ ــ السنغاي
٣ ــ سوداني أعظم (٥ر١ سوداني شرقي) (٣ر١ سوداني أوسط) (١٤ر١ برتا) (١٥ر١ كوناما)
٤ ــ صحراوي أوسط
٥ ــ افروآسيوي
٦ ــ «كلك»
٧ ــ مابان (٨ر١ مابان) (٩ر١ ميمي ناشتكال)
٨ ــ «فور»
٩ ــ تماني
١٠ ــ كردوفاني
١١ ــ «كومان»
١٢ ــ «نيانغيا»

٣ ـ (١٩٦٣ م)

١ ــ نيجري ــ كردوفاني (١ر٢ نيجر ــ كنغو. ١٠ر٢ كردوفاني)
٢ ــ أفرو آسيوي
٣ ــ خو يسان (انظر ٦ر٢ كلك)
٤ ــ نيلي صحراوي (٢ر٢ سنغاي، ٤ر٢ صحراوي (انظر صحراوي أوسط) ٧ر٢ مابان، ٨ر٢ فور، ١١ر٢ كومان بإداخال، شاري ــ نيل، ٣ر٢ سوداني أعظم، ٩ر٢ تماني، ١٢ر٢ نيانغيا.

ــ احالات

١ ــ المجلة الجنوبية للانترو بولوجيا ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠.
٢ ــ المجلة الجنوبية للانترو بولوجيا ١٩٥٤.
٣ ــ لغات افريقيا ١٩٦٣.

القسم الثاني

خريطة لغوية لافريقيا

دافيد دالبي

مع أن كثافة السكان في افريقيا اقل منها في العالم في مجموعه (١)،فإنها تحوي تشعبا لغويا أكبر منه في سائر القارات (٢). ولذا لا يوجد حتى اليوم تصميم مفصل لخريطة لغوية في القارة الإفريقية، في الوقت الذي يحتاج فيه اليها المؤرخون وكثير غيرهم، احتياجا كبيرا، والخريطة السلالية الديموغرافية لافريقيا التي أعدها الاتحاد السوفياتي هي بلا شك مما يقترب من هذه الخريطة أكثراقتراب حتى اليوم (٢ مكرر). ولو أنه يعوزها الوضوح، فكثيرا ما تكون فيها الفروق اللغوية والسلالية غامضة، وتشقلها معطيات ديموغرافية او «لغوية سلالية». هذا وان كل الاسماء الافريقية نقلت بالحروف السيرلية. واما سائر الخرائط القارة فهي تشير الى المجموعات السلالية أكثرمن تعرضها للمجموعات اللغوية، وهي عموما مبسطة كثيرا لدرجة أنها أقل من ان يكون لها قيمة علمية (٣).

ومن الواضح أنه لا مناص من بعض التطرف في التبسط اذا ما حاولنا أن نعطي صورة عامة لتوزيع اللغات على القارة الافريقية وعلاقاتها الواحدة بالنسبة الى الأخرى، فلكي تكون خريطة

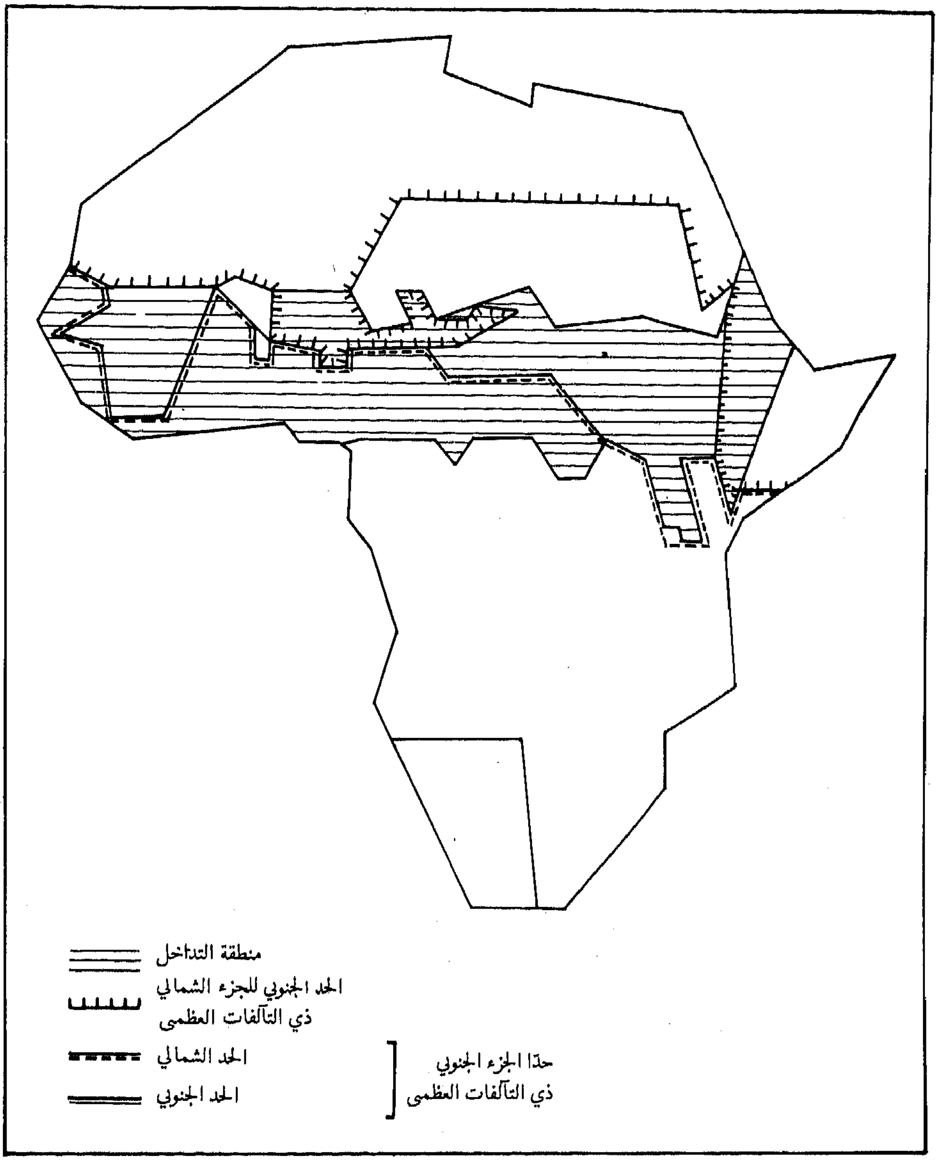
---

(١) تحتل افريقيا نحو ٢٠٪ من المساحة الارضية الكاملة، ومع هذا فإنها تمثل اقل بقليل من ١٠٪ من العمران البشري في العالم - باكمله.

(٢) ان غينيا الجديدة (وهي لا تزيد على جزء من اربعين من مساحة افريقيا كاملة) بها درجة من التشعب اللغوي يساوي او قد يفوق تشعب القارة الافريقية، ولكن لا يوجد في العالم منطقة تقسمت فيها اللغات تقسمها بالنسبة للمسافات الجغرافية، في المنطقة من افريقيا جنوبي الصحراء.

(٢) مكرر: Narodni Afriki ، موسكو، ١٩٦٠، أنظر أيضا Karta Norodor Afriki ، موسكو، ١٩٧٤.

(٣) مثلا (الخريطة القبلية لافريقيا «ل. ج. ب. مرودك ١٩٥٩» او «خريطة القبائل والقوميات في افريقيا المعاصرة» بـ روا لويس وايفون فوي، نشرها التايمس في بداية السبعينيات.



● رسم توضيحي للخريطة اللغوية لأفريقيا

صحيحة صحة مطلقة، ينبغي أن يمثل عليها كل واحد من سكان القارة الافريقية بنقطة منيرة منعزلة. وقد تنتقل هذه النقطة تنقل الشخص نفسه، واذا ما اضاءات فينبغي ان تتمكن من المرور بنحو الفي لون مختلف حسب اللغة التي يتحدث بها ذلك الشخص المعني في ذلك الوقت المحدد بالذات.

واذا يستحيل ماديا ان توضع خريطة من هذا النوع، فمن اللازم ان نكتفي بوثيقة، ان لم تكن بلغت الكمال، نؤمل ان تكون فيها من التفاصيل والصحة مايفوق ما كان بين يدينا حتى الآن.

فمنذ عشر سنوات يعمل على وضع خريطة افريقية لغوية خاصة (بالمقابلة للخريطة السلالية). والهدف من هذا الفصل ان نؤكد على ملامح هذا العمل التي تتعلق بتاريخ افريقيا (٤).

ولو ان الدراسة المقارنة للغات الافريقية كانت تبدو في الخارج تقنية، فانها كثيرا ما قيم بها بكيفية ساذجة جدا. وقد نميل الى ان نسلم بان الخريطة اللغوية المشعبة الحالية، نشأت عن خريطة لغوية قديمة أبسط بكثير،وان العلاقات اللغوية قد تعبرعن نفسها في شكل «أشجار أنساب» متفرعة حسب طبقية تنازلية («الاسر» ما تحت الاسر «الفروع») وان الفكرة التي تقول: ان مئات ومئات من اللغات المعاصرة في افريقيا قد ترتفع، على نظام تصاعدي منظم، الى بعض «اللغات الامهات» هذه الفكرة قد حدت بالاخصائيين في اللسانيات المقارنة الى النظر في العلاقات الممكنة بين اللغات الافريقية حتى البعيدة بعضها عن بعض، قبل أن يثبتوا ما بينها من علاقات مباشرة على اساس صحيح. وادى ذلك باللغويين الى الاعتناء أساسا بالسير التاريخي للتباين في اللغات ذات الاصل المشترك افتراضا، والى الا يعيروا اهتماما بسير التجمع بين لغات لا قرابة بينها، أو العودة الى الجمع بين لغات لها قرابة الواحدة من الاخرى. وازدادت نتائج هذه النظرة السيئة تعكرا بسبب ان التصنيفات التاريخية المزعومة التي وصلوا اليها بهذا الاسلوب، جعلت ايضا اطارات للمرجع، (لا بالنسبة الى اللغات فقط بل حتى بالنسبة الى الاهالي في افريقيا). ونتيجة لذلك اثرت بدون موجب في تفكير المؤرخين في افريقيا.

ويجدر اذن قبل كل شيء ان يخلص ما للخريطة اللسانية الافريقة من تشعب، وذلك باختصارها الى ابسط مركباتها (اعني الجموع اللسانية التي توجد بينها صلات وثيقة وعلاقات جماعية، والتي تكون لها وحدة خارجية ووحدة داخلية (٥) (وحدات مركبة)، او لغات متميزة لا يمكنها ان تدخل في اية واحدة من هذه المجموعات = (وحدات بسيطة). وهذا العمل يكشف عن خاصة من خواص مهمة للخريطة اللسانية قد حجبتها التصنيفات السابقة، وهي انه من بين ما يقرب من ١٢٠ وحدة بسيطة ومركبة في كل افريقيا، انحصرت مائة منها تماما في منطقة واحدة

---

(٤) خريطة لغوية لافريقيا والجزر المجاورة لها، شرع في وضعها من قبل (مكتب الدراسات الشرقية والافريقية والمعهد الدولي الافريقي). وتهدف هذه الخريطة الى ابراز التوزيع الحالي للغات «الام» او«الاولية» وعلاقاتها اللسانية، بمقياس ١: ٥٠٠٠ ٠٠٠، وعلى هذه الخريطة مثلت أيضا جهات أكثرتشعبا لغويا بمقياس ١: ٢٠٠٠ ٠٠٠، و١٢٥٠٠٠٠، ويعمل المعهد الافريقي الدولي حاليا (١٩٧٧) على طبع نشرة مؤقتة تتضمن قائمة نظامية للغات الإفريقية (تمهيدا لنشرة نهائية ستطبع فيما بعد من قبل لونكمانز).

(٥) لئن قامت علاقة بين اللغات (أ). و (ب) و (ج) يمكن ان تعتبرذات «وحدة داخلية» على أن هذا التجميع لا معنى له اذا لم يكن لهذه اللغات «وحدة خارجية» اي اذا كانت العلاقة بين أ و ب، وبين أ وج، وبين ج وب في كل هذه الحالات اوثق منها بين كل من هذه اللغات الثلاث وبين اي لغة ليست من مجموعتها.

تمتد عبر افريقيا كلها، من ساحل السنغال غربا حتى مرتفعات اثيوبيا وافريقيا الشرقية، شرقا (٦) فاذا ما اعتبرت اللغات المختلفة (٧)، ان ثلثي المجموع تقريبا بالنسبة للقارة الافريقية يتكلم بها داخل المنطقة التي تمتد تقريبا على ٥٦٠٠ كيلومترطولا، ولكن ليس لها اكثر من متوسط ١٠٠٠ كيلومترعرضا.

وتمتد هذه المنطقة على طول القفر الصحراوي، ونظرا لموقفها الجغرافي ولتشعبها اللساني يمكننا للتسهيل ان نسميها «منطقة التفريع تحت الصحراء». ويمكن تحديد نهاياتها حسب الجغرافيا الطبيعية واللسانية، فإنها بالجملة تجاور شمالا المغازات الصحراوية وشرقا الخواصر الجبلية وجنوبا حافة الغابة، وتنتهي غربا الى الساحل الاطلسي وجهات التقسيم الاقصى؛ ومن الوجهة الجغرافية الطبيعية، تقع على طول المحيط «لمنطقة التفريع» في الشمال الشرقي، في الوسط وفي غربي هذه المنطقة وفي اقصى الجنوب من قرن افريقيا الشرقية، وفي كتلة تشمل معظم افريقيا الغربية. ومن حيث العلاقات البنيوية والمعجمية العامة، فإن اشد الجهات تقسيما تقع في الارجح داخل قرن افريقيا الشرقية وحول طرفها حيث تستعمل لغات تمثل «الاسر» الاربع التي يفترضها غرينبرغ في دائرة لا يتجاوز قطرها اربعين كيلومترا.

ففي هذه الصورة كما في مثل جبال الطوكو ونجد جوس وهضاب الكامرون وجبال نوبا والاراضي العليا في غربي اثيوبيا، يظهر انه يوجد ارتباط بين بلاد الجبل وظاهرة التقسيم اللساني الشديد (٨). ويجدر ايضا ان يلاحظ، ان العلاقات الداخلية بين بعض الوحدات المركبة المتمثلة في لغات داخلة في منطقة التقسيم كلغات خارجة عنها ايضا، هي اقل وضوحا أكثر فأكثر في نقطة التداخل بمنطقة التقسيم (٩).

وقد حجب ما لمنطقة التقسيم من قيمة لسانية وتاريخية تراكم شبكة من «الاسر» و«شبه الاسر» اللسانية التي افترضها علماء اللسانيات الاوربيون والاميركان. ومن هذه الاسر اثنتين من اهمها، بما لها من قيمة واضحة ومن فائدة، تفوقان الاسرتين الكبيرتين الاخيرتين في تصنيف غرينبرغ بل عدة «اسرة فرعية» رتبت ضمنها تقليديا.

واذ ان كلمة «اسرة» تتضمن ترتيب بنوة ذات طابع بشري او بيولوجي لا تليق بظاهرة اللغة،

---

(٦) من بين الباقية يوجد لا اقل من تسع وحدات تشمل لغات يتكلم بها على حافات منطقة التفريع (مما يستثنى لحسب بعض الوحدات الغير البنتوية من جنوبي افريقيا ومدغشقر).

(٧) في صورة العديد من مجموعات أشكال اللغات المتقاربة كثيرا او قليلا لا يمكن أن تثبت سوى تميزات اعتباطية بين «اللغات» و «لهجات اللغات» فاذا ما اعتبرنا جموع أشكال الكلام المفهومة قليلا أو كثيرا كلغات «متميزة يكون المجموع في أفريقيا نحو ١٢٥٠ لغة واذا ما اعتبرت كل الاشكال كلغة قائمة بذاتها أنى تلوح هكذا لمن تكلمها، وأنى اتخذت لنفسها اسما متميزا، يقترب المجموع اذن من ٢٠٥٠ لغة.

لو طبقت هذه الطريقة الاخيرة على اوربا لاعتبرت السويدية والنرويجية والدانمركية لغات متميزة، ولكن اذا ما اتبعت الطريقة الاولى لزم عدها لغة واحدة. وكي نحصل على فكرة فيما يخص تقدير عدد اللغات المتكلم بها في افريقيا، نقترح ان نتخذ معدل التقريرين تقريبا ١٦٥٠ لغة لافريقيا، منها ١١٠٠ تقريبا (حسبت بالطريقة نفسها) يتكلم بها في منطقة التفريع.

(٨) نشير الى نقطة مقارنة مهمة هي أنه توجد «منطقة تقسيم» مماثلة بالنسبة للغات الهنود في اميركا الشمالية. وهذه المنطقة الجبلية في معظمها لها نحو ٣٠٠ كيلومترمن الطول و٣٠٠ كم عرضا. وتمتد على موازاة ساحل المحيط الهادي، من جنوبي الأسكا حتى الحدود المكسيكية، وتشتمل على منطقة تقسيم اقصى في شمال كاليفورنيا (حيث ان ممثلات ست اسر كبيرة من ثمان فرضت للغات الهنود في اميركا الشمالية تقع في دائرة شعاعها نحو ١٦٠ كم).

(٩) اعني لغات سامية «كوشيتية» شرقا و بانتو (بادخال اللغات الشبيهة بالبنتوية».

يمكن ان يفكر في تعويضها بعبارة «ناحية التآلفات الكبرى» «للدلالة دلالة صحيحة على كل من هاتين الاسرتين، خصوصا وانها تحتل نواحي متلاصقة تلاصقا قويا او ضعيفا في القارة الافريقية. واولى هذه النواحي أي الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى» تعرف عادة باسم «الحامية السامية» وسميت حديثا «الأفروآسوية» (غرينبرغ) او «الاريترية» (طكو). والثانية أو «الناحية الجنوبية للتآلفات الكبرى» سميت حديثا «النيجرية الكنغولية» و«الكنغولية ـ الكردوفانية» (غرينبرغ) او «الزنجية» مردوك (١٠). ولم يحدث اي جدل حول الصلاحية العامة لهاتين الناحيتين ذاتي التآلفات الكبرى التي ظهرتا لعلماء اللسانيات الاوربيين منذ القرن السابع عشر (١١) وبدون شك ايضا للملاحظين الافارقة منذ عهد اقدم بكثير. و يعتبر من الاهمية النسبية لهاتين الناحيتين أنها تشمل على اكثر من ٨٠٪ من اللغات المتكلم بها في افريقيا، وتشمل الناحية الجنوبية بمفردها ما يقرب من ٦٦٪ من مختلف اللغات بالقارة. وحسب التصنيف التقليدي المستعمل في الخريطة اللسانية الموجودة حالية، فان لغات الناحية الشمالية تتوزع في الجملة الى سبع عشرة وحدة بسيطة ومركبة (اثنتي عشرة منها توجد تماما في منطقة التقسيم) وتتوزع لغات الناحية الجنوبية الى ثمان وخمسين وحدة بسيطة ومركبة (سبع وخمسون منها توجد تماما في منطقة التقسيم) (١٢).

وهناك سبب حاسم لكي لا توضع مستويات متوسطة في العلاقات الموجودة بين المناطق الاساسية ذات التآلفات الكبرى على مستوى القارة والوحدات البسيطة او المركبة، على المستوى النسبي المحلي. وذلك انه، لموجب مازلنا نجهله، هذه المستويات الوسطية في العلاقات اللسانية ليس لها ما يفرضها بوضوح، وتحديدها اصعب بكثير من تحديد المستويات الاساسية والمباشرة. فوحدة الاسرة «الاطلسية الغربية» أو «كوا» أو «كور» أو «بينوي ـ كونكو» الداخلة في اطار الاسرة الجنوبية ذات التآلفات الكبرى او وحدة «الاسرة» الكوشيتية أو «التشادية» في اطار الاسرة الجنوبية ذات التآلفات الكبرى، لم يتم بعد التدليل عليها بصفة قطعية. ولو أنه لوحظ منذ بعض سنين، ما للتصانيف التقليدية الاوربية والاميركية للغات الافريقية (١٣) من ضعف في هذه النقطة المهمة، فان المستويات الوسطية للتصنيف، مازالت تحتل مكانة ذات قيمة في المصنفات المخصصة. ومن بعض النواحي، انه في الامكان ان يقارن هذا الابقاء على التقسيمات الاعتباطية المفروضة على

---

(١٠) ان اسرة «الكنغولية الكردوفانية» غرينبرغ تشمل الاسرة التي يسميها «النيجرية ـ الكنغولية» مع مجموعة صغيرة من اللغات ذات قيمات لها قرابة اقل مع الاسرة الكردوفانية وعبارة «زنجي» توضع لتصنيف اقدم اعاد استعماله مردوك سنة ١٩٥٩.

(١١) انظر دراسة غرينبرغ في هذا المجلد (ص ٣ من النص المرقون) و يشير فيها غرينبرغ أيضا الى ان العلاقة بين الملغاشية والماليزية قد لوحظت بالطريقة نفسها منذ القرن السابع عشر الميلادي.

(١٢) داخل الناحية الجنوبية للتآلفات الكبرى فان الوحدة المركبة الوحيدة الواقعة (في معظمها) خارج منطقة التقسيم هي وحدة البانتو. على ان هذه الوحدة المركبة تشتمل بمفردها تقريبا على عدد من اللغات (نحو ٥٠٠) يساوي مجموع العدد في الوحدات السبع والخمسين الاخرى في هذه الناحية ذات التآلفات الكبرى.

(١٣) انظر دافيد دالبي: [«تأملات حول تصنيف اللغات الافريقية، مع احالة خاصة الى عمل سيكموند وإلهم كوال وملكهم غوثري» دراسات اللسانيات الافريقية ١، ١٩٧٠] * ص ١٤٧ - ١٧١ (خاصة ١٥٧ - ١٦١).

* كل ما بين المقفعتين لا يوجد في النص المطبوع (تعليق المراجع محمد الفاسي).

الخريطة اللسانية في افريقيا، بتاريخ التقسيمات الاستعمارية الاعتباطية المفروضة على الخريطة السياسية للقارة الافريقية.

وان كان غرينبرغ قد ادى خدمات جلى لعلماء اللسانيات الافارقة بلفت نظرهم الى الاستعمال الاعتباطي للفظ «حامي» للدلالة على نوع مستوى متوسط للتصنيف الموجود (١٤). فعليه من سوء الحظ مسؤولية الحفاظ الاعتباطي على عدد كبير اخر من هذه المستويات وقد اثير سابقا عدد من الشكوك على عدة من هذه المستويات (١٥) ولكن الاستاذ ستيورت قد نشرا اخيرا تكذيبا اوضح لتصنيف مجموعة «بينوى كنغو» وهي أكبر «اسرة فرعية» افترضها غرينبرغ.

وان من اهم النتائج لهذه الاعمال كلها (الحديثة) على لغات «بينوي كنغو» هو اثارة الشك حول صلاحية البينوي ــ كنغو كوحدة وراثية، ولقد بدئ بتقبل رأي غرينبرغ دون مناقشة حين زعم ان عدة تجديدات صودق عليها بصفة عامة، قد يكون لها قيمة الحجة. والواقع انه لم يذكر منها سوى واحدة. اللفظ الذي يدل على «الطفل»، بينما يشير ولمسون الى انه اذا ما اعتبرت المقابلات العادية المقبولة، قد نشاهد ان هذه الخاصية لا تنحصر في لغات بنيوي ــ كونغو، فلا تكون اذن حجة قطعية، وزد على ذلك انه، في كل الجزء الاول من كتاب «قائمة الالفاظ المقارنة» (١٦) لبينوي ــ كونغو لا يوجد مثال واحد في مقام الحجة القاطعة. وحين يخبرنا ستيورت بشكوكه منذ عهد بعيد حول الوحدة الخارجية لبينوي ــ كونغو، لا يسعنا الا ان نتساءل عن السبب الذي من اجله احجم اخصائيو اللسانيات المقارنة عن ترك نظام تصنيفهم. ومن سوء الحظ ان كل الموعظة العملية المستمدة من البينوي ــ كونغو ضاعت، وعوض أن يتخلى ستيوارت عن هذا المستوى وعن غيره من المستويات التي لم تثبت في تصنيفه التوسطي ــ بفضل مواصلة تخطيط غرينبرغ ضاما «بينوي كونغو» الى «كوا» و«كور» (وهذان تصوران اعتباطيان ايضا) ليكون تقسيما اخر، اعتباطيا هو بدوره، النيجر ــ كونغو «و يسمى الان فولطا ــ كنغو» (١٧). و يلزمنا بدون شك أن ننتظر نتائج اعمال لسانية مقارنة اخرى لنرى «الفولطا ــ كونغو» لستيورت تتسع أكثر، كي تضم كل «النيجر ــ كونغو» أو الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى وهو المستوى الاساسي الوحيد للوحدة الخارجية والداخلية الواضح المعالم المتفق عليه.

ومما يجب على المؤرخين ان يلاحظوه، ان «التقبل الفسيح» للتصنيف المعياري لغرينبرغ يرتكز الى حد بعيد، فيما يخص النيجر ــ كونغو، على تقبله هو ذاته ــ «مجموعات وسترمان» أو «الاسر الفرعية» للغات افريقيا الغربية. وكما اشرنا الى ذلك من قبل، فان وسترمان لم يثبت وحدة

(١٤) انظر مقال غرينبرغ في هذا المجلد.

(١٥) انظر دالبي، المصدر قبله، ص ١٦٠.

(١٦) ج. م. ستيورت، ١٩٧٦، ص ٦.

(١٧) من السخرية ان نلاحظ ان «الاسرة الفرعية» الوسطية الوحيدة الواضحة التي لا يداخلها شك لاسرة نيجر ــ كونغو غرينبرغ، هي المادني. ووضوح هذه القسمة يشهد على ان هذه هي من «اسرها الفرعية» التخمينية الوحدية التي لم يشك في انتمائها الاساسي الى اسرة «النيجر ــ كنغو».

«مجموعاته» الخارجية (١٨) بينما تدل وحدتها الداخلية الواضحة فحسب، على ان اللغات التي تكونها تنتمي الى الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى.

واذا صح انه ليس للمؤرخين ان يتقبلوا بدون إحتراز التصنيفات الموجودة للغات الافريقية، فيجب ان نلح بكل قوة على ما للخريطة اللسانية في افريقيا من اهمية كمصدر للخبر عما قبل التاريخ لهذه القارة. ومازال الأمر يحتاج للقيام باعمال عديدة للتعمق في هذا الموضوع، ونحن ننتظر الجيل الجديد من مؤرخي اللغات الذين يكونون ايضا يتكلمون اللغات الافريقية، فيكون في متناولهم ان يدعموا الاعمال التمهيدية التي لا يستغنى عنها للمقارنة الدقيقة المفصلة للغات المجاورة الوثيقة القرابة. ومنذ ذلك يمكن حينئذ الرجوع الى التعبير التخطيطي الا فسح لجملة الخريطة اللغوية في افريقيا. وعلى تشعبها اللغوي الذي يفوق تشعب سائر القارات. فان افريقيا حقا بارزة لكون ثلثي لغاتها يرتبطان بناحية واحدة ذات تآلفات كبرى، ولكون هذين الثلثين المتنوعي التركيب، ينحصران في حدود منطقة التقسيم في جنوب الصحراء. وافريقيا التي يتكلم فيها بالبانتو هي الناحية الوحيدة من القارة التي كانت موضوع نقاشات مهمة حول التعبير فيما قبل التاريخ للمعطيات اللسانية.

ومفتاح هذا التعبير في السلم القاري، يكون من شأنه ان يجعلنا نتفهم تفهما احسن العلاقات اللسانية داخل منطقة التقسيم. ومع ذلك لا يمكن ان ينقص من قيمة ضخامة العمل الذي يجب القيام به.

---

(١٨) دالبي، المصدر المذكور.

الجغرافيا التاريخية: المظاهر الطبيعية

د. دايارا

من الصعب، دون شك، أن يفصل التاريخ الافريقي عن الجغرافيا التي كانت له اطارا وحاملا. ولكنه من العبث أن يعتمد على اعتبارات حتمية لادراك العلاقات التي تكونت بين المجتمعات الافريقية وبيئتها الخاصة، بما لهذه العلاقات من التشعب. وفي الحقيقة ان كل مجموعة قد تفاعلت بطريقة ازاء الوسط الذي واجهها. فما تم من محاولات موفقة قليلا او كثيرا، لتنظيم المدى يشهد، هنا وهناك، بدرجة تنظيم البشر، وبما لتقنياتهم من النجاعة لاستغلال الموارد المحلية. على انه من المهم بالنسبة الى افريقيا المتحركة، أن ينظر في بعض الخاصيات الجغرافية التي من شأنها أن توضح الأحداث العظيمة التي انتصبت كعلامات على طول المنظور الجغرافي التاريخي للقارة.، وفي هذا الشأن، ان خواص التشكل التكويني العام الافريقي، وما يوحي به من تمنطق مناخي عجيب، وأخيرا ما للاوساط الطبيعية المكونة للقارة من طرافة، كل ذلك جوانب موروثة قد أعاقت النشاط البشري، أو قد يسرته، لكن دون أن تتحكم أبدا وحتما في تطوره. وفي الخلاصة ليس الامر سهلا فيما يخص العلاقات في الصميم بين الطبيعية الافريقية وبين الرجال الذين يشغلونها ويستغلونها ويصلحونها ويغيّرونها، حسب ما لهم من نظام سياسي، وما لديهم من وسائل التقنية، وما لهم من مصالح اقتصادية.

خصائص التشكل التكويني في القارة الافريقية

انه من المسلم به عموما، أن افريقيا تنتمي الى قارة قديمة جدا كانت تشمل، قبل تصدعها نتيجة انهدام بطيء، على أميركا وآسيا الجنوبية واستراليا. ،من المحتمل أن تكون هذه القارة، هي غندوانا



● خريطة هاتييه: مأخوذة من «تاريخ أفريقيا السوداء (بالفرنسية)»، تأليف ج. كي ــ زيربو، ١٩٧٨ (الطبعة الثانية)

وهي مظهر الجهود الاولى لانشقاق القشرة الارضية التي أثارت سلاسل ضخمة من الجبال، اتجاهها العام من الجنوب الى الغرب، ومن الشمال الى الشرق، وانجرفت هذه التعاريج بشدة من جراء تعريها الطويل، فردت الى اشباه سهول يشاهد أوسع أمثلتها في افريقيا.

طرافة افريقيا الجيولوجية

ان طرافة افريقيا، يشهد بها أولا هذا الامتداد الخارق للقاعدة الكمبرية الاولى الذي يغطي معظم مساحتها. وتبدو هذه القاعدة على ثلث القارة وأحيانا تغطيها قشرة، تختلف سمكا من الرواسب والمواد البركانية، وهذه القاعدة تشتمل على صخور متبلورة (غرانيتات) أو متحولة (شيست، مرو، غنيس) شديدة الصلابة. ففيما عدا النظام الالبي في المغرب، والتعاريج الهرسينية في الكاب، وفي جنوب جبال الاطلس، فان المجموع الافريقي والملغاشي يشكل مصطبة عتيقة قارة متكونة من ترس لم يتحمل تعاريج ذات قيمة منذ العهد الكمبرى القديم. وعلى القاعدة وقد حتها انجراف طويل ترسبت مع تقصف في الطبقات، تشكيلات رسوبية في صورة غشاوات تحت الافقية متنوعة الأعمار منذ بداية الدهر الجيولوجي الأول، حتى الدهر الرابع. وهذه السلاسل الرسوبية مركبة من مواد خشنة في الغالب حثية (ترابية ــ رملية)، وهي أقرب الى الطبيعة القارية منها الطبيعة البحرية، اذ أن الزحوف البحرية لم تغط القاعدة الا في فترات مؤقتة وبكيفية جزئية. ففي افريقية الغربية يكوّن حُث الدهر الأول هالة داخل مابرز من الساحة القبل كمبرية. وفي افريقيا الجنوبية فان التراكمات العظيمة القارية من العصر البرميّ الترياسي تكوّن سلسلة كارو التي يبلغ سمك سلاسلها الحثية أحيانا ٧٠٠٠ متر. وشمالي القارة ولا سيما في الصحراء الشرقية وفي النوبة، فإن الحث الجوواسي والطباشيري «قاري متداخل».

ولكن في الدهر الثاني تراكمت السلاسل البحرية من الجوراسي الى العصر الفجري في المناطق الساحلية وفي الأحواض الداخلية وإنها تشاهد في خلجان السنغال ومور يتانيا والبنين والكابون وانكولا وفي حوض التشاد، وفي السهول الساحلية في افريقيا الشرقية من الصومال الى الموزمبيق. ومنذ العصر الفجري تراكمت الرواسب النهرية والهوائية في الأحواض الكبيرة الداخلية في افريقيا. وكل هذه السلاسل من الأغطية، التي ترتكز على القاعدة الصلبة، لم تؤثر فيها تعاريج بل تغيّرات في الشكل كبيرة منقوصة الشكل جدا، توالت منذ الدهر الأولى حتى فترة حديثة. فكانت هزات في شكل رصيف وانهيارات بعيدة المدى، وذاك ما يفسر بنية النتوأت والأحواض المميزة لافريقيا. وفي الدهر الثالث عندما بلغ التكون الالبي للجبال أشده، أثارت حركات رأسية أقوى حدة، تقصفات كبيرة في افريقيا الشرقية. وتصور هذه الكسور خنادق طويلة تقع تحت خطوط الزوال، تحيطها انهدامات، «أودية الرّفت». وقد يصحبها أحيانا انصبابات بركانية مولدة لتضاريس أقسى، مثل الكيلمندجارو وعلى رأسه كتلة الجليد والبالغ من الارتفاع ٦٠٠٠ متر. وفي الغرب كانت الانفصامات الطف، ولكن الانفصام الواقع في قعر خليج غينيا، أظهر نشاطا بركانيا قويا يشهد عليه بقوة جبل الكمرون (٤٠٧٠ م).

تأثيرات مناخية قديمة

تأثرت القارة الافريقية بأطوار طويلة من الانجراف تابعة لحركات تشقق القشرة الارضية، التي يبدو أنها كانت بطيئة طيلة العصور الجيولوجية. فأطوار الاستقرار تبعتها عودة للانجراف أدت الى تشكيل مساحات فسيحة ممهدة. وفي سير تطور أشكال التضاريس فان أهم عامل هو عامل التغيرات المناخية، وأبرزها تغيرات الدهر الرابع. فتداول المناخات الرطبة والمناخات نصف الجافة، يظهر بأطوار لتغير الصخور وللانجراف الخطي أو الطيفي، و ينتج عن ذلك ردم للمناطق المنخفضة وابراز للصخور الصلبة المكونة غالبا لتضاريس منعزلة تطفو أحيانا فجأة فوق المساحات المنبسطة. وهذه «الجبال الجزرية» الموحدة منتشرة انتشارا كبيرا في الجهات الكائنة جنوبي الصحراء. و يتبع التغيرات المناخية في الدهر الرابع وتغيرات مستوى البحر، تنقيحات مهمة للتشكل المدرج للقالب الافريقي الناشيء عن تعاقب دورات التعرية والتجميع خلال الفترات السابقة. فالمناخات القديمة مسؤولة عن وجود الصحراء، حيث توجد بقايا حجرية متعددة، ومتحجرات حيوانات من نموذج استوائي تدل قديما على ظهور مناخ رطب مساعد لنشوء الانسان. ولكن امتداد المناطق المناخية الحالية، خلال الدهر الرابع، نحو الشمال أو نحو الجنوب، يتبع الزيادة أو النقص في الأمطار. فالنظم المطرية مثلا نتج عنها الزيادة العظيمة في نسبة المساحة الكاملة من القارة المساعدة على حياة البشر. وبالعكس فان الفترات الجافة ساعدت على امتداد المساحات الصحراوية من وراء حدودها الحالية، وجعلت من الصحراء هوة مناخية بين عالم البحر المتوسط والعالم المداري الاستوائي. ولكن هذه الصحراء التي تغطي ما يقرب من ثلث القارة، وتمتد على نحو خمس عشرة درجة من العرض، لم تكن قط حاجزا فاصلا بين شمال افريقيا وجنوبها؛ فهي يسكنها الرحل وقد شقتها مسالك القوافل منذ قرون طويلة، وان هي لم تمنع العلاقات بين افريقيا السوداء وبين البحر الابيض المتوسط منذ القرون الخالية حتى الفترة المعاصرة، فانها مع ذلك كانت كالمصفاة، حددت اختراق تأثيرات البحر الابيض المتوسط، ولا سيما في مجالات الفلاحة والبناء المعماري والصناعة التقليدية. فكان لأكبر صحراء في الدنيا دور رئيسي في التقسيم الجغرافي لجزء كبير من افريقيا.

ضخامة القارة الافريقية

ان قوة الصفات الطبيعية في افريقيا ووضوحها، يميزان هذه القارة عن سائر القارات. وضخامتها وثقل آفاقها كانا نتيجة لتاريخ جيولوجي طويل.

و يكفي أن ننظر الى الخريطة كي نلاحظ أن المجموعة الافريقية بما لها من مساحة ثلاثين مليونا من الكيلومترات المربعة، تمتد قطعة واحدة على مايقرب من ٧٢ درجة في العرض منذ رأس ابن سكا (٣٧° ـــ ٢١ شمالية، قرب بنزرت) حتى رأس الابر (٣٤° ـــ ٥١ جنوبية). فنحو ٨٠٠٠ كم تفصل بين هاتين النهايتين للقارة، بينما يوجد ٧٥٠٠ كم طولا بين الرأس الأخضر ورأس غردافوي. وتظهر القارية العظمى شمال خط الاستواء، اذ أن القطعة الشمالية تمتد على ثلثي افريقيا التي تتقلص في النصف الجنوبي، و يؤكد طابع الكثافة لهذه القارة أن لا وجود لفجوات شاطئية عميقة، خلافا لاوربا ولاميركا الوسطى مثلا. ثم ان الجزر تمثل جزءا ضئيلا من المجموعة الافريقية التي بدأ شكلها المنقوش واضحا بقوة بسبب بساطة المحيط وضعف تطور السطح القاري. وان انخفاضا

للمستوى البحري يؤثر قليلا في شكل افريقيا، اذ أن منحني العمق البحري ١٠٠٠ متريمر عادة قرب الشاطىء،وتتأكد ضخامة القارة بثقل التضاريس التي تمثلها في الغالب هضاب تعلو نهاياتها لتكون مرتفعات شاطئية تخترقها بصعوبة الأجهزة النهرية،ورغم قلة السلاسل الجبلية المعرجة فان افريقيا تتميز بارتفاع معدل ملحوظ قدره ٦٦٠ متر من جراء الجهود التشقيقية التي أكدتها بقوة في دهر البليوسين تكسيرات وعمليات رفع للسطح القاعدي، على أن بساطة التضاريس الظاهرة تغطي تفرقات جهوية محسوسة. وهكذا يتميز المغرب المنتسب للعالم الاوربي بسلاسل جباله وتضاريسه المقسمة. ونميّز فيه بين مجموعتين كبيرتين: سلاسل التل والريف في الشمال وسلاسل الاطلس في الجنوب، وتتجه هذه السلاسل كأشرطة ممتدة من الغرب الى الشرق، بين البحر الابيض المتوسط والصحراء.

وثمة أسرة أخرى من التضاريس تمثلها منطقة فسيحة تشمل افريقيا الشمالية الشرقية وافريقيا الغربية وحوض الكونغو. فهناك تسود السهول والأحواض والهضاب المنخفضة التي تحيط بها مرتفعات جبلية.

وأهم الأحواض في قلب القارة المتجمعة في هذه المنطقة هي أحواض النيجر والتشاد والكونغو وبحر الغزال.

وأخيرا ان افريقيا الشرقية والجنوبية تمثلان مجال الأراضي المرتفعة حيث تحل المرتفعات التي تفوق ١٥٠٠ متر مكانا فسيحا. ويحيط بالهضاب العليا في الجنوب مرتفع هامشي. ذلك المنحدر العظيم الذي يشرف على الشاطىء بجدار صخري قد يبلغ ارتفاعه ٣٠٠٠ متر. ولكن طرافة افريقيا الشرقية تكمن في قوة التضاريس الناتجة عن الحركات البنيوية للقشرة في الدهر الثالث. فاهتزت مصطبة القاعدة بشدة وقطّعتها انقصافات عميقة وكسور. كما أثرت فيها بركانيات قوية. فالمجموعة الجبلية في الحبشة، المكونة من هضبة يعلوها أكثر من ٢٠٠٠ متر من اللآبة البركانية، تبلغ أقصى ارتفاعها على أكثر من ٤٠٠٠ متر. وتمتد حفر انهدام على طول ٤٠٠٠ كم من البحر الأحمر الى الموزمبيق. هذه الأودية التي لعبت دورا عجيبا في جولان الانسان وفي نشوئه فيها سلسلة من البحيرات كبحيرة النياسا والطنكنيكا والكيفو وعيدي أمين (سابقا ادوارد) وموبوطو (سابقا البرت) وفكتوريا ورودلف. وعلاوة على ذلك فهي تحف بها جبال بركانية ضخمة أشهرها جبال كينيا والكيليمندجارو.

العزلة الجغرافية

ان ضخامة افريقيا وثقل تضاريسها نتج عنها نتيجة عظمى هي عزلتها حتى فترة قريبة. ففيما عدا افريقيا الشمالية المتوجهة نحو عالم البحر الأبيض المتوسط، فان باقي القارة بقي طيلة قرون على هامش تيارات التبادل العظمى، نعم، ان هذه العزلة لم تكن قط مطلقة ولكن كان لها وزن كاف على مصير عدد من المجتمعات التي تطورت داخل تقسيم جغرافي وقد انفصلت افريقيا عن العالم القديم من جراء انفصال القارات، ولكن بقي لها نقطة اتصال بآسيا: برزخ السويس الذي كان الممر المتميز لأكبر الهجرات فيما قبل التاريخ.

وتسبح الشواطىء الافريقية في أكثر امتدادها في كتلتين محيطيتين، اختلف استعمالهما قبل

العصر الحديث. فلم يسلك المحيط الاطلسي قبل القرن الخامس عشر الميلادي حيث بدأت الرحلات البحرية العظمى انطلاقا من أوربا. وقبل ذلك فان تقنيات الملاحة الشراعية لم تكن لتمكن البحارة العرب مثلا، من الشروع في سفرات تتجاوز الشواطىء الصحراوية، اذ أن المراكب الشراعية لم يكن في وسعها أن تعود في معارضة عصف الرياح الصابيات الموجهة باستمرار نحو الجنوب. وخلافا للمحيط الاطلسي فان المحيط الهندي منذ عهد بعيد، ساعد على التواصل بين افريقيا الشرقية وآسيا الجنوبية. فمكن المراكب الشراعية العربية والهندية من القيام برحلات نحو القارة الافريقية، والعودة الى قواعد انطلاقها بفضل النظام التناوبي للرياح الموسمية على المحيط الهادي. ولئن قامت علاقات مكثفة بين افريقيا الشرقية وعالم المحيط الهندي، فان هذه العلاقات اقتصرت على الساحل، اذ كان الهدف عند الشعوب البحرية الآسيوية ممارسة التجارة وليس استعمار الأراضي الداخلية. وبالجملة فان آثار الحضارات البحرية للقارات الأخرى لم تدخل الى أعماق افريقيا السوداء التي بقي معظمها بمعزل عن العالم القديم.

ومن التقليدي أن تذكر صفة الشواطىء الافريقية الغير المضيافة لتبرير عزلة القارة، فقلة الفجوات على الشواطىء، تحرم الساحل من الملاجىء، فهو غالبا منخفض رملي، والشواطىء الصخرية وهي قليلة في افريقيا الغربية، تظهر بكيفية أبرز في المغرب وفي مصر وعلى طول البحر الأحمر، وفي الطرف الجنوبي من افريقيا الجنوبية. وفي افريقيا الغربية تمتد شواطىء الاودية البحرية، من السنغال الجنوبي الى غينيا، وعلى سواحل الكامرون والكابون، وهي مصبات فسيحة ناتجة عن انغمار أودية نهرية قديمة، ولكن معظمها كثير الأوحال. وتحمل بعض الشواطىء المنخفضة التي زحف عليها المد والجزر مواحل المنغروف ولا سيا في منطقة «أودية الجنوب» حتى السير اليوني، وفي دلتا النيجر وعلى طول الساحل الكابوني. وفي مواطن أخرى تكوّن أشرطة ساحلية حاشية للقارة، عازلة أحيانا بحيرات شاطئية كبحيرات خليج غينيا. وأخيرا تمتد شعب المرجان قريبا من الشواطىء الافريقية في البحر الأحمر في قناة الموزمبيق وعلى الساحل الشرقي في مدغشقر. ويعزى ما للساحل الافريقي من صفة غير مضيافة، في جانب كبير الى «الموج العالي» أي الى تدفق الأمواج في صورة لفائف قوية تجعل من العسير الوصول الى بعض الجهات الساحلية من القارة. على أن ما جعل للشواطىء الافريقية من مناوءة تتضمن بعض المبالغة، اذ أن شواطىء البحر الابيض المتوسط سمحت لافريقيا الشمالية بالمساهمة طيلة القرون في المبادلات مع الخارج. ونذكر أيضا انعدام المواني الطبيعية لتبرير عزلة افريقيا السوداء حتى عهد قريب. ويكفي أن تستعرض المواقع المساعدة على النشاط البحري كي تلاحظ ثروة السواحل الافريقية، في هذا المجال، على الواجهة الاطلسية كما على واجهة المحيط الهندي. على أن العقبات المذكورة، لم تكن قط متعذرة الاقتحام إذ أن التأثيرات الاثيوبية وفيما بعد التأثيرات الاوربية قد طبعت الشعوب الافريقية بقوة بحيث أن عزلتهم لم تكن الا نسبية. وقد تفسر العوامل البشرية بلا شك قلة اهتمام سكان السواحل الافريقية بالرحلات البحرية الكبيرة.

منطقية افريقيا المناخية

ان الاطار المعروض على الحياة في افريقيا يتبع أساسا الاحداث المناخية وتناظر القارة وامتدادها العظيم من جهتي خط الاستواء وكثافتها وتجانس تضاريسها النسبي، وتضافر آثارها لتمنح المناخ منطقية لا مثيل لها في الدنيا. فتقدم افريقيا طرافة عجيبة بتعاقب الأشرطة المناخية مرتبة على توازي خط الاستواء. وفي نصفي الكرة الأرضية، تتدرج النظم المطرية الافريقية نحو خطوط العرض العالية. لأن افريقيا أفسح القارات فيما بين المنطقتين المداريتين فهي أكثر مناطق الأرض تجانسا في الحرارة. ويتبع هذه الحرارة اما جفاف يزداد كلما وقع الاقتراب من المنطقة المدارية، واما رطوبة تزداد عادة باتجاه خطوط العرض المنخفضة.

عوامل كونية

في هذه القارة الواقعة أساسا بين المدارين، فإن الفروق المناخية تتبع الأمطار أكثر مما تتبع الحرارات التي هي مرتفعة في كل الفصول في معظم الجهات. ومهما يكن من أمر، فان النظم المطرية والحرارية مرتبطة قبل كل شيء بعوامل كونية، أي بخط العرض وبحركة الشمس الظاهرة، فالشمس تمر مرتين في السنة بسمت الرأس فيما بين المدارين، ومرة واحدة في مدار السرطان يوم ٢١ جوان (حزيران) تاريخ المنقلب الصيفي، ومرة واحدة في مدار الجدي يوم ٢١ ديسمبر (كانون الأول) تاريخ المنقلب الشتوي في النصف الشمالي من الكرة الارضية. ويشاهد مرورها بسمت الرأس مرتين في السنة بخط الاستواء عند الاعتدالين الربيعي ٢١ مارس (آذار) والخريفي ٢١ سبتمبر (ايلول) والشمس في حركتها الظاهرة لا تنزل قط كثيرا تحت الافق. ولذا تكون الحرارات مرتفعة كل السنة في المنطقة المنحصرة بين المدارين. وفي الجهات القريبة من خط الاستواء حيث يتأرجح الموقع الظاهر للشمس حول سمت الرأس، يلاحظ انعدام الفصل الحار اذ أن التغيرات الفصلية للحرارة ضعيفة. فالفروق السنوية فيها نحو٣ الى ٤ درجات. ولكن كلما تقدمنا نحو المدارين شمالا وجنوبا تصير المعطيات الحرارية أكثر تعاكسا. ففي الصحراء مثلا سجلت فروق قوية من نحو ١٥ درجة بين الحرارات المعتدلة في شهر جانفي (كانون الثاني) ويوليه (تموز). وينتمي الطرفان، الشمالي والجنوبي من افريقيا للمنطقتين المعتدلتين. ففيهما تتعاكس النظم الحرارية، اذ أن الفروق القوية السنوية تنتج عن التقابل بين الاشتية الباردة والصيفيات الحارة، ثم أن الانحرافات اليومية قد تكون في هذه المجالات الوسطية مرتفعة ارتفاعها في منطقة ما بين المدارين. وبصورة عامة إن العوامل الكونية تعيّن في افريقيا نموذجين كبيرين من النظم الحرارية: في خطوط العرض الاستوائية، نظم منتظمة، وفي جهة المدارين نظم تتعاكس أكثر فأكثر.

الآلية الغيثية

ان التغيرات الموسمية للمناخ الافريقي تفسر بوجود مراكز عمل كبيرة في الجو، تحرك كتلات من الهواء من النماذج المدارية أو الاستوائية البحرية أو البرية. وتسود المحيط الاطلسي باستمرار اعصارات معاكسة مدارية أو مراكز ضغط عليا، أحدها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية (اعصار معاكس في الاسور) والثاني في النصف الجنوبي (اعصار معاكس بسانت هيلين).

وتوجد خليتان أخريان من الاعصارات المعاكسة، احداها في الصحراء والثانية في الكالاهاري. ولهذه الاعصارات القارية طابع موسمي. فليس لها دور معتبر الا في الشتاء الشمالي أو الجنوبي. وفي الصيف، يضعفان و يدفعان الى طرفي القارة. وتشمل مراكز العمل في النهاية منطقة للضغوط الخفيفة، متمركزة على خط الاستواء الحراري، ومتأرجحة من ٥ درجات من خط العرض الجنوبي في جانفي (كانون الثاني) الى ١١ درجة من خط العرضي الشمالي في يوليه (تموز). تثير الاعصارات المعاكسة في اتجاه الضغوط المنحطة الاستوائية رياحا ملاصقة للارض، هي الصابيات التي تكتسح مجال ما بين المدارين. فمن اعصار الأسور المعاكس تنطلق رياح باردة قارة، في الصابيات الاطلسية، واتجاهها الشمالي الشرقي، ولا تؤثر الا في حاشية ضيقة من الساحل الصحراوي حتى الرأس الأخضر. واعصار المرتفعات بالصحراء تصدر عنه رياح شمالية شرقية، والصابيات القارية، جافة و باردة نسبيا ولكنها تسخن كلما انتشرت نحو الجنوب. اما هارطمان تلك الريح الشديدة الحرارة ذات الاتجاه الشرقي اللافحة المجففة، فانها تستقر بانتظام كبير على كل افريقيا الساحلية من التشاد الى السنغال، وتتبعها دوامات متصاعدة رافعة للرمال أو الغبار مولدة ضبابات جافة. وفي النصف الجنوبي من الأرض تظهر أيضا في الشتاء الجنوبي رياح جافة حارة نسبيا تصل بعض القطاعات من الحوض الكنكولي. ولكن، خاصة في هذا الفصل الذي يقابل الصيف الشمالي، تجذب الضغوط المنحطة القارية المتمركزة جنوبي الصحراء الصابيات البحرية الناشئة عن اعصار سانت هيلين المعاكس، والمنحرفة نحو الشمال الشرقي بعد عبورها لخط الاستواء. تلك هي الريح الموسمية الغينية التي تغوص تحت الهارطمان، دافعة اياها نحو الشمال ونحو المرتفعات. والتقاء هاته الكتل الهوائية ذات الاتجاه والحرارة والرطوبة المتباينة، يمثل منطقة التجمع بين المدارين أو واجهة ما بين المدارين التي تعين الفصول المطيرة.

وفي الصيف الشمالي، من ماي (أيار) الى سبتمبر (ايلول)، تنتقل واجهة ما بين المدارين ممتدة من الغرب الى الشرق فيما بين الدرجة العاشرة والدرجة العشرين من خط العرض الشمالي، وتحمل الصابيات الآتية من الجنوب اذاك كتلات رطبة من الهواء نحو خليج غينيا فتبعث فصل الأمطار.

وفي الشتاء، تتكون منطقة التجمع في خليج غينيا ثم تصل القارة عن طريق الساحل الكامروني وتقطع النصف الجنوبي من القارة لتعبر قناة الموزمبيق والشمال الغربي من مدغشقر. في شمالي خط الاستواء تسود الرياح ال[illegible]ية الشديدة الجفاف في افريقيا الغربية. وفي جنوبيه، تتجمع الصابيات القارية الجنوبية مع كتلات هواء الصابيات البحرية الواردة من شمال المحيط الهندي فتبعث الأمطار.

وقد تتغير الالية العامة للمناخ بعوامل جغرافية كالتيارات البحرية والتضاريس واتجاه الشواطىء. فالتيارات الباردة المنتظمة على الواجهة الاطلسية لافريقيا، متناظرة من جهتي خط الاستواء. وفي الشمال فإن تيار الخالدات الذي أثارته الرياح الناشئة عن الاعصار المعاكس في الاسور، يساير الشواطىء من جبل طارق الى داكار. فيكون فيها انحطاطات في درجة الحرارة وضبابا. وحوالي الدرجة الخامسة عشرة في خط العرض، يتحول تيار الخالدات نحو الغرب. أما نظيره في نصف الكرة الجنوبي، فهو تيار بنكيلا الذي تثيره الرياح الناشئة عن اعصار سانت هيلين. وتتبعه درجات منخفضة من الحرارة وضباب كثيف على طول الشواطىء الجنوبية الغربية

الافريقية، قبل تحولها الى الغرب في مستوى رأس فريو. وهكذا تفسر الصحاري الساحلية في موريتانيا في ناميب. وبين التيارات الباردة على الواجهة الاطلسية، يتسرب التيار المعاكس الاستوائي في غينيا والذي ينقل من الغرب الى الشرق كتلات من الماء الحار رافعا نسبة الرطوبة، وعدم استقرار الجو، موفرا بهذا امكانيات الامطار على الساحل من كونكري الى ليبرفيل.

و يظهر تنقل التيارات البحرية على واجهة المحيط الهندي بكيفية مخالفة. ان المياه الاستوائية التي تدفعها نحو القارة رياح الجنوب الشرقي الناشئة عن الاعصار القائم شرقي مدغشقر، تكّون تيار الموزمبيق الحار الموجه نحو الجنوب الممتد بواسطة تيار الابر، فيجلب الرطوبة على الشاطيء الجنوبي الشرقي من افريقيا. وعلى شمال خط الاستواء، تنعكس التيارات البحرية مع تغيّر في اتجاه الرياح. في الصيف يساير الساحل الصومالي تيار حار متجه نحو الشمال الشرقي، وفي الشتاء يغمر السواحل ذاتها تيار بارد متقدم من جزيرة العرب نحو خط الاستواء.

ورغم تشابه التضاريس النسبي، فان لها أثرا على المناخ، اذ تعاكس بوضوح المرتفعات الساحلية، وهي حواجز حقيقية على طريق كتل الهواء الرطب، مع الأحواض الوسطية والهضاب الداخلية وحفر الانهدام الواقعة كلها تحت تأثير الجفاف المختلف الشدة.

ووضعية الساحل بالنسبة الى الرياح المطيرة عامل من عوامل التفرقة المناخية. فالقطاعات المعروضة مباشرة على الريح الموسمية الجنوبية الغربية، ولا سيا اذا كانت جبلية، تتلقى أمطارا غزيرة في افريقيا الغربية (نحو ٥ أمتار في غينيا). وفي افريقيا الجنوبية وفي مدغشقر تتقبل الشواطىء العمودية على وجهة الصابيات البحرية، أمطارا غزيرة. وبالعكس فان قطاعات الساحل الموازية لاتجاه الريح، والخالية من التضاريس الملحوظة كما في الداهماي والصومال تستفيد من غيث أقل.

وفي افريقيا تحدد الدورات المناخية الموسمية أساسا، من قبل المعطيات الإمطارية. فالامطار تقل حجما تدريجيا من خط الاستواء الى المدارين،حيث يسجل قفرا الصحراء والكلاهاري أقل من ٢٥٠ مم من الأمطار في السنة. ويتبع هذا التدهور في مجموعات الأمطار تغيير في تداول الأمطار الموسمية متعاكسة أكثر فأكثر نحو الشمال. في الجهات القريبة من خط الاستواء المعروضة بذلك على تأثير مسترسل للضغوط الخفيفة، تظهر الأمطار على طول السنة مع تباطيء محسوس عند المنقلبين. وفيما وراء ذلك، نحو الشمال ونحو الجنوب، تنحصر الأمطار في فترة واحدة تقابل الصيف في كل من نصفي الأرض. وثمة فصل ندي يقابل فيها فصلا جافا يزداد امتدادا نحو المدارين. ولكن طرفي القارة، المغرب ومقاطعة الكاب، يبديان خاصية ملحوظة تتمثل في أمطار الفصل البارد، ولتلك المناطق أمطار متوسطة غير منتظمة في المدى.

المناطق المناخية

ان تغيرات النظم الغيثية، من حيث مجموعاتها السنوية ومن حيث توزيعها حسب الفصول أيضا، تفرض تقسيم افريقيا الى مناطق مناخية كبيرة.

المناخات الاستوائية

وهي تميز المناطق الوسطى التي تشهد، من جهتي خط الاستواء، مرورين في اعتدالي الواجهة

الواقعة بين المدارين التي ترتبط بها التهاطلات المطرية القوية، فمن الكامرون الجنوبي الى حوض الكونغو، ينزل المطر بغزارة طول السنة، والهواء مشبع ببخار الماء في كل الفصول، و يفوق مجموع التهاطلات في السنة عادة المترين. وفي هذا الجو الندي، يكون لدرجات الحرارة تغيرات شهرية ضئيلة، اذ هي تتأرجح حول معدل سنوي قدره ٢٥ درجة مئوية.

وجهة الشرق، في المناطق الاستوائية المتأثرة مناخيا بالمحيط الهندي، توجد عين التداولات المطرية، ولكن المجموعات السنوية أقل من ١٫٥٠ متر. وللحرارة تغيرات سنوية أكبر منها على الواجهة الاطلسية في المنطقة الاستوائية. والفروق اليومية على الخصوص هي أقوى في الجهات المنتمية مناخيا للمحيط الهندي.

المناخات المدارية

وهي تقابل المساحة الفسيحة التي تحمل تنقلات الواجهة بين المدارين، في شمالي المنطقة الاستوائية وجنوبيها. فالشمال الغربي الافريقي الممتد بين الدرجة الرابعة من العرض ومدار السرطان، يشتمل على مناخات متنوعة، من المجال ذي المرورين الاعتداليين في الجنوب، الى المجال الذي لا يشمل الا مرورا واحدا لانقلاب الشمس في الشمال.

وعلى ساحل خليج غينيا يسود مناخ تحت الاستوائي يدعى الغيني و يتميزبنظام مطري بدون فصل جاف، لكن مع غزارة ملحوظة عند مروري الشمس في سمت الرأس، والأثر الجبلي المتمثل في الهضاب الساحلية يتسبب في تكثيف رطوبة قوية تحملها الريح الموسمية الجنوبية الغربية. لهذا تتقبل الحاشية الساحلية الممتدة من جمهورية غينيا الى ليبريا أكثر من مترين من الأمطار سنويا.

والمجال السوداني الواقع جهة الشمال، يبدي عدة ملامح من مناخ منطقة ما بين المدارين، يميز نوع ندي ونوع جاف منذر بالصحراء، وكلما صعدنا مع خطوط العرض قل التميزبين مروري جبهة ما بين المدارين، وهكذا من الأمطار الاستوائية المتهاطلة الى جفاف مدار السرطان نلاحظ الفروق الطفيفة التالية:

ـــ منطقة فرعية أولى تتميز بمجموعات سنوية من الأمطار بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ مم فيها أكثر من ستة أشهر مطيرة: وتزداد الفروق الحرارية بالنسبة الى المنطقة الاستوائية.

ـــ المنطقة الفرعية الوسطى وتسجل جفافا أصبح أوضح، اذ أن الأمطار التي لا تنزل الا مدة ثلاثة الى ستة أشهر تتراوح بين ٦٠٠ و ١٥٠٠ مم، وتزداد الفروق الحرارية زيادة محسوسة.

ـــ المنطقة الفرعية الشمالية وتسمى في افريقيا، الساحل الغربي، ولها أقل من ٦٠٠مم من الأمطار السنوية التي تنزل في أقل من ثلاثة أشهر، و يقل انتظام الأمطار و يزداد انحراف الحرارة.

ويميز عين التوزيع العرضي لأنواع المناخات المدارية جنوبي خط الاستواء. ولكنه يوجد أنواع أشد وضوحا من جراء طابع عدم التكتل في افريقيا الجنوبية، ونظرا لأهمية التضاريس المرتفعة التي تشرف على السهول الساحلية التي يغمرها المحيط الهندي: و يتسبب تجمع الهواء البحري الاستوائي الشمالي الغربي مع الهواء البحري المداري الشرقي، تهاطلات غزيرة على سواحل الموزمبيق، وعلى الواجهة الشرقية من مدغشقر، والساحل الاطلسي على العكس هوجاف بسبب وجود التيار البارد في بنكبلا المحدث لقفر نميب.

المناخات الصحراوية

وهي تميز المناطق الكائنة على جهتي المدارين، وفيا يهبط التهاطل عن ٢٥٠ مم و يسبب اختلالا كبيرا. وتتقبل الصحراء وهي أكبر قفر حار في العالم، أقل من ١٠٠ مم من الماء سنويا. ولكننا نلاحظ فيها فروقا بسبب تأرجحات الاعصار المعاكس الصحراوي الذي ينتقل على البحر الأبيض المتوسط وقت الانقلابين، ثم ينزل فيها نحو خطوط العرض المنخفضة. في وضعه الأول يسهل دخول الريح الموسمية، وفي وضعه الثاني يسمح بزحف الريح القطبية. وتمكن هذه التأرجحات من التمييز بين الصحراء الشمالية ذات الأمطار من جنس أمطار البحر الأبيض المتوسط في فصل الجفاف، وبين الصحراء الوسطى، عمليا عديمة الأمطار والصحراء الجنوبية، ذات الأمطار المدارية في الفصل الحار.

وفي مدار الجدي تصيب تأثيرات المحيط الجنوبية الغربية صحراء كالاهاري بكيفية أيسر من اصابتها الصحراء، اذ أن تضايق القارة يخفف من تأثير الخلية الاعصارية المعاكسة على المناخ، لذا تشاهد رطوبة أوفر وفروق حرارية أقل حدة.

مناخات البحر الابيض المتوسط

في المغرب والطرف الجنوبي من افريقيا، تكتسب طرافتها من تقسيم السنة الى فصل شتوي بارد مطير، والى فترة صيفية حارة جدا جافة. ومجال البحر الابيض المتوسط هذا الخاضع لنظام الرياح في المنطقة المعتدلة، يتميز في الشتاء بمرور اعصارات محيطية محملة بالرطوبة. وهويشهد أحيانا زحف الهواء القطبي متسببا في برد قاس يتبعه جليد وتساقط الثلج، ولا سيا على السلاسل الجبلية بالمغرب.

وأما حرارة الصيف وجفافه، فناشئان عن تأثير الرياح الواردة من الصحاري المجاورة، أي الصحراء في نصف الأرض الشمالي، والكالاهاري في النصف الجنوبي.

الأوساط البيولوجية المناخية الافريقية

في افريقيا أكثر مما في غيرها، تنظمت الحياة البشرية في اطارات طبيعية تبدو قبل كل شيء أوساطا بيولوجية مناخية. والحق أن المناخ والتضاريس تمزج تأثيراتها لتعين المجموعات الجهوية العظمى المتميزة بجهازها المائي وخصائص تربتها ومناظرها النباتية.

جريان المياه القارية

ينعكس تنوع المناخات في الجهاز المائي. ولكن في افريقيا فان جريان المياه نحو المحيطات أقل أهمية بكثير مما توحي به التهاطلات. ان أكثر من نصف المساحة في هذه القارة مركب من جهات جافة أو محبوسة المياه. هذا وان الأجهزة النهرية تعترضها عقبات في سيرها، وذلك ان ملامحها الجانبية تتكون من قطاعات ذات ميل ضعيف تتصل بعنف بمنحدرات سريعة ومساقط أو شلالات. لذا تخضع كمية كبيرة من المياه التي تحملها، الى رشح مستمر وبالخصوص الى تبخر قوي ناتج عن الركود في الأحواض أو في الخنادق أو في منخفضات الساحة القاعدية.

تنظيم الشبكة المائية

مساحات كبيرة من القارة تقل فيها الأمطار أو تنعدم، فهي خالية من مجاري المياه المستمرة، ولكن افريقيا الجافة وافريقيا البحر الابيض المتوسط، تشهدان آحيانا آمطارا قوية تتولد عنها طبقات من المياه الجارية قد تتجمع في أودية ثم تنضب هذه الأودية في النهاية من جراء التبخر ورشح المياه. وفي الجهات المكتفية الري، في المناخ المداري أو الاستوائي، تكوّنُ الانهار الكبار وأهم روافدها شبكة منظمة تجمع جزءا من مياه الأحواض، وتعمل على افراغها في ظروف كثيرا ما تكون صعبة. وذلك ان الأحواض التي يتكون فيها معظم الأنهار الافريقية تظهر عتبات محيطية غير ملائمة لتصريف المياه نحو البحر تصريفا لائقا.

فافراغ المياه القارية يتم من خلال نتوءات ساحلية بواسطة مضائق قليلة العرض عميقة تنم عن انقطاعات حرارية عديدة في المجرى السفلي من بعض الانهار الكبيرة. فالكونغو يبدي ٣٢ منحدرا سريعا بين صهريج ستانلي والمصب. والزامبير يقفز قفزة ذات ١١٠ أمتار بشلالات فكتوريا، قبل أن يندرج في مضيق كريبا وأن يعبر عدة شلالات بزلتية. وهي أسفل الخرطوم، يقطع النيل ستة منحدرات سريعة تدعى شلالات قبل أن يصل الى البحر الابيض المتوسط. وسائر الأنهار الكبيرة كالنيجر والسنغال والأورنج واللمبوبو تظهر جانبيا في شكل المدرج ولا سيا في جزء مجراها السفلي. ومن السهل اذن أن نفهم صعوبات الملاحة على الأنهار الافريقية التي تبدو مسالك ضعيفة للمواصلات. ومع ذلك فلقد مكنت في الماضي من اتصالات مثمرة بين شعوب مختلفة من القارة.

وبين هذه الأنهار العظيمة وروافدها تشاهد شبكة غامضة من الجداول والبرك والمستنقعات غير منظمة لا وجود فيها لجريان مستمر نحو الخارج. فهي تارة ممتدات من الماء الراكد، وتارة مصبات لما فاض من الانهار المجاورة، وطورا بالعكس رافدة تساعد على المحافظة على تدفق هذه الأنهار، وقد تكونت هذه الروافد في العصور الجيولوجية في أحواض الخسف حيث تجمعت في أعماقها، في شكل بحيرات، المياه القارية المحملة بالطمي. ومن الممكن أن يتم الافراغ اثر حركات تشققية في المصطبة القاعدة. وهكذا فان سيل المياه الداخلية الضخمة تم بواسطة مخارج سايرت خنادق الانخساف أو الانقصافات. وبدون شك ان ظاهرات الحصر التابعة لكسور طرأت على المصطبة وللتطور الشكلي، قد ساهمت في تنظيم الشبكات المائية. ولكن هذا الحبس مازال يلوح في أحواض التشاد والاكوفانكو التي تحتلها بحيرات قليلة العمق ومستنقات ذات أبعاد مدهشة مما تأتي به الفصول من المياه الجارية. ولأحواض خسف أخرى بعض المخارج نحو المحيط، ولكنها مع ذلك لها ميل مشابه الى الحبس، وهكذا تكونت مستنقعات ماسينا أو «الدلتا الداخلي للنيجر» ومستنقعات بحر الغزال في السودان وحوض الزايير.

السرعات العادية للانهار الافريقية

في كل ناحية من افريقيا، فان نظام الأمطار يتحكم في سرعة الجهاز المائي. أي ان التغيرات الموسمية لحمل الأنهار، تتبع نظام الأمطار السنوي. أما مجاري المياه في الجهات الاستوائية، فلها سرعة منتظمة بمياه غزيرة تسيل كل السنة. على أنها تظهر في مستوى عال من المياه في فترتين توافقان الأمطار الاعتدالية.

وفي المنطقة المدارية فترة من المد توافق فصل الأمطار، أي في المنقلب الصيفي، تتلوها فترة جزر قوي في الفصل الجاف. لذا كان نظام الأنهار كثير التضاد. ثم انها تنقضي مدة بين ارتفاع المياه وبين نزول الأمطار من جراء سير المياه ببطء على مساحات قليلة الانحدار عموما.

وفي الجهات القريبة من الجافة، تجري «الوديان» بتقطع عند نزول الأمطار القليلة العنيفة، التي تسبب فيضانات فجائية، الا أنها قصيرة المدة، اذ أن المياه تضيع عند أسفل الوادي. وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط، فإن عنف الشآبيب، ووجود التضاريس الجبلية، تجعل لمجاري الماء طابعا تدفقيا، سرعتها قليلة الانتظام، مما يؤدي الى فيضانات في المنطقة المناخية تتمثل في وديان سيلها متقطع.

والانهار الكبيرة ذات الشبكات الممتدة على عدة مناطق مناخية، لا تدخل تحت الصور البسيطة المذكورة أعلاه، فيميزها نظام عام متشعب متغير تغيرات موسمية في حملها، تتبدل من أعالي النهر الى أسفله.

مجاري المياه الكبيرة في افريقيا

إن بعض الأنهار الكبيرة، وهي من أهم الأنهار في العالم، تكون أحواضا فسيحة، يقع معظمها في منطقة ما بين المدارين. ويرتب نظام جريها بظروف تغذية أحواضها بالأمطار النازلة من الأعالي.

ويلوح نهر الكونغو مثالا نموذجيا لمجاري الماء الاستوائية التي يتميز نظامها بمستويي مد أقصى اعتداليين، والواقع ان شبكته تنتشر على ما يقرب من أربعة ملايين من الكيلومترات المربعة بين ١٢ درجة من خط العرض الجنوبي و ٩ درجات من خط العرض الشمالي. وهكذا بواسطة الكاساي واللوالابا، يخترق جهات جنوبية فيها أقصى الامطار الانقلابية. وأهم روافده في النصف الشمالي من الأرض تغذيه بالعكس أمطار الانقلاب الشمالي، بينما يمتد جزء كبير من مجراه على جهات لها فترتان توافقان قيمة قصوى من الأمطار الاعتدالية، وتضافر التضخمين المختلفين يولد في كنشاسا نظاما مائيا ذا مدين عظيمين في مارس (آذار) وفي يوليه (تموز). فالكونغو نهر غزير منتظم حمله المتوسط السنوي ٣٠٠٠٠ م ٣ / ثانية، ولا يفوقه في ذلك سوى الأمازون.

والنيل يأخذ مصدره في رواندا والبورندي، بفرعه الاصلي الكجيرا ويتقبل المياه الاستوائية المفترشة في مستنقعات بحر الغزال، وبعد اختراقه لبحيرة فكتوريا تقويه الروافد المدارية الواردة من الجبال الاثيوبية. وهكذا فان النيل الازرق ونهر الاتبرا ولهما نظام ذو مد انقلابي، يمكنان النهر من اختراق منطقة صحراوية فسيحة، قبل أن يدرك البحر الأبيض المتوسط. ورغم طوله الذي ليس له مثيل في افريقيا (٦٧٠٠ كم) فان النيل قليل القوة، لأن حمله السنوي المتوسط لا يصل ٣٠٠٠ م٣/ثانية. ولكنه منذ العصور الخالية كان من أنفع الأنهار على البسيطة.

ونهر النيجر يمتد حوضه من ٥ درجات الى ١٦ درجة من خط العرض الشمالي، وله نظام أكثر تشعبا. وهو يرسم انعطافا فسيحا بشكل طريف، وذلك انه بعد أن يترك منبعه على حاشية المحيط الاطلسي الجبلية، يتجه نحو الصحراء، ثم يتوجه نحو خليج غينيا حيث ينصب في دلتا فسيح. فمجراه الأعلى ومجراه السفلي يخترقان جهات جنوبية ذات مناخ مداري رطب، وقطاعه الأوسط يتأخر في «دلتا داخلي» ذي مناخ ساحلي، ويتقوس بعناء في الجهة تحت الصحراوية في تمبكتو قبل أن

يتقبل تغذيات تزداد غزارة نحو الأسفل. ويحدث فصل الأمطار فيضانين معا، أحدهما في المجرى العلوي والآخر في المجرى السفلي، ولكن الأول الذي يظهر حتى النيجر ينخفض تدريجيا من جراء التبخر والرشح في المنطقة المدارية الجافة. و يشاهد الفيضان الثاني منذ شمال الداهماي، ولايزال شديد السيطرة عند مجراه السفلي بسبب الأمطار المحلية ذات القيمة القصوى الانقلابية، و يتقوى النيجر في مجراه السفلي بنهر البينوي، أهم روافده.

الترابات الافريقية

ان التوزيع الجغرافي للتربة يتبع منطقة هي نسخة من منطقة المناخات. ومختلف التشكيلات الترابية ينتج أساسا عن عمل الماء والحرارة على الصخور الموجودة في محلها. ففي الحقل المداري فان الأمطار الفاترة الغزيرة المحملة بالحامض تغسل الصخور وتحل المعادن القاعدية وتدفعها الى الأعماق. وفي خطوط العرض المنخفضة الرطبة جدا حتى ١٠ درجات في الشمال وفي جنوب خط الاستواء، فان التحليل الكيمياوي للصخور يؤول الى تشكيل التربة المحتوية على الحديد، وهي عموما صلصالات محمرة سهلة التفتت، لها عدة أمتار من السمك، وهي ناتجة عن تغير الصخرة الأم الى عناصر غروانية تشتمل على الصلصال الصيني (الكاؤلان) والهيماتيت ونسبة من رمل الصوان تقرب من ٣٠٪ من المجموع. ويحمي الغطاء الغابي التربة من الرشح، وهكذا فان التربات الحديدية لا تحوي الا القليل من المواد العضوية ومن الدبال.

وفي الجهات السودانية ذات الفصل الجاف الواضح، تتكون تربات حديدية مدارية أقل عمقا من السابقة غنية بأكسيد الحديد،وهي رملية في السطح صلصالية في الأعماق.وهذه التربات قليلة الاستقرار، وهي حساسة للانجراف بالماء و بالريح. وتتدهور بنيتها بسرعة كبيرة على السطح في غياب الغشاء النباتي. وكثيرا ما تكون هذه التربات متكثفة أو مصفحة في افريقيا الغربية، حيث يتناوب الغسل في فصل الأمطار مع التجفيف القوي في فصل الجفاف، ولاسيما اذا ما صاحب هذا التجفيف لفح الحرور، وفي بعض الجهات الواقعة شمالي الحاشية الساحلية في خليج غينيا، تمتد مساحات عتيقة انجرافية عارية ذات تربات مصفحة أو مدرعة تسمى «بوي». وهذه التشكيلات الترابية تتميز بتجمع قوي لأكسيد الحديد والالومين، يتبعه تصلب على عمق ضعيف، بيد أن عددا من هذه «البوي» القديمة يرجع الى الدهر الثالث. وعريت مساحاتها الزراعية المحدودة نتيجة انجراف السطوح العلوية الكاسية. ولوحظت تربات مشابهة في مدغشقر على «الطمبوكنسا» على الشمال الغربي من طنانار يف. ومن جهة الشمال في نصف الأرض الشمالي، تكونت في مناخ ذي فصول متعاكسة، وتحت غشاء من الأعشاب، تربات سمراء مركبة لها قيمة زراعية كبيرة. ورغم حساسية هذه التربات للتذويب، فقد مكنت من تطوير حضارات فلاحية مصاحبة للامبراطوريات السودانية في فترة ما قبل الاستعمار.

وجنوبي خط الاستواء، في بلدان الزمبار، تكونت تحت غشاء الغابة الجافة تربات غسلت غسلا خفيفا، تشبه التشكيلات الرمدوية.

وفي الشمال وفي الجنوب، في الجهات شبه الجافة المجاورة للصحراء ولكلاهاري،توجد تربات سمراء سهوبية تقابل رمالا دعصية مثبتة قليلا أو كثيرا، أو تشكيلات صلصالية رملية في

المنخفضات، هذه الترباب خفيفة قابلة للتفتت تكّون مزروعات حسنة،الا أن احياءها يستدعي ان تبقى هذه الأراضي بورا لمدة طويلة لا تنبت الا الأعشاب. وفي المناطق الجافة حيث يسود الانجراف الميكانيكي، فان التغيرات القوية للحرارة تساعد على فرقعة الصخور، وهي من جهة أخرى متأثرة بعمل الرياح العنيف وبعمل الأمطار القليلة التي تتسبب في جريان طبقات مْن الردوم. فيميز في هذه المناطق رمال جدباء تكون الكثبان، وركامات الحصى، أو العروق الرملية الممتدة على مساحات فسيحة، وقشور صلصالية في السهول. وفيما عدا الواحات فان الصحاري خالية من الترباب الصالحة للزراعة.

وفي أوساط البحر الأبيض المتوسط فإن عمل الماء وتأثير الفصول المتعاكسة يظهران في تغير كيماوي أقل للصخور بالنسبة الى ظاهرة التحليل الملاحظ في المنطقة المدارية الندية. وتذكر الترباب بالترباب المدارية الجافة وتشتمل على ملامح حمراء ورمادية أو كستنائية، وهي ترباب في عمومها غنية بالاملاح، وبعضها كالترباب السهوبية الغنية بالكلس تنبىء بالأوساط المعتدلة. والبعض المكون من قشور كلسية أو من الجبس مميز لمناطق البحر الابيض المتوسط.

المجالات البيولوجية ـ الجغرافية

ان عوامل المناخ والتربة تفسر تنوع الظروف الوسطية التي تتكون فيه المناظر الطبيعية النباتية.

الغابات الكثيفة الندية

ان أضخم مجموعة من بين المناظر الطبيعية النباتية يوجد في وسط القارة بين ٥ درجات من خط العرض الشمالي و٥ درجات من خط العرض الجنوبي من جهتي خط الاستواء،والنبات المميز هنا هو الغابة الندية الكثيفة المرتفعة. تتوزع على عدة طبقات متتالية، بينما تقوى المتسلقات والنباتات المعايشة في الظلمة الناشئة على تراكب طبقات الاوراق الدائمة الخضرة. على أننا نميز فيها ألوانا وأنواعا، سواء أكان الأمر يتعلق بأدغال المستنقعات على أرض الوحل (١)، پوطو پوطو أو في الفرجات التي تعلن عن المرور الى أشكال مميزة لمناخات أشد جفافا. وأصناف الغابة الندية كثيرة التنوع والتداخل، مما يجعل استغلالها صعبا. والحرارة والرطوبة المستقرتان اضافة الى مساعدتها لغزارة النباتات تساعدان على انتشار الجراثيم والديدان والحشرات. وهذا وسط مناوئ عالا للانسان، ورغم صمته فهو يستوعب عددا متنوعا من الحيوانات، كأفراس الماء وكالفيلة وخنازير الأنهار والنمور. ولكن الطيور والزواحف واللبونات الشجرية وحدها تستطيع أن تنتقل فيها كما تشاء، وأن تتكاثر رغم عوامل الاماتة كوفرة الطفيليات. وخارج المنطقة الاستوائية، قد توجد الغابة الكبيرة الندية على المرتفعات المعرضة طويلا الى الرياح المحملة بالرطوبة، كمقلب الماء الشرقي من الهضاب العالية المالقاشية.

(١) الپولوپوطو: تربة وحلية تتركب أساسا من صلصال على عمق بضع سنتيمترات.

السهوب والغابات الوضاءة

ان منطقة الغابة المظلمة، تحف بها غابة جافة تنفض أوراقها تتميز بها المناطق التي تتجمع فيها الأمطار في الفصل المنقلبي. وتلوح هذه الغابة في الأغلب كتشكيلة مفتوحة، لا يغطي فيها مجموع الأشجار الا تغطية ناقصة نبات الحراج من الشجيرات والأعشاب. وأفسد الانسان هذا المجموع فحلت محله مناظر عشبية تتميز بها المناطق ذات فصل جاف أوضح. فالسهوب المدارية تتغلب مثلا كلما ابتعدنا عن خطوط العرض الصغيرة. وتظهر هذه التشكيلة النباتية في المناطق ذات الفصول المتباينة، تظهر فروقا تابعة لأنواع المناخات المدارية الكثيرة الرطوبة أو قليلتها.

وعلى حافة الغابة وفي السهوب القريبة منها مازالت أشجار ضخمة، ولكنها أقل من الشجيرات، ويكتسب بساط العشب أهمية كبيرة. والغابة ــ الرواق تساير مجاري الماء في شكل سيور يزداد عرضها أو يقل. والغابة ــ المربد، تجعل المساحات المشجرة بجوار مساحات سافرة تلاحظ فيها نباتات حبوب عالية. والسهوب العشبية الخالية تقريبا من الأشجار، ناتجة دون شك عن قلع الغابات من قبل الانسان، وعن تدريع التربات. وعن مسافة أبعد عن الغابة الكثيفة، يحل شيئا فشيئا محل السهوب الشجرية المركبة من بساط مسترسل من الحشائش العالية، سهوب شجرية تبدو فيها التربة عارية من بين الغشاء العشبي، وفي مختلف أنواع السهوب تجد الحيوانات آكلة العشب الظروف المناسبة لعيشها. ففيها يكون الصيد مثمرا، وفيها يمكن تربية المواشي الضخمة. وفي وسع الانسان أن يشتغل بالفلاحة في هذه المناظر النباتية التي يسهل استصلاحها.

مناظر الفيافي السهوبية

يطبع السهب المناطق ذات الفصل الجاف الطويل بطابعه، وهي تتركب من آجام من النجيليات ومن الشجيرات الشائكة ولا سيما الاقاصيا. وتوجد هذه التشكيلة المفتوحة، في الجهات الشمالية من افريقيا الغربية والشرقية.

كما توجد أيضا متقطعة في افريقيا الجنوبية وفي الكلاهري وفي الجنوب الغربي من مدغشقر. وتوجد النباتات تحت الصحراوية في فياف تخف تدريجيا في الجهات التي تتقبل أقل من ٢٠٠ مم من الأمطار.

التشكلات النباتية حول البحر الابيض المتوسط

تشمل أطراف القارة الافريقية فيافي مدغلة أوذات نجيليات في الجهات الأكثر جفافا، وفي الجهات الأكثر رطوبة، وخاصة على سلاسل الجبال في المغرب، حيث تظهر غابات جافة مكونة من البلوط الأخضر ومن بلوط الفلين ومن الصنوبر. وهي تشكيلات نباتية ذات أوراق ثابتة تنبت تحت الحراج المدغلة.

الخلاصة

تلوح افريقيا كقارة عتيقة احتلتها من عهد بعيد بشرية بعثت فيها منذ القديم حضرات باهرة. وتبدي الجغرافيا الافريقية بمعالمها المعمارية وبأوساطها الطبيعية صفات قوية مستمدة من تراث ماض جيولوجي سحيق. لذا كان الفضاء الافريقي أشد كثافة وأكثر قارية من أي فضاء آخر في كوكبنا. وبقيت جهات فسيحة في قلب القارة على بعد يفوق ١٥٠٠ كم من البحر، مدة طويلة على هامش تيارات المرور الكبرى الواردة من الساحل. وقوى هذا التقسيم الجغرافي ما كان في المناطق المدارية من تغيرات مناخية في الدهر الثالث والدهر الرابع. فطيلة آلاف السنين، كانت الصحراء الندية من أقدم مراكز الاستيطان في العالم وتدخلت الحقبات المجدبة، فيما بعد، في تكوين الفيفاء الواسعة، مثل الصحراء والكالاهاري. فتضايقت التبادلات بين مختلف الحضارات في القارة الافريقية، ولكنها لم تنقطع. ويبدو المناخ حينئذ عاملا أساسيا لادراك الماضي الافريقي، ثم ان النظام الامطاري والأوساط البيولوجية المناخية كلها، تؤثر تأثيرا حقيقيا في حياة البشر اليوم. واستفادت المجتمعات الافريقية من التكامل بين المناطق المناخية لتربط فيما بينها أقدم تيارات التبادل وأقواها. وأخيرا فان تاريخ افريقيا تأثر تأثيرا قويا بالثروات المنجمية التي كانت من أقوى عوامل جذب الشعوب الغازية للقارة الافريقية. فذهب النوبة والكوش تم استغلاله من سلالات مصر العتيقة، وفيما بعد كان ذهب افريقيا المدارية وخاصة ذهب المنطقة السودانية وزمبابوي مصدر ازدهار لمجتمعات افريقيا الشمالية والشرق الأدنى، وعماد الامبراطوريات الافريقية العظمى في جنوبي الصحراء. وكان الحديد موضع تبادلات قديمة بين المناطق الغابية والمدارية في افريقيا. وكان للملاحة الواقعة على حاشية الصحراء دور مهم في العلاقات بين الدول السوداء في السودان وبين البلاد العربية البربرية في افريقيا الشمالية. وفي عهد قريب منا استغلت الثروات المنجمية الافريقية لفائدة السلطات الاستعمارية. وحتى اليوم مازالت هذه الثروات تصدر في معظمها في شكل مواد أولية خام.

الفصل الرابع عشر

الجغرافيا التاريخية: الجوانب الاقتصادية

آكن مابوكونجي

يرى جلبرت «ان الهدف الحقيقي للجغرافيا التاريخية، هو اعادة بناء الجغرافيا الجهوية للماضي» (١) وفي مجلد كهذا كان من اللازم أن يؤدي مثل هذا التحديد الى عرض الجغرافيا الجهوية فيما قبل التاريخ الافريقي مع التأكيد على جوانبها الاقتصادية.

ومن الواضح أن مشروعا كهذا يتضمن اختيارا تاما للظروف الطبيعية والبشرية في ماض سحيق، ولابد من أن يمتد الى عدد من سائر الفصول في هذا المجلد... وهكذا سيرمي هذا الفصل خاصة الى ابراز الموارد الطبيعية الأساسية كما اكتشفت وكما استعملت في افريقيا فيما قبل التاريخ، واذ نكشف عن الأنواع المتعددة للثروات الطبيعية في القارة كما وصلت الى علمنا اليوم، فان هذه النظرة سوف ترمي الى التأكيد على ما اعتبر منها ثورة في الماضي البعيد، والمواضيع التي اكتشف فيها، والطريقة التي استعمل بها، والى أي حد ساعد على مراقبة الانسان لأقسام متسعة من القارة، أو بالعكس الى أي حد عمل على ابطاء هذه المراقبة.

المعادن وتطور التكنولوجيا البشرية

لعل المعادن هي الأكثر دلالة من الموارد التي تمكن الانسان من مراقبة محيطه. فالمعادن هي المادة المفتاح في العالم. وسار تكوينها ببطء شديد، فقد يمتد على ملايين السنين، وبالقياس الى حلول الانسان على الارض مما قد يعود الى ثلاثة ملايين من السنين، فان السلم الزمني الجيولوجي طويل جدا، فهو يمتد على أكثر من خمسة آلاف مليون سنة.

(١) أ. و. جلبرت، ١٩٣٢، ص ١٣٢.

ان مناطق فسيحة من افريقيا ترتكز على كتل صخرية من أقدم الكتل على كوكبنا. والصخور المتبلورة القديمة، وتعتبر مصطبة القارة الصخرية تغطي على الاقل ثلث مساحتها. وهي تشمل خاصة الغرانيتات مع صخور تحملت تغيرات شديدة كالشيست والغنيس؛ و بعضها تعدن تعدنا قويا. فمن اهم التشكيلات، يجدر أن نشير الى المنطقة النحاسية في الشابا (بالزايير) وهي تمتد على أكثر من ٣٠٠ كم وتحتوي على أفسح مناجم النحاس في العالم بل أيضا على أغنى مناجم الراديوم والكوبالت. وفي الترانسفال (في افريقيا الجنوبية) يفيض المركب الناري ببوشفلد، ومساحته ٦٠٠٠ كم[٢]. وكريت دايك الذي يخترق الترانسفال على طول ٥٠٠ كيلومتر حتى روديسيا، يفيض كل ذلك أيضا بالمعادن، كالبلاتين والكروم والأميانت. ومنطقة الألماس الافريقية لا مثيل لها في بقية الدنيا، وتبلغ تجمعها الأقوى في افريقيا الجنوبية، على أنه توجد مناجم أخرى في طانزانيا وأنكولا والزايير. ولافريقيا الجنوبية وغانة والزايير مناجم من الذهب، و يوجد القصدير في الزايير وفي نيجيريا، ولنذكر أيضا مناجم هامة من معدن الحديد في افريقيا الغربية، كمناجم ليبيريا وغينيا وسيراليوني.

وقد تحملت المصطبة الافريقية القديمة عدة كسور بركانية ترجع الى ما قبل العصر الكمبري. فتسببت هذه الكسور في ترسبات غرانيتية حاملة للذهب والقصدير، وفي تشابكات الصخور القاعدية وما وراء القاعدية، كما انتجت صخورا بركانية أو اندفاعية الكثير منها أكثر حداثة، لم تكتف بالتفتت لتكوّن تربات غنية خصبة، بل انتجت أيضا معادن وصخورا كبازالت السبج في الكينيا، لها قيمة حقيقة في تاريخ القارة.

وعلى ما بقي من المصطبة، أي على ثلثيها تقريبا، توجد صخور رسوبية قديمة تعود الى ما قبل العهد الطباشيري، وتبعا لسنها فان هذه الصخور تحتوي أيضا على عدة رواسب معدنية. فعلى طول الحاشية الشمالية للقارة مثلا، في منطقة تمتد من المغرب الاقصى الى تونس مرورا بالجزائر، يوجد حزام الفوسفاط الكبير مقترنا بمناجم الحديد الغنية جدا.

وتوجد أيضا مناجم هامة من معدن الحديد من أصل رسوبي في جهة كارو في أفريقيا الجنوبية وفي الدامارا في نميبيا. وعلى النقيض فان الفحم يكاد يكون منعدما في القارة الا في بعض الحالات الشاذة في البلاد العليا من افريقيا الجنوبية وفي حقل ونكي في روديسيا، وكأن في الأمر تعويضا لهذا النقص، فان الصخور الرسوبية الحديثة مما بعد العهد الطباشيري، تشمل في الصحراء وعلى ساحل افريقيا الغربية طبقات فسيحة من النفط ومن الغاز الطبيعي.

وساهمت هذه الثروة المعدنية مساهمة كبيرة في دعم التنظيم البشري واستغلاله في فترة طويلة من التاريخ.

فلوحظ مثلا أن مراقبة تجارة الذهب بين غرب افريقيا وشمالها عبر الصحراء، كانت في العصر الوسيط من الأسباب الرئيسية التي بعثت على انشاء امبراطوريات وممالك في السودان الغربي وساعدت على سقوطها. فلا شك أن تجارة الذهب ومناجم الحديد قد جلبت العرب نحو افريقيا الشرقية في الألف سنة الأخيرة.

ومن جهة أخرى ان الاوربيين بعدما سحرتهم الثروات المعدنية في أميركا اللاتينية، تجمعوا في افريقيا باعتبارها خزانا استعماريا للمعادن الخام وذلك قصد تغذية تنمية صناعاتهم.

على أنـه في عصر مـا قبل التار يخ، فان المعادن التي تمثل أهمية رئيسية في تقدم التكنولوجيا عند الانسـان، كـانت في مستوى أضعف، وكان توز يعها أغمض. وأهمها كانت تلك المعادن الحجر ية ذات البـنـيـة المتجـانسة الشديدة الصلابة التي توفر امكانيات حسنة جدا للتفكك (٢). ومن أهم معـادن هذا الصنف، الصخور النار ية المزججة التي توجد في المناطق البركانية من افر يقيا الشرقية، وخـاصـة بجوار وادي رفـت الـكـر يـكوري. وكان هذا النوع أساسا لصناعة العصر الحجري القديم القفصي في الكينيا حيث وفر شفرات طو يلة وعدة آلات من الحجارة الصغيرة.

وهـنـاك مـادة أخرى حسنة الصفات، هي الأشكال السيليسية كالحث الصواني والصخور ذات الـتـركـيـب الدقيق، المتصلبة كالسلكرات والشيست والفليسات، ففي الزيمبابوي استخدمت صناعة الـعـصر الحجـري الأوسـط بمـبـاطا كمية كبيرة من الكالسيديوم، بينما استعمل صوان العصر الفجري وسـيـليسة على الهضاب التونسية وفي مصر، ومن المحتمل أنهما مستوردان. والحث الصواني أكثر انتشارا في افر يقيا، ولا سيما في شكل حصباء في مجاري المياه. وهو الأساس في الصناعات الآشولية في العهد الحجـري الـقـديم. وفي بـعـض الـبـقـاع كما في المجرى الأوسط من نهر الاورنج في افر يقيا الجنو بية، استعمل الشيست المتصلب تقر يبا لعين الأغراض التي استعمل فيها الحث الصواني.

والخصـائـص الحجـر يـة للـصـخـور الحـائـرة ذات التركيب الدقيق المعروفة باسم «الحجارات الخضراء»، وللصخور النار ية العميقة أو الوسطى كالبازالت والاولير يت والديور يت ـــ وهي كلها تـوفـر مـادة صـالحة لصنع البلطات والقاطعات ـــ لها مع ذلك أقل أهمية. وهي تستعمل أيضا لصنع الأسلـحـة كـحجارات الرمي وشوكات السهام. ومن بين الصخور النار ية الكثيرة الاستهلاك، لعلّ البـازالـت هو الأكثر استعمالا في صنع الأواني الحجر ية، ولو أنه عمليا استخدمت لهذا الغرض كل أنـواع الـصـخـور الموجـودة. ومـن سـائـر الـصخور النار ية استعمل محليا و بكيفية مكثفة الغرانيتات والدولور يت والديور يت. وأما الصخور الأقل صلابة كاللكسيات، فلم تكن مجهولة، بل ان في مصر اسـتـعـمـلـت صخورا ناعمة كحجر الطلق والمرمر المرقط. هذا وان الصلصال مثّل في افر يقيا بأجمعها الأسـاس في صـنـاعة الفخار، وكانت منتشرة جدا متنوعة أكبر التنوع وهي ترجع الى العصر الحجري الأوسط.

وأهمـيـة المعادن في رقي التكنولوجيا البشر ية في أزمنة ما قبل التار يخ قد تجاوزت صنع الأدوات والاسلـحـة والأواني. بـل هـي تـوجـد أيـضا في بناء المنازل حيث يحل الجبس محل الوحل البسيط. والـعـمـارات الـعـامة ذات الأهمية والمعالم كالأهرام المصر ية، كل ذلك اقتضى كميات عظيمة من الصخور الغرانيتية الصلبة أو الحث الصواني. وقد أمدتنا المعادن أيضا بأصباغ الرسوم الصخر ية، وقد حـفـظ الـبعض منها بكيفية عجيبة حتى اليوم في الصحراء وفي افر يقيا الجنو بية. وكانوا يحصلون على هـذه الأصـبـاغ بتـهـر يـس عـدة أنـواع من الصخور، كالهيماتيت والمنغنيز والصلصال الصيني، ويخلط الدقيق الحاصل ببعض العناصر الدهنية أو الصمغية.

ولكن الحديد بلا شك، هو الذي سيصير المعدن الحاسم فيما حصلت عليه افر يقيا من رقي في آخر عـصـور مـا قـبـل الـتـار يـخ. فـلـو أن الـتـكـنولوجيا العصر ية، بما لها من آلية متشعبة ومما يتبعها من

(٢) أندر يه روزنفلد، ١٩٦٥، ص ١٣٨.

استثمارات اقتصادية، تفرض استغلال مناجم غنية نسبيا بالمعدن وبصورة عامة متجمعة تجمعا كبيرا، فان الوضع فيما قبل التاريخ كأن أقل تحديدا وتقييدا.

والقشرة ذات الصبغة الحديدية تفترش على مناطق فسيحة من السهوب العشبية في افريقيا. وهي تغطي عدة أصناف من الصخور على الهضاب السهوبية العتيقة.

وان لبعض الأصناف من الثروة ما يكون الأساس للأنواع النشطة الأولى لعدانة الحديد في القارة، وما ان اكتشفت تقنيتها حتى انتشرت بسرعة من طرفها الى طرفها الآخر، وهذا ما يعاكس وضع النحاس والقصدير المحددين في المكان في توزيعها، حتى انها لم يتمكنا من منح افريقيا ثقافة برونزية كبيرة الانتشار، فيما عدا بعض المجموعات فيما قبل التاريخ المستعملة للنحاس، كسكان النجد الشمالي الشرقي في اثيوبيا وجموع لوبا في الشابا. على انه من الواجب أن نذكّر بوجود عصر للنحاس في موريتانيا، قبل الميلاد بخمسة قرون.

الموارد النباتية ونمو الاستيطان

ان الموارد النباتية هي التي تعتمد عليها القارة الافريقية للقيام بحاجيات استيطان لم ينفك يزداد كثافة. فكما ذكرنا آنفا فإن افريقيا قبل كل شيء قارة مروج، تغطي أعشاب معمرة متنوعة أكثر من ٥٠٪ من مساحتها الكاملة، وتغطي الصحراء، نحو ٣٠٪، ثم تغطي الغابة أقل من ٢٠٪. وفي مستوى الاستيطان البشري، فان تنوع هذه المجالات كان له دور من حيث أنها أمدت الصيد بما يقتات به، ووفرت الثمار والجذور المأكولة، كما منحت من المواد ما مكن من صنع الالآت والملابس والمآوي، وقدمت أخيرا نباتات قابلة للزراعة، في امكانها أن تتأقلم وأن تتحول الى مزروعات فلاحية.

ومنطقة المروج هي أساسا مستودع الصيد الافريقي بأنواعه المختلفة، من الظباء والغزلان والزرافات والحمير الوحشية والأسود والجواميس والحيارم والفيلة والكركدنات وأفراس البحر، بقطع النظر عن الصيد الصغير. فلا غرابة اذن كما لاحظ كلارك، أن وجدنا بعضا من أقدم مواقع الاحتلال البشري على طول مجاري المياه أو الأنهار وعلى ضفاف البحيرات أو على شاطئ البحر، في مشهد هو اليوم المرج والسهب المشجر، والساحل النصف الصحراوي أو الصحراء (٣).

والغابة عموما خالية من السكان، على أنه مع مرور الزمن ازداد عدد السّكان وتطورت التقنيات مما دفع الانسان الى أن يحل في كل أنماط المناطق، من سواحل المحيط حتى الهضاب الجبلية العالية، ومنذ ما صار اليوم صحراء جافة حتى أعماق الغابة الكثيفة.

ومع ذلك فانه يجدر أنه نذكر أن مناطق النباتات اليوم لا توافق حتما ما كان يسود من وضع في عصور ما قبل التاريخ. فعدة دورات من التغيرات المناخية العظمى أثرت في الصحراء التي كانت في الدهر الرابع القديم أكثر رطوبة، وعرفت نباتا شجريا من نوع نبات السهوب، ترعى فيها حيوانات، كالثور والخنزير الوحشي (خنزير أبو قرنين) والظبي وفرس الماء. ومن المعتقد، بحسب عامل التقابل، أن الغابة الاستوائية قد مرت في الوقت نفسه، بفترات أشد جفافا.

---

(٣) ج. د. كلارك، ١٩٧٠، ص ٩٣ — ٩٤.

وفي الوقت الذي كان فيه الانسان يستفيد من الموارد الحيوانية التي كانت مناطق النباتات المختلفة توفرها له، فانه كان يستغل عين هذه المناطق للحصول على الثمار وعلى الجذور المأكولة. وفي هذا الشأن كانت الغابات ــ الممرات، على طول مجاري المياه في مناطق المروج، تمكن الانسان في العصر الاشيلي من استغلال الثمار والحبوب والجوز في الغابات والسهوب. وحسب كلارك فان عددا كبيرا من الثمار البرية ومن الجوزر ومن نباتات السهوب التي كانت في شمالي زامبيا في متناول الناشيكوفوين من العصر الحجري الحديث كثمار الموبويو والموسوكو ــ ما زالت حتى اليوم تجني بانتظام وتستهلك من قبل الشعوب المتكلمة بالبانتو (٤). وعندما تكاثر السكان تم احتلال كل أشكال المناطق، وأن مجموعة المنتجات الاستهلاكية المتوفرة للانسان قد اتسعت اتساعا كبيرا. ويظن مثلا أن ما تحيط به بعض المجموعات التي تعيش بالجني في وادي النيل من أهمية كبرى لأشكال من الحبوب، قد سبق زراعة هذه الحبوب المقصودة، وأدى الى عصر انتشار الفلاحة الذي كان له الأثر الحاسم في احتلال الانسان لافريقيا.

وبقطع النظر عن الصيد وجني الثمار، فان الموارد النباتية كان لها أهمية أساسية فيما يخص التجهيز بالآلات والملبس والمسكن، ففي أقصى الجنوب من بحيرة طنجانيكا قرب شلالات كالمبوا احتفظت الآت من الخشب احتفاظا كبيرا بشكلها ومادتها وهي نوع من بعض الأدوات القصيرة المحددة من طرف أو من الطرفين، وأعمدة مقلمة بالميل، كانت بلا شك تستعمل كمعزقات، وهي كلها ترجع الى العصر الحجري القديم. ولو أنه قل ان تحفظ مثل هذه الأدوات في مواضع أخرى، فانه يبدو أنها كانت مستعملة استعمالا عاديا. ففي الغابة الاستوائية يعكس التجمع الصناعي اللوبمي من العصر الحجري الأول بواسطة آلاته ذات الوجهين النووية الشكل، ما كان من أهمية كبرى لتقنية الخشب. وكذلك في السهب العشبي في زامبيا وفي الملوي، فان ما يوجد من عدة نماذج من المجرفات الثقيلة من بين الأدوات الحجرية التي تعود للعهد الناشيكوفي من العصر الحجري القديم المتأخر، يوحي باستخدام متداول للخشب ومشتقاته في صنع كل أنواع السياجات والأوتاد والافخاخ المستعملة للصيد.

وفي الجهات الكثيفة الأشجار مثلا، حيث الصيد الفني قليل، فلا يمد بالجلود الصالحة للكساء، تقدم الأشجار لحاءها، ومن المحتمل أن استعملت البلطات الحادة ذات النصاب، كالتي وجدت بجوار صخور مويلا بشمال زامبيا، لقلع اللحاء ولتهيئته لصنع الثياب والأواني والحبال. ومنذ العصر الحجري الوسيط على وجه التحديد بدئ في استعمال الانتاج النباتي لبناء الملاجئ التي حلت محل المساكن داخل الكهوف. مثل ذلك أن بعض الأغصان والقش والتبن المضفور استعمل لبناء شاطرة الريح من العصر الحجري الأوسط، والتي عثر على أنقاضها في شلالات، كويشوسبرينغ، وهي ترجع الى الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي العصر الحجري الحديث، ولا سيما في المناطق التي اكتشفت فيها الزراعة، تكاثرت الملاجئ المبنية بالمواد النباتية، أو أحيانا بخلط الوحل بالنباتات، وقد انتشرت انتشارا كبيرا. وسجلت بلاشك أول أثر ثقافي للانسان في المشهد الطبيعي.

ولكن لئن كان وجود هذه المنازل المتواضعة علامة على بداية الاحتلال الفعلي لسطح الارض من

---

(٤) ج. د. كلارك، ١٩٧٠، ص ١٧٨، المصدر المذكور.

قبل الانسان، وعلى قابليته لاختيار نباتات جديدة يؤهلها من بين مجموعة الأنواع الوحشية المحيطة به، فانه في هذا كرس تفوقه نهائيا.

وبقيت الظروف التي مكنت الانسان من خلق أنواع جديدة قابلة للزراعة انطلاقا من الأنواع الوحشية محل جدال بين العلماء، وليست مساهمة افريقيا في هذا الحدث العظيم وما يحيط به من ألغاز، بأقل حظ في هذا الجدال. وفيما نعلم حتى اليوم، فانه من المسلم به عموما أن هذه المساهمة أقل خطرا من مساهمة آسيا، وشرع في بحوث حديثة بعد أن حرر العالم النباتي الروسي، فافيلوف كتابه الضخم في الموضوع، حيث يرفض أن يسلم أنه لم يكن يوجد في افريقيا مركزا لهذا الاختيار سوى مركز الأراضي المرتفعة الاثيوبية، وبدأت هذه البحوث تقدم منظورا أحسن توجيها نحو المساهمة الداخلية لأفريقيا في تطور الزراعات الفلاحية (٥). وفي هذا الشأن لا يختلف اثنان، في أن السهب كان له أهمية محسوسة أكثر من الغابة. ففي السهب، بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد. تم اختيار عدد كبير من الأنواع الأهلية الصالحة للزراعة. وكوّن عدد كبير من هذه النباتات الصالحة للزراعة «مركب الفلاحة ذات البذور» وقد تميزت ببذر الحبة قبل زراعتها (٦).

وفي مقابل ذلك فان بعض التأقلمات التي أجريت في الغابة، تنتمي الى مركب الزراعات التي تقتضي مسبقا تحضير النبتات والفسلات والجذامير الدرنات. وأهم تأقلم في هذه المنطقة تأقلم الأنيام (ديوسكوريا ـــ سب) الذي يزرع منه اليوم عدة أنواع، ومن النباتات المستأنسة في نفس هذه المنطقة: نخل الزيت (الايس ـــ غينينسيس).

ورغم الزراعات القليلة المؤقلمة، فان اكتشاف الفلاحة تضمن علاقة جديدة خصبة بين الانسان وبيئته. فهي تدل خاصة على قابلية للتجديدات، وذلك كنشر النباتات القابلة للزراعة الواردة من آفاق أخرى. وافريقيا مدينة لآسيا وأميركا الجنوبية بعدد كبير من المزروعات الجديدة. وفي اطار الموارد النباتية الطبيعية، فإن الأخذ بالاختيار لعدد محدود من النباتات الأهلية أو الأجنبية يدل على أن الانسان كان في وسعه أن يستخرج قوته من وسطه الطبيعي، بل انه أيضا كان منذ ذلك الوقت على طريق التغييرات البيئوية العظمى.

وما كان لازما من استصلاح الارض لاحلال مزروعات جديدة فيها، ومن ابادة بعض النباتات الأخرى التي قد تتقاسم معها العناصر المغذية في التربة، كل ذلك آل في كل افريقيا الى تغييرات جذرية لطابع النباتات.

ولعل النار هي العنصر الأقوى الذي اتجه اليه الانسان لهذا الغرض: ويشهد على استعمال الانسان الافريقي للنار شواهد تدل على أن الانسان كان يستخدم النار استخداما متداولا في افريقيا منذ ٦٠٠٠٠ سنة. على أنه في البداية يبدو أنه استعملها لحماية نفسه ولصنع الالآت، ولعله استعملها للصيد باحراق الاعشاب قصد اخراج الصيد منها. وعند اكتشافه للزراعة قد كان من الطبيعي أن يستخدم النار للتخلص من النباتات المضرة. واثر هذا الكفاح بواسطة النار ضد النباتات الطبيعية في صالح الزراعة تأثيرا متنوعا في الأعشاب وفي الأشجار. ففي السهب وفي الفصل

(٥) أ. أ. فافيلوف، ١٩٣٥.
(٦) رولند برتيرس، ص ١٩٥ ـــ ٢١٠، انظر في الموضوع الفصل ٢٧ من هذا المؤلف.

الجاف يحرق العشب حتى مستوى التربة، ولكن الجذور المختفية في الأرض تمنع من ابادة هذا العشب. وبالعكس فان الأشجار ما لم يَحْمِها لحاء كثيف قد تموت فعلا، أن هي تبق مشوهة الشكل منكمشة.

ودخول النار في الوسط الطبيعي قد أدى حينئذ الى تحول عظيم للمشهد تسبب فيه الانسان على مر العصور. وحيث ان تكرار النيران يقتل الأنواع القابلة للعطب في الغابة الغضة الكثيفة، فان ظروفا جديدة تخلق مساعدة على امتداد تدريجي للمروج. ففي افريقيا الغربية كان لهذا الوضع من الحركية ما خلق منطقة مهمة من «السهب المشتق» تمتد من الجنوب حتى ست درجات من العرض الشمالي (٦ مكرر) وفي السهب الحقيقي يلاحظ أن طابع النباتات يتغير بتأثير النارين الناشبتين في السنة، وبحسب الخواص الدنيا للمشهد، فيمر من المرج في السهول الى سهب ذي أشجار في التربات الأكثر صخرية. وفي الواقع فان هذا الاحتفاظ بالحريجات المتبقية على التربات الصخرية، يؤدي الى الاعتقاد بأن النباتات الرئيسية في معظم المروج الحالية من الراجح أن تكون هي الغابات (٧).

ومهما يكن من الأمر، فان المروج الافريقية وفرت للانسان في القديم موارد عظيمة. فلم تكن فحسب قابلة للاستصلاح بسهولة، بل كانت أيضا سهلة الاختراق. وكانت سهولة التنقل العامل الحاسم في العمران. فافريقيا قارة ممتازة بالنسبة الى كبير الهجرات البشرية، وقد استعيد وصف البعض منها بفضل الشواهد الأثرية والاثنولوجية واللسانية والتاريخية. وكان لهذه التحركات السكنية أهمية في سرعة انتشار الأفكار الجديدة وبث الآلات والتقنيات بالخصوص. وكان لهذا الاشعاع من السرعة أحيانا، ما جعل البحوث الرامية الى التعرف على مناطق أصلية لتجديد ما، تصطدم بعقبات كأداة.

وحركية الانسان كانت دائما عاملا حيويا في تنظيم المجموعات السكنية الى وحدات سياسية، فكان للسهوب اذن دور حسن ساعد في افريقيا على توفير الظروف التمهيدية لنشأة الدول. وحين حصلت هذه الدول على وسائل القمع، كان من الطبيعي أن تفرض هيمنتها على مجموعات أخرى لها نظام أو تجهيز عسكري أضعف مما لديها. وبعد محق مقاومة هذه الجموع لم يبق لها سوى أن تندمج في الغالب أو أن تلتجىء إلى خلوات صعبة المنال أو صعبة المعاش. وبكلمة مختصرة فان ظهور الدول في مناطق السهوب تبعه تشتيت للجموع الأكثر ضعفا، والأقل تنظيما في أوساط منفرة كالمناطق الجبلية الوعرة أو الصحاري أو الغابات الكثيفة.

شاهدنا أن الموارد النباتية في القارة لعبت دورا قويا في التطور التاريخي للانسان في افريقيا، فهي وفرت له ذخائر غزيرة من الثمار والدرنات، كما مكنته من خلق مزروعات تعهدها وحماها فأمدته بوسائل للقوت جديدة غنية. فحتى عام ١٦٥٠م حسب كارل صوندرس، لم يفق القارة سوى آسيا في الاستيطان. وكان ما لها من مئة مليون نسمة يمثل ٢٠٪ من المجموع العالمي (٨). ومن أهم عوامل

(٦ مكرر) و. ب. مرجن، و. ج. س. بوغ، ١٩٦٩، ص ٢١٠.

(٧) س. ر. اير، ١٩٦٣.

(٨) أ. م. كارل صاوندرس، ١٩٦٤.

التنمية الاستيطانية ما وفرته الوحدات الاجتماعية السياسية الأحسن تنظيما من زيادة في استتباب الأمن.

وحيث أن انتشارها الأقوى كان في مناطق السهوب، فانه من اليسير أن ندرك، لماذا كانت في ذلك العهد هي المناطق ذات النسبة العليا من الاستيطان الأقوى في القارة، وستأخذ هذه النسبة في التغير شيئا فشيئا، خاصة في افريقيا الغربية، منذ القرن السادس عشر الميلادي، مع تجارة العبيد ثم مع الاستعمار الأجنبي.

الموارد الحيوانية والتنوع الثقافي

ان توزيع الموارد الحيوانية مرتبط أوثق الارتباط بتوزيع المواد النباتية. وفي كل الأزمنة اعتبرت افريقيا قارة متميزة الغنى في اللبونات. والواقع أنه يعتقد أن اللبونات الافريقية، بقطع النظر عن الخفاش، تشمل ثمانيا وثلاثين من الاسر.

وتطور توزيع هذه الحيوانات بحسب العصور وبحسب الأمكنة. وتدل الآثار المتحجرة على أن جميع المناطق كانت عامرة في وقت من الأوقات بأعظم الأنواع الوحشية. وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط في افريقيا الشمالية، كانت توجد بعض الحيوانات كالأسد والفيل، ومن المعتقد أن الكثير منها قد طاردته فترات الجفاف القوي في العهد البليستوسيني. وتحمّل ما بقي منها أثناء آلاف السنين الأخيرة انقاصات ثقيلة مما كانت تتطلبه مثلا حاجيات الملاعب الرومانية. وقريبا منا في أواسط القرن التاسع عشر اكتشفت الجيوش الفرنسية بقيادة الدوق دومال، أينما مرت في الجزائر بين الصخور الوعرة في مقاطعة قسطينة وحتى سهول مقاطعة وهران، أعدادا ضخمة من الحيوانات الوحشية ومن جملتها الأسود.

وتحتفظ الصحراء نفسها حتى الآن بسلسلة عجيبة من نماذج الحيوانات الوحشية: غزلان «موزكا» وفاما واضاكس واوريكس ذات القرون على شكل الخنجر الخ. ونحن نعلم أنه في العصور البعيدة الكثيرة الرطوبة، كانت هذه الموارد أكثر أهمية بكثير، فكان من بينها حيوانات كالفيل والكركدن وفرس الماء والزرافة والجاموس العملاق الذي انقرض اليوم وغزلان كبرى.

على أن السهوب الافريقية تشكل المأوى الحقيقي لمعظم الصيد الضخم الافريقي (٩) ففي المناطق الواقعة في غربي افريقيا وشرقيها ووسطها وجنوبيها، توجد الحيوانات الضارية كالأسد والفهد والقط النمري الافريقي والضبع. وهنا توجد الحيرم والطوابي والغزال والخنزير أبو قرنين والغزال الأغبر وحمار الوحش والزرافة والنعامة. وهنا الموطن الطبيعي للفيل والجاموس والكركدن الاسود وفلند دربي وعلند الكاب ورأسي الأرجل وكب سنغ وكب القصب. وعلى مر العصور تغيرت أهمية الموطن الذي احتلته كل من هذه الأنواع. وقد لحق هذه الحيوانات كثير من الأضرار من قبل الانسان. وفي الكفاح القوي في سبيل البقاء قد اضطر بعض الأجناس الى ترك محلها لغيرها كلما تغيرت الظروف البيئية. وهكذا فان انعدام الكركدن الأبيض بين الزامبيز والنيل الأبيض

(٩) فرنسوا سومر، ١٩٥٣، ص ٦٤ (أنظر في هذا الشأن الفصل ٢٠).

الأعلى، قد يعزي الى ما وفرته تغيّرات المناخ والنبات خلال العصر البليستوسيني في صالح الكركدن الأسود الأكثر عدوانية.

ورغم كون الصيد الوحشي في معظمه يتردد على الغابة المدارية الافريقية، فإن هذه المنطّقة في جملتها منحت القليل في مستوى الموارد الحيوانية، ومن أهم سكان الغابة يجب أن نذكر البوسابيغ أي خنزير الدغل والخنزير الوحشي العملاق والبونكو، وكبار القردة كالشنبنزي والغوريلا وكذلك الأوكابي. وفي هذا أيضا فان التغيرات الحادثة في البيئة أثرت في امتدادات المواطن السابقة. وما لوحظ من فراغات في تعمير البونكو ناشيء عن تراض ما سيكون يوما الغابة الكثيفة الممتدة على افريقيا الاستوائية بأكملها.

ولقد أدت غزارة الموارد الحيوانية خدمات جليلة للانسان خلال المدة الطويلة من حياته التي كان فيها صيادا قبل كل شيء. وكانت تبدو هذه الذخائر غير نافدة، حتى أن بعض المجموعات الافريقية بقيت حتى اليوم في هذا المستوى من النمو. وهناك صنف آخر من الموارد الحيوانية: الأسماك، فهي أيضا قد تم اقتناصها منذ العصر الحجري الأوسط، فجاري المياه وأيضا بحيرات الماء العذب ـــ رودلف وناكورو وعيدي أمين (سابقا ادوارد) في افريقيا الشرقية والوسطى وفي التشاد في افريقيا الغربية ـــ جذبت أولى المجموعات البشرية بفضل الموارد السمكية (١٠). ومن بين الأنهار كان بالطبع للنيل قيمة فريدة، فوجدت على ضفافه أنقاض مجموعات مجاورة كانت تستخدم المخاطيف وصنارات العظم،وكانت أيضا تصطاد فرس الماء والتمساح وتستهلكها،ومازال حتى اليوم من طرف افريقيا الى طرفها الآخر يستعمل فلك بسيط محفور في جذع شجرة قصد الصيد في المياه الداخلية. وقد تتجرأ قليل من مجموعات الصيادين على صنع أفلاك ذات أهمية للمخاطرة بها للصيد على الساحل البحري. وفي كل مكان وحتى عصر قريب، فان التطور التقني الغير اللائق، قد منع الناس من استغلال الموارد الغنية على المناطق الجافة في القارة.

والثروة الرائعة للحيوانات البرية وتنوعها، وفرّا ذخيرة عظيمة مليئة من الحيوانات الأهلية على أن تدجين الحيوانات في افريقيا اقتصر عمليًا على الحمار والقط والدجاج الحبشي (١١). وأحد أسباب هذا العمل المتواضع هو أن افريقيا في العصر الحجري الحديث قد برزت عليها الأساليب السابقة الأكثر نجاعة والمجربة في الجنوب الغربي من آسيا. واذّاك تعلمت القارة حياة الرعي. فالرعاة الأولون في العصر الحجري الحديث ظهروا، حسب كلارك، في الصحراء خلال الألف الخامسة قبل الميلاد وربما قبل ذلك فكانوا يسوقون قطعانا من الدواب ذات القرنين الطويلين أو القصيرين، ومن الماعز والخرفان. واستمروا على ذلك حتى طاردهم جفاف الصحراء المتزايد.

على أن صناعة الرعي لم تنتشر بكيفية منتظمة في كل الأوساط في القارة. فان كان معظم المجموعات قد نجح في مراقبة عدد من القطعان الصغيرة، فان قلة فقط تمكنت من تدجين القطعان الكبرى. ومن هؤلاء طوارق الصحراء الفلانيون في السهب الافريقي الغربي،والماساي في مروج

(١٠) أنظر بوتون، في هذه النقطة أنظر الفصل ٢٠.

(١١) ج. دسمند كلارك، ١٩٧٠، المصدر المذكور ص ٢٠٤.

افريقيا الشرقية، وقد بقوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بحياة الرعاة، وتركوا كل محاولة للجمع بين هذا النمط من العيش و بين نمط الفلاحة.

وتتبع هذه المجموعات بلا فتور قطعانها في طلب الماء والكلأ، فعاشت حتى اليوم حياة البدو الرحل في أدق شكل لها. على أن بعض مجموعات البوتي في افريقيا الشرقية وفقت في مشاركة تربية الماشية مع العمل الزراعي، لصالح الواحد منهما بتأثير الآخر.

ولعله مما منع ازدهار الرعي في افريقيا، تكاثر أجناس حيوانية أخرى كان لها أثر متميز السلبية على نمو الموارد بالقارة.

وفي هذا المجال، لابد من ذكر ذبابة النعاس (تسي، تسي)، وهي ذبابة ضخمة كثيرة التحرك، وهي العامل الرئيسي وليس الوحيد في داء المثقبيات، وهو مرض يسبب للانسان مرض النعاس، وهو يعني الموت بالنسبة للحيوانات. وتوجد اليوم هذه الذبابة في منطقة تخترق افريقيا بين الدرجة ١٤ من العرض الشمالي الى الدرجة ١٤ من العرض الجنوبي. ولا يشذ عن ذلك سوى الأراضي المرتفعة التي تتجاوز ١٠٠٠ متر وهي نسبيا باردة، وسوى مناطق الأعشاب القصيرة، حيث يكون الفصل الجاف شديد الحرارة والجفاف، فلا تتمكن ذبابة النعاس من التكاثر فيها.

وجدت ذبابة النعاس في افريقيا منذ أقدم العصور، واذ وجدت آثار متحجرة من هذا الحشرة في أميركا الشمالية في طبقات الميوسين فإنه يبدو أنها كانت أكثر انتشارا في ما قبل التاريخ (١٢)، وقد يكون انقراضها من بعض الجهات الافريقية او الخارجة عن افريقيا ناتجا عن التضافر بين التغيرات المناخية والحواجز الطبيعية والعهد الجليدي. ومن الثابت في افريقيا ذاتها أن التداولات المناخية في عصر البليوستوسين، قد كان لها كبير الأثر على توزيع مختلف أجناس ذباب النعاس، بل وحتى على نسبة ضررها.

والمناطق التي عاثت فيها هذه الذبابة فسادا، قد كونت حاجزا كبير الفاعلية ضد انتشار تربية المواشي. ومن المحتمل أن الرعاة قد فهموا بسرعة أن قطعانهم كانت مهددة بأخطار جسيمة عند مرورها بالمناطق التي أفسدتها.

لذا فان نزول القطعان نحو الجنوب انطلاقا من افريقيا الشمالية، كان تابعا لوجود ممرات خالية من الذباب، كما هو الشأن القطعان التي كانت تنشؤها مجموعات زراعية منظمة لها كثافة كافية. ومثال مفيد على ذلك، مثال هجرة الرعاة المربين للحيوانات منذ ما يقرب من تسعة قرون، منصهرين مع شعوب أخرى لانشاء مجتمع التتسي وهوتو في روندا و برندي الحاليين.

ولا شك أن تاريخ افريقيا كان من المتوقع أن يكون مخالفا كثيرا لما هو عليه، لو لم تعرف القارة ذبابة النعاس. اذ أن هذه الحشرة كانت تمنع المجموعات الزراعية المنظمة من استخدام الدواب الضخمة، فلم يلجأ قط الى هذه الحيوانات كدواب للجر والنقل. ولم تتوفر قط أيضا للأفارقة فرصة اكتشاف العجلة الكبير الأهمية. وفي هذه الحالة فان ما مكن الدواب الضخمة عند بعض الشعوب من حرية الحركة، لابد أنه شجعهم على التعدي على الشعوب المستقرة (١٣).

---

(١٢) ت. د. أ. ككرال، ١٩٠٧، ١٩٠٩، ١٩١٩، ص ٣٠١ — ٣١١.

(١٣) أنظر في هذا الصدد دور الخيالة (الفرسان) في تكوين الدول، ولا سيا في شمال خط الإستواء.

ومن العوامل الحيوانية السلبية نجد بعوضة حمى المستنقعات والجراد. فمن عديد أنواع البعوض التي في امكانها أن تنقل عدة أصناف من طفيليات حمى المستنقعات، يوجد ما يجلبه الدم البشري أكثر من غيره. فمن البعوض الذي يعيث أكثر من غيره في افريقيا، بعوضة الملاريا جامبيا التي تجد غذاءها على الحيوانات أيضا، فيكون من الصعب القضاء عليها اذ هي تتمكن من البقاء حتى ولو منعت مؤقتا من الهجوم على الانسان. و يتكاثر البعوض على المياه الراكدة، و يتوالد بجوار المستنقعات والجداول. و يتكاثر خاصة عند ازدياد الأمطار. وتساعد درجات الحرارة المرتفعة على نمو دعاميصها وعلى دورة الطفيليات الدموية في البعوضة البالغة. و بالعكس ان الطقوس الباردة في المرتفعات العالية تخفض من حدتها. فالملاريا المستوطنة تميل نحو الانقراض في ارتفاع يفوق ١٠٠٠ متر، ولو أن نقلها يستقر على أكثر من هذا الارتفاع.

ولا يعلم منذ متى صارت هذه البعوضة جزءا من المحيط البشري في افريقيا. ونسبة خلايا جلجي الكبيرة الموجودة عند الكثير من الأهالي الافريقيين، قد يشير الى علاقة وثيقة طويلة المدى بين هذه الخلايا و بين تطور الاستيطان الافريقي. و بدون شك، فإن هذه الخاصية ناتجة عن أثر عدة قرون من الانتقاء الذي ساعد هؤلاء السكان على البقاء في ظروف و باء كبير الاستيطان من الملاريا. و بقدر ما كانت هذه البعوضة تهدد حظوظ البقاء لهذه المجموعات البشرية غير المكيفة تهديدا خطيرا، فهي أيضا قد لعبت دورا مهما في تاريخ القارة. ومن الأكيد أنها بالفعل، حتى القرن العشرين، أيأست الاروبيين في محاولاتهم الاقامة في المناخ الحار الرطب في افريقيا الغربية، وحفظت هذه المنطقة من المشاكل الشائكة القائمة بين الأعراق، تلك المشاكل التي اضطرب منها تاريخ الأراضي المرتفعة في افريقيا الشمالية والشرقية والوسطى أو الجنوبية، وقد كانت ضحية للاستعمار الاستيطاني.

والجراد من المصائب التقليدية في افريقيا. وهي حشرات ضخمة تعيش عادة منعزلة أو جماعات صغيرة. وهي توجد في مناطق التحول النباتي، على حافة الصحراء أو على حدود السهب العشبي والغابة، و يوجد في افريقيا على جنوبي الصحراء، الجراد الأحمر والجراد الرحال الافريقي وجراد الصحراء، وتحتاج ثلاثتها الى نوعين من المواطن: تربة عارية لوضع بيضها، ومشهد مخضر لتتغذى منه. فاذا ما ضاقت تربة تغذيتها أكثر مما يلزم لسبب من الأسباب، فهي تتجمع فرقا كبيرة لتهاجم مناطق قريبة أو بعيدة. و يوجد في الماضي أمثلة من هذا النوع من الزحف، تنص عليه التوراة كاحدى الكلوم التي رمى بها موسى مصر. ومنذ القرن التاسع عشر صارت التقارير عنها أكثر غزارة. فنحن نعلم مثلا أن افريقيا الوسطى قاست من هذه الزحوفات المتكررة بين سنة ١٨٤٧ و١٨٥٤ و١٨٩٢ و١٩١٠، وقريبا منا بين ١٩٣٠ و١٩٤٤. وفي نظر الأهالي المزارعين المستقرين، ان الأضرار الناجمة عن تهاطل سيول الجراد، ولا سيا اذا وقعت في فصل الحصاد بالذات، فانها تعني المرور العنيف من الخصب والثروة الى المجاعة. وفي الماضي اذا وافقت الظروف المناخية السلبية ـــ كالجفاف مثلا ـــ وقوع هذه الهجومات، فهي تساعد على انبعاث الانقلابات السياسية والاجتماعية.

الثروات المائية والحركية البشرية

يجدر أن لا ننقص من قيمة الثروات المائية في تطور التاريخ الافريقي، فان وجدنا في قطاعات مختلفة من القارة أرقاما تسجل أقوى التهاطلات في العالم، فان أرقاما أخرى تشير الى بعضها الأكثر ضعفا. وامتدادات الصحراء والكلاهاري العظيمة شاهد لا يقبل الطعن، على ما في قطاعات فسيحة من افريقيا من الجفاف القاسي. وحتى خارج الصحاري، فان منطقة السهوب الفسيحة لا تتقبل الا تهاطلات كافية تماما، وفي هذه المناطق فان الحياة البشرية تابعة في جانب كبير للتأرجحات الاتفاقية للرياح المحملة بالأمطار. ولو كان في الامكان أن يلجأ الى موارد أخرى للماء، كالجداول والبحيرات وحقول الماء الجوفي، لكان الأمر أقل خطورة.

ولكن في مناطق متسعة من القارة، ولا سيما في الجهات الحارة نسبيا من الأراضي المنخفضة، فان الأودية النهرية التي تعيث فيها الحشرات الضارة، غير صالحة بموجب ذلك للاستقرارات البشرية. ثم ان نظام الأنهار يتبع من قريب نظام الأمطار، وهكذا تكون مساعدتها قليلة، في فترات التهاطلات غير الكافية مثلا، اذا ما استطال فصل الجفاف، واذا ما كان مجرى الأنهار ذاته ناضبا. وفيما عدا وادي النيل، فإن التكنولوجيا التقليدية لم يكن لديها أي وسيلة لخزن الماء استعدادا للأيام التي لا مطر فيها. والتقنية الناقصة في التقدم تعني أيضا، أنه لم يكن في الامكان الوصول الى ما تحت الأرض من مياه على عمق يتجاوز عمقا معينا حتى في مناطق الأحواض الارتوازية. حيث خزنت البنيات الجيولوجية كميات ضخمة من الماء. وعلى جانب كبير فان القارة تبطنها قاعدة من الصخور، لا يوجد فيها الا القليل من امكانيات الخزن لطبقات مائية غزيرة. ولا يمكن للمستوطنين البشر الا أن ينتظروا التهاطلات السنوية.

ولذا فان قلة الماء الناتجة عن الجفاف كانت دائما من خواص الحياة الافريقية. والتاريخ المناخي لعصر البليوستوسين، يدل على أن عدة قطاعات من القارة تبعت على الأرجح، نظاما دوريا طويل المدى من تهاطلات تزداد أو تقل قوة. ومهما يكن من أمر، ان الجفاف يمثل ضغطا من النطاق المكاني على الجموع البشرية، وهو يضطرها الى رد الفعل، و يعبر عن هذه التفاعلات في الأكثر بالبحث عن مناطق أكثر امطارا للاستقرار فيها نهائيا، أو بصفة مؤقتة.

وقد تكون هذه الهجرات مسالمة، ولكنها غالبا وبحسب تنظيمها وبحسب الكيفية التي وجهت بها، قد تميل الى التعدي. و يبرز تاريخ العديد من الجماعات الافريقية حركاتها الهجرية من قطاع الى آخر، أو ذلك زحف جمع مهاجر قوي أخضع لسلطانه المجتمعات ونظمها.

وحيثما وجد الماء بكيفية كافية، سواء في ذلك ماء المطر أو الماء الجوفي، وحيثما تمكنت الفلاحة من التطور والنمو، انتشر استيطان منظم حسب سير تدريجي للتطور الاجتماعي، على الطريق الطويلة الوعرة، قصد السيطرة على الطبيعة، ونضجت المحاصيل غنية متنوعة، وفرضت سرعة نضجها بسرعة الحياة الاجتماعية. وصار لفصل الحصاد أهمية حاسمة، ووضعت أعمال طقوسية تقدس حدثا مجهول التفسير، حتى أنه نسب الى بعض القوى المحسنة. و يتبع الصعود في السلم الاجتماعي لهؤلاء السكان المنظمين عددا من سائر العوامل، أحدها — على الأقل — غزارة الموارد الغذائية التي تمكن

من تقسيم العمل ضمن المجموعة، وتساعد على ظهور جموع مخصصة في نشاطاتها. وليست هذه الامكانية تابعة فقط لمختزنات الماء، بل كذلك لخصب الأراضي.

ثروات التربة والتطور الاجتماعي للمجموعات

ان الخواص الجيولوجية لقطاعات فسيحة في افريقيا عينت الى حد بعيد طبيعة التربات. ونظرا لتنوع الصخور في القاعدة كانت صفات التربات التي تكونت من عناصر متشابهة، هي ذاتها متنوعة جداً. ولكن خصبها في الغالب ضعيف، نعم ان تلك الصخور تبدي عادة ذخيرة ملائمة من معظم العناصر المعدنية اللازمة لتغذية النباتات، ولكن تنوعها يؤدي الى تغيّرات مهمة في شعاع جغرافي صغير. وما تكّون من التربات على الصخور الرسوبية، يرمي الى الاحتفاظ بتجانس أكبر على مساحات كبرى، على أنه لا صلة له بالمساحات الممتدة التي لها خصب التشرنوزيوم في أراضي القمح في اكرانيا، أو بمروج أميركا الشمالية.

ان التفاعل بين خواص التربة والعوامل المناخية، بدا حاسما تماما بالنسبة الى خصب التربة وقدرتها على الوفاء بحاجيات عمران كثيف لمدة طويلة. وفي المناطق الندية فان الخصب الموهوم الذي يظهر من نبت النباتات الغضة، يخفي طبيعة التربة الهزيلة. واذا ما استصلحت الارض بقلع النباتات الطبيعية تتفتت المواد العضوية للتربة بسرعة بعمل الجراثيم القوي،تنشطه حرارات عادة مرتفعة. ففي وقت قصير ينحط الخصب، و يتضاءل انتاج المحاصيل، و يضطر البشر الى البحث عن موطن آخر.

وعلى النقيض في المناطق الناقصة الرطوبة، يكون خصب الأرض أحسن، الا أن تغيّرات رطوبة الأرض الدورية تساعد على تكوين قشور من معدن الحديد الوعني غير صالحة للزراعة. و ينتج عن هذه القشور تشتت التربات المتوسطة الخصب، فتكون امكانياتها لتغذية استيطان بشري كثيف محدودة جدا. وتلك هي طبيعة التربات التي نجدها في افريقيا الغربية شمالي الغابة الغضة، وعلى هضاب افريقيا الوسطى عى حافات حوض الزايير. كما توجد هذه المساحات أو القشور الملموسة من بين الأراضي نصف الجافة المتقبلة لتهاطلات معتدلة، الا أنها أكثر تشتتا، و ينتج عن ذلك أن التربات السمراء والرملية في هذه الجهة، هي أكثر خصبا، واذا ما كانت السنة مطيرة بقدر كاف، فهي تنتج محاصيل لائقة. وفي الشمال فان تربة الصحراء سطحية وملامحها ضعيفة وتعوزها المواد العضوية.

ومن الصفات الملحوظة في جغرافية افريقيا قلة امتداد التربات الخصبة تماما، وشدة تشتتها. وتشمل هذه التربات الصلصالات العميقة المشتقة من البازلت ومن سائر صخور العصر البليوستوسيني، أو صخور فترات أكثر حداثة، و يعثر عليها خاصة، في بعض أجزاء افريقيا الشرقية. وفي الغابة الكثيفة يكون لهذه التربات في المرتفعات لون الشوكولا تة وفي البقاع المنخفضة لون الحمرة. وهناك تربات مثيلة لها في الخصب هي التربات الغنية المشتقة من عين الانموذج من الصخور، والموجودة في السهول المعرضة لفيضان الأنهار كالنيل.

وساعدت المحاصيل الغزيرة في هذين الانموذجين من التربات، على نمو استيطان بشرى كبير كثيف. فاذا ما أدى هذا التجمع ــ كما في وادي النيل الى درجة عليا من التنظيم الاجتماعي ومن رقابة المحيط ــ مثل ما كان في العصور الحجرية الحديثة وقبل عهد السلالات ــ فتكون الظروف متوفرة لتسارع الرقي. و يتضمن ذلك تطور الحضارة في المدينة، والتمييز بين الطبقات، كما يتضمن صناعة مهذبة وفنا معماريا معلميا. وفي النهاية استعمال الكتابة. وكان هذا، أكثر فأكثر مآل العلاقات المنتظمة مع وادي الرافدين، بل كذلك مآل الامكانيات التي وفرها الاستيطان الكثيف المتكون من جموع اجتماعيّة متنوعة لتحقيق ازدهار الفلاحة التي بلغت في ذلك العصر السحيق درجة مذهلة.

ووجدت ظروف مماثلة لذلك فيما بعد في عدة أماكن من افريقيا، وذلك كمثل منعطف النيجر عند انشاء امبراطورية غانة في بداية العصر «الوسيط». ومع أن مناطق أخرى تظهر تربات خصبة نسبيا، فان امتدادات كبيرة، ولا سيما على سهول الأراضي المرتفعة حيث عاث فيها غسل منذ ملايين السنين، ليس فيها سوى تربات سهلة الفلاحة تعوزها السماد الملائم للنباتات، فبقيت حتى في عصرنا هذا ذات قيمة ضعيفة من الوجهة الفلاحية. في هذه الجهات لم يتمكن الانسان من البقاء الا بالمرور من زراعة الى أخرى منذ العصر الحجري الحديث. وهذا الصنف من الاقتصاد فيه تبذير ثابت للتربة، ولهذا كان حائلا دون تكوين مجموعات سكانية كثيفة، قليلا أو كثيرا. وهذا الوضع الاستيطاني المتفرق على مساحات فسيحة من القارة، وآثار هذا التوزيع على التطور الاجتماعي، لابد من اعتباره عامل نحس في تاريخ افريقيا. وكل يعلم أن خصب منطقة من المناطق يتبع في آن واحد خواصها الذاتية ونجاعة استغلال تربتها. ومن الحقيقي أيضا أنه في جهات أخرى من العالم، قد مرت مجتمعات بلغت اليوم مستوى عاليا من التطور الاجتماعي، مرت بأطوار تبع فيها اقتصادها أيضا، زراعات طارئة. فبالنسبة الى افريقيا اذن فان الاستغلال اللائق للتربة يكتسي أهمية رئيسية في التطور الاجتماعي، وان كان هذا الاستغلال محدودا في الماضي، فهو يدل اليوم على الطريق التي ينبغي سلوكها للشروع بجد في دورة الرقي الحاسم.

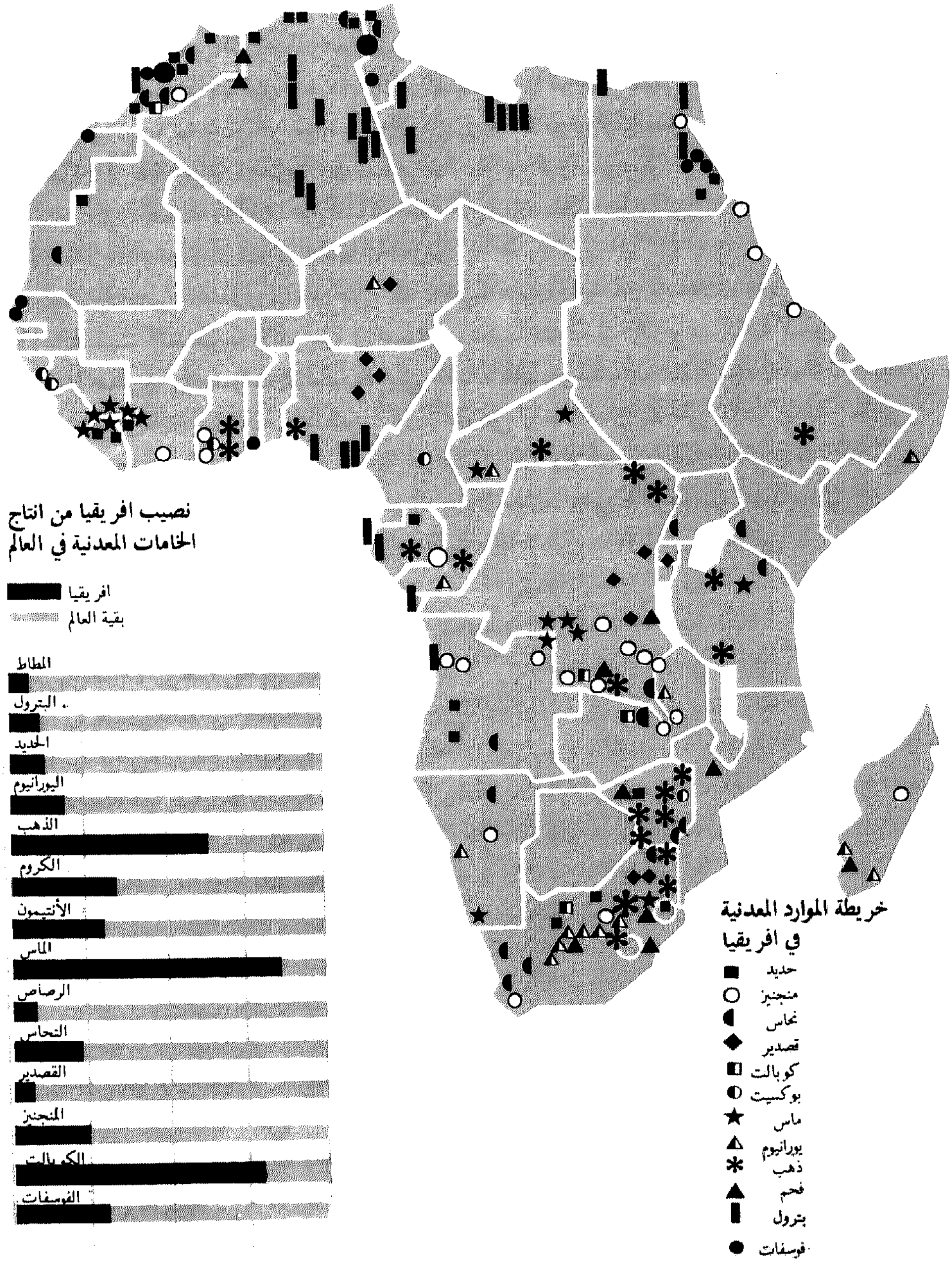
الخلاصة

ان الجغرافيا التاريخية الافريقية، و بخاصة منها ما له علاقة بالمظاهر الاقتصادية، تمدنا بصورة قارة كانت الطبيعة معها في غاية اللطف. وعلى الأقل في المستوى السطحي، فان هذا الطابع الظاهر للحلم الطبيعي التي توضحه الغزارة الواهية للغاية المدارية، كون ضربا من الفخ لشعوب هذه القارة. وهذه المجموعات البشرية وقد توقفت عند سهولات للعيش كبيرة، مرت بجوار ظروف ممزقة للتطور الاجتماعي. ولا شك أن بعض الرجال أو بعض المجموعات من الناس ظهرت هنا أو هناك وحاولت أن تستقطب أتباعها وأن تسير بهم الى الامام. ولكن عنفهم بقي أثرا على ورق. ومما لا شك فيه و بصفة مبدأية، فان التدخل الأجنبي، خلال مغامرة النخاسة الطويلة القاسية، قد طبع تطور القارة العام بميسم الشؤم. ولكن لئن كان هذا التدخل حادثا، ألم يكن ذلك ليذكر بعنف ما يمكن

أن يجابهه من مخاطر كل أخطار جمع بشري يتأخر عن أن يدعوا دون تلكؤ دائما الى انشاء منظمات اجتماعية أشد تماسكا، وأقوى امتدادا، وأكثر تشعبا، وأقوى مواجهة للتحديات المحتملة؟.

ولن يأتينا تاريخ افريقيا بشيء، ان لم يبرز هذا الأمر ابرازا واضحا. وتكشف لنا الجغرافيا المعاصرة لافريقيا عن قارة حازت منذ ما قبل التاريخ على ثروات طبيعية غزيرة ــ على أن الماضي الاستعماري الحديث قد أعان على انشاء وضع مكّن من استغلال هذه الثروات على نطاق واسع في شكل مواد خام، صدّرت لصالح مجتمعات أخرى.

ثم ان الاقتصاد العصري، الذي يملك كفاءة تقنية عالية، لا يسمح باستغلال هذه الثروات، الا اذا انتظمت الشعوب الافريقية في مجموعات عظيمة مندمجة لتكون قواعد كافية للنمو الحقيقي. وتاريخ عشرية من سنوات الاستقلال ليبقى انطباعا غائما، و يبدو أن حتمية بناء مجموعات كهذه تقابل مجموعات مشابهة، تتكون أكثر فأكثر على أرضنا، مازالت حتى الآن، بعيدة جدا عن الادراك... وان كان لهذه اللمحة من الجغرافيا التاريخية والاقتصادية للقارة الافريقية، أن تؤتي أكلها، فلتذكر أن الطبيعة لا تعين مصير شعب ولا مساره، وهي لا ترغم على أمر ما، وفي أحسن الأحوال هي تؤثر وتغري. والشعوب كالأفراد كانت دائما وستبقى بناءة لمصيرها الذاتي.



● الموارد المعدنية في أفريقيا ــ خريطة مأخوذة من كتاب «أفريقيا» (بالفرنسية) ــ مجموعة دار «هاتييه» للنشر، ١٩٧٦.
قبعة ٢

الفصل الخامس عشر

مناهج تداخل العلوم المعتمدة في هذا الكتاب

بقلم ج. كي. ز يربو

منهج تداخل العلوم

ان اعتماد منهج تداخل العلوم في ميدان البحث التاريخي يعتبر موضوعا موافقا لذوق العصر. الا أن تطبيقه أصبح عسيرا سواء لتباين الطرق المنهجية التي تختص بها العلوم المعنية بالأمر، أو لأثر العادات الخصوصية التي انغلق فيها الباحثون، غيرة منهم على نوع من السيادة الترابية العلمية. وقد كان لذلك أثر على عرض نتائج البحث الذي ما انفك يميّز في حياة شعب من الشعوب، الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها وذلك من خلال قطاعات مفصولة عن بعضها، فإن بدا لباحث أن ينهج منهج تداخل العلوم، فان ذلك غالبا ما يتخذ أسلوب الاستيعاب والشمول. ان التاريخ يحتل في حرب التصدّر والهيمنة هذه، مرتبة غير واضحة: فهو طبعا ضروري لجميع العلوم، الا أنه لمّا قصر عن الاشتمال على مصطلح خاص شبه سرّي كثيرا ما يتحصن به الاختصاصيون في العلوم الأخرى، فإنه يبدو وكأنه ملتقى الطرق، ولهذا يُخشى عليه أن يفقد شرعيته بسبب وجوده في كل مكان.

فالتاريخ باعتباره مادة رئيسية، كان يعتمد تقليديا على عنصر أساسي، وهو الوثيقة المكتوبة. الا أن تاريخ القارة الافريقية ولا سيما ما وجد منها جنوب الصحراء، يتميز بقلة نسبية من حيث المصادر المدونة خاصة قبل القرن السادس عشر الميلادي. والأمر أسوء بالنسبة لما قبل القرن

السابع الميلادي. واعتبارا لذلك فان المثل الافريقي يقول: «ترضع الجدّة عندما تفقد الأم» (١) فوجب عند فقد المصادر المدونة، أن يستجمع تاريخ القارة الافريقية كل المصادر المتوفرة من أجل استعادة أسس الماضي. ويمكن أن يتحوّل النقص الى عنصر ايجابي، وذلك بالتخلص من الأثر السلبي للنص المكتوب، الذي يتسبب أحيانا في تهاون ضمني بالمصادر الأخرى. ومن جهة أخرى، لقد عانى البحث في التاريخ وفي العلوم الانسانية بافريقيا متاعب كثيرة من داءين متناقضين: أولهما التحريف التأريخي الذي يؤدي الى اعتبار مجرى الأحداث في النظام الاجتماعي كأنه سبحة تشكّل حبّاتها الأحداث المسجلة في التاريخ. ولذلك أصبح الشغل الشاغل هو إعادة عناصر التوقيت التي تساعد على توضيح تطور الشعوب، مع اهمال كل ما تبقّى (الاقتصاد والبنيات الاجتماعية والثقافات).

ومن هنا نشأ ذلك التأريخ التسلسلي الذي يعتمد الانساب والأحداث والذي جاء هزيلا لأنه متجرد من كل لحمة تربطه بالحياة. و يوجد انحراف أسوأ، يبدو أنه نشأ جزئيا عن الحكم المسبق بالبدائية على الواقع الافريقي، وقد أطلقته نظرية التطور السطحية. فهو يحلل بنيات خارجة عن الزمن، مهدما العمق التاريخي الذي لا يمكن دونه أن يكون لتلك البنيات معنى موضوعي أو شعوري.

وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الباحثين المعجبين بكمال العلوم التي ينتسبون اليها. ومنهم اللغويون الذين يرفضون كل ما هو من قبيل التداخل الثقافي، وعلماء الأجناس الوظائفيون الذين ينكرون كل بعد تاريخي. ولكن هذه الأسوار المنيعة بين المواد العلمية أخذت لحسن الحظ تنهار تدريجيا. وفي هذا المجال يقول ج. دسمند كلارك (لقد ثبت أن علماء الاثار واللغويين وعلماء الانسان الثقافي وعلماء الأجناس، يواجهون في أغلب الأحيان نفس المشاكل، وان أحسن طريقة لحلها تكون في العمل ضمن مجموعة العلوم المتداخلة. وهذا عامل من أكثر العوامل تشجيعا على الدراسات الافريقية اليوم وحثا عليها..) (٢).

ان شبه التاريخ المطبوع بالاعجاب بالترتيب التاريخي فحسب، وبسراب التحليل البنيوي السكوني والشكلي المحض، يضمحل شيئا فشيئا، مثلما تشهد بذلك المدارس التي تدرج التطور الزمني والتفاعل في منهج تحليلها، وذلك بادماج الظاهرة الثقافية والظاهرة اللغوية معا، مثلما فعل كالامي وغريول وهويس، أو بالتخلي عن طريقة الاجتماعيين الجامدة مثلما فعل بلندية، واعتماد طريقة دينامية تتخذ الحركة والمقابلة وسيلتين للتحليل. أليس التناقض جزءا لا يتجزأ من الواقع؟ فالمؤكد هو أنه ليس من مصلحة أي علم كان أن يعالج وحده العالم الافريقي الذي هو على غاية من الكثافة والتعقد. فكأننا نبغي حل المشكلة بضربة حاسمة. وذلك شأن البحاثين الذين يظنون بأنه يمكن العثور في عنصر واحد، على التفسير الأساسي الخاص بهذا أو ذاك من المجتمعات الافريقية، مثلا باعتماد التحليل البنيوي للرقابة، أو نظام التصورات والمعتقدات والأساطير والرموز التي تعتبر

---

(١) قد يبدو أن الرضاع عملية قائمة على رد فعل. الا أن النظام الافريقي للأدوية كان يشتمل على وسائل لتنشيطه.

(٢) جاك دسمند كلارك: ما قبل تاريخ أفريقيا: إمكانيات التعاون بين علماء الآثار وعلماء الأجناس وعلماء اللغة، صدر بمجلة اللغة والتاريخ بافريقيا — فرنك كاس، ١٩٧٠.

متميزة باستقلال ذاتي أو بمنطق خاص، فتكون مستقلة مثلا عن علاقات الانتاج (٣). وفيما يخص القرابة، فان تحليلها مرتبط في افريقيا بنظم أقل «صفاء»، وأكثر تعقيدا مما هي عليه باستراليا مثلا. وتلك بنيات يعتبر ليفي ستراوس انها خاضعة لعناصر أخرى (اقتصادية وسياسية)، تختلف عن القانون الوحيد الخاص بقواعد القرابة.

ان التاريخ الافريقي أقل العلوم احتمالا للحصار المضروب عليه، و يصدق ذلك حتى على وضع يعتبر فعلا من خصائص التاريخ، وهو الترتيب الزمني، ففي كثير من الأحيان لا يمكن أن نثبت بالدليل القاطع حل مشكل من مشاكل الترتيب الزمني، الا بالاعتماد على أربعة مصادر مختلفة: الوثائق المكتوبة، وعلم الآثار، واللسانيات، والتقاليد السماعية. فالمؤرخ الذي يلتفت الى الماضي يشبه سائق السيارة الذي توفرت له، لتقدير المسافات، آلات متعددة: عدّاد سيارته، وساعته، والعلامات الكيلومترية، وربما أيضا أقوال أحد من أهالي المنطقة. إن هذا التآزر الضروري يعتبر فعلا عنصرا ايجابيا يضمن استعادة صورة الماضي في وضوحها وكمالها، في حين أن مصدرا واحدا قاصر عن استعادتها مكتملة. إن وصف كومبي في كتاب المسالك للبكري يمكن أن يظل ناقصا لو لم يستخرج الأثريون الأطلال ولم يفسروها تفسيرا أبلغ مما قاله عنها البكري. ولنضف هنا أيضا أن التقاليد السماعية لم تكن مفقودة، بل كانت السبب في اكتشاف موقع كومبي صالح، وفي هذه الأحوال، هل يمكن لنا أن نقول بالمصادر الجيدة أو بالمصادر الرديئة، عندما نصنفها حسب سلم تمايزي تحتل فيه الوثائق المكتوبة القمة وتنزّل التقاليد السماعية المنزلة الدنيا؟ ذلك ما يمكن تصوره. ان قيمة مصدر من المصادر لا تشكل واقعا في حد ذاتها، فهي مرتبطة بالموضوع الخاص المستهدف بالبحث. ففي كل حالة يوجد ضمن مجموعة الروايات المتوفرة لدينا، مصدر محوري ومرجع أساسي يمكن أن يختلف بحسب الموضوع. ان الوثائق المكتوبة لا تعتبر المصدر المثالي بالنسبة لما قبل تاريخ افريقيا، أو بالنسبة للمجتمعات (القزمية) لأن تلك الوثائق مفقودة. ان مجموعة الأدلة التاريخية تخضع، حسب الأزمنة وحسب المناطق الأفريقية، لهذا المصدر المحوري أو لذاك، وتؤدي المصادر الأخرى وظيفة تكميلية أو ثانوية. فالمصدر الأساسي قد لا يكون واحدا اذا تعلق الأمر مثلا بجماعة مجهولة من قبائل الجيتول، او بمملكة يوغرطا أو الكيردي بشمال الكمرون أو قبائل الأشني في بلاد غانا أو قبائل الكابني بشمال الطوكو، أو امبراطورية كاوو التي سجّل أحداثها تاريخ الفلانيين فلا يمكن استعمال نفس المصدر من مصادر التاريخ ولا يمكن ان يعتبر اي مصدر أساسيا الا بعد الانتهاء من التحقيق، لأن المصدر هو الذي يكيّف النتيجة، ولكن النتيجة هي التي تبرز المصدر. فان كان ذلك صحيحا، يمكن حينئذ أن نقول دون خطأ، بأن منهج تداخل العلوم، في مستوى المادة التاريخية الافريقية، ليس من باب الترف، بل يعتبر مقدّمة من مقدّمات المنهج الأساسية. ولذلك لا يوجد بديل لمنهج تداخل العلوم.

(٣) انظر: غريول، وم. ديترلنغ.

تكامل المصادر

ان مصادر التاريخ الافريقي — لا شك في ذلك — متكاملة الى حد أن كل واحد منها عندما يقتصر عليه، يظهر مشوها و يعكس صورة باهتة لا يمكن توضيحها الا اذا اعتمد على مصادر أخرى.

ان علم الآثار لا يعدو في حد ذاته أن يكون وصفا جافا، ومعاينة قد تبعث على الأسف، خاصة اذا اعتمد على أسلوب مرتجل، انطلاقا من بعض العينات، ويمكن أن يتباطأ الاكتشاف تباطؤا مزعجا اذا ما اضطر الباحث لانتظار حفريات أخرى لتأييد أو تفنيد الافتراضات المقدمة.

على أن علم الآثار يمكن أن يقدم خدمات جليلة للعلوم الأخرى التي تعامله بالمثل اذا ما وضع في اطار الحياة المتعددة الأشكال التي يريد الكشف عنها. ان تفسير ما يعثر عليه من اكتشافات يوجد في غالب الأحيان خارج ميدان علم الآثار نفسه. ففي الزمبابوي مثلا نجد في مناجم الذهب، والدفاع عنها الاعتقادات الدينية، نجد التفسير الصحيح لأغلب البنيات التحتية والبنيات الفوقية. وفي مكان آخر لا يمكن تفسير محتوى القبور ووضعية الموتى في أضرحتهم الا بالاعتماد على معتقدات الناس وتصوراتهم للآخرة. وعلى العكس، اذا كشفت الحفريات بشمال غانا عن تصميم معماري مشابه للتصميمات المعمارية الموجودة بالسودان الساحلي، فذلك يعني أن علم الآثار يضع أو يحل مشكلا مهما من مشاكل التأثير الثقافي.

وكذلك الأمر بالنسبة للفن الافريقي الذي يجب أن يسلط عليه ضوء التاريخ ليسلط عليه ضوءه بدوره. فالفن ولا سيما فن ما قبل التاريخ خاضع لعناصر متعددة، انطلاقا من الجيولوجيا، الى الديانات، والأساطير وخلق الكون، مرورا بالبنيات الاجتماعية — السياسية و بتمسك الملوك بالسلطة. وفي هذه الأحوال فان الجمال يخضع خضوعا مباشرا للاخلاق ويخدمها في نفس الوقت. أما الفن، فهو مكان تحفظ فيه تحف الانتروبولوجيا الثقافية، وحتى الطبيعة، نظرا لما يتوفر فيه من الطقوس والتشريطات وتسريحات الشعر، والملابس والمناظر.

لكن فهم الفن نفسه كوسيلة تقنية ملهمة، لا يمكن أن يتحقق خارج التاريخ. فيمكن مثلا أن نفسر الأسلوبية بالاعتماد على التنظيم الاجتماعي. ففي بلاد بينان يتولى الفنانون أنفسهم (إيكبي مابتوا) النقش على الخشب والعاج، و يعمل آخرون على الفخار والبرونز. ومن الواضح أن استعمال مادة دون أخرى يفسر على العموم صفات الأواني من العاج أو البرونز. ولا يمكن أن نفسر الرسم الداخلي والصور الخارجية لأواني الفخار طيلة ما قبل التاريخ الا باعتبار كونها قد اخترعت انطلاقا من سلات التبن المفتول، وما عسانا أن نقول في شأن الأقنعة التي استوحاها الأفارقة عند صنعها من خيالهم الفياض، مثال ذلك أقنعة بوبو، لاسيا الثلاثة الرئيسية منها: كيلي (القناع العتيق) وكيمي (رأسه رأس الطائر الملك الحزين)، وتيبيلي الذي له جمجمة الجاموس. إنها تعبر عن شخصيات حقيقية معروفة بالقرية، فهي من شواهد التاريخ، بل تساهم مساهمة فعالة في صنعه (٤).

---

(٤) (ان قناع هتاف الغيب الأكبر أو «روح الاله» هو الكوجي الذي يحميه كاهن أكبريسمى كونولا، و يلعب هذا القناع دورا هاما في النظام السياسي لتلك المجتمعات. انه امتداد عملي لعبادة الأجداد، و يقوم بوظيفته ليلا في السرية الكاملة. ففي حلقات البورو، يؤتى بالقناع الأكبر مسبقا الى الغابة المقدسة، يغطيه غطاء أبيض. و يقوم الكونولا بدور الرئيس والكاهن، فينطق بالحقيقة التي يوحي بها الأجداد. و يعتبر الكوجي أيضا مشرّعا لأن قراراته تعلن على الملأ في القرية ولها قوة القانون). أنظر: م. هويس، في: «دراسات غينية» ١٩٥١، ج. ف، ك. و. هارلي ١٩٥٠.

وما عسانا أن نقول في شأن «الكوري» التي أشار ابن بطوطة الى وجودها منذ سنة ١٣٥٢م ببلاط بلاد مالي، وكانت الغاية الأولى منها نقدية، الا أنها كانت تستعمل للزينة عندما ترتب في صفوف ترتيبا فنيا. ولقد كانت لها قيمة خاصة في الالتزامات الاجتماعية والاحتفالات الدينية. فالفن منغمس هنا في نظام معقد يزوده بالمعلومات التي تبث فيه الحياة. ان الشروع في وضع تاريخ بعض المجتمعات الافريقية دون فهم المغزي من «الكوري» والأقنعة يعني أننا ندخل قاعة وثائق ونحن نجهل كل شيء عنها، وبذلك يكون فهمنا لحركة التطور ناقصا.

ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة للتقاليد السماعية (*) التي وقع الاعتناء بها اعتناء كبيرا في غير هذا المقال. فالتقاليد السماعية، هي التاريخ الحي، الذي ترويه الذاكرة الجماعية مع كل ما يطرأ على ذلك من اتفاق ومن سذاجة، وكل ما فيه من طرافة وعذوبة. يوجد في التقاليد ما يوجد في لسان ايزوب من خير ومن شر. ولا شك أن التقاليد السماعية قد لا تهتم بالعناصر الاقتصادية والبنيوية. ولكنها تصلح في حالها تلك لاكتشاف مصادر أخرى أكثر تعبيرا من المخطوطات والمواقع الأثرية. ويستحسن أن يشرع البحاثون قبل القيام بعملية حفرية في استقراء التقاليد المحلية، لأنها تساعد أيضا على تصحيح الأخطاء في التأويل الناتجة عن نظرة خارجية بحتة. هي تسمح فضلا عن ذلك بحصر عدد الفرضيات، وتحدد نطاق الاختيارات (٥). فان تعددت الروايات يعتمد مصدر آخر يسمح بحسم المشكلة، وذلك مثلا بمراجعة خريطة المناطق التي وقعت فيها الحادثة المتناقلة بالرواية. ان الطبول التي لها صلة وثيقة بالتقاليد، تعتبر من أمهات الكتب الحية، فبعض الطبول تقوم بدور البشير والنذير، والبعض الآخر يبلغ الأخبار والبعض الآخر يؤدي صراخات الحرب التي تبعث الحماس، ومنها ما يقوم مقام المؤرخين الذين يروون مراحل الحياة الجماعية. ان لغتها هي قبل كل شيء رسالة تحمل في طياتها التاريخ. وبخصوص هذا الموضوع، أمكن التمييز بين علم موسيقى الأجناس الداخلي أو الفني وعلم موسيقى الأجناس الخارجي، أي المتصل بالنسيج الاجتماعي والثقافي (٦).

وكثيرا ما تبتغى بالملاحم أو الوقائع الكبرى جماعات منظمة لهذا الغرض وبشكل خاص في افريقيا، وذلك في أداء يشترك فيه الجميع مشاركة حية، ان الموسيقى لا تسمع أبدا سماعا سلبيا لأن الجماعة كلها تؤثر فيها. فهي حفلة جماعية يدعون فيها الثلاثي المتكون من الغناء والرقص والموسيقى الى التأويل التركيبي، اعتمادا على اللسانيات، والتاريخ، وعلم النبات، وعلم النفس

(*) تستعمل في هذا الكتاب أيضا عبارة الشفاهي لترجمة (ORALE) وهي ترجمة صحيحة ولم أغيرها بمراجعتي لهذا الجزء وأرى أن التعبير سماعية أحسن (تعليق المراجع محمد الفاسي).

(٥) لا بد أن تنزل التقاليد منزلتها. فلقد حدد بعض الباحثين في ٧ جداول. اعتمادا على لوحة منهجية مفيدة للحكايات والسير المعطيات الداخلية للحكاية (لا سيا الدلالية والبلاغية منها) ومعطياتها الخارجية التي يرتبط بعضها بالسياق الثقافي والحضاري. أما البعض الآخر فهو يوجد خارج هذا السياق. انظر: الآداب السماعية العربية والبربرية، النشرة الرابعة للاتصالات ١٩٧٠، مركز الدراسات المغربية. متحف الانسان باريس.

(٦) ان الباحث الذي يسلك هذا المنهج، يستطيع أن يصل الى ميادين عديدة أكثر اختصاصا: من ذلك علاقات الموسيقى باللغة، والرموز الاجتماعية والفلسفة التى لها صلة بالموسيقى، وعلاقة الايقاعات بظاهر المس الجنوني، وعلاقات الموسيقى بالمحيط الاقتصادي والمناخي والعلاقات بين أنواع الموسيقى من مختلف الأجناس: انظر: سيمها آروم رنيس كونستانت، في كتاب «دليل البحوث — أفريقيا السوداء»، د. مارتن وت. يانو بولوس. الناشر: آرمان كولان، باريس، ١٩٧٣.

الاجتماعي، وعلم النفس ألعام، (والفيز يولوجيا) والتحليل النفسي، والدين الخ. ودون أن نعقد الآمال العريضة على علم الموسيقى التاريخية، فان الدراسة المقارنة لآلات الموسيقى ومادتها باعتماد قياسات رياضية يعالجها التحليل الاحصائي، تستطيع أن تفيدنا بنتائج مقنعة فيا يتعلق بنشر الثقافة وتطويرها. إن عالم النغم الافريقي يتقلّص أمام غزو موسيقي كثيرا ما تكون أقل منه ثراء، تروّجها نظم اقتصادية أكثر منه غنى. فهل سيصبح طبل الطام طام الذي صنع التاريخ في حد ذاته موضوعا من مواضيع التاريخ؟.

أما اللسانيات، فانها قد أصبحت رفيقا جديدا أمينا وثريا يلازم التاريخ، لأن التقاليد محفوظة في الأجناس وفي المتحف الحي للغات التي يجب أن نحصل عليها لنستخرج منها «اللب المغذي». فكل لغة ابتداع فكري، وهي كذلك ظاهرة اجتماعية. ان مفرداتها تعكس مثلا وجوها من الواقع قد صهرها تاريخ كل شعب. وبالمقابل فان اللغة والكلمة، يدرجان في عقليات الشعوب وحوافزها نظاما من التصورات والمعايير التي تهذّب سلوكها. ويعسر أن نعبر تعبيرا متشابها عن بعض تلك التصورات بلغة لها صلة بسياق اجمالي مغاير، ومن الأمثلة على ذلك فكرة (سانا كوبا) في لغة الماندي، وفكرة (راكيري) في لغة الموري، فيمكن ترجمتها بـ «قرابة فكاهية». وهو معنى له دور تاريخي على غاية من الأهمية في المنطقة السودانية الساحلية. وذلك أيضا شأن كلمة (دياتيكي) بالماندي التي لا تعبر فقط عن مجرد معنى (المؤجّر للسكن). أما كلمة (تنكصوبا) فانها تعبر حرفيا فقط عن معنى «رئيس الأرض». ان المؤرخ محتاج دوما الى النقد اللغوي والى مساعدة مصادر أخرى. وهكذا فان الترتيب التاريخي والبحث عن أصل الآثار الدائرية الشكل ببلاد لوبي ناشئان عن توافق أدلة تتنافى وتتآزر: فهي تدحض الفرضية التي تعود بها الى أصل برتغالي والتي تعتمد نصّا لباروس وهذا يخالفه تخطيط الطريق الذي له دخل في الموضوع، كما تخالفه معاينة غلاف التلبيس الذي لا تسمح لنا حداثته بأن نعود به الى تاريخ قديم، ويمكن ان نعتمد تسمية (ويلي وبيريفور) لتلك الآثار (كول ناوو) أي (مرابط بقر الأجانب). ويمكن التعرف على هوية هؤلاء الأجانب في شخص قبائل (كولانكو) اذ أخذنا بعين الاعتبار أسلوب آنية الفخار الموجودة بالآثار، كما لنا أن نقومها باعتبار الترتيب التاريخي الذي نصله بتقاليد هجرة شعوب المنطقة. وهنا نلمس الدور الأساسي الذي تلعبه اللسانيات في محاولة تأويل حدث تاريخي معين (٧).

ولا يجوز ــ لكي لا نقع في خطأ فاحش ــ أن نخلط بين الظاهرة اللغوية وهي ظاهرة ثقافية، وبين الظاهرة القبلية، أو المظهر البيولوجي الخاص بالجنس البشري. يبدو أن لغة فرسان داكوميا الذين غزوا وادي الفولطا في القرن الرابع عشر الميلادي قد انقرضت وحلت محلها لغة النساء كوساسي اللواتي تزوجوهن في عين المكان وأصبحن أمهات أبنائهم ــ وهذه عدوى لغوية قد وقعت كما يحدث أحيانا على حساب من كانت بيدهم مقاليد الحكم السياسي. أما تاريخ الأجناس المقصور على الحاضر المحنّط الذي يعتمده الوظائفيون، فانه ليس تاريخيا بأتم معنى الكلمة ولا يمكن له أن يلعب دورا ايجابيا في هذا التفاعل بين المصادر، حيث لا يشكل كل واحد منها عنصرا ستاتيكيا بل عنصرا متحولا يحمله مجرى النظام التاريخي. ان تاريخ الأجناس الوظائفي، كثيرا ما يتهاون

(٧) انظر: ب. برنكو، و. ب. ج. هيبرت، ١٩٦٢.

بالثقافات المادية وبتلك الحركة العامة للمنتجات التي يعتبرها لوروا كورهان أساس الحضارات. أوليس العدد الزوجي في التجارة عبر الصحراء (ملح مقابل ذهب السودان)، الذي عوض بعد عدة قرون بالعدد الزوجي (السجناء مقابل البنادق)، أهم الأسس التي شيدت عليها ممالك الغرب الافريقي وامبراطورياته؟

وفي هذه الأحوال يشكل علم الاجتماع الدينامي مجالا أساسيا يمكن أن يطبق فيه حكم النقد التاريخي الافريقي. ان الأمر لا يتعلق بأن ننقل في المكان أو في الزمان أدوات تحليل لنسيج اجتماعي سياسي معين، بدون دراسة، الى نسيج آخر، لأنه يُخشى أن نعدد المشاكل أكثر مما نحل منها. ففي ما يتعلق بضبط المُعدَّلات لدوام عهد المُلكِ، لا يمكن لنا بالنسبة لفجر التاريخ أن نتصور دون حذر، مدة وسطى تُستنتج من فترة معاصرة معروفة لأن الاستقرار أو عدم الاستقرار السياسي والثقافي غير متشابهين بالضرورة. ولا يمكن في نفس الحالة المتعلقة بالوراثة الجانبية (أخ عن أخ) المستحبة في مملكة موسي من ياتنكا أن تفيدنا بمعدلات تشابه معدلات مملكة واجادوجو حيث أن الوراثة المستحسنة تجري مباشرة (ابن عن اب). ان المدة الوسطى لعهد الملك في واجادوجو تدوم أكثر و يكون فيها عدد الأجيال أوفر. و يضاف الى ذلك إمكانية الأخذ بالاعتبار العناصر الدينية في الموضوع. و يكون معدل مدة عهد الملك أكثر طولا اذا اعتبرنا سلالات ملوك كان (كان ماسا) الذين كانوا ينتخبون من بين الرجال الراشدين والأصغر سنا، وهذا يعني انه لا يمكن تحديد الخط الأفقي الزمني بمعزل عن معرفة علم الاجتماع السياسي الخاص بقطر معين. ان مفهوم الاستقرار ليس نموذجا جاهزا يطبق دون تحوير على جميع الفترات وجميع الاقطار. فمن الممكن أن يكون الاستقرار ظاهرا وأن يقدر بثمن اجتماعي ثقيل جدا. في أثيوبيا وكذلك واجادوجو، كان يضمن استقرارا نسبيا بالقضاء على المترشحين الخائبين والورثة الجانبيين أو نفيهم، مما يتسبب في دفع ثمن باهظ من الضحايا البشرية التي يجب على التاريخ أن ينظر اليها بأنها من عوامل عدم الاستقرار حتى يوفر تفسيرا مفيدا لتطور تلك الاقطار.

ويمكن أن نعوّل أيضا على العلوم الطبيعية والدقيقة من أجل الإحاطة بصورة الماضي الافريقي أو تدقيقها، وذلك بالعقل الالكتروني لمعالجة معطيات مرقّمة، وبالطرق التقنية، والفيزيائية والكيمياوية والبيوكيمياوية لوضع التواريخ، وبتحليل المعادن، والنباتات والمواد الغذائية، والماشية والدواب، وبعلم الأوبئة والكوارث المادية المتصلة بالمناخ الطبيعي. وليس غريبا أن يعنى عناية كبرى في التقاليد الافريقية بالمجاعات التي يؤرّخ بها، مثلها في ذلك مثل الحروب. ولا شك أن دور العنف بافريقيا كان يشابه، في تطور القارة، دوره في تاريخ قارات أخرى. الا أن المستوى التكنولوجي الضعيف قد قلل من حدّة وقعه المطلق، وان كان وقعه النسبي قد تضخم، إذ أن تقدّم شعب على آخر بعض الشيء في هذا الميدان كان يكتسي معنى كبيرا. ألم يكن اختلاف الأسلحة حاسما في بسط هيمنة الأشوريين على مصر، وملوك غانا الأولين وتشاكا الزولو؟ من واجب علم الإحصاء أن يقدم مساهمة مهمة مدعمة بالأرقام، ومن دونها تأتي وجوه الواقع مشوّهة حتى في مستوى الكيف، لأننا نستطيع أن نقول، انطلاقا من مستوى معين بحصول وثبة كيفية فيما يتعلق بطبيعة الظواهر، اذ لا يمكن أن تتشابه طبيعة بنيتين لشعبين أولهما يشمل ١٠٠٠٠ نسمة والآخر ١٠٠٠٠٠٠٠. ان الخطأ التاريخي عندما نتحدث عن الغزوات، والأسلحة الافريقية في القرن

الرابع عشر الميلادي، يكمن في تصور تلك التحركات حسب منظار القرن العشرين. لذلك فان المرجع الاحصائي يساعد، ولو باعتبار تقديراته التقريبية، على وضع الأشياء في نطاق سلّم من الحجم الطبيعي يكون أقرب الى مجرى الحوادث الواقعي.

لا يستطيع علم الحرب الافريقي أن يساهم مساهمة مفيدة في تاريخ افريقيا اذا لم يربط بالدين الذي له به صلة وثيقة، لأن فن الحرب كان جزئيا مجابهة سحرية. فيكفي أن ننظر الى لباس البوري نديا الحربي الموشّى بالحروز لنقتنع بهذا الأمر. ولقد استمرت هذه التقاليد جارية حتى عند الجنود الأفريقيين من صنف المشاة أثناء الحربين العالميتين.

أما الانتروبولوجيا الطبيعية، فيمكن من جهتها آن تسهم في وضع تاريخ صحيح. ان الأساطير العنصرية، من أمثال النظرّية الحامية المعتمدة على مظاهر واهية، قد غفّلت هذا الميدان من البحث. ولا يمكن أن يطهّر فعلا إلا بالاعتماد على منهج تداخل العلوم الذي تشترك فيه أدلة متنوعة تقود الى الحقيقة. فيمكن للرسوم الجدارية فيما قبل التاريخ أن تنير طريقنا الى بعض الاكتشافات، شريطة الا يخلط بين نمط المعيشة مثلما يظهر على سطح صخرة، وبين الجنس، لكن لا ننسى أن تشويه الهيكل العظمي، وتطويل الجمجمة اللذين كانا جاريين عند المانكبيتو، متصلان بنمط المعيشة والثقافة. فاذا استطاع التحليل المصلي ان يساعد على رفع الالتباسات، فانه من جهة أخرى قد أفادنا أن الفئات الدموية قابلة للتكيف مع البيئة وذلك ما يبينه أثر العامل البيولوجي الحاسم على الجنس البشري الذي لا يمكن إدراكه على حقيقته ـــ مثله في ذلك مثل جميع الأشياء المتصلة بالتاريخ ـــ الا بعد وضعه في مكانه بين الطبيعة والثقافة، مرورا بعلم الأحياء. وقد كان للطبيعة الافريقية وقع شديد على التاريخ ولهذا وجب ـــ دون أن نقع في حتمية ميكانيكية ـــ ألا ننسى الأحوال الجغرافية أبدا (٨).

فلا يمكن أن ندرك خاصية الثقافات وتطور ما قبل التاريخ بافريقيا الوسطى الا بالتفكير في وجود الغاب الكثيف الذي يذكّرنا بأثر المكان في الزمان (٩). فكيف يمكن لنا أن نتحدث عن سكان نهر النيل الأولين دون أن نعتمد على شكالة الأرض (الجيومورفولوجيا) وعلم المناخ الأحاثي (بليوكليماتولوجيا) (١٠).

وكيف ذلك؟

وهكذا فان تداخلات العلوم وتفاعلاتها التي يحتاج اليها من يؤرخ لافريقيا، كثيرة. لكن كيف يمكن أن نعد لهذه المعركة التي تشارك فيها علوم متباينة تريد كلها أن تكشف عن وجه افريقيا القديمة.

(٨) «الطبيعة تجود والانسان يقرر» ذلك ما كتبه فيدال دي لا بلاش أو كما يقترح ب. تيلاردي شردان الذي يقول «أليس التاريخ عندما ينظر اليه من على، أكثر فصول التاريخ الطبيعي حداثة».

(٩) انظر: هـ. لوفبر ١٩٧٤. وهو كتاب رصين يعالج فيه المؤلف نظرية موحدة للمكان. (الفيزيائي والعقلي والاجتماعي).

(١٠) إن إعادة أساس الحمية التي توفر بعض المعطيات عن الديمغرافيا وعن مدة الاستيطان بموقع من المواقع، يمكن أن تستخرج من اختبارات كيميائية تجرى على الكلسيوم، والفوسفاط، واللقاح والبروتينات. ويسعى علماء اللقاح لتكوين مصرف للقاحات الافريقية.

يمكن لنا أن نتصور نوعا من التعاون البسيط المقتصر على ضبط بعض الأهداف المشتركة، تاركين لكل واحد السير حسب مشكليّة علمه الخاص، أملا في الالتقاء عند خط الوصول لمقارنة النتائج. و يبدو ان هذه الاستراتيجية غير مرضية لأنها لا تقتضي على جميع العراقيل الخاصة بكل علم، بدون أن نستفيد من فضائل كل منها، وكان من الممكن أن نستفيد فائدة كبرى من تعاونها الوثيق في الأساليب. وعلينا أن نفضل على تداخل العلوم التصاقا، تداخلها تطعيما للطرق والعلوم. ويجب أن نتخذ قرارا مشتركا يضع استراتيجية عامة للبحث ومراحله التكتيكية. و ينبغي بعد الاتفاق على التساؤلات الأساسية في تعقدها الأصلي، أن نوزعها على فئات، بحسب ما يلزم من تدخل هذا العلم أو ذاك. ويجب أن توضّح بعض الأمور أو أن تجمع بعض الآراء، في آجال تحدد و بطلب من الدوائر المعنية بالبحث، فتكون أنواع من الندوات التي تطرح المشاكل في صور جديدة حسب ما يقتضيه تقدم الطريقة المشتركة. وتوضع عند الاقتضاء برامج طارئة وتضاعف الجهود عندما تظهر عقد أو عراقيل في المسيرة. ان هذا التعاون الدائم، أو هذا البحث عن التعاون يستوجب مديرا يدير مجموع العمل أو البرنامج. ولكن يمكن أن يعيّن مسبقا رؤساء مختلفون لمختلف فترات البحث، باعتبار أن حالة ما تستدعي رئاسة لغوي، وأن حالة أخرى تستدعي رئاسة اجتماعي الخ. فمثل هذه الاستراتيجية المتداخلة الاختصاصات كفيلة بأن تثري ثراء كبيرا طريقة كل علم وبأن تجعل أثره محمودا على الموضوع المشترك من البحث. فهي تجنبنا من أن نتيه في المزالق، وتفتح مجالات ثرية وتوفر طرقا موجزة سريعة. ان مثل هذا البحث الجماعي الذي يدعو المؤرخين والاختصاصيين في علم الانسان، وفي الفن، وعلماء النبات، الى النزول الى المواقع مع الأثريين، يظهر في مظهر شبكة صيد ضخمة تزيد مادة الواقع التاريخي اتساعا وعمقا. وذلك يفرض أن تتكيف مع هذا النوع من العمل بنيات معاهد الدراسة الافريقية التي يوجد منها عدد كبير. كما يفرض ذلك أن تسود بين البحاثين أنفسهم روح جديدة.

فما هو عندئذ هدف هذا المسعى؟ هو أن يستعيد الأفارقة ماضيهم و يشعروا به، وهذا الماضي لن يكون صورة عن الحياة الغابرة، بل يجب أن نستعيد مشاهده بطريقة الإسقاط، كما كان الأمر في كهف أفلاطون.

والملاحظ أن الحياة أساسا اندماج وتماسك وتلاحم بين قوى مختلفة حول مشروع مشترك. فالموت يفيد التلاشي، والانفصام. والحياة الفردية أو الجماعية ليست وحدية الخط، ولا وحدية البُعد. فهي نسيج كثيف ومتماسك. ويحدث أن يعتمد أحد الكتاب الرواية التاريخية (في ظروف أسهل طبعا) وأن يبلغ الهدف من هذا المشروع الذي قلّ أن حققه المؤرخون، ونعني بذلك إحياء الماضي. ويمكن لأساتذة في التاريخ والاقتصاد، وعلم الاجتماع الخ... أن يجدوا مادة للدرس مشتركة في تلك اللوحات الحية مثل رواية أعناب الغضب لستاينباك والمصير الانساني لمالرو أوتشاكا، لـ. ث. موفولو.

يجب اذن أن نتحاشى الوقوع في أدب الرواية، وأن نهدف الى استعادة الماضي بهذا النوع من الكثافة، لأن الحياة الواقعية أكثر إثارة من الرواية. ان الواقع يتجاوز بكثير الخيال، لأن كل حركة تاريخية تستوحي في نفس الوقت من كل مظاهر الواقع الاجتماعي. والاستعادة التاريخية التي لا تأخذ بعين الاعتبار كل هذه الجوانب، تكون في الواقع استعادة نافية للتاريخ، بل تكون على الأقل

تاريخا آخر، فهي عندئذ نظرة متحيزة لأنها جزئية. ويمكن فعلا أن نركز على نقطة دقيقة من اللوحة التاريخية لنصنع منها مظهرا ضخما، ولكن شريطة أن لا ننسى أنه جزء من اللوحة التي لا يمكن دونها أن يدرك إدراكا كاملا. وتنطبق هذه الملاحظة أكثر على مجموع اللوحة. ان الأحداث التاريخية الكبرى، مثل التوسع المندي بالغرب الافريقي، ناتجة عن لقاء، وعن توافق بين القوى: أي التكنولوجيا، والجهاز المادي، والتجارة، ومزايا اللغة، وأهمية التنظيم السياسي، وحماس الشعور الديني. إن السعي، حسب العادة، الى تفضيل السبب الرئيسي تفضيلا مجحفا قبل محاولة فهم جميع الأسباب الأخرى في فيضها الحيوي، هو كمن يبني صرحا بخياله، عوضا عن السعي الى استعادة الماضي عقليا. ان هذا الادراك الشامل للتاريخ المتعدد المصادر أكثر وجوبا بالنسبة لمجتمعات فيها الحياة أكثر اندماجا. وأقل انفصالا مما عليه في الأقطار التي أدى فيها الانشقاق الى طبقات متنافرة. ولعله قد وقع التسرع بالنسبة لافريقيا، في تمييز المجتمعات التي لها دول، عن المجتمعات التي خلت منها وذلك بتحديد النوع الثاني باعتبار المعايير الخاصة بتجربة إفريقيا الجماعية (١١). وربما نسي البعض أن انعدام الطرقات المسلوكة، والادارة البيروقراطية، واختيار المسؤولين عن قصد للّامركزية في البلدان الافريقية، بل حتى في امبراطورية مالي، كل ذلك، كان من نتائجه أن الحياة الحقيقية لمعظم السكان كانت تجري خارج نطاق (الدولة)، أي في القرى المتمتعة منذ القديم باستقلالها، اذ لم تكن مرتبطة بالحكم المركزي لا بعلاقة اقطاعية متمثلة في التبعية له، ولا بواقع محسوس متمثل في الطرق المعبّدة والسكك الحديدية، ولا بوجود أوراق الضرائب والقرارات الصادرة عن الوزارات أو الولايات. واذا تجاهلنا هذا، فاننا نكون قد ألزمنا أنفسنا أن ننظر الى تاريخ افريقيا نظرة سطحية، على أساس أنه حلقات من الملوك والأمراء الذين لا نعرف أحيانا من مآثرهم سوى حادثة أو اثنتين، في عهد قد يدوم ١٥ أو ٢٠ سنة، فلا يكون منا بعد ذلك الا ان نعدها حلقات من حياة الشعوب. ان حياة الشعوب الافريقية في أغلبيتها العظمى كانت حياة المجتمعات المتكاملة أو المستقلة بأمورها، فما من شيء الا و يعالج داخلها، ابتداء بصنع الأدوات، الى العوائد الزراعية، مرورا بطقوس الحب والموت. ومن هذه الناحية، فان المجتمع الإفريقي المعتنق للاحيائية ليس أقل تكاملا من المجتمع المعتنق للاسلام، فهذا المجتمع لم يكن لائكيا لعدة اعتبارات: فلو اعتبرناه لائكيا لحذفنا جزءا مهما من الواقع. وبصفة عامة فان المركزية موجودة أيضا في تلك الأقطار. ولكنها ليست مركزية الدولة العصرية (١٢)، التي تكاد تكون هي الثمن أو هي الدواء للتقسيم الجنوني للعمل الاجتماعي، وكثيرا ما كانت مثلا عند السنوفو (بورو) واللوبي (ديورو) والديولا تلعب دورا مركزيا تنتظم حوله الحياة الجماعية كلها. ولذلك شيدت فيدراليات حقيقية في القرى حول معبد أو ديانة مشتركة مثلما هو الشأن في بلاد سامو (فولطا العليا) وفي بلاد ايبو.

والملاحظ أن الأقطار الافريقية التي ظلت فيها القوى المنتجة في مستوى منخفض، تتميز على العكس بنشاط ثقافي يكاد يكون خارقا. فكل لباس تحفة وإن كان الخضوع للطبيعة يكاد يكون

(١١) انظر في هذا الصدد ماكي ج، ج، ١٩٦١. ان المؤلف يستعمل بالتناوب التحليل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي سعيا الى تحديد «مثال» يطبق على مجتمع السوكا.

(١٢) وأكبر دليل على ذلك القصة التي رواها ابن بطوطة عن شعب البوري الذي حاول امبراطور مالي عبثا أن يدمجه، ثم انتهى به الأمر الى الاعتراف باستقلاله الثقافي.

كـليـا. ان أثر الفن واضح في كل آلة وكل آداة. فحتى التشر يطات الجسمية العميقة أو السطحية، تـدخـل على خـاصية عرقية أو تعبر عن غاية جمالية. وهذا شأن نقود الحديد (الكينزي) المستعملة عند قبائل لوما (طوما) والكيسي والكونيانكي، والمندي والكور ينكو في سيراليوني وليبير يا. إن الكنزي كـانـت بـلا شـك تـؤدي وظـائـف كـثـيـرة: الـنـقـود، وحماية المساكن والحقول، وايواء أرواح الموتى والأجـداد. ولا يمـكـن دون خـطـأ أن نحصرها في بعد واحد من أبعادها. ان هذه المجتمعات الكاملة تـسـتـوجب تاريخا شاملا يكون على قدرها. فيكون تداخل العلوم أحسن طر يقة للتعبير عنه. وذلك ما يـدل عـلـيـه مـؤلـف د. طـايـت المـتـخـصـص في عـلـم الانـسـان (الانـترو بـولـوجـي)، وج. فـاج المؤرخ، حـول قـبـائـل كـونـكـومـبـا، والمنهج الـتـركـيبي الـذى اعـتـمـده جـاك بـيـرك لـدراسـة الـتـار يـخ الاجـتـماعي لقر ية مصر ية (١٣)، وفي هذه الأحوال فان المنهج الشامل يفرض طـر يقة تأخذ بعين الاعتبار كل العوامل الخارجية وكذلك العناصر الداخلية وهي تفرض أن تتجاوز الحـدود الافـر يـقـيـة لـتـستوعب الشخصية الافر يقية الاسهامات الأسيو ية والأور بية والأندونوسية والأمـر يـكـية. فلا يمكن أن يكون ذلك في شكل توز يعة سطحية لأنه وان وجد تدخل خارجي، فان الـقـوى الـعـامـلـة في الـداخل تستوعبه وذلك ما يستفاد من حكمة الفلاسفة المدرسين: (ان كل ما يـؤخـذ يـؤخـذ بقدر سعة الظروف وشكله). وهكذا تأقلم الرز الاسيوي في المكان الذي كان يوجد به الأور يـــزا (ORYZA) الافـــر يقي الأهلي وذلـــك شـــأن الـبـــانـــتـــوي حـيـــث كـــان يـوجـد الايـنـيـام (IGNAME). ان الثقافة الافر يقية تبدو كأنها تشكيلية بديعة من العوامل. الا انه لا يمـكـن أن نلخصها في مجموع تلك العوامل العددي لأن تلك العوامل لا تضاف ولا ترتب ترتيب السلع بمـتـجـر. فـالـثـقـافة الإفر يقية هي كل ما يستوعب العناصر المكونة و يعولها. ان المثل الأعلى بالنسبة لـلـتـار يـخ الافـر يقي يـنـحـصر في الاعـتـماد على جميع تلك العناصر ليعبر عن الثقافة نفسها في تطورها الدينامي. وذلك يعني في النهاية أن منهج تداخل العلوم يدعو الى وضع مشروع يشمل جميع العلوم.

---

(١٣) جاك بيرك، ١٩٥٧.

الفصل السادس عشر

الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

القسم الأول

رشدي سعيد

ان هدفنا هو أن نقدم عرضا عاما عن بعض التغيرات-الفيزيائية التي حدثت بالقارة الإفريقية في البليستوسين والهولوسين من العصر القديم أو من العصر الحديث. فلقد طرأت في تلك الحقبة التي تقارب مليوني سنة تحولات كبرى على المناخات والبيئات الأرضية. وأخضعت سلسلة من الحوادث المناخية الرئيسية التي وقعت أربع مرات في ذلك العصر، خطوط العرض الشمالية لتمدد طبقات جمودية وتقلصها (تجمدات جونز ومندل وريس وورم بجبال الألب). وتشكلت أودية وسطوح نهرية، كما تشكلت السواحل الحالية وطرأت على الحيوانات والنباتات تغيرات هامة. وتفرعت أشكال ما قبل الإنسان انطلاقا من جذع المقدمات وذلك في مطلع الهولوسين. وعثر على أقدم الأدوات المشخصة في حدود البليستوسين الأعلى. و يبدو أن تطور الثقافة، ابتداء من ظهور الانسان كحيوان ثديي يستعمل الأدوات، قد تأثر الى حد بعيد بالعوامل البيئوية التي اختصت بها المراحل المتوالية من البليستوسين.

ان الرأي القائل بأن الجموديات كانت في عصور متعددة من البليستوسين أكثر امتدادا مما هي عليه الآن، قد أصبح بأوربا، مفهوما مقررا، وسرعان ما اتضح أن تلك الفترات من تدهور حالة المناخ في أوربا لم تكن ذات طابع محلي. ولقد دلت الأبحاث المنجزة في القارة الإفريقية مثلا، ان هذه القارة خضعت أثناء الهولوسين لتحولات مناخية كبرى. ونحن، وان كنا لم نستطع بعد أن نضبط بطريقة قطعية صلتها بالأحداث التي طرأت بأوروبا وغيرها، فانها مربوطة بها إلى حد بعيد وذلك بصفة لا تزال تستوجب الإستكشاف.

ولقد تحسنت في العقد الأخير من السنين تحسنا مهما امكانيات وضع ترتيب تأريخي

للسينوزو ييك الحديث والبليستوسين، فوفرت التنقيبات في أعماق البحار معلومات مفيدة جدا تهم حوادث رسوبية متمادية نوعا ما تذكر بأحداث القسم الأخير من تاريخ الأرض. ولقد ساهمت الدراسات المتعددة الجوانب والمفصلة لعينات ترابية حصل عليها ضمن هذه البرامج، وكذلك التقدم الحاصل في علم الجغرافية الفيزيائية وخاصة الدراسات الجغرافية المغناطيسية، وتحسّن تقنيات قياس قوّة الأشعة، كل ذلك ساهم مساهمة كبرى في وضع تاريخ دقيق بعض الشيء لتلك الحقبة.
والطريق مازال طويلا في هذا الميدان لأنه لم يتيسر اقرار صلة نهائية بين أحداث مختلف العهود. الا أن الترتيب الزمني لأحدث أقسام تاريخ الأرض، يعتبر من أحسن ما تم إثباته، حتى وإن اختلف الاختصاصيون في شأن تحديد البليستوسين نظرا للالتباس الكبير الناشئ عن تصنيف الأنواع الطبقية، من البليوسين والبليستوسين، وذلك باعتبار القطعة المدروسة اعتمادا على الاعماق البحرية. ونشير فيما يلي الى التصنيف الذي سيعتمد في هذا الفصل. ان الترتيب الزمني الجغرافي المغناطيسي الخاص بالـ ٥٠٠٠٠٠٠ سنة الأخيرة يبين أن الحقل المغناطيسي الأرضي قد كان بالتناوب «عاديا» و«مقلوبا». ولقد وقع انقطاع في تلك العصور المختلفة نتيجة «احداث» طفيفة تميزت بالقلب. والعصور المعنية هي، تنقلا من أحدثها الى أقدمها: برونس (ـــ ٦٩ر٠ مليون سنة) ماتوياما (ـــ ٦٩ر٠ ـــ ٤٣ر٢ مليون سنة) كوس (ـــ ٤٣ر٢ ـــ ٣٢ر٣ مليون سنة) وجلبار (ـــ ٣٢ر٣ ـــ ٤ر٥ مليون سنة). ولقد اختص الفاصل المغناطيسي لجلبار وكوس بتدهور كبير في المناخ، ويمكن ملاحظته في مناطق عديدة من الكرة الأرضية (انظر في هذا الشأن هايس وآل ١٩٦٩). وتوافق هذه الفترة الباردة بداية تجمد نيبراسكا والشاهد على ذلك خليج المكسيك، وكذلك ظهور رواسب جمودية بالمحيط الأطلسي الشمالي وظهور الحيوانات البرية في الفيلافرنشي المتوسط. ان هذا الحدث يدل على بداية البليستوسين، اعتمادا على بعض المؤلفين الذين يعتبرون أن بداية تدهور المناخ هي الحد الفاصل بين البليستوسين والبليوسين. الا أن اعتماد هذا الحد ينافي توصية مؤتمر الجمعية الدولية لبحوث الدهر الرابع المنعقد في ١٩٥٥، لأنه يفيد أن المجموعات الحيوانية الخاصة بالمقطع الكلاسيكي كاستيلار كواترو خارجة عن البليستوسين. ولعله من الأفضل أن نضع الحد ـــ في ١٫٨٥ مليون سنة، ذلك ما يوافق أساس الكلابري والحدث المغناطيسي للأولدواي أي من عصر ماتوياما. ولقد دلت أبحاث حديثة على أن تلك الحقبة كانت حقبة تميل الى الدفء ولم تكن حقبة تبرّد. فتكون التجمّدات الكبرى الأولى من البليستوسين بخطوط العرض المعتدلة قد وقعت حوالي ـ ٥٠٠٠٠٠ خلال فاصل برونس ـ ماتوياما. وهذا التجمد يوافق تجمد جونز الألبي. وعلى هذا الأساس يمكن أن يقسم البليستوسين اجمالا الى قسمين، يكون أحدثهما الحقبة الجمودية و يكن أقدمهما بليستوسينيا ما قبل التجمد. و يرجع تجمد ريس الالبي الى ما بين ـ ١٢٠٠٠٠ وـ ١٣٠٠٠٠ و يبتدئ تجمد وورم في ـ ٨٠٠٠٠. ويمكن أن نعتبر أن هذا التجمد الأخير من أحسن ما ضبط تاريخه ودرسه. ولقد دام حتى الهولوسين الذي حدد بحوالي ـ ١٠٠٠٠.

اننا نسعى في هذا الفصل، كما أشرنا الى ذلك سلفا، الى استعراض أهم التغيرات التي طرأت على القارة الإفريقية تأثرا بالتحولات المناخية في البليستوسين. إن القارة الإفريقية تشمل بيئات عديدة متمايزة قد تأثرت كل واحدة منها حسب طريقة معينة ودرجات مختلفة بالتغيرات الجغرافية المناخية الكبرى في البليستوسين. ولذا سنفحص هذه التحولات باعتماد اطار المناطق المناخية

الأساسية الحالية من القارة الإفريقية التي يمكن تصنيفها الى نوعين: المناطق الاستوائية وفوق الاستوائية والمناطق المدارية، وفوق المدارية.

المناطق الاستوائية وفوق الاستوائية

تشمل المنطقة الاستوائية حاليا حوض الكونغو بغربي افريقيا الذي يختص برياح قليلة التحول، وباختلافات فصلية طفيفة في مستوى الحرارة والرطوبة الجوية، وبالاعاصير أو الزوابع الرعدية المطردة. وتغطي هذه المنطقة حاليا غابات ذات طابع خاص. أما المنطقة فوق الأستوائية فهي تشمل أكبر جزء من وسط افريقيا وهي تختص بوجود كتل هوائية من النوع الاستوائي في الصيف وبكتل هوائية من النوع المداري في الشتاء. وفصل الشتاء غير ممطر، مع زيادة طفيفة في البرد على فصل الصيف. ويشمل الجزء الأكبر من هذه المنطقة جهات تنشأ من رطوبتها الوافرة نباتات السبسب المداري الا أنه يوجد بالحواشي الجنوبية والشمالية حاليا نباتات السهب المدارية.

ان تقلبات الأمطار بتلك المناطق مدة البليستوسين تسمح بأن نقسم ذلك العصر الى سلسلة من الممطاريات والمطاريات البينية. وتعرف الممطاريات باسماء الكاكيري والكاماسي والكنجري والكنبلي التي تعتبر نظريات التجمدات الأربعة الكبرى بنصف كرة الأرض الشمالي. الا أن هذه الصلة تحتاج الى برهان. ولقد اختص الهولوسين بفوق ممطارين، يسميان الماكالي والناكوري.

تتميز الممطاريات بتكدس أكبر للرواسب البحيرية وبارتفاع في الخطوط الساحلية التي بقيت في أحواض متعددة مسدودة بسبب توسيع البحيرات الموجودة. وتتميز المطاريات البينية بتزايد نشاط الرياح. ففي هذه الأثناء تنقلت الرمال الريحية، أو توزعت الى أقصى الجنوب من الحد الشمالي الحالي من التلال المتنقلة، وصاحب ذلك تغيرات عميقة طرأت على النباتات. وتمتاز قمم بركانية عديدة في تلك المناطق بجموديات توجد بمرتفعات هي دون الحد الحالي للثلوج الدائمة، مما يدل على وجود مناخ أكثر بردا في بعض الأوقات في الماضي. وسنقدم في الفقرات التالية أمثلة عن هذه التغيرات التي طرأت بافريقيا الاستوائية وما فوق الاستوائية.

الأحواض البحرية بافريقيا الشرقية

تعتبر افريقيا الشرقية، لا سيا في أحواضها البحرية، منطقة نموذجية للمناطق الممطارية وبين الممطارية المقترحة لوصف تطور افريقيا فوق الاستوائية. توجد بحيرات افريقيا الشرقية في مجموع أغوار الأنهدام الافريقية، وليس للبحريات التي تملأ اعماق القسم الشرقي مخارج باستثناء بحيرة فكتوريا وتوجد في مناخات أكثر جفافا. وخلافا لذلك فان بحيرات القسم الغربي مملوءة الى حدّ الفيضان.

ويبدو بديهيا من أول وهلة أن دلائل ارتفاع المستويات البحيرية في منطقة معرضة للزلازل — كما هو الشأن بافريقيا الشرقية — توحي بفرضيات، ولكن لا تسمح باستخلاص النتائج. ينبغي أن نتصوّر في تلك المنطقة التي هي على غاية من الاضطراب امكانية تنقلات في بنية الأديم، وتغيرات في مستويات فيضان البحيرات، وانقلابا في الاحواض البحيرية. ولهذا السبب تخلّى العلماء عن

فكرة ممطاريات البليستوسين القديم أو المتوسط، (نظرية كوك ١٩٥٨، وفلنت ١٩٥٩، وزونز ١٩٥٠). ولقد أدت الدراسات الحالية للأحواض البحيرية بافريقيا الشرقية الى الحدّ من استعمال هذه العلامة المناخية الطبقية بالممطار الكمبلي الذي يحوي في بعض الأماكن رواسب لم يطرأ عليها التواء في بنية الأديم.

وتفيد شواهد جيولوجية عديدة بصفة قطعية أن الحدود الرئيسية للغابات ذات الامطار قد تحولت كثيرا في الماضي. ولقد شكلت الغابات الكبرى الواقعة غربا، في الأحواض الجارفة للمياه، عاملا مهما في تكييف حياة الإنسان طيلة الحقبة التي توفرت لنا عنها شواهد أثرية. ان الموقع المشهور والمعروف بفجّ أولدواي والواقع بشمال طانزانيا يشتمل بأسفله على حيوانات فقرية قد صينت صيانة كاملة، وتدل قطعا على انها منذ البليستوسين القديم. وتفيد الصلات المناخية وجود حقبة من الأمطار على غاية من الأهمية و(الكاغيري أو الاولدواي الاول). و يوجد فوق ذلك تشكلان يدل كل واحد منهما على فاصل زمني أكثر جفافا قد تبعه ممطار هام نسبيا. كما توجد بذلك الموقع الخاص، قطعة طبقية تحتوي على أكمل سلسلة تطورية من الآلات ذات الوجهين ابتداء من الأشكال البدائية المغرقة في القدم، الى أهم الانواع المتخصصة من هذه الآلة من العصر الحجري القديم الاسفل، مثلما هو معروف عنها بأوربا وآسيا الغربية.

تتكون الشواهد على الممطار الكمبلي خاصة من الشواطىء المرفوعة ورواسب الاحفورات البحيرية في ثلاث بحيرات كانت سابقا متجاورة، وتقع في الشمال الغربي من نايروبي (نكورو، المنتيتا، نايفاشا). ولنايفاشا مستوى من الشاطىء المرفوع سبق بقليل العصر الحجري القديم الأعلى، وهذا يعني أنه كان للبحيرة عمق أقصى قدره ٢٠٠ متر، ومن المحتمل أنها كانت تنصب من خلال خط عال مجاور. ان المساحة الضعيفة لحوض البحيرة المنحدر. وكذلك عمق البحيرات الحالي الذي لا يتجاوز ١٠ أمتار يسمحان بأن نعتبر ذلك التوسع القديم للبحيرة دليلا على وجود مناخات أكثر رطوبة في الماضي.

لقد اكتشف لايكي في ملجأ يقع تحت صخرة و يشرف على بحيرتي نكورو والمنتيتا الحاليتين موقعا بكهف كمبلي طبقاته واضحة ويحوي صناعة حقيقية منظمة للشفرات. ولقد وصف الترسب الواقع بالطابع الأسفل بأنه متكون من الحصاة الملساء البحيرية المفروشة على السطح الصخري للملجأ وذلك على ارتفاع يقارب ٢٠٠ متر تحت المستوى الحالي للبحيرة. أما الترسبات التي تحوي الأدوات فانها توجد كامنة فوق الحصاد وتتكون من ترسب هشّ فيه «رماد وغبار، وعظام وسبج». وتعتبر الحيوانات الممزوجة به قطعا من النوع العصري. و يرى لايكي أن ترسبات الأدوات تعود الى آخر حقبة تختص بأمطار غزيرة (يسميه الكمبلي، نسبة الى الموقع المعنى بالامر) وهو أول ممطار يتبع مباشرة ممطار المستويات الأخيرة من الاولدواي التي كانت لها أدوات (أشولية) وحيوانات انقرضت ولها مميزات خاصة.

تعتبر دراسة نلسن الكلاسيكية (١٩٣١ — ١٩٤٠) المتعلقة بأحواض افريقيا الجنوبية البحيرية من أحسن الوثائق عن تنقلات مستوياتها في الماضي. ان هذا المؤلف يصف خطوط شواطىء بحيرة تانا المرفوعة (مستوى المساحة يقدر بـ١٨٣٠ متر). وهي منبع النيل الأزرق. و يسجل خمسة خطوط شاطئية رئيسية تبلغ حتى + ١٢٥ متر، وجود مستوى أقل وضوحا يبلغ + ١٤٨ متر. و يبين نلسن أيضا

أن أربعة بحيرات من وادي الريف (زقاي، أبياتا، لنكانا، وشالا) كانت متصلة ببعضها وكانت تصبّ لمدة ما في نهر أواش.

ان المعطيات الجيولوجية المناخية المتعلقة ببحيرة فكتوريا تبين ان البحيرة كانت منخفضة وقد حبست مياهها لحقبة أجلها غير محدود سبقت ـــ ١٤٥٠٠ وهو عصر سادت فيه نباتات السهب العشبية. ولقد أخذت البحيرة في الصعود حوالي ـــ ١٢٠٠٠ وهو عصر أخذت فيه نباتات غابية تظهر أولا حول التخوم فوق الاستوائية من البحيرة. ولكن من الممكن أن يكون مستواها قد نزل الى ١٢ مترا تحت المستوى الحالي وذلك في حقبة قصيرة تدو حول ـــ ١٠٠٠٠. وكانت بحيرة فكتوريا مملوءة تماما بين ـــ ٩٥٠٠ وـــ ٦٥٠٠. وكانت تحيط بها غابة دائمة الخضرة. ولقد تأثر مستوى بحيرة فكتوريا جزئيا بشق مخرجها الا أن مستوياتها السابقة وكذلك القطعة البلينولوجية كانت بالتأكيد مستقلة عن هذا العامل.

قام بوتزر وآل، (١٩٧٢) بدراسة مفصلة تخص الأحواض البحيرية لافريقيا الشرقية ووفرا تواريخ باعتماد الراديو كربون الخاص برواسب الشواطىء القديمة. ان وقائع الدهر الرابع الحديث وتواريخه المتعلقة ببحيرات رودلف، ونكورو، ونايفاشا ومكادي متوافقة الى حد كبير. وتعتبر بحيرة رودولف التي تبلغ مساحتها حاليا ٧٥٠٠ كلم مربع أكبر بحيرة حابسة للمياه بافريقيا. انها موجودة بمنطقة غورية و يزودها بالمياه آساسا نهر آومو الذي ينبع بالاراضي العالية بغربي أثيوبيا. وتبين دراسات بوتزر أن الساحل، والمجاري الدلتائية النهرية المتصلة بتلك البحيرة كانت على مستوى يفوق تقريبا بستين مترا المستوى الحالي وذلك في حقبة تعود الى ما حول ـــ ١٣٠٠٠٠ سنة، كما كان يفوقه بـ ٦٠ الى ٧٠ مترا في حوالي ـــ ١٣٠٠٠ سنة. وأصبحت البحيرة أصغر حجما مما هي عليه الآن بين تلك الحقبة وـ ٩٥٠٠، كما أصبح المناخ أكثر جفافا. ولقد ارتفع مستوى البحيرة من جديد ابتداء من هذا التاريخ الأخير وتأرجح مستواه بين ٦٠ و ٨٠ مترا فوق المستوى الحالي الى حدود ـــ ٧٥٠٠ ـــ وهو تاريخ ابتدأت تضيق فيه بحيرة رودولف. وظهرت بعد ذلك مستويات أكثر ارتفاعا حوالي ـــ ٦٠٠٠ وابتداء من ـــ ٣٠٠٠، استقرت البحيرة على ابعادها الحالية.

ان الشواهد التي توفرها البحيرات الأخرى بافريقيا الشرقية والتي درسها بوتزر وآل تشير إلى تاريخ مماثل بالنسة للدهر الرابع الحديث.

حوضا التشاد والسد

يستحق حوض بحيرة التشاد عناية خاصة باعتبار وجوده بالطرف الجنوبي من الصحراء و بطرف المساحة الكبرى للبحر الداخلي الذي ملأ كامل الحوض في البليستوسين. ان بحيرة التشاد الحالية هي أثر لذلك البحر الداخلي (انظر مونود ١٩٦٣، و بوتزر ١٩٦٤) وتأتي مياهها من سباسب افريقيا الوسطى. وتقع مساحة البحيرة الحالية على ارتفاع يبلغ ٢٨٠ متر، وتتراوح تلك المساحة بين ١٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ كلم مربع.

اما معدل عمقها فهو يتراوح بين ٣ و ٧ أمتار و يبلغ في الحالة القصوى ١١ مترا. يفصل البحيرة عن منخفضي بوديلي والجوراب خط قاسم للمياه غير مرتفع، يشقه وادي بحر الغزال الناشف. إن اسفل خط من الخطوط الشاطئية لبحيرة التشاد الحالية، وهو يتراوح بين ٤ و ٦ أمتار، يسمح للمياه

بأن تفيض في منخفض بوديلي الذي يبعد عن البحيرة ٥٠٠ كلم. أما في مستواه الأعلى الذي يبلغ ٣٢٢ متر فقد كوّن سلف التاشد البليستوسيني خطوطا شاطئية تظهر بوضوح على بعد ٤٠ أو ٥٠ مترا، وتعادل مساحتها ٤٠٠٠٠٠ متر مربع. وتوجد أيضا آثار متقطعة تدل على خطوط شاطئية متوسطة. ولقد بين كروف وبولان (١٩٦٣) أن المياه التي تفقدها البحيرة تبخرا يعوضها تعو يضا كبيرا منسوب المياه الواردة من اللكون والشاري القادمين من الجنوب. و يعتبر المؤلفان أن تبخر البحيرة في البليستوسين كان يفوق ذلك بست مرات الى حد أنها كانت تستوعب سنو يا كمية من المياه تعادل ثلث منسوب الكونغو السنوي.

ولقد قال بوتزر (١٩٦٤م) عن صواب بأن بحر التشاد السابق يمثل نتيجة لذلك أبلغ شاهد على وجود رطوبة كثيرة بالخطوط العر يضة المدار ية الرطبة جدا، الا أنه لم يمكن مع الأسف أثبات الترابط بين الخطوط الشاطئية لمختلف أجزاء الحوض. ان طبقة أراضي البليستوسين التي يبلغ سمكها ٦٠٠ متر والموجودة تحت بعض أجزاء الحوض تدل على تعقد هذا الحوض الداخلي وطول تاريخه. أما فيما يتعلق بنيجير يا — فيري كروف و بولان أن المناخ قد جف وصاحبته تشكلات تلالية هامة بالسهل الذي كانت تحتله البحيرة سابقا وذلك بعد حقبة كان فيها مستوى البحيرة في البليستوسين القديم يفوق بـ ٥٢ مترا مستواها الحالي. ولقد أعقبت تشكّل شبكة جديدة من الأنهار في تار يخ لاحق حقبة رطبة أخرى تميزت بارتفاع مستوى البحيرة لا يقل عن ١٢ مترا في الهولوسين. فيمكن أن نؤكد أن حركتين ايجابيتين. بالبحيرة حللتا تحليلا سيئا، قد وقعتا قبل — ٢١٠٠٠، وتبعهما فصل طو يل من النشف ومن النشاط الريحي حتى قبيل — ١٢٠٠٠، وهي فترة أخذت البحيرة تمتد فيها من جديد وبلغت البحيرة في حوالي — ١٠٠٠٠، مستوى أقصى صاحبته فياضانات متناو بة. ودامت هذه الحقبة من المياه العالية حتى قبيل — ٤٠٠٠. و يبدو أن تار يخ هذا البحر الداخلي بالبليستوسين القديم والهولوسين يكاد يوافق عندئذ وحتى في التفاصيل تار يخ أحواض افر يقيا الشرقية.

ان كاتب هذا المقال يعتبر أن بحيرة سد بالسودان الجنوبي تمثل بحرا داخليا كبيرا، ومن المحتمل أن يكون تاريخها يماثل تار يخ حوض بحيرة التشاد. فالسد بحيرة ميتة يحتمل أنها شملت منطقة سد وحوض النيل الأعلى وامتدت الى ما وراء النيل الأبيض والى أجزاء من النيل الأزرق وبحر الغزال. ولقد نشأت فكرة وجود هذه البحيرة القديمة عند المهندسين المختصين في الري والعاملين بمصر (وهم لومبرديني، وكرستان، وول كوكس. وكان لوسن (١٩٢٧) واضعها. ولقد تعجبوا جميعا من انبساط سهول السودان الأوسط والجنوبي ولاحظوا أن كل ارتفاع صغير في مستوى النيل يؤدي الى الفيضان على مساحات واسعة. و يعتبر بول أن بحيرة سد قد كانت تحتلّ مساحة قدرها ٢٣٠٠٠٠ كلم[٢] (المنطقة التي يحدها منحني الـ ٤٠٠ متر، وهي ارتفاع شمبة). و يغطي تلك المنطقة تشكّل (أم روابة) الذي وضعت له خر يطة حديثا والذي يتكون من سلسلة طو يلة من الرواسب النهر ية، والدلتائية والبحير ية. وتتجاوز قمته العليا ٥٠٠م وهذا يعتبر أعلى بكثير من أسفل نقطة السيلان عند قمة سبلوكة بشمال الخرطوم (٤٣٤م). ومن المحتمل أنه كان الحد الشمالي للبحيرة. ان تلك القمة توجد، كما أشار الى ذلك سعيد (م. س.) على الخطوط الرئيسية من التصدعات التي تحاذي جنوب الجبل النوبي الذي يعتبر مركزا لنشاط زلزالي كبير، ولا يمكن اعتبار هذا الإرتفاع، سواء لهذا السبب أو لأسباب أخرى لها صلة بشق فجّ سبلوكة إثر اجتراف سابق، لا يمكن اعتباره ممثلا لعلو القمة

عندما كانت البحيرة مملوءة. و يدخل في الحساب تعقد آخر ينشأ مدة الفيضانات عن رد فعل سد مياه النيل الأزرق التي تصب في النيل الأبيض. ورغم أن تاريخ بحيرة سد، غير معروف بصفة مفصلة الا أن في امتداده ثابت، يشهد به بوضوح الشاطىء الذي يبعد ٣٨٢م والذي يحيط بمناطق شاسعة من النيل الأبيض. ومثلها مثل حوض التشاد، اذ يبدو أنها كانت واسعة جدًا بين ــ ١٢٠٠٠ وــ ٨٠٠٠. وقد كان لها في الشمال عرض ٥٠ كلم (و يليم، ١٩٦٦). وضاقت البحيرة بعد ذلك وفي حوالي ــ ٦٠٠٠ انخفض الامطار السنوي الى ما يقرب من ٦٠٠مم، غير بعيد من الخرطوم، وانخفض مستوى النيل الأبيض الى ٥٠ر٠ أومتر واحد، تحت المستوى المتوسط الحالي للمياه العالية.

الظواهر الجمودية

ان تجمد افريقيا القديم مربوط ربطا وثيقا بالجموديات الحالية، التي ترتبط بدورها أساسا بتوزيع المرتفعات الكبرى. فباستثناء جبال الأطلس، توجد القمم ذات الجموديات بافريقيا الشرقية، على بعض الدرجات من خط الاستواء. وتتراوح المرتفعات من حوالي ٣٩٠٠م الى ٦١٠٠م، ولقد لخص فنت (١٩٤٧ - ١٩٥٩) المعطيات المفيدة الخاصة بتلك المناطق الجمودية و يشير الى أن تساقط الثلوج التي تزود تلك الجموديات قد يكون ناشئا عن رطوبة جبلية ناتجة عن كتل الهواء البحرية المتنقلة نحو الشرق والآتية من المحيط الأطلسي الجنوبي أو المتنقلة حسب درجة أدنى، من المحيط الهندي الى الغرب.

يبلغ ارتفاع جبل كينيا (خط العرض ١٠ر٠ جنوبا، خط الطول ١٨ر٣٧° شرقا) ٥١٥٨م و يضبط حد الثلوج الحالية بـ٥١٠٠م. ومن الثابت أن حد الثلوج الدائمة في البليستوسين قد نزل الى حد أسفل يقدر بـ٩٠٠م (فلنت، ١٩٥٩). و يبلغ جبل الكلمنجارو،بطنجنيقا (خط العرض ٠٥ر٣° جنوبا، خط الطول ٢٢ر٢٧ شرقا ارتفاعا قدره ٥٨٩٧م. و يبدو أنه يوجد حاليا بالتدقيق دون الحد المناخي للثلوج الدائمة. فلقد كان الحد الأدنى في البليستوسين يتجاوز ١٣٠٠م (فلنت ١٩٥٩). و يبلغ ارتفاع جبل الكن بأوغندا (خط العرض ٠٨ر١° شمالا، و٣٣ر٣٤° شرقا) ٤٣١٥م، و يوجد حاليا دون الحد المناخي للثلوج الدائمة بكثير. وكانت له جموديات في البليستوسين. و يبلغ ارتفاع جبل رونزوري (خط العرض ٢٤ر٠° شمالا، و٥٤ر٢٩° شرقا) ٥١١٩م كما يبلغ حد الثلوج الدائمة ٤٧٥٠م على السفح الغربي بالزايير و٤٥٧٥م على السفح الشرقي (أوغندا). وكانت جموديات البليستوسين تنزل الى ٢٩٠٠م على السفح الغربي والى حد ٢٠٠٠م تقريبا على السفح الشرقي.

ان الأراضي المرتفعة بأثيوبيا لا تحتوي على جموديات ولكن يبدو أن جبال سميان (خط العرض ١٤ر١٣° شمالا، وخط الطول ٢٥ر٢٨° شرقا) كانت تحتوي على جموديات في البليستوسين فلقد اثبت نلسن (١٩٤٠م) وجود تجمدين على بعض قمم هذا الجبل (ارتفاعه ٤٥٠٠م تقريبا) مع اعتبار الحدود المناخية للثلوج الدائمة البالغة ٣٦٠٠م الى ٤١٠٠م و٤٢٠٠م. ان الانسحاب الجمودي المصاحب للبليستوسين الحديث يوافق حدا من الثلوج الدائمة يقدر بـ٤٤٠٠م. و يصف نلسن (١٩٤٠) كذلك تجمدا بالبليستوسين الحديث بجبل كاكا (خط العرض ٥٠ر٧ شمالا، وخط الطول

٢٤ر٣٩°شرقا) يبلغ حد ثلوجه الدائمة ٣٧٠٠م. ان القمم البركانية الأخرى باثيوبيا التي توجد حاليا دون حد الثلوج الدائمة بكثير توفر أيضا شواهد على التجمدات، من ذلك جبل كونه (خط العرض ٤٣ر١١°شمالا، خط الطول ١٧ر٣٨°شرقا) وجبل أمبافاريت (خط العرض ٥٣ر١٠° شمالا، وخط الطول ٥٠ر٣٨°شرقا) وجبل شلالي (خط العرض ٥٠ر٧°شمالا، وخط الطول ١٠ر٣٩° شرقا).

وتوجد شواهد قاطعة على التجمد الذي وقع على الأقل مرتين بالمناطق الجنوبية وفوق الجنوبية من افريقيا، وعلى مناخ أشد بردا طيلة الحقبة الموافقة لتجمد (وورم). ولقد اكتشفت في أثيوبيا، فضلا عن العلامات ذات الأصل الجمودي الملحوظة في بعض قمم هذه المنطقة، آثار عن انزلاق التربة وعن تغيرات الأديم ناشئة عن الجليد (على ارتفاع ٤٢٠٠م/٤٣٠٠م) و يرى بودل (١٩٥٨) ان الحد الأسفل لظواهر انزلاق التربة بلغ ٢٧٠٠م في حقبة وورم. ولوحظت أيضا رسوبات جمودية نهرية في مناطق مختلفة من افريقيا الجنوبية. ولقد درس دي هنزلين ١٩٦٣ رسوبات جبل رونزوري وتبيّن أنها موازية للسطوح الغمبلية لنهر سمليكي. ان هذا النهر الذي يصل بحيرتي ادوارد وألبرت عند حدود الكونغو وأوغندا، يمر بمجار تكثر فيها الحصاة، والحصباء، والرمل والتربة الحمراء ذات الطمي، مع الرسوبات الخفيفة. و يبين دي هنزلين أن السطوح السنغوئينية ـــ اللومبينية معاصرة للرسوبات الجمودية النهرية لجبل رونزوري.

المنطقة المدارية والمنطقةفوق المدارية

تختص المنطقة المدارية الحالية بنظام من الرياح الشرقية الغالبة وتحولات فصلية حرارية محسوسة. ويختص القسم الغربي من هذه المنطقة التي توجد على الساحل الأطلسي، برياح صابية قارة، وبطقس يميل الى البرودة نسبيا، وبرطوبة فضائية مرتفعة وبانعدام المطر تقريبا. أما الباقي من هذه المنطقة فانه يشمل الصحاري الكبرى بالشمال وبالجنوب من القارة. ان هذه المناطق جافة وحارة يصحبها تحول نهاري هام في الحرارة وارتفاع أقصى مطلق في تلك الحرارة.

وتشمل المنطقة فوق المدارية الأطراف الشمالية والجنوبية من القارة وتختص بكتل هوائية من النوع المداري في الصيف وبكتل هوائية من النوع المعتدل في الشتاء، وتتبدل الحرارة والأمطار الفصليان تبدلا كبيرا. أما المناطق التي لها مناخ البحر المتوسط فهي تمتاز بطقس صاف وهادئ في الصيف وبشتاء ممطر.

الصحراء

يمكن أن نعد الصحراء أكبر العناصر أهمية في هذه المنطقة. فهي تمتد على ما يفوق ٥٥٠٠ كلم من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي ولها عرض متوسط من الشمال الى الجنوب يفوق ١٧٠٠ كلم. فهي تشمل ما يقرب من ربع المساحة الكاملة من القارة الإفريقية. فالإمطار الموزع توزيعا متفاوتا على مجموع تلك المنطقة، يفوق في بعض الاماكن ١٠٠م سنويا، أما المعدل فهو دون ذلك بكثير فلا

يوجد استنتاجا من ذلك انهار دائمة المياه، باستثناء النيل الذي تأتي مياهه من منابع موجودة في أماكن خارجة تماما عن الصحراء. وليس لكميات الماء العارضة او الدائمة الناشئة عن السيلان السطحي أية أهمية بالنسبة لحياة الإنسان في العصر الحديث باستثناء الينابيع والآبار التي تزودها المياه الجوفية. تتكون الصحراء من قاعدة صماء من الصخور الماقبكمبر ية التي تغطي رواسب من عهد البالیوزوئيك الى عهد السينوزوئيك، وظلت ثابتة طيلة جزء كبير من عهد الفانيروزوئيك. ان النشاط الذي تسبب في تغيير المعالم والالتواء لم يحدث الا في جبال الاطلس، وخليج قابس بتونس وعلى هضاب البحر الأحمر، شرقي نهر النيل. ويمكن ملاحظة نشاط مشابه ببرقة وتحت الأرض بالمنطقة الساحلية من شمال افر يقيا. ان هذه الحركات الالتوائية تنتسب الى النظام الالبي، وقد تشكلت منها الجبال بعهد السينوزوئيك الحديث والدهر الرابع. أما جبال البحر الأحمر، فانها على العكس مرتبطة بالحركات التي طرأت على بنية الأرض وامتداد الرفت الافر يقي الكبير.

تعتبر منطقة جبل الأطلس أوسع المناطق تضر يسا. وهي تمتاز بأمطار غز يرة. وتوجد تضار يس قليلة الأهمية ببرقة وبجبال الهقار والتبستي من الصحراء الوسطى. و يشكل الجبلان الأخيران منطقتين ذاتي طوبوغرافية جبلية تتصلان ببعضهما عن طر يق سرج طومو المنخفض. وللمنطقة ارتفاع متوسط يبلغ ٢٠٠٠م مع وجود قمم تبلغ ٣٠٠٠م وتتكون اغلب القمم من صخور بركانية تشكلت طيلة حقبة متواصلة من النشاط البركاني الذي يعود الى ما قبل البليستوسين.

وتوجد مناطق أقل اتساعا متكونة من الصخور البركانية بجبال العاير، بالجنوب الغربي من الهقار، ومنها الأوجيات الذي يرتفع ارتفاعا شاهقا في منتصف الطر يق بين التبستي والنيل، وجبل العاطر الخ. و يعتبر حاليا أثر هذه الجبال على المناخ ضعيفا، الا أنه توجد علامات جيولوجية عديدة تدل على أن الصحراء كانت أقل جفافا طيلة حلقات عديدة من البليستوسين.

أن اكبر عامل من عوامل الاجتراف بالصحراء حاليا وفي جميع حقبات الجفاف هو الاجتراف الريحي الذي يعتبر المسؤول عن تكو ين سهل هذه الصحراء. ان الرمال الخشنة التي تنقلها الر ياح تتراكم حسب مساحات تدعي عرق أو رقّ. أما المواد الناعمة، فتنقلب الى الأعلى بالفضاء حيث تظل معلقة تعليقا جزئيا متواصلا. وتسمى المساحة الصخر ية المعراة الناشئة عن هذا الاجتراف حمّادة. وتمثل هذه المساحات أحواضا ووهادا تتراوح بين الأحواض الضيقة والوهاد الضخمة التي يبلغ عمقها في بعض الاماكن ١٣٤م تحت مستوى البحر (مثال ذلك وهدة قطارة). وقد فسحت هذه الوهاد، في مواسم المطر، المجال لنشوء الطمي، وظهرت بها عيون من الماء ونشاط ترسبي بحيري عندما هبطت الى مستوى المياه الجوفية. وتوجد الوهاد الكبرى أساسا على حافة انحدارات، وقل أن تحيط بها تلك الانحدارات من جميع جوانبها. ومن المؤكد أنها تكونت بعامل اجتراف ريحي لانها تشكل أحواضا داخلية لا مسيل لها.

ان الآراء تختلف في شأن تار يخ الصحراء الجيولوجي. و يعتقد بعض المؤلفين أنها كانت صحراء طيلة حقبة الفانيروزوئيك كلها وأن الحقبات الرطبة تمثل تقلبات غير عادية في تار يخ جفاف متواصل. و يعتقد آخرون أن التصحّر (أي التحول الى صحراء) ظاهرة حديثة توافق النظام الحالي لتوز يع كتل الهواء.

وهناك علامات ثابتة تدل على وجود مناخات أكثر رطوبة سابقا في الصحراء، ومن بينها نظام

توزيع النباتات، وخصائص الرواسب التي لا يمكن تفسيرها الا بافتراض وجود مناخ قديم أكثر رطوبة. ان بعض الحيوانات الأهلية بافريقيا تعيش دوما في الصحراء، وما كانت لتهاجر اليها لولم توجد مناطق تتوفر فيها النباتات والأحواض من الماء. ولقد اكتشفت أنواع من تماسيح افريقيا الوسطى بحفر مائية داخل أغوار عميقة من جبلي الهقار والتبستي. وعثر على «المدفش» الافريقي (وهوحوت) بالشمال وحتى بواحة بسكرة بالجنوب الجزائري. ان خصائص نظام تصريف مياه الصحراء تدل على أن الامطار كانت غزيرة، اذ يمتد، غربي الهقار، سهل مترامي الاطراف يقف دون المحيط الاطلسي ببعض المئات من الكيلومترات، و ينحدر اليه، و يتبع منحدرا ابتداء من وهدة الجوف. وهنا تشكل في الماضي حوض التبخر لمجموعة من الأنهار. ان خطوط تصريف المياه المتجهة نحو الجنوب، ابتداء من منحدرات الأطلس الجنوبية. ومنها منحدر وادي الساورة الذي تتبع العلماء مجراه على مسافة تزيد على ٥٠٠ كلم، هي على غاية من الإفادة في هذا الشأن. وذلك يعني أن الوادي كانت تجري به في الماضي مياه كثيرة قادرة على حمل الرمال الريحية التي تسد حاليا مجراه الأوسط.

وتمتد بعض الاودية، ابتداء من هضاب البحر الأحمر، على ٣٠٠كلم وتخترق مساحات تبلغ حوالي ٥٠٠٠٠ كلم. وتحتضن احداهما، وهو وادي جهاريت الذي يمر بسهل كم أمبو، بشمال أسوان ضفاف ضيقة من الطمي ذي الحب الناعم يزيد سمكه على ١٠٠م. ومن المؤكد أن مرسبه نهر كبيرلا تنضب مياهه.

لقد استعرض مونود (١٩٦٣م) الدراسات الهامة الخاصة بالتقسيمات المناخية الطبقية، فأشار الى بحوث ايمان وشيفايون ومركا (١٩٥٩م) الخاصة بحوض الساورة الكلاسيكي الذي اقترحت في شأنه التقسيمات التالية، تنقلا من أقدمها الى أحدثها:

ــ الممطار الفيلافرنشي (= عائدي): رمل، حصباء ومشبكات لونها وردي أحمر نازلة فوق صخور أكثر قدما.

ــ ما بعد الفيلافرنشي الجاف: حطام انهيالات، وغرين رملي الخ، تعلوه تربة متطورة سمراء وحمراء. ولقد عثر بموقع في الجزائر على حصى مهيأة هجينة الصنع.

ــ الممطار الأول المازيري (Q/a) مشبكات ورمال.

ــ ما بعد المازيري الجاف: ترسبات من الطين الرملي، ورمال ريحية وانهيالات.

ــ الممطار الثاني التاوريرتي أو الاوغرتي الاولى (Q/b) مشبكات وزراعة على الحصى المهيء المتطور جدا من العهد الأشولي المتوسط.

ــ ما بعد التاوريرتي الجاف: اجتراف.

ــ الممطار الثالث (أو الأوغرتي الثاني): حصى ذات ألوان متنوعة ورمال أو تربة متطورة حمراء وسمراء.

ــ ما بعد التاوريرتي الجاف: اجتراف.

ــ الممطار الرابع الساوري (Q1) رمال رمادية وخضراء. ومواد حتاتية، وتربة ذات أحفورات سوداء ــ عاطري.

ــ الممطار ما بعد الساوري: غلاف من الصلصال الرملي، عنصر حجري جديد.

ـ مرحلة رطبة غيرية (Q2d) : عصر حجري جديد.

و يرى أرمبورغ (١٩٦٢) ان الممطارات الاربعة الأساسية وهي المازيري والأوغرتي الاول والأوغرتي الثاني والساوري شمال الصحراء قد توافق ممطارات افريقيا الشرقية وهي الكاغيري (أولدواي الاول) والكاماسي والكنجري والكمبلي. وقد يوافق الغيري في الشمال الغربي من افريقيا المراحل الرطبة لما بعد الكمبلي.

النيل

اعتنى الاختصاصيون منذ القديم بالنيل وخصصت لمختلف جوانبه مؤلفات كثيرة. ولقد درس وندورف (١٩٦٨م) وبوتزر وهانسن (١٩٦٨م) وهنزلين (١٩٦٨م) وشيلد (م س) وكيكناك (١٩٦٨م) وسعيد (تحت الطبع) دراسات مكثفة لما قبل تاريخ هذا النهر وتطوره الجيولوجي. وتمثل الملحوظات التالية نتيجة عمل قدمه سعيد واعتمد فيه على فن رسم الخرائط وركز فيه بعين المكان على الترسبات النهرية والرواسب المشتركة. وعلى فحص عدد كبير من التنقيبات العميقة أو السطحية التي أجريت بحثا عن الماء والبترول. ويمكن أن نعتبر ان النيل قد مر بخمس حلقات منذ أن شقّ مجراه في الميوسين الاعلى. ولقد اختصت كل حلقة بوجود نهر كان يأخذ أكبر قسط من زاده المائي من منابع خارج مصر. و يبدو أن النهر قد نقص أو كف نهائيا عن الجريان في مصر وذلك حوالي آخر الحلقات الاربع الاولى (والحلقة الأخيرة تجري الآن). ولقد صاحبت هذه الحلقات الانحسارية تغيرات فيزيائية ومناخية، ومائية هامة. و يبدو أن البحر قد تقدم، مدة الانحسار الاول، في الأرض مكونا خليجا يشمل الوادي المحفور حتى جنوب أسوان. واستقر مدّة الانحسار الثاني الذي ابتدأ بالبليستوسين الجاف، وتواصل مدة تفوق ١١٠٠٠٠٠ سنة، مناخ على غاية من الجفاف بمصر التي تحولت الى صحراء قاحلة. وكان النشاط الريحي في ذلك العهد هاما، وأخذت الوهاد الصحراوية الكبرى تتشكل، وضاع الغطاء النباتي الذي كان يكسو مصر مدة البليستوسين. وتوجد شواهد على مرحلة ممطارة قصيرة نسبيا وقعت في بداية هذه الحقبة. ولقد نشأت في هذا المطار أنهار متكونة من سيول قصيرة المدة، تتزود تماما في مصر. ان الانهار الخمسة التي احتلت وادي النيل منذ أن حفر مجراه في الميوسين تدعى.. ايونيل (Tmu) بالونيل (Tplu) ، بروتونيل (Q1) ، برينيل (Q2)، نيونيل (Q3).

ويمكن أن نلخص في اللوحة التالية، التحولات المناخية التي سجلت بمصر، تنقلا من أقدمها الى أحدثها.

ممطار بليسوسين

(Tplu) يقدر بـ (٣٫٣٢ الى ١٫٨٥) مليون سنة.

وتتكون رواسب البليونيل أساسا من رواسب متفتتة ذات حب دقيق في المجاري الضيقة، ومن الطين، وذلك في باطن الوادي وعلى امتداد الأودية. وكانت منابع البليونيل موجودة في مصر وفي افريقيا الاستوائية وما فوق الاستوائية. والملاحظ وجود غطاء نباتي واسع، وحدوث انحلال

كيمياوي قوي، وسيلان ضعيف. ومن المحتمل أن الامطار كانت تتوزع بها توزعا منتظما على كامل السنة.

الطور الجاف جدا من البليستوسين الحديث

(فاصل Tplu / Q1) يقدر بـ (ــ ١٫٨٥) الى (٠٫٧٠) مليون سنة.

ولقد أصبحت فيه مصر صحراء معرضة لنشاط زلزالي في وادي النيل حيث بلغ مفعول الريح أشده. وقطع هذا الطور ممطار قصير (أرمنت) تكونت فيه مجار من الحصر متناوبة أحيانا من مجار من الرمل، حباته مرصوفة أو من المارن الممزوج بقالب أصفر وأحمر، وتعلوها ثغرة مؤسمنة. ولم يعثر على أية أدة بهذه الترسبات.

ممطار أدفن

و يقدر بـ(ـ٧٠٠٠٠٠ الى ـ٦٠٠٠٠٠)

ففيه عادت الأحوال المناخية الخاصة بالبليونيل. أما البروتونيل فانه يختص بمنابع مائية تشابه منابع النيل السابق اذ دخلت مصر وحفرت مجراه حسب ممر مواز لمجرى النيل العصري وموقعه بشمال هذا الأخير. توجد به رواسب في شكل مجار من حصى الصوان وحتات الصوان الممزوج بقالب من الملح الأحمر الآجري. ولقد أتت تلك الرواسب من أرض تفتتت تفتتا عميقا، وغسلت تغسيلا. ان الرواسب الموجودة بالصحراء المشابهة لمشبكات الاودية تظهر على شكل قنوات مقلوبة وقد عثر في هذه الرواسب على أدوات مصنوعة حسب التقاليد الشالية.

ممطار البرينيل الجاف

(Q2) يقدر بـ(ــ ٦٠٠٠٠٠ الى ــ ١٢٥٠٠٠) مليون سنة

فيه ظهر نهر جديد دخل مصر، وزودته مياه آتية من الأراضي العالية بأثيوبيا. ان التركيب المعدني لرواسب البرينيل يدل على وجود معدن الأوجيب (وهو من خصائص رواسب النيل العصري، الآتية من مرتفعات أثيوبيا)، كما يدل على وجود كمية وافرة من معدن الأبيدوت الذي يميز هذه الرواسب عن رواسب النيونيل الموالي والنيل العصري. يوجد كذلك ممطار صغير خلال الأطوار الاولى من هذا الفاصل الزمني.

ممطار العباسية

(Q3) (ــ ١٢٥٠٠٠ الى ــ ٨٠٠٠٠)

وفيه كف البرينيل عن السيلان بمصر لأن منابع النهر قد انقطعت بعد نهوض جبل النوبة و يتميز هذا الممطار بحصى متعددة الاصل آتية من هضاب البحر الأحمر الذي تفتت سطحه تفتتا عميقا الا أنه لم يغسل الا تغسيلا قليلا. ويحتوي الحصى على أدوات وافرة من العهد الأشولي الحديث.

طور العباسية/مخدمة الجاف

(يقدر بـ ــ ٨٠٠٠٠ الى ــ ٢٤٠٠٠).
و يتميز بالاجتراف.

ما فوق ممطار مخدمة

(ــ ٤٠٠٠٠ الى ــ ٢٧٠٠٠).

فيه اجتراف طبقي وأدوات تقليدية سنغونية لوبمبية تظهر بمنحدرات عديدة من المجرى المجروف من البر ينيل. وتوجد في كل مكان من الصحراء أدوات تقليدية موستيرية وتليها فيما بعد أدوات عاطرية.

طور النيونيل الجاف (Q 3)

من ــ ٢٧٠٠٠ الى يومنا هذا)

وفيه دخل مصر نهر هو النيونيل، له منابع ونظام يشابه ما يوجد بالنيل العصري. ولقد مرّ النيونيل بطور ين نتج عنها ما فوق الممطار ين الأقصيين: وهما ما فوق ممطار دير الفاخوري (ــ ١٠٠٠٠ الى ــ ١٢٠٠٠) وما فوق ممطار دشنة (ــ ١٠٠٠٠ الى ــ ٩٢٠٠) والعصر الحجري الجديد (ــ ٧٠٠٠ الى ــ ٦٠٠٠).

ويمكن أن نؤكد أن رواسب وادي النيل لا تختلف كثيرا عن الرواسب التي عثر عليها بالصحراء ومن الممكن أن نعمم وأن نبين أن ممطار أرمنت بمصر قد يوافق ممطار الفيلافرنشي بالشمال الغربي من الصحراء، وأن أدفن يوافق الماز يري، وأن العباسية يوافق الأوغرتي، والمخدمة يوافق الساوري ودير الفاخوري، والدشنة والعصر الحجري الجديد يوافقان الغيري.

و ينبغي أن نلاحظ في الختام أن المطارات الافر يقية قد تكون ناشئة عن تحولات مناخية عالمية، توافق نظر يا التجمدات بأور با وأمر يكا الشمالية. واذا كان من العسير إقامة الدليل على هذا الأمر، يمكن بصفة عامة افتراض وجود ارتباط بين الأوغرتي (بالشمال الغربي من افر يقيا) والعباسية (بالشمال الشرقي من افر يقيا) والكنكري (أولدواي ٤) بافر يقيا الشرقية و بين التجمد الالبي لر يس. ومن الضروري أن تجري دراسات تكميلية، لا سيا في ميادين القياس الجيولوجي المغناطيسي والاشعاعي قبل استخلاص استنتاجات مضبوطة.

الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

القسم الثاني

هـ. فور

لقد طرأ على تاريخ معمورتنا في ملايين السنوات الأخيرة تعاقب مطرد من تحولات مناخية عميقة وأهم ظاهرة من ذلك، وقد عرفت منذ أكثر من قرن، وهي تقدم وتأخر الجموديات بصفة خارقة للعادة في خطوط الطول العليا وفي المرتفعات (شكل ١). وقد تجلّى ذلك في برد شديد كان له أثر عميق على البيئة وعلى حياة البشر. وكان من المظاهر المشهودة للتحولات المناخية في الدهر الرابع بأفريقيا أن توسعت المساحات البحيرية بالمناطق الجافة، وتقدمت مساحات شاسعة من الهضاب الرملية نحو المناطق التي لها الآن مناخ أكثر رطوبة.

ولقد أحرز العلماء منذ عشر سنوات تقدما ملحوظا في ضبط تواريخ تلك الأحداث بالنسبة للثلاثين ألف سنة الأخيرة، وذلك بعد استعمالهم استعمالا منهجيا للقياسات الراديوتاريخية بالكربون ١٤. ان الترتيب التاريخي للتقلبات المغناطية، المعتمد على قياسات ردايومترية بحسب طريقة أرغن بوطاسيوم أو/ك يسمح بايجاد علاقة ارتباط من بعيد مع المناطق الأخرى التي استعملت فيها تلك الطرق، لا سيما، فيما يتعلق بميدان المحيطات.

فقبل ان تستعمل طرق الارتباط تلك، كانت طبقية الدهر الرابع الأرضية تعتمد على تعاقب الاحداث المناخية الذي اعتبر اطارا تاريخيا. ان علاقة الارتباط بين منطقة وأخرى كانت تقع بالاستناد الى موازاة الفترات الزمنية المتعاقبة بالمناخات المتشابهة. وعلى هذا الأساس اقترح اعتباطا وجود توافق بين الحقبات الجمودية الاوربية والاطوار الممطارية الافريقية.

ولقد كان لهذه النظرة اعتراضات قدمها مؤلفون عديدون (انظر تريكار، ١٩٥٦، و بالوت ١٩٥٢ الخ).

ان الجواب على هذه المسألة المتعلقة بالارتباط قد كان أكثر تعقدا في الواقع ولم يدرك الا بفضل

المعرفة الدقيقة لآليات المناخ الشاملة من جهة، وللترتيب التأريخي المناخي في بعض الآلاف من السنوات الأخيرة من جهة أخرى.

الطبقية الأرضية المغناطية والترتيب التأريخي الرّاديومتري

يجب أن نسجل، فضلا عن الملاحظات التي أبداها رشدي سعيد قبله، ان التباسا مطردا قد وقع بين الوحدات الطبقية الارضية الحجرية، والطبقية الارضية الأحيائية والطبقية الارضية التاريخية، حتى أن انعدام الدقة في التعريفات قد تسبب في وضع قائمة من المصطلحات لا تفيد أحيانا في ميدان التاريخ الذي أخذ يميل الى الدقة.

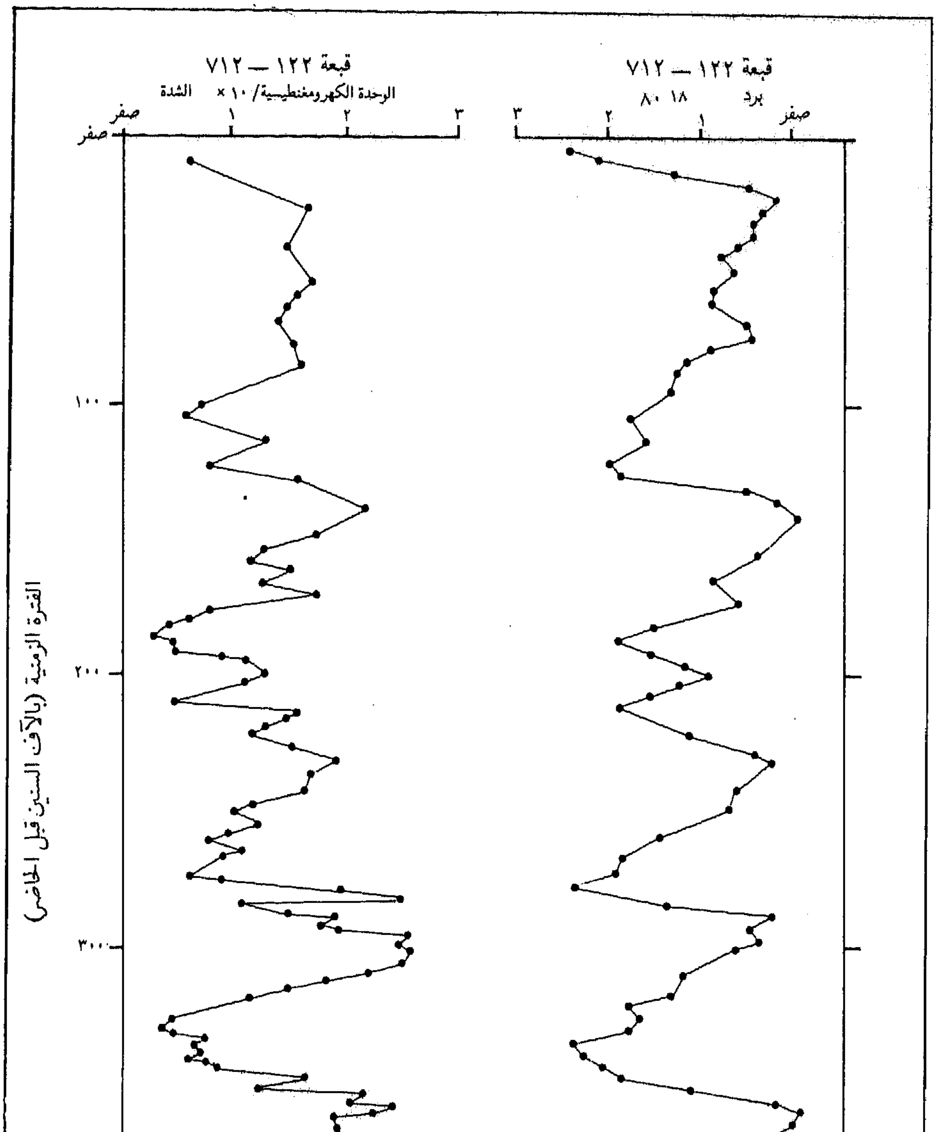
ويظهر من جهة أخرى أن بعض عناصر الحقل المغناطيسي، كالانحناء أو الشدة متصلة اتصالا وثيقا بعناصر مناخية (شكل ٢ وشكل ٣ حسب وولان وآل ١٩٧٤).

تجمدات الدهر الرابع، والترتيب التاريخي

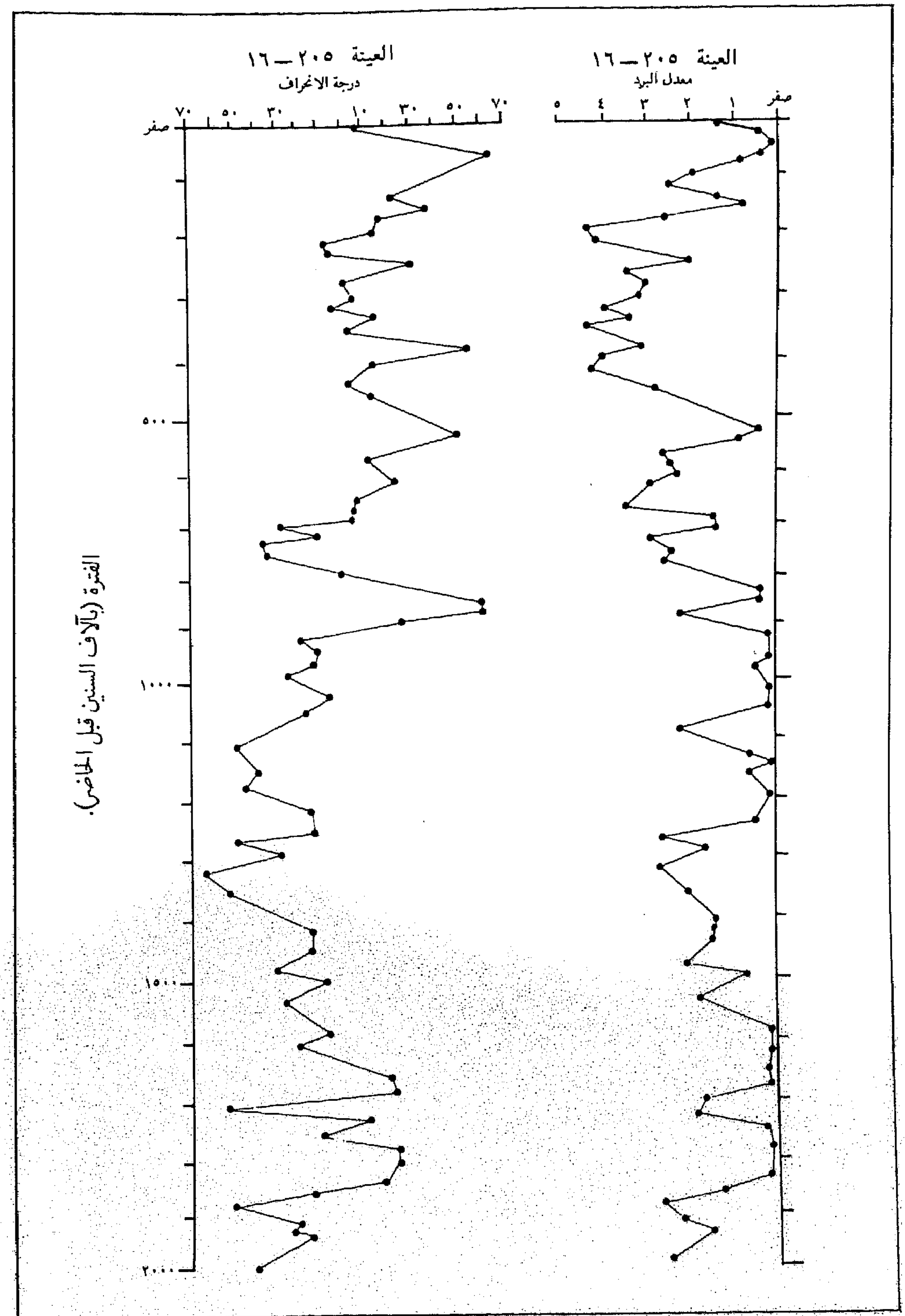
يبدو أنه سجل في العهد الرابع ما لا يقل عن اثنتي عشرة موجة هامة من البرد وذلك في الترسبات المتراكمة باستمرار في عمق البحار، ولم يعرف منها سوى ثمانية في الترسبات القارية بأوربا الشمالية، وترتبط السطوح النهرية والترسبات الجمودية التابعة للمنطقة الالبية بأربعة (أو ستة) تجمدات كلاسيكية، وهي: غونز، مندل، ريس، وورم (وكذلك دونو وبيبر)، وكل تجمد من تلك التجمدات قد يشتمل على مراحل.

ان ما تتميز به الشواهد القارية من تقطع يجعل من العسير إن لم يكن من الخيالي، وضع علاقات ارتباط بين الحقبات الجمودية بالمناطق البعيدة عندما لا تكون مضبوطة ضبطا دقيقا بالنسبة الى سلم تاريخي مغناطي او راديومتري. والملاحظ فعلا ان الترتيب التاريخي للتجمدات الالبية لم يضبط ضبطا دقيقا من حيث الزمن. ولقد أطلقت مصطلحات غونز، مندل، ريس، وورم، بيبر فيما يتعلق بمناطق متنوعة باعتبار تشكلات غير متزامنة. وعلى هذا الأساس ينسب الترتيب التاريخي للصخور البركانية المقحمة في سطوح نهر الراين والمسماة «مندل ١ و ٢»، عمرا قدره ٣ر٠ الى ٢٦ر٠ مليون سنة. وينسب للسطوح المسماة «غونز ١و٢» عمرا يقدر بـ ٤٢٠ر٠ الى ٣٤ر٠ مليون سنة. الا أن نفس المصطلح «غونز» يطبق أحيانا على الحقبة الباردة التي تسبق البكرومري والتي قد يكون عمرها ٩ر٠ الى ٣ر١ مليون سنة. مما يوافق الحقبة الباردة السابقة لحدث جارميو في العينات الترابية تحت البحار. وفي اطار هذا التأويل الأخير، وجب أن يشمل (دونو)، وهي حقبة باردة سابقة، حدث جلسا وان يكون معادلا للابوروني.

واعتبارا لهذا المثال ندرك الخطر الناشىء عن أن نعمم من منطقة الى أخرى، ترتيبا زمنيا مرتكزا على تعاقب مناخي قاري: فبقدر ما نتأخر في الزمن اعتبارا لعدد الاحداث الباردة، واعتبارا



● شكل ١ ــ منحنيات تبيّن التشابهات الموجودة بين العلاقات النظائرية للاوكسيجين (أو التغيرات في الحرارة) وشدة الحقل المغنطيسي الارضي في قبعة تحت البحر، وذلك بالنسبة لفترة الـ ٤٥٠٠٠٠ سنة الاخيرة. اعتمادا على وولين وار يكسون ووولين (١٩٧٤)



● شكل ٢ ـ منحنيات تبيّن التشابهات بين درجات الحرارة كما تدل عليها الحيوانات الصغيرة والانحناء المغناطيسي، وذلك بالنسبة للمليوني سنة الأخيرة. اعتمادا على «وولين وآخرين» (١٩٧٤).

للمصطلحات التي أطلقت عليها اعتباطا، تتسبب الاختلافات في عدم توضيح علاقات الارتباط القائم بين الشواهد الدالة على التجمدات الألبية، وموجات البرد المتتابعة المقاسة بالعينات الترابية في المحيطات.

فلا بد من تسجيل كامل ومتواصل للظواهر المناخية من جهة، وللعلامات الطبقية الأرضية المغناطية والراديومترية من جهة أخرى، لكي نضع، ولو تقريبيا، سلما طبقيا أرضيا ونساعد على الوصول الى مقارنة مفيدة بين منطقتين.

ان القلب المغناطيسي ماتياما ــ برونس (٦٩ر٠ مليون سنة) قد حدد في الطبقة الكرومرية بفضل البلينولوجيا، كما حدد حدث جلسا (٧٩ر١ مليون سنة) بالابوروني. (فان منفرنس ١٩٧١).

التعدي البحري في الدهر الرابع والترتيب التاريخي

يتسبب كل تجمد في تقهقر جمودي لمستوى البحار يقدر تقريبا بمائة متر. ان التعديات البحرية الناشئة من ذوبان الثلوج، تسمح اذن في المناطق الساحلية، بالربط بين الترتيب التاريخي الطبقي الارضي المناخي وبين الترتيب التاريخي الخاص بالدورات البحرية.

أما في المناطق التي تكون فيها التشكلات البحرية مرجانية (وذلك في برباد وبرمودا وغينيا الجديدة والبحر الأحمر) فقد سمح ضبط التواريخ بطرق عدم اتزان الاورانيوم، المطبقة على ارغونيت المرجان بضبط عمر التعديات التابعة لما بين التجمدات (٢٠٠٠٠٠ و١٢٠٠٠٠ و١٠٥٠٠٠ و٨٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبا). ونلاحظ (مع اعتبار فارق الخطأ الفيزيائي الناشىء عن مختلف الطرق الراديوتاريخية) ان تلك المستويات البحرية العالية توافق بالتدقيق المراحل الحرارية الأكثر علوا وتدل عليها الحيوانات البحرية الصغيرة واللقاحات، كما تدل عليها نظائر الأكسجين.

آلية المناخة الشاملة

ان المناخ ليس وسيلة لاقامة علاقة ارتباط تاريخي. وذلك أن تعقد العوامل القائمة في وقت معين (أو في فترة تدوم بعض القرون أو بعض الألوف من السنين) تمنع من أن نستعمل المعطيات غير المؤرخة تاريخا مضبوطا كمعيار طبقي أرضي أو تاريخي.

ان العوامل التي تؤدي الى هذه الملاحظات على نوعين:

ــ اولا: ان معرفة التطور المناخي العام على مستوى بعض عشرات السنين (أو بعض القرون استنادا الى معطيات تاريخية) تبين تعقد المسألة في مستوى الكرة الأرضية. ولذلك وجب معرفة جميع العوامل، ومن بينها «الشمس» كعامل ثابت، وحركة المحيطات، ووضعية الجبهات القطبية، والامطار (ليس معدلها فحسب بل كذلك تفاوت نسبتها).

ـــ ثانيا: ان معرفة تحولات بعض العوامل المناخية منذ ٢٥٠٠٠ سنة تقريبا (آخر البليستوسين والهولوسين) اعتمادا على القياسات الراديومترية، تدل من جهة على سرعة تغيرات هامة توفرت لنا عنها وثائق مفيدة، ومن جهة أخرى على تعقد علاقات الارتباط على مستوى الكرة الأرضية. وبذلك يلعب سلم الأزمنة المعتبر دورا هاما.

ان «النظام المناخي»، كما عرفه المجمع القومي للعلوم بواشنطن (١٩٧٥) يتألف من الخصائص والعمليات المسؤولة عن المناخ وتحولاته، كالخصائص الحرارية: (حرارة الهواء، والماء والمثلج، والتربة). والخصائص الحركية: (الريح، والتيارات البحرية، وتنقلات المثلجات)، والخصائص المائية: (رطوبة الهواء، السحب، الماء الطلق أو الجوفي، المثلج الخ). والخصائص السكونية: (الضغط، وكثافة الفضاء والمحيطات، وملوحة الماء الخ)... ثم الحدود الهندسية والعوامل الثابتة التابعة للنظام المناخي. وتترابط جميع متحولات النظام بالعمليات الطبيعية التي تطرأ عليها، مثل نزول الأمطار، التبخر، الاشعاع، التنقل، ارتفاع الهواء الساخن، اضطراب الجو.

وتشمل المقومات الفيزيائية للنظام المناخي: الفضاء، المحيط المائي والمحيط البارد، وقشرة الأرض، والمحيط الحيوي. أمّا العمليات الفيزيائية المسؤولة عن المناخ فانه يمكن التعبير عنها كميا باعتبار المعادلات الديناميكية للحركة، ومعادلة الطاقة الحرارية الديناميكية ومعادلة التواصل للكتلة والماء.

ان التحولات المناخية ستكون أكثر تعقدا بقدر ما يوجد من تفاعلات كثيرة بين عناصر النظام المناخي، ولهذا فإن أسباب التغيرات المناخية عديدة ومتنوعة لا سيما اذا اعتبرنا سلم الزمن المعتمد، وآليات التفاعل (المفعول الرجعي). ويعتبر دور المحيطات مهما في التحولات المناخية من خلال عمليات مقابلة الهواء للماء، والمتحكمة في تبادل الحرارة والرطوبة والطاقة.

ان هذه الاعتبارات المبدئية تبين ان مرحلة الطبقية الأرضية المناخية في الدهر الرابع كانت من باب المقاربة الضرورية، ولكنها تفسح المجال تدريجيا للبحث عن الآليات الخاصة بحالة معينة جدا على سلالم مختلفة من الزمن. ولهذا السبب سندرس عدة أمثلة من النتائج الحديثة التي تهم الحاضر ثم الهولوسين، والبليستوسين، والبليو ـــ بليستوسين.

المناخة الحالية والحديثة بافريقيا

ان النسق السنوي لتناوب فصل جاف وفصل رطب بافريقيا في المنطقة المابين الاستوائية مربوط بتنقل منطقة التقارب المابين الاستوائية.

ان «السيت»، كما لخصه حديثا ج. مالي (١٩٧٣) ول. دوريز يمثل مكان المجابهة بين الريح «الموسمية» (وهو هواء رطب أصله المناطق الاستوائية أو الصابيات البحرية من نصف كرة الارض الجنوبية) وبين ((الحرمتان)) (هواء صحراوي). ان «السيت» الموجهة تقريبا غربا ـــ شرقا تتنقل من الجنوب الى الشمال مدة الربيع والشهرين الاولين من الصيف، ثم من الشمال الى الجنوب. ان هذا التأرجح الفصلي يقع بين الدرجة الرابعة (٤°) شمالا والدرجتين (٢٠° ـــ ٢٣°) شمالا. ان مساحة انقطاع التواصل ترتفع ببطء بين الهواء الرطب والهواء الجاف من الشمال الى الجنوب. ولا

تشكل الطبقة الرطبة من الريح الموسمية في الصيف الا كتلة باردة ضيقة جدا في الشمال فلا تأتي الا بأمطار ضعيفة، اذ يجب أن يبلغ الهواء الرطب من السمك ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ متر حتى تسقط أمطار غزيرة. وتلك أحوال لا تتحقق الا على ٢٠٠ أو ٣٠٠ كلم جنوبا من خط «السيت» (انظر ل. دوريز. ١٩٧٤)، وتطرأ على موقع السيت تحولات مهمة جدا لا على سلم الفصل بل على السلم النهاري، باعتبار حقل الضغط بافريقيا والمحيط الاطلسي. وكما بيّن ذلك ب. بودي لابورد (١٩٧٠) فان الدفع الآتي من المحيط الاطلسي الجنوبي المربوط بنشاط الجبهة القطبية الجنوبية يمثل المحرك الأساسي الذي يدفع بمنطقة التقارب نحو الشمال. و يعتبر تقلّص «السيت» نحو الجنوب ناشئا في نفس الوقت عن ضعف الإعصار المعاكس جنوب المحيط الأطلسي (في سبتمبر) ولتأثير نصف كرة الارض الشمالي. إن هبوب الهواء الشمالي الجاف بعد أن يمر بالصحراء، لا يتسبب الا في بعض الإمطار على الجبال الصحراوية. و بالعكس يأتي الهواء الجنوبي بعد مساره البحري، بالرطوبة.

ان الازمة المناخية الحالية بمنطقة الساحل تعود حينئذ الى أن «السيت» قد تركز في ٣° الى ٤° (درجات) الى الجنوب أكثر من وضعه المعتدل. وكانت الصحراء قد تقلصت مدّة العشرية الرطبة (١٩٥٠ ـــ ١٩٥٩): فوافقت الرطوبة، كما بيّن ذلك مالي (١٩٧٣) انخفاض الحرارة القصوى على الهوامش الجنوبية.

ولذلك فان قوة الجبهات القطبية وتوسعها نحو خط الاستواء يتعاظمان بقدر ما يكون الهواء القطبي أكثر برودة. وذلك ما دعا مالي (١٩٧٣) الى التمييز بين آليتين: آلية الحقبات الجمودية وآلية الفترة الحالية. ففي الأول طرأ على المساحة المتجمدة القارية من نفس كرة الارض الغربي توسع كبير،ولم يطرأ الا شيء قليل على المساحة المتجمدة القارية الجنوبية،فكان للجبهة القطبية الشمالية اثر غالب وكانت تدفع بالموسمية في الصيف بعيدا نحو الجنوب. وعندئذ وقع التجفف الذي صاحبه الزحف الجمودي، وضعف أثر المركز القطبي في التسخن الهولوسيني، وذلك منذ ٥٠٠٠ ـــ ٤٠٠٠ سنة ق. م. ان تقلص الجبهة القطبية (ج. ق) الشمالية قد ساعد، مدة الصيف الشمالي، على توسع الموسمية نحو الشمال من خط الاستواء بينما كانت الجبهة القطبية الجنوبية تدفع بشدة الإعصارات المعاكسة الماتحت الاستوائية نحو خط الاستواء. واستطاعت الجبهة القطبية مدة الشتاء الشمالي ان تضاعف أثرها في الصحراء وأن تتسبب في أمطارها. ان هذه الامطار الشتائية والصيفية تفسر المناخ الرطب الذي ساد الصحراء الجنوبية، كما تفسر تقلص الصحراء مدّة النصف الاول من الهولوسين.

ان تقلص الجموديات القارية منذ ٥٠٠٠ سنة قد قلل من قوة الجبهة القطبية كما أن تقلص منطقة القطب الشمالي منذ ٥٠٠٠ سنة قد أضعف قوة الجبهة القطبية الشمالية، وتناقصت في نفس الوقت قوّة تأثير القطب الجنوبي. ولذا يفسر التجفف التدريجي بالصحراء التناقص المزدوج الطارئ على دفع الموسمية وعلى تأثير هواء القطب الشمالي على الصحراء.

ان هذه الآليات المناخية كفيلة بان تساعد على ادراك التغيرات المناخية بافريقيا مدة الدهر الرابع.

الترتيب التاريخي والمناخات منذ ٢٥٠٠٠ سنة

تعطينا الـ ٢٥٠٠٠ سنة الاخيرة من الدهر الرابع (آخر البليستوسين والهولوسين) مثالا حديثا ومعتمدا على معلومات ثابتة، عن توسع جودي كبير جدا وعن تقلصه الى حد الحقبة المابين جودية الحالية. ولقد طرأ في نفس الحقبة على المناطق ما بين المدارين جفاف شديد، تبعته مرحلة رطبة ثم تجفف جديد. ان الامر يتعلق هنا بالاضطراب المناخي الوحيد الذي يمكن دراسته على سلم يقدر ببضعة قرون أو بضع الألوف من السنين، والذي يسمح بالمقارنة بين عناصر النظام المناخي وتقلباته في مناطق عديدة على جميع خطوط الطول من الكرة الأرضية. ونضيف في شأن تلك الحقبة ان العلامات التي وفرتها اللقاحات، والمشطورات والحيوانات المشابهة للأنواع الحالية تسمح بأن نضبط كميا مدى التحولات الطارئة على المحيط الجغرافي. أما معدل مستوى البحار فقد أصبح معروفا، بل يوفر فضلا عن ذلك، وفي كل لحظة، فكرة عن الحجم العام للمثلجات وعن العلاقات النظائرية للأكسيجين في أهم المستودعات (المحيطات، المثلجات) انظر موزير (١٩٧٥م).

أما فيما يخص افريقيا الصحراوية، ومنذ أن تم انجاز الدراسات الاجمالية الاولى المعتمد على التواريخ بالكربون ١٤ (بوتزر، ١٩٦١، مونود ١٩٦٣م، فور ١٩٦٧، ١٩٦٩) تعتبر الأعمال الأكثر حداثة التي يجب الإعتماد عليها من أجل الوقوف على ترتيب تاريخي مفصل للتقلبات المناخية، هي أعمال م. سرفنت، ببلاد التشاد والنيجر، وف. غاس ببلاد العفر، وبافريقيا الشرقية. وأعمال الفرق من العلماء: فان زندرن باكر، ولفنغستون، ورشاردسن، وو يليامز، وفيكنس الخ. وفي الامكان مقارنتها بنتائج دراسات اجمالية عديدة خصصت للمناطق من خطوط الطول العليا القريبة من القطب، ومنها دراسات فلتشكو ودرامنيس الخ. و يعرف ميدان المحيط الأطلسي في مجمله من خلال اعمال فرق كليماب (١) ومكانتاير. أما فيما يتعلق بنصف الكرة الأرضية الجنوبي فيعول على ما نشره فان درهامن وو يليامز، و بولو، وآل.

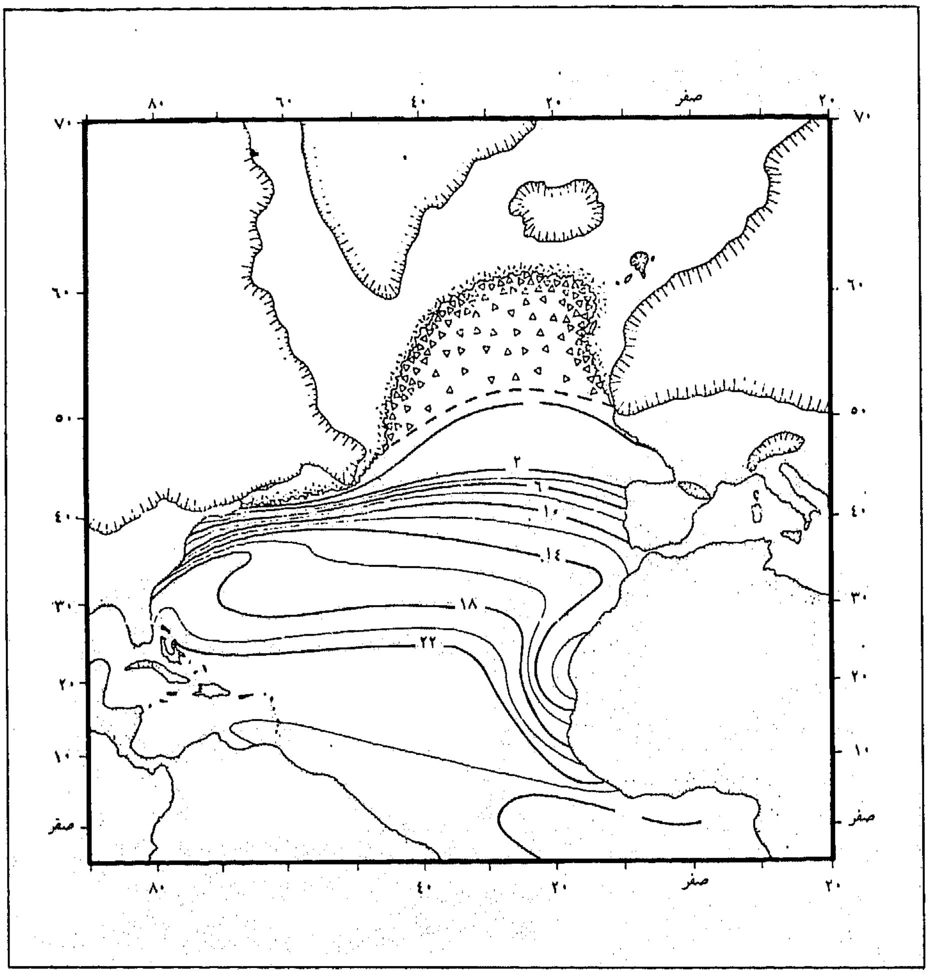
ان السعي الى وضع تاريخ تطور المناخ بإفريقيا في اطاره منذ ٢٥٠٠٠ سنة يجعلنا نميز مراحل زمانية عديدة:

٢٥٠٠٠ ــ ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد

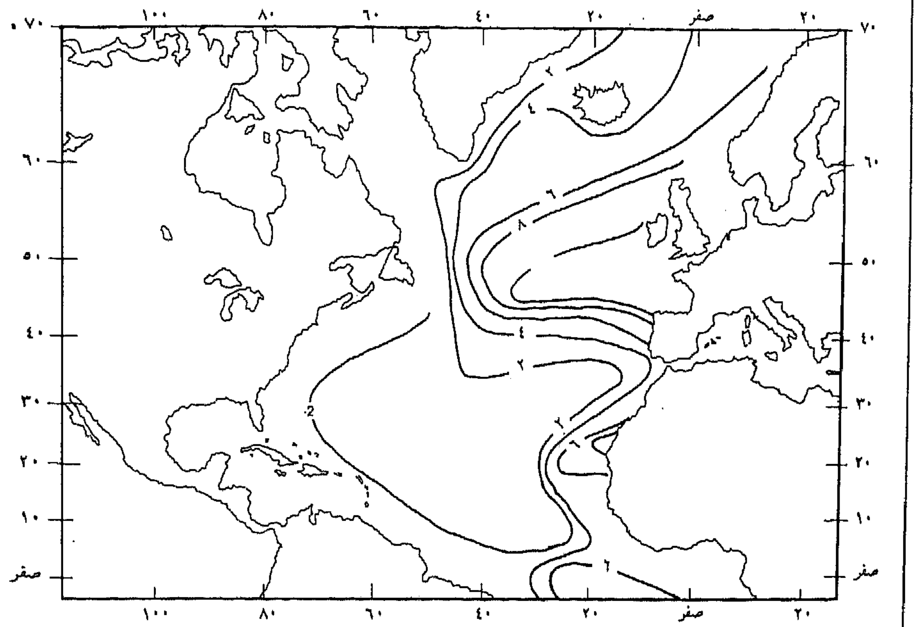
خطوط الطول العليا القريبة من القطب

تتوافق الحقبة الزمنية بين ٢٥٠٠٠ و١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، نهاية التوسع الأقصى للقبعات الجمودية التي كانت ممتدة على النصف الشمالي من الكرة الأرضية. ان هذا التوسع من تجمد وورم = (فيسكونس = فايشسلين = فلداي) قد غطى بالمثلجات مساحة تمثل ٩٠ أو ٩٥ في المائة من المساحة التي احتلت مدة كل التجمدات السابقة في الدهر الرابع (فلنت، ١٩٧١)، ولهذا فان الأمر يتعلق هنا بنموذج يمثل تمثيلا صحيحا تجمدا معينا. يبدو أن البيرمافروسيت (أي تغطية الأرض

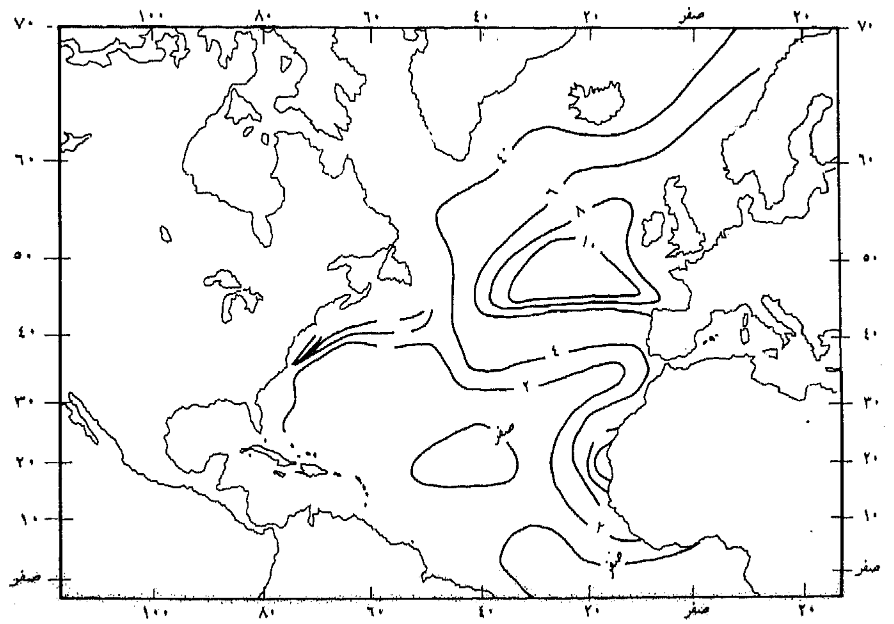
(١) كليماب (التاويل الواسع المناخي، والتخريط والتوقع) من العشرية الدولية لاستكشاف المحيطات.



● شكل ٣ — خريطة خطوط الحرارة المتساوية للمياه السطحية في شهر فبراير في المحيط الأطلسي ١٨٠٠٠ قبل الحاضر. وخطوط الحرارة المتساوية المرسومة بالشرط الصغيرة تفسيرية، بينما تبيّن الحدود المشرشرة الكتل الجليدية القارية الكبرى، وتبيّن الحدود المبنية بالحبيبات الجليد الساحلي المستديم. وقد رسم خط الساحل الجليدي على أساس مستوى لسطح البحر يقل بمقدار ٨٥ مترا على المستوى الحالي. (استنادا الى ماكنتاير وآخرين، ١٩٧٥).



شكل ٤



شكل ٥

● خريطة تبين اختلافات حرارة المياه السطحية بين الزمن الحالي وبين سنة ١٧٠٠٠ قبل الحاضر. (إستنادا إلى ماكنتاير، ١٩٧٤، كليماب)، شكل ٤: فصل الشتاء، وشكل ٥: فصل الصيف.

بالجليد بصورة دائمة طوال السنة) كان أكثر أتساعا مما كان عليه مدة التجمدات الأخرى (فلتشكو ١٩٧٣،١٩٧٥م). ومن المحتمل أن امتداد التجلد الدائم مربوط خارج القارت، بجليد يجري متطور جدا امتد على المحيطات الشمالية وساهم في الحد من التبخر عند تقابل الهواء والبحر.

المحيطات

ساهم انخفاض معدل مستوى المحيطات من ـــ ٥٠ الى ـــ ١٠٠ متر، فضلا عن تقلّص المساحة الطلقة الناتجة عن جليد البحر، في تقليص مساحة تلك المحيطات بحوالي عشرة في المائة فبرزت خارج الماء، في نهاية الحقبة المعنية، أغلبية المسطحات القارية.

ولقد استطاع البحاثون من فريق كليماب (مكأنتاير وآل ١٩٧٤، ١٩٧٥، وهيس، في كليماب ١٩٧٤ الخ..) وضع خرائط عن حرارة المياه السطحية بالمحيط الأطلسي بالنسبة للحقبة الموافقة للتجمد الأقصى (١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد) (الشكل ٣). ان تلك الخريطة، عندما تقارن بالخرائط الحالية (وهي خرائط ما بين جمودي) تبرز معدلا عاما من فروق حرارية لا يزيد على ٢٫٥° بين التجمد الأقصى والتجمد الحالي. الا أن توزيع الفروق الحرارية يبين حدا أقصى بالنسبة لخطوط الطول المتوسطة (٦° الى ١٠° من الفرق) كما يبين فروقا أضعف بكثير (أقل من ٣°) بالنسبة لخطوط الطول ما بين المدارين (الشكلان ٤ و٥). ومثال ذلك أن الحرارة السطحية بالنسبة للنقطة ٥٠° شمالا ـــ ٣٠° غربا كانت في الشتاء أقل من ٣٫٧° الى ١٢٫٧° في ١٨٠٠٠ (أو ١٧٠٠٠) سنة قبل الميلاد، مما هي عليه اليوم، أما في الصيف، فان الفرق ينخفض الى ١٫٢° إلى ٦٫٦° (كليماب، ١٩٧٤).

ان انتقال المياه القطبية من نصفي كرة الأرض كانت العامل الغالب بهذه المرحلة الجمودية، ففي شمال المحيط الأطلسي نزلت المياه القطبية حتى خط الموازاة ٤٢° شمالا (ابتداء من وضع قريب من الوضع الحالي أي نحو ٦٠° شمالا) متسببة في انخفاض سريع في الحرارة جنوب خط ٤٢° شمالا، كان المحور المحتمل للرياح الغربية في العصر الجمودي. أما في جنوب هذا الحد، فان النموذج ظل قريبا من النموذج الحالي، وان كنا نلاحظ أن خطوط التحارر، الموجهة نحو سواحل افريقيا، تتسبب، خاصة في الصيف، في مياه باردة نسبيا ناشئة عن ينابيع متفجرة قوية (جاردنر، هايس، ١٩٧٥).

تنتقل الجهات القطبية ومحور الرياح الغربية نحو خط الاستواء بأكثر من ٢٠٠٠ كلم بالمحيط الأطلسي الغربي وبـ ٦٠٠ كلم في نصف الكرة الأرضية الجنوبي بالنسبة لنفس المحيط (في المحيط الهادي، لم تنتقل الجهات القطبية الا قليلا في الحقبة الجمودية) وهكذا ندرك انخفاض تسرب الموسمية الى الصحراء (انظر ص ٧ ـــ ٨، مالي، ١٩٧٣) وحالة الجفاف بالمنطقة الساحلية في نهاية الحقبة الجمودية.

افريقيا

ان التطور المناخي العام لـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة بمناطق الصحراء الجنوبية و بالساحل تكشف عن اتجاه مماثل ابتداء من سواحل المحيط الأطلسي الى سواحل البحر الأحمر. وان هذه الحقيقة الزمنية

تشمل نهاية طور رطب من البليستوسين الأعلى (الذي دام تقريبا ٣٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) و بداية طور جاف ينتهي حوالي ١٢٠٠٠ قبل الميلاد.

ان دراسة الرواسب البحرية بحوض التشاد قد دلت على أن العلاقة بين الأمطار والتبخر (م/ت) كانت كافية لاستمرار بحيرات واسعة جدا منذ ٤٠٠٠٠ سنة قبل المبلاد الى حوالي ٢٠٠٠٠ سنة (م. سرفنت ١٩٧٣). الا أن الجفاف يمتد بعد ذلك وطيلة الثمانية آلاف سنة الموالية، و يتجاوز بمقدار ٤٠٠ كلم الحدود الحالية نحو الجنوب.

ان هذا التحول من حادثة بحيرية الى حقبة جافة جدا ملحوظ أيضا في رواسب بحيرات بلاد العفر حيث استطاع ف. جاس أن يبين وجود حلقات بحيرية ثلاث وقعت في البليستوسين الأعلى ولقد تدهورت البيئة البحيرية بين ٢٠٠٠٠ و ١٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتحتل النباتات النجيلية أعماق بحيرة آبس الناشفة (جاس، ١٩٧٥م).

و يلاحظ سرفنت (١٩٧٣م) وف. جاس (١٩٧٥م) عند تحليلهما المؤلفات الحديثة، تطورا مماثلا طرأ على البحيرات الشرقية الإفريقية، وذلك على ارتفاعات وخطوط عرض متفاوتة، وتدل على ذلك أعمال ريتشاردسن وكندل و بتزر وليفنغستون بالنسبة لبحيرات رودولف، نكورو نايفاشا، مكدي، البرت الخ. والشكل ٧ يلخص هذه المقارنة و يبين تطورا متماثلا تقريبا لحوالي اثنتي عشرة بحيرة افريقية.

١٨٠٠٠ ـــ ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد

خطوط العرض العالية

توافق هذه الحقبة في المناطق ذات خطوط العرض العالية النهاية الجمودية القصوى وتوقف التجمد. إن القبعات الجمودية التي كانت تغطي شرقي أمريكا الشمالية واسكندنافيا والتي بلغت أقصى امتدادها بين ٢٢٠٠٠ و ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أخذت تذوب بسرعة بعد ذلك التاريخ ولم يبلغ غشاء جبال الكورديير في الشمال الأمريكي أقصاه الا حوالي ١٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ثم اختفى في حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وهكذا فان توقف التجمد بدأ في حوالي ١٤٠٠٠ سنة ق.م. أما في نصف كرة الأرض الجنوبي، فيبدو ان القبعة الجمودية القارية في القطب المتجمد الجنوبي لم تتبدل الا قليلا في الناحية الشرقية بينما نقصت كثيرا في الناحية الغربية منه، وتوجد قاعدته تحت مستوى البحر. (المجمع القومي للعلوم، واشنطن ١٩٧٥م).

المحيطات

من المؤكد ان المساحات الشاسعة التي كانت تغطيها المثلجات البحرية قد زالت عندما ارتفع مستوى البحر ارتفاعا سريعا نتيجة توقف التجمد. ولقد بلغ ذلك الارتفاع معدل ١٫٥ م في كل قرن ودلك بين ١٥٠٠٠ و ١٢٠٠٠ سنة ق. م. وفي التاريخ الثاني، من المحتمل أن ذلك الارتفاع تجاوز النصف بل الثلثين. وتحولت في نفس الوقت مياه المحيط الأطلسي القطبية الى خطوط عرض شمالية.

افريقيا

تعتبر حقبة الجفاف الكبرى الفاصلة بين ١٨٠٠٠ و١٢٠٠٠ سنة ق. م من الظواهر التي تمتد على أكبر قسم من افريقيا والتي لنا عنها أحسن المعلومات، وذلك ما تعبر عنه بوضوح رسوم تطور المستويات البحيرية بالنيجر والتشاد (سرفنت، ١٩٧٣) وبلاد العفر (جاس ١٩٧٥) والسودان (ويليمز ١٩٧٥) وفيكنس (١٩٧٥) انظر الرسم ١٢) ولقد مكن اندثار النباتات الرياح من أن تقدم التلال الرملية بقدر ٤٠٠ الى ٨٠٠ كلم نحو خط الإستواء وعلى الهضاب الداخلية المرتفعة. ومن المؤكد ان الصحراء المتوسعة قد كانت طيلة آلاف من السنوات حاجزا في وجه الإنسان عاقه أكثر مما تعوقه الصحراء الحالية. ويبدو ان هذا التجفف قد كان على غاية من الانتشار، وهناك ما يدل على أن جفافا نسبيا بلغ أغلب المناطق الواقعة بين المدارين بافريقيا (دي بلووى، فان زندرن باكر....) في كتاب ويليمز (١٩٧٥)، وآسيا وخاصة الهند (سنغ، ١٩٧٣م) ولقد استعرض ويليمز (١٩٧٥م) حديثا المؤلفات المتعلقة بذلك الطور وبين امتداده الإستثنائي وتزامنه التقريبي.

حوض البحر الأبيض المتوسط

خلافا للتاريخ المناخي السائد خلال التجمد الأخير (منذ حوالي مائة ألف من السنين) والذي يبدو معقدا فيما يتعلق بحوض البحر الأبيض المتوسط (انظر ص ٤١٢) تشهد النتائج البلينولوجية (بوناتي، ١٩٦٦م.) والنتائج البيدولوجية (رودنبرغ، ١٩٧٠م) بان المناخ كان جافا وباردا في النهاية الجمودية القصوى. واحتل سهب جاف جدا منطقة البحر الأبيض المتوسط بين ١٦٠٠٠ و١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكثرت الغشاءات الكلسية بالأرض.

نصف الكرة الجنوبي

ان مستويات الحرارة باستراليا التي تشهد بها اللقحات قد هبطت بانتظام في حدود ١٨٠٠٠ أو ١٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، بينما كان الجفاف يحل بالمكان وكانت الهضاب تمتد على المسطحة القارية البارزة (بولر، وآل، ١٩٧٥م) وكان التجمد يحتل طزمانيا والجبال المكسوة بالثلوج، وجفت بحيرات استراليا الجنوبية في حوالي ١٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ان الدفء الذي يدل عليه صعود خط الأشجار في المرتفعات (تمبرلين) ابتداء في حوالي ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ولم يبدأ امتلاء البحيرات الشمالية باستراليا من جديد الا بعد ١١٠٠٠ سنة قبل الميلاد (بولر، وآل ١٩٧٥).

ولقد بين فان درهامن ١٩٧٤م وويليمز (١٩٧٥م) الخصائص المتشابهة التي تتميز بها مناخات نصفا الكرة الأرضية مدة التجمد الأقصى الأخير منذ حوالي ١٨٠٠٠ سنة. وباستثناء الجنوب الغربي من الولايات المتحدة، استمر جفاف عام مدة آلاف عديدة من السنين بمجموع مناطق المعمورة ذات الخط العرضي الأسفل.

١٢٠٠٠ سنة ــ إلى ٠ سنة قبل الميلاد

خطوط العرض العليا

تختص هذه الحقبة بانتهاء التجمد وعودة دفء ملحوظ، فارتفعت الحرارة الى أقصى درجة فيما بين ٧٥٠٠ و٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد. (الدرجة المناخية القصوى التي لا تزال تدعى «الحقبة الأطلسية»). وسرعان ما ذابت القبعة الجمودية للكورديلير، واضمحلت في حوالى ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد كما اضمحلت قبعة اسكندينافيا بعد ذلك بقليل (٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد). وسجلت تقلبات واضحة وسريعة مع فاصل زمني يقدر ب ٢٥٠٠ سنة (من ذلك تبرّد درياس (DRYAS) الحديث بين ١٠٨٠٠ و١٠١٠٠ سنة قبل الميلاد).

وسادت في أوروبا الشمالية أحوال تشابه أحوال الحاضر فيما يتعلق بالتثلج الذي أصابها في حوالي ٨٠٠٠ سنة وأصاب أمريكا الشمالية نحو ٧٠٠٠ سنة (المجمع القومي للعلوم ١٩٧٥ م) وفي تلك الحقبة أيضا تقلصت القبعة الجمودية للمحيط المتجمد الجنوبي.

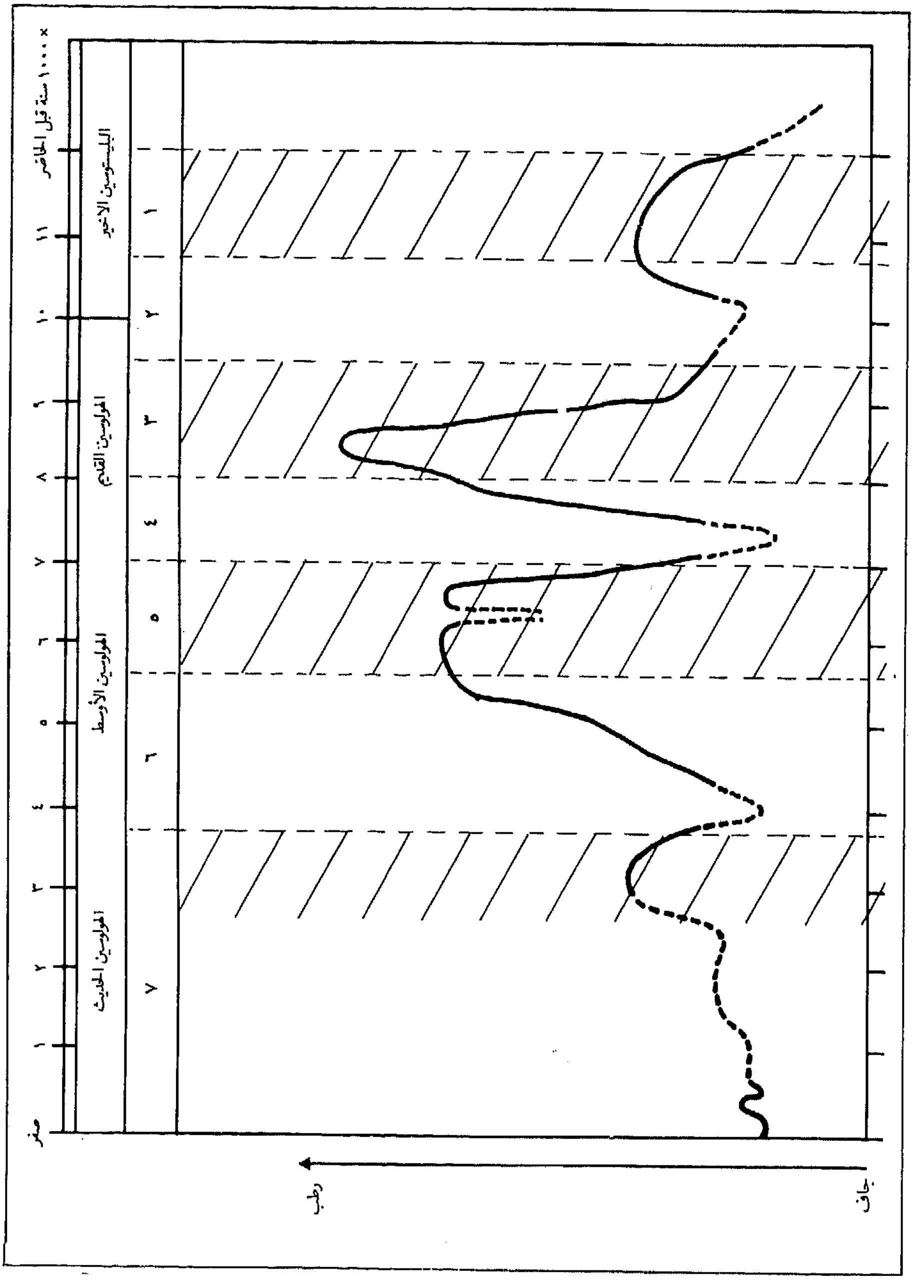
المحيطات

ان صعود مستوى البحر الذي يسجل معدل ذوبان جميع جموديات العالم، كان لا يزال سريعا جدا بين ١٢٠٠٠ و ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد (أكثر من متر واحد في القرن معدلا، يصاحبه تباطؤ كبير أو انسحاب حوالي ١١٠٠٠ قبل الميلاد). و يبدو أن المحيطات بلغت مستوى يقرب كثيرا من المستوى الحالي ابتداء من ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كما يبدو أنه ظل متأرجحا حول ذلك المستوى منذ ذلك العهد، مع الامتداد بقدر لا يتجاوز بعض الأمتار. وتتطابق مع هذا الاتجاه العام تقلبات يشهد بها منحنى الصعود الذي يؤكد وجود تحولات مناخية هامة (مورنر ١٩٧٣).

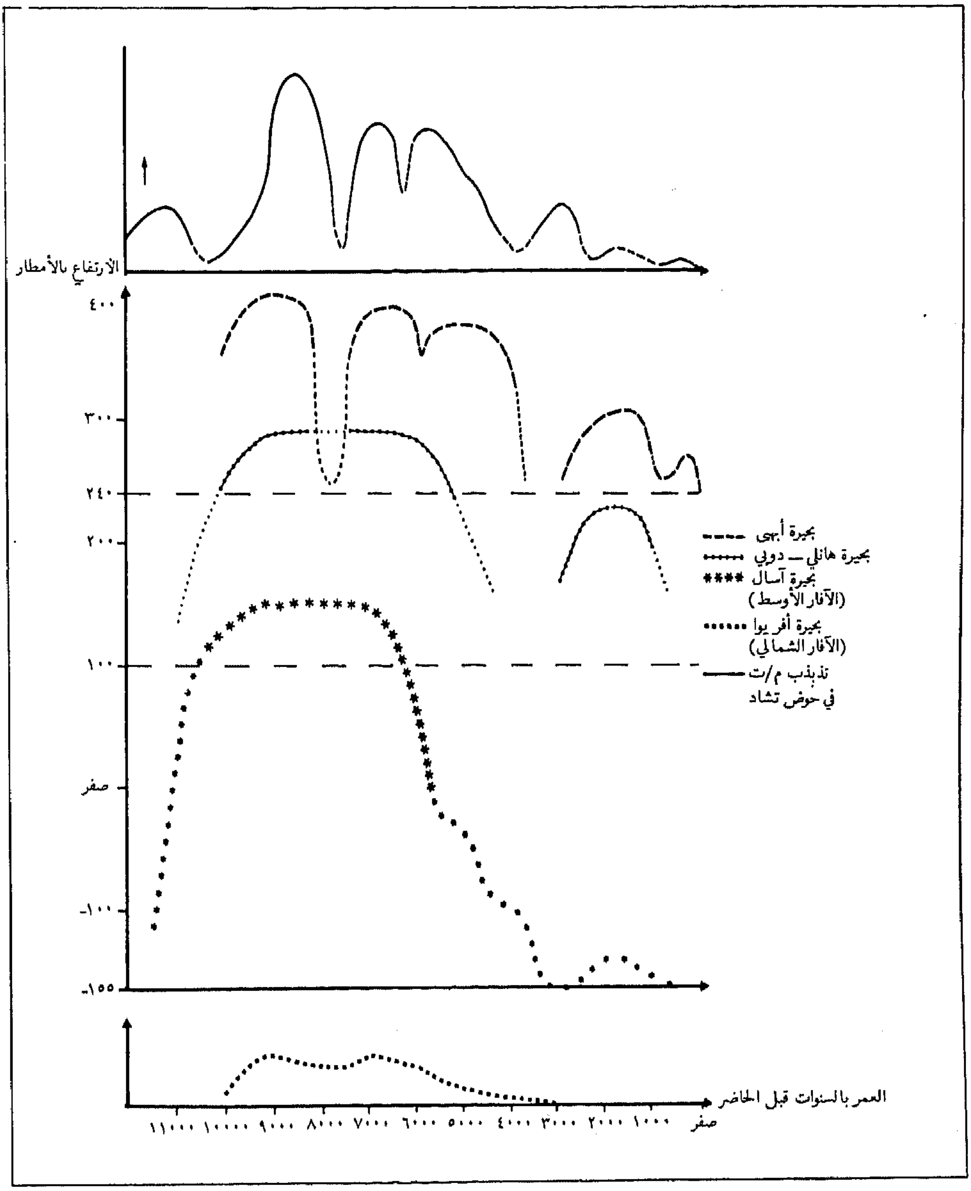
ان مناطق الترسيب البحري التي درسها وولن وأريكسن دراسة كافية، تسمح أيضا بأن نتتبع التبدلات في توزيع الفورامينفير وخاصة تغير النسبة المئوية للغلوبوروتاليا / ترونكاتولينوئيد التي لها التفاف مياسر، ان قمم المنحنيات الموافقة لها قد توافق حسب مورنر (١٩٧٣) قمم التبدلات المناخية التي سجلتها العلاقات النظائرية لجموديات غروئنلاند والسلالم البلينولوجية وتقلبات المستوى البحري. وهنا نبلغ حدود الدقة التي تسمح بها طريقة التاريخ الاشعاعي، فلابد عندئذ من تحشيات خطية بين التواريخ مع اعتبار تحولات مقدار الترسب. يضاف الى ذلك أن التفاوت في السلم الزمني للكربون ١٤ بالنسبة لسلم الزمن يفرض ادخال تصويبات تجعل من العسير وجود صلات بين الظواهر التي تقاس حدودها باعتبار قرن كامل.

افريقيا

لقد شهدت المناطق الصحراوية الافريقية بعد الجفاف الشديد خلال سنوات ١٦٠٠٠ الى ١٤٠٠٠، وابتداء من ١٢٠٠٠ قبل الميلاد، توسعا خارقا للعادة في البحيرات انطلاقا من سواحل المحيط الأطلسي الى سواحل البحر الأحمر. وتسمح كل المناطق المنهارة بأن نلاحظ في الواقع رواسب بحيرية متشكلة في أكثر الأحيان من المشطورات.



● شكل ٦ ـــ التطور النسبي للعلاقة بين معدّل المطر/البخر منذ ١٢٠٠٠ سنة في حوض تشاد، بين خطي عرض ١٣ و١٨ شمالا. وقد تم تحديد هذا التطور بعد دراسة مقارنة للتغيرات في مناسيب عدد من البحيرات التي تستمد مياهها بصفة رئيسية من الطبقات الجوفية، والسيلان، أو الانهار. (استنادا الى سرفانت، ١٩٧٣، ص ص ٤٠ ـــ ٥٢).



● شكل ٧ ــ تذبذب مستويات البحيرات في أحواض الافار (العفر). ويحتوي نفس الرسم على المنحنيات الخاصة ببحيرات ابهى، وهانلي ــ دوبي، وأسال التي ترجع الى العصر الحجري القديم وتقع في اقليم الافار الاوسط. أما المنحني الخاص ببحيرة أفر يرا فهو مستقل. والمقارنة مع المنحني م/ت في حوض تشاد. (استنادا الى ف. غاس، ١٩٧٥).

وفيما يتعلق بالنيجر والتشاد استطاع م. سرفنت أن يستنتج وجود منحنى متواصل يمثل العلاقة م/ت (الشكل ٦) وذلك باعتماد دراسة نماذج مختلفة من البحيرات و باعتبار طرق تزو يدها بالماء وأحوالها المائية الجيولوجية والجيومورفولوجية. ان ذلك المنحني المناخي يدل على التبدلات الكبرى التي يبدو أنها تحدث باطراد: من ذلك توسع البحيرات توسعا كبيرا في حوالي ٨٥٠٠ قبل الميلاد وتقلصها في حوالي ٤٠٠٠ قبل الميلاد ووقوع تقلبات طفيفة بعد ٣٠٠٠ قبل الميلاد وتحدث هذه التحولات الأساسية في مختلف بحيرات العفر (جاس، ١٩٧٥) (الشكل ٧)، مع اعتبار بعض الاستثناءات الناتجة عن طرق تزو يدها بالمياه. ونلاحظ تشابها واضحا بين منحنى التشاد ومنحنى رطوبة المنطقة البر ية السيبير ية.

ان دراسة البحيرات الافر يقية الأخرى تبين اتجاها تطور يا عاما، متشابها، و يرى ليفنغستون وفان زندرن باكر وجود توافق وثيق بين التطور المناخي بالشرق الافر يقي وتطوره بأور با.

و يبدو أن توسع البحيرات الصحراو ية الى حدود ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد مرتبط بامطار موزعة توز يعا أحسن طيلة السنة و بضبابية شديدة للتقليل من التبخر. و يعتقد م. سرفنت (١٩٧٣) ان الحركة المناخية كانت مختلفة عما هي عليه اليوم. ان وجود مستو يات عديدة من مشطورات مناطق «باردة» يجعله يفترض تسربات محتملة من الهواء القطبي الى الصحراء و يبدو ان النظام المناخي الحاضر لم يستقر الا بعد ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

نصف كرة الأرض الجنوبي

يحدد بولر وآل (١٩٧٥) اضمحلال الجموديات وتزايد الأمطار في حوالي ٨٠٠٠ سنة ق. م (جبل و يلهلم). وفي نفس الوقت طرأت تقلبات طفيفة وذلك بشمال استراليا وغينيا الجديدة. ولقد كانت حرارة الطقس الوسطى ما بين ٨٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة ق. م. تفوق بدرجة أو درجتين الحرارة الحالية، و يعتبر الحد الأقصى المناخي (حسب قياس الحرارة) حدا ذا قيمة عالية. وخضعت غابات المناطق الممطرة والحارة (الغابات الممطرة) لأحوال تطور مواتية جدا (منذ الجمودي السابق قبل ٦٠٠٠٠ سنة) بين ٧٠٠٠ و٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وكذلك الشأن بجنوب استراليا، اذ أن البحيرات الناشفة في ١٥٠٠٠ قبل الميلاد أخذت تمتلىء في ١١٠٠٠ قبل الميلاد وعرفت مستو يات عالية من ٨٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

و يبدو أن الدفء وتزايد الرطوبة المعروفة برطوبة خطوط العرض القر يبة من الإستواء ظاهرة عامة برزت مدة النصف الأول من ١٢٠٠٠ سنة الأخيرة، وهي حالة يتميز بها ما بين الجمودي الحالي.

خلاصة تخص التاريخ المناخي لـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة

تعطينا هذه الحقبة صورة عن التطور المناخي إثر التوسع الجمودي الأقصى (في نهاية حقبة

* حدث تقلص قبيل ٧٠٠٠ سنة ق. م. بقليل، وتوسع جديد في حوالي ٦٥٠٠ سنة

جمودية) وخلال زوال التجمد الذي أدى الى المابين جمودي الحالي. و يشهد هذا النموذج من نصف دورة في زوال التجمد بجفاف عام دام ٥٠٠٠ سنة بافريقيا ويميزانتهاء التجمد الذي تبعته مرحلة رطبة لها نفس المدة، متقلبة، عادة تدريجيا الى حالة الجفاف.

ويمكن ان نفسر هذه التقلبات المناخية في مستوى الـ ٢٠٠٠٠ سنة باعتبار تنقل الجبهات القطبية وأثرها على الجبهة ما بين المدارين (فيت: FIT)، وباعتبار النوعين من الحركات: أي السريعة والبطيئة.

ومن الممكن أن يكون هذا النموذج معبرا عن أحوال أخرى مشابهة ومن نفس السلم في الدهر الرابع، أي الاحوال التي كانت لها نفس المدة ونفس السعة. الا أنه لا يوجد ما يسمح بتعميم ذلك على مجموع حقبة جمودية مدتها ١٠٠٠٠٠ سنة، كما لا يمكن أن نعممه بالاحرى على مجموع التجمدات الحاصلة في الدهر الرابع والتي دامت ملايين عديدة من السنوات. واعتبارا لما سبق، سندرس الآن تأريخ حقبة جمودية في مجموعها.

التأريخ والمناخات منذ ١٣٠٠٠٠ سنة

ان الـ ١٣٠٠٠٠ سنة الأخيرة (أو البليستوسين الأعلى) تسمح بدراسة نموذج مناخي طبقي في مستوى زمني يتعلق بحقبة جمودية ــ بين جمودية كاملة. إن تاريخ تلك الحقبة يتجاوز تجاوزا كثيرا امكانيات التأريخ باشعاع الكربون التي مكنت من اثبات التتابع الدقيق نسبيا (بقياس القرن أو الالف سنة بالتقريب) للـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة، الا أن هذا الفاصل الزمني الموافق لما بين الجمودي الكبير الأخير (الايمي السابق للحالي)، وللتجمد الكبير الأخير (وورم = فسكنسي = فايشسلين = فلداي) أصبح معروفا نسبيا اعتمادا على ضبط زماني من درجة ١٠٪ أو ٢٠٪ فيما يتعلق بجزئه الأكثر قدما.

ان تعميم سرعات الترسب المعروفة، وتطبيق مناهج عدم توازن الاورانيوم والبوطاسيوم ــ آرغن الى الحد الأقصى من إمكانياتة يوفران لنا في المحيطات وفي الأحواض الترسبية، معطيات تاريخية اضافية. ان الادماج الخطي بين نقطتين مؤرختين من سلسلة متواصلة، تسمح بوضع تاريخ تقريبي، الا أنه لا يمكن تدقيق علاقات الترابط البعيدة تدقيقا كافيا اذا اعتبرنا الأحداث في مستوى زمن يكون دون بعض آلاف السنين. فيمكن أساسا ان نحدد أحسن تحديد الاتجاهات العامة التي تهم حقبة متوسطة (١٠٠٠٠ سنة) والتي يمكن مقارنتها بالنسبة الى منطقة وأخرى.

مقارنة بين المناطق

خطوط العرض العليا

ان نباتات البين جمودي تبين أن الحرارة بأوراسيا وأمريكا تقريبا حرارة الحقبة الأطلسية (بين ٧٠٠٠ و٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وذلك طيلة أطوار هذا البين جمودي الأكثر حرارة (بين ١٢٥٠٠٠ و٨٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وهذا يعني أنها كانت مختلفة قليلا عن الحرارة الحالية. وقد حدث هذان

البين جموديان فجأة بعد برد كبير (آخر طور بارد جدا لر يس: ١٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد وآخر طور بارد جدا لوورم: ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد).

المحيطات

يسجل تفاوت مستوى المحيطات تسجيلا حسنا الحدين الجموديين الأقصيين، باعتبار انخفاضات هامة في الحرارة (- ١١٠م ± ٢٠ بالنسبة للحدى الأقصى الثاني في حوالي ٢٠٠٠٠ الى ١٨٠٠٠ سنة) وتتشابه المستويات العليا المسجلة التي وقعت خلال البين جوديين الايمي والحالي (بنسبة ٥٪ بالتقريب) وقد تكون ارتفاعات مستوى البحر مدّة بين الطورين (٤٥٠٠٠ و٣٠٠٠٠) بلغت ما بين ٦٠ و ٨٠٪ من الارتفاع الأقصى (انشيري موريتانيا مثلا)، مما يؤكد ذوبان كتلة جمودية مساوية مدة ما بين الطورين.

افريقيا

من المحتمل أن يكون أثر الظواهر الجمودية، على غرار ما يجري في المحيطات، أقل وقعا في خطوط العرض القريبة من خط الاستواء. ان اختلافات الحرارة من طور جمودي الى طور بين جمودي والبالغة ٥° الى ١٠° في خطوط العرض الوسطى، يمكن أن تتراوح بين ٢° الى ٣° في خط الاستواء. أما الظاهرة التي يمكن تسجيلها بسهولة في افريقيا، فهي توزيع الامطار وكمياتها.

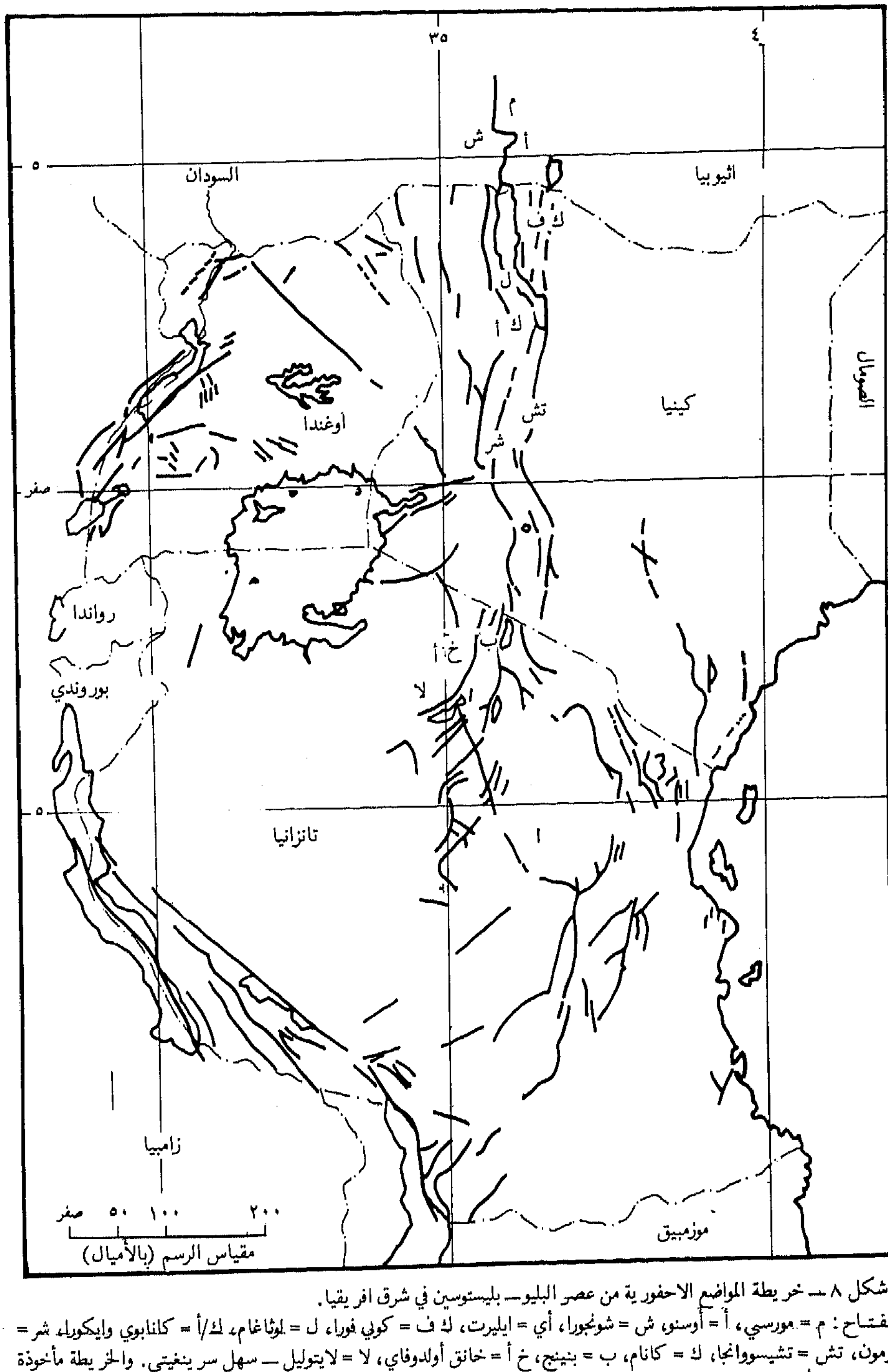
ان المناطق الافريقية التي توفر لها تأريخ قياسي اشعاعي مضبوط ضبطا محكما بالنسبة لـ ١٣٠٠٠٠ سنة الأخيرة، عددها قليل. الا أن سبر بحيرة أبهى (ABHE) قد مكن ف. غاس (١٩٧٥م) من أن يبرز ثلاثة أطوار بحيرية بالبليستوسين الأعلى قبل وقوع التجفف من ٢٠٠٠٠ سنة الى ١٤٠٠٠ سنة. واليك هذه الحقبات البحيرية المعتبرة: حقبة ٣٠٠٠٠ سنة الى ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد (المناخ رطب استوائي معتدل)، يفصلها عن توسع بحيري آخر وقع منذ حوالي ٤٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ قبل الميلاد تقلص هام وقع منذ حوالي ٣٠٠٠٠ سنة. ولذلك قد يعود تاريخ أقدم طور بحيري الى ٥٠٠٠٠ أو ٦٠٠٠٠ سنة (أو ربما ٦٠ ــ ٨٠٠٠٠ سنة) و يوافق حقبة أكثر برودة تدل عليها المشطورات النباتية.

لقد وفرت لنا دراسة اللقاحات بالوادي الاعلى من آواش في بلاد العفر علامة أخرى عن تحول مناخي تاريخه غير مضبوط يعود الى البليستوسين، حيث استدل ر. بونفي (١٩٧٣م، ١٩٧٤) على وجود مناخ أكثر رطوبة من المناخ الحالي، ومن المحتمل أن يكون أبرد منه، وهو خاص بالسهوب الواقعة في المرتفعات.

حوض البحر الابيض المتوسط

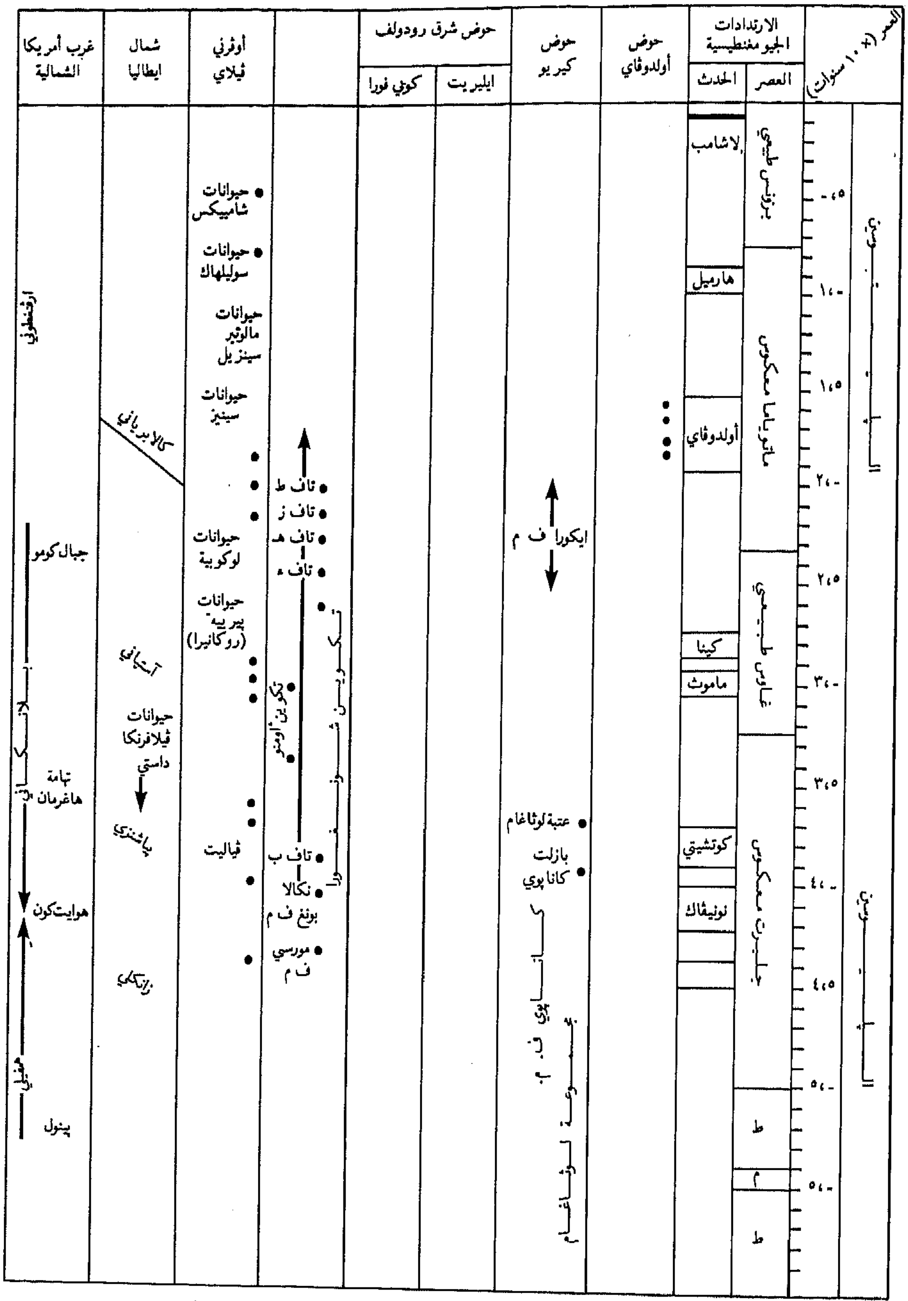
ان حوض البحر الأبيض المتوسط الكائن بين المنطقتين الجغرافيتين المدروستين سابقا يشكل ميدانا مناخيا هاما و يبدو تطوره معقدا. ولا يمكن أن نعتبر بصفة خاصة أن التجمدات قد مكنت بكل بساطة استقرار مناخ رطب به.

فلقد توصل فاران (١٩٧٧) بعد تحليل الدراسات البلنلجية والميكروبليونتولوجية والنظائرية التي جرت بالشرق من البحر الأبيض المتوسط، واليونان، واسرائيل (قام بهذه الدراسات اميلياني،



● شكل ٨ ـــ خريطة المواضع الاحفورية من عصر البليوـــ بليستوسين في شرق افريقيا.

المفتـاح: م = مورسي، أ = أوسنو، ش = شونجورا، أي = ايليرت، ك ف = كوبي فورا، ل = لوثاغام، ك/أ = كانابوي وايكوريك شر = شرمون، تش = تشيسووانجا، ك = كانام، ب = بنينج، خ أ = خانق أولدوفاي، لا = لايتوليل ـــ سهل سر ينغيتي. والخريطة مأخوذة في جانبها الأكبر من الخريطة الجيولوجية المرسومة بمقياس ١ : ٤٠٠٠٠٠٠ لشرق أفريقيا (كينيا). (استنادا الى ف. كلارك هوو يا، ١٩٧٢).



● الشكل ٩: تاريخ اشعاعي ومغناطيسي للبليوبليستوسين من الشرق الأفريقي ومن الجنوب الغربي بأوروبا، ومن الشمال الغربي من أمريكا، اعتمادا على كلارك هوويل (١٩٧٢).

١٩٥٥ وفرنو- كراز يني،وهرمن - روزنبرغ،١٩٦٩،وويمستـرا ١٩٦٩وفان درهامن، ١٩٧١، ورو يسنيول، ١٩٦٩، وايسار، ١٩٦٨، وايسار و بيكار، ١٩٦٩) الى النتيجة التي تفيد أن انخفاض الحرارة مدة التجمد الأخير قد يكون بمعّدل ٤° بالنسبة للفضاء وبمعدل ٥° الى ١٠° بالنسبة للبحر. ولقد كان الجفاف أكبر باليونان طيلة الحقبة الجمودية بينما جرى عكس ذلك على سواحل اسرائيل.

وعلى النقيض من هذا، فإن دراسة البقايا الصغيرة من الثديات (القواضم) (انظر تشرنوف، ١٩٦٩ بكتاب فاران، ١٩٧١) قد تفيد تطور أحوال جو ية رطبة تطورا تدريجيا نحو أحوال جو ية جافة مدة الـ٨٠٠٠٠ سنة الأخيرة. ولقد انخفض مستوى بحيرة لسان باسرائيل في حوالي ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد بمقدار ١٩٠ في ظرف ١٠٠٠ سنة بسبب انتشاف (مترابط مع حركة بنيو ية أديمية بالرفت في البحر الأحمر). ولقد سبق أن رأينا (ص ٤٠٣) أن انتهاء التوسع الأقصى من برد وورم يوافق أحوالا جو ية باردة وجافة في مجموع البحر الأبيض المتوسط.

ان تعقد الحالة الجغرافية المناخية بحوض البحر الأبيض المتوسط مازال يستوجب كما هو الشأن بافر يقيا، دراسات مفصلة ستفيد في ضبط تطور المناخ باعتبار طور وورم.

خلاصة تتعلق بالتاريخ والمناخات منذ ١٣٠٠٠ سنة

توفر الحقبة الجمودية الاخيرة نموذجا عن دور مناخي كامل يقاس بحوالي مائة الف من السنوات (بين جمودي — جمودي — بين جمودي) مع اعتبار تقلباته البين طور ية والطور ية التي دامت تقر يبا ١٠٠٠٠ سنة. ولقد تميزت هذه الفترة بافر يقيا بتوسعات بحير ية (مدتها تقارب الاولى)، تفصلها أطوار من التجفف.

ان التدقيق التاريخي لا يسمح نظرا الى معارفنا الحالية، بر بط الصلة ر بطا مؤكدا بين الاطوار الباردة أو الدافئة مع الأطوار الرطبة أو الجافة بافر يقيا. ونحن نأمل ان نجيب على هذه المسألة في المستقبل، الاعمال الجار ية المعتمدة على مقاطع واستبارات تدل على تتابع متواصل في الأحداث.

التأريخ والمناخات منذ ٣٥٠٠٠٠٠ سنة

ان الاتجاه البطيء نحو البرد الذي يميز الدهر الرابع، ابتدأ منذ ٥٥ مليون سنة تقر يبا (انخفاض المناخ في الدهر الحديث) (المجمع القومي للعلوم ١٩٧٥). ان القبعة الجمودية بالقطب الجنوبي التي تشكلت منذ حوالي ٢٥ مليون سنة، قد ازدادت كثيرا منذ حوالي عشرة ملايين سنة ثم حوالي ٥، أو ٤ ملايين سنة، اذا كادت تبلغ عندئذ حجمها الحالي. وظهرت قبعة القطب الشمالي المبسوطة على القارات المجاورة للمحيط الاطلسي الشمالي منذ حوالي ٣ ملايين سنة. وابتدأ البرد الاكبر الأول الطارىء على جميع المحيطات منذ حوالي ١٫٨ مليون سنة (انظر بندي في كتاب بيشوب، ميلّر ١٩٧٢) وذلك قبيل قاعدة الطبقة البحر ية «كالابري» عند حدوث جيلسا (١٫٧٩ مليون سنة).

لقد زودتنا مناطق عديدة من افريقيا (تشاد، افريقيا الشرقية الخ) بحيوانات فقرية وافرة، فاعتبرت انها ترجع الى عهد الفيلافرنشي (بين ٣ر٣ و ٧ر١، أو مليون سنة). ولكن بعض المجموعات من الثديات تدعو الى الاعتقاد بوجود أحوال من الرطوبة تفوق الرطوبة التي تختص بها البيئة الحالية للطبقات المعدنية. ولذلك فلقد اعتبرت دليلا على أنها ترجع الى عهد «الممطارات» بافريقيا.

ان الطبقات الأكثر تفصيلا، المعتمدة على تاريخ (أ/ك) وجيولوجي مغناطيسي، هي ترسبات الاغوار (رفت) بالشرق الافريقي. ففي هذا النوع من الملء الرسوبي يكون ابراز أثر المناخ أعسر مما هو على بنية الأرض أو في البراكين أو في التغيرات الطوبوغرافية مما حدا بالمؤلفين الى أن يتركوا حاليا اعتماد تسلسل مناخي مفصل. وعلى النقيض من ذلك فان التأريخ الطبقي يعتبر أمرا ثابتا و يعتبر مرجعا من المراجع العالمية.

ان التسلسلات الرسوبية المؤرخة، الموجودة بمختلف الطبقات الفقرية أو البشرية بافريقيا الشرقية (الشكلان ٨ و ٩) هي:

ــ اومو (بأثيوبيا): يختص بتشكل طبقي هو تشكل شنغورة البالغ سمكه تقريبا ١٠٠٠ م وتتراوح مدته ما بين ٢ر٣ الى ٨ر٠ مليون سنة (اعتمادا على هنزلين، و بروان، وهوول ١٩٧١م، وكوبنس، ١٩٧٢م و بيشوب، وميلّر، ١٩٧٢م، وهوول، ١٩٧٢م، و بروان ١٩٧٢م، ١٩٧٥م).

ان دراسة اللقاحات لتشكل شنغورة قد أبرزت تحولا مناخيا هاما استحال الى الجفاف وذلك منذ مليوني سنة، وبمو سباسب عشبية من النجيليات (بونفي ١٩٧٣م، ١٩٧٤م). وتؤكد دراسة الحيوانات هذا التحول. ويمكن أن تقترح موازاته بحقبة برد عالمي طرأ على المحيطات (٨ر١ مليون سنة).

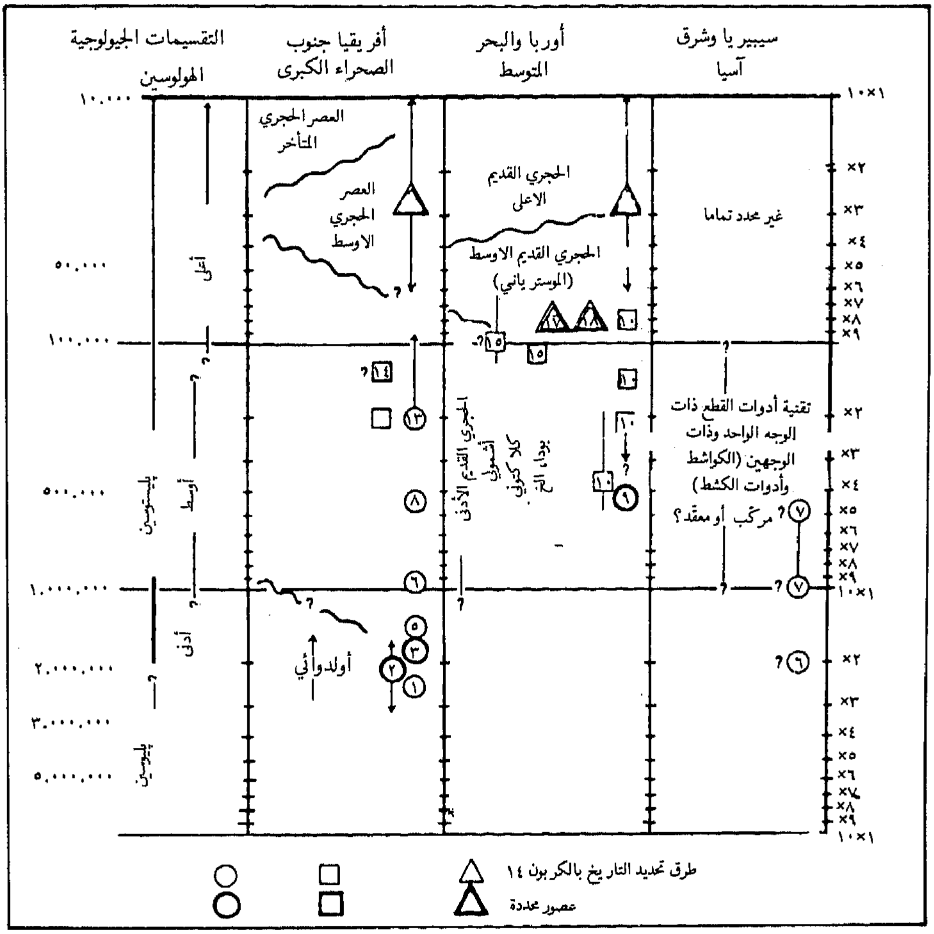
ــ أولدواي (طانزانيا): ان تسلسل التشكلات الكلاسيكية وتأريخها هو كما يلي

ــ مجاري ندوتو		٠٣٢ر٠ مليون سنة
		٤ر٠
ــ مجاري ماسين		٦ر٠
	مجرى ٤	٨ر٠
(الكنكرني القديم)	مجرى ٣	١٥ر١
	مجرى ٢	٧ر١
(الكاماسي القديم)	مجرى ١	١ر٢

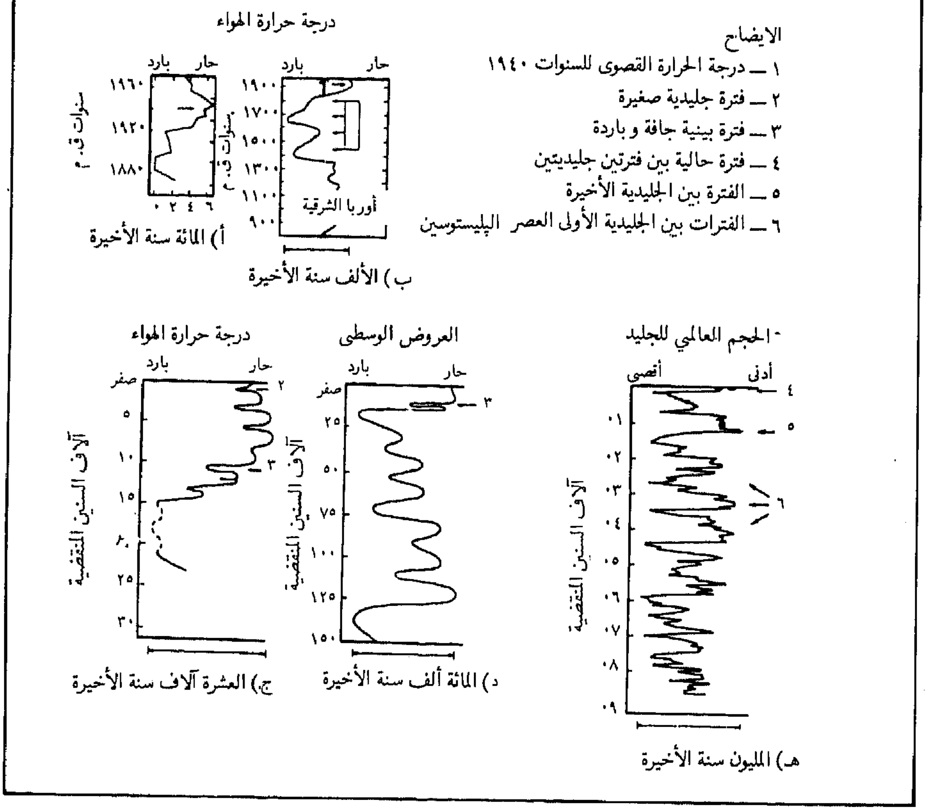
(بالاعتماد على ليكي وكوك، و بيشوب ١٩٧٦م، وهوول، ١٩٧٢م، وهاي، ١٩٧٥م)

ــ شرقي رودولف (كينيا): ان الطبقة الملخصة في الشكل ١٠ والتي وضعها بروك و اسحاق (١٩٧٤) تهم ٣٢٥ مترا من الترسبات التي تمتد على الزمن المتراوح بين ٥ر٣ الى ٥ر١ مليون سنة (اعتمادا على بوون، و بروك، واسحاق، وفندرا، ١٩٧٤م).

ــ هدر، في العفر الأوسط (اثيوبيا): ان التشكلات البشرية ذات الأحفورات الوافرة الموجودة في هدر، في العفر الأوسط، التي درستها المجموعة (المتكونة من البعثة الدولية من أجل البحث بالعفر) تعود الى حوالي ٣ ملايين سنة حسب يوهنسن والطيب ومجموعتها (١٩٧٤، ١٩٧٥).



● شكل ١٠ ــ التتابع والايقاع الزمنيان لتطور الحضارات خلال عصر البليستوسين، بالمقارنة مع تطور أسلاف أو أشباه البشر. و. و. بيشوب وج. أ. مللر، ١٩٧٢، ص ص ٣٨١ ــ ٤٣٠، شكل ٩، استنادا الى ج. ل. ايزاك. وقد عرضت الافاق الثقافية الرئيسية وفق مقياس زمني لوغار يتمي. كما أن التوار يخ التي استقر تحديدها بصفة خاصة مبنية برموز ذات خطوط سميكة.



● شكل ١١ ــ الاتجاهات العامة للمناخ في العالم منذ مليون سنة.
أ) تغيرات المتوسط الخمسي لدرجات الحرارة السطحية في المنطقة بين خطي عرض صفر و ٨٠ شمالا خلال المائة سنة الاخيرة (ميتشل ١٩٦٣)؛ ب) مؤشر قسوة الشتاء في أوربا الشرقية خلال الالف سنة الأخيرة (لام، ١٩٦٩)؛ جـ) الإتجاهات العامة لدرجات حرارة الهواء في العروض الوسطى لنصف الكرة الشمالي خلال لـ ١٥٠٠٠ سنة الماضية، طبقا للارتفاعات القصوى للاشجار (لامارش، ١٩٧٥)، والتغيّرات الهامشية في الثلاجات الالبية والقارية (دنتون وكارلن، ١٩٧٣)، وتغيرات الغطاء النباتي التي سجلت من مجموعات الطلع (فان دير هامن وآخرين، ١٩٧١ ؛ د) الاتجاهات العامة لدرجة حرارة الهواء في نصف الكرة الشمالي خلال الـ ١٠٠٠٠٠ سنة الماضية، وفقا لدرجات حرارة المياه السطحية في العروض الوسطى، وبيانات الباليئولوجيا (دراسة الطلع الاحفوري) والبيانات العالمية الخاصة بمناسيب البحار؛ هـ) التغيرات في حجم الجليد العالمي منذ مليون سنة، وفقا لتطوّر التكوين النظائري للبلانكتون الاحفوري في القبعة تحت البحرية ٢٣٨ ــ ٢٨ (شاكلتون واوبدايك، ١٩٧٣).

ان الاعمال الجارية حاليا بتلك المناطق من الشرق الإفريقي ستسمح في بضع سنوات باقتراح تطور مناخي جديد يعتمد على الرسوبية وعلى علم البيئة النباتي والحيواني و يأخذ بعين الاعتبار تداخل العوامل البنيوية والبركانية. ولقد درست دراسات مكثفة مناطق أخرى من افريقيا مثل سوارا (أليمان وجماعته، ١٩٥٩م، اليمان ١٩٧٥م) ووادي النيل (وندورف، ١٩٦٨م، بوتزر وهنسن، ١٩٦٨م،وهنزلين،١٩٦٨م،وفيغنباك،١٩٦٨م،وسعيد (تحت الطبع) والتشاد (كوبنس،١٩٦٥م وسرفنت، ١٩٧٣م)، وافريقيا الشمالية. ان التحولات المناخية المقترحة تعتمد على تسلسل الترسبات والتحفرات النهرية، أو على تعاقب الحيوانات الثديية، ولا يمكن الآن، لا سيما عند فقدان تأريخ بالقياس الاشعاعي، أو المغناطيسي الطبقي، أن نربط هذه التحولات بالتقلبات الجمودية الأوربية.

الخلاصة

ان تزايد الانخفاضات الحرارية بالمعمورة، المربوط بتغيرات المناخ عبر الزمن من مميزات السينوزويك الأعلى منذ ٥ ملايين سنة. ولقد تسبب على مستوى خطوط العرض القطبية في تغيرات حرارية هامة، كانت أساسا للحقبات الجمودية والحقبات بين الجمودية. ان التقلبات الحرارية تضعف نسبيا في مستوى خطوط العرض بين المدارين. الا أن التنقلات الطقسية التي يشوشها تعزيز أو ضعف الجبهات القطبية، تتسبب في تغيرات هامة في توزيع الأمطار وكمياتها التي تساهم في تبديل محيط مختلف المناطق المناخية تبديلا عميقا. ان هذه التغيرات المناخية عندما تحول دوريا الوسط الجغرافي والنباتي، وهو اطار حياة الحيوان وتطور البشر، تنظم تاريخ تطور افريقيا بطريقة أكثر خفاء من طريقة الجموديات بأوربا.

ان ما يجدر الإحتفاظ به من هذه اللمحة السريعة عن حالة معارفنا المتعلقة بالتأريخ والتغيرات المناخية بافريقيا، هوضرورة متابعة رصد الأحداث الملحوظة والمقيسة قبل أن تجمد معارفنا المتناثرة في قالب نظرية متحجرة. ولا بد من جهة أن نعتبر أهمية السلم الزمني المتصل بمختلف المظاهر من تغيرات المناخ. فيجب أن نتنبه الى وضع كل مشاهدة وكل ظاهرة في سلم الزمن الذي تنسبان اليه. وذلك ما يشهد به الشكل ١٤، المأخوذ من مؤلف المجمع القومي للعلوم (١٩٧٥م)، حيث ذكرت أمثلة خمسة من التغيرات المناخية باعتبار سلالم من الزمن تتراوح بين القرن ومليون سنة.

الفصل السابع عشر

ظهور الانسان
المشاكل العامة

القسم الأول

بقلم: ل. بالوت
واي. كوبنس

المعطيات الاحاثية

الإنسان حيوان ثديي، و بعبارة ادق حيوان ثديي مشيمي(١).وهو من فصيلة المقدمات(Primates).

المعايير الاحاثية (Paléontologiques)

تختلف المقدمات التي ينتسب إليها الإنسان عن الثدييات الأخرى المشيمية بنمو المخ المبكر، وتحسن الرؤية المجسدة للأشكال، وصغر الوجه، والاستعاضة عن المخالب بأظفار مبسوطة، ومقابلة الإبهام للأصابع الاخرى. ان المقدمات تنقسم الى ما قبل القردة والى القردة. و ينتسب الإنسان الى القسم الثاني الذي يتميز بتزايد القامة، وانتقال محاجر العينين الى القسم الأمامي من الوجه، مما كان له أثر في تحسن الرؤية واستقلال الفراغين الصدغيين.

ولقد حدث فجأة انقلاب في أشكال تلك القردة، وذلك في الأوليغوسين الأعلى منذ حوالي ٣٠٠٠٠٠٠٠ سنة، مما يجعلنا نفترض أن تميز فصيلة البشريات يمكن أن يعود الى ذلك العهد. ان كتابة تاريخ هذه البشريات يستوجب ان نبحث في تلك الأحفورات التي تتجه ميولها التطورية نحو الصفات المميزة للجنس البشري الذي نحن منه، ومن ذلك خاصية الرجلين وما ينجرّ عنها من تغيرات في القدم، والرجل، والحوض، واتجاه الدماغ، ونسبة العمود الفقري ونمو الجمجمة وصغر الوجه، واستدارة قوس الأسنان وصغر الأنياب، وتعمق الحنك الخ.

(١) تمثل الثديات أكثر ما تطور من أقسام الفقريات الخمس، وتعتبر الثديات المشيمية أكثر الثديات تطورا اذ لها عضوا جديد، وهو المشيمة الصالحة لتنفس الجنين وتغذيته.

ان قرد بـرو بـلـيـو (Propliopithèque) الـذي عاش في الاوليغوسين الأعلى يتميز الى حد ما ببعض تلك الصفات، مما نشأ عنه حماس سابق لأوانه عند بعض المؤلفين الذين يعتبرونه من جنسنا.

أما الصفات الملحوظة عند قردة راما (Ramapithèque)، فتبدو أكثر دلالة، اذ يظهر ان المخ قد بلغ عندها ٤٠٠ سنتمتر مكعب واصبح الوجه أصغر، واستدار قوس الأسنان، ونبتت بشكل عمودي الثانيا والأنياب التي أصبحت أصغر أيضا. وبما أن مقدما بشريا آخر، وهو قرد أوريو (Oreopithèque) الذي عثر على هيكله كاملا، بما أنه يتصف بنفس الصفات المخية وبحوض يناسب من يمشي أحيانا على رجلين، لذلك يمكن لنا أن نفترض أن الهيكل الواقع أسفل المخ عند قرد راما الذي لم يعثر عليه بعد، قد يشمل هو أيضا على كلّ هذه الصفات الأولى المناسبة لاستقامة الجسم.

اما الصفات التطورية الخاصة بقردة أوسترالو (قردة الجنوب Australopithèque) فانها لا تدع مجالا للشك، فهي تمشي دوما على رجلين، ولها قدم انسان، و يد عصرية جدا ومخ متزايد الحجم، وأنياب صغيرة ووجه مصغر، فلا بد اذن من ان نعتبرها من البشريات.

يتميز جنس الإنسان الذي يأتي في نهاية السلسلة، عن قردة أوسترالو، بتزايد القامة، وتحسن في الوقوف مستقيما، وتزايد في حجم المخ الذي كان يبلغ بالنسبة لأقدم الأنواع ٨٠٠ سنتمتر معكب، كما يتميز بتحول في الأسنان يتمثل في نمو الاسنان الامامية بالنسبة للأسنان الجانبية وذلك إثر تغير نظامه الغذائي النباتي الى نظامه الغذائي القارتي (يأكل كل ما يجده).

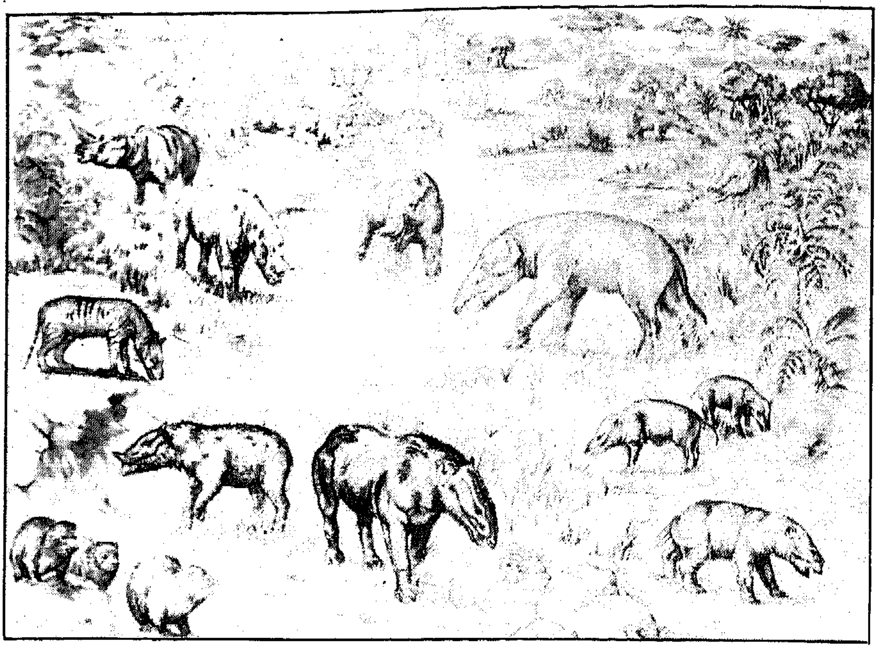
ومن هنا ونرى أن طريقة عمل الباحث الإحاثي (Paléontologiste) تستوجب دراسة تشريحية مقارنة ودينامية على السواء. واعتبارا أن التطور ينطلق دائما من البسيط الى المعقد، ومن العام الى الخاص، وجب عليه أن يعثر على أحفورات صالحة للمقارنة وتكون، مع اعتبار العمر الجيولوجي، على درجة من الإختلاف عن الإنسان الذي يبحث عن أسلافه.

ان أقدم المقدمات هي مخلوقات ما قبل القرد (Prosimiens) التي تمثلها اليوم الليموريات الملغاشية، والترسيات الفيليبينية والاندونيسية، والغالاغوس الصغير في افريقيا المدارية وقد انقسمت القردة منذ الايوسين (٢) الى مجموعتين كبيرتين: الفنطاسيات (٣) أو قردة العالم الجديد، المستعرضة الأنوف والتي لها ٣٦ سنا، وسفليات المنخرين، أو قردة العالم القديم الرقيقة الأنوف والتي لها ٣٢ سنا.

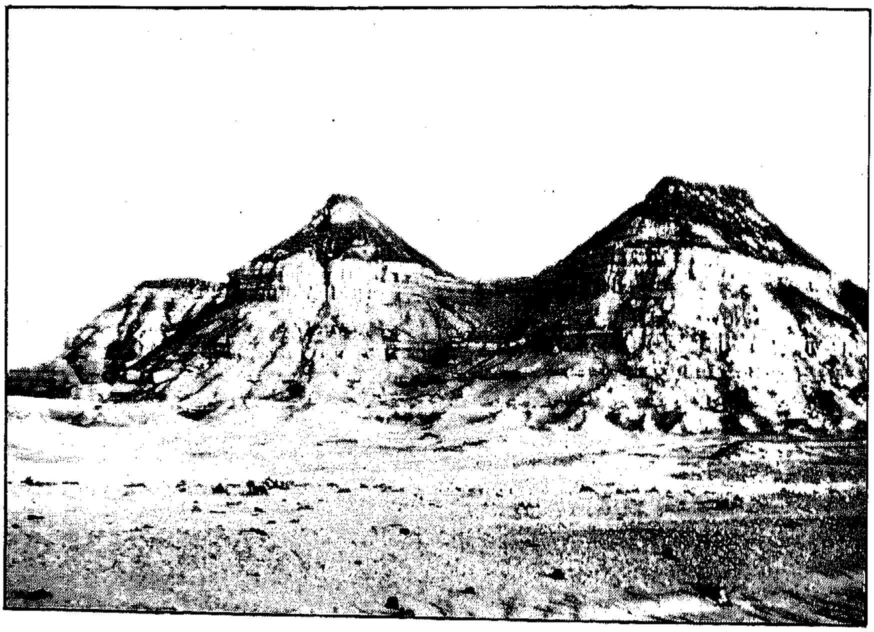
وستنقسم سفليات المنخرين الى عدد من الأسر وهي الذيالات، والبنجديات، والبشريات والشقوق، وقردة الجبال وقردة سيفا والقردة العملاقة الخ.

(٢) اننا نذكر ان الزمن الجيولوجي ينقسم الى عهود: الأول، والثاني، والثالث، والرابع. ولقد ظهرت المقدمات البشرية في آخر العصر العهد الثاني، وذلك منذ ٧٠ مليون سنة وأخذت تتطور منذ العصرين الثالث والرابع. و ينقسم العهد الثالث الى خمسة طبقات وهي، ابتداء من اقدمها الى أحدثها، البليوسين، والايبوسين والأوليغوسين والميوسين والبليوسين. أما العهد الرابع فانه لا يشمل الا طبقتين: البليستوسين والهولوسين.

(٣) يوجد في آخر هذا الفصل معجم يفسر معاني مختلف المصطلحات العلمية المستعملة.



١



٢

● ١) اعادة بناء بيئة الفيوم كما كانت منذ ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٠ سنة. رسوم برتونتشيني ــ غايار باشراف ايف كوبان؛ معرض أصل الانسان، متحف الانسان (سبتمبر/أيلول ١٩٧٦ ـــ أبريل/نيسان ١٩٧٨)، (تصوير: أيف كوبان)، مجموعة متحف الانسان.

● ٢) طبقات عصري الايوسين والاوليغوسين في الفيوم، مصر. مجموعة متحف الانسان (تصوير الوين سايمونز).

ما بين ٢٠ و ٤٠ مليون سنة

ليس من السهل أن ندرك ما عسى أن يكون قد وقع بالايبوسين والأوليغوسين، أي بين ٢٠ و٤٠ مليون سنة، لأن المنافذ المفتوحة على هذا الماضي قليلة.

الا أن الموقع الرائع الموجود بالفيوم، على بعد بعض الكيلومترات من القاهرة، قد زود مختلف البعثات التي أتت لاستقاء المعلومات منه، بأنواع مدهشة من المقدمات البشرية وهي: شبه القرد، والقرد الذبابي ذو الذيل الاوليغوسين، وقرد ما قبل البليستوسين، وقرد الريح، وقرد مصر.

ان شبه القرد والقرد الذبابي ذا الذيل يختصان بثلاثة اضراس أمامية آي ٣٦ سنا مثل ما بعد القرديات ومثل قردة العالم الجديد، أي القنطاسيات. و يوجد جنس ثالث، له مرفولوجية مشابهة، وهو القرد البري ــ المائي الذي يوجد في بورما.

وهناك خصائص كثيرة وأخرى تجعل هذه المقدمات البشرية شبيهة بسفليات المنخرين التي تختص بـ ٣٢ سنا. و يتعلق الأمر هنا بأسلاف سفليات المنخرين.

ان أول نظرة الى الوراء تبرز لنا كيف أصبح السبيل ممهدا لظهور ما قبل البشر، و يستدل عليه بمرحلة سفليات المنخرين ذات الـ ٣٦ سنا و بثلاثة أشخاص، وهي شبه القرد، والقرد البري ــ المائي والقرد الذبابي.

ويختص قرد الأوليغوسين، وقرد ما قبل البليستوسين، وقرد الريح وقرد مصر، بضرسين أماميين. فيتعلق الأمر بسفليات المناخر ذاتها التي لها ٣٢ سنا. ان قرد أوليغوسين، وهو مقدم بشري صغير ذو ٣٠ سنتمترات علوا يختص بأضراس من النوع البدائي، و يدل على أنه من طبقة القرد الذيال. فهو أقدم مقدم بشري معروف له ٣٢ سنا. أما قرد الريح فانه يختص بأنياب كبيرة وأضراس لها حديبات مستقلة. ويحتمل أن يكون سلفا للجيبونات أو الشقوق (Gibbons). وتوجد قرابة بينة وبين قردة (البليوبيتيك)، من الميوسين بأوربا، وقردة البحيرات (اللمنوبيتيك). من الميوسين بالكينيا والأوغندا.

ويختص قرد مصر أيضا بأنياب كبيرة و بأضراس أمامية متغايرة الشكل (٤) إنه سلف قردة الدريوبيتيك التي عثر عليها بالعالم القديم، ويحتمل أن يكون سلفا للشمبنزي. ويختص قرد ما قبل البليستوسين بأنياب أضعف و بضرس أول سفلي له حديبة ونصف. و يعتبر أنه فاتحة لتشابه أشكال الضرسين الأسفلين، اللذين تختص بهما البشريات. فهل يعني ذلك أنه سلف المجموعة، أم أنه بكل تواضع للسلف المشترك للقردة الكبرى وللإنسان أم أنه أصبح بنجديا؟.

ومهما كانت درجة القرابة، فان أهمية تلك الفترة بالشمال الشرقي من افريقيا، منذ ٣٠ مليون سنة تبين وجود تنوع كبير في المقدمات الصغيرة التي آذنت بالمقدمات الحالية كلها، أي القردة الذيالية، والبنجديات، والهيلوباتيديات، والبشريات. وذلك يعني أن جميع الإتجاهات الأساسية قد تحققت.

---

(٤) الأضراس الأمامية والأضراس لها تيجان تفصلها شقوق في شكل حدبات صغيرة تدعى المذالق أو الحديبات، و يتشابه الضرس الأول الأسفل عند القردة الكبرى (البنجديات) الناب وله مذالق، و يشبه ذلك السنّ عند البشريات ضرسا أماميا ثانيا وله مذلق فيتعلّق الأمر في الحالة الأولى باختلاف أشكال الاضراس، وفي الثانية بتشابه الاشكال.

ما بين ١٠ و ٢٠ مليون سنة

حصلت أنواع أخرى في التقدم.

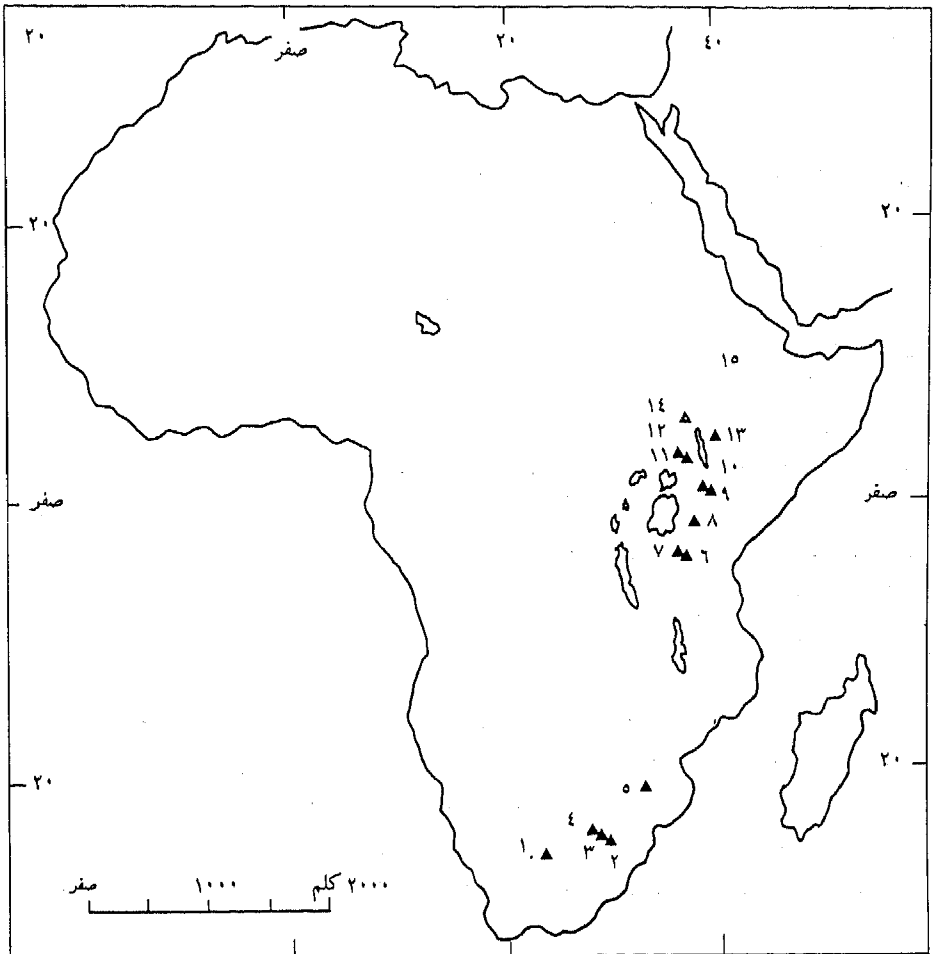
اكتشف ل. س. ب. لايكي بالكينيا والأغندا، بقايا مقدم بشري صغير وهو القرد الكيني الإفريقي فصنفه في فصيلة البشريات. و يرجع هذا المقدم البشري الى عهد ٢٠٠٠٠٠٠٠ سنة، وقوس أسنانه مستدير، وأسنانه الخدية (٥) العليا متباعدة، ونتوء فكه ضعيف (٦) وثناياه وأنيابه نابتة عمودياً، وتيجان أضراسه الامامية واطئة. ولقد رأى فيه كثير من المؤلفين سمات القردة الكبرى. ولقد وجد ل. س. ب. لايكي بالكينيا أيضا، في فورترنان، ما يعتبره نوعا آخر من نفس الجنس، وهو قرد الكينيا فكري، وقد أرجعه في هذه المرة الى تاريخ ١٤٠٠٠٠٠٠ سنة. ونجد مؤلفين آخرين ينسبون هذا المقدم الى البنجديات اعتمادا على سمات أخرى، أو لتأويلهم بطريقة مختلفة الخصائص الموصوفة. وكان ل. س. ب. لايكي قد أتى لصالح مرشحه الجديد، بحجج قاطعة لأنه اعتمد حججا ثقافية. ولقد قدّم في المؤتمر الافريقي بداكار سنة ١٩٦٧، أحجارا من البازالت كانت حوافها الطبيعية تشتمل على آثار تدل على استعمالها. وصرح سنة ١٩٧١ بأديس أبابا أن معظم العظام الحيوانية المكتشفة والمتعلقة بقرد الكينيا فكري كانت مهشمة تهشيا مصطنعا. فمن العجيب جدا تصور ذلك المقدم الصغير الافريقي وهو يختار أحجارا حادة أو قاطعة لتحضير طعامه. وعلى أية حال، فهذا ليس بمستحيل نظريا.

ولقد عثر في ١٩٣٤، بالتشكلات نصف البليوسينية بشمال الهند والباكستان، على مقدم آخر وهو قرد راما البنجابي. و يرجع عهده أيضا الى ٨ أو ١٤ مليون سنة. ولقد درسه سيمونز دي يال من جديد وربطه ببقايا تنسب الى قرد راما. فهو مقدم صغير يزن بين ١٨ و ٣٦ كلغ. ان وجهه القصير وفكه الكثيف ذا الفرع المتصاعد العمودي، واستقامة أنيابه وثناياه الصغيرة وتأخر بروز أضراسه، ومشابهة أضراسه الامامية السفلى لأضراس البشر، قد جعلت كثيرا من المؤلفين، وليس كلهم، يقرون أن قرد راما البنجابي من البشريات. بل ذهب سيمونز الى ربط هذا الأحفور الهندي بالقرد الكيني من افريقيا الشرقية و ببعض الإكتشافات المعزولة في الصين وأوربا ليؤلف من مجموعها قاعدة بشرية ميوسينية تشمل العالم القديم كله. وهو لم يكن مخطئا لأن الابحاث الواقعة في الثلاث سنوات الأخيرة، دلت على وجود قرد راما هذا بتركيا (اتيكابا) و بالمجر (م. كرتزوا) فضلا عما وفرته الوثائق الباكستانية الجديدة (بعثةد. بلبيم) من معلومات جديدة عن هذا المقدّم.

وعثر في الصين والهند على مقدم ضخم وهو القرد العملاق وهو يدعى القرد العملاق الأسود بالصين، والقرد العملاق بيلاسبورانسيس بالهند التي يقدر فيها عهده ببعض الملايين من السنوات. ان ثناياه صغيرة، وأنيابه ليست كبيرة الا أنها ليست بشرية. ولضرسه الأمامي الأول السفلي مذلقان، وأسنانه الخدية كبيرة وقوية وتدل على اهتلاك كبير، ووجهه قصير، وفكه قوّي ذو فرع متصاعد عال وعمودي، الا أن جميع المؤلفين رفضوا تماما ترشيحه ليكون أصلا للانسان، وكشفت

(٥) تسمى الاسنان خدية أو أسنان الخد و يعني بها الأضراس الامامية والأضراس.

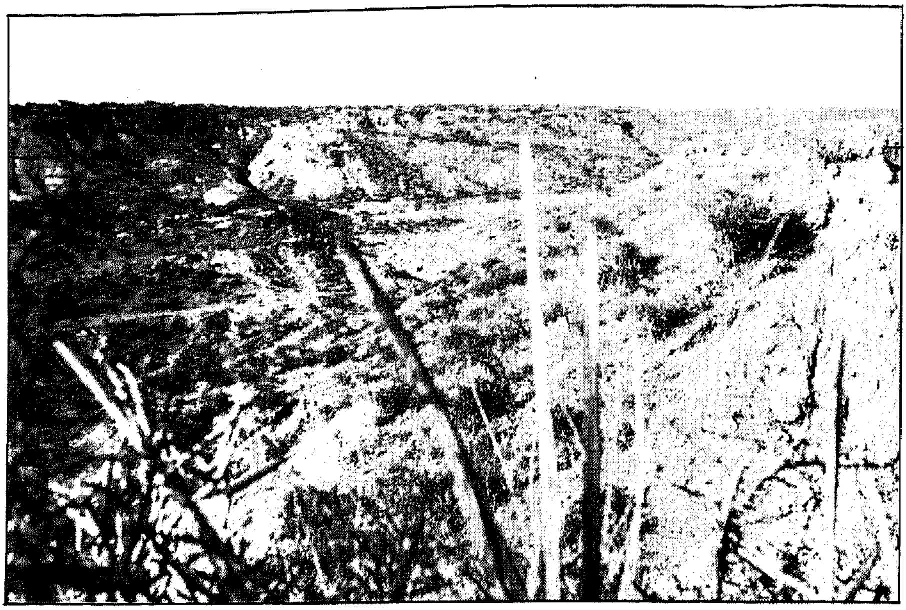
(٦) الفك الناتىء أو الفك البارز الى الأمام (Prognathisme) يعبر عن إسقاط الوجه كله أو جزء منه مما يوجد تحت الانف، الى الامام.



مفتاح الخريطة:

١ ـ طبقة تاونغ، جنوب أفريقيا.
٢ ـ طبقة ستركفونتين، جنوب أفريقيا.
٣ ـ طبقة سوارتكرانس، جنوب أفريقيا.
٤ ـ طبقة كرومدراآي، جنوب أفريقيا.
٥ ـ طبقة ماكابانسغات، جنوب أفريقيا.
٦ ـ طبقة غاروسي ـ لايتوليل، تانزانيا.
٧ ـ طبقة أولدوفاي، تانزانيا.
٨ ـ طبقة ناترون ـ بنينج، تانزانيا.
٩ ـ طبقة تشيميرون، كينيا.
١٠ ـ طبقة تشيرووانجا، كينيا.
١١ ـ طبقة كانابوي، كينيا.
١٢ ـ طبقة لوثاغام، كينيا.
١٣ ـ طبقة شرق بحيرة رودلف (بحيرة توركانا)، كينيا.
١٤ ـ طبقة الاومو، اثيوبيا.
١٥ ـ طبقة الافار (العفر)، اثيوبيا.

● خريطة المعطيات الاحاثية (الخاصة بعلم المتحجرات).



١



٢

● ١) خوانق أولدوفاي، تانزانيا: حفريات لويس وماري ليكي (تصوير أ. كوبان)، مجموعة متحف الانسان.

● ٢) جمجمة انسان الجنوب الافريقي البدائي (أوسترالوبيثيكوس آفريكانوس). من اليمين الى اليسار: منظر جانبي لجمجمة صغير (تاونغ، بوتسوانا) ومنظر جانبي لجمجمة بالغ (ستيركفونتين، الترنسفال)، مجموعة متحف الانسان (تصوير أ. كوبان).

أبحاث باليونان باشرف ل. دي بونيس على مقدم له ١٠٠٠٠٠٠٠ سنة وهو قرد أورانو المقدوني الذي يحتمل أن يكون جد القرد العملاق.

وأخيرا فمنذ ١٢٠٠٠٠٠٠ سنة مضت كان يتأرجح بين أغصان الشجر في غابات توسكانا، وربما أيضا بغابات الكينيا، مقدم آخر وهو قرد أور يو.(Oréopithèque). ان مكتشفه هو جرفي الا أن واصفه هو الإحاثي الممتاز السويسري يوهانيس هرزلر الذي قام بحفريات في غروسيتو، بتوسكانا فعثر على هيكل عظمي يكاد يكون كاملا من قرد أور يو البمبلي الذي له وجه قصير، وعظام انفه بارزة بالنسبة لجانبية وجهه، وثناياه صغيرة، وكذلك أنيابه، وضرسه الامامي الاول السفلي له مذلقان، وحوضه حوض ذي الرجلين، الا أن اعضاءه الخليفة طويلة جدا. و يبدو أن قرد أور يو من البشريات الصغيرة، وهو على كل حال مقدّم يتنقل في الأشجار (٧)، ومتكيف لنوع من العيش في الغابة.

لقد عرفنا قرد كينيا الافريقي، وقرد الكينيا فكّري، وقرد راما، وقرد راما البنجابي، والقرد العملاق الاسود، والقرد العملاق بيلاسبورنسيس، وقرد أور يو بمبلي، ولكن الأهم من كل هذا ليس أن نعلم الآن من هو سلف الاخر منها. ولقد مثلنا هنا بسلالات عديدة. لكنه يبدو لنا ان هذه الأجناس الأربعة التي ترجع الى الميوسين، تبرز صورة مقدم كان يعيش بالغابة و يأتي على ما يظهر لأول مرة يتغذى جزئيا بمناطق مكشوفة، حول البحيرات وعلى ضفاف الأنهار. ومن الواضح أن طرقا في العيش جديدة ستظهر اثر ذلك الخروج من الغابة وسيظهر معها في نفس الوقت صغر الاسنان الخلفية وصغر الوجه، وميل الضرس الامامي الاول، الذي لم يبق الناب يعرقله، الى مضاعفة مذلقه الاول. وذلك يدل على بداية غزو السباسب ومعها التميز برجلين اثنتين (٨).

ما بين ١٠ ملايين ومليون واحد من السنوات

في البليوسين والبليستوسين، بين عشرة ملايين ومليون سنة، نواجه مجموعة متعددة الأشكال ومحصورة في المكان وهي تؤلف القردة الجنوبية. ولابد من نبذة تاريخية عن اكتشافها لنتمكن في نفس الوقت من تحديدها في المكان.

تاريخها

ففي ١٩٢٤م قام الأستاذ ر. دارت (R. Dart) بوصف وتعميد أول قرد من القردة الجنوبية وكان يتعلق الامر بجمجمة قرد شاب عمره ٥ أو ٦ سنوات، اكتشف بجنوب افريقيا، في شق كهف بمنطقة بشوانالاند يسمى تونغ. وتبع هذا الاكتشاف اكتشافات أخرى ابتداء من ١٩٣٦م قام بها الأساتذة ر. بروم وج. روبنسون ثم الأساتذة ر. دارت، وب. توبياس في أربعة كهوف من الترنسفال، وستركفنتاين، وشفا رتكرنس، وكرمدراي قرب يوهنسبورغ ومكبنسغات قرب بوتغيتسرست.

---

(٧) ان التنقل الشجري هو نوع من التنقل بواسطة الشجر وذلك بالانتقال من فرع شجرة إلى آخر مع التعلق بها بواسطة الأعضاء الأواخر.

(٨) ان التنقل على الرجلين هو نوع من التنقل برا، و يعتمد على الوقوف على الاعضاء الخلفية.

واكتشف في ١٩٣٩م، الأستاذ الالماني ل. كوهل لرسن (Kohl Larsen) بمكان يدعى غروزي او (لالتوليل) بالشمال الشرقي من بحيرة اياسي في طانزانيا، اكتشف فكا لقرد جنوبي، وبذلك توسعت الى افريقيا الشرقية مساحة توزع هذه البشريات. ولقد عادت الى العمل بهذا الموطن ماري لايكي فحالفها النجاح اذ أنها أبرزت الى الوجود مجموعة مهمة جدا من البشريات الأحفورية التي يمكن نسبتها بلا شك الى القردة الجنوبية.

وتبع ذلك أعمال مشهورة قام بها أعضاء أسرة لا يكي بفجّ أولدواي، بطانزانيا، وهي أعمال وفرت سنة ١٩٥٥م، ما يقرب من ٧٠ قطعة تنسب الى البشريات، ومنها ما كان قطعا ممتازة. واكتشف سنة ١٩٦٤م ر. لايكي وج. اسحاق موطنا ثالثا للمواقع الطانزانية عندما عثرا على فك قرد جنوبي قرب بحيرة ناترون، ثم تحولت الإكتشافات نحو الشمال.

في سنة ١٩٦٧م، عادت بعثة عالمية الى استكشاف مواطن احاثية تقع بالقرب من الضفة الغربية من الوادي السفلي من الأوموبأثيوبيا. وكانت تتركب من ثلاثة فرق: الفريق الاول فرنسي باشراف الاساتدة ك. أرمبورك واي. كوبنس، والثاني أمريكي باشراف الاستاذ ف. كلارك هوول والثالث كيني باشراف الدكتور ل. س. ب لايكي وابنه ريتشاد. ان تلك المواطن التي اكتشفها في مطع العصر مسافرون فرنسيون، كانت قد استغلتها منذ ١٩٣٢م - ١٩٣٣م بعثة من المتحف القومي للتاريخ الطبيعي بباريس باشراف ك. أرمبورك. ولقد كان من حظ تلك البعثة الجديدة ان اكتشفت ابتداء من الشهر الاول، أول فك لقرد جنوبي بتلك المواطن. وتبعت ذلك الاكتشاف، اكتشافات أخرى، وتوصلت البعثتان الفرنسية والامريكية، في ٩ زيارات إلى تحقيق نتائج باهرة، أي ما يقرب من ٤٠٠ بقية من البقايا البشرية.

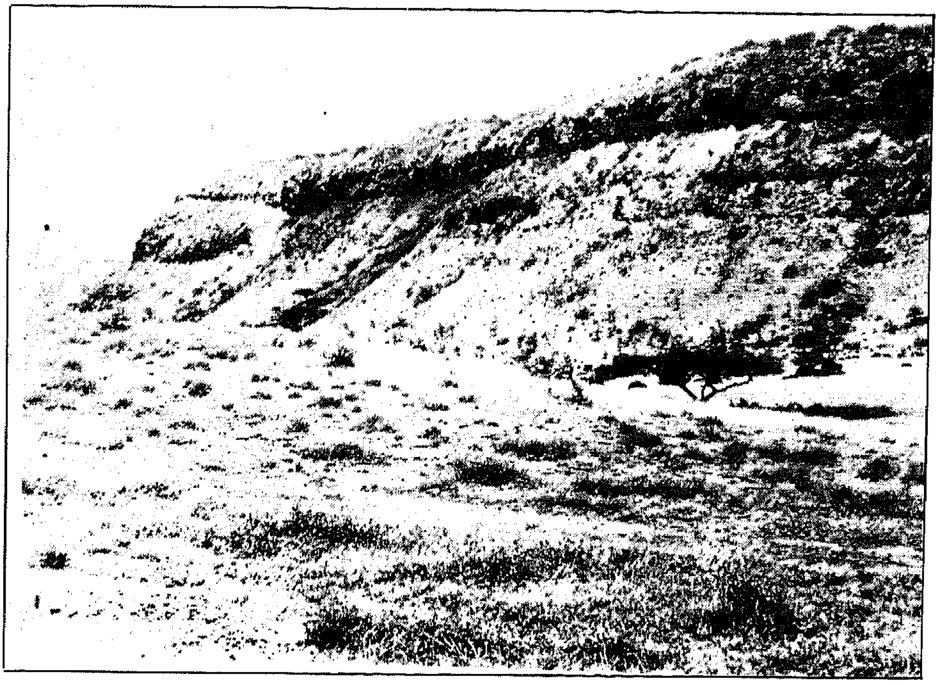
وترك الفريق الكيني أومو منذ ١٩٦٨م ليستكشف باشراف ر. لايكي، الشواطئ الشرقية من بحيرة تركانا بالكينيا. واستطاع ذلك الفريق أن يجمع إثر ١٠ زيارات أكثرمن ١٠٠ قطعة من البشريات، منها ما هومهم جدا.

وكانت بعثة أمريكية من هارفارد باشراف ب. بترسن تستغل في نفس الوقت، بالشواطىء الجنوبية الغربية من نفس البحيرة ثلاثة مواطن صغيرة، سيوفر اثنان منها بقايا بشريات.

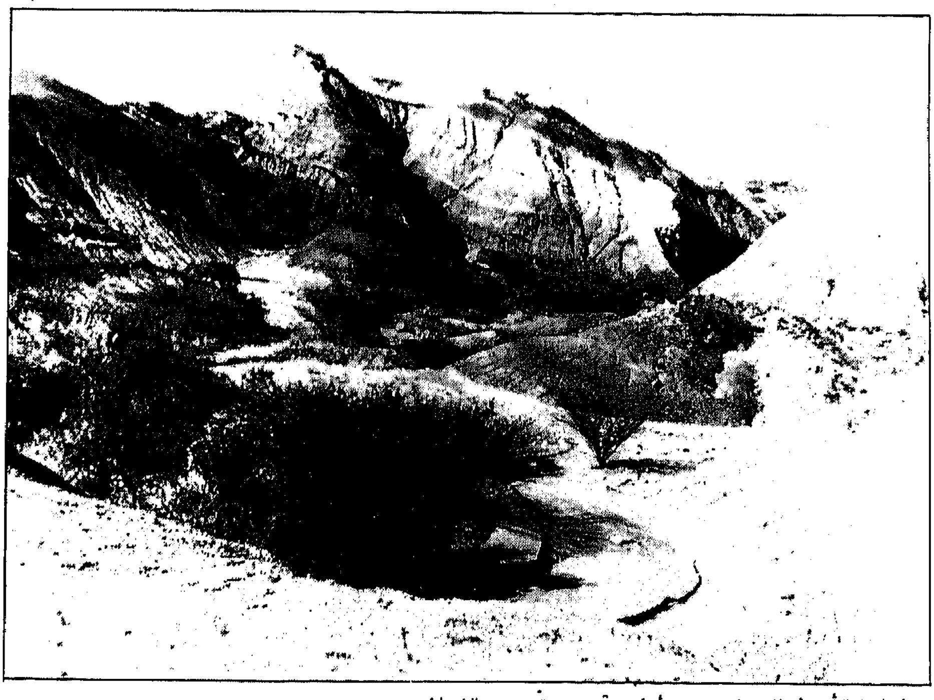
واكتشفت بعثة انكليزية من بدفورد كولاج بلندن بقايا جيولوجية احاثية بخمسة مواقع. وفي سنة ١٩٧٣م اكتشفت بعثة عالمية باشراف موريس طيب وايف كوبنس، ودنلد س. يوهنسن في هدر بمنطقة العفر بأثيوبيا، وذلك في أربع زيارات، أكثرمن ٣٠٠ قطعة جيولوجية أحاثية حفظت حفظا خارقا للعادة، وتنتسب الى شكل أو شكلين من البشريات. ولقد عثرت بعثة ثانية بالعفر، متفرعة عن الأولى، على جمجمة تنتسب الى الإنسان القرد.

وفي النهاية، اكتشف جان شافايون، بعد ٩ سنوات من الحفريات المتأنية، وذلك سنتي ١٩٧٥م و١٩٧٦م بملكا ــ كنتوري، ثلاث قطع هامة لها صلة بالصناعات الأولدوائية والاشولية.

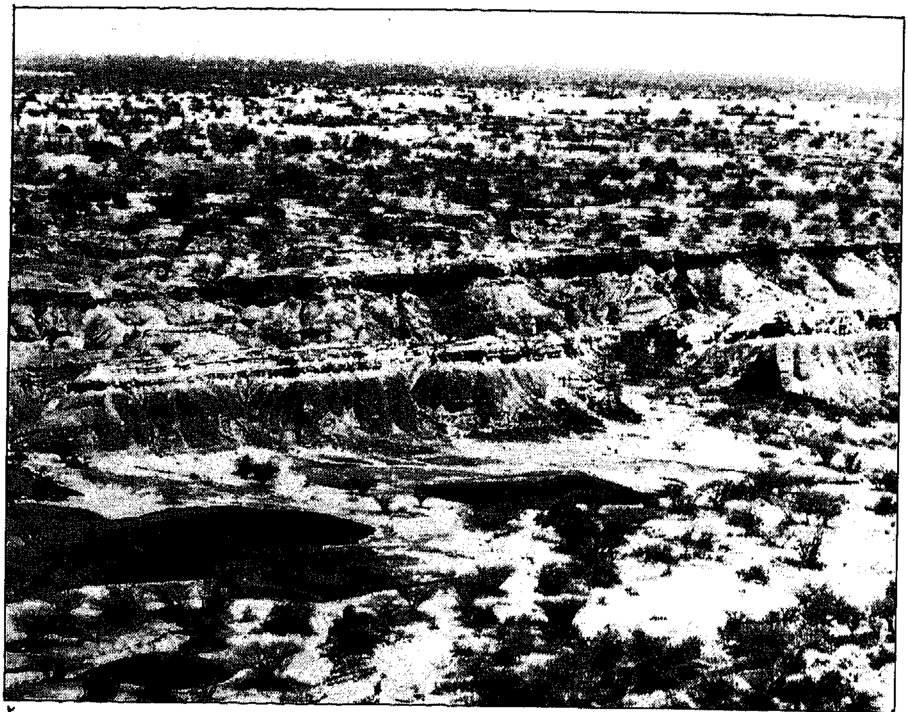
ان هذه المجموعة من الإكتشافات قد حددة مساحة توزع القردة الجنوبية في المناطق الشرقية والجنوبية من افريقيا.



● ١) خوانق أولدوفاي، تانزانيا (حفريات لويس وماري ليكي). (تصوير أ. كوبان)، مجموعة متحف الانسان.



● ٢) طبقة الأومو في اثيوبيا، (تصوير أ. كوبان) مجموعة متحف الانسان.



٢

● ٢) طبقة الأومو في أثيوبيا، (تصوير أ. كوبان)، مجموعة متحف الانسان.

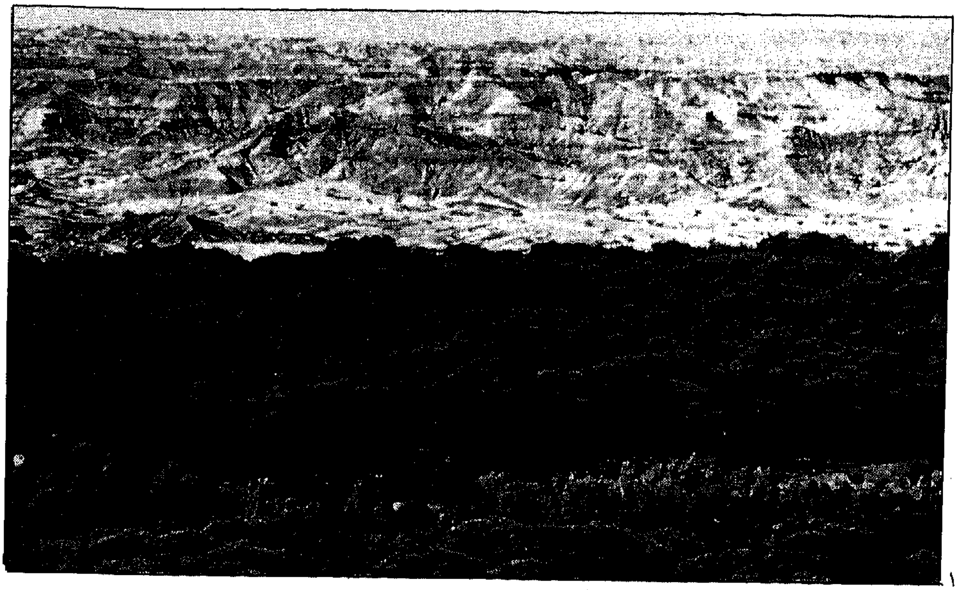


٣

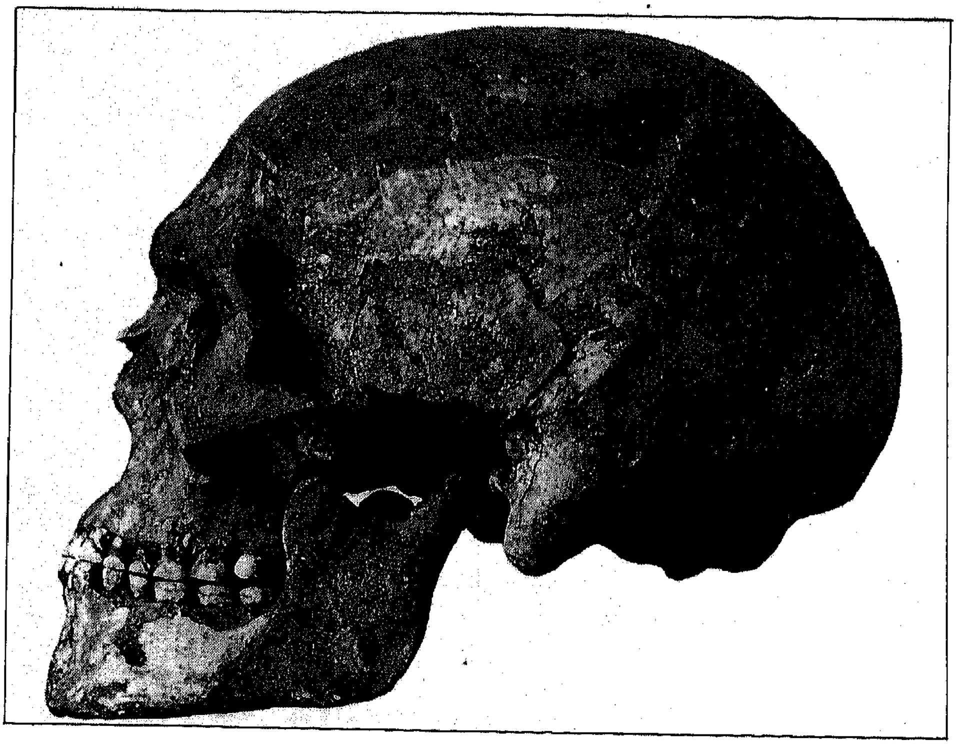


٤

● ٣ و ٤) جمجمتان لانسان الجنوب البدائي في بويزي. (أوسترالوبيثيكوس بويزي)، طبقة الأومو في اثيوبيا — بعثة ايف كوبان ١٩٧٦. (تصوير ج. أوستر)، مجموعة متحف الانسان.



١



٢

● ١) طبقة الأفار (العفر)، اثيوبيا. بعثة م. الطيب، وأ. كوبان ود. ك. جوهانسون (تصوير م. الطيب)، مجموعة متحف الانسان.
● ٢) جمجمة انسان أفالو الكرومانيوني، الجزائر. مجموعة متحف الانسان (معهد الاحاثة (الباليونتولوجيا) البشرية)، (تصوير ج. أوستر).

ضبط التاريخ

ان أقدم هذه المواطن، موطن نكورورا بحوض بحيرة بارنكو، بالكينيا، اذ أنه يبلغ ٩ الى ١٢ مليون سنة. ولم يوفر الا ضرسا أعلى لبشري غير محدد. الا أن الحفار ين يأملون كثيرا فيما ستأتي به استغلالات هذا الموقع في المستقبل. ولقد كان تاج ذلك الضرس منخفضا مثل تيجان أسنان قرد راما. ان بنية مذالقه تشابه بنية قردة الجنوب. ولعل الامر يتعلق بقرد سيفان. ولقد وفر أيضا موطن آخر من حوض بحيرة بارنكو وهو لوكينو الذي يعود تاريخه الى حوالى ٦ أو ٦٥٠٠٠٠٠ سنة، وفر ضرسا وهو هذه المرة آخر ضرس سفلي يشابه كثيرا أضراس قردة الجنوب.

وفي لوثاغام، بالجنوب الغربي من بحيرة تركانا، بكينيا، اكتشف ب. بترسين، قطعة من فك فيه سن يذكر شكله بقرد الجنوب. ان الحيوانات الفقرية المربوطة به تفيد أن تلك الفترة الزمنية ترجع الى البليوسين، اي الى ٥ أو ٦٠٠٠٠٠٠ سنة. و يوجد موقعان بالكينيا، أحدهما بحوض بحيرة بارنكو، وهو سمرون والآخر بحوض بحيرة تركانا، وهو كنبوا اللذان يقدران بـ ٤٠٠٠٠٠٠ سنة، واللذان وفرا صدغا، ونقا (عظم العضد) بشر يين.

ان مواطن لا توليل بطانزانيا قد أرخ على الأقل بـ ٣٥٠٠٠٠٠ سنة، وتشابه بشر يات الاحفور ية مشابهة غر يبة البشر يات المجموعة بهدر في العفر من أثيوبيا، والتي تنسب الى ما بين ٢٨٠٠٠٠٠ و ٣٢٠٠٠٠٠ سنة.

وتتكون مواطن الاومو من مجموع ترسّبي يتجاوز ١٠٠٠ متر بالقوة، و يشمل سلسلة متوالية من الرمال الاحفور ية، ومن الطين ورواسب بركانية تسمح بتأريخها تاريخا مطلقا. فلقد أمكن تأر يخ المقطوعة بأكثر من ٤٠٠٠٠٠٠ سنة في القاعدة، و بأقل من ١٠٠٠٠٠٠ سنة في القمة.

أما باقي البشر يات فانها توجد ابتداء من ٣٢٠٠٠٠٠ حتى القمة، اي بطر يقة متواصلة على مدى ٢٠٠٠٠٠٠ سنة أو أكثر.

ان مواطن الشرق من بحيرة تركانا التي توفر البشر يات تتراوح بين ٣٠٠٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠٠ سنة. ولقد قدرت حديثا أقدم الكهوف الخاصة بقردة الجنوب، أي مكبنسغات وستركفنتاين بـ ٢٥٠٠٠٠٠ سنة الى ما يتجاوز ٣٠٠٠٠٠٠ سنة. الا أن هذا التأر يخ ما انفك محل نزاع كبير. وتوفر فجاج أولدواي في طانزانيا بقايا بشر يات أرخت صناعاتها على طول المائة متر من قاعدة الرواسب بـ ١٨٠٠٠٠٠ سنة.

ويمكن أن يكون كهفان آخران خاصان بقردة الجنوب بجنوب افر يقيا، وهما سفرتكرنس وكرمدراي معاصر ين لطبقات قديمة بأولدواي، أو سابقة لها بقليل (٢٠٠٠٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠٠٠ سنة)

وفي النهاية وفر شاسوونجا الموجود بحوض بحيرة بارنكو بالكينيا، وموقع بحيرة ناترون بطانزانيا وحتى ثغرة تور يغ بجنوب افر يقيا، القردة الجنوبية الاصغر سنا، لانها لا تكاد تتجاوز المليون سنة.

و يبدو ان القردة الجنوبية قد ظهرت منذ حوالي ٦ أو ٧ ملايين سنة ثم انقرضت في حوالي المليون سنة.

فما وفرت تلك المواطن «كثيرا من البشر يات، و بعضها ينسب الى هذا العصر. أحدهم قرد الجنوب القوي أو ما قبل الانسان (Paranthrope) او الإنسان الزنجي (Zinjanthrope).

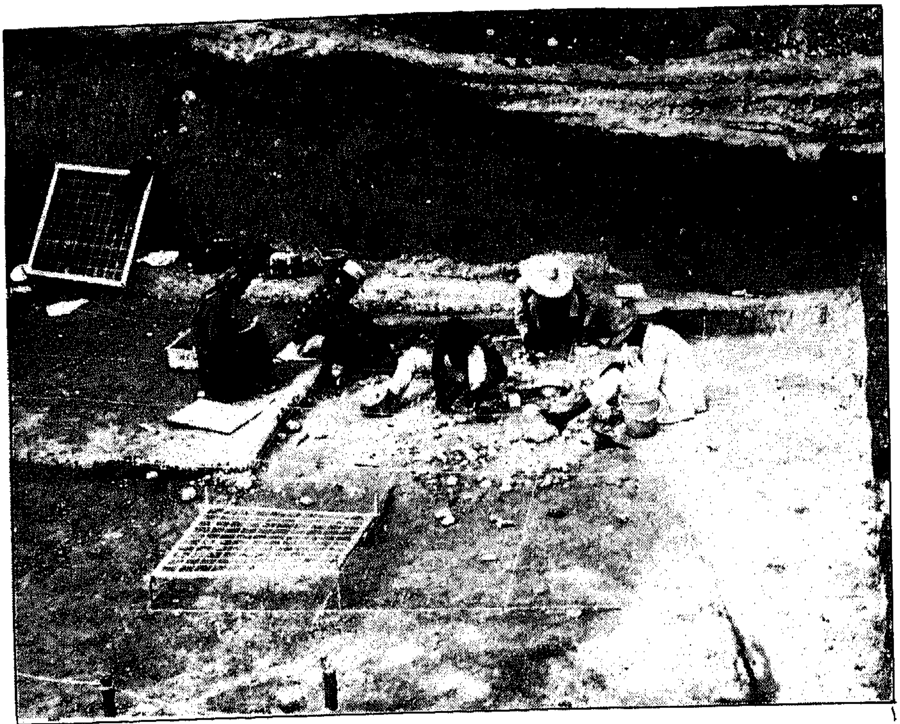
أما الآخر فيسمى قرد الجنوب الرشيق، أو قرد الجنوب بالمعنى الدقيق، أو إنسان البليساتروب (Plesianthrope) أو ما قبل القرد الجنوبي (Paraustralopithèque). أما الثالث فلقد سمي الإنسان الماهر أو قرد الجنوب الماهر. ودعي الأخير الإنسان المستقيم (Homo erectus) أو الإنسان البعيد (Telanthropus) أو الإنسان الكبير (Méganthropus).

(أ) القرد الجنوبي القوي: هذا القرد معروف بجنوب افريقيا في كهوف لها ٢ الى ٢٫٥ مليون سنة، وبوادي أوموبأثيوبيا وبشرق بحيرة تركانا بالكينيا، وبنفس السن بأولدواي منذ حوالي ١٨٠٠٠٠٠ سنة وشيسوونجا منذ ١١٠٠٠٠٠ سنة، وهويسمى القوي لأنه فعلا أقوى وأكبر من الآخرين. ان مرفولوجيته تدل على جهاز ماضغ قوي اذ له اضراس واضراس أمامية ضخمة. فنتج عن ذلك فك قوي، وعضلات ماضغة متينة، وله قوس وجني (٩) قوي، وعرف سهمي (١٠) مدهش بالنسبة للعضلات الصدغية. ان حاجبه منخفض ووجه عال ومنبسط وأسنانه الخلفية صغيرة مما ييسر حركات المضغ الجانبية. وللفك شعبة صاعدة عالية جدًا، وذلك من شأنه ان يزيد في حركات مضغ العضلات الماضغة والجناحية. ان جسم قرد الجنوب هذا أصلب من أجسام الانواع الاخرى. ويقدر وزنه بـ ٣٥ الى ٦٥ كلغ بالنسبة الى طول ١٫٥٥ (متر). ان رجليه لم تكونا كاملتين، إذ لعظمي الفخذين رأسان صغيران وعنقان طويلان وسعة الجمجمة مقدرة بـ ٥٣٠ سنتمتر مكعب في سوار تكرنس وأولدواي أيضا. ونلاحظ في هذا الصدد تطورا طرأ على المخيخ، مما يدل على بلوغه درجة أكبر في ضبط الحركات (حركتا اليد، والمشي مثلا).

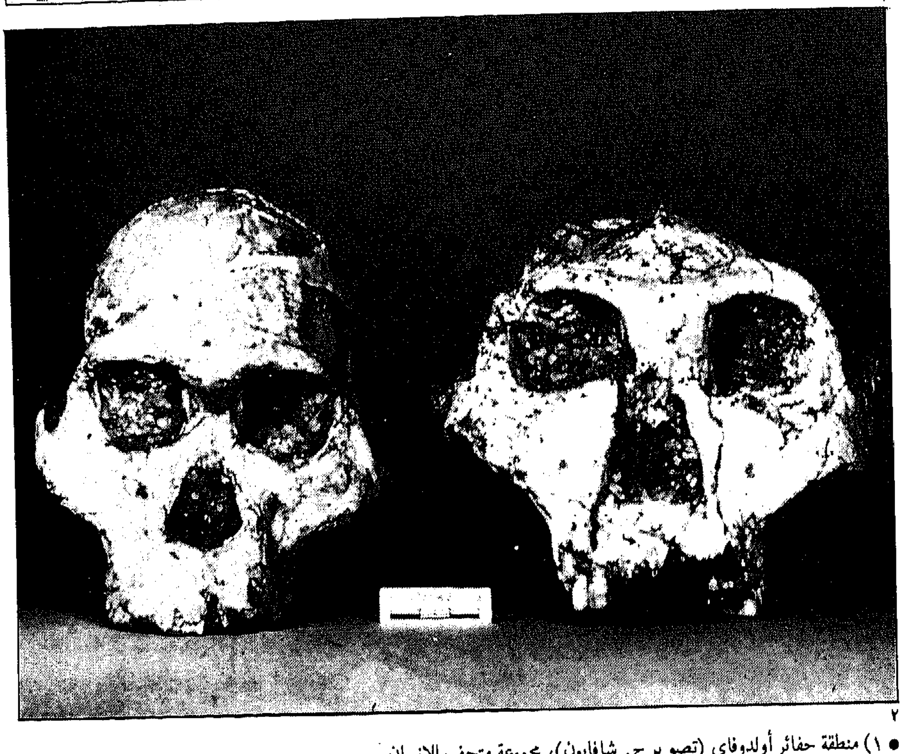
(ب) ينتسب قرد الجنوب الرشيق الى مكبنسغات وستركفنتاين بجنوب افريقيا. ويعتقد أنه عثر عليه في أوموبأثيوبيا، في غروسي أو في لا توليل بطانزانيا، وبالعفر بأثيوبيا، ولوثاغام بالكينيا، وله متر واحد أو ١٫٢٥ من المتر، طولا، و١٨ الى ٣١ كلغ وزنا، فوجهه أكثر اسقاطا من وجه القرد الجنوبي القوي، وقوساه فوق المحجرين (١١)، ناميان نموا معتدلا، ومتصلان بجبين نام نسبيا. أما الثنايا الملعقية فلقد أثبتت عموديا. أما الانياب، وهي صغيرة، فتشبه الثنايا، وأسنانه الوجنية متباعدة مما جعل قوس أسنانه على شكل قطع مكافىء. ان أسنانه الوجنية كبيرة ومذالقها مستديرة، ميناؤها كثيف، واهتلاكها قد بلغ النهاية.

ان هذا القرد الجنوبي، وان كان قارتيا (يأكل كل شيء) أكثر من السابق، الا أن غذاءه الأساسي متكون من النبات. ان كثافة الفك وكثافة الميناء، والاهتلاك المتناهي، وقصر الوجه، وكبر حجم الأضراس الامامية والاضراس، كل ذلك يدل على وجود جهاز ماضغ قوي. ولقد حدث تأخر في بروز الاسنان، وهذا التأخر، مضافا الى كثافة الميناء، يدلان على تكيفه مع حياة ومراهقة طويلتين. ان سعة القحف في الداخل تتراوح بين ٤٢٨ و ٤٨٥ سنتمتر مكعب، أي بمعدل ٤٤٤ سنتمتر مكعب بالشكل الإفريقي الجنوبي. وتشير العظام الطويلة، لا سيا النقا وعظم الكتف، الى ما

(٩) القوس الوجني هو جسر يربط الصدغ بالوجه.
(١٠) العرف السهمى هو نمو عظمي، له في أعلى الدماغ، حد يشبه زينة الخوذة.
(١١) القوسان فوق المحجرين هما الحاشيتان العظميتان العلويتان من المحجرين (المحجر: الذي يحتوي العين).



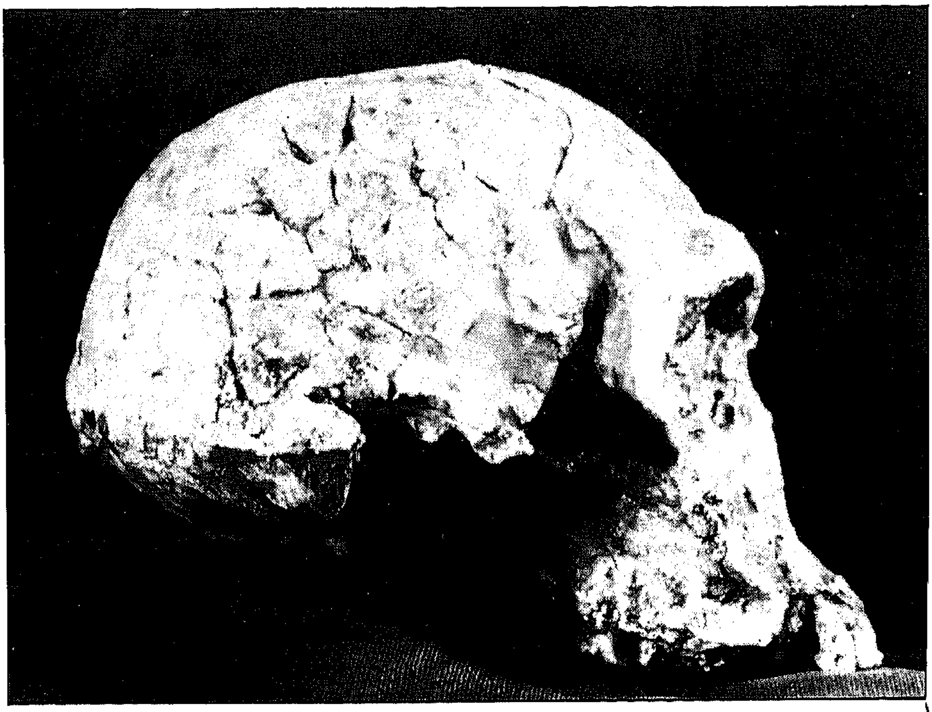
١



٢

● ١) منطقة حفائر أولدوفاي (تصويرج. شافايون)، مجموعة متحف الانسان.

● ٢) انسان الجنوب البدائي القوي (الى اليمين) والرشيق (الى اليسار). (تصويرج. روبنسون)، مجموعة متحف الانسان.



١



٢

● ١ و٢) الانسان الماهر. (تصوير متحف كينيا الوطني).

درج عليه أسلافه من التنقل على الأشجار. ومع هذا، فان القرد الجنوبي الرشيق يعد من ذوي الرجلين الدائمتين.

(جـ) وصف الانسان الماهر في أولدواي (طانزانيا) سنة ١٩٦٤، و يبدو أنه عثر عليه في أمو باثيوبيا، و بشرق بحيرة تركانا وكنبوى بالكينيا. ولأسنانه الوجنية احجام دون أسنان القرد الجنوبي الرشيق من جنوب افريقيا. وتتميز أسنانه بنسب مختلفة: فهي أكثر استطالة وأكثر ضيقا. ولقد قدرت سعة داخل القحف ابتداء من العظام الجدارية و بـ ٦٨٠ سنتمتر مربع، و بلغت جمجمة من شرق تركانا ما يقرب من ٨٠٠ سنتمتر مكعب. فيبدو أن الامر يتعلق بكائن يقترب أكثر من قرد الجنوب باعتبار ميل أسنانه ومخه الى التطور. الا أن هيكله ما وراء الجمجمي (١٢) يقربه من قرد الجنوب الرشيق. ان ترقوته تشير الى العادة القديمة في التنقل على الأشجار، وقد تحدثنا عنها لما ذكرنا هذا الأخير. وتقدر قامته بين ١ر٢٠ و ١ر٤٠ من المتر.

(د) الإنسان المستقيم: ان الحفريات قد تمخضت في النهاية عن اكتشاف الإنسان المستقيم، أي عن بشريات أكثر تطورا من كل ما سبق ذكره، وذلك في سوارتكرنس بجنوب افريقيا. و يعود تاريخه الى ٢٥٠٠٠٠٠ سنة، وفي أولدواي بطانزانيا يؤرخ بـ ١٥٠٠٠٠٠ سنة، و بشرق بحيرة تركانا، يؤرخ بـ ١٥٠٠٠٠٠ سنة، وبملكا كنتوري، و بودو، وأمو باثيوبيا بين ٥٠٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠٠٠ سنة.

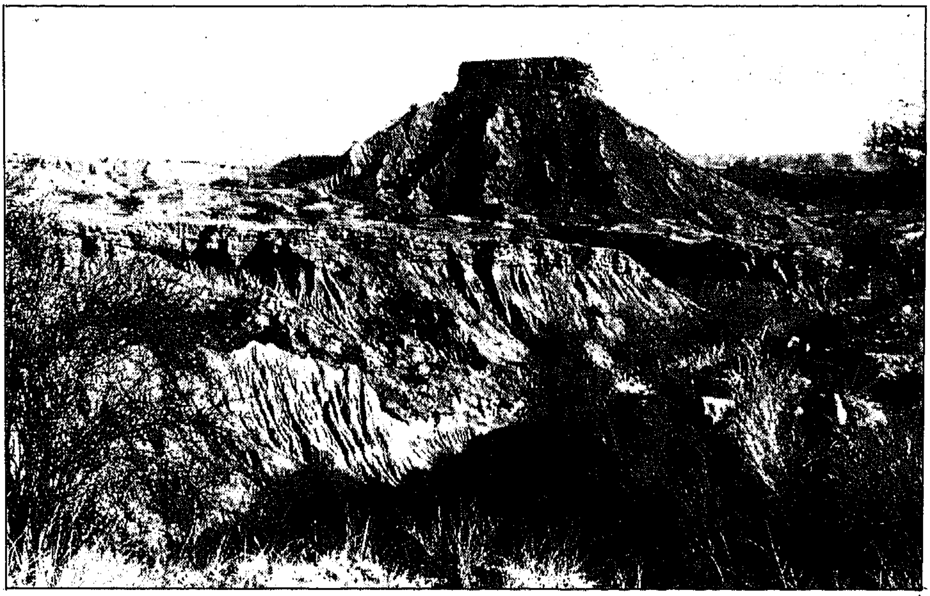
وكان بروم وروبنسن قد قاما منذ ١٩٤٩، في سوارتكرنس، بفرز بعض العظام ونسباها الى شكل أكثر بشرية يسمى التيلانتروب كابنسيس (Telanthropus Capensis)، ولقد رأى روبنسن سنة ١٩٥٧، أن ينسب ذلك الشكل الى الإنسان القرد والى الإنسان المستقيم.

وفي ١٩٦٩، فحص رون كلارك، وكلارك هوول. و براين نماذج سوارتكرنس وتبين لهم أن جمجمة قرد الجنوب القوي ٨٤٧ (SK)، يمكن وصلها تماما بفك التيلانتروب فنتج عن هذا الجمع صورة مفيدة تؤكد تخمينات روبنسن، اذا لاحظ تحت الجبين المنحني المتصاعد، وجود انتفاخ (١٣) فوق محجري ناتئ، بعكس ما لاحظه من ضمور جبين القرد الجنوبي القوي. ولهذه الجمجمة جيوب (١٤) جبهية كبيرة وانقباض بعد محجري (١٥) كما له عظام أنفية ناتئة، وقوس سني قصير، مما يدل على فك صغير ذي فرع صاعد منخفض. ان الأسنان و بنية الهيكل الوجهي تقربه من الإنسان وخاصة من الإنسان المستقيم.

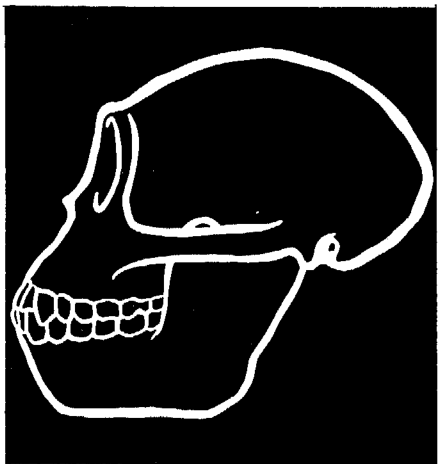
وفي الأولدواي يختص الإنسان ١٣ بعدد من الأسنان يقل بنسبة ٢٠٪ عن أسنان الإنسان الماهر و بفك أصغر منه. ويختص الإنسان ١٦ بقوس فوق محجري بارز. و يعتبره لايكي وطوبياس أحيانا انسانا مستقيما. فان كان لهذين الأحفورين وضع غير واضح، فذلك ليس شأن الإنسان ٩ الذي له قبعة دماغية تنتسب لا منازع في ذلك الى الإنسان المستقيم.

وتتصل اكتشافات عديدة بشرق بحيرة تركانا بهذا النوع المتدرج من جنس الانسان. ولنذكر

(١٢) يعني بالهيكل العظمى ما وراء الدماغ، مجموع تلك الهياكل دون الجمجمة.
(١٣) عندما يعول الحاشية العليا من المحجر نمو عظمى واق، يسمى هذا النمو (توروس) واقية أو انتفاخ زائد، أو فوق محجري.
(١٤) الجيوب هي تجاويف.
(١٥) تنقبض الجمجمة جانبيا، وراء المحاجر، وهذا ما يسمى الانقباض المحجري.



١

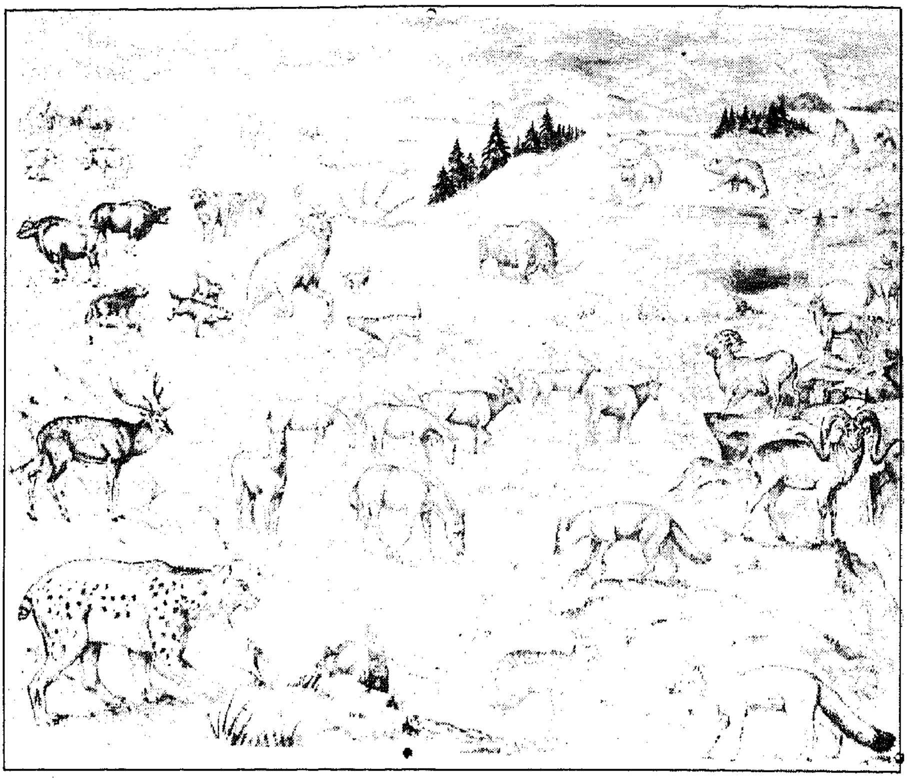


٢



٣

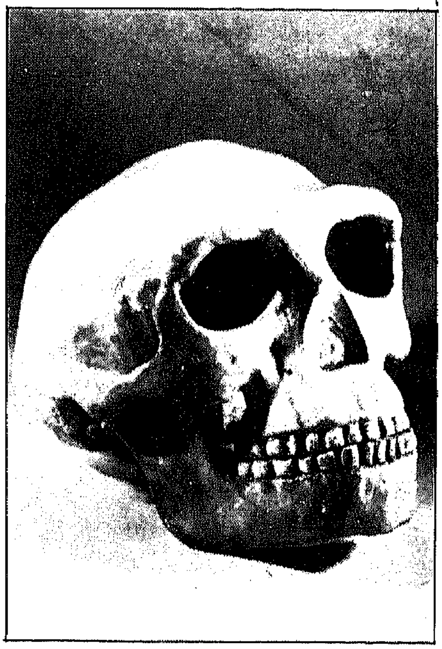
● ١) طبقات سيواليكس في شمال باكستان. بعثة د. بلبيم، مجموعة متحف الانسان (تصوير هـ توماس).
● ٢) اعادة بناء جمجمة الانسان البدائي راما بيثيكوس. مجموعة متحف الانسان (تصوير ج. أوستر).
● ٣) هيكل عظمي للانسان البدائي أوريوبيثيكوس بامبولي، عمره ١٢٠٠٠٠٠٠ سنة، عثر عليه في موقع غروسيتو (مقاطعة توسكانيا بايطاليا) يوهانس هورتسلر في ١٩٥٨ (تصوير ج. أوستر)، مجموعة متحف الانسان.



١



٢



٣

● ١) اعادة تشكيل بيئة الانسان المستقيم في تشوكوتيين (أو انسان الصين البدائي ــ سينانثروب)، بالصين (٤٠٠٠٠٠ سنة. (تصوير أ. كوبان)، مجموعة متحف الانسان، معرض «أصل الانسان»، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٦ ــ أبريل/نيسان ١٩٧٨. رسم برتونتشيني ــ غايار، باشراف أ. كوبان).

● ٢ و٣) انسان تشوكوتيين المستقيم (اعادة تشكيل). صورة جانبية وأخرى أمامية. ت(تصوير ج. أوستر)، مجموعة متحف الانسان.

خاصة الثلاث جمجمات التي عثر عليها حديثا، وهي تنتمي الى عهود مختلفة، وتقدم أحسن مثال عن نمو الميول التطورية ضمن هذا النوع.

ولنذكر هنا أنه تم حديثا ضبط تاريخ أقدم إنسان قرد جاوى، وهو جمجمة طفل مودجوكرتو الذي ضبط بـ ١٩٠٠٠٠٠ سنة. لكن هل يتعلق الامر بانسان مستقيم؟

ان المقارنات التي اجريت بكامبريج بين قطع أصلية من جاوا وطانزانيا من طرف طوبياس وفون كونكسوالد أدت الى استخلاص ما يلي، وهو التماثل المورفولوجي بين الإنسان الماهر القديم وبين الإنسان الكبير الحجري الجاوي، وربما بينه وبين نصف الإنسان من الصين، وكذلك التماثل بين الإنسان الماهر الحديث (الإنسان ١٣) وبين الإنسان القرد ٤، وسنجيران ب والتيلا تروبوس كابنسيس.

الصناعات

لقد حدث أن هذه البقايا كانت لأول مرة في تاريخ المقدمات البشرية، مربوطة بأدوات مصنوعة.

اكتشفت البعثة الفرنسية بمواطن أومو، سنة ١٩٦٩م، بعض الأدوات الحجرية والعظمية تزيد على أكثر من مليوني سنة. وفي السنة الموالية عثرت البعثة الكينية بشرق بحيرة تركانا في موقع بركاني يعود الى ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، عثرت على صناعة من الحجر والعظام تشابه أدوات أومو.

وأخيرا كان دور البعثتين الامريكية والفرنسية اللتين عثرتا على ١٢ مستوى جيولوجيا أرخت بمليوني سنة. اننا نستطيع أن نقول أن هذه الإكتشافات الواقعة بحوض البليوبليستوسين من بحيرة تركانا، قد أضافت الى عمر الأدوات الأولى المنحوتة أكثر من مليونين ونصف المليون سنة، بل ٣ ملايين سنة مما زاد مليون سنة في عمر أقدم الصناعات المعروفة الى الآن.

ان هذه الصناعة الأولى في التاريخ تتكون من كمية من الشظايا، التي قرعت اصطناعيا واستعملت قواطعها، ومن حصاة هُيّئ أحد حديها أو قاطعها بطرق عدة، ومن عظام أو أسنان هيئت واستعملت مباشرة عندما تسمح بذلك أشكالها (أنياب فرس البحر أو أنياب الخنزير مثلا).

يمكن ترتيب هذه الأدوات حسب عدد من الأنواع. ولقد صنع من هذا النوع عدد معين من النماذج. وهذا يعني أن شكلها كان موضوع بحث، وأنها اكتساب ناتج عن خبرة يرثها جيل عن جيل، مما يفترض وجود حياة اجتماعية معينة، وهذا يعني أنه رغم مرور ٢٥٠٠٠٠٠ سنة فاننا لم نصل الى معرفة أصل الأداة، لكن من المحتمل أننا نقترب من حدود ادراكها. وهي تلتبس وراء تلك الحدود، مع الأشياء الطبيعية.

وفي مكبنسغات بجنوب أفريقيا تم اكتشاف صناعة متكونة من العظام، ومن القرون والأسنان فسميت لهذا السبب صناعات عظمية سنية قرنية ويمكن أن تكون قديمة جدا اذا صحت المحاولات الحديثة في وضع توافق بين الكهوف الافريقية الجنوبية والمواطن الكبرى بشرقي افريقيا. وعلى كل حال نستطيع أن نلاحظ نفس الشيء فيما يتعلق بحوض بحيرة تركانا التي تصنع فيها مختلف الأدوات جملة، وذلك يدل على أنه قد كان لها تاريخ عريق.

وكشف هـ. روش حديثا في هدر صناعة من الحصاة المهيأة، تقترب من حصاة أولدواي في مستوى لا يستغرب إذا أرخ بـ ٢٥٠٠٠٠٠ سنة.

وهكذا فإن الأدوات ظلت متوفرة وملحوظة في كل مكان، ابتداء من الطبقات الأكثر قدما بأولدواي (١٨٠٠٠٠٠ سنة). ان الحصارة المهيأة المتوافرة بصفة خاصة استوجبت تسمية هذه الصناعة بـ «ثقافة الحصاة» أو الاولدوائية. ولقد لاحظ الدكتور لايكي، وهو يحفر أقدم مستوى بأولدواي، تراكما كبيرا من حصاة البزلت. وكلما تقدم الحفر، أدرك أن تلك الحصاة لم تكن مبعثرة بل كانت على عكس ذلك مرتبة حسب أكداس لها رسم الدائرة. ويحتمل أن يكون كل تكدس متكونا من حجارة لتركيز عمود، فلو تصورنا دائرة من الأوتاد ومن أقواس العقد وجلودا وسعفا مبسوطة لدعانا هذا الأمر الى تصور آثار بناء، فنكون أمام بنية سكنية تعود الى نحو مليوني سنة.

واكتشف ج. شفيان، بملكا كنتوري بنية مشابهة تقريبا قرب أديس أبابا، بالمستوى الأولدوائي بأقدم موقع (١٥٠٠٠٠٠ سنة). فلقد وقع على حين غرة، في الوسط بالضبط من محل الاقامة الذي تبعثرت فيه الادوات، وقع على مساحة دائرية قطرها ٢٫٥٠ مترا، خالية من أية أداة بها، و يبلغ علوها ٣٠ سنتمرا بالنسبة لما تبقى من الأرض التي يحيط بها ميزاب طوله متران. وكانت بعض أكداس من الحجارة توحي هنا أيضا بوجود أوتاد.

يقال إن القرد الجنوبي القوي يحتمل أن يكون ذكر القرد الجنوبي الرشيق. و يرى بعضها أن الإنسان الماهر كان قردا جنوبيا رشيقا، أصغر سنا من النوع الجنوبي الافريقي وأكثر منه تطورا. و يقول البعض الآخر أن الإنسان المستقيم من سوارتكرنس قابل لأن يتدرج في الحدود السفلى من تبدلات القرد الجنوبي القوي من نفس الموطن، و يقال أن الجاوي كان قردا جنوبيا. وأن بعض القردة الجنوبية (أولدواي، سوارتكرنس) كانت أيضا من نوع الإنسان القرد. ونخرج من هذا الالتباس الظاهري بما يلي:

ظهر الجنس الإنساني، وظهرت الاداة المصنوعة من بين مجموعة القردة الجنوبية، المستوطنة أولا بافريقيا الشرقية وبافريقيا الجنوبية، (في شكل القرد الجنوبي أو في شكل أكثر منه تطورا والمتوسعة بعد ذلك الى آسيا جنوب الهيمالايا. وسرعان ما أصبحت الأداة عنوانا على صانعها. فلقد أبدعت بسرعة أنواع عديدة من الأدوات لغايات مضبوطة. وأصبحت صناعتها تلقن وظهرت بعد ذلك بنيات سكنية. وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتحدث عن الأصل الإفريقي للانسان.

الخاتمة

وهكذا يبدو أن الإنسان ظهر في نهاية التاريخ طويل جدا، في شكل مقدم بشري أخذ يحسن الاداة التي كان قد استعملها منذ أمد طويل. ان الأدوات المصنوعة والمساكن تدل على كائن مفكر، مدبر، يتعلم و يعلم، و يشيد المجتمع الأول و يضع له ثقافته الاولى.

ولقد اقترح حديثا تاريخ يزيد على مليوني سنة لبعض البقايا الأحفورية البشرية من جاوا. وقدرت أحيانا الحصى المهيأة من جنوب فرنسا بعمر يعادل ذلك. الا أن حالة معارفنا الراهنة باعتبار عددها وأهمية مستكشفاتها القديمة جدا، جعلت افريقيا هي التي تنتصر في هذ المباراة.

ولنختتم قائلين بان كل شيء وقع كما لو نشأت، منذ ٦ الى ٧ ملين سنة، بالربعية الجنوبية الشرقية من القارة الإفريقية، مجموعة من البشريات تسمى قردة الجنوب. فلقد برز منذ مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين سنة، برز من تلك المجموعة المتعددة الأشكال، كائن هو قرد الجنوب نفسه الذي كان انسانا، قادرا على نحت الحجر والعظم، وعلى بناء الأكواخ وعلى العيش في مجتمعات صغيرة، تمثل في جميع تظاهراتها الأصل الأصيل للإنسانية الصانعة.

المليون الأخير من السنوات

لقد شهد المليون الأخير من السنوات نشأة الإنسان العارف، وتكاثره بشكل يبعث على القلق في القرون الآخيرة اذ في ١١٥ سنة ارتفع عدد الافراد من مليار الى مليارين ثم ارتفع في ٣٥ سنة من مليارين الى ثلاثة مليارات ثم ارتفع في ١٥ سنة من ٣ مليارات الى ٤ مليارات، ولا يزال التكاثر مستمرا. . . .

ظهور الانسان
المشاكل العامة

القسم الثاني

بقلم: ل. بالوت

المعطيات الأثرية

ان دراسة مشكل (ظهور الانسان) في افريقيا تستوجب من الباحث في ما قبل التاريخ منهجاً يختلف كثيرا عن منهج الاحاثي. ان ظهور الإنسان بالنسبة لهذا الأخير هو هذا التطور التدريجي في المخ الذي سمح للانسان بالتصور والإنجاز، وذلك بوضع تقنيات تزداد تعقدا وصنع أدوات (و يؤخذ هذا المصطلح في معناه الواسع) بلغت من التنوع والفعالية حدا جعله عبر العصور يضاعف تأثيره على البيئة الطبيعية، حتى وصل الى الاخلال بالتوازن البيولوجي لصالحه. ان التطور الأحاثي الذي يفضي الى الإنسان لا يسمح بتحديد عتبة ظهور الإنسان. ان الحجارة المنحوتة تبين أنه تجاوز تلك العتبة. ولقد سبق أن عبر عن ذلك ب. تيلاردي شاردان تعبيرا مأثورا «لقد ظهر الانسان دون ضوضاء... وسار سيرا لا يكاد يحس به، حتى اذا مادلت عليه الادوات الحجرية الثابتة التي هي خير شاهد على وجوده، عندئذ فقط أخذنا نتفطن له... ولكنه كان حينئذ قد ملأ العالم القديم».

ان موقف الباحث في ما قبل التاريخ له ما يبرره لأن الحلقة المفقودة ليست الشكل الاوسط بين قرد الجنوب والإنسان القرد و بين النياندرتالي والإنسان العارف. بل هي الشكل الأوسط بين الحجارة والعظام المنحوتة و بين تلك الأحفورات. ان صناعات ما قبل التاريخ المنسوبة بيقين مطلق للإنسان العارف، ابتداء من العصر الحجري الأعلى، بالإعتماد على برهان لا نزاع فيه، والى انسان نياندرتال بالعصر الحجري الوسيط، لا يمكن نسبتها الى الإنسان القرد والى قردة الجنوب الا افتراضا. و يغلب على الظن أنها الفرضية الوحيدة التي يمكن التعبير عنها علميا. الا أن الصناعة التي تصاحب إنسان الصين مخالفة للتي عثر عليها عند الإنسان القرد، وهذه بدورها تختلف عن التي عثر

عليها عند الإنسان القرد بجاوا، وإنسان الأطلس بالجزائر، وبافريقيا الشرقية. أما فيما يتعلق بقردة الجنوب فهي تمثل مجموعة غير متجانسة ولا نعرف بالضبط الى أي نوع منها يمكن أن ينسب العصر العظمي الإنساني القرني (Ostéodontokératique) ، وكذلك ثقافة الحصى.

فاذا وجدت «عتبة» لظهور الإنسان بالنسبة للاحاثي، أو «حد مخي» ضبط سعته الاستاذ فالوا (Vallois) بـ ٨٠٠ سنتمتر مكعب، فانه يوجد بالنسبة للمؤرخ «عتبة تقنية» ما كاد الإنسان يتخطاها حتى انفتح طريق التقديم امامه الى يومنا هذا. ان تحديد تلك العتبة يستوجب حل مشكلين: كيف ومتى وقع ذلك؟ فالمشكل الاول يستدعي أن نترك جميع الأسباب الطبيعية، لكي نعرف من خلال الأداة، بأن اليد التي استعملتها هي يد الإنسان. أما الثاني فهو يستوجب توفر الإطارات الزمانية التي تسمح بأن نؤرخ تاريخا تقريبا مقبولا الشواهد المتأخرة جدا من الصناعة الإنسانية.

ان افريقيا، الى يومنا هذا، هي القارة الوحيدة التي اعطت الجواب المقنع لهاتين المشكلتين واعتبارا أن نظرية الأصل الواحد أصبحت مقبولة عالميا، تعتبر افريقيا اليوم مهد الإنسانية. ان هذا «المهد المتنقل» كما عبر عنه القس بروي (Breuil) ، والذي طالما رأيناه ينتقل من قمم بميرالى سهول الفرات، قد استقر الآن بافريقيا الشرقية، و يكون ذلك الاستقرار قد وقع منذ ٣٠٠٠٠٠٠ سنة على الأقل. والحقيقة أن سفر العهد القديم (سفر التكوين) حدد موقع الجنة في الدنيا، وهي عدن، بمكان طبيعي فيه جنات ونباتات وأشجار، وخلق الله آدم ليتعاطى الفلاحة وتربية المواشي، أي ليعيش عيشة «العصر الحجري الجديد» في منطقة ما لبث أن أخذ يبرز فيها عصر حجري قديم. ان جميع التواريخ المستخرجة من الكتاب المقدس تؤرخ الخلق ابتداء من ٦٤٨٤ و ٣٦١٦ سنة قبل عصرنا. والغالب على الظن أن الشرق الأدنى كان من أقدم، ان لم يكن أقدم مكان للعصر الحجري الجديد وليس هناك من مبرر اليوم للقول بأنه كان مهد الإنسانية.

لقد ظهر الإنسان دون ضوضاء، ثم دلت بعد أمد طويل الحجارة التي نحتها على وجوده. ان النوع الإنساني «لم يزعزع شيئا مما في الطبيعة عند ظهوره... فرأيناه يبرز كنوع متميز مثلما يبرز تماما أي نوع آخر» (تيلار). وعلى هذا الأساس تصبح مسؤولية الباحث في ما قبل التاريخ عظمى عندما يأتي، وهو يعرف أقدم آثار الصناعات الإنسانية التي يمكن الإطلاع عليها، ببرهان كان علم الاحاثية عاجزا عن تقديمه. «يدرك أصل الإنسان بفضل الأداة التي استعملها. ذلك هدف علم ما قبل التاريخ الأسمى».

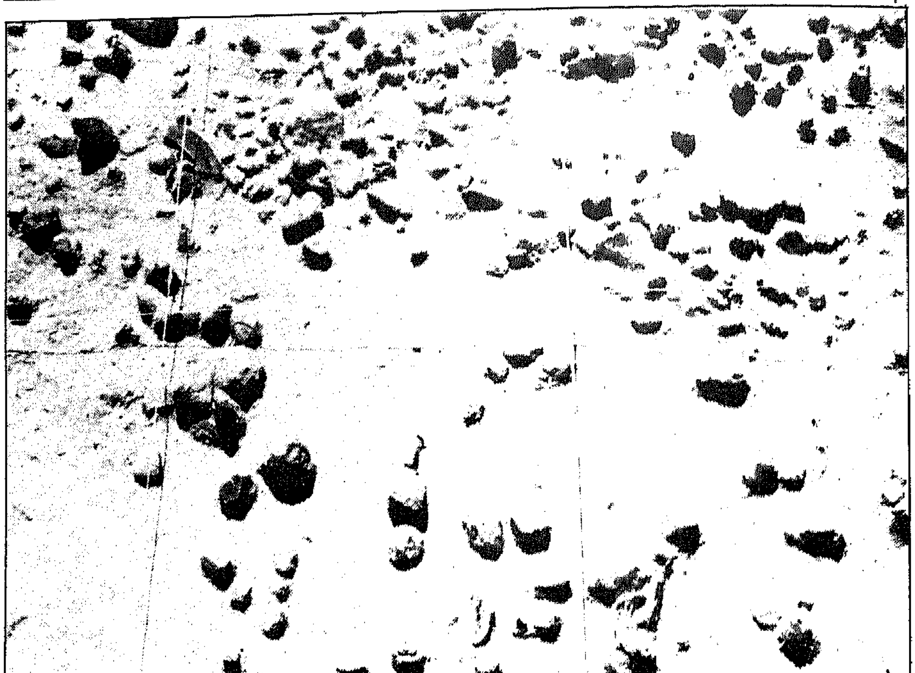
ان الباحث في ما قبل التاريخ بافريقيا مدعوّ الى الاجابة مسبقا على ثلاثة أسئلة:

— هل تعتبر الاداة على وجه اليقين معيارا دالا على ظهور الإنسان السويّ؟.
— هل تمكّننا الاداة من ادراك بدايات ظهور الإنسان السوي؟.
— هل تدرك الأداة الإنسانية ادراكا واضحا، عندما يعثر عليها في حالة جيدة من المحافظة؟.

ان معطيات هذا المشكل افريقية في جلها. لقد كان القس بروي في آخر حياته، وقد اعتبر بسلوك بعض الحيوانات، يسر الى أنه يتساءل هل الأداة تدل حقا على تجاوز عتبة البشر السوي ولماذا لا نختار الفن كمعيار؟ فذلك يفيد التميز بين انسان «عارف» حقا، وهو راسم



١



٢

● ١) تفاصيل التربة الاولودفانية (تشتمل على حصى متعدد الجوانب وعظمة سميكة لفرس نهر)، (تصوير ج. شافيون)، مجموعة متحف الانسان.

● تفاصيل التربة الأولدوفائية (تصوير ج. شافايون)، مجموعة متحف الانسان.

لسكو(Lascaux) سلفنا المباشر، و بين مجموعة أخرى من الكائنات المدبرة التي يمثلها الإنسان (الصانع) السابق للاول في الظهور.

وكما قالت السيدة تتري (Tetry) بعبارات دقيقة، فان استعمال أدوات مستقلة عن أعضاء الكائن الحي، وهي «أدوات طبيعية» هذا الإستعمال ليس من خصائص الإنسان ولا حتى من خصائص المقدمات البشرية. وأكبر دليل على ذلك، الزنبور المسلّح والنملة الخياطة (في الحشرات) وشرشور جالا باجوس، وزمج الماء، وكاسر العظام، والمزرة، والسمنة الشادية (في الطيور)، وقضاعة البحر، والقندس وحيوانات أخرى. ان الشمبنزي، في رتب المقدمات، يعتبر أقرب الحيوانات الى الإنسان. فهو يستعمل في حياته اليومية أدوات وأسلحة للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات النهابة مثل الحيات. ان الخوف والدفاع عن النفس يدفعانه الى التقاط عصي وأشهارها (١). ان هذا السلوك الملحوظ لدى الحيوانات، وهي حبيسة في الحدائق، قد استكملت دراسته بين ١٩٦٤م و ١٩٦٨م بملاحظة سلوك الحيوانات في الغابات المخصصة لها في طانزانيا. ان الشمبنزي الذي يعيش في جماعات تتكون من ٣٠ فردا أو أكثر يعرف كيف يمسك بعض الأغصان الصغيرة لاستخراج الأرضات، و يستعمل العصى لتهشيم الأعشاش للوصول الى العسل، و يستعمل الأوراق ليأخذ الماء الموجود بثقب الأشجار، و يثبت المقابض بالعصي لبلوغ الموز.

اما الحجارة، فيستعملها لتهشيم الثمار، أو لإبعاد الحيوانات المخاصمة عن طر يق الرمي من فوق ومن تحت عضده، مثلها مثل العصا. وهو يتفاهم مع غيره باستعمال اشارات صوتية. ويمكن لنا أيضا أن نستشهد بملاحظات أجر يت على قردة الغور يلا في رواندا (٢).

ولتصبح الاداة معيارا للدلالة على ظهور الإنسان السوّي، فلا يكفي استعمال شئ خارج عن «الأدوات الطبيعية» للكائن الحي، ولذا فلابد من حصول التحو يل المقصود، ولا بد من «التهيئة» لتلك الاداة، وذاك ما سيساعدنا على إعطاء جواب ايجابي على السؤال الثالث المطروح، والامتناع عن هذا الجواب بالنسبة للسؤال الثاني.

ان الأداة لا تسمح لنا بأن ندرك بدايات البشر ية أولا لأنه لم يبق محفوظا الى عهدنا الاّ عظام أحفور ية وأحجار. ودون أن ندعو الى مقارنة اثنوغرافية غير معقولة، فاننا نذكر بأن جماعة إنسانية تستطيع أن تستمد مجموع أدواتها من العالم النباتي وحده. ويمثّل لهذا بقبيلة المونكوبي من جزر اندامان. فان كانت الشجرة، بالسباسب المشجرة في الهضاب الإفر يقية، قد وفرت للبشر الأولين الادوات الأولى، فهذا امر لا يمكن اقامة الدليل عليه، وان كان أمرا محتملا. وحتى فيما يتعلق بالعظام الأحفور ية، والأسنان، فلقد نسب ر. دارت الى القردة الجنوبية من ترانسفال، صناعة أساسها العظام، والأسنان والقرون وسماها الصناعة العظمية الإنسانية القرنية، وهي صناعة ظلت قائمة طو يلا، وسنعود الى ذلك فيما بعد. ولقد ميز ر. فان ر يت لوو في «ثقافة الحصاة» بين «المشقوق» و«المنظم» منها. فالأولى، وهي حصاة مشقوقة فقط قد كانت على العموم موضع شك فان كان من المؤكد أن الحصاة التي التقطتها اليد الإنسانية وألقتها لم تحتفظ بأي أثر ملحوظ من ذلك

(١) انظر: الانترو بولوجيا المعاصرة، يونيو ١٩٦٧

(٢) الجمعية الجغرافية الوطنية، واشنطن، اكتوبر، ١٩٧١.

الإستعمال، فحتى الحصاة المهشمة يمكن أن تكون لعبة من لعب الطبيعة: ان الانهار في أسفل مسقطها، وارتداد الأمواج ينقشان الحصاة نقشا لا يختلف عما هشمه الإنسان منها. ان صناعة (الكافوئين) لم تصمد أمام هذه الحجة.

ان نص تيلاردي شردان الذي ذكرت جزءا منه في أول هذا العرض يحتوي على اخطاء جسيمة و به نقص كبير. (لقد ظهر الإنسان دون ضوضاء... وسار سيرا لا يكاد يحس به، حتى اذا ما دلت عليه الأدوات الحجرية الثابتة التي هي خير شاهد على وجوده، عندئذ فقط أخذنا نتفطن له.... ولكن كان حينئذ قد ملأ العالم القديم، من رأس الرجاء الصالح الى بكين. وقد كان ــ على وجه اليقين ــ يتكلم و يعيش على شكل مجموعات. وكان يوقد النار، وعلى أية حال، أليس ذلك ما كنا ننتظر بالفعل؟ فكلما انبثق شكل حي جديد أمام أعيننا من أعماق التاريخ، نراه قد برز شكلا سويا وأصبح آلافا مؤلفة...) و يبدو أن الإنسان الناطق لم يظهر الا في زمن الإنسان القرد. ان نسبة النار الى القرد الجنوبي البروميتي، كانت نسبة تأويلية خاطئة اذا لم تتوفر لدينا علامة ثابتة على ذلك قبل الإنسان القرد. ولم يكن ذلك بافريقيا، و بالعكس فان «الادوات الحجرية الثابتة» من الأولدواي لا تدل يقينا على البداية اذ ان تنوع أشكالها، وعددها، وانتظام نحتها تجعل منها على العكس علامة على النهاية. ان الباحثين في ما قبل التاريخ بافريقيا هم الذين طالبوا بهذا المليون من السنوات الذي زودهم بها حديثا أومو وكوبي فورا، وهذا أمر لا يرضينا!

ولهذا وجب علينا أن نقتصر على حل المشكل الثالث وهو يستدعي أن نوضح أغراض الإنسان «الأدوات» البسيطة جدا والأقلّ تهذيبا. ان افريقيا هي القارة الوحيدة الكفيلة، بما لها من ثروة وثائقية، بأن تسمح بذلك البحث الذي يشمل ميدانين: العظم والحجر.

أ ــ الصناعة العظمية السنية القرنية: لقد كانت الفرضية التي عبر عنها ر. درات سنة ١٩٤٩م موضوع تقييم من طرف دونالد ل. ولبرغ سنة ١٩٧٠.م (ك. أ. فبراير ١٩٧٠) ولقد سبق للقس بروي أن أقترح بعد دراسة العظام المكتشفة لانسان الصين، من شوكوتيان، بأن «عصر العظم» ربما سبق «عصر الحجر»، فمن المحتمل وجود عصر «ما قبل الحجري» سابق للعصر الحجري القديم. ولم تعرف صناعة حجرية متصلة بملاجىء قردة الجنوب قبل ١٩٥٥م (جنوب افريقيا) و١٩٥٩ - ١٩٦٠م (أولدواي طانزانيا) و١٩٦٩م (أومو، أثيوبيا) و١٩٧١م (بحيرة رودولف، الكينيا). الا أن درات قد قام مدافعا عن صناعة عظمية، أساسها العظام والأسنان والقرون، يسميها الصناعة «العظمية السنية القرنية» ولم يتوفر لنا مع الأسف ترتيب تاريخي دقيق، سواء كان نسبيا أو مطلقا، عن قردة الجنوب بافريقيا الجنوبية، التي كانت من هذه الناحية أقل حظا من أثيوبيا والكينيا وطانزانيا. وإذا اقتصرنا على مشكل الصناعة فإن. ر. دارت الذي ظل من ١٩٤٩م الى ١٩٦٠م يدافع عن وجوده، قد اعتمد في حكمه على فحصه لكسور دماغية للقرادح (بابوان) ولقردة الجنوب. ولقد فضل فيما يبدو أن يختار بين العظام المتراكمة في ماكابنسغات (٣٣٦ قنا، و٥٦ عظما فخذيا مثلا) والفقرات المخية (الأطلس والفائق) التي تمثل ٥٦٪ من الفقرات مع جمجمات البقريات. وقد رأى بأن العظام المتراكمة الخاصة بقردة الجنوب، هي أكدس من الفضلات ومن


١


٢

● ١) حصاة من أقدم الحصوات المشكّلة في العالم (حفريات ج. شافايون).

● ٢) حصاة من أولى الحصوات المشكّلة في العالم (حفريات ج. شافايون).

بقايا طعام تركه صيّاد نهّاب، مكّنه تحرّريده، نظرا لقدرته على الوقوف، من أن يستعمل الأسلحة والأدوات. وفي هذا الميدان استطاع (دارت) بعد فحصه لخمسين جمجمة للقرادح و٦ لقردة جنوبية أن يؤكد وجود رضوض في ٨٠٪ منها، وقد تسببت فيها أسلحة يدوية. وكانت الضربات تصيب غالبا الوجه، ويمكن للضرر أن يكون مضاعفا، مما يدل على سلاح ذي رأسين. و يوجد في ماكابنسغات عدد من عظام النقا، لذوات الحافر عليها آثار اهتلاك حدث قبل التأحفر، بينا كانت العظام الطويلة الأخرى سليمة. وذلك ما دفع دارت الى استنتاج ما يلي: (ان الاداة التي يختص بها قرد الجنوب هي هراوة من عظم، وعلى الأخص من نقا حيوان ذي حافر). ولقد استعمل الصياد أيضا فكوكا. ان التكسير باللّي (كسر لولبي) في النقا والعظام المستدقّة يفيد هنا أيضا تدخّل اليد كما اقترح ذلك بروي وتيلاردي شردان في شوكوتين موطن إنسان الصين. ان ذلك القرن الأيمن المتأحفر من الغزالة الرشيقة، المغروز بعظم فخذي لظبي كبير، حيث تصلب بفعل الكلسيت، يعبر عن فعل انساني، سواء أكان أداة أثبتت على تلك الحال أم أداة لكسر عظم الفخذ. وكذلك شأن عقب جمجمة ضبع قد غرز بها عقب ظبي، بين القبعة والقوس الوجني.

وهكذا فقد سبق أن وجدت مرحلة «عظمية سنية قرنية» ما قبل المرحلة الحجرية تلاها العصر الحجري، الذي واصلته «ثقافة الحصاة» ثم صناعات الأسلحة ذات الوجهين. وكان ذلك بداية (لنشاط ثقافي قائم على استعمال الأدوات).

ان مثل هذه الفرضية قد تسببت في مناقشات عنيفة تتعلق بموضوع «الصياد أو المصيد» و يرى بعضهم أن جميع العظام، حتى عظام قردة الجنوب ليست الا شواهد على مآدب الحيوانات اللاحمة. و يرى فيها آخرون أنها تراكمات موجود بملاجيء الضبع، الا أن هذا يتنافى مع عوائد ذلك الحيوان آكل الجيف، أو أنها من أعمال الشياهم (بورك ايبيك). والحال تشهد بأنها من الـ ٧١٥٩ قطعة عظمية المجموعة في ماكابنسغات، لم يقضم منها سوى ٢٠٠ قطعة. يضاف الى ذلك ان الضباع تعيش وسط عظام ضبعية. ولقد بيّن موطن يرجع الى عهد ريس ووورم أنه يوجد ١١٠ ضبعا بين ١٣٠ حيوان، بينا لا يوجد منها في ماكابنسغات الا ١٧ من ٤٣٣ حيوان. و يوجد في الركام الخاص بقردة الجنوب ٤٧ سنا منفردة للضباع، من ٧٢٩. و يوجد بموطن ريس. وورم ١٠٠٠ على ١١٠٠.

ولقد تغلبت شيئا فشيئا النزعة المناصرة للصناعة العظمية السنية القرنية، من دون أن تحكم مسبقا على نوع القرد الجنوبي الذي قد يعتبر أنه كان الصياد. ان وجود صناعة حجرية معها (ستركفنتاين ١٩٥٥) جاء ليؤيد ذلك، ولقد أتت بالبرهان الصناعة العظمية بأولدواي التي نشرها أحسن نشرم. لايكي (٣). فهي لا تقبل النزاع وقد مهدت السبيل للصناعة المنسوبة للإنسان القرد بافريقيا وآسيا (شوكوتيان) وأوربا (ترالبا وأمبرونا مثلا).

و يوجد على طول ازمنة ما قبل التاريخ عرق من الصناعة العظمية كان موازيا لعرق الصناعة الحجرية. ان تحليله يعتبر أدق، الا أن ذلك لا يمنع وجوده. وهذه الصناعة ليست في أي مكان آخر أقدم مما هي في افريقيا، وان كان البرهان على وجود مرحلة «قبل المرحلة الحجرية» لم يحصل.

(٣) اولدواي جورج، المجلد الثالث.

ب ـــ الصناعة الحجرية: منذ أن تركت فرضية «الصوانيات»، تمثل الحصاة المهيأة التي سميت مدة طويلة «ثقافة الحصاة»، أقدم صناعة حجرية معروفة لدينا، ونحن نعلم كيف أن ج. ويلاند، الذي كان مدير المصلحة الجيولوجية بأوغندا، قد لاحظ سنة ١٩١٩م بذلك الجزء من افريقيا الشرقية وجود حصاة منحوتة تشابه تلك التي اكتشفت باستراليا قبل ١٩١٤م. ولقد وضع سنة ١٩٢٠ مصطلح «ثقافة الحصاة» و«كفوين» (نسبة الى نهر كفو). وميزسنة ١٩٣٤م مراحل تطورية عددها أربع.وهو الذي أشار على ل. لايكي سنة ١٩٣٦ بأن يضع مصطلح أولدواي لوصف ثقافة الحجارة المتطورة الموجودة بفجّ أولدواي (طانزانيا). وحاول فان ريت لوو سنة ١٩٥٢م ان يضع تصنيفا تقنيا ومرفولوجيا أول لثقافة الحصاة. ولقد أتى من آسيا مرة أخرى، على لسان هـ. موفييس، تعريف أشكال تعتبر أساسية: الساطور، والساطور الأداة، والفأس اليدوي (١٩٤٤م). ويقتنع بذلك تدريجيا المؤرخون لما قبل التاريخ بافريقيا، ولا سيما باوربا: الجزائر(ك. آرمبورك)، المغرب (ب. بيبرسن)، الصحراء (هـ. هوغو، هـ. اليهان، ج. هيفايون) كتنكا (مرتلمان) الخ... ولقد اقترحت تصنيفات مرفولوجية، معتمدة على تقنيات النحت (ل. رمندو، ب. بيبرسن). ويبرز من هذا ملاحظتان:

١ ـــ ان «ثقافة الحصاة» تعتبر معقدة جدا لأن أشكالها متنوعة جدا، وقارة ومنتظمة. فهي لا تمثل بداية الصناعات الحجرية.

٢ ـــ ان «ثقافة الحصاة» تشمل بالقوة كل الإمكانيات التطورية التي ستوفر الصناعات الكلاسيكية بالعصر الحجري الأسفل بافريقيا، أي صناعة الأسلحة ذات الوجهين، والقدومات، ولن نحتفظ الا بالنقط الأولى.

واعتبارا الى ذلك التعقيد الخاص بثقافة الحصاة وبانتشارها، أصبح الباحثون في ما قبل التاريخ بافريقيا يتطلعون الى وضع ترتيب تاريخي أطول من الذي لم يقبل الا بصعوبة، والذي أعطى ١٠٠٠٠٠ سنة للدهر الرابع. ولقد أصبح تأريخ الأولدواي بطريقة البوطاسيوم أرغن (١٨٥٠٠٠٠ سنة) الى ١١٠٠٠٠٠ سنة لهذا «الباد ١» مؤكد بتاريخ موطن بجيرة تركانا أي بما قدره ٢٦٠٠٠٠٠ سنة. الا أن هذه الصناعة الأخيرة، وان كانت تشمل حصاة مهيأة، فهي لا تنتسب في جلها الى «ثقافة الحصاة». لأنها صناعة شظايا، في سنة ١٩٧٢ جمعت بأوموشظايا، يغلب على الظن أنها برهان ضعيف ونحن نتساءل أن لم يسبق تهيئة الحصاة لتكون أداة، استعمال الشظايا المقطوعة من صخرة معنية من المادة الخام. الا أننا نصل هنا الى حدود امكانية النسبة الى سبب غير طبيعي: فان كانت آثار النحت غير واضحة (عقب ـــ بصلة)، وان جاز أن نؤكد على «صقل الإستعمال» فاننا سنعود الى مشكل «الصوانيات» القديم.

ولذلك فان الموجود الذي لا يفسر بغير تدخل الإنسان هو الذي يلفت النظر. لكن أين سينتهي بنا التساؤل؟ ان الحد الأكثر جرأة في هذا الصدد قد بلغه ل. لايكي الذي ينسب الى قرد الكينيا

«نشاط القرع بالعظم» لأنه استعمل قطعة من طفح قرعة الإستعمال وسحقه كما استعمل عظما طويلا يمثل كسرا عميقا (٤).

وهنا تتلاقى مشاكل الصناعتين العظمية والحجرية في أصليهما. فلقد استحال الإتيان بأي برهان تكنولوجي أو مرفولوجي اذ لم يمكن ملاحظة أي أثر (كلاسيكي) من نشاط إنساني. والبرهان الإيجابي الوحيد هو ذلك الموجود الذي لا يفسر، والمتكون من شظايا بالقرب من بقايا قرد الكينيا. الا أن نفي دور الطبيعة لا ينفي الاستعمال من قبل كائن شبيه بالإنسان وسابق لظهوره. وما ذكرناه سابقا في شأن سلوك الشمبنزي حاليا يؤيد هذا الإتجاه.

فان كانت أدوات العظم والحجر تشهد على أن عملية عقلية بشرية حدثت منذ أكثر من مليونين ونصف من السنوات، فذلك لا يعتبر في نظر مؤرخ ما قبل تاريخ افريقيا، نقطة البداية للعمليات العقلية.

(٤) ل. س. ب. ليكي «Bone smashing by Late Miocene Hominid» «مجلة الطبيعة» ١٩٦٨.

معجم المصطلحات

آبفيلي: مظهر من النشاط الصناعي قام بتعريفه (هـ بروي (Breuil) في أبفيل الواقعة بوادي الصوم بفرنسا. ويتميز بأدوات حجرية ذات وجهين، ومنحوتة نحتا عميقا بواسطة قارع صلب (من حجر). وهذا المظهر الذي عرف في أوربا يوافق مطلع العصر الحجري القديم الأسفل.

أشولي: نسبة الى سان أشول، الواقعة بوادي الصوم بفرنسا. وهو المظهر الثقافي الرئيسي في العصر الحجري القديم الأسفل. وقد دام من تجمّد (مندل) الى نهاية العصر الجمودي البيني (ريس — وورم). والأداة النموذجية المستعملة هي آلة ذات وجهين، أكثر انتظاما من التي استعملت في الأبفيلي، وهي منحوتة بقارع غض (خشب أو عظم).

أمازونيت: نوع أخضر من الميكرولين.

أميري: دورة قارية مغربية معاصرة للمندل الأوربي.

انسان (Homo) اسم جنس خصص في تصنيف الحيوانات للإنسان الأحفوري، والإنسان الحالي.

انسان الأطلس (Atlanthrope) : أحفور من مجموعة الإنسان القديم، قام بتعريفه س. آرمبورغ في منجم يقع في تيرنيفين (الجزائر). وتعزي البقايا الى نهاية البليستوسين الأسفل.

انسان التل (Mélanthrope) : تسمية نوعية أطلقها بروم، روبنس على قطعتين من فك أسفل عثر عليهما في ١٩٤٩ في منجم سوارتكرنس (جنوب افريقيا)، وشكلهما شبيه بشكل الفك الأسفل للإنسان القديم.

انسان الصين (Sinathrope) من اللاتينية سينانسيس وتعني: صيني، ومن اليونانية أنثروبوس، وتعني انسان). يقصد به أحفور تتمثل فيه في نفس الوقت خصائص قريبة من الإنسان الحالي تجعله ينتمي الى الجنس البشري، وخصائص أخرى مخالفة للأولى يتميز بها نوع آخر. ان منجم شوكوتيان (في الجنوب الغربي من بكين) قد استغله بين عامي ١٩٢١ و ١٩٣٩ الدكتور بيي وم. بلاك، والأب تيلاردي شاردان، وف. فيندنرايخ. وهو ينتمي الى نوع الإنسان المستقيم.

انسان التشاد (Tchdanthrope) : من البشريات الأحفورية. يقع من حيث التركيب البدني بين مرحلتي قرد الجنوب والانسان — القرد.

الإنسان العارف (Homo sapiens) : تسمية أطلقها س. ليني (١٩٥٣)، وهي مخصصة للأشكال الحديثة أو للانسان الجديد، للدلالة على الإنسان الذي توصّل بفضل ذكائه الى حالة من التكيف مع الوسط تسمح له بأن يفكر و يتأمل بكل حرية.

الإنسان الماهر (Homo habilis) : تسمية أطلقها لايكي، وتوبياس، ونابيي، للدلالة على الأحفورات التي تقع درجة تطورها التشريحي بين قرد الجنوب، والإنسان — القرد.

انفايي: نسبة الى إلى أنفة ببلاد المغرب. وهو التعدي البحري الثالث الذي حدث في الدهر الرابع بالمغرب.

أوجيت: سيليكات الكالسيوم والمغنيسيوم والحديد الطبيعي. وهذا المعدن يدخل في تركيب البزلت.

أورينياسي: نسبة الى أورينياك (جارون العليا بفرنسا). قامت فيه صناعة فيما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم الأعلى. ان هذا الإسم الذي (اطلقه هـ. بروي وأ. كارتيلهاك في ١٩٠٦)، يدل على الصناعات المحددة تاريخيا بين الموستيري والبريغوردي، و يتميز بأسنة قصيرة من خشب الرنة (حيوان) وحكاكات ثخينة، ونصال عليها زخرفة خطية مستوية ذات قشور، كما يتميز ببعض المناقيش. وفيه ظهرت الآثار الفنية الأولى، وهي عبارة عن تماثيل صغيرة حيوانية، وعلامات منقوشة نقشا سريعا على كتل من الأحجار الكلسية. و يرجع الى حوالي ٣٠٠٠٠ سنة.

أوغرتي ١: المطار الصحراوي الثاني، و يعادل الكاماسي.

أوغرتي ٢: المطار الصحراوي الثالث، و يعادل الكنغري.

أولدوائي: نسبة الى فج أولدواي في طانزانيا الشمالية. و يوجد به مركّب من الأدوات الحجرية القديمة (حصى مهيئ) اكتشفه (كاتو ينكل عام ١٩١١). وقد ميز (لايكي) في هذا المركب ١١مستوى تبتدئ بالأولدواي ١ الموافق للشولي القديم، وتنتهي بالأولدواي ١١ الموافق للأشولي ٦، مع أدوات لوفالواسية.

أوليكوسين: الحقبة الثانية من الدهر الثالث، تتراوح من ـــ ٤٥ مليون سنة إلى ـــ ٢٥ مليون سنة.

إيبيرومورُوسي (Ibéromaurusien) مظهر ثقافي من أواخر العصر الحجري القديم، ومن بعد العصر الحجري القديم بالمغرب، و يتميز هذا العهد بكثرة الأدوات الحجرية الصغيرة. وقد دام من الألفية العاشرة الى الخامسة ق.م.

ايبيدوت: سيليكات الألومينيوم والكالسيوم والحديد المموه الطبيعي.

اييوسين: الحقبة الأولى من الدهر الثالث، منذ ـــ ٦٥ الى ـــ ٤٥ مليون سنة.

بازلت: صخر بركاني.

باليوزويك: كلمة مرادفة للدهر الأول.

بشريات (Hominidès) فصيلة حيوانية من المقدمات العليا، يمثلها البشر الأحفوريون ((Fossiles)والبشر الحاليون.

بليستوسين: (من اليونانية بليستوسن، وتعني كثير، وكينوس، وتعني حديث) و يقصد به الانقسام الجيولوجي الفرعي للدهر الرابع، و يشمل مطلعه والجزء الأكبر منه. ان هذا المصطلح الذي وضعه ش. ليال عام ١٩٣٩ يوافق أوقات التجمدات الكبرى في الدهر الرابع، و يسبق الحقبة الهولوسينية التي تبتدىء منذ ١٠٠٠٠ سنة قبل عهدنا.

بليوسين: حقبة نهائية من الدهر الثالث. ابتدأ في ـــ ٥ر٥ ملايين وانتهى في ـــ ٨ر١ مليون سنة.

بنجديات (Pongidès) : فصيلة من القردة الشبيهة بالإنسان، ونموذجها هو الأورانغوتان، وتشمل أيضا الغوريلا والجيبون والشمبنزي.

تشيتولي: اصطلاح وضع على اساس مركب حجري عثر عليه في تشيتولو (كاساي). و يدل على مظهر صناعي من العصر الحجري القديم اللاحق و يتميز باستمرار وجود أدوات ضخمة، ولكن أحجامها أصغر مما كانت عليه في اللوبمبي، و بتعدد أسنة السهم المثقف على الوجهين.

تانسيفتي: نسبة الى غربي تانسيفت (القسم الغربي من المغرب) و يقصد به الدورة البقارية المغربية الموافقة للقسم الأول من ريس.

تكتيت: زجاج طبيعي غنى بالسيليس والألومين، ومن المحتمل أن اصله من الكون.

توف (Tuf) : صخر بركاني مسامي خفيف وغض طري.

ثقافة الحصى: يقصد بها صناعة الحصى المثقف، وهي أقدم صناعة حجرية معروفة، وتتألف بصورة أساسية على حصى أحدث فيها حدّ قاطع بالنزع مرّة أو عدّة مرات.

جاديت (Jadéite) : ألومينو سيليكات طبيعي للصوديوم، مع شيء قليل من الكلسيوم والمغنيزيوم والحديد.

دوليريت: صخر من فصيلة الكابرو، معادنه يمكن رؤيتها بالعين.

دهنج (ملاشيت (Malachite) : كربونات النحاس الأساسي الطبيعي، لونه أخضر.

دياباز: صخر من فصيلة الكابرو (صخر محبّب) والديوريت لونه أخضر في الغالب.

ديوريت: صخر متبلر.

ذو الوجهين (بيفاس): آلة من حجر منحوتة على الوجهين، شكلها شكل لوزة. وكانت تسمى (الفأس) ثم (اللكمة) و يبدو أنها كانت تستعمل للقطع، وأحيانا للكشط. وبهذه الآلة يتميز العصر الحجري القديم الأسفل.

ريس: نسبة الى جدول ماء في بافاريا. و يقدر به التجمد ما قبل الأخير الألبي في الدهر الرابع، وقد وقع بين ـ ٢٠٠٠٠٠ وـ ١٢٠٠٠٠ سنة.

ساوري: نسبة الى الساورة (واد في الصحراء الجزائرية). و يقصد به المطار الصحراوي الرابع، و يعادل الكبلي.

سبج (Obsidienne) : صخر بركاني زجاجي مرصوص يشبه الزجاج الضارب الى السواد.

ستيلبايي: نسبة الى ستيل باي (مقاطعة الرأس). قامت فيه صناعة حجرية غنية بالقطع الورقية الشكل ذات تثقيفات على الوجهين شبيه بأوراق الرند في السولوتري الفرنسي وهو معاصر للكبلي.

سربنتين: سيليكات المغنزيوم المموهة.

[redacted]

سفليات المنخرين (Catarhiniens) : قردة العالم القديم، لها ٣٢ سنا، ولها وتيرة أنفية رقيقة.

سنغوي: موقع ينسب الى خليج سنغو (في بحيرة فكتوريا بأوغندا). وهو مركب للصناعات الحجرية اكتشفه وايلاند عام ١٩٢٠، يتميز بأدوات جمعت بين آلات مصنوعة من شظايا بطريقة لوفالوا، وبين معاول ضخمة، وذوات الوجهين، وقطع مزينة بالأوراق. وقد ازدهر بين الكاماسي والكمبلي.

سينوزويك: مرادف للدهر الثالث والدهر الرابع. يبتدئ مع الايبوسين منذ ٦٥ مليون سنة، ويشتمل بعد ذلك على الأوليغوسين (ــ ٤٠ مليون سنة)، والميوسين (ــ ٢٥ مليون سنة) والبليوسين (ــ ١١ مليون سنة) والبليستوسين، والحقبة الحديثة.

شولي (Chelléen) : نسبة الى شول. يقصد به المظهر الصناعي في العصر الحجري القديم الأسفل وصفه ج. دي مورتيي. وهو التسمية القديمة للابفيلي.

صناعة عظمية سنية قرنية (Ostéodontokératique) : من صناعات ما قبل التاريخ وهي قائمة على العظم. (من اليونانية أوستيون)، وعلى الأسنان (من اليونانية أودوس، أودنتوس)، وعلى القرن (من اليونانية كيراس، كيراتوس)، اكتشفت في ماكبنسغات (جنوب افريقيا) من طرف ر. أ. دارت.

صولوتري: نسبة الى صولوترا (منطقة الصون واللوار بفرنسا). قامت فيها صناعة فيما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم الأعلى، ويتميز بصفائح رقيقة جدا من الصوان (سيليكس). ان المظهر الخارجي للأدوات المميزة له سببه الصنع بتثقيفات حالقة متوازية على وجهي القطعة.

عاطري: نسبة الى بئر العاطر بالجزائر الشرقية. يتميز بالصناعة في العصر الحجري القديم بشمال افريقيا، بين الموستيري والقابسي. ويشتمل على أسنة الرماح ومجرفات ذوات ساق، وعلى بعض الأسنة التي لها شكل أوراق. وقد تواصل العاطري خلال قسم كبير من (وورم)، ومن المرجح أن قسما منه معاصر للعصر الحجري القديم الأعلى باوربا.

عصر النحاس والحجر (Enéolithique) : أصل التسمية الأجنبية من الاتينية اينوس، ومعناه البرونز. ومن اليونانية ليتوس، ومعناه الحجر. كلمة مرادفة للعصر المعدني الحجري (Chaleolithique). وهي حقبة فيما قبل التاريخ بدأ الإنسان يستعمل فيها النحاس.

عصر حجري جديد (نيوليتيك): (من اليونانية نيوس، وتعني جديد وليتوس وتعني حجر). يقصد به العصر الحجري المتميز بانتاج القوت (زراعة، رعي). وهذه الكلمة من وضع ج. لوبوك عام ١٨٦٥م.

عصر حجري قديم (باليوليتيك): (من اليونانية باليوس، ومعناها قديم، وليتوس، ومعناها حجر). يقصد به العصر الحجري، بدون انتاج للقوت. وهذه الكلمة من وضع ج. لوبوك عام ١٨٦٥.

عصر حجري وسيط: (الكلمة الأجنبية ميزوليتيك أصلها ميزو، وتعني: في وسط، وليتيك، وتعني: حجارة). استعملت هذه الكلمة مدة طويلة لتدل على مجموع المظاهر الثقافية الواقعة بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الجديد. وتنسب اليوم على الأرجح لمرحلة لاحقة للعصر الحجري القديم.

عقيق أحمر (كورنالين): كلسيدونية حمراء.

كالينه (Galène) : سلفور الرصاص الطبيعي.

كمبلي (Gamblien) : هو الممطار الإفريقي الرابع، وقد وصف وصفا علميا بالنسبة لما حول بحيرات ناكورو، ونايفاشا، والمانتيتا (الكينيا). وهو معاصر للعصر الجمودي الوورمي، ولكن لا يُستعمل اليوم.

غونز (Günz) :نسبة الى نهر بألمانيا. ويقصد به أقدم تجمد ألبي في الدهر الرابع.

فنطسي المنخرين (Platyrhinien) قرد العالم الجديد، له ٣٦ سنا، وله وتيرة أنفية ثخينة.

فورسميث: نسبة الى بلدة تقع في ولاية أورانج (جنوب افريقيا). قامت فيها صناعة حجرية تشتمل على مكاشط وأسنة ذات وجه واحد تستعمل للتسوية، وآلات ذات وجهين، وقدومات صغيرة. وهي توافق العصر الحجري القديم الوسيط بأوربا.

فيلافرنشي: نسبة الى فيلافرنكا داستي (بييمون). ويقصد به التشكل الرسوبي الموافق للفترة الانتقالية بين الدهرين الثالث والرابع.

قابسي: نسبة الى كابسا (الاسم اللاتيني لقابس في تونس الجنوبية) قامت فيه صناعة من العصر الحجري القديم الافريقي. تولى تعريفه ج. دى مورغان. احتمعت فيه أدوات من النوع السائد في العصر الحجري القديم الأعلى، الى جانب العديد من الأدوات الحجرية الصغيرة، وآلات الثقب الصغيرة الثخينة،

ولعلها كانت تستعمل لثقب القطع من قواقع بيض النعام المستخدمة لصنع العقود. و يرجع الى حوالي ١١٠٠٠ سنة.

ما قبل السلطاني (Présoltanien): حقبة قارية مغربية توافق نهاية ر يس. وهي سابقة للسلطاني (نسبة الى دار السلطان).

ما قبل الكمبري (Précambrien): يقصد به أقدم تشكل جيولوجي. دام منذ تشكل الكرة الأرضية (و يقدر ب ٤ مليارات سنة) الى الدهر الأول (ـــ ٥٠٠ مليون سنة).

قدوم: آلة ضخمة مصنوعة من شظية لها حدّ قاطع يتكون من تلاقي سطحي الشظية. وبهذه الآلة يتميز الأشولي الإفريقي، ولكن عثر عليه أيضا في صناعات العصر الحجري القديم والوسيط في بعض المناجم من جنوب فرنسا، وفي اسبانيا.

قرد البليستوسين: يقصد به قرد الجنوب الرشيق. اكتشف في ترانسفال عام ١٩٣٦، في قاعدة البليستوسين.

قرد الجنوب (أوسترالوبيتاك): (أصل التسمية، من الكلمة اللاتينية أوستراليس،أي الجنوبي. ومن الكلمة اليونانية بيتاكوس، أي القرد). اسم جنس أطلقه (دارت) عام ١٩٢٤م على عدد من الأحفورات في جنوب افريقيا، لها خصائص القرود، وصفات قريبة من صفات البشر. ومنذ ذلك العهد وقعت اكتشافات أخرى في افريقيا الشرقية والجنوبية.

قرد انسان (Pithécanthrope) يقصد به أحفور له خصائص قريبة نوعا ما من الإنسان الحالي، تضعه في جنس الإنسان، وخصائص أخرى يتميز بها نوع آخر. وقد اكتشف أول قرد ـــ انسان من طرف ا. دو بوا، في جاوة عام ١٨٨٩م و ينتمي الى نوع الإنسان المستقيم.

قرد ذيال (Cercopithèque): أصل الكلمة الأجنبية، من اليونانية (كركوس) ومعناها: ذيل. و (بيتاكوس) ومعناها: قرد. وهو قرد افريقي ذو ذيل طويل.

قرد شبه الإنسان (بارنثروب): صنف من قرد الجنوب القوي، عثر عليه في عام ١٩٤٨م في البليوـــ بليستوسين في كرومد راسي (ترانسفال). و يقال له أيضا: القرد ـــ الإنسان الزنجي، (زنجنثروب)، وشبه قرد الجنوب (باروسترا لوبيتيك). ان هذا الصنف البائد له خصائص قردية كثيرة، ولكن، له سمات تجعله أقرب الى الإنسان منه الى القرد الشبيه بالإنسان، وخاصة في ما يتعلق بانتظام أسنانه.

قردا راما: قرد راما فيكيري: ينتمي الى المقدمات التارثة (آكلة كل شئ)، من الميوسين ومن المحتمل أن يكون جدّ البشر يات. و يرجع الى عهد ١٢ أو ١٤ مليون سنة. اكتشف في روابي سيواليك (شمالي الهند)، وتوجد منه نماذج أخرى معروفة في الصين وتركيا وفورتارنان بافر يقيا اما في أور با، فهو معروف في فرنسا وألمانيا واليونان والنمسا واسبانيا والمجر.

قرصاني: آلة من حجر شكلها شكل القرص، مستعملة في أواخر الأشولي، ومنحوتة على الوجهين.

كاغيري (Kaguérien): نسبة الى نهر كاغيرا (طانزانيا). و يقصد به المطار الإفريقي الأول، وقد وصفه ا. ج. و يلاند عام ١٩٣٤م. وهو معاصر لتجمّد كونز في جبال الألب. ولكنه لا يستعمل اليوم.

كافوون: نسبة الى نهر كافو (اوغندا) و يقصد به مظهر صناعي في مطلع العصر الحجري القديم الأسفل بافر يقيا الشرقية، و يتميز بحصى مسطح منحوت نحتا خفيفا، وغير مصقول. ومن العلماء من ينازع في أصله البشري.

كالابري: نسبة الى كالابر. أقدم طبقة في العصر الرابع البحري، قام بتعريفه م. جينو عام ١٩١٠م.

كماسي (Kamasien): نسبة الى كاماسا (كينيا). و يقصد به المطار الإفريقي الثاني، والتسمية العادية له هي الكاماسي الأول، وهو معاصر لتجمد مندل الاوربي، ولكنه لا يستعمل اليوم.

كانجيري (Kanjerien): نسبة الى كانجيرا (كينيا) و يقصد به المطار الإفريقي الثالث، وقد وصفه ل. س. ب. لايكي، والتسمية العادية هي الكاماسي الثاني. و يقابل في جبال الألب العصر الجمودي لر يس، ولكنه لا يستعمل اليوم.

كلاكتوني: نسبة الى كلاكتون ـــ أون ـــ سي (بر يطانيا العظمى). قامت فيه صناعة فيا قبل تار يخ من العصر الحجري القديم الأسفل. وصفها هـ. بروي في ١٩٣٢م، وهي تتميز بشظايا من الصوان لها سطح أملس وعر يض يستعمل للضرب. و يبدو أن الكلاكتوني معاصر للأشولي.

كلسيت: كر بونات الكلسيوم المتبلرة. و يوجد منه في الطباشير، والرخام الأبيض والمرمر الكلسي.

كلسيدونية (Calcédonie): نوع ليفي من السيليس يتألف من رمل الصوان وحجر الأو بال.

لازورد (Lapis-Pazuli): صخر أزرق لازوردي يستعمل في

الفسيفساء (موزاييك)، و يسمى مسحوقه «الأوترمير Autremer».

لكمة القبضة: آلة من حجر على شكل لوزة، منحوتة على الوجهين، وربما كانت تستعمل للحفر والسلخ وهي التسمية القديمة لذي الوجهين (بيفاس).

لوبمي: نسبة الى لوبمبا في كاساي (زايير). و يقصد به المظهر الصناعي من العصر الحجري القديم النهائي المتميز بالجمع بين أدوات ضخمة من حجر منحوت (معاول — مقصات) و بين قطع ورقية الشكل مسواة بدقة على الوجهين. و يرجع الى حوالي ٧٠٠٠ سنة قبل عصرنا.

لوفالوا (تقني): نسبة الى لوفالوا — بيري، (مرتفعات السين بفرنسا). و يقصد بهذه الكلمة طريقة في تقصيب الحجارة تسمح، بعد إعداد البقايا الحجرية بالحصول على شظايا كبرى لها شكل معين.

لوفالواسي: مظهر صناعي تولى وصفه هـ. بروي في ١٩٣١، و يتميز بوجود شظايا غير مسواة عادة أو مسواة قليلا، ومستخرجة من بقايا حجرية من نوع لوفالو. ولا يعتبر اليوم مظهرا حقيقيا.

ليديانيت: شيست متصلب.

ماز يري: المطار الصحراوي الاول، و يعادل الكاغيري.

ماغوسي: نسبة الى ماغوسا (أوغندا). قامت فيه صناعة حجرية اكتشفها و يلاند في ١٩٢٦م، وتقع بين الكبلي والماكالي، وقد جمعت بين أدوات ذات مظهر موستيري، كالبقايا الحجرية والأقراص والأسنة، وبين قطع ورقية الشكل مسواة على الوجهين، وأحجار صغيرة هندسية الشكل.

ماكالي: نسبة الى ماكالا (كينيا). و يقصد به المرحلة الرطبة من الدهر الرابع بالقسم الجنوبي من افر يقيا، وهي مرحلة معاصرة لما بعد العصر الجمودي الأول في أور با لا يستعمل اليوم.

ماكوري: طور تاريخي رطب عرف بواسطة الترسبات الموجودة فوق سطح أدنى من سطح بحيرة ناكورو (كينيا) ١٠٢ م. وقد اكتشفت في هذه الطبقات صناعات مرتبطة من حيث المظهر بالعصر الحجر الجديد الذي قد يرجع عهده الى حوالي ـ ٣٠٠٠ سنة.

مرو (Quartzite) : صخر صلب يتألف أساسا من الصوان.

معارفي: نسبة الى المعارف (المغرب) و يقصد به التعدي البحري على الشاطئ الأطلسي من المغرب في الدهر الرابع.

مندل: نسبة الى نهر يقع في بافار يا. يطلق على التجمد الثاني الألبي في الدهر الرابع. و يبدو أنه يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و٤٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

موستيري: نسبة الى موتيي (دور دونيا). قامت فيه صناعة فيما قبل التاريخ في العصر الحجري الوسيط، وانتشرت في القسم الثاني من البين جودي الأخير. وصفها ا. لارتيت في ١٨٦٥م، وتتميز بكثرة الأسنة والمكاشط المصنوعة بتسوية الشظايا على وجه واحد منها.

مولويي: نسبة الى وادي الملوية بالمغرب. وهي كلمة استعملها بيبرسون وتطلق على الفيلافرنشي الوسيط بالمغرب.

ميكوك: من مواقع ما قبل التاريخ، شمالي الإيزي بفرنسا (Eyzies) على بعد ٢٥ كلم في الشمال الغربي من سارلا، اكتشفت بهذا الموقع الصناعة الميكوكية (وهي شكل متطور جدا من الأشولي ومعاصرة لتجمّد وورم).

ميوسين: (من اليونانية ميون، وتعني: أقل وكينوس، وتعني: حديث)، أي أنه أقل اشتمالا على الأشكال الحديثة من النظام الموالي له. وهو حقبة من الدهر الثالث الواقعة بين ٢٥ و ١٠ ملايين سنة قبل الميلاد.

نضيد (شيست): صخر رسوبي سيليكو — ألوميني، مورق ينفلق بسهولة الى صفحات.

نياندرتالي: نسبة الى واد صغير من حوض دوسيل (ألمانيا)، حيث اكتشف الدكتور فوهلروت عام ١٨٥٦م، أول ممثل لمجموعة خاصة من جنس الإنسان، كان يعيش بأور با الغربية، في البليستوسين الأعلى، ثم انقرض فجأة من غير أن يترك خلفا له.

هاروني: التعدي البحري الرابع في الدهر الرابع على الشاطئ الأطلسي للمغرب.

هولوسين: أحدث حقبة في الدهر الرابع. بدأ منذ ١٠٠٠٠ سنة.

هيماتيت: أكسيد الحديد الطبيعي.

وعنة (Latérite) : من (لا تير، اي الآجر)، وهي تربة حمراء فاقع لونها، أو حمراء داكن لونها، غنية جدا باكسيد الحديد والالومين، وتتشكل في المناخ الحار نتيجة للتذو يب.

ولطوني: نسبة الى موقع ولطون (الرأس الغربي). يتميز بصناعة حجرية مؤرخة بحوالي ١٥٠٠٠ سنة، تشتمل على محكات على شكل سفود، وأحجار صغيرة على شكل قطع من دائرة، وعلى شكل مربع منحرف، وكذلك على شاقب وقطع ذات حواف مسننة. و يعتبر مظهرا متأخرا امتد إلى أن بدأ الإنسان يستعمل الحديد.

وورم: نسبة الى بحيرة والى جدول ماء في بافاريا. و يقصد به أحدث التجمدات الألبية في الدهر الرابع. وهذا التجمد بدأ منذ ٧٥٠٠٠ سنة وانتهى قبل الميلاد بحوالي ١٠٠٠٠ نسة.

يشب (Jaspe) : كلسيدونية غير صافية ملونة على شكل أشرطة أو بقع، وغالبا ما يكون اللون أحمر.

الفصل الثامن عشر

البشريات الأحفورية الافريقية

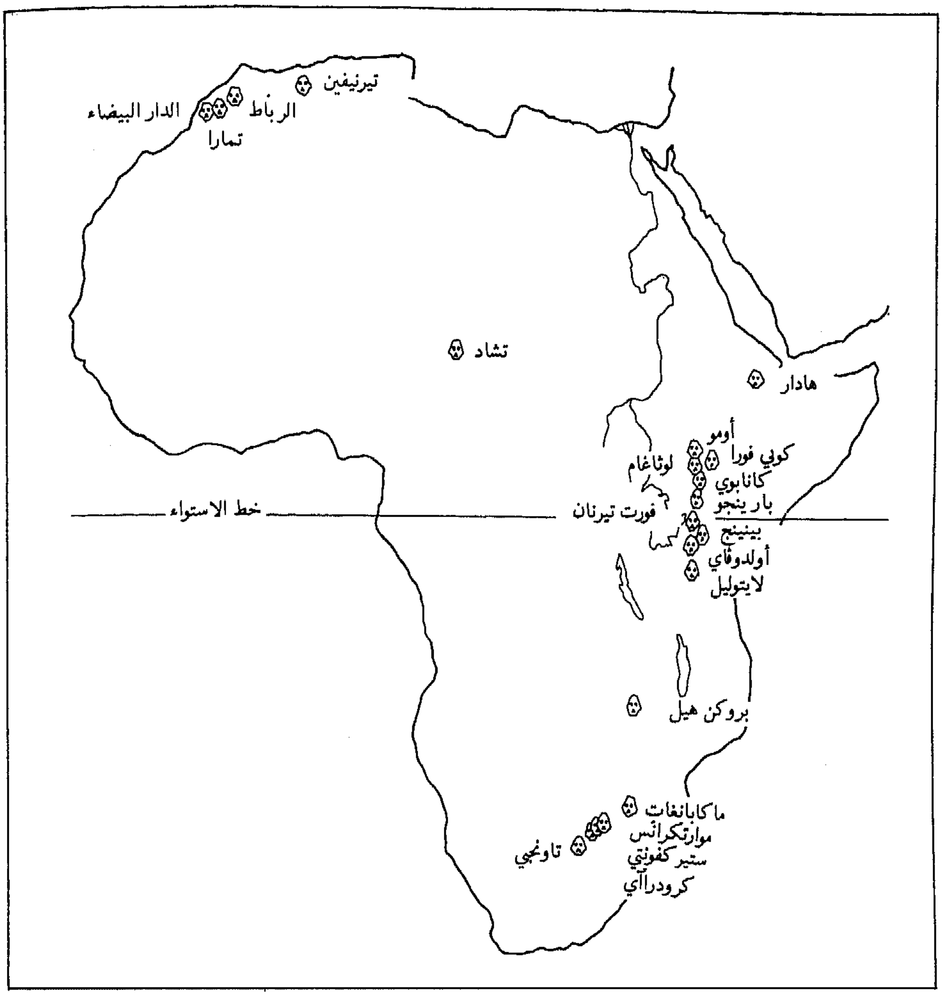
بقلم: ر. لايكي

افريقيا مهد الإنسانية

كان شارل داروين أول عالم أبدى نظرية عصرية تتعلق بتطور الإنسان وأصله، وكان أول من اعتبر أن افريقيا مهده الأصلي. ولقد بينت الأبحاث التي أجريت خلال القرن المنصرم كم كان على صواب، لأن كثيرا من المظاهر الخاصة بعمله الرائد قد تأكدت، ولذلك لا يمكن أن نتصور التطور مجرد فرضية نظرية.

ان الشواهد على تطور الإنسان بافريقيا مازالت غير مكتملة، الا أننا نرى أن عددا كبيرا من الأحفورات قد تمّت دراستها وتمّ تأويلها في القرن الاخير، اذ توجد أسباب راجحة تفيد أن افريقيا هي القارة التي ظهر بها البشر لأول مرة، حيث اكتسبوا المشي على الرجلين والإستقامة العمودية اللذين يمثلان عنصرين قاطعين لتمام تكيفه. ويجدر بنا أن نبحث متى، وبأية طريقة استطاع الإنسان تحقيق ذلك التكيف. لقد كان التطور طويلا. على أن مراحل عديدة من تطور الإنسان لا تستند الى أية حجة من النماذج الأحفورية، لان المحافظة على تلك الأحفورات مرتبطة فعلا باحوال خاصة للغاية.

ان الاحفورية تحتاج الى أحوال جيولوجية يكون فيها الترسّب سريعا و يسمح التركيب الكيميائي للتربة، وكذلك مياه التصفية بتعويض العناصر العضوية بالعناصر المعدنية. إن الأحفورات المتشكلة على هذه الطريقة تظل مخفية في الأعماق تحت الرواسب المتراكمة ولا يمكن للانسان العصري أن يكتشفها اذا لم تتدخل الطبيعة ببعض الوقائع مثل الإجتراف، أو الحركات التي تحدث في بنية الأرض. وأمثال هذه المواطن نادرة ومبعثرة. فان كتب لنا أن نكتشف كل سنة مواطن جديدة فسيمتنع جزء كبير من افريقيا امتناعا باتا من توفير شواهد أحفورية على ظهور الإنسان.



● عدد من أهم مواقع ظهور الكائنات البشرية.

ويهمنا أن نذكر الأسباب التي جعلت بعض أجزاء افريقيا ثرية جدا فيما يتعلق بشواهد ما قبل التاريخ. وأولها تنوع السكن بافريقيا فالقارة شاسعة من جهتي خط الاستواء وتمتد حتى المناطق المعتدلة شمالا وجنوبا. وهذه الحال تتسبب في تنوع المناخات. أضف الى ذلك الأراضي العالية في المنطقة الاستوائية تدخل بعدا آخر. و يرتفع هذا الحجاز الداخلي من الحاشية الساحلية و يتمثل في الانجاد بل في جبال وقمم يحتفظ البعض منها بالثلوج الدائمة رغم حرارة المناخ وجفافه.

وتتوافر بالمرتفعات بيئات مختلفة تزداد برودة مع الإرتفاع. ولقد كانت تلك العوامل دائما موجودة بافريقيا. فاذا حدث أن وقعت تغيرات مناخية فعلا، فالذي لا شك فيه أن افريقيا وفرت دائما للإنسان مسكنا لائقا، وكلما أصبحت منطقة خاصة شديدة الحرارة أو البرد، أمكن دائما التحول تحولا جهويا نحو محيط ملائم أكثر.

لقد أبدى بعضهم فرضية تفيد وجود علاقة ارتباط بين الحقبات الجمودية بنصف الأرض الشمالي، وبين الحقبات الرطبة بافريقيا، باعتبار أننا نلاحظ فعلا أن التحولات الهامة الطارئة على مستوى البحيرات، توافق التحولات الطارئة على نسبة نزول المطر. ولقد درست هذه القضية بتوسع في السنوات الأخيرة. فاذا استطاع تقدم جمودي أن يؤثر عموما على الأحوال الجوية فذلك لا يقوم دليلا قاطعا على وجود علاقة ارتباط (١). الا أن تراكم الرواسب بأحواض بحيرات افريقيا مدة البليستوسين يؤكد الفكرة التي تفيد أن الأمطار كانت أغزر في تلك الحقبة.

ان حجم الترسب كان كبيرا جدا، لقد كانت بحيرات عديدة من البليستوسين الإفريقي صغيرة وقليلة العمق، ويحتمل أنها كانت فصلية يطرأ على مستواها اضطراب سنوي، يعكس طبيعة المناخ المداري نفسه، مع نزول الأمطار قوية في بعض الأشهر فحسب. لقد كانت تلك البحيرات أحواضا مثالية تتجمع فيها الرواسب التي تنزل سنويا على شواطئها وحول مصبات الأنهار، وتطفو على حافاتها عند ارتفاع المياه. وكثيرا ما تدفن الحيوانات الميتة قرب شواطىء البحيرة بالرمال أو الأوحال المتجمعة مدة الفيضان. ان هذه الطريقة قد دامت ملايين السنوات، وعثر على آثار حيوانية بمستويات مختلفة، في مجموعات ترسبية يتجاوز سمكها الكامل ٥٠٠ متر.

وجفت أحواض وتكونت أخرى إثر ردم البحيرات وتحولات نظام الأمطار، ولا شك أن عملية التأحفر (Fossilisation) كانت طويلة، لأن البليستوسين يغطي أكثر من ثلاثة ملايين سنة فانطمرت مدة تلك الفترة كلها، بقايا الحيوانات في ترسبات صالحة للمحافظة عليها.

ان العثور على تلك الآثار يعتبر طبعا مشكلا هاما بالنسبة للإحاثيين، غير أن بعض العناصر قد ذللت العقبات، في افريقيا ولا سيما بافريقيا الشرقية. فلقد حدث بافريقيا الشرقية طيلة البليستوسين، وخاصة في نهايته، تحركات بنيوية مرتبطة بكسر أصاب القشرة الأرضية يسمى الرفت فالي (وادي الرفت)، فتسببت هذه التحركات في صدوع جيولوجية، بأماكن عديدة ونتج عنها نهوض كتل من الرواسب. وأبرز الإجتراف الموالي طبقات كانت قد تشكلت بها الأحفورات. وقد تركز البحث عن الأحفورات عادة بالأحواض القديمة حيث تكسرت التشكلات الرسوبية، وظهرت في شكل أراض جافة تسود فيها الوهاد.

---

(١) انظر: الفصل ١٦.

على أنه توجد امكانيات أخرى، كما يشهد بذلك العدد الكبير من البقايا البشرية بجنوب افريقيا. لقد تجمعت تلك الأحفورات بكهوف كلسية حيث طمرت العظام المتراكمة عند امتلاء الكهوف وسقوط سقفها. ولقد نقلت العظام الى الكهف، بفعل عوامل كثيرة منها، حسب الاحتمال، الحيوانات آكلة الجيف او النهابة مثل الفهود والضباع. وتوجد بعض العلامات على احتلال تلك الكهوف من طرف البشر، وبالتالي يمكن أن تعزى اليهم بقايا العظام التي وجدت متحجرة. فالمشكل الخاص بهذا النوع من المواقع هو انعدام معيار عملي في علم طبقات الأرض، فيعسر ضبط العمر النسبي للأحفورات المكتشفة.

ولم تتحقق الشروط الضرورية لتأحفر الآثار الحيوانية في مناطق كثيرة بإفريقيا في البليستوسين. واعتبارا لذلك، فان انعدام الآثار لا يعني أن الإنسان لم يكن موجودا في تلك المناطق، اذ أن أبحاثا جديدة كفيلة بأن تكشف مواقع جديدة.

ان الأدوات الحجرية أكثر وفرة من الأحفورات العظمية. فهي تظل محفوظة في غالب الأحيان، حتى وان لم تطمر في الحين تحت الرواسب. ولقد جمع الأثريون عددا كبيرا من المعطيات عن التكنولوجيا البدائية التي تساهم كثيرا في معارفنا عن ظهور الإنسان.

ان الإنسان، وبالأحرى الجنس الإنساني، يعتبر بلا شك الحيوان الوحيد القادر على صنع أدوات من حجر. الا أن آراء الإختصاصيين تختلف، في هذا الميدان وغيره من ميادين البحث المتعلقة بمستقبل الإنسان.

فدراسة أصل الإنسان تعتمد اعتمادا كبيرا على منهج تداخل العلوم بحيث لا يقتصر على دراسة العظام المتأحفرة والمعالم الأثرية، بل تشارك في ذلك مشاركة فعالة كل من الجيولوجيا والبليئيكولوجيا، وعلم الإحاثة، والجغرافيا الطبيعية، والجغرافيا الكيميائية. لقد أصبح علم الآثار ذا أهمية كبيرة عندما شرعت البشريات في استعمال الأدوات. ان دراسة المقدمات الحية بما في ذلك الإنسان، كثيرا ما كانت مفيدة لندرك أحسن إدراك ما قبل تاريخ معمورتنا.

ان أحفورات فصيلة الإنسان، أي البشريات، تظهر متميزة ومنفصلة عن القردة الكبرى الحالية، أي «البنجديات»، منذ ما يزيد على ١٤ مليون سنة. ان أقدم الشواهد في هذا المجال غير مكتملة ويوجد في معارفنا عن تطور الإنسان نقص يتعلق بالفترة المتراوحة من ١٤ مليون سنة الى ما يتجاوز قليلا ٣ ملايين سنة. فيبدو أن التميز وقع في تلك الفترة لأننا نعرف أشكالا عديدة من البشريات الأحفورية ابتداء من ٥٠٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

وكثيرا ما كانت الشواهد الأحفورية المتعلقة بالمجموعات الأخرى غير الإنسانية، معروفة أحسن معرفة إذ توفرت لنا عنها أدوات أكثر اكتمالا. وتعتبر تلك الآثار مهمة وتسمح بالسعي الى إعادة تشكيل البيئة البدائية الخاصة بالبشريات في المراحل الأولى من تطورها. ولنا معطيات عن حقبات زمنية عديدة مهمة، طرأت فيها على أجناس حيوانية عديدة، تغيرات سريعة جدا كانت جوابا على ضغوط البيئة.

ولقد تبين أيضا أن الإنسان قد مر بمراحل متنوعة قبل أن يصبح ذا رجلين، وذا فكر متطور جدا كما هي الحال اليوم. ولقد عاشت في بعض الفترات، أنواع عديدة من البشر وكان كل نوع يتكيف تكيفا خاصا. فالتغيرات الطارئة انطلاقا من الشكل القردي للبشريات في الميوسين تمثل نوعا من

التخصص أو التكيف تستوجب منا توضيحها. و بالرغم من أن المعطيات المتوفرة لدينا لا تزال ناقصة، فاننا نعرف بعض التفاصيل عن ذلك التطور المعقد. وسندرسه انطلاقا من الأحفورات الحديثة جدا لنصل الى أكثرها قدما.

الإنسان الحالي والإنسان العارف

ان التعريف الكلاسيكي للإنسان، لا يرضي كل الرضى فهويعرف بـ (الكائن الإنساني والجنس الإنساني، والكهل الذكر، والفرد من الجنس الذكر.) ومن مشاكل هذا التعريف أن الإنسان العصري يعتبر فيما يبدو النوع المعروف الأكثر تنوعا، نظرا لكثرة الإختلافات الجسيمة أو السلوكية بين سكان العالم، وهي تنوعات يجب أخذها بعين الإعتبار. ومهما كانت الإختلافات الظاهرة فان الإنسان يشكل اليوم نوعا واحدا و يشترك الناس في نفس الأصل وفي نفس التاريخ طيلة تطورهم الاول. ويحتمل أن النوع قد أظهر في بعض الالفيات الأخيرة تنوعات سطحية، و يرجى أن تساهم هذه الفكرة في طمأنة الإنسان على وحدة ذاتية وغايته، وأن تجعل الناس أكثر اقتناعا بوحدتهم الطبيعية والمصيرية.

ان الانسان الحالي الذي ينتمي انتماء كليا إلى الإنسان العارف (Homo sapiens) يستطيع أن يعيش في مساكن متنوعة جدا. ولقد تيسر ذلك بفضل نمو التقنيات. ان الحياة بالمدن المكتظة بالسكان، تقابل حياة البدو الرحل رعاة الجمال بالصحراء، وهما تقابلان بدورهما حياة الصيادين الذين يعيشون في أعماق الغابة الكثيفة بافريقيا الغربية. و يستطيع الإنسان أن يعيش فترات طويلة تحت البحر، في الغواصات، وأن يعيش في مدار فلكي على متن أقمار فضائية. وفي كل هذه الأحوال يكون التكيف بالإعتماد على التكنولوجيا. فالإنسان الحالى مزود بمخ كبير ومعقد، و بيدين متحررتين من أداء وظيفتها القديمة في المشي، وأصبحتا متفرغتين تماما لمعالجة الأمور، كما أنه أصبح قادرا على الوقوف مستقيما على رجليه. ان هذه الشروط الفيزيولوجية الأساسية قد توفرت للإنسان عبر العصور. و بذلك توفرت لنا الآثار الدالة على نشاطه. ولهذا تعتبر درجة تطور المخ، والقدرة على معالجة الأمور باليدين، والمشي على الرجلين، من أحسن ما يمكن الرجوع اليه لضبط تاريخ النوع البشري عبر الزمان.

تشهد اكتشافات هامة بافريقيا على ظهور الإنسان العارف البدائي منذ أكثر من ١٠٠٠٠٠ سنة. وكل شيء يشير الى أن وجود النوع البشري بافريقيا لا يقل قدما عما هوعليه بغيرها من القارات. و بفضل ابحاث حديثة، تم تحديد أقدم أثرعثرعليه في افريقيا، و يرجع الى أكثر من ٢٠٠٠٠٠ سنة.

وفي ١٩٢١م اكتشفت جمجمة و بعض البقايا العظمية في بروكن هيل ببلاد زامبيا، ولما كان هذا القطر يسمى سابقا روديسيا الشمالية عرف هذا النموذج باسم انسان روديسيا أو الإنسان العارف الروديسي. والتاريخ المقترح لها ٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولاشك ان هذا النموذج ينتمي الى نوعنا البشري، و يبدو أن عمره الواقعي أقدم من التاريخ المقترح، وان ظلّ مشكلة قائمة. فهو

يشابه مشابهة قريبة نموذج نياندرتال بأوربا و يعتبر فعلا مثالا افريقيا من ذلك النوع، ولقد عثر على آثار أخرى أكثر قدما تدل على وجود الإنسان العارف بافريقيا الشرقية.

في ١٩٣٢م عثر الدكتور ل.س.ب. لايكي بموقع كنجيرا، في غرب الكينيا، على قطع من دماغين. ولقد كانت تلك الأحفورات مرتبطة بحيوانات من آخر البليستوسين الاوسط، مما يفيد عمرا يقارب ٢٠٠٠٠٠ سنة. ولم يقع الى الآن ضبط تاريخ الموقع وذلك مايؤسف له، إذ يبدو أن الدماغين وقطعة من عظم الفخذ هي نماذج من الانسان العارف، ويمكن أن تمثل أقدم الشواهد عن النوع المعروف حاليا بافريقيا.

وفي ١٩٦٧م عثر على قطع من شخصين بموقع في وادي أوموبالجنوب الغربي من أثيوبيا وهي تتكون من قطع دماغية ومن أجزاء الهيكل ما وراء الدماغ ومن قبعة دماغ آخر. ولقد أتت تلك الأحفورات من طبقات أقترح لها تاريخ يعود تقريبا الى ما قبل ١٠٠٠٠٠ سنة. ويحتمل أن يكون وادي أومو قد عرف بأحفوراته الأكثر قدما. الا أنه يوجد عدد كبير من الرواسب الحديثة التي تسمح بتوفير معلومات ثرية عن الإنسان العارف الاول بافريقيا. و يضاف الى ذلك، أن بعضهم أشار في نفس المنطقة الى مواقع وفرت الفخار العتيق، وذلك من شأنه أن يقدم ايضاحات عن استعمالات الفخار في أقدم العصور.

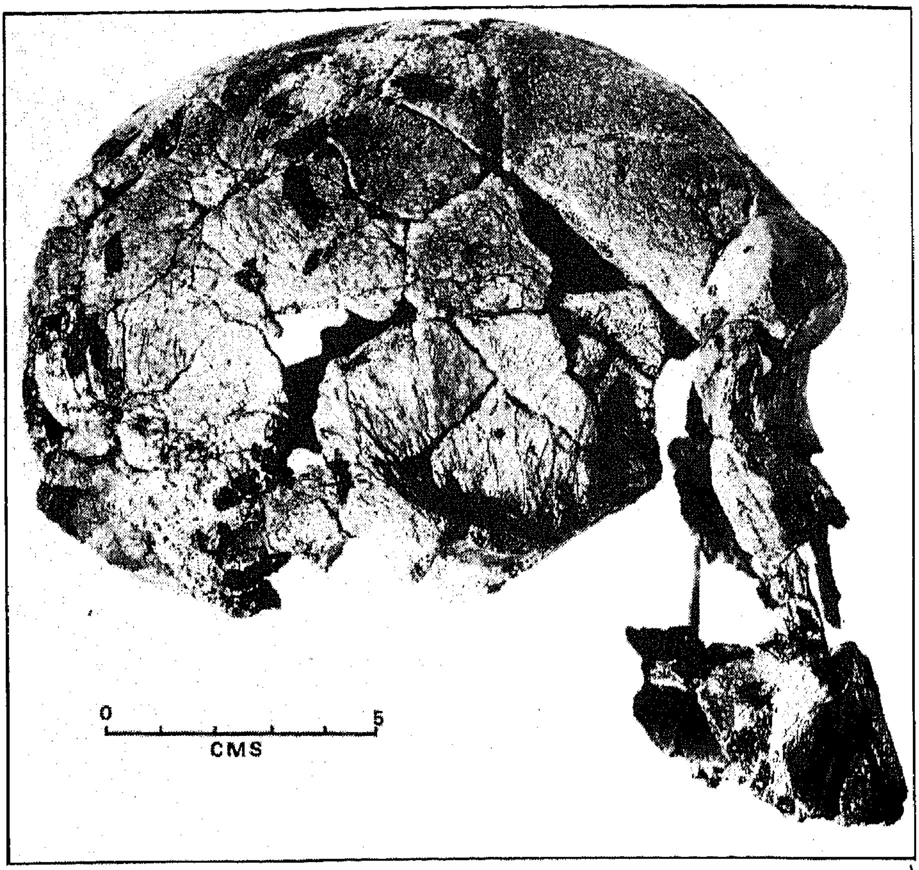
وهكذا يبدو من المعقول أن نفترض بأن النوع البشري انتشر انتشارا واسعا بافريقيا وغيرها من مناطق المعمورة، وإن كان الإنسان العارف البدائي ممثلا تمثيلا ضعيفا من خلال الأحفورات.

ما قبل الإنسان العارف

يميل بعضهم دائما الى ربط الأنواع الاحفورية بالأنواع العصرية، على أن الأمر يستوجب أن يدرك ذلك في نطاق علاقات عامة جدا. ونحن نقترح هنا أن نعتبر أصل الإنسان العارف حسب سلالة يمكن أن تعود الى ملايين عديدة من السنوات. فقد وجدت احتمالا في عهود مختلفة نماذج عديدة تتميز مرفولوجيا ضمن السلالة مما يجعل التركيب الوراثي للإنسان المعاصر، يعكس جزئيا تلك الوراثة المركبة.

ان تحديد الانواع الاحفورية صعبة، وكثيرا ما تحدث التباسات ناتجة عن الرغبة في وضع عنوان جديد على كل نموذج مكتشف. والعادة تفرض تصنيف النماذج المتشابهة في نفس النوع. فالاختلافات الطفيفة يعتمد عليها للتميز داخل النوع الواحد. أما الإختلافات الكبرى، فانها تصلح لتعريف الجنس. ان الأنواع الحيوانية الحية لا يعسر تصنفيها، ولقد وضع لها العالم الكبير ليني نظاما ممتازا لتصنيفها. فالمشكل الذي يعترض الإحاثيين يتلخص في اعتبار تطور نوع خاص زمنيا مع اعتبار ما طرأ عليه من التحولات السريعة. وفي هذه الأحوال، تستعمل عبارة (النوع المرفولوجي) لوصف الأحفورات التي لها خصائص طبيعية متشابهة. و ينبغي أن نضيف أن الخلاف في شأن أصل الإنسان يرجع غالبا إلى آراء مختلفة فيما يخص استعمال المصطلحات الخاصة بالموضوع.

لقد سمحت أحفورات الملايين الثلاثة الأخيرة من السنوات بأن يعرف على الأقل جنسان وأنواع عديدة من البشريات، وذلك من شأنه أن يساعد على أن نفهم أحسن أصل النوع البشري.



١



٢

● ١) جمجمة الانسان الماهر. منظر جانبي، كوبي فورا، كينيا (تصوير متحف كينيا الوطني).
● ٢) جمجمة الانسان المنتصب، منظر جانبي، كوبي فورا، (تصوير متحف كينيا الوطني)

وما انفك الناس يعتبرون اليوم أن التطور قد وقع حسب نسق موحد. الا أنه يبدو أن السكان المحليين من نوع معين، كانت لهم ردود فعل مختلفة لعوامل الانتقاء. ولعله من الممكن أن توجد أشكال «بدائية» معاصرة لأشكال متقدمة أو «تقدمية»، وان تحديد الخصائص (البدائية) عند نوع ثابت الوجود على عهد طويل أقل صعوبة مما لو كانت العينة ضيقة، لأنه يمكن تحديد الإتجاهات والتكيفات التي تساعد في تفسير عملية البقاء وذلك بالإعتماد على تغيرات متدرجة.

ان الباقي من الأحفورات الإنسانية بافريقيا يكشف لدى التحليل عن مجموعتين أساسيتين ونحن نقترح أن نعتبرهما سلالتين تطوريتين، يمثل الاولى منهما جنس الإنسان الذي لا يزال باقيا الى يومنا هذا، أما الأخرى التي يمثلها جنس قرد الجنوب فانها فيما يبدو قد اضمحلت منذ مليون سنة.

ومن الممكن أيضا أن ننظر إلى الأشكال البدائية التي عثر عليها في الترسبات، حيث لا توجد الأشكال المتطورة، وان كانت موجودة في طبقات أكثر قدما. فهناك ما يدعو الى اعتبار هذا الأمر نوعا من التقهقر. على أنه من المحتمل أن استمرار أحد الأنواع المتطورة غير ثابت لدينا لا لشيء سوى لأنه كان يعيش في مناطق لم تساعد على تأحفره.

ان الضرورة في هذا الفصل، تدعونا الى أن نقترح اعتبار البشريات السابقة للإنسان العارف حسب سلالتين. وليس من السهل وصف الشكل السلفي المشترك للفرعين، لأن الشواهد الأحفورية مجزأة. فلقد عثر على أقدم البشريات الإفريقية في فورترنان بالكينيا، حيث وجدت قطع عديدة من الشدق الأعلى، وقطعة من فك، وبعض الأسنان، ولقد ضبط تاريخ الموقع بـ ١٤ مليون سنة. ان أحفوراتة تبين ان تميز البشريات عن البنجديات قد تحقق في ذلك العهد. وهكذا صغر الناب، وتلك ميزة تختص بها البشريات، وتواصل صغره انطلاقا من خصائص قردية مميزة.

ان الشواهد الأحفورية الموفرة بين ١٤ و ٥ر٣ مليون سنة ناقصة جدا. ولدينا أربعة نماذج فقط يمكن ان تربط بتلك الفترة. وهي كلها من الكينيا وتتكون من قطعة من فك معطوب كثيرا وأصلها من كانام، وجدها الدكتور ل.س.ب. لايكي سنة ١٩٣٢م، ومن قطعة من فك مع تاج سنّي من لوثاغام، وضرس بمفرده من نكورورا. ولقد أتت النماذج الثلاثة الأولى من ترسبات أرخت بـ ٤ الى ٥ر٥ ملايين سنة، ويعتبر أن الضرس المنفرد أصله من ترسبات تاريخها ٩ ملايين سنة، ولا يعتبر اى نموذج منها مفيدا لانها مجزأة، ولقد نسبت قطعة لوثاغام الى قرد الجنوب الا ان حالة معارفنا الحالية تجعل من هذا الأمر موضوع جدال بين الأنثروبولوجيين.

ولقد أصبحت المعطيات عن تطور البشريات بافريقيا أوفر فيما يتعلق ببداية البليستوسين أي حوالي ٤٠٠٠٠٠٠ سنة، حتى ظهور الإنسان العارف. وأجريت سنة ١٩٧٣م أبحاث في موطنين جديدين وفرا عددا كبيرا من الأحفورات المستخرجة من طبقات أرخت بـ ٣ الى ٤ ملايين سنة. ويعتبر موقعا لا توليل (Léotolil) في طانزانيا، وهدر بأثيوبيا على غاية من الأهمية بالنسبة لظهور الانسان العارف، مما يبرر الوقوف عندهما قليلا.

توجد لا توليل على بعد ٥٠ كلم تقريبا من فج أولدواي المشهور على منحدرات جبال لاماكروت التي تشرف على الطرف الغربي من بحيرة اياسي ويعود تاريخ هذا الموقع الى ٥ر٣ ملايين سنة تقريبا، وهو تاريخ على غاية من القيمة باعتبار انه اقترح أن تنسب نماذج مكتشفة بلا توليل الى النوع الإنساني، ويتعلق الأمر بأشداق، وأسنان وقطعة من عضد.

اما مواطن هدر، الموجودة بمنخفض العفر باثيوبيا، فهي معاصرة لما سبق أو احدث منها قليلا. فلقد اكتشفت أجهزة ثرية منذ ١٩٧٣م منها أمثلة مفيدة من هيكل الدماغ وما وراء الدماغ ويمكن تمييز ثلاثة نماذج يحتمل إن تنسب الى الإنسان الماهر والى القرد الرشيق والقرد الجنوبي القوي.

وهكذا نلاحظ ان هذه الفترة الاولى تكاد تكون خالية من كل ما يشير الى أصول الإنسان أو القرد الجنوبي. وخلافا لذلك، تعتبر الفترة بين ٣ ملايين ومليون سنة ثرية نسبيا فيما يتعلق بالشواهد الأحفورية.

ان العينة المهمة نسبيا المتكونة من النماذج المتوفرة لدينا والمكتشفة في مواقع تؤرخ بـ ٣ ملايين سنة أو أقل تبين أنه كان يوجد مجموعتان متميزتان من البشريات البدائية التي كانت تقيم أحيانا بنفس المنطقة. ان ذلك الشكلين: شكل الإنسان، وشكل القرد الجنوبي، من المحتمل أنهما كانا يعيشان في أماكن مختلفة، وإن حدث لمواطنهما أن تتداخل، فان التنافس على الغذاء لم يكن فيما يبدو قويا حتى يقضي أحد الشكلين على الآخر. وما زلنا في حاجة الى معلومات كثيرة عن تكيف كل نوع من البشريات، أما حاليا فان تعايش الجنسين طيلة مدة تتجاوز ١٫٥ مليون سنة، يعتبر أمرا ثابتا، كما ثبت بأن كل واحد منهما له طابعه الخاص.

فهل كان القرد الجنوبي سلف الإنسان ؟ ان لهذا السؤال غالبا جوابا ايجابيا. الا أن المعطيات الجديدة المتوفرة، تجعلنا نتيقن أن الأمر لم يكن كذلك. يميل بعض الإختصاصيين، وفيهم المؤلف، الى أنه كان للشكلين سلف مشترك يختلف عن كل واحد منهما. ولا بد، لاثبات هذه الفرضية، أن ندرس الجنسين باعتبار (تكيفهما الخاص) وأن ننظر الى معدل التحول اذا وجد، في كل مجموعة. وسعيا وراء ذلك، ينبغي أن نحدد بوضوح الخصائص التي يتميز بها كل منهما، و التي تبين أنها قارة عبر الزمن.

ولنلاحظ أخيرا أن بعض البحاثين يجمعون كل هذه الأحفورات في جنس واحد يتميز بتحول كبير بين وراثي، وازدواج شكلي جنسي بارز.

الجنس الإنساني (ما قبل العارف)

الإنسان المستقيم

ان شكل ما قبل العارف، المشهور بالإنسان، هو ما نسب الى نوع مرفولوجي منتشر انتشارا واسعا وكثير التنوع وهو الإنسان المستقيم. فلقد عرف هذا النوع أولا بالشرق الأقصى و بالصين، وحديثا، وجد نفس الشكل بافريقيا الشمالية وافريقيا الشرقية وربما في جنوب افريقيا ولم يضبط تاريخ النماذج الأسيوية ضبطا مطلقا. الا أن تاريخا ينطبق على بعضها أصبح معروفا وهو يوحي بأن الإنسان المستقيم ظهر بمواقع يقدر قدمها بـ ١٫٥ الى ٠٫٥ مليون سنة. أما تاريخ مواقع افريقيا الشمالية وجنوب افريقيا المرتبطة بالانسان المستقيم فيعتمد أيضا على قواعد تؤرخ «بالبليستوسين الوسيط».

ان البقايا بافريقيا الشرقية أصلها من مواقع تحققت فيها تأريخات فيزيائية كيمياوية. و يؤرخ النموذج الأكثر قدما المنسوب الى الإنسان المستقيم بما قدره ١٫٦ مليون سنة. ان هذا التاريخ المتأخر



٣

● ٣) جمجمة انسان الغابات البدائي الجنوبي (أوسترالو بيثيكوس بو يزي)، منظر جانبي، خانق أولدوڤاي، تانزانيا (تصوير متحف كينيا الوطني).

● ٤) فك انسان الغابات البدائي الجنوبي (أوسترالو بيثيكوس بو يزي)، منظر أمامي، كوبي فورا، كينيا (تصوير متحف كينيا الوطني).



٤

جداً قد يشهد بأصل افريقي للإنسان المستقيم. ويوجد من الباحثين من هو مستعد لقبول الفكرة التي تفيد بأن كل الشواهد عن هؤلاء البشر، والمكتشفة خارج افريقيا، أصلها سكان هاجروا من افريقيا في بداية البليستوسين. الا أنه توجد بعض التواريخ الجديدة الأكثر تقدما تتعلق بأناس مستقيمين كانوا يعيشون في افريقيا.

اننا نفتقر الى حد الآن الى أجهزة وافرة تسمح بدراسات شاملة وتركيبية. ولكن المعطيات كافية لتبين ان ذلك النوع كان منتشرا انتشارا كبيرا بافريقيا وانه كان موجودا أيضا بآسيا وأوربا. ان ما تبقى من الأعضاء يشهد بالوقوف المستقيم، والتكيف للمشي، والتخصص برجلين تشابهان رجلي الإنسان المعاصر. أما درجة الذكاء، فهي قابلة للتقدير اجمالا وذلك بتقدير حجم الجمجمة، وتختلف تلك السعة من ٧٥٠ سنتمتر مكعب الى ١٠٠٠ سنتمتر مكعب بالنسبة للإنسان المستقيم، بينما يتجاوز معدل الإنسان العارف ١٤٠٠ سنتمتر مكعب.

ويستدل على تكنولوجيتها بمشاهدة آثارها. فالإنسان المستقيم كان يصنع ويستعمل أدوات حجرية وكان يعيش من الصيد وجمع الثمار في السباسب بافريقيا. ويجمع الإختصاصيون على ربط السلاح ذي الوجهين المميز للصناعة الأشولية بالإنسان المستقيم. ان هذا النوع من الأجهزة الحجرية المميزة متوفرة في مواقع توجد بافريقيا واوربا، وبصفة أقل بآسيا، وليس من المؤكد أن يكون الإنسان المستقيم هو المرحلة النهائية من التطور الذي آل به الى الإنسان العارف، ويستحسن أن تظل القضية معلقة في انتظار معلومات اضافية فيما يخص هذا النوع.

وقبل أن نترك الإنسان المستقيم سندرس بسرعة خصائصه. تظهر المميزات الأكثر اختصاصا به في الدماغ: قوسا الحاجبين كثيفان وناتئان والجبين منخفض، والقذال متشكل ويمكن ان تتميز أسنانه، لكن من الممكن أن تكون لأنواع مختلفة من سلالة الإنسان مرفولوجية أسنانية مشابهة جدا. ومرفولوجية الفك أقل تميزا مما يعتقد عامة. ومن الممكن أن يتكون نوع مختلف ضمن الجنس نفسه من بعض النماذج المزعومة من الإنسان المستقيم التي ليس لنا من شواهد عليها سوى بعض الفكوك والأسنان.

الجنس الإنساني (ما قبل العارف)

الإنسان الماهر

ان البقايا التي تنسب الى سلالة الإنسان، التي تعتبر أقدم من الإنسان المستقيم تقتصر حاليا على افريقيا الشرقية فحسب. ويمكن أن نعتبر أن من أقدم الأشكال، أشكال لا توليل وهدر التي تنتظر أن تدرس دراسة عميقة. ومن المحتمل أن تكون تلك الأحفورات أشكالا سلفية لأنواع أحدث منها. ان تلك الأنواع المتوسطة، على فرض أن هذا هو الواقع، يمكن أن تسمى الإنسان الماهر ويعتمد تعريف هذا النوع على نماذج اكتشفت في أولدواي، وأخيرا في كوبي فورا على الشاطئ الشرقي من بحيرة تركانا.

ومن خصائص الإنسان الماهر الأساسية تطور دماغه تطورا كبيرا نسبيا (السعة الدماغية يمكن أن تتجاوز ٧٥٠ سنتمتر مكعب) وعظام دماغه رقيقة نسبيا، وقبة دماغه متطورة الى حد ما وانقباب ما

بعد محجري صغير. أما الثنايا فهي عريضة جدا والأنياب وما قبل الأنياب مصغرة، وتظهر بالفك مخدة اسطوانية خارجية. وتقترب عناصر هيكل ما وراء الدماغ مرفولوجيا من عناصر الإنسان العصري.

ان الأمثلة الأكثر اكتمالا عن الإنسان الماهر آتية من كوبي فورا حيث اكتشفت أدمغة عديدة وفكوك وعظام طويلة. ويسمى الدماغ الذي أحسن المحافظة عليه ك.ن.م.أ ر ١٤٧٠ (الشكل ٢).

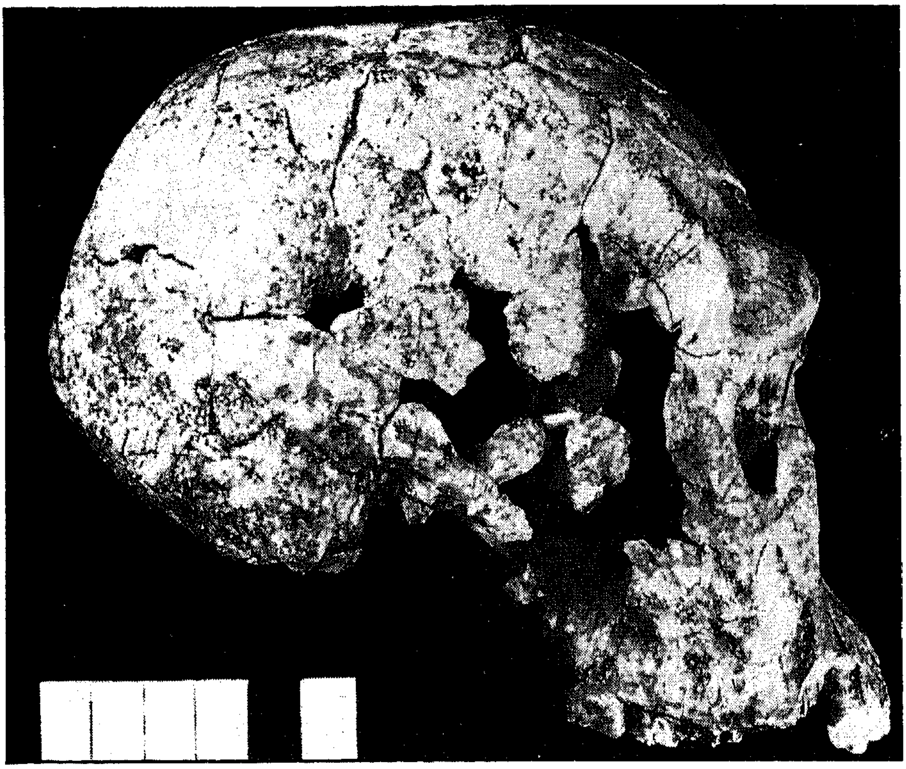
جنس قرد الجنوب

مازلنا بعيدين عن حل مشكل تحديد أنواع محتملة من جنس قرد الجنوب. الا أني اعتقد ان لدينا عناصر ثابتة كافية في تشكل كوبي فورا للتمييز بين نوعين، فأوضحهما هو قرد الجنوب المخشب، وهو شديد الإختصاص، وله فكان قويان جدا، وأضراس أمامية، وأضراس كبيرة مقارنة بالثنايا والأنياب، وسعة دماغية دون ٥٥٠ سنتمتر مكعب. و يظهر الازدواج الشكلي الجنسي من خلال أوصاف خارجية للدماغ مثل العرف السهمي والقفوي النامي عند الذكر (الشكل ٤). وان ما نعرفه من هيكل ما وراء الدماغ يعتبر أيضا مميزا، وذلك فيما يتعلق بعظم الفخذ والنقا والكعب.

وقد انتشر هذا النوع في مساحة واسعة جدا وهو معروف في مواقع أخرى وهي: شسونغا بيننج وأولدواي، بالجزء الجنوبي من الرفت فالي بالشرق الافريقي. وليس من المحقق رغم ذلك أن يكون القرد الجنوبي المخشب نوعا حقيقيا، ويمكن أن نعده مظهرا جهويا من الشكل الجنوبي الافريقي وهو القرد الجنوبي القوي. فلا يعيننا في حل تلك المشاكل الا إكتشافات جديدة، تبدو دائما في مستوى تنظيم دقيق جدا في علم احاثة الفقريات. ولذلك يبدو من المستحسن حاليا أن نقر وجود نوعين قويين متقاربين لكنهما متمايزان جغرافيا.

ان الشواهد على وجود شكل رشيق، من القرد الجنوبي بافريقيا الشرقية، أقل إقناعا. الا أننا لو أدمجنا جميع النماذج المكتشفة في نوع واحد، لبدا التحول عندئذ على غاية من الأهمية. ان أحسن مثال على شكل رشيق بافريقيا الشرقية قد يتجسم في النموذج ك.وم.ار.١٨١٣ (KWM ER 1813) في كوبي فورا (الشكل ٥). ويمكن أن نربط بين فكوك عديدة وقطع من هيكل ما وراء الدماغ مع اعتبار الصعوبة الناتجة عن تصنيف الفكوك. ولم يقترح الى الآن أي وصف لتلك الأشكال الرشيقة بافريقيا الشرقية لكنه يمكن أن نسجل خفة الفكوك وما معها من أضراس أمامية وأضراس صغيرة، وسعة دماغية تقدر بـ ٦٠٠ سنتمتر مكعب، وعرف سهمي صغير أو مفقود. و يبدو هيكل ما وراء الدماغ مشابها لهيكل القرد الجنوبي المخشب، وذلك على مستوى أصغر وأقل قوة. ومن خصائص هذين النوعين المشاشة القوية من عظم الفخذ: فالعنق طويل، مكبوس من الامام الى الوراء، والرأس صغير وكروي، وتوجد خصائص أخرى تستوجب الوصف الا أن معارفنا ناقصة فيما يتعلق بالتحول الداخلي لتلك الأنواع، والعينات قاصرة الآن لنستدل بها.

الا أني أعتقد أن هذا النوع الأخير قريب من القرد الجنوبي الإفريقي الرشيق الموجود بجنوب افريقيا، ويمكن أن يكون مظهرا من مظاهره في المناطق الشمالية. اننا نعرف العظم الحرقض من



٥

● ٥) جمجمة انسان الجنوب البدائي الافريقي، منظر جانبي، كوبي فورا (تصوير متحف كينيا الوطني).

● ٦) فك انسان الجنوب البدائي الافريقي، منظر أمامي، كوبي فورا (تصوير متحف كينيا الوطني).



٦

القرد الجنوبي الإفريقي ومن القرد الجنوبي القوي بجنوب افريقيا. ولقد برزت اختلافات صغيرة بينهما ولا يمكن أن ننسب أية بقية من ذلك الجزء من الهيكل الى القرد الجنوبي بافريقيا الشرقية، وعلى العكس من ذلك يوجد نموذجان معاصران يمكن نسبتهما الى الإنسان، وهما يشهدان باختلافات ملحوظة بين الجنسين. ان تلك الإختلافات أهم من الإختلافات التي يمكن توقعها لدى نوع واحد حتى وان كانت مساحة انتشاره شاسعة.

الأدوات والمسكن

ان أكبر عدد من الأدوات والمواقع أصله من بحيرة تركانا بالكينيا، ومن ملكا كنتوري بأثيوبيا ومن فج أولدواي في طانزانيا التي جرت بها حفريات كثيرة منذ ثلاثين سنة. ويمكن أن نتتبع تدرجها ابتداء من الحصاة المهيأة الصغيرة جدا الى الفؤوس ذات الوجهين الأكثر اتقانا فيمكن أيضا وانطلاقا من تلك المواقع أن نستخلص بعض الاستدلالات على النظام الإجتماعي (أهمية الجماعة) وعوائد الصيد. ففي أولدواي كشف في بلدة عن بقايا بنية حجرية ولعلها قاعدة كوخ، أرخت حسب احتمال مرجّح بـ ١٫٨ مليون سنة. ولقد اكتشفت بملكا كنتوري عن مسطحة مرتفعة ومستديرة.

ان الأصل الحقيقي للملكات التقنية الخاصة بالبشريات صعبة الضبط وليس في وسعنا الا أن نقترح في أحسن الاحوال كيف كان ظهورها في البليستوسين، ولعل ذلك يكون مرتبطا بالقدرة على التكيف الذي يعتبر من صميم ما يتميز به الجنس الإنساني.

في البليستوسين القديم أي منذ حولي ١٫٦ مليون سنة ظهرت فؤوس ذات وجهين خشنة ويمكن أن نتتبع في أولدواي وكذلك بمواقع أخرى من الشرق الإفريقي حركة التطور من الحصاة المهيأة الى الفأس ذى الوجهين، وكانت الصناعات الأكثر قدما المكتشفة بأوربا في فترة حديثة هي صناعات الفؤوس ذات الوجهين. و يبدو لي أن المعطيات قد توحي بوقوع هجرة مجموعات انسانية ذات فؤوس من افريقيا نحو أوربا وآسيا في بداية البليستوسين، وحتى قبل ذلك. ان تطور الصناعات الحجرية الموالي يعتبر معقدا جدا، ولنا عنه شواهد وافرة بالعالم كله، ويمكن أن نفترض وإن كان الدليل يعوزنا ـ بأن ظهور الصناعات ما بعد الأشولية مرتبط بظهور الإنسان العارف. ان ربط الصناعات الحجرية ببقايا إنسانية قديمة يعتبر نادرا، اذ لم توفر لنا مواقع عديدة من البليستوسين الوسيط، والحديث الانموذجا أو اثنين، على أنه قد توجد استثناءات ملحوظة.

يبدو واضحا أننا تقدمنا كثيرا جدا في السنوات الأخيرة في البحث عن الشواهد الاحفورية. ولا ريب أن الأبحاث الجارية ستأتي بالمزيد. فلقد توفرت لدينا الآن دلالات متنوعة جدا عن بشريات البليوـ بليستوسين بإفريقيا، ولقد أول ذلك كنتيجة للتميز الذي وقع خلال البليوسين، ثم اعقبته تجارب تطورية مختلفة الى بداية البليستوسين. ان التقاء يوجد بين ثلاثة أنواع على الأقل بافريقيا الشرقية يمكن اثباته، وذلك سواء بالإعتماد على أجهزة دماغية أو ما وراء دماغية، علما بأن كل دراسة تحليلية يجب أن تأخذ بعين الإعتبار جميع النماذج المكتشفة.

الجدول (أ)
قائمة بقايا الإنسان المستقيم المعروفة بافريقيا

المنطقة	القطر	الموقع	تفصيل النماذج
الشمال الغربي	الجزائر	ترنيفين	٣ فكوك وقطعة من دماغ
الشمال الغربي	المغرب	سيدي عبد الرحمان	قطعتان من فك
الشمال الغربي	المغرب	الرباط	قطعة من فك ودماغ
الشمال الغربي	المغرب	تمارة	فك
الشرق	طانزانيا	أولدواي	دماغ، بعض بقايا عظام مؤخر الدماغ، وفك محتمل
الجنوب	جنوب افريقيا	سوار تكرنس	دماغ ناقص و بعض القطع من فك.

مصطلح

لقد قرر المؤتمر الثامن لكل إفريقيا المنعقد في نيروبي (كينيا) في شهر سبتمبر - أيلول (١٩٧٧)، الإحتفاظ بالإصطلاحات التالية باللغة الانكليزية فيما يختص بالمنطقة الإفريقية الواقعة في جنوب الصحراء، وهذه الإصطلاحات لم تترجم الى الفرنسية وانما ترجمت الى العربية : العصر الحجري الوسيط، العصر الحجري القديم، العصر الحجري المتأخر.

	المغرب	شرق أفريقيا	غرب الصحراء الكبرى	جنوب الصحراء الكبرى	الصناعات	المقابلات المستعملة لدى علماء الآثار الانجليز	أوروبا
الهولوسين	رارني	ماكالي مطير	حالي	حالي	عصر المعادن	العصر الحجري المتأخر	حالي
			جويري	تصحّر عودة المطر	حجري حديث فوق الحجري القديم		بعد الجليدي
البليستوسين الأعلى	سلطاني	جاف بعد غامبلي غامبلي مطير	سلطاني	جفاف البحيرات الكبرى الأخيرة	أتيري موستيري	الوسيط الثاني العصر الحجري الأوسط	فورم
		جاف بعد كانجيري		جفاف		الوسيط الأول	بين ريس — فورم
البليستوسين الأوسط	تنسيفتي	كانجيري مطير	أوغارتي	الصحراء ذات البحيرات الكبرى	الحجري القديم الأدنى — فترة الأدوات ذات الوجهين	العصر الحجري القديم	ريس
	آميري	جاف بعد كاماسي					بين ميندل — ريس
		كاماسي					ميندل
	ساليتي	جاف بعد كاغيري	تاور يرتي				بين غونتز — ميندل
		كاغيري			الحجري القديم الأدنى — الفترة العتيقة ذات ثقافة الحصى المشكّل	(العصر الحجري المبكر)	غونتز
البليستوسين الأدنى	مولويي		مولويي				بين دوناو — غونتز
							دوناو

● فترات ما قبل التاريخ وصناعاتها في أفريقيا، جدول توافق من اعداد هـ. ج. هوغو.

الفصل التاسع عشر

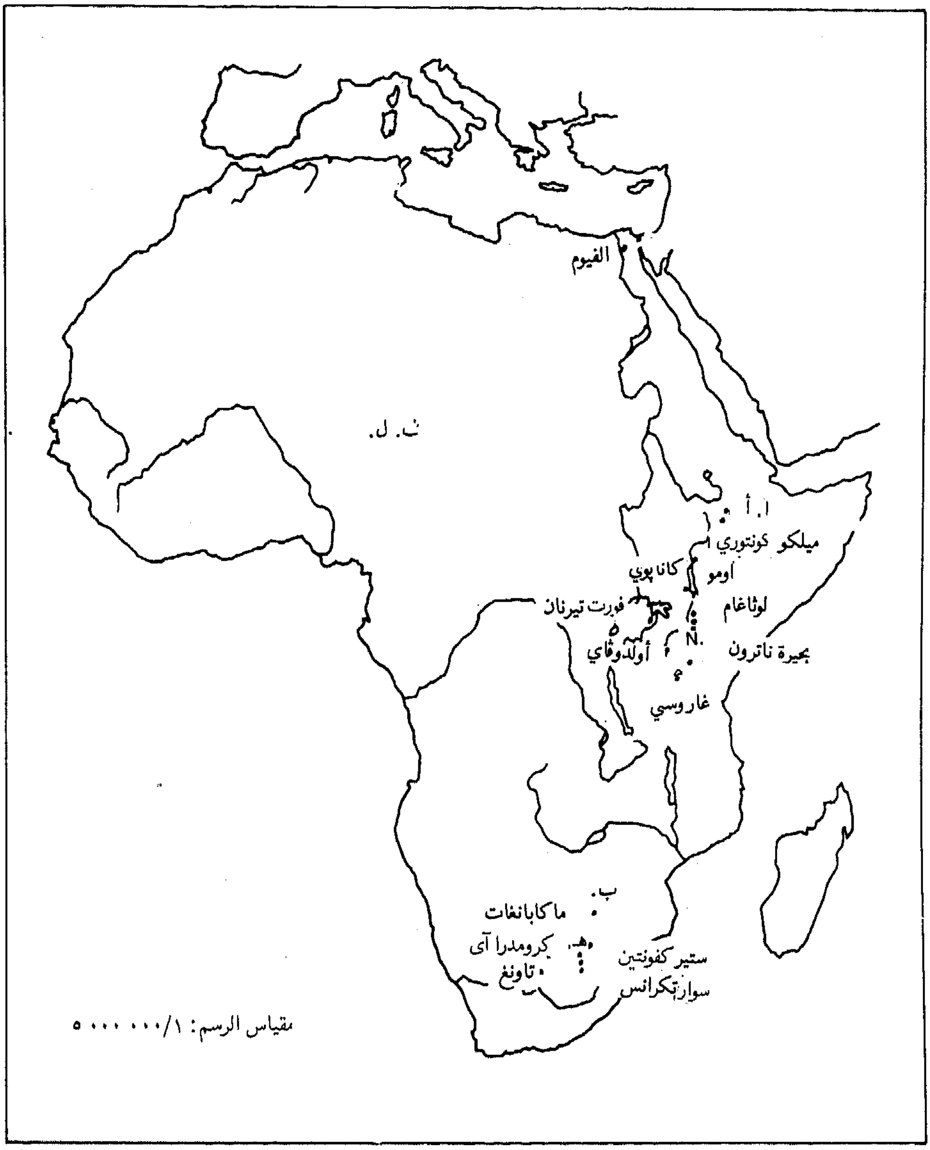
أفريقيا الشرقية قبل التاريخ

بقلم: ج. أ. غ. سوتن

البحث فيما قبل التاريخ

مقدمات منهجية

في الجزء الشرقي من افريقيا ظهر الانسان كحيوان ذي استقامة عمودية، يصنع الأدوات وذلك حوالي ثلاثة ملايين سنة تقريبا. ولهذا السبب، فان التاريخ في ذلك الجزء من العالم دام أكثر مما دام في أي جزء آخر، وامتد فيه خصوصا العصر الحجري أكثر مما امتد في القارات الأخرى وفي الأجزاء الاخرى من افريقيا. ويمكن أن نضبط نقطة انطلاقه حين شرع البشر في صنع أدوات حجرية تعرف بأشكالها وأنواعها المصممة تصميما، وبصفة منتظمة. ان هذا الجمع للمؤهلات البدنية والذهنية في صنع الادوات (وبعبارة أخرى تجاوز الانسان للحالة البيولوجية) والارتباط أكثر فأكثر بتلك المؤهلات والنشاط الخارج عن الوضع البيولوجي، ونعني به النشاط الثقافي، تميز الانسان عن الحيوانات الاخرى. وتعرف الانسانية. ان تطور الانسان نحو وضع حيوان قادر على الجلوس، والوقوف، والتنقل بواسطة الرجلين، خلافا للقرد والثدييات الرباعية الأرجل أو الرباعية الأيدي، قد يسّر استعمال الادوات وصنعها، وذلك بتخليص الأيدي التي أصبحت مستعدة للقبض، والحمل، والامساك، والمعالجة باليد. ولقد كانت تلك التطورات، فضلا عن ذلك، ضرورية للمحافظة على حياة الانسان، ولسلوكه في العالم، لاسيما فيما يتعلق بالحصول على الغذاء وتهيئته. وكان على كل جيل جديد ان يكتسب المؤهلات والمعارف الثقافية التي جمعها سلفه. ومن المحتمل ان تظل الأدوات الاولى التي صنعها الانسان مجهولة لانها كانت على غاية من البدائية لا تختلف عن بعضها الا قليلا جدا مما يجعل من العسير التعرف عليها، ويحتمل أيضا ان تكون مواد



● ماقبل التاريخ في أفريقيا الشرقية (١٩٧٤)

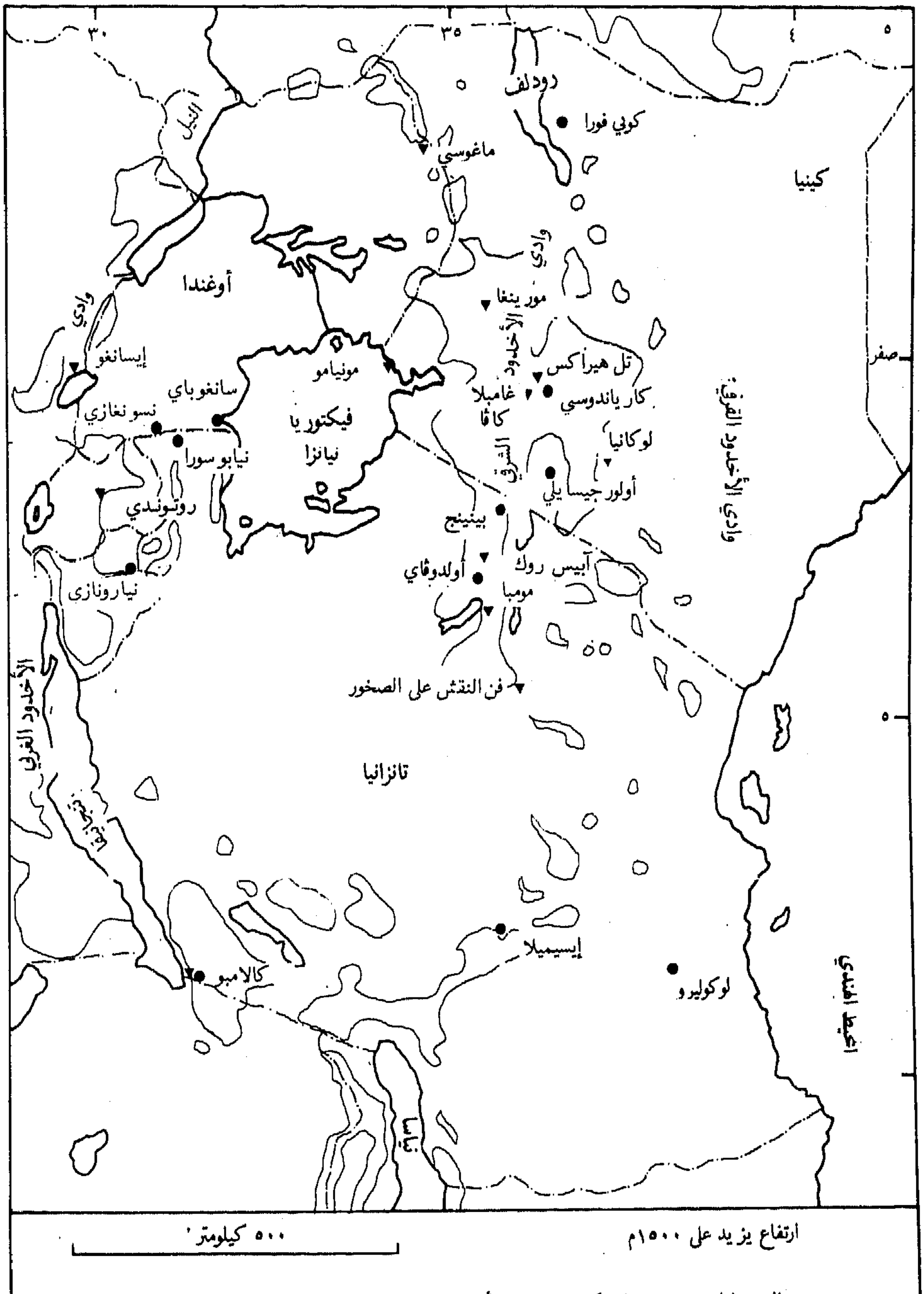
أخرى ـــ تفسخت من دون أن تترك أثرا، لا سيا الخشب، والجلد، والعظم ـــ قد استعملت وصنعت في فترة لا تقل تقدما عن العصر الحجري على الأقل. الا أن التقدم في استعمال المواد الأخرى كان محدودا طالما لم يسيطر الانسان على التقنية الأساسية التي تمكنه من أن يصنع بصفة منتظمة حدا قاطعا، وأداة ناجعة، لقرع حجرة معينة وتهشيمها تهشيا دقيقا بواسطة حجرة أخرى أو بشيء آخر صلب ومناسب.

وهكذا فان صنع الأدوات، وظهور الانسانية، قد ابتدأ قبل التاريخ الذي لنا عنه حاليا بعض الشواهد الثابتة الدالة على تلك التطورات الهامة. وتتكون تلك الشواهد من الأدوات الحجرية الاولى المعروفة. وعلى هذا الاساس يجب أن نحدد بداية ما تواضعنا على تسميته بالعصر الحجري.

ولقد ابتدأ هذا العصر الحجري منذ حوالي ٣ ملايين سنة ودام الى حقبة حديثة جدا من التاريخ الانساني الذي حل فيه المعدن محل الحجر فأصبح مفتاح التكنولوجيا ومادة أساسية لصنع الادوات وانتاج الحدود القاطعة. ان هذا الانتقال من صناعة الحجر الى صناعة المعدن، قد حدث في عصور تختلف اختلافات طفيفة بمجموع أقطار العالم. فلقد صنع النحاس في آسيا الغربية منذ حوالي ستة أو تسعة آلاف سنة. أما في افريقيا الشرقية، فلقد صنع الحديد، وهو المعدن الأول والوحيد الذي استعمل بطريقة منتظمة منذ ما يقرب من ألفي سنة.

ولنا أن نتساءل إن كانت التسمية بالعصر الحجري تسمية ترضينا من حيث التاريخ، لأنها تغطي الآلاف ٩٩٩ من الحقبة التي عاش فيها الانسان بافريقيا الشرقية. وهي تؤكد فضلا عن ذلك على الجانب التكنولوجي من تطور الانسانية، وذلك على حساب جوانب اقتصادية أو ثقافية أعم منها. ويمكن لنا أن نعترض على أنها تاريخيا طويلة جدا وأنها ثقافيا ضيقة جدا. الا أنه يمكن أن نرد على هذه الاعتراضات، فتظل عبارة «العصر الحجري» مفيدة لفظا ومفهوما، إن أحطناها ببعض التحفظات لذلك، ونظرا الى أن تلك الحقبة الطويلة جدا من الماضي لا تعرف الا بالاعتماد على شواهد الآثار علما بأنها ناقصة نقصانا كبيرا إذ لم يبق منها شيء سوى الحجارة، دون أية تقاليد سماعية أو وثائق مدونة، لذلك اضطر المؤرخون الى الاصطلاح على لفظ أو عدة ألفاظ لتسميتها ودراستها ووصفها.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن العصر الحجري لم يكن فترة قارة من التاريخ اذ أن التطور التكنولوجي الحاصل في العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، يظهر بوضوح من خلال التغيرات والتنوعات الطارئة على مختلف الأدوات، ومن خلال تزايد نجاعة الأداة الحجرية وتقنيات صنعها. وعلى هذا الأساس يبدو من الممكن ومن الضروري أن نقسم العصر الحجري الى فترات متعددة وأن نفرّعه الى فروع تكميلية تاريخية وجغرافية. ان المجموعات من الأدوات الحجرية (عندما تختار اختيارا حسنا وتقدم تقديما مناسبا) يستهوينا منظرها في حد ذاته، الا أنها لا تفيدنا الا قليلا ان لم تنظم ولم تدرك باعتبار الترتيب التاريخي ومرحلة التطور. وتخلو من المعنى أيضا العبارتان مثل «عاش في العصر الحجري» أو «انسان العصر الحجري» المركزتان على المفهوم الخاطىء الذي يرى أن الانسان ونوع حياته قد ظلا قارين طيلة تلك الفترة، لأن أدوات أهالي العصر الحجري كانت تختلف بحسب الزمان وبحسب المكان، ولأن أولئك الأهالي قد تطوروا من حيث الثقافة ومن حيث الطبائع. فلقد شهد العصر الحجري تغيرات وتحولات طرأت على جسم الانسان ودماغه وعلى



● أفريقيا الشرقية: المواقع الرئيسية
للعصرالحجري (١٩٧٤).

[redacted]

'قتصاد والنظام الاجتماعي والثقافة عموما، وهذا يتماشى مع التطورات التكنولوجية التي تشهد ا شواهد الآثار. و ينبغي أيضا أن نلاحظ هنا بأن التغير طيلة كل فترات العصر الحجري، وإن ـان بطيئا جدا بالمقارنة مع المعايير العصرية، فانه كان أبطأ بكثير في الفترات التي سبقته: فكلما ـتربنا من الفترة الحالية، كانت التغيرات أكثر سرعة. ولقد كانت هذ الفترة الحديثة مرحلة ـصص وتنوع جهويين لهما أهمية كبرى. فنتج عن هذا أن ظهرت فجأة في منطقة، خصائص بقيت ـدة طويلة تنمو في منطقة أخرى، وذلك في صورتها الكاملة (إثر الهجرات والاتصالات الثقافية) مما وهم بحدوث ثورة في تلك المنطقة الثانية. ولذلك قد يعادل جيلان في آخر العصر الحجري، نصف يون سنة من الحقبة الاولى اذا نظرنا الى ذلك من حيث معايير النمو.

وعلى هذا الاساس فلا تقتصر الدراسة التاريخية للعصر الحجري على الحجارة والأدوات اذ يكون ن حظ عالم الآثار العثور على مستكشفات أخرى توجد غالبا بمواقع سكنية يعود تاريخها الى العهد غابر من العصر الحجري حيث بقيت شواهد مباشرة مطبخية أو غذائية، في شكل فحوم خشبية تشهد لى منازل، أو في شكل قطع من العظم الحيواني. ان هذه البقايا العضوية قليلة جدا بافريقيا فيما تعلق بالفترات الاولى، باستثناء بعض المواقع التي أدت فيها بعض الأحوال المعدنية المواتية إلى ستحجار العظام قبل أن تتفسخ. ان عالم الآثار مدعو وجوبا، حتى وان كان لا يستطيع، الى لاعتماد على الحجارة، والى أن يطبّق استنتاجه وتأويلاته على ميادين أوسع منها.

فلا تهمنا في أول الأمر، الأدوات الخاصة المكتشفة، والمدروسة بمعزل عن بعضها، بل يهمنا لاؤم الادوات مع مختلف أنواع الأشياء التي يمكن العثور عليها في موقع، سواء كان سكنا مجموعة، أو مخيما مؤقتا للصيادين، أو «محرفا» لصنع الادوات.

ان الشظايا الحاصلة من «تقطيع الحجر» وبقاياه أكثر انتشارا من الادوات الجاهزة، ولذلك ـبت دراستها في نفس الوقت الذي تدرس فيه الادوات الجاهزة لأنها تدل على تقنيات صنعها لى مستوى المهارة التي وصل اليها الانسان. يضاف الى ذلك أن تلك البقايا لا تعتبر من السقط، ن عددا من تلك الشظايا، لا سيما ما وجد منها في المراحل البدائية من العصر الحجري كان لها حد طع، فاذا كان حجمها وشكلها مناسبين للاستعمال، فانها تكون تكملة للأدوات الجاهزة التي هي قل منها. وعلى هذا الاساس تعتبر جزءا مهما من الادوات. ان الاقتصار على جمع ودرس الأدوات ـاهزة المعروفة مثل ذي الوجهين والقدومات، يجعلنا نقدم لوحة ناقصة ومشوهة جدا، عن كنولوجيا بشر/ما قبل التاريخ وعن نشاطهم، في الفترات الحديثة من العصر الحجري، لما عوضت دوات الثقيلة من نوع ذات الوجهين، بأدوات أصغر وأجود وأدق منها، كثيرا ما كانت تثبت ـبضة خشبية أو بمقبض عظمي، وكانت تلك الادوات الحجرية تصنع حسب تهيئة ماهرة للبقايا ـجرية وتسوية جيدة للنصال والشظايا المفصولة. ولذلك ينبغي أن تتوفر لدينا مجموعة كاملة على ـر الامكان من القطع المنجزة، و بقايا تقطيع الحجر، حتى نتمكن من تحليلها وتقديم الاستنتاجات ـيدة عنها.

ان ملاءمة الادوات مع ما تنوع من القواطع والحدود الصالحة للقطع والقرض، والسلخ والقشر، ـشقب والحز، والضرب، والشق، والتفتيش، تساعد (حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار بعض ـحترازات التي لا مناص منها، المتعلقة بالوظيفة التي خصصت لها) على تصور وجود أدوات أخرى

صنعت من مواد سريعة العطب أصلها حيواني أو نباتي، مما كانت تلك المجموعة البشرية تستعمله والمثال على ذلك أن الجلود الحيوانية، عندما تخلّص من دهنها وتُجفف وتُدبغ، يمكن تقطيعها لتصنع منها حبال من جلد وأحزمة، ولقد استوجبت عمليات القنص، والقتل، والسلخ أدوات وأسلحة حجرية وخشبية، وكان من الممكن استعمال السيور مع الأدوات الحجرية لربط وحزم القذائف المستعملة للصيد أو لتثبيت نصل حجري أو حد على رمح خشبي أو سهم، بواسطة راتنج نباتي. ان دراسة البقايا الحجرية من نهاية العصر الحجري دراسة ذكية تستعيد لنا، فضلا عن تلك الأسلحة، أدوات مركبة عادية، متكونة من شظايا صغيرة وحدود صنعت صنعا جيدا، وأثبتت أو ألصقت بدقة بقبضات أو مقابض من العظم أو الخشب. وذلك ممكن ولو لم يتوفر لدينا شاهد واحد مباشر على العناصر الخشبية والعظمية وحتى قبل ذلك التاريخ، لما كانت أدوات الخشب والحجر الأكثر بدائية غير متراكبة، فانها كانت على كل حال مترابطة. فلقد كان من الممكن مثلا قطع رمح خشبي ليكون له الطول المرغوب بواسطة سكين حجري، وان كان لا بد أن ينجره وأن يسويه مكشط، وهو أداة نجر. ومن الممكن استعمال حزام جلدي أو ليفي نباتي لكي يتيسر قبض ذلك الرمح أو رميه. ان تهيئة حد الرمح، يستوجب من جهة أخرى استعمال أدوات حجرية قاطعة، مما يفرض بعد ذلك تصليبه بالنار كما تشهد على ذلك بعض النماذج التي عثر عليها. ان الصاق حد حجري بحربة الصاقا متقنا، وذلك في أحدث فترة من العصر الحجري، كان ناتجا عن عمل جيد من القضم والحز بواسطة أدوات دقيقة.

تلك بعض الأمثلة التي يمكن الحصول عليها اثر دراسة ذكية فيها تخيل للأدوات الحجرية حتى نخلص تلك الأدوات من الجمود، ونبث فيها الحياة. ومن الممكن ان نأتي بتخريجات فيما يتعلق باستعمالات الخشب والجلود المهيأة لنصل الى دراسة مسألة الخيام وحواجز الريح. وهنا فاننا نخرج، مثلما هو الشأن بالنسبة للأدوات والأسلحة التي تحدثنا عنها، من وجهة نظر تكنولوجية ضيقة لنقترح تأويلا اقتصاديا وثقافيا أشمل عن الشواهد والآثار، ولنستعيد حياة مختلف مجموعات الصيادين القاطفين من مختلف الفترات من العصر الحجري. و ينبغي أن نلاحظ هنا أن جل الأدوات في جميع فترات العصر الحجري، بما في ذلك الأدوات الحجرية، لم تكن أسلحة. فان كان الصيد دائما مهما وأساسيا لتوفير البروتينات (باستثناء الاماكن التي يكثر فيها السمك، شريطة أن تتوفر الوسائل لصيده) فان جمع النباتات أيضا، و بالأحرى جني العروق النشوية والعسقليات، كان أساس النظام الغذائي. ان هذا النشاط وكذلك النشاط المتصل بالأشغال المنزلية، و بخدمة الخشب، يساعدان على توضيح وظيفة أغلبية الأدوات.

ان صعوبة نقل الماء كانت بدون شك قد حدت في اختيار مواقع المخيمات اذ يجب أن يكون المخيم الفصلي الذي يختاره الفريق العائلي قريبا من مجرى ماء أو من بحيرة، وأن تتوفر له فضل عن ذلك نباتات كثيرة وأنواع من الطعام الذي يجلب الصيد.

ولقد حاولنا أن نبين بأن دراسة العصر الحجري دراسة تكنولوجية معتمدة على العقل النيّر والخيال، تساعد في رسم صورة واضحة للوضع الاقتصادي والثقافي. الا أنه يجب أن نقر أن الشواهد، حتى فيما يتعلق بالجزء الأكثر حداثة من عصر ما قبل تاريخ افريقيا الشرقية، هي شواهد قليلة جدا، وأن مجهوداتنا في التأويل الموسع هي مجهودات، لا مناص من ذلك، نظرية. فمن الضروري

أن نقاوم التخمينات والنظريات الواهية. إلا أنه لا فائدة، بعد الاتفاق على هذا، من أن نهمل الآثار المتوفرة لدينا، و ينبغي أن ننظر اليها نظرة ايجابية، فيها ذكاء وخيال، حتى نضبط الأحداث والمفاهيم التي يمكن أن نستخرجها منها. وهكذا تشحذ العزائم الجديدة والبحوث للعثور على وثائق أخرى. ولذلك فاننا سنسعى في ما يلي من هذا الفصل الى ضبط بعض الوسائل التي تسمح بالحصول على عدد وافر من المعلومات و بالوصول الى استنتاجات أكثر أهمية.

ولقد ذكرنا سابقا أنه وجدت مصادفة عظام حيوانية مستحجرة في بعض المواقع القديمة، واكتشفت عظام غير مستحجرة في مواقع حديثة، لا سيما في ملاجىء كانت تحت الصخور. وفي ذلك شاهد مباشر على الحيوانات التي كانت تصطاد وتؤكل. ان دراسة العظام دراسة ثاقبة بغية العثور على آثار الأدوات، والكسور، أو حتى على الطريقة التي طرحت بها تلك العظام على الارض، يمكن أن تفيدنا عن طرق فصل اللحم عن الحيوان واستهلاكه، الا أن الشواهد المباشرة من هذا القبيل لا تقدم لنا الا لوحة ناقصة. ومثال ذلك أنه يمكن أن تصطاد ثدييات صغيرة، وزواحف، وطيور وحشرات، الا أنه لا يبقى لها أثر سواء لأن عظامها أو أجزاءها الصلبة كانت هشة فلا تدوم، أو لأن الصياد قد استهلك تلك المصيدات الصغيرة بعين المكان دون نقلها الى المخيم. فالعسل، والثمار والعنبيات، والجوز وحتى بيض الطيور، لا تترك من الأثر الا القليل أو لا تترك أثرا واضحا لأنها تستهلك في الطبيعة من دون حاجة الى أدوات حجرية لجمعها أو لتهيئتها. فنحن لا نكتشف في الواقع الا نادرا جدا بقايا ما قبل التاريخ من الطعام النباتي. لكن نظام الصيادين القاطفين الغذائي كان بدون شك متوازنا، فلا بد من أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عند استعادته تاريخيا، بالاعتماد على دراسة ذكية تشمل الآثار والبيئة المحلية مع اعتبار جميع مواردها الغذائية.

ان شواهد الآثار، في بعض المناطق (طانزانيا الوسطى)، والمتعلقة بنوع حياة الصيادين القاطفين في العهد الغابر من العصر الحجري، تكتمل اكتمالا رائعا بالاعتماد على فن النقش على الصخر. فبقطع النظر عن كل اعتبار يتعلق بالمهارة الفنية، و بالنضج والذوق الفني اللذين تشهد بها تلك الرسوم، فهي تزودنا بمعلومات مضبوطة عن الصيد المشخص وعن طرق الصيد بالرمح أو بالسهم، وعن بعض الأنواع من الفخاخ. و يبدو أن التقنيات الاخرى المستعملة للحصول على القوت غير ممثلة في هذه الرسوم، ومن ذلك قلع الغسقليات وجني العسل. وهذا من شأنه أن ينير عقولنا و يوسع رؤيتنا الى الحياة في ما قبل التاريخ، لا سيما وأن بعض أنواع النشاط المشار اليها في الرسوم قابلا لأن تقارن بالعوائد الحالية أو المعاصرة عند شعوب افريقيا الشرقية.

ان شهادة الفن تستوجب مقارنتها بالعتاد التقني الذي له هدف اقتصادي وثقافي. فكلما توضحت لنا هذه اللوحة، أمكن لنا أن نشرع في وضع أسئلة متعلقة بطرق الصيد، ونصب الفخاخ والجنى، وعدد فريق الصيادين أو المجموعة البشرية، وترابها ونظامها الاجتماعي الضروري لبقائها على قيد الحياة. ان الجواب على هذه الاسئلة لا يدعو الى الثقة الكاملة. ولقد تحقق رغم ذلك بعض التقدم الثابت باعتماد الشهادة الأساسية المأخوذة من مختلف المواقع الاثرية. وهذا يعني أن الأمر يستوجب أن تجمع تلك البراهين باستعمال أدق الطرق، وأكثرها تنظيما، وأكثرها جودة إن أمكن ذلك

ان المناجم التي اكتشفت فيها الصناعة الحجرية ليست نادرة بافريقيا الشرقية. فلقد أصبحت معروفة في مطلع القرن العشرين وذلك إثر العمل الرائد الذي قام به الدكتور لويس لايكي بالكينيا

في العشرينات من هذا القرن، فكشف عن عدد متزايد من المواقع من جميع حقب ما قبل التاريخ، وذلك بافريقيا الشرقية. وظل عدد آخر منها لم يكتشف بل كشفت عنها الاجترافات أو تغيرات أخرى طرأت على أرضها. أما الأدوات أو شظايا النحت فقد جرت الى الوهاد ومجاري الأنهار أو الملاجيء تحت الصخور. وأبرزتها على سطح الارض الحراثة وحوافر المواشي، أو أشغال البناء. ان تلك المواقع وتلك الاشياء قد اكتشفها أثريون محترفون وكثيرا ما اكتشفها أيضا هواة، وفلاحون، وطلبة الخ، وهي تستحق التعريف بها كما تستحق تنبيه السلطات المعنية اليها. فجميع الأدوات وغيرها من الأجهزة الاثرية المكتشفة تستوجب أن تودع بالمتاحف حيث يمكن دراستها ومقارنتها بمجموعات محلية أخرى. فالعادة التي كان بمقتضاها يأخذ الأثريون الاجانب مكتشفاتهم الى بلدهم الاصلي لم تكن سائدة فيما يتعلق خاصة بافريقيا الشرقية، ولقد زالت لحسن الحظ الآن، الا أن بعض المجموعات من افريقيا الشرقية مازالت محفوظة في متاحف أوربية. وقد حفظ الجزء الأكبر وهو أثمن الأجزاء، من الأجهزة الأثرية لافريقيا الشرقية بالمتاحف الوطنية.

ان المجموعة السطحية لا تفيدنا في حد ذاتها بكثير لأن الأدوات وبقايا النحت قد نقلت خارج موقعها الأصلي. يضاف الى ذلك أن جمعها يخضع عادة لمبدأ الانتقاء. الا أننا نعتبر أن مجموعة سطحية صغيرة تستطيع في حد ذاتها أن تزودنا بتوضيحات لأن نوع الأدوات أو طريقة صنعها يرشدان الى الفترة التي تعود اليها الأدوات والى الروابط القائمة مع مواقع أخرى معروفة وذلك من شأنه أن يساعد على اظهار الفائدة من استكشاف أكثر تفصيلا ومن حفريات حقيقية.

ان تلك الحفريات تستوجب أن يتهيأ لها وأن يشرف عليها أثريون لهم دراية متعلقة بالموقع المعني بالأمر. الا أن أولئك الأثريين، مرتبطون كما أشرنا الى ذلك، بالمعلومات المحلية التي يوفرها لهم الهواة أو الطلبة الذين يمكن لهم علاوة على ذلك أن يساهموا في الحفريات وأن يتدربوا في نفس الوقت على المهنة. ان الطرق التطبيقية، التي تعتمد أحدث التقنيات في الحفر وفي دراسة الآثار، سواء في مكانها الأصلي، أو بعد أن تسجل وتنقل، هي الوحيدة التي تسمح لعالم الآثار، أن يجمع في موقع ما أقصى ما يمكن من المعلومات، وأن يرسم لوحة إن لم تكن مستنفدة فانها قد تشمل أكثر ما يمكن من أنواع النشاط التي جرت بذلك الموقع. ولقد ساهمت أشغال حفرية مثالية وقعت في مواقع تنتسب الى العصر الحجري القديم بافريقيا الشرقية، وذلك في السنوات الأخيرة، في توجيه أسلوب البحث في مناطق اخرى من العالم، وذلك فيما يتعلق بالمنهجية، والتحليل، والتأويل.

إن عالم الآثار المتعهد بالحفريات، لا يهتم باكتشاف نماذج فردية بقدر ما يهتم بالبحث عن أهم المعلومات الممكنة عن نوع حياة مجموعة قديمة، وبالتعرف على أكبر جزء ممكن من «المجموع الثقافي» ودراسته دراسة مستفيضة، وبجمع كل المعلومات المتوفرة عن البيئة. وذلك يستوجب اعتماد طرق في الحفر دقيقة وبطيئة. اذ يجب جمع كل الأشياء كما يجب الاشارة الى كل خصائص الأرض التي يقع فيها السكن، بما في ذلك التغيرات الطارئة على السطح، وتحولات لون الأرض التي يمكن أن تكون شاهدة على النار أو على نشاط آخر. والعادة تستدعي غربلة الرواسب، عندما يحتمل أو يمكن أن توجد أشياء صغيرة مثل شظايا الحجر، وقطع العظام، وحتى الحبوب النباتية، ان تلك الغربلة عادة مطردة في الملاجيء الكائنة تحت الصخور والحديثة حيث تكون الرواسب هشة ورمادية. ان العرف يعتبر الاجهزة الموجودة في ملجأ تحت صخرة، أو في موقع كثير الهواء، أجهزة لا تدل على اقامة واحدة

بل على اقامات متعددة متتابعة، قد تركت كل واحدة منها بقايا فوق بقايا الاقامة السابقة. وتستدعي كل اقامة دراسة مفصلة ولذلك وجب على الأثري القائم بالحفريات أن يعنى عناية خاصة بالطبقات الارضية، لان اختلاط الاشياء الآتية من اقامات مختلفة، قد يشوه التأويل تشويها مؤسفا.

واذا كان الأثري الحافر مسؤولا عن التعرف على الموقع، وعلى التسجيل والدراسة الاساسية المتعلقة بكل الاكتشافات، فهو يحتاج الى مساعدة اختصاصيين آخرين. ويمكن لتلك المساعدة أن تقدم في مرحلة لاحقة في المختبر، مثلا للتعرف على عظام حيوانية. واذا توصل القائم بالحفريات بفضل الظروف المواتية لحفظ المواد، الى استخراج بقايا نباتية مثلا، وحبوب متفحمة، وجوز أو قطع خشبية، وجب عليه أن يعالجها معالجة خاصة بعين المكان وأن يرسلها الى اختصاصي في علم النبات. ان التعرف على تلك العينات ودراستها يوفران مزيدا من المعلومات عن النظام الغذائي واقتصاد المجموعة لأن ما تزودنا به عن تلك البيئة يعتبر مهما أيضا. فان كتب للقاحات قديمة أن تظل محفوظة، يمكن أن يأتينا فحص تلك العينات فحصا بلينولوجيا بفائدة وأن يزودنا بتوضيحات عن نوع النباتات وما طرأ عليها من تغيرات. ويمكن أن نستفيد في هذا الصدد من العينات الارضية المشتملة على أجسام صغيرة أو على صدفات، لأنها تستطيع أن توضح نوع النبات السائد، وبالتالي تدل على المناخ الطارئ. ان الجيولوجيا والجيومرفولوجيا، وبنية التربة مفيدة أيضا لهذه المحاولات الرامية الى استعادة بناء البيئة القديمة والموارد التي كانت تستثمرها مجموعة ما قبل التاريخ. ومن الواضح أن أكبر جزء من هذا البحث حول البيئة يتطلب، ليكون عميقا ومفيدا، الاستفادة من وجود مختلف الاختصاصيين في الموقع بالذات، ولو لمدة قصيرة من الوقت، لأن العينات المجموعة والمرسلة الى المختبرات لا تكفي وحدها كدليل، اذ يجب أن تختار بدقة وأن تراقب في عين المكان. فربما طرأت تغييرات كبرى على الطبيعة بين الفترة المدروسة والفترة الحالية، تبعا للتغيرات المناخية، والحركات الجيولوجية، وفي أكثر الاحيان تبعا للنشاط الانساني، لا سيما الفلاحة، واستصلاح الارض في العصور الحديثة. ان دراسة الماضي تخضع دائما لدراسة ذكية للحاضر ولكل العلامات الاثرية وغيرها التي يشملها ذلك الحاضر.

ومن الدراسات الاخرى ما له أيضا صلة ببحثنا، فهي وإن لم تأت بشاهد مباشر على ما قبل التاريخ، فانها تزودنا بايضاحات غير مباشرة ثمينة جدا. ونقصد بهذه الدراسات البحث الانتروبولوجي حول بعض مجتمعات الصيادين القاطفين الموجودين بالعالم، لا سيا ما يوجد منها بافريقيا، فلقد سبقت الاشارة تصريحا أو تلميحا، الى بعض الاعتبارات المتعلقة بعادات الصيادين المعاصرين مثل قبيلة هدزة في طانزانيا الشمالية وقبيلة سان من منطقة كالاهاري اللتين أهتم بهما الباحثون في السنوات الأخيرة لجمع معلومات أوفر عن ثقافتها وأنواع حياتها القديمة. ان الملاحظات المستنتجة من هدزة وسان توفر لمحات عديدة ومفيدة عن امكانيات العيش، والتنظيم وضغوط نمط العيش المرتكز على الصيد وجني الثمار، وتوحي بعدد من النقاط التي كان من الممكن أن لا ينتبه اليها الأثريون، فمن الخطأ الجسيم أن نعتبر تلك المجموعات كصور مطابقة تماما لمجتمعات العصر الحجري أو من بقاياه.

من الصحيح أن بعض تلك الفرق المعاصرة من الصيادين القاطفين، لا سيا قبيلة سان بجنوب إفريقيا، يعتبرون أحفادا لسكان العصر الحجري المتأخر، وذلك من شأنه أن يوضح بعض مشاكل

الماضي. ومثال ذلك أنه كثيرا ما عثر الباحثون في اطار العصر الحجري المتأخر على حجرة فيها ثقب مستدير. ان عادة قبيلة سان الحالية، التي تؤكدها فيا يبدو، رسوم جدارية بجنوب افريقيا، تبين أن تلك الحجارة المثقوبة كانت تستعمل أحيانا لترشيق العصي الحادة الصالحة لاستخراج العروق التي تؤكل. الا أن هذا التوافق الخصوصي من هذا النوع قليل. ولقد حدثت هذه التغيرات في مجتمع قبيلة بوشيمان*وذلك لأسباب مختلفة منها الاتصال المباشر أو البعيد بشعوب تستعمل الحديد وتعيش في اقتصاد قائم على انتاج القوت. و يوجد عدد قليل من البوشيمان * الذين ظلوا يخدمون الحجر على نطاق واسع لأنه يمكن الحصول على الحديد مبادلة أو من البقايا، مما نتج عنه تغيرات تكنولوجية أو ثقافية حتمية. ولقد اختلط أحفاد آخرون للصيادين القاطفين اختلاطا عميقا بسكان منتجين للقوت. اما البعض الآخر فانهم لم يصبحوا بعد بلديين بصورة نهائية. فلما عادوا الى هذا النمط من الحياة منذ عهد قريب، ظلوا يعيشون من مبادلة منتجات الغابة مع جيرانهم الفلاحين والرعاة. أن هذا الاحتياج المتبادل ملحوظ لدى عدد من الجماعات المعروفة باسم «دورو بو» الذين مازالوا يعيشون في المرتفعات من الكينيا وطانزانيا. واذا كان هذا النوع من الاحتراز يبدو ضروريا لكيلا يقع الباحث في الخطأ، بالحاق الصيادين القاطفين المعاصرين لنا، بسكان ما قبل التاريخ المتأخر، فان هذا الاحتراز يصبح أكثر ضرورة ان اعتبرنا الفترات المتأخرة جدا. الا أن هذا لم يمنع توافر توضيحات مفيدة عن المواد الغذائية بالمنطقة وعن التنظيم الضروري لاستثمارها.

يوجد مصدر آخر مفيد من المعلومات. وهو دراسة الحياة الاجتماعية للمقدمات البشرية، لاسيما أقرب أجداد الانسان الحاليين، أي الشمبنزي والغوريلا، وكذلك القرادح (Babouins). فالقرادح هي بيولوجيا أقل مماثلة للانسان، الا أنها مهمة بصفة خاصة من جهة السلوك، وذلك بغية دراسة المجتمع الانساني، لأنها تعيش، أكثر من المقدمات الاخرى، جماعات على الأرض، و يسهل نسبيا ملاحظتها ودراستها. فالانسان، كما جاء في مكان آخر من هذا الكتاب، ليس من سلالة تلك القردة، ولا نريد أن نقول هنا بأنه لم توجد في ما قبل التاريخ أية جماعة، ولو أنها قديمة جدا، هي أقرب الى تلك القردة من الانسان العصري، فلو أردنا أن ندرك السلوك الاساسي للمقدمات البشرية والتقاليد التي ورثها الانسان عن أسلافه من الحيوانات السابقة له، وحاولنا أن نفهم كيف كان هؤلاء السلف المباشرون للانسان يقومون بأود العيش بالاعتماد أساسا على النباتات، علما بأنه لم يكن من عادتهم صنع الادوات، بل هم عاجزون عن ذلك، اذن لاستفدنا فائدة كبرى من تلك الدراسات التي يجري العديد منها بافريقيا الشرقية.

لقد سبق لنا أن أشرنا الى أن مدة ما قبل التاريخ كانت مديدة، وأن السكان في أواخر تلك الحقبة حققوا تقدما كبيرا، وأنهم كانوا يختلفون كثيرا عن أسلافهم من فجر ما قبل التاريخ، يضاف الى ذلك أن سكان افريقيا الشرقية من العصر الحجري المتأخر ـــ وقد بقيت منهم نماذج الى عهد قريب ـــ كانوا بلا منازع افريقيين. وكان لبعضهم قرابة مع البوشيمان**، وقد اندمج آخرون في سكان عصريين من زنوج العصر الحديدي. و بالمقابل، فان سكان العصر الحجري القديم، لا سيما في فترته المتأخرة جدا، ممثلون تمثيلا حسنا بافريقيا الشرقية ولم يعرفوا، لمدة طويلة، الا بذلك الجزء من

* في الجزء المطبوع لا ذكر للبوشيمان وانما ورد فيه «سان» ـــ تعليق المراجع محمد الفاسي.

** هذا اللفظ عرض في المطبوع للفظ «سان» كما تقدمت الاشارة اليه ـــ تعليق المراجع محمد الفاسي.

العالم، لأنهم أيضا أسلاف البشرية في مجموعها. ان هؤلاء الصانعين للأدوات البدائية جدا،والذين اكتشفت عظامهم في أعمق الطبقات من الأولدواي، بشمال طانزانيا وبمنطقة بحيرة تركانا بشمال الكينيا وبجنوب أثيوبيا، يصنفون عادة ضمن جنس الانسان العارف، الا أنهم كانوا من حيث البنية والدماغ يختلفون عن الانسان العصري. وهكذا أصبح تاريخ افريقيا الشرقية القديم تاريخ الانسانية القديم، وهذا العنصر يضفي عليها دلالة كونية. فافريقيا الشرقية، نظرا الى كونها تحتوي على معلومات لا تقدر بثمن عن الانسان البدائي، وعن ثقافته، وعن مناخ المقدمات البشرية، قد أصبحت بكل جدارة المركز العالمي للبحث عن الحياة، والبيئة، وأصل الانسان.

الترتيب التاريخي والتصنيف

بينما نجد أن العصر الحجري، في أغلب المناطق من آسيا، وأوربا وافريقيا الشمالية يقسم اصطلاحا الى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الجديد،فقد ترك أغلب الاختصاصيين هذا النظام فيما يتعلق بالمناطق الافريقية الواقعة جنوب الصحراء. فالعصر الحجري عموما ينظر اليه و يدرس بحسب ثلاث حقب هي: (العصر المبكر، والوسيط والمتأخر) . وهي حقب تتمايز بحسب تحولات مهمة تعرف من خلال التكنولوجيا (مع كل ما للتكنولوجيا من انعكاسات ثقافية واقتصادية). ان هذه النظم من التصنيف لا تشكل طريقتين للتعبير عن نفس الشيء، لأن معايير التصنيف تختلف اختلافا كليا في مستوى التصور والترتيب التاريخي. (انظر الجدول الآتي، وما يتعلق به من الحواشي).

ان الحقب الافريقية الثلاث تؤرخ تقريبا كما يلي:

ـــ العصر الحجري المبكر (أو العصر الحجري القديم): ابتداء من عهد أدوات الحجر الأكثر بدائية (لنفترض، منذ ٣ ملايين سنة(الى ١٠٠٠٠٠ سنة.

ـــ العصر الحجري الوسيط: تقريبا منذ ١٠٠٠٠٠ سنة الى ١٥٠٠٠ سنة.

ـــ العصر الحجري المتأخر: من ١٥٠٠٠ سنة الى بداية عصر الحديد (وهو محدد بما يقرب من ٢٠٠٠ سنة في أغلب المناطق).

ويجب علينا أن نؤكد في نفس الوقت أن تلك التواريخ تقريبية وأنها بصفة عامة محل نزاع، فلقد اقترحت الى الآن تواريخ أكثر تأخرا لا سيما فيما يتعلق بفترة الانتقال من العصر الحجري المبكر الى العصر الحجري الوسيط. ان هذه النظرة المحافظة تعود نوعا ما الى قلة المواقع والصناعات الحجرية المعروفة، والموصوفة والمؤرخة بطريقة مرضية. و يضاف الى ذلك أن الانتقال الأول من العصر الحجري المبكر الى العصر الحجري الوسيط، وقع في فترة توجد عمليا في حدود امكانيات ضبط التواريخ بالراديو كربون. و بالرغم من أنه حدث أن حددت تواريخ بـ ٥٠٠٠٠ الى ٦٠٠٠٠ سنة، وأنها معتمدة من قبل الباحثين أحيانا، الا أن تلك التواريخ تعتبر هي الحد الأدنى، لا تواريخ مضبوطة بدقة. وفي الواقع يوجد شك كبير لا يتعلق بأوائل العصر الحجري الوسيط فحسب بل أيضا بالجزء الأخير من العصر الحجري المبكر كله. وتجرب حاليا تقنيات جديدة مشروحة في مكان آخر من هذا الجزء. ولقد ساهمت،طريقة البوطاسيوم ـــ أرغون خاصة، في تحديد اطار تاريخي تقريبي

بالنسبة لحقبة من التاريخ تتجاوز نصف مليون سنة. فمن الضروري فعلا أن نعول كثيرا ودائما على التاريخ النسبي المستنتج من علم طبقات الارض الاثرية والجيولوجية ومن علم النماذج البشرية.

ان التواريخ المقترحة هنا لحقب ما قبل التاريخ هي اذن أقدم من التي تقدم عادة، الا أنها ليست قطعية بقدر ما يريد ذلك حاليا بعض الاختصاصيين. فحتى مدرسة «المراجعة» فهي أقل قطعا في هذا مما قد يتبادر الى الذهن، لأن القضايا التي تطرحها تهم في الواقع التعريفات أكثر مما تهم ضبط التواريخ.

وفضلا عن ان تاريخ هذه الحقب غير مدقق — ان لم يكن محل نزاع — فمن المهم ألا نعتبرها حقبا ثابتة لا تجري داخلها تغيرات ولا تحولات. فلا يجوز أيضا أن نتصور أن التغيرات من حقبة الى أخرى قد وقعت ختما بصفة مفاجئة. لقد طرأت تطورات سواء ضمن كل حقبة أو عند الانتقال من واحدة الى أخرى. يضاف الى ذلك أن الانتقالات الواقعة بين التكنولوجيات من العصر الحجري المبكر ومن العصر الحجري الوسيط، وكذلك بين العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر تعتبر انتقالات معقدة. ولكي يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، يتحدث بعض المؤلفين عن حقب فاصلة هي (بين بين). الا أن الاتجاه الحديث ينحصر في التخلي عن فكرة هذه الحقب «الفاصلة» كحقب «رسمية» للجدول التاريخي للعصر الحجري. ولئن كان وصف «الفاصل الثاني» بين العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر وصفا ليس على أية حال مرضيا. أما «الفاصل الأول» الذي يشمل الصناعات المعروفة باسم (فورسميثي) و«سنغون»، فانه حاليا يعتبر أحيانا مرحلة نهائية من العصر الحجري القديم، الا أننا نفضل أن ندمجه في عصر حجري متوسط أكثر امتداد. وهذا ما يفسر لماذا كان تاريخ بداية هذا العصر الحجري المتوسط أكثر قدما في دراستنا هذه.

ان التخلي عن هذه «الفواصل» هو قضية ملاءمة لا أكثر، ولا يدل على تبسيط للنظريات المتعلقة بالتطور التكنولوجي والثقافي والاقتصادي للانسان في عهد ما قبل التاريخ. وقد أصبح من الثابت أن الامر يختلف عن ذلك تماما. والملاحظة الأولى هي أن تكنولوجيات مختلفة كانت تستعمل في نفس الوقت حتى داخل مناطق ضيقة في مختلف عهود العصر الحجري. ويمكن تفسير هذه الاختلافات في بعض الاحوال بالاعتماد على البيئة، اذ يمكن لتكنولوجية أن تلائم الحياة في منطقة مشجرة أو في منطقة على شاطىء البحر، ويمكن لتكنولوجية معاصرة مختلفة ان تلائم مناطق أكثر جفافا أو أكثر عراء. ولذلك يمكن للموارد الغذائية وطرق استثمارها ان تفرض تكيفا ثقافيا وتكنولوجيا مختلفا (١).

ان التفسير الصحيح قد لا يكون أحيانا بسيطا. فلقد يحدث أن تظهر أنشطة احدى المجموعات (مثلا صيد الحيوانات الكبرى والصغرى، ونصب الفخاخ، وقلع العروق والعسقليات، وخدمة الخشب والجلد الخ.) و يكون بعض تلك الأنشطة فصليا، قد تظهر في مظاهر على غاية من التنوع، فتتوفر فيها أدوات مختلفة من نفس العهد، وذلك بجهة معينة. ويمكن من ناحية أخرى أن تظهر اختلافات تدل على تباعد ثقافي وعلى تخصصات اقتصادية أكثر عمقا، وهي في تصورنا ناتجة عن الاختلاف في العرق أو في المجموعة، أو قد تكون ناتجة عن وجود أنواع من البشر في العصر الحجري

(١) انظر خاصة، فيما يلي، العرض المخصص للعصر الحجري الوسيط.

المبكر. ان هذا موضوع اختلاف، الا أن أحدث الاكتشافات بافريقيا الشرقية بينت أن ما كان يعتبر الى الآن مرحلتين متميزتين من العصر الحجري القديم والمتمثلتين في الصناعات ذات الحصاة الملساء المهيأة (أو ما يدعى الأولدوائي) التي تحولت الى صناعة الادوات ذات الوجهين (وتدعى بالأشولي) انما يغطي في حقيقة الأمر حقبة طويلة دامت على أقل تقدير نصف مليون سنة. ومن الصعب أن نعتمد «النظرية القائلة بنوعية النشاط» لابراز جوانب هذه الملاحظة، ويميل بعض الاختصاصيين الى تأويله كدليل على وجود نمطين من التقاليد الثقافية متميزين، لنوعين من السكان منفصلين تماما، يعيشان جنبا الى جنب و يستثمران موارد غذائية مختلفة.

وفضلا عن هذا يمكن لنا أن نلاحظ أنواعا من التغطية في التقسيم الاعتباطي بين العصر الحجري المبكر، والعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر. فمن الممكن أن نجد بعض الأدوات من العصر الحجري المبكر أو تقنيات بدائية في محيط هو أساسا من العصر الحجري الوسيط. ان تمازج خصائص مجددة وأخرى محافظة قد يكون علامة على تغير متدرج. الا أن فترة الانتقال قد لا يحس بها أحيانا،وقد يحدث في بعض المواقع التي لها مقطوعة طبقية أرضية واضحة أن تظهر بها فجأة تكنولوجيا جديدة وذلك في شكل مكتمل، من غير أن يكون هناك أثر يدل على تطور محلي. وهذا يوحي بانتشار التكنولوجيا من منطقة الى أخرى ويمكن أن يكون ناتجا عن تحرك السكان. ولقد كانت التغيرات المناخية، مع ما لها من أثر على البيئة، من حوافز التكيف الثقافي والتقدم التكنولوجي. الا أنه على عالم الآثار أن يحترز في هذا الميدان من التأويلات الحتمية البسيطة.

ان هذا التقسيم الفرعي الاعتباطي جدا للعصر الحجري هو حينئذ نظام مرجعي مفيد في الحالة الراهنة لمعارفنا. ولكن يجب أن نجعله مرنا بحيث نتمكن من تغييره باستمرار. وربما ذات يوم سوف لا يفيد هذا النظام. ولئن كان هذا اليوم لم يصل بعد، فان فائدة ذلك النظام معرضة للخطر اذا طبق تطبيقا شكليا جدا أو بدقة متناهية في أغراض لم يوضع من أجلها.

سنقدم في الجدول بيانات أكثر تفصيلا توضح الطريقة التي يمكن أن تحدد فيها مختلف «الثقافات» من العصر الحجري، ومختلف الصناعات الحجرية التي عرفها الأثريون بافريقيا الشرقية وفق التقسيم الى ثلاث حقب. ولقد عرضنا هذا الجدول ليكون دليلا لمعارفنا الحالية وللدراسات الاساسية. ولا ندعي بأنه يحتوي على التأويل «الصحيح» ولا التأويل الذي سيعمر طويلا بعد نتائج البحوث المستقبلية، أو بعد اعادة النظر في البحوث التي أنجزت. يجب أن يعتبر بكل بساطة دليلا ودليلا مرنا. ان بعض «الثقافات» المذكورة فيه (وغيرها من التي لم تذكر قصدا) ربما درست على حدة بالاعتماد على بحث أو أوصاف غير مكتملة، ومركزة على استكشاف ووصف موقع واحد وصفا كاملا وهذا من شأنه أن يشكك في وجودها كوحدة ثقافية، وتوجد ثقافات أخرى لها امتداد جغرافي أو تاريخي شاسع. و يقدر بعضهم أن الأشولي من العصر الحجري القديم يغطي أكثر من مليون سنة بافريقيا الشرقية ولا يمتد في كامل القارة فحسب، بل يمتد في جزء كبير من أوراسيا الجنوبية والغربية، ولقد امتد السنغوي (Sangoen)، في أول مرحلة من العصر الحجري الوسيط من بعض أجزاء افريقيا الشرقية والجنوبية الى أقصى الغرب من القارة. ومن الصناعات الأكثر حداثة والممثلة بافريقيا الشرقية نذكر الستيلبايي (Stillbayeis) والولطوني (Waltonien)

اللذين وصفا لأول مرة وسميا في مقاطعة رأس الرجاء الصالح (بجنوب افريقيا). و بفضل الإختصاصيون اطلاق أسماء جديدة ومتميزة على مختلف الأنواع بافريقيا الشرقية إلا أننا فضلنا أن يكون عرضنا هذا مبسطا، مع الإشارة إلى بعض الصعوبات البديهية والى بعض المراجعات المحتملة. ويمكن للقراء الراغبين في ذلك أن يتتبعوا التطورات الجديدة والمجادلات وذلك بالشروع في قراءة المؤلفات التي توجد منها قائمة في مراجعنا ولهم الخيار في استعمال مصطلحات أكثر تفنننا.

ان هذا المقال وهذا الجدول مع حواشيها غير مخصصين للمصطلحات، لأن المصطلحات لا تعني شيئا في حد ذاتها. ولذلك فان الذي سيحاول حفظ هذا الرسم عن ظهر قلب، سيسيئ الى نفسه ويمكن أن يعرف العصر الحجري كحقبة «لما قبل التاريخ» فحسب وأن يناقش وأن يدرس بطريقة مفيدة بالاعتماد على مصطلحات ورموز وضعها الأثريون. إن كل محاولة جدية للاحاطة بتلك الحقبة وبالمؤلفات المرتبطة بها، سواء عندما ينظر اليها في مجموعها أو عندما تحلل تفصيلا، تستوجب استيعاب المصطلحات المستعملة عند مختلف المؤلفين، وان كانت مضطربة وباطلة في بعض الأحيان. ان هذا الفصل يشكل مدخلا الى كل ما ألف حول تاريخ افريقيا الشرقية في العصر الحجري، من أجل الاحاطة به.

الحواشي المتعلقة بالجدول

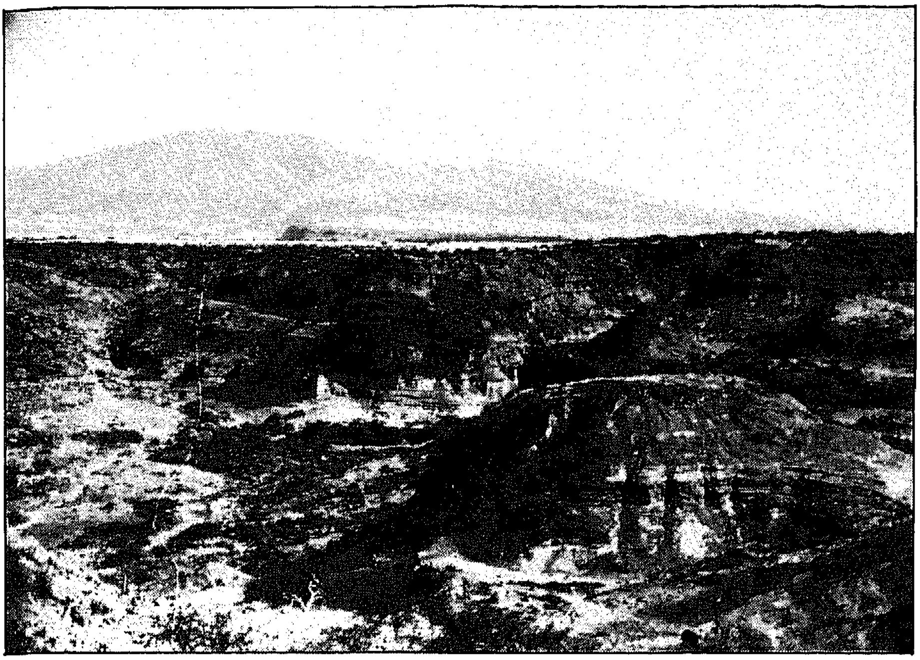
ان العمودين على الشمال يقدمان توافقات آجمالية مع الحقب الجيولوجية وتاريخ العصر الحجري الأول، المنطبق على منطقة الابيض المتوسط، أما شمال افريقيا، وأوراسيا، فانهما لم يذكرا الا بصفتها مرجعين لهما ارتباط خاص بفصول أخرى في هذا الجزء وبنصوص أخرى (تشمل مؤلفات قديمة خاصة بعلم الآثار المتعلق بافريقيا الشرقية). فهذان العمودان غير ضروريين لفهم ما جاء في هذا الفصل.

ان المصطلحات «الأسفل» و «الوسيط» و «الأعلى» تدل على العصور القديمة علما بأن «الأسفل» هو أقدمها وهي مطابقة للتقاليد الجيولوجية العادية المركزة على المقطوعات من طبقات الارض وتقدم هذه الجداول حسب ترتيب منطقي من الأسفل الى الأعلى في أغلب المؤلفات الجيولوجية وفي عديد من المؤلفات الاثرية. و يعرض هذا الجدول حسب الترتيب من الاعلى الى الاسفل طبقا للجداول التاريخية.

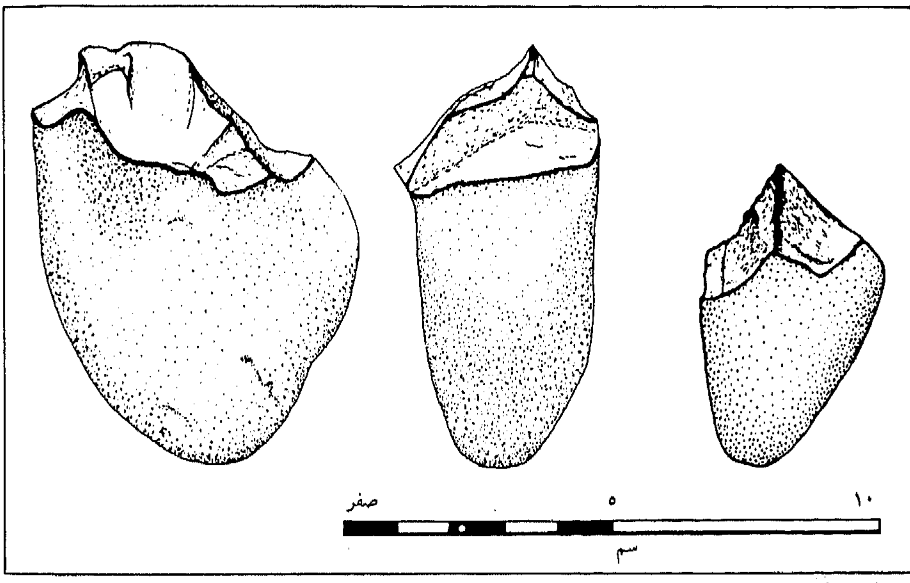
ان لفظ «الحجري القديم» ليس هو اللفظ الذي يعادل العصر الحجري المبكر الافريقي «فالحجري القديم» يفيد، مثلما استعمل ولا يزال يستعمل بأوربا «عصر الحجارة بدون انتاج القوت». وهو يقابل «الحجري الجديد» أي (عصر الحجر الجديد) الذي يفيد «عصر الحجر مع انتاج القوت»، وهنا يعني الفلاحة والرعي السابقين لاستعمال المعادن. و يوجد تأويل مخالف شيئا ما «للحجري الجديد»، وهو مستعمل أحيانا و يفضّل أصحاب هذا التأويل معايير ثقافة مادية متقدمة، لا سيا الخزف أو الحجارة المهذبة، عوضا عن انتاج القوت، وهناك تمييز في بعض الانحاء من العالم لحقبة انتقالية (أو درجة ثقافية حسب بعض المؤلفين) تدعى «الحجري الوسيط». اننا لا نعتبرها هنا الا لنسجل انه لا صلة لها بالعصر الحجري الوسيط الافريقي، خلافا لخطأ شائع جدا في الدراسات العامة المتعلقة بتاريخ افريقيا.

ما قبل التاريخ في أفريقيا الشرقية

السنوات (بالتقريب) قبل الميلاد	التقسيمات		السمات التكنولوجية التشخيصية المميّزة	الصناعات الحجرية الرئيسيّة		النظائر التقريبيّة في مناطق البحر المتوسط وأوراسيا	الحقب الجيولوجية (توافقات تقريبية)
٣ ملايين	العصر الحجري المبكر	المرحلة الأولى	حصوات مشكلة ومشظّاة	أولدوفائي (صناعات الحصوات المشكّلة)		الحجري القديم الأدنى	البليستوسين الأدنى
١ مليون		المرحلة الثانية	أدوات ذات وجهين (ذات وجهين، فأسيّة، الخ.)	أشولي (صناعات الأدوات ذات الوجهين)			البليستوسين الأوسط
١٠٠٠٠٠	العصر الحجري الأوسط	المرحلة الأولى	أدوات مشظّاة مصنوعة من نويّات مجهّزة	الهضاب والغابات: سانغوي	المرتفعات والسافانا: فورسميثي	الحجري القديم الأوسط	البليستوسين الأعلى
٤٠٠٠٠		المرحلة الثانية	استخدام المقابض: أدوات أصغر حجما وأفضل تثقيفا	لو پمبي	ستيلبائي – ماغوسي		
١٥٠٠٠	العصر الحجري المتأخر		نصال وأدوات حجرية صغيرة مثقفة أدوات مركبة	تشيتولي الكابسي في كينيا ثقافات «الأوعية الحجريّة» العصر الحجري المتأخر النهائي	و يلطوني مرتفعات كينيا	الحجري القديم الأعلى ـ فوق الحجري القديم أو الحجري الأوسط ـ الحجري الحديث (في بعض مناطق معيّنة)	الهولوسين
بعد الميلاد	عصر الحديد						



١



٢

● ١) خانق أولدوڤاي، تانزانيا الشمالية: يمثل الخانق فجا عمقه أكثر من ١٠٠ متر في السهل، و يكشف عن طبقات متعاقبة متراكبة (أهمها الطبقات البحيرية السفلى). و يبلغ عمر الطبقات السفلى حوالي مليوني سنة، وهي تحتوي على آثار لبعض أفراد الانسان الاول (و بعض المخلوقات البشرية) وعن عدد من أدواتهم (من النوع الاولدفائي) و بقايا من أغذيتهم. وفي مستوى أعلى، تم العثور على أدوات ثنائية الاوجه وأشياء أخرى من نوع الحياة الأشولية (المرحلة الثانية من العصر الحجري الاول) (تصوير ج. أ. غ. ساتون).

● ٢) العصر الحجري المبكر، المرحلة الاولى: أدوات أولدوڤائية نمطية (حصوات مشكّلة).

اننا لا نجد تقريبا في مجموع المناطق الافريقية الواقعة جنوب خط الاستواء ما يعادل العصر الحجري الجديد الخاص بالاقسام الاخرى من العالم، لأن انتاج القوت لم ينتشر قبل ابتداء عصر الحديد (٢). الا أنه توجد بالأراضي العالية من الكينيا وشمال طانزانيا، شواهد تدل على انتاج القوت (الرعي، وعلى الأقل شيء من الفلاحة أيضا) بالعصر الحجري المتأخر النهائي، وذلك منذ اثنين أو ثلاثة آلاف سنة. إن تلك الثقافة وما لها من الخزف وأقداح حجرية تدعى «العصر الحجري الجديد» من طرف بعض المؤلفين.

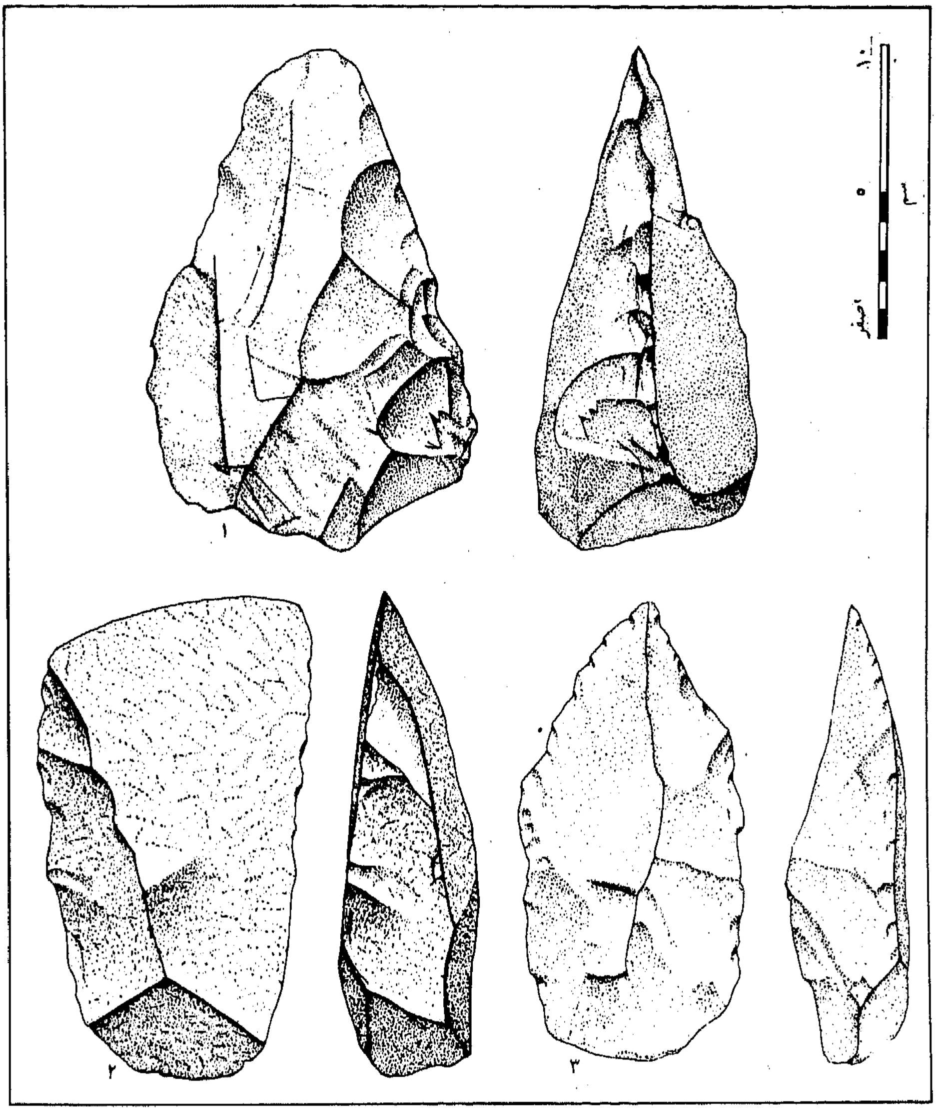
العصر الحجري القديم

المرحلة الاولى

يعود تاريخ الادوات القديمة جدا التي صنعها الانسان والتي نعرفها، الى حقبة تتراوح بين مليونين ان لم تكن ثلاثة ملايين سنة، وبين مليون سنة على الأقل. ولقد وقع اكتشافها على شواطئ بحيرات قديمة ومستنقعات قرب الريفت فالى بطانزانيا الشمالية، والكينيا وأثيوبيا. ولعل أقدم الادوات المنحوتة تتكون من تلك الشظايا الصغيرة جدا من الصوان، المفصلة والمستعملة، والتي وجدت في مواقع عديدة من بحيرة تركانا ومن وادي أوموباثيوبيا. ويعتبر استعمالها مشكلا من المشاكل ومن تلك الأدوات ما هو موجود بكثرة ومعروف معرفة حسنة، وهي الحصاة الملساء المهيأة، والمعاصرة للشظايا أو الموالية لها بقليل. فهي حصاة من حجم قبضة اليد، وكتلٌ صغيرة من الحجر، أخذت منها بعض الشظايا (بواسطة حجرة أخرى) لانتاج أدوات قاطعة، خشنة لكنها صالحة للاستعمال. وبينها نجد أن الاشغال الصعبة ومنها ما يتعلق بقطع جلد حيوان، أو بكسر أو تهشيم مادة نباتية صلبة تستوجب عادة استعمال الاداة الاساسية التي تقبض باليد، فقد كان من الممكن أن يستعمل عدد كبير من الشظايا (وتوصف عادة، لكن عن خطأ، بأنها نفايات)، وهذه الشظايا أكثر رهافة وبالتالي أكثر قطعا، وأن يستفاد منها في أشغال أخف من غيرها وأكثر دقة، كإعداد حيوان مقتول للأكل، وصنع أسلحة خشبية، أو القيام بأشغال منزلية في المخيم. وفي الواقع فان الدراسة المعمقة لهذه الصناعات المدعوة «بالساطورية أو صناعة الحصاة» المهيأة، لا سيما دراسة الدكتور ماري لايكي فيما يتعلق بفج أولدواي حيث عثر عليها بالمستويات السفلى، أو مثلما فعل ج. شيفايون في ملكا كنتوري بأثيوبيا، تشهد بوجود نوع كبير في النماذج، وبمهارة تكنولوجية هي أكبر مما كان يتصور من قبل. ان عبارة «حصاة مهيأة» عبارة متقضبة بعض الشيء، كما أن عبارة «حضارة الحصاة المهيأة» التي كثيرا ما تستعمل فيما يخص هذه المرحلة من العصر الحجري المبكر، هي عبارة غير صحيحة لأن الحجارة المختارة لصنع السواطير، والشظايا وأدوات أخرى، لم تكن دائما هي الحصاة، يضاف الى ذلك أن العظم، وكذلك الخشب كانا أيضا مستعملين. وان أغلب الأثريين يفضلون تسمية تلك المرحلة الأولدووائية، نسبة الى أولدوواي، بطانزانيا الشمالية. وهذا لا يعني

---

(٢) وقد ردّ على هذا الرأي مؤلفون عديدون.



● العصر الحجري المبكر، المرحلة الثانية: أدوات أشولية نمطية (مناظر أمامية وجانبية). ١) منقار؛ ٢) اداة شق؛ ٣) فأس يدوية ذات وجهين.

طبعا أنها صنعت لأول مرة بأولدو واي (٣).

وكان يظن أن صانع تلك الحصاة المهيأة، لا يصيدون ولا يقتلون الا الحيوانات الصغيرة مثل الطيور، والضباب والسلاحف والهيركسات، لتتمة ما يجمعون من ثمار ونباتات وحشرات، وقد أصبح من الثابت أنهم كانوا يقتلون حيوانات كبيرة اذ أنه يوجد بين العظام المستحجرة المكتشفة مع الأدوات، أو قرب المخيمات، عظام فيلة أو ظباء كبيرة. ويمكن أن تكون بعض هذه الحيوانات قد ماتت ميتة طبيعية، أو أنها جرحت عرضا أو قتلتها أسود أو غيرها من اللواحم. ولكن من المحتمل أن البعض الآخر قبض عليه، في ذلك العهد القديم بواسطة الفخاخ، أو دفعتها الى المستنقعات جماعات من الصيادين الذين يفتكون بها بنصالهم أو بدبابيس أو بقذائف حجرية.

وكان الصيادون يستهلكون جزءا من اللحم بعين المكان الذي قتل به الحيوان، أما الباقي فكثيرا ما كان ينقل الى المخيم ليقسم على ما تبقى من الجماعة، بما في ذلك النساء والأطفال، لأن ما يتبقى من ذلك الحيوان كثيرا ما يشمل عظام حيوانات مختلفة مخلوطة بأدوات متنوعة كانت تستعمل للقطع، والكشط، والهرس، فهي تشكل شواهد مهمة عما قد يكون محلّ سكن في هذه المرحلة القديمة جدا من الانسانية. ان دراسة مواقع الآثار، تفيد فضلا عن ذلك ان حواجز ضد الرياح كانت قائمة. وقد رأى البعض في دائرة حجرية بأولدوواي أساسا قديما لكوخ أو ملجأ خشبي، ومن المحتمل أنه كان مغطى بالجلود. ولقد استعملت لنفس الغرض مسطحة اصطناعية في ملكا كنتوري.

لقد أبرزت الى الوجود مناجم من الحصاة المهيأة ابتداء من جنوب افريقيا الى شواطىء البحر الابيض المتوسط فضلا عن المواقع العديدة الموجودة بشواطىء البحيرات التي تمتد من أولدو واي الى بحيرة تركانا، والتي توجد فيها أقدم المواقع السكنية المعروفة. ولعلها تعود الى عهد متطور أكثر من أقدم مرحلة بافريقيا الشرقية. ومن المحتمل ــ ولكن لا على سبيل اليقين ــ أن تلك الصناعة قد انبثقت أصلا من افريقا الوسطى، أو الشرقية وانتشرت في كامل القارة واعتبارا لتاريخ تلك الأدوات، فضلا عن تمازجها العرضي بافريقيا الشرقية مع العظام الانسانية، يمكن أن تنسب الى أكثر البشر بدائية أو انسان الجنوب، أو بالأحرى الى الانسان الماهر، كما يدعو بعضهم الى ذلك اليوم (٤).

العصر الحجري القديم

المرحلة الثانية

إن الأشولي أو «حضارة ذي الوجهين» منتشر أيضا بافريقيا انتشارا الأولدوائي، وتوجد به مواقع أكثر. ولعل ذلك يعود الى وجود سكان أكثر عددا، كما يعود الى صناعة عدد متزايد من الادوات

---

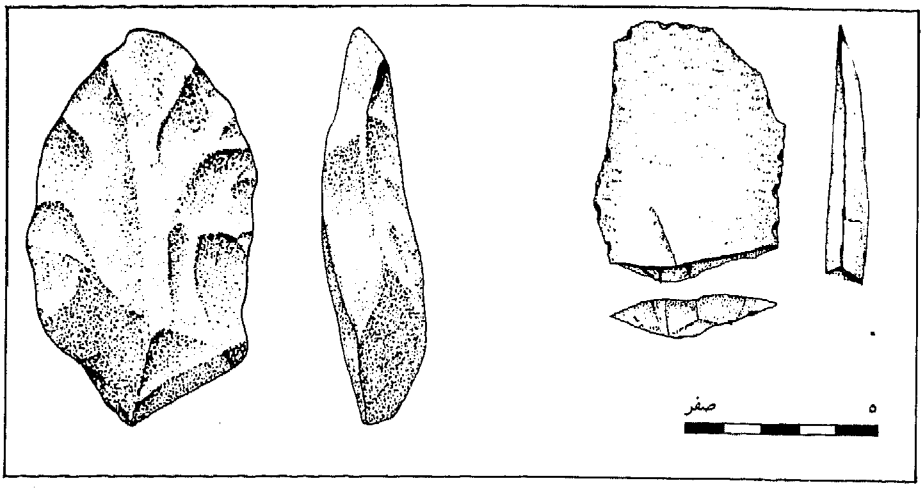
(٣) ــ ان الرسم الاملائي «أولدووائي» (Oldowayen) » مشتق من الصيغة الالمانية لكلمة أولدو واي (Oldoway) المكتوبة هكذا على الخرائط الاولى. واسم المكان من أصل ماسايي، والصحيح أن يكتب «أولدپاي».

(٤) انظر الفصل ١٧ من هذا المجلد.





• أيسيميلا، مرتفعات طانزانيا الجنوبية. ١ ـــ منظر على أرض الخور المتحات يحتسف عن الطبقات التي تتعرض فيها الأدوات الاشولية للتحات؛ ٢ ـــ مجموعة من الادوات ثنائية الاوجه، من فؤوس وأدوات أخرى أشولية (في الوسط، مكشط ملاط لبيان المقياس النسبي للحجم).



١



٢

● ١) العصر الحجري الاوسط والادوات الانتقالية: الى اليمين نموذج لسن مدبب يمكن تركيبه على مقبض، أو ربما كرأس لرمح.
● ٢) أولورجيسايلي، الوادي الاخدودي في كينيا. حفريات جارية في موقع كان مسكونا في الزمن الاشولي. (تصوير ج. أ. غ. ساتون).

ذات الاحجام الكبيرة، التي يسهل التعرف عليها. وخلافا للأولدووائي، يمتد الاشولي خارج افريقيا أي في آسيا الغربية والجنوبية وكذلك أوربا الجنوبية والغربية.

ان بدايته بافريقيا تعود الى أكثر من مليون سنة.. ولقد دامت منه التقاليد التكنولوجية طيلة مليون سنة الى عهود حديثة نسبيا لا تتجاوز مائة ألف سنة. ولقد سجل هذا المليون من السنوات تغيرات مناخية ملحوظة على المستوى العالمي (٥). وهناك احتمال قليل في أن تكون جميع المناطق التي وجدت بها أدوات أشولية مسكونة بصورة مستمرة، مع الملاحظة من جهة أخرى، أن الصناعات الاشولية كانت بالشرق من الهند قليلة أو مفقودة، و يبدو أن الهند قد احتفظت بتكنولوجيا حجرية متميزة تنتسب الى نوع (الحصاة المهيأة) المتطورة. وهذا من شأنه أن يعتبر حدا ثقافيا بين الشرق والغرب. ان هذه الصناعة الأشولية التي كان فيها ذو الوجهين أكثر الأدوات تداولا، تستوجب أن تربط بوجود الانسان المستقيم، وهو شكل بشري وسط بين إنسان الجنوب والانسان العصري. الا أن تطور الانسان المستقيم، نحو نماذج الانسان العارف الأولى، كان قد أخذ يتحقق في حوالي نهاية الفترة الأشولية.

لقد كانت افريقيا احدى المناطق التي جرى فيها تطور الانسان المستقيم، كما جرى بها التطور الثقافي الذي تدل عليه التقنيات الاشولية لصنع الادوات، وطرق من العيش كانت مجدية أكثر مما يمكن أن نتصور. ولقد ظلت تقاليد ثقافية أكثر قدما (ولعلها من النوع الطبيعي البدائي) ظلت قائمة لمدة معلومة جنبيا الى جنب مع التقاليد الجديدة. ان أحسن دليل على ذلك يظهر من المستويات المتتابعة من السواحل القديمة البحيرية بأولدووواي حيث صنعت واستعملت معا أدوات متمايزة أولدووائية وأشولية طيلة مدة تقدّر بعديد من مئات آلاف السنوات، وذلك منذ مليون سنة تقريبا. ان الاشولي يشمل فضلا عن ذلك مراحل وتحولات متعددة، الا أنه لا يؤخذ بعين الاعتبار في دراسة عامة، الا التقسيم الاساسي بين الأشولي القديم، وهو أشد خشونة وأكثر بساطة والأشولي المتطور الذي يشمل أحسن ذوات الوجهين وأحسن القدومات. وتزدان المعارض في متاحف افريقيا الشرقية بمختارات من تلك الأدوات، وتعتبر الأدوات الآتية من ايسميلا (من الاراضي العالية بطانزانيا) من أجمل الأدوات بالعالم. ومن الواضح أن «الأشولي المتطور» كان قد أخذ يتطور في مكان ما انطلاقا من «الاشولي القديم». وعلى كل حال ظلت بعد ذلك التقنيات الحديثة والتقاليد القديمة قائمة جنبا الى جنب لمدة معينة.

لم تكن افريقيا الشرقية، في العهد الاشولي، الا منطقة من مناطق العالم القديمة العديدة التي سكنها الانسان. فهي تشمل مواقع وفرت دراستها أدق المعلومات عن تكنولوجيا الانسان المستقيم والانسان العارف البدائي وعن اقتصادهما. فزيادة على مواقع أولدووواي وسلاسل طبقاتها التي لا مثيل لها، وزيادة على مواقع أخرى بنفس المنطقة، توجد مواقع ألرغنسيلي Olorgesailie وكر يندوسي بالرفت بالكينيا ومطارح أخرى بشرقي بحيرة تركانا، ونسونغيزي والمواقع المجاورة بحدود طانزانيا وأوغندا، وايسميلا ولوكوليرو بطانزانيا الجنوبية، وملكا كنتوري Melka Konturé بأثيوبيا حيث اكتشفت أطوار عديدة من الاشولي.

(٥) انظر الفصل ١٦ من هذا المجلد.

ان التسميتين «ذو الوجهين» و «القدوم» المطلقتين على النوعين المميزين أحسن تمييز للأدوات الاشولية، هما بطبيعة الحال من مصطلحات علماء الآثار المتفق عليها. ان ذا الوجهين لم يكن فأسا، بل كان على الأرجح أداة للاستعمال العام، وكان طرفها الحاد وقاطعاها الطويلان يمكن استعمالها للتفتيش والسلخ، فضلا عن وظائفه الاخرى، و يصلح القدوم لسلخ الحيوانات باعتبار طرفها القاطع. ان الفرق بين تكنولوجيات الأولدووايي والأشولي، هو في أغلب الاحيان كمي، ان مجموعة الادوات، مثل الادوات الفردية قد أصبحت الآن أكثر تميزا. يضاف الى ذلك أن التقنيات الاشولية تسمح بصنع أدوات أكبر حجما، لها قواطع أكثر طولا، وحدود مشحوذة لكي تستعمل سكاكين. ولتلك التقنيات تقطيع أكثر دقة، وأكثر اعتدالا وانتظاما بالوجهين، و يكون هذا التقطيع أحيانا بقارع من حجر كما في الأولدووائي، ولكن يكون في أكثر الأحيان بقارع خشبي أسطواني أو بعظم حيواني طويل.

ان السكان طيلة العصر الحجري المبكر، كانوا يشكلون فرقا من الصيادين القاطفين، وكانوا يتحولون في كل فصل الى السباسب والمناطق القليلة الشجر تبعا لما يطرأ على الموارد الحيوانية والنباتية من تغيرات. ومن المحتمل أنهم كانوا يتفرقون في بعض الفترات من السنة ويجتمعون في آخر الفصل الجاف في فرق عددها أكبر، وذلك قرب بحيرة أو منطقة أخرى خصبة. ولقد رأى بعضهم ان التجمعات الضخمة من الادوات الاشولية ذات الصنع الجيد، بمواقع مثل ايسميلا وأولورغسيلي قد تدل على اقامة مخيمات سنوية.

ولقد اكتشفت الشواهد الاولى عن النار في افريقيا الشرقية بمواقع أثرية أبرزت صناعات من الاشولي المتطور، وتؤرخ المؤلفات الموجودة ذلك الاكتشاف بخمسين ألف سنة تقريبا. وهذا التاريخ لا يخلو من الاحتراز، اذ توجد آثار لا نزاع فيها تدل على النار والطهي تركها الانسان المستقيم بآسيا الشرقية و باوربا وذلك منذ نصف مليون سنة. و يبدو من المحتمل جدا، وان لم توجد حجة، أن النار قد عرفت وأن الطعام المطبوخ كثيرا ما استهلك طيلة جزء كبير من الاشولي بافريقيا.

العصر الحجري الوسيط

ان سكان العصر الحجري الوسيط ينتمون الى نوع الانسان العارف، وربما كانوا في أول الأمر، ينتمون الى أنواع متفرعة عن الانسان العارف، ومختلفة قليلا عن الانسان المعاصر. إن الانسان العصري (الانسان العارف) لم يكن قد ظهر فحسب في آخر العصر الحجري الوسيط بل ان الخصائص البدنية المميزة للأجناس الموجودة، قد ظهرت وتطورت بافريقيا وفي غيرها من القارات.

لقد سجل العصر الحجري الوسيط، من حيث وجهة النظر التكنولوجية، تقدما مهما. وهكذا تركت التقنية الاساسية لصنع أدوات الحجر والمتمثلة في نزع شظايا من صخرة حتى يقارب شكلا نموذجيا له حدود قاطعة صالحة للاستعمال، فاستعيض عنها بتقنية أكثر تعقيدا، تستوجب تهيئة النواة بنزع الشظايا نزعا دقيقا حتى يكون له الشكل والحجم المطلوبان اللذان يسمحان باستخلاص الأداة الكاملة الصنع. ولقد استعملت موازاة لذلك تقنية تعتمد على فصل شظايا عادية تهذب بعد ذلك ليصبح لها الشكل معلوم، فنتج عن ذلك صنع أدوات أقل حجما، لها أشكال أكثر اكتمالا، وتكون

عادة أرق من أدوات العصر الحجري المبكر، وأكثر نفعا منها. ولقد سمح ذلك بتجديدات في الحقبة الثانية من العصر الحجري الوسيط كانت لها نتائج هامة، منها صنع أدوات حجرية منحوتة ذات مقابض من خشب ومن مواد أخرى. ان الحدود الورقية الشكل، التي تخصصت بها الصناعات الستيلبائية، والتي تهذب بضغط دقيق جدا، كانت تثبّت وتلصق في نواة ذات مقبض خشبي لتكون رمحا. وحدث أن ركبت بنفس الطريقة أدوات كثيرة ذات استعمال منزلي، مما استوجب تحضير الاصماغ والرتنجات وكذلك نجر الخشب وتقويمه وحزّه وهي أشغال يسرتها بلا شكّ المعالجة بالنار.

ان هذه التطورات التكنولوجية بالعصر الحجري الوسيط كانت مربوطة بالتطورات الاقتصادية، وعلى الأقل بالتحولات المتعلقة بالتكيف مع البيئة وهنا يبرز سؤالان مترابطان، أولهما متعلق بالتغيرات المناخية (٦). ان تفاصيلها وضبط تاريخها، وكذلك مطابقتها للشواهد الأثرية ما تزال غير معروفة. ونكون متعسّفين اذا فسرنا بعضها بالاعتماد على البعض الآخر. يضاف الى ذلك أن هذه التغيرات المناخية من الجفاف الى الرطوبة والعكس بالعكس، وهي تطرأ على توسع الغاب أو تقلصه، وعلى عدد البحيرات والانهار ومساحتها، مما له أثر على توزيع ووفرة مختلف الموارد الغذائية، هذه التغيرات المناخية لم تكن شيئا جديدا. فمن الضروري عندئذ أن نتساءل لِمَ لَمْ تتسبب التغيرات المناخية الأكثر تقدما في قفزة تكنولوجية واقتصادية؟ لا يمكن، نظرا الى وضع البحوث الحالية أن نعطي جوابا مرضيا على هذا السؤال، وان كان من الممكن أن نتصور أن الضغط السكاني قد فرض وسائل أكثر نجاعة وأكثر تنوعا لاستغلال موارد المحيط. ومهما كانت الأسباب فذلك ما وقع فعلا بالعصر الحجري الوسيط.

أما السؤال الثاني فهو يتعلق بالتخصص الجهوي الذي سمح للانسان باحتلال مناطق جديدة. ان الانسان العارف كان يستعمل عبر العالم مرونته في التكيف تكيّفا فطريا والتوسع في المكان. ولقد ظهر بافريقيا تقسيم ثقافي واضح بين سكان المناطق العشبية أو السباسب المشجرة قليلا وبين السكان الذين يسكنون مناطق أكثر رطوبة ذات غابات أكثر كثافة. فتكونت عند الاولين تقاليد صيد الحيوانات الكبرى بالرمح. (وذلك لا يعني ترك جني الثمار)، بينما تعلق الآخرون بجني النبات والثمار، وصيد السمك، والقنص في الساحل بواسطة رماح، وباستعمال فخاخ.

ان ذلك التخصص لم يكن في المرحلة الأولى من العصر الحجري الوسيط مطلقا مثلما يدّعي بعضهم ذلك. فلقد عثر على أدوات تعرف باسم «فورسميثي» بالاراضي العالية من الكينيا، وكذلك في حواشي الغابات. وهذه الأدوات شبيهة بصناعات كندار (Gonder) وكربا وملكاكنتوري ويعتبر «الفورسميثي» في كثير من الحالات، من الاشولي المتطور. فالأدوات الاساسية متشابهة لكن عادة من حجم أصغر وتجتمع فيها تقنيات صنع جديدة. وتخالف تلك الصناعات «السنغونية» وهي أكثر انتشارا. وقد عثر على أحسن النماذج منها حول بحيرة فكتوريا، وبالرفت فالي الغربي بأوغندا الجنوبية، وفي روندا وطانزانيا الغربية. وتشمل تلك الصناعات خليطا من الأدوات الأشولية ومن التقنيات الجديدة. الا أن خصائصها الكبرى تختلف عن خصائص مظاهر

(٦) — انظر الفصل ١٦ من هذا المجلد.

الفورسميثي. ان مجموعات «السنغون» توحي أولا بخشونة صنعها، ويحتمل أن يكون ذلك علامة على نشاط تكنولوجي أكثر تنوعا، لا على تقهقر ثقافي. ويحتمل فعلا أن تكون كثير من تلك الأدوات ذات المظهر الخشن أدوات استعملت لصنع أدوات أخرى، خاصة من خشب، بينما كانت المعاول الكبيرة تستعمل لاستخراج العروق التي تعتبر جزءا من الحمية الخاصة بالمناطق المشجرة.

ان الشكل المتطور الذي برز فيه أولا «السنغون» بافريقيا الشرقية يوحي بأن أصله وتطوره، انطلاقا من الأشولي، يستوجبان نسبتهما الى مكان آخر، إما في الوسط أو الغرب من القارة. ويمكن أن يكون انتشاره بالأجزاء الغربية من افريقيا الشرقية قد وقع في فترة رطبة توسعت فيها حدود الغابة الاستوائية. ومن المحتمل أن مواقع المخيمات كان قائمة في مناطق مشجرة، على طول الشطوط المشجرة، لا بالغابات الكبرى الكثيفة. ولنلاحظ أن توزع مواقع «السنغون» المدروسة بحوض الزايير يفيد أن دخول الغابة الاستوائية لم يزد الا بقدر قليل عما حصل في الاشولي. ولكن أصحاب الصناعات «اللوبمبية» (التي تعتبر تطويرا وتجويدا للصناعات السنغوية) — وقد اشتهرت برماحها البديعة الصنع، وذات السنان الحجري — كان أصحاب هذه الصناعات في المرحلة الثانية من العصر الحجري الوسيط يعيشون في وسط الغابات.

يوجد النموذج اللوبمبي أيضا حول بحيرة فكتوريا وبمناطق أخرى غربية من افريقيا الشرقية وكذلك بحوض الزايير، وبينه وبين النموذج الستيلبائي اختلاف من حيث الأسنة الورقية الشكل، وهو يوجد بالأراضي العالية العشبية التي تحف بالرفت فالي، بالكينيا وأثيوبيا، قرب بحيرة طانا (ملجأ كركورة) أو دير داوه (كهف الشيهم). وتغلب في مناطق أخرى، لاسيما في الجنوب الشرقي من طانزانيا نماذج مختلفة من صناعات العصر الحجري الوسيط. وهي أقل اختصاصا، أو بالأحرى الى أن يأتي ما ينافي ذلك. وللبعض منها شيء من التقارب العام مع «السنغون — اللوبمبي». ويحتمل ان تكون وجدت تقاليد جهوية عديدة قد نتجت عن التكيف مع بيئات محلية، فحافظت، لما استقرت استقرارا نهائيا، على عدد من خصائصها المميزة، بسبب التقاليد الثقافية وبسبب الضغوط البيئوية أو الاقتصادية. ويمكن أن تكون تلك العوامل الثقافية الجهوية مسؤولة عن التحول الذي يظهر واضحا بافريقيا الشرقية، بعد تبنّي التجديدات التكنولوجية من العصر الحجري الوسيط.

العصر الحجري المتأخر

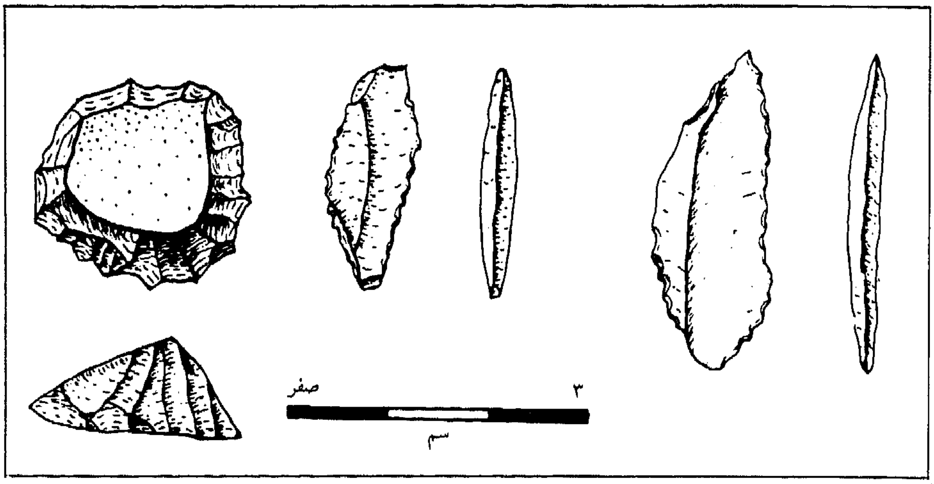
ان حدوث هذه التقنيات الأكثر تعقدا بغية صنع الأدوات الحجرية، يعود الى عشر أو عشرين ألف سنة. وخلافا للعصر الحجري الوسيط الذي كان التركيز فيه على صنع شظايا انطلاقا من بقايا حجرية، أصبح التركيز في العصر الحجري المتأخر خاصة على الصفائح المفصولة وذلك باستخلاص مباشر أو غير مباشر لقطع ذات حواف متوازية طويلة رقيقة. وكان من الممكن بعد ذلك تثقيف تلك الصفائح بحسب الاشكال المرغوبة والاستعمالات المتنوعة جدا. وعلى العموم كانت القطع المثقفة صغيرة جدا. انها «حجيرات» كان طولها أحيانا دون سنتمتر واحد ويطلق الاثريون على الشكل المشترك اسم «قطعة الدائرة» التي لها قاطع مستقيم وحافة معكوفة. ولم يصنع ليقبض باليد وليستعمل كأداة فردية، بل ليدمج ويثبت بمقابض من الخشب أو العظم. ولقد أصبح وضع

المقابض طريقة محكمة وجارية. وكانت حجارات صغيرة جدا مثبتة معا، بعد ذلك في شق مقبض خشبي لتكون «أداة مركبة» مثل السكين أو المنشار. أما في المناطق التي بها صخور تصلح لصنع صفائح، لا سيما صخور الصوان، وأحسن منها الزجاج البركاني الداكن (السبج) الذي يوجد بأماكن قرب الرفت فالي بطانزانيا الشمالية، وبالكينيا، فقد كان من الممكن صنع قطع جميلة، وصفائح حوافها معكوفة، ومثاقب، ومحافر ومكاشط وأنواع أخرى خاصة. أما في المناطق الاخرى فهي لا تحوي الا حجر الصوان أو حجارة دون ذلك قيمة، لا يصلحان لتقطيع الحجر. ولئن أمكن صنع أدوات مفيدة اعتمادا على تلك المواد، فقد كانت تظهر لأول وهلة في مظهر الآلات الغير المنتظمة والخشنة. ولقد كان الأثريون يعثرون أحيانا على آلاف من الشظايا في موقع سكني من العصر الحجري المتأخر، الا أنهم كانوا لا يستطيعون أن يصنفوا الا اثنتين أو ثلاثا بالمائة منها حسب أشكال معروفة من الأدوات.

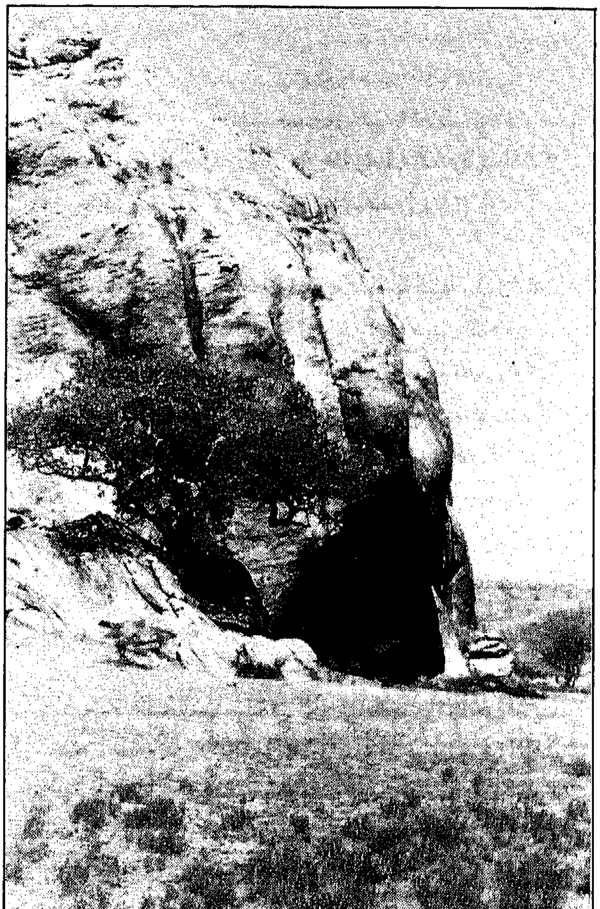
ان هذه التجديدات التكنولوجية كانت تسمح بالتعرف على عدد من التجديدات الثقافية أو الاقتصادية أو استخلاصها منها. ويحتمل أن يكون القوس والسهم قد استعملا في ذلك العهد للصيد. فكانت تثبت حجيرة أو اثنتان بعصا من خشب لصنع الأسنة، وكانت أخرى توضع في مكان أسفل من ذلك لصنع الحراب. ومن المحتمل أن تعود الى ذلك العهد تهيئة السم الخاص بتلك الاسهم ذات الهياكل الحجرية. وتوحي عادات السكان الصيادين القاطفين الحالية أو الحديثة التي احتفظت ببعض تقاليد العصر الحجري المتأخر، باستعمال الشباك في المناطق المشجرة. وكثيرا ما كان يستعمل العظم اذ أن اكتشاف المثاقب الحجرية والثقابات العظمية يدل على خياطة الجلود لصنع ملابس ومخابئ. ولقد صنعت لآلئ من الحبوب والعظم، وقشور بيض النعام، وحتى من الحجارة ويحتمل أنها خيطت بتلك الملابس أو استعملت كعقود. ان الرحى التي ظهرت في بعض المجموعات من العصر الحجري المتأخر، كانت تستعمل فيما تستعمل لطحن المغرة (Ocre) الحمراء. ولكن يبدو أيضا أنه كان لها استعمال اقتصادي أهم وذلك لطحن أطعمة نباتية.

كانت بعض المخيمات قائمة، في العصر الحجري المتأخر، في الهواء الطلق، قرب أنهار أو بحيرات، مما يستوجب أن نتصور وجود واقيات من الرياح أو أكواخ متكونة من أعمدة، ومن عشب، يحتمل أنها كانت مغطاة بجلود. ومن العادات المشتركة أيضا في ذلك العهد الاقامة في الملاجيء تحت الصخور، (تسمى أحيانا خطأ «الكهوف») توجد تلك الملاجيء الطبيعية تحت صخور شاطئية على طول بعض الأودية أو تحت صخور كبرى من الغرانيت وفي كل مكان يمكن العثور فيه على ما يحمي من المطر والرياح والعاصفة. وكانت بعض تلك الملاجيء تحت الصخور في مواقع ممتازة، على مرتفعات تسمح بمراقبة مساحات شاسعة من السهول وما فيها من حيوانات الصيد فكان يحدث لفريق من الصيادين أن يستريح بها ليلا، ولأسرة أو لمجموعة من الأسر أن تستقر بها لسبب من الأسباب. وكانت بعض الملاجيء الممتازة تستعمل عاما بعد عام أو بالتناوب مدة مئات وحتى آلاف السنوات طيلة العصر الحجري المتأخر. وذلك ما يفسر الطبقات المتتابعة من الحطام المتكون أساسا من رماد الطبخ، وعظام الحيوانات المستهلكة، والادوات الحجرية وبقايا النحت.

وفي منطقة من الوسط ــ الشمالي بطانزانيا كان الجدار الصخري لتلك الملاجيء كلها، كما



١



٢

● ١) العصر الحجري المتأخر: نصل مظهر (الى اليمين)؛ ونصل هلالي (في الوسط)؛ ومكشط (الى اليسار)، مصنوعة كلها من الاوبسيديان، في الوادي الاخدودي في كينيا.

● ٢) آبيس روك (ناسيرا) في تانزانيا الشمالية. تحت الظل الواضح في الصورة الى اليمين كشفت الحفريات عن مستقرات بشرية متعاقبة من العصر الحجري الحديث (تصوير ج. أ. غ. ساتون).

لاحظنا ذلك سابقا، مزينا برسوم حيوانية، وبمشاهد عن الصيد وبرسوم أخرى. ولئن كان من المتعذر أن تربط تلك الرسوم الخاصة بطبقة معينة من مقطوعة من العصر الحجري المتأخر، مما يوجد بتلك الملاجىء فان العلاقة العامة بينها تبدو واضحة للغاية. ويبدو أن أغلب جزء من الفن الذي بقي، يعود الى الالفيات الحديثة، في حوالي نهاية العصر الحجري المتأخر الذي يتجاوز جزء منه فترة انتشار مجتمعات العصر الحديدي. إن أصل فن الصيادين هذا وما يوافقه من معتقدات وعلم الكونيات يعود رغم ذلك الى تاريخ قديم جدا.

ان احتمال وجود رصيد قديم من التقاليد، مضت عليه الآف من السنين منذ مطلع العصر الحجري المتأخر، بل ربما منذ العصر الحجري الوسيط، قد يكون فيه دليل على وجوه الشبه بين فن الصيادين بطانزانيا وفي جنوب افريقيا. وكذلك، الصناعات الحجرية بالمنطقتين، وان كانت غير متماثلة تماما، الا أنها تشترك في بعض الوجوه العامة (غالبا ما تدعى «ولطونية»). ولقد تبين في جنوب افريقيا أن بعض المجموعات الحديثة من الفن الجداري وصناعات حجرية ولطونية كانت من صنع قبيلة البوشيمان *، الذين تعيش فرق منهم عيشة الصيادين القاطفين ببعض المناطق. ان خصائصهم البدنية «سان» ولغاتهم «خوازان» أو اللغات ذات تنغم خاص (à click) تعتبر كلها متميزة. ولا توجد فعلا بافريقيا الشرقية سوى منطقة صغيرة تستعمل فيها اللغات «ذات تنغم خاص». وهي بالذات منطقة الفن الجداري في الوسط ــ الشمالي من طانزانيا. ان أولئك السكان الناطقين بلغة «خوازان»، يحتفظون بتقاليد عريقة تنتسب الى الصيادين القاطفين (٧)، وان كانت لهم خصائص بدنية تدل على أصل «ساني» محتمل.

لا يمكن أن نفسر تفسيرا مقنعا تلك القرابة بهجرة حديثة نسبيا قامت بها قبيلة «سان» من جنوب افريقيا. ويبدو أنه وقع في وقت ما هجرة متواصلة قام بها أولئك الصيادون القاطفون من شمال طانزانيا الى رأس الرجاء الصالح، ثم انقطعت طيلة الالفيات الثلاث الاخيرة نتيجة لانتشار سكان لها لغات وثقافة واقتصاد تختلف عنهم، ولهم نمط من العيش يقوم على الرعي والفلاحة. ان أصول هذا التبادل الثقافي في سباسب افريقيا الشرقية والجنوبية، تنتسب بوضوح للعصر الحجري المتأخر، بل الى مرحلة «الستيلبايي» من العصر الحجري المتوسط. ان المسألة المتعلقة بهذه الاقدمية ستظل معلقة الى أن تعرف وتدمج في المناطق المتوسطة هذه المرحلة من العصر الحجري المتوسط وصلتها بالعصر الحجري المتأخر التي تمثلها الصناعات المعروفة خطأ بالصناعات «الماغوسية». ويمكن لنا أن نلاحظ أن «الماغوسي» في أثيوبيا يأتي في مواقع عديدة مباشرة بعد الستيلبايي، وهو متميز عن هذا الأخير بتنوعه الكبير.

ان هذا القول بوجود تقاليد عريقة خاصة بثقافات السباسب في العصر الحجري المتأخر، قد يفسر بعض التنوعات الجهوية الملحوظة في النصف العام من «الولطوني». وكان الأثريون، في الماضي يميلون، الى أن يدمجوا فيه كل الصناعات التي فيها عنصر حجري صغير مطبوع، سواء بافريقيا الشرقية أو بافريقيا الجنوبية. ومن الممكن الا يكون لبعض تلك الصناعات، في الأقسام الشمالية جدا من

* في النص المطبوع «سان» عوض بوشيمان. تعليق المراجع محمد القاسمي.

(٧) أنظر الفصل الحادي عشر من هذا المجلد.

افريقيا الشرقية، الا علاقات ضعيفة جدا، كما يمكن ألا يكون لها صلة بالسكان البوشميين* بالجنوب. وفضلا عن ذلك قد يكون من المنتظر العثور، في الأجزاء الغربية من افريقيا الشرقية، على تقاليد متميزة، تقيم الروابط مع حوض نهر الزايير الذي ازدهرت فيه صناعات «التشيتولي» المتفرعة المقتبسة عن صناعات الغابات والمناطق المشجرة من العصر الحجري الوسيط ((«سنغون — لو يمبي»)). الا أن تلك الروابط ليست واضحة، باستثناء رواندا.

ومع ذلك، توجد منطقة تختلف عن غيرها من المناطق، وهي منطقة الأراضي العالية وأراضي الرفت فالي بالكينيا. فمن المحقق أننا نجد بها في العصر الحجري المتأخر صناعات لها خصائص «ولطونية» وكذلك صناعات أخرى تغلب فيها أدوات صنعت على صفائح، عوضا عن الحجارة الصغيرة. ان تلك الصناعات التي تدعى «قابسية الكينيا»، تستعمل السبج المحلي. وهي تؤرخ بـ ١٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ان أحسن مجموعة هي التي عثر عليها الدكتور لايكي بكمباز كيف قرب نكورو في العشرينات من هذا القرن. وقد دامت هذه الصناعات المتفرعة أو المقتبسة الى أقصى نهاية العصر الحجري ولهذا «القابسي الكيني» ارتباط بتقاليد أكثر قدما كانت منتشرة في جزء كبير من افريقيا بالشمال الشرقي، في منطقة البحر الأبيض المتوسط. الا أن مقارنة الصناعة الحجرية ليست هي الأمر المهم الوحيد. فالأهم من ذلك أن نلاحظ أن «القابسي الكيني» والذين صنعوه يمثلون انتشار الحضارة السوداء نحو الجنوب الشرقي، تلك الحضارة المرتكزة على استثمار الموارد المائية. وقد امتد الانتشار إلى افريقيا مثل الوشاح، بجنوب الصحراء، وفي أعلى وادي النيل باتجاه افريقيا الشرقية.

وقد وقع ذلك الانتشار في رطبة مؤقتة، صعد فيها مستوى البحيرات والأنهار القوية وبلغت تلك الحضارة عُلاها نحو الألفية السابعة قبل الميلاد. وكان أولئك السكان الساحليون يصطادون الاسماك والحيوانات المائية مستعملين الرماح والخطافات العظمية الخصوصية المصنوعة بأدوات حجرية. ويمكن العثور عليها في منطقة بحيرة أدوارد بالرفت فالي الغربي، وبحيرة رودلف وعلى الضفاف القديمة لبحيرة نكورو. ان صناعة السّلات والفخار كانت معروفة. وكان الفخار يمثل أقدم الاختراعات لِحِمْيِ الحِرَف بالعالم. كل ذلك يبين نمط عيش قارة كان السكن الرئيسي فيها على شواطىء الماء.

العصر الحجري الجديد

إن انعدام الأدلة الأثرية جعلتنا نرى منذ سنوات قليلة أن تربية الماشية وعلى الأخص الفلاحة، كانتا قليلة التطور بافريقيا الشرقية قبل الألفية الاولى، باستثناء المواقع المحاذية لوادي النيل، والتي تنسب الى العصر الحجري الجديد للخرطوم. ولايزال من المجازفة بالرأي القول بأن مجموعات الصيادين الذين استقروا جزئيا ابتداء من الألفيتين السابعة والسادسة حول البحيرات الكبرى والانهار كانوا هم السبب في نشوء الرعي وربما الفلاحة أيضا، وذلك تحت ضغط المحيط

* في النسخة المطبوعة «سان» عوض البوشيميين

(سرعة انقلاب منطقة الصحراء الى أرض قاحلة ابتداء من الألفية الثالثة)، وبفضل ما لديها من تكنولوجية متقدمة (كانوا يستعملون الفخار). ويمكن على أية حال أن نعتبر أنهم تأثروا بتقنيات إنتاج الاغذية الجماعي (تربية الحيوانات الالفية والنباتات) التي انتشرت بالمنطقة كلها ابتداء من الالفية الثالثة وسمحت بمواجهة اثر التغير المناخي على الموارد الطبيعية.

ان اكثر المواقع شهرة بتلك الفترة، هو موقع الشهانب بالسودان، الموجود على سطح مرتفع قديم، يبعد قليلا الى الشمال من ملتقى النيل الازرق والنيل الأبيض. فلقد عثر أ. ج. أركيل، فضلا عن الصناعة الحجرية ذات الحجيرات الهندسية، على مخطافات (مثقوبة القاعدة) وضنارات صدفية تشهد بتعاطي الصيد البحري، وقاقات (Herminettes) من الريوليت، ومناقر، وفؤوس صغيرة مصقولة من العظم، وفخار منمّق حسب خطوط متماوجة ومنقطة. ومن الآثار العظمية، توجد آثار الأنواع من الوحوش، أكثرها أسماك، ولكن يوجد بينها ماعز وقليل جدا من الضأن. ويعود تاريخ موقع الشهانب الى النصف الثاني من الألفية الرابعة. أما في موقع كاديرو القريب منه من حيث المكان ومن حيث الآثار المادية، فان تسعة أعشار من البقايا العظمية هي بقايا أنواع أليفة لا سيا البقريات.

ولقد عثر في أثيوبيا، بأغردات (إريتريا) على آثار أربع قرى للاقامة النصف الدائمة. ان الأدوات، وان كانت مقصورة على الزراعات السطحية، يوجد بينها فؤوس، وهراوات من الحجر المقصول وأوان وأساورة من حجر، وفخار ذو زخرفة ناتئة، وشاريات محزوزة، ولآلىء، ولبريات (Laberts)، ومنجدات (Pendentifs) . على أن وجود طاحونات وهراسات، وتمثال صغير من حجر يرمز لبقرة ويشابه التمثالات التي يشيدها فريق من (وهم سكان مركزهم النوبة وغربيها)، كل ذلك لا يكفي كدليل على وجود اقتصاد في ميداني الزراعة والرعي. كل ما في الأمر أنه يوحي بذلك، ولقد عثر على آثار صناعة للاحجار الصغيرة الهندسية الشكل وعلى أوان من فخار، وكذلك على حبوب الذرة الألفية (Eleusine coracana). وذلك بملجأ كودبرا (الألفية الثالثة)، قرب أكسوم. ولم يعثر في أي مكان من أثيوبيا على آثار قديمة لزراعة التف (Era grostis tef) الذي ظل من الحبوب الأساسية المغذية جدا لاجناس كثيرة بشمال أثيوبيا، ولا على آثار موز الحبشة (Ensete edule) الموجود بكثرة بالجنوب كما لم يعثر على القمح ولا على الشعير.

واذا كانت الادلة على وجود الفلاحة في الكينيا ما تزال مفقودة، فان وجود الرعي مؤكد على طول الرفت فالي، حتى طانزانيا، وبالمرتفعات العليا أيضا. وهذه الادلة متمثلة في مقابر (نجورو، ريفر، كاف، قرب ناكورو، كرنكت كاف، قرب مولو، وهي مقابر تحرق فيها الموتى، نكورن كورو كراتر، طانزانيا الشمالية، قبر تحت عدوة صنعية (Cairn) ، وفيها الهيكل العظمي في وضع انطواء) ومعها أدوات «أثرية» يوجد ضمنها دائما الطاحونات والمهارس، كما أن هذه الأدلة متمثلة في مساحات سكنية (كريسن آيلند، قرب بحيرة نايفاشا، ناروسورا جنوب الكينيا) إن ٩٥٪ من الحيوانات المجموعة في ناروسورا، حيوانات أليفة وهي تتوزع كما يلي: ٥٧٪ من الماعز والضان مقابل ٣٩٪ من البقريات. ان دراسة العظام قد بينت من جهة أخرى أن أغلبية الماشية كانت تقتل مسنة وأن الماعز والضان كانا يقتلان وهما أكثر صغرا. ونستنتج من هذا ان الماشية كانت تربّى لحليبها

(أو لدمها كما تفعل قبيلة مسئيس الحالية) أكثر منه للحمه. وهنا أيضا لا يعتبر وجود الطاحونات والمهارس الا دليلا غير مباشر على نوع من الفلاحة.

ان دخول الرعي والفلاحة، المترابطين غالبا في الاقتصاد المزدوج، كثيرا ما اعتبر بالنسبة لافريقيا الشرقية على أنه ناشيء عن تأثيرين، أحدهما أتى مما أصبح الآن جنوب الصحراء، الى المنطقة السودانية، والآخر أتى من مصر الى النوبة (الخرطوم). ولقد بلغ العصر الحجري الجديد المرتفعات العالية الأثيوبية ثم انتشر نحو الجنوب اعتمادا على تحركات صغيرة يقوم بها السكان المتكلمون باللغة الكوشيتية. الا أن الانتقال الى اقتصاد إنتاجي، قد وقع، كما يقع كثيرا، بطريقة متدرجة، ولقد أتى علم الآثار بالدليل الذي يشهد بأن الطبقة السفلى قد لعبت دورا هاما في المستوى الثقافي والتكنولوجي على السواء. ولقد دام صيد الحيوانات وصيد السمك ولم تطرأ قطيعة مع الفلاحة المادية الخاصة بالجماعات الصغيرة من صيادي السمك المستقرين جزئيا قبل الألفية الثالثة، والصيادين القاطفين الذين لم يكونوا يعرفون صناعة الفخار (القابسي الكيني والمنتيتي). فان كان لا يوجد الى الآن براهين على تطور الفلاحة تطورا كبيرا، فاننا نعلم أنه سبق أن وُجدتْ وأن تربية الضان، والماعز ثم البقريات، قد تطورت تطورا سريعا ابتداء من الالفية الثالثة وخاصة الألفية الثانية. وعندما ازدهر العصر الحديدي من المحتمل أن يكون أولئك السكان قد تجاوزوا مرحلة ما قبل المرحلة الفلاحية.

تقاليد صيادي السمك بافريقيا الوسطى والشرقية

كان طقس افريقيا، منذ ثماني أو عشرة آلاف سنة رطبا جدا. ولهذا كانت البحيرات مترامية الأطراف وأكثر عددا. وكانت المستنقعات أكثر اتساعا والانهار قوية جدا وطويلة للغاية ومجاري المياه الفصلية أكثر انتظاما. وفي هذه الأحوال كان نموذج من العيش خاص جدا ومرتبط ارتباطا وثيقا بالماء، والضفاف ومواردها الغذائية، التي تستدعي تقنيات متقدمة في الصيد البحري، وصنع المراكب، قد استقر بجميع نواحي القارة، من الساحل الاطلسي الى حوض النيل، فامتد على مساحة واسعة، تنحصر بين صحراء متقلصة جدا، وغابة استوائية متسعة جدا، و يشهد على تلك «الحضارة المائية»، كما نسميها، مواقع أثرية عديدة بالأراضي العالية من الصحراء والحاشية الجنوبية من الفيافي، انطلاقا من النيجر الأعلى الى أودية الانهار (رفتفالي) بافريقيا الشرقية وخط الاستواء. فلقد عثر عليها، بالرفت الغربي في ايشنغو على الشاطىء الكنغولي من بحيرة عيدي أمين (ادوارد سابقا)، ونجد بالرفت الشرقي مواقع مشابهة على حافة خطوط الشواطىء المستحجرة الأكثر علوا من بحيرتي تركانا وناكورو. أما الاول فيقع في قعر الانهار، وأما الثاني، الذي يقع أكثر جنوبا، فهو في الجزء الجبلي من الرفت فالي. ان أكثر المواقع أهمية، والذي لا يبعد عن المكان الذي تتسع فيه بحيرة ناكورو، قد سمي كمبلز كاف، وهو في الواقع ملجأ تحت صخرة اكتشفه حوالي ١٩٢٠م الدكتور ل. س. ب. لايكي. ولقد وجد في أعماق الطبقات آثارا من «العصر الحجري المتأخر» الذي ينتسب الى «القابسي الكيني». ان وجود خزف متميز وصناعة عظمية خاصة، وتاريخ هذه الطبقة

الحديث (حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد) تسمح لنا بأن نعتبر «القابسي الكيني» شكلا محليا من التقاليد الكبرى التي يختص بها صيادو السمك الافريقيون.

ان ما وجد في المخيمات القديمة والمنازل الساحلية من حسكات الاسماك وصدفات الرخويات، وعظام الثدييات والزواحف المائية (الجرذ، وسلحفاة القصب وحتى فرس الماء والتمساح) يوحي بمعلومات اقتصادية مهمة. الا أن ذلك لا يعني أن الحيوانات البرية، لم تكن تصاد هي أيضا. ويحتمل جدا أن تكون النباتات التي تغذيها المياه الجارية والمستنقعات قد زرعت بانتظام واستهلكت. وكانت تقنيات اقتناء الاغذية وتحضيرها تتميز ببعض الخصائص المتقدمة جدا، ومن ذلك رؤوس المخطافات المنحوتة في العظم (بواسطة أدوات حجرية) وأواني الخزف. وكانت المخطافات مثبتة بطرف رمح خشبي له روابط ليفية، وكانت تصلح لقنص الاسماك وحيوانات مائية أخرى، من الفلوكات أومن الضفة. ولقد كان صنع الفخار جميلا، وكثيرا ما كان مزخرفا بحسكات سمكية، أو هدفات، أو رسوم تدعى «الخط المتموج»، «والخط المتموج المجهز». ورغم ان تحولات قد طرأت على تقاليد «الخط المتموج» «والخط المتموج المجهز»، فانه على غاية من الخصوصية، مما يمنع أن يخلط، في تلك المناطق الشاسعة، مع نماذج حديثة من الفخار. ويمكن أن تكون السلات التي كانت تستعمل لنقل الاسماك بعد صيدها، قد أوحت ببعض الرسوم المنمّقة، وكذلك بأشكال تلك الأواني الخزفية التي اتسعت فتحتها كثيرا.

ان تطور هذه الحضارة بالمواقع الموجودة على الضفاف البحيرية الشرقية الافريقية، وعلى طول النيل وبالصحراء، يمكن بأن يؤرخ بين ـ ٨٠٠٠ سنة وـ ٥٠٠٠ سنة. ولقد بلغت أوجها وازدهارها في الالفية السابعة. ويبدو أن المخطافات الأولى قد نحتت قبل ذلك بقليل، بينما لا يعود اكتشاف الفخار الى أبعد من ٦٠٠٠ سنة. ان تلك الاواني ليست أقدم أواني افريقيا فحسب، لكنها تعتبر اول الفخار المصنوع بالعالم. ومن المستبعد أن يكون ذلك الاختراع قد حدث بالمصادفة فقط في مكان ما بتلك المنطقة من افريقيا الوسطى.

ولا يوجد ما يوحي بأن أولئك السكان الساحليين قد تعاطوا، منذ سبع الى عشرة آلاف سنة، الفلاحة سواء بافريقيا الشرقية أو بأماكن أخرى من موطنهم الشاسع. لكن مدى انتشارهم، والسرعة التي وقع بها، مع اعتبار التعقد التكنولوجي لهذا النوع الجديد من الحياة، تؤكد ازدهار، تلك الحضارة وإشعاعها الثقافيين طيلة تلك الفترة ذات الرطوبة القصوى. إن اعتبارها مجرد نوع من الثقافات المعتمدة على الصيد والجمع، المنتسبة الى «العصر الحجري المتأخر» معناه تجاهل خصائصها ومنجزاتها. فمن الممكن أن أولئك السكان لم يعيشوا في قرى مستقرة بأتم معنى الكلمة، الا أنها استطاعت، بفضل مواد غذائية تضمنها البحيرات الكبرى والانهار، وتكنولوجية قادرة على استغلال تلك البيئة استغلالا مفيدا، أن تنشىء عمرانا بشريا أكثر أهمية وأكثر استقرار مما أقامه السكان السابقون. ان السكان لم يزدادوا فحسب بفضل تلك العناصر، بل سمحت هذه العناصر فضلا عن ذلك بخلق مناخ فكري واجتماعي جديد تشهد عليه الصناعات التقليدية المعقدة، الضرورية لصنع الزوارق والمخطافات والسلات والاوعية، كما أن أسلوب العيش المتطور الداعي الى استعمالها، يشهد على ذلك.

ان الدور الذي لعبته صناعة الخزف هو على غاية من الاهمية. ويبدو أنها تجاوزت ما أقره عموما

المؤرخون، وحتى بعض الأثريين. فأواني الخزف المكونة من مادة هشة، لها أهمية قليلة في المجتمعات المتحركة، التي تعوزها القواعد الثابتة، وبالتالي فإن أهميتها قليلة بالنسبة لجميع الصيادين بافريقيا. الا أن الخزف يحوي بالنسبة للمجتمعات المنظمة، معنى له شحنة حضارية تعبر عن طرق جديدة لتيسير إعداد الطعام وطبخه.

ان شكل أولئك السكان الساحليين من افريقيا الغربية والشرقية قد تطور. الا أن بقايا الهياكل العظمية المكتشفة تفيد أن الاصل كان أساسا زنجيا (٨). ويبدو أن انتشار ونجاح المجتمعات التي تستغل الموارد المائية، منذ تسع أو عشرة آلاف سنة، قد أقرا نهائيا تفوق نوع زنجي بجميع الرقعة السودانية الى النيل الأوسط والنيل الأعلى والقسم الشمالي من افريقيا الشرقية. ومن المحتمل أن هذا التفوق كان يتماشى مع التوسع الجغرافي، وتشتّت وتنوّع الاسرة الكبرى (أو الفصيلة) اللغوية التي يسميها غرينبرغ بالاسرة النيلية الصحراوية. وهي اليوم موزعة على طول المنطقة التي تبتدىء من أعلى النيجر وتنتهي بطاتزانيا الوسطى. ان ذلك التوزع يوحي بالنسبة لتلك الفصيلة المنتشرة جدا بأقدمية لها آلاف عديدة من السنوات. وهو قدم يفوق كثيرا قدم الاسر اللغوية الاخرى (مثل أسرة النيجر ــ كونكو، وعدة فروع من الاسرة الافريقية الاسيوية) التي تسربت الى تلك المنطقة من أفريقيا الوسطى. فمن المناطق التي بقي بها النيلي ــ الصحراوي، بما في ذلك فرعه الشرقي، وهو «الشاري ــ نيل» نذكر المناطق التي تكثر فيها البحيرات والبرك والانهار، أي المناطق التي استطاعت فيها حياة الصيادين المربوطة ربطا وثيقا باللغة النيلية الصحراوية كما نتصورها، أن تدوم كثيرا، حتى بعد أن طرأت عليها تحولات.

ان هذا العرض عن الحضارة الكبرى المزدهرة بالمحيطات المائية، وعن اللغات النيلية الصحراوية، قد ساقنا قليلا الى أبعد مما كان يتطلبه هذا الفصل من هذا المجلد. الا أنه جانب مهم جدا، لم يعن به الى الآن في تاريخ السكان الافريقيين. وهو من الجوانب التي تركت آثارا لا نزاع فيها في السكان التابعين، وفي ثقافاتهم واقتصادهم، وذلك على مستوى عظيم من هذه القارة بما في ذلك افريقيا الشرقية.

على أنه ابتداء من ٥٠٠٠ سنة تقريبا قبل الميلاد، حدث جفاف عام في المناخ، فنزل مستوى البحيرات نتيجة ذلك، وطرأ ركود على اقتصاد استغلال الموارد المائية. ولقد دام ذلك الاقتصاد قليلا رغم ذلك بالرفت فالي بالكينيا. وحلّ بتلك المنطقة في الألفية الثانية أو الأولى قبل الميلاد، سكان جدد من اثيوبيا، وماشية، وربما بعض العادات الفلاحية.

(٨) الملاحظة المطردة والمتعلقة بالاصل الكوكازي لسكان «الكيبي القابسي» تعتمد على تأويل باطل الأعمال لايكي في كمبلزكاف وغيره.

أفريقيا الجنوبية قبل التاريخ

بقلم: ج. دسموند كلارك

البشريات الأولى

كان داروين وهكسلي يعتبران أن المناطق المدارية، وربما القارة الإفريقية كانت مسكن الإنسان الأصلي، لأننا نجد فيها الشمبنزي والغوريلا، وهما أقرب الأقارب اليه بين المقدمات البشرية. ان تلك البنجديات، وكذلك الجد المشترك للقردة الشبيهة بالانسان وللانسان هي من الشجزيات. أن خصائصها المرفولوجية تبين أن تطورها كان قد جرى اثناء حقبة طويلة جدا من التكيف مع الغابات المدارية، وذلك بالاراضي المنخفضة والجبال المتوسطة الارتفاع. أما الإنسان، فانه لم يتطور في الغابة بل في السباسب، ولقد عثر بافريقيا الشرقية والجنوبية، على البشريات الاحفورية القديمة جدا، وذلك في المروج النصف الجافة والغابات القليلة الأشجار ذات الاوراق الناقصة ويحتمل أن يكون أجدادهم قد واجهوا مشاكل خاصة للبقاء على قيد الحياة وقد توفرت لهم موارد تفوق كثيرا بتنوعها الموارد التي توفرت للقردة الشبيهة بالإنسان.

لم يحصل الى الآن اتفاق حول العهد الذي تميزت فيه فصيلة البنجديات عن أسرة البشريات. ان الإعتماد على تأويل الشواهد الاحاثية، يفيد أن ذلك التميز قد حصل في السينوزئيك القديم أثناء الميوسين الاسفل، وذلك منذ ٢٥ مليون سنة وعلى النقيض من ذلك فان الأعمال الجارية بالاعتماد على البيوكيمياء المقارنة للمقدمات البشرية (الصبغيات، بروتينات المصل، واليحمور، (هيموغلوبين) والفروق في المناعة بين الإنسان والقردة الشبيهة بالإنسان وقردة العالم القديم) تبين أن التميز لم يكن سابقا لعشرة ملايين من السنوات، وحتى لاربع منها. وكان يظن أن العلامات الملحوظة على الأحفورات نفسها قد يكون أكثر افادة. ولكن ذلك لم يتحقق بتاتا مع

الاسف. فاذا أعتبرنا أن الترتيب التاريخي الطويل صحيح، فان الحقبة الاساسية التي كانت البشريات قد تميزت فيها تميزا محسوسا عن سلالة القردة الشبيهة بالانسان، من الميوسين الحديث والبليوسين القديم (من ـ ١٢ مليون سنة الى ـ ٥ ملايين سنة) لم توفر لنا إلى حد الآن الا أحفورات قليلة عن البشريات بافريقيا. فلم تتوفر لنا الا في آخر البليوسين مواد متفرقة، ويمكن أن نعتبر أن البشريات الاحفورية في تلك الفترة أمر لا يشك فيه.

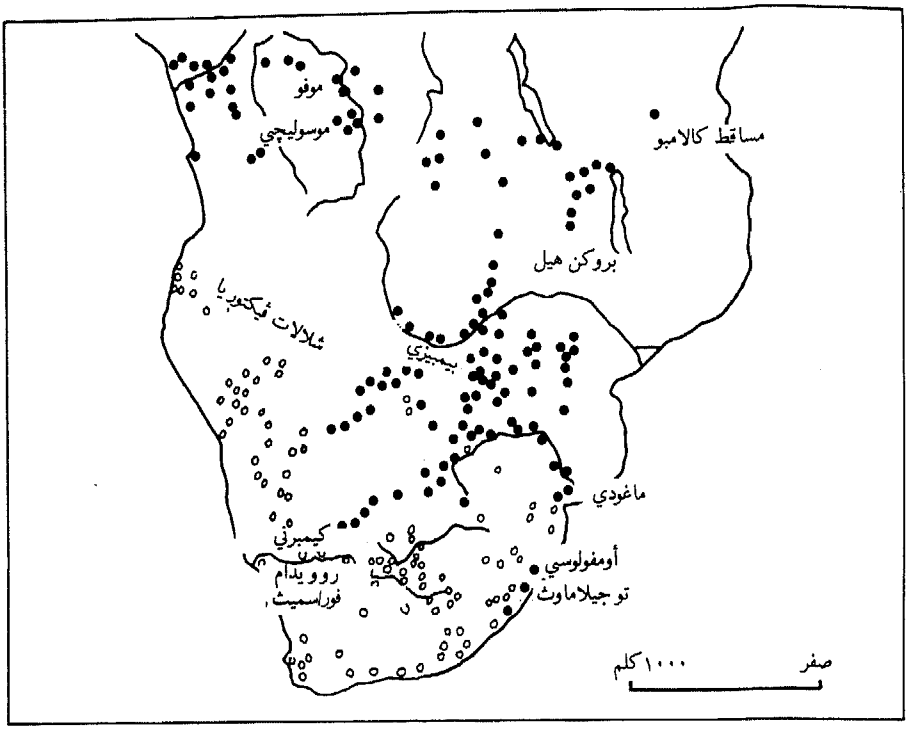
أن قرد راما فكري، الأحفوري من الميوسن الحديث، أكتشف في فورترنان بحوض بحيرة فكتوريا و يعود تاريخه الى ١٢ ــ ١٤ مليون سنة. فلا نعرف منه مع الأسف إلا أطرافا من الوجه والأسنان، ولكن خصائص تلك الأطراف تدعو الى تصنيفه ضمن البشريات غير أن التيقن من أن باقي جسمه ونظام تنقله لا يختلفان أساسا عما هما عند البشريات، يستوجب وجود آثار أقل تقطعا ولا سيا عظام قاعدة الجمجمة. ولذلك وجب مع الاسف أن نعلق حكمنا موقتا قبل القول بأن هذا النموذج قد تميز تميزا كافيا بصفته من البشريات: وكان قرد راما يعيش في الغابات الشبيهة بالسرداب وفي مجاري المياه والسباسب وذلك في وقت كانت فيه الغابات الدائمة التي لم يبق لها أثر الا بجنوب المنحدر الكبير من جنوب افريقيا، أوسع مما هي عليه اليوم. ولما كان وجود قرد راما ثابتا بافريقيا الشرقية وبالشمال الغربي من الهند، فهو اذن محتمل الوجود بالسباسب من افريقيا الجنوبية.

ان الإشارات الاولى التي تدل دلالة قطعية على وجود البشريات تعود الى خمسة ملايين سنة، وهو عهد كانت فيه قردة الجنوب، أو (البشر القردة) موجودة بالقسم الشرقي من الوادي الكبير من الرفت. ان أولئك البشر القردة كانوا يقيمون بسباسب افريقيا سواء الجنوبية أو الشرقية و يعتقد أن أقدم أحفورات افريقيا الجنوبية ترجع الى آخر البليوسين أو البليستوسين القديم، أي ــ ٥ر٢ الى ــ ٣ ملايين سنة.

لقد عرف أكبر جزء من الحقبة الجيولوجية للبليوسين مناخا قارا نسبيا قد يسر تطور وتوسع انواع متكيفة بيولوجيا في السباسب. ولقد قضى على ذلك الاستقرار النسبي انخفاض الحرارة العام، والانقلابات البنوية والظواهر البركانية، وذلك على طول الوادي الكبير من الرفت خاصة، وطرأت في ذلك العهد تغيرات عظيمة أحيانا على نظام تصريف المياه الخاص بعدد من الأحواض النهرية والبحيرية وذلك أثر التواء بنيوي بالقشرة الأرضية. ووافقت الحرارة المنخفضة التي تدل على بداية البليستوسين نقصا في نزول كميات الامطار وتجففا، مما جعل أدغال كرو تتوسع كثيرا بافريقيا الجنوبية على حساب المروج والغابات.

ان هذه التغيرات الهامة بالمناخ و بالمحيط قد فرضت على البشريات تعديلات مهمة وتنوعا في الشكل مصاحبا دعت اليها ردود فعل بغية التكيف مع الضغوط الجديدة بتلك البيئة (١) فمن الثابت أن جد البشريات (سواء أكان ذا أربع أرجل أو رجلين) لمّا فارق الغابة في ذلك العهد نحو

(١) تعتبر لنغبافيغ، بافريقيا الجنوبية، غربي مقاطعة راس الرجاء، الجهة الوحيدة المهمة التي وفرت أحفورات من ذلك العهد. فالموقع ليس بعيدا عن الشاطئ، والمحيط هو محيط أرضي ومصب نهر. وتوجد به حيوانات ثديية افريقية وافرة أشكالها عتيقة، يقدر تاريخها بـ ٣ الى ٥ مليون سنة. فان لم يعثر بها على أثر بشري، فانه توجد بها أحفورات مقدمات بشرية ويحتمل أن تكشف أعمال آتية في لنغبافيغ عن آثار بشرية يمكن مقارنتها بالآثار الموجودة بافريقيا الشرقية من نفس العهد.





● ١ توزيع مواقع فورسميث (الدوائر المفرغة) والمواقع السانجوية (الدوائر المصمتة) في أفريقيا الجنوبية (شكل ٢١ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» (بالانجليزية) لمؤلفه ج. د. كلارك، ١٩٧٠، دار نشر تيمس وهدسون، لندن).

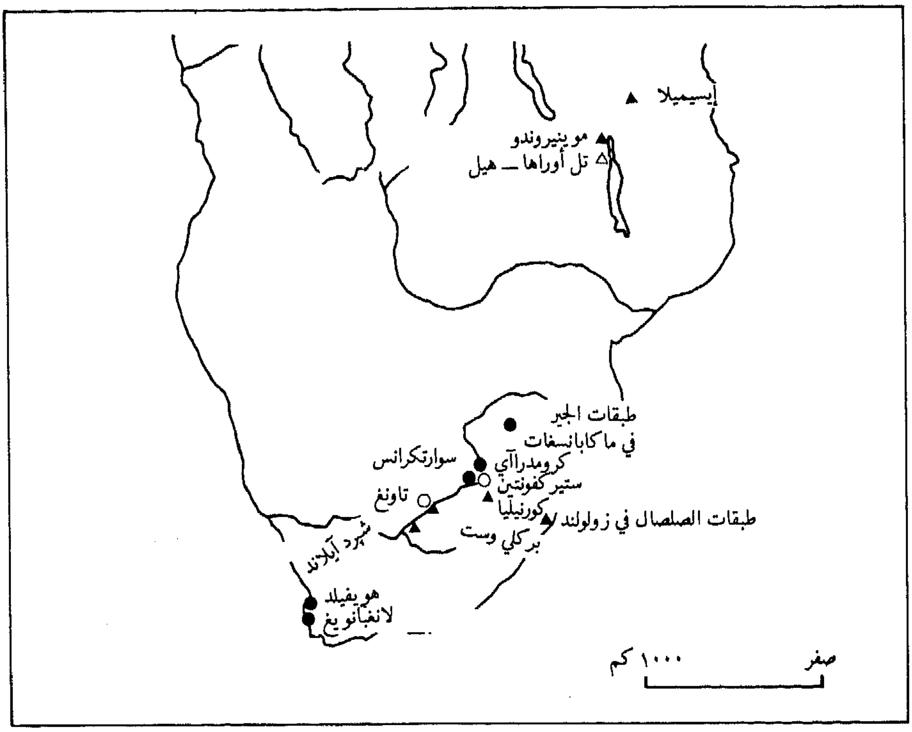
● ٢) مواقع الانسان في عصر البلايستوسين الاعلى (الدوائر المصمتة) وبعض مواقع الانسان الاحفوري في عصر ما بعد البلايستوسين (الدوائر المفرّغة) في أفريقيا الجنوبية (شكل ٢٥ في الكتاب المذكور في تعليق الصورة رقم ١ أعلاه).

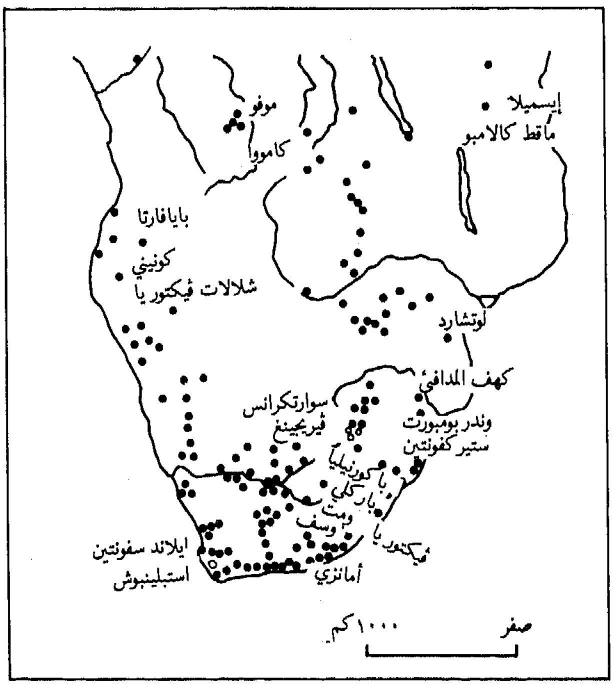
السباسب، وذلك في فترة من البلوسين، أو ربما قبل ذلك، كان قد خضع لتطور وراثي سريع نسبيا يسمح بتكيفه مع ظروف بيئية جديدة. ولذلك يمكن لنا بالنسبة للبليستوسين الأسفل أن نضبط ثلاثة أشكال متمايزة من البشريات بافريقيا الجنوبية، يحتمل أنها كانت من نفس النوع، وكانت متكاثرة فيما بينها.

أن اول أحفور عن الإنسان القرد، وهو طفل، وقد استخرج سنة ١٩٢٤م من ثغرة مسدودة بالكلس بكهف، وذلك في تنغ، شمال مقاطعة رأس الرجاء الصالح بجنوب افريقيا. وفي ١٩٣٦م عثر على أول انسان راشد، في الترسبات القديمة بأحد الكهوف، ولكن هذا الإكتشاف وقع في هذه المرة بولاية ترانسفال، بمنطقة كروغزدرب. ولقد عثر منذ ذلك الحين على بشر قردة عديدينَ وعلى بشريات أخرى بالإعتماد على أعمال جماعية مكثفة، قد أجريت في مستوى الرواسب التي جمعتها المياه بحوض الرفت بافريقيا الشرقية و بالكهوف العميقة من النجد الكلسي بجنوب افريقيا التي كانت فيها الاحوال تساعد على المحافظة على الأحفورات من ذلك العهد.

و باستثناء تلك المناطق، فان الاحفور الآخر الوحيد الذي نسب إلى الإنسان القرد، أصله من كوروتورو بحوض بحيرة التشاد. إلاّ أن هذا النموذج يعتبر أكثر حداثة. ولهذا فان كان عدد كبير من الأحفورات الإنسانية القردية معروفا، فان أماكنها الأصلية محدودة. وقد عثر على الاغلب منها في كهوف جنوب افريقيا، وفي مناجم الرفت فالي، لأن الأحوال المناسبة للمحافظة على الأحفورات العظمية قل أن تتوفر. ان حموضة التربة، والإجتراف، وعوامل أخرى قد منعت المحافظة عليها في مناطق كثيرة بافريقيا، مثلا بالغابات الكثيفة بافريقيا الغربية. الا أن ذلك لا يمنع من أن نعتقد أن أنواعا عديدة من البشريات المتميزة كانت منتشرة منذ مليونين أو ثلاثة ملايين سنة، بالسباسب المدارية. أمّا في إفريقيا الشرقية، فان تاريخ الأحفورات يزداد دقّة بالاعتماد على الطرق الراديومترية وعلى تاريخ التعاكسات الاحاثية المغناطية. ولم تؤرخ أحفورات جنوب افريقيا الى الآن الا بحساب التاريخ النسبي استنادا الى مقارنات أحاثية وجيومرفولوجية. ان آخر الدراسات المعتمدة على الخنزريات والفيلة والضباع، توحي بأن أقدم الأحفورات بترنسفال تؤرخ على الأقل بمليونين ونصف مليون من السنوات. إن ثغرات الكهوف التي وفرت هذه الأحفورات، وكذلك مقالع الجص في ماكابان والمنجم النموذجي في ستركفونياين، تشمل بعض الأنواع الثديية الموجودة بالمجموعات الحيوانية بافريقيا الشرقية. فهي توفر خصائص مرفولوجية تشابه خصائص أحفورات الحدود البليو — بلستوسين.

إن أقدم البشر القردة بجنوب افريقيا كانوا في أكثرهم من ذوي مرفولوجية ممشوقة (الإنسان القرد الإفريقي). ان معدل قامتهم ١،٤٠ من المتر، وكانوا عمودي الإستقامة، وكانت أعضاؤهم السفلى ملائمة للمشي على الرجلين تماما، وكانت أعضاؤهم العليا متخصصة لاستعمال الأدوات. وكان الرأس متمركزا في قمة العمود الفقري القائم على حزام حوضي له شكل إنساني تماما. وتقرب السعة الجمجمية عندهم من سعة جمجمة الغوريلا (٤٥٠ الى ٥٥٠ سنتم مكعب) أكثر مما تقرب من سعة جمجمة الإنسان العصري، وان كان هيكل ما وراء الجمجمة والاسنان يوحي بشكل إنساني تماما. الاّ أن الوجه كان قرديا، والقسم الأسفل أدفق (Prognathe)، والوجنتين بارزتين،





● ١) المواقع الرئيسية لوجود الحيوانات الاحفورية (المثلثات المفرغة) والانسان الاحفوري (الدوائر المفرغة) في نهاية البلايستوسين، وفي بدايته (المثلثات والدوائر المصمتة) في أفريقيا الجنوبية.

● ٢) توزيع المواقع الأشولية الرئيسية في أفريقيا الجنوبية. الأشولي الادنى = الدوائر المفرغة، الأشولي الاعلى = الدوائر المصمتة. (الشكلان ٩ و١٨ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» بالانجليزية، تأليف. ج. د. كلارك ١٩٧٠، دار نشر تيمس وهدسون، لندن).

و يعلو الوقبين انتفاخ كبير وتدل نقاط الارتباط بين عضلات العنق وعضلات المضغ على ان هذه العضلات الأخيرة كانت قوية جدا.

وفي المناجم الأكثر حداثة بكهوف سوارنكرنس وكرومداري (ومن المحتمل جدا في تتغ، كما يظن اليوم) فان النوع الغالب هو أكثر قوّة (الإنسان القرد القوي). ان الامر يتعلق بافراد أثقل بكثير، يزنون ٦٨ كلغم. ويختص الذكور الكبار بعرفين عظميين، أحدهما بقمة الجمجمة والآخر بقاعدتها، و يسمحان بالربط بين العضلات القوية للعنق والعضلات الماضغة. وكان يعتقد على العموم أن كل الأشكال الأكثر قدما كانت ممشوقة (الانسان القرد الإفريقي) وأن أحدثها كانت قوية (الإنسان القرد القوي). إلا أن دراسات أنثروبومترية حديثة تبين أن الفارق ليس واضحا بقدر ما كنا نعتقد. ومن المعلوم اليوم أن النماذج القوية المشوقة قد تكون متعاصرة. وذلك هو الشأن بأحد مناجم جنوب إفريقيا على الأقل (ماكابن). وكذلك الشأن بالنسبة للبليستوسين الأسفل بافريقيا الشرقية. إن الأحفورات المجموعة بتلك المنطقة تفيد أن الاختلاف الطارئ على السلالتين انطلاقا من سلف مشترك ممشوق، كان قد وقع منذ ٥ ملايين سنة.

واكتشفت حديثا، أي سنة ١٩٧٢م بالشمال الشرقي من بحيرة تركانا، جمجمة أحفورية (سعتها: ما يقرب من ٨١٠ سنتم ٣)، وعظام طويلة وقطع جمجمية أخرى وما وراء جمجمة تؤرخ بـــ ـ ٣٫٠ الى ـ ٢٫٦ مليون سنة. ولتلك الآثار صلات عديدة بالإنسان وتشهد بخصائص (لا سيا بالوجه والاسنان) تربطها بالإنسان القرد. واكتشفت بمناجم أخرى من إفريقيا الشرقية، لا سيا بفج أولدو واي (طانزانيا) أحفورات أخرى تنسب إليها، لها سعة جمجمية كبرى، وتصنف سواء كقرد جنوبي متطور أو كانسان قديم (أي الإنسان الماهر). ويمكن أن نؤرخها بين ـ ٢ و ـ ١٫٧٥ مليون سنة (٢) ويحتمل أن يكون وجد شكل قديم من الإنسان في نفس العهد بافريقيا الجنوبية. فلم يبق الا أن نكتشف أحفوراته الخاصة به. و يصبح هذا الإحتمال ممكنا إثر الإكتشاف الذي وقع بهدر سنة ١٩٧٥م، بالجنوب الاثيوبي من الرفت فالي، المعروف بمثلث عفر، فعثر على أحفورات بشرية يعود تاريخها إلى ٣ ملايين سنة. و يقترح الدكتور د. يهنسن أنه يمكن أن ينسب الافراد الاثنا عشر إلى ثلاثة ضروب متميزة أولها بشري رشيق يمثله هيكل عظمي حفظ حفظا جيدا، وثانيها شكل قوي يشابه الإنسان القرد القوي وثالثها شكل ضبط بفكه الأسفل وفكه الأعلى، وهو أقرب إلى الإنسان العارف. فان تأكد هذا، فهو يعني أن سلالة الإنسان، قد تميزت عن الإنسان القرد منذ ٣ ملايين سنة.

نمط عيش البشريات الأولى

بالرغم من أن عددا من الأحفورات البشرية للانسان القرد قد اكتشفت بكهوف جنوب

---

(٢) يعتبر الآن ان القطعة الوجهية والحنك الموجودين بشسونغ، بحوض بحيرة برنكو تعود الى أكثر من ٣ ملايين سنة. ونظرا الى أن تلك القطع لها بعض خصائص تقترب من خصائص الإنسان (وهو نوع غير محدد)، يمكن أن تكون غير بعيدة عن العهد الذي بدأت فيه سلالة الانسان تتميز عن الإنسان القرد.

افريقيا، فمن المستبعد، بل من المستحيل، أن تعتبر المواقع التي وجدت بها هي مواطن اقامتها. لقد مضى زمان كان يعتقد فيه أن الكهوف العميقة الكلسية بترنسفال كانت مساكن للبشريات، وأن العظام التي تحويها كانت بقايا حيوانات جلبتها البشريات لتصنع منها أسلحة أو وسائل أخرى. لكنه يمكن أن يكون نتاج تلك «الصناعة العظمية الإنسانية القرنية» بقايا طعام قد تركها بعض أكلة اللحوم. فلقد بينت دراسة دقيقة للبقايا الحيوانية بمنجم سوارتكرنس أن تراكم أحفورات الإنسان القرد وثدييات أخرى بالكهوف يمكن أن تكون ناشئة عن أسباب مختلفة أوضحها في هذا الصدد ما كانت تنهبة آكلات اللحوم الكبيرة، ولعلها الفهود أو النمور. لكل الاتفاق في شأن هذه النقطة لم يتحقق (انظر الفصل ١٧، القسم الثاني).

ونظرا الى أن كل مادة معرضة سريعا للتلف، الا اذا توفرت ظروف استثنائية، فلم تحفظ الا أدوات الإنسان الاولى التي صنعت من حجر. والحقيقة أنه لم تكتشف اية أداة حجرية لها هذا الوصف، بثغرات الكهوف التي وجدت بها أحفورات أقدم البشريات بجنوب افريقيا (ماكبن، ستركفنتاين) وان عرفت أدوات حجرية في مناجم ثلاثة للبشريات بافريقيا الشرقية قدر تاريخها بمليونين ونصف من السنوات قبل الميلاد أو أكثر. ولقد كانت مواقع الاقامة بافريقيا الشرقية قريبة من بحيرة أو من مجرى يصب في بحيرة. وهي تعرّف بما يتجمع فيها من العظام والأدوات الحجرية. ان تعدد الأنواع، وعدد الحيوانات التي تشهد بها العظام المهشمة تهشيا كليا الموجودة بتلك المناجم، تجعلنا نتيقن أننا إزاء آثار نشاط جماعي (الصيد/أكل الجيف) قامت به البشريات التي كانت تستعمل الأدوات الحجريةِ لتقطع من بين ما تقطع اللحم والعظام والنباتات التي كانت تمثل القسط الأوفر من غذائها. ان تنوع تلك الآثار وحالة حفضها يجعلاننا نفكر في أن تلك المخيمات قد احتلت مرات عديدة لا إثر وقفة عبور. الآ أننا نعرف أيضا «مواقع للذبح» عثر فيها على بقايا حيوان واحد كبير الحجم اشتركت مجموعة في تقطيعه. ان المساحة المحدودة على العموم، والتي وجدت البقايا المتروكة بالمخيمات توحي بأن المجموعة كانت قليلة العدد ولا تشمل أكثر من أسرتين او ثلاثا. أما دور القتالين النهابين الذي كثيرا ما ينسب الى البشريات الاولى، ففيه خلاف، إذ من المحتمل جدّا أنهم، في سعيهم للحصول على غذائهم من اللحم، لم يكونوا أكثر عدوانية من الحيوانات آكلة اللحوم الاخرى. ولا شك أنهم كانوا أقل منها عدوانية، لأنهم لم يكونوا مربوطين باللحم فقط، بل كانوا يستعملون أيضا الموارد النباتية. لكن من الواضح أن تنظيم الصيد هو الذي دفع البشر الاولين الى ابتداع نظام اجتماعي اقتصادي أكثر هيكلية. وذلك ما فعلوه اعتمادا على مهارتهم في صنع أدوات لها أهداف محددة. ففي افريقيا الشرقية تبين آثار مخيماتهم التي يجلبون إليها بانتظام نتاج الصيد والجني. أن البشريات من البليوسين الأخير والبليستوسين الأسفل. كانوا حسبا يبدو منظمين حسب فرق إجتماعية يخضع تركيبها لتغيرات كثيرة. ان توزيع الطعام، وكذلك المدة التي يخضع فيها الصغار لأهلهم من أجل تغذيتهم وتكوينهم (مثل الطفل حاليا) كانت تضمن وحدة تلك الفرق ويحتمل أن يكون الصيد واستهلاك اللحوم قد جعلا البشر الأولين يصنعون الحجر لإنتاج شظايا حادة، لأنّ الصيد كان يستوجب تنظيا وتواصلا ناجعين بين المشاركين، وذلك من شأنه أن يقود في النهاية الى تطور الكلام. فلقد وقع في ذلك العهد تقريبا تقسيم الأشغال بين الرجال والنساء، فكان الأولون يصطادون وكانت النساء تهتم بالجني و برعاية الأطفال.

فـان كـانـت كـهـوف تـرنـسفال لم تصلح مسكنا للبشريات بل كانت مستودعات لغذاء أكلة اللحوم ـ وربما كـانـت الـبـشـريـات نفسها من ضحاياها ـ يحتمل ان الناس القدرة قد كانوا عاشوا بـالـقـرب مـن تـلـك الأمـاكـن، لأنه عثر بالثغور الأكثر حداثة من مجموع كهوف ستركفنتاين (سوار تكرنس، ستركفنتاين، اكستنشين سايت، وكرمداري) التي يمكن أن تؤرخ بـ ١٫٥ مليون سنة، على أدوات حجـريـة بدائية، ممزوجة بالاحفورات. لقد صنعت تلك الادوات من صخور توجد بالاماكن المجاورة الـقـريـبـة مـن الكهف. وهي حصاة من الصوان، والمرو، والدياباز، ولعلها مجلوبة من مخيم مجاور.

ان أكثر بـقـايـا الـبـشـريـات الموجودة بالثغرات الحديثة من سوار تكرنس وكرمداري تنتسب إلى الإنـسـان الـقـرد الـقـوي. والرأي السائد انه كان صانع تلك الادوات. و ينطبق نفس الشيء على سـتـركـفـنـتاين (اكستنشين سايت). الا أنه اكتشفت بترسب سوار تكرنس قطع عظمية من جمجمة ومن بعض العظام من وراء الجمجمة تنتسب للانسان العارف، ولا شك أن الأمر يمكن أن يستدعي نسـبـة تـلـك الادوات الـيـه. وذلـك لا يمنع ان الناس القردة كانوا قادرين على صنعها. فلقد بينت تجربـة طـريـفـة أجريت، حديثا ببرستل أن قردا اورنع — اوتنع صغيرا كان قادرا على إنتاج شظايا يحصل بها على القوت بعدما لقن الطريقة و بعد أن أدرك ما يمكن أن تستعمل له. ونظرا إلى أننا نجد في افريقيا الشرقية والجنوبية أحفورات لأناس قردة وللانسان في نفس الأماكن وأنهم كانوا يعيشون في مـنـاطـق بـيـئـوية متشابهة، بل متماثلة، فيحتمل أيضا أن يكون الانسان القرد القوي قد اكتسب المهارة الـكـافـية لصنع أدوات بسيطة تشابه الادوات التي تنسب إلى أقدم الصناعات المعروفة، أي الأولـدووائي، وإن كـنّـا نشك ان كانت له الملكة الذهنية لصنعها لأن صنع الادوات كانت بحسب أشكالها القديمة المنسوبة للانسان (الماهر وغيره) تعود الى مليونين ونصف مليون من السنين.

الادوات الحجرية الأولى: الصناعات الأولدووائية

رغـم أن أدوات الإنـسـان الاولى التي بـلـغـتـنـا كانت من حجر، فلا ننس أن أدوات أخرى خشبية وقـرنـيـة، وعظمية، وجلدية الخ، كانت أيضا مستعملة. ويحتمل أن حقبة استعمال الادوات التي لم تتغير فيها الا قليلا أشكال الاشياء المناسبة لها، كانت قد سبقت الصنع المقصود مع العزم على إنتاج عـدد صـغـير مـن أنـواع الأدوات المـعـينة بالإعتماد على مواد، قد لا تصلح للاستعمال ان لم تحور. ان شكلها كان قابلا، بعد التقطيع أو أي تحوير آخر، ان يتحسن بالتسوية. فلقد كانت أدوات الحجر من البداية تشهد على قدرة البشريات على نحت المواد وعلى استيعاب قواعد تقنياتها.

لـقـد سميت أقدم الصناعات الحجرية المعروفة في العالم كله بالصناعات الاولدووائية نسبة الى فج أولـدووائي بـطـانزانيا. و يعود تاريخ أقدم نماذج افريقيا الشرقية إلى ٢٫٥ مليون سنة (٣). ومن

(٣) أرخـت أدوات الـتـف (ك. ب. س) بـكـوبي فـورا) ب ٢٫٦ مـلـيـون سـنـة حـسـب طـريـقـة ك/از (البوطاسيوم/ارغن) لضبط الـتـوار يخ. الا أن نتائج حديثة، وكذلك التوافقات الحيوانية مع تشكل شنجورة في أومو، وتشكل كوبي فورا ببحيرة تركانا توحي بأنه بولغ في قدمها وأنه يصح أن تؤرخ بـ ١٫٨ مليون سنة.

الممكن أن تكون بعض الاكتشافات الموجودة بالحصباء النهرية القديمة (حصباء فال أو الزمبيزي) أو على الشواطىء الصخرية الجافة بسواحل افريقيا الجنوبية، تنسب أيضا إلى ذلك العهد نفسه. ولما كانت تلك الادوات لم يعثر عليها ضمن طبقية أرضية متصلة بعناصر تسمح بتأريخها، فلا يمكن لنا أن نطلق حكما في شأن قدمها، اذ يمكن الا تكون قديمة جدا. وكان من المنتظر أن يشتمل رفت المولوي، مثلما هو الشأن في الوادي الكبير لرفت افريقيا الشرقية، على أدوات من ذلك العهد، وعلى عدد متساو من أحفورات البشريات. لقد وفر الطرف الجنوبي من الملوي فعلا مجموعة من الآثار الحيوانية التي يعود تاريخها الى البليو - بليستوسين، وهنا يشكل الصلة الوحيدة المهمة بين آثار الشرق والجنوب من افريقيا. الاّ أن تلك المنطقة، لم يسكنها الانسان وذلك لأسباب غير معروفة بعد، الا مؤخرا. ولا نجد بها الا آثار قليلة عن المقدمات البشرية، وذلك بالرواسب من تلك الاحواض العميقة بالغور الجنوبي.

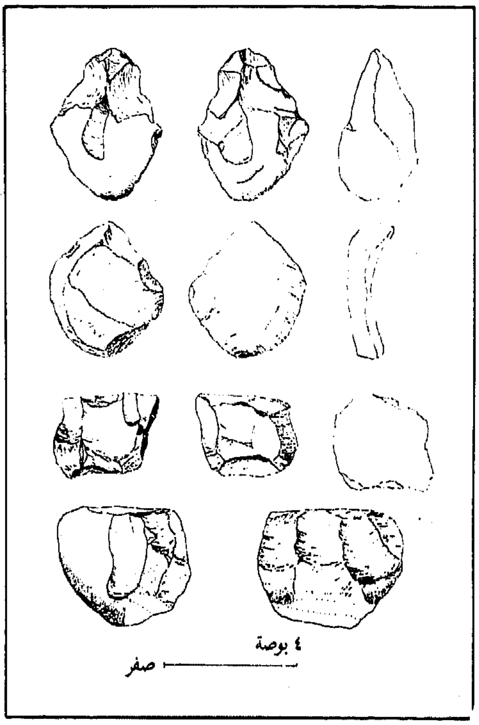
إن الأدوات التي عثر عليها في المناجم الحديثة للانسان ـــ القرد (سوارتكرنس، ستركفنتاين «اكستنشين وكرمداري»)، قرب كرو غردرب توفر أنواعا مختلفة. فنها سواطير صنعت بنزع شظايا من وجه أو وجهين من حصاة أو كتلة صغيرة للحصول على حافة قاطعة غير منتظمة. ومنها صفحات عليها آثار قرع تدل على الصنع بالطرق العنيف، ومنها أدوات قاعدتها منبسطة وحافتها معكوفة منحنية لها حافة حادة مكشطة ومنحوتة في جزء من دائرتها، ومنها شظية للتقطيع والتجزئة، ومنها بقايا حجرية قطعت منها تلك الشظايا قصدا. ان الشظايا والبقايا المنحوتة قليلة بصورة عامة في ستركفنتاين اكستنشين وسوارتكرنس، وتلك حجة أخرى للافتراض بأنها لم تكونا موطني اقامة. الا أنه على قدر ما يتقدم الحفر الشامل للثغرات بالموقعين و يبرز مجموعات أكثر اكتمالا، من المنتظر أن نعلم أكثر مما نعلم عن أدوات البشريات الاولى.

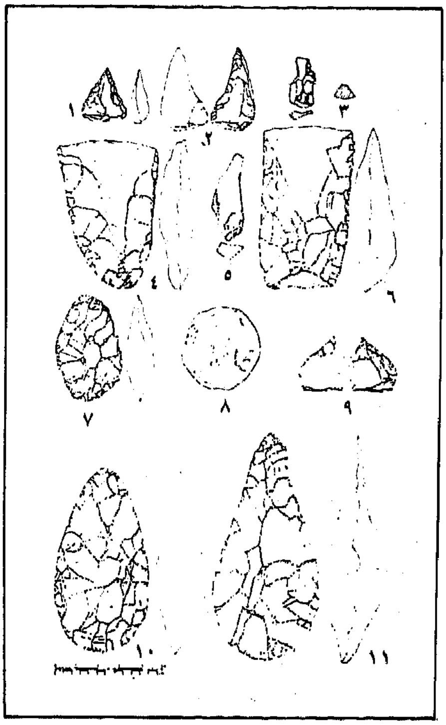
ان أدوات جنوب افريقيا تمتاز، بالمقارنة مع صناعات مناجم افريقيا الشرقية بخصائص قريبة الى صناعات الاولد ووائي الحديث أكثر من صناعات القديم منها. ولذا فهي تنتمي الى الأولدووائي المتطور. إن الأولدووائي المتطور الأكثر قدما بافريقيا الشرقية يعود الى ١٫٥ مليون سنة ومن الثابت اليوم، باعتبار الحيوان الأحفوري، أن مناجم الإنسان القرد الحديث بجنوب إفريقيا ترجع إلى نفس العهد (٤). ولذلك توجد سلالتان متمايزتان جدا من البشريات. أولهما سلالة الإنسان القرد القوي وثانيتهما تناسب النماذج الأولى من السلالة الحقيقية للانسان.

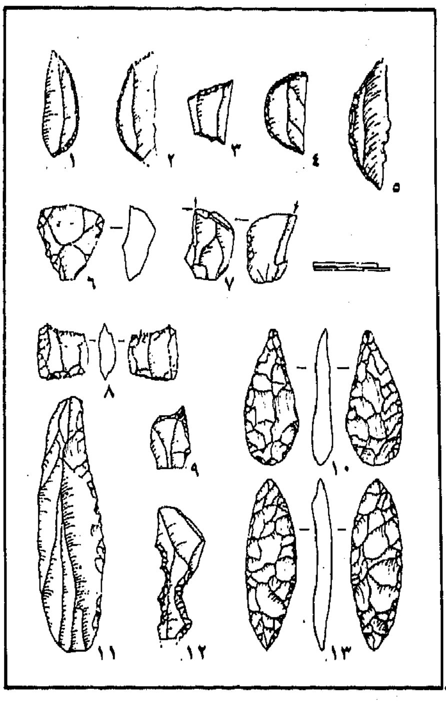
المركب الأشولي

برزت في ذلك العهد تقريبا صناعة ثانية تدعى الصناعة الاشولية، تختص بأدوات قاطعة كبيرة تعرف باسم ذوات الوجهين والقدومات. ان تلك الصناعة تتميز عن صناعة أولدووائي بكبر حجم الأشياء التي صنعت من شظايا كبيرة يستدعي قطعها من كتل أو من فهر القوة والمهارة، وعلى

(٤) لقد أعلن الدكتورس. ك.. براين حديثا أن أقدم ثغرة تحوي بقايا الإنسان القرد والإنسان، يمكن أن تقسم حسب مستويين. المستوى ١، وهو أقدمها، وقد عثر فيه على الانسان القرد القوي والإنسان العارف وعلى أداة واحدة من الحجر لا شك فيها. أما المستوى ٢، وهو أكثر حداثة، فهو يحوي الإنسان العارف وصناعة حجرية تشمل قدومين أشوليين و يعود تاريخ هذا المستوى ٢ الى ٥٠٠٠٠٠ سنة (س. ك. براين ـــ رسالة شخصية).







٣

● ١) الاشولي الادنى، ستير كفونتين: أدوات ثنائية الوجه، مشظّاة مكعبة الشكل ونويات (شكل ٨٣ في كتاب «ما قبل التاريخ في الترنسفال» لمؤلفه ر. ماسون، بالانجليزية ١٩٦٢، مطبعة جامعة و يتووترسراند، جوهانسبرغ).

● ٢) أدوات من الاشولي الاعلى، مساقط كالامبو. الادوات الكبيرة من الكوارتزيت والصغيرة من السيلكس الاسود:

١ ــ مكشط محدّب، ٢ ــ مكشط مقعّر، ٣ ــ مكشط مسنّن، ٤ ــ فأس ذات أشواك متنافرة الاتجاه، ٥ ــ سكين مشظّاة ذات حواف مثقفة، ٦ ــ فأس ذات أشواك متوازية، ٧ ــ أداة بيضاوية ذات حدين، ٨ ــ أداة كروية، ٩ ــ مخرز: ١٠ ــ أداة بيضاوية ذات حدين وشكل مستطيل، ١١ ــ أدات بيضاوية مسحوبة ذات حدّين. قبل الزمن الحاضر بأكثر من ١٩٠٠٠٠ سنة.

● ٣) أدوات من مواقع هوو يسونسبورت: ١ و٢ و٣ و٤ و٥: قطاعات من دائرة ذات حافة مشطوفة، ٦ ــ نواة ليڤالوا، ٧ ــ ازميل، ٨ ــ أدة قشر، ٩ ــ مشقاب، ١٠ و١٣ ــ مخارز أو ابر ذات وجهين، ١١ ــ مكشط، ١٢ ــ مكشط ثنائي. والعيّنات ٢ و٣ و٥ من هوو يسونسبورت، أما العينات الاخرى جميعا فهي من مغارة النفق. الشكل ٨٤ من كتاب «أركيولوجيا العصر الحجري في أفريقيا الجنوبية ــ بالانجليزية» تأليف س. ج. سامبسون، ١٩٧٤، المطبعة الأكاديمية، نيو يورك).

العكس من هذا، فإن الأدوات الأولدووائية يمكن أن نضعها في كف اليد، وأن نضعها بين الابهام والأصابع في الأعمال الدقيقة. لقد اعتبر الأولدووائي المتطور والأشولي صناعتين متعاصرتين تكتشفان أحيانا في شكل أولدووائي محض أو أشولي محض، واحيانا متمازجين حسب نسب متغيرة في نفس الموقع. ولقد أولت تلك التقاليد التكنولوجية تأويلات متنوعة. و يقال انها من صنع البشريات المنتسبة الى أنواع مختلفة أو أنها نتاج نشاط متنوع يستدعي أدوات مختلفة تناسب سلوكا متميزا (انظر الفصل ١٩). إن تلك التقاليد مازالت قائمة وهي موجودة في مركبات عديدة الى حوالي ٢٠٠ ٠٠٠ سنة أي بعد مدة طويلة من انقراض الانسان القرد القوي الذي كان سببه الصراع مع الإنسان ونحن نفضل أن نفسر ذينك النوعين من الأدوات المتمايزة باختلافات ناشئة من نشاط أو من طريقة استثمار للموارد، أو باختيارات مركزة على ميول شخصية علما بأن الأهالي من البشريات كانوا يصنعون تلك الأدوات بحسب الظروف. ان بروز الأشولي بصورة مفاجئة نسبيا يبين اذن أن موارد جديدة أصبحت تستغل، أو ان طرقا محسنة قد ادت لاستعمال الطرق التي كان الانسان يستعمل فيها أدوات من النوع الأولدووائي.

ان المجموعات الاولى بجنوب افريقيا المنتسبة الى الأشولي والتي يمكن أن تكون معاصرة للإنسان العارف والإنسان القرد القوي بسوارتكرنس، أصلها من منجمين متجاورين موجودين حيث يلتقي نهر «فال» برافدة كليب، قرب فرينيجنغ وهي موجودة بحصباء لسطح يرتفع بعشرة أمتار فوق النهر الحالي. وكثيرا ما تكون الادوات ملساء، أي محولة وليست في إطارها الأصلي، وتوجد بتلك الأماكن مجموعة من تلك الأدوات المتكونة من ذوات وجهين حادة أنجزت بنزع عدد من شظايا كبيرة وقدومات وصفحات وحصاة مهيأة، ومكاشط مصنوعة من بقايا حجرية، وعدد من الادوات المركبة على شظايا مسواة بعض الشيء، ومن بقايا حجرية وفضلات النحت. وكلها تدل على استعمال تقنية القارع الصلب. ولهذا فهي توافق الابفيلي الأوربي. و يبدو أن وجود شكلين يشابهان ذوات الوجهين بمنجم ستركفنتاين اكستنشين سايت، يفيد أن ذلك المنجم ليس بعيدا جدّا من حيث الزمن عن مناجم كليب (ثري ريفرز و كليبلادريف) و يظهر أنه عثر على مجموعات أخرى تبدو قديمة وذلك بأماكن مختلفة من افريقيا الجنوبية، مثلا بالسطوح النهرية القديمة بستللنبوغ، بمقاطعة رأس الرجاء، أو بجوار لفنعستون بزامبيا، ولكنها غير كاملة ولم تؤرخ تاريخا مضبوطا.

وفي ما بين مليون سنة، و٧٠٠٠٠٠ سنة حل محل سلالة الانسان البدائي (الذي يمثله جمجمة ١٤٧٠ بكوبي فورا، بشرقي بحيرة تركانا، وأحفورات الانسان الماهر بفج أولدووواي، بحوض أمو ومناجم أخرى). حل محلها نوع أقوى له سعة جمجمية أكبر و يعرف باسم الإنسان المستقيم، وفي نفس ذلك التاريخ، او ربما قبله بقليل، كانت المجموعات البشرية قد انتشرت بسرعة نحو إفريقيا الشمالية، وخارج افريقيا، نحو أوربا وآسيا. ولذلك نجد أحفورات و بقايا ثقافية للانسان المستقيم بمناطق عديدة من العالم القديم بعيدة جدا عن بعضها. لقد أصبحت أحفورات الانسان المستقيم بافريقيا معروفة بفضل ما توفر من آثار في القسم الأعلى من باد ٢ من خثن أولدووواي (و به شكل له مخ متطور) وكذلك بفضل مكتشفات ملكا كنتوري بأثيوبيا ومناجم الساحل والداخل من إفريقيا الشمالية الغربية. و بالمغرب العربي، حيث تتصل بصناعات الأشولي القديم ويحتمل ان الإنسان المستقيم، كان بإفريقيا الجنوبية، صانع تلك الآثار الأشولية، الا أنه لم يعثر على أحفور واحد.

ونشرع في ملاحظة تكاثر المناجم الدالة على زيادة عامة في عدد المجموعات البشرية وكميتها وذلك بافريقيا الجنوبية والأماكن الباقية من القارة إثر بروز الأشولي الحديث أو المتطور. ومن الممكن أن تكون ندرة المناجم المنتسبة الى أزمنة أبعد، عائدة جزئيا الى الندرة النسبية في الرواسب المحفوظة المؤرخة لذلك العهد، ولكن هذا ليس هو السبب الرئيسي الدال على الزيادة الواضحة في عدد المناجم الأشولية الحديثة ولا على توسعها الجغرافي الكبير. وذلك ورغم أننا نعرف مناجم عديدة (منها منجم ٣٨٩ بجنوب افريقيا بأطلس ما قبل تاريخ افريقيا. وقد وفرت أغلب الشبكات النهرية المستكشفة مجموعات متواصلة من ذوات الوجهين وقدومات خاصة) ولم تجر الحفريات الا في القليل منها، وقل ان وجد البعض منها في أماكنها الأصلية (٥) ولو بقيت في أماكنها لاحتفظت الادوات بأوضاعها، ولبقيت كثير من الآثار السكنية بعد أن فارق الموقع ساكنوه.

ان المناجم المحفورة توحي بتنوع مواطن السكن و بعض جوانب سلوك الانسان الأشولي، ولم يؤرخ أي واحد من تلك المواقع تاريخا دقيقا لأنها كلها تتجاوز المدى الذي يصل إليه الراديوكربون ولأن الصخور أو الرواسب التي لها بها صلة لا تخضع لطريقة البوطاسيوم أرغن ولا للترتيب التاريخي المعتمد على التعاكسات الاحائية المغناطية. و يعتبر منجم كلمبو فولز أكثر المناجم شمالا، بحدود زامبيا وطانزانيا (إفريقيا الوسطى) حيث ساعدت أحوال استثنائية على المحافظة على الخشب بمستويات متعددة من مواطن الاقامة. ويمكن ضبط تاريخ ذلك الخشب. ولقد توفر لنا بالنسبة لعينة من أحدى تلك المناجم و بالاعتماد على طريقة مرازمة الحوامض الأمينية، تاريخ سابق لـ ١٩٠٠٠٠ (ج بيدا، رسالة شخصية). ان ذلك التاريخ يوافق تاريخ اسميلة، بوسط طانزانيا، حيث أرخت مجموعة أشولية طبقية بـ ـــ ٢٦٠٠٠٠ سنة، بالاعتماد على طريقة الثريوم ـــ أورنيوم. ويحتمل الا تتجاوز أية واحدة من تلك الصناعات ـــ ٧٠٠٠٠٠ سنة، وهو عهد انتهت فيه الحقبة الكبرى من المغناطيسية المعاكسة وهي حقبة ماتوياما. ولا يمكن أن تكون تلك الصناعات قد وجدت بعد ـــ ١٢٥٠٠٠ سنة، وهو بداية الحقبة الأخيرة ما بين جمودية (أيمية) التي ظهرت فيها صناعات أكثر تطورا. فهي تنتسب أساسا الى عهد يسمى البليستوسين الوسيط.

وكان الباقي من مواطن السكن بشلالات كالمبو موجودا على كثبان من الرمل المحاذي للنهر، ومن المحتمل أن يكون بداخل الغابة الاستوائية التي كانت تغطي الضفتين في ذلك العهد. ان دراسة اللقاحات تبين ان الحرارة كانت في بداية الأشولي أكثر ارتفاعا، وكمية الأمطار أقل من كميات اليوم بقليل. الا أن الانتقال نحو جفاف أكبر لا يكفي أن يغير ولو قليلا عالم النبات الذي كان يتكون مثل اليوم من غابة للرعي ومن أودية قليلة العمق ومعشبة، وتطفو عليها المياه من حين لآخر (دمبوس). وتوجد بالمنحدرات الأكثر علوا غابة براكستيجيا. الا ان دراسة اللقاحات وآثار النباتات الكبيرة الحجم، تدل في حوالي نهاية الفترة الأشولية على انخفاض الحرارة و بعض الزيادة في كميات الأمطار التي مكنت بعض الأنواع النباتية الموجودة حاليا فيما يقرب من ٣٠٠ م علوا، ان تنزل الى مستوى الحوض المحلي من كالمبو. ومن المعتقد أن كل مستوى من مستويات السكن لم يكن

(٥) نجد مثلا بالقسم الغربي من وادي الفال و بعدد من روافده، كثيرا من الأدوات الأشولية. الا أنه ان كان البعض من تلك المجموعات يشهد بتغيرات تكنولوجية مهمة، فان الاجتراف قد نقلها وأصبحت في حالة متغيرة.

مسكونا الا في فصل أو فصلين. ثم أصبحت التربة مغطاة بترسبات الرمال النهرية والطين والوحل، فأقيمت فوقها فيما بعد منشآت مماثلة. وقد اكتشف فيها عدد كبير من ذوات الوجهين والقدومات والأدوات المصنوعة من شظايا ممسواة، والمكاشط الحجرية، وعدد قليل من المعاول والصفاحات والأدوات الكروية الشكل.

وتتصل بتلك الصناعات الحجرية أدوات خشبية مختلفة من بينها حربة، وعصي للحفر، وعصي قصيرة وحادة (تصلح أيضا على ما يبدو للحفر) وأداة رقيقة لها شكل الصفيحة، وقطع من قشور الأشجار قد تكون استعملت أطباقا. و يوجد ببعض تلك المستويات الطبقية آثار عديدة عن إستعمال النار، كجذوع أشجار محرقة، وفحم خشبي، ورماد وأكداس بيضوية الشكل لها شكل الحوض، وعشب محروق ومهشم، وكذلك نباتات ليفية يحتمل أنها كانت استعملت فراشا للدواب. ونجد أيضا عددا كبيرا من الحبوب والثمار المحرقة تنتسب الى أجناس وأنواع من النباتات المستهلكة التي تنمو حاليا بحوض كالمبو. ومن المعتقد ان تلك الاقامات الاشولية كانت مخيمات تقام في الفصل الجاف، نظرا لكون تلك النباتات تبلغ نضجها في ذلك الفصل (سبتمبر/أكتوبر).

ولم يعثر على اثر واحد للحيوانات في كالمبو فولز. أما في موانكاندا قرب كارونكا بالطرف الشمالي الغربي من بحيرة ملوي، فيوجد منجم آخر من البليستوسين الوسيط. قطع فيه فيل، في مكان غير بعيد عن مجرى ماء، يتجه نحو الشرق حتى البحيرة. و يبدو أن فرقا ثلاثا على الأقل شاركت في عمليات القطع اذ وجدت ثلاث مجموعات من العظام المنفصلة، كل واحد منها مرتبط بالادوات الحجرية المستعملة بعين المكان قبل أن تترك. ان أغلب تلك الادوات متكونة من شظايا لم تهذب الا قليلا، ومن مكاشط صغيرة و بعض الحصاة المهيأة. ان الامر يتعلق هنا بالاولدووائي المتطور الذي ظهرت به أدوات الأولدووائي البدائي. وقد وفرت حفريات في أو بر منسدر يف قرب بلومهوف أدلة مهمة عن مهارة الإنسان الأشولي الصياد، وكذلك عن تقنياته في تقطيع اللحم وتصريف بقايا العظام التي تتراكم حسب أكداس متعددة، على طول مجرى الماء، وتمتزج بذوات الوجهين التي عثر عليها في نفس المستوى الطبقي.

وتتصل الادوات الأشولية أحيانا بنتوءات المواد المختلطة بالانهيالات وشظايا الصنع، وتفيدنا تلك المواقع (مثل موقع كو يلو كويجبي، بروديسيا) * بمعلومات قليلة عن المحيط، و يبدو أنها كانت مسكونة بانتظام، وذلك شأن وندر بومبورت قرب بريتوريا، بترنسفال حيث توجد بقايا تشكل طبقة كثيفة لها ٣ أمتار و يبدو أنها متصلة بأحد نقاط مرور حيوانات الصيد بجبال مكاليسبارك بين الميدلفالد والهايفالد.

ومهما يكن من أمر، فقد كان الإنسان يقيم مدة الأشولي، دائما قرب عين ماء مثل «الدامبويات» حيث تتجمع حيوانات الصيد، وحيث الماء متوفر. و يوجد ذلك النوع من المواقع في كبوي (بروكن هيل)، قرب كُبجي المشهورة التي اكتشفت بها جمجمة و بقايا أخرى من الإنسان الروديسي. ولقد عثر على مجموعة صغيرة من الادوات الكبيرة القاطعة التي لها صلة بأشكال كروية و بعدد من الادوات الصغيرة المتكونة من المرو. و يوجد بروديسيا * وفي لوشار، على مسافة متساوية

* في النسخة المطبوعة زيمبابوي — تعليق محمد الفاسي.

من خط تقسيم مياه الزمبيز ولمبوبو، منجم آخر في أحد الادامبو يات لم يحفر بعد و وفر ذوات وجهين وقدومات عديدة. و يعتبر المكان المعروف بكرتيليا مثلا آخر وذلك بشمال ولاية اورانج الحرة بجنوب افريقيا. وخلافا للمنجمين الأولين، وفرت كرتيليا آثارا عديدة من الحيوانات. يتعقد أن بعضها متصل بصناعة تشمل بعض الوجهين والقدومات وكذلك عددا من الصفاحات والحصاة المهيأة وأدوات صغيرة. ويمكن أن تكون الحيوانات لا سيا الحيارم (Bubales) العملاقة قد دفعت الى وحل الدمبو وقتلت به. ويحق لنا أن نعتقد أن الهايفيلد كان في ذلك العهد كثير المطر تكسوه أعشاب قصيرة، وغيضات مخفية وغابات عرو ية مثلما هو الشأن اليوم. وفي الأدغال السهوبية (كرو)، شمال مقاطعتي رأس الرجاء و بستوانا، أقام الأهالي الأشوليون حول أحواض بحيرية قليلة العمق كانت كثيرة بتلك المنطقة. أما دورنلاخت قرب كمبرلي فتعد من ذلك النوع من مواطن الإقامة التي يوجد بها سلسلة كاملة من الادوات المقواة والمختومة في قشرة كلسية، وذلك حسبا يبدو في اطارها الأصلي. ولقد احتلّ الموقع عدة مرات لمدة طو يلة وان كانت الحيوانات مفقودة فيه.

في اللندز فنتاين قرب هايفيلد، بالقسم الغربي من مقاطعة رأس الرجاء حول المستنقعات والأحواض الموجودة بين كثبان الرمال القارة، كان الإنسان الأشولي قد وجد مناخا مناسبا لصيد الثدييات الكبيرة. وتعتبر تلك الحيوانات من حيوانات البليستوسين الوسيط. وهي تختص بصفات الحيوانات التاريخية برأس الرجاء كالفيلة، والكراكدة والزرافات، وأفراس البحر، والظباء الكبيرة والصغيرة، والخيول والخناز ير الوحشية. وهنا أيضا يحتمل أن تكون الحيوانات قد قتلت بعد ان طردت حتى المستنقعات، ولا يستبعد ان تكون عيون الماء قد سممت. ولقد وفر ذلك المنجم القشرة الجمجمية لبشري قريب من بشري كبوي في بروكن هيل، وهوبدون منازع أكثر تطورا من الإنسان المستقيم ولا يوجد هنا ما يمنع من أن نعتبر أن المحيط قد تغير هنا و بغربي رأس الرجاء تغيرا محسوسا يختلف عن المحيط الموجود اليوم.

ولقد عاش البشر في الأشولي على الساحل ايضا كما يدل على ذلك المنجم الهام المكتشف في الجنوب، بالسهل الساحل الضيق، وذلك برأس هنك كليب في فولسن باي حيث توجد كثبان رمل صلبة تغطي الشاطىء بما قدره ١٨ مترا. ولا توجد به حيوانات لكن المنجم وفّر عددا كبيرا من ذوات الوجهين الجميلة وعددا أقل من القدومات، وكذلك مكاشط عديدة مصنوعة على شكل شظايا، ومكاشط نوو ية الشكل وأدوات صغيرة. لكن يهمنا أن نلاحظ ان الإنسان، في ذلك العهد، سواء على الشواطىء الأطلسية من المغرب أو بالبحر المتوسط، كان لا يأكل الثدييات البحر ية ولا الأسماك، بل كان لا يأكل الثدييات الأرضية.

كان الإنسان الأشولي يقيم أيضا بجوار عيون الماء مثل أمنزي، بمنطقة أمطار الشتاء جنوب الإنحدار الكبير قرب فورت أليز يث. ولقد وضعت عيون كثيرة عندما كانت تجري، سلسلة من الرمال الطبقية، وتشكلت طبقات من الخث في الأوقات الميتة التي كانت تنمو فيها الاقصاب ونباتات أخرى. كان الإنسان الأشولي يتردد على تلك العيون ويخيم بالاماكن التي ترك بها أدواته والتي داستها الفيلة وحيوانات أخرى جلبتها هي نفسها نفس المياه. ولقد ابرزت الى الوجود بعض

المركبات المبعثرة، و يبدو حسب آثار الخشب والنباتات واللقاحات ان الأعشاب بذلك العهد لا تختلف الا قليلا عن الأعشاب الموجودة اليوم برأس مكشيا.

اما بافريقيا الجنوبية فلقد أقام الإنسان الأشولي أحيانا بكهوف سنشير الى اثنين منها. أولهما كهف المواقد الذي يوجد في ماكبان بالبوشفالد بترنسفال الشمالي، ويحوي تسعة أمتار من الرواسب، وله مستويات إقامة أشولية ومواقد للنار. ان تحليل الرواسب يبين ان كميات الأمطار كانت اذاك أكثر مما هي عليه اليوم، وتعد حيواناته عامة من البليستوسين الوسيط وتنتسب الى حيوانات بوشفالد الحالي. ولقد وفر هذا المنجم أيضا قطعة من فك إنساني، وهو فك شخص شاب يمكن أن تكون له علاقة بالاحفورات الشبه النياندرتلية أو الشبه الروديسية (٦). والأثاث شبيه بأثاث كلمبوفولز، وهنغكليب ومناجم أخرى حيث اكتشفت أدوات كبيرة قاطعة مخلوطة بادوات عديدة لها حجم صغير. أما الكهف الثاني، فهو كهف منتكوجنوب مقاطعة رأس الرجاء، وهو قريب من عين ومجرى ماء قارين، وتحيط به أعشاب الجبل. وهو يحوي ايضا عددا من الطبقات المتلاصقة من عهد أشولي حديث، الاّ أنه للأسف لم يعثر فيه على بقايا حيوانية.

ان تلك المناجم المختلفة توفر أمثلة حسنة من مختلف أنواع السكن وعن تنوع الادوات الأشولية بالبليستوسين الوسيط. و يشترك جميع السكان في بعض الخصائص فهم يعيشون في أراض مكشوفة، كالغابات الخفيفة (كلمبوفولز، كبوي، بروكن هيل) والمروج والحدائق الطبيعية (لوشار وكرنيليا) وأشجار الأدغال (منتكو، وأمنزي) وهي كلها موجودة قرب الماء حيث توفر الأشجار الظلال والثمار الناضجة وحيث يتجمع الصيد كلما تقدم الفصل الجاف. وتقع كلها باماكن يوجد بها اليوم عدد من التجمعات العشبية (وتدعى بالمناطق الايكوتونية). واذا كان الاطار العام قد ظل قارا لم يتغير عن حاله في الماضي، مثلما تدل على ذلك الاثار الحالية، فيمكن أن نستنتج بأن تلك التجمعات العشبية استغلت بأماكن غير بعيدة عن مواطن السكن. في الأماكن التي حفظت فيها الحيونات، توجد المناجم التي توجد بها آثار الصيد الكبير كالفيلة، وأفراس البحر، والزرافات والبقريات الكبيرة والخيول، ولكننا نجد أيضا بقايا من بقريات صغيرة، ومن الحنزيريات الخ.

وقد استعملت مجموعة كاملة من المواد الأولية في صنع أدوات الحجر اعتمادا على الموارد المحلية. وهكذا يكون لنا دليل على أن الانسان الأشولي اكتسب مهارة وقدرة على التكيف لا نظير لها لنحت صخور عديدة بالإعتماد على القوارع الصلبة والهشة ولانتاج أدوات جيدة. وكان يحسن الإختيار بين تقنيات متعددة، فيختار أنسبها للمواد المستعملة. وكلما كانت الحصاة الكبيرة من الصوان أو المرو تشكل المادة الأولى، كانت ذوات الوجهين تنحت مباشرة من الحصاة. ولكن اذا دعا الأمر إلى استعمال كتل أكبر من تلك، كان الإنسان الاشولي يستعين بطرق ذكية (٧) وذلك بتهيئة وقطع نواة كبيرة ليتحصل على شظايا كبرى يصنع منها ذوات الوجهين والقدومات.

(٦) انظر ص. ٥٢٩.

(٧) مثلا: شبيه لوفالوا، وما قبل لوفالوا، تاشنقيط وكمبوا. انظر م. ن. بريزييون ١٩٦٨ (M.N. Brezillon)، تسمية الأشياء من الحجارة المنحوتة — تحاليل في ما قبل التاريخ، ملحق ٤، باريس، ص ٧٩ — ٩٦ و ١٠١ — ١٠٢.

ومن المحتمل أن يكون الاشولي الحديث بإفريقيا الجنوبية قد غطى حقبة تماثل تقريبا حقبة الأشولي الحديث بافريقيا الشرقية، أي ما يوافق تقريبا ـ ٧٠٠٠٠٠ سنة الى ـ ٢٠٠٠٠٠ سنة.

على أنه لا توجد الى الآن طريقة دقيقة بعض الشيء تسمح بقياس الفروق في الأعمار بين الصناعات الاشولية المتنوعة. فعندما تتوفر لنا تلك الدقة ونكون قد أجرينا عددا أكبر من الحفريات بمواقع تخضع لعلم طبقية الأرض، يمكن اذاك أن نعرف كميا الاتجاهات العامة لتقنية الأدوات وما يوجد من قرابة بين مختلف التنوعات المعروفة ضمن المركب الأشولي، وكذلك الجانب الاحاثي البيئي لموقع معين في العهد الذي كان فيه مسكونا.

ان الصناعات الأشولية كما تبين من هذا التلخيص القصير خاضعة لبعض النماذج النوعية التي توجد بمجموع العالم الأشولي. فتوجد أدوات لا تتكون الا من ذوات الوجهين ومن القدومات، وأخرى تشمل حصاة مهيأة وأدوات أصغر حجما، مثلما هو الشان في الاولدووائي المتطور، وتوجد أخرى يظهر فيها المزج بين هذين النوعين من التقاليد، وأخيرا، توجد أخرى أغلبها نقارات ومكاشط نووية الشكل وأدوات أخرى «ثقيلة». وهكذا فقد كان هناك توزع كبير من حيث الصناعات، والسكن والموارد، ولكن توجد خصائص عامة مشتركة بالنسبة لمجموع الأشولي. و يستفاد من ذلك أن طرق العيش لا تختلف في جميع المناطق التي تستعمل فيها ذوات الوجهين. و يعتبر المظهر العام لسلوك البشريات خلال البليستوسين الوسيط هو سلوك جماعات الصيادين القاطفين الذي لهم نفس أسلوب العيش، والذين يميلون الى التواصل بعضهم ببعض تواصلا متفاوتا. فلقد كانوا يشكلون تجمعات هي أكبر مما كانت في الماضي، وأصبحوا يترددون بانتظام على بعض الأماكن المعينة حسب الفصول. وكانت البنية الإجتماعية مرنة جدا مما سمح بتنقل الأشخاص والأفكار. الا أنّ مناطق هامة من افريقيا، ومنها الغابات، ظلت ظاهريا خالية، و يفيد الانتشار مجموع السكان، ان كل جماعة كانت معزولة عن جيرانها عزلة تكاد تكون كاملة.

الأشولي الأخير أو «الفورسميثي»

نعلم منذ أمد طويل أن بعض الصناعات قد وجدت على النجد الداخلي. فهي تختص بذوات الوجهين التي لها حجم صغير عادة، والمتقنة الصنع، كما تختص بمجموعة كبيرة من الادوات المنحوتة على الشظايا، وبمكاشط نووية الشكل. أما القدومات فهي قليلة نسبيا، و يبدو أن تلك الصناعات تعود الى عهد أكثر حداثة من الاشولي المذكور أعلاه. فان كان الأمر كذلك، فمن المحتمل أنها تمثل مرحلة «نهائية» من تقاليد ذوات الوجهين. لكن أغلب الادوات جمعت على سطح الأرض ويمكن أنها كانت مخلوطة بعناصر أكثر حداثة. وكانت المادة الخام المستعملة عادة هي الليديانيت (النضيد المتصلب) الموجودة بكثرة في بعض المناطق. أمّا في مناطق أخرى، فالمادة المستعملة أكثر هي الكوارتزيت (الصوان).

لم توفر الحفريات الا قليلا من السلاسل، والقليل منها فقط يمكن أن يعتبر ممثلا لتلك الادوات. ولقد أتت احدى السلاسل من حوض قديم، قرب روندام، غربي كمبرلي. وكانت الصناعة بها مندمجة في خمسة أمتار من الرواسب على رأسها قشرة كبيرة من الكلس السهبي، وتمثل تلك الرواسب تراكما متدرجا من الترسبات الخفيفة وناتجا عن سيلان الماء. ان ذوات الوجهين التي لها أحيانا أحجام

صغيرة تتميز بصنع رديء. وأغلب الادوات متكونة من مكاشط صغيرة ومن أدوات صغيرة أخرى مهذبة، قد صنعت كلها من الليديانيت. وتبرز بوضوح في هذا المجموع طريقة تهيئة النواة التي تدعي «تقنية النواة الصحنية الشكل» والتي تسمح بالحصول على شظايا صغيرة. وخلافا لذلك، لم يعثر على أثر لتقنية «لوفالوا» التي تعطي شظية أكبر حجما كلما هيئت النواة. ويحوي منجمان آخران بعين المكان (على الفال، قرب وندسور — تان وبمنطقة سد فرفورد على الاورانج) صناعة مماثلة، لكن مع وجود التقنيتين، وهما: تقطيع لوفالوا، والنواة الصحنية الشكل. و يبدو أن التقاليد، وربما عناصر أخرى كالزمن، ستساعد على تفسير هذا التنوع في شكل الشظايا والنواة.

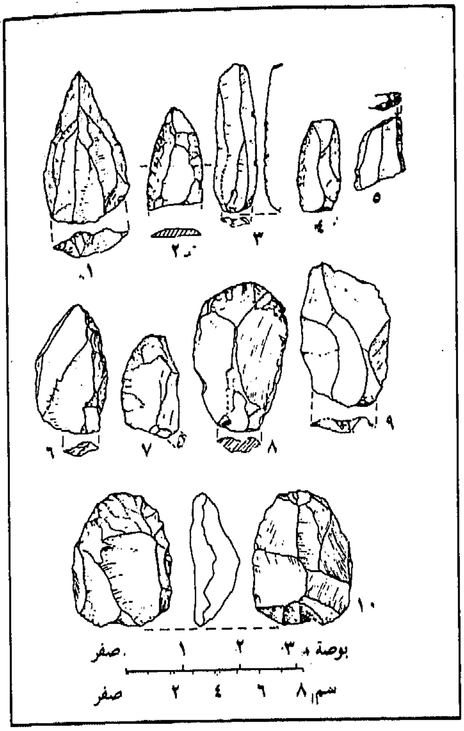
لقد أطلق على تلك الصناعات اسم «فورسميثي». نسبة الى المكان الموجود بولاية أورانج الحرّة، حيث عثر لأول مرة بالسطح على عدد كبير من ذوات الوجهين اللوزية الشكل المتميزة. الا أننا لا نعلم الى الآن أكانت تلك الصناعات تمثل وحدة كافية التميز من الأشولي لتستحق تسمية خاصة بها أم لا. فهي توجد غالبا بالمروج والادغال في كارو، وفي جبال جنوب افريقيا وناميبيا. ان العلامة الوحيدة عن عمرها المحتمل قد وفرها التاريخ بالثريوم / أورانيوم على كربونات روئدام. وهو يشير الى تاريخ ١١٥٠٠٠ ± ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ونحن نجهل متى عوضت الصناعات «الفورسميثية» بمركب جديد أو تقاليد تكنولوجية جديدة تهتم بالادوات المنحوتة على الشظايا وعلى الصفائح التي تدل على بداية «العصر الحجري الوسيط». و يبدو أن هذا التحول قد وقع بين — ١٠٠٠٠٠ و — ٨٠٠٠٠ سنة.

أما في المناطق التي تكثر فيها كميات الامطار وتكثف فيها الأعشاب بافريقيا الوسطى فلم يحل «الفورسميثي» محل الأشولي الحديث، بل حلت محله صناعات توجد فيها نسبة كبيرة من الادوات الثقيلة، مثل النقارات وذوات الوجهين، والحصاة المهيأة والمكاشط القلبية الشكل. ولقد سبق أن ظهرت تلك الأنواع بالصناعات الاشولية. ولكن باستثناء نوع غير معروف في السابق، فانها لم تتميز في ذلك العهد عن أنواع الادوات الاخرى. على أن تلك الأجهزة ستصبح غالبة فيما بعد بالمناطق التي تكثر فيها كميات الامطار وترتفع فيها الحرارة، حيث نجدها مخلوطة بمجموعة كاملة من الادوات الخفيفة المنحوتة على الشظايا والقطع الحجرية. وهي توجد بزامبيا، وروديسيا (*) و ببعض المناطق الشرقية من إفريقيا الجنوبية (لا سيما بسهل الموزمبيك) و بالمناطق الساحلية بالناطال، حيث تنتسب الى ما يدعى بالمركب السنغوني. ان المجموعات السنغونية ليست في جلها مؤرخة اعتمادا على الطريقة الطبقية ولا نعلم بدقة ان كان السنغون معاصرا للأشولي النهائي (فورسميثي) بالسباسب العشبية أو أنه أحدث منه.

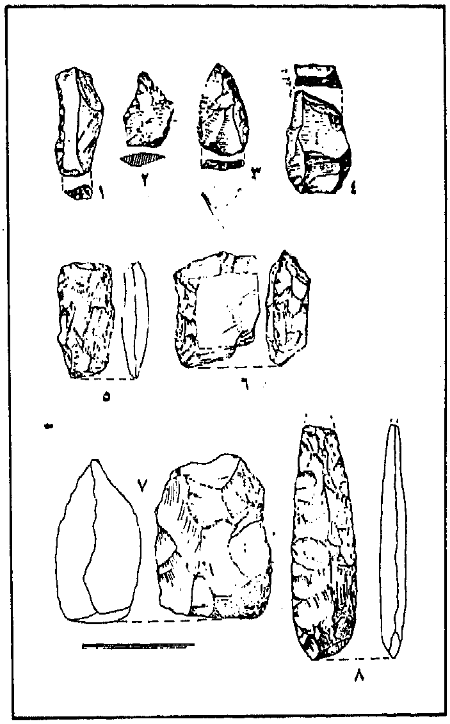
وفي شلالات كالمبو، ضبط تاريخ مظهر السنغون المحلي (صناعة شيتا) بـ ٤٦٠٠٠ إلى ٣٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر (*) بالإعتماد على ١٢ نتيجة وفرتها طريقة الراديو كربون، وفي أنجولا الشمالية الشرقية أرخت مرحلة مشابهة بـ ٣٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد. و يشابه السنغون المحلي (صناعة

(*) ق. ح. = قبل الحاضر. والحاضر هو ١٩٥٠م. أي السنة التي استعمل فيه الكربون ١٤ لاول مرة.

(*) في مطبوع زيمبابوي — تعليق المراجع محمد الفاسي.



١


٢


٣

● ١) أدوات مشكّلة من العصر الحجري الأوسط، من كهف ويتكرانس (شكل ١١ من كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧١ بالانجليزية «الاختلافات في السلوك البشري في أفريقيا الجنوبية خلال عصر البلايستوسين المتأخر»، في «أميريكان أنثروبولوجيست، المجلد ٧٣). وجميع هذه الأدوات من السيلكس الاسود ما عدا رقم ٦ فهي من الشيست. ١ و٢ مخرازان وحيدي الوجه، ٣ ــ نصل مستعمل، ٤ و٦ و٧ مكاشط بسيطة، ٥ ازميل على قاطع، ٨ محك، ٩ أداة ليفالوا مشظاة، ١٠ نواة ليفالوا.

● ٢) أدوات من اللوبمي الاوسط، مساقط كالامبو، السد ١، الموقع ب ا ــ ١٩٥٦. وجميع هذه الادوات مصنوعة من السيلكس ماعدا الاداة ٤ ــ ازميل ذو راوية زوجية مصنوع من قشرة سيليكية. ٧ ــ قاطع (كوارتزيت)، ١ ــ مكشط مقعر بسيط، ٢ ــ محط مسنن مترافد الاوجه وذ خطم، ٣ ــ شوكة وحيدة الوجه، ٥ ــ فأس نووية الشكل، ٦ ــ محك نووي الشكل، ٨ ــ شوكة رمحية الشكل.

● ٣) توزيع النصال وشظايا النصال المستعملة، بالنسبة الى هياكل من كتل الدوليريت، على الافق الاول في أورانجيا (الشكل ٥٨ من كتاب «أركيولوجيا العصر الحجري في أفريقيا الجنوبية»، ص ١٦٦، ١٩٧٤ ـ بالانجليزية» لمؤلفه س. ج. سامسون، المطبعة الأكاديمية، نيويورك).

كويلو- بروديسيا) صناعات كانت تسمى «ما قبل الستيلبايي) غير أنه يمكن أن يكون أقدم منها (٨) ومما يزيد في صعوبة ايجاد علاقة الترابط بين هذه الصناعات من نوع «سنغون» أنه يجب علينا اعتبار العناصر البيئية وغيرها لأنه أن كان السكن والتقاليد أو الإعتبارات الخاصة قد يسرت استعمال تلك الادوات الثقيلة، فمن المحتمل أنها لعبت مبكرا دورا هاما وأن ذلك الدور قد دام دوام الأسباب التى يسرت استعمالها. و يوجد بلا شك ترابط بين تلك الادوات من جهة وكثرة كميات الأمطار التي تنشيء مناطق عشبية من جهة أخرى. ولابد أن نعتبر أن تلك العناصر الثقيلة ناشئة عن معطيات بيئية أكثر مما تمثل فترة ما أو مرحلة ثقافية ضمن تطور الادوات الحجرية. ونظرا الى أننا نستطيع في نفس الوقت أن نبين أن تلك العناصر «السنغونية» متصلة بنظم من الأعشاب الأكثر كثافة، يمكن أن ننتظر بروزها أولا، بتلك المناطق، في نفس العهد الذي يوافق الفترات النهائية من الأشولي (فورسميثي) بالسباسب العشبية، وان تكون معدومة بمواطن السكن الأكثر انفتاحا حيث كان الإهتمام، كما رأينا بأنواع أخرى من الادوات.

لقد اكتشفت صناعات من نوع «سنغون» في زامبيا، وملاوي وروديسيا *، وموزمبيك وأنجولا وكذلك بالشمال و بالجنوب الشرقي من جنوب افريقيا. ولذلك يمكن لنا أن نجد في الفورسميثي والسنغون بداية تخصص جهوي للادوات، يعكس طرق تكيف مختلفة باعتبار استعمالها بالمروج أو بالغابات الخفيفة والغابات الكثيفة.

العصر الحجري الوسيط

ان ضرورة اعتبار الادوات الحجرية للانسان في ما قبل التاريخ وذلك كل ما بقي منه — شاهدا على صانعيها، وعلى حاجاتهم العاجلة، لا دليلا على سكان يختلفون بالضرورة جنسا وعرقا، هذه الضرورة تفرض نفسها لا سيما عند اعتبار مختلف العناصر المكونة للمجموعات الجهوية المعاصرة، في ما يسمى مدة طويلة «العصر الحجري الوسيط». ولقد اعتمد أساسا لضبط تاريخ مجموعة من الادوات من العصر الحجري الوسيط على بعض الخصائص التقنية والنوعية وعلى كونها موجودة طبقيا «العصر الحجري المبكر» و «العصر الحجري المتأخر». ان هذه المصطلحات التطورية، والزمنية الطبقية أصبحت لا تفيد اليوم شيئا كثيرا. ولقد ظلت سيئة التعريف مثلما كانت عند ظهورها. و يضاف الى ذلك ان ضبط التاريخ بالراديو كربون يظهر أن المراحل التكنولوجية التي تعتمد عليها تلك المفاهيم هي ظرفية أكثر منها واقعية، ولأن التقنيات وأنواع الادوات التي انبثقت عنها، تتجاوز أمثال هذه الحدود الأفقية المصطنعة. ونظرا لكون المؤرخ يشتغل على أشياء حجرية، فإنه يميل الى عدم اعتبار تلك الأشياء جزءا باقيا من مجموعة عظيمة من

---

(٨) ان مناجم الكهوف الطبقية، كمنجم بومنكوي وبماطا وموقع شفوما الموجود في الهواء الطلق الذي اعتمد عليه، لتسمي تلك الصناعة حديثا «صناعة شفوما»، هي التي تقدم أحسن فكرة بروديسيا عن محتوى تلك المجموعات فيما قبل السيلبايي. و بالرغم من أننا لا نعتمد على أي تاريخ مضبوط، يبدو أن صناعة شفوما تعود الى تاريخ هو أقدم من ٤٢٠٠٠ قبل الحاضر، ولذلك تعتبر صناعة كويلو أقدم منها.

(*) في المطبوع زيمبابوي — تعليق المراجع محمد الفاسي.

الأدوات والمواد التي لم تحفظ، والتي لو كتب لها أن تدرس لقلبت بالتأكيد كل تصوراتنا لتكنولوجية ما قبل التاريخ. ان التكنولوجية تتبدل في كل مكان يشعر فيه بالحاجة اليها، وذلك جوابا على ضغوط جديده، وعلى امكانيات الإنتقاء أو التكيف الخاصة بالجماعة. فينبغي أن يؤخذ بعين الإعتبار هذان العاملان عندما تدرس الصناعات الحجرية التي تشهد على السلوك الثقافي طيلة البليستوسين الحديث والهولوسين.

ولقد أخذ مستوى البحر ينخفض، في وقت ما بين ـ ١٠٠٠٠ وـ ٨٠٠٠٠ وذالك بالنسبة للمستوى المرفوع بقدر + ٥ الى ١٢ مترا والذي تمثله تمثيلا حسنا بقايا الشواطىء المعلقة في عدد من الجهات من الساحل الجنوبي من القارة (٩). ولقد شرع الإنسان، بعد ذلك بقليل، في الإقامة بأماكن مواتية له على الشواطىء التي برزت فيما بعد، وكانت بعض الأماكن كهوفا، وكانت التكنولوجية في ذلك العهد، رغم الخصائص المحلية، متشابهة عموما بالبحر الابيض المتوسط وإفريقيا الجنوبية.

في بداية العصر الجمودي الأخير بنصف الكرة الأرضية الشمالي، طرأ بالمناطق المدارية انخفاض الحرارة (حوالي ٦ الى ٨ درجات) والرطوبة الجوية، وان كانت نسب التبخر قد ضمنت توفير مياه سطحية منتظمة، لعلها أكثر مما هي عليه اليوم. وفي نفس الوقت أدى المناخ نصف الجاف الذي كان بحوض الزايير بالمنطقة الاستوائية الى تقليص الغابة المكتسحة، أو عوضها بأعشاب أو غابات خفيفة وفرت للانسان وللصيد مسكنا مواتيا جدا. وشرع هؤلاء وأولائك في تعمير ذلك القطر الذي كان إلى ذلك العهد يكاد يكون خاليا. وكذلك كانت صحراء ناميب، امدة البليستوسين الحديث، وهي الآن قفر، مسكونة من طرف جماعات من الصيادين الذين تركوا أدواتهم بأماكن تخييمهم.

ان المقطوعة الطبقية لكل منطقة واسعة، كانت تبرز طيلة العصر الحجري الوسيط انتظام التقدم التكنولوجي ابتداء من المنتجات الأقل تهذيبا الى ما كان أكثر تطورا، كما تبرز النقصان المتدرج لنحت الادوات. الا أن تطور المنطقة الثقافي لا يشابه بالضرورة تطور المنطقة الاخرى وان كنا نعثر على ميول وخصائص مشتركة. ويحتمل أن تكون عوامل عديدة، بيئية، وتكنولوجية، وإجتماعية قد تسببت في التحولات الجهوية الخاصة بصناعات البليستوسين الاعلى. وكانت طرق عيش مختلفة تستوجب أدوات مختلفة أو تفرض على الأدوات استعمالات مختلفة. ورغم أن تجديدات تكنولوجية قد أدت في مستوى القارة دورا معينا وذلك بأن عينت العهد الذي برز فيه هذا الجزء الجديد ظاهريا، أوذاك، فيبدو من المحتمل أن طبيعة الموارد والطرق التقليدية في استثمارها كانت هي العوامل الحاسمة الداعية الى قبول ذلك التحسن والى تاريخ استعماله.

وفي ذلك العهد كانت التقنيات الأساسية تعتمد طريقة لوفالوا وطريقة النواة الصحنية الشكل المستعملتين لصنع شظايا ولقطع صفائح بقرعها أولا ومباشرة بآلة وسطى تهذب لتصبح حدودا ومكاشط، وسكاكين، ومقصات، ومثاقب الخ. ويمكن في افريقيا الجنوبية، ان تصنف الصناعات الجهوية حسب تقنياتها في ثلاث وحدات تعتبر في جلها ان لم يكن كليا، وحدات تاريخية. ولهذا

(٩) يعتقد أن آخر مستوى من المياه العالية يناسب التعدي البحري الطارئ على عصر ما بين الجمودي الأخير (الأيمي) بحوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يكون مستوى البحر متشابها على العموم أي بين ٦ و ٨ أمتار.

السبب قد يكون من الأسهل أن نعتبرها أصنافا أو مراحل، لا أطوارا، لأن الاطوار تفترض وجود علاقات تاريخية.

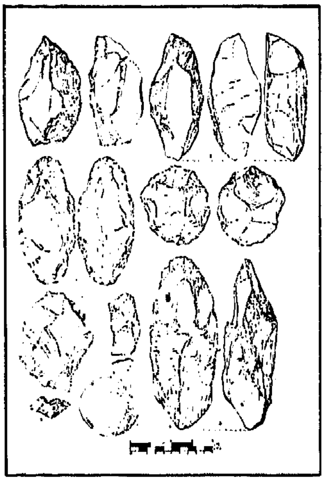
ان أول تلك الأصناف أو المراحل (الصنف ١) تختص بشظايا كبيرة هيئت بحسب طريقة لوفالوا والصفائح الطويلة المقطوعة بالقرع المباشر. ونحن لا نعرف منها سوى بعض التركيبات المتفرقة (١٠). ان الظواهر المتطورة جدا، تبرز، بالنسبة لبعض المناجم التي لها مقطوعة طبقية، في الطبقات العليا، وأقدمها هي المجموعات الحجرية من الصنف الأول (مثلا بكهف المواقد وبشلالات كالمبو). الا أنه لا وجود كما يبدو لتوافق تاريخي بين مختلف المناطق. ففي كلاسيس يعتقد أن «العصر الحجري الوسيط» الاول يؤرخ بحوالي ـ ٨٠٠٠٠ سنة بينما يعود تاريخ صناعة ناكاساسا في الكالمبوفوز إلى حوالي ٣٩٠٠٠ سنة الى ٣٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. اما السلاسل الأخرى، فلم يكشف عنها في ظروف يمكن ضبط تاريخها.

توجد صناعات أخرى تنتسب الى بداية البليستوسين الأعلى وتعود الى أكثر من ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ولا تدخل ضمن الصنف الاول ولها مجموعة من الخصائص المختلفة. وذلك شان صناعة من الشظايا، والنوى، والمكاشط القلبية الشكل والصفاحات والسندانات وأدوات التهشيم من الدوليريت، وأصلها من المستوى الاول من طبقة الحث في فلويسباد بولاية أورانج الحرة. ان تلك الادوات ليست على العموم نموذجية ويمكن أنها لا تمثل المجموعة الكاملة من الأجهزة المصنوعة في ذلك العهد وبذلك الموقع، ولكن من الممكن أيضا أن نلحق بها صفيحة وحيدة، طويلة ومهذبة ولقد وفر نفس المستوى الاول ما يشبه مقبض سلاح رمي معكوف، من الخشب كما وفر قطعة من جمجمة انسانية. ان أفق فلوريسباد ذلك يعود الى أبعد من ٤٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وتوجد صناعة أخرى تختلف عن صناعة الصنف الأول، وان كان من المحتمل أنها معاصرة لها، وهي صناعة شافوما بروديسيا التي قيل عنها سابقا إنها تعود الى أبعد من ٤٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر. فهي تختص بنقارات وبعض ذوات الوجهين القليلة وبعناصر خفيفة هامة تشمل مما تشمل حدودا ومكاشط وصفائح عليها علامات الإستعمال. لقد نحتت تلك الادوات من مواد خام متنوعة كالكلسدوان، والاوبالين، والمرو، والصوان الخ. وفي زامبيا تشابه صناعة توين ريفر (المؤرخة بـ ٢٢٨٠٠ ± ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر) صناعة شافوما وان كان التاريخ، على فرض أنه صحيح، يبرزان طريقة تعتمد على التكنولوجيا قد فقدت اليوم كثيرا من قيمتها كعامل من عوامل الترابط بين الصناعات من مناطق مختلفة.

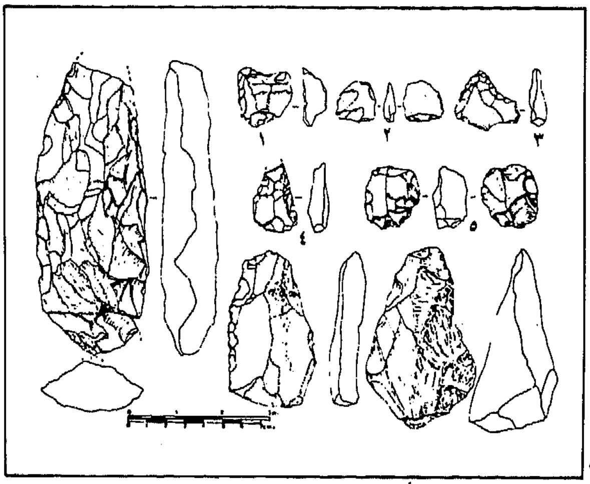
تنتسب سلاسل عديدة أصلها من كهوف ومناجم سطحية الى الصنف الثاني من الصناعات (الصنف ٢) (١١). ان التاريخ يضعها عموما بين ٤٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر الا أنها

(١٠) ذلك شان بيتزبركين الاسفل من المستوى ٤ بكهف المواقد في ماكابن. و«العصر الحجري الوسيط الأول الذي يعلو مباشرة الشاطىء بـ٦ الى ٨ أمتار بمصب نهر كلاسيس، وموقع في الهواء الطلق بمنطقة أورانج ريفر سكيم (الندر كلوف) وموقع آخر بترنسفال الأوسط (كودوسرند) وتختص فضلا عن ذلك صناعة ناكاساسا في كالمبوفولز باشكال متشابهة وان كانت تحتوي أيضا على بعض الأدوات ذات وجهين ثقيلة من النوع الذي يتوقع وجوده بصناعات الغابات الخفيفة في براسيستيجيا.

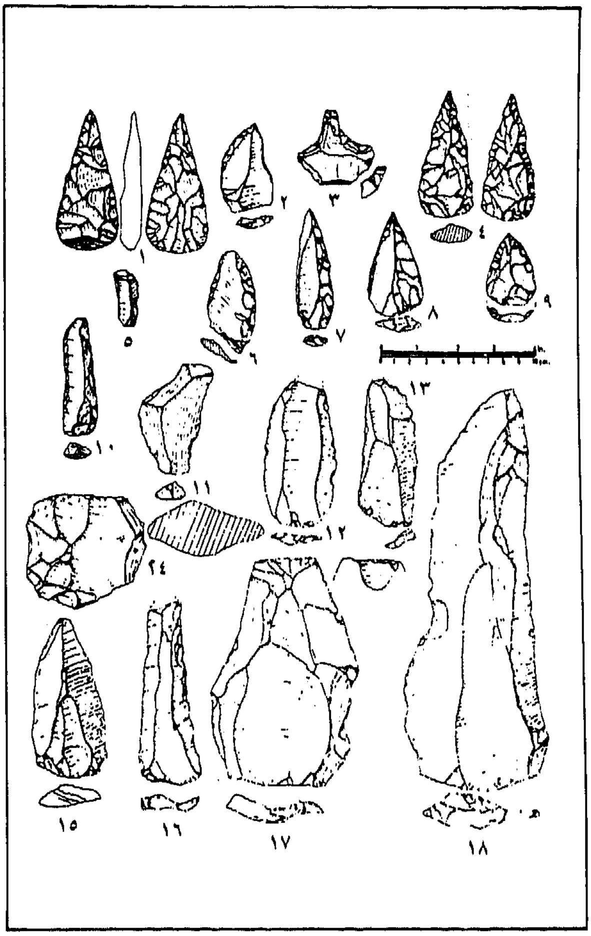
(١١) من الامثلة عن صناعات الصنف الثاني: الطبقة ٥ من كهف المواقد. طبقة ١ من كهف مفولو في ترنسفال، العصر الحجري الوسيط الثاني لنهر كلاسيس، وأدوات موسل باي وكهف سكلدركات جنوب مقاطعة رأس الرجاء، وأخيرا الصناعة الستيلبائية بكهف مومبوا وفي زامبيا.



١



٢



٣

● ١) الحضارة السانغونية في روديسيا، وهي مشابهة لحضارة الزامبيري (القسم الاعلى). ١و٢منقاران، ٣و٨ فأسان نوو يتا الشكل، نواة قرصية، ٥و٦ ـ شظايا مشقفة، ٧ ـ أداة كروية (اللوحة رقم ١٢ في كتاب «ثقافات العصر الحجري في روديسيا الشمالية» بالانجليزية، تاليف ج. د. كلارك، ١٩٥٠، جمعية جنوب افريقيا الاثرية، الكاب).

● ٢) صناعات العصر الحجري الاوسط، تو ين ريفرز (زامبيا).

١ ـ مكشط ذو زوايا، ٢ ـ شظية مستعملة من نواة قرصية صغيرة، ٣ ـ مكشط مترافد الاوجه، ٤ ـ مكشط ذو سن ناقص، ٥ ـ مكشط صغير، ٨ ـ أداة ذات وجهين. وجميع هذه الادوات مصنوعة من الكوارتز ماعدا الاداة رقم ٣ فهي من السيلكس الاسود والاداة رقم ٨ من الدوليريت. ما بين عامي ٣٢٠٠٠ و٢٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر (الشكل ٣٤ في كتاب «ما قبل التاريخ في افريقيا» ـ بالانجليزية، تأليف ج. د. كلارك، ١٩٧٠، دار نشر تيمس وهدسون، لندن).

● ٣) صناعات بيترسبرغ، وبامباتا، مغارة البيوت (كهف المدافن)، الترنسفال، ومغارة بامباتا، روديسيا. أدوات نمطية مما تتميز به بلدان الأدغال الشائكة والبوشفيلد (الشكل ٣٥ في كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧٠).

ترجع أحيانا إلى ابعد من ذلك، كما في الساحل الجنوبي مثلا، وتختص تلك الصناعات باستعمال متنوع لتقنية النواة الصحنية الشكل ولتقنية لوفالوا، ولا سيما فيما يتعلق بقطع شظايا مستطيلة الشكل وبصنع صفائح عديدة. ان الصفائح والشظايا المستطيلة المنحوتة غالبا من المرو والليديانيت، كثيرة بمناطق أمطار الشتاء، جنوب الانحدار الكبير الجنوبي الغربي الافريقي، وبمناطق هايفيلد بولاية اورانج الحرّة والترنسفال. ان التهذيبات اللاحقة بأدوات الصنف ٢، ليست كثيرة. فهي تقتصر عموما على الحواشي، وكثيرا ما تكون مسننة. ونجد خاصّة في الغابات الخفيفة المدارية التي كان استعمال المرو بها منتشرا، شظايا أكثر قصرا نحتت مكاشط وحسب أشكال مختلفة أخرى مع بعض التهذيبات المحدودة. و يتكون جزء من الادوات ـــ وهي قليلة ولكنها مفيدة ـــ من أدوات ثقيلة يمكن أنها انتجت حسبما يعتقد، لاستعمال أعم للخشب ومنتجاته.

ان الصنف الثالث للصناعات (صنف ٣) (١٢) يؤرخ بما بين ٣٥٠٠٠ و ١٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهي تختص بعدد أكبر بكثير من الادوات المهذبة تهذيبا واسعا. ان تهذيب المكاشط والمحكات يكاد يكون غالبا، وليس من النادر أن نجد أشكالا مخنوقة. ويمكن أن تهذب الحدود المورقة الشكل سواء على كامل الوجه الواحد أو على الوجهين. وتنفرد المثاقب والمهاشم بخصائص. و بصفة عامة كانت الادوات أقل حجما، وتظهر عليها، بفعل التهذيب، جودة لم تكن موجودة في الأصناف السابقة.

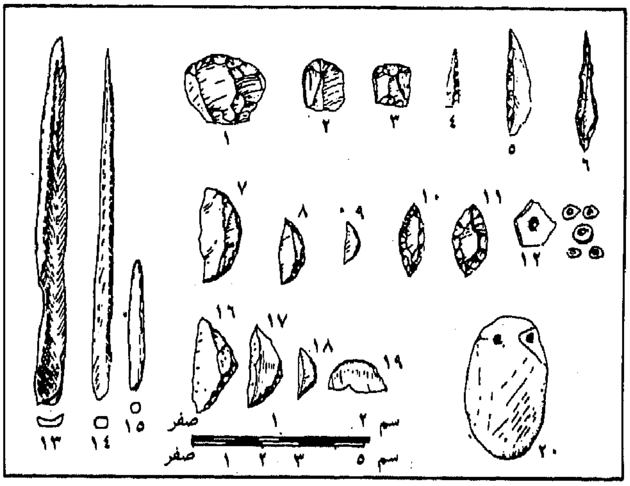
وزيادة على الأصناف الثلاثة التي وصفناها، يوجد صنف رابع (صنف ٤) وهو يختلف عنها ببعض الفروق الواضحة. إنه يشكل المركب المعروف بـ «المغوسي» أو «الفاصل الثاني». فهو يجمع بين الشكل المتطور والمصغر غالبا من تقنية النواة الصحنية الشكل أو لوفالوا، و بين صنع حدود رقيقة ذات حواف متوازية، ومقطوعة بصفيحة من عظم، وقرن، وخشب صلب. أما المواد الأولية المستعملة، فهي الصخور اللابلورية. وأما الأسنة المورقة أو المثلثة، والمكاشط والمحكات المصنوعة منها بطريقة النواة الصحنية الشكل أو طريقة لوفالوا، فقد سويت بكل عناية، وأحيانا بواسطة الضغط وفضلا عن هذه الأدوات التقليدية من العصر الحجري الوسيط، توجد أدوات أخرى مصنوعة على صفائح أو على قطع من صفائح غالبا ما تكون صغيرة، قد عكفت احدى حواشيها أو أنها استعملت أو هذبت حسب طرق متنوعة. وتوجد أنواع أخرى من المناقيش لا سيما شكل مسيب أو صفاحي. يبدوا أن هذا النوع من الأدوات خاص ببعض أقسام الجزء الأسفل من القارة أي بروديسيا * وزامبيا، والشرق من ولاية أورانج الحرة وبجنوب مقاطعة رأس الرجاء و ببعض أجزاء ناميبيا مثلا. الا أنه معدوم ظاهريا من أكبر جزء من القسم الأوسط من النجد الداخلي الذي وفرت فيه الليديانيت أهم مادة خام. فان كان لهذا التوزيع أساس يبقى، علينا أن نضبط الصفات المشتركة بين المناطق التي اكتشفت بها تلك الصناعات من الصنف الرابع.

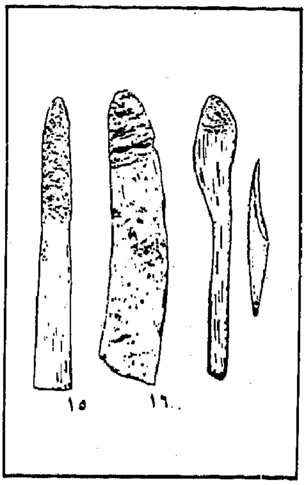
لقد اعتبر ان تلك الصناعات المتطورة تمثل مزجا بين تقنيات «النواة المهيأة» بالعصر الحجري الوسيط وتقنية قطع الصفائح حسبما بالحجري القديم الاعلى، «فهي لا تتجاوز بتاتا ١٥٠٠٠ الى

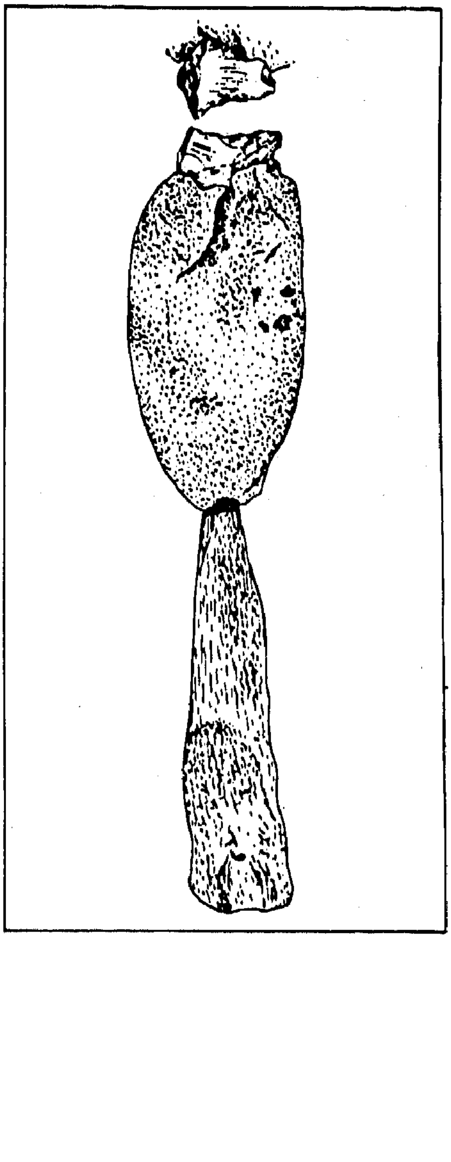
---

(١٢) ومن الأمثلة على ذلك: صناعة بيترز بركين الاعلى بكهف المواقد وكهف مفولو أو كهف بردر في ناتال، والقسم الاعلى من «الستيلبايي» لكهف بيبر بمقاطعة رأس الرجاء، وصناعة بمباطا بكهوف خامي في روديسيا.

(*) في الجزء المطبوع زيمبابوي ـــ تعليق المراجع محمد الفاسي.







● ١) أدوات الصناعات الويلطونية (١ الى ١٢)، في مقاطعة الكاب في جنوب أفريقيا (حسبما ذكره م. س. بيركيت، ١٩٢٨): ١ ـ ٣ محكّات قصيرة، ٤و٥ أدوات حجرية صغيرة ذات حواف مشطوفة،٦ ـ مخراز،٧ الى ٩ قطاعات من دائرة، ١٠و١١ «أهلّة مزدوجة»، ١٢ ـ لآلىء في قشور من بيض النعام. والعيّنات ٣و٤و١٢ من الملجأ تحت الصخر في ويلطون،أما القطع الاخرى فمن سهل الكاب. من السيلكس والحجر الكلسي. أدوات صناعات ماتوبان (ويلطونية روديسيا).(١٣ الى ٢٠) من كهف أمادزيمبا، ماتوبوس هيلز، روديسيا (وفقا لما ذكره س. ك. كوك وك. ر. روبنسون، ١٩٥٤): ١٣ ـ مخراز عظمي مبطط المقبض، ١٤ ـ شوكة من العظم ذات كعب مشطوف، ١٥ ـ عنصر اسطواني، ١٦ ـ ١٩: قطاعات من دائرة وأهلة سميكة من الكوارتز، ٢٠ ـ دلاية من الاردواز (الشكل ٥٦ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» بالأنجليزية، تاليف ج. د. كلارك، ١٩٧٠ دار نشر تيمس وهدسون، لندن).

● ٢) أدوات من الخشب، من موقع البلايستوسين في أفريقيا الجنوبية. ١٥ مقبض أداة دفع (الى اليسار) من المستوى ١ من طبقة الخث في فلوريسباد مينرال سبرينغ، عمرها ٤٨.٠٠٠ سنة قبل الحاضر تقريبا. تمكن مقارنتها بقبضة أداة دفع استرالية، حيث حفرت مواضع غائرة لمنع اليد من الانزلاق ، ١٦ ـ هراوة وأداة مزدوجة الشوكة، طبقة الاستقرار الاشولية في كالامبو فولز (مساقط كالامبو) (زامبيا)، عمرها ١٩٠.٠٠٠ سنة قبل الحاضر. (اللوحتان ١٥ و١٦ في كتاب ج. د. كلارك. ١٩٧٠).

● 3) مدق من شظية على شكل هلالي، من السيلكس الاسود، مثبت بالصمغ على يد من قرن الخرتيت. عثرعليه في مغارة في بليتنبرغ باي، شرق مقاطعة الكاب (حسبما أورده ج. د. كلارك، ١٩٥٩).

٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وعلى هذا الأساس يحصر عدد من التواريخ في هذه الفترة. ولقد تم الحصول حديثا، على تواريخ سابقة لتلك بكثير (١٣) فيما يتعلق بصناعات الصنف ٤ لتي سميت بالمغوسية أو «هويسنز بورت» في جنوب افريقيا (نسبة الى منجم عثر فيه على أدوات مميزة بالقرب من كراهمتاون). فباستثناء كهف منتاكو، بمقاطعة رأس الرجاء، وصناعة التشانكولان برودبسيا*، لم تتوفر لنا مع الأسف اي معلومات دقيقة عن محتوى تلك الإكتشافات بحيث لا نعلم ان كانت تلك المجموعات موحدة أو توجد بها أكثر من صناعة واحدة.

وإذا سلّمنا الآن ان تلك المجموعات موحدة، فان تلك التواريخ البعيدة تدل على ان تكنولوجية متطورة من الصفائح قد تعايشت في إفريقيا الجنوبية مع تكنولوجيا تقليدية تعتمد الشظايا المهيأة بالعصر الحجري الوسيط. والوضع لا يختلف بتاتا عما هو عليه بافريقيا الشمالية حيث يختلف في المستوى المحلي مركبان صناعيان متعاصران وهما ثقافة دابا وثقافة العاطري. وعلى العموم، فسر تطور صناعات الحجر وتتابعها في الماضي بحركات السكان المتمايزين من حيث التكوين الوراثي. الا أن فرضية الهجرة هذه لا تعتمد على حجج أخرى. ان الطريقة التي تبنّى بها السكان الصيادون القاطفون الصناعات، والطريقة التي انتشرت بها بينهم تعود كثيرا الى الإمكانيات والتفوق مما توفر لهم، بالمقارنة مع الأجهزة التقليدية، ولا سيما عندما كان استعمالها ييسّر استثمار موارد جديدة، ان الهجرة مسافات طويلة تبدو ضئيلة بالنسبة للصيادين القاطفين وتهم خاصة السكان الفلاحين، الا إذا كانت تفترض احتلال مناطق «فارغة» مثل العالم الجديد أو حوض الزايير أو المناطق الغابية من افريقيا الغربية في آخر البليستوسين الوسيط. ان الإختراع المستقل من طرف سكان يعيشون في شبه عزلة ولهم موارد وطرق استثمار متشابهة، يشكل تفسيرا أكثر احتمالا للتغييرات الطارئة على الادوات. ان التفسير كامن في وجود الحوافز أكثر مما هو كامن في هجرات واسعة للأجناس البشرية.

ولتوضيح ما نقول يجب أن ندرس دراسة سريعة الشواهد الاحفورية بإفريقيا الجنوبية بعد نهاية الأشولي الذي ترتبط به جمجمة صلدنها. ولما كانت جمجمة كابوي، في بروكن هيل تنتسب نسبا قريبا لجمجمة صلدنها، يحتمل أنهما ليستا متباعدتين زمنيّا. ان العدد القليل من الادوات والاشكال الكروية الخفيفة الآتية من كابوي والتي تبدو أنها متصلة ببقايا بشريات، لا تشكل في حد ذاتها صنفا على انفراد، بل يمكن أن توضع في كل تاريخ بين الاشولي الحديث و بداية «العصر الحجري الوسيط». ولقد اكتشفت بذلك المنجم مستويات سكنية طبقية تنسب الى العهد، أي أنه اذا صحّ ان تفترض بان الجمجمة التي تكاد تكون كاملة والبقايا الاخرى تمثل أسرة بشريات تؤرخ بالسنغون المحلي أو الاشولي النهائي، فانه يستحيل ان نأتي بدليل عليها ما دمنا لم نطبق على الاحفور نفسه تاريخا أكثر دقّة. ومع هذا فان التشابهات بين أحفورات صلدنها وكابوى (بروكن هيل) وبين

(١٣) لقد أرخت صناعات الصنف ٤ بكهف منتاكوب ــ ٢٣٢٠٠ الى ــ ٤٨٨٥٠ سنة وتدور التواريخ في كلاسيس، جنوب مقاطعة رأس الرجاء حول ٣٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر و يكون التاريخ ــ ٥٠٠٠٠ سنة بكهف روزكوبج بمقاطعة أورانج الحرّة وهو ــ ٤٦٣٠٠ سنة بالنسبة للايبي ــ بيترسبورغي بكهف بوردر. أما التشانكولان وهو صناعة من الصنف الرابع بزمبابوي فإنه يقع بين ٢١٧٠٠ ± ٧٨٠ و٢٥٦٥٠ ± ١٨٠٠ ق. م.

* في الجزء المطبوع زيمبابوي تعليق المراجع محمد الفاسي.

القطعة الجمجمية (هـ ١٢) من باد ٤ من فج أولدوواي وشبيهتها في نجاراسي بالرفت من بحيرة اياسي بافريقيا الشرقية، قد تفيد بأن تلك الأشكال «الشبيهة بالروديسية» والأشكال الاخرى المنسوبة الى الانسان العارف قد حلت محل الانسان المستقيم في آخر البليستوسين الوسيط (مثل انسان نياندرتال، باوروآسيا)، وانها كانا في بداية البليستوسين الاعلى منتشرين كثيرين بالمناطق المدارية من افريقيا جنوب الصحراء (١٤).

وقد يعتقد بأن التغيرات المناخية بافريقيا قد طرأت، بالاعتماد على دراسة اللقاحات واللمنجات وغيرها، في نفس الوقت الذي وقعت فيه التغيرات المصاحبة بأوروآسيا للتجمد الأخير ان تشتت الشمل؛ وانعزال السكان البشريين انعزالا يكاد يكون كاملا قد سببا تغيرات وتطورا في اتجاهات مختلفة؛ بينما كانت البشريات تتكيف تكيفا صحيحا في المستوى التكويني والثقافي مع البيئات المختلفة التي استطاعت أن تحتلها.

ومهما كانت الأسباب ــ ولنذكر من بينها اكتساب الكلام، وتطور البنية الإجتماعية والتكنولوجية المتقدمة وغير ذلك ــ مهما كانت تلك الأسباب التي جعلت الإنسان العصري (الانسان العارف) يتميز تميزا واضحا عن البشريات الأخرى، فمن المؤكد أنها هي الأساس في التفاعلات التكوينية التي ترتبت على احلال جنس جديد بصورة سريعة نسبيا، محل أشباه النيادرتاليين، وأشباه الروديسيين، وغيرهم من الأجناس التي لم توفق في تكيفها. و يبدو أن الانسان العصري (وتمثله جماجم التشكل في كيبيش) بالحوض الأسفل من أومو وبحوض بحيرة فكتوريا في كنجرا كان موجودا بافريقيا الشرقية منذ ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وفي افريقيا الجنوبية تنتسب جمجمة فلوريسباد التي تعود الى اكثر من ٤٨٠٠٠ سنة، الى شكل قديم، وقوي قريب من الإنسان العصري. ان عددا من الأحفورات الأكثر حداثة، والمؤرخة تاريخا دون ذلك دقة، والتي يعود جلها الى ما بين ـــ ٣٥٠٠٠ الى ـــ ٢٠٠٠٠ في وسكوب، وكهف بوردر، وتونيلاتس، وسكلدرخات (كهف بير)، وميمبوا وغيرها تمثل سكانا كانوا متميزين في المستوى الجهوي وأصبحوا عصريين وكانوا نواة لاحد الأنواع الثقافية بالعصر الحجري الوسيط.

وفي آواخر البليستوسين، منذ حوالي ١٠٠٠٠ سنة، كان سكان متناسبون تكوينيا لكنهم مختلفون جهويا، وهم الاسلاف البعيدون لبعض الشعوب الحالية، قد تميزوا عن غيرهم ومن ذلك سلالات البوشيمان *، كبارا وصغارا، بافريقيا الجنوبية و بافريقيا الوسطى الشرقي، و«أشباه زوج افريقيا» الاستوائية والغربية، والجانبية «النيلية» بافريقيا الشرقية. ان الاحفورات التي عثر عليها مبعثرة، وهي تقتصر عامة على نموذج واحد. وقل أن توجد دلالات دقيقة عن مدى التغيرات المنتظرة ضمن نفس السكان. الا أننا لا نشك ان «الأجناس» الافريقية الأهلية تعود إلى تاريخ عتيق جدا بالقارة، ويمكن أن نعتبر أنها تطورت طيلة البليستوسين الأعلى وفي بداية الهولوسين على اثر حقبة طويلة من التكيف والانتقاء بأهم المناطق الحيوية الجغرافية.

---

(١٤) يدل تأريخ جديد بالتزامن لحفرتي بشريات على فترة عنه من ١٠٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ قبل الحاضر (ج. بادا: نقلا عنه شخصيا.

(*) في المطبوع «سان» عوض «بوشيمان» تعليق المراجع محمد الفاسي.

وكما بينا سابقا فان الصفائح المصنوعة بالقرع غير المباشر، وكذلك مختلف الأدوات الصغيرة المنحوتة على الصفائح ذات الحواشي المعكوفة المكتشفة مع أدوات الصنف ٤ (هو يستز بورت) كانت تعتبر في الماضي دليلا على تحركات السكان. و يعتقد أن هذه الادوات أدخلتها جماعات مهاجرة من «أناس عصريين». فينبغي أن ننتظر نتيجة دراسة نهائية للمواقع المحفورة لنصل الى حكم حاسم في هذه القضية، اذ كتب لتلك «الفرضية الجنسية» أن تثبت فيما بعد، ولتلك الادوات أن تعكس استعمال تقنيات جديدة شاعت بفعل الحوافز وقبلت لأنها تسمح باستثمار انجع للموارد المحلية، أو لأنها نتاج عوامل مختلفة تماما. ومهما كان السبب، فلا شك أن تسرب تكنولوجية الصفائح ترتبط بتطور الادوات المتراكبة التي تتناسق فيها قطعتان أو ثلاث لتنشأ منها أداة أكثر اتقانا وأكثر نجاعة. ومن المحتمل أن يكون اثبات الحجر أو مواد أخرى بمقابض لبلوغ نجاعة أكبر، قد ابتدأ منذ حقبة الصنف ٢. ان آثار الترقيق على قفا الحدود في موسل باي أو نزع الكعب بتهذيبات معكوسة قد تدل على تعديلات متصلة بإثبات المقبض. ان ابسط طريقة في إفريقيا، لتركيب سكين حجري أو حد للرمي قد تكون باستعمال أشكال مختلفة من الماستيك (الرتنج، الصمغ، وحليب النبات الخ) مع رباطات ليفية ووترية.

لقد صاحب ظهور الإنسان المعاصر في ما قبل التاريخ، سلسلة كاملة من الإختراعات في مستوى التطبيقات والخصائص الثقافية. فالترسبات المتراكمة وبالكهوف والملاجيء تحت الصخور، وكذلك في بعض المواقع بالهواء الطلق، تبين أن المنشآت الفصلية قد أصبحت قاعدة عامة. و يبدو أننا أمام مجموعات أكثر نظاما وإن ظلت متفتحة، ومعرضة في تشكيلها لتحولات مطردة. ان تعدد الأدوات والسعي لتوحيد أشكالها، والاطراد المتزايد لبناء الاضرحة المقصودة، ووضع الأشياء والأطعمة قرب الميت حتى يتمكن من مواجهة الآخرة، والإستعمال الاكثر انتظاما للاصباغ للتزيين، وربما للطقوس أيضا، وحتى تذوق الموسيقى المشهود بشمال افريقيا، كل ذلك يدل على الصفات التكوينية الواضحة التي يتميز بها الإنسان العارف. و يفسر أحد الجوانب من التخصص الأكبر في صنع الادوات على المستوى الجهوي، بالميول الجهوية نحو أنواع من الصيد، ونحو الاستهلاك بكثرة لبعض الأغذية النباتية التي يتطلب تحضيرها الرحى والمهراس. وتظهر أدوات الهرس لأول مرة مع الصنف ٣و٤، لا سيما بعد ــ ٢٥٠٠٠ بقليل. وتصاحب مجموعة من الادوات الثقيلة، أدوات أكثر خفة من الشمال والشمال الشرقي من زامبيا، وهي تعكس اطار استثمار يوفر موارد مشابهة جدا لموارد الزايير وأنجولا.

تبدو لنا بسيطة للغاية الفكرة التقليدية التي كانت لنا عن «العصر الحجري الوسيط» باعتباره مشتملا على اختلافات جهوية متمايزة (ستلباي، بيتوز بورغ، موسل باي، هو يس بورت، الخ) وكلها متعاصرة تقريبا، وتدل عليها بعض الاحفورات الرئيسية. ان صناعات العصر الحجري الوسيط تستحق أن تعتبر نتائج تكيف منتظم مع مناطق أو جهات احيائية جغرافية متمايزة، وقد فرضت فيها حاجات ونشاطات المجموعات الانسانية اختيار المواد الأولية المستعملة لصنع الادوات. ومن أجل اثبات الأهمّية النسبية في عين المجموعة، لمختلف المواد (الخشب، الحجر، العظم، القرن الخ)، يستحسن أن نقارن المعطيات الاحائية البيئية بمعطيات التحليلات من نوع «تحليل ربط

الموقع» (١٥). ان مجموعة من الادوات الحجرية العادية لا تعني وجوبا «الرداءة» كما ان مجموعة من الادوات الحجرية «الظريفة» لا تدل على التفوق. ان الادوات الحجرية توفر لنا في حد ذاتها قسطا أدنى من المعلومات عن سلوك الذين صنعوها، ان الأهم هو إقامة علاقة ارتباط بين هذه الأشياء و بين جميع المنتجات الأخرى الناشئة من النشاط الإنساني والمحفوظة لتقوم شاهدا على مرحلة من مراحل احتلال المكان. ان بنية مواقع العصر الحجري الوسيط قد ظلت أقل تعريفا من بنية الأشولي والعصور السابقة. ان كهف المواقد يعطينا دليلا على وجود مواقد للنار، و يدلنا كهف مونتاكو، على توزيع الادوات حول المواقد في كل أفق. وقد عثر في موقع أورانجيا ١ على أسس حجرية لحواجز ريح عديدة، وتمكنا من العثور على منطقة واسعة محمية كان يقوم فيها نشاط بزايكوكات ٢٧ بمنطقة اورنج ريفر سكيم.

ووجدت عظام مكدسة بعد مرات عديدة وموفقة من الصيد وذلك في كالبنك في ترنسفال. و يبدو أخيرا أنه شرع في استخراج الهماتيت لانتاج الأصباغ منذ ٢٨٠٠٠ سنة تقريبا وذلك حسبما يستفاد من الإكتشافات بكهف الأسود، في سواز يلاند، وجدت سندانات راسخة في الأرض لقطع الحجارة في آفاق ١ في كلمبوفولز. فهي تعود ٢٧٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ولقد اكتشفت بنفس الموقع دائرات حجرية يحتمل أنها حددت المواقد، بينما اكتشفت آثار مبعثرة لمخيم مؤقت من صناعة بمباطا، وذلك بنهر ناطا في بوتسوانا. ان بقايا الحيوانات الدالة على مخلفات غذائية تبين أن الحيوانات الكبيرة كانت تشكل العنصر الأساسي للتموين. ان البعض منها، أي الجواميس، والثور والحيارم والحمر الوحشية والخنزيريات تعتبر من الأنواع التي يكثر جلبها الى أماكن السكن. و بصفة عامة يبدو أنه يوجد بموقع العصر الحجري الوسيط تنوع أكبر في الفصائل الحيوانية مما عثر عليه بالاشولي. ولكن اذا كان اكتساب أسلحة صيد جيدة قد سمح بتنظيم حملات غانمة، فان حيوانات الصيد متنوعة جدا. ولم يصبح الصيد انتقائيا الا عند حلول العصر الحجري المتأخر.

وختاما، لم يبق من الممكن أن نعتبر صناعات العصر الحجري الوسيط دليلا على تقدم بسيط وخطي نحو تكنولوجية أكثر جودة وأكثر تطورا. انها على العكس، تكشف، اذا كانت التواريخ صحيحة، عن عدد من التقنيات المختلفة التي لها قاعدة اقتصادية أساسا. وتتأثر تلك التقنيات بعضها ببعض حسب درجات مختلفة، ويمكن لها أن تتطور تبعا للحاجات المادية. أن الانواع المختلفة المعروفة قد تعبر عن ميول جهوية تتعلق بالموارد واستخراج المواد، وان كانت جل تلك الأنواع تستلزم تعريفا أكثر تدقيقا. ان بعض المواقع الطبقية (مثل كهف المواقد) تبرز مقطوعة متقدمة تماما، بينما يدل التعاقب الطبقي في مواقع أخرى (كلاسيس ريفر على الساحل الجنوبي من جنوب إفريقيا، وكهف. زمبيباطا، بروديسيا) (*) على التقاليد الموستيرية بغربي فرنسا، ويمكن أن تتعاقب

(١٥) ان «تحليل ربط الموقع» هو طريقة دعت إليها فيتا فنزي وهيكز (١٩٧٠) لاقرار الموجود بالقوة من الموارد في منطقة استثمرت انطلاقا من موقع ما قبل التاريخ. وذلك يتطلب تعريف حدود الموطن، وإلى أي مدى يختلف السكن والمجال الحيوي عما هما عليه اليوم (انظر فيتا فنزي، وا. س هكين، ١٩٧٠) في إقتصاد ما قبل التاريخ بجبل الكرمل بفلسطين. تحليل ربط الموقع، وقائع جمعية ما قبل التاريخ، ٣٦، ١ — ٣٧.

* في المطبوع زيمبابوي عوض روديسيا — تعليق المراجع محمد الفاسي.

الاصناف دون تواصل ظاهر. ان تعويض صنف بآخر قد يعود الى أسباب اقتصادية وقد يعكس تغيرات بيئوية أي أنه يدل على ميول غذائية جديدة. فالشواهد النادرة المتوفرة لدينا، تؤيد هذه الفرضية. الا أننا نفتقد التحليلات المفصلة للحيوانات والمعطيات اللقاحية لكي يثبت إن كانت تلك الأنواع البديلة قد طرأت في نفس الوقت بمناطق شاسعة احيائية جغرافية، أو أنها لا تعكس الا تطورا مؤقتا للمواد الغذائية الخاصة بهذا المنزل السكني أو ذاك.

ولما كان العصر الحجري الجديد بجنوب افريقيا معاصرا تقريبا للعصر الحجري القديم الأعلى الأوربي، فان مراحله البدائية تبدو، وان كانت غير معروفة جدا، أكثر معاصرة على العموم للموستيري أو الجبرودي (ما قبل الأورينياسي) في الشرق الأوسط.

العصر الحجري المتأخر

ان الصورة الكلاسيكية عن العصر الحجري المتأخر بافريقيا الجنوبية، تنحصر في الصناعات المتكونة أساسا من الحجارة الصغيرة المسماة عموما «ولطونية»، نسبة الى الكهف الموجود بالغرب من مقاطعة رأس الرجاء الصالح حيث اكتشفت هذه الصناعات المتميزة، ووصفت لأول مرة مثلما كان شأن صناعة المكاشط المسماة سميثفيلد، بالمنطقة الغنية بالليدانيت في هايفيلد. واكتشفت ببعض المواقع من جنوب القارة صناعات أطلق عليها اسم ما قبل ولطونية، وظهرت منذ ما يزيد على ٢٠٠٠٠ سنة وتدل على تغير جذري في تكنولوجية الأدوات الحجرية. وقام مقام النواة المهيأة من العصر الحجري الوسيط، نواة ليس لها شكل معيّن وتقطع منها شظايا غير منتظمة. ان الادوات الوحيدة التي حافظت على طابع خاص تبدو أنها من أنواع مختلفة من المكاشط الكبرى، والمحكات المنحوتة على شظية أو على أدوات حادة وكذلك أشكال عديدة من المحكات هي أصغر ومحدبة. وتوجد منها نماذج في مناجم تقع في الساحل الجنوبي (١٦) من ولاية أورانج الحرة (١٧)، وفي ترنسفال (١٨)، ونامبيا (١٩) حيث هذه الآثار لها علاقة بذبح ثلاثة فيلة.

ان الصناعة المعادلة في روديسيا (*) هي صناعة البوموبكفي التي تؤرخ بين ± ٩٤٠٠ و١٢٢٠٠ سنة قبل الحاضر. ولها علاقة ارتباط بمواقد كبرى ذات رماد أبيض، و ببعض الحدود الاولى من العظم المكتشفة بذلك العهد. ولعل الأمر يستوجب أن نربط بها أيضا مستوى من كهف ليوبارد هيل في زامبيا بـ٢١٠٠٠ الى ٢٣٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهناك مكتشفات أخرى لم تؤرخ

(١٦) كهف خليج نلسون، ضبط تاريخه بـ ١٨٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ماتجس ريفر الذي يعود الى ١١٢٥٠/١٠٥٠٠ قبل الحاضر، ثم أوكهورست. أما في كهف خليج نلسون فتوجد صناعة تشمل صناعة المحكات الحادة وتعود الى تاريخ يتراوح بين ١٢٠٠٠ و٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ان أغلب الادوات مصنوعة من شظايا كبيرة. ولا توجد أشكال مصنوعة من حجارة صغيرة وتوجد صناعة قبل و يلطونية في مناجم أخرى من منطقة الجبال الجنوبية، مثلا في ممكوتبوم حيث تؤرخ بـ ١٠٥٠٠ ± ١٩٠ قبل الحاضر.

(١٧) «سميثفيلد أ»، به مثلا صناعة الفترة ١، من زيكوكات ١٣.

(١٨) أوتكومست، أرخت بـ ٧٦٨٠ قبل الحاضر.

(١٩) وندهوك (Windhock) تعود الى ± ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر.

(*) في المطبوع زيمبابوي ـــ تعليق المراجع محمد الفاسي.

في بوندولاند (كهف أومكزنا) بوادي الزمبيز الوسيط، في زامبيا (لوكاندا) بمناطق أخرى و يبدو من هذا التوزيع آن تغيرا تكنولوجيا عميقا قد عم بين±٢٠٠٠٠ و٩٠٠٠ سنة. ولقد ظلت أسبابه غير واضحة، الا أن مؤلف هذا الفصل يفترض أنها قد تكون نتيجة تغيرات البيئة الطارئة بذلك العهد والتي قام الدليل على وقوعها في عدد من المواقع بافريقيا الجنوبية (خليج نلسون زمبيباطا الخ). وقد تكون نتيجة تطور انتشار أدوات وتقنيات أكثر نجاعة تتعلق خاصة بطرق جديدة في الصيد.

ان تلك الصناعات التي قبل «الويلطونية» متصلة باستثمار ذوات الحوافر الكبرى: الحيارم النو، الظباء الزرقاء، والكوغا. و يبدو أن تلك الصناعات قد ناسبت، في خليج نلسون، تغيرا بيئيا طرأ بعد ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر. لما عوضت حيوانات المروج أنواع من الغابة العروية. يضاف الى ذلك أن ظهور عدد كبير من الحيوانات البحرية ضمن بقايا الحيوانات، يدل على أن ارتفاع مستوى البحر، مدة المراحل الأخيرة من البليستوسين، كان قد يسر الاستثمار المباشر للحيوانات البحرية انطلاقا من ذلك الكهف.

و يبدو اليوم ان الصناعات ذات الصفائح المحتوية على نسبة عالية من أشكال الحجارة الصغيرة ذات الحافة المعكوفة كانت قد ظهرت بجنوب افريقيا الوسطى في فترة سابقة بكثير لما كان يعتقد. وتمثل أحدى تلك الصناعات الأكثر قدما، المرحلة القديمة من الصناعة النشيكوفية (نشيكوفو ١) في زامبيا حيث يوفر أقدم تاريخ ١٦٧١٥ ± ٩٥ سنة قبل الحاضر. وظهرت صناعة ولطونية في روديسيا (*) في حوالي ١٢٠٠٠ قبل الحاضر (كهف تشانكولا) و بعد ذلك بقليل بجنوب افريقيا (تقريبا ٨٠٠٠ الى ٥٠٠٠ قبل الحاضر وتوازي هذه الأمثلة من جنوب افريقيا الوسطى صناعات حجرية صغيرة محضة لها صفائح ذات ظهور أصلها من مناجم افريقيا الشرقية. من ذلك صناعات أوكندا (كهف منيا، وجزيرة بوما ١٤٤٨٠ ± ١٣٠ قبل الحاضر) والكينيا، ومن رفت نكورو/نيفاشا (برولا ونجد درفت، ١٣٣٠٠ ± ٢٢٠ ق. ح) ومن طانزانيا الوسطى (ملجأ تحت صخرة في كيسيزي، ١٨١٩٠ ± ٣٠٠ ق. ح ويمثل التشيتولي بحوض الزايير صناعة قريبة منها لكنها مختلفة جهويا (١٢٩٧٠ ± ٢٥٠ قبل الحاضر).

ان التقاليد الحجرية الصغيرة تناسب تطور أشكال من الادوات المتعددة التركيب وتتزايد نجاعتها. و يعتبر القوس والسهم أهمها، ونحن نجهل متى ظهر هذان السلاحان، بافريقيا لاول مرّة. ولعل ذلك كان قد حصل بالمرحلة الأخيرة من البليستوسين، ومن الأدوات التي لا تقل أهمية عن القطع والأشكال الأخرى من الادوات ذات الحافة المعكوفة الحجرية المستعملة عمادا للسهام نذكر مختلف أشكال الحدود العظمية وأسلحة الرمي التي يحتمل أنها كانت حدود سهام. ان البعض منها يعود بدون شك الى ١٢٠٠٠ سنة.

ويمكن التعرف على مقطوعات تطورية في تلك الصناعات الحجرية وذلك بأماكن عديدة من افريقيا الجنوبية. الا أنه يحتمل ان النواة شبه الصحن قد بقيت في مناطق أخرى، مثلما هو الشأن بالشمال الغربي من زامبيا، حتى الألفية الثانية قبل الميلاد، و يبدو أن العناصر الحجرية الصغيرة

---

* في المطبوع زيمبابوي ـــ تعليق المراجع محمد الفاسي.

الولطونية قد انقرضت في أماكن أخرى (بولاية أورانج الحرة مثلا) فعوضتها صناعات يغلب فيها المحك (سميثفلد ب).

ان المواقع المعروفة من العصر الحجري المتأخر تفوق عدد المواقع المعروفة من العصر الحجري الوسيط. ويحق لنا بأن نعتقد أن بداية الهولوسين كانت حقبة تزايد ديمغرافي. ومن ذلك العهد أيضا (١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر) احتلت الكهوف والملاجيء تحت الصخرية أكثر فأكثر. ولقد استثمرت الموارد المحلية استثمارا أكثف مما كان. وتبين بقايا الحيوانات المكتشفة بمواقع السكن الأهمية المتزايدة للصيد وقنص حيوانات معينة. ويحتمل أن يكون هذا النوع من الإستثمار لا يختلف عن نوع الإستثمار عند أفراد قبيلة سان الحاليين في كالاهاري والصيادين القاطفين من أهل المنطقة المدارية الجافة.

ان تنقلات احدى الجماعات، وموطنها مرتبطة بدون شك بالموارد الفصلية من الماء والأعشاب والحيوانات. ولذا يمكن أن نتصور إذا كانت تقع اتصالات منتظمة بين مجموعات متجاورة. ان أولئك الذين كانوا يعيشون قرب عين ماء صافية أو قرب البحر كانوا يستثمرون أيضا الموارد المحلية من الأسماك، والاصداف والثديات المائية، وكان آخرون يصطادون خاصة القطعان الكبيرة من الظبي، و يصطاد آخرون الحيوانات الصغيرة، وإن أشكال الادوات الأكثر رواجا متكونة، في المنطقة الجبلية الجنوبية بمقاطعة رأس الرجاء الصالح، من محكات صغيرة لها أنواع مختلفة، أما البقايا الغذائية فهي غالبا للثدييات الصغيرة، المصطادة بالفخ. ومن جهة أخرى، كشفت الصناعات في روديسيا (*) وزامبيا وغيرهما، وفي المروج والغابات الخفيفة عن قطع عديدة حجرية صغيرة وعن صفائح ذات حافة معكوفة لها صلة ببقايا الثدييات الكبيرة. ان تلك الادوات الحجرية الصغيرة تفيد أن الاسلحة الأساسية قد كانت القوس والسهم، وكانت الحجارة الصغيرة مثبتة بمقابض، مفردة أو زوجا لتشكل حدودا عريضة قاطعة تشبه حدود مصر في عهد الأسرة المالكة، وتشابه بعض سهام قبيلة سان بالعهد التاريخي والتي وصلت إلينا. ولقد كان امتداد مواطن مجموعات الصيادين يخضع لعوامل بيئية مختلفة. ولقد تبين بالغرب من مقاطعة رأس الرجاء (دى هنغن) ان مجموعات ما قبل التاريخ من السكان كانت تقضي الشتاء على الساحل، وتعيش خاصة من منتجات البحر، وتقضي الصيف بالجبل على بعد ١٤٠ كلم في الداخل حيث كانوا يأكلون نباتات مختلفة والهيركس والسلحفاوات وحيوانات أخرى صغيرة.

احتل الصيادون القاطفون من العصر الحجري المتأخر بالجهات المواتية جدا من افريقيا الجنوبية، بعضا من المناطق التي تعد من أغنى المناطق في العالم من جيث الموارد الغذائية الحيوانية والنباتية. ولما كانت موارد الصيد، مثلما هو الشأن هنا، غالبا لا تنفذ فقد وجد الصيادون متسعا من الوقت لتعاطي أنواع من النشاط الفكري مثلما تشهد مثلا بذلك الآثار البديعة من فن الرسم الجداري بجبال دركنزبوك وروديسيا (*) وناميبيا. والصحيح أن عددا من تلك الأعمال الفنية لا يتجاوز بتاتا ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة وان كانت توفر شهادة لا نظير لها عن طريقة عيش أولئك الصيادين القاطنين من قبل التاريخ. وقد دامت في حالات كثيرة، حتى عند السان في كالاهاري

* في المطبوع زيمبابوي ــ تعليق المراجع محمد الفاسي.

الوسيط ومن الواضح أن ذلك الفن يعود أيضا الى عهد بعيد جدا. أما اللوحات الأكثر قدما والمكتشفة الى الآن بافريقيا الجنوبية فقد اكتشفت في ملجأ تحت صخرة في أبولو ٢ بالجنوب الغربي الافريقي (ناميبيا حيث تظهر على جدران صخرية وذلك في مستوى أرّخ بـ ٢٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر).

ان سكان العصر الحجري المتأخر، العائشين من الصيد والقطف، مدة القرون الأولى بعد الميلاد، ما لبث أن حلّ محلهم في أكبر جزء من إفريقيا الجنوبية فلاحون كانوا يعرفون صناعة المعادن. ويحتمل كثيرا أن يكون أولئك السكان هم الرواد الأوائل للمهاجرين الناطقين بلغة بانتو الذين هاجروا من موطن يوجد بالشمال الغربي (تشاد وكمرون) للاقامة بالجزء الجنوبي من القارة. وعلى هذا الأساس لا توجد بافريقيا الجنوبية، آثار الثقافة الحجرية الجديدة وذلك يعني انعدام فلاحين يصنعون الفخار، ووجود سكان يعرفون أدوات حجرية لا سيما الفؤوس المهذبة والمصقولة. إلاّ أنه ينبغي أن نعدل هذا الحكم، فنقول بأنه، رغم فقدان أثر الفلاحة قبل ظهور السكان من عصر الحديد فلا شك أن بعض المجموعات من العصر الحجري المتأخر بافريقيا الجنوبية الغربية كانت تملك أغناما ثم أبقارا وذلك حوالي القرن الأول قبل الميلاد وحتى قبل ذلك ويمكن أن نشبه البعض منهم بقبائل خواي خواي التاريخيين أي برعاة رحل لا يتعاطون الفلاحة لكن كانوا يصنعون نوعا معينا من الفخار. الا أنه لم يوجد أي أثر من سكن الرعاة، بحيث يجب علينا أن نعود الى المراجع التاريخية للتعرف على تلك المجموعات عندما يتعذر علينا أن نعول على علم الآثار. ولنا أن نتساءل أيضا من أين أتتهم مواشيهم؟. ان المعطيات اللغوية تبين حسب بعض المؤلفين أنها أتتهم من شعوب تتكلم لغات السودان الشرقي والأوسط، بينما يميل آخرون الى مهاجرين من مطلع عصر الحديد. ومهما كان المأتى، فهناك احتمال ضعيف في أن تكون بداية تلك المرحلة الرعوية سابقة بـ ٣٠٠ سنة للميلاد، علما بأنها انتهت في القرن الثامن عشر.

وهكذا فان نتائج ابحاث ما قبل التاريخ الجارية بإفريقيا الجنوبية تبين الدور الهام الذي لعبته أراضي النجد العالي الداخلي في تطور الإنسان صانع الادوات. ان الذكاء والنجاعة المتزايدين اللذين اعتمدهما سكان من البشريات المتعاقبة لسَنّ أنماط السلوك، وتكوين رصيد ثقافي مكانهم من استثمار موارد النظم البيئية التي عاشوا بها، استثمارا كثيفا، يسمح بأن نفسر الإختلافات الجنسية والثقافية التي تتميز بها الشعوب الأهلية بأفريقيا الجنوبية الحالية (سان وخواي خواي وبرغداما، أو فطجمبا، وتوا، وبانتو) مع الافادة بقدم وتواصل صفات سلوكية بارزة، تواصلا كبيرا بحيث ظلت قائمة الى عهدنا هذا.

الفصل الحادي والعشرون

ما قبل تاريخ افريقيا الوسطى

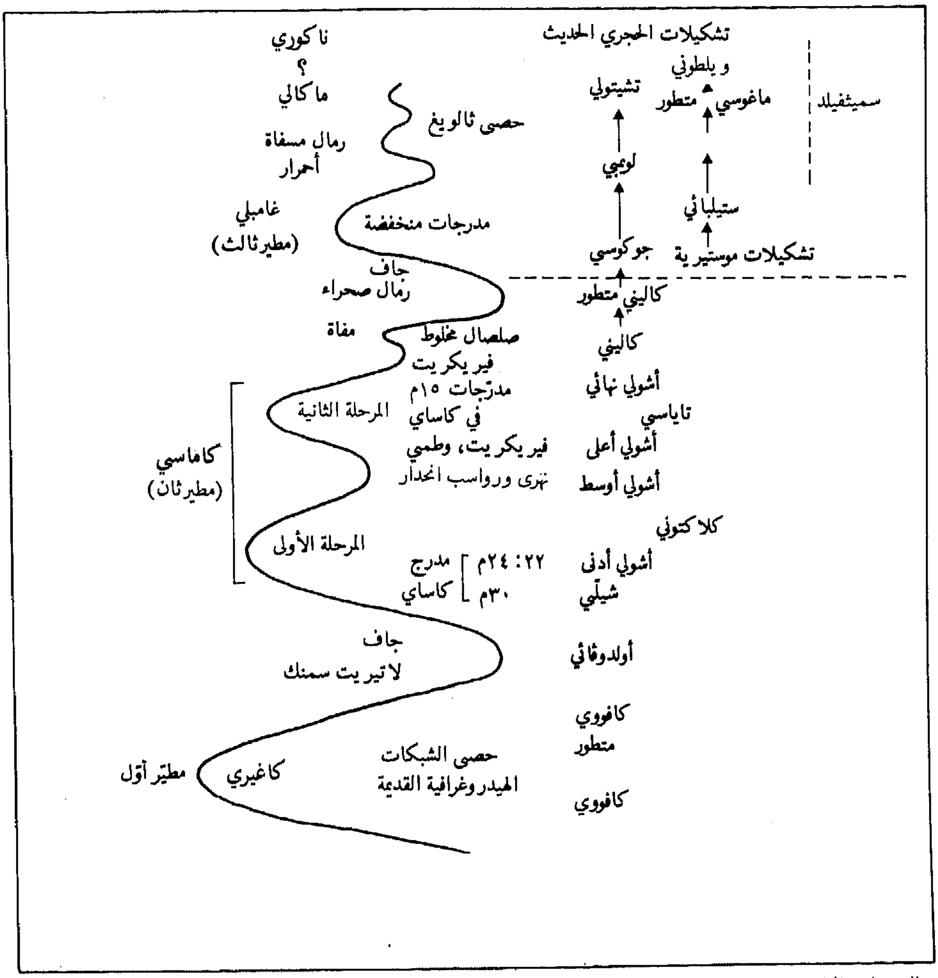
القسم الأول

بقلم: روجي دي بايل دي هرمنس

يمتد حوض الزايير (الكونغو سابقا) جغرافيا من خليج غينيا غربا الى منطقة البحيرات الكبرى شرقا، تقريبا على خط التوازي العاشر جنوبا من أنجولا وشابا (كتنجا سابقا) وعلى الخط الفاصل بين مياه الأحواض الهيدروغرافية من تشاد والزايير شمالا (١).

فهو يمثل حاليا المنطقة الاستوائية أساسا و يعتبر كساؤه الشجري المتكون من الغابة الكبرى، أكثر الأكسية كثافة بافريقيا، فمن المعلوم فعلا أن تلك المنطقة الغابية قد امتدت، في فترات رطبة جدا معينة، نحو الشمال أكثر مما هي عليه الآن ولقد تقلصت مدة الآلاف من السنين ولم تظل قائمة الا على شكل أشرطة غابية يزداد أو يقل عرضها على طول الأنهار والجداول. واذا كنا نؤكد على هذا الكساء الشجري فلأنه كان عاملا أساسيا في نمو وتطور حضارات ما قبل التاريخ بتلك المنطقة. وهذه الحضارات وخاصة ما أعقب منها الاشولي تبدو من خلال الأبحاث والمعارف المتوفرة حاليا كأنها قد تطورت بعين المكان، وتأثرت بالغابة البدائية و بدون أن يحصل الا تصال بينها و بين السكان العائشين بالمناطق ذات النباتات القليلة الكثافة. أما في الشمال فان هجرات العصر الحجري الحديث المتجهة من الشرق الى الغرب قد جانبت الغابة ولم تدخلها كأنها تمثل عقبة وعالما لا يدخله السكان المعتادون العيش بمناطق السباسب والمساحات الكبرى المكشوفة. فلا شيء في صناعات العصر الحجري القديم ولا شيء في العصر الحجري الحديث، ولا شيء في فن الرسم

(١) نقصد بافريقيا الوسطى البلدان الآتية: الزايير امبراطورية وسط افريقيا، جمهورية الكونغو الشعبية، الجابون، الكامرون، و بعض الأجزاء من أنجولا، ورواندا، و بوروندي.



● التغيرات المناخية وصناعات ماقبل
التاريخ في حوض كونغو:
عن جـ. مورتلمانس (١٩٥٢).

الجداري الذي لم يكن على أية حال معروفا بحوض الزايير، ولا شيء من كل ذلك يسمح بأن نؤكد على حدوث اتصالات مع السكان القاطنين بالفيافي التي لم تتحول بعد الصحراء الكبرى الجافة المعروفة اليوم. وان حدث أن وقعت اتصالات، ينبغي أن نتجه نحو الشرق والجنوب من افريقيا، كما ينبغي أن نبحث بها عن ابتداء هجرة مجموعات بشرية سكنت في الغابة الاستوائية الكبرى غربا.

أما فيما يتعلق بالمناخ، فان الدهر الرابع بتلك المنطقة قد يكون قريبا من مناخ افريقيا الشرقية مع تغييرات محلية راجعة الى علو المناطق الجبلية الشاهق، و يوجد حسب ج. مرتلمنس (١٩٥٢) أربع حقبات ممطارية ومرحلتان رطبتان (٢):

الناكوري — الرطب الثاني
الماكالي — الرطب الأول
الكمبلي — الممطار الرابع
الكنجري — الممطار الثالث
الكاماسي — الممطار الثاني
الكاغيري — الممطار الأول

و يتعلق عمران منطقة من المناطق الى حد ما بحسب هذا التعاقب بين حقبات جافة نسبيا وأخرى رطبة جدا وذلك عن طريق ما يطرأ من تغير على ما نسميه اليوم «البيئة».

ان التوغل العسير في اعماق الغابة قد جعل العديد من المؤرخين لما قبل التاريخ، يقولون بأن عدد سكان تلك المنطقة كان قليلا من العصر الحجري الأسفل الى العصر الحجري الجديد. ونحن لا نوافق على هذا الرأي و ينبغي أن نقضي على الأسطورة المتعلقة بصعوبة العمران بتلك المنطقة. واذا كان مجموع الادوات الحجرية بتلك المنطقة كلها قليلا الى حد ما، فلأن البحاثين قد ترددوا في القيام ببحوث طويلة المدى في أحوال عسيرة. واعتبارا للنتائج التي حصلت عليها بعثات عديدة بأنجولا و بامبراطورية وسط افريقيا و بالزايير، واعتبارا للكميات الهائلة من الحجارة المنحوتة المحصل عليها، يجب أن نعترف ان عمران ما قبل التاريخ الذي حصل في ما يسمى «الغابة الكبري» كان هاما بقدر ما كان هاما بالمناطق الاخرى من افريقيا.

يجب أن نضيف في النهاية أن الآثار النباتية بالمنطقة الاستوائية الرطبة، لم تبق محفوظة بسبب حموضة الارض، ولذلك انعدمت الاحفورات الانسانية، و بقايا الحيوانات والأدوات العظميّة، الا بعض الاستثناءات النادرة، علما بأنها متعلقة بالحقبات الحديثة جدا، بل والتاريخية.

---

(٢) الناكوري: مرحلة رطبة تعرف بالترسبات الشاطئية دون ١٠٢ مترا من بحيرة تكورو بالكينيا.
الماكالي: مرحلة رطبعة تعرف بالشواطىء البحيرية من ١١٤ مترو ١٠٢ مترمن بحيرة نكورو.
الكمبلي: الممطار الرابع الذي يعرف بما حول بحيرات نكورو، وتيفاشا وخاصة المنتيت (غمبلز كيف) في الكينيا.
الكنجري: الممطار الثالث الذي عرفه ل. س. ب لايكي بحسب راسب أحفوري اكتشف بكنجر على خليج كفرندو.
الكماسي: المطار الثاني الذي ينسب اسمه الى ترسبات المشطورات التي درسها جريجوري بكمسيا بالرفت فالي بالكينيا.
الكاغيري: الممطار الاول، سمي بهذا الاسم بسبب نظام سطوح كاغيرا أو أوغندا، اكتشفه أ. ج. و يلاند عام ١٩٣٤.

لمحة تاريخية عن البحوث

لقد ظل ما قبل تاريخ المنطقة الغابية الاستوائية من حوض الكونغو مجهولا بسبب كسائه الشجري العظيم وتشكلاته اللاتيرية الكبرى التي اندمجت بها بقايا الصناعات التابعة لحضارات عديدة في ما قبل التاريخ.

ان الشروع في معرفة ما قبل تاريخ تلك المنطقة قد استوجب انتظار تقدم الأشغال العامة الكبرى (وضع خط سكة الحديد، الطرقات، الجسور وقنوات التطهير) والبحوث المنجمية حتى «يتوفر للجيولوجيين ومؤرخي ما قبل التاريخ رسوم جيولوجية تكشف عن الأدوات الحجرية».

وفي الزايير يبدو أن الاكتشافات القليلة الأولى لأدوات ما قبل التاريخ كانت اكتشافات الرائد كل. زبونسكي التي وقعت أثناء بناء سكة الحديد. ولقد درسها سنة ١٨٩٩م كس. سترايتر الذي حاول أن يستخلص بعض المعلومات المؤقتة، رغم افتقاره لدراسة طبقات الأرض، ثم تطورت البحوث بين ١٩٢٧م الى ١٩٣٨م ونشرت أعمال هامة، لا سيا أعمال ج. كولات، ف. كابو، ا. بولو ينار، م. بكارت، ج. مرتلمنس، والقس أنسيودي فابو، والقس هـ. بروي. وهناك أعمال أخرى أحدث من تلك، قام بها هـ. فان مورسل، وف، فان نوثن، ود. كاهين الذي ما تزال أبحاثه جارية.

وفيا يتعلق بالكونغو برازافيل، وهي منطقة غابية أساسا، تعتبر الاعمال المنشورة أقل عددا. وينبغي أن نذكر أبحاث ودراسات ج. بابت، ر.ل دواز، ج. دور، هـ. كيلي، ج. لومبار، وب. لورواً.. وتتصل أعمالهم خاصة بالاكتشافات التي وقعت على طول سكة الحديد من بوانت نوار الى برازافيل. ان ما قبل تاريخ الجابون معروف من خلال أعمال كي دي بوشان، وب. فرين، ب. بلنكوف وإ. بومري. وهنا أيضا تعتبر المعلومات محدودة ولم توضع رسوم طبقية أرضية بصفة دقيقة.

ان أول الأعمال التي وقعت بامبراطورية وسط افريقيا هي أعمال الاستاذ لاكروا، الذي اكتشف سنة ١٩٣٠ م، أدوات لما قبل التاريخ في طمي الأنهار من مرتفع موكا. ولقد نشرت تلك الاكتشافات سنة ١٩٣٣م من طرف القس هـ. بروي، وأشار في نفس السنة فليكس ايبوي في دراسة اثنوغرافية، الى بعض الادوات الحجرية المكتشفة إثر أعمال مختلفة. وانطلاقا من ١٩٦٦م/١٩٦٨م أجرى ر. دي بايل دى هرمنس بحوثا منهجية في البلاد. ولقد سمحت المنشورات التي تلت ذلك بالوقوف على فكرة واضحة عن صناعات ما قبل التاريخ وجدت بمنطقة لم يكن يعرف عنها شيء.

ان ما قبل تاريخ الكمرون لم يكن معروفا حتى السنوات الاخيرة واستدعى ذلك انتظار أعمال ن. دفيد، ون. هرفيو، وأ. مارلياك، لاعطاء لمحة عامة عن منطقة افريقية أخرى تنتظر الاستكشاف.

أما فيا يخص أنجولا، فلقد اهتم بها ج. ينمرت وهـ. بروي، وج. د. كلارك الذين قاموا بأعمال تتعلق بالمناجم الغنيّة بالطمي المستكشفة في ورشات الألماس.

أسس الترتيب التاريخي

سنعتمد في هذه الفقرة على أعمال الترتيب التاريخي الخاصة بالدهر الرابع لحوض الزايير التي وضعها ج. مرتلمس (١٩٥٥م ــ ١٩٥٧م) والتي تعتبر بحسب المعلومات الحالية مقبولة جدا.

المطار الكاجيري

يبدو أنه أهم ممطار من الممطارات الاربعة التي تتابعت. فهو حقبة من الحفر الداخلي المكثف الطارىء على الأودية ومن تشكل مسطحات عتيقة جدا من الحصاة التي تحوي أقدم صناعات الزايير. ان هذه الصناعات التي تكاد تكون في مجموعها من الحصاة المهيأة، تصنف ضمن ما قبل الأشولي الأسفل (كفوان، ج. مرتلمس). ولقد أعقب جفاف كبير المطار الكاجيري وكسا المسطحات العتيقة وعنة (Latérite) كثيفة نعثر بها على ما قبل أشولي أكثر تطورا. لكنه غير مرتب ترتيبا تاريخيا صحيحا نظرا لانعدام رسم طبقته الأرضية.

الممطار الكاماسي

يوجد هذا الممطار بالطابق النهائي من البليستوسين الاسفل و يشمل كل البليستوسين الوسيط. وهو ينقسم في الواقع الى مرحلتين تفصلهما مرحلة أكثر جفافا. وتتصل بهذه الحقبة، في حوض كنساي مسطحات من ٣٠ مترا و ٢٢ ــ ٢٤ مترا. وكذلك تتصل بها في شابا (كتنجا) وفي غرب امبراطورية وسط افريقيا على ما يبدو حصباء المسطحات وأعماق الأودية المسماة طالويك (Thalweg) ، والمجاري الاحفورية لجداول الماء، ولقد حدث في ذلك الوقت بمناطق ذات تضريس أرضي قليل النتوء، ردم كامل في بعض مجاري الانهار وحفر نهر جديد، و يوجد بتلك الطبقات العميقة من تلك المجاري الاحفورية أدوات ما قبل أشولية أكثر تطورا من الأدوات التي توجد بمسطحات الكاجيري القديمة. ولقد حدث أن برزت به بعض ذوات الوجهين، الا أن رتبته التاريخية ليست مضبوطة كل الضبط.

ان نهاية المرحلة القصوى من الكاماسي شهدت الاشولي الاسفل يعقب الصناعات ذات الحصاة المهيأة. وما زال ذلك الاشولي الاسفل يشتمل على حصاة عديدة منحوتة ونلحظ فيه بروز أدوات جديدة: ذوات الوجهين، والقدومات بصورة خاصة. فهذه الأخيرة التي كانت قليلة جدا في الأول، سرعان ما اتخذت مكانة مهمة بين أدوات تلك الحضارة.

وأعقبت الجزء الأول الاقصى من الكاماسي، مرحلة معتدلة الجفاف، ونشهد فيها تشكل وعنات (تربة حمراء) جديدة، وردم منحدرات، ورواسب من غرين الانهار، ولقد حدث أشولي متوسط في تلك الحقبة، وهو يتكون عادة من شظايا يحصل عليها عادة بالقطع الجانبي الذي يوصف «بتقنية فكتوريا الغربية ١ » (٣).

---

(٣) اسم يطلق على تقنيتين من القطع «لوفالوا» المشهودتين خاصة في الصناعات المجموعة قرب شلالات الزمباز بفكتوريا (شلالات فكتوريا).

وشهد الكاماسي الأقصى الثاني (٤)، وهو أقل بروزا من الأول، وضع رواسب جديدة من الحصباء، وتشكل مسطحات علوها ١٥ مترا في كساي، وتنتهي الحلقة ببداية فترة جافة تشهد تشكل تفتتية قطع جديدة وهي فكتوريا الغربية ٢، وتُطور أداة أخرى هي المنقر الذي سيحتل بالمنطقة الغابية مكانة هامة بمجموع الصناعات التابعة للأشولي.

وتعتبر حقبة ما بعد الكاماسية الجافة أهم ما عرف بتلك المنطقة، ان الفيافي تمتد نحو الجنوب وتمتد صحراء كالاهاري نحو الشمال و يرى بعض المؤلفين أن الغابة الاستوائية قد انقرضت فعلا ولم تظل قائمة الا في مناطق صغيرة غابية. وتراكمت رمال حمراء صحراوية بكثافة كبيرة أحيانا، فانقرض الاشولي، بل يبدو أنه أخذ يتحول بعين المكان الى صناعة جديدة تدعى سنغون (Sangoen) وذلك بافريقيا الاستوائية والمناطق الغابية خاصة.

ان الادوات تتحول والقدومات تقل وتنقرض نهائيا، وتصبح الفؤوس اليدوية أكثف وأضخم، وتتوافر المناقر جدا وتظهر بين الأدوات أدوات جديدة: من ذلك قطع ذات وجهين ممدودة لها أحجام كبيرة. و يبدو أن تلك الأدوات ملائمة للحياة الغابية. الا أن ذلك يتنافى مع المحيط الذي تطور فيه السنغون اذا قبلنا الفرضية القائلة بأن الغابة الاستوائية قد زالت بفترة جفاف ما قبل الكاماسي الذي حدث به. ويجب أن نقر أن السنغون هو الآن احدى الصناعات الافريقية التي لا نعرف عنها الا القليل.

المطار الكمبلي

شهد المطار الكمبلي عودة تشكُّل الغابة الاستوائية بينما أخذت الأنهار تحفر الاودية وتضع طمي المسطحات المنخفضة، وهو طمي يتكون من الرمال الريحية المتراكمة إثر الجفاف الأخير. وقد تطور السنغون بالزايير الغربي و بكساي نحو صناعة جديدة أقل ضخامة، وهي اللو پمبي، الذي يعتبر صناعة تنتسب الى الحضارة الغابية. وشهدت المناطق الجنوبية الشرقية الصناعات المقاربة لصناعات جنوب افريقيا والكينيا، وهي صناعات شظايا وحدود تشبه في مظهرها الصناعات الموستيرية وتعرف بعبارة «العصر الحجري الوسيط». ولم تحدد، سواء ضمن طبقيّتها الأرضية التي كثيرا ما تكون معدومة، أو ضمن الأنواع المعروفة.

الماكالي والنكوري، مرحلتان رطبتان بعد الكمبلي

تعتبر هاتان المرحلتان أقل بروزا من الممطارات السابقة وتندرج بينهما مرحلة قصيرة جافة. والنكوري غير معروف معرفة واضحة جدا بحوض الزايير. وقد حفرت الأنهار في الماكالي قليلا مجراها ثم حدث ردم جديد. وفي عين المكان تطور اللو پمبي وأصبحت الأدوات صغيرة أكثر فأكثر بينما أصبحت القواطع، وحدود الأسهم وافرة جدا بالتشيتولي، وهي حضارة الصيادين. وتطورت بالزايير الشرقي، وفي شابا وفي أنجولا مظاهر عدة تضمنها العصر الحجري المتأخر، هي مجموعة تستوجب النظر

(٤) يعتبر بعض المؤلفين هذا الكاماسي الاقصى الثاني «الكنجري» وذلك ما يشكل ٤ حقبات رطبة عوضا عن ثلاث، أحدهما ذات مرحلتين متميزتين.

فيها من جديد لأن صناعات عديدة مختلفة ومتنافرة قد أدرجت فيها حتى أصبح من العسير ضبط موضعها بدقة في الترتيب التاريخي.

ولقد اكتسحت الصناعات الحجرية الجديدة مدة الحقبة الرطبة النكورية وبعدها، والتي منها التشيتولي، اكتسحت افريقيا الاستوائية حيث يبدو أنها دامت بها أكثر مما دامت في مناطق أخرى، ولم تدخل حضارة النحاس والحديد الا في عهد متأخر جدا بتلك المنطقة ذات المنافذ الصعبة، وذلك واقع يبين مرة أخرى تطور حضارات ما قبل التاريخ بعين المكان.

صناعات ما قبل التاريخ بحوض الزايير

صناعات ما قبل الأشولي

هناك صناعات في ما قبل التاريخ قديمة جدا ومتكونة من حصاة مهشمة وهي معروفة حق المعرفة بحوض الزايير بأجمعه. فهي مخفية عادة تحت الوعنات القديمة مثلما هو الشأن بحوض كفيلة العليا بالزايير وفي امبراطورية وسط افريقيا، وذلك في شكل التكونات الوعنية من مرتفع سالوبصنغا العليا، حيث توجد أيضا بالطمي العميق من المجاري الاحفورية التابعة لجداول وأنهار تلك المنطقة. وهي مندمجة بأنجولا في طمي عميق ذي عناصر ثقيلة في عدة جداول.

ان هذه الحضارات القديمة في ما قبل التاريخ المعروفة «بحضارة الحصاة المهيأة» و«بثقافة الحصاة» و«بالعصر الحجري المبكر» تحمل أسماء مختلفة بحسب الأماكن ومؤرخي ما قبل التاريخ الذين أشاروا اليها لأول مرة. وهي تندرج كلها في حركة تطورية بطيئة لتقنيات النحت الذي دام ما يقرب من مليوني سنة.

الكافوئي

ان الموقع الذي أخذ منه اسمه يوجد بوادي كافوء في الأوكاندا. وقد اكتشفه أ. ج وايلند سنة ١٩١٩م. ان صناعته متكونة من حصاة الأنهار انتزعت منها ثلاث شظايا في ثلاثة اتجاهات رئيسية وقل أن تكون في اتجاه واحد، فيتكون منها هكذا قاطع خشن. و ينقسم الكافوئي حاليا الى أربعة مستويات: الكافوئي البائد، والكافوئي القديم، والكافوئي الحديث، والكافوئي المتطور. ان هذه المراحل الأربع معروفة في نسونكيزي بجنوب الأوغندا بالمسطحات على علو ٨٢ الى ٦١ مترا. و يقترب الكافوئي المتطور جدا أو يشبه أحيانا الأولدوائي. و يعتبر بعض مؤرخي ما قبل التاريخ أن المستويات القديمة من الكافوئي ليست أدلة على أن تلك الأدوات انسانية، بل أن الحصاة المهرّسة التي توجد بها ناتجة عن كسور طبيعية.

الأولدووائي

ان الموقع الذي أخذ منه اسمه هو أولدووا ي بطانزانيا بسهل سرجنتي، كان اكتشفه كات

و ينكل سنة ١٩١١م وأصبح مشهورا ابتداء من ١٩٢٦م إثر أعمال واكتشافات ل. س. ب. لايكي.

ان فج أولدو واي يشق بعمق ترسبات بحيرة من البليستوسين المتوسط والأعلى، وقد وقع فيه تعريف أحد عشر مستوى «شلئو أشولي» فوق ما قبل الأشولي الذي يشكّل الاولدو وائي.

ان الأولدو وائي صناعة متكونة من حصاة الانهار إلا أنها في العادة أقل انبساطا من حصاة الكافوئي. ان نحتها يعتبرا أكثر تطورا، وحدُّها منعرج يُحَصَّلُ عليه بالنزع المتعاقب الذي أدى في آخر مرحلة من هذه الصناعة، الى إبراز حد يؤذن بحضارات ذوات الوجهين. فالأولدو وائي معروف في شابا بالغرب من امبراطورية وسط افريقيا، (مناجم الطمّي في صنغا العليا). و يبدو أنه موجود بالشمال الشرقي من أنجولا. الا أنه رغم اكتشاف بعض الحصى المهيأة بالكمرون، والجابون، و بالكونغو برازفيل، فلم يحدد مكانه بالضبط بتلك الأقطار الاخيرة الجافة المحاذية لخليج غينيا.

الأشولي

الأشولي حضارة ممثَّلة أحسن تمثيل بحوض الزايير وتوجد منه ثروة خارقة للعادة ببعض مناجم الطمي أو بالمسطحات. ان تقسيمات الاشولي الى أربع أو خمس مراحل ــ وذلك حسب المؤلفين ــ تناسب خاصة تقنيات نحت الادوات واتمامها. فهي نوعية أكثر مما هي طبقية أرضية، وتتكون المناجم الأشولية في جلها من طمي مجاري المياه القديمة، وهذا الطمي مترسب في شكل مسطحات، وفي شكل حصباء أو رمال تلعة أو في مجار أحفورية من الانهار الصغيرة التي تحولت مجاريها، ان الصناعات غير موجودة بعين المكان. فلقد نقلت، وتركزت بعامل السيلان وائتكلت من جراء الزحل، وعلى هذا الأساس فان دراسة الآشولي في هذه المناجم ترتكز... على علم الأنواع لا على طبقات الأرض، مثلما هو الشأن بأولدو واي حيث تتميز الترسبات البحيرية المشتملة على الصناعات، بقوة تقدر بمائة متر.

وتختص الصناعة الأشولية بأدوات متنوعة جدا وأكثر تعقيدا مما هو موجود بحضارات ما قبل الأشولي. وما انفكت الحصاة المهيأة موجودة به الا أنها أصبحت تقل كلما تطورت الصناعة من دون أن تنقرض نهائيا. ولقد تبوأت أدوات جديدة أهمية كبيرة: أي ذو الوجهين أولا، وهو أداة كما يدل عليه اسمها منحوتة على الوجهين من حصاة أو من شظية. ان شكلها ملوّز، وحدُّها متفاوت بُروزا وقاعدتها كثيرا ما تكون مستديرة، ومقطعها كثيرا ما يكون عدسيا وأحجامها متنوعة جدا. وتوجد آلة أخرى مهمة وهي القدوم الذي يختص بحدّ مقابل للقاعدة ومنحوت من شظيه، و يضاف الى الأداتين مناقر، وهي ليست وافرة في الأشولي الأسفل والوسيط ولكنها متوافرة في الأشولي الأخير. الى هذه الأدوات الأربع تضاف شظايا عديدة متنوعة هذّبت لتكون مكاشط، ومحكات وأدوات أخرى أقل تهذيبا، مثل قطع الحز.

ان تفرع الاشولي المرتكز على علم الانواع وعلى تقنيات القطع ينقسم الى خمس مراحل:

الأشولي ١

(الأبـفيلي أو السيلي القديم حسب بعض المؤلفين).

ان الأدوات تـتكـون مـن شـظـايـا كـبيرة، حصلت من تهشيم قطع صخرية على سندان ثابتة. وتستعمل تلك الشظايا الكلاكتونية خاما وكثيرا ما تستحيل الى ذوات وجهين والى قدومات، وهي أدوات ثـقـيـلة وخشنة وحروفها الجانبية متعرجة جدا. ولم ينقرض نحت الحصاة المهيأة لكنه تطور لأن بعض ذوات الوجهين ذات «القاعدة المتحفظة» يتمثل فيها التكامل وغاية ما وصل اليه نحت الحصاة في ما قبل الأشولي.

تـمثل هذه المرحلة في شابا مناجم كاموا، ولونيا، اللتان اكتشفهما ف. كبو، وهي ممثلة أيضا في أنجولا الشمالية حيث توجد منها آثار بحوض لؤمبي. وتنتسب أيضا بعض المناجم بغرب امبراطورية وسط افريقيا الى هذه المرحلة وكثيرا ما تكون أدوات الأشولي ١ التي عثر عليها في طمي المسطحات أو الأودية الاحفورية للانهار، تكون ملساء نتيجة للنقل النهري، وذلك بالخصوص شأن مناجم اللوبو واللبنكي بامبراطورية وسط افريقيا.

الأشولي ٢

(الأبفيلي الحديث أو الأشولي الأسفل).

انه صناعة قريبة جدا من الصناعة السابقة التي يمكن العثور عليها أيضا في حصباء الانهار بأنجولا وشابا. الا أن أدواتها كانت أقل تكوّرا وان كانت أجود من حيث النحت الثانوي، من أدوات الاشولي ١، ولقد أصبحت حدود ذوات الوجهين والقدومات أكثر استقامة، على ما يبدو، إثر نحت جديد بنقارة طرية من الخشب أو العظم.

الأشولي ٣

(الأشولي الوسيط).

توجد هذه المرحلة على السطح فوق حصباء اللوينا، وكاموا حيث يكون الأشولي مندرجا بالطمي النهري. وقد شهد ثورة حقيقية طرأت على تقنيات القطع: وهي تنحصر في تهيئة النواة للحصول على شظايا كبيرة. ان هذه التقنية المعروفة جيدا بافريقيا الجنوبية تسمى «فكتوريا الغرب ١» فهي تدل على ظهور تقنيةبروطولفلوية. إن تهيئة النواة تؤدي الى سطح للنقر له وجوه. وتقتطع الشظية جانبيا ثم تهذب باتقان للحصول على ذي وجهين، أو قدوم أو مكشط. و يكون النحت بنقارة يدوية طرية، فتصنع أدوات منتظمة جدا ومتكافئة وتصبح الحدود الجانبية مستقيمة جدا. وتصنع القدومات حسب تهذيب متعاقب بحافتي الجانبين حتى يصبح لها شكل المعين.

الأشولي ٤

(الأشولي الأعلى):

في هذه المرحلة تحتفظ تقنيات القطع أساسا بنفس النموذج، لكنها تتحسن (تقنية فكتوريا الغرب ٢) اذ ان الامر يتعلق باقتطاع نواة أكثر استدارة ولها مسطح ذو وجوه، تقطع منه شظايا كبيرة لها شكل بصلة تقع على قاعدة ضيقة وليست واسعة كما كان الامر في تقنية فكتوريا الغرب ١. وهذه الشظايا تصلح لصنع الادوات، وذوات الوجهين والمكاشط والقدومات التي تهذب كلها تهذيبا دقيقا. ان مقطع القدومات يكون منحرفا أو عدسيا، و يوجد هذا الأشولي الاعلى في كاموا بطمي يعود الى عهد الكاماسي ٢، كما يوجد بكساي وذلك بمسطحات علوها ١٥ مترا.

الأشولي ٥

(الاشولي المتطور والنهائي):

شهد الاشولي النهائي بداية تنوع ثقافي من خلال التغيرات الجهوية المتكيفة مع المحيط المناخي والنباتي. والأشولي مرتبط باقامة الناس على مسطحات متوسطة ومنخفضة ومجففة وقد أضيفت الى التقنيات المعروفة تقنية قطع لوفالوا. أما باقي الادوات فانها لم تتبدل أبدا بالنسبة لأدوات المراحل السابقة. الا فيما يخص الجودة، والا تمام وظهور ذوات الوجهين وقدومات لها أحجام كبيرة جدا، ومنها ما يتجاوز ٣٠ سنتمرا طولا. وقد تطورت ضمن الاشولي أداة وهي النقار المتين الخشن، تطورا كبيرا ولها مقطع مثلث أو شبه منحرف. ان تكييفها لأداء عمل على الخشب باستعمال قطع كبيرة ذات وجهين ومطولة، يؤذن مسبقا بالسنغون المعقد ونجد أيضا كرات حجرية حسنة الصنع وتشابه «البولاس». ولقد توفرت منها مجموعة هامة استخرجت من منجم نهر مانكالا بالغرب من امبراطورية وسط افريقيا. و يوجد هذا الاشولي الاخير في منطقة شابا، بكموا و بنواحي كلينا بالزايير، وهو موجود أيضا بأنجولا، أوربما قرب برزافيل وفي امبراطورية وسط افريقيا، حيث تمثله مناجم نهر نكوري في صنغا العليا.

ان الناس الذين شيدوا هذه الحضارة غير معروفين مع الأسف بحوض الزايير كله، بسبب تحمض الارض الذي لا يسمح بالمحافظة على البقايا العضوية.

السنغون

ان الموقع الذي أعطى اسمه لهذه الحضارة هو سنغوباي الواقع على الشاطىء الغربي من بحيرة فكتوريا بطانزانيا. وكان قد اكتشفه ا. ج وايلند سنة ١٩٢٠م.

ان السنغون صناعة متفرعة مباشرة عن الأساس المحلي للاشولي بدون إعتبار دخول عناصر آتية من الخارج. فهو يؤرخ بآخر الممطار الكانجري ويمتد طيلة فترة انتقالية بين هذا الممطار والجفاف الكبير الذي تلاه. انها صناعة مجهولة نسبيا ولها مظاهر محلية عديدة يبدو أنها استمرت تتطور تطورا داخليا وتكيفت مع البيئة الغابية وعلى الأقل مع محيط مشجر نسبيا، باعتبار حلول بداية الحقبة



١



٢



٣

● ١) أثر تاريخي من الاحجار الضخمة في منطقة بووار في أفريقيا الوسطى (وسط أفريقيا). (كليشيه ر. دي بايل دي هرمانس)

ـــ الاشولي الاعلى، وسط أفريقيا، نهر نغو يري، سانغا العليا.

● ٢) بلطة

● ٣) أداة مزدوجة الوجه (ذات وجهين) (تصوير متحف التاريخ الطبيعي).

الجافة. ولقد تميزت في هذه الحضارة خمس مراحل: ما قبل السنغون، والسنغون الاسفل، والسنغون الأوسط، والسنغون الأعلى، والسنغون النهائي.

ان الادوات الحجرية السنغونية الوحيدة التي وصلت الينا قد خضعت لتحويلات عميقة بالنسبة للاشولي النهائي الذي سبقها، فلقد كانت ذوات الوجهين في أول تطورها استمرارا للتقاليد الاشولية ثم أصبحت تدريجيا أخشن وأعرض وأقصر، وبرزت في نفس الوقت ذوات الوجهين، القريبة من النقارات ولها طرفان حادان، وعكسا لذلك اضمحلت القدومات بسرعة، وكان للقليل الباقي منها أحجام صغيرة. وكانت حافاتها الجانبية، المنحوتة حسب قطع شظايا كبيرة، متعجرة جدا. وتوجد أيضا حصاة مهيأة، دون أن تكون وافرة. ونتبوأ النقارات التي ظهرت في آخر الاشولي منزلة هامة ضمن الأدوات فهي تبدو مناسبة لأداء العمل على الخشب نظرا لأحجامها الكبيرة ذات المقطع المثلث، أو المعين أو شبه المنحرف، ولترابطها مع مكاشط عديدة. ان أهم مظهر يلفت النظر يتجسم في ظهور القطع ذات الوجهين، الطويلة والضيقة، المنحوتة قرعا والتي لها جودة كبرى. وتمثل تلك القطع أحيانا ما يقرب من ربع أدوات السنغون. ولقد صنفت حسب أنواع مختلفة من الأدوات: النقارات، والمناجر، والمقصات، والمفراصات، والخناجز التي تترابط لتوفر غالبا أدوات متعددة: النقارات القاصة، والنقارات الناجرة، والنقارات المفرصة، والنقارات الخنجرية، وتبلغ بعض تلك القطع أحجاما كبرى وتتجاوز ٢٥ سنتمترا طولا. ان هذه الادوات التي تتبدل من حيث أنواعها أخذت تصغر حجما، طيلة تطور السنغون، بينما بلغ نحتها جودة راقية.

ان السنغون موجود بكثرة بحوض الزايير، وهو معروف بالزايير في سهل كنشاسا، وشابا العليا حيث يختلف عن سنغون المناطق الغربية، وذلك بانعدام الخناجر والحدود المتورّقة. الا أنه توجد في تلك الصناعة بولاسات (Bolas) عديدة، وهي صفاحات ذات وجوه أو كرات أتقن صنعها تونيدا، وكذلك شظايا عديدة جدا ومستعملة، ولقد عثر على السنغون في طمي نهر لوومبي بكندالا، ولوندا بالشمال الشرقي من أنجولا، حيث يوجد مخلوطا في الغالب بصناعات أقدم منه أو أحدث منه، نظرا لموقعه بحصباء منقولة عن موضعها وهو يوجد أيضا في الكونغو برازفيل على الشاطىء الأيمن من ستنلي بول، وبالجابون، حيث عثر عليه أخيرا، وهو معروف في امبراطورية وسط افريقيا، في مناجم ذات ثروة خارقة للعادة بالوسط الشرقي من البلاد، حيث وفر الطمي في مشاغل المأس التابعة لنزاكو في أمبلو، وتيري، وتياغا، وكونو، وفر ذلك الطمي آلافا من الأدوات حوفظ عليها محافظة جيدة وهي مصنفة في السنغون الوسيط أو الأعلى.

ان السنغون لم يتميز تميزا كبيرا في الكمرون، وذلك يطرح مشكل توسعه الى غربي افريقيا. فلقد أشار بعض المؤلفين الى وجوده بالسنغال، ان الأمر يتعلق في الواقع بصناعات لها قطعات ذات وجهين، متشابهة أو قريبة جدا من السنغون، الا أن موقعها غير مضبوط في ترتيب ما قبل التاريخ. وليس من المستبعد أن تكون مجموعات بشرية قد تحولت نحو الغرب ونحو منطقة الغابة الكبرى، الا أنه لا يوجد الآن ما يسمح باثبات أثرهم.

ان السنغون يتطور، مثلما فعل الاشولي، بعين المكان، دون اتصالات كبيرة مع عالم أجنبي عن محيطه الغابي. ثم أتت من بعده صناعة تسمى «اللوبمبية» في ظروف غير واضحة الى هذا اليوم وهذه الصناعة هي التي نتعرض لها الآن.

اللوپمبي

ان اللوپمبي (٥) حسب التصنيف المقترح بالمؤتمر الافريقي سنة ١٩٥٥ م ــ هو صناعة من «العصر الحجري الوسيط» الا أنه ينبغي أن نحتاط عند استعمال مصطلح «العصر الحجري الوسيط» اذ أدرجت به مجموعة من الادوات المتباينة التي لم يتضح موضعها وضوحا حسنا.

وقد تطور اللوبمبي عندما عادت الاحول الامطارية الى مستواها العادي وذلك في بداية المطار الرابع المسمّى «كمبلي». وبلغ الأوج في الجزء الثاني من تلك الحقبة الرطبة جدا. وتبلغ مدته ٢٥٠٠٠ سنة أن أخذنا بعين الاعتبار التواريخ بحسب الزمن المطلق. وكما فعل الأشولي النهائي في تطوره بعين المكان، فقد تبدله السنغون أيضا وتحسن واكتسب تقنيات جديدة في النحت التي ستبلغ أوجها في اللوبمبي من دون أن تكون لها صلات مع عناصر أجنبية عن الغابة الكبرى التي ظلت تلعب دور الحماية. واحتفظت الصناعة في أول اللوبمبي ببعض ذوات الوجهين التي انقرضت بسرعة وكانت القدومات مفقودة. أما فيما يتعلق بالقطع، فتظل تقنية لوفالوا سائدة، للحصول على الحدود والشظايا، و يعتمد التهذيب فيه على القرع. وتبقى تقنية لوفالوا مستعملة للحصول على الشظايا، الا ان تقنية أكثر تقدما منها، وهي القطع بحسب الكيّاس أصبحت مستعملة للحصول على حدود حسنة الصنع ستساعد على صنع قطع طويلة، ضيقة ومهذبة تهذيبا حسنا.

ان الدراسات الأخيرة المتعلقة باللوبمبي ساعدت على تقسيمه الى خمس مراحل:

اللوبمبي ١

فهو محصور في الحوض الغربي كله من الزايير الذي يعتبر فيه كأنه شكل من أشكال تطوره المحلي من السنغون. لقد انقرضت العناصر الاشولية انقراضا تاما وأصبح النحت والتهذيب يعتمدان على القرع. وظلت أدوات السنغون موجودة لكنها تطورت وصغرت من حيث أحجامها المطلقة ولا تتجاوز النقارات والنقارات الناجرة، والنقارات المستوية ١٥ سنتمترا، وظهرت مفارص، ومقصات وأدوات قاطعة ومنشارات نحتت من الحدود. لقد ظلت قاعدة الأدوات متكونة من شظايا خشنة ومنها صنعت هذه القطع الجميلة. وفي نهاية اللوبمبي ١ أخذت تظهر الحدود والخناجر وحروف السهام الحقيقية.

اللوبمبي ٢

لقد عرفت ج. كوليت هذه المرحلة في بوانت كلينا ولكنها معروفة أيضا في ستنلي بول. ان المقصات المورقة الشكل من اللوبمبي ١ تطورت واستحالت الى ساطور وعُوّضت الأشكال المعروفة في السنغون بمقصّات ذات حافة مستقيمة، وبنوع جديد من المقدّات ذات القواطع المائلة. وتشتمل الأسلحة على خناجر طولها ١٥ الى ٣٥ سنتمترا وعلى حدود مورقة الشكل، منحوتة نحتا متقنا ورقيقا جدا.

---

(٥) لوپمبي: موقع يحمل اسم مكان فيما قبل التاريخ في لوبما بكساي، وهو مصطلح وضعه القس هـ. بروي.

اللوبمي ٣

عرف من خلال مناجم سطحية في ستنلي بول، وببعض المناجم بأنجولا. ولقد بلغت تقنية النحت في هذه المرحلة أوجها بفضل التهذيب بحسب الضغط. ان الشظايا الحاصلة من القطع بتقنية لوفالوا المتطور، غالبا ما يكون شكلها ثلاثيا أو مستطيلا أو بيضويا. ولقد ظهرت آلات ذات ساق معلاقية، ونمت وأصبحت متوفرة ووجدت بهذه المرحلة أدوات من اللوبمي القديم، لكن أحجامها كانت أصغر، ومنها النقارات، والمقصات، وذوات الوجهين الصغيرة، وبعض المكاشط، والبزاقات، ومقدات ذات قواطع مستقيمة أو مائلة ونصال حافتها معكوفة. وتبلغ الخناجر أحيانا أحجاما كبيرة، الى حد ٤٦ سنتمترا، أما الحدود فهي مسننة فتكون منها أسلحة فتاكة جدا. ان الحدث الهام هو ظهور حدود السهام من أنواع مختلفة، مورقة الشكل، أو ذات شكل المعين أو ذات ساق معلاقية أو دونها ولها حافات مسننة أحيانا وهي على غاية من الجودة.

ولقد أرخت أنجولا مرحلة متأخرة من اللوبمي بحسب طريقة الكربون ١٤، أرخت بـ ١٤٥٠٣ ± ٥٦٠ سنة، أي ١٢٥٥٠ قبل الميلاد. وبالمقارنة مع ما نعرفه بأوربا، فهذه المرحلة تقع في العصر الحجري القديم الأعلى.

اللوبمي ٤

لا يعلم منه الكثير ويكون متميزا بقطعه اللوفالواسي اللاحق.

اللوبمي التشيتولي

يبدو ان هذه المرحلة الأخيرة قد وجدت، باعتبار علم طبقات الارض، في الفترة الجافة التي ينتهي فيها، بافريقيا الوسطى والشرقية، البليستوسين، وذلك ما قبل الماكالي الأول الرطب، ان المناجم المعروفة موجودة على طمي مرمول، أو بقاعدة الطبقة الرطبة التي تغطيه، وذلك غالبا بجزر الانهار.

ان تقنية القطع لم تتبدل بالنسبة الى مراحل اللوبمي الاخرى فهي دائما تقنية اللوفالواسي اللاحق. أما التهذيب فانه أضاف الى القرع والى الضغط تقنية جديدة التهذيب الشديد الذي يتميزبه الميزوليتي وتشمل الأدوات دائما على مقصات، ومفارص وذوات الوجهين، ولكن انقرضت المكاشط والنصال ذات الظهر، ويضاف الى المقدات «مقدٌ صغير» ذو تهذيب شديد بالحافات، ويمكن اعتباره في بعض الحالات سلاحا ذا قاطع مستعرض. أما حدود السهام فهي تعتبر أكثر تنوعا: أن اشكالها مورقة أو معينية أو مجنّحة، وقلّ أن تكون مسنّنة أو ذات ساق معلاقية.

وفي أنجولا أرخت صناعة صنفت في اللوبمي التشيتولي بـ ١١١٨٩ ± ٤٩٠ سنة.

ان اللوبمي لم يعرف بعد في امبراطورية وسط افريقيا وفي الكرون. ولكن عثرعليه في الكونغو برازافيل وبالجابون، الا أنه لم يعرف معرفة دقيقة بسبب وضع المناجم في مناطق وعرة.

الحضارات ما قبل التاريخ الغير الغابية

بينما نجد اللوبمي قد عم المنطقة الغابية بالغرب من حوض الزايين تشهد مناطق شابا وشرقي

أنجولا نمو حضارات ذات خصائص غيرغابية وهي: البروطوستلبائي، والستلبائي والمغوسي. ولقد اتسعت تلك الحضارات اتساعا كبيرا بافريقيا الشرقية والجنوبية.

البروطوستلبائي

ان الموقع الذي سمي به هوستيل باي، وهو منجم ساحلي من مقاطعة الرجاء الصالح. ان البروطوستلبائي هو صناعة تختص بحدود لها وجه واحد، وبمحكات، وحجارة محزوزة، وحجارة قذف، وذوات وجهين قليلة صغيرة الحجم، وحدود أشكالها الورقة منتصفة وذات مقاطع كثيفة، ومهذبة تهذيبا خشنا، كما تختص ببعض المناقشات القليلة. وتحصل هذه الادوات بتهذيب شديد التحدر.

الستلبائي

ان الادوات بالستلبائي لم تتبدل الا قليلا من حيث الأساس، بالنسبة للمرحلة السابقة لكن نلاحظ فيها حنكة كبيرة في تقنيات القطع اللوفالواسية اللاحقة. وأهم ما يستحق التسجيل هو التهذيب بالضغط، المستعمل خاصة لصنع الاسلحة والحدود الشبيهة بالموستيرية ذات الوجه الواحد أو ذات الوجهين والتي كثيرا ما تحتفظ بكعب مسطح. و يوجد ضمن الأدوات في آخر مرحلة معروفة بالكينيا، نصيلات ذات ظهور، ومنقاشات وقطع من دائرة.

ان البروطوستلبائي متوفر جدا في شابا، الا أن الستلبائي قليل بها. وتنتسب البقايا الانسانية الأكثر قدما المكتشفة بالزايير الى الستلبائي، وهي تتكون من ضرسين كشفا مع بعض صوانات منحوتة وحدّ ذي وجهين، وكان وجدها القس أنسيودي فافو، في ثغرات تجمعت فيها العظام في كاكونتوي.

المجوسي

ان الموقع الذي جاء منه اسم هذه الصناعة هو مجوسي بالأوغندا، واكتشف هذا الموقع وايلند سنة ١٩٢٦م. والمجوسي ثقافة وجدت بها أهم قطع الستلبائي، فهي تتكون من أدوات حجرية صغيرة، منها نصيلات ذات حافات معكوفة، وقطع من دائرة ومثلثات، ومحكات ظفرية الشكل، ومنقاشات صغيرة وحبوب نظم لها رأس النعامة تكتمل بها هذه الصناعة. و يبدو أن المجوسي قد وجد في كتنجا الا أنه لم يعثر منه على موقع معين على وجه اليقين.

صناعة الميزوليتي: التشيتولي

تسببت في آخر البليستوسين حقبتان جافتان نسبيا في تقلص الكساء الغابي، لا سيما في المرتفعات، ولقد أقام أهل التشيتولي (٦) بتلك الاراضي المعراة من النبات، الموجودة قرب عيون الماء، والتي كثيرا ما تكون بقمم التلال المائدية أو المرتفعات. وتوجد مناجم هذا النوع على نجد

(٦) التشيتولي: مصطلح وضع اعتمادا على أدوات حجرية جمعت من تشيتول في كساي.

بتكي في ستانلي بول، بسهل كنشاسا و بالشمال الشرقي من انجولا. ان أدواته تختلف باختلاف المناجم، وتشتمل على نسبة كبيرة جدا من الأدوات الغابية ذات الأحجام المصغرة، فنجد فيها أدوات جديدة أو أدوات قل أن عرفت في الصناعات السابقة: وهي تتكون من منجرات ونصال ذات حد مهذب، وسكاكين ذات ظهور، وخاصة من عناصر حجرية صغيرة وهندسية لها شكل شبه المنحرف، والمثلثات وأرباع البرتقال، والقواطع الصغيرة. وتتميز حدود السهام بتنوع كبير في النماذج والأشكال، فهي مورقة الشكل ومعينية و بيضوية ومثلثة ومجنحة وذات ساق معلاقية، ومسننة وذات قاطع مستعرض. وتكاد تكون كلها منحوتة بحسب تهذيب ضغطي، ولذلك أتت على غاية من الجودة. ويمكن أن يعدّ التشيتولي من ثفات ما قبل العصر الحجري الجديد الذي ليس له خزف ولا فوؤس مهذبة اذا أخذنا بعين الاعتبار اسلحته التي تقتصر على حد السهم. فهو يعبر، في عهد متأخر، عن الثقافات الغابية الافريقية، التي وجدت قبل تطور العصر الحجري الجديد بالزايير الغربي، و يبدو أنه دخيل.

العصر الحجري الجديد

ان حضارات ما قبل التاريخ الموجودة بحوض الزايير كله، في مفهومه العام والتي سبق ان تحدثنا عنها في الفصول السابقة، تؤلف، ابتداء مما قبل الاشولي الى التشيتولي، المراحل المتتابعة من مركب ثقافي عظيم نما في وسط غابي وتطور بعين المكان، كما قلنا ذلك سابقا، دون أن يتأثر بمساهمات محسوسة دخلية على تلك الغابة الكبرى.

ان مظاهر العصر الحجري الجديد ــ وهنا لابد من أن نبادر الى القول بأنه توجد منه عدة مظاهر مختلفة فيا بينها، وقد تطورت في المطار الاخير القصير المدى وهو الناكوري وكان المناخ في ذلك العهد يشابه تقريبا المناخ الذي نعرفه اليوم. فكان الكساء الغابي أكثر كثافة اذ لم يطرأ عليه عمل الانسان الهدام. وكانت أنواع النباتات لا تختلف مما يوجد منها اليوم.

ولقد زحف تدريجيا أناس لهم حضارة حجرية جديدة تسمى حضارة «الكونغو الغربي»، زحفوا على منطقة ذات غابة مدارية كثيفة جدا. وكانوا قادمين من الشمال، بعد أن قطعوا النهر في حوالي منحدارت الماء السريعة في ايسنكيلا. وكان أولئك القوم يحملون معهم تقنيات جديدة ما لبثت ان امتزجت نوعا ما بالتقنيات التي ظلت موجودة بعين المكان. و يتميز هذا العصر الحجري الجديد باستعمال يكاد يكون مقصورا على صخور عسيرة النحت وهي النضيد، والمرو والجاديت التي توفر شظايا رديئة المنظر، فتسبب في صنع أدوات رديئة. ان تلك الادوات تتنوع بحسب المواقع فهي تتكون من نقارات خشنة الصنع، ومن مقصات، وحصاة مهيأة ذات حجم صغير جدا، وأحجار مشقوبة أشكالها وأوزانها ومواردها مختلفة جدا، ومن عدد كبير من الفؤوس على الخصوص، وهذه الفؤوس كانت تنحت أولا ثم تصقل جزئيا ثم تنقر وتصقل صقلا جيدا. و يوجد بالزايير عدد من المصاقل المعروفة التي استعملت بدون شك لصقل الفؤوس. ولم تكن حدود السهام مفقودة، الا أن صنعها كان غالبا رديئا جدا، لأنه كثيرا ما كانت تنحت من شظايا المرو. وتشتمل هذ الصناعة في بعض المواقع، في إشنكو، على أدوات عظمية وخاصة المخطافات ذات الصف الواحد أو الصفين من

التشوكات و يضاف الى هذه الأدوات الحجرية والعظمية خزف وافر منمق أحسن تنميق ومزين يوجد ببعض المناجم.

وتقع مناجم العصر الحجري الجديد في كوانكو الغربي، وهي ممتزجة بمناجم التشيتولي، كما تقع على ضفتي نهر الزايير بين البول، وكونكو ديافينكا، وفي أماكن عديدة بالكونغو برازافيل. و يوجد في منطقة أوئيلي، شمالي الزايير، مظهر يشتمل على عدد كبير من الفؤوس من الهيماتيت، صقلت صقلا جيدا. ان مظاهر العصر الحجري الجديد، كما سبق ان بينا، موجود بالكمرون والجابون وامبراطورية وسط افريقيا. ان منجم باطاليمو في لوباي وفر صناعة من الجاديت امتزجت فيها فؤوس منحوتة بخزف جميل جدا. و يستفاد من التأريخ بطريقة الحرارة المضيئة انها ترجع الى ٣٨٠ ± ٢٢٠ سنة للميلاد ويمكن أن يبدو هذا التاريخ غير عادي لأول وهلة. الا أن الفحص، ومالنا من معارف حاليا، يفيدان بأن العصر الحجري الجديد قد دام بمنطقة الغابة الكبرى أكثر مما دام بالمناطق الأخرى وامتد الى حقبة تاريخية. و يبدو أن دخول المعادن الى تلك المنطقة كان متأخرا و يؤرخ بعض المؤلفين دخول الحديد بالقرن التاسع الميلادي تقريبا.

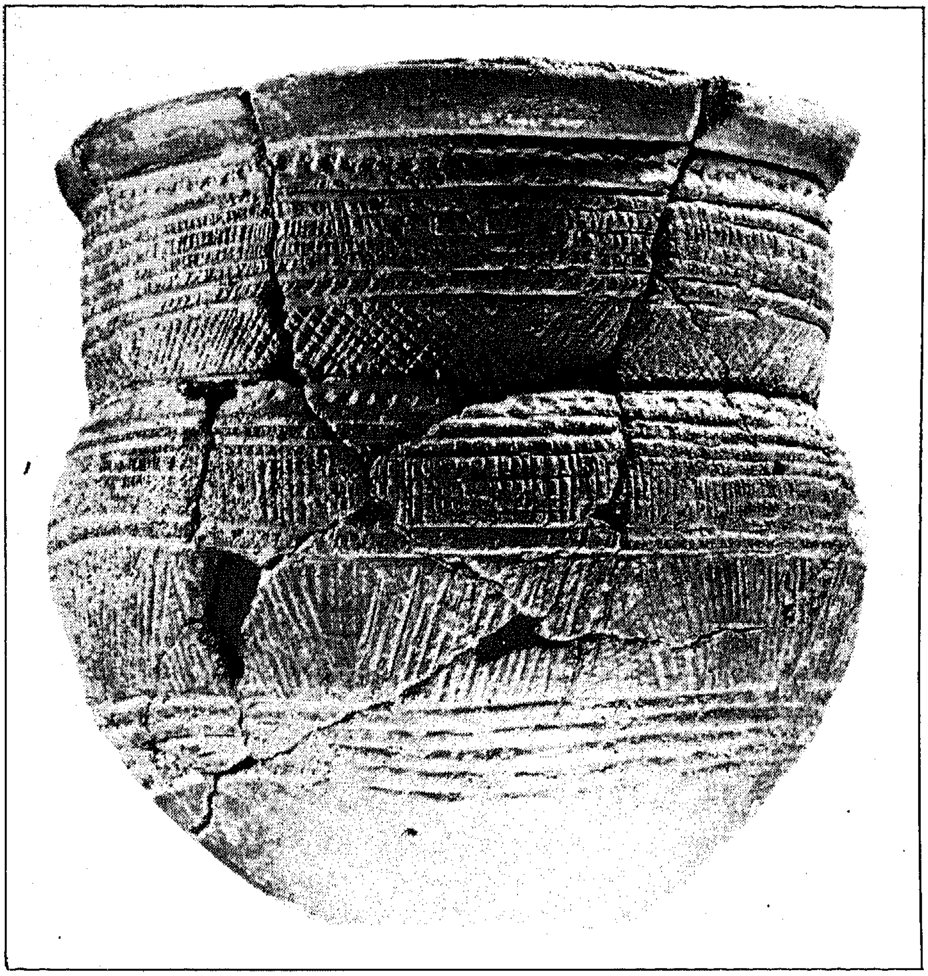
آثار النصب الحجرية

نمت الحضارات المكاليتية (النصب الحجرية) الكبرى حسب أشكال متنوعة بافريقيا كلها، ولا سيما بافريقيا الشمالية و بالصحراء. ولقد جهل حوض الزايير تلك الحضارات، باستثناء الشمال الغربي من امبراطورية وسط افريقيا، ولا يوجد أي أثر ميكاليتي بأنجولا، والزايير والجابون وجمهورية الكونغو الشعبية، باستثناء بعض الحجارة المنصوبة بالكمرون.

أما في امبراطورية وسط افريقيا فتوجد نصب حجرية عظيمة بمنطقة بوآر، وهي تحتل رقعة أرضية طولها ١٣٠ كلم وعرضها ٣٠ كلم على طول الخط الفاصل بين مياه حوضي الزايير وتشاد. و يبدو أنها غير معروفة في الكامرون، ولا في المناطق الأخرى من امبراطورية وسط افريقيا. ولذلك كانت تلك الحضارة مقصورة جغرافيا على الشمال الغربي من البلاد.

تظهر تلك النصب في شكل جثوات مختلفة الاحجام، يعلوها عدد من الحجارة المنصوقة تتراوح بين وحدات الى عشرات، و يتجاوز علوها بالنسبة الى الأرض أحيانا ثلاثة أمتار. ان الحفريات التي وقعت في العديد من تلك النصب قد كشفت عن بنيتها الداخلية ولم توفر الا عناصر جيولوجية قليلة: مرو منحوت وخزف و بعض الادوات المعدنية، وذلك بالطبقات العليا. لكن الفحم الخشبي المجموع سمح بأن تضبط تواريخ على طريقة ك ١٤ (٧). ان النتائج المتوفرة تفيد تواريخ مهمة جدا. فلقد قدرت الطبقات العميقة من النصب بـ: ٧٤٤٠ ± ١٧٠ سنة قبل الحاضر أي ٥٤٩٠ قبل الميلاد، و ٦٧٠٠ ± ١٤٠ سنة، أي ٤٧٥٠ قبل الميلاد. وقدرت الطبقات الثانية بـ ١٩٢٠ ± ١٠٠ سنة قبل الحاضر، أي ٣٠ سنة بعد الميلاد، و ٢٤٠٠ ± ١١٠ سنة قبل الحاضر، أي ٤٥٠ بعد الميلاد ان هاتين المجموعتين من التواريخ توفران لنا بالنسبة الى أكثرهما قدماً تاريخ تشييد النصب. أما التواريخ الحديثة منها فهي تفيد تاريخ اعادة استعمالها، وهو استعمال تؤكده الادوات

(٧) انظر بايل دي هرمنس، دي فيدال، ب. ١٩٧١م ص ٨١ — ٨٢.



● وعاء من العصر الحجري الحديث ذو قاع مسطح (وسط أفريقيا، باتاليمو، لوبابيي)، (تصوير مختبر ما قبل التاريخ، متحف التاريخ الطبيعي).

المعدنية المجموعة بالطبقات العليا. ان البحوث الحالية لا تسمح بأن تنسب نصب بوآر على سبيل اليقين الى العصر الحجري الجديد. لكن يمكن أن نقول أن الحضارة التي شيدتها كانت معاصرة له تقريبا.

الفن الجداري

ان حوض الزايير، بحكم وجوده بين منطقتي الفن الجداري الكبيرتين (الصحراء وجنوب افريقيا) يحتوي أيضا على فن جداري، الا أنه ليس له ما كنا نتوقعه من الثراء باعتبار موقعه. ولقد ترقى في التشاد وفي اينيدي و بركو، فن جداري و يعتبر جزءا من المجموعات الصحراوية الكبرى. و يوجد بالكمرون موقع من الرسوم على بلاطات أفقية مهذبة أكلها الأجتراف وذلك بشمال البلاد في بيدزار. وهذه الرسوم هندسية أساسا فهي دائرات وحلقات، وتظهر منعزلة أو مجتمعة.
وتوجد رسوم بأنجولا بمنطقة كالوكا وهي تظهر على بلاطات أفقية ولها مواضع هندسية مثلما هو الشأن بالكمرون. ولقد وجدت رسوم تبدو أكثر حداثة بنفس المنطقة كما توجد مواقع عديدة من فترات مختلفة بالزايير. و يبدو أن شابا أثرى منطقة من حيث الفن الجداري، وتدخل في نفس مجموعة روديسيا الشمالية * وأنجولا الشرقية، وتختص هذه المجموعة بفن تخطيطي، لا طبيعي كما هو الشأن بجنوب افريقيا. ولقد نشر القس هنري بروي سنة ١٩٥٢م الرسوم المحزوزة والمخططة لكهف (كيانطابو (٨). ونشر ج. مرتلمنس دراسة تركيبية عن الرسوم الجدارية في شابا (٩) مؤكدا على صعوبة ضبط تاريخ مختلف الأساليب نظرا لانعدام الوثائق الأثرية. ولقد اكتشفت بلاطات منقوشة بالزايير الأسفل ودام الفن الجداري على عهد حديث جدا في تلك المنطقة. و يبدو أن مجموعات من رسوم جبل كوندو، في أو يلي متصلة بطقوس الماء والنار، و يوجد الفن الجداري المعروف بامبراطورية وسط افريقيا بشمال البلاد وشرقها: ففي الشمال توفر ملاجىء تولو وجبل ملا رسوما عولجت بالمغرة الحمراء والسوداء والبيضاء: هي تبرز أشخاصا وعلامات مختلفة، ولكن الرسوم الحيوانية فيها مفقودة. أما في الشرق، فتوفر مناجم لنكو ومبتو قرب باكوما فنا منقوشا على بلاطات أفقية من الوعنة، و يبدو أنه حديث نسبيا. وكان قد صنعه قوم عرفوا الحديد نظرا لوجود سكاكين كثيرة للرشق وحدود نصال مرسومة بها.
ولا يوجد أي شبه بين الفن الجداري بالزايير ونفس الفن بالصحراء. فلا بد أن نتجه الى جنوب افريقيا وافريقيا الشرقية للبحث عن محور تسرّبه. ان هذا الفن قريب مما هو معروف ببلاد البانتو: فهو حينئذ حديث، بل تاريخي، الا أنه مهم فيما يتعلق بدراسة الهجرات وتنقلات السكان بحقبة مجهولة جدا من ما قبل التاريخ، وحتى من تاريخ افريقيا المدارية.

---

(٨) القس هـ. بروي، ١٩٥٢ ص. ١ — ٣٢، ١٤ لوحة.
(٩) مرتلمنس ج. ١٩٥٢، ص ٣٥ — ٥٥، ٩ لوحات.
* في المطبوع زامبيا عوض روديسيا الشمالية. (تعليق المراجع محمد الفاسي).

الخاتمة

نستنتج مما عرضناه عن ما قبل تاريخ حوض الزايير أن صناعات ما قبل التاريخ الى حد الأشولي الأعلى، لم تكن متمايزة الا قليلا بالنسبة لما هو معلوم بالمناطق الأخرى من افريقيا جنوب خط الاستواء. فالمركب السنغوني هو نقطة الانطلاق للتنوع ألواسع الجهوي بين الثقافات ذات المظاهر الغابية والتي لها خاصية ملحوظة، وهي العزلة التي تكاد تكون تامة والتي عاش فيها أهالي تلك المنطقة الى أن وصل قوم ينتمون الى العصر الحجري الجديد، أتوا من الشمال فرارا على ما يبدو من المناطق الصحراوية التي أخذت تستحيل الى أرض قاحلة.

ان الغابة الاستوائية الكبرى قد لعبت دور الحاجز الطبيعي الذي قلل من الصلات بين الشمال والجنوب من خط الاستواء. ولقد دامت الحضارات الحجرية الجديدة فيها أكثر من أي مكان آخر، في منطقة كانت فيها هذه الحضارات منعزلة ومحمية، بينما كانت مناطق أخرى قد دخلت منذ أمد طويل في التاريخ باستعمال المعادن والحديد.

ما قبل تاريخ أفريقيا الوسطى

القسم الثاني

فرنسيس فان نوتن

بالاشتراك مع

ب. دي ماري، ج. ميرسن، ك. ميوبا، أ. روشر

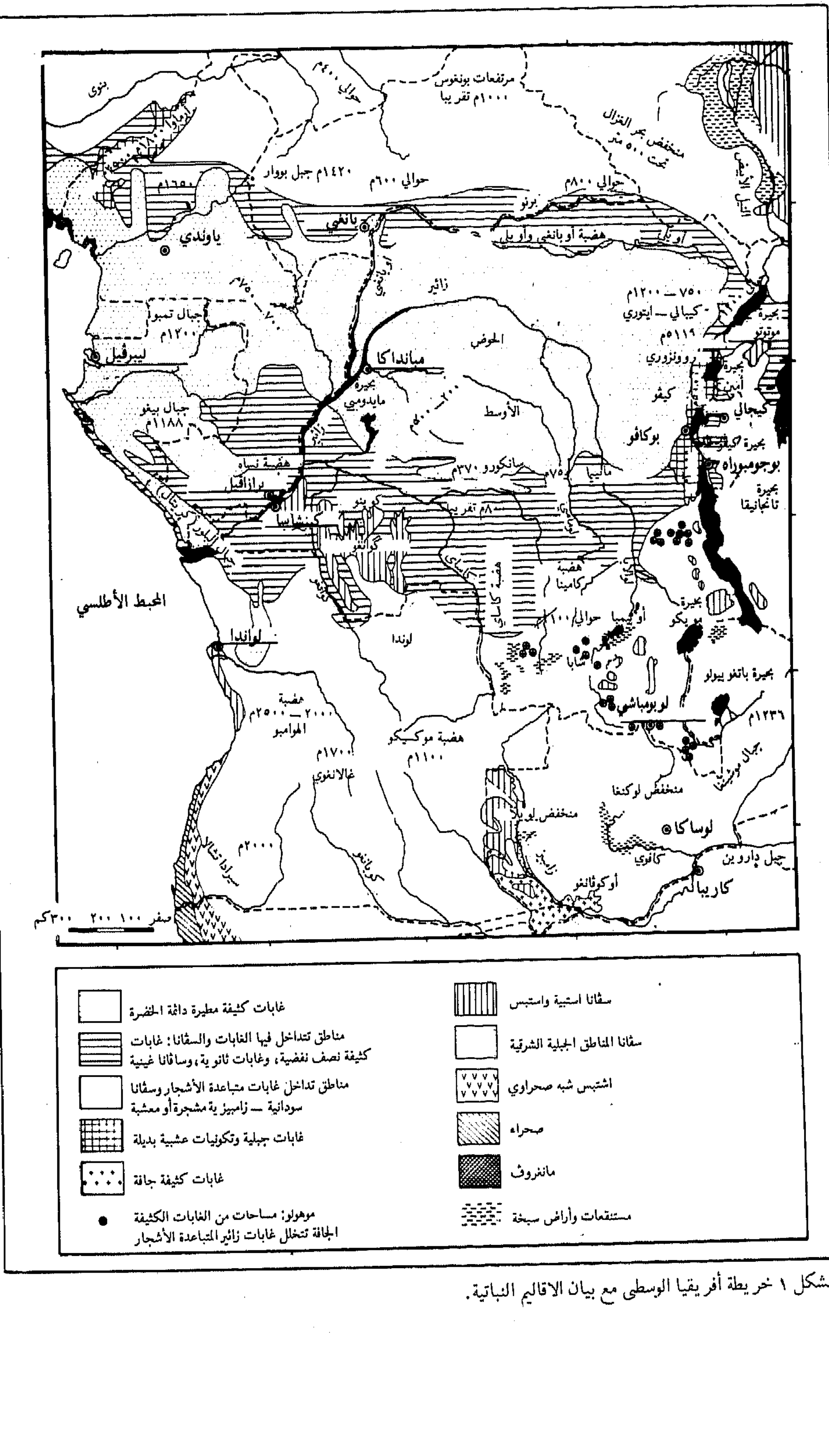
ان افريقيا الوسطى المعنية بالأمر في هذا الفصل، تشمل الزايير وبعض الأقطار المجاورة، ومنها جمهورية الكونغو، والجابون، وريوموني، وامبراطورية وسط افريقيا ورواندا، وبروندي وانجولا.

ولقد جذبت هذه المنطقة من القارة منذ القرن التاسع عشر الأثريين، الا أن الأبحاث بها ظلت مبعثرة.

ان البحاثين الأولين الذين اهتموا بافريقيا الوسطى أرادوا قبل كل شيء أن يعثروا على حقبات تشابه الحقبات الموصوفة بأوربا. فلقد حاول ستاينيه وضع دراسة أولى مجملة سنة ١٨٩٩م، لكن الفضل يعود الى ج. كوليت في القيام بحفريات ابتداء من ١٩٢٥م (بكارت ١٩٣٨م). ومع هذا نستطيع أن نقول أن البحث العلمي لم يتوسع توسعا حقيقيا الا بعد الحرب العالمية الثانية. ومن ذلك الحين وقعت دراسات منظمة كان قد قام بها ج. د. كلارك في زامبيا وأنجولا، ور. دي بايل دي هرمنس بامبراطورية وسط افريقيا، وج. ننكي في رواندا وبرندي، وج. مرتلمنس وج. دي هنزلين، وهـ. فان مورسل بالزايير، وجمعية ما قبل التاريخ الجابونية بالجابون.

أما في الزايير، فقد تقدمت الابحاث منذ تكوين معهد المتاحف القومية سنة ١٩٧٠م

ولكن معارفنا ستظل متفاوتة، واذا كان كوليت قد قام بعمل رائد عندما أنجز أول دراسة تاريخية طبقية أرضية، فلم يقتد به أحد إلا نادرا، ولذا فلا تعتمد معارفنا في كثير من أجزاء المساحة



● الشكل ١ خريطة أفريقيا الوسطى مع بيان الاقاليم النباتية.

المعنية الا على مجموعات سطحية. على أنه ينبغي أن ندرك أن علم الآثاريعاني صعوبات كثيرة بافريقيا الوسطى اذ توجد بعض المناطق التي لا تخضع بيسر للحفريات نظرا الى قشرات وعنية كثيفة مثلما هو الشأن بالشمال، ونظرا الى أن التقنيات بالغابة نفسها صعبة.

ان العمل يزداد صعوبة من جراء عوامل أخرى، لأن الأحوال المناخية وحموضة الأرض بصفة عامة لم تسمح بالمحافظة على البقايا العظمية، وذلك ما يفسر انعدامها في غالب المواقع المدروسة، باستثناء اشنكو خاصة وماتوبي حيث سهل الوسط الكلسي المحافظة على الأدوات.

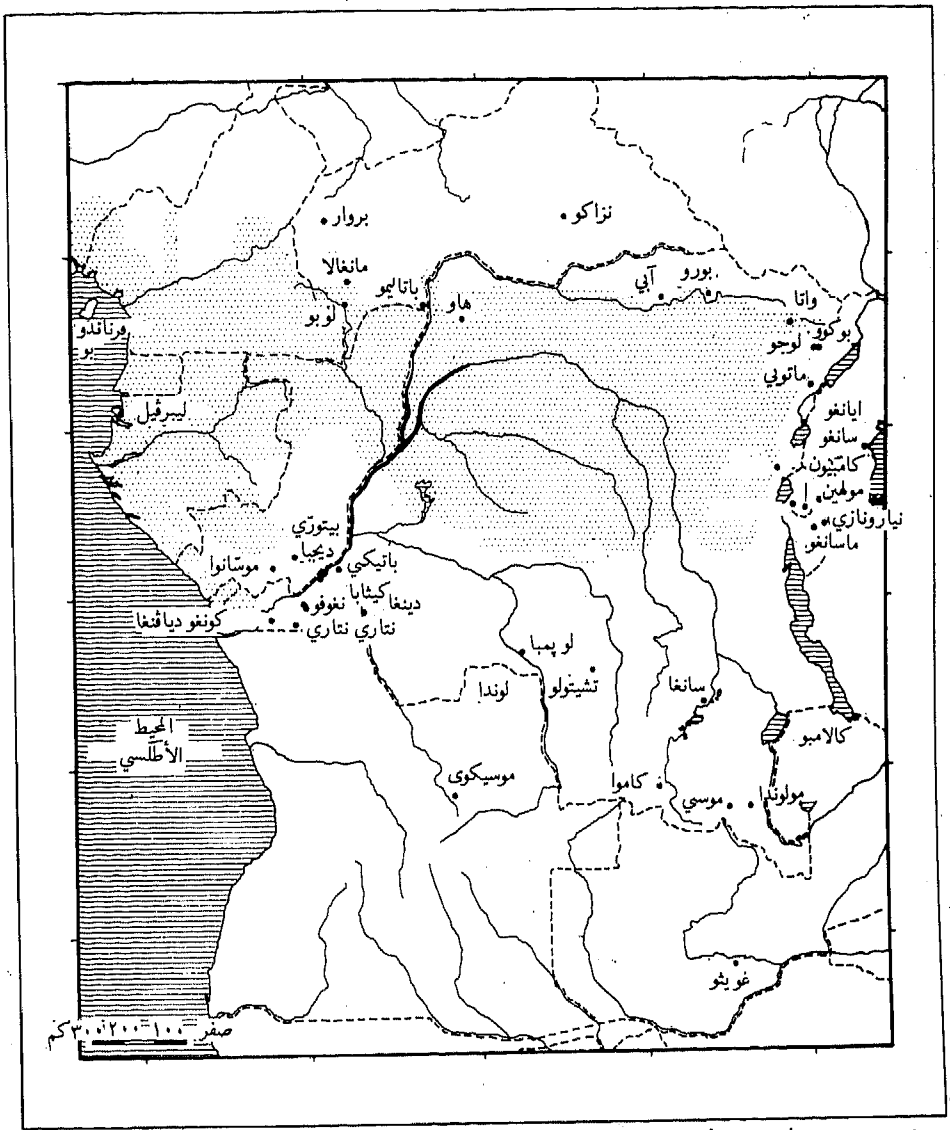
ولقد روجعت مدونة الأسماء بدون انقطاع، وكثيرا ما كانت التقسيمات الفرعية محل نزاع. ولعله يستحيل، من حيث الترتيب الزمني وحتى من حيث النماذج البشرية، تحديد العصور الحجرية المتعاقبة القديمة، والوسطى، والحديثة، وما يتخللها من حقب فاصلة، وهكذا فبعد عدة محاولات في التصنيف الدقيق، لا بد من العودة الى اعتبار تلك المقولات الكبرى نسبية جدا ومؤقتة.

ان دراسة المواقع الجديدة المحفورة والمؤرخة تأريخا نظاميا تشهد بوجهة النظر هذه لنذكر مثلا العصر الحجري الحديث: في سنة ١٩٥٩م، كان ج لاكلارك حدد بداية العصر بحوالي ٧٥٠٠ قبل الحاضر، وفي سنة ١٩٧١م حدد تاريخ كهف منياما بالأوغندا بـ ١٥٠٠٠ قبل الحاضر (حسب فان نوتن، ١٩٧١م)، وبعد ست سنوات قدر تاريخ صناعة الحجارة الصغيرة في ماتوبي بـ ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر تقريبا. وهكذا فان التناقضات واضحة بين التصنيف القديم والاستكشافات القريبة العهد.

ففي الحين الذي شرع فيه الأثريون في الاهتمام خاصة بطرق عيش إنسان ما قبل التاريخ، وذلك بدراسة محيطه، في محاولة فهم علاقاته بوسطه، اقتصر ما قبل التاريخ بافريقيا الوسطى طويلا على دراسة النماذج البشرية والترتيب الزمني. ولذا ظلت مكانة الانسان ضئيلة في هذه المدونة.

وعوضا عن أن نضع الفهرست الكامل للمواقع التي لا تشمل هنا الا بعض الاكتشافات بالسطح، فاننا سنعني هنا بالحفريات القليلة الشاملة التي وفرت عناصر لتحديد التواريخ وهي ايشنكو وكومب، وبيتوري، وكموأ، وماتوبي وكلمبو، حتى وإن استدعى ذلك دعم المعطيات المبعثرة بمعلومات اضافية وفرتها دراسة أماكن أخرى.

اننا نعتقد اعتقادا راسخا أنه يستحيل دراسة مناطق ثقافية كبيرة معينة. فينبغي ان نكتفي بملاحظة وجود الانسان في وقت معين، دون أن نستطيع الجواب على السؤال: هل نشأ الانسان بعين المكان أو أنه أتى من مكان آخر؟ لاشك انه تكيف من أول وهلة مع أوساط معينة جدا لها مناخها، ونباتها وحيوانها الخاص بها. ولقد استغل الصياد الجاني البدائي تلك الأوساط ليبقى على قيد الحياة، وعندما اختار المادة التي صنع منها أدواته، أخذت حركاته تتحدد. ومن الواضح أن الانسان استجاب بطرق مختلفةتبدي أحيانا خصائص مشتركة كما تبدي في نفس الحين تكيفا جهويا، وحتى محليا، لا يمكن تفسيره بمجرد قدرية الأحوال البيئية المتبدلة، على أنه من السابق لأوانه أن نتحدث عن مناطق ثقافية متميزة.



الشكل ٢: خريطة أفريقيا الوسطى
مبيناً عليها أسماء المواقع الواردة في النص.

الاطار الجغرافي

ان خصائص مرفولوجية المنطقة الشاسعة المدعوة «افريقيا الوسطى» ناتجة عن سلسلة من الحركات التي ابتدأت في أول الدهر الثالث، ويحتمل أنها لما تنته بعد.

يحيط بالحوض المركزي الذي لا يزيد ارتفاعه على ٥٠٠ متر، أنجاد وتضاريس ساحلية أو جبال تكونت على الطبقات الجيولوجية التي تغطي قاعدة ما قبل الكامبرية الكرستالية، التي تظهر بارزة في السطح، وهي وعرة ولا سيما في كيفو، حيث ارتفعت أحيانا الى ما فوق ٣٠٠٠ متر، وشقّها الانجراف شقا بالغا، وتعلو القاعدة تضاريس أرضية عالية جدا وذلك شأن الانجاد البزلتية (٣٠٠م) من الضفة الجنوبية الشرقية من بحيرة كيفو وآداموا (٢٥٠٠م) والاجهزة البركانية بمنطقة فيرنكا (٤٥٠٠م) وسورست رونزوري (٥١١٩م) ونجد الهومبو (٢٦٠٠م) ولقد تسببت الحركات البنيوية التي طرأت على المناطق العالية في تشكل أخفوضات تشمل الخندق الموجود بجنوب افريقيا الوسطى و«هاوية بنوئي».

تتميز افريقيا الوسطى بنزول أمطار وافرة باستثناء المنطقة الساحلية بجنوب أنجولا وبحوض كوبنكو ـ زمبين. وتنزل الأمطار باطراد، كامل السنة بالحوض وتمثل نسبة تفوق ١٧٠٠ مم سنويا. وتبلغ على سواحل الجابون وريوموني، والكمرون ٤٠٠٠ مم. أما في المناطق الاخرى التي لها فصل جاف (٣ الى ٧ أشهر) فيبلغ نزول الأمطار ٨٠٠ الى ١٢٠٠ مم.

ان الغابة الكثيفة الرطبة بافريقيا الوسطى والتي تنمو في نظام مطري مرتفع، بين ٥ درجات شمالا، و ٤ درجات جنوبا، تغطي حوض الزايير، ومعظم جمهورية الكونغو،والجابون وريوموني، وجنوب الكامرون. وتتحول تلك الغابة شرقا، بعد تشكلات انتقالية، الى غابات كثيفة جبلية تمتد بين درجتين شمالا و ٨ درجات جنوبا وتغطي القمم والسفوح الممطرة جدا من شرقي الزايير ورواندا وبروندي. وتتفرع عن الغابة الكثيفة في الأماكن التي تستغل فيها غابات جديدة وغابات ثانوية.

وتحف بالغابة الاستوائية غابات كثيفة نصفها مضمحل، وكثيرا ما تكون متدهورة، وتستطيع أن تتحمل فصلا جافا يدوم شهرين الى ثلاثة أشهر. وهي تشكّل في الشمال حاشية غير فسيحة من حيث خطوط العرض التي تبتدئ من الكامرون إلى بحيرة فكتوريا، مرورا بجنوب امبراطورية وسط افريقيا وما بين بومو-أو يلي، وتشكل في الجنوب، مع السباسب التي صنعها عمل الانسان، تشكل زخرفا نباتيا يكسو جزءا من جمهورية الكونغو، والزايير الأسفل، والمناطق السفلى من كوانكو وكساي سنكورو، ولوماني.

وتكسو الغابات الخفيفة والسباسب السودانية الزمبازية المنظمة حسب قوس مستدير يحيط بالغابات الغينية الكثيفة، مناطق يدوم فيها فصل الجفاف ما يقرب من ٧ أشهر وذلك في وسط الكامرون وامبراطورية وسط افريقيا، والسودان الجنوبي، وشرقي رواندا وبروندي وشابا بالزايير، وزامبيا وانجولا.

وتوجد منخفضات مستنقعية على طول الأنهار لاسيما على مجرى النيل الأبيض بجنوب السودان، وبحوض ومنخفض أوبما بالزايير، وبحوض الزمبير بأنجولا وزامبيا.

تطور المحيط

لقد أصبحت اعادة محيط الانسان في ما قبل التاريخ عنصرا هاما من الأبحاث الأثرية. وجرت بافريقيا الشرقية الدراسات الاولى في هذا الصدد. ولاحظ بحاثون مختلفون مثل أ. ج. وايلند (١٩٢٩م، ١٩٣٤م) وب. أ. كنت (١٩٤٢م) وأ. نلسون (١٩٤٠م، ١٩٤٩م) حدوث تعاقب في الدهر الرابع بين الحقب الرطبة (الممطارات) والحقب الجافة (ما بين الممطارات).

وكانت الممطارات تعتبر معاصرة لجموديات نصف الكرة الشمالي وسميت من أقدمها الى أحدثها: الكاغيري، والكاماسي، والكمبلي. ثم عثر فيما بعد على مرحلتين رطبتين من أول الهولوسين وهما: الماكالي والناكوري، ولقد حاول ا. س. ب. لايكي (١٩٤٩م) وج. د. كلارك (١٩٦٢م، ١٩٦٣م) وغيرهما اطلاقا الاسمين توسعا على أجزاء أخرى من افريقيا. وقد اكتسبا مفهوما طبقيا محسوسا بافريقيا الشرقية. وردا على ذلك أبدى مؤلفون مثل ت. ب. أبرين (١٩٣٩م) وهـ. ب. س. كوك (١٩٥٨م) ور. ف. فلنت (١٩٥٩م)، وف. إ. زونر (١٩٥٩م) وو. و. بشوب (١٩٦٥م) تحفظات تتعلق بتعميم تلك النظرية: لأن الأبحاث التي جرت بافريقيا الوسطى بينت تأخرات هامة تتعلق بالمراحل المطرة بالمنطقتين.

وكان ج. دي بلوي (١٩٦٣م) أول من اعترف بوجود حقبة نصف جافة بافريقيا الوسطى وذلك بالبليستوسين الأعلى، وهي معاصرة على الأقل في أكبر جزء منها، للتجمد الوورمي بأوربا. ولقد وقع على آثار تلك المرحلة الجافة بشابا مؤلفون مختلفون (الكسندر، ١٩٦٥، مايرسن ١٩٧٥م). ولقد وجد ج. دي بلوي (١٩٦٣م) تغيرات أكثر رطوبة نحو ٦٠٠٠ قبل الحاضر وذلك بالزايير الأسفل، وموس في شابا (الكسندر، رسالة شخصية) وفي موسندة بالكونغو (دلبريس ١٩٧٤، ٤٧)، ان الدراسات الجارية في كاموا بينت أن ذلك التغير قد كان مسبوقا بتغير رطب بين ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر، وفصلها تغير آخر في حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر تسبب فيه اجتراف قصير المدى مرتبط بعودة الجفاف. وقد عاصر التغير الرطب الواقع بين ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر، توسع بحيرات افريقيا الشرقية الذي أثبته ك. ن. وبوتزر (١٩٧٢م). وتدل دراسات دي بلوي (١٩٦٣م، ١٩٦٥م/١٩٦٨م، ١٩٦٩م) بالزايير الاسفل، ودراسات ج. مايرسن (١٩٧٥م) في كاموا على أن أكثر الحقبات جفافا تميزت باشتداد العمليات المرفولوجية التكوينية. وهكذا تعرّت الهضاب في منطقة كنشاسا، مدة الليوبولفيلي عراءً شديدا ونتج عنه ترسب كبير بالسهول. وقد شهدت تلك الحقبة بالكموأ، تطورا كبيرا جدا طرأ على السفوح في شكل تقلص حوافي الأدوية وكل ذلك يؤيد رأي هـ. رودنبورك (١٩٧٠م) في شأن التناوب بين فترات مرفوديناميه توافق الحقبات الجافة والفترات القارة المتميزة بالرطوبة.

لقد تأثر تطور البيئة بافريقيا الوسطى تأثرا بالغا بالاحوال المناخية في الألفيات الخمسين الأخيرة وان الدراسات المتعلقة بالتشكلات النباتية الحالية وتوازنها مع المناخ، وكذلك التحاليل البالينولوجية الخاصة بمختلف المواقع قد مكنت من اعادة الكساء النباتي القديم والأحوال المناخية التي صنعته.

في المناطق الجبلية بالشرق خصوصا، يمكن أن نلاحظ أحسن ملاحظة تغيرات المناخ الناشئة عن تنقل طوابق النبات. ان رسوم لقاحات المخثات(Tourbières)الواقعة على المرتفعات تبين تعاقبا بين نباتات المناطق البادرة، ونباتات المناطق الحارة والرطبة، ثم نباتات المناطق الجافة. وذلك شأن موقع كلمبو فولز الموجود على ارتفاع ١٢٠٠ متر بزامبيا. ولقد اكتشف به ج. د. كلارك وأ. م فان زندرن باكر، (١٩٦٤م) فترة سنجابية نخلية طويلة بين ٥٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر و١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، مع وجود تغير ين رطبين في حوالي ٤٣٠٠٠ قبل الحاضر و٢٨٠٠٠ قبل الحاضر، كما وجد بداية فترة رطبة هي أكبر، حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ولقد انخفضت الحرارة مدة الحقبات الجافة انخفاضا محسوسا وذلك بالمناطق المرتفعة المحيطة بالغرابن (Graben)، وذلك ما كان أشار اليه ج. أ. كوتزي، وأ. م فان زندرن باكر (١٩٧٠م) بجبل كينيا حيث أثبتا «تجمّد جبل كينيا» بين ٢٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر و١٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر.

ولقد درس ج. د كلارك وأ. م فان زندرن باكر (١٩٦٢م) تطور الكساء النباتي بمنطقة لوندا حيث تحتل غابة خفيفة وجافة ذات أشجار برشستاجيا بين ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر و١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ثم قامت مقامها غابة أكثر انغلاقا مدة الفترة الرطبة من ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر الى ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. و يبدو، اعتمادا على الدراسة البالينولوجية لموقع الكموأ التي أجراها، أ. روش (١٩٧٥م) والمكملة للدراسة الجيومرفولوجية لـ ج. ميرسن (١٩٧٥م) أن حقبة جافة حدثت ابتداء من الأشولي النهائي الى ١٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهكذا شاهدنا تطورا متدرجا للسبسب السهبي نحو الغابة الخفيفة التي استحالت الى غابة أكثر كثافة مع امتداد ممرات غابية ناشئة عن ترطب المناخ ابتداء من ١٢٠٠٠ قبل الحاضر.

و يبدو، حسب م. ستريل (١٩٦٣م) أن الغابات الخفيفة السنجابية النخلية، والسباسب ذات الأكاسيا قد شهدت توسعا كبيرا بين ٥٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، و ٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ان ذلك التوسع الذي وقع ابتداء من المنطقة الشرقية من الزمبين كان من أثره أن دفع بالغابة الكثيفة نحو الحوض. و يرى ب. دوفينيو (١٩٥٨م) أنه يمكن اعتبار منطقة شابا ملتقى طرق تعكس فيه النباتات تأثيرات مختلفة غينية كنغولية، زمبيزية وافريقية شرقية.

واعتمادا على نظرية ملنكفيتش القائلة بتحرك خط الاستواء الحراري، يرى أ. شميتس (١٩٧١م) أن تحولا طارئا على خط الاستواء قدره ٨ درجات نحو الجنوب مدة فترة حارة ورطبة واقعة بين ١٢٠٠٠ سنة و٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر، كان من أثره ان تطورت الغابة الكثيفة تطورا مهمّا واتسعت حتى الزايير كله وحتى جزء من أنجولا، كما يشهد بذلك وجود بقايا من غابة كثيفة جافة ضمن الغابات الخفيفة الحالية. ولقد كانت الغابات أكثر اتساعا نحو الشمال وكانت تغطي أغلب جزء من الكمرون، وامبراطورية وسط افريقيا.

ومدة تلك الحقبة الرطبة، ظلت غابات خفيفة وسباسب قائمة بالمناطق التي كانت مواتية لها وذلك بالأنجاد والأراضي الفقيرة. ويحتمل أن تكون أنجاد الزايير الجنوبي وأنجولا لم تعرف أبدا نباتا مغلقا بأتم معنى الكلمة، ولذلك ابتدأت الغابة الخفيفة من تلك المناطق وأخذت تتسع عندما جف المناخ بعد ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. الا أن أ. شميتس (١٩٧١م) يعتقد أن ذلك عائد أساسا الى العامل البشري الذي تسبب في الألفية الأخيرة في تقلص الغابة الكثيفة.

وفي الختام، فلقد عرفت افريقيا من ٥٠٠٠٠ قبل الحاضر الى ١٠٠٠٠ قبل الحاضر فترة طويلة سنجابية تخلية معاصرة للتجمد الوورمي، بينما كانت الفترة الرطبة التي ابتدأت في حوالي ١٢٠٠ قبل الحاضر توافق التغيرات المناخية الدالة على بداية الهولوسين، ففي تلك الحقبة الطويلة الجافة التي تخللتها على وجه الاحتمال فترة رطبة في حوالي ٢٨٠٠٠ قبل الحاضر. كانت العمليات المورفوديناميية هامة، وشهدت الغابة الخفيفة توسعا كبيرا. ولقد امتدت الغابة الكثيفة في الحقبة الرطبة من أول الهولوسين على أغلب جزء من افريقيا الوسطى وكان تقلصها الحالي عائدا الى أثر الانسان بها.

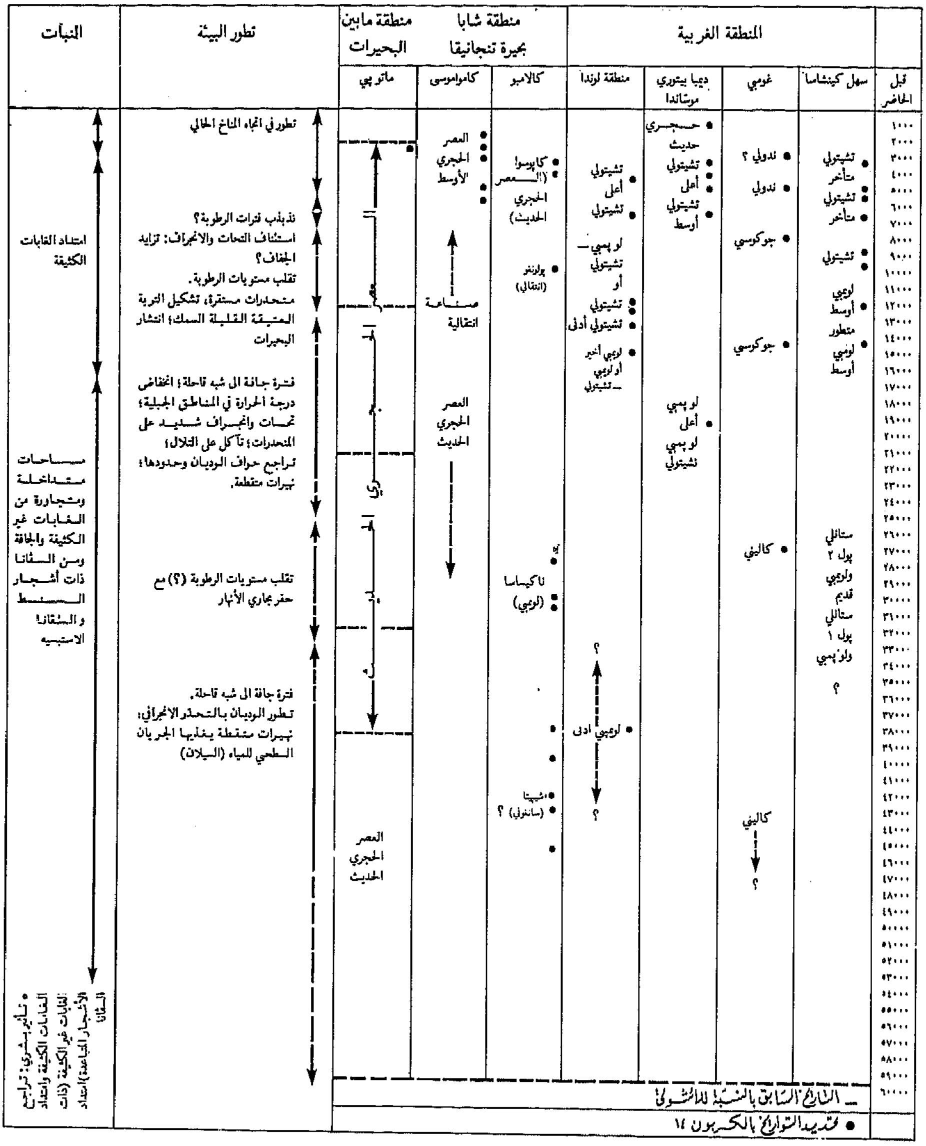
الاستيطان بافريقيا الوسطى

نظرا الى انعدام عظام بشرية،فلقد ثبت بوجه عام أن الدلائل الاولى على حضور الانسان تتكون من الحصاة المهشمة المسماة «الحصاة المهيأة»، وهي تشابه الحجارة الأولدووائية نسبة الى موقع أولدواي بطانزانيا. ولقد اكتشفت أشياء مماثلة في أماكن كثيرة بافريقيا الوسطى وذلك بالزايير، بحوض كساي، وبشابا، والكمرون، والجابون والكونغو وامبراطورية وسط افريقيا وبالشمال الشرقي من أنجولا، حيث عثر عليها بالطمي. الا أنه ليس من السهل ان نعرف ما اذا كان الانسان أو الطبيعة هو السبب في تهشيم تلك الحصاة. وانه لمن الخطأ الشائع أن نعتبر من الأدوات كل الحصى التي فيها أمارات نحت مقصودة والحقيقية أن معظمها انما هي نواة اقتطعت منها الشظايا. ولقد استعملت تلك الشظايا كما هي، لتكون أدوات صالحة لكل عمل، أو هذبت واستعملت مكاشط ومحكات.

ولم يعثر الى يومنا هذا على مسكن يعود تاريخه الى ذلك العصر. وتعوزنا أيضا النماذج الخشبية والعظمية التي كان أكثرها من الأدوات. ويمكن أن نتصور أن الحصاة المهيأة كانت من عمل القرد الجنوبي أو الانسان الماهر. الذي كان، حسب مشاهدات جرت خارج افريقيا، يعيش عيشة آكل الجيف. الا أن الحياة الاجتماعية أخذت تنتظم ابتداء من ذلك الوقت. وتعود أوائل تلك الحقبة من التاريخ الانساني الى ما يتجاوز ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، ودامت حتى حوالي ٥٠٠٠٠٠ سنة.

اننا لم نحصل على حجة قاطعة على وجود الانسان بافريقيا الوسطى الا عند حصولنا على الأدوات الاشولية. ولم يعرف المستوى الأكثر قدما منه، أي الأشولي الاسفل، الا في منطقة لوندا (كلارك ١٩٦٨م). أما الاشولي الأعلى، الذي كثيرا ما يوجد بالأوساط الجافة، فلقد عثر عليه في أماكن عديدة تحيط بالحوض الاوسط. ولقد وصفه ج. د كلارك بأنجولا وج. ننكان في رواندا وبروندي، كما وصفه دي بايل دي هرمنس في امبراطورية وسط أفريقيا، و يعتبر كلمبو، في زامبيا، وكموا، في الزايير أحسن المواقع المرجعية منه.

و يتميز الاشولي بذوات الوجهين وقدومات كانت محل محاولا تصنيف مرفولوجية عديدة (انظر كاهن، مارتين، ١٩٧٢م). ولقد رأى فيه بعض المؤلفين تحولا من مستوى عتيق الى مستوى أكثر تطورا، وأثبتوا تعاقبا أشوليا من ١ الى ٥. الا أن هذه الفروق في النماذج البشرية ليس لها أحيانا مدلول زماني كبير إن ذا الوجهين، كما يدل عليه اسمه، هو أداة نحتت على جهتين انطلاقا من



● جدول بأسماء الصناعات حسبما أورده مختلف المؤلفين، وبالتواريخ المحددة بالكربون ١٤ والمعروفة حاليا، بتطور البيئة والنباتات.

حصاة أو من شظية كبيرة فهو يتميز بحدّ يزداد أو يقل نتوءا، وله قاعدة تكاد تكون دائما مستديرة. و يصاحب ذا الوجهين أداة متميزة جدا، وهي القدوم الذي ينتهي بقاطع، ونجد مع هاتين الأداتين أدوات أقل تميّزا مثل ثلاثي السطوح، والنقارات، والسكاكين، وكرو يات الأشكال، وأدوات صغيرة مختلفة. واذا كانت الاكتشافات الاشولية متوفرة، فان المواقع التي تعتبر فيها تلك الصناعة مستقرة بها أثر يا، أو ممثلة بها تمثيلا منتظما، قليلة جدا. فالمكان الوحيد الذي عثر فيه على الأشولي في طبقة أرضية يتع بشاطىء نهر كموأ، في شابا (كاهن، ١٩٧٥م). ان هذا الموقع الفسيح يمتد على عدة هكتارات. ولقد ترك فيه الصيادون الجانون الذين سكنوه، أدواتهم، وكذلك بقايا صنع تلك الأدوات، ويمكن لنا أن نعتبر أننا أمام نوع من المشغل ـــ المسكن. ونظرا الى تناسق هذه الصناعة التي لم تتطور كثيرا، يحق لنا أن نستنتج بأن الأمر يتعلق بإقامات فصلية متتابعة. والمادة مجلوبة من مكان يبعد ١٥ كيلومترعن الموقع الذي عثر فيه على قطع ضخمة من النواة، مطروحة على الارض. فلقد كانت الشظايا تنقل الى الموقع الذي يجري فيه القطع والإتمام، و يشابه الاشولي المتطور أو الاخير في كموأ الصناعات التي توجد بالصحراء وبجنوب افر يقيا، فضبط تاريخه بـ ٦٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر يستوجب أن نعتبرها كنهاية، لأن التار يخ الحقيقي يكون حسب رأينا أقدم من ذلك.

ان الاعتماد على اكتشافات جرت بمناطق أخرى بافر يقيا يجعلنا نطمئن الى القول بأن تلك الصناعة منسوبة الى الانسان المستقيم. لقد كان ذلك الانسان يوميا في حاجة الى الصيد والجني لكي يعيش. ونفترض ان الحياة الاجتماعية ما انفكت تتطور وأن الانسان قد اكتسب السيطرة على النار.

التطور التكنولوجي والتكيف

يمكن أن نميز، بعد الأشولي، عدة مناطق تعطي صناعاتها، رغم اختلافها، شعورا بنوع من الوحدة، فلنتصور بصفة عامة قسما غر بيا وقسما شرقيا يمكن له في حد ذاته أن ينقسم الى قسمين، وان كان انعدام المعطيات بالنسبة للشمال والجنوب من المنطقة المعنية تجعل من هذه التقسيمات تقسيمات احتمالية. في القسم الغربي الذي يمتد من أنجولا الى الجابون تعتبر المنطقة التي درست أحسن دراسة هي المنطقة التي تشمل الزايير الأسفل، وكنشاسا، ومنطقة لوندا، وكوانكو، وكساي، أي الجنوب الغربي من حوض الزايير. أما القسم الشرقي فهو يشمل منطقة ما بين البحيرات ومنطقة شابا، وبحيرة طنجانيقا.

ففي القسم الغربي، يبدو أنه عثر على سلسلة من الصناعات التي وصفت بأنها تتابع بشري تاريخي: فهناك السنغون، متبوعا باللو يمبي المتبوع بالتشيتولي. ان السنغون يمثل الانتقال من الاشولي الى اللو يمبي، و يقع في الحقبة الأولى الفاصلة. أما اللو يمبي فهو يؤلف العصر الحجري الوسيط، في حين أن اللو يمبي ـــ التشيتولي يؤلف الحقبة الثانية الفاصلة. فيكون مآله نهائيا الى التشيتولي الذي هو معاصر للعصر الحجري الحديث بافر يقيا الشرقية والجنوبية. ولما كانت كل هذه الصناعات امتدادا للتقنية الاشولية، فانها تختص بنحت الوجهين، وتكون فيها تقنية لوفالوا نادرة.

أما القسم الشرقي من افر يقيا فانه يكشف عن خليط كبير من الصناعات. وهي تشابه

صناعات القسم الغربي، الا أن نحت الوجهين ليس وافرا. وخلافا لذلك فان تقنيات القطع المعروفة بالموستيرية، ولوفالوا متطورة بها جدا، والنصال والشظايا النصالية بها عديدة. ولقد طرأت ابتداء من حقبة الانتقال الثانية، تغيرات عميقة جدا وانقطعت التقاليد نهائيا لتحل محلها صناعات الحجارة الصغيرة التي لم يكن لها حسبما يبدو صلة بالصناعات السابقة، ان خصائص هذه الصناعات من نوع السنغون واللو پمبي المتوفرة بتلك المناطق تسمح بأن نميز فيها منطقتين مختلفتين: احداهما تغطي القسم الشمالي، أي المنطقة الموجودة بين البحيرات، وتختص بأدوات ذات وجهين، ورقية ونصالية الشكل، وبخناجر. أما الأخرى التي تغطي الجنوب، أي منطقة شابا، وشواطىء بحيرة طنجانيقا، فهي تختص بانعدام «الحدود»، وبوجود أدوات ذات وجهين من نوع المقص أو المقرص، ولعله من المستغرب عدم وجودها في المنطقة الواقعة بين البحيرات، وهذا دليل على خطأ من رأى في هذه الآثار الباقية، صناعات خاصة بالغابة وصناعات خاصة بالسبسب، اذ أنه لم يكن حسبما يبدو، منطقة أكثر تشجرا من أخرى في تلك الفترة، لأن المناخ قد كان أكثر جفافا من اليوم ولأن الغابة لم تمتد الا في آخر تلك المدة. ويشهد موقع مسنكو على خاصية صناعات تلك المنطقة التي تمثلها مجموعة من الحدود ذات الوجهين، ومعها عناصر خشنة مثل النقارات. ولقد مُثّل بها عنصر لوفالوا تمثيلا كبيرا (كاهن، هيسيرتس، فان نوتن ١٩٧٢م)، وقد اكتشف مقطوعة من الصناعات الحجرية تبدأ من السنغون وتنتهي «بالعصر الحجري الحديث»، الا أنها لم تدرس دراسة مفصلة (ننكان ١٩٥٨م).

ولندرس الآن المنطقة الغربية عن كثب. ان صناعاتها تمثل مجموعة العناصر التي وجدناها بالمناطق الشرقية، وذلك ما يجعلها تكتسي تنوعا كبيرا من حيث النماذج، وهذا يتفق مع التصور العام «للسنغون» و ((اللو پمبي))، فنجد فيها نقارات خشنة قد كانت موجودة بالأشولي ودامت حتى التشيتولي. ان هذه الأداة التي تعتبر أحفور السنغون الرئيسي، خالية في الواقع من المفهوم الزمني، الا أننا نجد أدوات تنتسب اليه وهي مصقولة، ومنها حدود نصال جميلة ورقية الشكل وخناجر طويلة. ثم ظهرت بعد ذلك حدود سهام تدل على أن الانسان قد اكتشف استعمال القوس. ويبدو أن الانسان العارف كان مسؤولا على تلك التكيفات، وان لم يعثر الى الآن على بقاياه. ولقد اكتشف كوليت في قمة كومبي أول تعاقب من الصناعات بافريقيا الوسطى. فلقد أبرز أربع صناعات: الكاليني والدجوكوسي والندولي واللنييوبولدي، ومعها آثار من عصر الحديد. ولم يأخذ المؤتمر الافريقي الاول لما قبل التاريخ، المنعقد بنايروبي سنة ١٩٤٧م بعين الاعتبار أسماء الصناعات التي عرّفها ج. كوليت، وأقر مصطلحي سنغون واللو پمبي اللذين لا يعتمدان على أي قاعدة أثرية قويمة. ولقد دخلت المصطلحات الجديدة الى علم الآثار واستعملت دون روية لا بافريقيا الوسطى، فحسب بل خارج حدودها. لقد أعاد د. كاهن سنة ١٩٧٣م و١٩٧٤م (كاهن، ١٩٧٦م) حفر قمة كومبي، وهو الموقع الوحيد المعروف الذي يمكن أن يستخرج منه ترتيب تاريخي، وذلك لضبط تأريخ المقطوعة التي اكتشفها ج. كوليت. ان المقطوعة، باستثناء بعض القطعات التي تعود الى الآشولي، تبدأ في الكاليني الذي يتميز بنقارات خشنة منحوتة على حصاة أو شظية، ومكاشط ضخمة، وأدوات مسننة خشنة ومناجر أحجامها كبيرة. ونجد أيضا ذوات الوجهين النصالية الشكل، ومكاشط متقاربة وأدوات ذات وجهين أو وجه واحد، ضيقة لها

حافات متوازية نوعا ما. يضاف الى هذه المجموعة أسلحة أخرى لها قواطع مستعرضة مركبة على شظايا (قواطع صغيرة) ونواة مستديرة من نوع «الموستيري». وتشمل القطع شظايا لها شكل لوفالوا و بعض النصال الرديئة، إن أغلب العناصر تذكّرنا بالسنغون، وتذكّرنا الأدوات الرقيقة باللو پمبي وحتى التشيتولي. و يتميز المستوى الموالي، أي الدجوكوسي، بحدود سهام ذات ساق معلاقية أو ورقية الشكل كثيرا ما صقلت بالضغط. و يشابه القطع قطع الكاليني. و يذكرنا الدجوكوسي باللو پمبي الحديث في سهل كنشاسا (مورسل ١٩٦٨م) و باللو پمبي التشيتولي، وحتى بالتشيتولي القديم كما عرفهم ج. مرتلمنس (١٩٦٢م) وج. د. كلارك (١٩٦٣م). ولا يوجد المستوى الثالث، أي الندولي، الا في شكل تجمعات صغيرة. و يتميز خاصة بحدود السهام الصغيرة الورقية الشكل. وقد كان قطع القطبين يجري بعين المكان، ومما يشهد بذلك، وجود «قطع من شظايا عظمية». ولذلك وجب تقريب هذه الصناعة من التشيتولي المتأخر (مورسل ١٩٦٨م، كاهن، مرتلمنس ١٩٧٣م).

إن أحد التواريخ المعطاة للكاليني يوافق عصر السنغون (كلارك، ١٩٦٩م، ٢٣٦) و يوافق تاريخ آخر المراحل القديمة من اللوپمبي (كلارك ١٩٦٣م، ١٨ — ١٩، مورسل ١٩٦٨م، ٢٢١). ان التواريخ المعطاة لعينات من المستوى الدجوكوسي لا تختلف بتاتا عن التواريخ المحسوبة بالنسبة لصناعات مشابهة. فن التواريخ المرتبطة بالندولي، يوجد تاريخ واحد يناسب تواريخ التشيتولي المتأخر المعطاة سابقا بسهل كنشاسا وبمنطقة لوندا.

ويمكن ان نقول بصفة عامة إن الصناعات التي وجدت بالطبقية الارضية بلوندا، وغومب وبسهل كنشاسا، متشابهة من حيث النماذج، ومتوافقة من حيث التاريخ، فيؤرخ السنغون — اللو پمبي الاسفل ما بين ٤٥٠٠٠ سنة و٢٦٠٠٠ قبل الحاضر، واللو پمبي الأعلى واللو پمبي التشيتولي بما بين ١٥٠٠٠ سنة و١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، والتشيتولي الأسفل بما بين ١٠٠٠٠ سنة و٧٠٠٠ سنة قبل الحاضر، والتشيتولي الاعلى بـ ٦٠٠٠ سنة الى ٣٥٠٠ سنة قبل الحاضر (انظر اللوحة ١).

لقد وفر خندق استكشاف حفره ب. دي ماري بكهف ديمبا تعاقبا من ١٥ طبقة أثرية، وتاريخا يتراوح بين ٢٠٠٠٠ الى ± ٦٥٠ سنة قبل الحاضر، وذلك بالنسبة لصناعة من نوع اللوپمبي الاعلى واللو پمبي — التشيتولي. و يبدو ان تلك الصناعة أقدم من ذلك الى حد ٢٥٠٠٠ سنة ق. ح. ان ذلك التاريخ من شأنه أن يسد الثغرة التي أشار اليها كاهن (١٩٧٧م) والتي توجد بالتواريخ بين ٢٧٠٠٠ سنة قبل الحاضر و١٥٠٠٠ سنة ق. ح.

ان كهف هو (Hau.) لم يوفر تواريخ راديكورنية مفيدة. وهو الموقع الوحيد الذي ربما كان يوجد بالغابة الاستوائية عندما كان محل اقامة والذي اكتشف به. ف. فان نوتن صناعة لو پمبي تبعها «عصر حجري حديث».

وقام ج. ب امفر سنة ١٩٦٦م بحفريات في كهف بيتوري فلاحظ عشرين مستوى اقامة من العصر الحجري. ولقد أعطى أحد المستويات راديو كربونيا قدر بـ ٣٩٣٠ ± ٢٠٠ سنة قبل الحاضر، وأعطى مستوى أسفل تاريخا يقدر بـ ٤٠٣٠ ± ٢٠٠ سنة ق. ح. وتعتبر الادوات الحجرية التي لا تتطور من مستوى الى آخر مكوّنة وحدة نوعية تذكّرنا صناعتها بالتشيتولي الاعلى. ولقد أرّخ باحث آخر مستوى تشيتوليا في موسندا بما قدره ٦٦٠٠ ± ١٣٠ ق. م (دليبر باس ١٩٧٤م، ٤٧).

وفي بلاد الجابون، اكتشفت الصناعات التي تدعي اللو يمبية في مناسبات عديدة (بلنكوف ١٩٦٥م، حجي جورجيو، بومري، ١٩٦٥م، فر ين ١٩٦٥م).

الصيادون الجانون المتخصصون

ظهرت في وقت ما، ويحتمل أن يكون ذلك بين ٥٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، حجارة صغيرة هندسية الشكل على شكل قطع دائرة، ومثلثات ومستطيلات، ومعينات.. و يبدو أن القطع كانت أبرزها، وإن كانت موجودة من قبل في جنوب افر يقيا في آخر العصر الحجري الوسيط حيث كانت تستعمل فيه كعذبات بقاعدة حدود النصال (١). أما في العصر الحجري الجديد، فكانت تستعمل تلك الحجارة الصغيرة وحدها لتركيب السهام، والنصال، والمخاطف، والسكاكين والمقصات.

ومثلما سبق، يمكن أن تقسم المنطقة المدروسة الى منطقتين متميزتين، فنلاحظ في القسم الغربي الذي يغطي أنجولا، وكساي، وكوانكو، والزايير الاسفل، وجمهور ية الكونغو الشعبية، نلاحظ دوام التقاليد التي تعرف بالتقاليد اللو يمبية، كما لوان اللو يمبي، في تطوره بعين المكان، قد أنشأ التشيتولي. وأصبحت الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل عديدة الا أنها لم تكن غالبة مثلما هو الشأن بالقسم الشرقي، حيث تمثل فيه العنصر الاساسي للادوات. ان س. ميلر (١٩٧٢م) الذي استعرض التشيتولي ولخص الاعمال السابقة، يعرّف هذه الصناعة بوجود أدوات ذات وجهين من نوع المنقار ــ المقص، وحدود ورقية الشكل، وحدود ذات ساق معلاقية، وقواطع صغيرة، وحجارة صغيرة هندسية الشكل. ان منطقة لوندا قد أعطت صناعة تجمع كل هذه العناصر، وان كانت ممثلة تمثيلا ناقصا بمختلف المواقع. وهكذا أمكن تمييز مظهر ثقافي لواد توفرت فيه القواطع الصغيرة مثلما هو الشأن في دينكا، ومظهر آخر لنجد عثر فيه على سلاح يتألف أساسا من حدود ذات ساق معلاقية (بكيرت ١٩٥٢م). ان الموقع الكائن بنجد باتيكي الذي كان ج. مرتلمنس حفره سنة ١٩٥٩م بهدف انقاذ الآثار، (كاهن، مرتلمنس ١٩٧٥م) قد أعطى صناعة تدعى بالصناعة «الكاملة» مثل التي توجد بمنطقة لوندا. ان الحث المتعدد الشكل الذي كان عمليا المعدن الوحيد المستعمل في الأدوات المكتشفة، أصله من المناجم التي يوجد أقربها على بعدة عشرة كيلومترات من الموقع. وتختص تلك الصناعة بعدد كبير من الشظايا و بقايا القطع (٩٦٫١٪)، و بعض النوى (٤٥٫١٪) و بعض الآلات (٤٫٢٪). ووجدت بجانب حدود سهام ورقية الشكل أو معلاقية الساق، حجارة صغيرة هندسية الشكل، وشظية كبيرة لها قاطع مصقول. ان أغلب قطع النواة من النوع المستدير أو النصالي. ونلاحظ أيضا وجود عديد كبير من النوى الصغيرة متفتتة تماما. ان التقطيع الذي يتكون من شظايا تهذيب، يشمل بعض الشظايا اللوفلواز ية، ونصالا صغيرة. وتلك هي خصائص التشيتولي المتأخر، و يبدو ان هذا الموقع كان محميا للصيد، لان نجد باتيكي، وان كان سهبيا تماما، كانت

(١) كارتر: رسالة شخصية.

تقسمه ممرات غابية يتردد عليهاانسان ما قبل التاريخ الباحث عن الصيد. ولئن كانت المادة الخام المستعملة مجلوبة، فإن كثيرا من الأدوات كانت تنحت بعين المكان. ويمكن أن نتصور ان لبن النبات والكوبال المعثور عليهما بالحفريات، قد استعمالا كمادة لاصقة لتثبيت الحجارة الصغيرة على مقابض النصال والسهام. وكانت المكاشط، والامقاص والسواطير تستعمل لصنع أدوات مركبة توضع فيها القواطع المستعرضة وحدود السهام المعلاقية الساق.

وقد وفرت منطقة لوندا التي درسها ج. د. كلارك تشيتوليا يمكن أن يؤرخ بما بين ١٣٠٠٠ سنة و٤٥٠٠ سنة قبل الحاضر (كلارك ١٩٦٣ ب، ١٨ — ١٩). الا ان تلك الصناعة ربما استمرت حتى بداية عهدنا (كلارك ١٩٦٨م، ١٢٥ — ١٤٩). و يكون تاريخ تشيتولي سهل كنشاسا بين ٩٧٠٠ و٥٧٠٠ سنة قبل الحاضر. (مورسل ١٩٦٨م — ٢٢١).

ويمكن أن نتسأل: الى ماذا تشير المظاهر الثقافية الموجودة بالتشيتولي؟ فهل هي تكيفات مع أوساط مختلفة، وهي تعني مثلا أنها نوع من التخصص في تقنيات الصيد، أو أنها ليست سوى فوارق «ثقافية»؟.

نجد في القسم الشرقي، حول الغابة الاستوائية، من امبراطورية وسط افريقيا الى منطقة شابا، صناعات تدعى بصناعات «العصر الحجري الحديث». ان أقدمها ليست من حيث علم الأنواع البشرية متنوعة اذ لم تظهر الادوات المتخصصة الا متأخرة. وذلك ما لوحظ بكهف متوبي حيث كشفت حملتان حفريتان متتابعتان سنة ١٩٧٣م و١٩٧٤م عن آثار اقامة بشرية طويلة ابتدأت قبل ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر بكثير (فان نوتن، ١٩٧٧م). ولقد عثر على الأدوات المدروسة الى الآن في متر مربع واحد وفر ٨٠٤٥ أداة. وهي منحوتة على المرو حسب طريقة خاصة بصناعات الحجارة الصغيرة وحدها: وهي تقنية القطبين. وتمثل بقايا شظايا التقطيع ٩٠٪، ولا تزيد نسبة الادوات في حد ذاتها على ٤ر٥٪، يضاف الى ذلك القطع التي بها آثار استعمال، دون ان تكون أدوات «شكلت» وهي تمثل ٥٪. ان هذه الصناعة صناعة حجارة صغيرة محضة، و يقرب فيها طول الشظايا الأقصى من ١٧ر٧ ملم، وقد أعدت كل هذه الادوات الحجرية لتكون أدوات مركبة. ان الادوات الحقيقية تشتمل، مرتبة حسب كثرتها، على مخزوزات ومكاشط، ومثاقب، ومحافر، وشظايا ونصال حافتها منحنية، وشظايا مهذبة، وقطع مبتورة، و بعض الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل (قطع دائرة وأنصاف دائرة، ومثلثات). ان الأدوات الحجرية الصغيرة المنحوتة على المرو، والحت أو الشيست متكونة من أرحية، ومهاريس، وسندانات، وقوارع، ومكاشط و بعض المقصات. ولقد أرخت قطعة حجرية مثقوبة تزينها حزات بـ ٢٠٠٠٠ (٢) سنة قبل الحاضر تقريبا. وكانت البقايا العظمية الحيوانية محفوظة حفظا حسنا وتدل على بيئة أكثر جفافا من بيئة اليوم. وكان سكان الكهف يصيدون حسب نظام تنازلي البقريات (الظبي والأبقار الوحشية) والزلم والقوارض (لاسيما الشرمنجديات) والخنزيريات ونادرا القرديات والشياهم. ان هذا الكهف الموجود اليوم بالغابة

(٢) ان الحجارة المثقوبة المعروفة أيضا باسم (كوي (Kwé))، وهي جزء من صناعات العصر الحجري الحديث من المحتمل أنها كانت تستعمل عصيا للحفر.

الاستوائية كان يوجد في أغلب مدة سكناه بالسبسب، غير بعيد عن الغابات الممرات: كما تدل على ذلك التحاليل البالينولوجية. فلقد كانت مسكوتة بدون انقطاع بما كانت الصناعة الغير المختصة من الفترة الأولى تتحول الى صناعة كلاسيكية توفر حجارة صغيرة هندسية الشكل، وأدوات عظمية قليلة، وهيماتيتا أحمر كان يستعمل للتلوين ودوائر نظم من قشرة بيضة النعامة. ونظرا الى قلة الأدوات التي تصلح آلات أو أسلحة، وخاصة بالطبقات القديمة، فاننا نعتقد أن الأدوات كانت في جلها مكونة من الخشب كما لاحظنا ذلك في كويشو (فاكان، فان نوتن، (١٩٧٢م).

وقد بينت حفريات إيشانكو التي أجراها ج. هنزلين سنة ١٩٥٠م وجود ثلاث صناعات حجرية صغيرة (هنزلين ١٩٥٧م). لئن كانت الحجارة الصغيرة مفقودة في الأولى، فهي موجودة أكثر بالثانية ومتوفرة بأصغرها سنا. ان خصائصها النوعية خشنة بصفة عامة، وتتجمع في التقطيع كلّ التقنيات ويخضع لطبيعة المرو الرديئة الذي يستعمل مادة خاما. ان تلك العناصر تذكر بدون شك بالتطور المشهود في ماتوبي. وقد وفرت ايشانكو سلسلة من المخاطف قد تكون استعملت لصيد السمك وللقنص وهي تبين تطورا ملحوظا ينتقل من نماذج لها صفوف من التشويكات بالطبقات السفلى، الى أمثلة لها صف واحد بالمستويات الاصغر سنا. ومن بين المكتشفات المدهشة عصا صغيرة من العظم تزينها خطوط وتستعمل مقبضا لشظية من المرو. ولقد أرخت صناعة إيشانكو بـ ٢١٠٠٠ ± ٥٠٠ سنة ق. ح، وذلك ما بدا قديما جدا عندما نشرت الدراسة المخصصة للموقع. الا ان هذه النتيجة تبدو اليوم أكثر احتمالا، ان اعتبرنا التواريخ المحصلة في ماتو بي. وكان سكان ايشانكو يعيشون من صيد السمك ومن الصيد، لا سيما صيد فرس البحر والتوبي وكذلك الثدييات التي انقرض بعضها اليوم. وكانت الطيور تصطاد أيضا، ومن الاسماك المصطادة نذكر خاصة السيلوريات (Silures)، والسيكليديات (Cichlides) والبروتوبتيرات Protopteres. ولقد درس ف. تويسلمان (١٩٥٨م) البقايا الانسانية المكتشفة ضمن مخلفات المطابخ. فهي تفيد بأن الموقع كان يسكنه ناس لا ترتبط صفاتهم البيولوجية المناخية اللانوعية والخشنة بأي ارتباط مباشر مع السكان العصريين من هذا الصنف أو ذاك.

ولقد برزت حذو تلك الصناعات الحجرية المصغرة المحضة، بمنطقة ما بين البحيرات، و بشابا وعلى ضفاف بحيرة طنجانيقا، صناعات بينية نوعيا، فهي بين الحجرية المصغرة المحضة، و بين الصناعات الخاصة بالقسم الغربي من افريقيا الوسطى. ويمكن لنا أن نتصور، نظرا لخصائص تلك الصناعات المتنافرة، أنها تواصل تقاليد العصر الحجري الوسيط الموصوفة أعلاه. ولقد اضطرج. ننكان الى ابتداع اسم «ولطن/تشيتولي» ليصف العصر الحجري الحديث في رواندا، و بروندي (ننكان ١٩٦٧م) حيث لم يؤرخ لهما مع الأسف الا قليل من المواقع، و يقدر بـ ١٥٠٠٠ ــ ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، عمر الصناعة الانتقالية لكموا الذي يمكن تقريبه من اللوپمبي ــ التشيتولي للقسم الغربي، وان العصر الحجري الحديث الفقير والقليل الاختصاص قد أرخ في نفس الموقع بما قدره ٦٠٠٠ الى ٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر (كاهن، ١٩٧٥م). فيبدو ان تقاليد مختلفة قد تعايشت طويلا جنبا الى جنب، ولذلك فلقد حاذت صناعات ذات طابع مختلط، وصناعات حجرية صغيرة محضة مثلما هو الشأن في موكينانيرا (فان نوتن، هيرنو ١٩٦٧)، وفي بحيرات موكوتو (فان نوتن ١٩٦٨م).

لم توفر افريقيا الوسطى موقعا له ثروة كبرى تسمح بان تستعاد استعادة مفصلة طرق عيش أولائك الصيادين الذي كان سلوكهم في الحياة يشابه سلوك البوشيمان * في كالاهاري. وقد أعطى موقع كويشو في زامبيا فكرة كاملة عن طرق العيش بالعصر الحجري الحديث في الألفية الخامسة ق. ح. وفضلا عن وجود أدوات مهذبة، ساعد الحظ مساعدة استثنائية على أن نجد فيه عددا كبيرا من الأشياء الخشبية والعظمية التي تدل على أهمية خدمة الخشب حتى السباسب الخفيفة (فاغان، فان نوتن ١٩٧٢م).

انتهاء عصور الحجر

ان وفرة الادوات المهذبة في بعض المناطق قد أدت الى اعتبارها علامة على العصر الحجري الجديد، لكن رأينا أنه يمكن وجود تلك الادوات ابتداء من «العصر الحجري الحديث» وأنها كانت مازالت تصنع وتستعمل في القرن التاسع عشر بمنطقة أولي (فان نوتن ١٩٦٩م (ب). ولذلك فان اكتشاف ادوات مهذبة، خارج كل سياق أثري، لا يعني شيئا، الا ان توزع تلك الادوات ليس خاليا من الأهمية لأن تلك الأشياء لم تلحظ الا بمحيط الحوض الأوسط. وتعتبر تلك الاكتشافات بالشرق نادرة للغاية فلا نعرف في بروندي الا فأسين مصقولين وكهفا له مصاقل (فان نوتن ١٩٦٩م، كاهن، فان نوتن ١٩٧٠م). ولقد ازداد عدد الاكتشافات نحو الجنوب الشرقي اذ وجدت بعض الفؤوس وبعض المصاقل في شابا. أما في كساي فقد عثر فيها فعلا على بعض المصاقل، الا ان الادوات المصقولة مفقودة عمليا (سيليس ١٩٧٢م). وعلى العكس، تمثل تلك العناصر أساس المكتشفات الأثرية التي وقعت بالشمال من الغابة الكبرى. لقد جمعت بحوض أولي وحتى في ايتوري أكثر من ٤٠٠ أداة منها فؤوس رائعة من الهيماتيت صقلت صقلا دقيقا، ومصاقل عديدة. ولم توضع الى الآن الا خريطة واحدة لتوزع تلك الادوات (فان نوتن ١٩٦٨م (ب)). ان العصر الحجري الجديد «الأولى» لا يتجاوز ولو جزئيا على ما يبدو القرن السابع عشر و ينتسب اذن الى عصر الحديد كما تدل عليه الحفريات في بورو (فان نوتن (ف) وفان نوتن (ا)، ١٩٧٤م).

وقد عثر في الناحية الغربية، أي في المنطقة التي يتصل فيها الأوبنكي بالغابة، عثر على تجمع آخر من الفؤوس المصقولة. والكثير منها أقل جودة من فؤوس أولي، وعلى العموم لم تصقل منها الا بعض الأجزاء. ولم تسمح الاستكشافات بتلك المناطق بالعثور على أدوات مماثلة في اطار أثري. الا أن ر. دي بايل (١٩٧٥م) قد اكتشف في حفرية قام بها بالجهة الأخرى من النهر، في باطايمو بامبراطورية وسط افريقيا، وذلك لأول مرة، له قاطع مصقول يعود الى صناعة غير حجرية مصغرة ولصناعة الخزف. وهذه الصناعة الخزفية تتميز بقعر مستو، وهي في العادة مزينة بزخرفة كاسية أو ممتزجة بخديدات، وحزات ودمغات خطت بالمشط. وقد لا يكون ذلك الخزف سابقا للقرن الرابع الميلادي عندما يؤرخ بالحرارة الضوئية، وذلك يعني أنه حديث جدا بالنسبة لتلك الصناعة، واذا كانت بعض الفؤوس المبعثرة قد جمعت في أماكن مختلفة، بامبراطورية وسط افريقيا، فلا يوجد حسب علمنا مصقل واحد بتلك المناطق.

وقبل ان نتعرض لمنطقة التجمع الأخيرة، يجب ان نشير الى أن فؤوسا مصقولة مرتبطة بالخزف،

* في المطبوع «السان» عوض البوشيمان تعليق (المراجع محمد الفاسي).

موجودة في بحر الكمرون،على جز يرة فرنندو بو، وقد أرخت بالقرن السابع الميلادي (مرتين دل ملينو ١٩٦٥م) وظلت مستعملة حتى عهد قريب.

تمتد المنطقة الأخيرة موازية للساحل الاطلسي ابتداء من الجابون الى الشمال الغربي من أنجولا. ان الادوات الحجرية الجديدة التي عثرعليها في هذه المنطقة منحوتة، ولم يصقل منها الا القاطع.

وللفؤوس في الجابون حافات متعرجة تكّون لسانا خاصا بها (بومري، ١٩٦٦م). ولقد اكتشف اثناء إثر أعمال كبيرة وهو يحتوي على قطعة من أداة مصقولة وفحم خشبي لم يؤرخ مع الأسف (بومري، ١٩٦٥م). ولم يعثر في جمهورية الكونغو الشعبية بأنجولا (مرتن، ١٩٧٦م) الا على مكتشفات سطحية. و بالعكس من ذلك، اكتشف ج. كوليت في بوانت لا كومبي فأسا مصقولا يبدو أن له صلة بالخزف ذي القعر المستوى (بيكرت، ١٩٣٨م) مما جعله يسميه «الحجري الجديد الليوبولدي» وهو مصطلح صار يطلق فيما بعد على الفؤوس المصقولة التي وجدت بالزايير الاسفل. وجمع مرتلمنس (١٩٥٩م) بالسطح، في كونكوديا فانكا فؤوسا مصقولة، ومروا منحوتا غيرنوعي، وخزفا خشنا له قعر مستو. و يوجد نفس الخزف بكهوف نطادي ـ نطادي وديمبا ونكوفو، التي لها صلة في الموقعين الأخيرين بفؤوس مصقولة. ولقد أرخ، في أربع مرات، فحم خشبي مجاور بالقرنين الاخيرين قبل الميلاد (ماري، ١٩٧٧م أ). الا أن الأمر لا يتعلق الا بسبر محدود لا يسمح بأن نستبعد نهائيا نسبة تلك الآثار الى عصر الحديد، لاسيما وان حفريات جديدة تبين ان الليوبولدي في بوانت لا كومبي قد يندمج في عصر الحديد (كاهن، ١٩٧٦م). لكن هذا الموقع قد عرف اضطرابات ويمكن ان يتعلق الأمر بمجرد تسرب من الآفاق العليا.

في دمبا ونكوفو، وهو الموقع الوحيد الذي حفظت فيه عظام، فان تحليل الحيوانات التي عثرعليها فيه، لا يدل على وجود حيوانات أليفة. ونظرا الى فقدان معطيات اجتماعية أخرى، فقد يكون من السابق لأوانه ان نعتبرها تنتمي الى العصر الحجري الجديد الحقيقي الذي كان سكانه يستعملون أدوات مصقولة والخزف و يتعاطون تربية الماشية والفلاحة. وكذلك الشأن بالنسبة لجميع الصناعات التي لها مظهر العصر الحجري الجديد والمكتشفة الى يومنا هذا بافريقيا الوسطى. فنحن لا نعرف مستعمليها ولا العصر الذي عاشوا فيه ولا نظامهم الاقتصادي. ولقد افترض بعضهم أخيرا ان بعض الآثار المعنيه قد تكون تناسب مستوى نهائيا من العصر الحجري الذي قد تناسبه المراحل الاولى من انتشار السكّان الناطقين بلغة البانتو في حوالي الألفية الأخيرة بعد الميلاذي أي قبل أن تتقن استعمال الحديد (فليبس، ١٩٧٦م، ماري، ١٩٧٧م (ب)، فان نوتن، تحت الطبع.

يجب علينا أيضا أن نذكر هنا الحجارة الضخمة المكتشفة بمنطقة بوار. فهي قد تعود الى الألفية الخامسة أو الى الألفية الاولى قبل الميلاد، لكن القضية يمكن ان تتعلق باستعمال جديد (بايل دي هرمنس، ١٩٧٥م). و يبدو أن تلك النصب باعتبار أحجامها تدل على سكان قارين يمكن أن نفترض أنهم تجاوزوا مرحلة الصيد والجني. ولنذكر هنا أن تبليط أبي API بالحجارة الكبيرة ظاهرة طبيعية وليست بتاتا من عمل الانسان (فان نوتن ١٩٧٣م) كما هو الشأن بالنسبة لجميع البنيات المسماة بالنصبية المعروفة الى يومنا هذا بالزايير.

نظرة مثالية الى الآثار؟

لقد حاول ج. د. كلارك، في المؤتمر الافريقي المنعقد بداكار سنة ١٩٧٦م، ان ينظم قائمة المصطلحات الخاصة بحوض الزايير (كلارك، ١٩٧١). وبيّن كاهن بوضوح، عندما أرخ لمختلف المصطلحات المستعملة للتعبير عن الصناعات التابعة للأشولي بالمنطقة المعنية، أن الأمر يتعلق بخليط عجيب (كاهن، ١٩٧٧م).

ان الحفريات الحديثة في كامبي قد سمحت بالعثور على المقطوعة الأثرية وتاريخها وهي التي عرفها ج. كوليت. الا ان اعادة التركيب من القطع الآتية من أعماق مختلفة بينت أن الموقع قد كان مضطربا كثيرا وان الصناعات ليست متجانسة (كاهن، ١٩٧٦م). فلقد تنقلت الأشياء من مكان الى مكان، كما أكّدت على ذلك التجارب المختبرية (ميبرسن، ١٩٧٧م). ويحتمل أن طرأت ظاهرات مشابهة بمواقع أخرى حيث وجدت البقايا الأثرية في رمال كالاهاري متبدلة، مثلما هو الشأن بالشمال الشرقي من أنجولا، وبالزايير الأسفل، وكساي، وشابا والكونغو، (كاهن، ميبرسن، ١٩٧٧م). ونحن لا نعلم الى أي حد أصاب الاضطراب مختلف الصناعات، ونلاحظ من جهة أخرى توافقا نوعيا وتاريخيا ملحوظا بين مختلف مواقع ما قبل التاريخ بالحوض الجنوبي من الزايير، وبصفة أقل بافريقيا الوسطى. ولقد اقترح د. كاهن (١٩٧٧م) ان تجمع تلك المجموعات في ما قبل التاريخ المتقاربة حسب مركب صناعي واحد ما بعد الأشولي بافريقيا الوسطى، يشمل في البداية افريقيا الوسطى كلها، ثم يتقلص عبر الزمن ليقتصر في النهاية على الجنوب الغربي من حوض الزايير.

ان هذا المؤلف يعتبر أيضا ان المصطلحات مثل السنغون، واللوبمبي، والتشيتولي لا تعبر عن أي واقع علمي مقرر. لكنه يبدو لنا، كما حاولنا تبيان ذلك بهذا الفصل، انه من الممكن ان نميز بعد الاشولي، وخلال الصناعات الحجرية، أنماطا جهوية وأن نتتبع تطورها. وقد يكون في هذا التمييز نوع من التبسيط، ومجال للأخذ والرد، الا أنه يعكس واقعا معينا، يبدو بلا شك أكثر تعقيدا الآن مما كنا نتوقعه. ان تحسين مناهجنا على أساس حفريات جديدة، مكّننا من أن ندرك أحسن ادراك التنوع العجيب الذي توفره افريقيا الوسطى طيلة العصور الحجرية. ان قائمة المصطلحات الموجودة صالحة حسب رأينا لأن يحتفظ بها كأداة عمل مؤقتة.

الخاتمة

ان ماضي افريقيا الوسطى لم يعرف بعد معرفة كاملة لان دراسته لم تقع الا مؤخرا بصفة شاملة. ولقد استطاع علم الآثار أن يأتي بثمراته الأولى. فلقد تضاعف خمس مرات عدد التواريخ بالكربون ١٤. وذلك في ظرف بضع سنوات. (ماري، فان نوتن، كاهن ١٩٧٧م) ويمكن ان نتصور الخطوط العريضة للفرضيات الاولى (فان نوتن، وهي قيد التهييء).

ان الابحاث الجديدة كانت ترمي أولا الى اجراء سلسلة من الحفريات تشمل المناطق وحقبات مختلفة حتى نصل في أجل معقول الى وضع اطار تاريخي طبقي عام خاص بافريقيا الوسطى. ولا بد أن نؤخر هذا المشروع الطموح الى الدرجة الثانية، لأن موقعا هاما مثل موقع كامبي قد قلب رأسا على

عقب لا المصطلحات الموجودة فحسب، بل حتى قيمة الملاحظات الطبقية الارضية، ووفرت مواقع أخرى مثل ماتوبي صناعات جديدة تشكّك تواريخها في دمجها ضمن اطار واسع تجد فيه «صناعات» و «ثقافات» نهائيا «مكانها».

فبقدر ما نكتشف مواقع جديدة، يصبح من الواضح اننا نجد كل مرة شيئا طريفا وغير منتظر، وذلك ما يوافق احدى فرضياتنا العملية التي كانت تتصور تنوعا كبيرا جدا ضمن كل واحدة من «الصناعات» أو «الثقافات». لقد اضطر الانسان، أمام محيط صغير خاص أن يكيف أدواته مع ذلك المحيط. وما علينا الا أن نتصوره في حدود موطنه وهو يعيش عيشة أكثر استقرارا من عيشة الترحال المطلقة التي تنسب كثيرا لى الصيادين الجانين، فعوضا عن ان يطاردوا دون هوادة حيوانات الصيد، كان أولئك السكان قد طوروا ثقافة خاصة بهم، كانت تركيبا متناسقا بين المحيط وتقاليدهم الموروثة عن أسلافهم. ونحن لا نعتقد بجبرية البيئة جبرية مطلقة. فكلما استقر التوازن الميزولوجي، ظلت الادوات قارة طيلة أحقاب طويلة فلعلها تستجيب تماما لمتطلبات البيئة وأولئك السكان. وكلما دام هذا التوازن الدقيق، لم يوجد ما يحرض الانسان على التطور بسرعة.

الفصل الثاني والعشرون

افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ

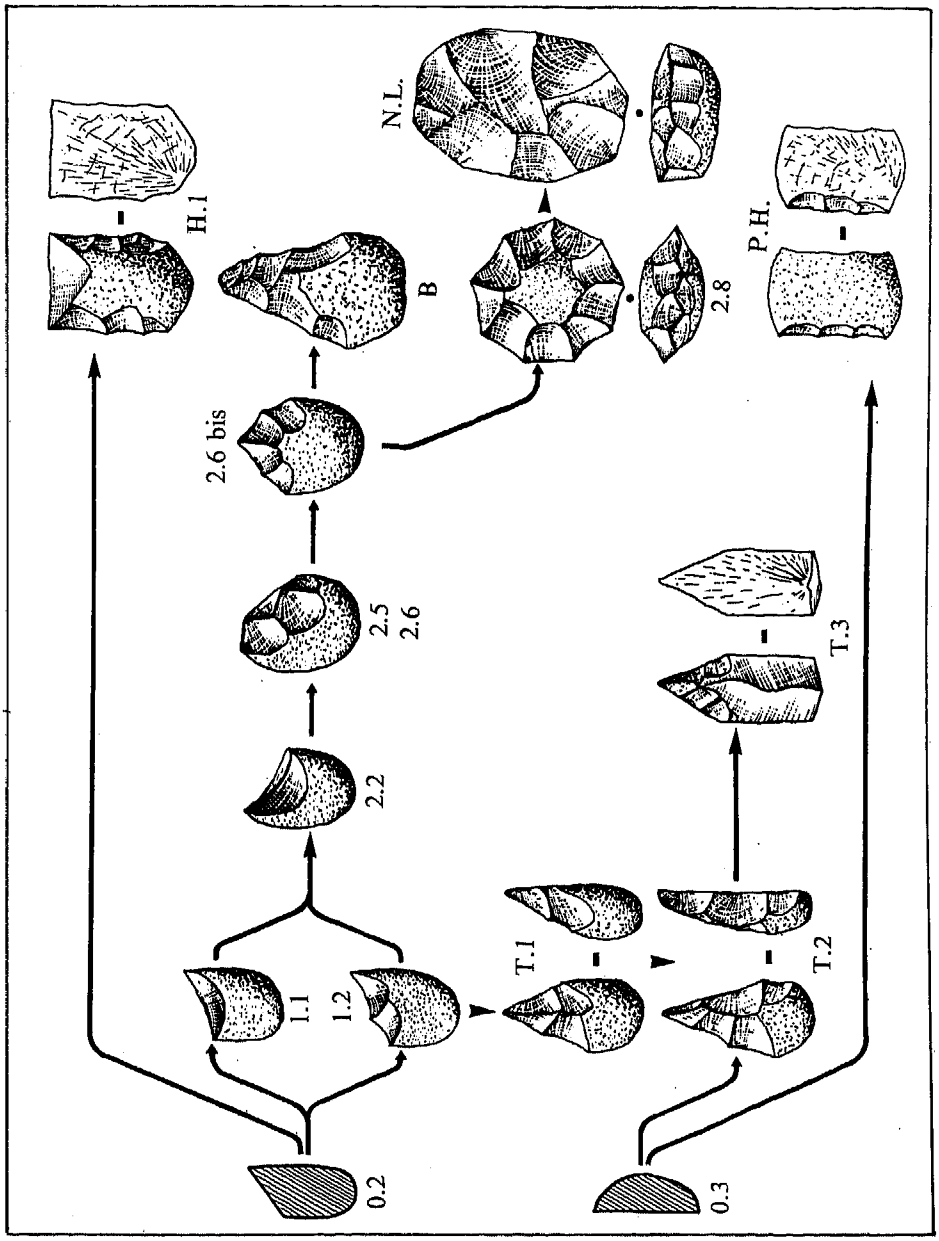
بقلم: ل. بالو.

ان بلدان المغرب نظرا لقربها من أوربا ولمواجهتها للبحر الأبيض المتوسط شمالا، قد جاب فيها منذ أكثر من قرن البحاثون الأوائل الذين كانوا يتطلعون لمعرفة الأحقاب السابقة لتاريخها. فتراكمت بذلك كميات هائلة من المراجع المتفاوتة قيمة فضلا عن الاستدراكات والايضاحات التي عدلتها ودعمتها (والتي أجريت سنوات ١٩٥٢م ــ ١٩٥٥م ــ ١٩٧٤م). ومع ذلك فلم يحافظ البحث المتعلق بما قبل التاريخ هذا الجزء من شمال افريقيا على ما كان يتمتع به منذ عهد طويل من تقدم وسبق. فالابحاث رغم كل ذلك متأخرة في ميدانين أساسيين هما:

ــ طرق التنقيب والحفريات، باستثناء حالات نادرة جدا.

ــ الترتيب التاريخي المطلق، وهذا راجع أساسا الى امكانيات الاشعاع الكربوني.

ولقد حققت افريقيا الشرقية تقدما أحسن بكثير في هذين الميدانين. فنظرا لانعدام الأحفورات البشرية بالعهد البليستوسيني الاسفل، والتواريخ الحاصلة بطريقة البوطاسيوم أرغون، وفقدان المستوطنات منذ العهد الحجري القديم، لا يمكن لنا اليوم أن نعرف قدم استقرار البشريات في المغرب والصحراء الا بالاعتماد على فرضيات حول علاقات الارتباط بين الحيوانات ونمط الصناعات الحجرية. ونظرا لانعدام رسوم طبقية أرضية كافية مساحة وعددا، يَعْسُرُ إثبات تواصل الاستقرار الانساني وان كان هذا الاستقرار محتملا جدا. فالمناجم الاساسية معزولة زمانا ومكانا، من ذلك ترنيفين (انسان الاطلس) بالجزائر مثلا. ولا تزال مشاكل الموستيري وعلاقاته بالعاطري، ومشاكل الانسان الحامل لهذه الحضارة الاخيرة، والانتقال من العاطري الى الايبروموروسي، والرسوم القابسية، والاحداث الخاصة بالعصر الحجري الجديد كل ذلك ينتظر حلا في أغلبها. ولقد



● تطور «ثقافة الحصى» نحو أشكال الاشولي: والارقام تشير الى التصنيف النمطي المستخدم لما قبل الاشولي في أفريقيا. H = بلطة. (تصويرم. بوفي).

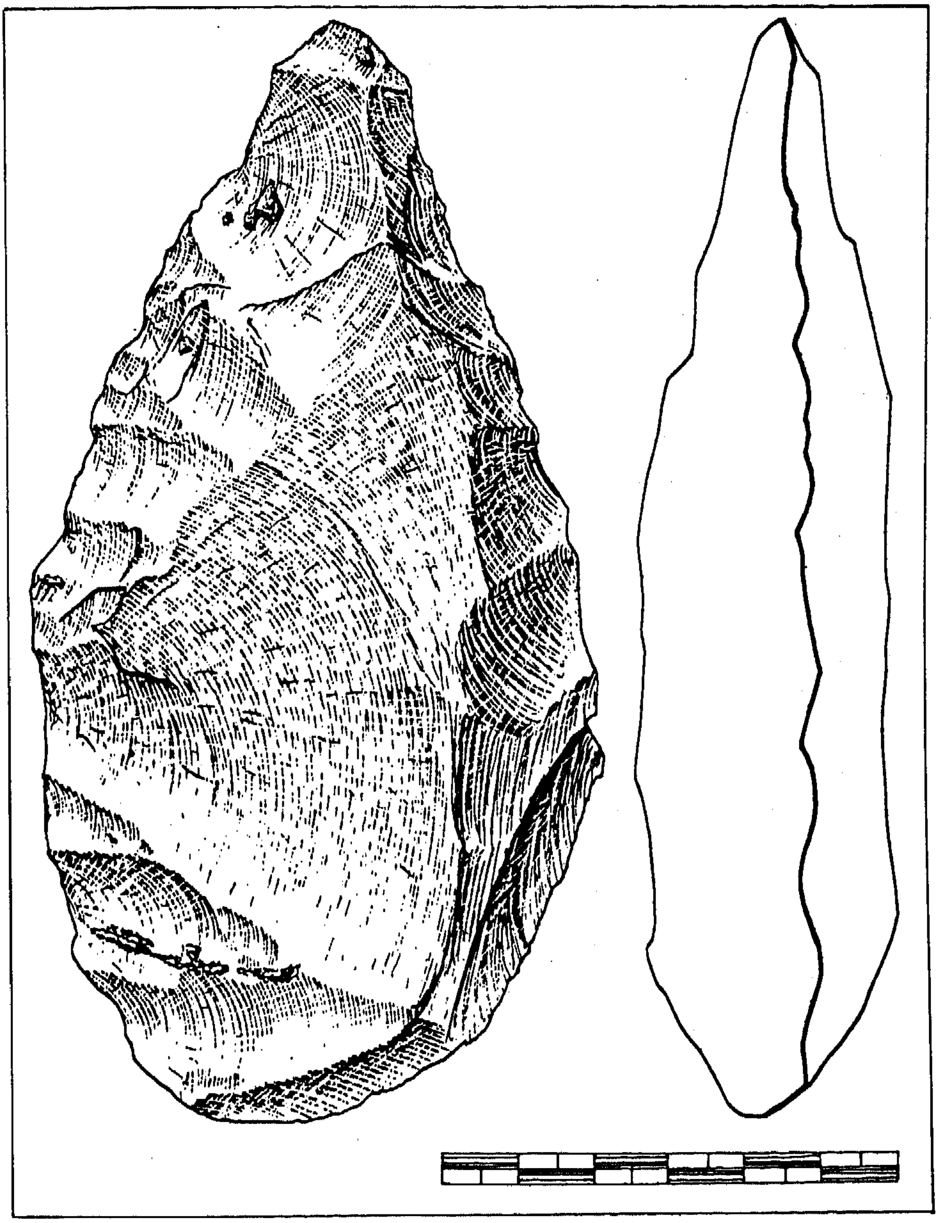
وفرت الأبحاث المتعلقة بما قبل التاريخ الكثير للتعرف على الدهر الرابع، مثل دراسة رسوم طبقية الأرض، والإحاثة، اذ أنها سمحت بإثبات وجود نوع تجاوزت أهميته حدود المغرب. لكن عليها في المستقبل ان تعتنق وجهة نظر إحاثية ـ اثنولوجية أي التخلي عن دراسة «الانسان ومحيطه» لتتبنى منهجية تعتني أساسا بالانسان في محيطه.

أقدم الصناعات البشرية ما قبل الأشولي

ان الشواهد وافرة الا أن تأويلها تأويلا آخر غير نوعي، يعتبر أمرا دقيقا: فالتأويل يرتكز على رسم طبقية الأرض في الدهر الرابع بساحل المغرب (بيبرسون)، وعلى الاحاثة الحيوانية في الجزائر (عين حنش بالقرب من سطيف، حسب حفريات س. ارمبورك) وبتونس (عين بريمبة بالقرب من قبلي). وتعتمد على النوعية فقط بالصحراء (رقان، وعين أفلالح، الى غير ذلك...) وهكذا، يمكن أن ترتبط علاقات تقل أو تكثر متانة بمناجم طانزانيا وكينيا وأثيوبيا. تعتبر تلك العلاقات ضعيفة لأن المناطق المغربية المتاخمة لسواحل المحيط الأطلسي هي وحدها التي سمحت باثبات تطور نوع من «الحصاة المهيأة» على الأسس التي اعتمدها ب. بيبرسون والتي أصبحت فيما بعد محل نقاش وشك بصفة جزئية، باعتبار أن الحيوانات ليست بالضرورة متعاصرة، وباعتبار توفر وجود آثار من جهة، وبنية اثرية من جهة أخرى، ونظرا لاختلاف طرق التحليل النوعي المستعمل في افريقيا المستعملة للفرنسية وافريقيا المستعملة للانكليزية، الخ.

وليس من المحتمل في الوقت الراهن أن يكون حضور البشريات في المغرب والصحراء، أقدم من وجوده في افريقيا الشرقية والجنوبية، لأن الصناعات التي تعتمد الشظايا والتي سبقت الحصاة المهيأة لم تعرف، اذ لا وجود لآثار الثقافة العظمية السنية القرنية. ولا وجود لبقايا الانسان القرد (قرد الجنوب). وعلى كل فان كل القرائن تجعلنا نرى أن الحصاة المهيأة الموجودة في كل من المغرب الأقصى والجزائر والصحراء، تنضوي تحت تاريخ مواز لتاريخ الأولدوواي، أي بين مليونين ومليون واحد من السنوات (واذا ما أخذنا بعين الإعتبار الحصاة المنحوتة من ذوات الوجهين والموجودة بالأومو يكون لنا مليونان ونصف من السنوات).

وهكذا انصب الجهود لاقامة علاقة ارتباط زمني طبقي/وتطور نوعي، مما أدى الى اثبات قوائم نوعية لها انعكاسات زمانيّة. وهذا ما قام به ب. بيبرسون في شأن المغرب الأقصى، وهـ. هوغو ول. رمندو في شأن الصحراء الوسطى، وهـ. ألبمن وج. شافايون في شأن الصحراء الغربية. ولقد ارتكز التحليل على الخصائص التقنية التي تسمح ملاحظتها بتمييز أشكال منتظمة. أما التصنيف فيعتمد منهجا أساسه البداية من البسيط والتدرج الى المعقد، أي الانطلاق من النحت ذي الوجه الواحد، فذي الوجهين فمتعدد الصفحات. ولا شك ان هذا التصنيف يندرج في نطاق الترتيب التاريخي الخطي. لقد وضع ب. بيبرسون في اطار الدهر الرابع بالمغرب الاطلسي، وج. شافايون فيما يتعلق بأراضي الساورة نظما ذات قيمة جهوية على الأقل. واعتمادا على الاحاثة وضعت أشباه الكرات ذات الوجوه التي تنتسب لعين حنش في نطاق تطور حيوانات الفيلافرنشي، كما هي معروفة في المغرب (فوارة) وفي الجزائر (عين بوشريط وعين حنش) وفي تونس (بحيرة اشكل وعين برمة).



● أداة ذات وجهين من الاشولي، وهي الأكثر تطورا من موقع ترنيفين (الجزائر الغربية). حفريات أرمبورك (١٩٥٤)، رسم م. دوقوا.

وعلى كل حال فاننا نعتمد على الرسوم الطبقية الأرضية للفيلا فرنشي المؤسسة في جملتها على الاحاثة الحيوانية. فتبرز في هذه المجموعة الصناعات البشرية التي يمكن اثبات تطورها نحو ذوات الوجهين والقدومات الخاصة بالعصر الحجري القديم الأسفل. على أنه لم تتوفر لدينا أية بنية أثرية وذلك يعني انعدام أي اطار إحاثي اثنولوجي، عكس ما هو موجود في طانزانيا (أولدوواي) وكينيا وأثيوبيا.

الصناعات الأشولية

لقد أصبحت عبارة «الأشولي الافريقي» منذ ندوة بورك فارتنشتاين سنة ١٩٦٥ م ومؤتمر داكار (١٩٦٧ م) المتعلق بما قبل تاريخ افريقيا ــ تشمل كامل العصر الحجري القديم الأسفل الذي يوافق بأوربا الغربية، العهد الأبفيلي والعهد الأشولي وكذلك العهد الكلاكتوني والعهد اللوفالوازي اللذين يعتبران محل نظر.

فالأشولي وافر جدا في بلدان المغرب، و يتمثل اذا ما نحن تركنا جانبا المحطات الموجودة حاليا على سطح الأرض في ثلاثة أنواع منجمية لها خصائصها:

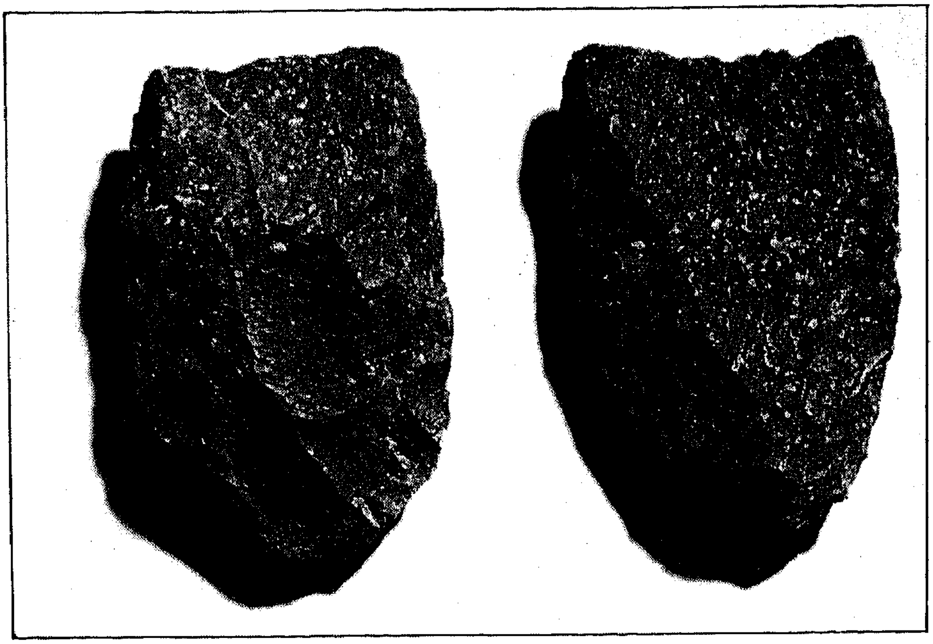
أ) نوع من المناجم التي لها علاقة بالدهر الرابع الساحلي والبري وحتى البحري و يتمثل ذلك خاصة بالمغرب الاطلسي حيث تمكن ب. بيبرسون من تقديم مقطوعة أشولية اعتمادا على الحصاة المهيأة التابعة «لثقافة الحصاة» في العهد السابق للأشولي، ومنتهية الى العصر الحجري الأوسط (العاطري). أما الجزائر فليس لها حظ في ذلك لأسباب ترجع الى الجغرافيا المورفولوجية الساحلية، وان كانت بعض «المناجم» موجودة على ساحل القبائل (جيجل) وقرب عنابة. و بالنسبة للسواحل التونسية فإنني لا أعرف مناجم أشولية من هذا النوع.

ب) المناجم التي أصلها من الطمي النهري أو البحيري. فالنوع الأول أندر وأضعف مما هو موجود في أوربا، والعلاقات بينها من حيث طبقات الأرض، ومن حيث الاحاثة غامضة جدا في أكثر الأحيان. وذلك هو شأن عدد من المناطق المغربية (وادي الملاح) والجزائرية (أوزيدان قرب تلمسان وشابلان قرب المدية) وتامدا (بوادي سباعو) والمنصورة (قسنطينة) وكلارفونتين (شمال تبسة) والبابكية * وخاصة الماء الأبيض جنوب تبسة. وفي تونس، أشولي الرديف (قفصة). أما المناجم القائمة على ضفاف البحيرات وما أكثرها في افريقيا الشرقية، (مثل أولوركسايلي بالكينيا)، فهي لا تكاد تستحق الذكر. هناك مثلا بحيرة القرار (تلمسان) ذات الحفريات القديمة جدا والتي قام بها م. بول بصورة منقوصة، وكذلك مناجم أبو الخير بمستغانم التي بقيت الى الآن غير معروفة. ولقد برز منجم واحد من هذا الغموض، ونعني بذلك منجم سيدي الزين (بالكاف في تونس) حيث يوجد فيه مستوى من القدومات بين اثنين آخرين من ذوات الوجهين ليس فيهما قدومات. على أن الأشولي المرتبط بترسبات بحرية أمر مشهود بصفة منتظمة من موريطانيا الى ليبيا.

ج) المناجم التي لها علاقة بعيون جوفية قديمة. و يبدو أن تلك العيون كانت تجذب الانسان بين الاشولي الى العاطري. وذلك أولا شأن تيط مليل (بالدار البيضاء) وعين فريطيسة (بجنوب وجدة في

---

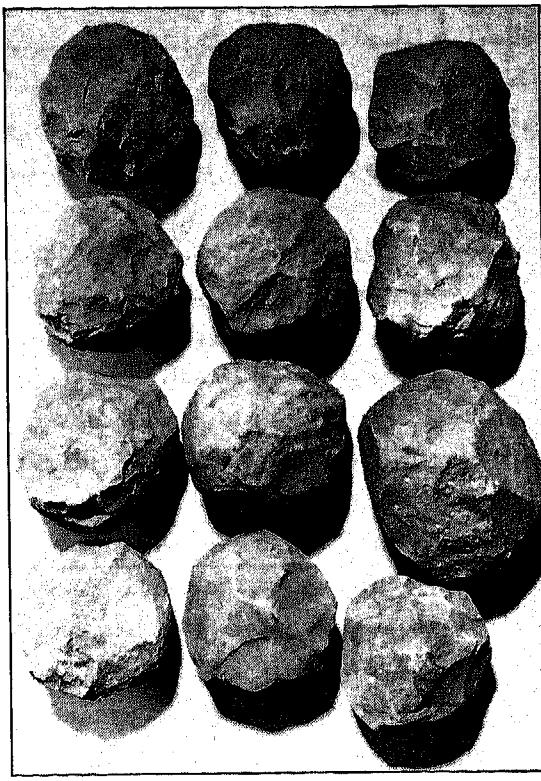
* في الجزء المطبوع سبايكيد. (تعليق المراجع محمد الفاسي).



١



٢



٣

- ١) أشولي من منطقة تيهوداين للكثبان الرملية: بلطة من الريوليت.
- ٢) شوكة موستيرية، الغتّار (تونس) حفريات الدكتور غروو يه
- ٣) عين حانش، «كرويّات متعددّة الاوجه» (تصوير م. بوفّي).

المغرب، وبحيرة كرار بالجزائر التي سبق ذكرها، وكذلك الأمر بالنسبة لشتمة (بسكرة) التي لا نكاد نعرف عنها شيئا وخصوصا مناجم ترنيفين (معسكر). و يعتبر هذا الأخير المنجم الوحيد الذي حظي أخيرا بحفريات منتظمة (١٩٥٤ م ـ ١٩٥٦ م) قام بها الاستاذ س. أرمبورك بطلب من الجزائر. الا أنه لا ينبغي أن نتوهم ما يتجاوز الواقع فما لا شك فيه أن الصناعة التي عثر عليها هامة جدا، وان بقايا الحيوانات تمثل ثروة كبرى، وان انسان الاطلس اكتشف هنا. ولكن التكوين الطبقي لهذا المنجم الجميل يثير مشكلا، لأنه يترك المجال الزمني المتضمن لمجموع الوثائق مفتوحا جدا، ولعل ذلك ينطبق أيضا على طبيعة الموقع بالذات: أفلا تسمح الرمال التي حولتها بدون انقطاع الينابيع الجوفية بوضع تاريخ طبقي؟. ذلك ما لا يمكن أن نبرهن عليه و يبدو أن دراسة الأدوات تدل على أن الأمر لا يتعلق بمشاكل للنحت، بل بمكامن للصيد.

إن الأشولي المغربي والصحراوي ليس مخالفا أساسا للأشولي الذي ضبط بفرنسا. والدراسة التحليلية (بورد ١٩٦١م و بالوت ١٩٦٧م) لا تدل على ابتكار كبير في صنع ذوات الوجهين. وكذلك الشأن بالنسبة لذوات السطوح المثلثة. ثم ان وجود بعض الشظايا، وصناعة صغيرة بترنيفين مثلا، ليسا أمرا مستغربا. ولقد ظهر استعمال القداحة اللينة في غضون أواخر العهد الأشولي القديم (النحت أو اعادة النحت): فلم توجد منها الا قطعة واحدة ثابتة في ترنيفين (من ذات الوجهين). ثم اننا نلاحظ ظهور «ضربة الشفرة» في تخليص الحد الذي يفصل بين السطوح الثلاثة. على أن الابتكار الأساسي الذي أكدنا عليه منذ زمان يتمثل في المكانة التي تحتلها القدومات ذات الشظايا ولعله من الخطأ اعتبارها أداة (نوع من الفأس) خاصة بافريقيا وفعلا فليست هذه الأداة موجودة دائما في الأشولي بافريقيا (وهي مثلا ليست معروفة في الآثار الهامة الموجودة في الماء الأبيض، ان أردنا ذكر مثال واحد من الجزائر) ولكنها موجودة من الشرق الأدنى الى الجزيرة الهندية. ولقد أدى وجودها باسبانيا (ريومانزانريس، قرب مدريد)، وعبورها الى جبال البريني أدى هذا الأمر بـ. هـ. أليمين الى اعادة النظر أخيرا (١٩٧٥م) في مشكل عبور جبل طارق قبل ملاحة العهد الحجري الجديد بكثير. فقد استنتجت من ذلك وجود برزخ مرتفع وأصبح ممكن العبور خلال فترات الانحسار الريسي.

و يرجع الفضل الى ج. تكسيي من أجل تحليله الممتاز لأنواع القدومات المغربية. وذلك ما يستحق إبداء ملاحظتين هامتين: تتمثل أولهما في ظهور طريقة لوفالوا في قطع الحجارة منذ العهد الأشولي القديم، والتي أدت الى التوحيد المدهش الطارىء على القدومات المسماة تابلبالت تشنقيط (بغربي الصحراء الجزائرية). وتتمثل ثانيتهما في تقنية «الشظايا النووية» التي سمحت بالحصول على شظايا لها وجها انفجار متقابلان يكوّنان حافة قاطعة حادة (وهي تقنية الكومبيا بافريقيا الجنوبية فهل أن افريقيا هي التي قامت فيما بعد بنقل طرق هي على غاية من الإكتمال الى أوروبا، حيث لعبت الطريقة الأولى على الأقل دورا هاما جدا قبل العصر الحجري القديم الوسيط؟.

ولقد كان الأشولي يعرف دائما على أساس أثري. وتغطي صناعات ذوات الوجهين جموديين (مندل ـ ريس) كذلك الجمودي الفاصل بينها والمراحل التي تجزئها. وقد حاول ب. بييرسون إيجاد التوازن بين فترات التعدي والانحسار البحري: فالاميري يوازي المندل، والأنفوي يوازي الريس،

والتنسفني يوازي الريس. الا ان هذه العلاقات التوافقية تبقى دائما افتراضية. و يعتبر الامتداد في عهد ما بين جمودي ريس ــ فورم أمرا مقبولا.

ونظرا لتعذر ضبط التواريخ بدقة فاننا مضطرون الى ان نعتمد على علم الإحاثة وذلك أن الحيوانات بدأت تفقد عناصرها الباقية من العهد الفيلافرنشي الأعلى لتصبح «حيوانات تشاد وزمبيز الكبرى» كما سماها س. ارمبورك. لكننا لا نعرف الى حد اليوم الحيوانات الصغيرة والنباتات الموجودة بترنيفين.

وماذا عن الانسان الأطلسي أي انسان ترنيفين؟ وعن انسان المغرب (انسان الرباط) وعن انسان سيدي عبد الرحمان (الدار البيضاء) الذي ينتسب الى الانسان المستقيم؟ ان هؤلاء الناس القردة القريبين جدا من انسان الصين (بيكين) لا يمكن ضبط تواريخها الا بكثير من التجاوز أي على الأقل من ٤ الى ٥٠٠ ألف سنة وهوما يعتبر فرضية مقبولة. و يغلب على الظن ان أولئك الناس قد عرفوا النار. وكانت لهم لغة بدائية إن المغرب لا يوفر لنا شيئا في هذا الشأن.

الموستيري ــ العاطري

قلت في مقال كتبته في ١٩٥٥م بأنني أشك في وجود عهد موستيري مستقل في افريقيا الشمالية. الا ان الدكتور كوبرت قد أنبني بشدة، وكان على حق. ثم عدلت فيما بعد (١٩٦٥ م) موقفي الاول، الا أن ذلك لم يحسم المشكل بل غير موضعه. فمن المؤكد أنه كانت توجد في بلدان المغرب مناجم موستيرية ولكنها كانت واقعة في ظروف جغرافية لا تكاد تصدق، ومخالفة جدا لكل المفاهيم المتعلقة بعرقية ما قبل التاريخ. ومن ذلك ستة مناجم لا نزاع فيها بتونس وهي مناجم سيدي الزين (الكاف) وعين محروثة (القيروان) وعين مترشم (جبل الشعانبي) وسيدي منصور (بقفصة) والقطار (قفصة) ووادي العكاريت (بقابس). و يوجد منجم واحد بالجزائر هو منجم الرثايمية (وادي شلف)، وثلاثة بالمغرب (تافوغالت بوجدة ــ كيفان ابن الغماري (تازة) جبل إغود. ولا يوجد أي منجم بالصحراء، والحقيقة ان المواقع السابقة للعهد الموستيري واللاحقة له تعد بالمئات. مع العلم أن هذه القلة لا تدل على قصور الأبحاث لأن إكتشاف العهد الموستيري كان شغلا شاغلا لدى مؤرخي ما قبل التاريخ المتكوّنين في فرنسا، حيث يكثر عدد المناجم مثلما هو الشأن في الجزر الايبيرية والايطالية انطلاقا من جبل طارق. وكمثال، تفصل ٨٠٠ كلم سيدي الزين بالكاف عن الرثايمية، و٣٦٠ كلم الرثايمية عن كهف تافوغالت ثم ٧٠٠ كلم للوصول الى جبل إغود والأمر هنا يتعلق بموستيري متميز يمكن أن يدمج في المظاهر الأوروبية، لاسيما المظاهر المقطوعة بحسب تقنية لوفالوا. ونجد في المناطق الواقعية بين الطرفين، ما يشهد على وجود البشر: من ذلك النياندرتاليون بجبل إيغود وأقدم أثر طقوسي معروف أي «الكايرن» أو «هرميون» في القطار، وهو الذي لم يبق منه بارزا سوى قمته في النبع الذي سمي باسمه. و باستثناء ما هو موجود بوادي العكاريت فاننا لا نجد أي منجم موستيري ثابت قريب من السواحل. لكن أين كانت اذن سواحل شط قابس؟ ان الموستيري المغربي لم يأت الا من الشرق. ولكن ما يثير الانتباه في شأن الموستيري هو أنه سريعا ما طرأ عليه تطور فريد. فلقد تحول بعين المكان الى عطاري. وعند تطبيق

لقواعد التصنيف الجيولوجي تطبيقا يعتمد على «أحدث الأحفورات» اعتبرت من العطاري كل المناجم ذات الصناعة الموستيرية التي يوجد فيها رؤوس عطارية ذات ساق (مثل الصناعات الموجودة بالقطار وعين المترشم وغيرها). واعتقد أن ذلك دليل قاطع على المعاصرة بين الموستيري والعطاري بل أرى أن الموستيري المغربي قد طرأ عليه تحول مغاير لتطور كل أنواع الموستيري الاخرى. ولقد بيّن ج. تكسيي بصفة قطعية أن الامر لا يتعلق بزيادة في الرؤوس أو المكاشط ذوات الساق بل يتعلق بتحول مجموعة تضم ثلاثين شكلا من موستيريا وعاطريا، وذلك بنحت ساق في القاعدة. أما في أوربا وبالاخص في فرنسا فلقد اتبع المركب الموستيري طرقا أخرى. وكانت هذه الطريقة جديدة مما جعل البعض يميزونها عن غيرها، وذلك ما لا يعقل: ومفاد ذلك أن العطاري ليس سوى مظهر متطور من الموستيري خاص بجزء من افريقيا. فهو يقدم مقامه، حتى من حيث الترتيب الزمني. ان تعريف ر. فوفري الذي يقول بوجود عهد عطاري في العصر الحجري القديم الأعلى، لم يعد ذا جدوى. فلقد تحدث البعض من المؤلفين القدامى عن «موستيري فيه أدوات ذات ساق» مثلما نقول نحن اليوم بوجود «موستيري فيه أدوات مسننة». ونظرا لكون الصناعة التي عثر عليها في المنجم الحامل لاسم العاطري، (وادي الجبانة، قرب بئر العاطر بجنوب تبسة) لم تحلل أبدا تحليلا اضافيا دقيقا من طرف واضعها، فان لفظة «العاطري» تبقى كما قال م. أنطوان «اسما بدون مسمى». ونظرا لكونه يعتبر تطورا سابقا لأوانه قد طرأ على الموستيري ودام مدة طويلة جدا وانتشر في المغرب والصحراء شمالا وجنوبا فهو في نفس الوقت النظير الزماني لجزء من العصر الحجري القديم الاوسط وعلى الأقل لبداية العصر الحجري القديم الأعلى.

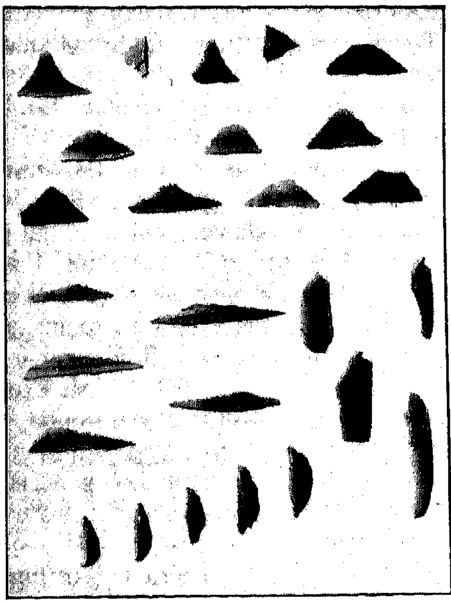
الا ان معالمنا الزمانية ما تزال تعوزها الدقة. ويعتبر ما اقترحه ج. كامبس من مقاربات بالتواريخ التي تحصل عليها ماك بورني في برقة ضعيفا، لأن ماهية الصناعات لم تثبت بتاتا. فالعاطري محل نقاش (كامبس) والايبيرو — موروسي لا وجود له (تكسيي). ولقد أمكن ضبط علاقات طبقية أرضية متصلة بالدهر الرابع القاري أو البحري، سواء بالصحراء أو في بلدان المغرب. وذلك بالاعتماد على تأريخ نسبي أو تأريخ مطلق، فلا يمكن أن نعتبر الألفية الأربعين قبل الميلاد بأية حال التاريخ الأقصى الذي يمكن اعتماده لظهور العاطري. إن انزعاجنا في هذا الشأن يرجع الى قلة فاعلية الكربون ١٤ فالتواريخ المتحصل عليها في شان المغرب والصحراء محصورة فيما بين ٣٧٠٠٠ و٣٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد وهي تواريخ منسجمة تدعو الى الاطمئنان. ولذلك نعتبر أن العاطري هو عهد حجري قديم أوسط في أولى مراحله ثم أصبح فيما بعد معاصرا للكستلبروني الأورينياسي، أي للجزء الأول من العصر الحجري القديم الأعلى بفرنسا على الأقل. ان علاقته مع تشكلات الدهر الرابع متطابقة. وقد يحدث أن يعمر العاطري الشواطىء التيرينية الجديدة التي انكشف عنها الماء عند بداية انحسار البحر الكبير الأخير (مثلا بالخروبة قرب مستغانم بغربي الجزائر). ان نهاية هذه الفترة الفاصلة الورمية (ورم ١/٢) قد حصلت في حوالي ٤٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وترجع التشكلات البرية التي كانت عموما محمرة وغنية من حيث العاطري والتي كانت تغطي تلك المناطق المغمورة تحت البحر الحالي، ترجع الى الانحسار البحري الذي بلغ خمسين ومائة متر (١٥٠ م).



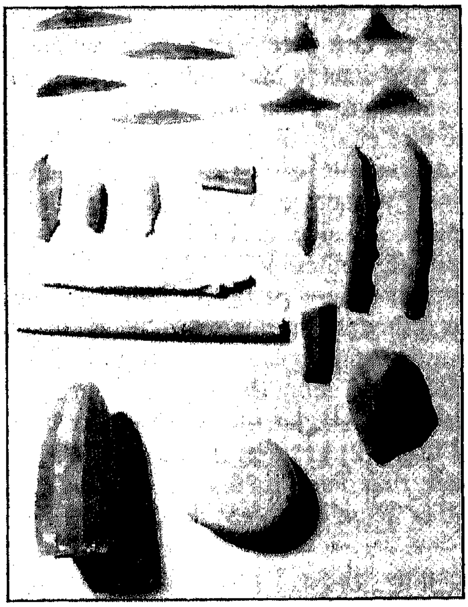
١



٢



٣



٤

● ١) أتيري من وادي جوف الجمل (الجزائر الشرقية): شوكات ومكاشط ذات سيقان تعليق، ومكاشط أو محكّات، ونويّات لوفالوا (تصوير م. بوفي). ٢) الصناعة النمطيّة للكابسي (تصوير م. بوفي).

● ٣) صناعة الأسلحة في الكابسي الأعلى: مثلثات مختلفة الاضلاع، ومتوازيات أضلاع وازاميل صغيرة، ومناشير، ونصال متعددة الحزوز، ازميل زاوية ،ن ومخارز، ومكاشط، ونويّات محدّدة، الخ. (تصوير م. بوفي (٤) القابسي الاعلى: أحجار صغير هندسية الاشكال (متوازيات اسـرع، ومثلثات مختلفة الاضلاع،وأهلّة، وازاميل صغيرة) (تصوير م. بوفي.

ان ضبط نهاية تاريخ العهد العاطري لدقيق جدا. ان فتح الصحراء أمر، كما أن التطور التقني الصناعي المتجه الى أشكال تؤذن بالعصر الحجري الجديد أمر آخر.

و يعتبره. هوكوان العاطري لم يتجاوز حد البحيرات الكبرى ذات المشطورات، والتي كانت مليئة بالماء الى الألفية السابعة قبل الميلاد. الا ان البرهان على هذا العاطري السابق للعصر الحجري الجديد لم يقم بعد، رغم ما في الفرضية من اغراء كبير. فنحن لا نعرف صناعة فاصلة. ولقد أخذت العقبة الأساسية ذات الطابع الانثرو بولوجي تتلاشى لأن كل الاكتشافات الاخيرة التي وقعت بالمغرب تدعم الفرضية القائلة بأن الانسان العاطري ليس انسانا نياثدرتاليا مثل موسترييي جبل إغود، بل قد أصبح انسانا عارفا.

العصر الحجري القديم الأعلى والعصر الحجري الوسيط

ومهما كانت امتدادات العاطري في الصحراء، فقد طرأت أمور أخرى ببلدان المغرب وليس من المفيد هنا ان نستعرض تاريخ تفنيد فرضيات ر. فوفري التي كانت تعد حجة مدة طويلة. اذ نرى انه يحسن بنا أن نضبط وضع المعارف الحديثة التي تنتظم حول أربع أفكار جوهرية نستعرضها فيما يلي:

— ان العهد الايبيرو — موروسي الذي كنت ساهمت في فصله عن القابسي لأسباب انثرو بولوجية و باليتنولوجية، هو أقدم مما كنا نعتقد. فهو معاصر للمكدليني الفرنسي و بذلك فهو عبارة عن حضارة تنتسب الى العصر الحجري القديم الأعلى.

— ان الخصومة التي كانت قائمة بيني و بين ر. فوفري والدكتور كوبار والمتعلقة «بأفق كولينيون» قد انتهت، وذلك ان الصناعة ذات الصفيحات التي تقترب من الايبيرو — موروسي أكثر من القابسي سابقة بكثير لهذا الأخير.

— ان التمييز الذي أقامه فوفري والمتعلق بعهد قابسي «نموذجي» فوقه عهد قابسي «أعلى» أو متطور قد تلاشى ليترك المجال لفكرة تقضي بتدغل الصناعات القابسية وتعتمد على مجموعة كبيرة من التواريخ الراديومترية التي تقنع.

— ان العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية الذي ابتكره ر. فوفري على أسس ضيقة جدا والممتد الى جزء كبير من افريقيا ينبغي ان يحصر في حدوده الأصلية وأن يترك المجالات الشاسعة المأخوذة باطلا لمظاهر أخرى عديدة من افريقيا التي أخذت تدخل في العصر الحجري الجديد.

الايبيرو — موروسي

لم يبق مقبولا التعريف القديم للمؤرخ بالاري (١٩٠٩ م) الذي لا يزال يستشهد به. ذلك أنه كان أكد تكاثر التقنية المتمثلة في الحاشية المعكوفة بالصفيحات والتي كانت تختص بها كل الأدوات الحجرية. وكان علينا أن ننتظر التحاليل الدقيقة الانموذجية التي قام بها ج. تكسيي ليحل

مجموعة من التقنيات الدقيقة محل تقنية عامة، وذلك ما كان أدركه نوعا ما بعض مؤرخي ما قبل التاريخ لا سيما الدكتور كوباربتونس. ان استئناف الحفريات التي قام بها أ. سكسون في منجم تامرهات (كورنيش بجاية بالجزائر) قد سمح بالحصول على تواريخ نظيرية قديمة جديدة وبفهم أحسن لصيادي الأروي القاطنين بالمغاور الساحلية التي تفصلها عن البحر المستنقعات ومنطقة قارية مرتفعة عن البحر وثرية بالمحارات. ان الايبيرو ــ موروسي هو عبارة عن حضارة ساحلية وتلية قد عرفت مع ذلك،توغلات قارية منها منجم كلمناتا الذي لا يشك فيه (تاهرت بالجزائر) وذلك لا يمنع من ان تكون منطقة طنجة وشاطىء الساحل التونسي فارغين. فان كان الايبيرو ــ موروسي مفقودا كليا في تونس جنوب وادي مجردة فذلك يعني أن أحداثا قد وقعت بها وتستحق أن نتعرض لها في ما يلي:

ان الأدوات الايبيرو ــ موروسية فقيرة حتى ولو حللت تفصيلا. ولقد أكدت بعض المئات من المناقش الصغيرة التي عثر عليها بعد الحفريات بمدة طويلة، في المنجم الأنموذجي للمويلح (بالقرب من مغنية بالجزائر)، أنها كانت مرتبطة بصناعة الحدود ذات الرؤوس المثلثة (المسماة بحد المويلح) وليست حجارة بركانية هندسية مثلما هو الشأن في العهد القابسي. ان الصناعة العظمية فقيرة جدا ولم توفر الا شكلا طريفا واحدا وهي «المقدة». فلم توفر أثاثا ولا فنا جداريا، والحال أننا في عهد ألتميرا، ولاسكو، وأن الناس سواء أكانوا في شمال البحر المتوسط أو في جنوبه هم من جنس يشبه الكرومانيون، والمتمثل هنا في نموذج « مشتى العربي».

ولم تثبت الفرضية التي أصبحت اليوم تقليدية والقائلة بوجود أصل شرقي قد تفرع عنه تيار الكرومانيون الأوربيون المتجه نحو شمال البحر المتوسط، وتيار آخر هو تيار المشتى العربي المتجه الى الجنوب على طول السواحل الافريقية. الا أننا اذا ما أخذنا بعين الاعتبار المستوى الانثروبولوجي يمكن لنا أن نعتبرهم منحدرين من النيادرتاليين بواسطة الانسان العاطري. ولكن هذه الفرضية ــ مهما تكن مغربية ـ فانها لا تفسر بحال وجود صناعة،لا أثر فيها لأي وجه شبه بالموستيري العاطري. فالقول بأن الايبيرو ــ موروسيين ليسوا اصحاب تلك الحضارة ليس قولا معقولا لأن تلك الحضارة لا تعتمد على جذور محلية. الا أن ذلك لا يمثل المشكل الوحيد: أن أولائك المغاربة «الكرومانيون» يتميزون بميول واتجاهات تتنافى مع ما نجده عند أهالي أوربا، ان صناعتهم المحلية المعاصرة للمكداليني، أو على الأقل لبدايته هي «ميزوليتية» (نصف حجرية) الى درجة أن البعض كان يسميها صناعة «أزيلية بربرية».

ان صناعتهم العظيمة ليس لها أي ارتباط بصناعة المكداليينيين ولم يكن لديهم فن أثاث ولا رسم جداري رغم الزعم بوجودها في المغرب. ومع هذا، فقد تمكنوا من البقاء الى العصر الحجري الجديد واستطاعوا ان يستعمروا ارخبيل الجزر الخالدات حوالي نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد. وتوجد أشياء اخرى تختص بها بلدان المغرب عمليات قطع الأسنان والمقابر المحفوظة في المغاور أو في الملاجىء (أفلوبوالرمل بالجزائر ــ تافورالت بالمغرب) والمعالم المأتمية (كلمناته).

«أفق الكولينيون» والصناعات الصفيحية الأخرى السابقة للعهد القابسي

لقد ثبت اليوم بالحجة وعلى أسس طبقية أرضية وجيومرفولوجية ان الصناعات الصفيحية بالجهات التونسية المتاخمة للصحراء (قفصة ومناطق الجريد..) كانت سابقة لكل المراحل القابسية. ان أفق كولينيون بسيدي منصور (قفصة) مقحم ضمن الطمي النهري، وتتميز مرحلة توقف الترسب في وسط البحيرات بتشكيلات جبسية هامة. وبعدما استؤنفت مرحلة الترسب عادت الى التوقف بخسوف حوض قفصة الذي تلاه الانجراف. ولذلك فالقابسي الانموذجي المتطور يحتل الدرجات الأولى من ذلك الانجراف بله الهضاب التي تقوم مقام الشواهد. فلا يمكن تحديد المعالم التاريخية تحديدا دقيقا، الا على سبيل القول بان الترسب يعود الى الموستيري. ولا يمكن ان تقارن تلك الصناعات الصفيحية بالايبيرو - موروسي الا على أساس اختلافها عن القابسي اختلافا نوعيا. وذلك لأن نموذجها مختلفة باستثناء تكاثر تقنية الحافة المعكوفة. وينبغي البحث عن الأصل بالاتجاه نحو الشرق (برقة، مصر، الشرق الأدنى). وتوجد صناعات أصيلة أخرى من العصر الحجري اللاحق وتندرج بين العهد الايبيرو — موروسي والمظاهر القابسية وتتميز «الكولمنتابي» الذي تنتسب اليه المقبرة بصناعة ميكروليتية (حجارة صغيرة) خالصة وذلك في الألفية السابعة. ولقد عرفت مواقع أخرى أهمها ملجأ كدية كيفان الهدى (عين مليئة بالجزائر الشرقية) حيث تعود الصناعة السابقة للقابسي الى الألفية السابعة أيضا.

ولقد اقترحت عبارة «ايلاسوليتيك» لتعبر عن هذا المجموع الميكروليتي المتطرف المرتبط بنوع من الحياة التي عجزنا عن تعريفها. وقد لوحظت مظاهر أخرى بالجزائر الغربية أهمها «الكريمي» «والكريستيلي» اللذان يرجعان الى الألفية الثامنة وهما يوجدان على ساحل وهران. ان القائمة ما زالت مفتوحة وفي الواقع يوجد مجموعة كبيرة من الصناعات بين العهد الايبيرو — وموروسي الذي يعتبر بصفة عامة من العصر الحجري القديم، وبين العهد القابسي، كما هو الشأن في الصناعات التي نعرفها في الميزوليتيك الأوربي.

المظاهر القابسية

لقد كانت «المجموعة القابسية» تمثل الحجة الرئيسية لفرضيات ر. فوفري الذي يستعمل: القابسي «الانموذجي — الأعلى» — «ذو التقاليد القابسية». فان كان ذلك الهيكل المبسط محل تهجم على أساس التواريخ الاشعاعية الكثيرة خاصة، فينبغي الاعتراف بان التعرف على المجموع يحقق التقدم المنتظر منذ عشرين سنة. ذلك أن سير الحفريات في «الحلزونيات» لم يجد وسيلة للعثور على التركيبات الطبقية الأرضية ولا على الهياكل الأثرية، باستثناء حالات نادرة جدا. فما دامت التقطيعات الطبقية العديدة لم تسمح بمشاهدة تناضد مختلف المظاهر القابسية فاننا سنعتمد في المعاصرات والمقطوعات على أساس تواريخ الكربون ١٤ وذلك ما لا يوفي بما يوفي به تكون طبقي أرضي.

وبما أن تناضد القابسي الأعلى والقابسي النوعي في مستويات عديدة أصبح امرا ثابتا فانه سيظل منطلق كل تصنيف، وتكون المناجم في هذه الحالة أو تلك عبارة عن أكداس من الركام المختلط رمادا وحجارة محرقة وقواقع الحلزون التي تعد بمئات الآلاف وعظام الحيوانات التي استهلكها الانسان وصناعته الحجرية والعظمية وأشياء للزينة وللأثاث وبقايا انسانية الخ. ويحق لنا أن نتصور مساكن تحت الأكواخ تسببت في أكداس تلك البقايا وقد تكون نوعا من الأكواخ التي بنيت بالقصب يضم بعضه الى بعض بواسطة الطين. هذا اذا ما أخذنا بملاحظة قديمة جدا مع الأسف وقعت في منطقة خنشلة (بالجزائر الشرقية).

وتمتاز الصناعة الحجرية للقابسي النموذجي بنوعية رفيعة على العموم، وتحتل نقوش الزاوية على البلورة مكانة ممتازة. وكذلك الأمر بالنسبة للشفرات الكبيرة ذات الحافة المعكوفة والظهر المخضب والمسماة أحيانا «بالسكاكين». وتمثل الشفرات ذات الحافة المعكوفة نسبة تقدر بالربع الى الثلث من الادوات الحجرية المتحصل عليها أحيانا بتهذيب بقايا النقوش (الابرة المستقيمة التي يستعملها كوبار). وهناك منقاشات صغيرة لم تأت مثلما هو الشأن في الايبيرو — موروسي من صناعة «حدود المويلح» بل من حجارة صغيرة هندسية (مربعات منحرفة — مثلثات أخمعيات). أما الصناعة العظمية فهي فقيرة. والعهد القابسي الأنموذجي ليس معروفا الا في منطقة محدودة جدا، فهو مبعثر على الحدود الجزائرية التونسية، في الجنوب من خط العرض ٣٥، أكثر من شماله. وهو لا يغطي الا الألفية السابعة اذا ما اعتمدنا على التواريخ الراديومترية، ونتيجة لذلك فقد يكون في هذه المنطقة ذاتها معاصرا للقابسي «الأعلى» وهو أمر مخالف للتكوينات الطبقية الأرضية المعروفة ولن أقتنع بهذا الا عندما يتبين وجود القابسي «الأعلى» تحت القابسي الانموذجي! فمن أين انبثق في هذه الحالة هذا القابسي الذي اتفق الناس جميعا على نعته بالمتطور؟ ثم ان صانع حضارة القابسي «الانموذجي» يكاد يكون مجهولا لدينا...

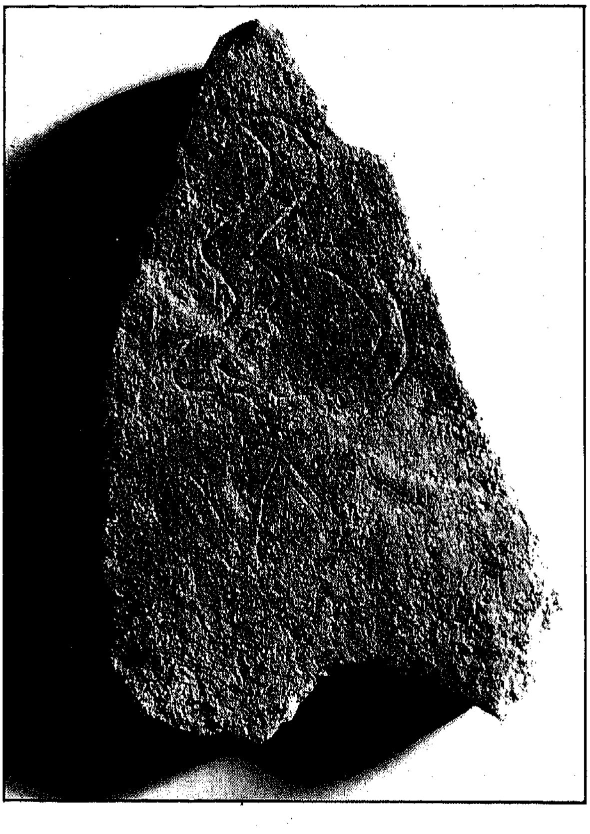
وقد وفر لنا القابسي المتطور كثيرا من المظاهر التي اجتاحت الغرب الجزائري وجزءا من الصحراء على الأقل. وان الأمر يستوجب ملازمة الحذر، والا نرتكب الخطأ الذي وقع فيه ر. فوفري بأن مدد «عصره الحجري ذا التقاليد القابسية» باضافات متواصلة الى جزء كبيرمن القارة الافريقية...

واذا ما استثنينا ما سميته «بالمظاهر التبسية» (المثقلة بالادوات الكبيرة التابعة للقابسي الأنموذجي) فان القابسي المتطور يتميز بصناعة تتكون من أدوات صغيرة الحجم وغنية بالحجيرات الهندسية التي عادة ما تكون رفيعة فنيا وتقنيا، خاصة فيما يتعلق بالمثلثات وبعض المثلثات المنحرفة فالتمييزات التي وقعت على أسس احصائية ليست صالحة، لأن الأمر يتعلق بمجموعات متاحف وباختيار وانتقاء لحفريات أجريت بصفة رديئة ومتقطعة كما يتعلق «بطبقات» مصطنعة يختلف سمكها من باحث الى آخر. ولقد عرفت مجموعة حلزونية درستها بعين ذكارة اقامة بشرية امتدت ألف سنة أي من أواسط الألفية السابع الى منتصف الألفية السادسة قبل الميلاد. فهل يحق أن نميز صناعتها بالإلتجاء الى طريقة إحصاء شامل؟

ان القابسي «الأعلى»، بنزوله الى الألفية الخامسة وعلى الأقل عند توسعه الشمالي قد دام حتى طرأ العصر الحجري الجديد الذي امتد بدوره على حقبة طويلة جدا. وهكذا يمكن لنا أن نؤيد وجود



١



٢

● ١) هاون ومدقّ به آثار من الفحم والمغرة وشظايا من قواقع هليكس. الحجري الحديث من التراث القابسي في داموس الاحمر، الجزائر الشرقية (تصوير م. بوفي)

● ٢) لوحة جيرية محفورة. القابسي الاعلى في خنفة الموحدين. الجزائر الشرقية. (تصوير م. بوفي).

المعاصرة في مناطق مختلفة بين صناعات كل من العهد القابسي الأنموذجي والأعلى و بين العصر الحجري الجديد ذي التقاليد القابسية.

وهكذا تكون الحضارة القابسية قد دامت ما يقارب ٢٠٠٠ سنة، أي بضعة قرون أقل من العهد الفرعوني بمصر. واذا عجزنا عن كتابة تاريخها فانه يمكن لنا أن ندرك على الأقل العناصر الأساسية لجنس بشري. فالانسان القابسي لا ينتسب الى النوع الكرو ـ مانيوئيد الموجود بمشتى آفالو: بل هو انسان من حوض البحر الأبيض المتوسط، مثاله النموذجي المحفوظ في ظروف طبقية أرضية لا جدال فيها، هو الانسان الموجود بعين ذكارة (بتبسة) الذي يرجع الى نصف الألفية السابعة.

ان المساكن القابسية تعد بالمئات وكل واحد منها دام قرونا وتجاوز حتى الألفية من السنوات. ان مثل هذا الاستقرار السابق للعهد الرعيي وللعهد الفلاحي يستحق التنويه، رغم أن الأمر يتعلق بأكواخ مصنوعة من القصب والأغصان المدعمة بالطين أو المشدودة بالجلود. أما الصيد فلم يكن له دور أساسي، خاصة اذا نظرنا الى قلة بقايا الحيوانات، لا الى تنوعها. فالرخويات البرية تحتل مكانة لا يستهان بها. ولقد كان جني الخُضَر يلعب دورا ضئيلا. فلا «المناجل» الموجودة بكلو مناطه ولا الكرات الحجرية المثقوبة ولا المدقات ولا «أدوات الحصاد» تصلح أن تكون حجة تثبت وجود الفلاحة.

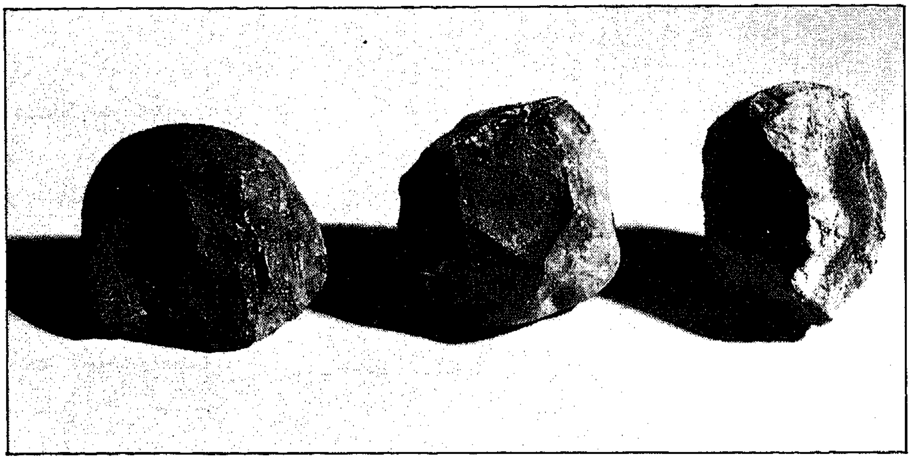
وكان الانسان القابسي يدفن الموتى حسب طقوس متغيرة مختلفة أهمها الوضع المضطجع الجانبي المنحني. أما الاستعمال المتكرر لمغرة التخضيب فانه يظل غامضا. ومن العجب العجاب استعمالهم العظام الانسانية ومنها «الجمجمة كمغنم» الموجودة بفايد سوار (عين البيضاء بالجزائر) والتي يظن أنها كانت تستعمل قناعا. ولقد حدث أن القابسيين كانوا يقلعون أسنان الأحياء لا سيما النساء، الى حد ثماني ثنايا.

ومع هذا، يُعتَبَرُون الفنانين الأوائل الذين ظهروا ببلدان المغرب. و يشهد على ذلك وجود المجوهرات ومحاولات نقش بيض النعام منذ العهد القابسي الأنموذجي، والصفيحات المنقوشة والأحجار المنحوتة التي يمكن لها ان تؤدي بنا الى الفن الجداري.

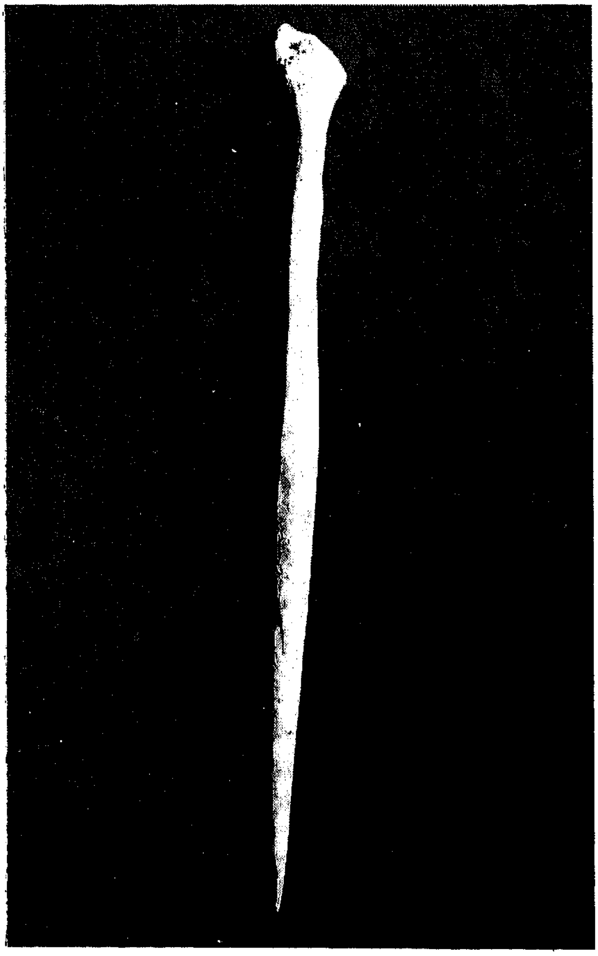
الدخول في العصر الحجري الجديد والعصر الحجري الجديد

ان الرؤية الحاصلة في أذهان الناس عن العصر الحجري الجديد بافريقيا الشمالية قد نظمها ونسقها ووحدها ر. فوفري منذ ١٩٣٣م. ان تصوره لهذا العصر ذي التقاليد القابسية والشامل لكل بلدان المغرب والصحراء وجزء من المناطق الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء، هذا التصور كان على العموم مقبولا الى درجة أن رمزه «العصر الحجري الجديد» ذو التقاليد القابسية (ج ت ق) أصبح مستعملا استعمالا رائجا. هذا رغم أنني، والدكتور كوباركنا عبرنا عن تحفظاتنا الشديدة إزاء الصفة المصطنعة لذلك البناء النظري المقام اعتمادا على اضافات متتابعة كان مجموعها يبدو لنا متباينا.

والحقيقة أننا لم نتمكن من إدراك الطريقة الفكرية التي كان يعتمدها ر. فوفري. فلماذا اعتمد



١



٢

● ١) عبن حانش. حصوات مشكلة على هيئة وحيدة الوجه (قاطع) أو ثنائية الوجه (أداة قطع) (تصوير م. بوفي).

● ٢) قصبة ساق صغرى بشرية مشكّلة على هيئة خنجر. القابسي الاعلى، مشتى العربي (الجزائر الشرقية) حفريات ١٩٥٢ (تصوير م. بوفي).

كمرجع، أضعف منجم وهو منجم طاولة جعتشه (بتونس)؟ ولقد عرض س. روبي سنة ١٩٧٦م — كيفية سير تفكير ر. فوفري. فالذي يهمه ليس هو العصر الحجري الجديد لذاته، بل يريد فقط ان يبين تواصل التقاليد القابسية التي أخذت تدريجيا تتحول الى التلاشي عندما ابتعدت عن مصادرها. وبذلك لا يكون العصر الحجري الجديد سوى ظاهرة عرضية للعهد القابسي. ثم ان التوسع الذي وصف به «ج. ت. ق.» سيبرر اعتمادا على تطعيم العناصر الثقافية المنسوبة الى العصر الحجري الجديد، وذلك ما أدى الى التصور «النموذجي» لهذا العصر بدون أن ينتبه الى ما يتجاوز الثورات التقنية و يفسرها ونعني بذلك الانقلاب في نمط الحياة. والحقيقة ان نمط الحياة لم يصل الى مرحلة العصر الحجري الجديد، في حين أن التقاليد القابسية مزدهرة. فالسهام وحدود السهام الوفيرة بالصحراء تقوم دليلا على امتداد نمط حياة الصيادين القناصين الذين لا يمكن لنا أن نعتبرهم منتمين الى العصر الحجري الجديد.

وفي هذه الأحوال يجب أن نعيد العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية الى حدود منطقته الأصلية. وذلك ما قام به س. روبي عند اعتماده على حفريات مغارة كبلتي (بأوراس في الجزائر)، فيتبين اذن أن مكان علم البيئة أصبح أساسيا بجانب علم النماذج البشرية الضروري. و يعني ذلك معرفة المحيط الذي يعيش ضمنه الانسان. وهي طريقة يمكن بها أن نعرف اقتصاد الرعي السابق للفلاحة والمعتمد على الترحال ولا يمثل نهاية عهد ما قبل التاريخ بل نقطة بداية الحضارة الجبلية المعاصرة لأهل الشاوية بأوراس الذين كانوا رعاة صغارا للغنم والماعز.

لقد وجدت اذن ببلدان المغرب أشكال أخرى من العصر الحجري الجديد غير الشكل المعروف بالرمز ج. ت. ق، بالمفهوم الدقيق، بين الألفيتين الخامسة والثانية. ولقد شهدت في مرحلة أولى، المناطق التي بقيت بعيدة عن القابسي تطورا خاصا بها له مميزاته الأساسية التي تتمثل في موالات العهد الايبيرو — موروسي وفي تكوين علاقات مبكرة مع أوروبا البحر الأبيض المتوسط. ولقد وقع ذلك ابتداء من الألفية الخامسة. ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية الملاحة مطروحة، فلقد وجدت مظاهر عديدة تابعة للعصر الحجري الجديد ومستقلة استقلالا كاملا عن كل عادة قابسية تشهد على وجود الاتصالات بأوروبا، يدل عليها خزفها واستيرادها للنسيج. و يصح هذا الكلام أيضا في شأن الساحل الأطلسي للمغرب.

وعلى العكس من هذا فان العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية لا يمكن أن يتسع، كما أراده ج. كامبس الى الصحراء الشمالية، وأقل من ذلك الى الصحراء الأكثر جنوبا حيث يوجد الفن الجداري بالهقار وبتاسيلي — ن. آجر.

ورغم كل ذلك فان الربط بين الفن الجداري والعصر الحجري الجديد والذي اقترحه ر. فوفري يبقى صالحا وإن ظلت نسبة التقاليد القابسية للعصر الحجري الجديد موضوع خلاف كبير، علما بأن الأمر لا يتعلق الا بجزء من الآثار المنقوشة على الحجر، لأن الجزء الآخر مرتبط بعصر بداية التاريخ. فلا يمكن أن ترتبط تلك الآثار الأولى ذات الأسلوب الطبيعي لا بأوروبا ولا بالصحراء اذ ينبغي البحث عن أصلها في ارتباط القابسي بالعصر الحجري الجديد. ومع هذا فان الربط بين «الصناعة والفن» سيظل في حاجة الى برهان. وعلى هذا الأساس يعترف ما قبل تاريخ بلدان المغرب بنقائصه مهما كان ثراء الشواهد الدالة عليه. فلا يمكن له أن يقدم الا اذا اعتمد على حفريات كبرى تجري بطريقة تتناسب مع أساليب اليوم.

الفصل الثالث والعشرون

الصحراء في ما قبل التاريخ

بقلم: هـ. ج. هوغو

ان الصحراء منطقة مقفرة مترامية الأطراف تغطي معظم شمال افريقيا. وليس من السهل تحديدها أو تعريفها. ويمثل الجفاف القاسم المشترك بين مختلف الجهات التي تتكون منها، فهي تمتد من الشرق الى الغرب على طول ٣٠٠٠ كلم من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي، وتمتد من الشمال الى الجنوب على طول ١٥٠٠ كلم من الأطلس الصحراوي الى الساحل السوراني ولقد شملت الظروف الصحراوية ما يقرب من ٤٫٥ مليون كلم[٢]. ورغم ذلك فان الصحراء كما نراها اليوم تختلف جدا عما كانت عليه عبر عصور ما قبل التاريخ.

وتتمثل وحدتها الحالية في افتقار هوائها الى الرطوبة، ومن أهم خصائصها، فضلا عن ندرة الماء، الفارق الكبير الذي يفصل حرارة النهار عن حرارة الليل، وكثرة الرمال التي لا تفتأ تتناقلها الرياح فتؤثر تأثيرا بالغا على أرض أكل عليها الدهر وشرب.

ان هذه المنطقة المقفرة اليوم كانت تعج بالسكان قديما وفي حقبات زمنية عديدة وتعزى هجرة آخر الاجناس البشرية التي سكنتها الى استقرار مناخ متطور الجفاف والحرارة أدى الى ضآلة كميات الأمطار ونضوب عيون الماء والأنهار. ان الانقراض المزدوج للغطاء النباتي والحيوانات التي يعتمد عليها الانسان في غذائه دفع به نحو الجهات المتاخمة المناسبة أكثر لعيشه. ولقد انكب الكثير من الاختصاصيين على مسألة تحول الصحراء الى أرض مقفرة، وأسباب ذلك، ونتائجه، ونخص بالذكر

منهم أ. ف غوتيي (١) وث. مونود (٢) ور. كابوت ـ ري (٣) وج. دوبياف (٤) ول. بالوت (٥) وك. بوتزروج. ا. هزين (٦) وذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

لقد أدركنا الآن الأسباب النظرية التي من أجلها لم تعد موسمة الخليج الغيني والجبهة القطبية ترسلان الى الصحراء عنصري الرطوبة اللذين يتحكمان في خصوبتها التي جعلتها عامرة آهلة عبر عصور ما قبل التاريخ. لكن لا بد في هذا الصدد من حصول اتفاق حول مسألة تطور المناخ الصحراوي فنحن لا نعلم الى الآن ان كنا في قمة تدهور المناخ، أو ان ذلك قد مر، أو لما يأت بعد. فاننا لا ندري بعد الكيفية التي بها يطرأ التصحر، فهل هو منتظم الإنتشار حول مركز معين؟ أو أن أطراف الصحراء تتحرك مثل كفتي ميزان، تارة نحو الجنوب وطورا نحو الشمال؟.

أما تعاقب المراحل المناخية نفسها التي جعلت الصحراء في حالات كثيرة تسمح بعيش الانسان فيها، فانه يستلزم كثيرا من المعلومات كي نستعيد تسلسل أحداثه التاريخية بدقة. لقد اجريت في أماكن مختلفة بعض الأبحاث الهامة. لكن يجب اقرار ندرتها، ولم تقع محاولات جادة لتطويرها. الا أن قيمتها كبيرة جدا لا في ميدان البحث العلمي فحسب بل كذلك لفهم ظاهرة تهم حياة الانسان. ان معرفة التغيرات المناخية الصحراوية في الدهر الرابع أصبحت ذات فائدة أساسية في دراسة التطورات البيئوية. فنظرا الى أننا نعيش في عهد يكتسي فيه كل متر مربع قيمة معينة سيلعب هذا «القفر الرائع» دور تكون أهميته على قدر معرفتنا الدقيقة لماضيه.

لمحة تاريخية

ان انعدام النشرات المرجعية المنتظمة الخاصة بالبحث في ما قبل التاريخ بمجموع الصحراء لا ييسر وضع خريطة للأعمال التي تم إنجازها في هذا الشأن. توجد بالنسبة للعهد الإستعماري نشرات مرجعية كالتي ذكرناها، لكنها ناقصة ومبعثرة. فالمكتشفات التي ذكرتها التقارير العسكرية مثلا، يعسر الوصول اليها. ولا شك أن تقسيم الصحراء السياسي يفسر من جهة أخري تشتت الدراسات التي اهتمت بثرواتها ما قبل التاريخ. لقد ساهم الانكليز والاسبان والفرنسيون والايطاليون مساهمة علمية هامة في اكتشاف ماضي الصحراء. وقد التحق بهم في هذا الشأن حديثا الألمان واليابانيون والروس الخ.

والملاحظ أن التوغل في الصحراء أمر حديث جدا.

ان أول دراسة جادة تتعلق بالصحراء قبل التاريخ قد تكون الدراسة التي نشرها القس ريتشارد (٧) سنة ١٨٦٨م: فهي تهم الصحراء الجزائرية. ولقد بدات الأبحاث في مصر في نفس

(١) عوتيي أ. ف.، ١٩٢٨م.
(٢) مونود ت.، ١٩٤٥م، ص ٢٧ ـ ٥٥ ندوة بورغ فرتنشتاين ١٩٦١م.
(٣) كابوت ـ ري ر.، ١٩٥٣م.
(٤) دوبياف ج.، ١٩٥٩م.
(٥) بالبت ل.، ١٩٥٢م.
(٦) بوتزرك. ف.، ١٩٥٨م حزين (ج أ). ١٩٣٦، ص ١٩ - ٢٢.
(٧) ريتشارد، القس، ١٨٦٨م ص ٧٤ ـ ٧٥.

الوقت تقريبا وكان منطلقها رسالة أ. أرسلان بتاريخ فيفري ١٨٦٧م (٨). ولم تبدأ الأبحاث في الغرب الا في بداية القرن الحالي. أما الأعمال التي تهم الصحراء الوسطى، فهي مدينة جدا للبعثات الاستكشافية التي أرسلها فورو ابتداء من سنة ١٨٧٦م (٩) والتي بلغت أوجها مع بعثه سنة ١٨٩٨م ـ ١٩٠٠م الهامة (١٠) وفيما بين ذلك ذكر لنز (١١) وجود أدوات ما قبل التاريخ في تدنيت سنة ١٨٨٦م. وبعد ذلك راجت الدراسات المتعلقة بالصحراء فيما قبل التاريخ ثم عرقلتها قليلا الحربان العالميتان.

فمن المعلوم ان ثروات الصحراء في تلك الحقبة شدت اليها اهتمام العلماء. لكن يستحيل علينا أن نقدم هنا قائمة كاملة عنهم. الا أن قراءة تلك الأعمال القديمة مدهشة لما توفره من معلومات ثرية. فأعمال س. ب. م فلامان (١٢) وفرو بينيوس (١٣) والآنسة كانون ــ طومسون (١٤) مثلا تعتبر تمهيدا أساسيا لكل دراسة جادة للصحراء في ما قبل التاريخ.

ان البحث في فترة ما قبل التاريخ قد تأثر في الصحراء أكثر من أي مكان آخر بالاهتمامات العاجلة وقد التصقت به ظاهرة خاصة جدا أدت الى سوء فهم مشاكله الحقيقية لمدة طويلة. فكثيرا ما اعتبر ما قبل تاريخ الصحراء «علما ملحقا» ضمن اهتمامات البعثات التي كانت تجوب الصحراء. وعلى هذا الأساس فلقد كان ما قبل تاريخ الصحراء يعهد به الى هواة أو اخصائيين في مسائل أخرى، لا يولون محتواه الإهتمام اللازم، ويضاف الى ذلك ان صعوبة التغلغل في ذلك الوسط الذي تتعلق فيه حياة الانسان بكل كيلوغرام يحمله معه، كانت تجعل من الوثائق الخاصة بما قبل التاريخ بشكلها وعبئها الثقيل ما يبعث على اهمالها. ويجب أن نضيف الى ذلك أن الصحراء ليست وسطا مثاليا يسمح للمسافر بالتجوال، فضلا على القيام بحفريات جادة، وهذا ما يفسر لنا لماذا طال الحديث في شأن الصناعات في الهواء الطلق وانعدمت الدراسة الطبقية الأرضية انعداما تاما الخ.. والحقيقة أن الصحراء في عصر ما قبل التاريخ تعتبر ثرية مثل غيرها.

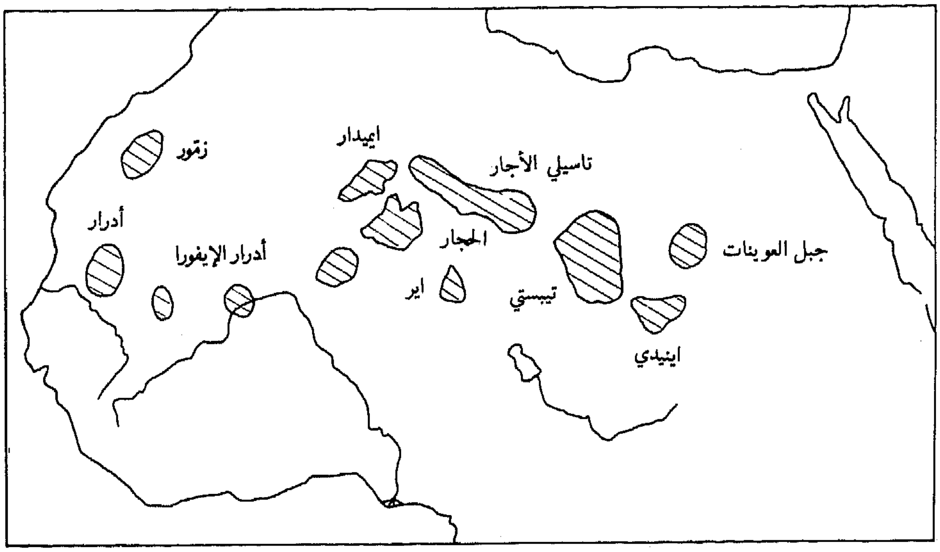
وما أن توفر الوقت والوسائل للبعثات المختصة حتى تغيرت الأوضاع بسرعة. وقد حدث ذلك اثر الحرب العالمية الثانية، وأمكن الحصول على عدد ضئيل مع الأسف، من الدراسات المفردة تتعلق بالخصوص بالهقار والساورة وتشاد، وموريطانيا، والصحراء الليبية والفزان الخ..

ان التعاون بين الصناعة والعلم أدي الى تحقيق نتائج مدهشة ذكرت في الوثائق العلمية لبعثات برلييي ــ تنري ــ تشاد (١٥).

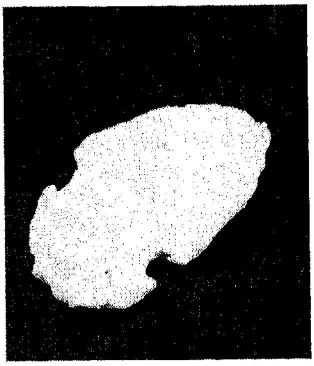
ومع ذلك يصعب أن تضم فترة ما قبل تاريخ الصحراء رغم أهميته الكبرى وثرائه دفتا كتاب

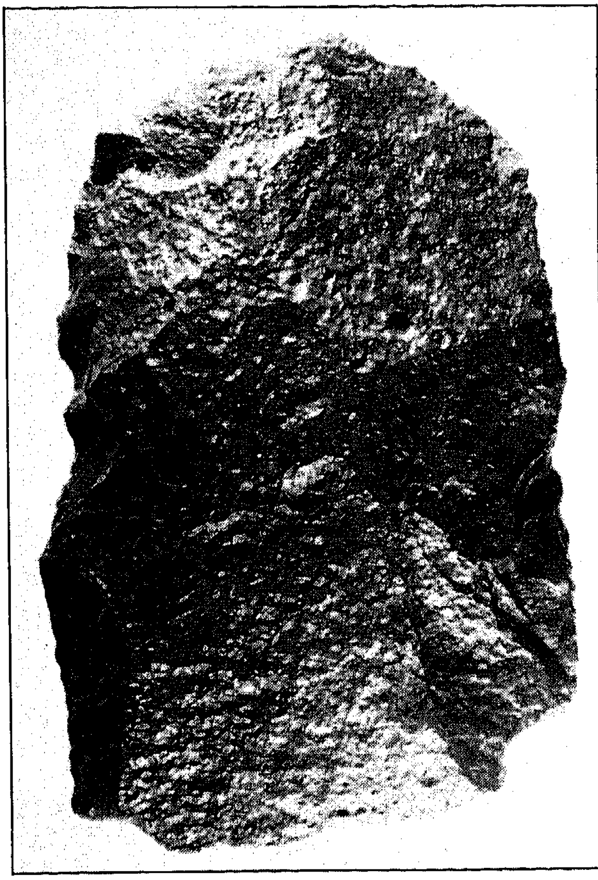
---

(٨) أرسلان أ. رسالة بعث بها الى هيئة تحرير «مواد للتاريخ البدائي للانسان» نشرت في المجلد ٥ لسنة ١٨٦٩م.
(٩) فورو ف. ١٨٨٣م.
(١٠) فورو ف. ١٩٠٥م.
(١١) لنز ١٨٦٤.
(١٢) فلامان ج. ت. ف. ١٩٠٢م، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٨، و١٩٢١م، ص ١١٤ ـ ١١٥، هـ. بيري، ١٩٣٧م قائمة المواقع المدروسة
(١٣) فرو بينيوس ل. ١٩٣٧م.
(١٤) كاتون ــ طومسون ك. وغردنر أ. و. ١٩٣٤م.
(١٥) هوغو هـ. ج. ١٩٦٢م.



١


٢


٣

● ١) المواقع الرئيسية لآثار الرسم والنحت على الصخور في الصحراء الكبرى.
● ٢) فأس مسطحة ذات تجويفين، من جونتولوروم في النيجر.
● ٣) بلطة من تي ـ ان ـ أساكو (مالي).

تعليمي أو يحويه حتى كتاب مبسط في زمن وصل فيه الانسان الى القمر. و يكفي أن نذكر أن ما قبل التاريخ كان موضوع عدد كبير من الدراسات التفصيلية و بعض الفصول من الكتب العامة نذكر بالأخص منها ما ألفه هـ. أليمان (١٦) وهـ. ج هوغو (١٧) ور. فوفري (١٨).

البحث عن ترتيب تاريخي

لقد بحث ما قبل تاريخ الصحراء منذ بدايته عن سلاسل للمقارنة بأوربا لا سيا بفرنسا لذلك جرى الحديث عن «كلاكتو- أبفيلي» وعن «شليو- أشولي» و «الموستيري» و «الصفائح الاور ينياسية» و«الحدود المورقة الشكل السلوترية»الخ. ان الاخطاء الناتجة عن هذه النظرة الساذجة مازالت آثارها قائمة، لا سيا وأن ما قبل تاريخ الصحراء، مثله مثل ما قبل تاريخ العالم كله، لا ينشأ إلا من تحليل الدراسات المفردة الشاملة المخصصة لمختلف صناعاتها. ولكن أمثال هذه الدراسات لا تزال مفقودة. وتوجد نتيجة أخرى مؤسفة لفقدان الانضباط في البحث في ما قبل تاريخ الصحراء، تكمن في اسناد انظمة اجتماعية معينة لأجناس بشرية منقرضة، دون ان تتوفر أية حجة جادة عن واقع الأحداث.

أما فيا يتعلق بالترتيب التاريخي (١٩) فان الأمر يستوجب ملاحظتين: أولها تتمثل في أننا لا نعرف دراسة طبقية (٢٠) هامة مخصصة لأية نقطة من الصحراء تسمح لنا بأن نقر اقرارا واضحا تعاقب طبقات ما قبل التاريخ. والملاحظة الثانية تبين — باستثناء العصر الحجري الجديد أنه — لم تتوفر لنا تواريخ مضبوطة تسمح بوضع ترتيب تاريخي مطلق. ورغم هذه الصعوبات فقد توفرت لنا

---

(١٦) أليمان هـ.، ١٦٦٠م.
(١٧) هوغو هـ. ج.، ١٩٧٠م.
(١٨) فوفري ر.، ١٩٦٩م.
(١٩) ترتيب الدهر الرابع: هو تعاقب ضمن الزمن لفترات مناخية مختلفة وفي حالات كثيرة لم تتوفر لنا بالنسبة للصحراء الفقيرة من حيث الدراسات الطبقية، عناصر ترتيب تاريخي نسبي. فكان عمل ج. شفايون أحسن ما قدم منها. (١٩٦٤). ميز هذا المؤلف انطلاقا من القاعدة الى قة الساورة في الشمال الغربي من الصحراء ما يلي:

الدهر الرابع القديم	عائدي
الفيلافرنسي	مزيري
الدهر الرابع الوسيط	تأورتي
	أوغرتي
الدهر الرابع الحديث	السأوري
الدهر الحالي	غويري

(٢٠) علم طبقات الأرض: وهو قراءة ثم تأويل الطبقات التي تعاقب تراكمها في مكان لتكوين التربة التي نسير عليها. ومن المعقول أن الصحراء التي خضعت لكوارث مناخية لم تحتفظ لنا بكثير من الشواهد. لكن يوجد منها نصيب، بل نعلم أنه يوجد منها في أماكن، سلسلة من مسطحات ثلاث تعرف بالقديمة والمتوسطة والحديثة وتشهد على ثلاث مراحل مناخية. الا أنه ينبغي الا نبالغ في التعميم. إن مشكل المراحل المناخية المستقراة بالطبقة معقد جدّا إذا اعتبرنا المناخات الصغيرة. إن الطبقة توحي بأن التصحر كان أمرا مقضيا حوالي — ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

أعمال حسنة للغاية قام بها ج. شفايون عن الساورة (٢١)، وهـ. فورعن تشاد (٢٢) وب. هـ. شامار (٢٣) عن مور يطانيا. وقد دعمت هذه التحاليل بدراسة محيطية جادة عن الجزائر (٢٤) والمغرب (٢٥) وليبيا (٢٦) الخ..

اللوحة

الاطار التاريخي لما قبل تاريخ الصحراء

من ١٠٠٠ سنة قبل عهدنا إلى ١٠٠٠ سنة من عهدنا	آخر تكرار رطب	معالم تسمى «ما قبل الإسلام»
من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ سنة قبل عهدنا	طمي أعماق الأخلجة نقصان عيون الماء. الآبار الأولى إستمرار مناخات صغيرة جبلية	العصر الحجري الجديد الحديث تشيت فاديلي بوركو
من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة قبل عهدنا	آخر حفر للأودية بحيرات ذات هازجة الماء	العصر الحجري الجديد القديم منية عين قزام تيلمسي ؟
من ٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ سنة قبل عهدنا	كشبان قديمة من نوع ٢ آوكير	
من ٧٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ سنة قبل عهدنا	المستوى النهائي للبحيرات الكبيرة ذات المشطورات جرى - فيل، فرس الماء الكركدن نظام تهاطل المياه كثبان قديمة من نوع ابراكين.	العاطري الساورة تديكلت مور يطانيا العاير
		الأشولي ٣ الى ٨ لـ بيبرسن (١٩٦١)
	تحدد القضات	
	انتهاء الإجتراف تشكل مسطحات تفاساسات	
	سيلان الأنهار الكبيرة ظهور البحيرات الكبيرة إجتراف عنيف	حضارة الحصاة المهيأة

(٢١) شوفايون ج.، ١٩٦٤م.
(٢٢) فور هـ.، ١٩٦٢م.
(٢٣) شامار ف.، ١٩٦٦م - ١٩٧٠م.
(٢٤) بالوت ل.، ١٩٥٥م.
(٢٥) بيبرسن ب.، ١٩٦١م.
(٢٦) ماك بورني.، ك. ب. م. وهاي ر. و، ١٩٥٥.

وعلى ضوئها نستطيع تكوين فكرة واضحة نسبيا عن الخطوط الأساسية للإطار التاريخي لما قبل تاريخ الصحراء. غير أن افتقاره الى وثائق إحاثية وبصفة عامة الى مواد عضوية صالحة للاستعمال من أجل ضبط التواريخ بالاعتماد على القياس بالاشعاعية لا يسمح بضبط ترتيب زمني مطلق يتجاوز العصر الحجري الجديد (انظر اللوحة أسفله).

ان هذا الجدول مبسط طبعا للغاية، خاصة أنه لا يتضمن مجموعة كبرى من الشظايا التي تعتمد تقنية لوفالوازية تثبت بأشياء من ذوات الوجهين الرقيقة التي لها حجم ووزن صغيران، ويحتمل ان يعود تاريخها الى نهاية الأشولي. وذلك شأن تغلغمين (٢٧)، وبروكو (٢٩) الخ... ونلاحظ أنه لا يوجد اليوم ما يسمح بالحديث عن العصر الحجري القديم الأعلى (٢٩) بالصحراء. ان هذا المفهوم ليس له ما يدعمه في الوقائع. والخطأ أكبر اذا تحدثنا عن العصر الحجري الوسيط، لأن المصطلح أصبح مهجورا.

ويمكن أن ينشأ عن الجدول السابق ترتيب تاريخي أكثر تفصيلا. فهو يربط خطوط المناخ العامة التي نعرفها بالعمران البشري في ما قبل التاريخ.

ولم توفر الصحراء الا عددا قليلا جدا من الهياكل العظمية مع بعض الصناعات التي تسمح بتصنيفها الا أن ما يوجد منها يؤكد ان الانسان قديم جدا.

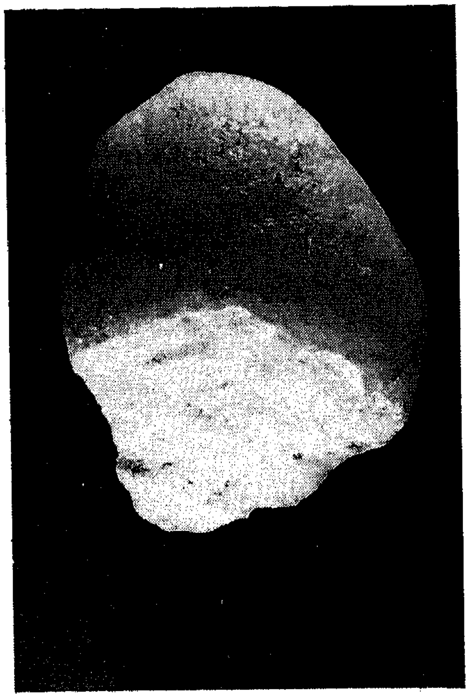
العصر الحجري القديم

ظهور الانسان بالصحراء وصناعة الحصاة المهيأة

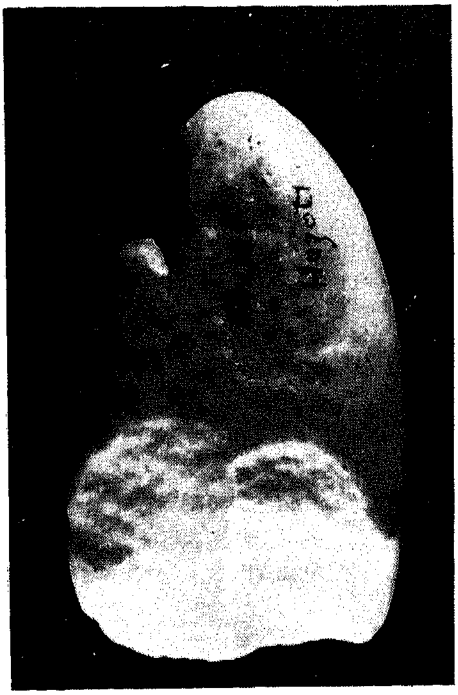
كثيرا ما نشاهد على ضفاف أنهار قديمة زالت من الوجود، مسطحات تشكلت عندما كانت مياه تلك الأنهار موجودة، وتتكون تلك المسطحات من ثلاثة مستويات مختلفة يعبرعنها، طلبا للسهولة، بالمسطحة القديمة والمسطحة الوسيطة والمسطحة الحديثة. في جبل ايجارن (٣٠) على بعد ١٢٠ كلم شرقي عين صالح (في صحراء الجزائر) وفرت المسطحة القديمة حصاة مهيأة. ونحن نعلم ان تلك الحصاة تعتبر أول الادوات التي بها سمة مشهودة ناتجة عن صنع الانسان. وفي أغلب الحالات لا تعدو أن تكون حصاة بسيطة نهرية اقتطعت من جزء منها شظايا لصنع حد خشن أو ملتو. ولقد اعتبر بعضهم أن تلك الأشياء من خصائص صناعة الانسان الماهر.

ونوجد أيضا في صحراء نيجيريا، على ضفاف تفاساسات (٣١)، وهو من روافد بحيرة تشاد القديمة التي تصب في بحيرة تشاد، وتوجد كمية كبيرة من الحصاة المهيأة، لكن وضعها يختلف عما

(٢٧) نفس المرجع، ١٩٦٢م، انظر الحاشية السابقة عدد ١٥.
(٢٨) نفس المرجع، ١٩٦٢م، انظر الحاشية السابقة عدد ١٥.
(٢٩) العصر الحجري القديم: ان التقسم التاريخي الناشيء عن تمييز الانسان الماهر بكونه السلف المحتمل لسلالة الانسان الحالية لم يغير المشاكل المطروحة بالصحراء، اذ يبدو حاليا أنه لم يوجد لا عصر حجري قديم متوسط ولا عصر حجري لاحق. يحتمل وجود عصر حجري قديم نهائي يمثله العاطري الآتي بعد الموستيري والمنفصل عن العصر الحجري الجديد بفراغ قصير.
(٣٠) بوني أ.، ١٩٦١م ص ٥١ — ٦١.
(٣١) هوغو هـ. ج.، ١٩٦٢م ص ١٥١ — ١٥٢.



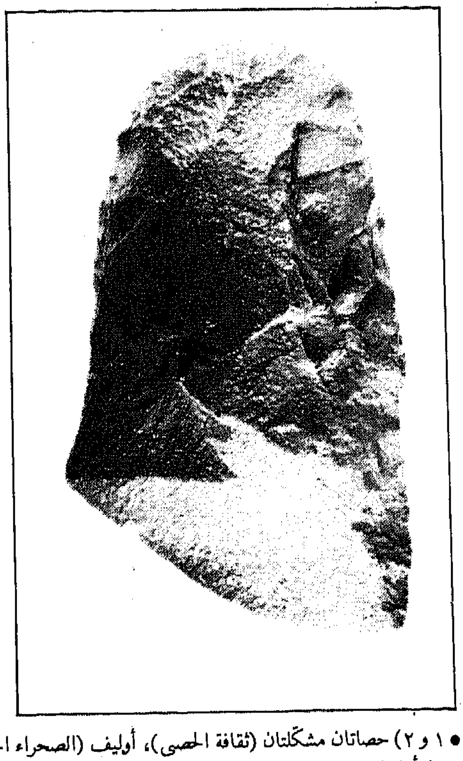
١



٢



٣



● ١ و ٢) حصاتان مشكّلتان (ثقافة الحصى)، أوليف (الصحراء الجزائرية).

● ٣) أداة ثنائية الوجه من الحجري القديم الادنى، من تاشنقيط، (الصحراء الجزائرية). ٤) بلطة من الحجري القديم الادنى، من تاشنقيط، (الصحراء الجزائرية).

هـي عليه حصاة ايجارن. وتوجد كذلك مجموعات أخرى مثل مجموعة (٣٢). آوليف التي اندثرت أو أتـلفت أما مجموعة الساورة (٣٣) فعددها من ضآلته لا يسمح أن تكون موضوع دراسة. فالذي يمكن أن نـؤكده هو أن حضارة الحصاة قد عرفت انتشارا واسعا داخل الصحراء التي كانت رطبة خلافا لما هـي عليه الآن. واننا لنأسف على انعدام وصول أي أحفور حيواني وانساني الينا عن ذلك العهد فلا يمكـن لـنـا الا أن نـبـدي افـتـراضـا مـفاده أن تلك الأدوات الخشنة جدا التي تعتبر، باستثناء المواقع المجموعة بها، منتشرة في كل مكان بالصحراء، الأدوات التي نحتها واستعملها أسلافنا البعيدون.

الانسان المستقيم، صانع ذوات الوجهين

ان نهاية حضارة الحصاة المهيأة أبرزت تطورا تقنيا آل الى أشكال قد تليق بالمستوى الذي وصل إليـه الانـسـان في بداية العصر الحجري القديم الأسفل. ان السر الذي يحيط بالتطور الانساني الكبير والـتـقـني المتـميز بظـهـور ذي الـوجـهين مـازال قائما. فلم يكتشف في الصحراء أي هيكل عظمي لأصـحاب تلك الأداة البديعة والقدوم الذي اشتق منها، مما يوحي بوجود أفق غابي ربما كان مسيطرا في ذلـك الـعـهـد. انـنـا نجـهـل الـبـيـئـة التي عـاش فيها أولـئـك الـذين اخترعوا الحصاة المهيأة. ولقد توفرت معلومات مفيدة عن بيئة الذين أتوا بعدهم. ان الصحراء التي كانت موطن بحيرات كثيرة قد تـوفـرت فـيها مـيـاه وأمـطـار كـافـية ساعدت على نمونباتات توحي بمناخ ميال الى البرودة. و بالطبع كـانـت الحـيـوانـات الا ثـيـوبـيـة مـنـتـشرة بها في كل مكان. ولقد طرأ حدث هام مفاده أن الأمطار الاعـصـار يـة التي اخـتـصـت بها الحقبة التالية أتلفت أو قضت على كل الترسبات التي تراكمت في أعـماق بحيرات ذلك العهد ولقد عجلت بسرعة اندثارها مرحلة جفاف كبيرة طرأت بين ذلك العهد والعصر الموالي.

ولـقـد كانت الشواهد الطبقية قليلة جدا نتيجة لتلك الاندثارات، وان كان عدد ذوات الوجهين التي تغطي الصحراء كبيرا جدا.

ونحـن لا نتجرأ على التأكيد ان الانسان الاحفوري التشادي (٣٤) كان صانع ذوات الوجهين، ولقد وضعه فوفري (٣٥) في موضع الصدارة من فصل كتابه المخصص للعصر الحجري القديم الأسفل والأوسـط بـالـصـحـراء. لـكن هذا السلف المحترم الذي نجهل تماما ان كان بحق ناحت أدوات، لا يمثل في حقيقة الأمر الا اكتشافا هام يتعلق بعصر الحجر القديم.

لـقـد وجدت في تيحوذين التي ذكرها أول مرة دوفير يي سنة ١٨٦٤م (٣٦) والتي زارها، غوتي أ. ف.، ورايـغـاس سـنة ١٩٣٢م (٣٧) صناعة مختلطة بحيوانات الكركدن، والفيل، وفرس البحر،

---

(٣٢) هوغو هـ. ج.، ١٩٥٥م ص ١٣١ — ١٤٩.
(٣٣) شافايون ج.، ١٩٥٦.
(٣٤) كوبنس ي.، ١٩٦٢م ص ٤٥٥ — ٤٥٩.
(٣٥) فوفري ر.، المذكور أعلاه — (بعد وفاته) ١٩٦٩م، ٢١.
(٣٦) دوفير يي هـ.، ١٨٦٤م.
(٣٧) غوتيي أ. ف. أورايغاس م.، ١٩٣٤م.

والبقريات والجاموس، والخنزير ذي القرنين وحمار الوحش، والتمساح والغزال الخ.. فالواضح أن صناعة تيحوذين الأشولية كانت متطورة وغالبا ما كانت تعتمد على العظام والاخشاب في نحتها. فلقد بلغت مرحلة متقدمة ولا تعتبر موالية لحضارة سابقة

و يوجد على مسافة غير بعيدة من تيحوذين منجمان، أشوليان جيلان جدا يتكونان من خليط من ذوات الوجهين وأحيانا من أشكال مصغرة تكاد تكون ((سبايكية (s'baïkiennes)) ومن قدومات ونعني بذلك منجم عرق أدمير (٣٨) الذي اكتشفه عسكري سنة ١٩٣٤م وكتب عنه لأول مرة هـ. لوط وهـ. كيلي سنة ١٩٣٦م (٣٩) ولم يضبط تاريخ ذلك المنجم، شأن منجم وادي تفاساسات (٤٠) الذي اكتشفته بعثة برليي ــ تينيري ولم يحظ باشغال كانت تسمح بابراز أهميته للوجود.

ان تبلبالة وتشنقيط معروفتان (٤١) بذوات الوجهين المصنوعة من المرو الأحمر، وعلى الأخص بمجموعاتها الكبيرة من القدومات ذات التقنية المتقدمة جدا.

وفي تلك المنطقة نفسها من افريقيا أبرزت أعمال ج. شوفايون وهـ. أليمان وجود أشولي متطور بعين المكان، قد يكون هو السابق مباشرة لصناعة الشظايا أو يكون قد اندمج في أشولي وسيط وذلك شأن مازرو بني عباس وكرزاز (٤٢).

وتوجد بشبكة منونة في الساورة من الصحراء الجزائرية (٤٣) مجموعة مفيدة لكنها لسوء الحظ قليلة العدد.

و يوجد الأشولي الوسيط في عين أكر وفي منيت وأرك (٤٤) تحت الطمي الذي يحتوي على العاطري المبعثر.

ولقد عثر على الأشولي أيضا بكميات متوفرة في أ. آوليف (٤٥) وتشردا (٤٦) والبيض (٤٧) والشهانب (٤٨) والصحراء الغربية (٤٩) وخرقة في الصحراء الليبية (٥٠). وخلاصة القول إنه يغطي كل الصحراء، لكننا عاجزون عن ترتيبه زمنيا اذ انه لا يوجد في وضع طبقي باستثناء أربع أو خمس طبقات فهو مازال يحتاج الى عمل أساسي يعتمد على عمل جاد في الحفريات والسبريات.

(٣٨) ان ذلك المنجم السطحي يدل أحسن دلالة على صعوبة التفريق بين الصناعة السائدة والتأثيرات الموالية التي تؤثر بها أدوات أخرى أكثر حداثة.
(٣٩) لوط هـ.، كيلي هـ.، ١٩٣٦م ص ٢١٧ ــ ٢٢٦.
(٤٠) هوغو هـ. ج.، ١٩٦٢م.
(٤١) شمبوب.
(٤٢) أليمان هـ. ١٩٦٠م ص ٤٢١ - ٤٢٣.
(٤٣) شوفايون ج.، ١٩٥٦م ص ٢٣١، وأيضا ١٩٥٨م ص ٤٣١ ــ ٤٤٣.
(٤٤) هوغو هـ.، ١٩٦٣م.
(٤٥) بند و. ب. و «آل»، ١٩٣٨م ص ١٧ ــ ٢١.
(٤٦) دلوني م.، ١٩٤٨م.
(٤٧) بيبرسن ب.، ١٩٦٥م ص ١٧٣ ــ ١٨٩.
(٤٨) أركل أ. ج.، ١٩٥٤م ص ٣٠ ــ ٣٤.
(٤٩) ألمغروباخ م.، ١٩٤٦م.
(٥٠) كاتون ــ طمسن.، ١٩٥٢م.

النقطة الغامضة: صناعات الشظايا

يختص العصر الحجري القديم الأسفل الأوربي مثلما هو شأن الصحراء، بآداة أساسية وهي ذات الوجهين. فلقد ابتدأ من الاشكال الخشنة التي جمعت تحت عنوان (الشولي). ثم تطور نحو القطع الأنيقة المتوازية التي تم نحتها واكتمل مثل قطع «الميكوك».

لقد آذن بظهور ذوات الوجهين بالصحراء، الحصاة المهيأة الاخيرة، فلوحظ تغير جذري سريع في تقنية النحت. و يبدو ان تلك المهارة الجديدة من التهيئة العسيرة للحجارة لم تكن غريبة عن خفة الاشكال واتقان صنعها. فلم يحصل التطور في أوربا أو الصحراء الا بعد اكتشاف مزايا قارع مرن من العظم أو الخشب عوض المطرقة الحجرية التي لم تكن دقيقة، لما ينشأ عن حدة وقعها فان كان ذو الوجهين الأداة المعتمدة، أي بعبارة أخرى الأحفور الموجه في العصر الحجري القديم الأسفل، فان الامر يستوجب النظر لكي يعتبر الأداة الوحيدة التي صنعها الانسان المستقيم. وتوجد أسباب كثيرة أدت الى الاعتقاد بأن الشظايا كان منذ خطوات التقنية الأولى، مستعملة أيضا، كما استعمل جزء هام من الفواضل المختلفة من قطع النوى. لذلك كانت غلبة الشظايا أمرا طبيعيا في العصر الحجري القديم الوسيط (٥١)، فالشظية ليست اكتشافا بل هي تمثل تحويلا يتميز بتصغير شكل ذوات الوجهين التي أخذت تتطور نحو الهيكل السلاحي. ان ما يعتبر ثوريا لا يمكن في تعميم تقنية لوفالوا التي برزت مبكرا في الصحراء، واليها تنسب طريقة صنع بعض ذوات الوجهين في تشنقيط (٥٢)، واليها تنتسب أيضا صناعة بروكووتيمبرورين. و بالرغم من هذا الظهور المبكر، فليس لهذا الأمر — فيما يبدو — من علاقة بنمط عيش مخترعيها. ولم يكن أولئك المتقدمون طبعا نياندرطاليين والا كانوا قد اتخذوا طريقة عيش مغايرة تتطلب منهم استعمال أسلحة ومعدات أخف تخالف في فكرة صنعها ثقل ذي الوجهين والقدوم ان الشيء الذي يثير الاهتمام ولم ينبه اليه أحد، ليس هو فقدان «موستيري» حقيقي في الصحراء، أو فقدان أية صورة أخرى مشابهة له، بل لأن العاطري الذي خلفه، وهو في الحقيقة ذو طابع موستيري يمثل في أساسه صناعة صيادين. فالذنيب لا يذكر بالمقبض فحسب بل بالرمح. وتذكر (البولاتات (Bolas)) والشظايا الكبرى ذات الحدود اللوفالوازية بآلات الصيد. فهي باختصار صناعة مهاجرين، ولذا كانت خفيفة بالمقارنة مع سابقاتها.

العاطري

يحتل العاطري (٥٣) في الوضع الراهن من البحث في الصحراء المكانة التي يمثلها «الموستيري»

---

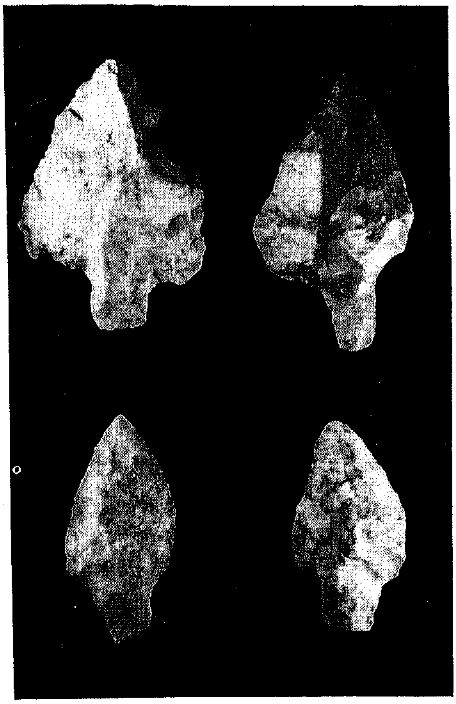
(٥١) ينبغي الا ننسى ان التغير الحقيقي انساني و يتمثل في ظهور انسان نياندرتال، صاحب الصناعات الموستيرية.

(٥٢) تكسيي ج.، ١٩٥٧م.

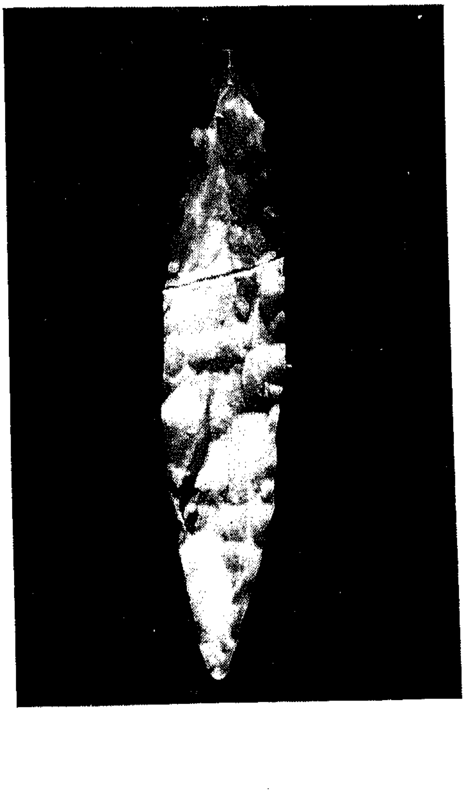
(٥٣) العاطري: هو صناعة أصلها من شمال افريقيا، تتكون في مجموعها من أساس موستيري تضاف اليه سلسلة كاملة من الأشياء المورقة الشكل. ان العاطري لاحق زمنيا للموستيري المختص بالتقنية اللوفالوازية. ولقد تطورت تلك الأدوات الحجرية الممتازة بالتدرج عبر الصحراء. و يبدو ان حده الجنوبي كان يتكون من البحيرات الكبرى الجنوبية التي زالت اليوم باستثناء بحيرة تشاد، ولقد وجدت على الضفة الشمالية الشرقية من تشاد القديم، مواقع يمكن تحديد تاريخها بـ ٩٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة قبل عهدنا. ان هذه الصناعة ينبغي أن تنسب الى العصر الحجري القديم النهائي، لا الى عصر حجري قديم وسيط.



١



٢



٣

● ١) شوكة كبيرة مزدوجة ثنائية الوجه أتيرية،من تيميموم،(الصحراء الجزائرية). ٢) أشواك اتيرية، من أوليف (الصحراء الجزائرية).

● ٣) شوكة مزدوجة ثنائية الوجه أتيرية، من أدرار بوس ٥ (النيجر).

في غيرها من الأماكن. فله منه خصائص كثيرة وذلك بما فسحه من مجال لتقنية لوفالوا، إذا اعتبرنا التهذيبات ونوعية الاشياء المتممة. ويختلف عنه من ناحيتين:

١ ـ وجود زائدة ذنبية قد تكون حدا مهذبا أو خاما، أو محكا أو ازميلا أو مثقبا.

٢ ـ اختلافات ظاهرة في المستوى الاحصائي بالنسبة لصناعة الموستيري. فان صرفنا النظر عن ذلك تظل فكرة «الاساس الموستيري» قائمة. ورغم أنه لم يتوفر لنا هيكل عظمي عاطري، فلقد تعودنا على نسبة تلك الصناعة الهامة الى انسان قريب من انسان نياندرطال.

ان العاطري كما نعلم هو صناعة من شمال افريقيا توجهت توجها قويا نحو الجنوب (٥٤) لتتوقف بصفة عامة على طول ضفاف البحيرات الكبرى في الصحراء الجنوبية. فبقدر ما كان يتجه نحو الجنوب كان يتحول حتى أنشأ المظهر الرائع بأدرار بسوس (٥٥) حيث تضاف الى المجموعة الكلاسيكية نوى وصفائح وشظايا ومحكات ومكاشط، ومخرات وحدود مضاعفة ورقية الشكل نابعة من تقنية ذوات الوجهين، وكرات حجرية وكذلك نصال ذنبية تعتمد تقنية ذي الوجهين وتبلغ الواحدة منها ١٩ سم طولا.

ان انتشار العاطري واسع جدا اذ أننا نجده في تونس (٥٦) والمغرب (٥٧) والجزائر (٥٨) والساورة وتديكلت حيث يستعمل استعمالا حسنا المادة الممتازة التي يوفرها أحفور (٥٩) أروكار يا وفي مور يطانيا حيث يحده (٦٠) عموما أدرار. كما أنه منتشر في المقار (٦١) وعرق أدمر (٦٢) وتيحوذين (٦٣) وأدرار بوس (٦٤). ونلاحظ أيضا وجوده في الفزان وزمرى وتوجد آخر معاقله الشرقية في خرجة، بمصر (٦٥) وأما من الناحية الزمنية فان تحديد موقع العاطري أمر صعب. ولعله ظهر في حوالي ـ ٣٥٠٠٠ سنة.

و يبدو أن تقدمه قد توقف على ضفاف بحيرة تشاد عند آخر ارتفاع من مستوى المياه و يؤرخ في تلك الظروف بـ ـ ٩٠٠٠ الى ـ ٧٠٠٠ سنة وان كان كل ذلك من باب الافتراضات.

كان من المنطق أن يأتي بعد هذه الصناعة التي تأثرت كثيرا بتأثيرات موستيرية، العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك ما يفرض طرح سؤالين: هل يمكن لنا أن نضع العاطري المتأخر جدا ضمن العصر الحجري القديم الوسيط؟ ذلك ما لم يمل اليه ل. بالوت في أطروحته الموفقة. ثم ماذا نعلم عن عصر حجري قديم لاحق في الصحراء؟ اننا لم نؤت من العلم الا قليلا. ان صناعة وادي

---

(٥٤) هوغو هـ. ج.، ١٩٦٧م ص ٥٢٩ ـ ٥٥٦.
(٥٥) هوغو هـ. ج.، ١٩٦٢م ص ١٥٨ ـ ١٦٢.
(٥٦) غروني م.، ١٩٥٤م.
(٥٧) انطوان م.، ١٩٣٨م.
(٥٨) رايغاس م، ١٩٢٢م ص ٤٦٧ ـ ٤٧٢.
(٥٩) غوتي ا. ف.، دوسان مارتان، ١٩٠٨م... رايغاس م.، ١٩٢٣م.
(٦٠) غو يتات ر.، ١٩٧٢م ص ٢٩ ـ ٣٣.
(٦١) هوغو هـ. ج.، ١٩٦٢م ص ٤٧ ـ ٧٠.
(٦٢) بوبوج.، ١٩٥٦م ص ٢٦٣ ـ ٢٦٨.
(٦٣) بالوت ل.، ارمبورك.، و بالوت ل.، ١٩٥٥م ص ٢٨٧ ـ ٢٩٢.
(٦٤) هوغو هـ. ج.، المذكور اعلاه، ١٩٦٢ص ١٥٨ ـ ١٦٢.
(٦٥) كاتون ـ طامسن ك.، ١٩٥٢م و١٩٤٦م.

اشد التي اكتشفها ر. موني (٦٦) لم تكشف بعد عن أسرارها. ولقد ظلت المجموعات الحجرية ذات الهيئة القابسية في ضفة تادمايت (٦٧) الجنوبية محل جدال. فلا يشهد على وجود تجمع قابسي أصيل في منطقة غمرتها الصحراء اليوم الا مجموعة (مرجومة) التي تقادم عهدها (بوادي ميا، بنجد تادمايت بالصحراء الوسطى الجزائرية) ولكن هذا لا يكفي لإقناعنا.

لذلك اقترح بعضهم سعيا وراء وجود حل يوفر ترتيبا زمنيا، بأن يضم العاطري تحت عنوان لا لبس فيه، هو العصر الحجري القديم النهائي.

الفراغ

استعمل ج. د. كلارك حديثا عبارة العصر الحجري الوسيط أو الميزوليتي لوصف صناعة متطورة ما بعد عاطرّية نشأت في أدرار بوس (النيجر). ان الكلمة التي بدأ استعمالها يضمحل لحسن الحظ لا تفيد شيئا على مستوى عام ولا تعبر عن شيء معروف في الصحراء ولا يمكن الا أن تؤكد الخطأ المعروف الذي وقع فيه اركل (٦٨)، وهو خطأ معقول يوم كان يشتغل على النيل. ان علماء ما قبل التاريخ الفرنسيين لم يتفقوا في هذه المرحلة من البحث على هذا المصطلح.

وهذا لا يعني ان مشكل العصر الحجري الوسيط قد سُوّي. فلقد سبق السبيلي ٣ المصري الذي اجتاحته الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل (٦٩) العصر الحجري الجديد (أ) دون أن يختلط به. وهناك آثار قليلة في الواقع تسمح بان نفترض أنه تجاوز المناطق التي وقع العثور فيها عليه.

العصر الحجري الجديد

اننا نجهل المهم من أصل الأجناس المنتسبة الى العصر الحجري الجديد (٧٠). و يبدو أنها تقدمت تدريجيا عبر الصحراء منطلقة من قواعد مختلفة. وتوجد حسب م. ك شملا (٧١) ظاهرة قارة في تعمير الصحراء في العصر الحجري الجديد، وهو الهجانة بقطبيها: السود من جهة، والبيض من جهة أخرى، وأصلهما نصف شرقي ويجمعون تحت اسم «أهل حوض البحر المتوسط».

---

(٦٦) صناعة غير معروفة محفوظة بقسم ما قبل التاريخ (IFAN) بجامعة داكار.

(٦٧) هوعو هـ. ج.، ١٩٥٢م ص ٦٠١ - ٦٠٣.

(٦٨) اركل أ. ج.، ١٩٤٩م، اركل أ. ج.، ١٩٤٣م.

(٦٩) فنيار أ.، ١٩٢٣م ص ١ — ٧٦.

(٧٠) العصر الحجري الجديد: يستعمل للدلالة على ظهور تقنيات جديدة لا سيا فن الخزف وصقل الحجر، و بداية تأهيل الحيوانات، والفلاحة والعمران الخ.. فيضاف الى الأساس المتطور جدا من الصناعة الحجرية بالعصر الحجري القديم اللاحق. ففي الصحراء يبدو أن أقدم أماكن ذلك العهد تنتسب الى الألفيات ٥ الى ٦ قبل الميلاد. ونعلم ان العصر الحجري الجديد يمكن ان ينشأ عن معرفة كامل التقنيات المذكورة، الا أن من أهم المظاهر التي يجب الاعتناء بها المظاهر التي تتمثل في طهي الاغذية، الذي سيؤثر بتغييراته الكيمياوية، بطريقة حاسمة على التطور البدني للانسان. و يوفر العصر الحجري الجديد الصحراوي وتياراته المتعددة مثلا لنوع من «الانفجار التقني» لا مثالا ثوريا كما زعم بعضهم.

(٧١) شملا م. ك.، ١٩٦٨م.

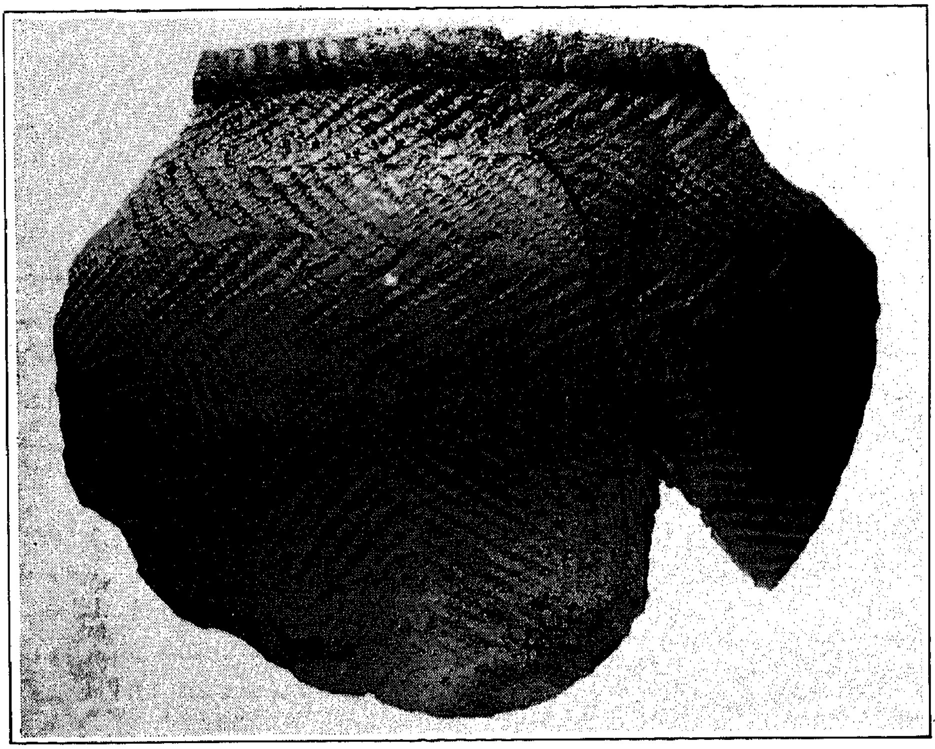
الاعمار الأول: أهل العصر الحجري الجديد من ذوي التقاليد السودانية

لابد من توفر عوامل كثيرة حتى يكون لسكان الصحراء أصل واحد في العصر الحجري الجديد. فاذا اعتمدنا الترتيب، نرى ان أقدم موجة كانت تلك الموجة التي تكونت على ضفاف النيل موازية لمستوى الخرطوم والشهانب، وتحركت من الشرق الى الغرب على طول البحيرات الكبرى. ولا يبدو أنها تجاوزت كثيرا الحاشية الشرقية أوكر، أو أنها توغلت في الغابة. لكنها استكشفت الشمال على الأقل مرتين: الأولى في الهقار شمالا، حتى الحدود الشمالية من المنطقة التي تشمل ما قبل العصر التاسيلي والاخرى حتى الساورة، انطلاقا من تلمسي. وتعرف تلك الحضارة الرائعة بسهولة اعتمادا على خصائصها وعلى غنى زخرفة الخزف، ولكنها في المستوى الصناعي عسيرة التحديد اذ أن أهل العصر الحجري الجديد من ذوي التقاليد السودانية قد استفادوا من جهات متعددة. فهؤلاء السكان الأوائل للصحراء كانوا صيادي سمك وحيوانات، وكانوا يجنون الثمار، وكانوا مغرومين بلحم فرس البحر وثمار النشم، لكنهم لا ينفرون من أكل سمك البحيرات أو سلحفاة المياه الحلوة أو قشاء الماء. ان تعاطيهم لصنع القدومات وأدوات العزق والهرس والدرس وغيرها لا يثبت بتاتا أنهم اتقنوا عملا معينا من أعمال الفلاحة (٧٢) وعلى كل فان ملأ الجرار المستمر بثمار النشم وكثرة اكتشاف آثار اللب لفصائل القرعيات في الحفريات قد يدفعان الى الاعتقاد بوجود شبه فلاحة بدائية. ولقد حدث أن وزعت الاعمال حسب وظائف مختصة، فكان صقل الحجارة واسع الانتشار وكانت أدوات الحرب متعددة. وكان الصيد يعتمد على القوس والرمح وكانت تستعمل المخاطيف والصنارات العظمية، وكانت الفأس وآلات العزق والهرس الحجرية المصقولة تحتل مكانة كبيرة بين معداتهم. ولما كانوا بارعين في تهيئة الدرر (الأمزنيت والكلسدوان والهماتيت والكرنلين الخ) صنع المختصون آلات ثقب طريفة (٧٣) تجمع بين الأزميل والابر، ومثاقب كانت تستعمل مع المواد الصمغية والرمال الناعمة. وعندهم معدات للهرس كثيرة، بل جميلة جدا. فان لم تدل معدات الطحن في بعض الاحيان على الطحن، بأتم معنى الكلمة فإنها على الأقل تدل على معرفتهم لفن الهرس. و يتكون المطحون أساسا من الطين الأحمر ويمكن أن يكون حبوبا برية وعنبيات كانت عشبية يابسة ومصبوغات نباتية ومنتجات صيدلية. ان أدوات الفخار تستحق اهتماما خاصة لثراء تزو يقها وجمال أشكالها. وهنا نلاحظ ان الاشكال المخروطية ذات النتوئات والاشكال المستطيلة كالجرار، مفقودة. وعلى العكس من هذا، نجد بعض المناقير المسكبة و بعض العرى والقفلات.

---

(٧٢) الفلاحة: زراعة متقنة للنباتات المختارة على قطع أرضية هيئت خصيصا لهذا (الغرض). ان الدليل على معرفة فلاحة ما قد تنشأ عن:
أدلة بلينولوجية صالحة احصائيا.
وجود آثار أراض مزروعة.
الحصول على نباتات أحفورية معروفة. ولا يكفي وجود أدوات معروفة بأنها «فلاحية» ومن الممكن أن تكون تلك الآلات قد استعملت لاستخراج الطين لصنع الخزف، والرحي لطحن مواد التلوين والحبوب البرية، والأدوية الطبية الخ... ان نسبة كلمة «فلاحي» تنشأ اذن من قواعد دقيقة لا من فرضيات واهية.

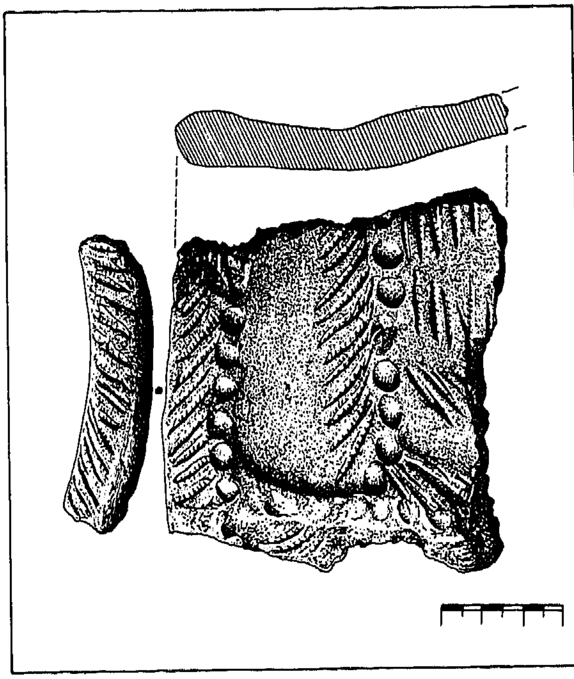
(٧٣) غوسان م. وج.، ١٩٦٥م، ص ٢٣٧.



١

● ١) قطعة خزف من الحجري الحديث، من دهار تيشيت (موريتانيا).

● ٢) قطعة خزف من أكريجيت (موريتانيا).



٢

العصر الحجري الجديد الغيني

ان تلك الموجة الأولى من أهل العصر الحجري الجديد قد أصبحت معروفة بعض الشيء ولقد تلاها في اتجاه الجنوب جنس افريقي آخر سيحتل الغابة. فهو رغم أهميته التي أخفاها كثيرا الغطاء الغابي، سيسمى هذا العصر الحجري الجديد المعروف جيدا بغينيا، العصر الحجري الجديد الغيني (٧٤) وان كان يحتمل أن يكون أصله من افريقيا الوسطى.

العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية

و يأتي بعد ذلك العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية الناتج عن أثر العصر الحجري الجديد بعين مكان القابسي الافريقي القديم و يبدأ يتحرك نحو الجنوب فيصل الى شمال شرقي موريطانيا والهقار حتى منيت، حيث ينتشر على سطح مواقع العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. ان حده الشرقي غير مدقق لفقدان دراسات مفردة لليبية صالحة للاستعمال. فالعصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية أكثر وقعا من العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية ان خزفه قليل التزويق أو منعدمه وكثيرا ما تكون الصناعة الحجرية ذات التقاليد القابسية في الغالب لها تقنية جادة وقد أثرى مظهرها الصحراوي عدد وافر وروائع من الهياكل للحدود والسهام، في حين أن الصناعة الحجرية ذات التقاليد السودانية كثيرا ما تكون ذات طابع انتهازي. ان حجارته المصقولة كثيرا ما تكون جميلة جدا. ان الانطباع الذي تركه من الخزف أزالته قطع حجرية صلبة وتماثيل صغيرة (٧٥) ذات أشكال حيوانية رائعة. ونجد في ذلك المظهر من العصر الحجري الجديد خرزا للنظم يتكون أجزاؤه أحيانا من سوسن البحر وغالبا من قطع اسطوانية الشكل مصنوعة من قشرة بيض النعامة ولقد أفرغت بيضات كاملة وحولت الى أوان قد زين بعضها رسوم خطية.

اننا نعلم أن الايبيرو ــ موروسيين يختلفون عن القابسيين. و بينما نجد هؤلاء قد سكنوا خاصة الانجاد العالية الجزائرية حيث تركوا تلك الأكداس العجيبة الصدفية المعروفة بالحلزونيات، فان الايبيرو ــ موروسيين استقروا على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في تونس والمغرب. واننا لا نعلم كيف توصل «أشباه الكرومانيين هؤلاء الى الاستقرار في شمال افريقيا ولا كيف انقسم الجنسان. كل ما نعلمه أنهما قد انطبعا بطابع العصر الحجري الجديد في عين المكان.

وكان أهل العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد الايبيرو ــ موروسية يعيشون قرب البحر وقد أثر ذلك فيهم. فان تمادينا نحاذي ضفة المغرب الأطلسية نحو الجنوب، سنكتشف وجود كجكنهودنغيات (Kjokennmöddingn) متكونة من أصداف بلح البحر والمحار ومن أم الخلول التي مازالت تستهلك بالسنغال الى يومنا هذا. ولقد عم في الصحراء المغربية والموريتانية ذلك المظهر الخاص جدا والذي درس أو لم يدرس الا قليلا وهو يتميز بفخار قليل الزركشة خشن يكتون من

---

(٧٤) دولاكروا ر.، وفوفراي ر.، ١٩٣٩م، ص ٢٦٥ ــ ٣١٢.

(٧٥) مجموعات ما قبل التاريخ بمتحف علم الاجناس لما قبل التاريخ بباردو (الجزائر) ــ مجلد رقم ١ أ. م. ج طبعة باريس ١٩٥٦م، لوحات ١٠٧ الى ١١٠.

حجارة المواقد، وله صناعة حجرية نادرة. فيكون من المفيد أن نعلم كيف تشكل ومن أين أتى، لأننا وان كنا نعلم بأنه تأثر بنظيره الايبيرو - موروسي في المغرب - فنحن نجهل كل شيء عن كل عناصره.

التينيري

وقد لفت نظر الاخصائيين تيار خامس وهو ذلك الذي وقع التعرف عليه في ادرار بوس وأطلق عليه لهذا السبب اسم «التينيري» ولقد اقترح أخيرا ج. د. كلارك الذي رآه في عين المكان بأنه يمكن أن يكون ممثلا للعصر الحجري الجديد الصحراوي، وذلك غير مقبول الا اذا اعتبرنا ان لفظ «صحراوي» ينعت منطقة جغرافية واسعة.

ان التينيري الذي اكتشفه جوبار (٧٦) سنة ١٩٤١م لا يمكن اعتباره كلاسيكيا ان اعتبرنا هيا كله التي تظهر في شكل زهرة اللوتس، واطباقه ومحكاته المحدودية السميكة وعناصره المنشارية وفؤوسه ذات الحلق، ونماذجه البشرية وتشكلاته العديدة، لأن ذلك المصطلح خاص بالمظهر بين السوداني والقابسي اللذين يغطيان معظم الصحراء. وكثيرا ما رغب فوفري في ارجاع كل شيء الى العصر الحجري ذي التقاليد القابسية (٧٧) وهو يقول: «ان التأثيرات المصرية المعروفة في الجزائر توغلت في أكمل مظاهرها حتى الهقار»، ثم يضيف قائلا: «ان تلك المراحل التي بلغها التينيري تمثل أوج صناعة العصر الحجري الصحراوية التي تذكرنا بما قبل عهد الملوك المصري (٧٨). ولنلاحظ أيضا أن التأثير المصري على التينيري لا يبدو واضحا رغم تأكيدات فوفري.

ولقد بقي أن نعرف بأية طريقة استطاعت صناعة التينيري الرفيعة المرتكزة في أساسها على اليشب الجميل ان تتأثر ذلك التأثر الذي تجلى فيها بكل وضوح.

لكن يجب أن نحتاط من التعميم الى ما لا نهاية له فيما يتعلق بمفهوم «المظهر» فنحن نعلم الآن ان نفس الجنس البشري قادر على أن يستجيب لما تقتضيه البيئة و باطن الأرض والمعادن الخ.. فحيث يوجد اليشب والصوان اللذان يسمحان بخلق الروائع انطلاقا من الحجر، ستنشأ صناعة تختلف عن الصناعة التي يمكن أن تنطلق من الصلصال الهش من الادرار بوس «والغوسولوروم» (٧٩) شيء واحد لا يتجزأ، لكن وجبت الاحاطة بفن الخزف والاسطوانات والفؤوس الخ.. حتى نؤمن بذلك فلا تلتقي الصناعات الا في نوعية نحتها.

بقي لنا أن نقول كلمتين عن مظهر جميل جدا وجد في جنوب شرق موريتانيا، و بالتحديد على طول ظهر تشيت (٨٠). ولقد أبرزت دراسات هامة أجريت في تلك المنطقة صناعة متأخرة ومرتبطة

---

(٧٦) جوبار ج.، وفوفري ر.، ١٩٤١م — ١٩٤٦م، ص ٣٢٥ — ٣٣٠.
(٧٧) فوفري ر.، ١٩٣٨م، ص ١٠ — ٢٩.
(٧٨) فوفري ر.، المذكور اعلاه، ١٩٦٩م، ص ٦٦.
(٧٩) هوغو هـ. ج.، المذكور اعلاه. ١٩٦٢م، ص ١٥٤ — ١٦٣ و ١٦٨ — ١٧٠.
(٨٠) هوغو هـ. ج.، وآل، ١٩٧٣م.

بمجموعة خاصة من القرى المبنية بالطوب حيث بلغ العمران (٨١) وفن التحصين مستوى عاليا. ولقد تحصلنا أخيرا على ما يثبت أن المجموعات المحلية كانت منذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد تستهلك الذرة البيضاء وذلك يعطي معنى دقيقا للأدوات العظيمة الخاصة بالطحن الموجودة بآثار تلك القرى. وتعتبر حضارة ظهر تشيت بفنها الخزفي و بخصائصهما الاخرى حضارة افريقية. ولا شك أنها قد تكون آتية من الشرق و بالتحديد من مكان قرب تلمسي. غير أن هذا الرأي لا يعتبر سوى فرضية مؤقتة.

فيمكن عندئذ ان يقتصر العصر الحجري الجديد على خطوط قوة مولدة لتيارات ثانوية اتصفت بتراثها الثقافي المشترك الذي يعرف بالخزف، ونادرا ما يعرف بخاصيات تقنية طبقت على الصناعة الحجرية.

ونستخلص من هذا أن العصر الحجري الجديد يمتد من الألفية الخامسة قبل الميلاد الى بداية الألفية الاولى. ولم يفتأ مستوى البحيرات ينخفض في ذلك العهد وسرعان ما نزحت الحيوانات الأثيوبية نحو الحواشي، وخاصة نحو الجنوب وانقرضت النباتات وهاجر الإنسان بدوره مع قطعانه.

الحيوانات والنباتات

أما الحيوانات فهي قد بقيت من العهد العاطري، وهو عهد قد انتهى عندما بلغت البحيرات مستواها العالي الأخير. ولقد عثر على شواطئها أو بمياهها على الحيوانات المدعوة بالأثيوبية ومنها الكركدن والتمساح النيلي، وفرس البحر، والفيل والحمار الوحشي والزرافة والجاموس والخنزير ذو القرنين. ولقد كثرت آذاك في المياه بعض الحيوانات، مثل (كلارباس)، وفرخ النيل وكذلك سلحفاة الماء الحلو. أما المراعي، فكان فيها الماعز والظبي. ان هذه القائمة لا تستغرب الا من حيث المكان الذي تطبق عليه وهو الصحراء. وعكسا لذلك فان النباتات تدعو الى الحيرة فلقد وجدت في بداية العصر الحجري شجر الجوز والزيزفون والصفصاف والدردار. وتدل صدفة عثر عليها في منيت (صحراء الجزائر) ان معدل كمية الأمطار كان يبلغ ٥٠٠مم. وكانت نباتات الخلنج تغطي بعض الطبقات الجبلية. و بسرعة بدأت النباتات تندثر تاركة مكانها لمشهد يوحي بجفاف شديد. فانقرض الأرز، وصنوبر حلب، والعرعر، والزيتون، والمصطكا وكذلك النشم الذي احتل مكانة هامة من حيث غذاء سكان تلك المناطق.

وكانت الرخويات متوفرة في البحيرات. فلقد وقع العثور في بعض المناطق على ترسبات كبرى من صفق أونيو (Unio) . و بالطبع كانت صحراء العصر الحجري الجديد قد اختصت في فجر تلك الحضارة بوجود مجموعة من البحيرات التي كانت منعزلة، وعلى ضفافها نشأ أهل العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد السودانية. ولقد كانت تلك البحيرات قد ساعدت على استقرار مجموعات انسانية بما وفرته لها من موارد.

(٨١) العمران: هو دراسة لمخطط مجموعة سكنية يقيم بها عموما سكان مستقرون منظمون حسب مخطط دقيق باعتبار تقسيم العمل والمعتقدات الدينية لسكانه. و يعتبر مجموع ظهر تشيت الوحيد الذي ينطبق عليه هذا التعريف، وهو موجود في مور يتانيا وتعود بدايته الى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

الصحراء مهد الزراعة

عرضت هذه الفكرة في مناسبات عدة ومن دون أن يستدل الكثيرون على امكانيات استعمال هذا المصطلح وما يترتب عليه من آثار خطيرة.

لا وجود لدليل على الفلاحة عندما يستند فقط على وجود أشياء أو أدوات معروفة بأنها فلاحية. ان الفلاحة يستدل عليها عندما تبرر الاحفورات والحتوب أو اللقاحات الفرضية المطبقة على الأشياء أو على الأدوات. ان جيوب الذرة الموجودة بتشيت (مور يتانيا) تؤكد آراء مونسن (٨٢) وآراء مونود (٨٣) في هذا الميدان.

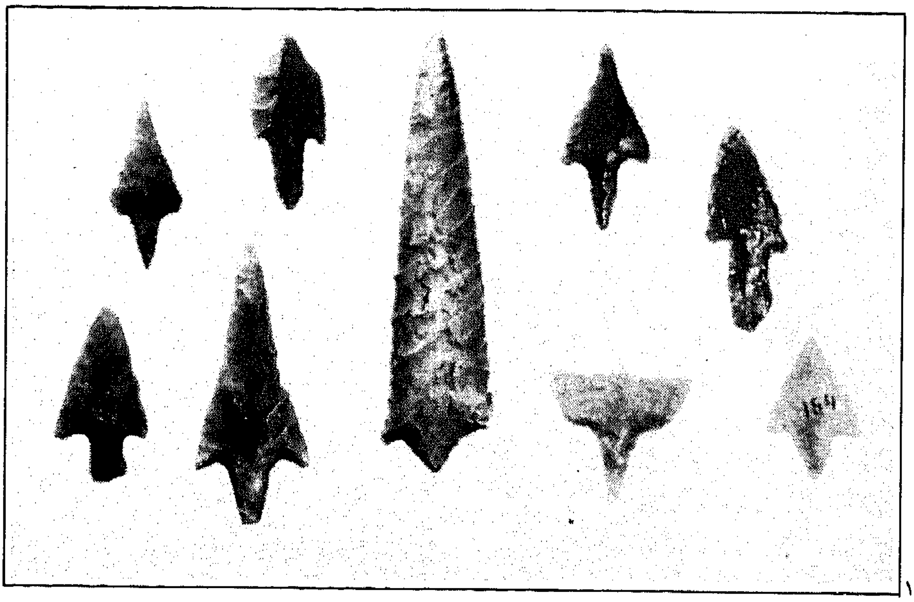
أما فيما يتعلق بالباقي، فنحن نعلم ان سكان العصر الحجري الجديد بالصحراء كانوا قد جمعوا كميات هائلة من العنبيات أو النشم الذي استعملوه للتغذية وقد لوحظ أيضا، في منيت وتشيت وجود حبوب من القرعيات التي يحتمل أنها كانت بطيخا مائيا، لا من نوع الليمون القولوني الشكل. ان هذين النباتين الأخيرين يقطفان، و ينتسبان الى بداية الفلاحة لا الى الفلاحة وهي تهيئة الارض لزرع نباتات مختارة زرعا منظما.

ان القائمة تبدو اذن فقيرة (٨٤) فلا يوفر التحليل البالينولوجي للرواسب من العصر الحجري الجديد في منيت (النيوليتية) اشارة واحدة تخص شكلا معينا من الفلاحة. ولم يوفر تحليل عام بأدرار بوس شيئا يذكر، وكذلك الشأن في تين أسكو وبمواقع عديدة درست من حيث هذا الصدد. ان الآثار الوحيدة عن استهلاك معين للمنتوجات النباتية بالمواقع النيوليتية الصحراو ية تتمثل في حبوب الززفوس واللوتوس والسلتيس وفي بعض النجيليات البر ية، يضاف اليها آثار البنستم التي وجدها مونسن، وكذلك حبوب الذرة المكتشفة في تشيت، في تر بيات أحفور ية.

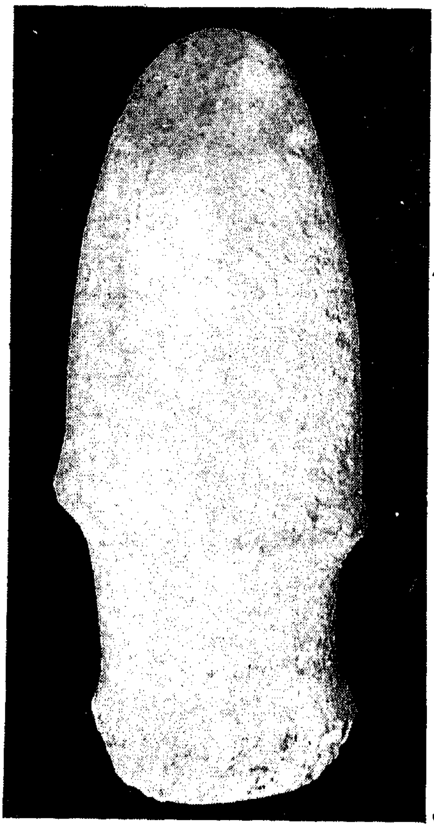
وقبل الوصول الى وضع خاتمة معينة علينا ان نحلل تحليلا شاملا رواسب العصر الحجري الجديد. ان البلينولوجيا رغم أهميتها لم تطبق على الصحراء الا قليلا فلئن سمحت الصحراء بزرع بعض النباتات فلا يبدو أن تلك المنطقة كانت أصلح من مكان آخر لنمو النباتات المستهلكة العادية في شمال افر يقيا.

وخلاصة الأمر أن الرعاة كانوا منذ أمد طو يل قد خلفوا في كل مكان تقر يبا الصيادين والحواتين والقطافين. ان وجود أدوات حجر ية في كل مكان تتكون من مجارف ومطاحن ومهار يس ومن موازين لإثقال عصي الحفر، ومن مناقير، لا يعني حتما وجود زراعة بالمعنى المعروف للكلمة. ففي مصر حيث تطور هذا المظهر تطورا كبيرا، نجد له آثارا واضحة في كل مكان. ولقد وجد أيضا في تشيت بمور يتانيا لأن قرى الاستقرار كانت تبرر ذلك الوجود. ولكن الأمر ليس كذلك في أماكن أخرى. وعلى كل حال لا ننس أن تحول الصحراء الى أرض جرداء قد أصبح أمرا مقضيا في ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولم يساعد انعدام الامطار الفلاحة، وهذا لا يعني الجهل بأي نوع من أنواع الفلاحة أو القطف الانتقائي الذي سبقها. و يضاف الى ذلك ان تجر بة الغذاء ذي الأصل النباتي قاد

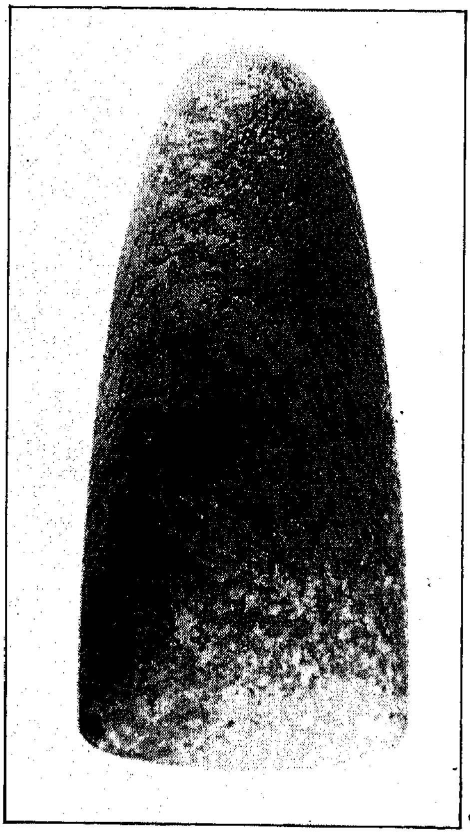
(٨٢) مونسن ب. ج. ١٩٦٣م، ص ٦ — ١٣.
(٨٣) مونود ث. ١٩٦١م، ص ١٥٦.
(٨٤) فلامان س. ب. م.، ١٩٢١.



١



٢



٣

● ١) رؤوس أسهم من الحجري الحديث، من غوريزام (النيجر)
● ٢) فأس ذات عنق من الحجري الحديث، من أدرار بوس (النيجر). ٣) فأس مصقولة من الحجري الحديث، منطقة فايا (تشاد).

أصحابها الى البحث عن أنواع معينة أي أنها أدت بهم الى شكل أولي من الإنتقاء. فلا توجد امكانية للزراعة الا في اطار من الاستقرار أو في اطار اقامة. لكن العصر الحجري الجديد المحتجب كان في أماكن كثيرة من الصحراء، يوحي بمخيمات أناس رحل أكثر مما كان يوحي بقرى منظمة وان كانت موجودة.

أصل التأهيل والصحراء

لقد كان لصحراء العصر الحجري الجديد حياتها الخاصة. وبالرغم من أن رعاة البقر في تأسيلي ناجر كانوا معاصرين للعربات «الطائرة عدوا» والتي لم يدقق تاريخها والتي يمكن أن تكون معاصرة لغزوات «شعوب البحر» الذين شتتوا بعد محاولتهم غزو مصر، فانهم قد طوروا بعين المكان طريقة لتربية الماشية كانت تدهش دائما من لا يعرفها اذ يبدو ان الحضارة البقرية قد بلغت في ذلك العهد أوجها فاكتسبت فنا راقيا يتعلق بطرق تربية الماشية التي تتطلب تعلما طويلا. ولقد تعاطى المصريون تجارب متنوعة في تربية الحيوان التي عرفناها من خلال الرسوم الجدرانية ولولاها ما علمنا أنهم حاولوا تأهيل السنوريات والغزال والكلبيات وحتى الضباع. فكيف كان الامر بالصحراء؟ يبدو أن السلوقي السوداني وهو مساعد ثمين للصيادين كان من سلالة قديمة جدا. فلعله هو الذي كان ممثلا في الرسوم البقرية وتوجد إشارات أخرى الا أنه ليس فيها ما يقوم حجة ثابتة. ونحن نعلم أن الثور والكلب، كانا موجودين في أوكر ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، لكن الرسامين على الجدران لم يبينوا لنا، بالنسبة للحقبات السابقة، ما هي الحيوانات التي حاول الإنسان تأهيلها.

الحياة في العصر الحجري الجديد (*)

اننا نعلم ان أهال العصر الحجري الجديد ذوي التقاليد السودانية، كانوا يتطفلون تطفلا لا نهاية له للاطلاع على التقنيات الجديدة فلقد ظلوا ينحتون الحجر ليستخرجوا منه مجموعة من الأسلحة الرائعة تتكون من الحدود المختلفة التهذيب، ومن مثاقب، ومكاشط لها أشكال متعددة ومن حجارة صغيرة هندسية الشكل، ومنشرات الخ... ان الجديد عندهم هو التقنية الجيدة في صقل الحجر وقد استخدموها في صنع الفؤوس والمجارف والمناقير والمقصات. وتضاف الى تلك المجموعة أحيانا أوعية من الحجر الصلب، ولبريات Labrets ودرر من الأمزونيت والكرنلين والمرو، وكرات (لعلها كانت قذائف). واليها يضاف أيضا العديد من الرحي القارة والمهاريس التي ليست بالضرورة دليلا على معرفة الفلاحة، و«كوا» (وهي حجارة تثقل به عصي الحفر) وكانت تستعمل سابقا في جنوب افريقيا. أو عند البيغمي. ويكتمل كل ذلك بسلسلة رائعة من الأواني الخزفية التي كانت أشكالها وتزويقاتها زنجية افريقية. ولقد صنع العظم واستعمل، لصنع مخاطيف ومثاقب، وابر، وأمشاط لصانعي الفخار ومصاقل وأحيانا خناجر. ان أهالي العصر الحجري الجديد السودانيين استطاعوا التأقلم ببراعة مع الحتمية المعدنية بالأقطار التي أقاموا بها وذلك ما أدى الى الإعتقاد بتعدد

* انظر المراجع العامة بالفصل المخصص للعصر الحجري الجديد.

الأسس العرقية، وإن كانوا من جهة أخرى مستقرين أحسن استقرار وموحدين ثقافيا. و يكفي دليلا على ذلك تناسق ما توحي به تزويقات الخزف. نضيف الى هذ أن أولئك الناس المكونين في بوتقة الحياة الاجتماعية كانوا يعرفون الملاحة ولا يستبعد أن يكونوا قد تجولوا عبر البحيرات على ظهر قوارب من القصب مثلما هو الشأن بتشاد حيث تعرف باسم «كداي».

وهناك اختلاف في مسائل عديدة بين رجال العصر الحجري الجديد أصحاب التقاليد القابسية وأشباههم وسابقيهم من ذوي التقاليد السودانية. ان هؤلاء انطلقوا من السودان على موجات عديدة، من الشرق الى الغرب دون أن يبلغوا حسبما يبدو الساحل الأطلسي، وكانوا زنوجا وأكثرهم أفارقة أقحاح. أما الأهالي الذين انطلقوا من الهضاب الجزائرية فكانوا ينتسبون أكثر الى البحر الأبيض المتوسط وورثوا عن سابقيهم القابسيين موهبة ممتازة في نحت الصوان الجميل. ان حصيلة أدواتهم مدهشة وكثيرا ما تذكر الصفائح الدقيقة المهذبة بالحلي. وتضاف الى المثاقب والحدود والمكاشط الصغيرة، حجارة صغيرة هندسية الشكل متكونة على حسب الصفائح، وهي منحرفات، ومستطيلات ومثلثات، وقطع مستديرة. وهم لا يجهلون رغم ذلك فن الصيد لأنهم كانوا يصنعون أسلحة عديدة من حدود السهام التي أصبحت اليوم مع الأسف موضوع تجارة سياحية هامة. وكانت الفؤوس المصقولة عديدة ولم تكن ذات شكل قصير، كما كانت في العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. وخلافا لذلك فان التقاليد القابسية تخصص مكانة أهم للأدوات الحجرية التي لها أيضا تقنية متنوعة. وهنا أيضا نجد الإنسان يعرف كيف يصقل القطع الحجرية الصلبة و يصنع حسب كرات مستديرة تماثيل بديعة صغيرة مثل بقرة سلت وكبش تمنيت وغزالة ايماكاسن. الا أن الفخار يعتبر أقل ثراء من حيث الأشكال والتزويقات وذلك لا يعني أن الصناع كانوا محدودي الخيال لأنهم يعبرون عن ذلك الخيال من خلال قدرتهم على تزويق بيض النعام الذي يصنعون منه كاملا، أواني (مهشمة) ودررا عديدة. ولقد احتفظت قطع كثيرة من القشرة برسوم رقيقة خطية. و يوجد بالطبع بهذا الاطار رحى ثابتة ومهاريس ونعلم ان جزءا من هذا العتاد قد استعمل لهرس الأصباغ، ويحتمل أن يكون ذلك لدهن الاجسام.

ان العصر الحجري الجديد غير معروف كثيرا لأن الاعمال التي تتعلق به لم تنشر بعد. الا أننا نعلم أنه توجد، ابتداء من المغرب وعلى طول الساحل الاطلسي ترسبات لا تحصى من الصدف تشكل أحيانا «تلالا» مخلوطة بالرماد و بقطع خزفية، وذلك هو الشأن حتى السنغال. ولكن يبدو أنه في تلك المنطقة، حل محل ذلك الجنس جنس آخر من قبل التاريخ بقي علينا أن نبين لماذا ـ عند حدود موريتانيا وساحل الذهب. لماذا حل محل الخزف ذي القعر المستدير أو المسطح المعروف بالصحراء، خزف آخر بديع ذو قعر مخروطي. ولكن هذا المظهر الثقافي يستحق أن تكتب حوله الدراسات.

وفي اتجاه الشرق، بمنطقة العائر، في آدرار بوس، نجد منجما يتميز تميزا واضحا عن المظاهر الأخرى المعروفة من العصر الحجري الجديد الصحراوي، مهما كانت اصولها، وهو الذي دعي بالتينيري. فلقد استخرج من يشب أخضر فاقع ونشأت منه أدوات رائعة. فهو عصر حجري جديد ثريّ الأشكال، يذكرنا بالعصر الحجري المصري وفيه أسطوانات منبسطة، وهياكل مزوقة بزهور اللوتس، ومكاشط مخرزة تسمى «الاهلة»، ومجارف لها قاطع صقله الاستعمال، ويمكن أن تكون بطبيعة الحال مجرد توافق، ولكن قد يكون من المستغرب أن تكون بنت الصدفة. و يضاف الى ذلك

أن بعض الرحى القارة المتصلة بهذا المركب الرائع، تشابه نفس الرحى التي توجد بالرسوم الناتئة المصرية. ولنا أن نعتقد أن أدراربوس كان قد احتله أناس لهم صلات وثيقة بالنيل وان كانوا قد استعملوا ــ وهذا أمر غريب ــ خزفا يشابه كل الشبه خزف العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. لكن ألم يسبق لتلك التقاليد أن استمدت نماذجها من الشهانب؟.

لقد كانت الغابة كثيفة وأكثر خضرة من يومنا هذا، وذلك بجنوب خط البحيرات، وفي عهد كان أكثر رطوبة. وذلك ما يفسر بدون شك انها تقوم حاجزا لم يتجاوزه الناس الذين أقاموا بالصحراء والحقيقة أنه لم تبدأ الا حديثا دراسة العصر الحجري الجديد الغابي الذي سمي، توخيا للسهولة ولتقدمه زمنا «بالغيني» وان كان في الواقع آتيا من مكان بعيد ويحتمل أن يكون من الكنغو.

الخاتمة

ان دراسة ماضي الصحراء الشيق مازال في مراحله الأولى. فهي توفر للإختصاصيين ولذوي العزائم فرصة استثنائية لا بد من اغتنامها قبل ان يحرمنا استثمار المدخرات الطبيعية الى الأبد من الاطلاع على أسرار المشاكل التي تهم ماضي الإنسان. ان الإنسانية ستصنع مستقبلها اذا وعت ماضيها، لأن تجربتنا لا تقتصر على الحاضر لكنها نابعة مباشرة من ما قبل التاريخ. ان نكران ذلك يحرمها من كل ركيزة معقولة، ومن كل قيمة علمية. ولقد انتهى اعتبار ما قبل تاريخ الصحراء بحثا فرديا ليصبح مبادرة جماعية تعتمد على فريق كامل، وعلى وسائل متوفرة. ومن المؤسف أن نلاحظ بأن مثل هذه البحوث مهملة. فعلى الذين يملكون هذه الصحراء الكبيرة القاسية ان يكونوا الرجال القادرين على أن ينتزعوا منها أسرارها.

الفصل الرابع والعشرون

افريقيا الغربية
في ما قبل التاريخ

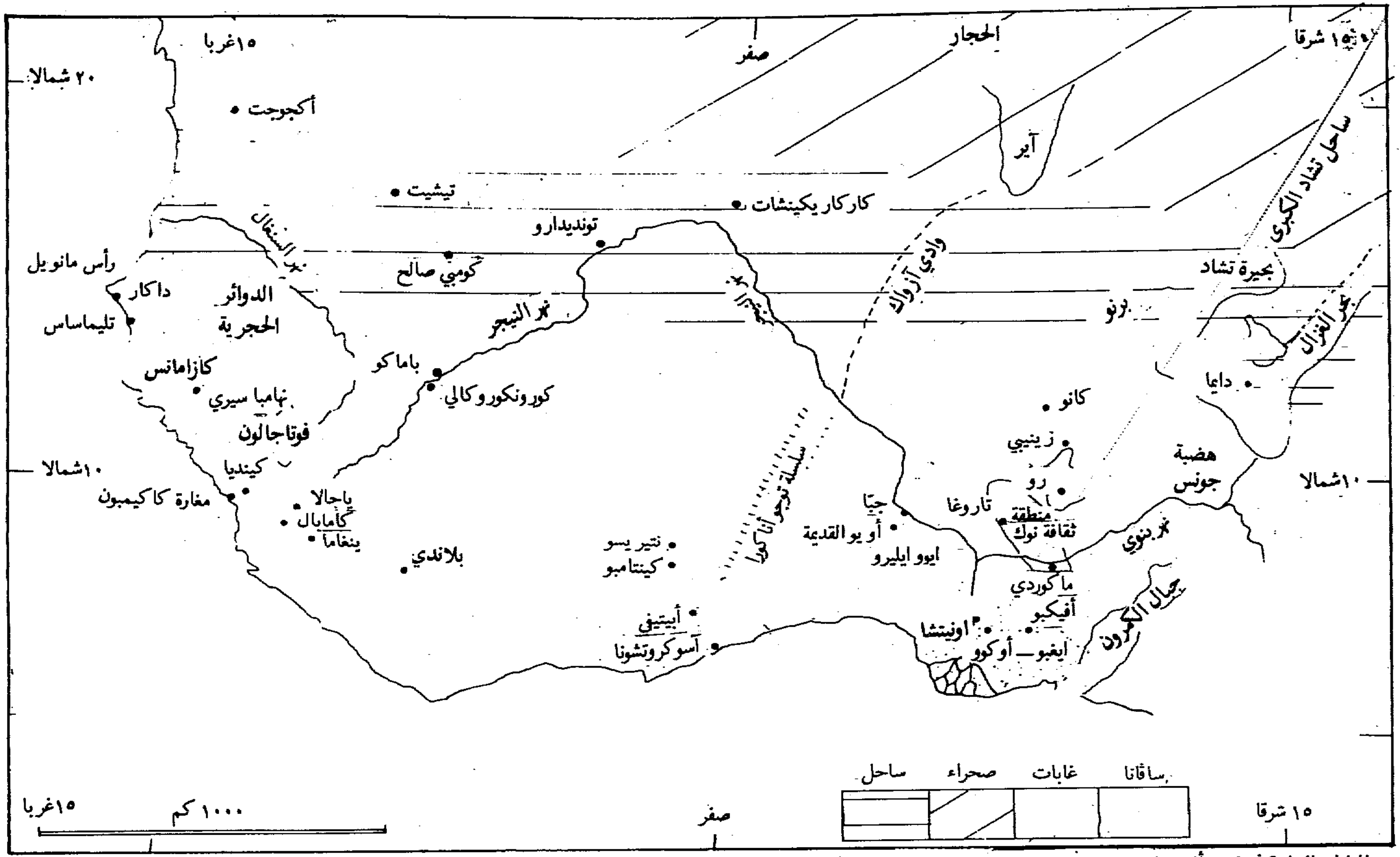
بقلم: ثورستان شوا

المناخ والبيئة

ان المناطق المناخية والنباتية الرئيسية تشق كامل إفريقيا الغربية من الشرق الى الغرب. وتنزل الأمطار الأكثرغزارة قريبا من الساحل، وهي تنقص كلما اتجهنا نحوالشمال، في الدواخل. أما في الشمال، فالحزام الجاف لمنطقة الساحل، يحده القسم الجنوبي من الصحراء. وفي الجنوب نجد منطقة السباسب الكبرى، و يوجد بين منطقة السباسب والغابة المدارية الكثيفة الرطبة التي تمتد بمحاذاة الشاطىء، منطقة غابية متدهورة مستصلحة للزراعة. قد حولتها يد الإنسان الى منطقة سباسب.

ان الامطار لا تنزل الا حسب فصول معينة وهي تتكاثر في الجنوب من أفريل الى أكتوبر (مع بلوغ حد أعلى في يوليو وأكتوبر). وتتواصل في الشمال من يونيه الى سبتمبر وتأتي بتلك الأمطار الرياح الجنوبية الغربية التي تتشبع بالرطوبة فوق المحيط الأطلسي. والى جانب ذلك فان الجبهة المدارية تقسم إفريقيا الغربية من الشرق الى الغرب، فتفصل الكتلة الهوائية البحرية المدارية المتكونة فوق المحيط الأطلسي الجنوبي عن كتلة هواء الصحراء القارية والجافة. ان موقع هذه الجهة يختلف حسب الفصول. ففي شهر يناير تستقر في أقصى الجنوب بحيث أن الرياح الصابيات الشمالية القادمة من كتلة الهواء الجاف الشمالية تنزل مباشرة على الساحل الغيني حيث تتسبب في انخفاض درجة الرطوبة انخفاضا كبيرا.

و ينبغي أن نأخذ بعين الإعتبار معطيات هذا المناخ وهذه النباتات حتى نفهم عصرما قبل التاريخ في إفريقيا الغربية وكذلك علم آثارها: ان وضعية مختلف المناطق النباتية ولمتدادها



● المناطق النباتية في غرب أفريقيا

وكذلك موقع الجبهة المدارية الداخلية قد خضعت في الماضي لتنوعات أثرت في الظروف التي عاش فيها إنسان إفريقيا الغربية في مختلف العصور.

يوجد في هذه المناطق النباتية عدد من الخصوصيات الجغرافية التي تؤدي الى تبدل الاطار العام تبدلات محلية: وذلك بهضبة فوطاجلون ومرتفعات غينيا. وكذلك سلسلة جبال الأتاكورا في الطوغو، ومنها في الكمرون هضبة باوتشي ومرتفعات مندرا. ومنها كذلك الدلتا الداخلي لنهر النيجر ومنعطفه الكبير نحو الشمال، وبحيرة تشاد، ودلتا مصب النيجر. و يوجد بين غانا ونيجيريا حزام الغابة المدارية الرطبة الذي يمثل حلا للتواصل يتجسم في «فجوة الداهومي».

انسان ما قبل التاريخ

الآثار الاحاثية

ان افريقيا الغربية لم تنتج الى حد الآن لا آثار للأشكال الإنسانية القديمة (أو البشريات المشابهة لما تم اكتشافه في افريقيا الشرقية والجنوبية (١)، ولا أدوات للعصر نفسه (٢). فهل يمكن القول بأن كائنات كهذه قد وجدت في افريقيا الغربية؟ فهل النقص الحالي في المعطيات راجع الى أن تلك البشريات لم تعش في تلك المنطقة في ذلك العهد؟أو أننا نفتقر فقط و بصورة مؤقتة الى الشواهد؟ انه سؤال يستحيل في الوقت الراهن أن نجيب عليه. على أننا لا نشاهد في افريقيا الغربية أي مجهود في ميدان البحث يمكن أن نقارنه بالمجهودات التي كانت إفريقيا الشرقية اطارا لها. ويجب أن نقر ايضا ان المناجم التي لها نفس القدم تبدو اقل بكثير. ومن المعلوم كذلك أن ظروف المحافظة في تلك المنطقة أضعف بكثير نظرا الى ارتفاع درجة الرطوبة وحموضة التربة (٣). وذلك ما توضحه معطيات عصر هو أقرب الينا نسبيا: اذ أن خريطة توزيع اكتشافات الآثار البشرية العظمية في افريقيا بالعصر الحجري المتأخر تظهر فراغا تاما بالنسبة لمنطقة الكونغو وافريقيا الغربية (٤). على أنه، منذ وضع هذه الخريطة، حصلت اكتشافات في نيجيريا وغانا وهي تبين أن هذا الفراغ يدل على وضعية معينة للبحوث أكثر مما يدل على انعدام حقيقي للآثار ما قبل التاريخ (٥). ويمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة الى الفترة الأكثر قدما والتي سندرسها (٦). ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك بالنسبة الى خريطة توزيع أحفورات مناجم الفقاريات بالبليستوسين الأسفل والوسيط الذي يوجد به نفس الفراغ (٧). فبقدر ما نستطيع أن نرجع الى الماضي القديم يبدو أن عددا من مناطق افريقيا الغربية قد كانت لها ظروف بيئوية قريبة جدا من الظروف التي سمحت بتطور

(١) ر. أ. ف. لايكي، ١٩٧٣.
(٢) م. لايكي، ١٩٧٠.
(٣) كلارك، ١٩٦٨، ص ٣٧.
(٤) غابل، ١٩٦٦، ص ١٧.
(٥) شوو، ١٩٦٥، المذكرات الافريقية، ١٩٦٩، وقائع بروثوال وشو، ١٩٧١ فلايت ١٩٦٨، ١٩٧٠.
(٦) كوبنس، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء، ص ٣٧٣.
(٧) كوبنس، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء، ص ٣٧٤.

الأسطرالوبتيك بافريقيا الشرقية، وذلك لا يعني، طبعا أن هذه المناطق قد كانت مسكونة بالفعل ويمكن اليوم لقطاعات عديدة من الغابة المدارية أن توفر حاجات قردة الغوريلا. ولكننا لا نجدها في الواقع الا في موضعين محدودين جدا (٨) هذا، وبقطع النظر عن نوع من التشابه في الظروف، فان منطقة سباسب افريقيا الغربية لا تتوفر فيها حيوانات الصيد، من حيث الكثرة والتنوع، مثلما هو الشأن بافريقيا الشرقية (٩).

لقد وفر الجزء الجبهي الوجهي لجمجمة عثرعليها على بعد ٢٠٠ كلم غربي الجنوب الغربي من لارجو، وفر عنصرا ايجابيا يسمح بأن نعتقد أنه يمكن العثور على عدد من البشريات الأولى من أول البليستوسين بافريقيا الغربية. ولقد سمي هذا النموذج الإنسان التشادي الأوكسريس (١٠)، واعتبرا في البداية أنه من سلالة الاسطرالوبتيك (١١) الا أنه عدّ بعد ذلك أقرب الى الإنسان الماهر (١٢). وفي الحقيقة يصعب أن يحكم في شأن هذا النموذج، وذلك لانعدام تأريخ مضبوط، ونظرا الى جزئية هذا الأثر. ان دراسة هذه الجمجمة التي تمثل خصائص عتيقة ومتطورة، دراسة شاملة توحي بتطور نحو الإنسان المستقيم (١٣) الذي يمثل مرحلة أكثر تطورا من تطور البشريات والذي له سعة جمجمية تقدر بما بين ٨٥٠ الى ١٢٠٠ سنتم ٣. و ينبغي أن نكرر القول إن إفريقيا الغربية لا توفر مثلا لذلك الشكل، رغم ان نماذج من النوع نفسه المسماة بإنسان الأطلس المور يتاني قد وجدت في الجزائر (١٤).

الصناعات

بالرغم من أن أدوات إنسان ما قبل التاريخ قد نحتت سواء من العظام أو الخشب أو الحجارة فانه من النادر أن يبقى الخشب، كما أن تركيب تربة أراضي افريقيا الغربية غير ملائم لصيانة العظام. وتتكون الأدوات الحجرية الأكثر قدما و بساطة ــ باستثناء الشظايا المستعملة والمصنوعة صنعا رديئا ــ تتكون من حصاة أو كتل منحوتة بالطرق لتوفر أدوات ذات حد يتراوح طوله بين ٣ و١٢ سم. ونشير الى هذه الأدوات باسم الحصاة المهيأة أو الأدوات الأولدوائية، نسبة الى الفج المسمى بهذا الإسم في تانزانيا. ان هذه الأدوات كثيرة الانتشار في افريقيا، والناس الذين صنعوها قد تمكنوا من أن ينتشروا كثيرا في أغلب سباسب القارة وأدغالها. وقد عثر في أماكن عديدة من افريقيا الغربية على أدوات مماثلة (١٥). على أنه لا يوجد حتى الآن ما يؤكد أنها تنتمي الى نفس

(٨) دورست. وندلو، ١٩٧٠، ص ١٠٠.
(٩) دورست. وندلو، ١٩٧٠، ص ٢١٣ ــ ٢٢٣.
(١٠) كمبل، ١٩٦٥، ص ٤، ٩.
(١١) كوبنس، ١٩٦١.
(١٢) كوبنس، ١٩٦٥ كوبنس ب، ١٩٦٥، أعمال المؤتمر الافريقي الخامس، كوكس، ١٩٦٥.
(١٣) كوبنس، ١٩٦٦، انثربولوجيا.
(١٤) أرنبورغ وهفستاتر، ١٩٥٤، ١٩٥٥، ارنبورغ، ١٩٥٤، ١٩٦٦.
(١٥) دفيس، ١٩٦١ ص ١،٤؛ دفيس، ١٩٦٤، ص ٨٣ ــ ٩١؛ موني، ١٩٦٣؛ سوبر ١٩٦٥؛ ص ١٧٧؛ هوغو، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء.

العهد الذي تنتمي اليه صناعة الأولدواي التي تقع في افريقيا الشرقية بين - مليونين و٠٫٧ سنة. ان دراسة دقيقة للحصاة المهيأة المكتشفة على طول نهر غمبيا في السنغال قد بينت أن البعض منها يمكن أن يكون منتميا الى العصر الحجري الحديث، في حين ان بعضها الآخر ينتمي الى العصر الحجري المتأخر. ولا يوجد أي عنصر طبقي يسمح بان نعدها صناعة ما قبل اشولية (١٦). فلا يمكن لنا أن نتأكد من أقدمية الحصاة المهيأة الا اذا كان ضبط تأريخها يرجع الى اكتشافها في بيئتها، أي في مناجم يمكن بدورها أن تؤرخ تأريخا نسبيا أو مطلقا. ان علم الاحاثة يسمح بضبط تأريخ نسبي لمناجم يايو التي وجدها الإنسان التشادي على أنه لم يعثر فيها مع الأسف، على أية أداة. و يبدو من المعلومات التي وفرتها عظام فرس البحر (ايماغونكولا) المنقرض حاليا والتي استخرجت من بئر في بورنو (Bornoo) (١٧) يبلغ عمقه ٥٨ مترا أنه من المحتمل ان رواسب حوض التشاد تحتوي على آثار احاثيه وكذلك أثر ية من بداية البليستوسين، الا أن هذه الآثار تقع الآن تحت طبقة كثيفة جدا من الطمي أحدث منها.

التغيرات المناخية

حدثت في أوربا خلال الدهر الرابع مراحل جمودية عديدة وقد سميت المراحل الأربع الرئيسية منها بأنهار ألمانيا. ونحن نعرف الآن أنه رغم وجود نسق وخصائص صالحة بصفة عامة بالنسبة الى الظواهر الجمودية، يجب مع ذلك أن نأخذ بعين الإعتبار عددا من المتغيرات المحلية. فكان من نتيجة ذلك أن استعملت أسماء محلية بالنسبة الى كل منطقة. و يبدو أن النتيجة هي أكثر قربا من الواقع (١٨) رغم أنها أكثر تعقيدا.

ولقد كان كذلك الشأن بالنسبة الى إفريقيا حين قام الباحثون الأوائل، اعتمادا على آثار الشطوط البحيرية المرتفعة إثر مراحل الإجتراف وتجمع الحصى الكبيرة، قاموا باكتشاف الآثار الخاصة بفترات الدهر الرابع التي كان خلالها المناخ الافريقي أكثر رطوبة من يومنا هذا. ان هذه الحقبات التي تتصف بغزارة أمطارها سميت «ممطارات». ولما تم قبول مفهوم المراحل الجمودية بالنسبة الى المناطق الشمالية المعتدلة فمن الطبيعي أن توجد مرحلة ممطارية تقابل، في الجو المداري الحار، المراحل الجمودية في أوربا وأمريكا الشمالية (١٩). فبمرور الزمن أصبح مفهوم ثلاث مراحل ممطارية افريقية ثم أربع مراحل سنة متبعة (٢٠). وهناك افتراض بأنها كانت توافق جموديات العهد الجمودي الأوربي (٢١) مع أنه اقترحت نظرية جديدة تفيد أن مرحلة ممطار افريقية واحدة تقابل تجمدين شماليين اثنين (٢٢). ان تقديم اقتراحات هي على ما هي عليه من اختلاف

---

(١٦) موني، ١٩٦٨، ص ١٢٨٣-١؛ بر باي وديكامب، ١٩٦٩.
(١٧) تتام، ١٩٤٤، ص ٣٩.
(١٨) فلنت ١٩٧١، سبرك، وواست، ١٩٧٢.
(١٩) وايلند ١٩٣٤، ١٩٥٢.
(٢٠) ل. س. ب لايكي ١٩٥٠، ل. س. ب لايكي ١٩٥٢، قرار ١٤ (٣) ص ٧. كلارك ١٩٥٧ ص ٣١، قرار ٢.
(٢١) تلسن، ١٩٥٢.
(٢٢) سمبسن، ١٩٥٧.

يدل على استحالة اقرار توافق تاريخي دقيق. ومن المؤكد أن لا نقر بالنسبة للمسافات الطويلة التوافقات الجيوليوجية تبعا للمناخات، بل حسب التشكلات الصخرية. و بالاضافة الى ذلك فان آثار المراحل الممطرة التي هي أقل وضوحا بكثير من آثار التجمدات قد تسببت في كثير من اللبس (٢٣). وبمرور الزمن أعيد النظر من جديد في فرضية مراحل المطارات الأربعة (٢٤).

ان افريقيا الغربية لم تسلم هي أيضا من طريقة القياس، لأن بعض العلماء أخذوا يستعملون النتائج المتحصل عليها في مناطق أخرى من القارة لاعطاء مدلول المعطيات كانت ستبقى معزولة أو صعبة التأويل (٢٥) الا أنه طرأ حديثا عاملان مكنا من تحسين المقاربة العلمية فيما يتعلق بافريقيا الغربية: يتمثل أولهما في بحث أكثر عمقا في هذا الموضوع (٢٦) وثانيهما في ظهور نظرية جديدة في التنوعات المناخية في افريقيا (٢٧).

وفيما يخص هذه التقلبات المناخية فان افريقيا الغربية لا توفر أية معلومات جيولوجية أو جيومورفولوجية جديرة بالثقة تنتمي الى ما قبل المرحلة التجمدية الأخيرة في أوربا. ان دراسة بحيرة التشاد تبرز وجود مستويات عالية ابتداء من ـ ٤٠٠٠٠ سنة (٢٨). ان هذا المستوى العالي تحدده قة باما التي يقوم عليها ميدوغوري والذي هو في هذا الموضع يتمحور شماليا غربيا وجنوبيا شرقيا، ثم يتسع الطرفان نحو الشمال الشرقي مطوقين لارجو وغور بوديلي بأكمله، وبحر الغزال. ان تشكل هذه القمة، التي تعتبر حاجزا بحيريا أكثر مما تعتبر الخط الحقيقي لضفة، يمكن أن يكون قد دام ٦٠٠٠ سنة (٢٩). ان البحيرة القديمة كانت تقع فوق مستوى سطح البحر بـ ٣٣٢م، في حين ان الإرتفاع الحالي للتشاد هو ٢٨٠م. وكان يحدث أن يفيض في مصب البنغور وأن يصرف مياهه في البينوي و يبدو اذن أنه خلال هذه الفترة الأكثر رطوبة كانت غابة افريقيا الغربية قد امتدت امتدادا محسوسا الى الشمال أكثر مما هي عليه اليوم. على أنه يستحيل أن نؤكد ان كانت قد بلغت الدرجة ١١٠ من خطوط العرض الشمالية (٣٠) أو خط التماطر بمقدار ٧٥٠مم الحالي (٣١) ما دامت البلنولوجيا لم تؤكد لنا ذلك.

و يبدو ان افريقيا الغربية كانت أكثر جفافا مما هي عليه الآن وذلك تقريباً في النهاية الأخيرة من التجمد الأخير في أوربا الغربية، ذلك التجمد الذي تقع بدايته في حدود ـ ٢٠٠٠٠ سنة. وقد كانت أنهار تلك المنطقة في ذلك العهد تصب مياهها في محيط ينخفض بـ ١٠٠م عن مستواه الحالي وذلك نتيجة لكمية المياه الضخمة التي كانت محصورة في القبعات الجمودية في القطبين، ذلك فان البينوي قد حفر مجراه في ماكوردي، في حين كان المجرى الأثري لنهر النيجر يوجد في جبة

(٢٣) كلارك، ١٩٥٧ص ٣١، قرار ٤، بوتزر، ١٩٧١ ص ٣١٢ — ٣١٥.
(٢٤) فلنت، ١٩٥٩.
(٢٥) بند، ١٩٥٦، ص ١٩٧ ـ ٢٠٠، ب. ا. ب. فاتح، ١٩٥٩ص ٢٩١، دافيس، ١٩٦٤، ص ٩ — ١٢ بياس ١٩٦٧.
(٢٦) الجمعية السنغالية لدراسة الدهر الرابع، ١٩٦٦، ١٩٦٧، ١٩٦٩، بورك، وآل، ١٩٧١، بوتزر ١٩٧٢ ص ٣١٢ — ٣٥١.
(٢٧) زنديرن باكر أ. م. فان، ١٩٦٧.
(٢٨) . سرفنت وآل، ١٩٦٩، غروف ووارن، ١٩٦٨، بورك وآل، ١٩٧١.
(٢٩) غروف، و بولون، ١٩٦٤.
(٣٠) دافيس، ١٩٦٤.
(٣١) دافيس، ١٩٦٠.

(Djbba) تحت ٢٥م من مستوى سطح البحر وهو يزداد غوصا في أونيتشا (٣٢) ولقد كان نهر السنغال يسيل في مجرى دون مستواه الحالي بكثير، وتوجد كثبان كبيرة من الرمل تسد مصبه، وكذا الأمر أيضا بالنسبة للمجرى المتوسط لنهر النيجر. ان نهر التشاد كان زمنئذ جافا وتكونت كثبان رملية في قاع البحيرة وفي عدد من المناطق بنجيريا الشمالية وذلك ما يشير الى أمطار سنوية تقل عن ١٥٠مم، في حين أنها في أيامنا هذه تتجاوز ٨٥٠مم. و بالرغم من انعدام تواريخ قاطعة، الا لبعض ترسبات مصب نهر السنغال والمناطق المجاورة لبحيرة التشاد فان كل الأدلة الأخرى تتضافر على تأكيد فترة جافة بصفة عامة وذلك في حدود ـ١٨٠٠٠ سنة. ولئن كانت كثبان الرمال قد تكونت في خط عرض كانو، فان السباسب والمنطقة الغابية قد انحسرت بعيدا نحو الجنوب. ويحتمل أن تكون الغابة كلها تقريبا قد اضمحلت باستثناء بقايا غابات في مناطق هي أغزر أمطارا مثل سواحل ليبيريا وجانب من ساحل العاج ودلتا النيجر وجبال الكمرون.

ويبدو أن الظروف الطبيعية قد تطورت في حوالي ـ١٠٠٠٠ سنة نحو رطوبة أقوى. فنهر النيجر عند مروره في بلاد مالي يفيض فوق عتبة الطاوسا، والتشاد الكبير كما كان يسمى (٣٣)، يغطي من جديد مساحة شاسعة. وقد تلونت بصبغة حمراء الكثبان الرملية التي تكونت خلال الفترة الجافة السابقة وذلك اثر وجود فصول سنوية أكثر رطوبة. لقد وجدت آثار فحم خشبي مبعثرة في أيغبو-أوكوو، و يرجع تاريخها الى ١١٠٠٠ أو ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد تكون دليلا على نيران ادغال، وعلى تواصل الحياة في ذلك العهد و بتلك المنطقة، لمجموعة نباتية من النوع السبسي (٣٤). ويحتمل جدا أن تكون الغابة خلال ذلك العهد قد تقدمت من جديد شمالا انطلاقا من مناطق انحسارها في الساحل، حيث ظلت قائمة خلال الفترة الجافة السابقة. ان النظرية التي تسمح بالربط بين الأحداث المناخية لنهاية الدهر الرابع في افريقيا الغربية، و بين الأحداث المناخية في أوربا الشمالية، هي نظرية ترتكز على حجج عديدة قوامها الخاصية العامة لتغيرات درجة الحرارة في العالم كله، فلقد تسببت في انزلاق المناطق المناخية من كلا جانبي خط الاستواء، وهو انزلاق حدد صورته شكل الكتل الكبيرة البرية والمحيطية (٣٥). فكلما انخفضت درجات الحرارة العالمية نتج عن ذلك في خطوط العرض الشمالية تجمد يدفع نحو الجنوب الاعصار المعاكس القطبي، أما المناطق المناخية الواقعة خارج ذلك النطاق، فيقع عليها ضغط نحو خط الاستواء، بحيث أن الجبهة المدارية الشمالية تتحول الى جنوب موقعها الحالي. ونتيجة لذلك كانت رياح الشمال الشرقي الجافة تهب بقوة ولمدة طويلة، ومن طرف افريقيا الغربية الى طرفها الآخر، بينما كانت الرياح الممطرة الجنوبية الغربية المسماة بالرياح الموسمية تعصف ضعيفة وعلى مسافة قصيرة، وذلك خلال الفصل الرطب، وهو ما يفسر التطابق التقريبي بين فترة جافة في افريقيا الغربية و بين فترة جمودية شمالية. ولقد كان شمال الصحراء في الوقت نفسه أكثر رطوبة مما هو عليه اليوم لأن مسار أعاصير المحيط الأطلسي كان يؤدي الى جنوب الأطلس , بدل أن يمر على شمال تلك السلسلة الجبلية.

---

(٣٢) فوت، ١٩٦٢، وفور، وايلوار، ١٩٦٧.
(٣٣) مورو، ١٩٦٣، سرفنت وآل، ١٩٦٩.
(٣٤) شوي، ١٩٧٠، ص٥٨ — ٩١.
(٣٥) باكر، ١٩٦٧.

ولما ارتفعت درجة الحرارة في العالم انحسرت القبعات الجمودية شمالا ووقع الأمر نفسه بالنسبة للجبهة المدارية واستقرت مستويات البحار في ارتفاعها الحالي وأصبحت صحراء الشمال أكثر جفافا إثر تنقل مسار أعاصير المحيط الأطلسي نحو الشمال. الا أن المدخرات المائية والنباتية كانت كافية لتأخير موعد جفافها النهائي الى تاريخ أبعد من -٣٠٠٠ سنة. ولما أصبح هذا الجفاف على هذه الدرجة بحيث لم يعد في امكان السكان أن يواصلوا الحياة في الصحراء حصلت بطبيعة الحال انعكاسات على المناطق الواقعة في الجنوب.

العصر الحجري

ان مصطلحات «عصر حجري قديم» و«عصر حجري قديم لاحق» و«عصر حجري حديث» مازالت مستعملة في افريقيا الشمالية. وبالمقابل لذلك فان علماء آثار افريقيا لجنوب الصحراء قد رأوا منذ مدة طويلة انه من الأفضل استعمال اصطلاح خاص بهم ومرتكز على واقع القارة، لا على نظام أوربي مفروض من الخارج. ان هذا الاصطلاح صودق عليه رسميا في المؤتمر الافريقي الثالث لما قبل التاريخ، وذلك منذ ٢٠ سنة تقريبا. لذلك فاننا سنستعمل مصطلحات «العصر الحجري المبكر» و«العصر الحجري الوسيط» و«العصر الحجري المتأخر» (٣٦). ان الحدود لتقسيمات العصر الحجري هذه تختلف قليلا من منطقة الى أخرى. ويمكننا بصورة تقريبية جدا أن نضبط العصر الحجري المبكر من -٢٥٠٠٠٠٠ الى -٥٠٠٠٠ سنة، والعصر الحجري الوسيط من -٥٠٠٠٠ الى -١٥٠٠٠ سنة، والعصر الحجري المتأخر من -١٥٠٠٠ الى -٥٠٠ سنة. ان توفر المعلومات الجديدة قد فرض على التقسيمات والتأريخات البسيطة جدا ان تتحور وأن تستدعي تقديما أكثر شمولا (٣٧). وقد أصبح استعمال مصطلح «عصر حجري حديث» عرضة للنقد وذلك عندما يطبق على واقع افريقيا جنوب الصحراء، لأن هذا المصطلح هو في الحقيقة مصطلح غامض اذ اننا لا نعرف بالضبط ان كان يشير الى حقبة أو الى تكنولوجيا أو الى نمط اقتصادي أو الى هذه الأمور الثلاثة مجتمعة.

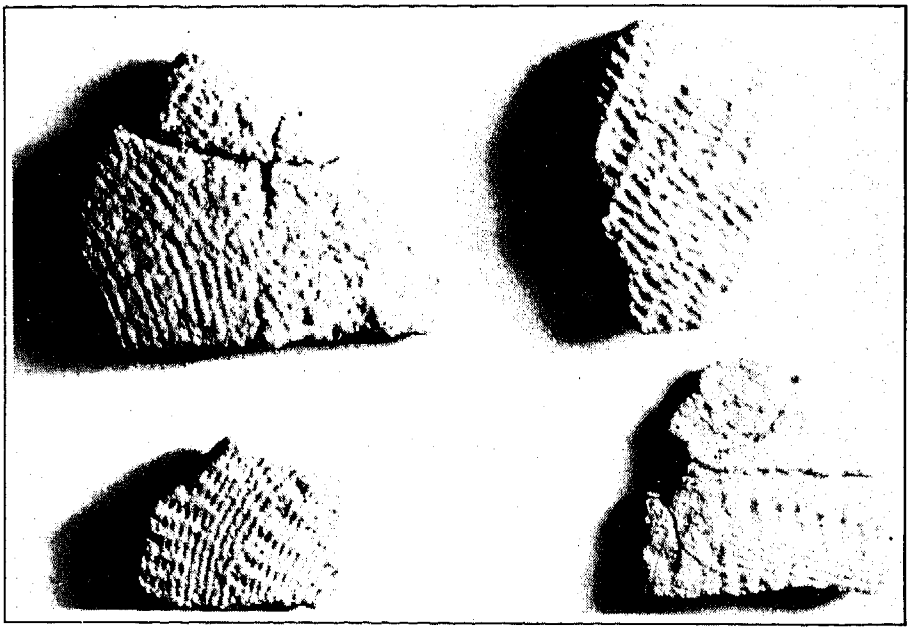
العصر الحجري المبكر في افريقيا الغربية

الأشولي

تركت مجموعة الصناعات الأولدوائية مكانها في افريقيا الشرقية والجنوبية والشمالية الغربية للمركب الذي يعرف باسم الأشولي والذي يتميز بذوات الوجهين. انها أدوات ذات شكل بيضوي أو بيضوي مذبب قد نحت حدها على كامل محيطها ومن الوجهين بكامل الدقة. والقدوم نموذج آخر متميز، وله حد مستقيم بالعرض. وبالرغم من أن نصف المواد الغذائية على الأقل كان متعلقا بالنساء والأطفال الذين كانوا يجمعون العنبيات والحبوب والجذور، فان الرجال كانوا يتجمعون وينسقون مجهوداتهم لصيد الحيوانات الكبيرة. وقد عرفت النار في افريقيا منذ نهاية الحقبة الأشولية.

(٣٦) كلارك، ١٩٥٧، قرار ٦.

(٣٧) بيشوب وكلارك، ١٩٦٧ ص ٦٨٧ — ٨٩٩؛ شوو، ١٩٦٧، ص ٩ — ٤٣؛ فوجل و بومان، ١٩٧٢.





● ١) خزف (شقفات مزخرفة) من رأس مانويل في السنغال، متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).

● ٢) أداة صقل أو تنعيم من العظم عثر عليها في موقع العصر الحجري الحديث في رأس مانويل بالسنغال، متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).

وكان نوع الإنسان المتسبب في صنع الأدوات الأشولية حيثما وجدت هو الإنسان المستقيم الذي تقل مقدرة دماغه عن مقدرة دماغ الإنسان المعاصر بشكل محسوس، الى أنه من زوايا أخرى، قريب من هذا الأخير من حيث التركيب البدني.

ان النماذج ذات الوجهين التي تعتبر عادة قديمة (والتي كانت تسمى «شولية») لم يبق لها أثر في الصحراء. على أنه أشير الى وجودها في السنغال (٣٨) وفي جمهورية غينيا (٣٩) وفي مور يتانيا.(٤٠) وفي غانا حيث وجدت ضمن الطبقات ملفوفة في طمي المسطحة المتوسطة (٤١) بقطع النظر عن دلالة هذه الوضعية من حيث الترتيب الزمني النسبي. وقد كان مجال توزعها موضوع (٤٢) خرائط يستفاد منها أن المنطقة عامرة ابتداء من نهر النيجر على طول سلسلة جبال الأتاكورا وروابي الطوغو.

ان المراحل الأخيرة للأشولي المتميزة بأدوات ذات وجهين منحوتة بالقارع اللين (من الخشب أو العظام) وافرة في الصحراء شمال خط العرض السادس عشر. ولعله من المناسب أن نربط هذا التوزع بالفترة الجمودية الأوربية قبل الأخيرة (ريس)، أو لعله يمكن ربطه أيضا بالأول الأقصى للتجمد الأخير (وورم). و يبدو أن الأمطار كانت في ذلك العهد أكثر غزارة في شمال الصحراء في حين يبدو أنه لم يكن للمنطقة الصحراوية، اذا انتقلنا الى الجنوب، الا جاذبية قليلة بالنسبة الى الصيادين القاطفين. على أنه يبدو أن الأراضي المرتفعة لهضبة جوس قد شذت عن القاعدة. ويحتمل ان المناخ كان في ذلك المكان أقل جفافا وأنه ساعد على وجود مروج شاسعة تتخللها غابات، وهو ما كان يبحث عنه الإنسان الأشولي. فكان ذلك النجد اذن بمثابة منطقة شامخة من الأراضي القابلة للسكن الممتدة الى جنوب العاير والمنطقة الأشولية من الصحراء (شمال خط العرض ١٦). وقد أرخت بعض المواد المتصلة بالأدوات الأشولية والتي وجدت في الحصباء القاعدية التي تملأ مجاري السيول المحفورة خلال الفترة الجافة السابقة، أرخت بواسطة الفحم ١٤ باعتبارها منتمية الى عهد سابق لـ ٣٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر (٤٣).

وعندما سكن الإنسان الأشولي هضبة جوس يحتمل أن مرتفعات فوطا جلون كانت ملائمة هي أيضا لاقامة الإنسان بها. وقد اكتشف عدد من الأدوات الأشولية في تلك المنطقة (٤٤) ونجد كذلك آثارا تنتمي الى العصر الأشولي المتوسط والأعلى، مبعثرة حوالي نهر السنغال الأعلى وفي شمال هذا النهر الذي يمكن أن يعتبر همزة وصل بين منطقة فوطا جلون والمواقع المتكاثرة في مور يتانيا.

ان آثارا أشولية قد عثر عليها في جنوب شرقي غانا وعلى طول سلسلة روابي الطوغو والأتاكورا، وهي آثار توحي بامكانية تسرب (٤٥) الإنسان من شمال هذه المنطقة التي لا بد أنها كانت توفر

(٣٨) كرباي، ١٩٥١.
(٣٩) كريتش، ١٩٥١.
(٤٠) موني، ١٩٥٥ ص ٤٦١ — ٤٧٩.
(٤١) دفيس، ١٩٦٤ ص ٨٦ — ٩١.
(٤٢) دفيس، ١٩٥٩.
(٤٣) برندسن وآل، ١٩٦٥.
(٤٤) كلارك، ١٩٦٧ — الأطلس.
(٤٥) دفيس، ١٩٦٤. كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

محيطا ملائما لسكن الإنسان. و يبدو أن التسرب لم يكن قويا جدا ولم يكتشف أي أثر أشولي في طبقات أرض المنطقة، وكثيرا ما يعسر أن نصنف نهائيا و باعتبارها أشولية مجموعات ضحلة أو عينات نادرة ما دامت أشكال عديدة تتداخل أو تلتبس بأشكال الصناعة السنغونية (٤٦) التي تعتبر أكثر حداثة.

السنغون

ان مجموعة الصناعات السنغونية صعبة التحديد (٤٧). ولقد شك حتى في وجودها في افريقيا الغربية (٤٨) فقد ظهر الى الوجود مركب صناعي جديد مواليا في الزمن للأشولي ومحتفظا ببعض القطع من مجموعة أدواته مثل المنقر وذي الوجهين، وقد اختفى القدوم وندرت أشباه الأشكال الكروية بينما عادت الاولوية للمناقر ذات الهيئة الثقيلة والكثيفة. ونجد كذلك سواطير نحتت غالبا من الحصاة.

ان توزع العناصر السنغونية هو في افريقيا الغربية أكثر وقوعا جهة الجنوب من توزع العناصر الأشولية (٤٩)، وهذا يدل على أنماط جديدة من الإستقرار. إن صناعة «كاب مانيال التي عثر عليها في داكار، اعتبرت في بداية الأمر صناعة منتمية الى العصر الحجري الجديد (٥٠)، الا أنها تعتبر اليوم صناعة سنغونية (٥١) أو لعلها احدى مخلفاتها المتأخرة. ويمكن أن نقول مثل ذلك بالنسبة الى عدد من العناصر التي جمعت في باماكو (٥٢). وفي نيجيريا تقع الآثار السنغونية في قسم من هذا البلد يمتد جنوب هضبه جوس شمال الغابة المدارية الكثيفة، وهي توجد على طول الأودية النهرية وفي الحصى على ارتفاع يتراوح بين ١٠ و ٢٠م، فوق المستوى الحالي للنهر (٥٣). ونجد وادي نهر النيجر قريبا من بوسا صناعة تتمثل خاصة في حصاة مهيأة، لكن لا أثر فيها للمناقر، ورغم ذلك فقد اعتبرت هذه الصناعة معاصرة للسنغونية وذلك لأسباب جيولوجية (٥٤) وقد اكتشفت مجموعة الأدوات السنغونية مبعثرة عند أسفل سلسلة جبال أتاكورا ــ الطوغو، وفي جنوب غانا (٥٥) وتلك الصناعات نادرة في شمال غانا لكنها وافرة نسبيا في جنوبها.

وفي غير هذه الأمكنة من افريقيا (٥٦) نسبت الى السنغونية تواريخ ترجع الى ٥٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ومن الملاحظ أن المركب الصناعي السنغوني يمكن أن يدل على الحاجة الى التأقلم مع منطقة أكثر اشجارا وذلك في فترة أصبحت أكثر جفافا (٥٧). ان الصناعة السنغونية في افريقيا

(٤٦) دفيس، ١٩٦٤ ص ٨٣ ــ ٩٧، ١١٤ ــ ١٣٧ ــ ١٣٩.
(٤٧) كلارك، ١٩٧١.
(٤٨) واي ــ أوغوسو، ١٩٧٣.
(٤٩) كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.
(٥٠) كرباي وآل، ١٩٤٨، ص ٤١٣.
(٥١) دفيس، ١٩٦٤، ص ١١٥، هوغو، ١٩٦٤ ص ٥.
(٥٢) دفيس، ١٩٦٤، ص ١١٣ ــ ١١٤.
(٥٣) دفيس، ١٩٦٤، ص ١١٣ ــ ١١٤، سوبر ١٩٦٥ ص ١٨٤ ــ ١٨٦.
(٥٤) سوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٦ ــ ١٨٨.
(٥٥) دفيس، ١٩٦٤، ص ٩٨ ــ ١٠٠.
(٥٦) كلارك، ١٩٧٠، ص ٢٥٠.
(٥٧) كلارك، ١٩٦٤، ص ٢٣، ١٣٧ ــ ١٤٢.

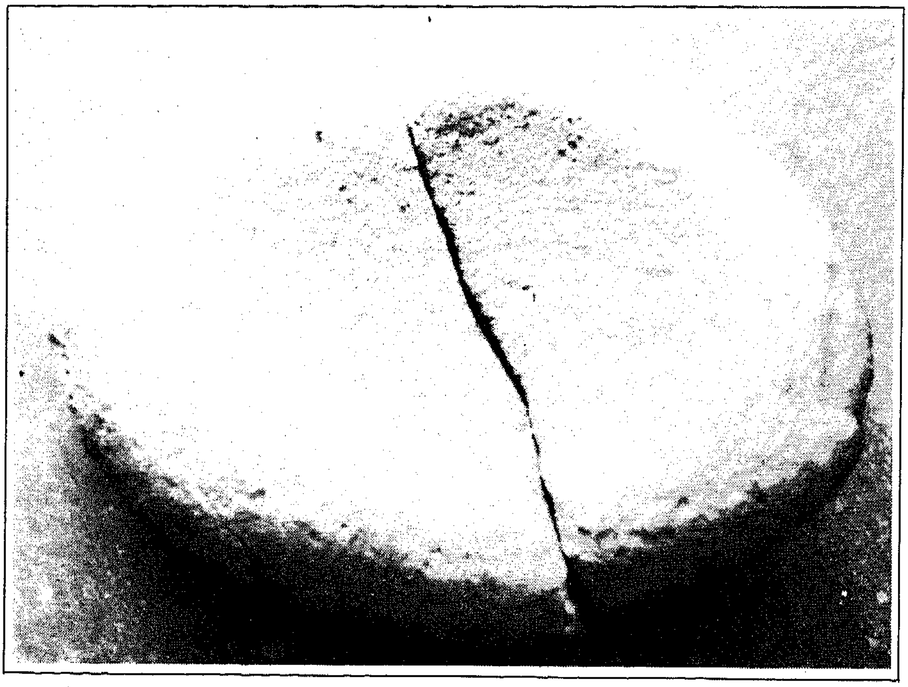
الغربية لم تؤرخ البته بحسب الكربون ١٤. وان المواد السنغونية الموجودة بنفق خط السكة الحديدية في أسوكروكونا في غانا الجنوبية هي في مجموعها، سابقة لبيتش ٤، (Beach 4) من تصنيف دفيس الذي يعتبره هو نفسه مقابلا على الأقل لما بين مراحل غوتفاخ (Gottweig) (٥٨) وهي وضعية طبقية لا تزودنا بشيء بعد ذلك التاريخ المنتظر. واذا كانت الحصباء الواقعة على ارتفاع يتراوح بين ١٠ و٢٠م، من النيجر قد رسبت، قريبا من جبة عندما ناسب مجرى النهر مستوى البحر العالي لـ «أو بوانشير يان» (٥٩) فان وجود أدوات سنغونية غير مدحرجة يشير الى تاريخ قريب من ٣٠٠٠٠ سنة، في حين أن العينات المدحرجة يمكن أن تكون معاصرة لها أو هي أكثر قدما منها. وقد يدل التوزع الجنوبي للسنغون في وسط غابي وعلى طول الأنهار، على نمط من الحياة هو بمثابة رد فعل على الجفاف الذي حصل منذ -٤٠٠٠٠ سنة. وقد بدأت بحيرة التشاد، بعد ذلك تمتلىء وتتسع ومن المحتمل أن تكون الحيوانات التي كانت تصطاد من قبل قد أصبحت أكثر ندرة وذلك بالتجائها الى الجنوب، وأن يكون تجدد صنع المناقر قد استجاب لحاجة الإنسان الى قلع الجذور والعساقل أو الى حفر الخنادق ليصطاد الحيوانات التى أصبح صيدها عسيرا.

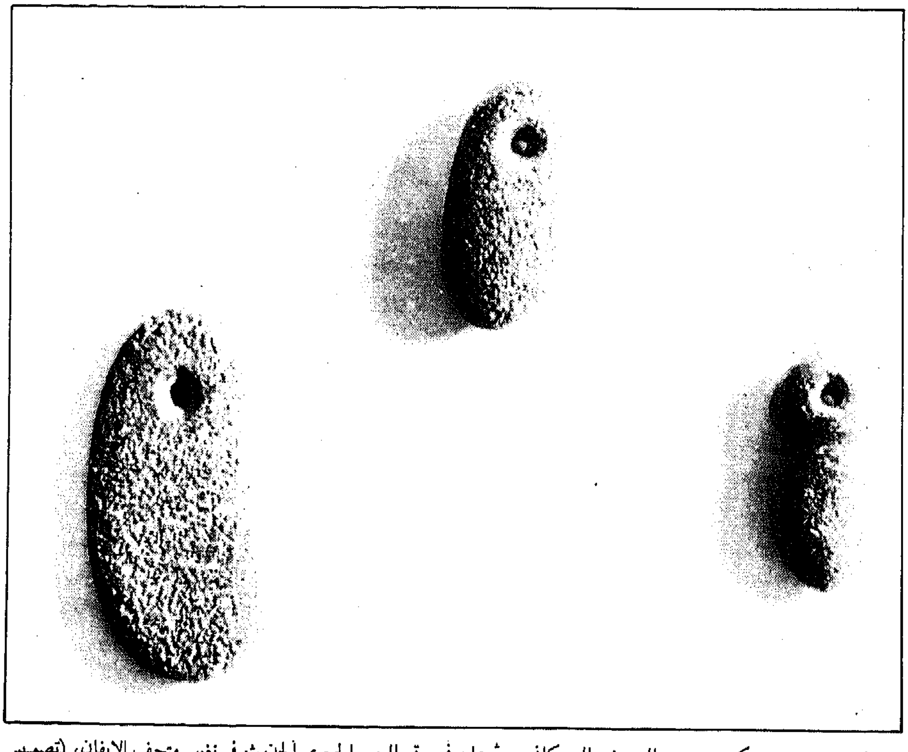
العصر الحجري الوسيط في افريقيا الغربية

ان مصطلح «العصر الحجري الوسيط» يطلق للدلالة على مجموعة من المركبات الصناعية الممتدة تقريبا بين -٣٥٠٠٠ و-١٥٠٠٠ سنة.

فالصناعات المنتمية الى العصر الحجري الوسيط في افريقيا الغربية معروفة معرفة ناقصة عما هي عليه في بقية افريقيا الواقعة جنوب الصحراء. ولقد اكتشف عدد من العينات النادرة من نوع اللومبي في غانا (٦٠) وفي نيجيريا (٦١)، الا أنه لم يوفر أحد منها توضيحات طبقية مرضية عن عمرها. واكتشفت على هضبة جوس وشمالها بأعلى روابي ليروس مجموعات هامة من الآلات تتميز بـ «أعقابها ذوات الوجوه» صنفت على أنها من العصر الحجري الوسيط (٦٢). وهي موجودة في نوك ضمن الطبقات بين الحصباء القاعدية المشتملة على أدوات أشولية و بين الترسبات الأكثر حداثة التي تحوي عناصر من ثقافة نوك (٦٣) وليست لها علاقة بالمركب الصناعي اللومبي بل هي قريبة من صناعات العصر الحجري القديم الوسيط بافريقيا الشمالية، من النوع الشبيه بالموستيري عموما، وقد تعكس نمطا من العيش أكثر تأقلما مع السباسب. وهناك اشارة الى صناعات مشابهة في غانا وفي ساحل العاج (٦٤) وفي داكار (٦٥) وفي الصحراء الوسطى (٦٦) ولقد وفرت قطعة خشب وجدت

(٥٨) دفيس، ١٩٦٤، ص ٢٣، ١٣٧ — ١٤٢.
(٥٩) فور والوار، ١٩٦٧.
(٦٠) دفيس، ١٩٦٤، ص ١٠٨ — ١١٣.
(٦١) لقد اكتشفها بالسطح بمنطقة أفيكبو الاستاذ د. د. برتل وهي من مجموعات جامعة نيجيريا في نسوكا.
(٦٢) أسوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٨ — ١٩٠.
(٦٣) ب. أ. ب. فاغ ١٩٥٦ — الندوة العالمية الثالثة لغربي افريقيا، ص ٢١١ — ٢١٤.
(٦٤) دفس، ١٩٦٤، ص ١٢٤ — ١٤٢، كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.
(٦٥) كربای، وآل، ١٩٤٨، كربای، ١٩٥١، ريشار، ١٩٥٥.
(٦٦) كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.





● ١) حجر رحى مكسور، من الصخر البركاني، عثر عليه في موقع العصر الحجري الحديث في نغور. متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).

● ٢) دلآيات تعلّق في العنق من حجر البازلت، عثر عليها في موقع الحجري الحديث في «بات دوا». متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).

في منجم زنبي في شمال نيجيريا، وهو أحد المواقع الغرينية المحتوية على آثار شبه موستيرية تأريخا يقدر بـ٣٤٨٥ ± ١١٠ سنة قبل الميلاد. على أن الوضعية الدقيقة لقطعة الخشب تلك بالنسبة للأدوات الحجرية لم تضبط ضبطا دقيقا، ويعتبر تأريخها أكثر حداثة بقليل مما ينتظر من صناعة من هذا النوع (٦٧).

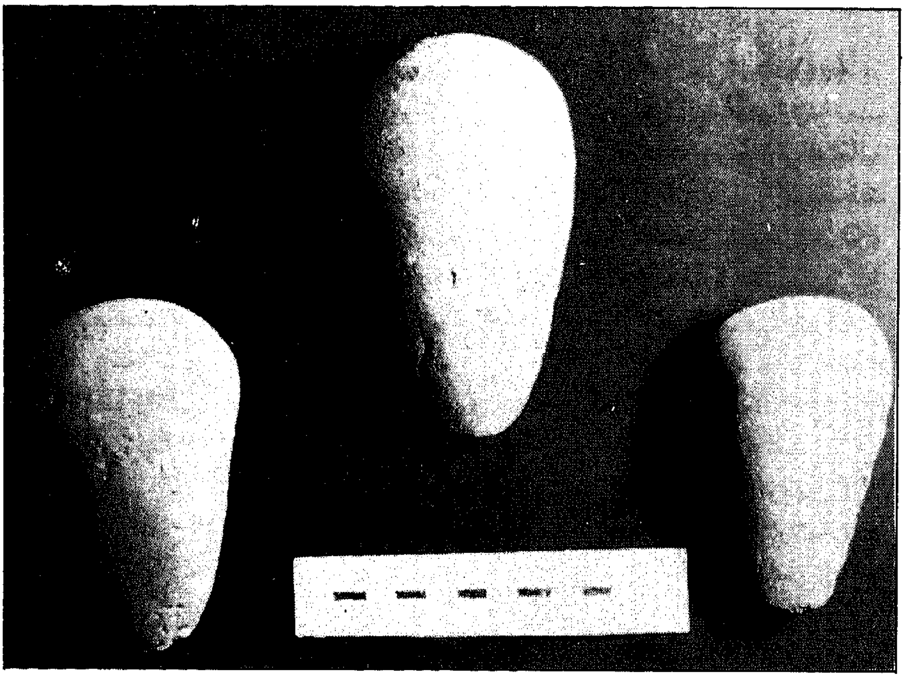
وفي تيمصاص قريبا من ساحل السنغال، أظهرت حفريات أثرية، من بين ما أظهرت حدودا ذات وجهين مدمجة بأدوات من نوع أدوات «العصر الحجري القديم المتوسط والأعلى». وقد اعتبرت في البداية على أنها تشكل مزيجا من عناصر تنتسب الى العصر الحجري الحديث ومن عناصر أكثر قدما (٦٨). على أن دراسة أكثر دقة أظهرت أن تلك الحدود ذات الوجهين تشكل جزءا لا يتجزء من صناعة موجودة في الطبقات الجيولوجية لا تشتمل على عناصر أخرى من العصر الحجري الجديد ولذلك اعتبرت تلك الصناعة مثالا للصناعة شبه الموستيرية المتميزة بعناصرها المحلية والتي تعوض في هذا المكان العاطري الذي يوجد نحو الشمال (٦٩). ان هذا المركب الصناعي ينتمي الى نهاية العصر الحجري القديم المتوسط في الجزائر، وهو يمتد نحو الجنوب في الصحراء. وقد رأى فيه «دفيس» في افريقيا الغربية امتدادا يسميه «العاطري الغيني» (٧٠)، الا أن حججه ليست مقنعة، وقد أصبحت موضع شك عند أغلب الباحثين (٧١).

العصر الحجري المتأخر

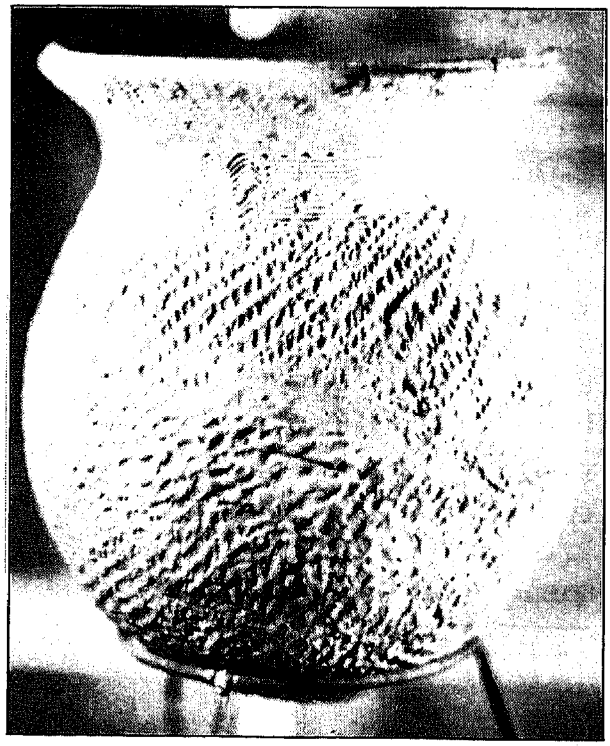
ان العصر الحجري المتأخر يتميز في كامل افريقيا تقريبا ببروز أدوات حجرية صغيرة جد سميت بسبب ذلك «الحجارة الصغيرة». انها عبارة عن أشياء صغيرة نحتت بعناية لتنشب في قصبة سهام تشكل جزءها الحاد والشائك أو لتجمع على أداة أخرى متعددة العناصر وهي تبين أن أصحابها كانوا يملكون القوس وأن الصيد به كان يلعب دورا مهما في اقتصادهم.

اننا في هذا الصدد نتحرج من استعمال «عصر حجري جديد» ومن غموض دلالته ولذا يستحسن بالنسبة الى افريقيا أن نتجنب استعماله كلما أمكننا ذلك لا سيما فيما يتعلق بافريقيا جنوب الصحراء (٧٢). الا أنه يجب أن نأخذ بعين الإعتبار استمرار هذا الإستعمال في افريقيا الشمالية وفي الصحراء. وفي الصحراء نجد عددا كبيرا من الصناعات سميت مجموعة أدواتها «بالحجرية الجديدة» ويرجع تاريخها في المنطقة الوسطى الى الألف السادسة قبل الميلاد. ان الظروف المناخية كانت أكثر رطوبة مما هي عليه اليوم، فكان ان ظهر نبات من نوع نبات البحر الأبيض المتوسط، وسكان رعاة، بقطع النظر عن أن أولئك الرعاة كانوا كذلك يتعاطون الفلاحة أو

(٦٧) برندسن، وآل، ١٩٦٥.
(٦٨) داغان، ١٩٥٦.
(٦٩) غييو، ودوكان، ١٩٦٩.
(٧٠) دفيس، ١٩٦٤ ص ١١٦ — ١٢٣.
(٧١) هوغو، ١٩٦٦، أعمال المؤتمر الافريقي الخامس.
(٧٢) بيشوب وكلارك، ١٩٦٧ ص ٨٩٨ قرار (ك)، كلارك ١٩٦٧، خلفية التطور بافريقيا. شو، ١٩٦٧ ص ٣٥ قرار ١٣، مونسن ١٩٦٨، ص ١١. والملاحظ ان بعض المؤلفين لا يوافقون على هذا الرأى.



١



٢

● ١) فؤوس مصقولة من حجر الدولريت، من فترة «بل اير»، متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).

● ٢) وعاء فخّاري من دياكيتي، من العصر الحجري الحديث الفترة المسماة «بل اير». متحف ايفان (تصوير أ. دياغني).

لم يكونوا (٧٣). ولقد ثبت وجود الفلاحين في برقة (ليبيا) في سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد (٧٤). الا أنه قد ثبت الآن ان «العصر الحجري الجديد» ذا التقاليد القابسية الذي انتشر كثيرا في الشمال الغربي من افريقيا والذي جاء على أثر زراعات العصر الحجري القديم اللاحق لم تكن له تقاليد فلاحية رغم أنه يمتد الى أبعد من الألف الثانية قبل الميلاد (٧٥). لقد مضى الزمن الذي صنفت فيه اكتشافات في روفيسك بالسنغال ضمن العصر الحجري الجديد ذي التقاليد القابسية (٧٦) لكنه من الأفضل ان نعدها اليوم تمثل قسما من امتداد الحجارة الصغيرة المنتشر في افريقيا الغربية.

ان امتداد هذه الصناعة الحجرية الصغيرة أو (الحجارة الصغيرة الغينية) منتشر أيضا خارج هذه الحفريات القريبة من داكار، في النصف الشرقي من افريقيا الغربية (٧٧) الا أنه في النصف الغربي لا أثر في المواقع الموجودة أكثر نحو الجنوب في منطقة ليبيريا وسييراليوني وجنوب جمهورية غينيا. لقد أنجزت الحفريات الأثرية الأولى في غينيا في عدد من الكهوف والمخابىء تحت الصخور ويعود بعضها الى سبعين سنة مضت (٧٨). ووجدت في بعض المواقع قطع ذات وجهين تذكر بأشكال أقدم من العصر الحجري المتأخر، وقد رأى فيها البعض معازق، وهو ما يعتبر شهادة غير مباشرة على وجود الفلاحة. ان هذا الاحتمال لا يجوز أن يرفض، لأن الرز كان في الماضي يعوض الانيام باعتباره زراعة رئيسية في النصف الغربي من افريقيا الغربية. ان هذا الرز الافريقي (أوريزا غلابريما) قد يكون تأقلم في منطقة دلتا نهر النيجر الأوسط (٧٩). ان بعض القطع العريضة من الصوان ذات المحيط المنحوت نحتا خشنا (٨٠) تعتبر معازق ودليلا على قيام الفلاحة في غانا الا أن التواريخ والمقاربات مفقودة. ان أغلب المواقع في جمهورية غينيا قد وفرت حجارة صغيرة وفؤوسا من الحجار المصقولة وأرحاء وفخارا. وذلك شأن موقع في غينيا بيساو (٨١). ويوجد عدد من المواقع الغنية يشتمل على الفخار رغم أنه لا يظهر في كهف كاكمبون الا في الطبقة العليا (٨٢). وأظهرت الحفريات التي أنجزت في المخبأ الواقع تحت الصخر في بلاندي في الطرف الجنوبي الشرقي من جمهورية غينيا، أظهرت صناعة تشتمل على فؤوس حجرية وقطع فخار مختلطة بأدوات ذات وجهين كبيرة تذكر بمثيلاتها في كهوف كنديا وفوطا جلون، لكنها لا تشتمل على العنصر الحجري الصغير (٨٣). فلا أثر للحجارة الصغيرة أيضا في كهف ينجما في سييراليوني حيث

---

(٧٢) هوغو، ١٩٦٣، ص ١٤٨ — ١٥١، موري، ١٩٦٥، كامبس، ١٩٦٩.
(٧٤) ماك بورني، ١٩٦٧، ص ٢٩٨.
(٧٥) روبي، ١٩٧١.
(٧٦) فوفري، ١٩٤٦، أليمان، ١٩٥٧ ص ٢٢٩ — ٢٣٣، دفيس، ١٩٦٤، ص ٢٣٦.
(٧٧) هوغو، ١٩٥٧، ١٩٦٤، ص ٤ — ٦. شو، ١٩٧١، تاريخ افريقيا الغربية، ص ٦٢.
(٧٨) هامي، ١٩٠٠. غيبهار، ١٩٠٧، ١٩٠٩، ديسبلان، ١٩٠٧، نشرية الجمعية الجغرافية. هيو، ١٩١٢، هوبرت، ١٩٢٢ بروى، ١٩٣١. دلكروا وفوفري، ١٩٣٩. شو ١٩٤٤.
(٧٩) برترن، ١٩٦٢، ص ١٩٧ — ١٩٩.
(٨٠) دفيس، ١٩٦٤، ص ٢٠٣ — ٢٣٠.
(٨١) ماتوس، ١٨٥٢.
(٨٢) هامي، ١٩٠٠.
(٨٣) هولاس، ١٩٥٠، ١٩٥٢، هولاس وموني، ١٩٥٣.

كشف المستوى الأكثر قدما عن صناعة صغيرة من شظايا الصوان قارنها الباحث بصناعة ايشنغو على بحيرة إدوار. (*) في المستوى الأوسط نجد مناقر ومعازق ذات وجهين تشبه قسما من أدوات الكهوف الغينية، قد عدها الباحث مركبا صناعيا لوبمبيا. وأخيرا، وفر المستوى الأعلى فؤوسا من الحجر وفخارا حددت تواريخها بواسطة تأريخين بالإضاءة الحرارية في حوالي سنة ٢٠٠٠ و١٧٥٠ قبل الميلاد (٨٤). ومهما يكن من أمر فان عنصرا حجريا صغيرا قد ظهر في مخبأين تحت صخرين آخرين استكشفا نحو أقصى شمال سييراليوني في ياغالا، وكاما باي. ان التواريخ بالراديو كربون تشير هنا الى مرحلة من العصر الحجري المتأخر تمتد من ـ ٢٥٠٠ سنة الى القرن السابع الميلادي (٨٥).

يبدو اذن ان نوعا من تقاليد العصر الحجري الوسيط (الذي يمكن ان يكون وجد في داكار وباماكو) قد تواصل من غير ان يكون تغير نسبيا في المواقع الواقعة جنوبا، وأنه لم يتبن ولم يخترع تقنية الحجارة الصغيرة. ويحتمل جدا أن تكون أسباب ذلك أسبابا بيئية نظرا الى أن تقنية الحجارة الصغيرة مرتبطة باقتصاد منطقة السباسب، حيث كان للصيد دور أساسي. فاذا ما سجلنا توزع المواقع التي ليس بها حجارة صغيرة (كوناكري ـ ينغاما ـ بلاندي) ورسمنا خطا فاصلا بين تلك المواقع والمواقع التي بها ذلك النوع من الحجارة (كامابي ــ ياغالا ــ كنديا ــ نهاميسيري) فاننا نلاحظ أن هذا الحد قريب جدا من الحد الذي يفصل بين الغابة ومنطقة السباسب. ان التقنيات الجديدة للفؤوس المصقولة وللأدوات الفخارية قد وصلت الى هذه المنطقة فيما بعد. ويضبط تاريخ ظهورها المؤثرات بحوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، وهو ما يوافق الزمن الذي تم فيه جفاف الصحراء. فمن المعقول اذن ان نقرب بين الحدثين وأن نرى في ذلك أثر هجرة السكان خارج الصحراء. وبالرغم من أنه لم يتوفر لنا في هذا الصدد أي أثر عظمي، فمن المحتمل أن يكون أولائك السكان قد أخذوا معهم الماشية، ولعل منها الأصل القديم لسلالة نداما من فوطا جلون التي هي محصنة ضد داء المثقبيات.

ومن الملاحظ في كامل بقية افريقيا الغربية تقريبا ان صناعة الحجارة الصغيرة تسبق تقنيات صنع الفخار وفؤوس الحجارة المصقولة، وهذه الادوات يبدو أنها انضافت الى التقاليد الحجرية الصغيرة ولم تعوضها. وفي كورونكوركال، بالقرب من باماكو، نجد طبقة سفلية ذات حجارة صغيرة وأدوات عظمية خشنة تحت طبقة أخرى ذات حجارة صغيرة أكثر اتقانا. كما نجد فؤوسا من الحجر المصقول وفخارا (٨٦). وان مخابىء روب (٨٧) الواقعة تحت الصخور في نيجيريا على هضبة باوشي، ومخابىء ايووايليرو في المقاطعة الغربية قد كشفت عن مستويات حجارة صغيرة بدون فخار وبدون فؤوس مصقولة تحت طبقات من صناعات حجارة صغيرة. وفي ايوو ايليرو، وفر الراديو كربون تاريخا قدر بـ ٩٢٠٠ سنة قبل الميلاد، وذلك قريبا من قاعدة الطبقة السفلية. ويبدو ان الانتقال الى الطبقة العليا لا يكاد يتجاوز سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد (٨٨). وفي أولدأو يو، في كهف

* هذا ما في المطبوع.

(٨٤) كون، ١٩٦٨.

(٨٥) أثرتن، ١٩٧٢.

(٨٦) زموسكي، ١٩٥٦.

(٨٧) ب. أ. ب فاغ، ١٩٤٤. ايو، ١٩٧٢، مجلة الآثار للغرب الافريقي، روسنفلد ١٩٧٢، فاغ ١٩٧٢.

(٨٨) شو، ١٩٦٩، الاعمال الأولى للمعهد العالمي الافريقي.

ماجيرو، عثر على صناعة للحجارة الصغيرة لا أثر فيها للفخار وكذلك للفؤوس الحجرية المصقولة، الا ان العينة ضئيلة وليست مؤرخة (٨٩). وفي غانا أيضا كشف كهف بوسمبرا، في آبتيفي، عن مجموعة من الفخار وأدوات الحجارة الصغيرة والفؤوس المصقولة، الا أنها ليست مؤرخة (٩٠). و يوجد في غانا، مظهر متخلف من العصر الحجري المتأخر يدعى (ثقافة كينتانبو) فهذه الثقافة التي خلفت مرحلة سابقة متميزة بصناعة الحجارة الصغيرة و بالفخار، قد توفرت فيها الفؤوس المصقولة والأساور الحجرية (تعرف بحسب المواقع «الحجرية الجديدة» الصحراوية)، و يوجد بها أيضا نوع خاص من المهار يس المنحوتة. وتعود المرحلة القديمة (بونبون (Punpun) الى ١٤٠٠ سنة. ولقد وفرت المرحلة الحالية بقريات مؤهلة وماعزا قزما يقرب جنسها من جنس الماعز القزم القصيرة القرن من افريقيا الغربية (٩١). وقد كانت الحجارة الصغيرة موجودة حتى في موريتانيا الجنوبية في المرحلة الأكثر قدما (أكرجيت) من مقطوعة تيشيت وذلك في نفس الوقت الذي وجد فيه الفخار والفؤوس الحجرية، ولكنها اضمحلت في جميع المراحل الموالية (٩٢).

ان الحالة تبدو غير مختلفة كثيرا في المرحلة الأكثر حداثة من العصر الحجري المتأخر، وذلك في الحواشي الجنوبية من منطقتنا من الساحل، مباشرة نحو الجنوب من القفر الصحراوي، هذا مع ملاحظة أنواع من التكيف في الثقافة المادية، بحسب ما تقتضيه البيئة المحلية. وكان السكان الرعاة في كركر يكينشات شمال غاو، بين ٢٠٠٠ و١٥٠٠ سنة قبل الميلاد يعيشون في أماكن تعلو مستوى مجاري الماء الفصلية، وكانوا يعرفون الفخار كما كانت لهم أجهزة حجرية تشمل الفؤوس الحجرية المصقولة والحدود من السهام ذات الوجهين من النوع الصحراوي (لكن قاعدتها ليست محدودبة) (٩٣) ثم بعض الحجارة الصغيرة. و يعتبر صيد الأسماك مساهمة هامة بالنسبة للاقتصاد، مثلما يشهد بذلك كثيرا الجنوب الصحراوي «بالعصر الحجري الجديد الحديث» (٩٤) ونجد بشمال نيجيريا الشرقي في دايما وذلك بعد ألف سنة، حالة مشابهة تقريبا. ويحتمل ان يكون رعاة البقريات قد زرعوا الذرة بالطين الخصب الذي بقي بعد انحسار بحيرة تشاد، وان كانوا قد استعملوا الفخار، والفؤوس المصقولة وصناعة كبيرة من الأشياء العظمية. وكانوا يجهلون صنع الحجارة الصغيرة (٩٥).

و يوجد مقابلة لذلك تأقلم مع محيط بيئوي مخالف تماما وذلك على طول الحاشية الجنوبية من افريقيا الغربية على الساحل الاطلسي. هناك كان سكان العصر الحجري المتأخر يستثمرون الأصداف المتوافرة بالبحيرات الشاطئية ومصبات الانهار سواء لتكون طعمة لصيد الاسماك أو

---

(٨٩) و يليت، ١٩٦٢، أعمال المؤتمر الافريقي الرابع.

(٩٠) شو، ١٩٤٤.

(٩١) دفييس، ١٩٦٢، ١٩٦٤ ص ٢٣٩ — ٢٤٦، ١٩٦٧ غربي افريقيا قبل الأوربيين، ص ٢١٦ — ٢٢٢، فلايت، ١٩٦٨، ١٩٧٠. كارتر وفلايت، ١٩٧٢.

(٩٢) مونسن، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(٩٣) موني، ١٩٥٥ كركر يكينشات، سميث، ١٩٧٤.

(٩٤) مونود وموني، ١٩٥٧.

(٩٥) كونان، ١٩٦٧، ١٩٦٩، ١٩٧١.

للتغذي بها. وكانوا يتركون أكداسا كبيرة من الاصداف. ولقد ثبت بساحل العاج أن تلك الحلزونيات وجدت منذ ١٦٠٠ سنة قبل الميلاد الى القرن السابع عشر الميلادي (٩٦). ولقد اكتشف باحداها بالسنغال فأس منحوت بالعظم. (٩٧) ان المواقع المشابهة التي كانت محل دراسة بمنطقة كازامنس تكون موالية للعصر الحجري (٩٨).

وقد وجد في أفكبو جنوب نيجيريا موقع فيه فخار وفؤوس حجرية مصقولة وصناعة حجرية لا حجارة صغيرة بها. ان التاريخ بالراديو كربون ضبط تلك الصناعة بين ٣٠٠٠ و١٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٩٩) ولقد ميزت أربع مراحل في فرنندوبو في مجموعة من العصر الحجري المتأخر (١٠٠) يتشمل على الفخار والفؤوس الحجرية المصقولة ولا تشتمل على الحجارة الصغيرة. وضبط التاريخ بالراديو كربون بالقرن السادس الميلادي، بالنسبة للمرحلة الأكثر قدما، وذلك مما يجعل تلك المقطوعة متأخرة،ان لم نخطىء في ذلك. و يقترب الشكل المحزم للفؤوس من شكل الفؤوس الآتية من نيجيريا الجنوبية الشرقية (١٠١) ومن الكمرون وجمهورية تشاد (١٠٢).

وختاما يمكن ان يقسم العصر الحجري المتأخر بافريقيا الغربية الى مرحلتين: المرحلة ١ التي تبدأ في ما لا يزيد على ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي تتميز بمظهرين: المظهر (أ)، وهو يحوي الصناعات ذات الحجارة الصغيرة المتصلة بالصيد بالسباسب. والمظهر (ب) الذي ينتمي الى المنطقة الغابية بالطرف الجنوبي الشرقي من افريقيا الغربية، وهو لا يحوي حجارة صغيرة. أما المرحلة ٢ فهي تبدأ بعد ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد بقليل، ويمكن ان نميز بها أربعة مظاهر، وهي المظهر (أ) الذي يضيف الفخار والفوؤس الحجرية المصقولة الى الحجارة الصغيرة في أكبر جزء من السباسب. والمظهر (ب) بالساحل يشمل صيد الاسماك في اقتصاده، ولا يوجد فيه عمليا حجارة صغيرة، الا أنه يحتوي على صناعة عظمية فيها مخاطف وصنارات الخ.. والمظهر (ج) وهو ساحلي، وقد تأقلم اقتصاده مع استثمار موارد البحيرات الشاطئية ومصبات الانهار. والمظهر (د) المتصل بالمحيط الغابي وهو يعرف الفخار، والفاس المصقول، ولا توجد به حجارة صغيرة.

وخلال الألفية الثالثة، لما هاجر رعاة الصحراء لأول مرة نحو الجنوب، حيث اتصلوا بالصيادين صناع الحجارة الصغيرة، كانوا آنذاك قد هاجروا من منطقة وفرت لهم الصوان بكثرة الى منطقة أخرى كان يستحيل فيها صنع هياكل وشوائك السهام الا على المرو أو على كل حجر صعب جدا لكي تنحت منه حدود ذات وجهين، ولذلك استنقصته العين العصرية من حيث الجمال. و يبدو أنهم اتخذوا تقنية الحجارة الصغيرة المحلية لتسليح و«تشويك» سهامهم، معتبرين بما لها من نجاعة.

(٩٦) موني، ١٩٧٣، ألسن، ١٩٧٣.
(٩٧) جوار، ١٩٤٧، موني، ١٩٥٧، ١٩٦١، ص ١٥٦ — ١٦٢.
(٩٨) لنراس دي سبير، ١٩٧١.
(٩٩) هرتل، ١٩٦٦، ١٩٦٨.
(١٠٠) مارتن دي ملينو، ١٩٦٥.
(١٠١) كندي، ١٩٦٠.
(١٠٢) كلارك، ١٩٦٧.

ان الذين بلغوا منهم نترسو في غانا الوسطى، وذلك في النصف الاول من الألفية الثانية، وحافظوا بها على حدود سهامهم ذات الوجهين الخاصة، كانوا يمثلون حالة استثنائية (١٠٣).

ولئن كانت هذه الهجرة للسكان الصحراويين نحو الجنوب تمثل تسرب عنصر جديد الى السكان الأهليين، فانه لم يكن لها حسبما يبدو أثر مباشر على النوع البدني، لأن النوعين من السكان كانوا من لون أسود (١٠٤) فان كان المهاجرون يتكلمون، كما يبدو ذلك ممكنا، لغة ما قبل النيلي الصحراوي فلا يستبعد ان تكون الجماعات الصغيرة قد فقدت لهجاتها الخاصة واستعملت لغة النيجر - كنغو الغالبة محليا. ولم تستطع الا مجموعات أصلية مثل أسلاف سنغاي المحافظة على لغتها الخاصة (١٠٥).

اقتصاد الانتاج

ن الانتقال من الوضع الذي كان فيه الانسان يخضع للصيد وصيد الاسماك وجني العنبيات البرية الى زرع النباتات وتربية الماشية، يعتبر أهم خطوة خطاها أسلافنا في الألفيات العشر الأخيرة. ولم تحدث تلك الثورة في مكان واحد من العالم لتنتشر في كل مكان آخر، بل جدثت بعدد محدود من «المواطن» بأوربا وآسيا الغربية وافريقيا الشمالية الشرقية. وكان أهم موطن بالمنطقة الجبلية من الأناضول، و بايران و بشمال العراق. في تلك الأماكن نمت زراعة القمح والشعير وتأهيل الأغنام، والماعز، والبقر. ثم أدخل فيما بعد الانتاج الغذائي بالأودية النهرية الكبرى مثل دجلة والفرات، والنيل والهندوس، وتحسن بالاعتماد على تصريف المياه والسقي (١٠٦). وأهلت في مصر بالألفية الخامسة، الغنميات والبقريات وكانت الحبوب مزروعة بها (١٠٧). ولنا الآن الحجة على أن الماشية قد أهلت من قبل بالأراضي المرتفعة الصحراوية،وتوجد قرائن - وان كانت ضئيلة - على زراعة الحبوب (١٠٨).وكما يشهد بذلك وادي النيل،فالصعوبة الموجودة لزرع الحبوب بافريقيا جنوب الصحراء، ناشئة عن كون النباتات المزروعة الأكثر قدما مثل القمح والشعير، كانت مرتبطة «بأمطار الشتاء» ولا يمكن لها أن تخصب الا بصعوبة، جنوب الجبهة المدارية، بمنطقة «الامطار الصيفية». ولقد كانت الضرورة تدعو الى تأهيل النجيليات البرية المناسبة بعين المكان ولذلك زرعت الذرات الافريقية. وكان أهم تلك النجيليات الذرة ذات اللونين أو ذرة غينيا التي زرعت في النصف الاول من الألفية الثانية بالمساحة الموجودة بين الصحراء والسباسب و بين النيل وبحيرة تشاد (١٠٩).

---

(١٠٣) دفيس، ١٩٦٦ أعمال المؤتمر الافريقي الخامس، ١٩٦٧ مجلة (أسيكوا) ١٩٦٧ افريقيا الغربية قبل الأوربيين ص ١٦٣، شو ١٩٦٩، الانثروبولوجيا الحديثة ص ٢٢٧ — ٢٢٨.

(١٠٤) شملا، ١٩٦٨، بروثوال وشو، ١٩٧١.

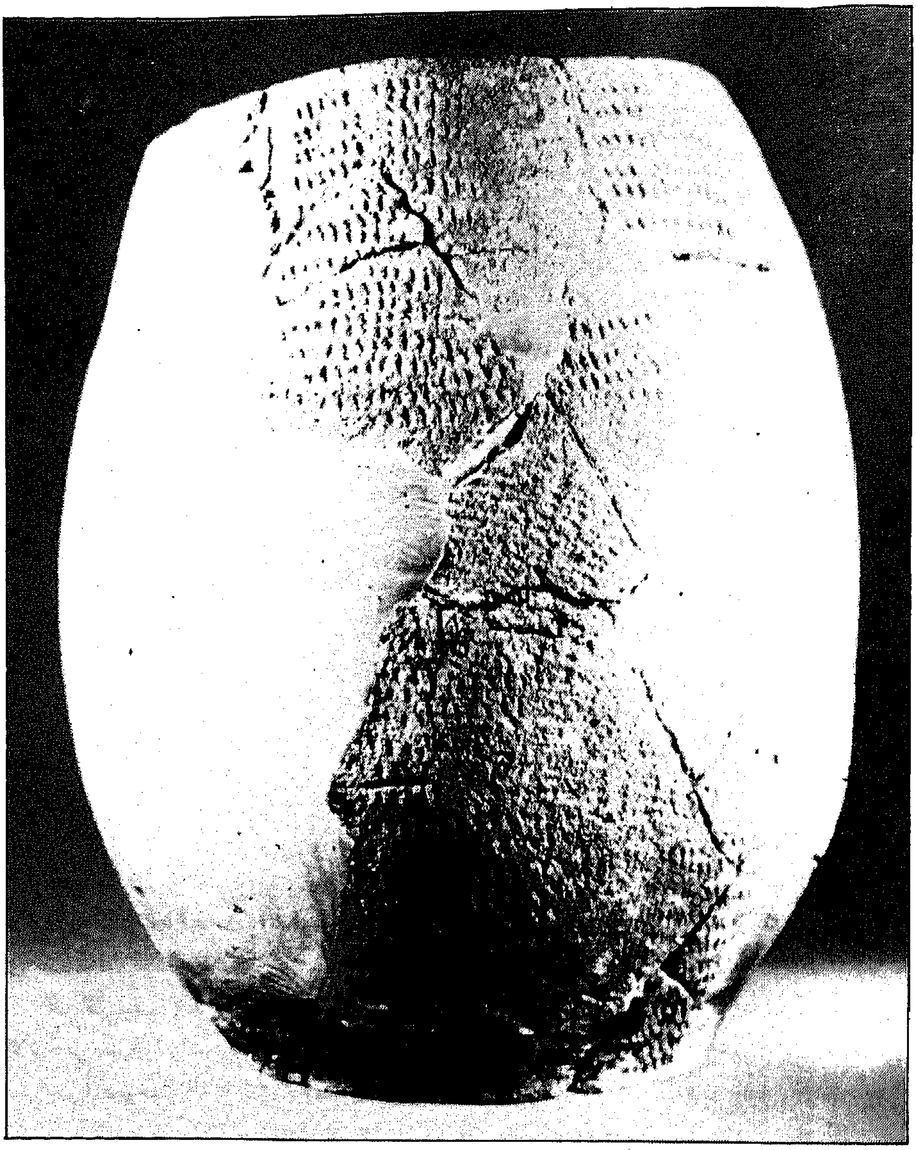
(١٠٥) غرينبرغ، ١٩٦٣.

(١٠٦) غراهام كلارك ١٩٦٩، ص ٧٠ وما بعدها أوكو، ودمبلي ١٩٦٩.

(١٠٧) كاتن — تمسن وغردنر، ١٩٣٤، سدن ١٩٦٨ ص ٤٩٠، وندورف وآل ١٩٧٠ ص ١١٦٨.

(١٠٨) هوري، ١٩٦٥، كمبس، ١٩٦٩.

(١٠٩) دي فات وهرلن، ١٩٧١.



● وعاء فخاري ذو قاع مستو من عصر الحديد. متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).

ولقد أهلت نجيليات برية أخرى وفرت الذرة البرية والذرة المقشورة أو «الذرة الأصبعية» ولقد ذكر الرز الافريقي سابقا (١١٠) ونجد في مور يتانيا الجنوبية، في ضواحي تشيت آثار استهلاك حبوب النيجيليات المحلية، ولكن في حوالي ١١٠٠ سنة قبل الميلاد، تحولت نسبة الذرة المقشورة من ٥ الى ٦٠ في المائة (١١١) وفي المناطق الأكثر رطوبة من افريقيا الغربية يعتبر الأنيام أهم عسقلة، وقد زرعت (١١٢) أنواع افريقية كثيرة منها. وبالرغم من ان تلك الزراعة يمكن ان تعود الى ما يقرب من خمسة آلاف سنة، فلم تتوفر لنا الى الآن المعطيات الأثرية أو النباتية للدلالة على ذلك. ويمكن أن يساعد على تفسير كثافة سكان نيجيريا الجنوبية (١١٣) التاريخ المديد لزراعة الأنيام المربوط بالمساهمات الغذائية الاضافية التي أتت بها عنبيات النخيل الزيتي والتي كانت محمية أو مخدومة.

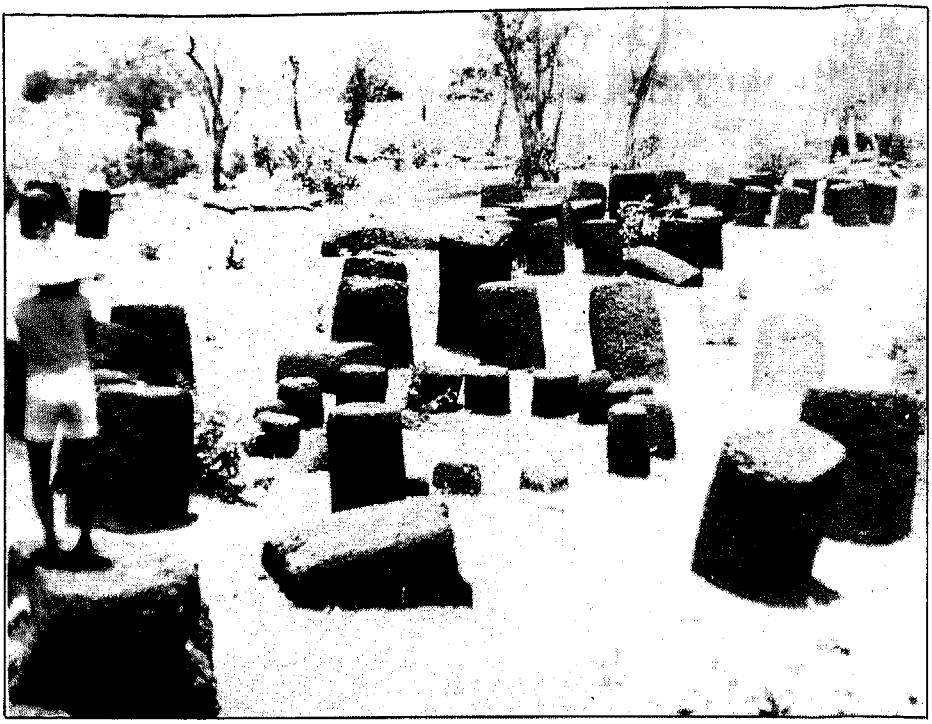
وبالرغم من ان انتشار الانتاج الغذائي يعتبر مقدمة للعمران، فانه لا يقود حتما بنفسه الى نمو المدن والأمصار. ويبدو ان عناصر أخرى لها دخل في القضية ومن ذلك الازدياد الى حد معين في الضغط السكاني والنقص في الأراضي المزروعة (١١٤). ولقد ازداد أثر الملاريا بافريقيا جنوب الصحراء بعد ان استصلحت الارض، ووجدت جماعات قارة وافرة. فكان تضخم السكان الناتج عن اعتماد الفلاحة أكثر بطأ مما كان منتظرا (١١٥). وكانت الأراضي الصالحة للفلاحة متوفرة بالمناطق جنوب الصحراء في ذلك العهد (١١٦). فلقد وجد في بداية الألفية الاولى من الميلاد اقتصاد زراعي كان يكفي لسد حاجات ممالك قديمة مثل ممالك غانا، ومالي، وسنغاي وبنان وأشنتي.

عهد المعدن

بالرغم من الدعوة في أوربا، وذلك منذ وقت طويل ولأسباب منهجية صالحة، الى ترك نظام «العصور الثلاثة» أي عصر الحجر، وعصر البرنز وعصر الحديد (١١٧)، فان سهولته ما انفكت تمدد في استعماله.

ان افريقيا الغربية في مجموعها لم تعرف العصر البرنزي الا قليلا. ولقد تجلى مظهر من مظاهره الآتية من اسبانيا والمغرب في موريتانيا حيث اكتشف ١٣٠ إناء من النحاس وحيث كانت تستغل مناجم أكجوجت الغنية التي أرخت بالكربون ١٤ بالقرن الخامس قبل الميلاد. ولقد وجدت أيضا

(١١٠) ابرترز، ١٩٥١، ١٩٥٨، ١٩٧٢.
(١١١) امنسن، ١٩٦٨، ١٩٧٠.
(١١٢) كرساي، ١٩٦٧، ١٩٧٢.
(١١٣) شو، ١٩٧٢، ص ٢٧ — ٢٨، ريس، ١٩٦٥.
(١١٤) واب، ١٩٦٨.
(١١٥) لفنغشتون، ١٩٥٨، فيسنفلد، ١٩٦٧، كورساي والكسندر، ١٩٦٨.
(١١٦) شو، ١٩٧١، مجلة تاريخ افريقيا ص ١٥٠ — ١٥٣.
(١١٧) دنيال، ١٩٤٣



١



٢

● ١) منطقة الاحجار الاثرية الضخمة السنغامبية، موقع تيكيني بوسّورا في السنغال. في مقدمة الصورة «مدفن الملك». متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).

● ٢) تمثال صغير مشاكل للانسان، من ثياروييي في السنغال. متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).

حدود سهام منبسطة من النحاس في أماكن عديدة من بلاد مالي و بالجنوب الشرقي من الجزائر (١١٨).

لماذا لم تعرف افريقيا الغربية عصر البرنز؟ ولماذا لم تتأثر أيضا بالحضارة المصرية القديمة؟ توجد الاسباب جزئيا في كون العدانة، والكتابة، والهندسة المعمارية للبناءات الحجرية واستعمال العجلة، ومركزية الحكومة المستقرة استقرارا قويا بمصر في الألفية الثالثة، كل ذلك حصل في العهد الذي جفت فيه الصحراء جفافا نهائيا. ولذلك هاجر السكان من الصحراء التي لم تعد صالحة لتكون رابطا غير مباشر بين مصر وافريقيا ولم تنعقد تلك الرابطة من جديد الا بعد ثلاثة آلاف سنة بالاعتماد على الجمل. وتوجد أسباب أخرى تعود الى وضع أسس اقتصاد فلاحي بافريقيا الغربية وذلك في فترة متأخرة وبطريقة بطيئة. وذلك ما تطرقنا اليه أعلاه. ولقد أراد بعض المؤرخين ابراز مآثر افريقيا الغربية، ومجدها فراحوا يؤكدون على علاقاتها بمصر القديمة لكي ينعكس مجد مصر عليها (١١٩)، ولكن هذا العمل غير ضروري (١٢٠).

بداية عصر الحديد
(حوالي ٤٠٠ سنة قبل الميلاد، الى ٧٠٠ سنة ميلادية)

يبدو أن قطاعات عديدة بافريقيا الغربية ظلت، طيلة بداية عصر الحديد، معزولة عن الخارج، وكانت الاتصالات في أغلب الاحوال مع العالم العتيق المعروف تجري بصفة غير مباشرة، متقطعة، لا يكاد يُعْتَدُّ بها (١٢١). ولقد ثارت زوبعة كلامية حول رحلة هانون المزعومة، ويحتمل ان يكون ما حكي عنها مختلقا (١٢٢). ان ما كتبه هردوت عن «التجارة الصامتة» التي كان يقوم بها القرطاجنيون، كانت بدون شك تعتمد على وقائع (١٢٣) ولا شك ان بعض الأسباب دعت للاتصال بالعالم الخارجي، لأن معرفة الحديد قد بلغت افريقيا في ذلك العهد. فلا يتعلق الامر باستيراد بعض الأشياء الحديدية فحسب، بل بمعرفة تحويل المعدن، وان كان هذا لا يعتبر اختراعا، نظرا الى انه لم توجد من قبل مبادئ عدانة (١٢٤). فلقد درس بنيجيريا الوسطى، في تاروغا، عدد من المواقع المعينة لصهر الحديد. وقد بين الكربون ١٤ تواريخ تتراوح بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد (١٢٥) وتشهد حفريات جرت بمجلات سكنية من وادي النيجر، بوجود الحديد بالقرن الثاني قبل الميلاد (١٢٦) ويبدو حسب معارفنا الحالية ان تعلم افريقيا الغربية لعدانة الحديد عائد

(١١٨) موني، ١٩٥١، موني وهلمنس، ١٩٥٧، لمبار، ١٩٧٠، ١٩٧١.
(١١٩) لوكاس، ١٩٤٨، ديوب ١٩٦٠، ١٩٦٢.
(١٢٠) شو، ١٩٦٤ علم الآثار ونيجيريا ص ٢٤.
(١٢١) لوو، ١٩٦٧ فرغسن، ١٩٦٩، موني، ١٩٧٠ العصور الحالكة ص ٧٨ — ١٣٧.
(١٢٢) بكيان، ١٩٧١، موني ١٩٧٠، علم الآثار ١٩٧١ ص ٧٥ — ٧٧.
(١٢٣) هيرودوت، ١٩٦٤، الكتاب ٤، ص ٣٦٣.
(١٢٤) دفيس، ١٩٦٦، الانثوربولوجيا الحديثة، شو ١٩٦٩ الانثروبولوجيا الحديثة ص ٢٢٧ — ٢٢٨.
(١٢٥) ب. ا. ب فاغ، ١٩٦٨، ١٩٦٩.
(١٢٦) بريدي، ١٩٧٠، هرتل ١٩٧٠، يامازاكي، وآل ١٩٧٣، ٢٣١ — ٢٣٢.

لا الى مملكة المغرب كما ارتأى البعض (١٢٧)، بل الى منطقة الشمال الافريقي الخاضعة آذاك لتأثير قرطاجنة. فلعل الكارامنت المستعملين للعربات، قاموا بدور الوساطة. ان الطريق من فزان الى منعطف النيجر الاوسط (١٢٨)، ملىء بالرسوم الجدارية الممثلة للعربات. وتدل رسوم جدارية عثر عليها في الناحية الغربية، على طريق آخر للعربات، يربط المغرب بجنوب مور يتانيا. فهل يمكن ان يكون ذلك ناشئا عن ضغط أناس رحل كانوا يحسنون استعمال الحديد (ان النصل ذا الحد المعدني أصبح السلاح المشترك وحل محل القوس في الرسوم المنقوشة على الصخر) مما دعا أناس العصر الحجري الساكنين في تشيت (مرحلة أكنجير) الى تحصين قراهم ابتداء من القرن الخامس والرابع قبل الميلاد (١٢٩). وخلال الحفريات التي أجريت في تاروغا، كان من جملة ما اكتشف فيها، تماثيل صغيرة من الطين المحمى من ذوات الأسلوب الخاص الذي أخذ منه اسم القرية النيجيرية (نوك) حيث وجدت لأول مرة، مثلما هو الشأن بالنسبة لأغلبيتها، وذلك إثر استغلال مناجم القصدير (١٣٠) ونظرا الى كون الرؤوس أصلها من طمي يحوي القصدير، فانها الوحيدة التي تظل مصونة لأنها أصلب وأقوى من جميع أجزاء الجسم. ولقد كان من العسير في البداية ان نعلم ان كانت الأشياء الأخرى المكتشفة في الحصباء معاصرة للتماثيل الصغيرة أو أنها كانت تمثل خليطا من أشياء من عهد واحد وأخرى أقدم منها، لأنه عثر، فضلا عن الأشياء الحديدية والآلات الصالحة لاستخراج المواد من المسبك، عثر على فؤوس حجرية مصقولة وأدوات أصغر من نوع العصر الحجري المتأخر (١٣١). و يبدو اليوم أن أدوات العصر الحجري المتأخر أقدم وأن أصلها من الطمي (١٣٢). والمحقق أنه لا يوجد في تاروغا أثر واحد ينسب الى العصر الحجري، وان كان عثر على فأس حجري بأحد المواقع النادرة الصالحة للاقامة بالمنطقة (١٣٣). ان تاريخ الحصباء قد حدد عصر التماثيل الصغيرة بـ ٥٠٠ سنة قبل الميلاد و ٢٠٠ سنة ميلادية، وهذا التاريخ ثابت ومدقق فيما بعد بالاعتماد على تواريخ بالراديو كربون أجريت في تاروغا وبموقع اقامة سبق أن ذكر (القرن الثالث قبل الميلاد). و بالاعتماد على تاريخ بالاضاءة الحرارية (٦٢٠ ± ٢٣٠ سنة قبل الميلاد) (١٣٤). فبالرغم من ان أسلوب الطين المحمي ليس قارا، فانه يمثل تحفة فنية، ورأى الاختصاصيون في هذا الفن انه من أسلاف أشكال معينة من فن يوربا الذي ظهر بعد ألف سنة وعلى بعد ٦٠٠ كلم نحو الجنوب الغربي (١٣٥) ولقد جرت اكتشافات حضارة نوك بمنطقة تمتد على ٥٠٠ كلم طولا، من الجنوب الى غربي نجد جوس.

---

(١٢٧) كلارك، ١٩٦٩ ص ٢٠١.
(١٢٨) موني، ١٩٥٢، لوت ١٩٦٦، شو ١٩٦٩، الانثروبولوجيا الحديثة ص ٢٢٩، دنيال ١٩٧٠ ص ٤٣ — ٤٤، هورت ١٩٦٦.
(١٢٩) موني، ١٩٤٧، ١٩٧١ ص ٧٠. منسن ١٩٦٨، ص ١٠.
(١٣٠) سان فاغ، ١٩٤٥، ١٩٥٦، مجلة افريقيا الغربية، ١٩٥٩.
(١٣١) ب. آ. ب. فاغ، ١٩٥٦، مجلة أفريقيا الغربية.
(١٣٢) شو، ١٩٦٣، ص ٤٥٥.
(١٣٣) أ. فاغ، نوك، ١٩٧٢.
(١٣٤) فاغ، وفلمنغ، ١٩٧٠.
(١٣٥) فاغ، ووليت، ١٩٦٠ ص ٣٢، وليت ١٩٦٠ ص ٢٤٥، ١٩٦٧ ص ١١٩ — ١٢٠، ١٨٤، ص ٢٣، روبين ١٩٧٠.

وتوجد قرب جدول غمبي، بالسنغال، وفي غامبيا، توجد مقاطعة تقوم فيها اسطوانات حجرية عمودية معزولة في وضع دائرات. وكانت الحجارة الكبيرة المتقنة الصنع مضاعفة، وتميل الى تمثيل شكل كنارة. ولقد تأتى، بفضل الحفريات الجارية تحديد ثلاثة تواريخ بالكربون، وتدل على القرنين السابع والثامن. فضلا عن تأريخين من القرن الاول حاصلين من الطبقة السفلى تحت الحجارة الكبيرة والتي هي لها مستودع قبل تنصيبها، و يبدو ان الامر يتعلق بمعالم ضريحية (١٣٦) وقد اكتشف في تونديدارو، بمنعطف النيجر الأوسط مجموع رائع من المعالم القضيبية الحجرية وقد أساء اليه جهل الباحثين والاداريين من القرن العشرين وحماسهم الساذج. ولذلك ليس لنا عنه الا معرفة واقعية محدودة جدا. فلعله ينتسب الى العهد الذي تنتسب اليه المعالم السنغالبة الغمبية (١٣٧).

وفي أواخر حقبة الاتصالات الاولى تقريبا، وذلك بالحدود الشمالية من افريقيا الغربية، اتصل سكان سود بالبربر الرحل الصحراويين. وكانت لهم جمال فكانوا ينقلون نحو الشمال ذهب افريقيا الغربية، عبر الصحراء. ان شهرة «غانا» أرض الذهب بلغت في آخر القرن الثامن مدينة بغداد (١٣٨) وقد توفرت لتلك المناطق الشمالية من افريقيا الغربية، مبادئ الفلاحة وتقنية الحديد، وبلغت نضجا أهلها لاتباع طريق التقدم السياسي، وتكوين الدول لمجابهة ضغط الرُّحَّل القادمين من الشمال، حتى يتمكنوا من مراقبة تجارة الذهب لما فيها من منافع. ولم يظهر استعمال الحديد في الجنوب، بشمال سيرا ليوني قبل القرن الثامن، وكان بطيئا (١٣٩).

---

(١٣٦) أوزان، ١٩٦٦، سيسي وثلمنس، ١٩٦٨، فغان، ١٩٦٩، ص ١٥٠، دي كمبس، ١٩٧١.

(١٣٧) دبلانية، ١٩٠٧، النجد الاوسط النيجيري، ص ٤٠ — ٤١، ماس ١٩٢٤، موني ١٩٦١، ص ١٢٩ — ١٣٤، ١٩٧٠، ص ١٣٣ — ١٣٦.

(١٣٨) لفتزيون، ١٩٧١، ص ١٢٠.

(١٣٩) أثرتن، ١٩٧٢، ١٩٧٣.

الفصل الخامس والعشرون

وادي النيل قبل التاريخ

بقلم: فرنان دي بونو

السودان والنوبة ومصر ثلاث مناطق مختلفة من عدة جوانب، قد وحد بينها نهرا واحد فألفت واديا فريدا. ولكن، من الصعب ان نتصور اليوم ان هذا الامتداد الصحراوي الذي شمل النهر من جانبيه قد نشأت فيه، فيما خلا من الأيام، وفقا لتقلب المناخ وتغير البيئة، محطات ومسالك وحواجز منيعة مع بقية القارة الافريقية.

ان هذه العوامل الطبيعية نفسها تكيف نمط حياة السكان الأوائل لهذا الوادي في كفاحهم الدائم ليتكيفوا مع أوساط معادية أو مناسبة لنموهم. وفي هذا السياق، نرسم باختصار تاريخ تطورهم الطويل منذ فجر ظهور الانسان الى أوج ازدهار العهد الفرعوني. ان عددا من الثقافات معروفة بالفعل معرفة جيدة في بعض الفترات الزمنية. الا ان سمة البحوث التي ما زالت ناقصة من ناحية، وروح النظام المطبقة غالبا على النتائج، تقودان في عدة حالات أخرى، الى تجزئة قد تبدو في المستقبل متكلفة، وحتى سيئة الاستعمال أحيانا.

كما ان مضاعفة «النماذج»، على بعد عدة كيلومترات، لها نسبة قليلة من الصحة في بعض الحالات. لذلك يعمل المؤرخون الذين شغل فكرهم هذا التشتت على جمع النماذج المعروفة في مقولات تاريخية كبرى. وحتى هذه الأخيرة يمكن من الآن ان تكون أحيانا ناقصة وغير كافية.

الأولدوائي (١)

تميزت هذه الثقافة في كل مكان بحصاة مهيأة، فقد مكنت اكتشافات حديثة متعلقة بأصل الانسان من التأكيد على وجود آثار أولى لم يتركها هذا الانسان في مناطق افريقيا الأخرى فحسب بل في وادي النيل أيضا.

فالشواهد القديمة جدا على تلك الكائنات التي أصبحت بشرية هي شواهد متكونة من حصاة مهيأة نحتت منها ادوات لا شكل لها، وقد وقع اكتشافها في السودان منذ سنة ١٩٤٩ في «نورى» و«واوا». ولكن لا يمكن ان تكون هذه المكتشفات المتفرقة حجة نهائية فلم نصل الى اليقين الا منذ سنة ١٩٧١ فقط بعد بحوث انتظامية جرت في مصر.

ان الترسبات الغرينية العائدة الى الدهر الرابع القديم، وعددها ٢٥، قد وفرت محصولا ثريا من تلك الادوات الغليظة. ولقد زودنا سنة ١٩٧٤ اكتشاف ثلاثة مناجم طبقية تشتمل على حصاة مهيأة بمعلومات مهمة تقضي على ما تبقى من التردد. وكانت مستويات الحصاة المهيأة تقع تحت الاشولي القديم (العصر الحجري القديم) المتميز بسطوحه الثلاثية في مستوياته الضاربة في القدم. ولقد عثر منذ عهد قريب جدا على سن لكائن بشرى وذلك بالغرين القديم الموجود بجبل طيبة، وهذا السن كان موجودا مع السواطير.

ولنذكر انه لوحظ أيضا تعاقب مشابه سنة ١٩٢٥، وذلك بغرين العباسية قرب القاهرة. ولقد صنفت الحصاة المهيأة لتلك الطبقة في ذلك الوقت في باب الأدوات الصوانية. ان دراسة ذلك العهد قد أثريت أخيرا بمساهمة اضافية في أديما بصعيد مصر، أثر الاكتشافات التي قامت بها بعثة المعهد الفرنسي للاثار الشرقية (٢). و يتعلق الامر بترسب جديد مازال تحت الدرس و يبدو مشابها للترسبات السابقة.

العصر الحجري القديم (٣)

توجد تلك الصناعة الحجرية المتميزة بذوات الوجهين ذات الطرف المتقلص بكل مكان من افريقيا. ولعل جذورها موجودة في هذه القارة، انطلاقا من الحصاة المهيأة بالعهد السابق ثم انتقلت الى عدة مناطق أخرى من العالم. وقد ظهرت في وادي النيل شواهد عن تلك الحضارة دون انقطاع ملحوظ من السودان الى مصر.

وقد تعرفنا على تلك الثقافة في شمال السودان أحسن مما تعرفنا عليها في المناطق الجنوبية اعتمادا

---

(١) سمي هذا العهد بهذا الاسم اعتمادا على المكتشفات التي تمت بأولدواي (انظر الفصل ٢٨). وقد سبق ان سمي بما قبل الاشولي أو العصر الحجري القديم العتيق.

(٢) I.F.A.O.: Institut français d'archéologie orientale)

(٣) يطابق على العموم العصر الحجري القديم الاسفل وغالبا ما يسمى أيضا بالأشولي، أي حوالي ـ ٦٠٠٠٠٠ الى ـ ٢٠٠٠٠٠ سنة تقريبا.

على الاشغال التي جرت حديثا. فالأشولي الاسفل الذي تدل عليه ذاوت الوجهين مما لها قواطع متعرجة غليظة أحيانا، تصاحبه حصاة مهيأة في «عطبرة» و«واوا» و«نوري». وفي «نوري» حصل له تطور في مركب انتقالي. أما الأشولي الاوسط والاعلى، المدروسان خاصة في الشمال، فهما يتميزان باتقان الصنع و بظهور صناعات شبيهة بصناعة لوفالوا. ان تلك الصناعات التي سيتولد عنها فيما بعد التقطيع اللوفالوي تبدو أيضا بارزة في خور أبو عنقا. ولئن كان الأشولي موجودا في قارات أخرى، فان النوع السنغوني، وهو نهاية الاشولي الذي دام كثيرا، هو نوع افريقي بحت. فبعد ان اكتشف في السابق بافريقيا الجنوبية والوسطى على الخصوص،أخذ اليوم يظهر في خور أبو عنقا وفي ساي. و يبدو أنه أخذ يفقد عددا من عناصره، ابتداء من وادي حلفا. و يوجد عدد قليل من القدومات من ذوات الوجهين المنحوتة الطرف في السودان.

وجد الاشولي على مسطحات النهر وفي نوبة مصر حيث يمكن ان نلحظ تطورا قائما على اتقان النحت. الا أننا لا نعرف معرفة كافية خصائصه النوعية.

وخلافا لذلك فاننا نجد بمصر ان الرواسب الطبقية في العباسية (قرب القاهرة) والرواسب التي درسناها أخيرا بطيبة (١٩٧٤) او بمسطحات النيل القديمة تبرز صناعات أشولية بالطوابق المتتالية و يتبع المستوى الاولدوائي المتميز بالحصاة المهيأة الاشولي الذي يشمل أشكالا ثلاثية السطوح وذوات وجهين أكثر تطورا وقطعا لوفلوازية. يوفر منجم «خرجة» طبقات متراكمة من أشولي أكثر حداثة قد يبلغ العصر الحجري الوسيط. ولئن وفرت ذوات الوجهين أشكالا كلاسيكية موجودة في أماكن أخرى فاننا نلاحظ في مصر أيضا تحويلها أحيانا الى قدومات وذلك بأطرافها المتباعدة بعدا متساويا. وذلك هو النموذج الوحيد المعروف حاليا من القدوم في مصر. ولقد اختصت مصر أيضا بذوات الوجهين المخدومة حسب تقنية تشابه التقنية المسماة «فكتور يا واست» التي تسبق هي أيضا التقطيع اللوفالوازي الكلاسيكي (٤) ونلاحظ وجود ذوات وجهين أخرى من النموذج السنغوني قرب القاهرة، و يبدو انه أكثر حداثة.

العصر الحجري الوسيط (٥)

تسببت أوضاع الحياة الجديدة في ذلك العهد في تعميم استعمال الشظية التي حلت محل ذي الوجهين الذي اصبح نادرا، ثم زال. ان تلك الشظايا ذات الكعب العديد المظاهر والمخدومة اعتمادا على التقنية اللوفلوازية السابقة مستمدة من نواة خاصة تنتج شظايا ذات شكل معين مسبقا. دامت تلك الطريقة بافريقيا ببعض المناطق حتى العصر الحجري الجديد نظرا الى أنه يعتمد على تفكير تكنولوجي متقدم جدا.

ان الصناعة الموستيرية ذات التقطيع اللوفلوازي والتي لم تدرس الا قليلا بالسودان توجد في

(٤) تنتزع شظية كبيرة بالقرع، وغالبا ما يكون هذا القرع على أحد الوجهين الجانبيين وقل أن يقرع أحد الطرفين. وهذه الشظية تستعمل بدورها كأداة.

(٥) تطلق هذه التسمية اجمالا على العصر الحجري القديم الاوسط منذ حوالي ـ ٢٠٠٠٠٠ سنة.

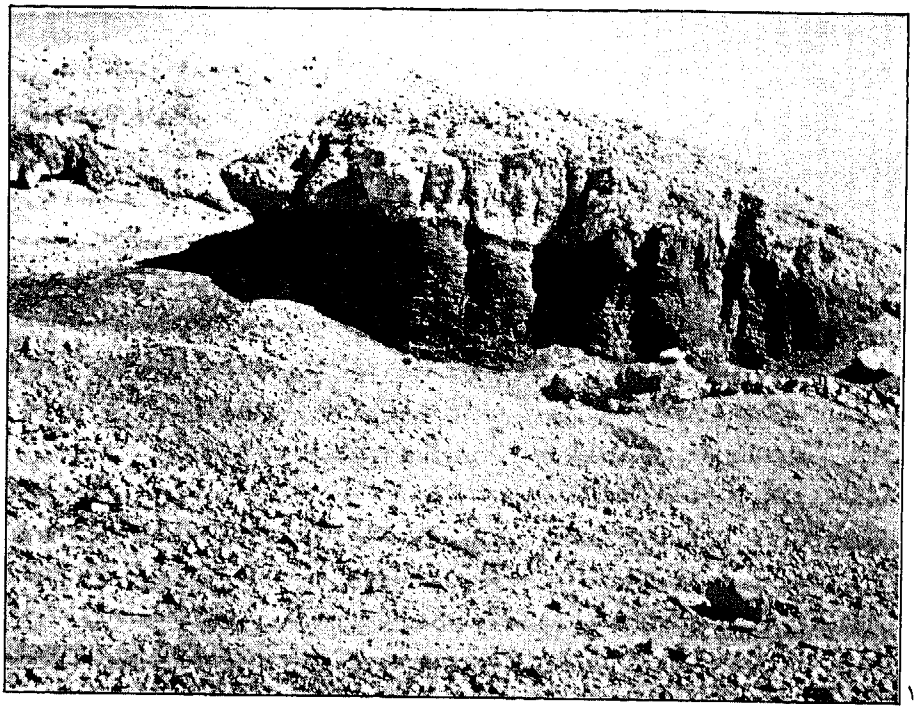
تنغاسي، وفي شكل أكثر تطورا في أبو طبري في نوري. وعلى العكس من هذا، فان البحوث الجديدة التي أجريت بالشمال أثبتت وجود ثلاث مجموعات متمايزة: أولها الموستيري النوبي: وهو قريب من الموستيري الاوربي دون ان يكون مماثلا له. ونلاحظ فيه نسبة ضعيفة من الشظايا اللوفلوازية وأدوات من النوع الموستيري هذبت تهذيبا ضعيفا. وتتصل بأنواع من العصر الحجري القديم الأعلى وذوي الوجهين الاشولي في بعض الحالات. (وذلك حوالي ـ ٤٥٠٠٠ الى ـ ٣٣٠٠٠ سنة). وثانيها الموستيرى المسنن: وهو يظهر من خلال شظايا لوفلوازية قليلة العدد نادرة الصفائح وان كانت القطع المسننة تعدد فيه من ناحية أخرى. وثالثها السنغوني اللوپمبي و يكثر فيه التقطيع اللوفلوازي الذي تضاف اليه ذوات الوجهين ومحكات جانبية وقطع محززة أو مسننة وشظايا مبتورة وذوات وجهين حادة بها تهذيبات ورقية الشكل. أما الخزمسي فيمتد من «جماي» الى دنغولا، و يشمل قسطا مهما من الشظايا اللوفلوازية المهذبة والشظايا المسننة والمناقش التي تندر. ولقد أرخ بالاعتماد على أعمال حديثة بحوالي ـ ٢٥٠٠٠ سنة الى ـ ١٦٠٠٠ سنة، وهو تقدير قد ابعد في االمدة الأخيرة حتى ـ ٤١٤٩٠ وـ ٣٣٨٠٠ سنة.

ان المعلومات المجموعة في نوبة مصر غير كافية ان قارناها بشمال السودان. وقد أثبتت أعمال سندفور وأركيل القديمة تفوق تقنية التقطيع اللوفلوازي ذات التقاليد الاشولية أحيانا. وتشير اليه بحوث حديثة سنة ١٩٦٢ في آفية وخور داود. ولقد اكتشفناه نحن في أمدا سنة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ في وضع التقطيع اللوفلوازي الصرف. ودرسنا في سبوعة صناعة تنتسب بلا شك الى المرحلة النهائية من تلك الفترة وتتصل بشظايا غير لوفلوازية تحتوي على مناقش عديدة.

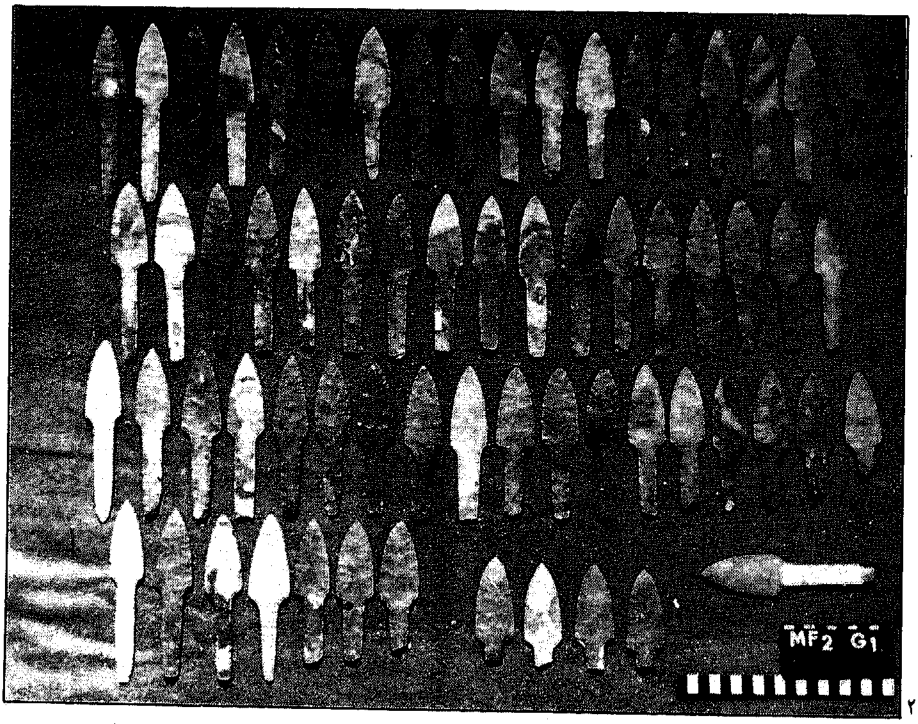
أما العاطري، وهو صناعة يختص بها المغرب والصحراء الجنوبية فهو يظهر من خلال شظايا تنتهي قاعدتها بذنب بارز، وباستعمال النحت الورقي الشكل، فلقد ابتدأ من دون شك مع الموستيري ودام في بعض المناطق من حين الى آخر حتى العصر الحجري الجديد. ووقع التعرف عليه في نوبة مصر بالصحراء الليبية وذلك بالشمال الغربي من أبو سنبل (٦). وكان متصلا بحيوانات برية منها الكركدن الابيض والبقريات الكبيرة، والحمار الوحشي ونوعان من الغزلان والظبي والثعلب، وابن آوى والخنزير ذو القرنين، والنعامة ونوع منقرض من الجمال والسلحفاة. فالعاطري في النوبة يبدو كأنه قد اختلط بالأمدى، وهو صناعة ذات تقاليد موستيرية لوفلوازية. أما في مصر فهو يوجد على حالته الخام بالواحات الشرقية وفي سيوا والدخلة وخرجة، كما نجده بالصحراء الشرقية في وادي حمامات. وتتفرق تلك الصناعة في الوادي نفسه على شكل قسيمات، في طيبة ودارا. ولقد تمكن من التأثير في الصناعة الحوارية في العهد الموالي في أسنا وطيبة وقد اتخذ مظهر أحجار ذات أبعاد صغيرة، في تلك الصناعة نفسها بالعباسية وجبل الأحمر قرب القاهرة (من ـ ٤٤٠٠٠ الى ـ ٧٠٠٠ على الأقل).

وبالرغم من الأثار الكثيرة الدالة على العصر الحجري الجديد بمصر فانه لم يدرس دراسة نوعية شاملة تستوعب أدواته. فالأشغال الاولى التي أجريت بالمسطحات القديمة للوادى و بالفيوم سمحت باعطاء رؤية عامة عن الحضارة التي كانت قائمة آنذاك. وتوفر حفرياتنا الشاملة التي أجريناها

(٦) وقعت تلك المكتشفات سنة ١٩٧٦ ولقد حدثت في بئر طرفاوي و بئر الصحراء.



١



٢

● ١) وادي الملكات، منطقة الاقصر، مصر (تصوير ج. ديفيس).

●٢) رؤوس رماح من السيلكس (الصوّان)، موقع مرقيسة في السودان. حفريات ج. ڤيركوتيه (تصوير بعثة الاثار الفرنسية بالسودان).

بجبل طيبة منذ ١٩٧١ برعاية اليونسكو، عناصر جديدة في الموضوع. ان وضع العلامات في الترسبات الجيولوجية وفي نحو مائة من المواقع لذلك العهد والموضوعة حسب طبقات متتابعة مرتبة ترتيبا زمنيا يمكن من رسم خطوط عامة لتطور تلك الصناعة التي تدل على تغلب الطابع اللوفلوازي. وتتفق كل تلك البحوث على الدلالة على وجود عهد قديم «أشولي لوفلوازى» يتبعه عهد آخر ذو نوى ضخمة، يتحسن تدريجيا، بتقليص أحجامه. وظهرت في مرحلة أكثر حداثة على الشظايا الصفائحية تهذيبات ثانوية أكثر عددا ذات مظهر شبه موستيري (٧) كما ظهرت أدوات مختلفة. واذا كانت هذه الصناعات قد أعطت عناصر متشابهة مع عناصر أخرى في افريقيا، فينبغي ان نشير كذلك الى وجود صناعة أخرى خاصة بمصر لم يشر اليها بتاتا بمكان آخر. و يتعلق الامر بالصناعة المسماة بصناعة جبل سوهان والتي تميزت باستعمال النوى حسب التقطيع اللوفلوازى ذي المضارب الثنائية الاقطاب التي نحتت من جديد باستعمال مكشط مقعر على أحد أطرافها. أما فيما يتعلق بالانسان من ذلك العهد، فيجب تسجيل ما اكتشفناه سنة ١٩٦٢ في (سلسلة) ان عثرنا على قطعتين من غلاف جمجمة يحتمل ان تعود الى ذلك العهد (٨). فلقد سبق ان أظهرت دراستها التي لم تكتمل خصائص عتيقة تتصل بخصائص أخرى أكثر حداثة. ويمكن ان توفر بقية الأعمال في شأن هذه النقطة نظرة جديدة عن أصل الانسان الافريقي المتنازع في شأنه بالعصر الحجري الوسيط والذي بقي غير معروف تمام المعرفة ان اعتمدنا المكتشفات المعزولة التي وقعت ببرقة والمغرب وزمبيا.

العصر الحجري الجديد

من الملاحظ عموما ان الانتقال من العهد السابق الى هذا العهد في أوربا ومناطق أخرى من افريقيا قد حدث حسب قطيعة سريعة وشديدة في المستوى التكنولوجي وحتى أحيانا في المستوى الانساني. ولكن هذا لم يكن كذلك في وادي النيل. ان صعوبة اكتشاف فواصل واضحة تفصل بين فترة وأخرى تجعل من العسير تمييز المقطوعات الزمنية. ان التطور يخلق في نفس المكان، ابتداء من الفترة السابقة، مظاهر اقليمية جديدة ومتوازية أحيانا تنتسب الى بيئات محلية. و يبدو في نفس الوقت ان التغيرات البيئية تبدل العلاقات بين سكان الوادي وجيرانهم، وتقطع الروابط القديمة وتعبر عن تقارب جديد. ان احصاء النماذج الثقافية المعروفة حاليا وحديثا يترك احساسا بتشتت كبير جدا اذ الامر يتعلق بوضعية مؤقتة، وربما تساعدنا التحاليل العميقة جدا على استخراج الخطوط التأليفية. ان هذه الملاحظات تنطبق أيضا على العهد الموالي وهو العصر الحجري القديم اللاحق

ولقد انتهت أخيرا دراسة تلك الفترة في السودان، وهي تبرز في القسم الشمالي منه صناعتين مختلفتين.

(٧) لقد وجدت تقنيتان لتقطيع الشظايا: التقنية اللوفلوازية الكلاسيكية وتقنية نزع الصفائح المطولة. و يوجد بين هاتين التقنيتين اشكال انتقالية عديدة.

(٨) قدم هذه المعلومات السيد ب. فندرميرش (مختبر علم الاحاثة الانسانية ـ كلية العلوم جامعة باريس ٦) واليه أسندت دراسة هذه الوثائق.

الصناعة الجمائية: في ضواحي حلفا، وهي تحتوي على شظايا تشتمل على نسبة لوفلوازية ضئيلة وحدود هذبت تهذيبا بسيطا. وتختص بمحكات جانبية متباينة ومناقش وأدوات مسننة (تؤرخ بنحو ـ١٥٠٠٠ وـ١٣٠٠٠).

الصناعة السبيلية: وجدت في الماضي في كوم أمبو (مصر)، وتظهر الآن في السودان في حلفا بالمرحلة الأولى. ان شظاياها ذات البلورات المعدلة آتية من نوى شبه اسطوانية لوفلوازية (حوالي ـ١٣٠٠٠ وـ٩٠٠٠ سنة).

أما في النوبة المصرية فلقد عرفت صناعتان هما:

الصناعة الامدية: اكتشفناها بأمدا (بعثات المعهد الالماني سنة ١٩٦٣) وتشتمل على أدوات متنوعة يغلب عليها الطابع اللوفلوازي، ولها صلة بمحكات منظمة ومثاقب وقطع من تقنية خرجية وسوف يأتي الحديث عنها. ان استعمالها المؤقت للتهذيبات الورقية الشكل تذكرنا بالصناعة العاطرية.

الصناعة السبيلية: التي تعرفنا عليها بسبوعة (بعثة المعهد الفرنسي لافريقيا الغربية) في عدة أماكن وهي تنتسب ايضا الى المرحلة الأولى ــ فهي ممزوجة بشظايا لوفلوازية وبمحكات قليلة ومناقش كثيرة ويحتمل أن تكون موجودة كذلك في خور داود.

أما الصناعة الجيزية فقد اكتشفت قرب القاهرة منذ ١٩٣٨ وتشمل حجارة قطعت تقطيعا لوفلوازيا، وقد تقترب شظاياها من بعض الاشكال الهندسية التابعة للصناعة الخزمسية.

الصناعة الحوارية: (المسماة سابقا: اللوفلوازية اللاحقة) (٩) وهي صناعة الحجارة الصغيرة، وقد شملت منطقة تمتد من أسنة (صعيد مصر) الى أقصى الدلتا والى المناطق المجاورة (وادي تميلات). وهي شبيهة بالصناعة السبيلية من حيث التقطيع اللوفلوازي،ولكن ليس لها أشكال هندسية. وتشتمل على مراحل وعلى مظاهر لا تزال قيد الدرس. وتتميز بنوى ذات قطبين ربما اشتقت من النوى المسماة «جبل سوهان» السابق الذكر، والتي ترجع الى العصر الحجري الوسيط. ان بعض النوى التي يحتمل أنها أكثر حداثة قد انتجت في آن واحد شظايا وصفائح لها أعقاب ذات وجهات. وهي تدل على تحول بالنسبة للصفائح ذات الاعقاب الملساء التي كانت غالبة في العصر الحجري المتأخر وفي العصر الحجري القديم اللاحق. و يظهر التأثير العاطري في الحوارى، وذلك في أسنة وطيبة، يدل عليه وجود منحوتات جديدة ورقية الشكل، كما تدل عليه قطع هجينة. وعلى العكس من هذا، تلاحظ شظايا معلاقية الساق متكونة من الحجارة الصغيرة والعاطرية نوعيا، وذلك في الحوارى بالعباسية وجبل الأحمر قرب القاهرة. فهل كانت تلك التأثيرات ناتجة عن تسرب شعوب الصحراء الى وادي النيل؟.

أما الخرجي وهو معاصر للحوارى بوجه من الوجوه، ولم يعترف به بعض مؤرخي ما قبل التاريخ، فهو موجود بواحة خرجة مع لوفلوازى سابق للخرجي الصرف، وكذلك توجد هذه الصناعة

---

(٩) اعتبرت الصناعة السبيلية كأنها الميزة الرئيسية لهذا العهد في كل مكان. .قد بينت البحوث أنها لا تميز في الواقع الا منطقة كوم أمبو. وقد تم تمييز نموذج مختلف معاصر، ان مواصلة النقاش بين الاختصاصين قادت كاتب هذا المقال الى دحض فكرة تصف ثقافة ما بالاعتماد على تقنيتها فحسب. اننا نرى أنه يستحسن وصفها باسم المكان الذي اكتشفت فيه أولا ولذلك أصبح اللوفلوازي اللاحق يوصف بالحواري.

ذات الشظايا اللوفلوازية ذات التهذيبات الهاوية التي تبدو في الظاهر لا أشكال لها، في واحة كركور وفي قرى وطيبة بمصر. وهو ذو صلة بصناعات أخرى في أسنة (صعيد مصر) وأمدا (في النوبة المصرية).

العصر الحجري القديم اللاحق

تتميز هذه الفترة عموما عن الفترة السابقة بوادي النيل بتعويض تقنيات التقطيع ذي الشظايا بتقنيات الصفائح والصفيحات من الحجارة الصغيرة التي لها أعقاب ذات وجيهات. ولا يستثنى من ذلك الا حالات الدوام والظهور مرة أخرى والتداخل.

ان البحوث التي أجريت في شمال السودان وجنوب النوبة المصرية قد أبرزت مركبا من الصناعات يمثل أحيانا و بلا شك مظاهر لثقافة واحدة. فالحلفي، نسبة لحلفا (خور كوسة) يعرف أيضا في شمال كوم أمبو (مصر) فهو يمثل انتقالا مبكرا وقع بين التقطيع اللوفلوازي للعهد السابق، وعهد الحجارة الصغيرة التي تستعمل الشظية أو الصفيحة. و يعتبر استعمال التهذيب المعروف بتهذيب (وشتاتة) طريقة طلائعية تظهر بعد ذلك بكثرة مع الايبيرو ــ موروسي المغربي ونلاحظ في شأن الصناعة الحلفية أنها تستعمل استعمالا متتابعا الشظايا والصفيحات الظهرية والمحكات والمناقش والمسننات والقطع المقشورة (وذلك حوالي ـ١٨٠٠٠ الى ـ١٥٠٠٠).

أما البلاني فهو أكثر حداثة في حلفا و بلانة. وهو يشتمل على حجارة صغيرة مبتورة وأخرى لها ظهور هذبت تهذيبا خفيفا وشظايا مقطوعة ومحكات، ومناقش وحدود ونوى بسيطة أو ذوات مستويات مقروعة قرعا متقابلا (في حوالي ـ١٤٠٠٠ الى ـ١٢٠٠٠).

أما القادي فأصله من أبكا وتوشكا في النوبة. فهو يحتوي على أدوات تشمل شظايا من حجارة صغيرة أولا وتشمل أيضا صفيحات، وله محكات وظهور مستديرة ومناقش وأدوات مبتورة وحدود انقرضت فيما بعد. ان القبور البيضوية الشكل الموجودة داخل المنازل وخارجها مغطاة بالبلاطات. وقد كشفت عن جنس بشري قريب جدا من جنس الكرومانيون بالمغرب (حوالي ـ١٢٠٠٠ الى ـ٥٠٠٠).

الأركيني اكتشف بمصر في موقع واحد قرب حلفا. فهو يمثل صناعة ذات شظايا خاصة و يتركب من محكات متساوية البعد وصفيحات ظهرية، لها تهذيبات (وشتاتة)، ومن أنصاف دوائر وقطع مقشورة ومدقات (حوالي ـ٧٤٠٠).

ولقد اكتشف القابي قرب القاب في ثلاث طبقات سكنية متتابعة توفر احداها ما يشبه مضربا مستطيلا متكونا من عظم مصقول (حوالي ـ٧٥٠٠).

ويحتوي الشمكي في منطقة حلفا على نوى متعددة الاتجاهات و يكشف عن أدوات هندسية الاشكال في مرحلته الأخيرة التي لها صلة بقطع أخشن منها. وقد يكون هذا الشمكي تطورا جانبيا للقابسي المغربي (حوالي ـ٥٠٠٠ الى ـ٣٢٧٠)

لقد درسنا في مصر (السلسلي) ودرسه آخرون بعدنا وذلك بمنطقة سلسلة قرب كوم أمبو فهو يحتوي على ثلاثة طوابق: السلسلي الأول الذي يوفر صفيحات هذبت تهذيبا خفيفا، ومكونة أحيانا

من حرير، ومثلثات غير منتظمة تكون أحيانا من حرير ومنيقشات، وعددا قليلا جدا من المناقش، والمحكات وصناعة عظمية. أما البقايا البشرية فهي تشير الى جنس شبيه بالكرومانيون (حوالي -١٣٠٠٠).

أما السلسلي الثاني (١٠) فهويشتمل على صفائح وصفيحات طويلة لها تهذيبات متقطعة تكون أحيانا حريرية ومناقش ومحكات وصناعة أساسها العظم (حوالي -١٢٠٠٠).

والسلسلي الثالث مازال تحت الدرس. وهويشمل صفيحات كثيرة لم تهذب الا قليلا وأحجارا للتسخين وكوخا مستديرا وهو أقدم كوخ عرف الى حد اليوم بمصر.

ان الفكوري المدروس في منطقة أسنة،يبدو منتسبا قليلا الى الايبيرو-موروسي ولعله يوجد أيضا في أماكن أخرى بمصر (حوالي -١٣٠٠٠) تتميز هذه الصناعة بالصفيحات الرقيقة المهذبة، و بالمثاقب والسهام الصغيرة.

السبيلي لقد تميزت تلك الصناعة التي حافظت على التقطيع اللوفلوازي بشظاياها ذات القاعدة المعدلة والأشكال الهندسية. وهي صناعة جنوبية في مصر، تظهر خاصة في مقاطعة كوم أمبو وسلسلة وداراو، ولا سيما في المرحلة الثانية. ولقد شهدت في النوبة، وهي نادرة جدا في الشمال، ولا تصنف في أي نوع أحيانا. وقد وفرت أشغالنا بسلسلة أيضا أدوات عظمية ومهارس، ومدقات و بقايا انسانية أصلها من حفر ياتنا التي مازالت تحت الدرس (حوالي -١١٠٠٠). ان المثال السبيلي يستحق المناقشة. وتوفر التواريخ الفيز يوكيمياوية ترتيبا زمنيا يناقض في البداية المعلومات التكنولوجية التي توفرها هذه الثقافة. ان هذا الامر جدير بالملاحظة، خاصة ان السبيلي ليس بعيدا زمنيا ومكانيا عن الفكوري.

المنشي (ضواحي سلسلة) يتركب من أدوات حجرية لها الى حدا ما،ارتباط (بالاوريغانسي) المشرقي، كما يتركب من صناعة عظمية ومدقات وصفيحات لماعة الاطراف ومن أدوات و بقايا انسانية. وتستنتج معاصرته للسبيلي الثاني اعتمادا على تشابه بعض الادوات الجديدة ذات النوع المخضرم.

اللاكيتي يمثل ثقافة تعرفنا بالصحراء الشرقية وهوينفرد بمناشرقوية التسسنن تصاحبها سهيمات معلاقية الساق.

الحلواني عرفناه بضواحي حلوان (جنوب القاهرة)،وهويتألف من أربع مراحل مختلفة: فالمرحلة الاولى تحتوي على صفائح وافرة وصفيحات هذبت أحيانا تهذيبا خفيفا (وشتاتة). وتتميز الثانية بحجارة صغيرة مركبة من مثلثات مختلفة الاضلاع ومثلثات متساوية الضلعين ومن قطع دوائر عادية، ومنيقشات. وتتألف المرحلة الثالثة من قطع دوائر. أما المرحلة الاخيرة، فتتألف من قطع دوائر ذات قاعدة مستقيمة تنتسب الى نموذج جديد.

---

(١٠) تسمية وضعها ب.سميث (١٩٦٦) تخليدا للإله سبك المشخص في صورة تمساح، وهو من آلهة ذلك المكان.وقد قمنا نحن أيضا بحفريات في ذلك الموقع. ونقترح اسم السلسلي الثاني اعتمادا على جبل سلسلة الموجود في تلك المنطقة وذلك أنسب للقواعد المتبعة في التسمية المعتمدة على أسماء الأماكن.

النتوفي صناعة من فلسطين قد تكون تسربت بصورة متتابعة الى التراب المصري. فقد عرفت مرحلة من تلك الصناعة في حلوان، وتميزت بقطع لها ظهور صنعت اعتمادا على تهذيبات متقاطعة وعلى العكس من ذلك، فان حدود السهام التي لها قاعدة مجهزة بحزات متناسقة، والتي نسبت أول الامر الى النتوفي، قد اكتشفت منذ ١٨٧٦ بحلوان حيث عثرنا عليها مرة أخرى سنة ١٩٣٦. ومنذ عهد قريب أيضا أي في سنة ١٩٥٣، اكتشفناها في القسم الشمالي من الصحراء الشرقية (حوالي -٨٠٠٠ الى -٧٠٠٠). وقد عرفت تلك الحدود منذ ذلك الوقت في الخيام وأريحا (فلسطين) وسماها الاختصاصيون «حدود الخيام». ان الفرضية التي تفيد بتسرب النتوفي مازالت تحتاج الى تحقيق دقيق.

العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك

ان هذه الفترة الطويلة التي تغطي في الجملة ألفي سنة تقريبا (من -٥٠٠٠ الى -٣٠٠٠) قد حللت هنا تحليلا مفصلا. فالمظاهر المادية لكل ثقافة من الثقافات او ما يسمى «بالافاق الثقافية» التي تمثل تلك الفترة قد وصفت بدقة، مؤلفة بذلك مرجعا ضروريا لكل من يريد أن يتفهم التطور البطيء في سياقه الطبيعي. وهو تطور يقود مجموعات بشرية من الرحل أو أنصاف الرحل الى أن تؤسس تدريجيا مجتمعات إما متمركزة تمركزا كثيفا كما هو الشأن بمصر، أو منظمة حسب امارات مستقلة مثلما هو الشأن بالسودان النيلي. ولقد درس التطور التاريخي لتلك المجتمعات الحجرية الجديدة والما قبل الملوك في الفصل ٢٨ من هذا المجلد. فالعرضان اذن متكاملان، وكل واحد منهما يتصور المشاكل من زوايا مختلفة ونجد بين معقفين الاحالات الضرورية التي تساعد القارىء على ادراج ثقافة محددة قد وصفت في هذا الفصل حسب الخطوط الكبرى للتطور التاريخي الخاص بمجموع «الآفاق الثقافية» المذكورة في الفصل ٢٨.

ان تلك المرحلة الجديدة تشكل خطوة حاسمة من تاريخ الانسانية. فانسان وادي النيل المنتقل من حياة الترحال الى نصف حياة الترحال ثم الى حياة الاستقرار قد أنشأ العناصر الرئيسية لمرحلتنا الحضارية الحالية. ان المسكن الثابت يحدد استعمال صناعة الفخار وتأهيل الحيوانات وتربية الماشية والفلاحة وتعدد أدوات تصلح لسد الحاجات المتزايدة.

وفي السودان (١١)، يبدو ان الخرطومي (١٢) هو أقدم ثقافة بتلك الفترة في ذلك البلد. فلقد عثر عليه في أكثر من اثني عشر موضعا في مساحات شاسعة وذلك في الشرق ابتداء من كسالة، وفي الغرب على مسافة ٤٠٠ كلم في قلب الصحراء، وفي الشمال حتى دنغلة، وفي الجنوب في اتجاه أبي هقار على النيل الابيض، ان المعلومات المستخلصة من حفريات الخرطوم التي شاركنا فيها توفر الحجج المؤكدة على وجود مسكن ثابت. و يشهد على ذلك أكواخ من قضبان خشبية، واعتماد

(١١) انه الخرطومي القديم المذكور في الفصل ٢٨. نفضل الاحتفاظ باسم الخرطومي توقعا لاكتشافات مقبلة قد تكشف عن مراحل أقدم من تلك المرحلة.

(١٢) انظر الفصل ٢٨.

صناعة فخارية متطورة منتشرة على مساحة كبيرة،واستعمال الرحي. وتتميز تلك الصناعة الفخارية المتكونة من أقداح، بزخرفة خطوطها المتموجة المقطوعة و بنقط موشاة. فالادوات الحجرية الصوانية الكثيرة هي أدوات من حجارة صغيرة وهندسية محضة تتألف من نماذج متنوعة. ففيها انصاف دوائر وقطع دوائر ومثلثات مختلفة الاضلاع ومستطيلات ومنحرفات وشظايا مقشورة ومثاقب. فأنصاف الدوائر وقطع الدوائر التي هذبت من حيث حافتها أيضا تشهد بالتشابه مع الولطوني، والحجري الجديد في هيراكس هيل، بروديسيا، أما الادوات المنحوتة في الريوليت، وهي صخر صلب، فهي أدوات أكبر حجما من الادوات الصوانية، ولها شظايا وصفائح بسيطة بعضها ذو أعقاب جدد نحتها (محكات)، وأنصاف دوائر ضخمة ومكاشط قليلة و يتميز الخرطومي أيضا بالمخاطف العظمية الشائكة ذات الوجه الواحد. تضاف الى ذلك مرقات حجرية ذات أقاع وسطية ومهارس، ومقارع واسطوانات مثقوبة الوسط، ورحى قليلة ومثاقيل شباك لعلها من نفس النوع الموجود في الفيوم والعمري (مصر) وبالصحراء النيجيرية. وتتكون أدوات الزينة من درر تشبه الاسطوانة التي في شكل بيضة النعامة، ومن أقراط نادرة. ولقد استعمل الطين الاحمر أو الاصفر للوشم على الجسد. ان الاموات المدفونة في مساكنها،والممدودة على أحد الجانبين كانت تنتسب الى جنس أسود وهو أقدم جنس في افريقيا. وكانت تخضع عندما كانت حية لقلع أضراس طقوسي كان رائجا في الماضي عند القابسيين والايبيرو ــ موروسيين بالمغرب وعند سكان الحجري الجديد بكينيا. وقد دامت تلك التقاليد مدة طويلة في السودان وخارجه بالقارة الافريقية. وتتألف الحيوانات المعروفة من الجاموس والظبي وفرس الماء والقط البري والدلدل والفأر والتمساح وكمية كبيرة من الاسماك (حوالي ـ ٤٠٠٠ ؟).

الشهانبي: ظهر في مواقع عديدة مبعثرة في جنوب الشلالة السادسة. ولقد وفرت الحفريات بالشهانب عناصر ثقافة متفرعة بدون شك عن الخرطومي، وتتركز خصائصها المميزة على استعمال صناعة فخارية خاصة، وعلى الازميل والفأس العظمي المصقول. وتتألف الصناعة الفخارية من أوان مزينة أحيانا بخطوط منمقة مثل الخرطومي، الا انها تنفرد بصقل سطوحها وحواشيها السوداء و بزخرفة المثلثات المحززة. وتضاف الى هذه الأدوات الحجرية نماذج من الحجارة الصغيرة وفؤوس مصقولة ومراقش «ملساء مستوية» وحدود دبابيس مستوية أو محدبة.

أما الحراب العظمية، فتظل موجودة حتى ظهور الصنارة اللؤلئية والجواهر المصنوعة من الامزونيت أو العقيق، واللبريات المستعملة حتى يومنا هذا. وكانت حيوانات الصيد هي الجواميس والظباء والزرافات والخنازير. و يرى الماعز القزم ولم يبق أثر للمساكن الخفيفة بل بقيت مواطن عميقة وللشهانبي (١٣) جوانب مشتركة مع الفيومي المصري، في مرحلة من مراحله وذلك باستعمال السطوح المستوية والمراقش والحراب ورؤوس الدابوس والامزونيت والمواقد المحفورة. وهو مرتبط بعهد ما قبل الملوك القديم لمصر، باستعمال الصناعة الفخارية الملساء ذات الحواشي السوداء بصعيد مصر. وتوحي الامزونيت والمراقش والفخار المقطوع بنقط تشابه مع الغرب (تبستي)، كما يوحي

---

(١٣) سمي أحيانا «بالحجري الجديد الخرطومي».

الماعز القزم بنقط تشابه مع الشمال الغربي. وقد وفر موقع «كاديرو» الذي مازال تحت الدرس حاليا، والذي هو أكثر حداثة، وفر أضرحة (تؤرخ بحوالي -٣٥٠٠ الى حوالي -٣٠٠٠).

وقد وفرت حفريات جرت خلال (١٩٧٦ ـ ١٩٧٧) في كدادا (منطقة شندي) نوعا ثالثا لعله أكثر حداثة من الشهانبي، و يتألف من أضرحة لها صلة بالمسكن، ومن فؤوس حجرية مصقولة ذات حجم كبير، ولوحات تزويق شبه معينية الشكل تقريبا، واسطوانات مثقوبة لا يعرف استعمالها، وأوعية كأسية الشكل، وأضرحة أطفال موضوعة في جرار. وهذه هي العلامات المميزة له.

وقد يكون الأبكي (١٤) بشمال السودان وجنوبه، الى حد ساي على الاقل، معاصرا بصورة متتابعة للخرطومي والشهانبي، ولعله قد تواصل الى ما بعد ذلك العهد، مرورا بأربع مراحل. فالمرحلة الأولى الفقيرة من حيث الفخار قد تكون متفرعة عن الكادي. والثانية عبارة عن تشكيلة من الأواني الفخارية لها فتحات مقطوعة وسطح مزخرف بخطوط منقوشة نقشا متعرجا أو بتنقيط مستطيل أو مستدير. والثالثة تتميز بأدوات حجرية لها مثاقب على شظايا متعددة أحيانا ولها صفائح بسيطة أو ذات حواش مهذبة والرابعة تتألف من صناعة فخارية لها حواش سوداء وسطوح حمراء مصقولة أو منضدة تشابه الشهانبي والمجموعة (أ) بالنوبة ومصر في عهد ما قبل الملوك (حوالي -٣٣٨٠ الى -٢٩٨٥).

و يتميز ما بعد الشمكي الذي لم يعثر عليه الا في موقعين، من حدود صغيرة وصفائح محززة وشظايا جانبية وسطوح مستوية توحي بوجود صلات بالفيوم و واحة خرجة (حوالي -٣٦٥٠ الى -٣٢٧٠).

ان انعدام الثقافات المذكورة آنفا في النوبة المصرية،وكذلك الثقافات المطابقة لها زمنيا،يفسر بظروف بيئوية خاصة و بندرة المواقع أو ربما باستكشاف ناقص ليس الا. وعلى العكس من هذا لوحظ بالنوبة المصرية - باستثناء بعض الحالات المحلية - لوحظ تشابه واضح مع حضارات عهد ما قبل الملوك المصري، وحتى مع البدري حسبما يبدو.

اما النجادي الأول (١٥) فهو موجود في عنيبة وسبوعة وشلالة وخور أبو داود (النوبة) وهو حاليا الموقع السكني الوحيد المحتوي على مخازن تموين.

و يوجد النجاد الثاني (١٦) قرب أبي سنبل وخور داود وسبوعة وبهان وأحجمت. وأخذت الاتصالات تضعف ابتداء من عهد الاسرة المالكة الاولى بين النوبة ومصر. وأخذت تتطور في عين الم كان الصناعات محتفظة بخصائصها من قبل التاريخ الى عهد الامبراطورية الجديدة، حاملة الاسماء المتتابعة لمجموعة (أ) (١٧) ومجموعة (ب) ومجموعة (ج) النوبية. وقد عملت أوضاع جغرافية وطبيعية مختلفة في مصر على تطوير مجموعتين ثقافيتين مختلفتين بصورة متوازية في التراب المصري، في الجنوب والشمال. وقد حافظتا على ذلك الاستقلال الثقافي الى عهد توحيد البلدين في عهد الاسرة

---

(١٤) يقارن بالأبكي المذكور في الفصل ٢٨.
(١٥) عهد ما قبل الملوك القديم في الفصل ٢٨.
(١٦) عهد ما قبل الملوك القديم في الفصل ٢٨.
(١٧) انظر الفصل ٢٨.

المالكة الاولى. ولعب النحاس دورا ثانويا لانه ظهر في الجنوب قبل الشمال لمجاورته لعدد من المناجم الصغيرة التي تكفي لاستعمالات محدودة.

المجموعة الثقافية الجنوبية (الصعيد)

برزت منذ البداية مجموعة الجنوب في مظهر حضارة متقدمة. وهي معروفة اعتمادا على دراسة أضرحتها المتعددة وبقايا تجمعات سكنية قليلة الاهمية.

ان التازي لم يحلل الا تحليلا عاما، بل هو محل نزاع بين المختصين فيما قبل التاريخ. وهو يوجد في مصر الوسطى في تازا، وبدرى ومستجدة ومطمر. وهو متميز بعلامات طريفة غير معروفة في أماكن أخرى، وعدد قليل من الأضرحة والآثار القروية. فالصناعة الفخارية التي كثيرا ما تتكون من أوان داكنة، ونادرا ما تكون حمراء ذات حواش سوداء ولها أحيانا سطح متجعد، تتميز بزواياها البارزة الموجودة بين القسم الاعلى المستقيم أو المنحرف والقاعدة المتقلصة. وتمثل الاوعية الكأسية بزخرفتها المحززة المنقطة نموذجا آخر طريفا له طابع افريقي. فتحتوي الادوات الحجرية خاصة على فؤوس مصقولة لها أحجام كبيرة كلسية سيليسية، وعلى مكاشط وسكاكين ومثاقب وغيرها. وتضاف اليها لوحات الزينة، لا سيما من رخام، مستطيل الشكل، وخواتم وأساور عاجية وأصداف بحرية مثقوبة، وبها تكتمل أدوات الزينة. ولنذكر أيضا الملاعق والصنارات العظمية. أما التقاليد المأتمية، فقد كشفت عن قبور بيضوية الشكل أو مستطيلة لها لحد جانبي يحمل جسما ممدودا على الجنب، أطرافه مطوية ورأسه موجه الى الجنوب ووجهه موجه الى الغرب. وكانت تلك القبور تزود بعدد من أدوات الزينة والأوعية والادوات المختلفة.

ويمثل البدري (١٨) حضارة مزدهرة خاصة في مصر الوسطى. وهو يوجد في بدري ومستجدة ومطمر وحمامية. وتدل صناعة فخارية جميلة جدا على هيأته الطريفة من خلال أوعية متنوعة حمراء أو بنية أو رمادية أو حمراء، لها حواش سوداء غالبا ما تغطي بأخاديد مقطعة تقطيعا دقيقا بشكل انحرافي فهي تتكون خاصة من صحاف ضيقة او مفلطحة أو تشبه قعر السفينة.

ونلاحظ وجود أوان وأقداح من البزلت وأوعية عاجية. وتزين الداخل أحيانا مواضيع نباتية منحوتة. وتحتوي الادوات الحجرية على أسلحة من ذوات الوجهين، لها قواطع مسننة محدبة وعلى حدود سهام لها قاعدة مجوفة أولها شكل ورقة الرند، وعلى أدوات لها تقنية صفائحية. وتمتاز بواطن الملاعق بصنع فني رفيع، وكذلك الامشاط وأساور اليد والصنارات والتماثيل العظمية والعاجية. أما التماثيل النسائية، وتماثيل فرس البحر فلها وظيفة طقوسية. وتحتوي أدوات الزينة على لآلىء صوانية مغلفة في محلول النحاس، وعلى أصداف ولوحات تزويق منضدة مستطيلة الشكل لها في أغلب الاحيان طرف مقعر. وقد كان يزرع القمح والشعير والكتان، ويربي الثور والشاه ويصطاد ويؤكل الغزال والنعامة والسلحفاة، وقد اندثرت المساكن المتكونة من أكواخ بسيطة خفيفة.

أما الموتى الذين كانوا يوضعون في وضعية انثناء، فقد كانوا ممددين على جنب، ورؤوسهم موجهة الى الجنوب ووجوههم نحو الغرب، وذلك في حفر بيضوية أو مستديرة الشكل، قل ان تكون مستطيلة

(١٨) عهد ما قبل الملوك البدائي، الفصل ٢٨.

وكانوا يحملون معهم الى الآخرة العناصر المتنوعة المذكورة سابقا. ومن الممكن ان نعثر على فروع متباينة من تلك الثقافة بالصحراء الشرقية (أ. حمامات) وأرمنت (الصعيد) وفي منطقة عديمة (صعيد مصر) وربما بالنوبة.

واكتشف النجادي الاولى (١٩) في حمامية ومستجدة في وضعية طبقية، تحت البدري ابتداء من مصر الوسطى والنوبة وحتى بالصحراء الشرقية (أ. حمامات). فالصناعة الفخارية ذات السطح الاملس أو المصقول، وذات اللون الاحمر أو الرمادي أو الأسود، متميزة عن الصناعة البدرية. ويختص النجادي الاول بالتزويق — فلم تبق مواضيعه منحوتة نحتا ولكنها تمتاز بتزويق أبيض على أوعية حمراء رسم عليها أشخاص بخطوط هندسية ونباتات وأشكال، بأسلوب طبيعي. وفي أغلب الاحيان تنتهي الأوعية الحجرية الانبوبية الشكل، والتي غالبا ما تكون من البزلت وذات عرى مثقوبة، تنتهي برجل هرمية. وتحتوي الادوات الحجرية ذات الوجهين على سهام قاعدتها مقعرة، وعلى سكاكين لها شكل المعين أو الفاصلة. وتوجد أدوات أخرى لها طرف مفروق على شكل حرف وعلى فؤوس مصقولة وأدوات صفائحية ودبابيس اسطوانية أو هرمية. ان لوحات الزينة، وخاصة منها المصنوعة من الشيست، والتي كانت في الاول معينية الشكل، تصبح ذات شكل تير يومورفي. وتزدان الادوات العظمية والعاجية المستمدة من الهام جديد مثل الامشاط والدبابيس، تزدان بصور حيوانية أو بشرية. إنها، وان كانت تستعمل لاغراض سحرية، الا أنها قد تستعمل حرابا. والمسكن عبارة عن ملجأ خفيف ذي سياج، مثل المساكن التي اكتشفت في محسنة.

ونلاحظ استعمال النحاس بصورة تدريجية. وكانت المؤونة تحفظ في مخازن محفورة في الارض ولكنها كانت تحفظ أيضا في أوعية، بمستجدة و بدير المدينة. وتكشف مراسم الدفن عن قبور مستطيلة تحتوي على أموات في وضعية على الجنب، رؤوسهم موجهة الى الجنوب ووجوههم نحو الغرب ولقد سجلنا حالات دفن متعددة أو أجساد، مقطوعة الاطراف (حوالي -٤٠٠٠ الى -٣٥٠٠).

و يعلو النجادي الاول طبقيا النجادي الثاني (٢٠) في حمامية ومستجدة وأرمنت. و يعثر عليه ابتداء من مدخل الفيوم، في جزرة، الى النوبة المصرية الجنوبية. وفيه تطورت صناعة فخار النجادي الأول التقليدية بتضييق فتحاتها وابراز حواشيها. ولقد حلت محل الصناعة الفخارية ذات الزينة البيضاء صناعة أخرى وردية، لها زينة بنية ومواضيع مقننة رمزية كاللوالب والمراكب والنباتات والأشخاص المرفوعي الايدي. و يتميز النجادي الثاني أيضا بالأوعية الكبيرة البطن ذات العرى المتموجة التي تصبح بعد ذلك أنبوبية الشكل، وتفقد عراها في بداية التاريخ. وعلى العموم، فان الاوعية الحجرية المتنوعة التي كثيرا ما تكون متطورة الأشكال، يلاحظ عليها تقليد أشكال الفخار الوردي. وتشتمل الأدوات الحجرية التي كثيرا ما تكون متطورة جدا، على سكاكين مفلوقة الشطرين ذات طرف شكله شكل «٧» ومن أدوات أخرى لها حدود متعاكسة مقعرة محدبة، ولها تهذيبات متناسقة جدا على وجه قد صقل سلفا وتغطى المقابض أحيانا بورقة ذهبية أو عاجية. وتكون حدود الدبابيس اجاصية الشكل. وتنتج صناعة النحاس المتطورة حدودا ومساكات وفؤوسا. ان اللوحات المرسومة تدريجيا تصبح في النهاية مستديرة أو مستطيلة. وتبسّط أشكال التماثيل الصغيرة

(١٩) ما قبل عهد الملوك القديم، المذكور في الفصل ٢٨.
(٢٠) ما قبل عهد الملوك الاوسط، أو الغرزي، المذكور في الفصل ٢٨.

العظمية والعاجية هي أيضا بصورة مفرطة. وتتحسن تقاليد الدفن. فتغطي جوانب الحفر البيضوية الشكل أو المستطيلة، باللوح أو الغرين أو الآجر. ولقد مكنت الحفريات الحديثة التي قمنا بها بأدمة (بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٤) من اكتشاف حفر من نمط جديد على شكل أحواض يرجع تاريخها الى نهاية تلك الحضارة. ويخضع تقديم القرابين لقوانين قارة. فهي توضع أحيانا في فروع جانبية. ولقد لاحظنا أحيانا وجود أجساد مقطوعة الاطراف الا ان القبور المتعددة قد زالت، ولم يبق توجيه الموتى قارا. وأصبح السكن يتكون من أكواخ مستديرة أو نصف مستديرة من الطين، ومن مآوى خفيفة وهياكل لتربية الحيوانات مستطيلة الشكل (الامراح) (في حوالي ـ ٣٥٠٠ الى ـ ٣١٠٠).

المجموعة الثقافية الشمالية (مصر السفلى)

تختلف المجموعات الثقافية الشمالية عن المجموعة الجنوبية اختلافا كبيرا، لا سيما في اتساع التجمعات السكنية وفي الصناعة الفخارية ذات اللون الواحد وفي الدفن المؤقت بالمسكن نفسه.

ان الفيومي (ب) (٢١) الذي ليس معروفا معرفة جيدة قد درس في شمال بحيرة منطقة الفيوم تلك. ولعله يعود الى العصر الحجري النهائي أو العصر الحجري الجديد ما قبل الخزفي. وهو يتركب من صفيحات بسيطة ومن حجارة صغيرة منحوتة الظهر ومن حراب عظمية ومدقات. ولقد أبرزت أحدث البحوث مرحلة وسطى بين الفيومي (ب) وهو أكثر قدما، والفيوم (أ)، وهو أقرب منا، ونقترح تسميتها بالفيومي (ج)، وتتألف تلك المرحلة من مراقش وحدود سهام من ذوات الوجهين معلاقية الساق يمكن تشبيهها بحدود سهام الصحراء الغربية (سيوة بليبيا) وعلى هذا الأساس تربط الصلة بالصحراء ويمكن تأريخها (بحوالي ـ ٦٥٠٠ الى ـ ٥١٩٠).

أما الفيومي (أ) (٢٢) الذي درس أكثر عمقا بالأماكن السكنية، فهو يحتوي على خزف ذي هيأة خشنة وحيد اللون أملس أو مصقول أحمر أو بني أو أسود. وهو يتألف من أوان وأقداح وأكواب وعلب مستطيلة وأوعية ذات رجل أو مزدانة بدوائر في شكل حلمات على الحواشي كما هو الشأن بالبدري. تتميز الصناعة الحجرية بتقنية متقدمة وهي من ذوات الوجهين وتحتوي على سهام لها قاعدة مقعرة أو مثلثة وحدود وقطع من المناجل أثبتت بمقابض خشبية مستقيمة، وفؤوس مصقولة وحدود ذات قاعدة اسطوانية. ومن الادوات العظمية نجد مثاقب وحدودا قواعدها محدبة. اما لوحات الخضاب الخشنة فهي كلسية ونادرا ما تكون من الديوريت. وكانت الاصداف البحرية وقطع البيض او المكرولين (الامزنيت) تستعمل حبات للنظم. ولا أثر للملاجىء بالاماكن السكنية، لأنها كانت بدون شك خفيفة جدا. لكن يوجد عدد كبير من المواقد المحفورة في الارض مثلما هو الشأن بالشهانب بالسودان.

وكانت المطامير المتكونة من جدار غائرة في الارض مجموعة بجوار المسكن. فكانت تحفظ القمح والشعير والكتان وأشياء أخرى. وكان الخنزير والماعز والثور وفرس الماء والسلحفاة من الحيوانات

(٢١) انظر العصر الحجري الجديد، فيوم، (ب) المذكور في الفصل ٢٨.
(٢٢) عهد ما قبل الملوك البدائي المذكور في الفصل ٢٨.

التي تؤكل لدى تلك الشعوب، ولم نعثر الى الآن على مقابر، ولعلها كانت بعيدة عن عين المكان. ويمكن ان تكون تلك الثقافة معاصرة للبذري (نحو - ٤٤٤١ الى - ٣٨٦٠).

يشمل المريمدي (٢٣) تجمعا سكنيا كبيرا تتجاوز مساحته هكتار ين غربي الدلتا. الا ان الحفر يات مازالت لم تنته ولم تنشر نتائجها الا بتقارير مختصرة أولية. فهي تبرز ثلاث طبقات متتابعة من أطلال أثرية وتكشف عن تطور ثقافة واحدة خلال العصور وهي ثقافة أصيلة لكنها خاصة بالشمال. ان صناعة الفخار ذات اللون الواحد الملساء المصقولة أو الخشنة تحوي نماذج متنوعة، منها على الخصوص أوعية وأقداح وأطباق وأبار يق. لكن لا توجد بها نماذج من عرى ضيقة ذات حواش. وتتكون الاشكال المتميزة من مغارف مثلما هو الشأن في البدري كما تتكون الأواني من نتوءات مستديرة مثلما هو الشأن في البدري والفيومي،ومن الاوعية ذات الأرجل مثلما هو الشأن في الفيومي. وتزدان تلك الأوعية أحيانا بمطات محفورة على الحاشية أو بخطوط محفورة عمودية أو بمواضيع ناتئة أو حتى برسوم شكلها شكل سعف النخيل. وتندر الاواني المكونة من البزلت أو من الحجر الاخضر الصلب والمنتهية برجل من نوع النجادي الاول. وتذكرنا الادوات الحجر ية الثنائية الوجه بنفس النماذج الملحوظة في الفيومي. وشاهدنا رأس هراوة اجاصي أو كروي الشكل. أما المثاقب والابر والمسارد والحراب والمساوط والصنارات فلقد نحتت من العظم أو العاج. وتتكون أدوات الز ينة من دبابيس للشعر وأساور وخواتم وأصداف مثقوبة ولآلىء متنوعة المواد. ولنلاحظ وجود لوحتي خضاب الاولى ترسية الشكل شستية، والآخرى غرانيتية. وهما مادتان مستوردتان من الجنوب. وقد تكونت المساكن في البداية من أكواخ متباعدة خفيفة، بيضو ية الشكل مشدودة بأوتاد، وتليها أكواخ أخرى أكثر متانة وأقل تباعدا. وتوجد في النهاية منازل بيضو ية الشكل لها جدران مدر ية طينية متجمعة على شكل شوارع مصفوفة. تضاف الى تلك الاكواخ مطامير الفيومي، عوضت فيما بعد بجرار غرست بالأرض. وكانت الاموات، ـــ بعضها، لا كلها ـــ، تقبر في حفر بيضو ية الشكل بين المساكن دون ان يكون معها أثاث. و يبدو أنها كانت موجهة نحو منازلها. وكان الانسان يربي الكلب والماعز والشاة والخنز ير. وكان يصطاد خصوصا فرس الماء والتمساح والسلحفاة الى جانب تعاطي الصيد البحري. ولقد تطورت تلك الثقافة بين -٤١٨٠ الى -٣٥٨٠. ويمكن ان تكون معاصرة للفيومي، ثم تواصلت الى بداية النجادي الأول.

يمثل العمري (أ) (٢٤) ثقافة أخرى من مجموعة الشمال اكتشفت قرب حلوان بين بقايا تجمع سكني كبير يتجاوز طوله الكيلومتر بمدخل وادي حوف. و يوجد فرع من تلك القر ية الما قبل تاريخية فوق نجد يشرف على جرف شديد الانحدار، وهو فر يد من نوعه بمصر. ان الحفر يات التي قمنا بها والتي لم تنته بعد، قد وفرت عناصر حضارة جديدة مختلفة عن حضارة الجنوب مثلما هو الشأن في مرمدة والفيوم. فالخزف يشمل أنواعا مختلفة جدا وهو من نوع رفيع يمتاز بأسلوب متطور أكثر من أسلوب الخزف الموجود بالموقعين وان كان وحيد اللون. نجد في الاشكال السبعة عشر التي تتكون منها الاواني الملساء أو المصقولة، الحمراء أو البنية أو السوداء، أوعية لها فوهة ضيقة وأخرى بيضو ية الشكل

(٢٣) انظر الفصل ٢٨.
(٢٤) انظر الفصل ٢٨.

وأقداحا وأخرى اسطوانية وأوعية خزفية واسعة أو مقعرة وأخرى هرمية وجرارا. ولا تشابه أوعية مرمدة والفيوم الا الأوعية ذات الحلمات. وكانت تستعمل أوعية نادرة من الكلسيت أو البزلت. ان الصناعة الصوانية ذات الوجهين لا تختلف عموما عن صناعات المواقع السابقة. لكن الصناعة الصفائحية قد وفرت أنماطا متميزة جديدة بمصر: فهي تشمل سكاكين مقوسة الظهر معكوفة نحو الحد، وبقاعدتها مقبض صغير متكون من فريضتين يحتمل أنها بقايا «النتوفيين» الذين أقاموا في العهد السابق بنفس المنطقة. ويمكن أن نذكر أيضا أثقال الشباك من نوع عثر عليه بالخرطوم والفيومي والصحراوي النيجري، حيث توجد أيضا صناعة ذات شظايا وافرة. وتمثل الصناعة العظمية من النوع الرفيع النماذج الكلاسيكية. الا أن الصنارة كانت مصنوعة من القرن. وتشمل أدوات الزينة الكثيرة العدد أصدافا بطنية الأرجل من البحر الاحمر ولآلىء منحوتة من بيض النعام والعظم والحجارة وفقرات الأسماك. وكانت النومولييات (Nummulites) الأحفورية المثقوبة تستعمل أقراطا. وكان الكلين والصمغ يستوردان. أما اللوحات المستعملة لهرس المغرة (التراب الحديدي) فهي من النوع الخشن ومصنوعة من الكلس والصوان. وكانت الحيوانات تتكون من البقريات والماعز والظباء والخنزير وفرس الماء، والكلب، والنعامة والحلزون والسلحفاة وعدد كبير من الأسماك وكان يزرع بالمكان القمح والشعير والكتان، وكانت النباتات تتكون من الحماط والنخيل والأثلة والحلفاء وكانت المساكن على نموذجين، منها ما كان ذا سقوف مسنودة بأوتاد وكانت بيضوية الشكل، ومنها ما كان محفورا جزئيا في الأرض وسطوحها مدورة. وهي تمتاز بمساحتها الكبيرة على مطامير الحبوب المنتشرة في كل مكان تقريبا. ان الموتى المقبورين في القرية نفسها قبرا أكثر كثافة مما هو موجود بمرمدة، كانوا مصففين عموما حسب توجيه قار، وكانوا كلهم موضوعين في أوعية تربية، رؤوسهم الى الجنوب ووجوههم نحو الغرب. وكان أحد الموتى ـــ ولعله كبير منهم ـــ يحمل صولجانا خشبيا (الصولجان «أميس») له شكل كان معروفا في شمال البلاد في العهد الفرعوني (حوالي ـ ٣٣٠٠؟).

وقد ظهر العمري (ب) (٢٥) ثم تطور في بداية النجادي الأول. فلقد تعرفنا عليه بشرقي الموقع السابق، وهو يختلف عنه اختلافات عدة فيما يتعلق بمراسم الدفن والصناعة. فلقد كانت المقبرة المتميزة عن التجمع السكني تحتوي على أضرحة مغطاة بجثوة من الحجارة. ولا توجد قاعدة قارة يعتمد عليها في توجيه الجثث. أما فيما يتعلق بالتجمع السكني الذي هو أقل اتساعا من تجمع العمري (أ) فاننا لم ننته بعد من البحث فيه. واذا كانت للخزف سمات مشتركة، فان الادوات الحجرية كانت متخالفة تماما. ان العمري الذي يعتمد تقنية صفائحية يتكون من سكاكين صغيرة ومكاشط صغيرة الحجم، مستوية ومدورة، ومن قطع صغيرة. وفي انتظار مواصلة أعمالنا، يصعب علينا الآن، ان نحدد تاريخ الموقع بالنسبة الى العمري (أ).

اكتشف المعادي (٢٦) بعد اجراء حفريات لم تكتمل، وذلك بتجمع سكني مجاور لمقبرتين

(٢٥) يمكن ترتيبه في عهد ما قبل الملوك الحديث، المسمى أيضا بالجزري الحديث، وهو مذكور في الفصل ٢٨. الا ان تحديد تاريخه مازال غير ثابت.

(٢٦) لعله ينتسب في قسم منه على الأقل الى عهد ما قبل الملوك أو الجرزي الحديث (انظر الفصلا ٢٨) ولكن يمكن ان يكون معاصرا لعهد ما قبل الملوك الاوسط أو الجرزي (انظر الفصل ٢٨).

بالمعادي، قرب القاهرة كما اكتشف بعد حفرية قمنا بها بمقبرة ثالثة عثر عليها بعين شمس (ضواحي القاهرة). ان ثقافة ذلك التجمع على غاية من الطرافة وهي لا تتبع زمنيا بصورة مباشرة ثقافة العمري بل تمثل مجموعا ثقافيا ثانيا من مجموعة الشمال. ان خزفه ذا اللون الواحد يبدو أقل رقة من خزف العمري. فهو خصوصا أملس ولونه أسود أو بني. وندر ان يكون أحمر أو مغلفا بعجين أبيض. أما النماذج المتوافرة فهي متكونة من أوعية بيضوية الشكل، طويلة العنق، لها حاشية بارزة. وقد لاحظنا وجود أوعية صغيرة كروية لها أطواق غالبا ما تكون مزدانة بنقط منقوشة. وتوجد أوعية أكثر تميزا لها قاعدة متكونة من حلقات ناتئة مدورة تذكرنا بأوعية البزلت من ذلك الأنموذج، وهي موجودة أيضا بالمكان. أما الأوعية التي لها زخرفة بنية من النجادي الثاني، فهي نادرة وربما تكون مستوردة من الجنوب، و يوجد فيها أيضا أوعية كبيرة البطن لها عرى متموجة موجودة في النجادي الثاني وفي فلسطين. ان تلك الاوعية تدل على تواصل العلاقات الثقافية المستمرة بين النيل وفلسطين. وتشابه أوعية البزلت الأنبوبية كذلك أوعية صعيد مصر في عهد النجادي الأول. وهناك صناعة حجرية صفائحية عديدة رفيعة، وقد نحتت من جديد في شكل أدوات اختصت بها تلك الثقافة المعادية. اما السكاكين المفروقة التي لها شكل حرف (U)) فهي أقل عددا، ولعلها هي أيضا مستوردة من النجادي الأول. وقد لاحظنا قلة في أدوات الزينة الا ان بعض اللوحات الشستية المعينية الشكل قد جاءت هي أيضا من النجادي الأول. أما اللوحات الاخرى فهي إما صوانية أو مجرد قلامة صوانية بسيطة مسطحة.

إن أهم ما تتميز به الثقافة المعادية هو أنها توفر لنا لأول مرة ضمن ثقافات عهد ما قبل الملوك، دليلا على استعمال النحاس على نطاق واسع. و بينما نجد أن الفيومي والمريمدي والعمري لم تعرف النحاس أبدا، فقد كان مستعملا في صعيد مصر منذ عهود قديمة جدا. وكان سكان الوادي منذ البدري وابتداء من النجادي خاصة يستغلون المناجم الصغيرة المجاورة لهم في المنطقة الجنوبية من الصحراء الشرقية. ولقد تم فعلا العثور على مقصات ودبابيس ومثاقب وصنارات وفؤوس من النحاس. و يبدو ان أنواعا من الموارد المعدنية قد وجدت في نفس الوقت في ذلك المكان. وأصبح ذلك المعدن مشهورا بالمعادي. ونحن ننسب ذلك الوضع من الاشياء الى اتصال المعاديين بالمناجم المعدنية في ذلك الوقت بسيناء. وتتأكد العلاقات بوجود سماة مشتركة عديدة مع الشرق. وفضلا عما ذكرناه آنفا من وجود صناعة الفخار في فلسطين يمكن ان نذكر كذلك بعض الادوات الصوانية والمنغنيزية. وتتكون الحيوانات من بقريات وماعز وشياه وخنازير وأفراس ماء وسلاحف وأسماك، وكان النبات يتكون من القمح والشعير والخروع والحلفاء.

أما فيا يتعلق بالتجمع السكني فقد وجدنا عددا كبيرا من الأوتاد المغروسة في التراب مكنتنا من اثبات وجود أكواخ بيضوية الشكل وآثار ملاجيء بسيطة. وقد اكتشفنا أيضا أكواخا أكثر تطورا، مستطيلة الشكل، مبنية بالآجر مثلما هو الشأن في محسنة، كما اكتشفنا أكواخا أخرى تحت الأرض يدخل اليها بالادراج. وكانت الجرار الغائرة في الارض تستعمل مطامير للحبوب. وكانت الحفر المستديرة مخازن مؤونة وتخفي غالبا أوعية مثلما هو الشأن في النجادي. وكانت المقابر المنفصلة عن القرية تحتوي على قبور مستديرة أو بيضوية الشكل، وليست مستطيلة أبدا. فهي تحوي جثثا منثنية على الجنب، رؤوسها موجهة غالبا نحو الجنوب ووجوهها نحو الشرق وتصاحبها غالبا أوعية.

وكانت تدفن أيضا في تلك المقبرة الغزلان التي كانت تعتبر بدون شك حيوانات مقدسة وغالبا ما تكون مصحوبة بأوعية كثيرة. ولقد اكتشفنا بطرف مقبرة عين شمس صفا من الكلاب الموجهة الى كل ناحية، وغير مصحوبة بأدوات جنائزية، فلعلها كانت تقوم بدور الحراسة مثلما كانت تفعل لما كانت حية، ولم تبق الا آثار قليلة إلى الآن نظرا لصغر الموقع.

ان هذه الثقافة لم تحل في الحين محل العمري، بل ظهرت عند نهاية النجادي الأول، واستمرت في تطورها الى غاية انتهاء النجادي الثاني في صعيد مصر.

استمرار العصر الحجري في العهد الفرعوني

بعد ان تحدثنا عن التيارات التي عرفتها مصر قبيل عهد الملوك، يجدر بنا الآن ان نلخص خصائصها، وان نحاول شرح أسباب تباعدها ثم أخيرا تقاربها في العهد الفرعوني.

اننا نجد، في تاريخ الفراعنة الطويل، اشارات الى مصر الشمال ومصر الجنوب، وكيف وحد بينهما مينيس الشهير، مؤسس السلالة الملكية الاولى. والحقيقة ان هذه الاشارات ترتكز على وقائع ملحوظة ترجع الى غياهب الماضي، بل الى ما قبل التاريخ.

وقد رأينا كيف أثبتت الحفريات الحديثة صحة هذه السنة المتبعة، وكيف ان هذه الفوارق الجهوية بين شمال البلاد وجنوبها، كانت موجودة منذ المرحلة المسماة «العصر الحجري الجديد». ولم تكن هذه الفوارق جغرافية فحسب، بل كانت تشمل عدة ميادين من حياة الانسان، الى درجة أنه تولدت عنها مجموعتان ثقافيتان كبيرتان مستقلتان عن بعضهما، تستمدان طاقتهما من ظروف طوبوغرافية وبيئوية مختلفة. وقد انبثقت مجموعة الجنوب على طول مجرى النيل الضيق، محصورة بين جرفين قاحلين، أما مجموعة الشمال، فقد نشأت في دلتا النيل الخصب الواسع ذي الآفاق المترامية الأطراف.

ولقد تفرعت عن مجموعة الشمال عدة ثقافات هي متشابهة من حيث الخطوط العامة ولكنها متميزة من حيث التفاصيل، وهي الى حد ما متعاقبة زمنيا. ورغم وجود الأصل المشترك، فان مجموعة الجنوب لها خصائص تتميز بها تميزا واضحا عن ثقافات الشمال. وهذه الفوارق ملحوظة في خصائص كل من المجموعتين اللتين تشكلت من اتحادهما فيما بعد مصر الكبرى.

وهكذا، فمنذ البداية، لوحظ في شمال البلاد تطور مدني معتبر. ففي الفيوم نشأت قرى صغيرة متقاربة بعضها من بعض. وفي مرمدة قامت مدينة بأتم معنى الكلمة وامتدت على ما يقرب من مئتي هكتار، اصطفت فيها المنازل. وامتد العمري على طول قدره كيلومتر، والمعادي على كيلومتر ونصف، أما في الجنوب، فنظرا الى ضيق المواقع، لم يبق من آثار المدن الا القليل.

وفيما يتعلق بالانشطة الاخرى التي لها صلة بحياة الانسان وأعماله بمصر في ذلك العهد، فان الصناعة الفخارية الشمالية سواء كانت بنية أم سوداء أو حمراء، قد بقيت رغم تطور الأشكال ومحافظة على اللون الواحد المستقر، وتميزت بانعدام الزخرفة انعداما كاملا. وخلافا لذلك فان تعدد الأشكال وتقدم الزخرفة تقدما كبيرا في الجنوب قد ظلا علامتين مميزتين مع الأوعية الشهيرة ذات الحواشي السوداء..

ولئن ظهر في خزف الشمال بعض النقص فان العكس يظهر في الصناعة الصوانية التي تدل على دقة رائعة في صياغتها. ولقد بلغ اتقان نحت بعض القطع في الجنوب مستوى رفيعا.

ان الشمال فقيرا فقرا تاما في ميدان الفن المحض، وبذلك يقف على طرفي نقيض مع ما بلغه الجنوب من ازدهار كبير. ولقد ظهر ذلك الازدهار في الجنوب منذ البدري وتجلى في تماثيل رائعة من العظم والعاج أو الطين المحروق، وفي أدوات الاستعمال اليومي كالامشاط والمعالق وجواهر الاقراط واللوحات الجميلة جدا، التي يسحق بها الخضاب، والحروز المنحوتة من الشيست الأخضر.

لذلك ندرك الاختلافات الكبيرة في ميادين متنوعة بين الشمال والجنوب بمصر. فنلاحظ ان الشمال بلغ تقدما عاليا من الناحية التمرانية والاقتصادية وأن الجنوب بلغ مرحلة فنية متقدمة جدا معلنة عن عهد الفراعنة. وسيكون توحيد هاتين الثقافتين المتكاملتين هو السبب الرئيسي لعظمة مصر في عهد الفراعنة.

الا ان حلول العهد التاريخي الذي واكبته الكتابة وتوحيد مصر تحت سلطة واحدة، وتقدم استعمال المعدن، لم يغير كما كان منتظرا بعض مظاهر عيش السكان بالوادي. و ينطبق هذا على التمادي في استعمال الصوان خاصة وهو مادة ناجعة جدا كانت متوفرة في البلاد طيلة العهد الفرعوني.

ومما يستحق الذكر ان الاتقان العظيم في نحت الصوان قد بلغ أوج ازدهاره في عهد الأسر المالكة الأولى، وتدل على ذلك السكاكين الرئعة التي تسمى سكاكين «القربان» وأضرحة أبيدوس الملكية في صعيد مصر وسقارة أو حلوان قرب القاهرة، حيث ان اتقان صناعتها وحجمها الرائع يثيران الاعجاب. وقد عثر أيضا في أطلال مساكن ذلك العهد على أدوات منزلية من الصوان و بعض أدوات نادرة جدا من النحاس في هيركمبوليس والقاب، بصعيد مصر و وادي حمامات بالصحراء الشرقية.

واكتشفنا في آثار الامبراطورية الوسطى بطيبة القديمة أي بالكرنك عددا وافرا جدا من الادوات الصوانية وهي تختلف من حيث تقنية صنعها وتنوع أدواتها عن الأدوات المستعملة طيلة العصر الحجري القديم الاعلى والعصر الحجري القديم اللاحق. وقد لاحظنا كذلك عددا وافرا من المناقش والادوات المتكونة من الحجارة الصغيرة.

ان الاستكشافات النظامية التي قمنا بها منذ ١٩٧١ من جهة أخرى بجبل طيبة والأقصر بينت ان أكثر من نصف الـ ٢٠٠ معمل لنحت الصوان لا يعود الى ما قبل التاريخ بل الى الامبراطورية الوسطى وكانت هذه المعامل تزود العاصمة بأدوات مصنوعة حسب تقنية تعتبر أخشن من تقنية الامبراطورية الوسطى. وتتكون من صفائح وسكاكين وقطع مناجل ظلت موجودة طيلة العهد الأسفل.

لم يقتصر استعمال الصوان في عهد الفراعنة على الأدوات المنزلية فحسب، فلقد استخدمت أهلة من الصوان لحفر الأساور الشستية بوادي حمامات وهي أدوات للزينة استعملت من أول التاريخ الى نهاية العهد العتيق واستعملت في نهاية الأسرة المالكة الثالثة لقطع الكتل الحجرية الكبيرة في وقت ما لبناء الهرم من عهد فرعون زوزر الى عهد فرعون سقارة. وقد حفرت الأواني المصنوعة من

حجر رخو بتلك الآلات نفسها الى عهد الامبراطورية القديمة في معامل الفيوم بجوار مناجم الكلسيت.

ولقد كانت سهام المحاربين المصريين منذ الاسرة المالكة الاولى الى عهد الامبراطورية الجديدة مسلحة بحدود قاطعة من الصوان. ولنلاحظ ان سهام فرعون توت أنخ أمون (الأسرة المالكة الثامنة عشرة) كانت من عجين البلور. وهي مادة نفيسة فعالة مثل الصوان.

وقد استعملت مصر الفرعونية أيضا صخورا أقل رخاوة من الصوان لصنع أدوات تؤدي وظائف معينة، ان المعاول والمطارق الخاصة بالاشغال المنجمية أو المحاجر والتي لها أعناق تمسك بها، قد كانت من الحجر الصلب طيلة الامبراطورية القديمة. وقد أصبحت أكثر خشونة وكانت من الكلس السلسي في عهد الامبراطورية الوسطى والامبراطورية الجديدة. فلقد حفرت وهيئت بواسطة تلك الآلات الحجرية الخشنة، الديماميس المقبرية التابعة للامبراطورية القديمة بالجيزة (قرب القاهرة) وديماميس الامبراطورية الوسطى بمصر الوسطى، وديماميس الامبراطورية الجديدة في جبل طيبة.

أما فيما يتعلق بالنوبة المصرية وقسم من النوبة السودانية اللتين غطتها المياه في الوقت الحاضر، فان الابحاث الاثرية لم تجر حسب ما يرام اثر عمليات الانقاذ. وذلك ما حرمنا مع الأسف من معلومات كثيرة ثمينة تتعلق بماضي تلك المناطق لا سيا بدوام استعمال الحجر في العهود التاريخية.

الا ان المواد الاثرية المجلوبة من قرية تنتسب الى مجموعة (ج) النوبية (الامبراطورية الوسطى) (في سبوعة) مكنتنا من التعرف على عدد من الصفائح والصفيحات وقطع من المناجل من الصوان. ولا شك ان هذه الاخيرة التي استوردت من مصر تشابه تماما ما يرجع تاريخها الى نفس العهد والتي اكتشفت أخيرا بالكرنك وقد سبق ان ذكرناها.

ونجد من ناحية أخرى في أمادا، وهي قرية أخرى من مجموعة (ج) موجودة أيضا في النوبة المصرية جرت بها حفريات أشرفنا عليها، نجد أدلة أخرى على استمرار العصر الحجري في العصر المعدني. فلقد كانت الصفائح وقطع المناجل مثلما هو الشأن بسبوعة تأتي من مصر.

وقد اكتشفنا فضلا عن ذلك بموقع أمادا حدود سهام صغيرة من حجر يمان أو عقيق تضاف الى تلك الصناعة الحجرية المستوردة. ووجدنا فؤوسا مصقولة من الحجر الصلب المحلي.

أما فيما يتعلق بالنوبة السودانية فان الحفريات التي جرت في الحصن المصري بمرغسة قد وفرت ــ كما كان متوقعا ــ أسلحة. فوجدت ضمن تلك الاسلحة التي تعود الى الأسرة المالكة الثامنة عشرة سهام من نوع كلاسيكي، أي لها حدود قاطعة من الحجر المذكور سابقا. وتكمن الظاهرة الجديدة في أن رؤوس الرماح لم تكن من المعدن مثلما هو الشأن في مصر الفرعونية في ذلك العهد، ولكنها كانت من الصوان قد صيغت حسب نحت ذوات الوجهين المتقن، وتشبه النحت المستعمل في العصر الحجري الجديد. وقد كانت غاية احياء تلك الطريقة اعادة صنع حدود الرماح المعدنية بأدق طريقة ممكنة. وبما أنه كان من الصعب الحصول على المعدن وعلى الرماح المصنوعة في تلك الفترة بتلك المنطقة البعيدة، فان هذا الامر قد ساعد في الرجوع الى تقنية صناعية تركت منذ آلاف السنين.

الخاتمة

ينبغي، بعد ان استعرضنا استعراضا اجماليا تاريخ البشر الأول الذين أقاموا بوادي النيل، ان نضع التقويم، وان نذكر المكاسب وان نشير الى النقائص الهامة العديدة.

ان الاكتشافات الحديثة جدا المتعلقة بالعهود العتيقة تاريخيا تسمح لنا بالتأكيد على وجود أول انسان بدائي معروف وهو الانسان الألدوائي، ليس بافريقيا الجنوبية والشرقية فحسب بل كذلك في القسم الشمالي من وادي النيل أيضا. اننا نعرفه اعتمادا على أدوات حجرية كثيرة. ولكن يستحسن متابعة البحوث لتستكمل الوثائق العظمية المتمثلة الى حد الآن في سن بشرية وحيدة. فيجب ان تجرى استكشافات مماثلة تتعلق بذلك العهد في القسم السوداني الذي يمثل نقطة اتصال مع اثيوبيا حيث حدثت اكتشافات رائعة تخص ذلك العهد.

أما الأدوات الحجرية الراجعة الى العصر الحجري القديم فلقد حللت تحليلا وافيا من حيث خصائصها في منطقة وادي حلفا فحسب وذلك على سبيل التقريب. ولقد وفرت أدوات طيبة معطيات تخص أقدم مرحلة. لكن ما زالت قضايا كثيرة تحتاج الى التوضيح، منها ما يتعلق بالأجناس البشرية طيلة ذلك العهد.

أما فيما يتعلق بالعصر الحجري الوسيط، فالشواهد الحجرية كثيرة على طول وادي النيل. فلقد تحقق دائما تقدم كبير في منطقة وادي حلفا مما سمح لنا بأن ندرك أحسن ادراك مرفولوجية أدوات ذلك القسم فحسب. ان الحصيلة المثمرة التي توفرت بجبل طيبة مازالت تحت الدرس وستسمح بمقارنات مفيدة بحصيلة الجنوب. وتعتبر قطع من العظم القذالي هي البقايا البشرية الوحيدة التي استخرجت الى حد الآن. ولقد عثر بالصحراء الليبية في الشمال الغربي لوادي حلفا على أدوات حجرية لأول مرة لها صلة بحيوانات. ومازالت مناطق سودانية شاسعة لها صلة بتلك الفترة تحتاج الى ان تستكشف.

لقد لوحظ أيضا وجود العطاري، الذي يكاد يكون معاصرا بالقفر الموجود بالشمال الغربي من أبي سنبل، أن تلك الصناعة المتصلة بحيوانات، والتي أصلها من الشمال الغربي الافريقي قد دامت الى عهد متأخر بتلك المناطق. وقد يكون من المهم أن نقدر الى أي حد يوجد تقارب في السن مع مكتشفات أخرى بمصر، وهل أثرت في صناعات مصرية محضة.

أما فيما يخص العصر الحجري الجديد والعصر الحجري القديم اللاحق، فان الاكتشافات التي حصلت في بقاع معينة قد وفرت أمورا عديدة كانت مجهولة الى حد الآن. وربما بالغنا في وضع تسميات جديدة مركزة على دراسات احصائية وتحاليل فيزيوكيمياوية تنقصها الدقة أحيانا. ولعل السبب في ذلك هو انعدام رسوم طبقية أرضية.

ولقد وقع تحقيق تقدم لا ينكر فيما يخص العصر الحجري الجديد (وتلك تسمية لا تؤدي مفهوما دقيقا بمصر) وعهد ما قبل الملوك على طول وادي النيل.

واعتبارا لذلك فان مواقع المجموعة الثقافية الجنوبية في مصر قد وفرت وثائق كثيرة استخرجت من المدافن خاصة. و يستحسن أن تجري أبحاث على صعيد أوسع في التجمعات السكنية التي ستوفر لنا سجلا أكمل عن السكن والفخار المستعمل والأدوات الحجرية المستعملة.

ولما كانت المواقع المصرية لم تحفر حفرا شاملا بسبب المساحات الكبيرة التي تشملها، فهي لم تعرف الا بالاعتماد على تقارير ناقصة. ولقد وفرت رغم ذلك معطيات أكثر اكتمالا من المواقع الجنوبية المعاصرة، وقدمت تواريخ ثقافات مختلفة وفرتها بحوث حصلت بالمدافن مثلما حصلت في الأماكن السكنية أيضا. فينبغي اذن مواصلة الاكتشافات المتوقفة منذ عدة سنين بتلك المنطقة الشمالية المصرية لأسباب مختلفة، حتى تكتمل وثائقنا.

أما فيما يتعلق بالنوبة السودانية، فان حضارات عديدة متميزة تنتسب الى تلك العهود قد درست دراسة دقيقة، تذكر منها الخرطومي والشهانبي اللذين كانا يبدوان أكثر الحضارات تمثيلا لذلك العهد الى حد الآن. ونحن ننتظر القيام بعمل واسع لأن عشرات المنشآت التي عثر عليها تعود الى تلك الثقافات أو الى مراحل زمنية مختلفة، وهي تنتظر متى يعنى بها الباحثون.

ان هدفنا من هذا التحقيق يرمي الى المساهمة في ضبط حلقات التاريخ الافريقي قبل العهد الفرعوني.

الفصل السادس والعشرون

الفن الإفريقي في ما قبل التاريخ

بقلم: ج. كي زيربو

لا يكاد يظهر الانسان، حتى تظهر معه الادوات، ويظهر معه الانتاج الفني (الانسان الصانع، الانسان المبتكر). وهذا الامر يصدق أيضا على ما قبل التاريخ الافريقي.

فمنذ آلاف السنين، أتلف الانسان والعناصر الطبيعية ذخائر ما قبل التاريخ في افريقيا بل تعمد الانسان ابتداء مما قبل التاريخ نفسه، الاتلاف، وذلك لاسباب تعبدية سحرية.

ان المستعمرين من المدنيين والعسكريين، وكذلك السواح والنفطيين والأهالي، ما انفكوا يقومون بالتخريب و«النهب المشين» الذي تحدث عنهما ل. بالوت في تمهيده للنشرية المخصصة للتعريف بالعرض حول «الصحراء قبل ان تصبح قفرا».

ان فن ما قبل التاريخ يزين عموما الهضاب والجبال من افريقيا وتعتبر الجبال العالية والمنخفضات وأحواض الانهار والغابات بالمنطقة الاستوائية من افريقيا أقل ثراء في هذا الميدان ان قارناها بما سبق من المراكز المحظوظة.

قد حددت تلك المواقع في مستوى المنحدرات الصخرية التي تتكون منها حروف الأراضي العالية ولا سيما ان كانت تشرف على تلع الانهار الحالية أو الاحفورية. وتشكل افريقيا الصحرواية وافريقيا الجنوبية الموطنين الاساسيين. ولقد عثر بين الاطلس والغابة المدارية من جهة وبين البحر

(١) تحدث هـ. لوط عن عسكريين فرنسيين بالجزائر طمسوا في ١٩٥٤ بالألوان الدهنية اللوحة الرائعة التي تمثل فيلة حجرة محيصرات ليحسنوا تصويرها. وخرب آخرون برصاص رشاشاتهم الجدار القريب من نقش العقرب الكبير في قرعة الطالب، وفي بني ونيف هدمت القمم المزينة بالنقوش لتستعمل في بناء المساكن الخ... انظر في هذا الشأن هـ. لوط ١٩٧٦. ولا يمكن أيضا أن يسلم بعض الاختصاصيين أنفسهم من اللوم. فهذا اميل هلوب قد فكك قطعا عديدة ونقلها الى فيينا في نهاية القرن التاسع عشر.

الأحمر والمحيط الأطلسي من جهة أخرى، على المئات من المواقع التي تحتوي على عشرات بل على مئات الآلاف من النقوش والرسوم. ولقد أصبح البعض من تلك المواقع مشهورا عالميا، بفضل أعمال علماء ما قبل التاريخ من الفرنسيين والايطاليين والانقلوسكسون، والافارقة الذين يتزايد عددهم، وذلك بالجزائر، جنوب وهران و بتاسيلي ــ أن ــ أجر (جبارن ــ سفر ــ تيسوكاي ــ جنات ــ الخ...) وبجنوب المغرب وفزان (ليبيا)، وكذلك في العاير وتينيري (النيجر)، وتيبستي بتشاد، و بالنوبة، وبجبل الحبشة، و بظهر تشيت (مور يتانيا)، وبمسامدس بأنغولا. و يوجد المركز المهم الثاني في المخروط الجنوبي من افر يقيا بين المحيط الهندي والمحيط الأطلسي، في لوسوطو و بوتشوانا، وملاى ونغوان، ونميبيا وجمهور ية جنوب افر يقيا، وخاصة في ولاية أورنج الحرة، وبمنطقة الفال والترنسفال الخ. فهناك توجد الرسوم في ملاجىء حجر ية، وتوجد النقوش مكشوفة وتعتبر المغارات مثل مغارة كانغوشيئا استثنائيا وقل ان تجد بين الاقطار الافر يقية بلدا لم يكتشف به آثار فنية أو آثار من عهد ما قبل التار يخ. والحقيقة ان الاستكشاف لا يزال في خطواته الأولى.

كيف نفسر هذا الازدهار في الاراضي القاحلة والسباسب؟ أولا لأن الأراضي لم تكن قاحلة في ذلك العهد، ثم ان تطور تلك المناطق الى حالتها الراهنة جعل منها متاحف طبيعية نظرا لجفاف الهواء نفسه، والدليل على ذلك أنه اكتشف في الصحراء مثلا أشياء ثابتة على حالتها في مواقعها الاصلية منذ آلاف السنين. فلماذا حدث ذلك على حواشي الاودية التي تخترق الهضاب؟ حدث ذلك لاسباب سكنية ودفاعية ولإمكانية توفير الماء وقرب مواقع الصيد. ومثال ذلك في التاسيلي الصلصالي المقولب حول النواة البلور ية لجبال الهقار، والمشرف على الجنوب من ارتفاع ٥٠٠م، حيث تضافر تناوب الحرارة والبرد، وسيلان المياه في حفر افر يزات وخبايا هائلة تحت الصخور، تشرف على تلع الانهار. وأبلغ مثال على ذلك هو المخبأ الكائن تحت الصخور في تين تازا ر يفت. ولقد حفرت الر ياح من جهة أخرى في الهضاب الصلصالية أروقة طبيعية سرعان ما استغلها الانسان. ذلك هو الاطار الطبيعي الذي مثلته بكل أمانة ودقة، روائع الرسوم الجدار ية الافر يقية.

الترتيب التاريخي والتطور

المناهج ومشاكل ضبط التوار يخ

كثيرا ما تظهر في هذا المجال، طر يقة دراسة الطبقات المتصلة بالصخور الثابتة ذات فائدة محدودة، ذلك ان المناخ الرطب المتواصل خلال عصور طو يلة في ما قبل التار يخ تسبب في تذو يب عميق للطبقات التي تغطي أرضية المخابىء. لكننا نجد في بعض الاحيان بجنوب افر يقيا نقوشا تحت الرسوم. وقد يعطي حطام المواد العضو ية المتساقط من الجدران على طبقة غير منسو بة، قد تعطي بعض العلامات. الا ان تعر ية تلك الطبقات وتغطيتها، عمدا في بعض الأحيان، تشوش ضبط التوار يخ التي يأمل الباحث أن يستخلصها، حتى ولو كانت نسبية.

لذلك يستعان في بعض الحالات بزنجار الرسوم وقواعدها الصخر ية مع دراسة مقارنة لتحولاتها اللونية، وتعتبر هذه الطر يقة ملائمة لأنها مرتبطة بالموضوع نفسه، الا أنها تفترض أن الزنجار الأكثر وضوحا والاكثر اختلافا مع لون الصخرة الأم هو الاحدث لان ظهور الزنجار يطرأ ببطء على كل

الصخور حتى على الصلصال الابيض. وتلك عملية شبيهة بتشكل اللاتيريت اذ ان الأكسيدات والكاربونات التي تسربت في شكل سوائل من جراء المطر أو الرطوبة تتصاعد الى السطح جذبا وتشكل بعد التبخر قشرة صلبة وداكنة نسبيا حسب قدمها. وهكذا تتكون لنا بالرجوع الى الصخور الثابتة قاعدة نظرية لضبط التاريخ النسبي. لكن العوائق كثيرة اذ ان الامر كله مرهون بطبيعة الصخور وبوجودها بالشمس أو في الظل أو في الهواء الطلق أو معرضة للرياح الخ... ان ضبط التاريخ بهذه الكيفية لا يمكن ان يكون الا نسبيا (٢).

و يستند في بعض الحالات الى الحيوانات الممثلة في الرسوم للحكم على قدم اللوحات،نظرا الى ان كل الانواع لم تعش في نفس الحقب الزمنية الكبرى. فالحيرم مثلا هو نوع قديم جدا قد اندثر ولا يعرف الا بالاعتماد على أحفوراته العظمية. ولكن، ألا يمكن أن تكون تلك الحيوانات قد رسمت للتذكير بعصر سالف؟ ان الأساليب لا تشكل أيضا ــ مثلما سنرى ــ دليلا مضبوطا، اذ ان ذلك لا يكفي و يبدو أول وهلة ان الملاحظة هي الغالبة مما يؤيد وجود أثر شبه طبيعي مميز. الا ان النقوش الحيرمية بالصحراء الكبرى تعتبر من جهة أخرى سابقة غالبا للرسوم ولذلك فان الاشياء الموجودة تحتها والتي تتميز بنفس النوع من التسميات الموجودة بالرسوم هي مبدئيا معاصرة لها. لكن لا يمكن ان نعتمد هنا أي قاعدة عامة. و يستعان كذلك أحيانا بطريقة أخرى وهي ضبط التاريخ النسبي انطلاقا من الاضافات، باعتبار ان السمات الطامسة لسمات أخرى، هي أحدث منها. لكن الزيادات لا توجد في كل مكان. يضاف الى ذلك ان تلف الصخور وتحول الالوان غالبا ما يجعل التأويل غير ثابت ومتضاربا (٣).

على أنه تبقى، بطبيعة الحال، طريقة الكربون ١٤ وهي طريقة مثالية، لكن تطبيقها نادر جدا للأسباب التي وقع التعرض لها سابقا، كما يستوجب استعمالها الكثير من الحذر. ألم يكن حطام الرسوم متصلا بمواد عضوية حديثة العهد؟ أو لم تنشأ قطعة الكربون من حريق أحدثته صاعقة؟ ومع ذلك تتكاثر التواريخ من هذا النوع شيئا فشيئا. ففي منيت مثلا، بالصحراء الوسطى، وفر كربون من طبقة عميقة تاريخا قدر بـ ٥٤١٠ + ٣٠٠ قبل الحاضر.

ويمكن للسياسة أن تتدخل أيضا في ضبط التأريخ، ومن ذلك ان المراقبين البورز (Boers) لا يعترفون الا على مضض بعراقة الحضارة الفنية للافارقة الاصليين،لذلك فانهم يحاولون اختزال التطور بطريقة التداخل أو بالتطبيق الآلي لطرق التقدير التي يستعملها علماء ما قبل التاريخ الاوربيون. ففي هذه الظروف يرجعون لوحات الدراكنسبرغ الى ما بعد القرن السابع عشر أي بعد قدوم البنتو بمدة طويلة. ولكن، هل من المعقول ان تكون قبائل (سان) قد انتظرت نزاعاتها مع البانتو حتى يكونوا فنا يستلزم ابتكاره حدا أدنى من الاستقرار؟ وذلك بغض النظر عن ان

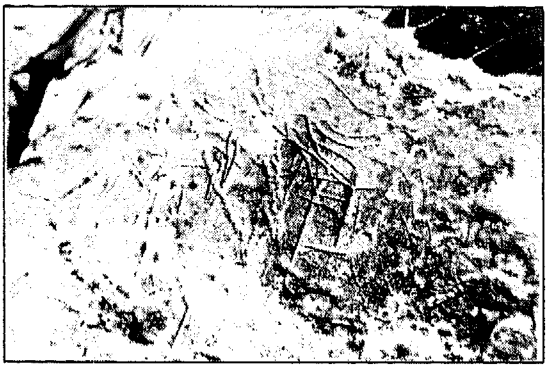
---

(٢) ان تغير شكل الخط يتحول في النقوش تحت تأثير تفاعلات فيزيائية كيميائية من شكل «V» الى شكل واسع ومسطح لا يدل الا بصفة تقريبية جدا على عمر اللوحة.

(٣) طبق لاجو أحد الطرق التقنية الفوتوغرافية على لوحات ايناهوانغات (تاسيلي). فالأشخاص الحمر الذين نراهم كأنهم مرسومون فوق رسم امرأة ملثمة لونها أخضر ضارب الى السمرة ليسوا كذلك تماما. وذلك لأن الزينة البيضاء للمرأة قد أضيفت في مرحلة لاحقة فوق الأشخاص الحمر. ان ممارسة اعادة تلوين الرسوم الجدارية الاسترالية (وند جينا) كي تزداد وضوحا تعتبر شائعة و يقرنها السكان الأصليون بحكايات أسطورية للاستسقاء. وقد لاحظ ذلك أيضا ل. فروبنيوس عند الشبان السينيغاليين.



١



٢



٣

● ١) نقش صخري لخرتيت، من بلاكا في النيجر. (تصوير هـ. ج. هوغو).

● ٢) غزلان بلاكا، النيجر (تصوير هـ. ج. هوغو).

● ٣) فيل عين ايكير، الصحراء الجزائرية (تصوير هـ. ب. س. هام).



بعض مغارات الفن بجنوب افريقيا تصور حيوانات يرجع تاريخها بتلك المناطق الى ما قبل ذلك التاريخ بكثير. ولهذا وجب علينا ان ننظر الى مشكلة الحقب.

الحقب

اذا أردنا تصنيف اكتشافات فن ما قبل التاريخ حسب مقطوعات زمنية معقولة، يجب ان يكون المنظار الاول جيولوجيا وبيئويا نظرا الى أن البيئة أيضا هي التي كانت تحدد الاطار العام للعيش وتفرضه، اذ كانت البيئة أكثر سيطرة من وقتنا الراهن على الشعوب المفتقرة الى التقنية وقتئذ. ولقد كانت الظروف الطبيعية بصفة خاصة، تتحكم في حياة الانواع المصورة ومنها الانسان نفسه بتقنياته وأساليبه، اذ انه من المتأكد، حسب تعبير ج. روفي «ان الانسان كان في الاصل حيوانا مداريا» افريقيا،ولقد سمحت الظروف المعتدلة في الجزء الشمالي من الكرة الارضية بعد التجمدات الكبرى، باستقرار الانسان في أوربا، وبلغ أوجه الازدهار في فن المغارات منذ ٤٠ قرنا. أما الفن الجداري الافريقي فهو أحدث من ذلك بكثير. فهو يرجع لا محالة حسب ما يعتقده بعض المؤرخين مثل أ. هولم الى حوالي العصر الحجري القديم اللاحق لكنه ميز، أساسا، العصر الحجري الجديد (٤).

ولقد تعودنا على تسمية المراحل الكبرى للفن الجداري باسم حيوان هو بمثابة قرينة نوعية له، ومن ثم ميزت أربع وحدات زمنية كبرى بالحيرم والثور والحصان والجمل.

كان الحيرم (Bubale) عبارة عن جاموس ضخم يرجع حسب الاحاثين الى بداية الدهر الرابع. فلقد مُثِّل وصُور منذ مطلع الفن الجداري (حوالي ٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر) حتى حوالي ٦٠٠٠. إن الحيوانات التي تميز أيضا تلك الفترة هي الفيل والكركدن. أما الثور فهو اما الثور الاسباني أي «البراكسيسيروس» ذو القرنين القصيرين والغليظين، أو الثور الافريقي ذو القرنين الجميلين اللذين لهما شكل الكنارة. ولقد ظهر هذا الأخير في حوالي سنة ٦٠٠٠ قبل الحاضر.

ويأتي الحصان الذي يجر أحيانا عربة في حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الحاضر (٥). ان تصوير

---

(٤) يبدو ان العصر الحجري الحديث الصحراوي، حسب الاكتشافات الحديثة موغل أكثر فأكثر في القدم. فلقد أرخ منجم فخاري من العصر الحجري الحديث بالمقار اعتمادا على الكربون ١٤ بحوالي ٨٤٥٠سنة قبل الحاضر. ولذلك فهو موافق للعصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى. ولذلك وجب الرجوع أيضا الى التواريخ التي قدمها د. اولديروغ في الفصل الحادي عشر لبلانة وتوشك في النوبة السفلى وهي تقدر بـ ١٢٠٥٠ و ١٢٥٥٠ سنة قبل الحاضر. وفي عين ايتينان وقع العثور على فضلات طعام بمنجم في مخبأ صخري ذي رسوم بقرية. اما أقدم موقد، فلقد حدد تاريخه اعتمادا على الكربون ١٤ بحوالي ٤٨٦٠ ± ٢٥٠ سنة قبل الحاضر. وقد عثر ف. موري في هضاب الأكاكوس (ليبيا) بين طبقتين ذاتي بقايا مواقد، على جزء من جدار سقط مع قسم من اللوحة يرجع تاريخه الى عصر الثيران. ولما أمكن تحديد تاريخ الطبقتين اتضح ان الجزء الذي سقط من الجدار يرجع الى سنة ٤٧٣٠ قبل الحاضر (انظر هـ. لهوت ١٩٧٦، ص ١٠٢ و١٠٩) كما يذكر أيضا تاريخ ٧٤٥٠ سنة قبل الحاضر لعصر الثيران الاوسط بالأكاكوس (انظر هـ. ج هوغو، ص ٢٣٤) كما أن ج. د. كلارك يشير في سولويزي (زمبيا) الى تاريخ ٦٣١٠ ± ٢٥٠ سنة قبل الحاضر. وعلى العكس من هذا، فان التاريخ الذي نجده في اطروحة ج. ت لورعن مخبأ ماتس بمقاطعة الكاب ١١٢٥٠ ± ٤٠٠ سنة قبل الحاضر. يعتبر غير موثوق. و يعتبر مثال تين هنكتن خارقا للعادة لأننا نستطيع أن نقيم علاقة ارتباط بين رسوم جدارية وسلسلة كاملة من مستويات العصر الحجري الجديد ومن مستويات بداية العصر التاريخية الاولى محتوية على هياكل عظمية. ويوجد به أيضا مستوى عاطري في طبقية بشرية يسهل ضبط تاريخها. (انظر اكتشاف نادر في تاسيلي، بمجلة أركيولوجيا عدد ٩٤، ماي ١٩٧٦، ص ٢٨ و٥٩).

(٥) كثيرا ما يبالغ في الربط بين دخول الحصان لافريقيا ودخول الهكسوس (Hyksos) لمصر (انظر في هذا الموضوع: ج.كي- زيربو ١٩٧٣ص ٩٩).

الركض الطائر، دون ان يكون واقعيا، يبدو طبيعيا عندما يجري على المسلك الغربي من المغرب الى السودان، ثم يصبح ارتساميا عندما يجري بالطريق الشرقي من الفزان (٦).

ونكون بهذا قد انتقلنا منذ مدة طويلة الى العصر التاريخي الذي زال فيه تمثيل فرس البحر من الفن الجداري، وذلك يعني بدون شك نهاية المياه الدائمة. و ينهي الجمل مسيرة هذه القافلة التاريخية. فلقد دخل مصر في حوالي ـ ٥٠٠ سنة، منذ الغزو الفارسي وتكاثر في حوالي اوائل التاريخ الميلادي (٧). لكن، نظر الى أن الأمر يتعلق بما قبل التاريخ، فاننا سنهتم خاصة بالفترتين الأولين وببداية الفترة الخيلية. ان تلك الفترات تميز الحياة النشيطة في تلك الأرض الشاسعة التي لم تتحول بعد الى صحراء قاحلة. و يتجادل الاختصاصيون من ناحية أخرى جدالا حاد في نطاق كل فترة كبيرة حول شأن التقسيم الزمني وتجزئته الى حقبات تاريخية ثانوية، لكن الاكتشافات متواصلة ويجب الانتباه، والا يجوز أن نتسرع بطريقة تعسفية في الزعم بأن هذا الحيوان أو ذاك يميز فترة كاملة من تاريخ لا نعرف منه الا الشيء القليل. ان الامر يتعلق قبل كل شيء، ان صح التعبير، بفصائل حيوانية غامضة، في نطاق علم الصور، اذ يوجد بينها كثير من التداخل والاختلاط. فالكبش مثلا يصنف بأنه لاحق زمنيا للحيرم والفيل الا أنه يظهر أحيانا معاصرا لهما، فنراه على نفس الجدران وبنفس التقنيات وله نفس الزنجار. ولعل الانسان قد أخذ يعمل على تأهيل هذا الحيوان أو حبسه لغاية دينية. وكذلك شأن الثيران الكبرى المنقوشة في ديدر (تاسيلي) ومنها ثور يتجاوز ٥ أمتار، مبرزا قرنين كبيرين في شكل كنارة تحيط برمز. فهذه الثيران تبدو كأنها معاصرة للحيرم. و يصنف بعض الاختصاصين ثور وادي جرات ذا القرط ضمن حقبة الحيرم. و يتزايد ظهور حيوانات جديدة في اللوحة مثل بومات تان تريت التي يبلغ عددها حوالي الأربعين والتي تمتزج بصور الثيران.

أما الفترات الكبرى في المناطق الاخرى خارج الصحراء فانها غالبا ما تكون أكثر حداثة كما أنها تتميز بصفات أخرى تختلف حسب المؤرخين، خاصة وان هؤلاء يعتمدون أحيانا في التقسيم الزمني على التقنيات والأنواع والأساليب (٨).

التقنيات والأنواع والأساليب

التقنيات

النقوش

ان النقوش السابقة للرسوم عموما، وذلك عندما تكون تلك الرسوم موجودة أيضا، وتظهر فنياتها الاكثر ابداعا في أعلى الحقبات، وكانت تنقش على صخور صلصالية أقل صلابة وكذلك على حجر الصوان والمرو أيضا باستعمال حجارة حادة مصنوعة بقارع من العصر الحجري الحديث وجدت منه

---

(٦) انظر: ر. موني «طرق العربات». ١٩٦١.

(٧) ان الجمل فيما يبدو، معروف منذ العصر الفرعوني (انظر: دموجو ١٩٦٠ ص ٢٠٩ ــ ٢٤٧).

(٨) ينطلق بعض المؤرخين بافريقيا الجنوبية من شكل الخط، ومن فن مباشرة الحجارة (الحز والدق المتفاوت والصقل الخ..) ومن طبيعة الكائنات الممثلة لتميز حقبتين كبيرتين تضم الاولى منها مرحلتين والثانية أربع مراحل.

بعض النماذج قرب اللوحات. وقد أمكن للفن ان يصل الى درجة كبيرة من الاتقان باستعمال تلك الادوات البسيطة فلقد نقش فيل برداي بخط خفيف بسيط فهو يكاد يكون تخطيطا، الا أنه يدل على الجوهر و بعكس ذلك فان فيل عين غالجيين (ماثندوس) وفيل عين هبتر الثاني، محفوران حفرا عميقا حسب خط بارز وواضح. كما نجد نفس الاسلوب في كركدن غنوا (تبستي) فنرى الخط الذي يقارب عمقه سنتمرا تقريبا في شكل «V» أو «U»، أما الحز فقد أنجز باستعمال فأس صخرية أو باستعمال خشب، صلب، يضاف الى ذلك استعمال رمل مبلل للحك. يظهر أحيانا ان عدة تقنيات استعملت في نفس الوقت مثل التطريق الخفيف والحز حسب شكل « V »، وقد ترك التخطيط المسبق هنا وهناك آثار تضرس داخل الخط. والصقل النهائي مصحوب بعملية برغلة (Bouchardage). وقد تطلب انجاز تلك النقوش أحيانا مواهب رياضية لا شك فيها كما نرى ذلك في وادي جرات مثلا حيث نجد فيلا يزيد ارتفاعه عن أربعة أمتار ونصف ومخططا لكركدن طوله ٨ أمتار.

قد تكون النقوش المحاطة بحفر واسع بافريقيا الوسطى والجنوبية مرتبطة باعتبارات دينية بينما تعبر النقوش ذات الخطوط الخفيفة عن هدف من أهداف التنشئة أو التربية. وتصلح بعض المساحات الداخلية المجوفة والمصقولة ببراعة، لاظهار ألوان شعر الحيوانات والأشياء التي تحملها، ومن هنا يأتي التفنن. وفي ذلك ارهاص بالنقوش الجدارية بمصر الفرعونية فننظر الى الصورة أحيانا وكأنها قوالب لنقوش بارزة في الصخر التي أفرغت لهذا الشأن (كامي) وتستعمل الصخرة الام بكثير من الحذق ومن ذلك ان زرافة قد صورت على كتلة مستطيلة من الديباز التي تفاعلت معه تفاعلا مكتملا (بالترنسفال الغربي) وكذلك الشأن بمنطقة لوفنتين حيث صوِّر كركدن على سطح صخرة خشنة حدودها مقرنة تعبر بدقة عن درع الحيوان المنقوش عليها. وعلى ربوة في منطقة أخرى من مرت جيسفونتين بالترنسفال الغربي أنجز تصوير حمار وحشي باستعمال النقش والتنقيط على قطعة من الديباز ويحد فكه الأسفل تقبب خفيف للحجارة يبين شكل الجسم. ومُثِّل عرف ظبي بديع موجود بمتحف الترنسفال بأشرطة منقوشة حفرا. ونقشت خصلته الامامية بخطوط محفورة بخفة. وتستعمل ألوان الصخرة الداخلية منها (الأزرق) والخارجية (أمغر(Ocre) أحمر) ببالغ المهارة لاظهار التباينات. وتعتبر زرافات بلاكا بفروها المختلف و بقوائمها في أوضاعها الطبيعية وحتى ارتعاش أذنيها بها آية من آيات الفتنة لمدرسة نقوش ما قبل التاريخ الافريقي. الا أن التقنية ستنحو عموما نحو التدهور. لقد أصبحت النقوش رديئة عموما حتى في ما يسمى مرحلة الثيران، و يظهر ذلك مثلا في زرافات القريربات المرسومة بنقش عريض وخشن.

الرسوم

لا يمكن فصلها تماما عن النقوش. وتمكننا التخطيطات المنقوشة على الجدران في تيسوكاي من التفكير في أن الفنانين كانوا ينقشون قبل الرسم: ولقد كان الفن يتطلب في عين المكان أيضا براعات رياضية. وفي وادي جرات رسم سقف من مرحلة الخيول وذو منحدر وعر على تسعة أمتار. وفي بعض المحطات في تاسيلي في تيسوكاي مثلا تظهر الرسوم على ارتفاع ٤ أمتار وكأنه يراد بها ان تبعد عن الأماكن السفلى التي يمكن ان يبلغها الانسان، وذلك مما استوجب استعمال سلالم بدائية

وحتى اقامة منصات. ان الرسوم متكونة من لون واحد أو متعددة الألوان حسب الحالات (٩) فنجد الصلصالي البنفسجي في المرتوتك المنخفض، والصلصالي الدموي في مخبأ جنوب الأنرى بلاكا. ونجد في مكان آخر لوحة متلألئة تلمع بفعل مزج الألوان مزجا موفقا الى درجة أنها تكاد تخلق من جديد ظروف الواقع وتوازنه وهذا العمل يتطلب تكنولوجية خاصة ومعقدة نسبيا وقد عثر على بقاياها في شكل مشاغل (Ateliers) فلقد استخرجت في عين ايتين رحى صغيرة مسطحة مصحوبة بمهاريس صغيرة تستعمل لفت الحجارة كما وقع العثور على أوعية صغيرة للألوان. ولقد تبين بالاعتماد على لمعان الألوان المدهش الذي نشاهده اليوم ان تلك الألوان كانت على غاية كبيرة من الصلابة. و يتركز سلم الألوان على بعض الألوان الرئيسية مثل الاحمر والاسمر، وأصلهما من الأمغر المستخرج من أكسيدات الحديد. و يتوفر الابيض من الصلصال الأبيض أو من بعر الحيوان وأيضا من عصارة النباتات أو من أكسيد الزنك. اما الاسود فانه يستخرج من الفحم الخشبي أو من عظام محروقة ومطحونة وكذلك من الدخان أو من الشحم المحروق و يدخل الاصفر والاخضر والبنفسجي الخ... في هذه المجموعة.. و يتأتي هذا اللمعان الحي الذي استطاع اختراق آلاف السنين من أن المواد اللونية المسحوقة جيدا بالمدق كانت تعجن وتخلط مع سائل، يمكن ان يكون حليبا لأنه يحتوي على الكازيين (مادة بروتينية في الحليب) الذي يساعد على الخلط، ويمكن ان يكون شحما ذئبا أو غرقد (بياض) البيض، أو عسلا أو نخاع العظام المحروقة. وكانت الألوان تلصق بالأصابع أو بريش العصافير أو باستعمال ملعقة من القش أو من الأخشاب المضوغة، وكذلك بوبر حيوانات مربوطة بعصا بواسطة أوتار، وأحيانا باستعمال الفم لرش السائل. وقد أعطتنا هذه الطريقة الاخيرة الرسوم السلبية للأيدي التي مازلنا نراها على جدران الصخور والتي تمثل نوعا من الامضاء الاصلي لأصحاب الرسوم. وتطرأ أحيانا بعض الاصلاحات بدون طمس الرسوم الاولية فنرى ثيرانا بأربعة قرون، أو رجالا بأربعة سواعد الخ... وفي هذا المجال استعملت خصائص الصخرة استعمالا مفيدا أحيانا، كما في تهيلاهي، حيث استعملت فجوة طبيعية في الصخرة، فأصبحت موردا يتقاطر اليه القطيع (١٠).

الحلي

تتطلب صناعة الحلي مهارة لا تقل تطورا عن غيرها. وتتكون بعض الجوهرات من العقيق الاحمر المستخرج من صخرة خارجها صلب جدا. وتمكننا البقايا التي تركها صانعو المجوهرات في مختلف مراحل عملهم من اعادة تركيب تلك المراحل. فتصنع أولا أقراص صغيرة قرعا، ثم دلكا. وتفصل بعد ذلك ابرة كبيرة ذات أربع زوايا من حجر الصوان لتستعمل منقاشا. و يغرز حدها القاطع في وسط القرص من جهة ثم من الجهة الاخرى على التوالي، للحصول على كوبين صغيرين متواجهين يمثل التقاؤهما أدق مرحلة في العملية، ثم يتحول خنجر الصوان هذا الى مثقاب دوار يبرد الثقب

---

(٩) تحتوي افريقيا الجنوبية والترانسفال وناميبيا خاصة على رسوم ذات لون واحد، وكثيرا ما نجد رسوم بوتشوانا، وغريكا لند، وناتال متعددة الألوان.

(١٠) لاجوكس ـــ المصدر المذكور سابقا ص ١٥١.



١

● ١) رسم على صخر من ناميبيا (تصوير أ. أ. ميرز، رقم ٣٦٧٢).
● ٢) نقش على الصخر من تيبستي (تصوير هاوكي، رقم ١١٠٠٣).



٢

الوسطى حتى يفتحه تماما باستعمال رمل دقيق مغلف بطلاء نباتي. وكانت تصنع أحجار أخرى لا تقل صعوبة (الأمازونيت والهماتيت والكالسيدو ين) وكذلك العظام والعاج لكي تستخرج منها قلائد وأساور وخلاخيل وكان حجر الكذان (Ponce) مستعملا لصقلها. ولقد عثر في تين هنا كاتن على بعض المشاقب من الميكروديوريت وسط حبات من قشرة بيض النعام تصلح لنظم القلائد.

صناعة الفخار

أما عجين الخزف فقد كان يعد بمادة لزجة تتكون من غائط حيوانات مجترة. ثم يهيؤ باستعمال فصيد(Boudin) مطوى من العجين مخدوم بالأصابع والمصقال. وكانت لفوهات تلك الأواني أشكال مختلفة. منحنية كالفصيد، عريضة أو مائلة. ان الفروق الدقيقة بين الالوان المتزاوجة من الوردي الى الاسود الداكن توضح لنا ان الاكتواء كان على غاية من الجودة. وكان دهان الفخار معروفا وكذلك البرنيق (Vernis) النباتي الذي مازال مستعملا في افريقيا الى يومنا هذا في صناعة الخزف ولَكّ (Laquer)وتجميل أرضيات المنازل وسقوفها وجدرانها. وكانت الزخرفة الرائعة ترسم باستعمال أمشاط عظمية أو بحسك السمك وكذلك بشوك السنابل والحبال أو الحبوب، وهي تدل على فيض من الخيال من خلال تكاثر المواضيع والاشكال. وتشهد أفران الخزافين بوادي أشد في شمال بلاد مالي، والمجموعة في مكان مخصص على أهمية عمل أولئك الصناع الذين لا يقلون عبقرية عن معاصريهم بالشهانب بالسودان الخرطومي (١١).

النحت

ان النحت أيضا ليس منعدما فهويهم خاصة المنمنمات اذ نجد في وادي أمزار (تاسيلي) حيوانا مجترا متمددا، وثورا راقدا في ترزروك بالهقار، وفي أدجفوا نرى أرنبا بريا صغيرا ذا أذنين طويلتين مسترخيتين على الجسم، ورأس كبش فتان في تمنتيت بالتوات، وصخرة منحوتة ذات شكل انساني في عوان سيدي بالعرق الشرقي، وتماثيل صغيرة رائعة لرأس بومة بتابلبلت. أما في تين هنكتن فنجد تماثيل صغيرة من الطين تمثل أشكال عصافير، ونساء، وبقريات على رأس احداها الى حد الآن غصنان صغيران يقومان مقام القرنين.

لأنواع والأساليب

يمكننا ان نميز في الصحراء بصفة اجمالية ثلاثة أنواع وثلاثة أساليب كبيرة تتناسب تقريبا والفترات التي ذكرناها آنفا. النوع الاول هو الصنع القديم ذو الحجم الكبير، ونصف الطبيعي. أو الرمزي فيظهر ان الانسان مازال تحت وقع الاحاسيس الاولى أمام قوة الحيوانات التي تستوجب

(١١)انظر: ج. هـ. هوغو، المذكور سابقا، ص ١٥٥.

اخضاعها بالسحر عند الاقتضاء. ويمكننا ان نميز طابقين من هذا النوع ينسب الأول الى الاسلوب الحيرمي المتمركز في جنوب منطقة وهران و بتاسيلي وفي الفزان، و يتميز بنقوش تدل على قوة في الملاحظة، وكثيرا ما تكون المواضيع المتكونة غالبا من الحيوانات الكبيرة منعزلة. و يكتفي الصنع نصف الطبيعي المتجرد والبسيط بالخطوط الرئيسية المرسومة بمهارة وذلك شأن الكركدن والبجع بوادي جرات (في تاسيلي) وفيل برداي بالتشاد، وفيل عين غالجين في وادي ماثندوس. و يتميز الطابق الثاني بالظباء و بأور يات مرسومة خصوصا. ان رسوم الانسان، برأس كروى، كثيرة في هذا الطابق، مما يشير الى نزعة نصف طبيعية وأحيانا رمزية. أما الاشكال فانها تبدو أكثر حركة وانتعاشا وحتى مؤثرة عوض أن تكون بسيطة. والطقوس ليست غائبة، بل نحس بها عندما نرى الحيوانات الطوطمية والبشر المقنعين والرقصات الدينية الخ... فليس من المعتاد ان تبرز الأشياء هنا منعزلة. وتوجد بعض اللوحات الصغيرة كما توجد أفاريز ولوحات كبيرة مركبة، وهي أكثر اللوحات في العالم. يستقرأ هذا الاسلوب المتجمع في تاسيلي من مشاهد تظهر فيها أرويات قرونها قوية، ورقاصون مقنعون مثلما هو الشأن بسفار (اسم موقع أثري حسب ج. لاجو) وكاهنة وانريت المسماة (السيدة البيضاء).

ان النوع الكبير الثاني يتمثل في الرسم والنقش الطبيعي ذى المواضيع الصغيرة الشكل تبدو منفردة أو مجتمعة. ان هذا الاسلوب وصفي بحت، ونشعر بأن الانسان نشيط و بأنه أصبح يسيطر على البقر والكلاب والضأن والماعز و يقودها. وقد تكاثرت الالوان. والمشاهد تمثل صحراء القرى والخيمات ويمكن ان يكون الموقع الأثري الممثل لهذا النوع هو جبرين.

أما النوع الاسلوبي الثالث فانه ارتسامي، رمزي أو تجريدي. ولقد احتفظ بالتقنية السابقة لكنها غالبا ما نجدها متدهورة. على ان ذلك لا يدعو الى ان نتصور تقهقرا شاملا. وأصبح النقش هجينا عندما اتخذ الاسلوب الغامض والمنقط التقريبي. لكن أسلوب الخط الخفيف في الرسم ولو أنه أقل قيمة من الخط البسيط والقوي القديم من عدة أوجه، الا أنه مكن من احراز التقدم للتعبير عن الحركة بنسبة ثلاثة أرباعها أحيانا. وهو يخضع أحسن للتنميق وللنماذج الجديدة. وتذكرنا أناقة الخطوط عند انسان غنوا (في الصحراء التشادية) برسم الريشة حيث تظهر بدقة شبه فوتوغرافية، العيون والحدقات والشعر والفم والأنف. وتمكن طريقة التصوير المائي أيضا من اظهار الاختلافات الدقيقة وذلك شأن الظبي الصغير في ايهرن (تاسيلي) ذي القوائم المرتخية، الذي يقبل للرضاع تحت خطم أمه الذي يكاد ينحني عطفا عليه. ان ذلك الفن ملائم تماما لتصوير الخيل والعربات ثم الجمل وكذلك الانسان الذي أصبح ذا مثلثين كما نرى ذلك في أسدجان وان ملان، أو الذي يبرز رقبة طويلة مكان الرأس. نجد اذن في نفس الوقت اتجاها نحو تكلف الخط الدقيق ونحو التبسيط الهندسي المتسرع الذي يتداخل في آخر العصر مع الحروف الهجائية الليبية البربرية أو التيفيناغ. ان الكثير من التفاصيل كالسروج العربية ذات القربوس الخلفي التي ترجع الى ما بعد القرن السابع، تمكننا ان نصنف تلك المشاهد خارج عصورها قبل التاريخ.

ان بعض الملاحظات تفرض نفسها في ما يخص تلك الأساليب التي تتطور بدون تقسيم زمني دقيق، اذ ان الطابق الثاني هو من أسلوب عتيق مخلوط. فليس للثور ذي الهملجة في سفار شيء من الرؤوس القنعة ذات المواضيع الرمزية. كما أن بعض القوالب من جهة أخرى مستمدة من عدة

أنواع وأساليب. ومثال ذلك فن الرسم الذي يقوم بتمثيل البقريات بقرون أمامية، وتمثيل الرأس في منظر جانبي كما نرى ذلك في وان رندر. و يلحق بالقوالب أيضا رسوم الرعاة في حركات أو مواقف نشاهد فيها يدهم ممدودة واليد الاخرى معطوفة على الخصر. كما برزت بصفة جلية بعض المواضيع الجهوية، من ذلك: الكبش بجنوب منطقة وهران، واللولب في تاسيلي، مع أنه لا يظهر في الفزان وفي جنوب منطقة وهران،أما المواضيع الجنسية فانها تميزخاصة الفزان وتاسيلي.

أما فيا يخص أسلوب الزينة، فاننا نشاهد في القابسي الاعلى نقوشا على بيض النعام مواضيعها هندسية. ولقد وفر لنا خاصة العصر الحجري الجديد ذو التقاليد السودانية الادوات والأسلحة الفنية، والصفائح البديعة الصوانية المُيشبة. والمطلية بالأخضر والأحمر الداكن، وأواني الفخار التي تزينها خطوط متموجة ورؤوس سهام تيشيت بأسنانها المصقولة صقلا جيدا و بشكلها المثلث الممتاز.

ان النوعية مازالت تنتظر التحديد في المناطق الافريقية الاخرى. ولقد ذكر مثلا مؤرخ في ناميبيا ٢٠ طبقة وأسلوبا من ألوان مختلفة تتوزع على أربع مراحل كبيرة: ١) مرحلة الصنع القديم التي تمثل حيوانات كبيرة بدون رسوم انسانية. ٢) مرحلة اللوحات الصغيرة وبها صور انسانية. ٣) مرحلة اللون الواحد وبها مناظر الصيد والرقصات الدينية التي تطفح بالحياة. ٤) مرحلة استعمال الألوان المختلفة التي تبلغ القمة الجمالية في مخبأ فيليب كاف (داماراالاند)، مثلا وفي رسوم برندبرغ التي يرجع تاريخها الى سنة ١٥٠٠. بميزل. فروبنيوس من جهته أسلوبين أساسيين في الفن الجداري بافريقيا الجنوبية. في أقصى جنوب القارة، من الترانسفال الى الكاب، ومن دراكنسبرغ الشرقي الى الشواطىء الصخرية الناميبية، نلاحظ «فنا طبيعيا» تغلب فيه الحيوانات المرسومة في أكثر الأحيان مفردة بمهارة كبيرة، فتظهر طيات الجلد وخطوط جلد الحمار الوحشي، الا أن ذلك الفن يبدو جامدا أو فاترا وان كانت الرسوم ملونة بألوان مختلفة ومركبة. ولقد وضعت الألوان بمهارة كبيرة باستعمال الدلك. ان الأمر يتعلق هنا بمناظر منظمة تعبر عن الصيد والرقص والمواكب والمجالس وبالعكس من ذلك، فان الفن من الترانسفال الأوسط الى الزمبيز (زمبيا، زمبابوي وملاوى) يختص بلون واحد أساسا، فهو يرتكز على الأحمر أو أمغر أكسيدات الحديد، ويميل أحيانا الى البنفسجي. وتتكون الصخرة القاعدية من الغرانيت عوضا عن الصلصال الذي نجده في الموضع السابق. و يرتكز الفن على الرسم الذي يبين كيف يكون أيضا قريبا من الواقع، مثل التصوير المائي بالجنوب. الا أن ذلك لا يعني تصويرا آليا للواقع الذي يؤول أحيانا الى مشاهد مركبة يخصب فيها الخيال الى درجة الروعة (١٢).

يظهر الانسان وله كتفان عريضان وخصر ضيق. و بكل ايجاز له شكل مسماري. وعندما ننظر اليه من الأمام نشاهد أعضاءه في منظر جانبي مثل ما هو الشأن في النقوش الجدارية المصرية. و يبدو أن أشخاص الجنوب أقرب الى الطبيعة ولهم أعضاء أكثر احكاما وذلك في مشاهد الصيد أو الصراع المتداخلين في بعض الأحيان. و يتعلق الأمر في الشمال، بمشاهد مأتمية ذات أبهة، لعلها تمثل جنائز ملكية يعبر فيها أشخاص عن ولائهم وعطفهم. أما الحيوانات، فانها تتوالى، كما هو

(١٢) ان تمثيل حيوانات القنص والحيوانات عموما أمر طبيعي، وذلك لأسباب سحرية في بعض الحالات لأن الرسم يجب ان يمثل بأكبر دقة ممكنة موضوع الشعائر الطقوسية. أما الصور الانسانية فانها بالعكس مبسطة عمدا بغية إبعادها عن مفعول السحر.

الشأن في مغارة اينورو الكبيرة، لا كسفينة نوح المرسومة بعناية، بل كأنها أساطير حيوانات خارقة، فيها طيور ضخمة لها مناقير تشبه أفواه التماسيح، وفيلة عظيمة ذات ظهور مسننة، وحيوانات من ذوات الرأسين، كما نجد أحيانا أساطير مهذبة مثل أسطورة المطر. يتكون اطار هذه اللوحات الخيالية من مناظر حقيقية تكون فيه الصخور والاشجار معروفة الأنواع. أما البحيرات ذات السمك، فانها مرتبة ترتيبا ذكيا. فهذا الفن هو فن زمبابوي و يبدو أقل حركية من الجنوب لكنه ملىء بالأحاسيس الفياضة والمؤثرة، ان الاسلوب المسماري لا يمكن ان يكون حسب ل. فرو بنيوس الا مرتبطا بحضارة عظيمة، ونحن نعلم ان منطقة زمبابوي لا ينقصها ذلك. فهو يرى أيضا ان ذلك الاسلوب المليء بالزوايا والبسيط قد ترك المجال لأسلوب أكثر تكورا ومرونة وأكثر تكلفا وأنوثة عند اضمحلال المجتمعات التي أوحت به (١٣).

يبدو أسلوب النقوش الجدارية في شمال فولتا العليا (أر بيندا)، نصف طبيعي أو ارتسامي، في حين تختص نقوش الجنوب بأشكال هندسية. وتوجد أيضا رسوم في مغارات الشاطىء الصخري في بنفورا.

وقد مكنت الحفريات في امبراطورية وسط افريقيا من إكتشاف مواقع تشهد بالوجود الإنساني منذ عصرما قبل الأشولي، وتواصل حتى عصر المعادن. فلقد حددت خمس مواقع للفن الجداري: مخبأ تولو بمنطقة نديلي المسكون منذ ما قبل التاريخ الى يومنا هذا، والذي يحتوي على أشخاص من غابر الأزمان، مصورين بالأحمر، وعلى مواضيع أخرى لونها أبيض وتبدو الأيادي في شكل «عروة وعاء». و يوجد أيضا مخبأ كومبالا، ومواقع النقوش بمنابع مباتو، ومواقع لنغو (مبومو). إن هذا الفن قليل النسب بفن الصحراء بل له صلة بلوحات إفريقيا الشرقية والجنوبية (١٤).

الحوافز والتأويلات

وصفت الرسوم الجدارية بأنها بتروغليفية. ان هذا الفن يعتبر علامة هنا أكثر من أي مكان آخر، أي أنه يمثل جسرا بين الواقع والفكرة، انه رمز خطي تستوجب قراءته مقياسا. ان الجهل بالظروف الاجتماعية التي أنتجت هذا الفن هو في الواقع أكبر عقبة دون تأويله تأويلا صحيحا. لذلك ينبغي ألا نسرع كثيرا نحو التأويل، وأن لا نتجاوز مرحلة وصف الرمز في حد ذاته، بمعنى مرحلة التحليل الشكلي، اذ انه يحدث ان يحصل الوصف نفسه حسب مصطلحات تأويلية. ان الطريقة الاحصائية قادرة على ان تمكننا عند الضرورة من جدولة المعطيات الكمية والكيفية بالنسبة لأكبر عدد ممكن من اللوحات بصورة تسمح لنا بالتحليل المقارن (١٥). فنستطيع ان نرى مثلا هل أن أنظمة الرموز الملحوظة في عدد معين من اللوحات تخضع لدينامية معينة في الزمان والمكان.

وتكون مرحلة التطور التي أعيد انشاؤها أكثر احتمالا كلما اكتملت الوثائق. فلا يمكن تأكيد

(١٣) انظر: أ. هبرلاند، ليوفروبنيوس.

(١٤) انظر: ر. دي بايل دي هرمنس في «أركيولوجيا» عدد ٩٢، مارس ١٩٧٦.

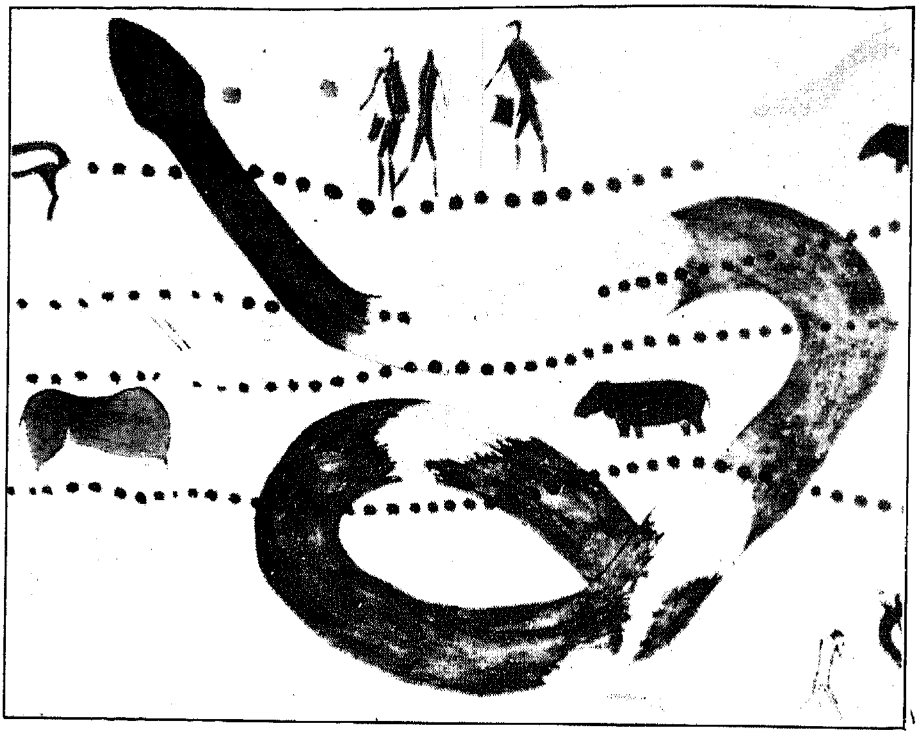
(١٥) يمكن أن تخضع هذه الدراسة الكمية للمعالجة بواسطة العقل الالكتروني، مع ضرورة التزام الحذر. انظر: في هذا الشأن أ. ستر يدتر، بمعهد فروبنيوس بفرنكفورت الذي يديره الاستاذ هبرلاند.

الافتراضات الناتجة عن الدراسة الشكلية الا اذا وافقت مجموعة المعطيات التي تشكل النظام العام لذلك المجتمع، لأن لوحة من عصر ما قبل التاريخ ليست في الواقع الا جزءا ضئيلا من نظام كبير من المعلومات، أي من ثقافة تحتوي على أشياء أخرى. اننا ندرك في هذا المستوى من التحليل ما عسانا نبلغ من التعقيد في العلامات للوصول الى فهم المعنى الصحيح للتمثيل الجمالي. مع العلم أنه، زيادة على معنى التمثيل الواضح، يمكن لنفس التمثيل ان يعبر عن معنى خفي، لأن الرمز ليس علامة فحسب عن شيء ما ولكنه علامة عن شخص ما (رمزية)، فوجب اذن ان نرتقي من الشكل الى التركيب الاجتماعي فنستطيع ان نتجاوز التعليق البسيط على لوحة طبيعية محضة، ومن معنى بديهي الى مرحلة فك المعنى المدلول للوحة مجردة. فهنا ينبغي الرجوع الى الثقافة المحيطة، لأن المدلول ممثل بطرق مختلفة بحسب الثقافات وكلما بعد الرمز عن الموضوع المحدد كان الرمز خاصا بثقافة معينة وكان أكثر دلالة مثله مثل المشاكلة الصوتية الموجودة في لغات عديدة والتي لا يمكن ان تميز واحدة منها، نظرا لأن هذا الصوت مشاكل لنفس الطبيعة المشتركة. وعلى العكس من هذا، فان الامور تختلف بالنسبة لكلمة نموذجية من لغة معينة فيمكن لنا عندئذ ان نعتبر الأروقة الفنية الكبرى بمثابة محطات لبث الآثار الفنية. لكن من هم الملتقطون لها؟ ألا تبث تلك الأجهزة للمنتجين أنفسهم قبل كل شيء، وكذلك لمجتمعهم الذي لم يترك لنا الا آثارا نادرة تيسر لنا قراءة وفهم تلك الآثار؟ وبايجاز يجب ان تنتهي اشكالية واستراتيجية الاستكشاف الفني بتعريف أنواع الثقافة التي تقوم عليها هذه المظاهر الجزئية. ويمكن لنا بالاعتماد على تحديد المجالات الثقافية التي ترعرعت فيها، أن نستعيد بناء العلاقات التاريخية في نطاق النسيج الذي تندرج فيه.

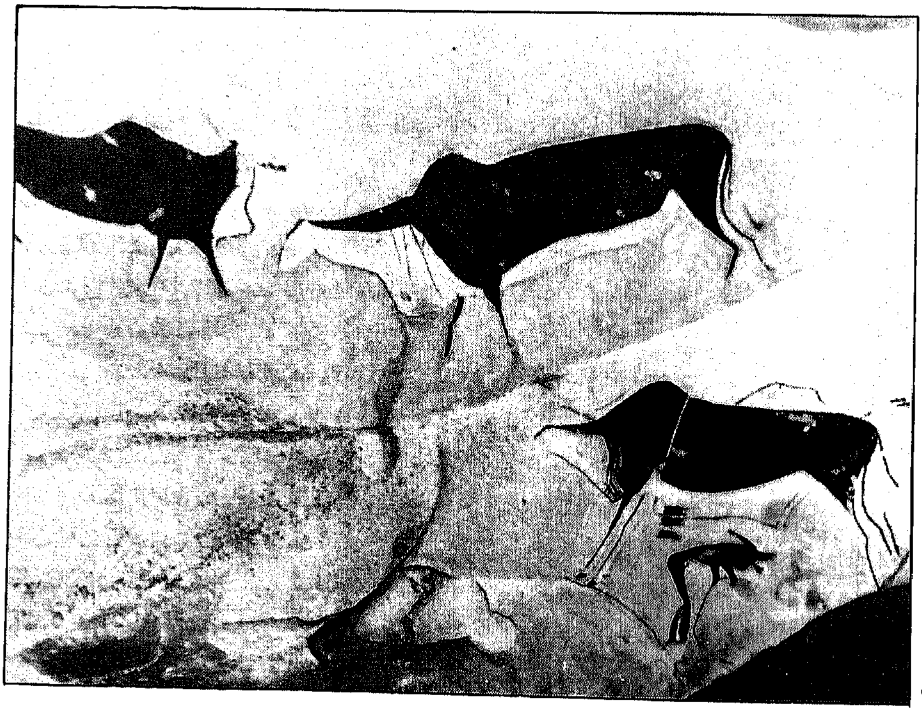
لذلك فقد نفقد الفن دلالته اذ أطلقنا على الرسوم الجدارية الافريقية عبارات وعناوين مثل (القضاة، السيدة البيضاء، قالع الاسنان، جوزفين التي باعتها أخواتها، أو سكان المريخ) لأننا نحوّل ونغير كيانا ثقافيا عندما نؤوله باعتماد فهم ملاحظ واحد، أو من خلال حضارة أخرى (١٦)، فيمكننا ان نعتمد مبدأ عاما يتلخص في ان فن ما قبل التاريخ الافريقي يستوجب أن يؤول أولا، انطلاقا من مستندات افريقية أصيلة. فلا يمكن لنا أن نبحث عن أسباب خارجة عنها الا اذا لم نتحصل على جواب لمشكل من المشاكل في المحيط الزمني والمكاني والثقافي المحلي، الجهوي أو القاري.

وانطلاقا من ذلك، تعتمد حاليا معالجتان لتفسير فن ما قبل التاريخ، أي المعالجة المثالية والمعالجة المادية. يمثل هذا الفن، حسب المعالجة المثالية، قبل كل شيء تعبيرا عن مختلف النظرات الى العالم التي كانت سائدة عند تلك الشعوب آنذاك. ان تلك النظرات وحدها تفسر لا المحتوى فحسب، بل الشكل أيضا. فيجب اذن التخلص من العقل العقلاني: فلقد قال أريك هولم «ان الفن بافريقيا الجنوبية يظهر في صورته الحقيقية اذا اعتبرناه تعبيرا عن الشعور الديني وعن الحاجة لتجاوز الأشياء. فلقد كانت تلك الماورائية ميزة الانسانية البدائية وليست الصور الحيوانية الا قناعا

(١٦) انظر: في هذا الشأن ملاحظات ج. د. لاجو القيمة، ١٩٧٧، ص ١١٥ وما بعدها. بدون ان ننكر الاب بروي في الهزل أو ننكر ثقافته الواسعة أو الخدمات الجليلة التي قدمها لدراسة ما قبل التاريخ عموما وما قبل التاريخ الافريقي بصفة خاصة فيجب ان نقر بأنه غالبا ما خضع لهذا الاتجاه الهزلي.



١



٢

● ١) درب الافعى. (تصوير أ. أ.، مودوي) رقم ٣٥ ج.
● ٢) الرسم الصخري المسمّى «السيدة البيضاء». (تصوير أ. أ.، دوڤرجيه)، رقم ٤٨٥٢.

يخفي الطبيعة الحقيقية لطموحات الانسان. فلنكتف اذن بالاشارات التي تزودنا بها الأسطورة عوضا عن أن ننساق الى الجدال الكلامي، لأن تلك الصور واضحة بما فيه الكفاية (١٧).

في هذه الظروف، تمثل الرمزية الخرافية والمتعلقة بنشأة الكون أهم مفتاح لاستكشاف عالم الفن الجداري. ولقد توسع فروبينيوس في شرح نفس الآراء وان كان قد أخذ بالاعتبارات الاجتماعية أيضا.

و يقال بأن الأسد نقش في لوفنتين على الوجه الجانبي من الصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الاولى، لأنه يمثل كوكب النهار، في حين ان وجه الكركدن موجه نحو الغرب لأنه يمثل روح الليل والظلام. ان الكركدن الذي يرمز قرناه الى الهلال الناشيء يعتبر حسب التقاليد أنه قد اغتال القمر الخ... و يتحدث أ. هولم أيضا عن «الوظيفة القدسية» للمغارات الواقعة في المرتفعات النائية. فلقد دعت أسطورة نشأة الكون العالم اللغوي الألماني وليام بليك التي استقاها في القرن التاسع عشر من قبيلة السان الى اعتبار أولئك السان بأنهم «لا يميزون بين المادة والروح». ان تمثيل ظبي الكاب بقوائمه الضامرة يرمز الى القمر الطالع. وهذا الظبي اذ يواجه رسوما انسانية مثل التي توجد في مغارة هرنفين (دراكسنبروغ) يفيد أن أولئك البشر كانوا يعبدونه: و يرمز الشمواه (تيس الجبال) الفاقع اللون المخطط بالأحمر الى الزوبعة، وترمز الراهبة الى البرق، والفيل الى السحاب الممطر، مثلما هو الشأن في جبل القديس بولس (دراكسنبورغ) وقد توجد تلك الأسطورة لا في جهات أخرى من افريقيا فحسب (مغارة فيليب بناميبيا، وجبل بوسبع، وعين غجة بالجزائر) بل توجد أيضا على عاج منقوش، في المادلان بفرنسا.

ويختص ظبي الكاب البديع الموجود بمتحف الترانسفال بوبر لونه عسلي، وهو يفيد بكل بساطة بأن الظبي مخلوق الراهبة التي تمثل الشمس وأن الراهبة قد دهنته بعسل صاف حتى يلمع و بره. ولئن كان الحمار الوحشي قد رسم أحيانا بدون خطوط كما هو الشأن في مغارة نسواتوغي في جبال متوبو بزمبابوي، فذلك لأن هذا الحيوان لم يكن في الأصل مخططا ولم يتميز و بره الا بعد ان وقعت الشمس على صلبه تاركة حروقها به الخ... من هذا المنظار، يكفي ان تتوفر لنا كل تفاصيل «تحول العقائد الشارحة للألغاز الافريقية لكي نتحصل على المفتاح الذي يمكننا من فهم كل ألغاز الفن الجداري الافريقي المعبر عنه بأنه «لا يخضع للزمن مثل الأسطورة». لكن يجب ان نعترف بأن الأمر ليس بمثل هذه البساطة.

أما أصحاب المعالجة المادية، فانهم يرون أن فن ما قبل التاريخ مثله مثل أي فن آخر ليس الا انعكاسا للوجود الملموس للانسان في مجتمع معين فهو «لحظة ايديولوجية» وأداة من البنيات الفوقية تعبرعن توازن بيئوي واجتماعي معين تمكن الانسان من المحافظة عليه أو من تحسينه لمصلحته.

في هذا الاطار، نرى أنه يلزم القيام بالتأليف بين هاتين المعالجتين، لانهما ناقصتان اذا نفت احداهما الاخرى. فما من شك أن فن ما قبل التاريخ قام بنقل رسالة بيداغوجية واجتماعية. ان السان الذين يشكلون اليوم أقرب شعب الى واقع التمثيل الجداري، يؤكدون ان آباءهم فسروا لهم العالم من خلال مجموعة الرسوم الضخمة التي تمثلها الأروقة. وترتكز تربية الشعوب التي لا كتابة

(١٧) أ. هولم، في «الفن في العالم، العصر الحجري» ص ١٨٣ وما بعدها ص ١٧٠ وما بعدها الخ.



أ



٢

● ١) تفصيل من نقش صخري من فولتا العليا (تصوير ج. ديڤيس).
● ٢) رسم صخري من ناميبيا (تصوير أ. أ. أ. ميرز)، رقم ٣٨٠٨.

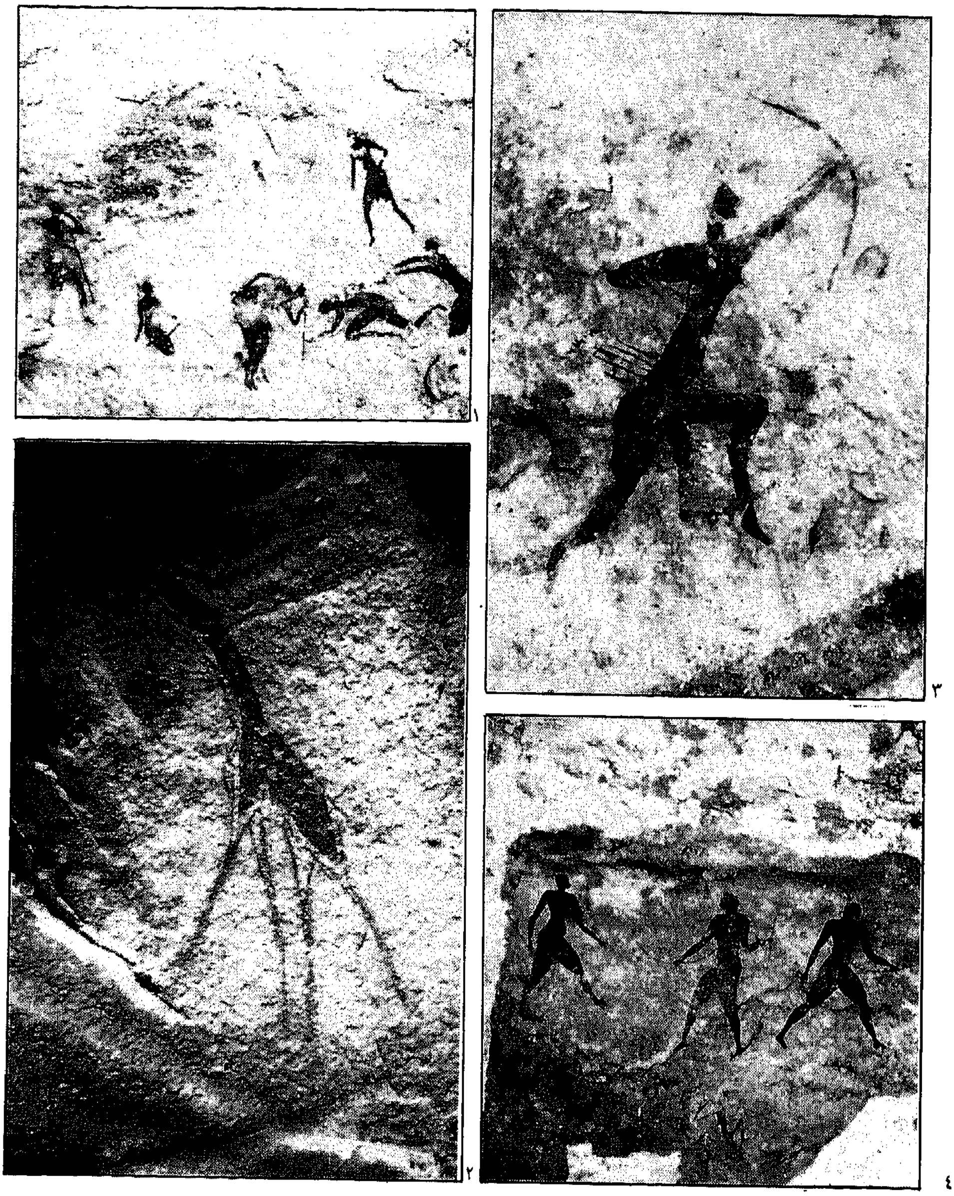
لها على الصورة والصوت، قل كل شيء، أي على الطريقة السمعية البصرية كما نرى ذلك الى اليوم في تنشئة الشباب في جنوب الصحراء الافريقية. ان النقش الفني على الحجر يخضع لهذا النظام. ومن البديهي أن الأسطورة لا تفسر كل شيء لأنه يجب، قبل انتاج الاسطورة، بناء، ثم اعادة بناء المجتمع نفسه. وبهذه الصورة يمكن ان تصبح الاسطورة أداة ممتازة لتحسين (أو لإتلاف) الطاقات الانتاجية وعلاقات الانتاج وهذا ما يعتقده أ. هولم نفسه عندما ذكر شأن شاب السّان المتأكد من ان سنان السهم المنقوشة في المرو اللامع هي جزء من النجم، فيخاطبه مبتهلا اليه: «أنت، يا من لا يخطيء المرمى، أيها المعصوم من الخطأ، مكني من أن أدرك غنيمتي». ان هذه الجملة وحدها تعبر عن مغزى منفعي قبل كل شيء عكسا للاستنتاج المثالي الذي يخلصه منها الكاتب. ان الانسان يحتاج ليظل على قيد الحياة الى أن يستنفر الكون وأن يجنده. وتلك هي وظيفة الاسطورة وان كنت لا أظن أنها وظيفته (١٨) الوحيدة، ولذلك وجب الا تمنعنا غابة الرموز من رؤية أشجار الواقع الملموس.

يمكن أن توجد الوظيفة الروحية وجودا مستقلا، فتصلح حينئذ من الناحية الذاتية لا كوسيلة، بل كنهاية في حد ذاتها. أليست الأسطورة في النهاية طريقة يستعملها الانسان لادراك الكون وذلك بتنظيمه أي بجعله مفهوما عقليا نوعا ما، اذ ان الخطاب الاسطوري يعتمد على منطق ذاتي خاص به فالهدف الروحي موجود اذن، ولو أنه مربوط في أغلب الأحيان بأمور دنيوية. ان تمثيل كائن مخيف يعني قبل كل شيء التخلص من سيطرته، ومراقبته بالنظر تعني السيطرة عليه. فهل يعبر سكوت المعادن الذي يكاد يلمس والذي يملأ الاروقة الصخرية السرية المسدودة في عين اتينان، وتسوكاي، هل يعبر عن خشوع المعابد وأماكن التنشئة، أو عن ايواء حيوانات محشورة فيها أو مسروقة؟ قد يفيد هذا وذلك. ان الاشخاص الواضعين على رؤوسهم قناع الحيوانات و يوجدون غالبا في نفس المكان مع الحيوانات ذات الصفات الدماغية (أقراص، قضبان الخ..) (١٩) وذلك بجنوب منطقة وهران في وادي جرات، توحي بأشخاص في موقف تعبّد أمام الحيوانات. وكذلك يمكن أن يعبر الصيادون الثلاثة المقنعون في جرات، عن حالة من الافتتان، وكأنهم يطاردون جاموسا يحمل قرصا.

وبما أن الأهالي الافارقة ما انفكوا يستعملون الأقنعة فلماذا لا نركز تأويل مثل تلك المشاهد على هذه الاشكالية الثقافية عوض ان نركن الى الخرافات البسيطة؟ والملاحظ أن التفسير ليس دينيا دائما. و يلبس صيادو المنطقة الساحلية حتى يومنا هذا رأس أبوقرين (طائر) فيحركونه من الأعلى الى الأسفل مقلدين ذلك الطائر ليقتربوا على أربعة قوائم من الظبي قبل رميه بالسهم. ان التباعد بين الوسائل والنتيجة تبلغ حدا كبيرا أحيانا الى درجة تجعلنا نشتم السحر بقوة كأن نرى مثلا رجلا مقنعا يجذب بدون جهد كركدنا مقتولا وأرجله الاربعة مطلوقة في الفضاء وذلك بعين هباتر

(١٨) تحوي الاساطير من حيث النظرة التاريخية البحتة، كثيرا من المعلومات، فان الشمس ـــ في اعتقاد قبيلة السان ـــ انزعجت من حمل الحمار الوحشي لها على ظهره، فهجرته لتستقر بين قرني الثور. وذلك ما يحيلنا الى الطرف الآخر من القارة أي الى الرسوم التمثيلية بشمال افريقيا (جنوب وهران، والصحراء ومصر) حيث نرى بقريات تحمل أقراصا شمسية، فهل نستنتج من هذا ان الآلهة ـــ البقرة (هاتور) نشأت من أسطورة افريقية؟.

(١٩) انظر: الامثلة المشهورة عن ثور مياديب (ليبيا) وكبش بوعلام (الاطلس الصحراوي).



● ١) رسوم الصخر من هضبة تاسيلي الناجر (الجزائر). (تصوير أ. أ.، ١ و ٤: نسود، رقم ١٢٥٩٩ و١٢٣٧٩؛ ٢ و٣ سودر يين، رقم ٣١ و٤٣.

(ليبيا). وتظهر بعض طقوس الخصوبة جليا في تصرفات الممثلين الموجودين بالمشهد والذين يظهرون وكأنهم متفرغون لجامعات شعائرية في المجامعة الواقعة بين امرأة ورجل مقنع في تين للان أو في منظر أولائك الذين يرقصون رقصات متحمسة،مع تصرفات جماعية بارزة.وكانت الخصوبة هي القضية الكبرى في الواقع، خاصة في أواخر عصر ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى أو في صحراء ناميبيا، وذلك اثر تقهقر كل أثر للحياة وأمام التقدم الحتمي نحو الجفاف. أما (همباتي با) فقد أقر بأن حلية العقيق الاحمر المسدسة الأضلاع الموجودة في المنجم الحجري الحديث في تن فلكي تمثل تميمة لا تزال تستعمل للخصوبة حتى يومنا هذا عند نساء الفلانيين (٢٠) وقد لا يستبعد الدافع الجمالي أيضا في هذه القضية بالذات. وفي الواقع، بما أننا نعد رجال ونساء العصر الحجري الافريقي الحديث من نوع الانسان العارف مثلنا، فاننا لا نستطيع أن نحرمهم من الشعور الخاص الذي يعترينا، وهو الرغبة في خلق الاشكال بغية التمتع بتأملها لا غير. ان الاعجاب الذي نشعر به اليوم أمام هذا الخلق كان أشد عندما كانت اللوحات حديثة وعندما كانت نماذجها متوافرة بالبيئة المحيطة بها. وتشهد بروعة الذوق الجمالي لأفارقة ذلك العهد، مساحيق مواد التجميل ولآلىء الأمازنيت والكالسيدوين أو المصنوعة من قشرة بيض النعامة (في تينيري) وكذلك شكل الفؤوس ذات الأعناق الممشوقة.

ان التصاميم المهملة لأنها غير مرضية كثيرة نسبيا. ومن جهة أخرى فان اللوحات المعرضة للهواء الطلق،أو الموجودة في متناول كل عابر سبيل،تدعو الى الاعتقاد بأنها مغيرة عن أصلها ولعلها مظهر من مظاهر الفن الشعبي.وهو شعبي أيضا لأن القصد التاريخي ليس معدوما منه.ان السرور بالذكرى، والرغبة في تخليد الاحداث الفردية أو الجماعية يعتبران من «معالم» جنسنا البشري فلقد ولد الانسان مؤرخا.و يعتبر فنانو ما قبل التاريخ هم المؤرخون الأفارقة الأوائل،لأنهم مثلوا لنا بأبلغ عبارة، الحالات المتفاوتة التي تعتري انسان ما قبل التاريخ في علاقاته مع الوسط الطبيعي والاجتماعي.

العبء التاريخي أو الفن كوثيقة

لماذا نعتبر فن ما قبل التاريخ الافريقي هي الصفحات المصورة الأولى لأول كتاب لتاريخ افريقيا؟

البيئة الإيكولوجية

أولا ـ نجد فيه شريطا وثائقيا عن البنية التحتية للمجتمعات الاولى التي عاشت في قارتنا وعن الظروف البيئوية. ويمكن ان يشاهد مجال الحياة هذا مباشرة، كما هو الشأن بالنسبة للأشياء التي وجدت في أمكنتها الاصلية. ولكن محتوى اللوحات كذلك يمكن ان يدلنا عليه. لقد دعونا الى الحذر عندما ذكرنا بأن تمثيلا جماليا لا يشكل بالضرورة صورة صادقة عن الواقع المحيط المعاصر، اذ يمكن ان يكون الفنان قد صور ذكريات قديمة أو شخص سرابا أو أحلاما. الا أن الشواهد الكثيرة المتفقة في هذا الشأن مع نتائج التحليل الجيومورفولوجي الذي مكن من معرفة مدى امداد البحيرات

(٢٠) يحتمل ان يكون صليب أغادس أو ايفروان ناشئا عن علامة طانيت وهي الرمز الجنسي النسائي.

الميتة وشبكات المياه القديمة لا تترك مجالا للشك. ومن ناحية أخرى وجدت عظام كركدن عثر عليها أ. لوط في منجم بالأدرار بوس يقدّر تاريخه بـ ٥١٤٠ ق. ح. اعتمادا على الكربون ١٤، وهذا ما يؤكد مثلا الاصالة التاريخية لمجموعة الكراكدنة المرسومة في أسدجان وأن ملين و يعتبر ذلك الحيوان علامة بيئوية حقيقية لأنه يستوجب مياها دائمة. وذلك شأن الفيل أيضا الذي يستهلك يوميا كميات هائلة من النباتات، فكانت صحراء اللوحات اذن في ما قبل التاريخ حديقة كبيرة من نباتات البحر المتوسط التي بقيت منها بعض البقايا الى اليوم. الا ان تلك البيئة أخذت تتقلص شيئا فشيئا أمام مجال للحياة «سوداني وساحلي» (٢١). ونجد في عصر الحصان والعربات بعض رسوم الأشجار مثل النخيل الذي يشير بدون شك الى وجود الواحات.

ان الاسلوب الشمالي (المعروف بالروديسي) في افريقيا الجنوبية ملىء برسوم الأشجار فمنها ما هو معروف. ونستطيع اليوم ان نتصور الحيوانات الكثيرة المختلفة التي سكنت خبايا المناطق التي أصبحت اليوم قفرا وكأنها اليوم سفينة نوح جديدة، وحديقة حيوانات جامدة فيها أسماك منقوشة، وحيوانات وحشية كثة الوبر وقوية مثل الحيرم القديم وقرونه الكثيرة التي يبلغ قطرها ثلاثة أمتار، وسنوريات مثل الفهد والضبع والقرد الطويل الذيل والقرد القردوحي (في تين تازر بيت) ونعامات وبوم الخ.. ففي كل مكان نرى مشاهد الصيد التي تذكرنا بالصراع الكبير بين الانسان والحيوان منذ الخليقة. ان تلك المشاهد المملؤة بالحيوية وأحيانا بالعنف والتي ينجلي فيها انتصار العقل على القوة الوحشية، تذكرنا بالصيادين الذين أشار اليهم يويوت بوادي النيل في ما قبل الملوك، بجيوبهم الذكرية بين أفخاذهم وأسلحتهم المقوسة وأذيالهم المستعارة وهي تتكون في الواقع، كما هو الشأن اليوم في افريقيا الوسطى، من جلد حيوان يلبس قلادة. ونشاهد في ايهرن أسدا يصطاد وقد كانت تطارده وتحاصره دائرة من الرماح المهددة. ونرى في تسوكاى حيوانا وحشيا مقتولا على وشك ان يقطع. ونجد على ضفاف النيل وفي ليبيا وفي الصحراء الكبرى كلها رسوما كثيرة لأفخاخ تشهد بمهارة انسان ذلك العهد المتعدد الاشكال، وكان ذلك الانسان يكيف تقنياته مع البيئة وطبائع الحيوانات (٢٢).

وتبين لنا كثرة تلك اللوحات المتعلقة بالصيد، من النيل الى المحيط الأطلسي وجود حضارة صيادين حقيقية، فكانت حيوانات هائلة مثل الفيل لا تستطيع الفرار كما يدل على ذلك مشهد الصيد الكبير برتوتك الاعلى. وتكاد ترتبط الافخاخ في كل الأماكن برموز الصيادين تحت مجموعة ثقافية أصيلة، امتدت تقريبا على القارة الافريقية كلها وذلك على عشرات الألفيات من السنين وتواصلت مدة طويلة في العصر التاريخي كما تشهد على ذلك خرافة سندجاتا.

وتوحي تلك التمثيلات أيضا بالتحول التدريجي من مراقبة أو «حبس» الحيوانات، الى السيطرة عليها ثم تطويعها: فنرى رجلا بيده قوس يشد حيوانا من زمامه. ونرى مشهدا عن صيد الأروية في

(٢١) انظر: ي، ومفيا ١٩٧٤.

(٢٢) لقد أحصيت حباك وأشباك، وأفخاخ منصوبة، وخنادق تقوم مقام الأفخاخ، وأفخاخ تصرع، وأفخاخ تشد، منها ما يربط ومنها ما يلوى مثلما هو الشأن في داوتمني، على التخوم النيجيرية التشادية حيث عرقلت حركة زرافة باستعمال جهاز معقد و يثني عنقها ثنيا أفقيا. انظر: ب. هووارد، وج. لوغلان، ١٩٧٣ ص ١٣٦ وما بعدها في شأن التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع.

تيسوكاى وقد استعين فيه بالكلاب. و يبين المشهد الحي عن الكلب السلوقي وذيله المطوي في سفار، ان ذلك الحيوان كان دائما رفيق انسان الصحراء. و يظهر مشهد في جبار ين صيادا يحمل سلاحا مقوسا وهو يترصد حيوانا وحشيا يتبعه حيوان آخر ينتظر الفريسة الا أنه يبدو أنه قد تأهل. ولقد لوحظت البقريات أيضا منها الثور الاسباني ذو القرنين القصيرين والغليظين بالجنوب، والثور الافريقي في تاغبط وجبارين الخ، وقرناه الكبيران اللذان لهما شكل كنارة. وتحمل تلك الحيوانات أحيانا قلادات برقابها (واد جرات).

ثم نرى في عين اتيـنان مثلا بقريات قد أحكم تصويرقرونها، وزخرفت ثم عوجت اصطناعيا أشكالها على نمط اللولب. ان نوع الحمار المصطاد في تيسوكاي هو من نفس النوع الذي أهّل منذ العصر الحجري الحديث، حيث نراه وقد ركبه الانسان. وهناك أغنام وماعز أيضا الخ... وحتى الأجهزة المستعملة في الماء فقد بدأت تظهر كما نرى ذلك في تين تازاريفت بشكل يذكرنا بمراكب البردي بالبحيرات والأنهار في السودان التشادي وفي النوبة.

الإطار الانساني

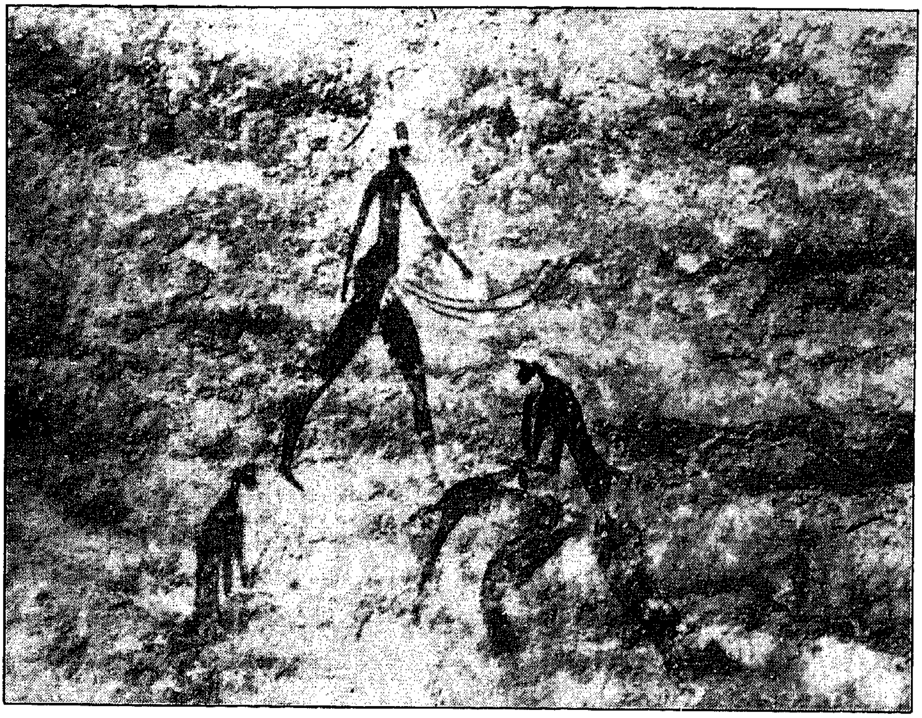
وتذكر رسوم عين أتيـتان التي تظهر أناسا منحنين على الأرض يستعملون أدوات مكوعة بمشاهد الحصاد التي تستعمل فيها المناجل، والموجودة في النقوش الجدارية الفرعونية.

وكذلك فان رسوم النساء المنحنيات انحناء الذاريات للحبوب، أو الجامعات للسنابل تجعلنا نفكر في وجود زراعة حبوب بالعصر الحجري الجديد بالصحراء، ومما يؤكده كثرة الرحى، ومهارس الحبوب (٢٣) الا أن دراسات البلينولوجيا، اعتمادا على عينات صحراوية، تدعونا الى الحذر. فلعل الأمر يتعلق بجمع الحبوب، وان كان الفاصل بين مرحلة الجمع والمرحلة الممهدة للفلاحة ومرحلة الفلاحة بأتم معنى الكلمة صعب التحديد. في باتل كاف تغدو فتيات من السان الى الجمع وهن يحملن عصي الحفر على أكتافهن. ومهما يكن من أمر فان كثرة القطع الفنية الجدارية والأثاثية المكتشفة في مناطق واسعة من افريقيا، لا سيما في المناطق التي أصبحت اليوم صحراوية، تعطي فكرة هامة عن الكثافة السكانية في تلك المناطق. ان أحجام تلك القطع الضخمة توحي بانتاج «نصف صناعي» كما هو الشأن في الشمال الشرقي من باشر أو في عرق الروى، أو حتى في المجدوبة (الصحراء الغربية) كما تؤكد ذلك ملاحظات ث. منود.

ان الفن الافريقي في ما قبل التاريخ يعطي أيضا فكرة واضحة عن لباس الانسان حينذاك. فهو يفيدنا أن الرجال ــ وذلك ما يجري كثيرا في البداية ــ كانوا يتحلون أكثر من النساء حتى عصر البقريات حيث انعكست الآية.

انـنـا نرى الرجال لابسين جلود الحيوانات، متبهرجين بأشرطة جبينية مزخرفة أو بمعاطف من الريش، وكانوا يحملون شعارات مختلفة غامضة أحيانا تتكون من قلائد وساعدات وأساور الخ.. وغالبا ما تظهر النسوة في عدة بسيطة للغاية، و يلبسن في بعض الأحيان شريطا من القطن بين الفخذين مشدود بحزام، وهو لباس متعارف عند الفتيات في المنطقة السودانية، وتوجد أيضا الوزرة

(٢٣) وتعتبر الرسوم التي عادت بها بعثة برليبي تنري من أجل الرسوم.



١



٢

● ١) مشهد شهواني من تاسيلي. (تصوير ب. كولومبل)، رقم ٧٥٣٢١.
● ٢) مشهد شهواني من تاسيلي. (تصوير ب. كولومبل)، رقم ٧٣١٠٧٥.

بأهدابها التحتية المختلفة الأوضاع والفساتين اللصوقة، وأنواع من ساترات النهود أو من رافعاتها، وتسريحات شعر مختلفة منها تسريحة الخوذة مثلما هو الشأن في جبارين.

أما المسكن، فهو كثيرا ما رسم رسما مبسطا في شكل نصف كروي يمثل أكواخا نرى الأثاث بداخلها ومشاهد عائلية. وتبين من ناحية أخرى اكتشافات منحدر تشيت (مور يتانيا) حيث عثر على ١٢٧ قرية، أن أفارقة العصر الحجري الجديد كانوا أيضا بناة. ان تلك التجمعات السكنية المكونة من الحجر الجاف والمستقرة على نتوءات جنوبية تحوي كل واحدة منها ٣٠٠٠ نسمة وتقوم غالبا على ركيزة من الصخور العملاقة التي تذكرنا بزمبابوي افريقيا الوسطى والجنوبية وتميز الأعمدة الحجرية المصقولة هذا الفن المعماري الرائع بالنسبة لذلك العهد (٢٤).

اننا نلمح من خلال لوحات الفن الجداري الافريقي مجتمعا كاملا ينشط حتى أنه يكاد يبلغ البعد الثالث أي بعد الحياة. ففي تكداتوماتين مثلا نرى النساء أجسامهن مكتنزة لحما، يشعر من يراهنّ بأنهن قد شبعن من الحليب. وكن جالسات أمام أكواخ مع أطفالهن، ولقد ربطت عجول ربطا محكما الى حبل، وكان الرجال مهتمين بحلب الأبقار، والمشهد مشهد مسائي قد اتسم بالطمأنينة الرعوية. فهل يوحي عدد النساء بنظام تعدد الزوجات؟ في أورنج سبرنغس، وفي نكوسيزانا ستريم (النتال) تبين مشاهد من الرقص الحي أناسا أغلبهم نساء مجتمعين وهم يصفقون، حول راقصين مقنعين. وفي جبارين تجذب امرأة ابنها الصغير الحرون. وفي سفاريظهر رجل وهو يجذب حبل العجل الذي يعتبره بعض صيادي قبائل الفلانيين اليوم شيئا مقدسا (دنغول) وفي مخبأ ايهرن، نرى على اللوحة الضخمة التي تمثل احدى روائع رسم ما قبل التاريخ استعراضا لثيران مسرجة بمهارة تحمل على جوانبها قرب الماء وتركبها نساء كثيرات الحلي. ونرى حيوانات تنحني الى المورد، بينما كان قطيع كبير يتقدم بكل وقار، كما نرى نساء مزينات جالسات مسترخيات أمام بيوتهن بينما توقف الرجال، وبشعرهم ريش، لتحيتهن. ونجد في الأكواخ أثاثا منزليا متنوعا.

في عين اتينان يبرهن الأعيان المتحلون بلباس الأبهة، والمحاربون الذين يلبسون البدلة، على أن المجتمع أخذ يخضع لمبدأ الرتب. ويبدو الرماة المرتدون معاطف مرتبين حسب زمر تقوم بدورية يقودها قائد. فهي تبدو كأنها «قوة من قوى حفظ النظام».

ان مشاهد الحرب في افريقيا الجنوبية كثيرة وهي تروي الصراعات المتعددة بين قبيلتي السان والبانتو.

الا أن ذلك لا يقضي على الحب اذ نرى مشاهد كثيرة تبرهن على ان فناني ما قبل التاريخ الأفارقة لا يشعرون بأي خجل زائف أمام هذا المظهر من حياة مجتمعه. فلقد مثلت حيوانات عند تهيجها الجنسي، كما هو الشأن في النتوء الصخري الجنوبي ببلاكا حيث نرى كركدين يشم أحدهما عضو الجنس الآخر. ونجد في مكان آخر تيسا يركب عنزة. وتبين مشاهد المجامعة الانسانية بتنوع أوضاعها. ان الانسان لم يبتكر شيئا مهمّا في هذا الميدان منذ الزمن القديم. وتمثل صخرة أهانا في وادي جرات (تاسيلي) مهرجان رجال مقنعين لهم ذكور هائلة منتصبة على حافة فروج نساء قابعات

(٢٤) انظر: أعمال ج. هـ. هوغو، حول تيشيت.

قبوع توليد. وجميع التفاصيل موفرة. ولقد خصصت اللوحة الكبيرة في تين للان بالأكاكوس (ليبيا) لذلك الموضوع الاباحي (هوغو_ برغمان، عدد ١٦٤).

وفي (أنا هوانرات) نرى مشهد مجامعة أكثر ابتذالا، ونرى في تيمنزوز ين (تاسيلي) زوجين يتجامعان و بقربها وقف ثلاثة رجال وثلاثة نساء وقد عبر الراسم تعبيرا دقيقا عن مقاومة النساء المصطنعة.

عندما ندخل ميدان السحر والدين، نكون مضطرين الى الاعتراف بأن عددا كبيرا من اللوحات مازالت غامضة تماما، لأنها مغلفة في خفايا الأساطير. فماذا تمثل الثيران ذوات الرأسين، أو التي نراها في وادي جرات ولها جسم مزدوج مخنث يحمل ,أسا واحدا؟ وماذا تعني اللوالب المنقوشة نقشا بديعا والتي لها صلة بحيوانات كثيرة كالتي نراها على الحيرم في وادي جرات؟ ان ذلك الرسم الذي نجده على الفخار الغرزي يبدو متصلا بشعائر الصيد (الأفتتان)، وكذلك الشأن بالنسبة للولب الثعبان (ميهون) المعروف في الحقبة الثينية (الأسرتان الفرعونيتان الأولى والثانية) (٢٥). و يرى بعضهم أن اللولب يعني تواصل الحياة. أما الحبل السُّرِّي الذي يربط بين شخصين ابتداء مثلا من تلاقي فخذي امرأة لينتهي الى سُرّة نَبّال وهو يصطاد، فكأنه يعبر عن تيار روحاني يندفع من الأم التي تصلي و يداها مرفوعتان، في اتجاه ابنها الواقع في خطر. ونرى كذلك في افريقيا الجنوبية (بوتسوانا) حيوانا يبشر بالمطر قد سيق عبر البلاد بحبل اعتصم به موكب من الأشخاص ذوي الحزم. وتنتسب المواضيع الشمسية الى نفس التراث الديني، الا أن الرجوع الى المحيط الثقافي الخاص بافريقيا هو الوحيد الجدير بتوفير حل لغز اللوحات التي ما تزال مبهمة. ذلك ما حصل عندما اكتشف أ. همبات با في مشهد بتين تزار يفت عرف حتى ذلك العهد بالثيران الارتسامية (لأن قوائمها تبدو مصغرة مثل الجذوع فظن أنها مقرفصة) اكتشف حيوانات تقاد الى المورد في حفلة اللوتوري بغية الاحتفال بأصل البقريات المائي. وعرف همبات با في الشكل المتصنع الغامض الممثل للأصبع الذي يجاوز المشهد السابق، عرف فيه أسطورة يد الراعي الأولى المسمى كيكالا، وهي يد تذكر بعشائر الفلانيين، و بألوان جلد الثيران والعناصر الطبيعية الأربعة (٢٦).

و يدل التطور بصفة عامة على تحول السحر المرتبط أحيانا برقصات الدروشة، الى الدين الذي يدل عليه مقطع من الشريط المصور الكبير في عين اتينان الذي يعبر عن قربان كبش.

علاقات وهجرات

يجب أن نترك الاتجاه الى تفسير كل الملامح الثقافية الافريقية بالتيارات والتأثيرات الخارجية ولكن هذا لا يعني نكران العلاقات بل يجب تعريفها بكل حذر. ان الفن الجداري الفرنسي الكانتبري الذي يعود الى ٤٠٠٠٠ سنة تقريبا ينتسب الى العصر الحجري القديم ولذلك فهو سابق لفن ما قبل التاريخ الافريقي، و يكون العصر الحجري الجديد الافريقي، عكسا لذلك سابقا لنفس

(٢٥) انظر أيضا دور الجية في التشكونيات الافريقية.

(٢٦) يجب ان نحترز من التخريجات التي تعتمد على الحكايات الاسطورية الحالية لتفسر كل الرموز الناشئة بما قبل التاريخ. انظر: د. لاجوء المذكور سابقا.

العصر في أوربا (٢٧). ولقد كان هناك ميل كبير الى القول بأن فناني القارة الافريقية كانوا يستمدون الالهام من الشمال، حتى قال بعضهم بفن أوربي افريقي قد يكون نبع من أوربا وذلك ما يوحي بنوع من النظرية الحامية في ميدان الفن الافريقي في ما قبل التاريخ.

حضارة أصيلة

على أن الأمر ليس كذلك، فبقطع النظر عن كون ١٥٠٠٠ سنة على الأقل تفصل بين الحركتين الجماليتين، فمن البديهي ان الشرق الاسباني الذي كان من المحتمل أنه صلة الوصل في التأثير، لا يحتوي على أي شيء يمت بصلة الى الفن الاصلي بجنوب منطقة وهران، و بالتاسيلي أو بفزان وقد أكد ل. بلوط بقوة على انعدام العلاقة بين ما قبل التاريخ بافريقيا الشمالية، ومثيله باسبانيا في العصر الحجري القديم الاعلى. ومن جهة أخرى فلقد رفض كل المؤرخين تقريبا الأصل القابسي لنقوش منطقة جنوب وهران ونقوش الصحراء الكبرى. ان فن ما قبل التاريخ قد ازدهر انطلاقا من الأطلس وتعتبر وقائعه ومراكزة افريقية بحتة.

وهناك تساؤل أيضا عن امكانية اشعاع هذا الفن انطلاقا من الشرق، أو من ضفاف النيل تجاه داخل القارة، لكن الفن في الوادي المصري من النهر لاحق بدو شك لإزدهار الفن الصحراوي والسوداني. فان رسوم البقريات ذات الأقراص بين قرونها، أقدم بكثير في الصحراء من رسوم البقرة الإلهة هاثور.. و يرجع تاريخ الصقر المنقوش نقشا دقيقا على صفيحة الصلصال بحمادة قير الى ما قبل الرسوم المماثلة له، ولو أنها أصغر حجما،و التي تظهر على قبور مصر في عهد ما قبل الملوك، وتمهد لتمثيل هوروس. ان كبش بوعلام البديع ذا الكرويات يسبق بكثير كبش أمون الذي لم يظهر في مصر الا في عهد الاسرة المالكة الثامنة عشرة. وقد حكم ملرو على الرؤوس ذوات الأشكال الحيوانية التي شاهدها في وادي جرات بأنها كانت تمهد لتمثيل عبادة الحيوانات المصرية. و ينطبق نفس الشيء على الإلهات ذوات الرؤوس العصفورية بجباران. فالاتجاه الشبه الطبيعي لم يظهر في مصر الا في العصر الغرزوي، وهو ينتسب الى نقوش العصر البقري الصحراوية، وذلك أيضا شأن لوحات وادي حمامات ذات الصنع الرديء وتنتسب المراكب الرائعة «المصرية النوع» التي نرها في الصحراء (تين تزار يفت) بكل بساطة و بدون أدنى شك الى النوع الصحراوي. و يبدو لي أنه يجب ان نعيد النظر، ومن وجهة مختلفة تعتمد المنظور التاريخي، في اشباع راردس (تيسوكاي) التي تذكرنا «بالهيكسوس» «وفرعون» و«أنتينيا» وغطاء رأسه الذي يذكر «بابشنت الفرعوني». من الأكيد ان مصر قد اشعت ساطعا لكنه كان بلا شك محدودا في اتجاه وسط افريقيا. ان الشيء الذي يبدو أكثر وضوحا يتمثل في أسبقية حضارة ما قبل التاريخ الصحراوية، و يرجع ذلك أيضا الى انعدام أي حاجز ــ باستثناء المسافات ــ يمكن ان يفصل شعوب الهقار والتاسيلي وفزان عن ضفاف النيل التي ظلت مدة طويلة الى أن أصبحت الصحراء قاحلة منطقة منفرة كثيرة المستنقعات. ولم تبلغ أوج ازدهارها الا ابتداء من العصر التاريخي،وهي التي تجعلنا الي اليوم ننسب كل شيء الى

(٢٧) يعود العصر الحجري الجديد الصحراوي على الأقل الى الألفية الثامنة قبل الميلاد، وكان يعتقد منذ عهد ليس بالبعيد، بأنه متأخر بالنسبة لافريقيا الشمالية ومصر والشرق الأوسط هـ. لهوت ١٩٧٦ ص٢٢٧.

مصر حسب المبدأ القائل «لا تعطى القروض الا للأغنياء». لكن المراكز في ميدان الفن والتقنية كانت موجودة في البداية بالصحراء الكبرى والسودان الخرطومي و بافريقيا الشرقية والشرق الأدنى. ان صحراء ما قبل التاريخ مدينة أكثر الى مراكز الجنوب الشرقي منها الى الشرق الادنى. أما العلاقات بين افريقيا الجنوبية والمنطقة الصحراوية فاننا لا نراها ترتكز على براهين ملموسة وان كان فروبنيوس قد أشار الى تشابهات عديدة (٢٨). وتكلم بعضهم عن «حضارة ماغوزية» يحتمل حسب هـ. هولم أنها شملت كل افريقيا وذلك ما لا يؤكده برهان. ومهما كان الأمر فان الانتاج الفني لما قبل التاريخ بجنوب افريقيا غالبا ما يبدو لاحقا لانتاج افريقيا الواقعة شمال خط الاستواء، وان كان استقرار الانسان بالجزء الجنوبي من القارة يرجع الى تاريخ قديم جدا (٢٩). و ينسب بعض الكتاب عن خطأ كامل كما رأيناه في البداية، عصر التمثيلات الكبير بمرتفع الدراكنسبورغ الى القرن السابع عشر أي بعد قدوم البنتو. و يبدو، اذا نظرنا الى الأسلوب، ان الرسم الجنوبي لا يمت بصلة الى العصر المسمى «عصر الرؤوس المكورة» في الصحراء، وليس له من صلة الا بعصر الثيران. ويمتاز أيضا بمواضيع خاصة كالنباتات الكثيرة والمناظر الطبيعية ذات الصخور المنمنمة والمواضيع المأتمية الخ.. ومهما يكن من أمر، يجب دفع الدراسة المقارنة الى الامام ويجب خاصة تجويد الاطار العام لتاريخ الانسان العارف الافريقي في ما قبل التاريخ قبل القول بوجود اتجاهات جمالية معينة.

بسط النظريات العرقية

وتنطبق هذه الملاحظة أكثر ما تنطبق، على «الاجناس» المسؤولة عن خلق ذلك الانتاج الفني لكن، الا يوجد هنا تعسف لغوي عندما نستعمل مفهوم «الجنس»؟ (٣٠) وهل تمكننا بعض الهياكل العظمية وحطام العظام التي عثر عليها، من اختلاق سناريوات العمران من طرف «أجناس» ما قبل التاريخ لكن بعض الكتاب بسطوا التطور الديموغرافي المعقد على النحو التالي: وذلك أن نياندرتاليين في الشرق الأدنى كانوا قد هاجروا الى افريقيا بعد تعمير افريقي أصيل، وكان منهم فرعان: فرع وصل في تقدمه الى المغرب، والآخر اتجه الى الهضاب العليا في الشرق الافريقي، مرورا بالقرن الافريقي، وهذا الفرع يتكون من العاطريين من العصر الحجري القديم المتوسط. ويحتمل ان تكون وصلت بعد ذلك حتى شمال افريقيا موجة أخرى من الكرومانيونيين في مرحلة لاحقة للعصر الحجري القديم الذي ينتسب احتمالا الى العصر السبيلي بمصر. فيحتمل أن يكونا قد احتويا على نواة ايبرية ـ موروسية وعلى نواة قابسية. ويمكن ان تكون المجموعتان قد دخلتا العصر الحجري الجديد بعين المكان ـ لينشأ منها بالخصوص العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية

(٢٨) انظر أ. هابرلند، ليوفروبنيوس، ١٩٧٣، ص ٧٤.

(٢٩) انظر الفصل العشرين من هذا المجلد، بقلم ج. د. كلارك. و يرى بعض المؤلفين ان انتشار الفن الجداري وقع من زمبابوي، نحو ناميبيا والكاب، ثم نحو الترانسفال ومقاطعة أورانج. أما بالنسبة للرسوم المتعددة الألوان المتطورة، فقد انتشرت مرة أخرى من زمبابوي نحو ناميبيا. انظر أ. ر. و يلكوكس.

(٣٠) يجب أن تقلب عملية التخصيص التي تحدث عنها ج. روني خاصة بعد التمازجات التي يسرتها البيئة المتكاملة بالاكومين الصحراوي. انظر الفصل ١١، الخاص بالأجناس والتاريخ بافريقيا.

الذي يوجد في مناطق عديدة منها شمال الصحراء الكبرى. وقد وفرت مراكز أخرى تنوعا ملوحظا في مستوى الصناعات والفنون، ويجب ان نشير خاصة الى الاشعاع الكبير الناشيء بالعصور الحجرية الجديدة ذات التقاليد السودانية والغينية، والى ماصاحبه من المراكز الثانوية بتينيري و بساحل المحيط الأطلسي، بشمال مور يتانيا (٣١). إن بعض الكتاب يرون أن العصر الحيرمي للفن الجداري من صنع أهل حوض البحر المتوسط غير المعرفين تعريفا كاملا، والذين يعتبرهم البعض بيضا و يعتبرهم البعض الآخر خليطا هجينا. وقد ينسب العصر المعروف «بالرؤوس المكورة» الى «زنوج» يرى البعض أنهم تهجنوا فأصبحوا سمرا إثر اختلاطهم بشعوب الشرق الأدنى وأصبحوا من أهل العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. وقد يكون عصر البقريات من عمل أسلاف قبائل الفلانيين، وفي النهاية يمكن أن نتحسس أثر التقاليد المعروفة بالغينية الموجودة أكثر جنوبا في المباني القائمة على منحدر تيشيت بمور يتانيا. ولكن،تظل كل هذه الافتراضات هزلية،والحق يقال،وهي طبعا لصالح الرأي القائل بالمساهمات الخارجية فيها. ولقد حدث أن تكلم بعضهم عن تأثير افريقي واضح في لوحة جدارية بالصحراء... الا أن هذه الافتراضات ترمي خاصة الى اقامة معادلات بين مفاهيم تختلف عن بعضها مثل مفهوم الجنس والسلالة ونمط الحياة والحضارة. و يتحدث بعضهم عن السود والبيض والفلانيين والافارقة والقابسيين والسودانيين بدون ان يحددوا بالطبع محتوى تلك العبارات. فهذا، مثلا، لوط ينفي تأثير القابسيين (٣٢) على نقوش العصر الحيرمي، وان كان يصرح بأن في نقوش وادي جرات لا يوجد شكل زنجي واحد محض فكل الاشكال الواضحة هي بدون منازع أوربية. ويجب ان نفترض اذن بأن المسألة تتعلق هنا بالبيض، ونتوصل الى نفس النتيجة بعد درس أشكال بجنوب منطقة «وهران و بفزان». ولقد قال لي زميل من جنوب افريقيا ذات يوم: «يا للأسف لكونها عاجزة عن الكلام» (٣٣).

ولقد استند بعضهم أيضا الى نفس العلامات الهزيلة من الآشكال الانسانية لينسب عصر «الرؤوس المكورة» الى السود، وعصر البقريات الى قبائل الفلانيين، لكن تعريف الجنس هو في الغالب قائم أيضا على أنماط العيش وعلى الثقافات، وذلك عين الضلال، و يعرف أهالي العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد السودانية بأنهم من «عرق الصيادين الرعاة القادمين من الشرق». وتكفي «الملامح الرقيقة والتقنيات الرعوية وتسريحات النساء على شكل خوذة، والضفائر عند الرجال»، لينسب كل الفن الجداري الممثل لكل تلك الوقائع الى قبائل الفلانيين، وان كان هؤلاء لا يعبرون في الوقت الحاضر عن أي ذوق جمالي من هذا النوع كما أنهم لم يحافظوا على ما يذكر به، مثل ما هو الشأن عند السان مثلا، وان كانت كل الطبقات وكل الأساليب وكل الأشكال الأنترو بولوجية تتداخل الى حد بعيد في اللوحات الجدارية ويمكننا الى اليوم في جل مناطق افريقيا المدارية اعادة بناء سلسلة كل الأشكال الممكن مشاهدتها في رسوم الصحراء (٣٤). وذلك بقطع النظر عن ان رساما فلانيا قد يكون صور راقصين مقنعين، أو ان فنانا «زنجيا» قد يكون مثّل مشاهد

(٣١) انظر هـ. ج. هرغو، ١٩٧٤ ص ٦٢ وما بعدها.
(٣٢) انظر: هـ. لوط المذكور سابقا ص ١١٠.
(٣٣) هـ. لوط، المذكور سابقا ص ٤١.
(٣٤) ب. ف. طبياس، يشير الى ان كل الماندات وكل أشكال الجماجم توجد أيضا عند الهوتنتو بمقاطعة الكاب.

من الحياة الرعوية أو حوّل ملامح أبطاله و بطلاته مثلما يفعل ذلك بعض الرسامين السينغاليين اليوم. أفلم يصوّر رجال السان القصار في الغالب أنفسهم طوال القامة ونحفاء وذوي بنية صلبة؟ ان كل فن يعتبر اصطلاحا ولم يشاهد أي كان أبدا شعبا من السود ليس له الا «رؤوس كروية»، ومن جهة أخرى فهل كان تخصصهم «كفلاحين رعاة» على نفس الدرجة من البروز التي نراها اليوم؟ (٣٥).

فلقد قال هـ. ج هوغو في خصوص العصر الحجري الجديد الموريتاني ما يلي: ((عندما وصل سود تيشيت كانت ثيرانهم معهم)) وكتب في مكان آخر «شهدت المرحلة الرعوية المتوسطة قدوم عناصر زنجية وذلك هو العصر البقري الكبير المتميز بقطعان الثيران المصورة بكثرة» (٣٦) ولذلك فان الرعوية ليست حجة كافية، وكذلك القياسات الدماغية أو الانطباعات الذاتية المتعلقة بالملامح. فليست الأجناس هي التي تصنع التاريخ. والعلم الحديث لا يحصر الجنس في خصائص جسمية سطحية (٣٧). ان كل «السيدات البيضاء» في الرسوم الجدارية الافريقية التي لم تبيض منها الا وجوهها، كما في جنوب افريقيا، تذكر القس بروي بأفار يزكنوسوس التي رأى فيها «عبور قوافل من الرواد القادمين من الخليج الفارسي»، لا تمثل في الحقيقة الا أشخاصا متعبدين، وصيادين أو فتيات افريقيات خارجات من حفلات التنشئة كما يمكن أن نراها اليوم أيضا مرسومة بالصلصال الأبيض، لأن ذلك اللون هو لون يفيد موت شخصية سابقة، والارتقاء الى مرتبة جديدة (٣٨). أما فيما يخص رسامي لوحات الفن الجداري بافريقيا الجنوبية، فانهم ما انفكوا محل جدال. الا ان القاعدة التاريخية أصبحت معروفة أكثر. فالأمر هنا يتعلق بعلاقات بين الخوي — خوي والسان أولا، ثم بين الخوي — سان والبنتو. و يعبر عدد كبير من اللوحات عن تلك الديناميكية التاريخية. فالمقارنة الاحصائية بين الايدي المخطوطة والمرسومة على الحجارة تناسب قامة السان، كذلك الامر بالنسبة لتراكم الدهن وانتصاب الذكر الجزئي الخ.

أما نقوش عصر الخيول والعربات الحربية فهي ترجع الى العصر التاريخي.

ولقد أمكن للبعض ان يتساءل، مقابل ذلك، عما اذا كانت الرسوم والنقوش من انتاج شعوب مختلفة، علما بأن الاولى قد أنجزت في المخابيء، والثانية فوق الهضاب. ولكن، يبدو أن هذا غير صحيح، اذ يتعذر على الرسامين في غالب الأحيان العمل في الهواء الطلق. فلو فعلوا ذلك لامّحت تصاويرهم ولزالت. اما النقوش فلقد كانت، مقابل ذلك يسيرة الانجاز على الدوليريت والديباز

---

(٣٥) «الملحوظ اننا لا نعرف معيارا واحدا صحيحا للتمييز بين أهل عصر الحيرم وأهل العصر الأول الرعوي (البقري ١). ان وجود البقريات التي كانت أهلت نهائيا منذ عصر الرسوم الطبيعية الجميلة يعيد الى أحقاب بعيدة ظهور المواشي». ت. مونود. يناير ١٩٥١.

(٣٦) هـ. ج هوغو، المذكور سابقا ص ٢٢٥ — ٢٧٤.

(٣٧) انظر: «الاجناس والتاريخ بافريقيا» حاشية الفصل ١١.

(٣٨) يعتبر كثير من المؤلفين، ان «السيدة البيضاء» في برندبارغ التي تحيد نفسها عن اللوحة الأصلية تمثل في الواقع شابا يدل عليه قوسه، وردفاه وذكره الظاهر مثلما هو الشأن غالبا عند قبيلة السان الذين يكون ذكرهم نصف قائم. أما فيما يتعلق بلونها، يجب أن نلاحظ ان وجهها ليس مدهونا بل عبر عنه بلون صخرة من عين المكان. ان لونها وردي من الرجلين الى الخصر ثم يصبح أسود في الأعلى. والحقيقة ان اللون لا يفيد شيئا اذ نجد فيلة وقردة، ونساء لونهم أحمر ورجالا لونهم أبيض. انظر: أ. ر. و يلكوكس ١٩٦٣، ص ٤٣ — ٤٥.

والكوبج، حيث تعطى مقابلة جميلة بين الزنجاز الأمغر، والباطن الرمادي أو الأزرق الصخري. وهذا ما لم يكن ليحصل في جص المخابىء بل اننا لنجد أحيانا رسوما ونقوشا في مكان واحد كما نجد نقوشا كانت قد طليت في بادىء الأمر مثلما هو الشأن في مقاطعة تركستاد. وفي بعض الاحيان نجد زيادة على ذلك نفس الاصطلاح الجمالي في كلا الصنفين من اللوحات.

الميدان الجمالي

ان فن ما قبل التاريخ الافريقي يعتبر في الميدان الجمالي البحت، مصدر الفن الافريقي الحالي، الذي لم تستكشف جذوره بعد، الا قليلا، وما استكشف منه يعتبر بداية رائعة. نجد في فن ما قبل التاريخ الافريقي ثراء في الأساليب يمكن ان نتتبع تطورها أحيانا تتبعا شبه متصل حتى ندرك الابداعات الفنية لافريقيا الحالية والتي اقتبست كثيرا من الفن العربي والاوربي. ولكن يوجد الى جانب ذلك تراث قديم يكمن طبعه في المخابىء تحت الصخور،وفي أنفاق ما قبل التاريخ.ان الرسم يعتمد على بعض الألوان البسيطة مثل المغر الأحمر والأبيض والاسود والاصفر وعلى لونين ثانويين الازرق والاخضر. واننا لا نزال الى يومنا هذا نجد هذه الالوان في تشكيلة ألوان الاقنعة وفي زينة الراقصين.

ان هذا الفن هو فن ملاحظة وانتباه شبه هيامي و يصبح أحيانا تعبديا أمام الواقع. فالنقش والرسم يعبران جيدا عن هذا المظهر لكن ليس بنفس الطريقة، فثور اوغسبورغ (بتسوانا) الذي لم يبق منه سوى النصف الاعلى، يبرزه خط جيد الاتقان يكشف عن التفاصيل العضوية الدقيقة لكل من الخطم والعينين والشعر الخ.. وتعتبر زرافة الاينيري نحتا واقعيا تام الشروط وقد ظهر تنقيط جلدها باستعمال ضربات المطرقة الحافرة حفرا رقيقا وذلك لابراز الخط المحيط بالرأس والحروف الوجنية والقرنين والعينين المكورتين والخيشومين والحافرين بظلفيه وقرنه اللامع. ان الجانب الطبيعي ملحوظ في تقطيع الملامح باحكام، وفي النقش بالمطرقة التي تجوّد التفاصيل الداخلية، وكذلك في وجود زرافة صغيرة تستند الى أمها في حركة تلقائية مؤثرة.

ان تلك المهارة في الملاحظة توجد أيضا في جدارية ايهارن حيث تتلاصق دون أن تختلط البتة لأن دقة الخط كانت على غاية من الاتقان، ست عشرة زرافة تجمعت تجمعا رائعا وأسراب من النساء المتزينات المسافرات وهن يركبن ثيرانهن الناقلة،وغزلان وظباء (دوركا،داما،أوريكس، وحيارم) تعرف بالتوالي اعتمادا على قرنيها الدقيقين وجلدها الأبيض وقرنيها الطويلين المتجهين الى الخلف ورأسها المستطيل، وفي نفس اللوحة نرى زرافة وليدة مربوطة بمشيمتها تبحث عن اتزانها وهي منحنية، كما نرى أسدا قابضا على خروف بين مخالبه وهو يراقب رجالا مسلحين يطاردونه بينما كانت خرفان أخرى تفر مروعة و يقترب ثور من غدير ليشرب، مما أقفز بعض الضفادع. كل ذلك يعبر عن ارتعاش الطبيعة الحي والمؤثر وقد تسرب اليه الانسان صاحب الملك.

لكن الاسلوب الطبيعي الميال للتفصيل لا ينفي البتة التعبير عن الاساس، واستعمال في التركيب المشهدي الذي يرجع الى نوع من المعالجة النحتية للرسم. ولذلك صورت الشخصية الأساسية حسب حجم كبير مما جعلها تسيطر على بقية الشخصيات التي صغرت نسبيا مثل أولئك

الصيادين الكبار المقنعين الذين تطغى قاماتهم على السباع، ومثل الفرعون الذي يطرح أعداءه أرضا وكذلك الأوبا في بلاد بنين، الذي ظهر عظيما بالنسبة لرعاياه.

ولقد تولدت عن المعنى الاساسي الاشكال الرمزية التي تخالف تماما فن البهرجة وهي الأشكال الرمزية إذا ضمت الى الصنع النحتي، يتولد عنها الايقاع الخاص الذي يحرك الحيرم المرسوم بخط مجرد وبسيط، مثلما يحرك قطيع الثيران بجبارن التي يخيل للانسان أنه يسمع وقع حوافرها الصاخب وتنفسها الساخن وخواراتها. (انظر لاجو) (الصورة).

حاليّة فن ما قبل التاريخ الافريقي

تغلب على ذلك الفن الشعبي واليومي روح الفكاهة، وهي السخرية الباسمة أو المرة كما هو الشأن في الحياة. وهو بغموضه يرتعش ارتعاش المتعبد الصوفي يحمله محراف الفنان أو ريشته، فيوفر عددا من أروع آيات الفن العالمي. وذلك شأن الكبش ذي القرص الشمسي (كبش بوعلام) الذي تعبر هيئته الكهنوتية عن الأسرار وتدعو الى الخشوع (٣٩) وتدل تلك المعالجة المزدوجة على وضعية الانسان الافريقي المعاصر المزدوجة والمتمثلة في عفويته التي تكاد تكون فظة كما هي في الحياة اليومية، أو في وقاره وتصوفه الشديدين عندما يستولي عليه ايقاع رقصة دينية.

وفي الجملة فان فن ما قبل التاريخ الافريقي لم يندثر، بل هو حي معاصر، حتى ولو لم يكن الا من حيث أسماء الأماكن التي ظلت باقية. ويوجد واد رافد لوادي جرات يدعى تين تهد، أي مكان الأتان، وتوجد به صورة منقوشة جميلة لحمار. ولقد اشتهر ايسوكاي، ان آفلا بالأرواح التي تسكنه (الجنون). وقد يعود ذلك الى انه يوجه به كائن له شكل حيوان مرعب، يجمع بين سمات الثعلب والبوم، بقطع النظر عن ذكره الضخم، أما ركام من الاحجار المكون من حجارات بركانية ملفوظة.

ويستحق ذلك الفن ان يدمج من جديد اعتمادا على البرامج المدرسية في حياة الأفارقة الذين فصلوا عنه بمسافات لا يسلكها سوى إخصائي الاقطار الغنية وخبرائها.

وينبغي ان يصان ذلك الفن بغيرة من التدهورات المتنوعة التي تهدده يوميا لأنه يمثل تراثا لا يقدر ثمنه (٤٠) وينبغي ان يجمع في مدونة عامة حتى يتيسر تحليله تحليلا مقارنا.

فالفن في الحقيقة هو الانسان ذاته. وما دام فن ما قبل التاريخ شاهدا أمينا على الانسان الافريقي الاول، من محيطه البيئوي الى احساساته السامية، وما دامت الصورة تفصح أحيانا مثلما تفصح الكتابة، يمكن لنا ان نجزم بأن الفن الجداري الافريقي هو أول كتاب تاريخ لهذه القارة الا أن الأمر يتعلق بشاهد غامض وصعب المنال يستوجب ان يدعم بمصادر اعلامية أخرى مثل علم الاحاثة وعلم المناخ والهندسة المعمارية والرواية الشفاهية الخ.

---

(٣٩) من الملاحظ ان المؤلفين يشيرون ببلاط امبراطور مالي، في القرن الرابع عشر الى كبشين مهمتهما حراسة الملك من العين. ويشار أيضا الى الكبش في بلاطات افريقية أخرى مروى، بلاد اكن (غانا) كبة (الزايير)، كنم (تشاد).

(٤٠) لقد صدر سنة ١٩٧٤ مرسوم حكومي جزائري يعتبر مجموع منطقة الرسوم والنقوش بتاسيلي متحفا قوميا.

ان فن ما قبل التاريخ لا يكشف في حد ذاته الا عن الجانب الملحوظ من الجليد العائم على سطح البحر. فهو مرتسم على اللوحة المعدنية المجمدة في المخابيء الحجرية، وتلك الصورة المرتسمة تمثل مشاهد حية أصبحت الى الأبد في غياهب التاريخ. فالفن انعكاس ومحرك. فالانسان الافريقي قد أعلن في فن ما قبل التاريخ ولكل العصور عن كفاحه المستميت من أجل السيطرة على الطبيعة وكذلك عن تحرره الواعي من تلك الطبيعة للوصول الى فرح لا حد له، فرح الخلق ونشوة الانسان المبدع.

الفصل السابع والعشرون

بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها

بقلم: رولان بورتير وجاك بارو

إن الأفكار الراسخة حول أصول الفلاحة بقيت مدة طويلة متلونة بالتمركز العرقي أشد التلون. ذلك ان الناس كانوا، ولا يزالون، ينظرون أحيانا الى الشرق الأدنى ــ المهد الزراعي والرعوي الذي قال عنه غوردن تشايلد (١) بأنه مركز العصر الحجري الحديث ــ ينظرون اليه لا باعتباره مكان نشأة فلاحة الحبوب الهامة (قمح، شعير...) وتربية المواشي (ماعز، غنم، ثم بقر..)، وهما يمثلان القاعدة المادية للحضارة البيضاء، فحسب، بل باعتباره أيضا نواة الحضارة وموطنها الاول، لاسيما فيما يتعلق «بالعالم القديم». إن الأبحاث الأثرية التي أجريت منذ الحرب العالمية الأخيرة ــ وخاصة في غضون العشرين سنة الاخيرة ــ قد ساهمت بدون شك في تعديل هذه النظرة الضيقة المغرورة تعديلا جزئيا. فلقد بينت فعلا أهمية «الهلال الخصيب» في تاريخ الفلاحة العالمية (٢) وأبرزت أيضا دور أجزاء أخرى من المعمورة في هذا التغير الهام في تاريخ البشرية، وهو تغير قد نشأ عن إنتاج المواد الغذائية التي لم تستملك الى حد ذلك الوقت الا في الوسط الطبيعي، فظهر بوضوح وجلاء مدلول الاختراعات الزراعية ومعنى تأهيل النباتات بأمريكا (٣) كما ظهرت السابقية النسبية للمهد الفلاحي بجنوب شرقي آسيا المدارية (٤) كما ظهرت أخيرا المساهمة التي قدمتها افريقيا لتاريخ هذه الفلاحة العالمية.

---

(١) ماذا وقع في التاريخ ط ١٩٤٢ (ثم أعيد منقحا ١٩٥٤) مطبعة باليكان، بنغوين بوكس.

(٢) انظر: مثلا ر. ج. برايدوود ١٩٦٠.

(٣) انظر: مثلا في هذا الموضوع ر. س. ماك نايش، ١٩٦٤.

(٤) انظر: بارو ١٩٧٥.

الا أنه منذ ما يقرب من نصف قرن، كان ن. أ. فافيلوف (٥) العالم الفلاحي والتكويني الروسي المشهور، قد اعترف بوجود مراكز لأصل النباتات المزروعة بافريقيا، ثم بيَّن بعد ذلك أحد مساعديه وهو أ. كوبتسون (٦) انه كانت توجد بافريقيا أمهاد فلاحية أولى. وبعد سنوات قليلة ضبط أحد الدارسين بمركزنا موقع تلك الأمهاد وعددها ودورها (٧).

الا أن نوعا من الافكار المسبقة المتولدة عن الاستعمار وكذلك الجهل بأصول العديد من المكونات الزراعية الافريقية، وبصفة أعم بما قبل تاريخ هذه القارة، جعل الناس، ولمدة طويلة ينتقصون أو حتى يجهلون الدور الذي قامت به افريقيا في تطوير الفلاحة وتقنياتها ومواردها.

والملاحظ ان هذه الوضعية قد تبدلت فعلا اذ بدأ يظهر منذ سنوات اهتمام حقيقي بدراسة أصول الفلاحة الافريقية كما تشهد على ذلك مثلا المحاولات المنشورة سنة ١٩٦٨ بالانثروبولوجيا المعاصرة (٨) والعديد من التعاليق التي أثيرت حولها، كما يجب ذكر الدراسات التي جمعها في هذا النطاق كل من ج. د. فاج. ور. أ. أولفير (٩)، وأيضا المساهمة التي قدمها أخيرا و. ج. ل. رندلس لتاريخ حضارة البانتو (١٠). ولكننا قبل أن نحاول تقديم خلاصة موجزة للمعلومات المتعلقة بما قبل تاريخ الفلاحة الافريقية وبتاريخها، يجدر بنا أولا أن نعطي بسطة إجمالية نصف فيها الإطار البيئوي الذي ظهرت فيه.

الأوساط الطبيعية للفلاحة الافريقية وأصولها

انه لمن البديهي أن أصول التقنيات الفلاحية وتنوعها وتطورها كانت متصلة اتصالا وثيقا بحالات الاوساط الطبيعية التي توجد فيها (الطقس — المياه — التضاريس — الأرض — النبات — أنواع النباتات المستعملة أصلا — نوع المواد الغذائية المتوفرة...) واذا كانت هذه العوامل التي أوجدتها الاوساط الطبيعية قد قامت بدور هام بل أساسي في تكوين الزراعة والرعي، فانها لم تكن مع ذلك هي الوحيدة، ذلك ان هذه التطورات تفرض أيضا وجود مظاهر ثقافية وحضارية عديدة.

وفعلا، فحتّى في العصور السابقة للعهد الفلاحي ولأصول الفلاحة فان الانسان — أثناء هجراته وتنقلاته — قد حمل معه أدواته وتقنياته وطرق إدراكه وفهمه للبيئة، والأساليب التي بها يستعمل المكان ويهيئه... كما حمل معه أيضا جملة من المواقف والتصرفات التي تولّدت عن علاقاته بالطبيعة في الأماكن التي نزل بها من قبل. ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا تكاد تخرج من العهد الحجري القديم، كانت الفلاحة النباتية وتربية الحيوانات قد تركزت في الشرق الأدنى، حيث ظهرت المدن

(٥) ١٩٥١ — ن. أ. فافيلوف.
(٦) ١٩٥٥ — س. د. درلنغتن ١٩٦٣.
(٧) انظر: ر. بورتير ١٩٦٢.
(٨) أ. دايفيس: اصول الفلاحة بغرب افريقيا، هـ. ج. هوغو: أصول الفلاحة: الصحراء د. سدون: أصول الفلاحة وتطورها بشرق افريقيا وجنوبها.
(٩) ج. د. فاج ور. أ. أوليفر ١٩٧٠.
(١٠) و. ج. ل. رندلس، ١٩٤٤.

الأولى. ومن هذا الشرق الأدنى وصلت الى أوربا ــ التي كانت آنذاك متأخرة نسبيا ــ الاختراعات التقنية والافكار المصاحبة لها التي تسببت في ثورة العصر الحجري الجديد المرتكزة على الفلاحة وتربية الحيوانات.

ان هذه الظواهر المتشابهة من حيث الانتشار والتبادل، قد حدثت في أماكن أخرى من العالم وبافريقيا طبعا، بسبب الرحلات والهجرات البشرية المتوافدة اليها أو التي خرجت منها أو التي حدثت داخلها.

على أنه يجدر بنا أولا أن ننظر جليا فيما تضمنته الاختراعات الزراعية والرعوية وكذلك تأهيل النباتات والحيوانات. فهذا الانتقال من التملك (قطف الثمار وصيد الحيوانات) الى الانتاج (الزراعة وتربية الحيوانات) قد جعل الانسان يتحرر تدريجيا وجزئيا من الصعوبات التي فرضتها النظم البيئوية التي ينتمي اليها أو التي كان يعيش فيها قبل ظهور الفلاحة وتربية الحيوان، عيشة تقترب من عيشة «الوحدة الحيوية»، مثله مثل الأجسام الأخرى وذلك حسب المجرى العادي الخاص بالأشياء الطبيعية.

ان هذا التغير الاساسي المتمثل في ظهور الفلاحة وتربية الحيوان قد تجلى بتكيف الانسان وتأقلمه مع المحيط الطبيعي المتنوع الذي يسمح لمركبات بيولوجية أن تنتج أكثر، أو أن تنتج أشياء أخرى غير التي تنتجها طبيعيا. وباعتبار أن الإنسان أصبح فلاحا أو مربيا للمواشي، فقد طرأت تحولات متفاوتة على الأوساط الطبيعية كما طرأ توجيه كمي أو نوعي على انتاجها.

الا ان الانسان مهما كانت سيطرته على عناصر هذه الأوساط الطبيعية، فانه لم يستطع بصفة فجائية وشاملة أن يتحرر من كل العراقيل. ولذلك وجب ان ننظر أولا الى الصعوبات الناشئة عن خصائص تلك الأوساط الطبيعية، والتي قامت بدور أساسي في حقب ما قبل تاريخ الفلاحة وأثناء تاريخها. وفيما يتعلق بالقارة الافريقية يجب علينا ان نقدم نبذة عامة يكون لنا بواسطتها إلمام عام بالمحيط وذلك أن افريقيا تبدو مقسّمة الى شرائط واسعة على خطوط العرض، مختلفة من حيث البيئة، ومتناظرة بالنسبة لجهتي خط الاستواء.

ان بعض هذه الشرائط كما لاحظ راندلس (مصدر مذكور) كانت تقوم بدور الحواجز بالنسبة لتيارات الانتشار القادمة من الشمال الى الجنوب، وذلك شأن الصحراء والغابة الاستوائية الكبيرة و «السباسب» التانزانية وصحراء كالاهاري. وبالعكس من ذلك فان الشرائط الاخرى قد فتحت مجالات لتلك التيارات الانتشارية التي كانت تجد فيها أوكارا مناسبة لها. وهذا ما وقع في السباسب الكائنة بالشمال وبالجنوب. على ان «راندلس» لاحظ أنه لا يوجد من تلك الحواجز حاجز واحد يتعذر عبوره اطلاقا باعتبار ان الصحراء والغابات الكبيرة مثلا قد سمحت ببعض التنقلات البشرية.

ان خطوط العرض بافريقيا ليست هي العامل الوحيد الذي يمكن من تحديد المناطق البيئوية الكبرى تحديدا عاما، بل هناك التضاريس والمرتفعات التي تتدخل معها في تقسيمها. فخط قمم المرتفعات الرابطة بين الزايير والنيل يفصل الاراضي المرتفعة بشرق افريقيا عن شبه سهل الغرب الافريقي، مع العلم ان هذا الاخير يقسمه محور صغير قائم، يمتد من جزيرة برنسيب الى التشاد.

في هذا التقسيم البيئوي على أساس خطوط العرض للقارة الافريقية توجد بعض الحالات

الاستثنائية التي قد تكون أهمها المرتفعات الممتدة موازية للريفت (Rift) من شمال بحيرة فكتوريا الى جبال مونشنغا والتي، حسب ما ذكره راندلس، تمثّل ممرا ضيقا ظاهرا يسمح بعبور حاجز خط الاستواء (الخريطة رقم ١). وبالاضافة الى ذلك فهناك «المعقل» الأثيوبي الذي سنبين فيما بعد دوره في الأصول الافريقية للنباتات المزروعة.

واذا رتبنا الآن هذه المعطيات المختلفة، رغم كونها لم تتجاوز بعد مرحلة العموميات، فان افريقيا تبدو لنا وكأنها تحتوي شمالا وشرقا وجنوبا وحول محور الغابات الاستوائية، على منطقة تكاد تكون دائرية من السباسب والسهوب، ثم شمالا وجنوبا على منطقتين قاحلتين هما الصحراء، وصحراء كالاهاري، وأخيرا في أقصى الشمال وأقصى الجنوب على منطقتين تكادان تصلحان مناخيا للانسان، بل يمكن عند تبسيط الأمور تبسيطا كبيرا، يمكن القول بأنها تجر وسطية بالمعنى المناخي للكلمة، مع الاشارة الى بعض الخصائص البيئوية في أقصى جنوب افريقيا. (خريطة رقم ٢). وانطلاقا من «قلب» الغابة الاستوائية وبقطع النظر عن المناطق الساحلية يحصل لنا بصورة عامة، مال ينتقل من الرطب جدا نحو الجاف جدا ومن «النظم البيئوية المعممة» من نوع «الغابة المدارية الرطبة» الى «النظم البيئوية الأكثر اختصاصا» من أنماط السباسب والسهوب والنباتات الصحراوية (١١).

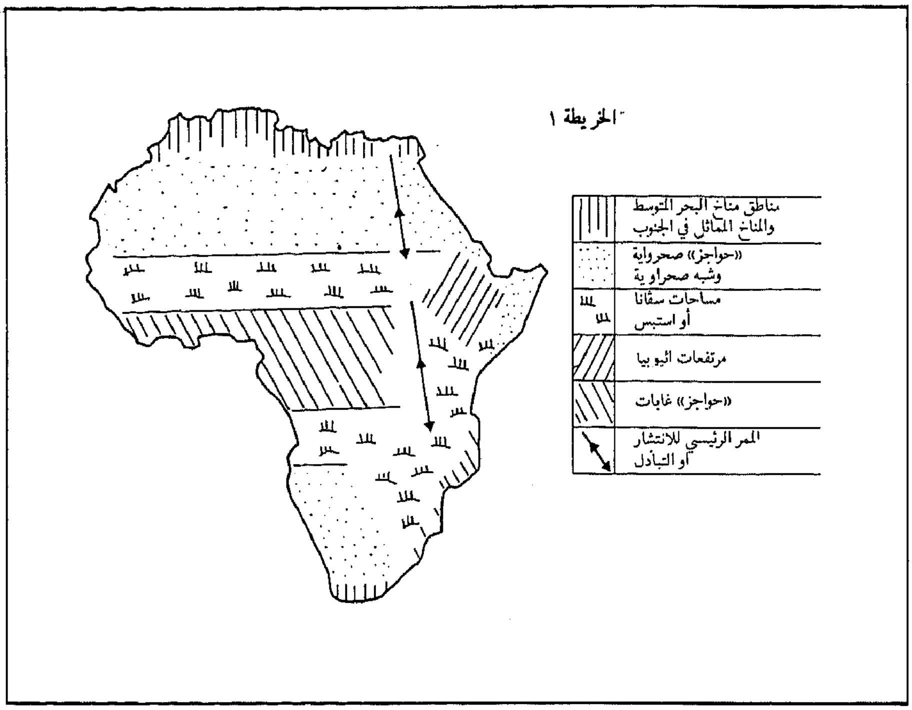
وفيما يتعلق بالفيافي، وبعبارة أدق فيما يتعلق بالصحراء، علينا ان نذكر هنا ــ وان كان الامر قد أصبح معروفا جدا ــ بأن هذه الصحراء لم تكن منذ أن وجدت صحراء قاحلة كما هي عليه الآن، إذ الفلاحة وتربية المواشي قد وقعتا فيها سابقا، بل ان العديد من المؤلفين (١٢) قالوا بأنها كانت مهدا للحياة الرعوية والزراعية.

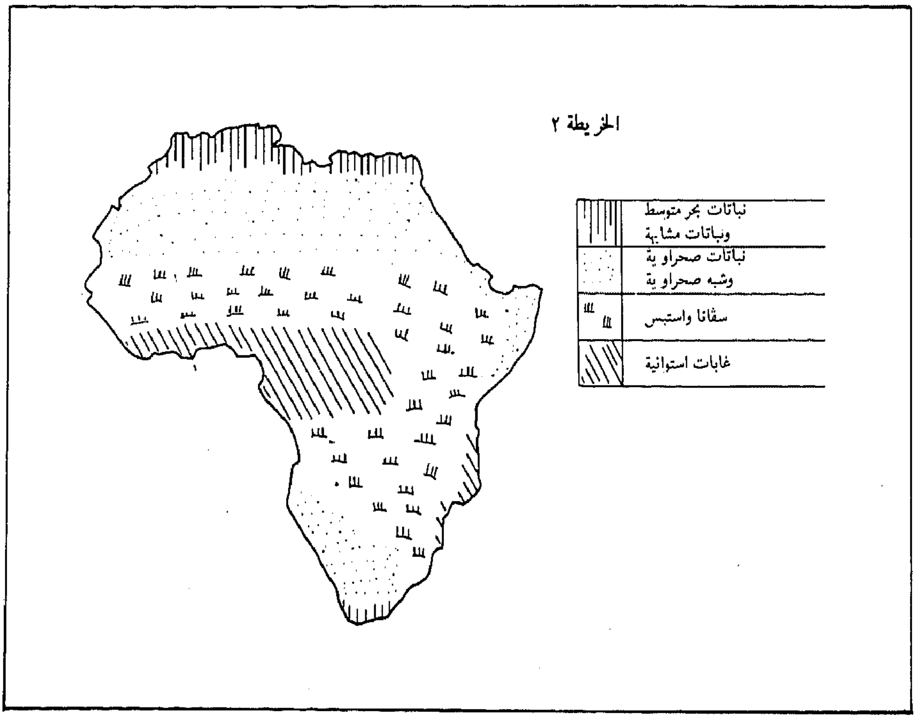
فلنعد الآن للصورة البيئوية التي رسمناها منذ حين للقارة الافريقية، فيمكن ــ حسب رأينا ان نتصور أنه، في الأزمنة القديمة السابقة لفترات الفلاحة أي في النظام البيئوي المعمم للغابات الاستوائية الكبيرة، كانت تستعمل أولا أشكال من القطف والقنص يمكن تشبيهها من حيث بعض جزئياتها التقنية بالطرق التي يستعملها في أيامنا هذه البيغمي. ونلاحظ ان الموارد الغذائية والنباتية والحيوانية لهذه النظم البيئوية لا تقل تنوعا ووفرة عما هي عليه مركبات وحداتها الحيوية.

ان الملاحظات التي استطعنا تسجيلها في شأن الاقتصاد المعاشي لمجموعات البيغمي قد بينت لنا ان هذه الموارد ــ نظرا لكثافة هذه المجموعات الغابية ــ كانت قادرة على تأمين معاشها بدون ان يكلفهم ذلك جهدا كبيرا.

ان نفس الملاحظة تنطبق من جهة أخرى على حال الجانين الصيّادين بالنظم البيئوية الأكثر اختصاصا في المناطق القاحلة أو الجرداء مثل مناطق قبائل سان، وكونغ، بصحراء كالاهاري الذين درسهم ر. ب. لي (١٣) الا ان الموارد بالنسبة اليهم كانت أقل تنوعا وان التزود بالماء كان عاملا

(١١) انظر: فيما يتعلق بعبارات «النظام البيئوي المتخصص» و «النظام البيئوي المعمم»، د. هاريس ١٩٦٩.
(١٢) انظلا مثلا: أ. شوفاليي ١٩٣٨، هـ. ج. هوغو المذكور أعلاه - وج. ج. هنتر ١٩٦٨.
(١٣) ١٩٦٦.





- الخريطة ١: توزيع المناطق الايكولوجية حسب خطوط العرض
- الخريطة ٢: النظم الإيكولوجية المختلفة

حدّ من تلك الموارد، لأن تغير كمياته الفصلية قلل من استثمار الموارد التي لا يستفاد منها الا بحسب قرب مواقع الماء.

ولكي نرجع الى ماضي افريقيا في حقبة ما قبل العهد الفلاحي، فلنذكر أنه بعد نهاية العهد البلستوسيني ـ حدثت فترة رطبة تسمى «الماكالي» (من ٥٥٠٠ الى ٢٥٠٠ قبل الميلاد) قد يسّرت الاتصال بين سواحل البحر الأبيض المتوسط ومناطق جنوب الصحراء، وفي نفس الوقت، يسّرت حالة مجاري المياه والبحيرات ـــ حتى في قلب القارة ـــ كما يسرت تطور صيد الأسماك، أي استقرار نسبيا للسكان الذين يمارسونه، فكانت ظروفا ملائمة لتنقل متدرج نحو الانتاج الفلاحي (١٤). وكان آنذاك قد حصلت، انطلاقا من مهد الفلاحة بالشرق الأدنى والبحر الأبيض المتوسط ـــ انتشارات ساهمت بدون شك في تقدم تلك العملية بسرعة (١٥).

وبداية من العهد البلستوسيني، أي حوالي ٩٠٠٠ سنة ق. م وفي مطلع الماكالي وجدت ـ كما يبدو ـــ في القارة الافريقية مواطن متميزة لجني الثمار المكثف نسبيا والذي سمح بدون شك بتكون تجمعات بشرية محدودة، فكان ذلك شأن المناطق المتقابلة من الغابة والسباسب، بمحاذاة قلب الغابة الاستوائية والأنجاد العشبية بشرقي افريقيا، وفي المناطق القريبة من البحيرات والمجاري المائية الرئيسية مثل نهر النيل، وكذلك بالمناطق الساحلية في شمال وجنوب القارة الافريقية (١٦).

وقد كانت مناطق العبور هذه وخصوصا المناطق التي تتقابل فيها السباسب والغابات كانت فيما بعد أوكارا ممتازة للتطورات الثقافية، وبالتالي لبعض من الحضارات الافريقية، اذ لاحظ رندلس (انظر أعلاه) في هذا الصدد بأنه «في حدود السببين (الساحل وتخوم الغابة) توجد حضارات البانتو الشهيرة».

يجب علينا الآن ان ننظر الى امكانية تأهيل الأعشاب التي وفرتها تلك القارة الافريقية، فالمنطق البيئوي يتطلب منا ان نعتبر في البداية العناصر المنتجة الأولية أي النباتات.

الأصل الافريقي لبعض النباتات المزروعة

ان علوم الطبيعة لم تول أصل النباتات المزروعة ما تستحق من أهمية الا حديثا، ذلك أننا اذا ما استثنينا المؤلف المهم الذي وضعه العالم أ. دي كندول والمنشور سنة ١٨٨٣، فان الطريقة التأليفية لم تتطور على المستوى العالمي الا بعد أعمال العالم النباتي الروسي ن.آ. فافيلوف وفريقه، بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، وذلك لطرق هذه المسألة ذات الأهمية البالغة في تاريخ الانسانية ولتهيئة الأوساط الطبيعية والتصرف في مواردها (١٧). فلقد تمكن فافيلوف ومساعدوه من التعرف على وجود ثمانية مراكز لأصل النباتات المزروعة (وفيها ـــ حسب فافيلوف ـــ ثلاثة مراكز ثانوية، أي أنها كانت مرتبطة بمراكز جهوية هامة). وتوصل الى هذه النتيجة بالجمع بين استقراء شامل للمعطيات

(١٤) في موضوع استقرار صيادي الأسماك، وما له من علاقة بأصول الفلاحة، انظر س. أ. سوار ١٩٥٢.
(١٥) انظر: ج. دسموند كلارك ١٩٧٠.
(١٦) انظر: ج. دسموند كلارك ١٩٧٠.
(١٧) انظر: المصدر المذكور، حول آثار فافيلوف الواسعة، ١٩٥١.

الزهرية والجغرافية النباتية، مع استقصاءات فلاحية نباتية ودراسات تكوينية. ويوجد في افريقيا مركز واحد من تلك المراكز ويسمى بالمركز الحبشي (الأثيوبي) في حين ان مركزا آخر ـ يسمى بمركز البحر المتوسط ـ يوجد على سواحل البحر الأبيض المتوسط ويهم افريقيا بصفة جزئية (شمال افريقيا ومصر) وله مع ذلك ارتباطات بالمركز الواسع الهام الموجود بالشرق الأدنى، الذي ظهرت فيه من النباتات المزروعة ــ كما سبق أن قلنا ــ الحبوب الأساسية (قمح، شعير، شيلم...).

وفيما يتعلق بافريقيا، فان هذا يعتبر تقدما محسوسا بالمقارنة مع ما توصل اليه كاندول (المذكور أعلاه) الذي لم يحدد للفلاحة والنباتات الاهلية الا ثلاثة مراكز أساسية وأصلية، وهي الصين وجنوب غربي آسيا (مع الامتداد الى مصر) وأمريكا. وهذا ما يجعل مساهمة فافيلوف لمعرفة أصل النباتات المزروعة ذات أهمية بالغة في المستوى النظري، ذلك أنها أوضحت أنه في نطاق البحث عن أصل نبتة مزروعة، يجب ان نفرق بين موطن أو مركز التغير الاول المتميز بتنوع كبير في أشكال النباتة مع ظهور بارز جلي للصفات الغالبة، وبين مناطق التغير الثانوي الذي يمتاز بكثرة الصفات المتقلصة الضامرة في مواطن التغير الأول.

ان ضبط النطاق الجغرافي لمواطن التغير وتوزعه يسمح بتحديد مناطق المهد الفلاحي وذلك انه، اذا كانت مساحات تلك المواطن تتطابق وتتداخل كليا أو جزئيا، يحق لنا أن نرى أن عدة حضارات كانت مدة طويلة من الزمان، تمارس في منطقة التلاقي تلك، نشاطا تأهيليا وتحويليا سلطته على تلك النباتات التي نتحدث في شأنها.

ولنوضح الآن نقطة أخرى ذات أهمية: ان المركز الاصلي النباتي لنوع من أنواع النباتات المزروعة لا يتطابق حتما مع مساحات التغير هذه، والمرتبطة بتدخلات الانسان في المادة النباتية. وبعبارة أخرى فان المنطقة التي توجد فيها الاسلاف المحتملة للخلف النباتي كثيرا ما تختلف اختلافا واضحا عن المنطقة أو المناطق التي ظهر فيها عن طريق تدخل الانسان ــ ذلك الخلف النباتي، هو نبتة ناشئة عن التأهيل والانتقاء والتنوع.

وهذا له على الأقل سبب واحد ينحصر، في العهود القديمة، في تنقل الأسلاف البرية تنقلا متكررا خارج مواطنها عندما تستعمل في الجني البسيط (١٨).

فلقد استطاع أحدنا بالنسبة للقارة الافريقية ان يكمل الجدول الذي قدمه فافيلوف (١٩) وبذلك نكون قد بيّنا وجود موطن في غرب افريقيا وآخر في شرقها، فضلا عن الموطن الحبشي والجزء الافريقي من الموطن البحر ـ وسطي ـ على أنه يمكن اعتبار موطن شرقي افريقيا امتدادا للموطن الحبشي في المرتفعات الاستوائية (٢٠).

فاذا ما نحن جمعنا ولخصنا المعطيات المتعلقة بهذه المواطن أو المراكز المختلفة التي تهم أصل النباتات المزروعة وتنوعها فاننا نحصل على الجدول التالي:

(١٨) انظر: ج. بارو ١٩٦٢.
(١٩) انظر: ر. برتير، ١٩٥٠، ٩ ــ ١٠، ١٩٥١، ٢٣٩ ــ ٢٤٠.
(٢٠) انظر: في هذا الموضوع ر. شنايل ١٩٥٧.

مركز البحر المتوسط

ترتبط بهذا المركز مجموعة كاملة من النباتات المزروعة التي تمتاز بها مناطق البحر الأبيض المتوسط، من ذلك الحبوب (قمح وشعير خاصة) والخضر ذات الحبوب الصالحة للاستهلاك (الحمص والعدس، والجلبان والبيقة). وهذه النباتات تدل على وجود قرابة بين هذا المركز ومركز الشرق الأدنى. كما نجد فيه زمرة النباتات المولدة البحر وسطية التي منها الزيتون (الزيتون الأوروبي ل) والخروب. الا أن البعض من هذه النباتات تختص بها افريقيا مثل شجر اللوز البربري (اوغانيا سدروكسيلون روم) وهو شجر مغربي يوفر الزيت وصمغ البريد. ويشمل هذا المركز مصر التي لها علاقات واضحة بمركز الشرق الأدنى والتي كان لها تأثير هام في تاريخ الفلاحة وتربية الحيوان بالشمال الافريقي. فمصر تتقاسم مع الشرق الأدنى السوري أصل نبات له أهمية اقتصادية أكيدة وهو البرسيم أو تفل الاسكندرية. واذا كان هذا الجزء الافريقي الكائن في وسط سواحل البحر المتوسط لم يقم بدور مباشر في التاريخ الفلاحي لافريقيا الاستوائية فانه قد أثر تأثيرا عميقا في الصحراء عندما طرأت عليها فترة مناخية مواتية للتنمية الزراعية والرعوية (٢١).

المركز الحبشي

ونجد فيه قرابة نباتية توليدية مع مركز الشرق الادنى (قمح، شعير، خضر من نوع الحمص والعدس، والجلبان، والبيقة، الى غير ذلك)، ومع المراكز الافريقية (الذرة البيضاء) التي ستكون موضوع حديثنا بعد حين. ويبدو من الواضح أيضا أن النباتات الآتية من آسيا المدارية قد مرت من هذا المركز عند تغلغلها في افريقيا. على أن هذا المركز كانت له نباتات سولدة يختص بها ومنها شجرة البن العربي وشجرة الموز الحبشي والتف الحبشي والغيزوتيا الحبشي، أو النيجر ذو الحبات الزيتية.

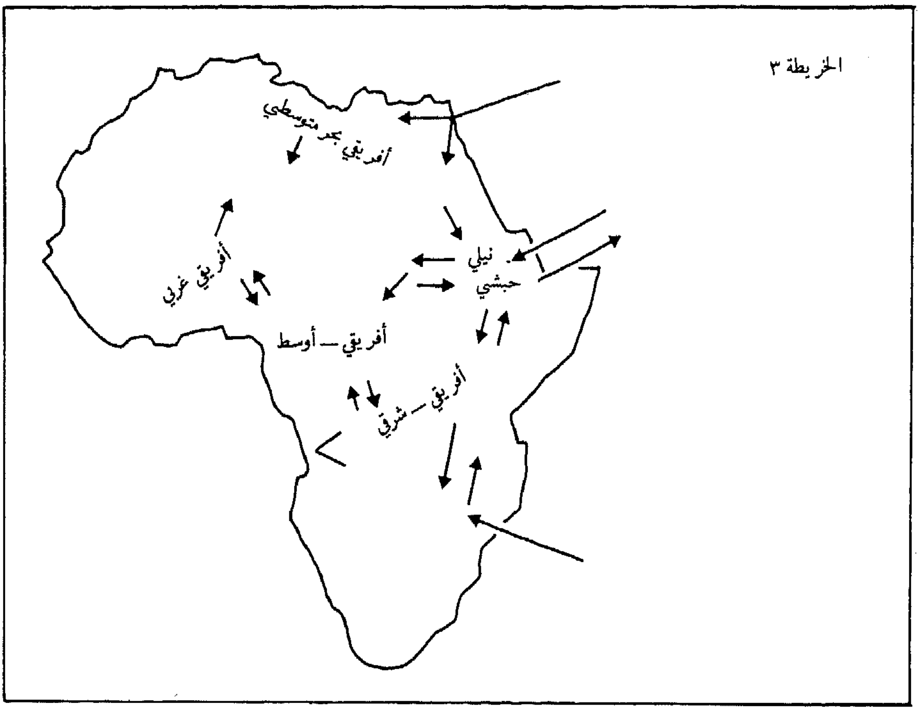
مركز شرق افريقيا

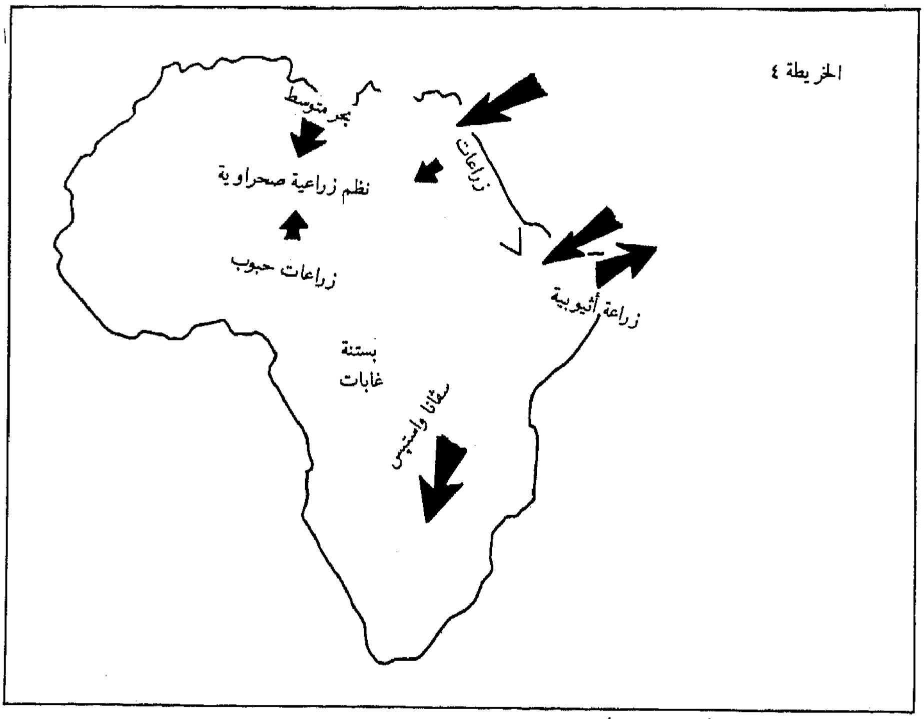
يمتاز بأنواع من الذرة المختلفة ابتداء بالذرة والذرة ذات الشلك القلمي والدخن الذي منه الايليوزين كركناغارتن والسمسم.

مركز غرب افريقيا

نجد فيه أصل مختلف أنواع الذرة المشتقة من الذرة المشابهة للقصب والذرة ذات الشكل القلمي مثل أنواع الذرة الريشية والهوب (Hubb) أو أيضا الذرة الريشية الغمبية والهوب وكذلك أنواع من الذرة ذات الشكل القمعي التي منها الايبورو، والايبورو القمعية والفونيو والأكسيليس القمعي وكذلك مختلف أنواع الرز التي سنعود الى التحدث عنها فيا بعد (٢٢). ويمكن لنا أن نميز في نطاق هذا المركز بين قطاعين كبيرين: مداري أولا، ثم ما أسفل المداريين والقطاع المداري ينقسم بدوره لى فروع عديدة (الفرع السنغالي الغمبي — الفرع النيجيري المركزي — الفرع التشادي النيلي)،

(٢١) انظر: هذا الموضوع، ج. دسموند كلارك، وهـ. ج هوغو المذكورين أعلاه.
(٢٢) انظر: ر. برتير ١٩٦٢، المذكور أعلاه.





- الخريطة ٣: المواطن الأولى لأنواع الزراعة الأفريقية
- الخريطة ٤ : التوزيع الجغرافي العام لأنواع الزراعة في أفريقيا

وكل فرع يتميز بنباتات مزروعة خاصة به، مثل الحبوب، وكذلك نباتات عسقلية مثل الكوليوس دازوشيف ونباتات زيتية مثل البوتيرسبرموم باركي، والكتشي المعروفة عند علماء النباتات باسم (الفيتلار يا بارادوكسا غارتنر).

وترتبط بهذا القطاع المتفرع عن مركز افريقيا الموجود أسفل خط الاستواء، ترتبط به نباتات الانيام (Ignames) مثل (ديوسكوري كايينانسيس لامك. د. د وميتوروم باكس. د. روتونداتابوار) وكذلك نباتات ذات بذور زيتية (Elais guineensis Jacq., Telfairia occidentalis Hook) ونباتات منبهة مثل الكولانتيدا. (Cola nitida A. Chev.) والحقيقة ان هذا المركز يمتد بافرقيا الوسطى مثلما تمتد مساحات يتوزع فيها البعض من أنواع النباتات المذكورة أعلاه (الكولا) (Cola) والكوليوس (Coleus) والأليايس (Elaeis) وهناك يوجد أصل (الحبوب الأرضية) مثل الفاندز يا (Voandzeia subterranea Thon) أما النبات البقلي الافريقي الآخر (Kerstingiella geocarpa Harms) فانه ينتمي الى مركز غرب افريقيا.

و يبدو لنا أنه في شرقي المنطقة الغابية الاستوائية أو في جنوبها وقع في البداية تجمّع نباتي مولد شبيه بما وصفناه منذ حين بالنسبة لمركز غرب افريقيا وهو يمتد على رقعة أرضية تشمل هذه المنطقة الغابية وتحاذي في امتدادها مركز شرقي افريقيا وتحتل تقريبا المنطقة المحيطة بغابات الجني المكثف الذي بيناه سابقا (٢٣).

المهاد الفلاحية

ان ماتقدم ذكره قد أدى بنا (٢٤) الى افتراض وجود عدد من المهاد الفلاحية بالقارة الافريقية وهي مهاد يمكن لنا اليوم ان نعيد النظر في ترتيب قائمتها وهي كما يأتي من الشمال الى الجنوب (الخريطة رقم ٣).

ـ المهد الافريقي البحر وسطي: يمتد من مصر الى المغرب وهو الذي أثر في المناطق الرعوية والزراعية للصحراء، وكان له عن طريق مصر، تأثير متبادل مع مهد الشرق الأدنى.

ـ في الغرب: المهد الافريقي الغربي، بأقسامه المدارية وما تحت خط المدارين.

ـ في الشرق: المهد النيلي الحبشي، بقسميه النيلي والحبشي.

ـ مهد افريقيا الوسطى: في شرق هذا المهد يوجد المهد الافريقي الشرقي الذي يمتد غربا، الى أنغولا. وفي أقصى الجنوب يبدو أن القُطّاف قاوموا طويلا التأثير الرعوي والزراعي من المهاد التي وصفناها منذ حين وخاصة من مهد شرقي افريقيا (٢٥) وذلك لأنهم اكتفوا بما لديهم من موارد واحتموا بجفاف صحراء كالاهاري.

(٢٣) انظر: د. سدون ١٩٦٨، المذكور أعلاه.
(٢٤) انظر: ر. برتير ١٩٦٢، المذكور أعلاه.
(٢٥) انظر: د. سدون ١٩٦٨، المذكور أعلاه.



١



٢

● ١) احراق العشب لاخصاب الأرض ــ بعد الحريق. منظر من فوتا جالون: بيتا، تيمي ــ مدينة، (تصوير ر. بورتير).

● ٢) فلاحة الارض بالكاديند و بواسطة مزارعي الديولا دوسويي (كازامانس)، استعدادا لإعادة غرس الشتلات في أحواض الأرز. (تصوير ر. بورتير).

الموطن البستني والموطن الفلاحي

وفي الواقع فان مفهوم المهد يمكن أن يكون غير ناجع إذ أنه لا يخلو، في مستوى ما قبل التاريخ والتاريخ الزراعيين، من شيء من التلفيق. والحقيقة أننا نستطيع على ضوء ما سبق أن نستخرج مجموعة أكثر انسجاما:

أ) فالغابة الوسطى (حيث يوجد النظام البيئوي المعمم) تصلح كمركز نباتي زراعي ولكننا ونحن هنا قد استعملنا التعبير السيء الذي وضعه كل من ر. ج. برايد وود، وك. أ. ريد (٢٦) ولكننا نفضل أن نطلق اسم (موطن بستني) حيث سمحت إنتاجية القطف في وسط غابي لذلك القطف أن يدوم ونلاحظ هنا ان الكمية النباتية التي أمكن تأهيلها في ذلك الموطن كانت أقل من الكميات الموجودة في الغابات المدارية الرطبة في آسيا أو في أمريكا.

ب) ان ما يحيط بهذا المركز الغابي من سباسب، أي النظام البيئوي الأكثر اختصاصا، يصلح كموطن فلاحي، منتج للحبوب، ويمتد من غرب افريقيا الى شرقها متواصلا نحو أنغولا.

وفي شمال القارة، أي في الجزء البحر وسطي منها، ظهر بوضوح، عبورا بمصر، تأثير فلاحة الحبوب التي كانت في مناطق ما بين النهرين بالشرق الأدنى. فلقد تأثرت الصحراء أيضا في العهد الذي كانت صالحة للفلاحة بهذا الأمر، وهذا ما يفسر انتشار البعض من النباتات بجنوب الصحراء الحالية وأيضا انتشار آخر معاكسا أي من الجنوب الى الشمال انطلاقا من المناطق الافريقية الموجودة جنوب الصحراء.

ولقد كان تأثير منطقة ما بين النهرين محسوسا في المعقل الأثيوبي الذي له بدون شك قرابة بالمركز الفلاحي للسباسب والسهوب، والذي له مميزاته النباتية المولدة الخاصة به.

ان الفرق بين المركز الفلاحي والمركز البستني هو من جهة سيطرة النباتات ذات العساقيل المتعددة في المركز البستني، ومن جهة أخرى الممارسات الزراعية المتعلقة بالبستنة: وذلك أن حقل السباسب والسهوب يقابله بستان الغابة وحواشيها.

أما بالنسبة للأدوات الزراعية، فهي متميزة في مجموع القارة الافريقية باستعمال المجازف والأوتاد للحفر وأنواعها الأخرى. الا ان المحراث كان مستعملا في جزء من الموطن الفلاحي المنتج للحبوب، بعد ما استعملته مصر وأثيوبيا.

أنواع الذرة والرز

ان هذا الموطن الفلاحي الافريقي في النظام البيئوي المتخصّص نسبيا في السباسب والسهوب، مباين للمركز البستني في الغابة المدارية، وهو يتميز بما يلي:

ــ الاستعمال الغالب لانتاج النباتات المزروعة بواسطة طريقة التلقيح (الحبوب المزروعة).
ــ أهمية الحبوب في المركب الغذائي النباتي.

---

(٢٦) ١٩٥٧.



● أدات «السونغ» أو الجاروف لدى قبيلة سيريرغنومنكا، وهم صائدو أسماك وزارعو أرز في جزر «الساحل الصغير» بالسنغال. وتستخدم أداة السونغ في عزق وترصيف التربة الثقيلة في حقول أرز مستنقعات المنغروف، وهي تناظر أداة الكادييند والتي تستخدمها قبائل ديولا بايوت في كازامانس، وأداة الكوفي أو الكوب لدى الباغا في ساحل غينيا. (تصوير ر. بورتير).

ان الزراعات التي تطورت في هذا الموطن تستعمل طريقة جميلة مخالفة للطريقة الفردية المعمول بها في الزراعات البستنية بالموطن الغابي. ومما لا شك فيه ان حضارات الموطن الفلاحي قد وسعت حقولها على حساب الغابات عندما اعترضتها في توسعها الترابي. ولقد تمكن هذا التوسع الفلاحي من القيام بدور في تطور عمليات تحويل المناطق الى سباسب، وبتعبير بيئوي، فان تلك العمليات تناسب تخصصا طرأ على نظم بيئوية معممة، كما لو أن كل شيء قد جعل تلك الحضارات الفلاحية تتكيف مع المحيط الطبيعي بحسب تقنياتها أو بالأحرى بحسب طرق ادراكها لها. وربما حصل مع تغلغل الزراعات في هذا الوسط الغابي، نوع من سوء التكيف كثير أو قليل، من ذلك أنه ربما حدث أن أهملت الحبوب لتعويضها الزراعات الغذائية التي تتميز بها المناطق الغابية، بل ربما حدث أيضا ــ وهو افتراض لا يمكن استبعاده ــ اعتماد نباتات القطف لتكون أساسا لما يقتات به فلاحو السباسب الذين كانوا قديما ملزمين أثناء نزوحهم على العيش في محيط غابي.

ان الحبوب ظلت رغم ذلك تميز الفلاحة في السباسب والسهوب، ومن تلك الحبوب، رغما عن أصالة الحبوب الموجودة في مختلف هذه المناطق الفلاحية، نذكر منها حبوب الذرة البيضاء، أو الذرة الكبيرة، التي تعتبر كأنها السمة الخاصة بالنباتات التوليدية المشتركة لمجموع هذا الموطن.

ان أصل هذه الذرة أو بالأحرى أنواعها قد كان، ولمدة طويلة، محل نظريات مختلفة وآراء متناقضة (٢٧) ولكن يبدو ان هذه الأنواع هي حقا واردة أصلا من افريقيا. وكانت لها فعلا ــ في اطار هذا الموطن الفلاحي الافريقي ــ جذور مستقلة نذكر منها هنا:

ــ ان النوع البرّي أو الذرة المشابهة للقصب الذي تغطي مساحته المناطق المدارية الرطبة الممتدة من الرأس الأخضر الى المحيط الهندي، تقابله أنواع الذرة المزروعة في غربي افريقيا، منها الذرة الشديدة السواد، والذرة اللامعة والذرة الدرمندئية والذرة الدرية والذرة الغينية والغمبية والذرة الناتئة الى غير ذلك...

ــ وان النوع البرّي أو الذرة المذببة الموجود بشرق افريقيا من أرتيريا الى جنوب شرقي افريقيا تقابله مجموعتان من الأنواع المزروعة:

احداهما بالجنوب الشرقي لافريقيا وهي أنواع الذرة: «كافير» التي منها: الذرة كفررم والذرة القاسية والذرة الحلوة، وثانيتها بمناطق النيل والتشاد من نيجيريا الى آيرتريا، وبها الذرة الزنجية والذرة الذنبية.

ــ ان الجنس البري أو الذرة الأثيوبية الموجود بأيرتريا والحبشة تقابله الذرة الصلبة الموجودة في مناطق النيل الأزرق والذرة المزروعة بتشاد وبالهند وفي كل البقاع الواقعة جنوب الصحراء، والذرة المنحنية الموجودة في مناطق النيل، والذرة الزنجية الموجودة في الدلتا الأوسط لنهر النيجر.

ولنذكر أنه يوجد في مادون الدائرة الكائنة بنيجيريا الوسطى أي في الدائرة المدارية لمهد غربي افريقيا (انظر أعلاه) نوع خاص من الذرة البيضاء المزروعة او الذرة العسلية، وهو نوع يستعمل لاعداد مشروبات كحولية (٢٨)، بسبب غناه بالسكر، فضلا عن وجود أنواع أخرى من الذرة التي،

(٢٧) انظر: ر. برتير ١٩٦٢ المذكور أعلاه.

(٢٨) انظر: شنايل ١٩٥٧، مصدر مذكور.





● ١) أحواض أرز في تربة هيدرومورفية تتعرض للاغراق المؤقت أثناء فصل الأمطار (زراعة الأرز على المطر) احدى قرى البايوبي في نياسا كازامانس (تصوير ر. بورتير).

● ٢) جزر صناعية لزراعية الارز في الحقول البالغة الانخفاض الى درجة تحول دون صرف المياه العذبة غينيا - بيساو (تصوير ر. بورتير).

تستعمل لاعداد (جعّة الذرة البيضاء».

وتوجد علاقات واضحة بين مختلف أنواع هذه الذرة المزروعة كما يشهد وجود الذرة (S. conspicuum) (من طنجنيقا الى روديسيا الى أنغولا)، وكذلك ذرة (S. roxburghii) أوغندا، كينيا، روديسيا، جنوب افريقيا. وهي أنواع متولدة من التلاقح بين أنواع الذرة التي ينتمي البعض منها الى فصيلة الذرة المسماة (S.arundinaceum) والبعض الآخر الى الذرة المسماة (S. vesticilliflorum)

ومن بين هذه الأنواع المذكورة فان ذرة الذرة (S. durra) تستحق اهتماما خاصا بسبب انتشارها الواسع، من السودان الشرقي الى آسيا والى الهند، ومن منطقة ما بين النهرين الى إيران والى مناطق غوجيرات.

ان ما سبق بيانه لدليل واضح على أهمية هذه الحبوب في الحياة الاقتصادية النباتية للمركز الفلاحي في السباسب والسهوب الافريقية. و يتجاوز مدلول هذه الأهمية إطار القارة الافريقية لأن البعض من أنواع هذه الذرة المزروعة قد بلغت منذ مدة طويلة، مناطق أخرى في العالم.

ومن هنا تبدو لنا افريقيا مجموعة من المهاد الفلاحية الأصيلة ونوعا من الفسيفساء المكونة من المراكز الأصلية للنباتات المزروعة التي كان للبعض منها أهمية اقتصادية على الصعيد العالمي.

ان لطرافة الزراعة الافريقية جوانب أخرى أحدها، وهو من أهمها، يتمثّل في زراعة الرز القائمة أساسا على أصناف الرز الافريقية والتي تستحق ان نوليها عنايتنا، وذلك ان هذه الأنواع من الرز هي تابعة للمهد الغربي لافريقيا السابق الذكر، و بصفة أدق هي تابعة للقطاع الفرعي النيجيري الأوسط (الموطن الأوّلي) وللقطاع الفرعي السنغالي الغامبي (الموطن الثانوي).

ولقد تحدث سترابون منذ العهود القديمة عن الفلاحة الافريقية للرز. وفي القرن الرابع عشر لاحظ الرحالة ابن بطوطة ان النيجر ينتج الرز (٢٩). الا ان هذه الشهادات بقيت مدة طويلة منسية في الوقت الذي كان الناس يعتقدون أن زراعة الرز بافريقيا كان أصلها الرز الآسيوي (Oryza sativa L.) ، ولم تتغير الفكرة الا حوالي سنة ١٩١٤ فأصبحنا منذ ذلك الوقت نعلم بوجود رز خاص بافريقيا، و يسمى غلابريما شتودل (O, glaberrima Steudel) و يتميز بسنبلته الصلبة والمستقيمة و بثمرته الحمراء أو السمراء والذي يستغل بالقطف، أو بعد زرعه وتعهده بالخدمة. و يبدو أنه من فصيلة الرز المسمى (O. breviligulata). التي نجدها في أجزاء واسعة من افريقيا المدارية (أ. سيف، و أ. رو ير).

واذا رجعنا الى ما قلناه سابقا حول أعمال فافيلوف فاننا نجد فيها توضيحا بيانيا لصورة الرز الافريقي كما اقترحها هذا المهندس الزراعي والعالم التكويني فيما يتعلق بأصل النباتات المزروعة. فهناك مساحات واسعة للفصائل البرية، وأنواع كثيرة من الرز الافريقي، مع تغلب الخصائص المهيمنة في دلتا النيجر الأوسط (المركز الأولي)، وتنوع كثير، مع ظهور خصائص دنيئة في غمبيا العليا وكزمنس (مركز ثانوي).

وهكذا نلاحظ ابتداء من دلتا النيجر الأوسط، انتشار أنواع الرز الافريقي في كامل الغرب

---

(٢٩) أنظر شنايل ١٩٥٧، مصدر مذكور.

الافريقي الى حد سواحل غينيا. ومن المؤكد استعمال الرز من نوع غلابريما، بواسطة الجني منذ القديم، ولا شك ان هذا النوع من الحبوب البرية كان لها مكان معتبر في هذه المراكز المتميزة التي كانت تختص بقطف شبه مكثف (انظر أعلاه)، وفيها ابتدأت المراحل التأهيلية. وهذا ما يجعلنا نرى أن تأهيل هذا الرز لا يقل قدما عن الأنواع الاخرى من حبوب افريقيا.

ثم بعد ذلك بكثير أدخلت الأنواع الاخرى من الرز المزروعة بآسيا الى افريقيا (ابتداء من القرن الثامن على السواحل الشرقية، بواسطة العرب؟ وابتداء من القرن السادس عشر على السواحل الغربية عن طريق الأوربيين؟).

ولنعتبر رغم ذلك بأن الآثار النباتية التوليدية التي عددناها الى الآن (اذ لا يسمح لنا هذا المجال الا بتقديم لمحة عامة) تظهر بوضوح امكانية وجود حضارات زراعية نشأت بافريقيا اعتمادا على الموارد النباتية المتوفرة بالبيئة المحلية و بدون أن نتصور بالضرورة وجود تأثيرات خارجية عن افريقيا.

بين افريقيا وآسيا

انه لمن الأكيد (وهذا ما بيناه سابقا) ان موجات انطلقت من المهد الزراعي والرعوي للشرق الأدنى قد لعبت دورا هاما في التاريخ القديم للفلاحة الافريقية. وبذلك وُجِدَتْ من الحبشة الى افريقيا الشمالية مرورا بمصر عن طريق النيل ــ منطقة يمكن اعتبارها ضمن المنطقة البحر ــ وسطية القديمة التي عرفها كل من هود ر يكورت وهيدن (سنة ١٩٤٣ المذكورين أعلاه). ولكن نجد حتى في هذه المنطقة، مركبات نباتية توليدية افريقية محضة خصوصا في أثيوبيا وأيضا في مصر وفي شمال افريقيا.

ان تاريخ العلاقات القديمة بين افريقيا وآسيا هي على غاية من الأهمية وإن كانت مجهولة بعض الشيء. فافريقيا قد أعطت لآسيا نباتات أهلية. وتدل على ذلك أنواع الذرة التي تحدثنا عنها سابقا. الا أن افريقيا لم تقتصر على أن تستمد من آسيا نباتات توليدية واردة من الشرق الأدنى (قمح ــ شعير)، بل أخذت أيضا نباتات واردة من جنوب شرقي آسيا المدارية، و يبدو من المؤكد فعلا أنه وصل قديما الى أفريقيا ــ سواء عن طريق سبأ، بجنوب الجزيرة العربية أو عن طريق شمال افريقيا أو بواسطة ملاحين قدامى بلغوا الساحل الجنوبي ــ أشجار الموز وأشجار النيام الكبيرة(Dioscorea alatal.) وشجر القلقاس (Colocasia esculenta (L.) Schott) وحتى قصب السكر (Saccarum officinarum L.) ان البعض من هذه النباتات المزروعة الآسيوية الأصل سمحت بغزو زراعي سريع لميدان الغابات المدارية الافريقية.

ولكن لنرجع الى مسألة أنواع الذرة التي توفّر لنا أحسن مثال للتبادل بين افريقيا وآسيا (٣٠) ذلك أنه يوجد فعلا بآسيا أنواع من الذرة المزروعة الواردة من افريقيا زيادة على الأنواع التي ذكرناها. فذلك شأن الذرة ذات اللونين الذي يبدو أنه ناشىء عن عملية تلاقح بين نباتات توليدية ناشئة عن الذرة الأثيوبية من جهة ومن أخرى من النوع البري خاصة (الذرة السودانية). و بالنوع

(٣٠) انظر: ر. بريتر ١٩٦٢ المذكور أعلاه

الأول أي الذرة ذات اللونين يمكن ان نلحق خاصة ذرة دخنة (Dochna) الموجودة بالهند والجزيرة العربية وبورما، والدي أدخل من جديد الى أفريقيا أخيرا. وكذلك الأمر بالنسبة للذرة التي شكلها شكل الدخن (Mil) الموجود بالهند، ومنها دخلت حديثا إلى كينيا. وهذا يصدق أيضا على أنواع الذرة الموجودة بافريقيا الشرقية. وهناك نوع آخر مزروع وهو الذرة ذات الألياف الكثيرة الذي يبدو أنه ينتمي لفصيلة الذرة الأثيوبية وهما نوعان يبدو أنه ألحقت بهما أنواع موجودة في بورما وفي الصين.

وبدون أن ندخل في الجزئيات المعقدة لهذا الخليط التكويني، فاننا نلاحظ أنه توجد علامات على اتصالات قديمة حصلت بين أنواع الذرة الافريقية والأنواع الآسيوية. فكل شيء يحمل على الاعتقاد ان علاقات قديمة جدا وتبادلات نباتية قد حصلت بين افريقيا الشرقية وآسيا وهو ما يؤكده وجود بعض القرابة النباتية التوليدية السابقة للعهد الاستعماري والقادمة من الجنوب الشرقي لآسيا المدارية.

على أننا لا يمكن ان نستبعد امكانية وجود غزو زراعي لغابة افريقيا بفضل وصول نباتات توليدية (أشجار الموز والقلقاس) القادمة من النظام البيئوي المعمم وهو الغابة المدارية الرطبة لجنوب شرقي آسيا ومن العالم الجزري الهندي، فمن هذا الأخير قدم عن طريق البحر المهاجرون الذين وصلوا — وهم يحملون البعض من نباتاتهم — الى مدغشقر والسواحل الشرقية لافريقيا.

واذا كانت افريقيا قد أمدت في العصور القديمة العالم الخارجي الشرقي بالنباتات المزروعة، واستمدت منه نباتات أخرى، فيبدو جليا أنها كان مدينة له فيما يخص حيواناتها الأهلية فالبعض من خنازير افريقيا الشرقية يبدو أنه من فصيلة الخنازير التي وقع تأهيلها بآسيا. فمن المؤكد كما يلاحظ ك. رايغلي (C. Wrighey) (٣١) ان تربية الحيوان لم تتطور مستقلة في افريقيا جنوب الصحراء التي لم يكن فيها للحيوانات أي سلف ممكن «للبقر والماعز والغنم المؤهلة»، فهذه الحيوانات قدمت اذن الى هذا الجزء من افريقيا وخاصة من مصر عن طريق سهول النيل. ورغم ذلك فاننا نسجل الامكانية الكبيرة في أن البعض من هذه الحيوانات وقع تأهيلها في الجزء الافريقي من المنطقة البليو بحر وسطية وخصوصا الأبقار بمصر حيث كان الرجال، فيما يبدو، يصطادون في عهود ما قبل العصر الحجري الجديد أنواعا عديدة من الأبقار المسماة:

ان هذه النظرة الاجمالية التي أعطيناها مكنتنا من أن نتبين أن افريقيا لم تكن أبدا تلك القارة التي اعتبرناها مدة طويلة تأخذ من الخارج كل ما هو أساسي لتطورها الزراعي والرعوي. فمن الأكيد أن افريقيا لم تكن في العهود السابقة منعزلة منغلقة عما يقدمه الخارج، شأنها في ذلك شأن أوربا وآسيا. ومن الأكيد أيضا أنها بجزئها الساحلي تتقاسم مع أوربا وآسيا انتماءها الى ميدان بحر وسطي كان له سابقا تواصل بيئوي أكثر مما هو عليه في أيامنا هذه. وعلى كل فان القارة الافريقية قد عرفت تطورات في الفلاحة والبستنة مرتكزة على تأهيل النباتات التي كانت تختص بها والتي استفاد منها العالم سبقا، وخاصة فيما يتعلق بالبعض من النباتات التوليدية وبالأخص أنواع الذرة. واذا كان الجني والصيد قد بقيا مدة طويلة أساسيين للمعيشة في بعض أجزاء افريقيا فذلك ليس

(٣١) ك. رايغلي، ١٩٧٠.

راجعا للتأخر، بل هونتيجة لكثرة وتنوع الموارد الطبيعية التي سمحت للناس بعيش رغيد في نظامهم البيئوي بدون أن يضطروا الى تحويله وتأهيله.

الخاتمة

نجد أيضا بجانب القطف في افريقيا هذا الشكل من الفلاحة الناشئة التي تتمثل في مساعدة النبات وفسح المجال له بدون تدخل مباشر في انتاجه وتوافره. وهذا الأمر ينطبق حاليا على أنواع من النباتات الغذائية الشبيهة بالأشجار مثل شجر الكولا تيي (Colotier) والكاريتي (Karité) أو النخيل الزيتي. على أننا نجد أيضا في القارة كل درجات التطور البستاني والزراعي، وبايجاز نجد تنوعا كبيرا في التقنيات الفلاحية التقليدية التي تدخل ضمنها استعمالات ذكية للأرض قصد اعدادها لزراعة الرز الافريقي، وأشكال مختلفة لحفر الأرض واستئصال الأعشاب، وكذلك أساليب زراعية، غابية ورعوية.

ان افريقيا تنتمي، من حيث بداية الفلاحة فيها، وتطورها، الى ثلاثة مراكز أو مواطن هامة (خريطة ٤).

المركز الأول: يهم شمال القارة من مصر الى المغرب وهو يدخل ضمن المنطقة البحر وسطية. وقد خضع لتأثير واضح أتاه من المهد الزراعي والرعوي الموجود بالشرق الأدنى، بالاضافة الى أنه عرف تطورات خاصة به ونابعة منه.

المركز الثاني: يهم مجموع المناطق المحيطة بالسباسب والسهوب الكائنة في قلب افريقيا الغابي. وهو يتميز بتطور زراعة الحبوب (الذرة البيضاء، والدخن).

وأخيرا المركز الثالث: الذي يشمل الغابة وما حولها والمختص ببستنة لها صلة بالقطف. وهو قطف معتمد على بعض النباتات المزروعة بالغابة.

ولا توجد بين هذه المراكز حواجز منيعة، اذ كثيرا ما تتجاور في الواحات، الحبوب وأنواع الذرة البيضاء، والدخن. أما في حقول السهوب، فنجد نباتات غذائية قادمة من بستنة المناطق المتاخمة للغابات، وقد أخذت الفلاحة البستانية بدورها النباتات الصالحة للقطف المتوفرة في الغابة المدارية. وهناك مثال آخر يتمثل في أثيوبيا التي لها في نطاق رصيدها النباتي الاقتصادي العتيق، نباتات خاصة بها وأخرى قادمة من المنطقة البحر وسطية وأخرى قادمة من المركز الفلاحي للسهوب والسباسب الافريقية وأخرى أخيرا من المناطق الشرقية الخارجة عن افريقيا...

فمن هذه المواطن يبدو أن أكثرها أهمية ودلالة في تاريخ الفلاحة الافريقية هو موطن السهوب والسباسب، لا سيا في أجزائها المجاورة للغابة، أو للانهار أو المساحات المائية الهامة.

أما فيا يتعلق بضبط الزمان ضبطا دقيقا لما قبل تاريخ الفلاحة الافريقية وتاريخها فالأمر ليس سهلا يسيرا. على أننا نعتقد أن الحقبة الحاسمة في بداية عمليات التأهيل الافريقية المحضة قد طرأت في البليستوسين الأخير (أي بين -٩٠٠٠ و-٥٠٠٠ سنة). ففي ذلك العهد، حصل في محيط الموطن الغابي الأوسط، قطف مكثف، بل حصل نوع من التخصص في القطف، كما تحسن صيد الأسماك في المياه الداخلية، وصاحبه استقرار الأهالي استقرارا نسبيا. وبايجاز ظهرت ظروف ملائمة للتأهيل.

إننـا، وإن كنـا ننتظر أن يؤيد علم الآثار رأينا أو يفنّده، فمع ذلك نعتقد ان كل هذا وقع في الوقت الذي كانت تتكون في الهلال الخصيب بالشرق الأدنى القواعد الرعوية والفلاحية التي أصبحت فيما بعد من بين قواعد الحضارات البيضاء في العالم الأوربي.

• في ٢٠ مارس ١٩٧٣ توفي رولان بورتير الاستاذ بالمتحف القومي للتاريخ الطبيعي بباريس. وقد كانت اللجنة العلمية الدولية لوضع تاريخ افريقيا العام قد عهدت اليه بكتابة هذا الفصل المتعلق بأصول التقنيات الفلاحية وتطورها، فقام بوضع مشروع أولي للعمل. الا ان الموت حال بينه وبين انجازه كاملا، فكان مشروعه آخر عمل قام به، وبقي العمل ناقصا غير تام، وقد اعتمدت على ما نشره رولان بورتير من مؤلفات عديدة في هذا الميدان وعلى ملاحظاته وأيضا على محادثاتنا العديدة في الموضوع، فعملت بكل جهدي على مواصلة عمله وإنجازه، محاولا أن أبقى وفيا مخلصا للاهتمام الكبير الذي كان رولان بورتير يوليه لطبيعة افريقيا الجذابة وبلدانها شعوبا وحضارات. ومهما تكن هذه المساهمة ناقصة فانها تريد أن تكون إهداء أتقدم به للأستاذ والصديق الذي عمل كثيرا لكي تكون معرفتنا لفلاحة القارة الافريقية ومزروعاتها، أحسن وأفضل. جاك بارو.

الفصل الثامن والعشرون

اختراع المعادن وانتشارها وتطور النظم الاجتماعية الى القرن الخامس قبل الميلاد

بقلم: ج. فركوتر

لقد لعب وادي النيل دورا ممتازا في تاريخ افريقيا العام. فرغم المصاعب التى تسببت فيها الشلالات، وهي مصاعب لا تخلو أحيانا من مبالغة (١)، فان النيل الذي يبلغ ٦٥٠٠ كلم يشكل وسيلة من وسائل الاتصال والتبادل بين الاقطار من الجنوب الى الشمال، وهي وسيلة لا يمكن أن نتهاون بها. ان وادي النيل اذا أتيته من الشمال،من وراء خط الموازاة السادس عشر، وقفار بيوضة غربا، و بوتانا شرقا، يدخل مناطق ذات أمطار سنوية، و يفضي بك الى الطريق الافريقي العريض المتجه من الغرب الى الشرق والذي يقود من المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر عبورا بأودية ومنخفضات النيجر وتشاد وأنجاد درفور، وكردفان ثم سهول العطبرة والبركة. وهكذا، بالاضافة الى مزايا محور اتصال متجه من الجنوب الى الشمال، انطلاقا من البحيرات الاستوائية الى البحر الأبيض المتوسط، توجد مزايا المحور المتجه من الغرب الى الشرق، اذ ان حوض النيل يفتح الطريق الى حوض الكونغو والنيجر والسنغال.

تحتل تلك المنطقة الواسعة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من القارة، مكانة أساسية في تاريخ افريقيا الغابر. وهي لم تستكشف مع الأسف الا قليلا من حيث آثارها وتاريخها. فان كان الوادي الاسفل للنيل، ابتداء من الشلال الثاني الى البحر، معروفا معرفة حسنة، اعتمادا على جهود الاثريين الذين استكشفوا ذلك القسم من الوادي،ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر الى يومنا هذا فان الامر ليس كذلك فيما يتعلق بالوادي الأوسط من النهر بين الشلالين الثاني والسادس من

(١) ان كتاب أ. شلو، ١٨٩١ ص ٣٠ - ٧٣ يعتبر أكثر المؤلفات، تفصيلا عن الشلالات ومصاعبها الحقيقية أوالوهمية وهويصف كل شلال و يوفر رسوم القنوات التي تصلح فيها للملاحة.

جهة، ولا فيا يتعلق بالوادي الأعلى من جهة أخرى، من الخرطوم الى البحيرات الكبرى، ولا فيا يتعلق على الأخص بالمناطق الصحراوية للنيل وروافده التي لم تستكشف أثريا سواء بالشرق أو بالغرب، والتي لا يعتمد تاريخها الى الآن الا على فرضيات كثيرا ما كانت مرتكزة على مشاهدات غير كافية أو منقوصة كما وكيفا.

وسنتبع في عرضنا هذا الترتيب الزمني والترتيب الجغرافي. اننا نميز حقبتين: أولاهما من العصر الحجري الجديد الى أوائل الألفية الثالثة التي برزت فيها الوثائق المكتوبة، وبالتالي برز فيها التاريخ بوادي النيل الاسفل. وتلك حقبة سنتعرض فيها، انطلاقا مما هو معروف معرفة حسنة نسبيا الى ما هو مجهول، أي ابتداء من الشمال الى الجنوب، سنتعرض للحضارات التي كانت قائمة على ضفتي النهر. وتشمل الحقبة الثانية أوائل الألفية الثالثة الى حدود القرن الخامس قبل الميلاد، متتبعين بالمثل المناطق الجغرافية انطلاقا من الوادي الاسفل الى الوادي الاعلى من النيل.

من العصر الحجري الجديد الى الألفية الثالثة قبل الميلاد

ان تلك الحقبة التي تشمل عموما ألفيتين، من ٥٠٠٠ سنة تقريبا الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، قد شهدت بروز المعدن وانتشاره بوادي النيل، كذلك ظهور النظم الاجتماعية لأول مرة. فهي حقبة ذات أهمية كبرى، ان لم تكن أهم حقبة من الناحية التاريخية. واذا كنا نعود للحديث عن ثقافات العصر الحجري الجديد بوادي النيل بعد ان درسناها في هذا الكتاب (انظر الفصل الثاني)، ولشرحها بسرعة، دون التوقف عند مظهرها المادي، فلأنه من الصعب أن نتكلم عن القرون المجهولة المتعلقة بابتداء التاريخ النيلي بالألفية الرابعة قبل الميلاد (من ٣٨٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة) دون أن نذكر في نفس الوقت الثقافات التي سبقتها. ولقد أيدت ذلك فعلا كل البحوث الحديثة بالنوبة وبمصر تأييدا قويا، ومعنى ذلك ان ظهور المعدن لم يسبب أي انقطاع في التطور العام للحضارات بافريقيا الشمالية الشرقية، اذ ان ثقافات عصر النحاس هي النتاج الشرعي المباشر لثقافات العصر الحجري الجديد، ويستحيل غالبا ان نميز في عين المكان بين موقع من نهاية العصر الحجري الجديد وموقع من عصر النحاس. ويعتبر الملك الأول من الاسرة المالكة الثنيتية من الذرية الشرعية لرؤساء الاجناس الاخيرة من العصر الحجري الجديد، كما ان الفراعنة الكبار من العهد الطيبي هم ذرية ملوك الامبراطورية الممفية.

وادي النيل الاسفل، من ٤٥٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٢)

ان التنظيم الاحتماعي الذي نراه بل الذي نتصوره قائما بواد النيل الأسفل من مصر منذ ٣٠٠٠ سنة

(٢) فيا يتعلق بتكون مصر بالذات، قبل العهدين من العصر الحجري الجديد وعصر النحاس اللذين تطورت فيهما النظم الاجتماعية الاولى، انظر الكتاب الممتاز لـ و. ك. هايس، ١٩٦٥. فهنا الكتاب الذي نشر بعد موت صاحبه والذي طبعه ك. سيل، يشمل فصلا كاملا عن تكون مصر ج ١، ص ١ - ٢٩ مع مراجع تحليلة كثيرة في ص ٢٩ - ٤١.

قبل الميلاد، هو يقينا نتيجة تقنيات فرضها الري من أجل استصلاح وادي النيل زراعيا. ان استملاك الانسان للوادي قد ابتدأ من العصر الحجري الجديد، واستمر تطوره حتى ظهور نظام ملكي.

ولقد قال هيرودوت، وردد بعده كثيرون ما يلي: «ان مصر هبة من هبات النيل». فمنذ بداية العهد التاريخي، عندما كانت عملية التجفف بافريقيا الصحراوية، من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر، قد أخذت تكتمل، ما كانت مصر يومئذ لتعيش لولا الفيضان السنوي الذي يطرأ على النهر، فبدونه تصبح قفرا مثل الصحراء نفسها أو مثل النقب. الا ان تلك الهبة التي وفرها لها النهر وأمدها بالحياة، يمكن ان تكون هبة مسمومة. في السنة الثالثة من أزركون (Osorkon) الثالث (٧٥٤ سنة قبل الميلاد) كان الفيضان على غاية من الشدة حتى أتى على كل سد، و«أصبحت معابد طيبة كلها تشبه المستنقع». وتضرّع كاهن أمون الى الله كي يمنع المياه من الارتفاع. وتجددت نفس الكارثة في السنة السادسة من تحرقة (Taharqa) (٦٤٣ سنة قبل الميلاد) عندما «استحال الوادي الى محيط»، وان كان الملك قد أول تلك الظاهرة، حرصا منه على شعبيته، على أساس أنها بركة من بركات السماء.

ان ارتفاع المياه يكون إما غير منتظم أو شديدا جدا أو ضعيفا جدا ولا يبلغ الا نادرا ما هو مستحب (٣). فلقد لوحظت، من ١٨٧١ الى ١٩٠٠ ثلاثة ارتفاعات سيئة، وثلاثة رديئة، وعشرة طيبة، واحدى عشر وافرة فوق اللزوم، وثلاثة خطيرة. وهكذا، فمن أصل ٣٠ فيضانا، كانت عشرة منها مفيدة. (٤).

ان تاريخ الحضارة بافريقيا النيلية هي حضارة «تطويع» الانسان للنهر، اذ صح التعبير، ولقد اعتمد في ذلك التطويع على وضع سدود أو رفع حواجز ترابية، منها ما هو مواز لمجري النهر، ومنها ما هو عمودي له. ان تلك التدابير سمحت بتكوين أحواض تتجمع به المياه وتقلل من أخطار الفيضان، وتتحكم فيه وتصرفه الى أراض قد لا يبلغها ان ترك لحاله.

ان هذا النظام المعتمد على خبرة طويلة، لم يستقر الا تدريجيا، (٥) لأن أحواض التجمع تستوجب لتكون مجدية، ان تهيّأ منهاجيا في البلاد كلها، وعلى الأقل بمناطق شاسعة فهي تفترض اذن اتفاقا مسبقا بين عدد كبير من الناس للقيام بعمل جماعي. وذلك كان شأن أصل النظم الاجتماعية الاولى بوادي النيل، اذ تجمعت أجناس حول مركز فلاحي قروي أولا، ثم تجمعت مراكز قروية عديدة كونت في نهاية الأمر مجموعتين سياسيتين أكبر منها، احداهما بالجنوب والأخرى بالشمال (٦).

---

(٣) انظر في شأن أخطار الفيضان: ج. بيزنسون. ص ٧٨ - ٨٤.

(٤) نفس المرجع، ص ٨٢ - ٨٣، المراجع ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٥) ان المؤلفات العامة المتعلقة بالري بمصر لا تدرس حسب ما أعرف، المشاكل التي طرحها ظهور الري بمصر وتطوره المتدرج وفي كتاب بيزنسون السابق الذكر (ص ٨٥-٩٧) وصف لهذا النظام وكذلك في كتاب ف. هارتمان، ١٩٢٣ (ص ١١٣-١١٨)، وكتاب كز يزانياك، ١٩٧٧ وهو يميز بين حقبة ري طبيعية (ص ٥٢ - ١٢٣) وحقبة ري مراقبة (نفس المرجع ص ١٢٧ - ١٦٧) ولقد ابتدأت الحقبة الأخيرة في الجرزي (النكادي ٢) انظر نفس المرجع ص ١٣٧ أي حوالي ٣٠٧٠ ± ٢٩٠، انظر في شأن ذلك التاريخ ن. أ. وردتسرم، ١٩٧٢، ١٩٧٢ ص ٥.

(٦) ١٩٦٧، ص ٢٥٣ - ٢٥٧.

ان الوثائق المتوفرة لدينا عن تلك الحقبة من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد لا تسمح بتحديد طبيعة النظام الاجتماعي الذي يعتبر أساس احتلال السكان للارض واستصلاح وادي النيل الاسفل. ونعتبر لفظ «جنس» الذي سبق ان استعملناه «خاطئا» اذ ليس هناك ما يؤيد وجود مجموعات من الاجناس في ذلك العهد متنوعة في وادي النيل، في حين أنه ثبت وجود مجموعات سياسية أو سياسية دينية. فالدليل الوحيد المتوفر لدينا يعتمد على تمثيل معالم نذرية لها أحجام صغيرة، ومن ذلك لوحات الخضاب وهراوات طقوسية من أصل سحري ديني. ان تلك الوثائق لا تعكس اجمالا الا الحالة السائدة في أواخر هذا العهد، عند الاجيال الاخيرة من نهاية الألفية الرابعة (٧) على أن النظام الاجتماعي الذي نتلمحه من خلال تلك الوثائق لم يتطور بتاتا طيلة الألفيتين من تلك الحقبة.

ان بداية التاريخ المكتوب توافق اجمالا اندماج المجموعتين من الجنوب والشمال ضمن نظام واحد تحت سلطة ملك واحد. و بذلك تتكون لدنيا صورة اجمالية عن تاريخ وادي النيل الاسفل، من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهو تاريخ يتميز كما نرى لا بظهور المعدن فحسب — وهو في الواقع ظاهرة ثانوية — بل يتميز على الأخص باستيلاء الانسان على مجموع الوادي. ان ذلك الاستيلاء قد استوجب، بقطع النظر عن تهيئة السدود والحواجز لتجمع المياه، استوجب بسط الأرض حتى لا يركد بها الماء في قعرها وحتى ينتشر من جهة أخرى لكي تتوسع مساحة الأراضي الصالحة للزراعة من الوادي، وذلك ما يمثل انتصار الفلاح على الطبيعة القاسية، رغم كل ما قيل في شأنها.

العصر الحجري الجديد

يوجد في الفصل ٢٥ من هذا المجلد، وصف مفصل عن الجانب المادي لمختلف «الثقافات» أو «الآفاق الثقافية» التي تشكل شبكة التطور الاجتماعي لتلك الثقافات المجموعة تحت مصطلحين عامين هما «العصر الحجري الجديد» و«ما قبل عهد الملوك» وذلك بوادي النيل، في السودان وفي مصر. ولقد اقتصرنا في الصفحات الموالية على استخراج الجوانب الاجتماعية والتطور التاريخي لتلك الثقافات، لأن العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك يشكلان بوادي النيل «تواصلا» ثقافيا. و يكفينا مثالا على ذلك أن «البدري» الذي حلل بالتفصيل في الفصل ٢٥ السابق، ليس الا مرحلة ضمن تطور ثقافة هي جزء من «التاسي» (انظر نفس المرجع ص ١٢ — ١٣) و ينتهي الى «النكادي ٢» (انظر نفس المرجع ص ١٤ ـ ١٥) والى المجتمعات «ما قبل الثنيتية».

و بعبارة أخرى فاننا نقدم هنا و بصفة تركيبية ما ورد بصفة تحليلية في الفصل ٢٥ السابق و يعتبر الوجهان من القضايا المطروحة متكاملين. وقد وضعنا بين معقوفين المراجع الضرورية التي تسمح للقارىء بأن يعثر بسرعة على الوصف المفصل «للثقافات» التي لا تذكر بهذا الفصل الا ذكرا عاما جدا.

---

(٧) انظر في شأن هذه المشاكل ج. ل. دي سنيفال، ١٩٦٣، ص ٤٩ ـ ٥٧.

لا تعرف الحقبة الحجرية الجديدة بمصر الا بالاعتماد على عدد قليل من المواقع التي لم تكن أحيانا متعاصرة. ويحتمل أقدمها ضفاف منخفض الفيوم (=الفيومي ب - الفصل ٢٥) بغربي الوادي بمصر الوسطى (٨). ونعرف مواقع مرمدة — بني سلامة (٩) (المرمدي، الفصل ٢٥) بالدلتا الغربية على حافة الصحراء وعلى بعد ٥٠ كلم تقريبا من الشمال الغربي للقاهرة وموقع العمري (١٠) (= العمري (أ) و (ب) الفصل ٢٥) قرب القاهرة على مقربة من حلوان وبمصر الوسطى وصعيد مصر نجد مواقع دير تاسة، بالجنوب الشرقي من أسيوط، ومواقع أقل أهمية بتوخ وأرمات سبلان، بمنطقة طيبة (١١). ان المقارنات الممكنة بين تلك المواقع سعيا الى ضبط طبيعة وانتشار مختلف مظاهر العصر الحجري التي تمثله منه، تصبح عسيرة أكثر نظرا الى أنها ليست متعاصرة. ان التحليلات بالكربون ١٤ تفيد ان أقدمها وهو موقع الفيوم (أ) يعود الى ٤٤٠٠ ±١٨٠) سنة قبل الميلاد، ثم تليه مواقع مرمدة — بني سلامة ٤١٠٠ (± ١٨٠) وموقع العمري (٣٣٠٠ ±٢٣٠) وأخيرا موقع تاسة الذي يعود الى نهاية العصر الحجري الجديد (١٢).

ان المواقع المحفورة تفيدنا بعبارة أخرى بمعلومات عن بدايات العصر الحجري الجديد بالفيوم والدلتا من جهة. وعن انتهاء تلك الحقبة من جهة أخرى وذلك بالطرف الجنوبي من الدلتا وبمصر الوسطى، الا اننا لا نعرف من ٤٠٠٠ الى ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد، أي طيلة ٧ قرون، الا قليلا عن التطور العام للعصر الحجري الجديد في مجموعه. وذلك شأن المنطقة الممتدة في الجنوب من مصر الوسطى. ان المكتشفات السطحية في ضواحي الوادي و بالصحراء عديدة، وتدل في الواقع على ما يسمى «الفاصل الرطب» أو «العصر الحجري الجديد دون الممطر» (١٣) الطارىء في نهاية الألفية السادسة وهو يدل على توقف طرأ على عملية التجفف المناخي بافريقيا الشمالية الشرقية. لكن تلك المكتشفات لا تخبرنا كثيرا لانعدام حفريات شاملة تشمل الثقافات الحجرية التي تعتبر من آثارها الباقية. ان الدراسات المثمرة الوحيدة هي الدراسات التي تعتمد المواقع المحفورة حفرا جيدا والتي ذكرناها. والملاحظ اذن ان استكشاف تلك المواقع قد ترك مناطق شاسعة تمتد زمانا ومكانا امتدادا كبيرا، فبقيت مجهولة، وهذا ما يؤسف له، خاصة أنه يعتقد بأن «الثورة» الحجرية الجديدة قد أتت مصر من الشرق الأوسط السوري الفلسطيني أي من الهلال الخصيب حيث كانت موجودة منذ القدم، ولذلك كان ابتداء العصر الحجري الجديد في أريحة قد أرخ بـ ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد، أي قبل العصر الحجري الجديد بالفيوم بكثير ومن أجل اقامة الدليل على ان العصر الحجري الجديد بوادي

---

(٨) انظر فيما يتعلق بالعصر الحجري الجديد، و. ك. هايس ١٩٦٥ ص ٩٣ - ٩٩، وص ١٣٩ - ١٤٠ ونضيف اليه ملاحظات ف. ض وندور، ور. سعيد، وشيلد، ص ١١٦١ — ١١٧١.

(٩) انظر في شأن مرمدة - بني سلامة، و. ك. هايس، ١ س ص ١٠٣ - ١١٦ و١٤١ - ١٤٣، يضاف اليه فيما يخص الخزف، ل. جلمر ١٩٦٢، ص ٣ وما بعدها.

(١٠) انظر و. ك. هايس ١٩٦٥ ص ١١٧ — ١٢٢ و١٤٣ — ١٤٤.

(١١) لم تتوفر لنا مع الأسف فيما يخص صعيد مصر ملاحظات ومراجع و. ك. هايس النقدية أي مصر العتيقة جدا لأن هذا الكتاب لم يكتمل بعد موت مؤلفه (انظر ١ س ص ١٤٨ رقم ١) ويمكن أن نعود الى ملاحظات ج. فانديي ١٩٥٢ ص ١٦٦ - ١٨٠.

(١٢) انظر: ج. برنتن في شأن العصر الحجري «التاسي»، ١٩٣٧ ص ٥ - ٣٣، انظر: في شأن التاريخ وف. لبي، ١٩٥٥ ص ٧٧ - ٧٨.

(١٣) بوتزر، ١٩٦٤، ص ٤٤٩ - ٤٥٣ وج. كمب، ١٩٧٤ ص ٢٢٢.

النيل ولاسيما بالدلتا والفيوم أتى من آسيا وجب ان نعرف المواقع الموجودة بالتخوم البحرية وبالقسم الشرقي من الدلتا، الى منفيس، وتلك بالضبط مناطق مجهولة بالنسبة الينا. فينتج عن ذلك أن الرأي الذي يقول بالأصل الآسيوي للعصر الحجري الجديد المصري سيظل من باب الفرضيات (١٤).

ان تلك الفرضية تستوجب اقامة الدليل، خاصة اذا عرفنا ان البحوث التي جرت بالصحراء في العقد الأخير من السنين، قد بينت بأن العصر الحجري الجديد قد استقر بها أيضا منذ عهد بعيد، لا سيما في الهقار حيث ان موقع أمكني يكاد يكون معاصرا للأريحي الطارىء في بداية التاريخ (١٥). ونلاحظ من جهة أخرى ان تواريخ ذلك العصر الحجري الجديد الصحراوي السوداني كانت سابقة لتواريخ العصر الحجري الجديد المصري، على الأقل فيما يتعلق بالمناجم المؤرخة حاليا في الفيوم ومرمدة بني سلامة (١٦) وكذلك سابقة لمناجم العصر الحجري الجديد النوبي (١٧).

وربما ظهر الفخار مبكرا بالنوبة قبل مصر (١٨) اذا أخذنا دائما بالاعتبار المعلومات المتوفرة لدينا الآن.

لا نستبعد اذن، نظرا الى أقدمية العصر الحجري الجديد الصحرواي السوداني ان يكون العصر الحجري الجديد بوادي النيل، في مصر وكذلك بالنوبة، منحدرا من ذلك العصر الحجري الجديد الافريقي. وبالطبع ينبغي أن نكون حذرين نظرا الى قلة، بل ندرة المواقع الحجرية الجديدة في وادي النيل الاسفل بمصر من جهة، ونظر الى أن شواطىء النهر بالنوبة كانت الأماكن الوحيدة التي استكشفت استكشافا حسنا. ولم يحصل ذلك الا بين الشلال الاول وجنوب الشلال الثاني. ان الحاشية التي تمتد بين وادي النهر والصحراء الشرقية مازالت مجهولة من الوجهة الأثرية وذلك يعني أن التأثيرات التي طرأت في القابسي والايبيرو — موروسي انطلاقا من افريقيا الشمالية نحو النوبة، وفي السبيلي والعصر الحجري القديم الوسيط بافريقيا الوسطى دائما نحو النوبة (١٩)، قد دامت الى بداية العصر الحجري الجديد. ونظرا الى أن الدلتا المصرية كانت تعتبر ملتقى طرق عديدة، لذلك فقد يكون من البديهي ان تستقطب تأثيرات أتتها من الغرب ومن الجنوب وكذلك من الشرق والشمال الشرقي.

ونلاحظ تميزا ثقافيا بين مجموعة الشمال ومجموعة الجنوب، منذ ظهور العصر الحجري بوادي النيل الاسفل. ان المجموعتين من السكان كانتا تتألفان من الفلاحين ومربي الماشية الذين كانوا يتعاطون صيد الأسماك والقنص، الا ان الأدوات التي تركوها كانت مختلفة قليلا من مجموعة الى أخرى في طبيعتها وكمها وكيفها (انظر فصل ٢٥) وكذلك الشأن بالنسبة لبعض العوائد.

---

(١٤) ان السيدة أ. بومغرتل لما درست مشكلة أصل الاستيطان المصري في ما قبل عهد الملوك دحضت سنة ١٩٥٥ امكانية الاصل الغربي والشمالي والشرقي (انظر: أ. بومغرتل ١٩٥٥ ص ١٩)، ان الأعمال الحديثة التي قام بها أثريون بالصحراء (انظر: أدناه) بينت ان هذا الموقف يحتاج الى تعديل فيما يتعلق بالغرب وان كان صالحا فيما يتعلق بالشرق.

(١٥) ج. كمب، ١٩٧٤ ص ٢٢٤ ونفس المرجع، ١٩٦٨، تورخ أمكني بـ ٦٧٠٠ سنة قبل عهدنا، و بداية العصر الحجري الجديد بـ ٦٨٠٠ سنة قبل عهدنا.

(١٦) هـ. نردسرم، س ج أ ١٩٧٢ ص ٥.

(١٧) نفس المرجع ص ٨ — ١٦ — ١٧ و ٢٥١.

(١٨) فونـدورف ١٩٦٨ ص ١٠٥٣ ظهر الفخار بالنوبة في الشمركي سنة ٥٧٥٠ قبل الميلاد ولم يظهر بالفيوم الا سنة ٦٣٩١ قبل الحاضر أي ٤٤٠٠ سنة قبل عهدنا.

(١٩) المرجع نفسه ص ١٠٥٥ شكل ٨.

وفي الشمال، تدل المنازل المجمعة تجمعا حسنا على بنية اجتماعية بلغت حد التناسق. وكان الموتى يدفنون في القرى بطريقة تفيد بأنهم مازالوا ينتسبون الى مجموعة منظمة (٢٠). أما في الجنوب، فقد كانت الأضرحة تحفر على حافة الصحراء، و يبدو أنه كان يحافظ على نظام الأسرة أكثر مما في الشمال، كما تدل على ذلك مجموعاته السكنية المبعثرة. و يظهر الاختلاف أيضا بين التقنيات المستعملة في المكانين. فالشمال يعتمد نحت الحجارة نحتا رقيقا، وابتدأ صنّاعهُ يصنعون أواني حجرية، مولدين بذلك تقنية ستكون من أخص خصائص مصر الفرعونية العتيقة. أما فيما يتعلق بالفخار فلئن عرف الشمال تنوعا كبيرا في الأشكال، فان الجنوب قد تميز بتقنية حسنة في الصنع. وهنا يظهر فعلا بجانب الخزف الأسود ذي التزويق الأبيض، فخار رائع أحمر ذو حاشية سوداء سيورث مصر ما قبل عهد الملوك ومصر العتيقة، صناعة يختص بها وادي النيل، والسودان ومصر.

وهكذا توضحت منذ العصر الحجري الجديد المفارقة بين مجموعتين ثقافيتين، وربما أيضا، بين نظامين اجتماعيين: فمن حيث المكان توجد احداهما حول منطقة منفيس — الفيوم والطرف الشمالي الغربي من الدلتا. والاخرى موجودة بمصر الوسطى وصعيد مصر، بين أسيوط وطيبة (٢١). وسيتوضح ذلك الاختلاف الثقافي الذي لا يمنع في الحقيقة وجود التقارب بين المجموعتين، وذلك طيلة القرون الأخيرة من الألفية الرابعة قبل ان ينصهرا في حضارة لها خصائص مشتركة قبيل ظهور الملكية الموحدة بوادي النيل المصري، نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٢٢).

عهد ما قبل الملوك

كثيرا ما وصف عهد ما قبل الملوك المصري بعصر النحاس، كأن ظهور المعدن يدل على حدث أساسي، وعلى انقلاب حقيقي في تطور الوادي. ولكن الواقع يقر — وذلك ما يستوجب التأكيد — بأنه لا يوجد انقطاع بين العصر الحجري الجديد وعصر النحاس بوادي النيل الأسفل بل العكس هو الصحيح: فان تواصل التطور كان واضحا. ولذلك نفضل الاحتفاظ بمصطلح عهد ما قبل الملوك لوصف تلك القرون المجهولة التي لها أهمية أساسية في تاريخ افريقيا.

لقد كان ظهور المعدن بافريقيا بطيئا ولا يبدو أنه من عمل الغزاة. وخلافا لما جرى بحضارات أخرى، فان النحاس ظهر قبل الذهب (٢٣) وان كان من السهل العثور على الذهب الخام بمناجم قرب الوادي. وظهرت الادوات النحاسية ذات الاحجام الصغيرة بالمجموعة الجنوبية بموقع بدري الذي اليه ينسب البدري (٢٤)، وظهرت بالمجموعة الشمالية في دومة وقصر مارون وخسمة الذيب

(٢٠) هـ. جنكر، ١٩٣٠ ص ٣٦- ٤٧. انظر فيما يتعلق بالمراجع الكاملة، الفصل ٢٥ أعلاه.

(٢١) نلاحظ ان المجموعة الشمالية لا تحاذي البحر، فهي أيضا «برية» مثل مجموعة الجنوب (انظر: ج. ل. سنفال، ١٩٧٣، خريطة أ، ص ٥٠).

(٢٢) ج. فركوتر، ١٩٦٧، ص ٢٥٠ — ٢٥٣.

(٢٣) انظر أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ١٩٩ — ٢٠٠.

(٢٤) انظر الفصل ٢٥. وكثيرا ما درست الحضارة البدرية. (انظر المراجع أسفله) و يعتبر كتاب ج. برنتن الكتاب الاساسي لدراستها وكذلك ج. كتن تمسن، لندن ١٩٢٨، الذي يعتبر مكملا لكتاب ج. برنتن ١٩٤٨، الفصل ٦.

بالفيوم، وتسمى تلك المجموعة من المواقع بالفيومي لتمييزها من فيوم العصر الحجري الجديد أو فيوم (ب).

ان أصل عدانة النحاس بمصر ما زال محل نظر (٢٥). ويمكن ان تكون قد أتت من الخارج أي من الشرق الاوسط. فان كان الامر كذلك، فانه قد حدث بصفة محدودة جدا. فلا يمكن لنا أن نترك الفرضية القائلة بالتوافق، أي ان بعض سكان وادي النيل اكتشفوا بأنفسهم المعدن تقريبا في نفس الوقت الذي اكتشف فيه «بالهلال الخصيب». وفعلا فلقد كان السكان البدريون قد اكتشفوا في نفس العهد ولعل ذلك على سبيل المصادفة، الميناء الأزرق، وذلك بتسخين الأرحية أو اللوحات التي قد هرس فيها خضاب العيون، وهو خضاب يعتمد الدهنج (مالاشيت) وهو معدن من النحاس (٢٦)، وهكذا نستطيع ان نقول بأن سكان الوادي اكتشفوا في نفس الوقت النحاس الذي كانوا يخدمونه، وهو بارد، وهو ما نسميه «الحرف المصري» أي الميناء الأزرق، فأخذوا يستعملونه لصنع اللؤلؤ.

ومهما كان أصل المعدن الآسيوي أو الأهلي فان استعماله كان محدودا جدا وظلت الادوات الحجرية أكثر رواجا سواء بالمجموعة الجنوبية أو بالمجموعة الشمالية. ومن المؤكد ان اكتشاف المعدن وانتشاره لم يبدل شيئا يذكر من التنظيم الاجتماعي الذي يمكن ان نتصوره اعتمادا على تنظيم الأضرحة.

ينقسم عهد ما قبل الملوك، من ٤٠٠٠ تقريبا الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، الى أربع مراحل تساعد على رسم تطور الوادي طيلة ذلك العهد الذي مازال مجهولا جدا مع الأسف. فنميز العهود التالية: ما قبل الملوك البدائي، والقديم، والوسيط، والمتأخر.

في عهد ما قبل الملوك (= البدري، الفصل ٢٥) ظلت المجموعتان الجنوبية والشمالية تتطوران كل واحدة من جهتها. ولقد عرفت تلك المرحلة بالجنوب اعتمادا على موقع بدري الذي يوجد قرب دير تاسة. ورغم ظهور المعدن، كان البدري (٢٧) مازال قريبا من العصر الحجري الجديد حتى تساءلنا أحيانا ان كانت تلك الثقافة مظهرا محليا بسيطا متغيرا من التاسي الحجري الجديد. ان دراسة الهياكل تبين من الناحية الجسمية ان البدريين من عهد ما قبل الملوك البدائي كانوا قريبين من المصريين القاطنين حاليا بنفس المنطقة. ولقد ظل السكان يقيمون بأكواخ بيضوية الشكل، وقد توفرت لهم مرافق الراحة أكثر مما كان الحال في العهد السابق، فكانوا يستعملون حصيرات منسوجة، ووسادات من الجلد وحتى أسرة من خشب. وكانت طقوس الموتى قد تطورت: فكانت الجثة معزولة بفاصلة خشبية في القبر البيضوي الشكل الذي توضع فيه. ولقد كان البدريون مثل أهل العصر الحجري الجديد التاسي، يزرعون الكتان و ينسجونه، مع استعمال الجلد الحاصل من الصيد ومن تربية الماشية. وكانوا يعتمدون اقتصادا مزدوجا: فلقد أصبحوا فلاحين

---

(٢٥) انظر أ. لوكا، ص ٢٠١ - ٢٠٦. وحول أصل عدانة النحاس في الشرق الاوسط القديم، انظر ر. ج. فوربس ١٩٦٤، ص ١٦. ٢٣. أما الاسم الهيروغليفي للنحاس، فلم يحدد الا حديثا. انظر ج. ر. هاريس، ١٩٦١، ص ٥٠ - ٦٢.

(٢٦) أ. لوكا، ١٩٦١، ص ٢٠١.

(٢٧) المؤلفات الأساسية المخصصة لتلك الحضارة لا تزال هي مؤلفات ج. برنتن ١٩٢٨، ص ١-٤٢، ١٩٣٧، ص ٣٣-٦٦ و١٩٤٨، ص ٤ - ١١.

ومربين الماشية الا أنهم كانوا يقومون أيضا برحلات للصيد وصيد الأسماك. وظلوا يصنعون الأواني الحمراء والخزف الجميل الأحمر والجيد الصقل. ولقد مكن اكتشاف الميناء الصناع من صناعة اللآلىء ذات اللون الأزرق الفاقع وكان خضاب العيون يهرس على لوحات من الشيست كان بعضها يزوق مثلما كان شأن الأمشاط العاجية وعلى هذا الأساس ابتدأ الفن ينشأ شيئًا فشيئًا.

ان عهد ما قبل الملوك البدائي (= الفيومي أ، الفصل ٢٥، يمكن أن تنتسب أحدث طبقة بمرمدة بن سلامة اليه)، يعرف بمجموعة الشمال اعتمادا على مواقع الفيوم (أ) (٢٨). فاستعمال الصوان فيه مُطّردٌ أكثر من استعمال المعدن لصنع الأدوات مثلما هو الشأن بالبدري. وكان صُنّاع فخار الفيوم (ب) ينتجون أنواعا من أشكال الأواني أكثر من صُنّاع البدري، الا أن تقنيتهم كانت أقل جودة. والملاحظ أن الصانع من الشمال يتفوق من جديد على الصانع من الجنوب، وذلك بنحت أوعية وأوان حجرية رائعة، من الشيست الأسود خاصة. وتعتبر المجموعتان متقاربتين فيما تبقى، ولا يمثل كل واحد منهما الا تطورا عاديا قد طرأ على الثقافة الحجرية الجديدة التي سبقته بعين المكان. فلا يوجد ما يدل على أنه حصلت باحدى المجموعتين، اختلافات محسوسة بين أعضائهما، ولا يبدو خاصة أنه وجد ضمن المجموعة أشخاص أغنى من غيرهم، فكل شيء يجري كما لو أن المساواة في مستوى القانون الاجتماعي قائمة بين مختلف أعضاء الجماعة، مهما كانت أعمارهم وأجناسهم. و يصدق هذا بالطبع بعدما ثبت ان المقابر المعروفة والمحفورة هي مقابر المجموعة الانسانية المعنية بالأمر بأكملها. وذلك يعني بعبارة أخرى أن بعض أعضاء تلك المجموعة لم يدفنوا خارج تلك المقابر على أساس التميز بحسب الجنس أو الدين أو المنزلة الاجتماعية.

ان عهد ما قبل الملوك القديم = (النجادي ١، الفصل ٢٥) ليس معروفا مع الأسف الا بالاعتماد على مواقع الجنوب، وهو يسمى أيضا بالأمرسي، نسبة الى المكان، وهو الأمر (٢٩) قرب أبيدوس، في ناحية الجنوب، وهو أبعد من بدري. ان الأمرسي يوافق ما يعرف أحيانا بثقافة نجادة ١، حسب تسمية فنلدرس بتري المعتمدة على الخصوص في التأريخ بالكربون ١٤.

ان الثقافة الأمرسية منحدرة زمنيا من الثقافة البدرية، دون ان يكون انقطاع بينهما أيضا، و يكون مستوى الأمرسي متصلا اتصالا مباشرا بمستوى البدري وذلك في بعض المواقع. ولقد كانت تلك الثقافة تنتج دائما الفخار الأحمر الجميل ذا الحاشية السوداء، الذي أنتجته الثقافة السابقة لها. لكنها تنتج الفخار المزوّق برسوم هندسية وطبيعية، مدهونة بالأبيض الكامد، على خلفية حمراء، و بنية حمراء. و يكون التزو يق محتو يا على حزات يملأها بياض على خلفية سوداء. ولقد كان صانع الفخار الأمرسي يبدع أكثر من سابقه البدري. فاخترع أشكالا جديدة تمثل خاصة الحيوانات ولعب الصيد دورا مهما في مواضيع التزو يق الطبيعية، لا سيما صيد فرس البحر. و يبدو أن الانتقال في عهد ما قبل الملوك القديم من نظام اجتماعي مكوّن من قناصين وصيادي أسماك رحّل، الى نظام قرى أو مجموعات من الفلاحين المربين للماشية المستقرين لم يكن مكتملا بعد.

---

(٢٨) ك. كتن تمسن، ١٩٣٤.

(٢٩) انظر: ج. فنديي، ١٩٥٢، ص ٢٣١ - ٢٣٢. ولقد اكتشف الموقع سنة ١٩٠٠. ونشر عنه رندل ماسيفر، وأ. ك. ماسي، ١٩٠٢، ص ٣ — ٥٣.

ويجب ان نلاحظ ان السلاح الذي يختص به الامرسي هو الهراوة التي كثيرا ما تكون منحوتة من الحجر الصلب، ولها شكل جذع مخروط (٣٠) وذلك أمر مهم لأن ذلك السلاح سيضمحل تماما بعد الأمرسي. وكان رمزا من رموز النظام الهيرغليفي، وقد أعطى لها في العهد التاريخي صورة صوتية (٣١). وذلك يعني أن نظام الكتابة الهيرغليفية ابتدأ يتكون بالعهد الأمرسي، أي بعهد ما قبل الملوك القديم، في حوالي ٣٨٠٠ سنة (وهو تاريخ وفره الكربون ١٤).

وظل الفن يتطور فظهرت عندئذ التماثيل الصغيرة لرجال ذوي لحي، وهم يحملون علبة قضيبية، أو لنساء راقصات، أو لحيوانات متنوعة، وظهر في نفس الوقت عدد أكبر من لوحات الخضاب المزوقة والأمشاط المزينة بصور حيوانية (٣٢).

ان مواقع الأمرسي المتجمعة بين أسيوط شمالا وطيبة جنوبا، تشمل خاصة مواقع نجادة، وبلاس، وهو، وأبيدوس. ونحن نأسف لأننا لا نعلم بالنسبة للمجموعة الشمالية وجود موقع معاصر للأمرسي، خاصة أنه توجد في هذا الأخير آثار واضحة عن اتصالات بين الجنوب والشمال لا سيما بظهور أوان حجرية بالأثاث المأتمي الأمرسي لها أشكال يختص بها عهد ما قبل الملوك الشمالي. ولا يوجد شيء بالعادات المأتمية يدل على حدوث تغير في النظام الاجتماعي بين عهد ما قبل الملوك البدائي وعهد ما قبل الملوك القديم الأمرسي. فنحن دائما أمام مجموعات انسانية مكونة من أشخاص متساوين وإن كانوا يخضعون لسلطة رئيس واحد أو لسلطة مجموعة من الأشخاص.

ثم أخذت الثقافة الأمرسية بعد قرن من الوجود، أو أقل من ذلك، تنصهر بتدرج ثقافة جديدة معقدة تخلط عناصر من الأمرسي بعناصر أخرى من أصل شمالي واضح. ان تلك الثقافة المختلطة، أي عهد ما قبل الملوك المتوسط (= النجادي ٢، الفصل ٢٥، وربما العمري نفس المرجع)، أو الجرزي (النجادي ٢، في تسمية بتري) تستمد اسمها من موقع يسمى جرزة (٣٣) بمصر السفلى، قرب الفيوم، حيث ظهرت بوضوح، ولها مظهران احدهما جرزي محض بالشمال والآخر خليط بين الأمرسي والجرزي بالجنوب (٣٤).

وقد تمركزت تلك الثقافة شمالا بمنطقة منف ـــ فيوم، والطرف الجنوبي من الدلتا. و يتميز الجرزي الشمالي في ميدان الفخار على الخصوص من خلال أوان لونها فاتح وشمواهي، وتتركب من مادة تختلف كثيرا عن مادة الفخار الجنوبي. ان تزيينها تزيين طبيعي بالطين الأحمر الموضوع على خلفية فاتحة، وله مواضيع جديدة تشمل جبالا، وايباكسا ونعاما والوة وخاصة مراكب. ان صناع الجرزي مثلهم مثل صناع الفيوم (أ) الذين خلفوهم كانوا يصنعون أواني من حجر و يضيفون للشيست حجارة أكثر صلابة متكونة من ثلم، وبزلت ودير يت، وسربنتين. ان السلاح الذي تختص به تلك الثقافة هو الهراوة الكثرية الشكل (٣٥) التي ستصبح السلاح الممتاز في أوائل

(٣٠) انظر: في شأن تلك الهراوة و. م. بتري، ١٩٢٠، لوحة ٢٥، ص ٢٢ - ٢٤.

(٣١) ا. همـغردنر، ١٩٥٧، ص ٥١٠ ـــ مجلد ١.

(٣٢) ج. ل. سنفال، ١٩٧٣، ص ٦ ٢١.

(٣٣) ان قرية جرزة تقع في مستوى الفيوم، و بالتالي في أقصى جنوب القاهرة الحالية. وقد أجريت الحفريات في موقع عهد ما قبل الملوك عام ١٩١١. أنظر، و. م بتري أ، مكي، وج و ينرايت، ١٩١٢.

(٣٤) ج. فركوتيي، ١٩٦٧، ص ٢٤٥ - ٢٤٧، وج فنديي، ١٩٥٢ ص ٢٤٨، ٢٥٢ و٤٣٦ - ٤٩٦.

(٣٥) و. م. بتري ١٩٢٠، لوحة رقم ٢٦ وص ٢٢ - ٢٤.

التاريخ وستظل مثل الهراوة الأمرسية احدى رموز الكتابة الهيرغليفية (٣٦).

ونلاحظ أيضا تطورا اجتماعيا ودينيا. فالأموات أصبحوا يدفنون في قبور مستطيلة الشكل رؤوسهم الى الشمال، ووجوههم نحو الشرق لا نحو الغرب. أما المراكب التي كانت ترسم على أواني الفخار الجرزية، فانها تحوي في جؤجئها «علامات» يعسر ألا نرى فيها أسلاف شعارات «النوم» أو الولايات المصرية الفرعونية.

وهكذا يبدو أن المجموعات الانسانية قد تجاوزت مرحلة الأسرة والقرية وتجمعت نهائيا ضمن زمر أكبر حجما. ان القوة الناتجة عن ذلك التنظيم الاجتماعي قد سمحت بلا شك باستغلال أحسن للوادي اعتمادا على الري. وستوفر نتيجة لذلك ثورة أكبر ستظهر في انتاج الأشياء المخدومة، كالأواني الحجرية الوافرة الجميلة والأدوات والاسلحة النحاسية الوافرة، ومنها الأمقاص والخناجر، وحدود المخاطيف والفؤوس. وليس من باب المصادفة بدون شك ان تعتمد الحلي المأتمية في ذلك الوقت على الذهب وعلى الحجارة نصف النفيسة مثل اللازورد والكلسدوان، والفيروز والكرنلين، والعقيق. وقد أخذ النحت يتطور و يظهر من المواضيع الممثلة، كالباز ورأس البقرة خاصة، ان الديانة الفرعونية كانت هي نفسها في مخاض، اذ كان هروس الباز، وهاثور البقرة يعبدان.

وفي الجنوب كانت الثقافات التي تلت الأمرسي من عهد ما قبل الملوك القديم قد خضعت لتأثيرات جرزية عميقة. ولذلك يوجد الفخار الجرزي الكلاسيكي، الشمواهي (Chamois)، ذو التزيين الطبيعي الاحمر، جنبا الى جنب مع الفخار الجنوبي التقليدي، الأحمر ذي الحاشية السوداء أو ذي التزويق الأبيض الكامد.

وفي الحقيقة كان التأثير متبادلا بين المجموعتين وكانت المشابهات بين المجموعتين عديدة في ذلك العهد، لا سيما فيما يتعلق بالأدوات الحجرية. ولقد بلغت تقنية نحت سكاكين الصوان أوج جودتها وكان ألواح الخضاب الشيستية متشابهة. وكان كل شيء ينمو نحو انصهار المجموعتين الثقافيتين انصهارا كاملا.

ان الانصهار بين الجنوب والشمال سيتحقق في عهد ما قبل الملوك الحديث أو الجرزي الحديث (يدعى أحيانا السماني (= العمري (ب) والمعادي، الفصل ٢٥ ص (٣٧). وهذا الحدث يُفْضي بنا الى عتبة التاريخ لأن مدة تلك الفترة كانت قصيرة جدا. فاذا احتفظنا بتاريخ ٣٠٠٠ سنة كبداية التاريخ ـــ وذلك ما فعلناه حتى نظل أوفياء لتواريخ ما زالت مقبولة تقليديا ـــ فقد تكون تلك المرحلة لم تدم أكثر من جيلين أو ثلاثة على أقصى تقدير. و يفيد تاريخ حصل بالكربون ١٤ ومطبق على عهد ما قبل الملوك المتوسط، بأن ذلك العهد كان لا يزال مستمرا في سنة ٣٠٦٦ قبل الميلاد، وبذلك تبقى ثلاثة أرباع قرن فقط للانتقال من نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط الى بداية التاريخ. وفي الواقع يجب ان ننقص قرنين تقريبا من تلك البداية. ولكن، حتى لو ضبطناها بحوالي ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد (٣٨) فلم يبق الا قرنان أو أكثر بقليل لكي تنتهي مرحلة شهدت اكتمال استصلاح وادي النيل الأسفل واقامة نظام اجتماعي يحكمه نظام ملكي ذو سلطة إلهية.

---

(٣٦) ا هـ. غردنر، ١٩٥٧، ص ٥١٠ ملجد ٣.

(٣٧) العبارة وضعها فلندرنس بتري. وسمانة هي قرية من صعيد مصر، قرب قنا، انظر أيضا ج. فركوتيي، ١٩٦٧ ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٣٨) أ. شارف، ١٩٥٠، ص ١٩١.

ان تلك المرحلة على غاية من القرب من المرحلة التي تشهد ظهور النصوص المكتوبة حتى أن بعضهم سعى الى تعميم المعلومات التي وفرتها تلك النصوص على ما يخبرنا به علم الآثار (٣٩).

ان النصوص تجعلنا نعتقد حسبما يبدو، أن أقوى مدينة بالجنوب كانت في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث، ان لم تكن في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط، هي مدينة أمبوس (تسمى النوبة في مصر اليوم). وهي تقع قرب نجادة، أي في قلب الثقافة الأمرسية. كان إله المدينة هوسث، وهو إله حيوان ما زالت طبيعته محل نقاش. فلقد اعتبر أنه آكل نمل، ونوع من أنواع الخنزير وزرافة.. وحيوان أسطوري قد اندثر قديما من الحيوانات المصرية. ان النصوص تفيد أن ذلك الإله الجنوبي دخل في صراع مع إله ــ بازهوهوروس المعبود بمدينة بهدت التي كانت موجودة بالدلتا، أي في نطاق الثقافة الجرزية. ولذلك كانت مصر في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط مقسمة الى بنيتين اجتماعيتين، احداهما بالشمال، يشرف عليها هوروس، في بهدت، والأخرى بالجنوب تخضع لسث، بأمبوس.

ان المراجع المتوفرة لا تسمح هنا مع الأسف بضبط طبيعة البنيتين الاجتماعيتين، ولا نستطيع سوى أن نتصور أهمية دور رئيس المجموعة، وهي أهمية تعتمد على سلطة سحرية ودينية، ما لبثت في العهد التاريخي ان اصطبغت بالصّبغة الإلهية التي كان يتمتع بها شخص الملك (٤٠). ويمكن لنا ان نقول بأن رئيس المجموعة كان يتمتع بسلطة لا حد لها عمليا، يطبقها على أعضاء المجموعة التي كانت بدورها تستطيع قتل الرئيس اذ انقصت سلطته السحرية (انظر موري، اعدام الإله بمصر).

ان تأويل النصوص، يجعلنا نقول بأن الصراع بين المجموعتين انتهى في المرحلة الأولى، بانتصار الشمال على الجنوب، ونشأت على اثر ذلك مملكة موحدة، كان مركزها عين شمس (هليوبوليس) (٤١) قرب القاهرة، أي على بعد ٦٠ كلم شمالا من موقع جرزة. ان انتصار الشمال على الجنوب اذا ترجم بلغة علم الآثار، يوافق تغلغل الثقافة الجرزية في الميدان الأمرسي.

ولنستمر في تأويل النصوص لنقول بأنه حدث تطور سياسي واجتماعي في المجموعتين سواء بالشمال والجنوب طيلة عهد ما قبل الملوك الحديث. ان الوحدة السياسية الناتجة عن انتصار الشمال على الجنوب في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط، أو في بداية عهد ما قبل الملوك الحديث لم تدم كثيرا وعادت كل مجموعة الى حياتها المستقلة. ونلاحظ على إثر ذلك التطور أن المركز السياسي بالشمال انتقل من بهدت، التي نجهل موقعها بالضبط، الى بوتو بالدلتا الغربي، على بعد ٤٠ كلم من البحر، وتلك منطقة عسر فيها بلوغ مستويات أثرية معاصرة لعهد ما قبل الملوك. ولقد انتقلت في نفس الوقت عاصمة الجنوب من امبوس الى الكاب (وكانت تسمى النكب بالمصرية القديمة) على بعد ١٠٠ كلم نحو الجنوب (٤٢)، وبذلك اقتربت مجموعة الجنوب أكثر من خط الاستواء ومجموعة الشمال أكثر من الشمال...

(٣٩) يعتبر عمل ك. سانه، ١٩٣٠ الممتاز، هو الكتاب المعتمد.

(٤٠) انظر: ج. بوزنر، ١٩٦٠.

(٤١) ك. سانة، نفس المرجع - نظرية رفضها هـ. كيس، ١٩٦١، ص ٤٣.

(٤٢) ج. فركوتيي، ١٩٦٧، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

وكان يعبد في بوتو إلاهة في صورة حية (كوبرا)، اسمها واجيت، وفي الكاب كان يعبد صقر أنثى. وسيظل الالاهان في العهد التاريخي يحميان الفراعنة ويمثلان بانتظام في «المراسم» المنظمة من اجل الملك (٤٣) وذلك بمناسبة احتفالات التتويج. وكانت بعض الوثائق، الموالية بما يقرب من ألف سنة قد حافظت على أسماء ملوك تلك المجموعات السياسية في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث، ولكن لم يصلنا من تلك الوثائق الا القليل. و يبدو ان الوحدة الثقافية بين الجنوب والشمال قد تمت منذ ذلك العهد. ولذلك كان الاله هوروس الذي أصله من الشمال، معبودا أيضا بالجنوب، وكان الرؤساء السياسيون بالجنوب و بالشمال، يعتبرون أنفسهم من خدمه أو من أنصاره و يطلق عليهم لقب شمسو هوروس (٤٤).

ولا يوجد، من الناحية المادية، الا اختلاف ضئيل بين حضارة عهد ما قبل الملوك المتوسط وحضارة عهد ما قبل الملوك الحديث، ولكن نلاحظ تقدما ثابتا في مستوى الفن والتقنية. فلقد أصبح الوجه الانساني موضوعا كثيرا ما تناوله الفنانون. وظهر الرسم الجداري في هيرا كنبوليس (تسمى «نكن» بالمصرية القديمة)، وهو مركز هام على الضفة الغربية من النهر يكاد يكون مواجها للكاب (٤٥). ولقد أصبحت هيراكنبوليس مهد الملكية الجنوبية التي شرعت في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد في محاربة الشمال.

فكم دام ذلك الصراع؟ من المستحيل معرفة ذلك. فقد استغرق كل السنوات الأخيرة من عهد ما قبل الملوك الحديث وانتهى بانتصار الجنوب على الشمال و بانشاء دولة موحدة تجمع كل الوادي من الكاب الى الأبيض المتوسط. وقد حكم الدولة ملوك من الجنوب، أصلهم من مدينة ثيس (٤٦) الواقعة قرب أبيدوس، ومنهم نشأت الأسرتان الأوليان المعروفتان بالثنيتية. ولذلك كانت الحقبة القصيرة من عهد ما قبل الملوك الحديث كثيرا ما توصف بالعهد ما قبل الثنيتي.

ان المعالم الأثرية الماقبل الثينيتية التي بقيت الى هذا العهد وجدت كلها في هيراكنبوليس (٤٧). فهي تتكون أساسا من لوحات خضاب نذرية (٤٨)، مؤرخة، من الشيست، ومن رؤوس هراوات كلسية، منقوشة. ان المشاهد المرسومة على النوعين من الآثار تنيرنا قليلا عن النظام السياسي والاجتماعي الذي كان سائد بوادي النيل الأسفل. وكانت البلاد مقسمة الى مقاطعات، أو مجموعات انسانية نرى شعاراتها تصاحب الملك في المناسبات الكبرى.

ان مقارنة الشعارات المرسومة على المراكب الجرزية وعلى اللوحات أو الهروات الما قبل ثينيتية برموز «النوم Nomes» أو المقاطعات، المرسومة على المعالم الأثرية الباقية من العهد التاريخي تبين ان تطور النظام الاجتماعي منذ الجرزي بوادي النيل الأسفل، شمالا وجنوبا، أخذ يتقدم في

---

(٤٣) انظر: ا. هـ. غردنر، النمو المصري، الطبعة الثالثة، لندن ١٩٥٧، ص ٧١ — ٧٦.

(٤٤) انظر: في شأن شمسو هوروس، ج. فندي، ١٩٦٢، ص ١٢٩ - ١٣٠ و٦٣٥ - ٦٣٦.

(٤٥) وفرت هيراكنبوليس معالم عديدية من عهد ما قبل الملوك. انظر: برتر- موس، ١٩٣٧، ص ١٩١ - ١٩٩.

(٤٦) لم يكتشف موقع العاصمة. ان وجود مقبرة ملكية من ذلك العهد (انظر: و. م. ف. بترى، ١٩٠١) على الضفة الغربية من النيل، بأبيدوس يدل على ان المدينة كانت على مقربة من المقبرة.

(٤٧) استكشف الموقع سنة ١٨٩٨ — أنظر: ج. ا. كييل، هيراكنبوليس، لندن ١٩٠٠ — ١٩٠٢

(٤٨) قام بجمع أجلها و. م. ف. بتري، ١٩٥٣.

اطار جغرافي واقتصادي وليس في اطار عرقي. فكانت المجموعة الانسانية تنتظم حول موقع س
وحول آلهة وكان ذلك تباتجا عن المستلزمات الزراعية التي فرضها نظام النيل على الوادي
بالشمال أو بالجنوب. فالمجموعة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تتطور الّا اذا كانت وافرة ا
ومنظمة تنظيما كافيا لتنجز الأعمال التي تحمي أرضها من الفيضانات، ولتوسع في الأ
المفلوحة، ولتوفر مدخرات ضرورية حتى تجابه التقلبات الناتجة عن فيضان النهر. و يعتب
التنظيم الحدث الهام والقار الغالب في النظام الاجتماعي بوادي النيل الأسفل.

ومن الممكن ان يكون هذا النظام القائم في نهاية الأمر على توزيع جغرافي قد حل محل نظا
منه يرتكز على قاعدة عرقية أو اجتماعية. وذلك ما نستشفه من ثلاث كلمات مصرية موجو
فجر التاريخ والتي ستدوم الى آخر الحضارة المصري. وتلك الكلمات هي بات، و
وهنممت (٤٩). التي يبدو أنها مرتبطة بثلاث مجموعات بشرية كبرى: مجموعة البات، وهم
الصعيد الذين يعبدون هوروس، ومجموعة الرخيت، وهم سكان الوادي الأسفل المغلوبين ف
عهد ما قبل الملوك الحديث ومجموعة الهنممت أو «شعب الشمس» وهم سكان المنطقة ا
الموجودة بين البحر الأحمر والنيل. ان تلك المنطقة التي كانت مسكونة في العصر الحجري الجد
عهد ما قبل الملوك منطقة مهمة بالنسبة لاقتصاد الوادي. لأنها وفرت المعادن والنحاس والذ
وقد يكون هذا النظام الاجتماعي العرقي العظيم هو الذي انقسم الى وحدات جغرافية وز
صغيرة. وسيكون دور الملكية سياسيا بحتا، اذ قامت في أول الأمر بجمع تلك المقاطعات
كنفدراليتين كبيرتين، احدهما في الشمال والأخرى في الجنوب، ثم وحدت في مرحلة ثانية
الكنفدراليتان ضمن مملكة واحدة، و بذلك وفرت استصلاحا أحسن لمجموع البلاد المص
وستكوت تلك المهمة الثانية من أعمال الفراعنة الثينيتيين الأولين وعندئذ ندخل في التاريخ.

وادي النيل الأعلى (من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد)

ان مختلف الثقافات بالوادي الأسفل من النيل التي سبق ان رأيناها لا تتجاوز منطقة ا
جنوبا. وتنتسب منطقة أسوان والشلال الأول الى ميدان ثقافي آخر. و يبدو ان سكان وادي
الأعلى يقتربون عرقيا من سكان مجموعة الجنوب من الوادي الأسفل: وهم البدريون والأمر
ويمكن بدون شك ان نوسع تلك المقاربة الى أجناس مجاورة من الصحراء الشرقية كلما أمك
الاعتماد على دراسات بشرية، وان كانت هذه الدراسات مازالت قليلة العدد (٥٠).

ان العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك غير معروفين كما ينبغي في مصر كما رأينا،
للعدد الضعيف من المواقع التي استكشفت استكشافا علميا. والحالة أسوء من ذلك بالوادي ا
إذ أن القسم الشمالي، بين الشلال الأول والشلال الثاني، يعتبر الوحيد الذي استكشف نسبيا
كان ينبغي أن نلاحظ أن نتائج الحفريات الجارية من سنة ١٩٦٠ الى ١٩٦٦ لم تنش
جزئيا (٥١).

(٤٩) ا. هـ. غردنر، ١٩٤٧، ص ٩٨ + ١١٢.

(٥٠) انظر: في النهاية: و. ف. نيلسن، ١٩٧٠، وص ٢٢، المراجع ص ١٣٦ - ١٣٩.

(٥١) انظر: فيما يخص العهود التي تهمنا المؤلفات التالية: ف. وندورف، ١٩٦٨ وهـ. نردسترم، ١٩٧٢.

اما فيما يخص الشلال الثاني الى البحيرات الاستوائية الكبرى فان العناصر النادرة المعروفة مستمدة من تقارير استكشاف بالسطح، لأنه لم يحفر الا عدد ضئيل من المواقع، ولذلك فإن معارفنا محدودة جدا زمنيا ومكانيا فيما يخص الوادي الأعلى والوادي المصري.

العصر الحجري الجديد (± ٥٠٠٠ - ٣٨٠٠ قبل الميلاد)

لقد حفر لأول مرة موقع ثبت أنه من العصر الحجري الجديد وذلك بمنطقة الخرطوم. إن الثقافة التي كشف عنها، والمعروفة أحيانا باسم العصر الحجري الجديد الخرطومي، تسمى عادة ثقافة الشهانب (= الشهانبي، الفصل ٢٥) نسبة الى اسم الموقع الذي عرف بها (٥٢).

ان الشهانب موقع سكني لم يعثر على أضرحته، الا أن الادوات الوافرة المستعملة في الحياة اليومية والتي وفرها تدل على أن السودانيين من الشهانب القناصين وصيادي الأسماك خاصة، كانوا أيضا يربون الماشية. ان دراسة فخارهم، المزين باستعمال مدقّة للطبع، تبين أنهم ربما كانوا ينحدرون من ثقافة عصر حجري جديد أكثر قدما قد عثر على آثارها بموقع بالخرطوم نفسها. ان ذلك الموقع، وهو الخرطوم المبكر (٥٣) (= الخرطومي، الفصل ٢٥). وقد وفر هو أيضا قبورا كان قد دفن بها زنوج. فان كان الشهانب منحدرا من الخرطوم المبكر، كما يبدو، وجب ان نقر أننا هنا أيضا أمام سكان سود، يتألفون من قناصين وصيادي أسماك كانوا يصارعون أيضا الأسود، والجواميس، وأفراس البحر والظباء، والغزلان، والأريكس، والأرانب البرية، وقد وجدت عظامهم بمواقدهم. وكان سلاحهم يتكون من فؤوس مصقولة وهراوات نصف كروية الشكل اعتبرت أحيانا سابقات للهراوات المخروطية الجذع الأمرسية. وكانوا يخدمون الخشب ويحسنون النسج، الا أنهم يفضلون الجلد حسبما يبدو في لباسهم. وتسمى حضارتهم أحيانا «ثقافة المنقر» نظرا للعدد الكبير من تلك الأدوات المكتشفة بالموقع. و بالاعتماد على فخارهم المتميز كان من الممكن اقامة البرهان على أن ثقافة الشهانب قد امتدت نحو الغرب (تنري والتبستي) ونحو الشرق على ضفاف النيل الأبيض والنيل الأزرق، جنوب الخرطوم. ولا يوجد ما يسمح بأن نضبط ما كان عليه تنظيمهم الاجتماعي.

وقد يكون من المفيد ان نعرف كيف كانت العلاقات بين العصر الحجري الجديد بالشهانب ونفس العصر بالوادي الأسفل، و بالفيوم خاصة. ولكننا لا نعرف مع الأسف موقعا واحدا بشمال الخرطوم، بين الشلالين السادس والثاني يسمح بأن نعقد مقارنات مفيدة. ان الأعمال الحديثة بالنوبة السفلى، جنوب الشلال الثاني، تفيد أن العصر الحجري الجديد بتلك المنطقة قريب جدا من نفس العصر بالشهانب، الا أنه يختلف عنه بعض الشيء، الى حد جعل الأثريين الأنكلوسكسون الذين درسوه يصفونه «بالخرطوم المتنوع» (٥٤).

ان الانتقال من العصر الحجري الجديد الى عهد ما قبل الملوك، أي الى عصر النحاس بالوادي الأعلى مازال مجهولا جدا. وقد تدل الأضرحة الموجودة بملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق على وجود

(٥٢) — انظر: ا. ج. أركل ١٩٥٣.
(٥٣) — انظر: نفس المرجع ١٩٤٩.
(٥٤) ف. وندورف، ١٩٦٨ ص ٧٦٨ - ٧٩٠ وهـ. نردسترم، ١٩٧٢، ص ٩ - ١٠.

ثقافة متأثرة في ذلك المكان بعهد ما قبل الملوك النوبي، المعروف بالمجموعة أ (انظر أعلاه). الا أن تلك الثقافة لا يمكن أن تؤرخ تأريخا مضبوطا.

وعلى العكس من هذا اكتشفت حديثا صناعة، بالشلال الثاني تدعى الأبكي (أبكن) (٥٥) (= الأبكي، الفصل ٢٥)، نسبة الى موقع «أبكة»، حيث هي ممثلة تمثيلا جيدا. ولا نعرف عنها الا صناعتها الحجرية وفخارها. ولم ينشر شيء عن المواقع التي عثر فيها عليها. و يبدو مما نعرف أن تلك الثقافة تنتسب الى سكان يتعاطون صيد الحيوانات والسمك، مثلها مثل ثقافة الشهانب. الا أن صيد الحيوانات بها أقل انتاجا، ولعل ذلك يعود الى حلول مرحلة التجفف التي جاءت بعد «المرحلة الرطبة». و يبدو أن رجال أبكه يستعملون في صيد الأسماك، فخاخا كبيرة قارة، وضعت بمهارة في قنوات الشلال عندما تنخفض فيها المياه، فكانت الأسماك تظل أسيرة بها عندما يغيض الماء. ان جني الثمار والنباتات الوحشية يكمل تلك الموارد. وصنع الفخاخ المتركبة من جدران حجرية مساحتها واسعة، يستلزم وجود نظام اجتماعي معين. ولا توجد علاقة نسب بين هذه الثقافة وثقافة الشهانب التي اتخذت في نفس المكان شكل «الخرطوم المتنوع» وتميزت عنها كثيرا، رغم أنها معاصرة لها. وعلى هذا، فهي شكل خاص من العصر الحجري الجديد الذي لا يدين بشيء لا للجنوب ولا للشمال. على أنه يبدو ان عهد ما قبل الملوك النوبي قد نشأ عن العصر الحجري الجديد الأبكي.

عهد ما قبل الملوك (٣٨٠٠ ـ ٢٨٠٠ قبل الميلاد)

عندما قررت الحكومة المصرية سنة ١٩٠٧ أن يرفع الى سبعة أمتار علو سد أسوان الأول، وهو قرار يترتب عليه فيضان المياه على النوبة السفلى، من الشلال الى كرسكو، جرى استكشاف أثري شامل بالمنطقة التي ستفيض عليها المياه. ان الأثريين الذين لاحظوا اختلافات الثقافات بين مصر المعروفة لديهم معرفة حسنة، والنوبة، وضعوا نظاما مؤقتا للتصنيف يعتمد على الحروف للدلالة على الثقافات التي كان يحتمل أن يعثروا عليها، وميزوا اعتمادا على تأريخ نسبي بين المجموعة (أ) والمجموعة (ب) والمجموعة (ج) الخ (٥٦). ومن ذلك الحين بذلت محاولات لوضع نظام يقلد نظام الوادي الأسفل، بحيث يكون النوبي القديم والنوبي الوسيط يوافق الأمبراطوري القديم والأمبراطور الوسيط (٥٧) ولقد عدل عن ذلك نظرا الى الصعوبات القائمة في وجه توسيع نطاق ذلك النظام، من النوبة الى الشمال من الشلال الثاني، والى شلال الجنوب. وسنظل اذن نستعمل اسم المجموعة (أ) التي تشمل عهد ما قبل الملوك.

تمتد المجموعة (أ) (٥٨) زمنيا من نهاية العصر الحجري الجديد، أي حوالي ٣٨٠٠ سنة الى نهاية الأمبراطورية المصرية القديمة، الى حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويمكن ان نميز بها ثلاث مراحل:

---

(٥٥) وصفت تلك الصناعة ب. ف. وندورف، ١٩٦٨ ص ٦١١ - ٦٢٩ وانظر أيضا هـ. نردسترم، ١٩٧٢ ص ١٢ ــ ١٦.

(٥٦) ج. أ. رايسنر، ١٩١٠ ص ٣١٣ ــ ٣٣٢.

(٥٧) ب. ج. تريغر، ١٩٦٥ ص ٦٧ وما بعدها، وشكل ١ ص ٤٦.

(٥٨) لم تنشر الى الآن كل التقارير عن الحفريات التي جرت بالنوبة إثر نداء اليونسكو سواء بمصر أو بالسودان. انظر فيا يتعلق بالمجموعة (أ) ما ألف، وهو مؤلف هـ. أ. نردسترم ١٩٧٢ ص ١٧، ٣٢.

المجموعة (أ) القديمة، من ٣٨٠٠ الى ٣٢٠٠ سنة تقريبا، والمجموعة (أ) الكلاسيكية، من ٣٢٠٠ الى ٢٨٠٠ سنة تقريبا، والمجموعة (أ) المتأخرة (المجموع ب القديمة)، من ٢٨٠٠ الى ٢٢٠٠ تقريبا. ولن نهتم هنا الا بالمرحلتين الأوليين.

تعتبر المجموعة (أ) غير معروفة كثيرا (٥٩) فلقد لوحظ إثر الحفريات الحديثة بالنوبة السودانية بين ١٩٦٠ و ١٩٦٦ أن الحضارة «النحاسية» للمجموعة (أ) تلي مباشرة حضارة الأبكي من العصر الحجري الجديد. فيجب انتظار نشر التقارير الكاملة للحفريات حتى تتكون لنا فكرة أكثر دقة عما تشمله تلك المجموعة. و يبدو ان موقع خورهان، بالنوبة السفلى، جنوب شلال، ينتسب الى تلك المرحلة القديمة وأنه معاصر للجرزي، و بالتالي لعهد الملوك الوسيط المصري. لقد كانت الزراعة وتربية الماشية، المفقودتان في العهد الأبكي، تمارسان بالنوبة السفلى، اذ ان مجموعات الفلاحين الذين كانوا يستعملون تقنية خاصة بالوادي الأعلى، كانوا يقيمون أثناء انخفاض المياه، سدودا من الحجارة عموديا بالنسبة لمجرى النهر، وهي سدود كانت تبطىء حركة التيار، وتيسر وفقا لذلك ترسب الطمي بالحقول على شواطىء النيل، كما توسع في مساحة الحقول. يضاف الى ذلك ان العثور على عظام بقر وماعز بالقبور ــ وأصلها بدون شك من تضحيات مأتمية ــ يدعو الى الاعتقاد بأن تلك المجموعات البشرية كانت من أشباه الرُّحل. فنظرا الى كون الحقول لم تكن كافية لتغذية عدد كبير من الحيوانات يمكن ان نتصور أن القطعان كانت ترحل في جزء من السنة الى الهضاب المجاورة التي كانت سهبا مثلما يدل على ذلك وجود الظباء والأسود.

ان اكتشاف أدوات نحاسية بمواقع المجموعة (أ) القديمة يثير قضية انتشار ذلك المعدن بالوادي الأعلى. ان أفارقة المجموعة (أ) مثلهم مثل أهالي البدري، كانوا يستعملون الدهنج (Malachite) خضابا للعيون وكانوا يهرسونه على لوحات من المرو وكانوا يعرفون صنع العجين للطلاء الخزفي (الخزف المصري). وبما أنه توجد مناجم معدن النحاس بالنوبة، وكانت تستغل منذ عهد قديم جدا، فانه من المحتمل جدا ان تكون الأشياء النحاسية الموجودة بمواقع المجموعة (أ) القديم (لا سيما الابر) من صنع محلي بحت (٦٠).

و يبدو ان المستوردات من الشمال تقتصر على أوان حجرية من الألباتر، والشيست، والرخام الصنعي، وعلى مواد خام، وعلى الصوان الذي لا يوجد أساسا في الحث(Gres)النوبي، في حين أنه متوفر بكثرة بمصر. و يتكون الفخار من النوع الأحمر ذي الحاشية السوداء. والنوع المصنوع محليا يعتمد على تقنية ممتازة. ان أهالي المجموعة (أ) كانوا في صنع الأدوات والأسلحة يستعملون الحجر والعظم أكثر من المعدن. ان السكاكين والهراوات التي لها أشكال شبيهاتها بالأمرسي، مصنوعة من الصوان أو من الديوريت أو البزلت، وكانت الابر والمشابك والمثاقب تتكون غالبا من العظم أو العاج. ولقد ظهر الذهب في الحلي، وكان لوحات الخضاب الشيستية مستوحاة بدون شك من اللوحات المصرية لكننا نجد لوحات من المرو الأبيض التي تعتبر من خصائص ثقافة المجموعة (أ) (٦١).

---

(٥٩) هـ. نورد ستروم، ١٩٧٢ ص ١٧ ــ ٢٨ وما بعدها.

(٦٠) نلاحظ أن معدن النحاس بالامبراطورية القديمة كان يعالج بعين المكان في بوهن على الخصوص. انظر: و. ب. أمري، ١٩٦٥، ص ١١١، ١١٤.

(٦١) ف. هنتري، ١٩٦٧ ص ٤٤.

و يلي المجموعة (أ) القديمة التي لا نعرف عنها الكثير، المجموعة (أ) الكلاسيكية، وهي ــ اذا نظرنا الى الأضرحة والمقابر التي تركتها ــ قد شهدت ما يمكن أن نسميه انفجارا سكانيا. (٦٢) ان المجموعة (أ) الكلاسيكية القريبة جدا ماديا من سابقتها، تتميزعنها بأهمية عدد كبيرمن الأشياء المجلوبة من الوادي الأسفل. ولقد اعتبرت تلك الظاهرة دليلا على نشاط التجارة بين الوادي الأسفل والوادي الأعلى من النيل، وكان الفخار يتميز بقيمة وجودة رفيعة، الا أنه كان يشمل عددا كبيرا من الأواني المستوردة من النوع الجرزي ذي اللون الفاتح، وهي أوان للاستعمال يحتمل أنها كانت تحتوي على مواد معرضّة للزوال، (لاسيا الزيت)، وكانت تستورد بالمقايضة مع العاج أو الآبنوس المجلوبين من الجنوب.

ظلت ثقافة المجموعة (أ) الكلاسيكية تزدهر حتى حدود ٢٨٠٠ سنة تقريبا، ثم فجأة كادت تنقرض تماما، وتركت مكانها لثقافة ضحلة جدا من المجموعة (أ) المتأخرة (مجموعة ب القديمة) (٦٣) ولقد اعتبر ذلك الانقراض نتيجة هجومات مصرية قادها فراعنة من الأسرة المالكة الثينيتية. وتوجد نقوش مصرية من ذلك العهد، اكتشفت قريبا من شمال الشلال الثاني، وهي تجعل هذا التأويل محتملا. لكن ذلك يخرجنا على كل حال من عهد ما قبل التاريخ.

واذا أردنا أن نلخص، فيما يتعلق بوادي النيل، تلك الحقبة المجهولة، ولكنها على غاية من الأهمية، والتي تمتد من العصر الحجري الجديد الى نهاية عهد ما قبل الملوك، يمكن أن نقول إنها تميزت في الوادي الأسفل بالانتقال من نظام اجتماعي قائم على الأسر أو المجموعات الضيقة من الصيادين للحيوانات والأسماك، والمتعاطين قليلا لتربية الحيوان، وشيء من الزراعة على ضفاف النهر، وبجوار الفيوم، الى نظام معقد خاص بالأهالي المستقرين المنظمين حسب قرى او مجموعات من القرى، والممارسين للريّ والزراعة المتخصصة. وكان تلك القرى موحدة في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحت سلطة رئيس واحد، وهو فرعون الذي كان يحكم الوادي الأسفل، من الشلال الأول الى الأبيض المتوسط.

نلاحظ في الوادي الأعلى، انتقال مجموعات بشرية من صيادي الأسماك والحيوانات والمتعاطين قليلا لتربية الحيوان، الى نظام يجمع مربي الماشية والفلاحين، فهؤلاء وان كانوا من أشباه الرحّل، الا أن لهم روابط جغرافية على طول النهر حيث كانوا يصنعون سدودا لتتوسع ثقافاتهم. وكان بناء تلك السدود يستدعي تنظيما جماعيا هاما، الا أنه كان أقل أهمية مما هو عليه بالوادي الأسفل.

ونشهد طيلة ذلك العهد وابتداء من ٣٣٠٠، النحاس ينتشر بوادي النيل كله. و بالرغم من أن أصل عدانة النحاس مازال غير معروف ومازال محل نقاش، فلا يستبعد أن تكون هذه العدانة قد نشأت أو استحدثت من جديد بوادي النيل.

(٦٢) ب. ج. تريغر، ١٩٦٥، ص ٧٤ ــ ٧٥.
(٦٣) ا. هـ. س. سميث، ١٩٦٦ ص ١١٨ ــ ١٢٤.

العهد التاريخي، من ٣٠٠٠ سنة الى القرن الخامس ق. م.

لما ظهرت النصوص المصرية الأولى، في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كانت النظم الاجتماعية قد استقرت على ما يبدو في مجموع وادي النيل ولم تتطور أبدا فيما بعد. في الجنوب يوجد نظام ملكي قائم على الحق الالهي، وبحكم مجموعة من الأشخاص المتساوين في الحقوق ــ على الأقل نظريا ــ أمام الملك. وفي الجنوب، يبدو النظام أقل تصلبا، فهو باعتبار الترحال أو شبه الترحال، نظام قائم في معظم الأحيان على الأسرة، وظل قائما طيلة العهد الذي يمتد من ٣٠٠٠ سنة الى القرن الخامس قبل الميلاد. ان وادي النيل لم يخضع لنظام اجتماعي يشابه تقريبا نظام الوادي المصري الا في نهاية ذلك العهد، بين الشلال الأول وملتقى النيلين الأبيض والأزرق.

ونظرا الى الصفة القارة التي تختص بها النظم الاجتماعية طيلة ذلك العهد، سنعرض بسرعة لتطورها. وسنؤكد كثيرا على الحدثين الثقافيين اللذين أثرا في ذلك العهد: وهما اختراع البرنز وانتشاره من جهة، ثم اختراع وانتشار الحديد، بعد ذلك بكثير.

تطور النظم الاجتماعية

نظرا الى افتقارنا للوثائق القانونية الكافية، فلا نعرف التنظيم الاجتماعي بالوادي الأسفل الا معرفة ناقصة. واذا اعتمدنا على المؤلفين الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت، وسترابون، فالمجتمع المصري يبدو مقسما الى طبقات متصلبة. وذلك خطأ يقينا باستثناء الجنود، في النهاية القصوى من التاريخ الفرعوني. فلم توجد بتاتا «طبقة الكهان» مثلما زعم سترابون، وليس من المحقق أن تكون وجدت طبقة العبيد، بالمفهوم الذي نقصده اليوم بهذه الكلمة (٦٤). والحقيقة ان النظام الاجتماعي المصري، كان يتميز في العهد التاريخي بمرونة كبرى. فهو يعتمد أكثر على استثمار الأرض، واستصلاح البلاد، لا على قانون متصلب. ولما كانت مصر لم تعرف قط النقود، كان الشخص مهما كانت رتبته في المجتمع مربوطا وجوبا بهيئة توفر له غذاءه ولباسه ومسكنه.

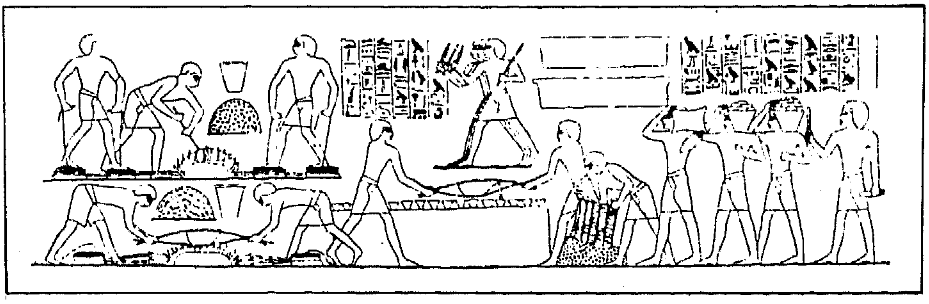
وتعتبر المزرعة العائلية أبسط تلك الهيئات. ولئن كانت الأرض مبدئيا ملكا لفرعون مصر، فان حق فلحها يُعْطَى أحيانا لأحد الخواص الذي يستطيع أن يورثها لأبنائه (٦٥). ولقد وجدت في كل العصور مزارع عائلية من هذا النوع، كثيرا ما كانت ضيقة، و يوزع رب العائلة بنفسه محصولاتها كما يشاء، وتكون الأسرة بمعناها الواسع مرتبطة به تمام الارتباط. ان الواجب الوحيد الذي يقوم به رب العائلة هو القيام بما عليه من واجبات نحو الدولة مثل الضرائب والخدمات المجانية، ومظاهر الولاء.

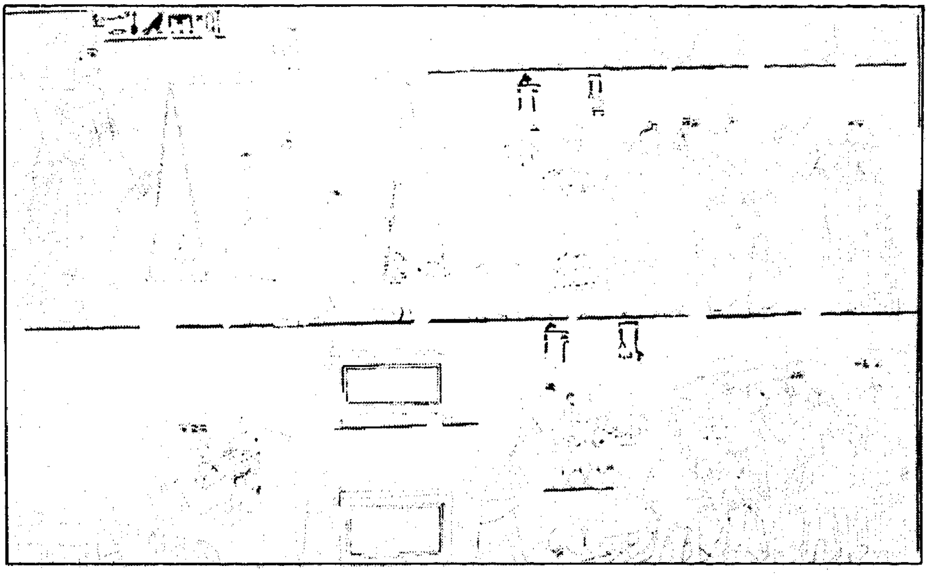
وتوجد الى جانب المزارع العائلية، مزارع أخرى أهم منها، هي المزارع الدينية والملكية، وكانت المزارع الدينية ـ وخاصة ابتداء من الأسرة المالكة الثامنة عشرة (بعد ١٥٨٠ قبل الميلاد) ـ غنية جدا. ومن ذلك أن مزارع الإله أمون كانت تضم ٨١٣٢٢ رجلا، و٤٢١٣٦٢ رأس بقر، و٤٣ بستانا، و٢٣٩٣ كلم² من الحقول، و٨٣ مركبا، و٥٦ قرية (٦٦). وكانت تلك الممتلكات

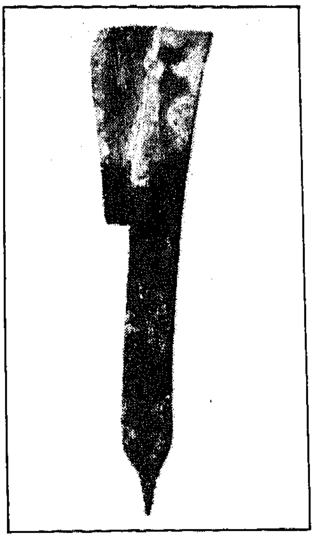
(٦٤) انظر: الملاحظات القيمة لـ ج. بوسنر الموجودة في ج. بوسنر، س. سومرن، وج. ييوت، ١٩٥٩ بخصوص موضوع الرق، ص ١٠٧.

(٦٥) ج. بيران، ١٩٣٢ ص ٢٠٦ ــ ٢١١، وج. بوسنر، ١٩٥٩، ص ٧٦ ــ ١٠٧.

(٦٦) ج. هـ. بريستد، ١٩٠٦، ص ٩٧.







● ١) قبر «ر يـخ مـي - رع» في طيبة. متحف المترو بوليتان للفن، البعثة المصرية، المجلّد العاشر.

● ٢) قبر حوى: الجدار الشرقي (الواجهة الجنوبية).

● ٣) شفرة حلاقة (مرقيسة، السودان). تصوير البعثة الاثرية الفرنسية في السودان.

موجودة بصعيد مصر، وبمصر السفلى و بسور يا وفلسطين والنوبة. وكانت الممتلكات الملكية متكونة على نفس النسق وموزعة في البلاد، وتقع حول القصر أو الهيكل المأتمي للملك. و يرتبط كل شخص وجوبا بإحدى هذه الممتلكات التي توفر له حاجاته بطر يقة تقوم على نظام المراتب. وتختلف الأجور العينية كثيرا حسب الوظيفة. ومن ذلك أن «المستكتب» يتقاضى «أقساطا» تفوق أقساط المزارع أو الصانع، وذلك ما مكن محظوظي هذا النظام من ان يكتسبوا بدورهم الخدم والممتلكات العائلية، لا عن طر يق بيع وظيفتهم، بل عن طر يق بيع جزء من العائدات المرتبطة بتلك الوظيفة.

ان الشخص الذي ير يد أن يتخلص من الضغط الذي يفرضه عليه النظام الاجتماعي المصري ليس له الا ان يهرب. ويهرب «الفارون» نحو الغرب، الى حاشية الصحراء، حيث يعيشون من الغزو السطو على مزروعات الوادي، أو أنهم يقصدون الخارج، لا سيا سور يا وفلسطين (٦٧).

ان استقرار النظام الاجتماعي مرتبط الى حد بعيد بنفوذ السلطة المركز ية وحزمها، سواء كانت متمثلة في الملك أو الادارة. أما اذا كانا ضعيفين، فتطرأ فوضى كبيرة في سير النظام، وأحيانا ثورات، وذلك ما وقع خاصة بين -٢٢٠٠ و-٢١٠٠ سنة تقر يبا عندما اهتزعرش فرعون واغتصبت أملاك المحظوظين (٦٨). ولقد وقعت أيضا اضطرابات محلية، منها إضراب صناع الممتلك الملكي بدير المدينة سنة ١١٦٥ لأنهم لم يتقاضوا أقساطهم الشهر ية ولا لباسهم.

ان وضع الشخص الاجتماعي لا يستقر نهائيا، اذ يمكن في أي وقت أن يتغير، سواء بارادة الملك أو على إثر أخطاء ترتكب عند ممارسة الوظيفة. ولقد ذكرت النصوص المصر ية في مناسبات متعددة كيف كان الموظف يعزل ثم يرسل لخدمة الأرض (٦٩).

ابتداء من -١٥٨٠ أخذ العسكر يون يحتلون منزلة خاصة في النظام الاجتماعي المصري. وقد أنشأ الفراعنة جيشا محترفا بأتم معنى الكلمة (٧٠) وذلك لطرد الهيكسوس من مصر ولتحقيق سياسة غزواتهم العدوانية نحو النوبة ونحو آسيا الصغرى. وكان العسكر يون يُكافؤون بهبات من قطع أرضية، ومن ضيعات زراعية، يمكن لهم أن يورثوها ورثتهم شر يطة أن يثابر هؤلاء على إحتراف العسكر ية. ولقد تطور ذلك النظام على مر القرون ونشأ عنه في نهاية تاريخ مصر، تكوين «طبقة» عسكر ية.

ان التنظيم الاجتماعي لا يزال غير معروف بالوادي الأعلى من النيل. لقد رأينا في نهاية عهد ما قبل الملوك بأن نظاما اجتماعيا قد استقر على الأقل بالنوبة السفلى، وكان يتألف من أهال مستقر ين ورحل أو أشباه رُحّل، ولكننا لا نعلم اذا كانوا يعيشون عيشة مشتركة أو أنهم متجاورون فقط. ان الوثائق القليلة التي تشير الى التنظيم السياسي الخاص بسكان جنوب الشلال الأول، تفيدنا بتوزع جماعات كثافتها ضعيفة، على طول الوادي، وخضوعها لرؤساء محليين لهم سلطة وراثية (٧١).

---

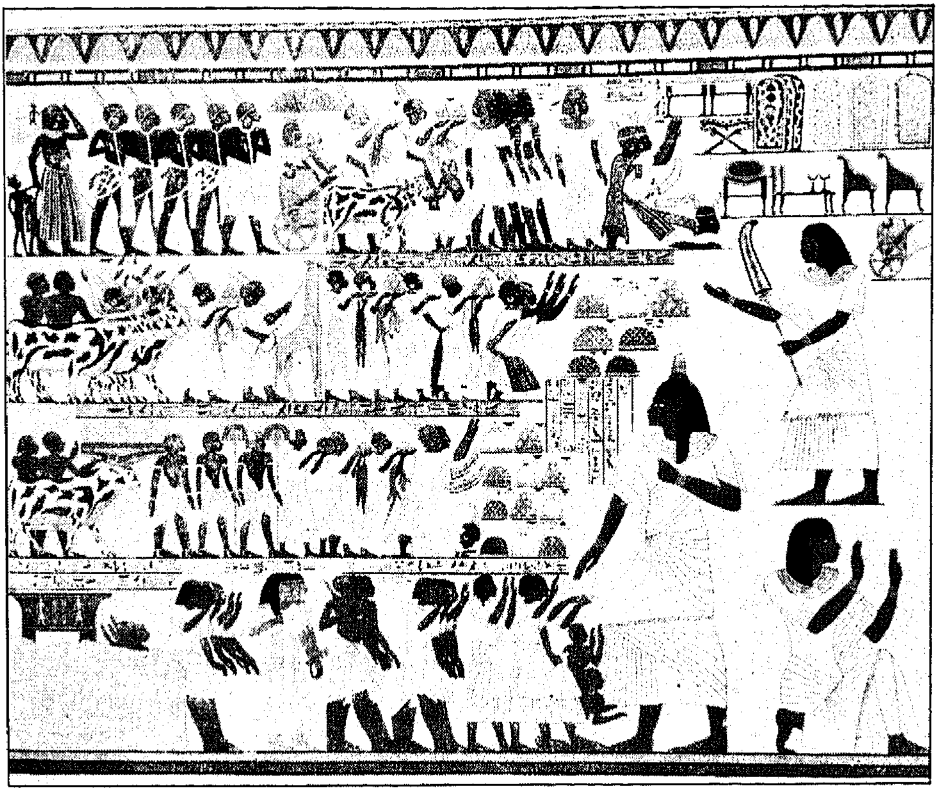
(٦٧) إن أحسن مثال على ذلك هو مثال سينوهي الذي فر الى فلسطين خشية أن يتهم بالمشاركة في مؤامرة بلاطية. وكان عليه أن يطلب من فرعون مصر العفو حتى يتمكن من العودة الى مصر. انظر: ج. لفافر ١٩٤٩ حكاية سينوهي ص ١ — ٢٥. ونجد بصفحة ٤٤ مراجع الترجمات المختلفة — نضيف الى ذلك. و. ك: سمسن طبعة ١٩٧٢، ص ٥٧ — ٧٤.

(٦٨) ج. فنديي، ١٩٦٢ ص ٢١٣ — ٢٢٠ و٢٣٥ — ٢٣٧.

(٦٩) وخاصة في مرسوم نوري حيث يعتبر ذلك عقوبة معتادة. انظر: ف. غر يفيث، ١٩٢٧ ص ٢٠٠ — ٢٠٨.

(٧٠) ر. أ. فولكنر، ١٩٥٣ ص ٤١ — ٤٧.

(٧١) ج. بوسنر، ١٩٤٠ ص ٣٥ — ٣٨ و٤٨ — ٦٢



● قبر حوى (تصوير جمعية التنقيب المصرية).

ان علم الآثار لا يأتينا بمزيد من المعلومات. فلقد ظلت تربية الماشية العامل الاقتصادي الهام بالوادي الأعلى، ولعلها كانت تيسّر المحافظة على البنيات العائلية. والملاحظ أن التدخل المصري كان، ابتداء من ـ ١٥٨٠، قد حوّر بدون شك النظام القائم، بل قضى عليه. فلقد أقفرت مقاطعات جنوب أسوان بسرعة (٧٢) عندما احتلتها مصر. وقد أخذت مصر، بمقتضى سياستها الأسيوية تستغل الى أبعد الحدود الوادي الأعلى الذي كان سكانه يضمحلون، فيفرون على الأرجح نحو الجنوب أو الغرب، الى مناطق يجهلها حاليا علم الآثار.

ولم تتكون مملكة حقيقية منظمة، مستوحاة من النموذج المصري الا حوالي ٧٥٠ قبل الميلاد، وذلك نتيجة لعمل ملوك سودانيين، أصلهم من منطقة دنغولا، فكانت على ما يبدو تمتد من متلقى النيلين بالجنوب، الى الشلال الثاني في بداية الأمر، ثم الى الأبيض المتوسط، مُستوعبة النوبة السفلى من ٧٥٠ الى ٦٥٠ قبل الميلاد (٧٣). ولقد كان النظام القائم على سلطة الأم يلعب في تلك المملكة ــ أو على الأقل بالنسبة للأسرة الحاكمة ــ كان يلعب دورا مهما، الا أن الوثائق قليلة وليس فيها ما ينير سبيلنا في شأن النظام الاجتماعي الذي تسير عليه الجماعات المؤلفة له.

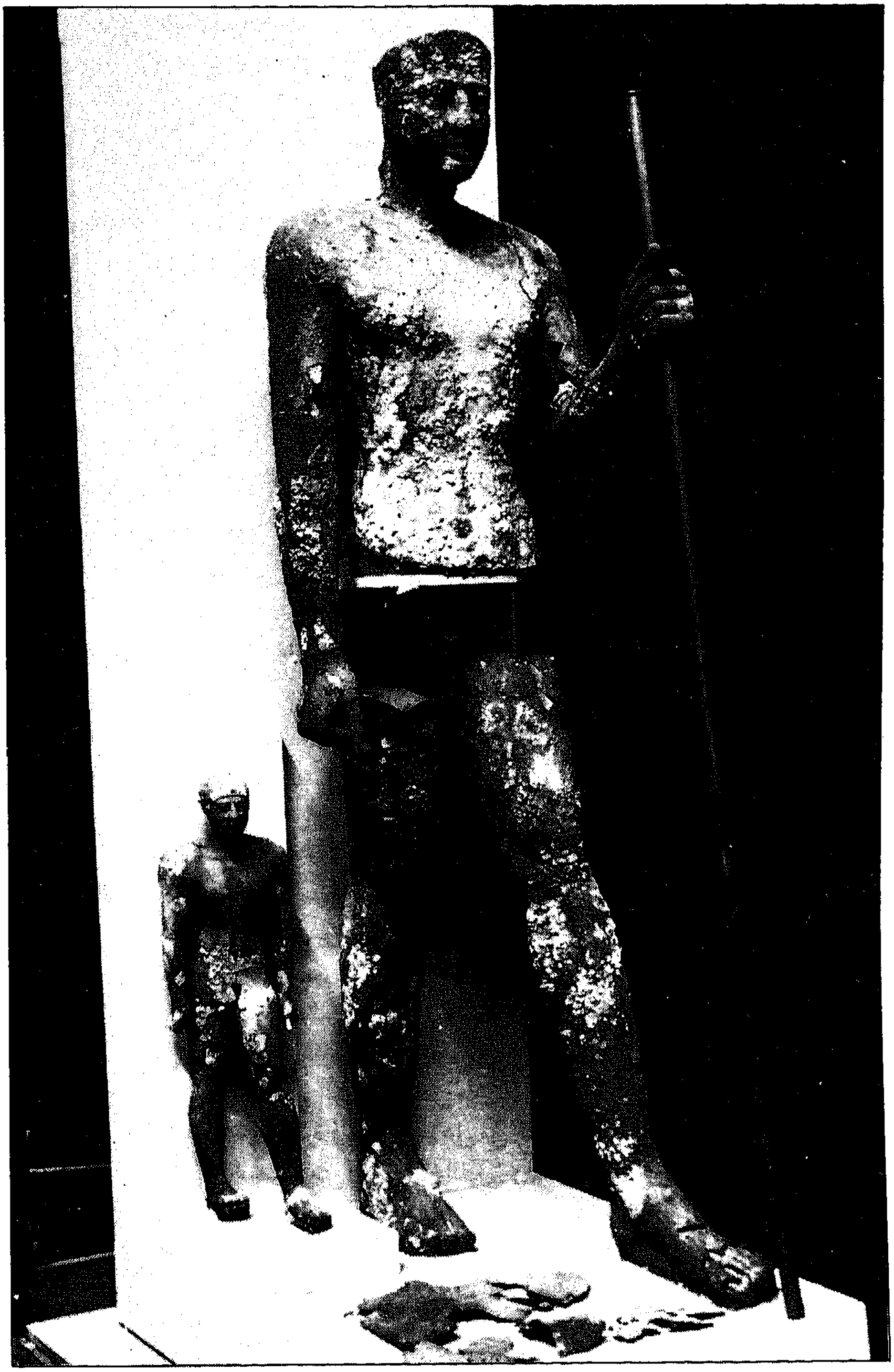
انتشار المعادن

كانت المعادن النفيسة، كالذهب والفضة وكذلك النحاس، معروفة في أوائل العهد التاريخي، وكانت منتشرة جدا في جميع أنحاء وادي النيل. وكانت عدانة تلك المعادن تتطور بعد الألفية الثالثة. وظهر في الألفية الثانية البرونز، وهو مزيج من النحاس والقصدير، ثم ظهر الحديد هنا وهناك ابتداء من ـ ١٥٨٠.

وتوجد بين الشلالين الأول والثالث أغلب مناجم الذهب التي كان يستغلها المصريون والنوبيون (٧٤). ان التنقيب عن مناجم المعادن النفيسة مكّن المصريين من الأمبراطورية الوسطى من بلوغ الشلال الثاني ثم تجاوزه. ولقد لعب الذهب في الامبراطورية الجديدة دورا أساسيا في السياسة الأسيوية المصرية للحصول على الأحلاف محليا. وكان الذهب المستخرج من مناجم مصر والنوبة يحوي دائما نسبة كبيرة من الفضة (٧٥) وكان يميّز بين الذهب الأبيض أو الكهربائي (الحاجي بالمصريّة) الذي يحوي ٢٠٪ من الفضة، والذهب الأصفر (نوب بالمصرية). والجدير بالملاحظة أن كلمة (نوب) هذه ليس من المؤكد أن تكون أصلا لكلمة النوبة. وكان الذهب بمصر يستعمل لأغراض كثيرة، من ذلك الأثاث المأتمي، والحلي، وحتى الهندسة المعمارية، حيث كان يُغطي أطراف المسلات، والأبواب الكبيرة وبعض قاعات المعابد.

وكان الذهب يستعمل بكثرة في الوادي الأعلى من النيل، وإن كان نهب المقابر لم يترك لنا الا نسبة ضئيلة من الأشياء الذهبية، مثل: الحروز، واللآلئ وحلي التزيين، والمساور، والخواتم والأقرطة الأذنية. وكان الأثاث الخشبي يغطّى أحيانا بصفحات ذهبية وذلك في القرن الثامن عشر قبل

(٧٢) و. ي. أدمس، ١٩٦٤ ص ١٠٤ ــ ١٠٩.
(٧٣) هـ. ف. زاسل، ١٩٥٥، ص ١٢ ــ ١٦.
(٧٤) ج. فركوتر، ١٩٥٩، ص ١٢٨ ــ ١٣٣، والخريطة ص ١٢٩.
(٧٥) انظر: أ. لوكا، ١٩٦٢ ص ٢٢٤ ــ ٢٣٤.



● تمثال من النحاس للملك بيبي الأول (الدولة القديمة) ــ متحف القاهرة.

الميلاد. وكان الأثاث المأتمي في القرن الثامن يتميز هو أيضا بثراء ذهبي أو فضي كبير، مثلما هو الشأن في نوري، عند مهبط الشلال الرابع، حيث عُثر على أشياء عديدة رغم النهب القديم (٧٦).

لا يمكن التمييز بين النحاس والبرونز (٧٧) الا باعتماد على التحليل المخبري. ولم يظهر البرونز بوادي النيل الا ابتداء من سنة ٢٠٠٠ تقريبا، بل لابد من انتظار سنة ١٥٠٠ لكي ينتشر انتشارا أوسع، دون أن يحل محل النحاس. ان البرونز – وهو مزيج من النحاس والقصدير – يتميز على النحاس بأنه أكثر صلابة منه، اذا كانت نسبة القصدير غير قوية، و بأنه يصهر في درجة هي أدنى، وأنه أسهل منه في السبك.

ورغم وجود بعض المناجم من القصدير بمصر، فان البرونز لم يكتشف بوادي النيل. ويحتمل أن يكون مجلوبا من سوريا (٧٨) حيث كان معروفا منذ بداية الألفية الثانية. ان نسبة القصدير تتراوح بين ٢ و ١٦ في المائة في الممزوجات المصرية. والبرونز يكون أصلب من النحاس حتى نسبة ٤ في المائة من القصدير، واذا تجاوز ذلك فهو يتكسر و يفقد كثيرا من ميزاته. لذلك لم يعوض أبدا النحاس الذي يتصلب كثيرا بمجرد الطّرق.

لم تتوفر لنا تحليلات تخصّ أشياء نحاسية أو برونزية وجدت بالوادي الأعلى، لا سيما في كرمة التي كان من الممكن أن تفيدنا إذا كان البرونز قد استعمل بالوادي الأعلى، باعتبار أن تاريخها يرجع الى الألفية الثانية. وعلى كل حال فالأشياء النحاسية أو البرونزية كثيرة بها، وهي أكثر مما هو موجود بمصر نفسها. لقد وجد بكرمة ١٣٠ خنجر نحاسي بالنسبة لما بين ١٨٠٠ الى ١٧٠٠ تقريبا أي أكثر مما وفرته مصر كلها، لقد كان النحاس في ذلك العهد يستعمل لصنع أدوات الزينة، وعلى الأخص المرايا، وكذلك الأسلحة والآلات، والأواني، والمجوهرات، والمنقوشات الأثاثية. وكان النحاس يصنع بالطّرق، وقل أن يصنع بالقولبة.

ان الأشياء التي عُثر عليها بكرمة (٧٩) تبين من حيث الكم والكيف أن الوادي الأعلى لعب دورا هاما في نشر عدانة النحاس بافريقيا، منذ الألفية الثانية قبل الميلاد. ان وجود مناجم نحاسية «بالمركب الأساسي» الجيولوجي النيلي قد ساهم كثيرا في ذلك الانتشار الواسع.

لقد ظل وادي النيل طويلا لا يعرف سوى الحديد النيزكي (٨٠)، ولم ينتشر الحديد الا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد بالوادي الأسفل. ولم يمض الا قرن حتى أخذ يستعمل مثلما يستعمل البرونز والنحاس. وكان في ذلك العهد يذاب و يُخْدم بمصر بالمراكز الخاضعة للتأثير اليوناني.

(٧٦) دوس دنهام، ١٩٥٥، في صفحات متعددة.
(٧٧) لوكا، ص ١٩٩ – ٢١٧ و٢١٧ – ٢٢٣.
(٧٨) نفس المرجع ص ٢١٧ – ٢١٨ و٢٥٥ – ٢٥٧.
(٧٩) انظر: ج. أ. رايسنر ١٩٢٣، الفصل ٢٦، ص ١٧٦ – ٢٠٥.
(٨٠) ب. ل شيني، ١٩٧١، ص ٩٢ – ٩٤.

يحتل وادي النيل منزلة كبرى في انتشار الحديد بافريقيا (٨١). ومن المحتمل أن تكون صناعته بالوادي الاعلى من النيل أقدم من صناعته بالوادي الأسفل، وذلك ما يفسر استعماله بكثرة في الأسرة المالكة الخامسة والعشرين التي أصلها من دنغولا (في حوالي ٨٠٠ سنة قبل الميلاد). وبالرغم من توفر معدن الحديد بالوادي الأعلى، والفحم الخشبي الضروري لعدانة الحديد، فان الحديد لم ينتشر انتشارا واسعا الا ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد، على اثر ازدهار الحضارة المرويتية، بين الشلالين الثالث والسادس (٨٢). ان الثقافة النيلية في نبتا قد لعبت بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، دورا هاما في انتشار الحديد بافريقيا، عندما مهدت السبيل لحضارة ميروي. (Méroé)

(٨١) انظر: أ. لوكا، ١٩٦٢ ص ٢٣٥ ــ ٢٤٣.

(٨٢) ان دور ميروي في نشر الحديد بافريقيا ليس أمرا مسلّما به، كما كان يعتقد. انظر: ب. ل. شيني ١٩٧١، ص ٩٤ ــ ٩٥ الذي استشهد أيضاً ب.ك. ترغر، مرو ١٩٦٩، ص ٢٣ ــ ٥٠. يضاف الى ذلك أن ميروي لم تكن الامكانية الوحيدة لانتشار الحديد، اذ من المحتمل ان يكون قد انتشر انطلاقا من افريقيا الشمالية، عبر مسالك الصحراء. انظر: ب. ل شيني ١٩٦٧، ص ١٦٨، مع الإحالة الى س. هوارد، ١٩٦٠ ص ١٣٤ ــ ١٧٨ وكذلك نفس المرجع، ١٩٦٤ ص ٤٩، ٥٠.

من الطبيعة الخام الى انسانية متحررة

بقلم: ج. كي. زيربو

تبين الفصول السابقة بكل وضوح الدور الأساسي الذي لعبته افريقيا في فجر الأزمنة الإنسانية. ان آسيا وافريقيا اللتين توجدان خارج نطاق العالم المتطور تقنياً كانتا تحتلان مكان الصدارة على مسرح التقدم طيلة الـ ١٥٠٠٠ قرنا الأول من تاريخ العالم انطلاقا من القرد الجنوبي الى القرد الانسان. ولقد كانت افريقيا، اعتمادا على معارفنا الحالية، المسرح الأساسي الذي برز فيه الانسان كنوع له الملك في هذه المعمورة، كما كانت منبع المجتمع السياسي. الا أن هذا الدور الممتاز في فترة ما قبل التاريخ حل محله طيلة الحقبة التاريخية من الألفيتين الأخيرتين، «قانون» التطور الذي تميز بالاستغلال والتدهور في دور الادوات.

افريقيا موطن الانسان؟

بالرغم من أننا لم نصل الى يقين مطلق في هذا الشأن لأن التاريخ الانساني المخفي منذ أصول البشرية، ونعني به التأريخ المخبأ في الاعماق، لم يستخرج تماما، ولأن الحفريات مازالت في بدايتها في افريقيا، ولأن حموضة الأراضي تأتي على بقايا الأحفورات، بالرغم من ذلك، ترتّب المكتشفات الجارية الى الآن تلك القارة في مرتبة أحد المواطن الكبرى ان لم تكن الموطن الاساسي لظاهرة البشرية. ان الامر صحيح في مستوى قرد كينيا (قرد فكري بكينيا — ١٢ مليون سنة) الذي يعتبره بعضهم بداية السلالة الانسانية. ولم يكن قرد راما بآسيا الا فرعا منه، قصد الهند انطلاقا من افريقيا. و يستدل على ذلك خاصة بمثال قرد الجنوب أو الانسان القرد (الانسان القرد الافريقي، أو برومنيتوس)، الذي يعتبر بدون منازع البشري الاول، وهو من ذوي الرجلين، استكشف سباسب

افريقيا الشرقية والوسطى. وقد أوحت القوالب القحفية تطورا طرأ على الفصين بالحاجبين وبجدران المخ، مما يشهد بالمستوى العالي الذي بلغته ملكاته الفكرية. ويلي ذلك الزنزنثروبيون، والنوع الذي أطلقت عليه تسمية ممتازة وهو «الانسان الماهر»، وفي ذلك خطوة كبرى الى الأمام في الصعود الى منزلة الانسان.

ويلي ذلك الأرخنثروبيون، اي (القردة الناس وناس الأطلس) الباليونثروبيون أو النيادرتاليون، وفي النهاية نوع الانسان العارف (انسان المنتيتا، بكينيا، وكديش بأثيوبيا) وقد لاحظ مؤلفون كثيرون، منذ العهد الأورغنسي البعيد، ان سماته كانت زنجية، فبقطع النظر عن انتماء العلماء الى النظرية العديدة المراكز أو المفردة المركز، فانهم يعترفون جميعا بوجود كل حلقات السلسلة بافريقيا، والتي تربطنا بأقدم البشريات أو ما قبل الانسانيين، بما في ذلك الانواع التي ظلت في مستوى بداية تكون الانسان، ولم تستطع أن تترقى رقيا تاريخيا يسمح لها ببلوغ الاستقامة ومنزلة آدم، ففي افريقيا فقط مازلنا نجد «الاسلاف» بل بني العمومة المحتملين للانسان. ان قردة افريقيا الكبرى لا سيما الغوريلا والشمبنزي هما أقرب الى الانسان أكثر مما يقرب كل واحد منها الثلاثة من أورانغ أوتنغ بأندنوسيا (١). لأن آسيا باعتبار خطوط العرض السفلي، وافريقيا خاصة باعتبار غوصها المشهود في نصف الكرة الارضية الجنوبي، قد تخلصتا من الاحوال المناخية الصعبة الموجودة بالمناطق الشمالية. ولذلك لم يوجد أثر واحد لأدوات حجرية طيلة المائتي ألف سنة من الكغري لأن أوربا كانت مغطاة بقبعة جمودية، وكانت افريقيا في ذلك الوقت تشتمل على ثلاثة أنواع متعاقبة من الحجارة المنحوتة حسب تقنيات متطورة. والحقيقة أن خطوط العرض الاستوائية كانت تتميز في ذلك الوقت بمناخ «معتدل» صالح للحياة الحيوانية ولاكتمالها. فان أردنا العثور على أسباب ظهور الانسان، لا يسعنا حينئذ الا أن نعتمد الوسط الجغرافي والمناخي. ويمكن بعد ذلك الاعتماد على التكنولوجيا ثم على الوسط الاجتماعي.

التكيف مع الوسط

ان التكيف مع الوسط من أقوى العوامل التي كونت الانسان منذ أصوله الأولى. لقد تكونت السمات المرفولوجية البدنية لسكان افريقيا الى اليوم في ذلك العهد الحيوي من ما قبل التاريخ. لقد كان للأحوال المناخية المدارية أثر على مرودة الجلد. ولونه الأسمر النحاسي أو الأسود، وغناه من حيث الغدد العرقية، والمناخر والشفاه المنفتحة التي يختص بها عدد كبير من الأفارقة، والشعر المتجعد،، والمعقود أو الأحرش. إن اللون القاتم، والشعر الأجعد يحفظان مثلا من الحرارة، يضاف الى ذلك ان الاستقامة التي كانت حاسمة في عملية التكوين البشري (Hominisation) والتي استوجبت أو استدعت اعادة تنظيم عظام الحزام، كانت مربوطة حسب بعض مؤرخي ما قبل التاريخ بتكييف فرضه الوسط الجغرافي للسباسب ذات الأعشاب العالية بالانجاد الافريقية الشرقية: فكان الأمر يستوجب دائما الاستقامة لينظر من أعلاها لمراقبة الفريسة أو للهروب من الحيوانات المعادية.

(١) و. و. هولز، ١٩٧٢ ص ٥.

ولقد فضل علماء آخرون (من أمثال الستر هولز)* الوسط المائي لا لكونه سبب وجود الحياة فحسب بل لأنه كان سببا لظهور البشر أيضا. وعلى هذا الأساس ترى السيدة الين مرغن أن هذه العملية قد حدثت بافريقيا على شواطىء البحيرات الكبرى أو على شواطىء المحيط. فهي تفسر الاستقامة بضرورة ترك الرأس فوق الماء الذي غيص فيه سعيا وراء الهروب من الوحوش الغالبة التي تنفر من الماء. وهي تفسر بواسطة الوسط المائي، بعض الخصائص الانسانية، مثل وجود طبقة دهنية تحت الجلد، والوضع المتقلص للأعضاء الجنسية عند المرأة، والامتداد المقابل الذي يختص به العضو الجنسي عند الرجل، وكذلك تفردنا بالبكاء بالنسبة لجميع المخلوقات ذات الرجلين (٢). لقد تبنت الوراثة تدريجيا هذه التكيفات البيولوجية وجعلتها خصائص قارة. وكذلك فرض التكيف مع الوسط أسلوب الادوات الانسانية الأولى. ولذلك يقول س. غابل بأصل أهلي للأدوات من النوع «القابسي»، لأن أسلوب الصفائح، والمناقش والمكاشط يتكيف مع المادة الخام الممتازة وهي السبج.

الوسط التكنولوجي

ان الوسط التكنولوجي الذي أنشأوه كان العامل الثاني الذي سمح للبشريين من أن يتغلبوا على الطبيعة وأن يتميزوا عليها.

لقد أصبح الانسان عارفا لأنه كان صانعا. ان تحرر يدي الانسان قد خلص العضلات وعظام الفكين والجمجمة من أعمال كثيرة فنشأ عن ذلك تحرر وتزايد القحف الجمجمي حيث تطورت المراكز الحساسة المحركة بالقشرة الجمجمية. يضاف الى ذلك ان اليد جعلت الانسان يجابه العالم الطبيعي. فهي وسيلة يتلقى بها عددا لا نهاية له من البلاغات التي تنظم المخ وتجعله قادرا على الحكم، لا سيما لبلوغ أهداف معينة بوسائل معينة (وذلك مبدأ الهوية والسببية).

فبعد أن هشم ناس ما قبل التاريخ الحجارة تهشيما خشنا وذلك بنحتها نحتا غير منتظم (ثقافة حصاة انسان الأولدوائي)، انتقلوا الى مرحلة أكثر وعيا بالعمل الخلاق. ان وجود أدوات حجرية لها مستويات صنع مختلفة وذلك بمصانع شاسعة مثل المصانع الموجودة قرب كنشاسا يسمح بأن نستخلص أن الأداة المكتملة قد تصورها الانسان منذ المرحلة الأولى وكانت تجسم في شظايا متتالية.

وفي ميدان آخر، مر التقدم في هذا الميدان من النحت بقرع حصاة بأخرى الى النحت باعتماد قارع أقل حدة ومخروط الشكل (مثل مطرقة خشبية أو عظمية الخ) ثم اعتماد القرع غير المباشر (بمقص) وفي النهاية باعتماد الضغط كلما تعلق الأمر بالتهذيبات المتممة للأداة لا سيما فيما يتعلق بالحجارة الصغيرة.

ويشهد التقدم المستمر على سيطرة الانسان في ما قبل التاريخ على الأدوات. فندرك لأول مرة من خلال تغير المادة الخام، واتقان صنع الادوات والاسلحة، التعلق بالنجاعة التي تزداد دقة، وبالتكيف لبلوغ غايات تزداد تعقدا، وذلك عنوان الذكاء بعينه، الذكاء الذي يحرر الانسان من السلوك النمطي الغريزي. ولذلك مر الانسان من ذي الوجهين الى الصناعات ذات الشظايا (بمصر

---

* في المطبوع ورد «Hardy».
(٢) الستر هولز، اختصاصية في علم الأحياء البحري، ذكرتها الين مرغن: ١٩٧٣ ص ٣٣ الى ٥٥.

وليبيا والصحراء) والى الوجوه الأكثر اختصاصا في العهد العطاري (٣) والفورسميثي (٤) والسنغوبائي (٥) والستيلبائي (٦). ثم الى أشكال أكثر جودة بالعصر الحجري الجديد (القابسي، والولطوني، والمغوسي، والألمنتيتي). ولا يمكن أن نرسم بمكان آخر غير افريقيا خطا زمنيا واضحا يمكننا من أن نضبط بأرقام مدققة التنقل من مرحلة الى أخرى اذ يبدو أن مختلف مراحل ما قبل التاريخ المختلفة قد تداخلت وتمازجت وتعايشت مدة عهود طويلة، لأننا نجد في نفس المستوى الطبقي الأرضي ذخائر من العصر الحجري البدائي وأدوات أكثر تطورا (الحجارة المصقولة) وأحيانا أشياء حديدية. ودليل ذلك أن السنغوبائي الذي يبتدئ ببداية العهد الأول للحجارة يمتد الى نهاية العصر الحجري الجديد. ان مجموع تلك التطورات التي تعتمد المبادلات والاستعارات المتعددة، يبرز في شكل موجات من الاختراعات ذات المدى التاريخي الطويل والتي تتمازج أحيانا وتندرج ضمن رسوم متصاعدة عامة تبلغ العهد التاريخي للعصور القديمة، وذلك بعد السيطرة على التقنيات الفلاحية الرعوية واختراع صناعة الفخار. ولقد انتشرت زارعة القمح والشعير والنباتات الكتانية مثل كتان الفيوم، كما انتشرت تربية الحيوانات الأهلية. ولا شك أن منطقتين أساسيتين تعتمدان الانتقاء والاستثمار الزراعيين قد أشعتا اشعاعا واضحا منذ الألفيتين السادسة أو الخامسة، وهما وادي النيل ووادي منعطف النيجر. فلقد اخترعت الذرة البيضاء والدخن الصغير، و بعض أنواع الأرز، والسمسم، والفونيو، وفي الجنوب الإنيام والدا المتميز بورقه وأليافه، والنخيل الزيتي، والكولا تي، ومن المحتمل نوع من القطن. ولقد استفاد وادي النيل فضلا عن ذلك من مكتشفات بلاد الرافدين مثل الأمر (القمح) والشعير، والبصل، والعدس، والجلبان، والبطيخ، والتين، وجاءه من آسيا القصب السكري، وأنواع أخرى من الأرز والموز الذي كان يأتي بدون شك من أثيوبيا. ولقد طورت أثيوبيا، زراعة القهوة تأثرا بالطرق الزراعية التي اخترعها فلاحو وادي النيل، وتدل مواقع نكورو ونهر نجورو بكينيا بدورها على أن زراعة الحبوب كانت متطورة.

ولقد ظلت نباتات عديدة تأهلت في ما قبل التاريخ قائمة وذلك في أشكال محسنة وهي ما انفكت تغذي الى الآن الافريقيين، ونتج عنها نزولهم بمكان معين واستقرارهم به والا لما نشأت حضارة متقدمة. ان العصر الحجري الجديد الذي لا يبدأ بأوربا الا بين ـــ ٣٠٠٠ سنة وـ ٢٠٠٠ سنة، كان قد ابتدأ ثلاثة آلاف سنة قبل ذلك بمصر. ولذلك فان فخار المنتيتا (بكينيا) الذي يعود بدون شك الى الألفية الخامسة، هو عنصر من العناصر التي تسمح بأن نجزم بأن معرفة الخزف قد بلغت الصحراء ومصر انطلاقا من الأراضي العالية من افريقيا الشرقية. ان الفخار، وهو تجديد ثوري، يصاحب تراكم البدائي لرأس المال المتمثل في أنواع الأمتعة التي انتزعتها الصناعة الانسانية من الطبيعة. وتبتدئ مع الطبخ المظاهر الأكثر جودة من الثقافة التي تسمح لنا بأن نضبط الوثبة (من حيث الكيف) التي قام بها الانسان الماهر وكذلك نظامه الغذائي المتكون من الورق، والعروق واللحم المذبوح، وهي تكون بايجاز «اقتصاد الفريسة».

---

(٣) بئر العاطر بالجزائر.
(٤) من فوروسميث بجنوب افريقيا.
(٥) من سنغوباي بالضفة الغربية من بحيرة فكتوريا.
(٦) من ستيل باي بمقاطعة رأس الرجاء.

الديناميكية الاجتماعية

الا أن هذه التغيرات من حيث الكيف، والتي تؤكد وتعزز القابليات الأساسية للانسان، لم تتوفر الا بالاعتماد على التبادلات مع أبناء جنسه وعلى دينامية اجتماعية نقشت صورة الكائن الانساني بقدر ما فعلت النبضات النابعة من أعماق حيويته، ومن تعرجات فصوصه المخيمة أو من مشاعره العميقة. ولقد لعب العامل الاجتماعي دورا أساسيا في مستوى العدوان وذلك بالقضاء قضاء عنيفا على الضعفاء. ولذلك قضى الانسان العارف على النياندرتاليين بعد نوع من حرب عالمية دامت عشرات الألفيات العديدة. ولكن البعد الاجتماعي لعب مع ذلك دورا ايجابيا «فالدراسات المقارنة لقوالب قشر الجمجمات لانسان العصر الحجري القديم وللانسان العارف، تبين فعلا أن الأجزاء القشرية الجمجمية المربوطة بوظائف العمل والكلام، وتنظيم سلوك الشخص ضمن المجموعة، بلغت تطورا هاما لدى الانسان العارف». (٧).

لقد لعبت العلاقات الاجتماعية دورا أساسيا في اكتساب الكلام ابتداء من الاشارات الصوتية الموروثة عن القدماء الحيوانيين الى الاصوات المنطوقة المركبة بطرق مختلفة حسب مقاطع. ان مرحلة الثغثغة التي تعتمد المقاطع الاحادية كانت ترمي الى التسبب، حسب رد فعل مشروط، في حركة أو في فعل، أو في سلوك، أو في الاشارة الى حدث معين قد حدث أو على وشك الحدوث. وبايجاز كان الكلام في الأول يعتمد العلاقة. فبقدر ما كان امتداد الفك يدفع الى الوراء بأعضاء الحلق و ينحدر بنقطة ربط اللسان، كان «مد الهواء المدفوع لا يتجه مباشرة نحو الشفاه كما هو الشأن عند القرد، بل كان يتجاوز سلسلة من الحواجز التي تراقبها المراكز الموجودة بالغلاف الجمجمي» (٨).

وخلاصة الأمر هي أن الكلام عملية جدلية بين علم الاحياء والتقنيات والفكر، ولكن هذا يحصل بواسطة المجموعة. فان لم يكن للانسان شريك يجيبه كالصدى، وان لم يكن له مخاطب، لظل صامتا. ان الكلام يعتبر مكسبا ثمينا جدا حتى اعترف له بالنفوذ على الاشياء في التصورات الراجعة للسحر ولتكّون الاجناس الافريقية. ان الكلام خلاق، والكلام يعتبر أيضا سلاح التقدم. فهوينقل المعارف، والتقاليد «والتراث المسموع». وهو الرصيد المعرفي الذي يعلوبالانسان نهائيا فوق الميكانيكية المغلقة الابدية للغريزة (٩). لقد دل الكلام على بداية السلطة الاجتماعية ونعني بذلك نشأة الزعامة والسلطة.

بروز المجتمعات السياسية

لئن كان الانسان العارف حيوانا سياسيا، فلقد كان كذلك طيلة عهد ما قبل التاريخ ولعله من الصعب أن نضبط أسباب ومراحل تلك العملية حسب العهود التاريخية. ولقد لعبت في هذا المجال تقنيات الانتاج والعلاقات الاجتماعية دورا هاما.

---

(٧) فسيفولود ب. ياكيموف، ١٩٧٢، ص ٢.

(٨) انظر: فكتور بوناك، ١٩٧٢، ص ٦٩.

(٩) ألا تعتبر اللغة التي سمحت للانسان أن يتصور الاشياء المجردة، وأن يدخر المعلومات المكتسبة في تجربة الحياة اليومية وأن يبلغها الى الغير، ألا تعتبر أبدع ما خلقته المقدرة العلمية في المجتمعات الغير العالمة؟ ب. فرهاغن، ١٩٧٤، ص ١٥٤.

التقنيات أولا

ان ما قبل البشر، والبشر المنتسبين الى ما قبل التاريخ الافريقي كانوا منظمين حسب قطعان، وزمر وأفواج، وفرق باعتبار المهام التقنية المحسوسة التي لا يمكن القيام بها الا ضمن المجموعة من أجل البقاء على قيد الحياة أو لبلوغ حياة أفضل.

لقد كان المسكن اطارا جماعيا ظهر منذ الفجر الأول للذكاء الانساني، فهناك دائما مكان للتلاقي، حتى ولو كان مؤقتا، ونقطة مخصصة للاستراحة، وللدفاع وللتموين وكانت النار من حين لآخر تجمع أعضاء الفوج لتقيهم من الحيوانات،والخوف والظلمات المحيطة بهم.ففي وادي أومو (بأثيوبيا) ما زالت بعض الآثار الحجرية المتواضعة، المتراكبة عن قصد، مازالت تصور على الأرض التصميم الخاص «بأكواخ» البشريات الأولى. ثم أخذت هذه المنشآت تتحسن حتى أصبحت قرى نيوليتيكية، تشرف على مواقع ممتازة محفوظة من الفياضانات والهجومات، وتكون على مقربة من عين ماء، مثلا على الجبل المنحدر في تيشيت ــ وألاطا (بمور يتانيا). ولقد كان صيد السمك وصيد الحيوانات بشكل خاص سببين من أسباب توحيد الأهداف، لأن أسلافنا في ما قبل التاريخ لم يكونوا قاردين على قتل الحيوانات التي تفوقهم قوة الا باعتماد تنظيم تتعزز به قوتهم، فكانوا يجتمعون لمطاردة حيوانات كانوا يدفعون بها الى الجبال المنحدرة والى الهوايا التي كان يترصد بها رفاق لهم للقضاء عليها. وكانوا ينصبون قرب عيون الماء التي يكثر بها إلصيد في الفصل الجاف، فخاخا عملاقة كانت تقع فيها الحيوانات. ولكن لا بد بعد ذلك من الاجهاز على الحيوان، وتقطيعه، ونقل أجزائه، وكل ذلك يستلزم نوعا من تقسيم العمل الذي سيتخذ معنى خاصا في العصر الحجري الجديد نظرا للتنوع المتزايد في النشاط. وفعلا لم يكن للشاب من العصر الحجري الأسفل خيار، لأن توجيهه المهني كان آليا اذ أنه لا يهتم الا بجني الثمار، وبالصيد أو صيد السمك. ولقد أصبح الاختبار متنوعا في العصر الحجري الجديد، وذلك ما كان يستوجب توزيعا محكما للإشغال التي أصبحت شيئا فشيئا خاضعة للتخصص بالنسبة للنساء والرجال والفلاحين والرعاة، والاسكافيين وصناع الحجر والخشب والعظم، ثم الحدادين.

العلاقات الاجتماعية

ان هذا التنظيم الجديد والحاجة المتزايدة للادوات أدى الى وجود فائض عن الحاجة وأتاح للبعض أن يتخلص من مهمة المنتجين للثروات ليهتموا بالخدمات. وتنوعت العلاقات الاجتماعية بقدر ما تداخلت الجماعات وتساوت في المرتبة أو أخذ بعضها يتفوق على البعض الاخر في المنزلة. وفي ذلك الوقت تكونت الاجناس واحتلت مكانتها. فكان أقدمها أشباه البوشيمين (خواى ــ سان) والبيغمى ــ (الأقزام) ثم ظهر بعد ذلك الزنجي الطويل القامة (السوداني أو البنتو) ومن ذلك انسان أسلار(وادي تلمسي في بلاد مالي)،فالزنجي الذي انتشر في قارات كثيرة (١٠) أخذ يتميز و يتطور حسب ما يبدو، منتصرا بافريقيا، مسقط رأسه، انطلاقا من الصحراء، لكنه رد على أعقابه مثلما هو

(١٠) انظر: «الجنس الأسود كان يغطي العالم منذ ٣٠.٠٠٠ سنة مضت». في «العلوم والمستقبل»، أكتوبر ١٩٥٤ عدد ٩٢ انظر أيضا موري: تاريخ الشرق ص ١٩.

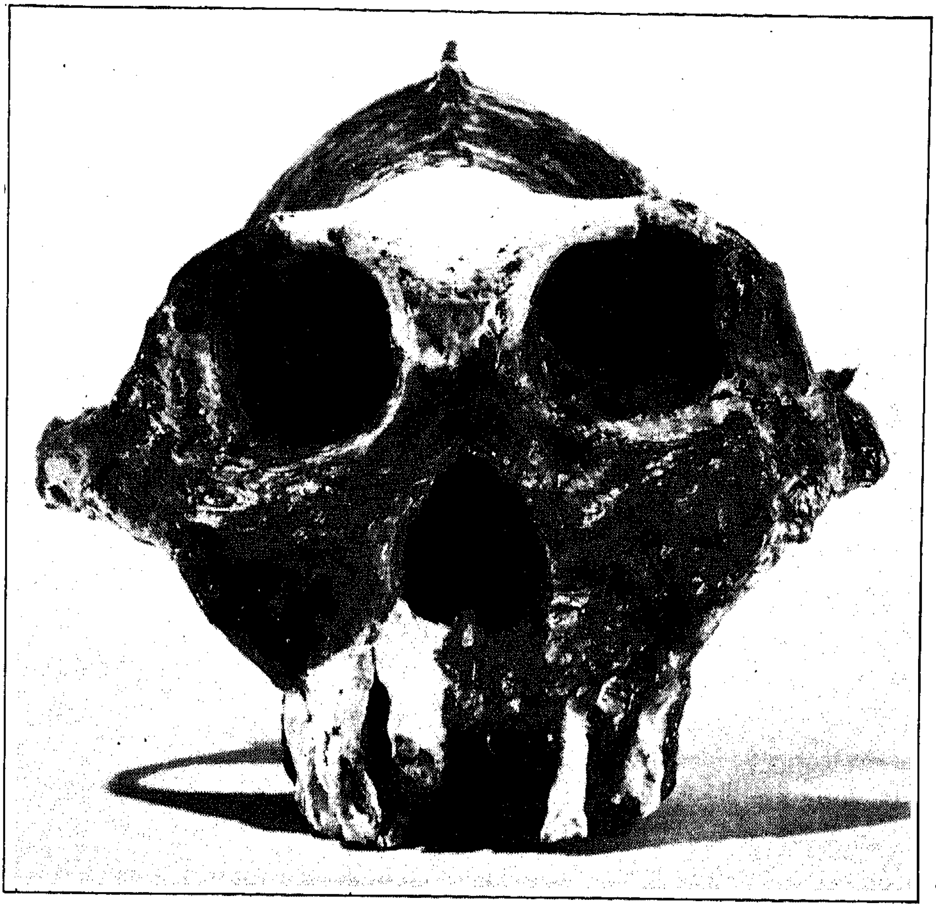
الشأن بآسيا بالمضيق الدرافيدي في دكان، أو حلت محله أجناس تكيفت أحسن منه مع الاحوال المناخية غير المواتية كما في أوربا. وذلك ما حدث أيضا بمناطق افريقيا الشمالية لصالح «أجناس» البحر المتوسط. و يرى فورن أن التماثيل الصغيرة الباقية من الأورنياسي تمثل نموذجا جنسيا شبه زنجي، لأن هذا المؤلف يعتبر أن «الأورنياسيين شبه الزنجيين تواصلوا في حضارة تدعى بالحضارة القابسية» (١١) أما دي مولان دى لبلانت فانه كتب وعندئذ وقعت هجرة أشباه الزنوج من نوع الهوتنتو فاكتسحت شمال افريقيا انطلاقا من افريقيا الجنوبية والوسطى... وفرضت بالقوة حضارة جديدة على أوربا البحر المتوسط. وتلك هي الحضارة الأورنياسية (١٢) ولذلك يجب أن نستنتج من ذلك أن أجناسا هجينة كانت قديما موجودة بتخوم العالم الأسود، وهذا ما يفسر وجود الأهالي ذوي السمات شبه الزنجية غير البارزة، والذين دعوا على عجل «بالجنس الأسمر» ومنهم قبائل الفلانيون والاثيوبيون، والصوماليون، والنيليون الخ. ولقد حدث أيضا ان استعمل تعسفا مصطلح الجنس «الحامي».

وهناك ميدان آخر تبرز فيه بصفة ساطعة مظاهر الحياة الاجتماعية، وهو الفن في ما قبل التاريخ الافريقي المرسوم على جدران والفن التشكيلي. وبما أن افريقيا كانت هي القارة الأكثر أهمية بالنسبة للتطور في ما قبل التاريخ، وكان فيه الأهالي من البشريات والانسانيات الأكثر قدما، والأكثر عددا والأكثر ابداعا، فلا يستغرب أن يكون الفن في ما قبل التاريخ الافريقي أغنى فن بالعالم وأن يكون قد فرض سيطرة تعادل أهمية الموسيقى الزنجية الافريقية بعالمنا الحاضر. ان تلك الآثار يوجد معظمها بجنوب افريقيا وافريقيا الشرقية والصحراء ومصر والهضاب العليا من الاطلس. وبالطبع كان ذلك الفن يعكس التعجب الشخصي أمام الحياة الحيوانية الزاخرة الموجودة حول الملجأ. ان الأمر يتعلق في غالب الأحيان بفن اجتماعي يرتكز على مهام يومية أي «أشغال وأيام» المجموعة، ومجابهاتها للوحوش والعصابات المعادية لها، وما تعانيه من تأثر وفزع وما عرفته من أوقات ترويحية وألعاب، وبايجاز كل ما يتعلق باللحظات الحاسمة في حياتها الجماعية. فلقد كانت سراديب ولوحات جدارية مكتظة وزاخرة بالرسوم تعكس على مرآة الصخور الحياة المتأججة أو الحياة الريفية للعشائر الانسانية الأولى. وكثيرا ما يعكس ذلك الفن الذي يعتمد تقنية صافية، اهتمامات المجموعة وقلقها الروحي. فهو يمثل رقصات افتتان، وزمرا من الصيادين المقنعين، وسحرة في عمل جاد، وسيدات وجوههن مدهونة بلون أبيض (مثلما هو الشأن اليوم بافريقيا السوداء بمناسبة طقوس التنشئة، وهم يتسارعون كأنهم دعوا الى موعد غريب. ونشعر مع مرور الزمن بالانتقال تدريجيا من السحر الى الدين، وذلك ما يؤيد تطور الانسان نحو المجتمع السياسي في ما قبل التاريخ الافريقي اذ يقوم في البداية عدد من الزعماء بدور الرؤساء والكهنة في نفس الوقت.

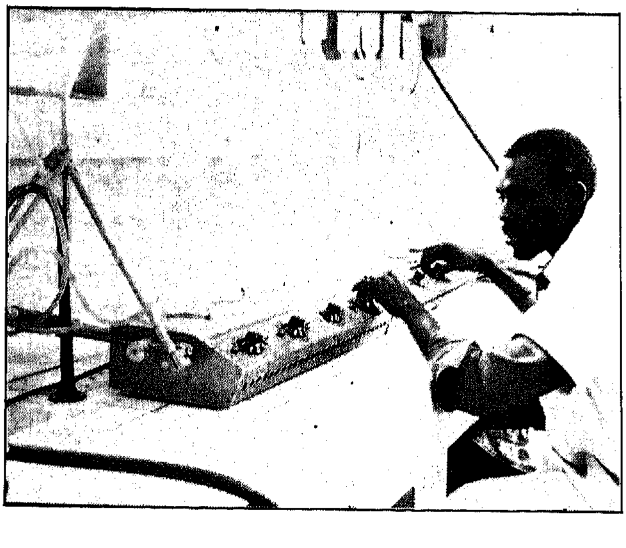
ان نمو القوى المنتجة في العصر الحجري الجديد قد يكون فعلا تسبب في زيادة ديمغرافية نشأ عنها بدورها هجرات مختلفة. والشاهد على ذلك هو الانتشار المشهود الذي طرأ على بعض ((المشاغل)) في ما قبل التاريخ التي تحتوي أدواتها الحجرية على قطع متقاربة الأسلوب. ان مدى الغارات والرحيل النهائي كان يتزايد بقدر ما كانت نجاعة الادوات والأسلحة تتطور لا سيما اذا خف وزنها. فافريقيا

(١١) فورن، ١٩٤٣ ص ١٤ — ١٥.

(١٢) ديمولان دي لبلانت، باريس ١٩٤٧ ص ١٣.



١



٢

● من الطبيعة البكر الى انسانية متحررة.

١) انسان الغابات البدائي الجنوبي مواقع الأومو. مجموعة متحف الانسان. (تصوير أوستر)، رقم ٤٩٤ ١٤٩٥ ٧٧.

٢) مختبر للبحوث الخاصة بتطوير دلتا نهر السنغال، يقوم في روسو بيشيي بالسنغال. (تصوير ب. نانتيه).

قارة كان بنو الانسان قد جابوها طولا وعرضا كما لو أن الآفاق العظيمة لتلك الأرض الكبرى تستهويهم. فالخط الذي تسجله هذه التداخلات المعبرة عن خريطة الأجناس الافريقية والذي يشكل لغزا يحتار أمامه العقل الاكتروني لوعرض عليه، هو نتيجة تلك الحركة الدائبة للشعوب التي لها أصل يعود الى ألفيات عديدة من السنين. و يبدو أن الهجرات الأولى انطلقت من عند قبائل «البانتو» بالشرق والشمال الشرقي لتنتشر نحو الغرب والشمال. و يبدو ابتداء من العصر الحجري الجديد، ان الاتجاه العام كان يعتمد النزول نحو الجنوب كأنه يكره الصحراء العملاقة التي كونت شريطا بيئويا قد امتد نهائيا وسط القارة وتسلط على تلك المنطقة. ان ذلك المد نحو الجنوب والشرق (السودانيون، والبانتو والنيليون الخ) سيستمر طيلة العهد التاريخي الى القرن التاسع عشر الذي كانت فيه الموجات الاخيرة تأتي لتحتضر على سواحل البحر الجنوبي.

ان زعيم القافلة المدجج بالحروز والأسلحة، والقائد للعشيرة نحو التقدم أو الى المغامرة هو الجد الذي سميت باسمه والذي كان يقود خطوات شعبه في مسيرة التاريخ، وهو الذي سيخترق اسمه القرون وتحيط به هالة من التقدير الذي يكاد يصبح من الطقوس. ذلك ان الهجرات كانت ظواهر جماعية وكانت تمثل مواقف لها عناصر ذات معنى اجتماعي عميق.

ان تلك الهجرات الناتجة عن الانتصار أو الخيبة في الوسط الأهلي، ستنتهي الى نتائج غامضة. فهي تنشئ التقدم من جهة لأن موجاتها المتعاقبة والمتلاقية ستضمن شيئا فشيئا الاستيلاء ان لم تكن السيطرة على القارة، وستشجع، اعتمادا على المبادلات التي تتسبب فيها، ستشجع التجديد كنتيجة للأثر المتراكم إلا ان الهجرات في تخفيفها للكثافة السكانية بفضاء لا حدود له، ستمنع المجموعات الانسانية من بلوغ عتبة التجمع التي تفرض على الآلاف المؤلفة من البشر أن تتنافس في ميدان الاختراعات سعيا وراء البقاء على قيد الحياة. ان الذوبان في الوسط الجغرافي يضاعف سيطرة ذلك الوسط ويميل الى ارجاع العشائر الافريقية الأولى الى أصول غامضة كان الانسان يولد فيها ولادة مؤلمة من خلال القشرة المظلمة للعالم الغامض.

الحركة التاريخية

ان لحمة التطور الانساني التي وضعنا باختصار مفرط، معالمها ومراحلها، تبين لنا إنسان ما قبل التاريخ الافريقي وهو يتخلص بعناء من الطبيعة لينغمس شيئا فشيئا في المجتمع الانساني، وذلك في شكل فرق وجماعات أصلية، تتجمع وتتفرق لتتركب في أشكال أخرى، و باعتماد تقنيات ترتكز أكثر فأكثر على أدوات أو أسلحة من حديد، وفي زواجات أو مجابهات تصدح بأول أغاني الحب ومقارعة الأسلحة الأولى في التاريخ. ولذلك فان ما يسترعي الانتباه في هذا التصاعد، هو دوام المجموعات الأصلية المتولدة من ما قبل التاريخ، المنطلقة في المسيرة التاريخية الى أن انتهى بها المطاف في قلب القرن العشرين. فلو جعلنا التاريخ يبتدئ من استعمال الادوات الحديدية، لأمكن لنا أن نقول ان ما قبل التاريخ قد دام في مناطق عديدة افريقية حتى الى حدود سنة ١٠٠٠، بل يوجد في القرن العشرين عدد من الجماعات الافريقية التي لم تكن «زنجية عتيقة» فحسب، بل كانت لها هياكل انتاجية وعلاقات اجتماعية اقتصادية لا تختلف كثيرا عن الهياكل والعلاقات الموجودة في ما قبل التاريخ، باستثناء استعمال الأدوات الحديدية ان تقنيات الاقزام في الصيد قد أعادت، في

قلب القرن العشرين، ومن خلال ألفيات من السنين، نفس تقنيات الأفارقة في ما قبل التاريخ.

وبقطع النظر عن المنزلة الباهرة التي بلغتها الحضارة المصرية، والاعمال البارزة أو المجيدة التي حققتها ممالك وامبرطوريات افريقية، فان ذلك الواقع الضخم يجابهنا بمادته ونسيجه على خط تطور المجتمعات الافريقية ويستدعي منا أن نقف عنده لنضع خاتمتنا.

ما من شك أن «اتجاه التاريخ» ما كان أبدا اتجاها واحدا خضعت له عقول بني الانسان خضوعا اجماعيا. والآراء في هذا الشأن متعددة.

فلقد كان لماركس وتيلار دي شردان آراؤهما. ولقد أنجبت افريقيا مفكرين كان لبعضهم تصورات عميقة تتعلق بدينامية وباتجاه الحركة التاريخية، فلقد خطا القديس أغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) خطوة عملاقة بالرؤية التاريخية وذلك بقطع الصلة مع نظرية الدور والتسلسل التي كانت سائدة في ذلك العهد.

وكان يقول بأنه يوجد، من الخطيئة الأولى الى يوم الحساب، يوجد مسار لا رجعة فيه وضعته قدرة الاله، ويمكن للانسان ان يبلغ فيه النجاة أو الخسران، بحسب ما قدمت يداه من أعمال. ونحن اذ ندرس تاريخ العالم الدنيوي، فلكي نلتمس فيه العلامات المبشرة بالعالم العلوي.

اما ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦)، وان كان يعترف ان الله سلطانا كبيرا على مصير العباد، فهو واضع التاريخ كعلم يعتمد بمجاله على براهين يقرها العقل. «يجب الاعتماد على ميزان حكمنا، لأن كل حقيقة يمكن أن يتصورها العقل». يضاف الى ذلك أن موضوع ذلك العلم بالنسبة اليه ليس الزبد السطحي فحسب من الاحداث، اذ يقول «ما المنفعة من رواية أسماء زوجات ملك قديم، والكتابة المنحوتة على خاتمه؟» فهو يدرس خاصة طرق الانتاج ونماذج العيش. والعلاقات الانسانية، وبايجاز الحضارة (أو العمران البشري). وفي النهاية فهو، سعيا وراء تفسير عملية التطور التاريخي، يضع نظرية جدلية فيقابل بين دور الروح التضامنية الداعية الى المساواة (أو العصبية) وبين استبداد الملك في كل من المناطق البدوية أو الرعوية (العمران البدوي) وفي المدن (العمران الحضري).

وهكذا، فهناك انتقال دائم ومتبادل من سيطرة شكل من أشكال الحضارة الى سيطرة الشكل الآخر، من دون أن يخضع ذلك لتواتر دوري. اذ ينشأ كل مرة في مستوى أعلى يتولد عنه نوع من التطور اللولبي. فابن خلدون عندما قال مؤكدا «بأن الاختلافات في العوائد والحكم لمختلف الشعوب راجعة للطرق التي يستعملها كل منها للاسترزاق» فهو قد عبر بكل وضوح، وبذلك سبق غيره بعدة قرون، عبر عن أحد المبادئ الأساسية التي تقوم عليها المادية التاريخية لكارل ماركس. فهذا الأخير، بعد أن حلل بما هو معهود عنه من دقة ومقدرة على التركيب قانون تطوع العالم الغربي، تعرض لأنماط الانتاج الدخيلة، فانتهى في ١٨٥٩م الى شرح تصوره «لطريقة الانتاج الآسيوي»، وذلك في كتاب «فورمان». ان هذه الطريقة هي احدى الأشكال الثلاثة من المجموعات الفلاحية «الطبيعية» المعتمدة على ملكية الأرض الجماعية. وتختص طريقة الانتاج الآسيوي بوجود مجموعات قروية في القاعدة، وهذه المجموعات خاضعة لهيئة تابعة للدولة تقوم بتحصيل الفائض من انتاج الفلاحين الذين يخضعون لا لعبودية فردية بل لعبودية عامة تستبد بهم كمجموعة. ولذلك كان لأهل الحل والعقد، فضلا عن سلطان الوظيفة العمومية، سلطان آخر يمكن تلك المجموعة العليا من استغلال

المجموعة السفلى، فتستبد الأولى بملكية الأرض (١٣)، وتقوم بتسويق الفائض من الانتاج وتنهض بالمشاريع الكبرى، ولا سيما مشاريع الري للنهوض بالانتاج، وتفرض بايجاز على الجماهير سلطة توصف «بالاستبداد الشرقي». الا أن المعلومات الاثرية والانثروبولوجية المتوفرة منذ ماركس قد بينت أن تطور بعض المجتمعات لا يخضع للمراحل الخمسة التي حددها ماركس في «رأس المال» والتي جعل منها ستالين سنة لا تبديل فيها، ولا يخضع للنوع السائد في ما قبل من «طريقة الانتاج الآسيوية» التي اعتبرها نوعا من أنواع الانتقال الى الدولة، وذلك بالنسبة للمجتمعات الغير الأوربية. ان التحليل الموضوعي للبنيات الافريقية لا يسمح بأن نستخلص جميع الخصائص التي عبر عنها ماركس للعثور على تعاقب مختلف طرق الانتاج.

ففي مرحلة المجموعة البدائية، لا يدل الواقع الافريقي على النزوع الى الملكية، خلافا للأشكال الأوربية (القديمة والجرمانية) التي تتميز بكون الملكية الخاصة تتطور ضمن الملكية الجماعية (١٤) باستثناء هذه الخاصية البارزة، فالمجموعات الأصلية الافريقية تختص بنفس الخصائص الموجودة في ما تبقى من العالم. وتبدو كذلك بوضوح الاختلافات التي تميز البنيات الافريقية عن طريقة الانتاج الآسيوية، فالسلطة العليا، أي الدولة، لا تعتبر هي مالكة الأرض، في المجموعات القروّية الافريقية مثلما لا يعتبر الخواص ملاكا. فالدولة لا تقوم عامة بمشاريع كبرى. أما بنية السلطة نفسها، من حيث كونها بنية فوقية، فهي لا تندرج ضمن التحديد الخاص بطريقة الانتاج، وان كانت تقوم دليلا على تشكل الطبقات. لكن تلك البنية لا تدل في افريقيا على خصائص «الاستبداد الشرقي» الذي وصفه ماركس (١٥). ونحن لا ننكر وجود حالات من الاستبداد القائم على سفح الدماء، ولكن على العموم كانت سلطة الدولة تكتسي دائما بافريقيا شكل نظام ملكي معتدل تحيط به هيئات رسمية وتقاليد تعتبر دستورا بأتم معنى الكلمة، وان كانت غير مكتوبة، وتحيط به أيضا سلطات موروثة في الغالب عن التنظيم أو الطبقية الاجتماعية السابقين. و يصدق ذلك حتى على امبراطوريات مجيد وناجعة مثل امبراطورية مالي،تلك الامبراطوريات التي أعجب بها ابن بطوطة عندما وصفها في القرن الرابع عشر، وكانت تمتد على أقطار شاسعة. فالحكم اللامركزي فيها — وهو اختيار مقصود — قد فسح المجال للمجموعات كي تتمتع على مستوى القاعدة باستقلال ذاتي حقيقي. وعلى كل حال لما كانت الكتابة قليلة الاستعمال على العموم، ولما كانت تقنيات ووسائل النقل قليلة التطور، فان سلطة الامبراطورية المركزية كانت دائما منقوصة نظرا للمسافات التي كانت تتسبب دائما في التهديد الدائم بخروج الرعايا عن طاعة الحكم الاستبدادي.

يضاف الى ذلك أن فائض المجموعات القاعدية بافريقيا كان ضئيلا، الا حينما يوجد احتكار الدولة لموا د نفسية مثل الذهب في غانا أو آشنتي، ومثل العاج والملح الخ... وحتى في هذه الحال يجب الا ننسى الخدمات التي توفرها الزئاسة ومن ذلك المحافظة على الأمن، والعدالة، وتنظيم

---

(١٣) ان المقصود بالوحدة العليا هو «المالك الأعلى» أو «المالك الوحيد». لأن ماركس «يؤكد أحيانا على كون الدولة هي نفسها المالك الحقيقي للأرض، و يلاحظ أحيانا أخرى أهمية حقوق الملكية بالنسبة للمجموعات القروية فلا يوجد بدون شك تعارض بين هاتين الوجهتين» ج. شسنو، ١٩٦٩، ٢٩.

(١٤) «لا توجد ملكية خاصة للارض حسب مفهوم القانون الروماني أو القانون المدني» ج سوري كنال ١٩٦٤ ص ٨.

(١٥) «ان كنا نعني بالاستبداد سلطة مطلقة واعتباطية، فلا يمكن لنا الا أن ننفي وجود معنى الاستبداد الافريقي». ج. سوري كنال، ص ١٢٥، وهو يقول «ونحن نعتقد أنه لا داعي الى البحث في تنظيم الدول الافريقية عن طريقة مستعارة من آسيا، فلا يمكن أن نجد الا بعض الشبه السطحي». المرجع المذكور، ص ١٢٢.

الاسواق الخ، ولا ان نستنقص كون جزء كبير من الرسوم والضرائب كان يوزع في الاحتفالات التقليدية طبقا لقانون الشرف السائد بالنسبة للذين يجب أن يعيشوا عيشة الاشراف (١٦) وذلك ما يفسر الكرم الحاتمي الذي عبر عنه كنكوموسى البهي، امبراطور مالي، اثر حجة الفاخر سنة ١٣٢٤.
أما طريقة الانتاج المعتمدة على استخدام العبيد فهل كانت موجودة بافريقيا؟وهنا نكون ميالين الى الاجابة بالسلب. فالرق، لم يلعب في جميع المجتمعات جنوب الصحراء، الا دورا هامشيا. فالعبيد أو بالأحرى الأسرى كلهم أسرى حرب، فالأسر لا يُخضع الانسان ليصبح ملكا محضا حسب المفهوم الذي حدده كاتون... فالعبد الافريقي كان يتمتع غالبا بنوع من حق الملكية فهو لا يستغل استغلال الآلة أو الحيوان. فأسير الحرب، ان لم يضحي به تضحية طقوسية، مثلما يقع أحيانا، فهو يدمج بسرعة ضمن الأسرة التي يكون ملكا من أملاكها الجماعية. فهو عنصر انساني اضافي يتمتع بعتق شرعي أو واقعي في ظرف قصير. فان استعمل الأسرى مشاة في الجيش، فانهم كثيرا ما يجدون امتيازات هامة في تلك المهنة و يكونون أحيانا ممثلين، مثلما هو الشأن في ناحية كايور داخل الحكومة من خلال شخص القائد. وفي الآشنتي كان يمنع منعا باتا ان يذكر الأصل العبدي للشخص وذلك للمحافظة على الوحدة «القومية». فيمكن لأسير قديم أن يصبح رئيس قرية «فحال الأسر،وان كانت موجودة بكثرة في افريقيا، الا أنها لا تستوجب الدور المعين لها في الانتاج الذي تختص به طبقة اجتماعية» (١٧).

أما في المناطق التي يأخذ فيها الرق أبعادا واسعة وطابعا آخر من حيث الكيف كما هو الشأن في الداهومي، والآشنتي، وزنزيبار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يصبح الأمر يتعلق ببنيات لها صلة بطريقة انتاج غالبة. فما هو شأن طريقة الانتاج الاقطاعية؟ لقد أدى التشبيه المتسرع ببعض المؤلفين الى وصف رئيس القبيلة «بالاقطاعية» (١٨). وهنا أيضا لا يوجد امتلاك، ولا منحة خاصة للارض، وبالتالي فلا يوجد اقطاع. ان الارض متاع جماعي لا يغتصب الى حد أن الفريق الغازي الذي يستولي على السلطة السياسية، كثيرا ما يترك مسؤولية الارض الجماعية الى المتصرف الأهلي، وهو «رئيس الأرض» أي (التنغ سوبا موسي) مثلا، لأن سلطة الارستقراطية كانت «تمارس على الثروات والناس، دون أن تنطبق على ملكية الأرض التي تعتبر من صلاحيات الأهالي» (١٩).
«فالشرف في افريقيا لم يتحول إلى قيمة تجارية، لأنه ظل دائما صفة وراثية لا يمكن لأحد أن يسلب منها صاحبها».

---

(١٦) ان ج. ماكبي، بعد أن لاحظ أن ج بالانديبي يرى أن الثمن الذي وجب على أصحاب السلطة السياسية دفعه لا يدفع كله في نهاية الامر «يتعقد فيما يخصه بأن الخدمات العامة التي يقدمها الرؤساء» لا تستوجب سلطة زجرية مثلما هو الشأن بالمجتمعات الكبرى، الغير المنسقة والحضرية. في غير ذلك يكفي الاعتماد على شكبة الانساب وعقوباتها التي لا تفرض بالقوة». وهو يختم بقوله فباستثناء اعادة التوزيع، يستولي الحكام على فائض المجتمع التقليدي من دون مقابل اقتصادي ج. ماكي. ١٩٧٠، ص ٩٩ — ١٠١.

(١٧) ج. سوري كتال المذكور أعلاه ص ١١٩. انظر أيضا دينغ أ. أ. بسرم C.E.R.M. باريس عدد ١١٤ — ١٩٧٤. وهو نقد عميق وموثق للنظريات الماركسية «المطاطية» التي يقول بها محيموت ديوب.

(١٨) فحتى اذا اعتقدنا مثل ما يعتقد ج. ماكيج، مستشهدا بكلام بلوخ وغنشوف، بأن «المهم في الامر هو العلاقة بين السيد والمسود لا الاقطاع»، يتضح انه لا يمكن ان نفصل الوحد عن الآخر. ان العلاقات «الاقطاعية» التي يصفها المؤلف تبدو من خصائص المجتمعات العائشة بين البحيرات وهي تربط غالبا بين أعضاء الطبقة العليا كما هو الشأن في أنكولي أو في بوحا، فهل هذه الحالة مشابهة للحالة السائدة في أوربا مثلا؟ — انظر ف. كابور، ١٩٦٢، ص ٦٠٩ — ٦٢٣.

(١٩) أنظر ف. كابوري، ١٩٦٢، ص ٦٠٩ — ٦٢٣.

وأخيرا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار البنيات الاجتماعية الاقتصادية مثل النظام العائلي المعتمد على الأم الذي تختص به المجتمعات الافريقية، على الأقل في أول الأمر، وذلك قبل أن تطرأ عليه تأثيرات جاءته من الاسلام ومن الحضارة الاوربية الخ... وفرضت النظام الذي يعتمد الأب. ان تلك البنية الاجتماعية الهامة المعبرة عن دور المرأة الكبير في المجموعة، كانت لها نتائج اقتصادية وسياسية وروحية لأنها كانت تلعب دورا ملحوظا سواء في انتقال الثروات المادية أو في انتقال حق وراثة العرش الملكي، مثلما هو الشأن في مملكة غانا القديمة. فيبدو أن صلة الأمومية آتية من أعماق ما قبل التاريخ الافريقي عندما أبرز الاستقرار الحاصل في العصر الحجري الجديد أهمية دور المرأة في المنزل الى حد ان جعل منها العنصر المركز في النظام الاجتماعي، فنتج عن ذلك عادات متعددة مثل «القرابة على سبيل الفكاهة»، والزواج بالأخت، ودفع المهر لأهل الزوجة المنتظرة الخ.

في هذه الأحوال كيف يمكن أن نصف خط التطور الخاص بالمجتمعات الافريقية التي كيفها ما قبل التاريخ؟ يجب أولا أن نلاحظ ان افريقيا قد لعبت في العلاقات بين القارات دور القطب والقلب المركزي لاختراع التقنيات وانتشارها. الا ان تلك النتائج قد تحولت بسرعة الى حالة من التبعية والهامشية نظرا لعوامل متنافرة داخلية ذكرت سابقا، ونظرا أيضا الى امتصاص ثروات وخدمات افريقيا دون مقابل كاف لصالح تلك القارة، وذلك مثلا في شكل نقل مكافىء من رؤوس الأموال والتقنيات. ان استغلال افريقيا مدة ألفيات عديدة من السنين قد مر بثلاث فترات حاسمة: أولاها حدثت في العهد القديم،بعد انحطاط مصر،اذ ان وادي النيل والمقاطعات الرومانية الباقية من افريقيا الشمالية قد أصبحت نهبا ومخزنا يوفر الحبوب لروما.ان الامبراطورية قد استجلبت فضلا عن المواد الغذائية، عددا كبيرا من الحيوانات الوحشة من افريقيا، ومبارزين، وعبيدا للعمل في الجيش والقصور والمزارع الكبرى وألعاب السيرك الفتاكة. وفي القرن السادس عشر بدأ العهد المظلم لتجارة الرقيق السود. اما القرن التاسع عشر فقد تميزبتركيز التبعية وذلك باحتلال الارض واستعمارها. ان تراكم رأس المال بأوربا ونهضة الثورة الصناعية، وهما ظاهرتان متناظرتان ومتكاملتان، ما كانا لينجحا لولا هذه المساهمة المفروضة على آسيا، والامر يكتين وخاصة افريقيا.

وموازاة لذلك وطيلة قرون من التطور الداخلي الذي لم يتعرض لكثيرمن الاطماع الخارجية (بين العهد القديم والقرن السادس عشر) فقد شكلت التناقضات الداخلية العديدة في النظام الافريقي نفسه عراقيل بنيوية داخلية دون أن ينشأ عنها عن طريق الضغط الداخلي الانتقال الى بنى أكثر تطورا. وذلك ما عبر عنه بعمق ج. سوري كنال في حديثه عن طريقة الانتاج الأسيوية (وهذه الملاحظة صالحة بالاحرى للحالة الافريقية بما في ذلك الفترة الاستعمارية).إن هذا النظام يؤدي الاستغلال الطبقي الى تعزيز البُنى القائمة على الملكية الجماعية للارض عوض أن يقضي عليها: فهي تشكل الاطار الذي يؤخذ منه فائض الانتاج، وذلك هو الاستغلال بعينة. وفعلا فلقد كانت المجموعات القاعدية هي التي توفر دفع الفائض الانتاجي. ان افريقيا بنظامها العشائري وقراها الباقية دائما، لم تكن تميل الى الملكية الخاصة للارض (وهي ثروة مشاعة وثمينة جدا، لكنها مجانية مثل الهواء)، فظلت مدة طويلة لا تشهد هذا الصراع الكبيربين الطبقات الاجتماعية. الا أن ذلك لم

يكن السبب الوحيد للوضعية البائدة التي آلت اليها الاشكال الاجتماعية بافريقيا. فالمستوى الضعيف للتقنيات والقوى المنتجة كان ــ على منوال دائرة مفرغة ــ السبب والنتيجة لتشتت شمل السكان في فضاء لا يمكن التحكم فيه لأنه فسيح جدا.

ونظرا الى الحواجز الطبيعية، لم تتخضم حركة التجارة البعيدة المدى الا قليلا، وكانت تشمل بعض المواد الفاخرة المقصور تداولها على الأسواق الخاصة بالقصور. ونحن لا نأخذ هنا بفكرة بليخانوف الخاصة «بالوسط الجغرافي»، لأن هذا الوسط ان هو الا وجه من وجوه الوسط التاريخي ومع ذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العراقيل المناخية المذكورة في مدخل هذا المجلد: ومما يؤيد هذا القول، أنه كلما رفعت تلك الحواجز الطبيعية كليا أو جزئيا، مثلما هو الشأن بوادي النيل، وعلى مستوى أقل بوادي النيجر، تحررت الدينامية الاجتماعية بفضل النهضة المصاحبة لكثافة السكان وللملكية الخاصة.

وهكذا فلم تشهد افريقيا (السوداء) مرحلة رق ولا مرحلة اقطاعية مثلما هو الشأن بأوربا (٢٠). بل لا يمكن أن نقول ان النظم الافريقية هي وليدة تلك النظم الاقتصادية الاجتماعية، لأنه كثيرا ما تعوزها العناصر المكونة الأساسية. فهل هذا يعني وجوب عزل افريقيا عن قوانين التطور العامة للانسانية جمعاء؟ طبعا، لا. ولكن، حتى وان كانت تلك القوانين مشتركة بين الناس، وان كنا نقر أن الاساسي من المقولات المنهجية العامة للمادية التاريخية صالحة بأن تطبق في كل مكان فلا بد أن نعود الى أمر أساسي وهو التوافقاتُ (الغير الآلية) التي نلحظها قائمة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، وكذلك الانتقال (الغير الآلي) من أشكال المجتمعات دون طبقات، الى أشكال اجتماعية فيها صراع الطبقات. في هذه الحال ينبغي دراسة الواقع الافريقي لا في اطار الرجوع الى كارل ماركس،بل في اطار الاستشهاد بأقواله.فان كان العقل واحدا،فان العلم يفرض أن نكيف التناول العقلي بحسب كل موضوع ندرسه.

وبايجاز نلاحظ في افريقيا الدوام المشهود لطريقة انتاج ذاتي ينتمي الى الأنواع الاخرى من المجموعات «البدائية» لكنه يتميز بفروق أساسية، لا سيما النفور من الملكية الخاصة أو ملكية الدولة (٢١).

ثم وقع الانتقال بالتدرج الى أشكال دولية قد برزت بنفسها منذ مدة طويلة بشبكة العلاقات قبل تكوّن الدول القاعدية، ثم تخلصت تدريجيا بفعل قوة داخلية وضغط خارجي، من عقبة العهد الجماعي البدائي الذي ليس له بنيان، لتنتظم على أساس الملكية الخاصة وعلى جهاز الدولة، اعتمادا على طريقة انتاج رأسمالية، غالبة أولا، ثم احتكارية.

وبالفعل قامت الدولة الاستعمارية كمتصرف في الأسواق التي فتحتها هنا وهناك، الى أن حلت محلها الدولة الرأسمالية المستقلة في نصف القرن العشري،وفرضت طريقة أخرى هي الانتقال من الحالة الغالبة الجماعية الأصلية الى الحالة الغالبة الرأسمالية ثم الى النهج الاشتراكي في التنمية.

(٢٠) يقول ج. شسنو، ١٩٦٩ في ص ٣٦: «والذي يبدو ثابتا.هو الاستحالة المطلقة في اعتبار المجتمعات الافريقية ما قبل الاستعمار، باستثناء البعض القليل منها، مجتمعات رق أو اقطاعية حسب المعنى المتعارف.

(٢١) النفور ليس مربوطا بقانون وراثي خاص، ولا «بطبيعة» مختلفة لكنه مربوط بوسط تاريخي أصيل.

ومهما كانت الحال، يوجد واقع يفرض نفسه في افريقيا وهو أنه، لأسباب بنيوية لم تتبدل في جوهرها منذ خمسمائة سنة على الأقل، ونظرا الى تزايد السكان، يسود افريقيا اليوم ركود القوى الانتاجية، وهو مصحوب أحيانا ببعض النمو المبعثر والمحلي، ولكن بدون تطور. وهذ الركود مصحوب أيضا بتفتح فني خارق للعادة، وبتعزيز العلاقات بين الاشخاص، كما لو أن الأفارقة قد وظفوا فيهما كل طاقاتهم الخلاقة (٢٢). وبالاجمال فان الحضارة المادية المنطلقة من المناطق المدارية الافريقية الآسيوية طيلة ما قبل التاريخ، قد صعدت نحو المناطق الشمالية حتى البرزخ الأوربي حيث استقرت وتلألأت ساطعة لأنها اعتمدت على عملية تراكمية جمعت بين التقنيات، وامتلاك رؤوس الأموال. فهل يأتي تحول هذا النظام الكوني من قلبه الغربي أو من البلدان المحيطة به، فيعيد التاريخ نفسه، متمثلا في دور البرابرة مع الامبراطورية الرومانية؟ ذلك ما سيجيب عنه التاريخ، ويمكن لنا من الآن ان نؤكد ان ما قبل تاريخ افريقيا هو تاريخ انتقال مقدَّم بشري متميز ثم هو تاريخ انسانية الطبيعة بفضل ذلك العنصر المسؤول عن كل تقدم. وهي مسيرة طويلة، أخذ فيها التوازن يختل تدريجيا بين الطبيعة والانسان، لصالح العقل. فبقيت المحافظة على التوازن أو عدم التوازن بين المجموعات الانسانية نفسها ضمن القارة وتجاه الخارج. فبقدر ما تتزايد قوى الانتاج، تشتد الصراعات وتقوّي روح المصلحة وحب السلطة. ان الصراعات التحررية السائدة اليوم في بعض الأقطار الافريقية، تقف صامدة أمام ذلك السعي الى اخضاع القارة ضمن نظام يمكن أن نسميه طريقة الانتاج الافريقية المتخلفة. ولكن القارة الافريقية، منذ أن أخذ الانبسان الماهر يخطو خطواته الأولى المتعثرة، انطلق فيها منذ ذلك العهد الكفاح من أجل التحرر، وتوفرت فيها نفس العزيمة المتعنتة والمندفعة نحو بلوغ مستقبل أفضل، وذلك بالتخلص من الخضوع للطبيعة ثم للانسان.

وباختصار فان الخلق، والخلق الذاتي للانسان الذي ابتدأ بافريقيا منذ آلاف الآلوف من السنين، ما انفك الى يومنا هذا موضوع الساعة.

وبعبارة أخرى، فهذا يعني الى حد ما، أن ما قبل تاريخ افريقيا لم ينته بعد.

---

(٢٢) ولهذا فان تحديد «طريقة الانتاج الافريقية المحتملة»، تستدعي عناية خاصة «بالنظم الاجتماعية، والسياسية، والايديولوجية» بالرجوع الى تحاليل غرمسكي ون. بولنتساس.

أعضاء اللجنة العلمية الدولية
لتحرير تاريخ أفريقيا العام *

الأستاذ ج. ف. أ. أجايي (نيجيريا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

المشرف على المجلد السادس

الأستاذ ف. أ. ألبوكويرك موراو (البرازيل) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩

الأستاذ أ. أدو بواهن (غانا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

المشرف على المجلد السابع

سعادة السيد بوبو هاما (النيجر) — ١٩٧١ — ١٩٧٨

سعادة السيدة موتومبا بول (زامبيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ د. تشانيوا (زمبابوي) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩

الأستاذ ف. كورتن (الولايات المتحدة الأمريكية) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩.

الأستاذ ج. ديفيس (فرنسا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ منويل ديفويلا (أنجولا) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩

الأستاذ هـ. جعيط (تونس) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩

الأستاذ الشيخ أنتا ديوب (السنغال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ ج. د. فاج (المملكة المتحدة) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

سعادة السيد محمد الفاسي (المغرب) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

المشرف على المجلد الثالث

الأستاذ ج. ل. فرانكو (كوبا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

السيد موسى ح. أ. جلال (الصومال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ الدكتور ف. ل. جروتانيللي (ايطاليا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ آيكي هابرلاند (جمهورية ألمانيا الاتحادية) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الدكتور أكليلو هابتي (اثيوبيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

سعادة السيد م. أحمد هامباتي با (مالي) — ١٩٧١ — ١٩٧٨

---

* بالترتيب الهجائي الفرنسي

الدكتور ادريس س. الحراير (ليبيا) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
الدكتور ايفان هربك (تشيكوسلوفاكيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الدكتورة أبيودو جونز (ليبريا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
القس الكسيس كاجامي (رواندا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ أ. م. كيمانبو (تنزانيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ ج. كي زربو (فولتا العليا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
المشرف على المجلد الأول
السيد ديودي لايا (النيجر) — ١٩٧٩
الدكتور أ. لتنيف (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الدكتور جمال مختار (مصر) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
المشرف على المجلد الثاني
الأستاذ ف. موتيبوا (أوغندا) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
الأستاذ د. ت. نيان (السنغال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
المشرف على المجلد الرابع
الأستاذ ل. د. نجكونجو (بوتسوانا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ ت. اوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
الأستاذ ب. أ. أوجوت (كينيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
المشرف على المجلد الخامس
الأستاذ س. رافواجناهاري (مدغشقر) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
السيد ولتر رودني (غيانا) — ١٩٧٩
الأستاذ مكي شبيكة (السودان) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ ي. أ. طالب (سنغافورة) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
الأستاذ أفيلينو تكسيرا دا موتا (البرتغال) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
سيادة المطران ت. تشيبانجو (زائير) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ جان فانسينا (بلجيكا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
صاحب الاحترام الدكتور ايريك ويليامز (ترينيداد وتوباجو) — ١٩٧٦ — ١٩٧٨
الأستاذ ع. مزروى (كينيا)
المشرف على المجلد الثامن (ليس عضوا باللجنة)
أمانة اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقا العام:
السيد موريس جليلي، قسم دراسة الثقافات، اليونسكو،
١ شارع ميوليس، ٧٥٠١٥ باريس

بيانات عن مؤلفي المجلد الأول

مقدمة

ج. كي ـ زيربو (فولتا العليا). أخصائي منهجية تاريخ افريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن أفريقيا السوداء وتاريخها، أستاذ التاريخ بمركز التعليم العالي في واجادوجو، الأمين العام للمجلس الأفريقي الملجاشي للتعليم العالي.

الفصل الأول

ج. د فاج (المملكة المتحدة). أخصائي تاريخ أفريقيا الغربية؛ وضع واشترك في وضع مؤلفات عن تاريخ أفريقيا. نائب رئيس جامعة برمنجهام والمدير السابق لمركز الدراسات الأفريقية بجامعة برمنجهام.

الفصل الثاني

سعادة بوبو هاما (النيجر). أخصائي التراث المنقول؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ النيجر والمنطقة السودانية؛ المدير السابق للمركز الاقليمي للبحوث والتوثيق في مجال التراث المنقول ولتنمية اللغات الأفريقية.

الفصل الثالث

ف. د. كورتن (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي في تاريخ تجارة الرقيق، وضع عدة مؤلفات عن تاريخ تجارة الرقيق، أستاذ التاريخ بجامعة جون هوبكنز.

الفصل الرابع

ت. أوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية). أخصائي اللغات الأفريقة؛ كتب عدة مقالات عن تاريخ أفريقيا ووضع عدة مؤلفات عن أفريقيا في العصور القديمة؛ أستاذ في كلية الآداب بجامعة ماريان انجوابي.

الفصل الخامس

هـ. جعيط (تونس). أخصائي تاريخ العصور الوسطى في المغرب؛ كتب عدة مقالات ووضع عدة مؤلفات عن تاريخ تونس؛ أستاذ بجامعة تونس.

الفصل السادس

أ. هربك (تشيكوسلوفاكيا). أخصائي تاريخ أفريقيا والعرب؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ أفريقيا؛ أستاذ جامعي؛ رئيس قسم البلدان العربية والأفريقية بالمعهد الشرقي في براغ.

الفصل السابع

ج. فانسينا (بلجيكا). أخصائي في تاريخ أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ أفريقيا الاستوائية؛ أستاذ التاريخ بجامعة وسكونسين (الولايات المتحدة الأمريكية).

الفصل الثامن

سعادة أ. هامباتي با (مالي). أخصائي التراث المنقول؛ وضع عدة مؤلفات عن الامبراطوريات الأفريقية القديمة والحضارة الأفريقية.

الفصل التاسع

ز. اسكندر (مصر). أخصائي تاريخ مصر؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن مصر القديمة؛ المدير العام للشؤون الفنية بمصلحة الآثار.

الفصل العاشر

ب. دياني (السنغال). أخصائي في علم اللغات؛ دكتور في العلوم السياسية والاقتصادية؛ وضع مؤلفا عن السلطة السياسية في أفريقيا ومؤلفا في النحو في لغة الولوف؛ مدرس بجامعة داكار.

الفصل الحادي عشر

د. أ. أولدروج (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية). أخصائي العلوم الاجتماعية الأفريقية؛ وضع عدة مؤلفات عن أفريقيا؛ عضو بأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي.

الفصل الثاني عشر

ج. هـ. جرينبرغ (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي في علم اللغات؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن الأنثروبولوجيا وعلم اللغات؛ أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة ستانفورد.

الفصل الثالث عشر

س. دايارا (مالي). أخصائي جغرافيا المناطق المدارية؛ أستاذ الجغرافيا بجامعة أبيدجان.

الفصل الرابع عشر

أ. مابوجونجي (نيجيريا). وضع عدة مؤلفات عن اليوروبا؛ أستاذ الجغرافيا بجامعة ابيادان.

الفصل الخامس عشر

ج. كي ــ زيربو (فولتا العليا).

الفصل السادس عشر

س. رشدي (مصر). فيزيائي؛ رئيس الهيئة المصرية للمساحة الجيولوجية والتعدين.

هـ. فور (فرنسا). دكتور في العلوم؛ جيولوجي متخصص في فرنسا ما وراء البحار؛ وضع مؤلفات عن جيولوجيا افريقيا الغربية؛ عمل مدرسا في جامعة داكار ثم في جامعة باريس

٦؛ رئيس اللجنة الفنية لجيولوجيا العصر الرابع بالمركز القومي للبحث العلمي.

الفصل السابع عشر

ل. بالوت (فرنسا) . اخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقا؛ وضع عدة مؤلفات عن السلام وكتب عدة مقالات عن شمال أفريقيا، مدير سابق للمتحف القومي للتاريخ الطبيعي في باريس.

ى. كوبنز (فرنسا). اخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات عن أصل الجنس البشري، مساعد مدير المتحف القومي للتاريخ الطبيعي في باريس.

الفصل الثامن عشر

ر. ليكي (المملكة المتحدة) أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ وضع مؤلفات عن الحفائر الخاصة بأصل الانسان في أفريقيا الشرقية؛ رئيس معهد لويس ليكي التذكاري الدولي لعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا.

الفصل التاسع عشر

ج. أ. ج. ساتون (المملكة المتحدة). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ رئيس سابق لقسم الآثار بجامعة أكسفورد.

الفصل العشرون

ج. د. كلارك (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا. وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ والحضارات الأفريقية القديمة؛ أستاذ في التاريخ والآثار.

الفصل الحادي والعشرون

ر. دي بايل دي هيرمنس (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات لا سيا عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ قائم باعمال البحث بالمركز القومي للبحث العلمي في باريس.

ف. فان نوتين (بلجيكا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ والآثار؛ وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا الوسطى؛ أمين المتحف الملكي لعصر ما قبل التاريخ والآثار.

الفصل الثاني والعشرون

ل. بالوت (فرنسا).

الفصل الثالث والعشرون

هـ. ج. هوجوت (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ مدرس جامعي؛ وضع عدة مؤلفات عن التاريخ الطبيعي لعصر ما قبل التاريخ والعصر الرابع؛ مساعد مدير المتحف القومي للتاريخ الطبيعي.

الفصل الرابع والعشرون

ث. شو (المملكة المتحدة). أستاذ التاريخ القديم؛ وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل

التاريخ في أفريقيا الغربية ؛ نائب رئيس مؤتمر عموم أفريقيا لعصر ما قبل التاريخ.

الفصل الخامس والعشرون

ف. ديبونو (المملكة المتحدة). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في مصر؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن عصر ما قبل التاريخ في مصر؛ باحث.

الفصل السادس والعشرون

ج. كي زيربو (فولتا العليا).

الفصل السابع والعشرون

ر. بورتير (فرنسا). كرس جزءا كبيرا من حياته للبحوث النباتية في أفريقيا ؛ أستاذ سابق في المتحف القومي للتاريخ الطبيعي ؛ توفي.

ج. بارو (فرنسا). وضع عدة مؤلفات كثيرة عن نباتات المناطق المدارية، نائب مدير مختبر اثنولوجيا النبات واثنولوجيا الحيوان.

الفصل الثامن والعشرون

ج. فيركوتر (فرنسا). أخصائي التاريخ القديم ؛ وضع عدة مؤلفات عن مصر القديمة ؛ أستاذ التاريخ ومدير المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

خاتمة

ج. كي زيربو (فولتا العليا).

قائمة عامة بالمراجع

فحصت البيانات الخاصة بجميع المراجع بأكبر دقة ممكنة، ولكن، نظرا لتعقد المصنّف وطابعه الدولي، ربّما بقيت هناك بعض الأخطاء. (ملاحظة للمحرر).

ADAMS (W.Y.). — 1964. « Post-Pharaonic Nubia in the light of archaeology », *J.E.A.* 50 (٢٨)*.

AGUESSY (M.). — 1972. « Traditions orales et structures de pensée : essai de méthodologie », *C.H.M.* XIV, 2 (١٠) (٧) (٤) (المقدمة العامة)

AITKEN (M.J.). — 1961. *Physics and archaeology*, London, Intersc. Pub. Ltd., X + 181 p. (٩)

— 1963. « Magnetic location », *Science in archaeology*, Londres, Thames and Hudson (٩)

— 1970. « Dating by archaeomagnetic and thermoluminescent methods », *P.T.R.S.*, A 269, n° 1193 (٩)

AKINJOGBIN (I.A.). — 1967. *Dahomey and its neighbours — 1708-1818*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (المقدمة العامة).

ALAGOA (E.J.). — 1968. « The use of oral literacy data for history », *J.A.F.* 81 (٧).

— 1968. « Songs as historical data. Exemples from the Niger delta », *Research review*, V, 1 (٧)

— 1970. « Long distance trade and states in the Niger delta », *J.A.H.* XI, 3 : 319-29 (المقدمة العامة)

— 1971. « The Niger delta states and their neighbours, 1600-1800 », *in* J.F.A. AJAYI and Michael CROWDER (éd.), *History of West Africa*, vol. I, London, Longmans (٣).

— 1973. « Oral tradition and archaeology. The case of Onyoma », *O.M.* 1, 1 (المقدمة العامة) (٤)

* الأرقام العربية الموضوعة بين قوسين في نهاية كل عنوان تدل على الفصل الوارد فيه ذكر المرجع.

العلوي (عيدروس بن الشريف علي العيدروس الناضري العلوي) — ١٣٧٤/١٩٥٤ — ١٩٥٥. بغية الأمل في تاريخ الصومال موقاديشيو (المقدمة العامة) (٥) (٦).

ALBERTI (L.). — 1811. *Description physique et historique des Caffres sur la côte méridionale de l'Afrique*, Amsterdam (٦).

ALEXANDER (Sir J.). — 1967. *Expedition of discovery into the interior of Africa...*, 2e éd., Cape Town (٦).

ALEXANDRE (J.) et ALEXANDRE (S.). — 1968. « Contribution à l'élaboration d'une stratigraphie du Quaternaire, basée sur les variations de climat dans une région du monde intertropical », *VIIe Congrès INQUA*, 7 (٢١).

ALEXANDRE (P.). — 1970. « Afrique centre-équatoriale et centre-occidentale », *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١٠).

ALEKSEIEV (K.). — 1973. « Sur la classification anthropologique de la population indigène de l'Afrique », *les Problèmes fondamentaux des études africaines*, Moscou (١١).

ALIMEN (H.). — 1955. *Préhistoire de l'Afrique*, Paris, Boubée (٢٣).

— 1957. *The prehistory of Africa*, Londres, Hutchinson (٢٤).

— 1960. « Découverte d'un atelier de l'Acheuléen supérieur, en place, à la limite du 2e pluvial et du 3e pluvial dans les monts d'Ougarta (Sahara occidental) », *B.S.P.F.* 57 : 421-3 (٢٣).

— 1962. « Les origines de l'homme », *Bilan de la science*, Paris, Fayard (الخاتمة)

— 1963. « Considérations sur la chronologie du Quaternaire saharien », *B.S.G.F.* 5 : 627-34 (١٣).

— 1966. *Préhistoire de l'Afrique*, réédition, Paris, Boubée, 340 p. (المقدمة العامة) (١٣) (٢١) (٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٨).

— 1975. « Les isthmes hispano-marocain et sicilo-tunisien aux temps acheuléens », *Anthropologie*, 79, 3 : 399-430 (٢٢).

— 1975. « Limite Pliocène-Quaternaire et définition du Quaternaire », *Prace o Plejstocie, Livre jubilaire du Professeur ROXYCKI*, Varsovie (١٦).

— 1976. Variations climatiques dans les zones désertiques de l'Afrique nord-équatoriale durant les quarante derniers millénaires, Actes VIIe P.P.E.Q., pp. 337-347, Addis Abeba (١٦).

ALIMEN (H.) et CHAVAILLON (J.). — 1956. « Industrie acheuléenne in situ de l'oued Fares, dans les monts d'Ougarta (Sahara occidental) », *B.S.P.F* 53-202-14 (٢٣).

ALIMEN (H.), CHAVAILLON (J.) et MARGAT (J.). — 1965. « Contribution à la chronologie préhistorique africaine. Essai de corrélation entre les dépôts quaternaires du bassin Guir-Saoura (Sahara) et du bassin du Tafilalt (Maroc) », *Congr. Préhist. de France*, Monaco, 1959, pp. 161-267, 2 fig. et 1 tableau (١٦).

ALLEN (J.W.T.). — 1959. « The collection of swahili literature and its relation to oral tradition and history », *T.N.R.* 53 (٦).

ALMAGRO-BASCH (M.). — 1946. « Prehistoria del Norte Africa y del Sahara español », Barcelona, *Instit. Estud. afr.*, 302 p. (٢٣).

ALMAGRO-BASCH (M.) et GORBEA (M.A.). — 1968. « Estudios de arte rupestre nubio », *Memorias de la Misión arqueologica en Egypto* 10, Madrid (٢٣).
AMER (M.). — 1933. « The excavations of the egyptian University at Maadi », *B.F.A.* 1 : 322-4 (٢٥).
— 1935. « The excavations in the prehistoric site at Maadi », *B.F.A.* II : 176-8 (٢٥).
— 1953. « Rizkana, I. Excavations in the Wadi Digla », *B.F.A.* XV : 97-100, 201-205 (٢٥).
ANCIAUX DE FAVAUX (A.). — 1955. « Les gisements préhistoriques de Kansenia », *Actes II^e Congr. P.P.E.Q.* : 333-4 (٢١).
— 1957. « Une industrie sur galets spéciale aux plateaux des Biano (Katanga-Congo belge) », *Acts III^rd. P.C.P.Q.S.* : 210-3 (٢١).
— 1962. « Evolution parallèle de deux ou plusieurs techniques au Paléolithique ancien et moyen sur les hauts plateaux katangais. Fouilles 1960-1961 », *Actes VI^e Congr. I.S.P.P.*, III : 230-5. (٢١).
ANDERSON (B.). — 1870. *Narrative of a journey to Mussardu, the capital of the western mandigoes*, New York (٦).
ANTOINE (M.). — 1938. « Notes de préhistoire marocaine. XIV : un cône de résurgence du Paléolithique moyen à Tit-Mekil, près Casablanca », *B.S.P.M.*, 12 (٢٣).
APTER (D.). — 1955. *The Gold Coast in transition*, Princeton, Princeton Univ. Press, X + 355 p. (٣).
ARAB-FAQIH. — 1897-1910. *Histoire de la conquête de l'Abyssinie*, Paris, R. Basset, 2 vol. (٦).
ARAMBOURG (C.). — 1949. « Sur la présence dans le Villafranchien d'Algérie de vestiges éventuels d'industrie humaine », *C.R.A.S.* 229 : 66-7 (٢٢).
— 1954. « L'hominien fossile de Ternifine (Algérie) », *C.R.A.S.* 239 : 293-5 (٢٤).
— 1962. « Etat actuel des recherches sur le Quaternaire en Afrique du Nord », *Actes IV P.P.E.Q.* 40 : 255-77 (١٦).
— 1966. « Aperçu sur les résultats des fouilles du gisement de Ternifine », *Actas V Congr. P.P.E.C.* I : 129-36 (٢٤) (١٦).
ARAMBOURG (C.) et COPPENS (Y.). — 1967. « Sur la découverte dans le Pléistocène inférieur de la vallée de l'Omo (Ethiopie) d'une mandibule d'Australopithécien », *C.R.A.S.* 265 : 589-90 (١٧).
— 1968. « Découverte d'un Australopithécien nouveau dans les gisements de l'Omo (Ethiopie) », *S.A.J.S.*, *64*, 2 : 58-9 (١٧).
ARAMBOURG (C.) et HOFSTETTER (R.). — 1954. « Découverte en Afrique du Nord de restes humains du Paléolithique inférieur », *C.R.A.S.* 239 : 72-4 (٢٤).
— 1955. « Le gisement de Ternifine. Résultats des fouilles de 1955 et découvertes de nouveaux restes d'Anianthropus », *C.R.A.S.* 241 : 431-3 (٢٤).
— 1963. « Le gisement de Ternifine », *I.P.H. Archives* : XXXII, Paris, Masson, 191 p. (٢٢).

ARKELL (A.J.). — 1949. *The Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan*, Cambridge (٢٥).
— 1949. *Early Khartoum. An account of the excavation of an early occupation site carried out by the Sudan Government antiquities service, 1944-1945*, London, Oxford Univ. Press (٢٨) (٢٥) (٢٣)
— 1950. « Gold Coast copies of fifth to seventh century bronze lamps », *Antiquity*, 24 : 38-40 (٢٤).
— 1953. *Shaheinab. An account of the excavation of a Neolithic occupation site carried out for the Sudan antiquities service in 1949*, London, Oxford Univ. Press (٢٨) (٢٥) (٢٣)
— 1954. « The late Acheulean of Esh Shaheinab », *Kush*, I : 30-4 (٢٣).
— 1961. *History of the Sudan*, 2e éd., London, Athlone (٢٨).
— 1964. *Wanyanga and an archaeological reconnaissance of the South-West libyan desert. The british Ennedi expedition, 1957*, London, Oxford Univ. Press (٢٣).
— 1975. « Prehistory of the Nile Valley », *Handbuch das Orientalistik*, VII, Abteilung, Band 2, Abschnitt A. Lief 1, Leiden-Köln (٢٨).

ARKELL (W.J.) et SANDFORD (K.S.). — 1933. *Palaeolithic man and the Nile Valley in Nubia and Upper Egypt*, Chicago (٢٣).

ARMSTRONG (R.). — 1964. « The use of linguistics in ethnogeography », *in* J. VANSINA and al., *The historian in tropical Africa*, Oxford, Oxford Univ. Press (١٠).
— 1971. « The collection of oral traditions in Africa », *A.U.A.* 579-83 (٧).

A.S.E.Q.U.A. — 1964 et années suivantes. *Bulletin* n° 1 et suivants (١٦).
— 1966. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 1re série, *B.I.F.A.N.*, 28 : 371-429 (٢٤).
— 1967. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 2e série, *B.I.F.A.N.*, A, 29 : 821-65 (٢٤).
— 1969. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 3e série, *B.I.F.A.N.*, A, 31 : 210-83 (٢٤).

ATHERTON (J.H.). — 1972. « Excavations at Kamabai and Yagala Rock Shelters, Sierra Leone », *W.A.J.A.* 2 : 39-74 (٢٤).
— 1973. « The Stone Age/Iron Age transition in Northeast Sierra Leone », *Underground West Africa*, 7 (٢٤).

AUBREVILLE (H.). — 1949. « Climats, forêts, désertification de l'Afrique tropicale », Paris, Larose, 351 p. (١٣).
— 1962. « Savanisation tropicale et glaciations quaternaires », *Andansonia*, 2, 1 : 1684 (١٣).

AYACHE (G.). — 1961. « Les archives marocaines », *H.T.* 2 (٦).

BA (A.H.). — 1972. *Aspects de la civilisation africaine*, Paris, Présence africaine (٨).

BA (A.H.) et CARDAIRE (M.). — 1957. *Tierno Bokar, le sage de Bandiagara*, Paris, Présence africaine (٨).

BA (A.H.) et DAGET (J.). — 1962. *L'Empire peul du Macina*. Paris, Mouton (٨).

BA (A.H.) et DIETERLEN (G.). — 1961. *Koumen, texte initiatique des pasteurs peul.* (المقدمة العامة).

BA (O.). — 1972. *Glossaire des mots étrangers passés en Pulaar du Fouta Toro*, Dakar, C.L.A.D. (١٠).

BABET (V.). — 1936. « Note préliminaire sur un atelier de pierres taillées à Brazzaville (Afrique équatoriale française) », *B.S.P.F.* 33 : 153-5 (٢١).

BAILLOUD (A.). — 1966. « L'évolution des styles céramiques en Ennedi », *Actes I^{er} coll. intern. Archéol. Afr.* (المقدمة العامة).

البكري ــ ١٩٦٨. (طرق افريقيا البيضاء والسوداء بالشمال الغربي» (قرطبة ١٠٦٨) انظر مونتايل، ترجمة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) ٣٠، ٣٩ — ١١٦ (٢٤)

BALANDIER (G.). — 1971. *Sociologie actuelle de l'Afrique Noire*, 3e éd. — Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).

BALANDIER (G.) et MAQUET (J.). — 1968. *Dictionnaire des civilisations africaines*, Paris, Hazan (٤) (المقدمة العامة).

BALBI (A.). — 1826. *Atlas ethnographique du globe ou Classification des peuples anciens et modernes d'après leurs langues*, Paris (١٢).

BALL (J.). — 1939. *Contributions to the geography of Egypt*, Survey and Mines Dept., 308 p. (١٦).

BALOUT (L.). — 1952. « Du nouveau à l'Aïn Hanech », *B.S.H.N.A.N.* 43 : 152-9 (٢٢).

— 1952. « Pluviaux, interglaciaires et préhistoire saharienne », *Trav. I.R.S.* 8 : 9-21 (٢٣) (١٦).

— 1955. *in* ARAMBOURG et BALOUT, « L'ancien lac de Tihodaïne et ses gisements préhistoriques », *Actes IIe Congr. P.P.E.Q.* : 287-92 (٢٣).

— 1954. « Les hommes préhistoriques du Maghrèb et du Sahara. Inventaire descriptif et critique », *Libyca*, II (٢٢).

— 1955. *Préhistoire de l'Afrique du Nord*, Paris, A.M.G. (٢٣) (٢٢) (١٢).

— 1958. *Algérie préhistorique*, Paris, A.M.G. (٢٣).

— 1965. « Le Moustérien du Maghreb », *Quaternaria*, 7 : 43-58 (٢٢).

— 1967. « Procédés d'analyse et questions de terminologie dans l'étude des ensembles industriels du Paléolithique inférieur en Afrique du Nord », *Background to evolution in Africa*, Chicago, London, the Univ. of Chicago Press : 701-35 (٢٢).

— 1967. « L'homme préhistorique et la Méditerranée occidentale, *R.O.M.M.* III : 9-29 (٢٢).

— 1968. « L'art rupestre nord-africain et saharien. Etat de quelques problèmes », *Simposio internacional de arte rupestre*, Barcelona : 257-64 (٢٢).

— 1976. *Orientations nouvelles de la préhistoire maghrébine. In memoriam Pedro Bosch Gimpera*, 1891-1974, Mexico, pp. 99-113 (٢٢).

BALOUT (L.) *et al.* — « Fiches typologiques africaines », 9 cahiers publiés depuis 1967 sous l'égide des *Congr. P.P.E.Q.* (٢٢).

BALOUT (L.), BIBERSON (P.) et TIXIER (J.). — 1967. « L'Acheuléen de Ternifine, gisement de l'Atlanthrope », *Anthropologie*, 71 : 217-37 (٢٢).

BALOUT (L.) et ROUBET (C.). — 1970. « Datation radiométrique de l'Homme de l'Aïn Dokkara et de son gisement, l'Escargotière du Chacal, région de Tébessa, Algérie », *Libyca*, 18 : 21-35 (٢٢).

BARBER (E.J.W.). — 1974. *Archaeological decipherment*. A handbook, Princeton, Princeton Univ. Press (٤).

BARBEY (C.) et DESCAMPS (C.). — 1969. « A propos des Pebble-tools de la Moyenne-Gambie », *B.I.F.A.N.*, A, 31 : 276-82 (٢٤).

BARBOT (J.). — 1732. *A description of the coasts of North and South Guinea*, Churchill's voyages, Londres, A. et J. Churchill (١).

BARENDSON (G.W.), DEEVEY (E.S.) et GRALENSKI (L.J.). — 1965. « Yale natural radiocarbon measurements III », *Science* 126 : 916-7 (٢٤).

BARRAU (J.). — 1962. « Les plantes alimentaires de l'Océanie, origines, distribution et usages », *Annales du Musée colonial de Marseille*, 7, III-IX, 275 p. (٢٧).

— 1975. « L'Asie du Sud-Est, berceau cultural ? », *Etudes rurales* : 53-6 (٢٧).

BARROW (J.). — 1801-1803. *Travels into the interior of the Southern Africa*, London, 2 vol. (٦).

BARRY (B.). — 1974. « La chronologie dans la tradition orale du Waalo. Essai d'interprétation », *Afrika Zamani*, 3 : 31-49 (٤).

BASSET (R.). — 1894. *Etudes sur les dialectes berbères*, Paris (١٠).

— 1909-1913. *Mission au Sénégal*, Paris, Leroux, 3 vol. (١٠) (٦).

BATTISTINI (R.). — 1967. *L'Afrique australe et Madagascar*, Paris, P.U.F. 230 p. (١٣).

BAULIN (J.). — 1962. *The Arab role in Africa*, London, Penguin books (٥).

BAUMANN (H.). — 1936. *Geschichte und Urzeit des Menschen in Mythus der Afrikanischen Völker*, Berlin (٧).

BAUMAN (H.) et WESTERMANN (D.). — 1962. *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, Payot (١٠) (٦) (المقدمة العامة)

BAUMGARTEL (E.J.). — 1955. *The culture of prehistoric Egypt*, Oxford (٢٨).

BAYLE DES HERMENS (R. DE). — 1967. « Premier aperçu du Paléolithique inférieur en République centrafricaine », *Anthropologie*, 71 :135-66 (٢١)

— 1969. « Les collections préhistoriques de la République centrafricaine au Musée royal de l'Afrique centrale, *C.M.* VII : 27-40 (٢١).

— 1971. « Quelques aspects de la préhistoire en République centrafricaine », *J.A.H.* XII : 579-97 (٢١).

— 1975. « Recherches préhistoriques en République centrafricaine », Laboratoire d'ethnologie et de sociologie comparative, série *Recherches oubanguiennes* n° 3, Paris, Université de Paris X, 345 p. (٢١).

— 1976. « A la découverte de la préhistoire en République centrafricaine », *Archeologia* n° 92 (٢٦).

BAYLE DES HERMENS (R. DE) et VIDAL (P.). — 1971. « Deux datations sur la méthode du Carbone 14 des monuments mégalithiques de Bouar, R.C.A. », *C.M.* IX : 81-2 (٢١).

BAYNON (J.). — 1970. « The Contribution of linguistics to history in the field of Berber studies », *Language and history of Africa* (١٥) (١٠) (٦)

BEALE (F.C.). — 1966. *The anglo-gambian stone circles expedition 1964/65*, Bathurst, Government Printer (٢٤).
BEATTIE (J.). — 1968. « Aspects of Nioro symbolism », *Africa* 38, 4 : 413-42 (٧).
BEAUCHENE (G. DE). — 1963. « La Préhistoire du Gabon », *Objets et Mondes*, T. III (٢١).
BEBEY (F.). — 1969. *Musique de l'Afrique*, Expressions, Horizons de France, Paris.
BECKER (C.H.). — 1968. « Materialen zur Kenntnis des Islam in Deutsch Ost-Afrika », *I.N.R.* LXVII (٦) (٥) (المقدمة العامة)
BECKINGHAM (C.F.) et HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1954. *Some records of Ethiopia 1593-1646*, London (٦).
BEHRENSMEYER (A.K.). — 1975. « The taphonomy and paleoecology of Plio-Pleistocene vertebrate assemblages east of Lake Rudolf, Kenya », *Bull. Mus. Comp. Zool* (١٧).
BEIDELMAN (Th.). — 1970. « Myth, legend and oral history : A Kaguru traditional text », *Anthropos* 65 : 74-97 (٧).
BEQUAERT (M.). — 1938. « Les fouilles de Jean Colette à Kalina », *A.M.R.C.B.* I, 2 : 29-88 (٢١).
— 1952. « Fouilles à Dinga (Congo Belge) », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 317-53 (٢١).
— 1953. « La préhistoire du Congo Belge et ses relations avec la préhistoire africaine sud-saharienne à l'Holocène », *B.S.R.B.A.P.* LXIV : 37-49 (٢١).
BEQUAERT (M.) et MORTELMANS (G.). — 1955. « Le Tshitolien dans le bassin du Congo », *A.A.R.S.C.* II, 5, 40 p. (٢١).
BERG (F.). — 1968. « The Swahili Community of Mombasa 1500-1900 », *J.A.H.* IX : 35-56 (٦) (٥) (المقدمة العامة)
BERGER (R.). — 1970. « Ancient Egyptian Chronology », *P.T.R.S.* 269, 1193 ; 23-36 (٩).
BERGGREN (W.A.). — 1973. « Correlation and calibration of late Pliocene and Pleistocene marine and continental biostratigraphies », *Acts IX congr. I.N.Q.U.A.* (١٦).
BERQUE (J.). — 1957. *Histoire sociale d'un village égyptien au XX^e^ siècle*, Paris (١٥).
BERTIER (H.). — 1933. « Le cahier de l'écriture de Radama I », *M.A.M.* 36 (٦).
BESANCON (J.). — 1957. *L'Homme et le Nil*, Paris, Gallimard (٢٨).
BIBERSON (P.). — 1961. « Le cadre paléogéographique de la préhistoire du Maroc atlantique », Rabat, *Pub. Serv. Antiq. Maroc*, T. 17, 544 p. (٢٢).
— 1961. « Le paléolithique inférieur du Maroc atlantique », Rabat, *Pub. Serv. Antiq. Maroc*, T. 17 (٢٣).
— 1965. « Recherches sur le Paléolithique inférieur de l'Adrar de Mauritanie », *Actes V^e^ Congr. P.P.E.Q.* : 173-89 (٢٣).
BIEBUYCK (D.) et MATEEME (K.C.). — 1969. *The Mwindo Epic from the Banyanga (Congo Republic)*, Berkeley, Los Angeles (٧).

BIRDSELL (J.B.). — 1972. *Human evolution. An introduction to the new physical anthropology*, Rand McNally and C°, 299 p. (٤).
BIROT (P.). — 1970. *L'Afrique, les régions naturelles du globe*, Paris, Masson (١٣).
BISHOP (W.W.). — 1965. « Quaternary geology and geomorphology in the Albertine rift valley, Uganda », *G.S.A.M.* 84 : 293-321 (٢١).
BISHOP (W.W.) et CLARK (J.D.) (éd.). — 1967. *Background to evolution in Africa*, Chicago Univ. Press., 935 p. (الخاتمة) (٢٤) (٢٣) (٢٢) (١٩) (١٦)
BISHOP (W.W.) et MILLER (J.A.) (éd.). — 1972. « Calibration of hominoïd evolution », *Univ. of Toronto Press* (٢٠) (١٦).
BITTNER (M.). — 1897. *Die topographischen Capital des indischen See-spiegels Mohit*, Vienne (٦).
BIVARD (A.D.H.) et HISKETT (M.). — 1962. « The arabic literature of Nigeria to 1804 : a provisional account », *B.S.A.O.S.* XXV, 1 (٦) (٥) (المقدمة العامة)
BLANKOFF (B.). — 1965. « Quelques découvertes récentes au Gabon », *B.S.P.P.G.* L, 3 : 52-60 (٢١).
— 1966. « L'état des recherches préhistoriques au Gabon », *Actes Iᵉʳ coll. intern. archéol. afr.* : 62-80 (٢١).
BLEEK (D.F.). — 1929. *Comparative vocabularies of the Bushman languages*, University Press, Cambridge (١٠).
BLEEK (W.H.I.). — 1851. *De nominum generibus, linguarum Africae australis, copticae, semitarum, aliarumque sexualium*, Bonn, A. Marcus, IV + 60 p. (١٢).
— 1862-1869. *Comparative grammar of South African languages*, Capetown, Juta, 2 vol. (١٢) (١٠).
BLOCH (M.). — 1939. *La Société féodale. La Formation des liens de dépendance*, vol. 1, 34 et 34 bis de *l'Evolution de l'humanité*, dirigée par H. BERR, Paris (١).
— 1949. *Apologie pour l'Histoire ou le métier d'historien*, Paris, A. Colin (٧).
BLUNDEL (H.W.). — 1923. *The royal chronicles of Abyssinia, 1769-1840*, Londres (٦).
BLUNDEL (H.W.), BOAZ (N.) et HOWELL (F.C.). — 1977. « A gracile hominid cranium from upper member G of the Shungura Formation, Ethiopia », *A.J.P.A.* 46, 1 : 93-108 (١٧).
BOAHEN (A.A.) et WEBSTER (J.B.). — 1970. *The growth of african civilization. West Africa since 1800*, London, Longmans (٨) (المقدمة العامة)
BOBO (J.). — 1956. « Un ensemble de stations moustéro-atériennes aux environs de Djanet (Tassili des Ajjer) », *Libyca*, 4 : 263-8 (٢٣).
BONATTI (E.). — 1966. « North mediterranean climate during the last Würm glaciation », *Nature*, 209, 5027 : 985-7 (١٦).
BOND (G.). — 1956. « A preliminary account of the Pleistocene geology of the plateau Tia Fields region of Northern Nigeria », *Proc. III Intern. W.A.C.* : 187-202.

BONIFAY (E.). — 1975. « Stratigraphie du Quaternaire et âge des gisements préhistoriques de la zone littorale des Alpes-Maritimes », *B.S.P.F.* 72, 7 : 197-206 (١٦).

BONNEFILLE (R.). — 1972. *Associations polliniques actuelles et quaternaires en Ethiopie (vallées de l'Awash et de l'Omo)*, thèse, Paris, 2 tomes (١٦).

— 1974. « Etude palynologique de dépôts plio-pléistocènes d'Ethiopie », *A.S.E.Q.U.A.* B., 42-3 : 21-2 (١٦).

— 1976. « Végétation et climats des temps oldowayens et acheuléens à Melka Kunturé (Ethiopie) », *l'Ethiopie avant l'Histoire*, Cahier 1 : 55-71 (١٧).

BONNEL DE MEZIERES (A.). — 1920. « Recherches sur l'emplacement de Ghana et de Tekrour », *M.A.I.*, 13, 1 : 227-77 (٢٤).

BONNET (A.). — 1961. « La "pebble culture" in situ de l'Idjerane et les terrasses de piémont du Sahara central », *B.S.P.F.* 58 :51-61 (٢٣).

BOSMAN (W.). — 1967. *A new and accurate description of the coast of Guinea*, London, Frank Cass & C° (١).

BOSTON (J.S.). — 1964. « The Hunter in Igala legends of origin », *Africa* 34 : 118-20 (٧).

BOULLE (M.), VALLOIS (H.V.) et VERNEAU (R.). — 1934. *Les Grottes paléolithiques des Bani Ségoual (Algérie)*, Paris, Masson (٢٢).

BOUNAK (V.). — 1972. « Du cri au langage », *Le Courrier*, août-sept. (الخاتمة).

BOUYSSONIE (J.), BREUIL (H.) *et al.*, — 1956. *Musée du Bardo, coll. préhist., planches*, Album n° 1, Paris, A.M.G. (٢٣).

BOVIER-LAPIERRE (P.). — 1925. « Le Paléolithique stratifié des environs du Caire », *Anthropologie*, XXXV : 37-46 (٢٥).

BOXER (C.R.). — 1959. (Dir.) *The tragic history of the sea, 1589-1622*, University Press, Cambridge (٦).

BOYLE (A.H.) et JEFFREYS (W.). — 1947. « Speculative origins of the fulany language », *The language of Africa*. vol. 17 (١٠).

BRADBURY (R.E.). — 1959. « Chronological problems in the study of Benin history », *J.H.S.N.* 1 : 263-87 (٢٤).

BRAHIMI (C.). — 1970. *L'Ibéromaurusien littoral de la région d'Alger*, Paris, A.M.G. (٢٢).

— 1972. *Initiation à la préhistoire de l'Algérie*, Alger (٢٢).

BRAIDWOOD (R.J.). — 1960. « The agricultural revolution », *Scientific America*, september (٢٧).

BRAIDWOOD (R.J.) et REED (C.A.). — 1957. « The achievement and early consequence of food production ; a consideration of the archaeological and natural historical evidence », *Cold spring harbourg symposium on quantitative biology* (٢٧).

BRAIN (C.K.). — 1958. « The Transvaal Ape-Man. Bearing cave deposits, Transvaal museum », *Mémoire* n° 11, Prétoria (٢٠).

BRASIO (A.). — 1952. *Monumenta missionaria africana*, Lisbonne, 9 vol. (٦).

BRAUDEL (F.). — 1969. *Ecrits sur l'histoire*, Paris, Flammarion (المقدمة العامة).

BREASTED (J.H.). — 1906. *Ancient Records of Egypt*, vol. IV, Chicago, University Chicago Press (٢٨).
BREUIL (Abbé H.). — 1931. *L'Afrique*, Cahiers d'art, Paris (٢٤).
— 1944. « Le Paléolithique au Congo Belge d'après les recherches du docteur Cabu ; VI Plateau de Bena Tshitolo » *T.R.S.A.* XXX :143-60 (٢١).
— 1952. « Les figures incisées et ponctuées de la grotte de Kiantapo (Katanga) », *A.M.R.C.B.* : 1-32 (٢١).
BREZILLON (M.). — 1970. *Dictionnaire de la Préhistoire*, Paris, Larousse (الخاتمة).
BROTHWELL (D.) et SHAW (Th.). — 1971. « A late Upper Pleistocen proto-West African negro from Nigeria », *Man*, 6, 2 : 221-7 (٢٤).
BROUTANOH (A.). — 1867. « La tradition orale chez les Agni Ahali de Moronou », *B.I.E.G.T.* (٧).
BROWN (G.). — 1941. *The Economic History of Liberia*, Washington, Associated Publishers, IX + 366 p. (٣).
BROWNE (W.G.). — 1806. *Travels in Africa, Egypt and Syria*, London (٦).
BRUCE (J.). — 1790. *Travels to discover the source of the Nile*. Edimbourg, 5 vol. (٦).
BRUNTON (G.). — 1928. *G. Brunton and G. Caton-Thompson, The Badarian civilization*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
— 1937. *Nostagedda, British Museum expedition to Middle Egypt 1928-1929*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥) .
— 1948. *Matma, British Museum expedition to Middle Egypt 1929-1931*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥) .
BRYANT (A.T.). — 1929. *Olden times in Zululand and Natal*, London (٦).
BUCHA (V.). — 1970. « Evidence for changes in the Earth's magnetic field intensity », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 47-56 (٩).
— 1971. « Archaeomagnetic dating », H.N. MICHAEL and E.K. RALPH (éd.) *Dating techniques for the archaeologist*, Cambridge, Mass. (٩).
BUDA (J.L.), SCHROEDER (R.A.), PROTSCH (R.) et BERGER (R.). — 1974. « Concordance of collagen based radiocarbon and aspartic acid raumization ages », *AATA*, 11, 2 (٩).
BUEDEL (J.). — 1958. « Die Flaeschenbildung in den feuchten Troppen und die Rolls fossier solcher Flaeschen in anderen Klimazonen *A.D.G.*, 89-121 (١٦).
BULCK (G.V.). — 1948. « Les recherches linguistiques au Congo belge », *M.I.R.C.B.* (١٠).
BURKE (K.), DUROTYE (A.B.) et WHITEMAN (A.J.). — 1971. « A dey Phase south of Sahara, 20 000 years ago », *W.A.J.A.* I (٢٤).
BUTLER (J.). — 1966. *Boston University Papers on Africa. Prehistoric Populations in Africa*, Boston (الخاتمة).
BUTZER (K.W.). — 1957. « The last « pluvial » phase of the eurafrican subtropics », *les Changements de climats, recherches sur la zone aride*, Paris, Unesco, 20 : 211-6 (١٣).

— 1958. « Studies zum vor-und-frühgeschichtlichen Landschaftwandel der Sahara », *Akademie des Wissenschaften und der Litteratur*, n° 1, 49 p. (٢٣).
— 1972. *Environment and Archaeology*, 2e éd., Chicago ; (1re éd., 1964, Londres), XXVIII + 703 p. (٢٨)(٢٤)(١٦))
BUTZER (K.W.) et HANSEN (C.L.). — 1968. *Desert river in Nubia*, Madison, Univ. of Wisconsin Press (١٦)
BUTZER (K.W.) et ISAAC (G.L.). — 1975. *After the australopithecines, Stratigraphy, ecology and culture change in the middle pleistocene*, La Haye (١٩).
BUTZER (K.W.), RICHARDSON (J.L.) et WASHBOURKNKAMAU (C.). — 1972. « Radio-carbon dating of East African Lake levels », *Science*, 175 : 1069-76 (٢١)(١٦)
BUTZER (K.W.) et THURBER (D.L.). — 1969. « Some late cenozoic sedimentary formations of the Lower Omo Basin », *Nature*, 222, 5199 : 1132-7.
BYNON (J.). — 1970. « The contribution of linguistics to history in the field of berber studies », D. DALBY (éd.) *Language and history in Africa* (١٥)(١٠)(٦).
CABU (F.). — 1935. « Considérations sur la stratigraphie de gisements pléistocènes à outillage paléolithique de la région de Léopoldville », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 269-84 (٢١).
— 1935. « Les industries préhistoriques de la cuvette centrale congolaise et leurs rapports avec la préhistoire générale », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 399-411 (٢١).
CADENAT (P.). — 1957. « Fouilles à Columnata. Çampagne 1956-57. La nécropole », *Libyca*, V : 49-81 (٢٢).
— 1962. « Sur l'extension de la civilisation capsienne vers l'ouest », *B.S.P.F.*, 59 : 27-32 (٢٢).
— 1970. « Le Columnatien, industrie épipaléolithique de l'Algérie », *B.S.E.R.P.* 20 : 40-50 (٢٢).
CAHEN (D.). — 1975. « Le site archéologique de la Kamoa (région du Shaba, République du Zaïre). De l'Age de la pierre ancien à l'Age du fer », *A.M.R.A.C.* 84 (٢١).
— 1976. « Nouvelles fouilles à la pointe de la Gombe (ex-pointe de Kalina), Kinshasa, Zaïre », *Anthropologie*, 80, 4 : 573-602 (٢١).
— 1977. « Vers une révision de la nomenclature des industries préhistoriques de l'Afrique centrale », *Anthropologie*, 81 (٢١).
CAHEN (D.), HAESAERTS (P.) et NOTEN (F. VAN). — 1972. « Un habitat lupembien à Massango (Burundi). Rapport préliminaire », *Africa-Tervuren*, XVIII : 78-80 (٢١).
CAHAN et NOTEN (F. VAN). — 1970. « Des polissoirs dans la grotte de Mpinga (Burundi) », *Africa-Tervuren*, XVI, I : 13-7 (٢١).
CALEY (E.R.). — 1949. « Validity of the specific gravity method for the determination of the fineness of gold objects », *O.J.S.*, XLIX : 76-92 (٩).

— 1948. « On the application of Chemistry of Archaeology », *O.J.S.* XLVIII : 1-8 (٩).

CAMPBELL (B.G.). — 1965. « The Nomenclature of the Hominidae », *Royal anthropological Institute, Occasional paper n° 22* (٢٤).

CAMPBELL (R.). — 1861. *A pilgrimage to my motherland... among Egba and Yoruba in 1859-60*, Philadelphia (٦).

CAMP-FABRER (H.). — 1966. *Matière et art mobilier dans la préhistoire nord-africaine et saharienne*, Paris, A.M.G. (٢٣) (٢٢).

CAMP-FABRER (H.), BOUCHUD (J.), CHABEUF (M.), CHAMLA (M.C.), COUVERT (M.), DUGHI (R.) et SIRUGUE (F.). — 1975. *Un gisement capsien de faciès sétifien Madjez II, el-Eulma (Algérie)*, Paris, C.N.R.S., 448 p. (٢٢).

CAMPS (G.). — 1969. *Amekni, Néolithique ancien du Hoggar*, Paris, A.M.G. (٢٨) (٢٤) (٢٣) (٢٢)

— 1974. *Les Civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Paris, Doin, 366 p. (٢٨) (٢٢)

CANDOLLE (A.). — 1883. *L'Origine des plantes cultivées*, Paris, F. Alcan (٢٧).

CAPORIAMCO (L. DI) et GRAZIUSI (P.). — 1934. *Le pitture rupestri di Aïn Doua (Auenat)*, Florence, Centro di studi coloniali (٢٣).

CAPOT-REY (R.). — 1953. *Le Sahara français*, Paris, P.U.F. 487 p. (٢٣).

CAPRILLE (Y.P.). — 1972. *Carte des langues du Tchad*, Paris, I.G.N. (١٠).

CARRE (J.M.). — 1932. *Les Voyageurs français en Egypte, 1517-1840*, Paris (٦).

CARSON (P.). — 1962. *Materials for West African history in the archives of Belgium and Holland*, London (٢٤) (٦)

— 1968. *Materials for West African history in french archives*, London, the Athlone Press (٢٤) (٦)

CARTER (G.F.). — 1964. « Archaeological Maize in West Africa : a discussion of Stanton and Willet », *Man*, 64 p. 95 (٢٤).

CARTER (P.L.) et FLIGHT (C.). — 1972. « Report on the fauna from the sites of Ntereso and Kintampo Rock Shelter six in Ghana : with evidence for the practice of animal husbandry during the second millennium B.C. », *Man*, 7, 2 : 227-32 (٢٤).

CASTANHOSO (M.). — 1548. *Historia das cousas que o muy esfrocado Dom Christouao da Gama fez nos Reynos de Preste Joao*, Lisboa (٦).

CATON-THOMPSON (G.). — 1928. *The Badarian civilization*, London (٢٨)

— 1946. « The aterian industry : its place and significance in the Palaeolithic world », *J.R.A.I.*, 44 p. (٢٣).

— 1952. *Kharga oasis in Prehistory*, London, the Athlone Press (٢٥) (٢٣).

CATON-THOMPSON (G.) et GARDNER (E.W.). — 1934. *The desert Fayum*, London, Royal anthropological Institute, 114 p. (٢٨) (٢٥) (٢٤) (٢٣)

CAVAZZI de MONTECUDOLO (G.A.). — 1687. *Istorica descrizione dei tre regni Congo*, Bologne (١).

CELIS (M.). — 1972. *Gepolijst archeologisch stenen materiaal uit de Demokratische Republiek van Zaïre*, thèse, Gand, Université de Gand (٢١).

CENIVAL (J.-L. DE). — 1973. *L'Egypte avant les Pyramides, IVe millénaire, Grand Palais, 29 mai-3 septembre 1973*, Paris, éd. des Musées nationaux (٢٨).

CERULLI (E.). — 1926. « Iscrizioni e documente arabi per la Storia della Somalia », *Rivista degli studi orientali* : 1-24 (٦) (٥) (المقدمة العامة).

— 1957. *Somalia, seritti vari editi e inediti, I*, Roma (٦) (٥) (المقدمة العامة).

CHAMARD (Ph.). — 1969-70. *Le Bassin versant de la Sebkha de Chemchane (Adrar de Mauritanie)*, Dakar, Fac. Lettres-Sc. hum., 205 p. (٢٣).

CHAMLA (M.C.). — 1968. « Les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes : étude des restes humains néolothiques et protohistoriques », *M.C.R.A.P.E.* 9 (٢٤) (٢٢)

— 1970. *Les hommes épipaléolithiques de Columnata (Algérie occidentale)*, Paris, A.M.G. (٢٢).

— 1973. « Etude anthropologique de l'Homme capsien de l'Aïn Dokkara (Algérie orientale) », *Libyca*, XXI : 9-53.

CHAMOT (E.M.) et MASON (C.W.). — 1938. *Handbook of chemical microscopy*, vol. I, 2e éd., New York, Wiley (١).

CHAMPAULT (B.). — 1953. « L'industrie de Tachenghit », *70e Congr. A.F.S.S.*, 126 p. (٢٣).

CHASSELOUP-LAUBAT (F. DE). — 1938. *L'Art rupestre au Hoggar (Haut Mertoutek)*, Paris, Plon, 63 p. (٢٣).

CHAVAILLON (J.). — 1936. « Quaternaire de la vallée du Guir (Sahara nord-occidental) », *C.R. Som. Séances Soc. Géolog. Fr.* (٢٣).

— 1958. « Industrie archaïque du Paléolithique ancien en place, dans les alluvions de l'oued Guir (Sahara nord-occidental) », *B.S.P.F.* 55 : 431-43 (٢٣).

— 1964. *Les Formations quaternaires du Sahara nord-occidental*, Paris, C.N.R.S., 393 p., 32 pl. (٢٣).

— 1973. « Chronologie des niveaux paléolithiques de Melka Konturé (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 276 : 1533-6 (١٧).

CHAVAILLON (J.), BRAHIMI (C.) et COPPENS (Y.). — 1974. « Première découverte d'Hominidé dans l'un des sites acheuléens de Melka Konturé (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 278 : 3299-3202 (١٧).

CHAVAILLON (J.), CHAVAILLON (N.), COPPENS (Y.) et SENUT (B.). — Sous presse. — « Présence d'Hominidé dans le site oldowayen de Gomboré I à Melka Konturé, Ethiopie », *C.R.A.S.*, tome 285, pp. 961-963 (١٧).

CHELU (A.). — 1891. *Le Nil, le Soudan, l'Egypte*, Paris, Chaix (٢٨).

CHESNEAUX (J.). — 1969. *Le Mode de production asiatique*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).

CHEVALIER (A.). — 1938. « Le Sahara, centre d'origine des plantes cultivées », *Société de Biogéographie*, VI : « La vie dans la région désertique nord-tropicale de l'Ancien Monde », Paris : 309-22 (٢٧).

CHILDE (G.). — 1954. *What happened in history ?*, Harmondsworth, Penguin Books Ltd. (٢٧).
CHURCH (R.J.H.). — 1969. *Africa and the Islands*, London, Longmans, 494 p. (١٣).
CISSE (K.) et THILMANS (G.). — 1968. « A propos de la datation des mégalithes sénégambiens », *N.A.* 117 : 13-7 (٢٤).
CISSOKO (S.M.). — 1967. *Histoire de l'Afrique occidentale*, Paris, Présence africaine (المقدمة العامة).
CLARK (G.). — 1969. *World Prehistory*, 2ᵉ éd., Cambridge, Cambridge Univ. Press, XVI + 331 p. (٢٤) (١٩).
CLARK (J.D.). — 1950. *The Stone Age cultures of Northern Rhodesia*, South African Archaeological Society, Le Cap (٢٠).
— 1957. Third Panafrican Congress on Prehistory, Londres, Chatto and Windus (٢٤).
— 1960. *The Prehistory of southern Africa*. Harmondsworth, Penguin Books Ltd. (٢٤) (٢١) (١٩).
— 1962. « Vegetation patterns, climate and sands in North East Angola », *Actes IVᵉ congr. P.P.E.Q.*, 151-66 (٢١).
— 1963. « Ecology and culture in the African Pleistocene », *S.A.J.S.* 59, 7 : 353-66 (٢١).
— 1963. « Prehistoric cultures of northeast Angola and their significance in tropical Africa », *C.D.A.P.C.* 62 (٢١).
— 1964. « The Sangoan culture of Equatoria : the implications of its stone equipment », Instituto de prehistoria y arqueologia, Monographies, Barcelone, 9 : 309-25 (٢٠).
— 1966. « The distribution of prehistoric culture in Angola », *C.D.A.P.C.* 73 (٢١).
— 1967. « The problem of Neolithic culture in sub-Saharan Africa », W.W. BISHOP and J.D. CLARK (éd.) *Background to evolution in Africa*, Chicago, Chicago Univ. Press, 601-28 (٢٤).
— 1967. *Atlas of African prehistory*, Chicago, Chicago Univ. Press (١٩) (٢٤).
— 1968. « Review of Oliver Davies's — The Quaternary in the Coastlands of Guinea », *W.A.A.N.* 13, 9 : 37-40 (٢٤).
— 1968. « Further palaeo-anthropological studies in Northern Lunda », *C.D.A.P.C.* 78 (٢١).
— 1969-74. *Kalambo Falls prehistoric site*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 3 vol. (٢١) (٢٠) (١٩).
— 1970. « The prehistoric origins of african cultures », *in* J.D. FAGE and R.A. OLIVER, *Papers in african prehistory*, Cambridge (٢١).
— 1970. « The spread of food production in sub-saharan Africa », *in* J.D. FAGE and R.A. OLIVER, *Papers in african prehistory*, Cambridge (٢٧).
— 1970. *The Prehistory of Africa*, Londres, Thames & Hudson (٢٠) (١٩) (١٤) (٢٤).
— 1971. « Human behavioural differences in Southern Africa during the later Pleistocene », *American Anthropologist*, vol. 73, pp. 1211-1236 (٢٠).

— 1971. « Problems of archaeological nomenclature and definition in the Congo Basin », *S.A.A.B.* XXVI : 67-78 (٢٤).
CLARK (J.D.) et HAYNES (C.V.). — 1969. « An elephant butchery site at Mwanganda's village, Karonga, Malawi and its relevance for Palaeolithic archaeology », *W.A.* 1, 3 : 390-411 (٢٠).
CLARK (J.D.), MAWBY (J.E.) et GAUTIER (A.). — 1970. « Interim report on palaeoanthropological investigations in the Lake Malawi Rift », *Quaternaria*, XIII :.305-54 (٢٠).
CLARK (J.D.) et Le GROS (W.E.). — 1967. « Man-Apes or Ape-Men ? The story of discoveries in Africa », New-York (٢٠).
CLARK (J.D.) et ZINDEREN BAKKER (E. M. VAN). — 1962. « Pleistocene climates and cultures in North-Eastern Angola », *Nature*, 196, 4855 : 639-42 (٢١).
— 1964. « Prehistoric cultures and Pleistocene vegetation at the Kalambo Falls, Northern Rhodesia », *Nature*, 201, 4923 : 971-5 (٢١).
CLARKE (J.). — 1848. *Specimens of dialects : Short vocabulary of languages and notes of countries and customs in Africa*, Berwick-on-Tweed, D. Cameron, 104 p. (١٢).
CLARK-HOWELL (P.), KLEINDIENST (M.R.) et KELLER (C.M.). — « Isimila, Preliminary report », *Proc. 4th P.C.P.Q.S.* (١٩).
CLIMAP. — 1974. *Mapping the atmospheric and oceanic circulations and other climatic parameters at the time of the last glacial maximum about 17 000 years ago.* Climatic research Unit, School of environmental sciences, University of East Anglia, Norwich, 123 p. (١٦).
C.N.R.S. (éd.). — 1974. « Les méthodes quantitatives d'étude des variations du climat au cours du Pléistocène », *Colloque international du C.N.R.S.* n° 219, 317 p. (١٦).
COCKERELL (T.A.D.). — 1907. « A fossil tse-tse fly in Colorado », *Nature*, 76-414 (١٤).
— 1909. « An other fossil tse-tse fly », *Nature*, 80, 128 (١٤).
— 1919. « New species of North American fossil beetles, Cockroaches and tse-tse flies », *Proc. NS. St. Nat. Mus.* 54 : 301-11 (١٤)
COETZE (J.A.) et ZINDEREN-BAKKER (E. M. VAN). — 1970. « Palaeoecological problems of the Quaternary of Africa », *S.A.J.S.* 66 : 78-84 (٢١).
COHEN (D.W.). — 1972. *The historical tradition of Busoga. Mukama and Kintu*, Oxford, the Clarendon Press. X + 218 p. (٣).
COHEN (M.). — 1958. *La Grande Invention de l'écriture et son évolution*, Paris (١٠).
— 1947. *Essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du Chamitosémitique*, Paris, H. Champion XI + 248 p. (١٢)(١٠).
COLE (D.T.). — 1971. « The history of African linguistics to 1945 », *in Linguistics in Subsaharan Africa*, vol. VII de *Current trend in linguistics*, dir. T.A. SEBEOK, Paris — La Haye, Mouton (١٢)
COLE (G.H.). — 1967. « Nsongezi. Summary account », W.W. BISHOP and J.D. CLARK, *Background to evolution in Africa*, 481-528 (١١).

COLE (S.). — 1964. *The prehistory of East Africa*, New York-London (١٩).
COLEMAN (J.S.). — 1958. *Nigeria. Background to Nationalism*, Berkeley, California Univ. Press., XIV + 510 p. (٣).
COLES (J.M.) et HIGGS (E.S.). — 1969. *The archaeology of early man*, London (١٩).
COLETTE (J.R.F.). — 1931. « Industries paléolithiques du Congo belge », *Actes XV Congr. I.A.A.P.*, 285-92 (٢١).
— 1935. « Complexe et convergences en préhistoire », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 49-192 (٢١).
COMMONWEALTH ARTS FESTIVAL. — 1965. *Treasures from the Commonwealth*, Commemorative Catalogue, Londres (٢٤).
CONNAH (G.). — 1967. « Progress report on archaeological work in Bornu. Northern history research scheme, second interim report », Zaria (٢٤).
— 1969. « Settlement mounds of the Firki — The reconstruction of a lost society », *Ibadan*, 26 : 48-62 (٢٤)
— 1971. « Recent contributions to Bornu chronology », *W.A.J.A.* I : 55-60 (٢٤).
— 1972. « Archaeology in Benin », *J.A.H.* 13, 1 : 25-38 (٢٤).
COOK (R.M.). — 1963. « Archaeomagnetism », D. BROTHWELL and E. HIGGS (éd.), *Science in archaeology*, London, Thames and Hudson (٩).
COOKE (C.K.). — 1969. « A re-examination of the "Middle Stone Age" industries of Rhodesia », *Arnoldia*, 17 (٤).
— 1971. « Excavation in Zombepata Cave, Sipolilo District, Mashonaland, Rhodesia », *S.A.A.B.* XXVI : 104-27 (٢٠).
COOKE (H.B.S.). — 1958. « Observations relating to Quaternary environments in east and southern Africa », *T.G.S.S.A.*, Annexe au vol. 61 (١٦) (٢١).
— 1963. « Pleistocene mammal faunas of Africa with particular reference to southern Africa », *in* F.C. HOWELL and F. BOURLIERE (éd.), *African Ecology and Human evolution*, 65-116 (٢٠).
— 1965. « Tentative correlation of Major Pleistocene deposits in Africa, *The origin of Man, Wenner-Green symposium*, Chicago (٢٤).
— 1972. « Pleistocene chronology : long or short », *Maritimes sediments*, 8, 1 : 1-12 (١٦).
COONS (C.S.). — 1968. *Yengema cave report*, Philadelphia, Univ. of Pensylvania, p. V + 77 + 35 pl. (٢٤).
COPANS (J.) et GODELIER (M.). — 1971. *L'Anthropologie, science des sociétés primitives ?*, Paris, Denoël (المقدمة العامة).
COPPENS (Y.). — 1960. « Les cultures protohistoriques et historiques du Djourab », *Actes 1er coll. intern. archéol. afr.* (المقدمة العامة).
— 1961. « Découverte d'un Australopithéciné dans le Villafranchien du Tchad », *C.R.A.S.* 252 : 3851-2. (٢٤) (٢٣).
— 1962. « Découverte d'un Australopithéciné dans le Villafranchien du Tchad », *Colloques internationaux du C.N.R.S.* 104 : 455-9 (٢٣).
— 1965. « L'Hominien du Tchad », *C.R.A.S.* 260 : 2869-71 (٢٤).

— 1965. « L'Hominien du Tchad », *Actes V Congr. P.P.E.C.*, I : 329-30 (٢٤).
— 1966. « Le Tchadanthropus », *Antropologia*, 70 : 5-16.
— 1966. « Le gisement des vertébrés quaternaires de l'Ouest africain », *B.I.F.A.N.* A, 27 : 373-81 (٢٤).
— 1970. « Localisation dans le temps et dans l'espace des restes d'Hominidés des formations plio-pléistocènes de l'Omo (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 271 : 1968-71 (١٧).
— 1970. « Les restes d'Hominidés des séries inférieures et moyennes des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.*, 271 : 2286-9 (١٧).
— 1971. « Les restes d'Hominidés des séries supérieures des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 272 : 36-9 (١٧).
— 1972. « Tentative de zonation du Pliocène et du Pléistocène d'Afrique par les grands Mammifères », *C.R.A.S.* 274 : 181-4 (١٧).
— 1973. « Les restes d'Hominidés des séries inférieures et moyennes des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie (récoltes 1970, 1971 et 1972) », *C.R.A.S.* 276 : 1823-6 (١٧).
— 1973. « Les restes d'Hominidés des séries supérieures des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie (récoltes 1970, 1971 et 1972) », *C.R.A.S.* 276 : 1981-4 (١٧).
— 1975. « Evolution des Mammifères, de leurs fréquences et de leurs associations au cours du Plio-Pléistocène dans la basse vallée de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 281 : 1571-4 (١٧).
— 1975. « Evolution des Hominidés et de leur environnement au cours du Plio-Pléistocène dans la basse vallée de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 281 : 1693-6 (١٧).

COPPENS (Y.), HOWELL (F.C.), ISAAC (G. Ll.) et LEAKEY (R.E.F.). — 1976. *Earliest man and environments in the Lake Rudolf basin*, Univ. of Chicago Press, 615 + XXII p. (١٦) (١٨) (١٧).

CORBEIL (R.). — 1951. « Les récentes découvertes au Cap-Vert concernant le Paléolithique », *B.I.F.A.N.* B, 13 : 384-437 (٢٤).
— 1951. « Mise en évidence d'industries lithiques anciennes dans l'extrême ouest sénégalais », *C.R. Conf. Intern. Africanistes Ouest* I, 2 : 387-90 (٢٤).

CORBEIL (R.), MAUNY (R.) et CHARBONNIER (J.). — 1948. « Préhistoire et protohistoire de la presqu'île du Cap Vert et de l'extrême ouest sénégalais », *B.I.F.A.N.* B, 10 : 378-460 (٢٤).

CORNEVIN (R.). — 1962. *Histoire de l'Afrique*, Paris (٥).

COUPEZ (A.) et KAMAZI (T.). — 1970. *Littérature de cour au Rwanda*, Oxford (٧).

COURSEY (D.G.). — 1967. *Yams*, London, Longmans-Green, XIV + 230 p. (٢٤).
— 1972. « The origins and domestication of yams in Africa », *Proc. Burg. Wart. Symp. 56* (٢٤).

COURSEY (D.G.) et ALEXANDER (J.). — 1968. « African agricultural patterns and the Sickle Cell », *Science*, 160 : 1474-5 (٢٤) .
COURTOIS (Ch.). — 1955. *Les Vandales et l'Afrique*, Paris (٥)
CREACH (P.). — 1951. « Sur quelques nouveaux sites et quelques nouvelles industries préhistoriques d'Afrique occidentale française », *C.R. Conf. Intern. Africanistes Ouest I*, 2 : 397-430 (٢٤) ,
CREACH (D.A.). — 1970. « A tale type index for Africa » *Research in Africa, Literatures*, Austin, I, 1 : 50-3 (٧).
CREACH (S.A.). — 1852. *A vocabulary of the Yoruba Language*, London, Seeleys, V + 38, 219 p. (١٢)
— 1855. « Journal of an expedition up the Niger and Tshadda rivers », London (٦).
CUGOANO (O.). — 1787. *Thoughts and sentiments on the wicked traffic of the slavery*, Londres (٦) .
CUNY (A.). — 1946. *Invitation à l'étude comparative des langues indo-européennes et des langues chamito-sémitiques*, Bordeaux (١٠) .
CUOQ (J.). — 1975. *Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII^e au XVI^e siècle (Bilād al-Sūdān)*, Paris, C.N.R.S. 493 p. (٥) .
CURRY (R.R.). — 1969. Chronologie glaciaire absolue de la Sierra Nevada, Californie, pour les derniers 2 700 000 ans, Paris (١٦) .
CURTIN (Ph. D.). — 1960. « The archives in tropical Africa : a reconnaissance », *J.A.H.* I, 1, pp. 129-147.
— 1968. « Field Techniques for collecting and processing oral data », *J.A.H.* IX, 3 : 367-85 (٧) .
CURTIN (Ph. D.) et VANSINA (J.). — 1964. « Sources of the 19th century Atlantic slave trade », *J.A.H.* 5 (٦).
CUVELIER (J.) et JADIN (L.). — 1954. *L'Ancien Royaume du Congo d'après les archives romaines 1518-1640*, Bruxelles (٦).
DAHL (O. C.). — 1951. *Malgache et Maanjan : une comparaison linguistique*, Oslo, Egede Institut, 406 p. (١٢) .
DAIN (A.). — 1961. « Témoignage écrit et philologie », *l'Histoire et ses méthodes*, encyclopédie de la Pléiade, Paris (٥).
DALBY (D.). — 1965. « The Mel Languages : a reclassification of southern "West Atlantic" », *A.L.S.* 6 (١٢) (١٠) .
— 1966. « Levels of relationship in the classification of African languages », *A.L.S.* (١٠).
— 1967. « Survey of the indigenous scripts of Liberia and Sierra Leone », *A.L.S.* 8 (٦).
— 1970. *Language and History in Africa*, Franck Cassad and C°, Londres, 160 p. (١٠).
— 1970. « Reflections on the classification of African languages, with special reference to the work of Sigismund Wilhem Koelle and Malcolm Guthrie », *African language studies*, XI (١٢) .
DALLONI (M.). — 1935. *Mission au Tibesti (1930-1931)*, Paris, Gauthier - Villar, 2 vol. (٢٣) .

— 1948. *Matériaux pour l'étude du Sahara oriental, région entre la Libye, le Tibesti et le Kaouar (Niger)*, Alger, I.R.S., 120 p. (٢٣).
— 1952. « La station moustérienne de Retaïmia près d'Inkermann (Algérie) », *Actes IIe Congr. P.P.E.Q.* : 419-27 (٢٢).
DALLONI (M.) et MONOD (Th.). — 1948. « Géologie et préhistoire (Fezzan méridional, Kaouar et Tibesti) », Mission scientifique du Fezzan (1944-45), *Trav. I.R.S. 6* (٢٣).
DALLONI (M.), DALRYMPLE (G.), BRENT, LANPHERE et MARVIN (A.) — 1969. *Potassium-Argon Dating. Principles, techniques and applications to geochronology*, San Francisco, W. H. Freeman and C° (٤).
DALTON (G.). — 1968. *Primitive, archaic and modern economies, essays of Karl Polanyi*, New York (١٣).
DAMAS (I.) (éd.). — 1966. « Ecological essays : proceedings of the conference of cultural ecology », *Museum of Canada Bull.* 230 (٢٧).
DANIEL (G.). — *The Tree Ages*, Cambridge, Cambridge University Press (٢٤).
DANIELS (Ch.). — 1970. *The Garamantes of Southern Libya*, Stoughton, Oleander Press (٢٤).
DAPPER (O.). —1668. *Naukeurige Beschrijiunghe des Afrikaenshe Gewesten*, Amsterdam.
DARLINGTON (C.D.). — 1963. *Chromosomes botany and the origins of cultivated plants*, London, G. Allen Unwin Ltd. (٢٧).
DAVIDSON (B.). — 1959. *The last cities of Africa*, Boston, Atlantic monthly Press (المقدمة العامة).
— 1964. *The African past*, London, Longmans (المقدمة العامة).
— 1965. *Old Africa rediscovered*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
— 1965. *Mère Afrique*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
— 1966. *The growth of African civilisation : West Africa 1000-1800*, London, Longmans (المقدمة العامة).
DAVIES (O.). —1959. « The distribution of Old Stone Age material in Guinea », *B.I.F.A.N.* B, 21 : 1-2, (٢٤).
— 1960. « The neolithic revolution in tropical Africa », *T.H.S.G.* 4 (٢٤).
— 1961. *Archaeology in Ghana*, Edinburg, Nelson, IV + 45 p. (٢٤).
— 1962. « The Neolithic culture of Ghana », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* 3 : 291-301 (٢٤).
— 1964. *The Quaternary in the Coastlands of Guinea*, Glasgow, Jackson, XVI + 276 p. (٢٤).
— 1966. « The invasion of Ghana from the Sahara in the Early Iron Age », *Actas V Congr. P.P.E.C.* 2 : 27-42 (٢٤).
— 1966. « Comment on : "J. Arkell, B. Fagan and R. Summers, The Iron Age in Sub-Saharan Africa" » *C.A.* 7 : 470-1 (٢٤).
— 1967. « New radiocarbon dates from Ghana », *B.A.S.E.Q.U.A.* 14-15 : 28 (٢٤).
— 1967. *West Africa before the Europeans*, Londres, Methuen, XX + 364 p. (٢٤).

DAVIES (O.), HUGOT (H.) et SEDDON (D.). — 1968. « The origins of African agriculture », *C.A.* 9, 5 : 479-504.
DAVISON (C.C.). — 1973. « Glass beads in African archaeology », *A.A.T.A.*, 10, 2 (٩)
DAVISON (C.C.), GIAUQUE (R.D.) et CLARK (J.D.). — 1971. « Two chemical groups of dichroic glass beads from West Africa », *Man* 6, 4 : 645-9 (٩).
DAY (M.H.) et LEAKEY (R.E.F.). — 1973. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, I », *A.J.P.A.* 39 : 341-54 (١٧).
— 1974. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, III », *A.J.P.A.* 41 : 367-80 (١٧).
DAY (M.H.), LEAKEY (R.E.F.), WALKER (A.C.) et WOOD (B.A.). — 1975. « New hominids from East Rudolf, Kenya, I », *A.J.P.A.* 42 : 461-76 (١٧).
— 1976. « New hominids from East Turkana, Kenya », *A.J.P.A.* 45, 3 : 369-436 (١٧).
DAYRELL (E.). — 1911. « Further notes on nsibidi signs with their meanings from the Ikom district, Southern Nigeria », *J.R.A.I.*, vol. 41, pl. LXV-LXVII (١٠).
DEACON (H.J.). — 1970. « The Acheulian occupation of Amanzi Springs, Uitenhage district, Cape province », *A.C.P.M.* 8, 11 (٢٠).
— 1972. « Wilton : an assessment after fifty years », *S.A.A.B.* XXVII, 1-2 : 10-48 (٢٠).
— 1972. « A review of the post-Pleistocene in South Africa », *S.A.A.B.*, Goodwin series I : 26-45 (٢٠).
DEBONO (F.). — 1948. « Le Paléolithique final et le Mésolithique à Hélouan », *A.S.A.E.* XLVIII : 629-37 (٢٥).
— 1948. « El-Omari », *A.S.A.E.* XLVIII : 562-8 (٢٥).
— 1951. « Expédition archéologique royale au Désert oriental », *A.S.A.E.* LI : 59-91 (٢٥).
— 1954. « La nécropole prédynastique d'Héliopolis », *A.S.A.E.* LII : 625-52 (٢٥).
— 1956. « La civilisation prédynastique d'el-Omari (nord d'Hélouan) », *B.I.E.* XXXVII : 331-9 (٢٥).
— 1969. « Le sentiment religieux à l'époque préhistorique en Egypte », *C.H.E.* XI : 1-13 (٢٥).
— 1970. « Recherches préhistoriques dans la région d'Esna », *B.I.F.A.O.* LXIX : 245-51 (٢٥).
— 1971. « Etude des dépôts de silex », *Graffiti de la Montagne thébaine*, Le Caire (٢٥).
— 1971. « Prospection préhistorique (campagne 1972-1973) », *Graffiti de la Montagne thébaine*, t. I, 4, Le Caire (٢٥).
— 1975. « Thèbes préhistorique, ses survivances à l'époque pharaonique », *Actes du XXIX^e Congr. Inter. Orient.* (٢٥).
— 1976. « L'homme oldowaien en Egypte », *B.I.E.* (٢٥).
— 1976. « Survivances préhistoriques de l'usage du silex à l'époque pharaonique », *B.I.E.* (٢٥).

DEGAN (Th.). — 1956. « Le site préhistorique de Tiémassas (Sénégal) », *B.I.F.A.N.* B, 8 : 432-61 (٢٤).
DELAFOSSE (M.). — 1901. *Essai de manuel pratique de la langue mandé ou Mandingue*, Paris, Leroux, 304 p. (١٢).
— 1912. Haut-Sénégal Niger, Paris, Larose (١٠).
— 1914. « Mots soudanais du Moyen Age », *Mém. Soc. Ling.* Paris, 18 (١٢) (١٠).
— 1924. « Groupe sénégalo-guinéen », A. Meillet et M. Cohen (dir.), *Langues du monde*, Paris, H. Champion, XVI + 811 p. (١٢)(١٠).
DELANY (M.R.). — 1861. « Official report on the Niger Valley exploring party », Leeds (٦).
DELCROIX (R.) et VAUFREY (R.). — 1939. « Le Toumbien de Guinée française », *Anthropologie*, 49 : 265-312 (٢٤)(٢٣).
DELIBRIAS (G.), GUILLIER (M.T.) et LABEYRIE (J.). — 1974. « Gif natural radiocarbon measurements VII », *Radiocarbon*, 16, 1 : 15-94 (٢١).
DELIVRE (A.). — 1974. *L'Histoire des rois d'Imerina : Interprétation d'une tradition orale*, Paris (٨).
DEMOUGEOT. — 1960. « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine », *Annales*, 209-47 (٢٦).
DENIS (J.), VENNETIER (P.) et WILMET (J.). — 1971. *L'Afrique centrale et orientale*, Paris, P.U.F., 294 p. (١٣).
DENNINGER (E.). — 1971. « Use of paper chromatography to determine the age of albuminous binders and its application to rock paintings », *S.A.A.A.S.* 2 : 80-4 (٩).
DENY (J.). — 1930. *Sommaire des archives turques du Caire*, Le Caire (٦).
DESCAMPS (C.). — 1971. *Sénégal, préservation et mise en valeur du patrimoine archéologique*, « D. Les mégalithiques du Sine-Saloum », Paris, Unesco (٢٤).
DESCHAMPS (H.). — 1962. « Pour une histoire de l'Afrique », *in* « Regards sur l'Afrique », *Diogène* 37, pp. 113-120 (المقدمة العامة).
— 1964. *L'Afrique tropicale aux XVII^e-XVIII^e siècles*, Paris, C.D.U. (المقدمة العامة).
— 1969. *L'Afrique noire précoloniale*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
DESCHAMPS (H.) *et al.*. — 1970. *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F., 2 t. (٧) (المقدمة العامة).
DESPLAGNES (L.). — 1907. « L'Archéologie préhistorique en Guinée française », *B.S.G.C.* (٢٤).
— 1907. *Le Plateau central nigérien*, Paris (٢١).
DESPOIS (J.) et RAYNAL (R.). — 1967. *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest*, Paris, Payot, 571 p. (١٣).
DESTANIQ (Ed.). — 1911. « Notes sur des manuscrits arabes de l'Afrique occidentale », *Revue africaine* (٦) (٥) (المقدمة العامة).
DEVA (I.). — 1974. « La tradition orale et l'étude des sociétés agricoles », *Diogène*, 85 : 123-42 (٤).
DIAGNE (P.). — 1972. *Anthropologie de la littérature wolof*, Dakar, I.F.A.N. (١٠).

— 1976. *Enquête linguistique*, Unesco, Tchad (١٠).
DIALLO (Th.). — 1968. *Les Institutions politiques du Fouta-Djallon au XIX[e] siècle*, Dakar (ronéo.) (٦).
DIEHL (Ch.). — 1969. *L'Afrique byzantine*, 2[e] éd., New York, 2 vol. (٥).
DIENG (A.A.). — 1974. *Classes sociales et mode de production esclavagiste en Afrique de l'Ouest*, Paris, C.E.R.M. n° 114 (الخاتمة).
DIENG (A.A.). — 1978. Hegel, Marx, Engels et les problèmes de l'Afrique noir, Paris, Fonkoré.
DIMBLEBY (G.W.). — 1963. « Pollen analysis », *Science in archaeology*, BROTHWELL (D.) et HIGGS (E.), dir., Londres, Thames and Hudson, pp. 139-149 (٩).
DIOP (C.A.). — 1955. *Nations nègres et culture*, Paris, Prés. afr. (٢٤) (١٠).
— 1959. *L'Unité culturelle de l'Afrique noire*, Paris, Prés. afr.
— 1960. *L'Afrique noire précoloniale*, Paris, Prés. afr. (٢٤).
— 1962. « Réponse à quelques critiques », *B.I.F.A.N.* B. 24 : 542-74 (٢٤).
— 1962. « Histoire primitive de l'Humanité : évolution du monde noir », *B.I.F.A.N.* B. 24 : 449-541 (٢٤).
— 1973. *Introduction à l'étude des migrations en Afrique occidentale et centrale*, Dakar, I.F.A.N. (١٠) (٦).
— 1974. *Physique nucléaire et chronologie absolue*, Dakar-Abidjan, N.E.A. (٤).
— 1977. Parenté génétique de l'égyptien pharaonique et des langues africaines : processus de sémitisation ; la pigmentation des anciens Egyptiens, test par la mélanine, *BIFAN*.
DIOP (M.). — 1971-72. *Histoire des classes sociales dans l'Afrique de l'Ouest*, Paris, F. Maspero (الخاتمة).
DOBLHOFER (E.). — 1959. *Le Déchiffrement des écritures* (trad. de l'allemand), Paris, Arthaud (٤).
DOIZE (R.L.). — 1938. « Les boules de pierre et les pierres perforées des collections de préhistoire du musée du Congo », *A.M.R.A.C.* I : 89-140 (٢١).
DOKE (C.M.) et COLE (D.T.). — 1961. *Contribution to the history of african linguistics*, Johannesburg, Witwatersrand University Press, 129 p. (١٢).
DORESSE (J.). — 1971. *Histoire sommaire de la Corne orientale de l'Afrique*, Paris (٥).
DORIZE (L.). — 1974. « L'oscillation pluviométrique récente sur le bassin du lac Tchad et la circulation atmosphérique générale », *Revue de géographie physique et de géologie dynamique*, 16, 4 : 393-420 (١٦).
DORSON (R.M.). — 1972. « African Folklore. Garden City (récits, genres oraux, folklore, littérature et histoire) » (٨).
— 1976. « Oral literature, oral history and the folklorist », *Folklore and Fakelore*, Cambridge : 127-44 (٨)
DORST (J.P.) et DANDELOT (F.). — 1970. *A field guide to the larger mammale of Africa*, Londres, Collins (٢٤).

DRAR (M.). — 1963. « Flore du continent africain : région au nord du Sahara », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco : 257-70 (١٣).

DRIOTON (E.) et VANDIER (J.). — 1962. *L'Egypte*, 4ᵉ éd. augmentée, Paris, P.U.F., 2 vol. (٢٨) (٥).

DROUX (G.) et KELLEY (H.). — 1939. « Recherches préhistoriques dans la région de Boko-Sogho et à Pointe-Noire (Moyen-Congo) », *J.S.A.* 9 : 71-84 (٢١).

DUBIEF (J.). — 1959. « Le climat du Sahara », *Mém. I.R.S.*, 2 vol. (٢٣).

DUBOIS (W.E.B.). — 1903. *The souls of black folk*, Mac Clurg (المقدمة العامة).

— 1944. *Black folk then and now*, New York, H. Holt (المقدمة العامة)

DUMOULIN DE LAPLANTE (P.). — 1947. *Histoire générale synchronique*, Paris (الخاتمة)

DUNBAR (J.H.). — 1941. *Some nubian rock pictures of lower Nubia*, Le Caire (٢٣).

DUNHAM (D.). — 1955. *Nuri, the royal cemeteries of Kush*, Boston, University of Fine Arts (٢٨).

DUNHILL (A.). — 1969. *The Pipe Book* (éd. révisée), Londres, Barker (٢٤).

DUVEYRIER (H.). — 1864. *Les Touaregs du Nord*, Paris, Challamel, 502 p (٢٣).

DUVIGNEAUD (P.). — 1958. « La végétation du Katanga et de ses sols métallifères », *Bulletin de la société royale de botanique de Belgique*, 90, 2 : 126-278 (٢١).

DUYVENDAK (J. J.L.). — 1949. *China's discovery of Africa*, London (٥).

— 1973. « Eastern african coast », *J.R.A.S.* : 98-122 (٦) (٥) (المقدمة العامة).

EBOUE (F.). — 1933. « Les peuples de l'Oubangui-Chari. Essai d'ethnographie, de linguistique et d'économie sociale », *Ethnographie* 27 : 3-79 (٢١)

EDWARDS (I.E.S.). — 1970. « Absolute dating from Egyptian records and comparison with carbon-14 dating », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 11-9 (٩).

EGHAREVBA (J.). — 1960. *A short history of Benin*, Ibadan, Ibadan Univ. Press (٢٤).

EHRET (Ch.). — 1963. « Sheep and central sudanic peoples », *J.A.H.* IX, 2 (المقدمة العامة).

الكتاني (م) ١٩٦١. «التاريخ وطرئقه» باريس، موسوعة لامبياد (المقدمة العامة).

ـــ ١٩٦٨. «مخطوطات الغرب الافريقي بخزانات المغرب» هيبريس تامودا ٩، ١: ٥٧ ــ ٦٣ (المقدمة العامة).

ـــ ١٩٦٨. «اقسام الوثائق والمخطوطات للخزانات المغربية»، هيبريس تامودا، الرباط. ٩، ٣: ٤٥٩ ــ ٦٨ (المقدمة العامة).

التونسي (أ) ـــ ١٨٤٥. «رحلة الى دارفور»، ترجمة الدكتور بيرّون، باريس (٦).

EMERY (W.B.). — 1961. *Archaic Egypt*, Harmondsworth, Penguin Book (٢٨)

— 1965. *Egypt in Nubia*, London, Hutchinson (٢٨).

EMILIANI (C.). — 1975. « Paleoclimatological Analysis of Late Quaternary Cores from the Northeastern Gulf of Mexico », *Science*, 189, 4208 : 1083-7 (١٦) .

EMPHOUX (J.P.). — 1970. « La grotte de Bitorri au Congo-Brazzaville », *Cah. O.R.S.T.O.M.* II : 3-20 (٢١) .

ENCYCLOPEDIE DE l'ISLAM, 2e éd., Leyde (٥) (المقدمة العامة) .

ENGELMAYER (R.). — 1965. *Die Felsgravierungen in Distrikt Sayala Nubien*, Vienna, H. Böhlaus Nachf, 90 p. (٢٣) .

ENNOUCHI (E.). — 1962. « Un néandertalien : l'homme du Djebel Irhoud », *Anthropologie*, 66 (٢٢) .

ERMAN (A.) et RANKE (H.). — 1952. *Aegypten und aegyptischen Leben im Altertum*, Tübingen. Traduction française : *La Civilisation égyptienne*, Paris, Payot (٢٨) .

EYO (E.). — 1969. « Excavation at Ile-Ife », *Afr. Arts* : 44-7 (٢٤) .

— 1972. « Rop Rock Shelter excavations 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 13-6 (٢٤) .

— 1972. « New treasures from Nigeria », *Expedition*, 14, 2 : 1-11 (٢٤) .

— 1974. « Excavations at Odo-Ogbe Street and Lafogido, Ife, Nigeria », *W.A.J.A.* 4 (٢٤) .

EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1939. « Nuer Time Reckoning », *Africa* 12 : 189-216 (٧) .

EWING (G.W.). — 1954. *Instrumental methods of chemical analysis*, Londres, McGraw Hill Book Company Inc. (٩) .

EYRE (S.R.). — 1963. *Vegetations and Soils*, Londres (١٤) .

FAEGRI (K.) et IVERSEN (J.). — 1950. *Introduction to pollen analysis*, Copenhague (٩) .

FAGAN (B.M.). — 1969. « Radiocarbon dates for sub-saharan Africa, VI », *J.A.H.* 10 : 149-69 (٢٤).

FAGAN (B.M.) et NOTEN (F. VAN). — 1971. « The Hunter-Gatherers of Gwisho », *A.M.R.A.C.* 74, XXII + 228 p. (٢١) .

FAGE (J.D.). — 1962. *An introduction to the history of West Africa*, 3e éd., Cambridge (المقدمة العامة)

— 1965. *An atlas of African history*, London, Ewd. Arnold.

— 1970. *Africa discovers her past*, Oxford, Oxford Univ. Press (١٥) .

FAGE (J.D.) et OLIVER (R.A.). — 1970. Papers in African prehistory, Cambridge Univ. Press (الخاتمة) .

FAGG (A.). — 1972. « Pottery from the Rock Shelter excavations of 1944 and 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 29-38 (٢٤) .

— 1972. « Excavation of an occupation site in the Nok Valley, Nigeria », *W.A.J.A.* 2 : 75-9 (٢٤) .

FAGG (B.E.B.). — 1944. « Preliminary report on a microlithic industry at Rop Rock Shelter, Northern Nigeria », Cambridge, *Proceedings of the prehistoric society*, 10 : 68-9 (٢٤) .

— 1945. « A preliminary note on a new series of pottery figures from Northern Nigeria », *Africa*, 15 : 21-2 (٢٤) .

— 1956. « An outline of the Stone Age of the Plateau Minesfield », *Proc. III Internat. W.A.C.* 203-22 (٢٤) .

— 1956. « The Nok culture », *W.A.R.* 27 : 1083-7 (٢٤).
— 1959. « The Nok culture in prehistory », *J.H.S.N.* 1,4 : 288-93 (٢٤).
— 1962. « The Nok terracottas in west african art history », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* III : 445-50 (٢٤).
— 1968. « The Nok culture : excavations at Taruga », *W.A.A.N.* 10 : 27-30 (٢٤).
— 1969. « Recent work in West Africa ; new light on the Nok culture », *W.A.* I : 41-50 (٢٤).
— 1972. « Rop Rock Shelter excavations 1944 », *W.A.J.A.* 2 : 1-12 (٢٤).

FAGG (B.E.B.) et FLEMING (S.J.). — 1970. « Thermoluminescent dating of a terracotta of the Nok culture, Nigeria », *Archaeometry*, 12 : 53-5 (٢٤).

FAGG (W.). — 1963. *Nigerian images*, London, Lund Humphries, 124 p. (٢٤).

FAGG (W.) et WILLETT (F.). — 1960. « Ancient Ife : an ethnographical summary », *ODU*, 8 : 21-35 (٢٤).

FARAG (N.) et ISKANDER (A.). — 1971. *The Discovery of Neferwptah*, Le Caire (٩).

FARINE (B.). — 1963. *Sites préhistoriques gabonais*, ministère de l'Information, Libreville (٢١).
— 1965. « Recherches préhistoriques au Gabon », *B.S.P.P.G.*, vol. I, 3, pp. 68-84 (٢١).
— 1967. « Quelques outils principaux des divers faciès préhistoriques des districts de Ndjole et de Booué », *B.S.P.P.G.* : 22-36 (٢١).

FAULKNER (R.O.). — 1953. « Egyptian military organisation », *J.E.A.* 39 : 32-47 (٢٨).

FAURE (H.). — 1962. *Reconnaissance géologique des formations sédimentaires postpaléozoïques du Niger oriental*, thèse, Paris (٢٣).
— 1967. « Evolution des grands lacs sahariens à l'Holocène », *Quaternaria* 15 : 167-75 (١٦).
— 1969. « Lacs quaternaires du Sahara », *Internationale Vereinigung für theoretische und Angewandte Limnologie*, 17 : 131-48 (١٦).

FAURE (H.) et ELOUARD (P.). — 1967. « Schéma des variations du niveau de l'océan Atlantique sur la côte de l'ouest de l'Afrique depuis 40 000 ans », *C.R.A.S.* 265 : 784-7 (٢٤).

FEREMBACH (D.). — 1970. *Les Cro-Magnoïdes de l'Afrique du Nord. L'Homme de Cro-Magnon*, Paris, A.M.G. (٢٢).

FEREMBACH (D.), DASTUGUE (J.) et POITRAT-TARGOWLA (M.-J.). — 1962. *La Nécropole épi-paléolithique de Taforalt (Maroc oriental)*, Casablanca (٢٢).

FERGUSON (J.). — 1969. « Classical contacts with West Africa », L.A. THOMPSON and J. FERGUSON (éd.), *Africa in classical antiquity*, Ibadan, Ibadan Univ. Press. IX + 221 p. (٢٤).

FIELDS (P.R.), MILSTED (J.), HENRICKSEN (E.) et RAMETTE (R.W.). — 1971. « Trace impurities copper ores and artefacts », *Science and archaeology* (٤).

FILESI (T.). — 1962. *La Relazione della Cina con l'Africa nel medievo*, Milano (٥).
FILIPOWIARK (M.). — 1969. « L'expédition archéologique polono-guinéenne à Niani en 1968 », *Africana* II : 107-17 (٢٤).
— 1969. « Discovering Niani », *Polish Rev.*, 4, 92 : 14-6 (٢٤).
FINNEGAM (R.). — 1970. *Oral literature in Africa*, Oxford (٨).
FISHER (H.J.). — 1972. « He swalloweth the ground with fierceness and rage : the horse in the central Sudan », *J.A.H.*, 13-3 : 367-88 (٢٤).
FLAMAND (G.B.M.). — 1902. « Les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat), du nord de l'Afrique et spécialement de la région d'In Salah », *Anthropologie*, 12 : 535-8 (٢٣).
— 1921. *Les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat). Gravures et inscriptions rupestres du Nord africain*, Paris, Masson (٢٣).
FLEMING (H.C.). — 1969. « The classification of west cushitic within Hamito-Semitic », D.F. McCALL, N.R. BENNETT and J. BUTTER (dir.), *Eastern african history*, New York, Washington, London and Praeger (١٢).
FLIGHT (C.). — 1970. « Kintampo 1968 », *W.A.A.N.* 12 : 71-3 (٢٤).
FLINT (R.F.). — 1947. *Glacial geology and the Pleistocene epoch*, London, New York, 589 p. (١٦).
— 1959. « Pleistocene climates in Eastern and Southern Africa », *B.G.S.A.* 70 : 343-74 (٢١)(١٦).
— 1959. « On the basis of Pleistocene correlation in East Africa », *Geology magazine* V, 96 : 265-84 (٢٤)(٢١).
— 1971. « Glacial and Quaternary Geology », New York, Wiley, p. XIV + 892 (٢٤)(١٦).
FLUTRE (L.F.). — 1957. *Pour une étude de la toponymie de l'A.O.F.*, Dakar, publication de l'Université (المقدمة العامة).
FODOR (I.). — 1966. *The Problems in the classification of the african languages*, Budapest, Center for afro-asian research of the Hungarian Acad. Sc. (٤).
FOERSTER (R.) éd. — 1893. *Scriptores physiognomici* (١١).
FORBES (R.J.). — 1964. *Studies in ancient technology*, Leyde, Brill. 1. (٢٨).
FORD (J.). — 1971. *The historical role of tsé-tsé*, The Clarendon Press, Oxford (المقدمة العامة).
FORDE (D.). — 1954. *African worlds*, Londres, O.U.P. (المقدمة العامة).
— 1956. *Efik trades of old Calabar*, Londres (٦).
FORTES (M.) et EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1962. *African political systems*, London, O.U.P. (المقدمة العامة).
FOSBROOKE (H.A.). — 1950. « Rock-paintings of north-central Tanzania », *T.N.R.* 29 (١٩).
FOUREAU (F.). — 1883. « Excursion dans le Sahara algérien », *l'Explorateur* 16 (٢٣).
— 1905. *Documents scientifiques de la mission saharienne*, mission Foureau-Lamy, d'Alger au Congo par le Tchad, Paris, Masson, 3 vol. (٢٣).

FOURNIER (F.). — 1963. « Les sols du continent africain », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, 227-255 (١٣).
FREEMAN (Th.). — 1844. *Journal of various visits to the kingdom of Ashanti, Dahomey and Abeokuta*, Londres (٦).
FREEMAN-GRENVILLE (G.S.P.). — 1958. « Swahili literature and the history and archaeology of the East African Coast », *J.E.A.S.C.* : 28, 2. (٦) (٥) (المقدمة العامة).
— 1959. « Medieval evidences for Swahili », *J.E.A.S.C.* 29, 1 (٥) (المقدمة العامة) (٦).
— 1960. « East African coin finds and their historical significance », *J.A.H.*, I : 31-43 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
— 1962. *The East African coast, select documents from the first to the early nineteenth century*, Oxford (٦).
FROBENIUS (L.). — 1913. *The voice of Africa*, Londres, B. Bleen (المقدمة العامة).
— 1937. *Ekade Ektab. Die Felsbilder Fezzan*. Veröffentlichung des Forschungsinstitut für Kulturmorphologie, Leipzig, Harrasowits (٢٣).
— 1949. *Mythologie de l'Atlantide*, Paris, Payot (المقدمة العامة).
— 1952. *Histoire de la civilisation africaine*, Paris, Gallimard (المقدمة العامة).
FROBENIUS (L.) et OBERMAIER (H.). — 1923. *Hadschra Mektuba*, Munich, K. Wolff (٢٣).
FROGER (J.). — 1965. « La machine électronique au service des sciences humaines », *Diogène* 52 : 110-44 (٤).
FROUDE (J.A.). — 1888. *The English in the West Indies*, Oxford (١).
FURON (R.). — 1943. *Manuel d'archéologie préhistorique*, Paris, Payot (الخاتمة)
— 1958. *Manuel de préhistoire générale*, Paris, Payot (الخاتمة).
— 1960. *Géologie de l'Afrique*, Paris, Payot, 351 p. (١٣).
FYNN (N.F.). — 1950. *The diary of... 1803-61*, Pietermaritsburg (٦).
GABEL (C.). — 1966. « Prehistoric populations of Africa », *B.U.P.A.* : 1-37 (١٥).
GABEL (C.) et BENNET (N.R.). — 1967. *Reconstructing african culture history*, Boston, Boston Univ. Press (١٥).
GALTON (F.). — 1853. *Narrative of an explorer in tropical Africa*, Londres (٦).
GARDINER (A.H.). — 1947. *Ancient egyptian onomastica*, Londres, Oxford Univ. Press (٢٨).
— 1957. *Egyptian Grammar*, 3rd edit., Londres, Oxford Univ. Press (٢٨).
GARDNER (J.V.) et HAYS (J.D.). — 1975. « Eastern equatorial Atlantic : subsurface temperature and circulation responses to global climatic charge during the past 200,000 years », *G.S.A.M.* 145 (١٦).
GARLAKE (P.). — 1974. « Excavations at Obalara's Land, Ife, Nigeria », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
GASSE (F.). — 1975. *L'Evolution des lacs de l'Afar Central (Ethiopie et T.F.A.I.) du Plio-Pléistocène à l'Actuel*, thèse, Paris, Université de Paris VI, 3 vol. (١٦).

GAUSSEN (M. et J.). — 1965. « Un atelier de burins à Lagreich-Néo. 1, Oued Tilemsi (Mali) », *Anthropologie*, 69 (٢٣).
GAUTHIER (E.F.). — 1914. « Minette de St-Martin, note sur une collection préhistorique saharienne », *Revue africaine* (٢٣).
— 1933. « Deux centres d'influence méditerranéenne qui rendent intelligible l'Afrique occidentale », *B.S.G.F.* : 71-2 (المقدمة العامة).
— 1946. *Le Sahara algérien*, Paris (٢٣).
— 1950. *Le Sahara*, 3ᵉ éd., Paris, Payot, 231 p. (٢٣).
GAUTHIER (E.F.) et REYGASSE (M.). — 1923. « Découverte d'un outillage moustérien à outils pédonculés atériens dans le Tidikelt, oueld Asriouel, région d'Aoulef Chorfa », *Actes 46ᵉ congr. A.F.A.S.* (٢٣).
— 1934. « Les monuments de Tin Hinan », *A.A.S.C.* 7, 12 p. (٢٣).
GENTNER (W.) et LIPPOLT (H.J.). — 1963. « The potassium-argon dating of Upper Tertiary and Pleistocene deposits », *Science in Archaeology*, BROTHWELL D. et HIGGS E. (dir.), Londres, Thames and Hudson : 72-84 (٩).
GERMAIN (G.). — 1957. *Qu'est-ce que le périple d'Hannon ?*, Rabat (٥).
GEUS (F.). — 1976. *Rapport annuel d'activité 1975-76*, Khartoum, Service des Antiquités du Soudan (٢٨).
GIEGENGACK (R.F.). — 1968. *Late Pleistocene history of the Nile Valley in Egyptian Nubia*, Ph. D. Dissertation, Yale University (١٦).
GILBERT (E.W.). — 1932. « What is historical geography ? » *The Scottish geographical magazine*, 48, 3 (١٤).
GLELE (M. Ahanhanzo). — 1974. *Le Danxome, du pouvoir Aja à la nation Fon*, Paris, Nubia (١٠).
GOBERT (E.G.). — 1951-52. « El-Mekta, station princeps du capsien », *Karthago*, 2, 72 p. (٢٢).
— 1963. « Bibliographie critique de la préhistoire tunisienne », *Cah. de Tunisie*, 41-42 : 37-77 (٢٢).
GODEE-MOLSBERGEN (E.C.). — 1916-1932. *Reüsen in Zuid Africa in the Hollandse Tijd*, La Haye, 4 vol. (٦).
GOODWIN (A.J.H.) et RIET LOWE (C. VAN). — 1929. « The Stone Age Cultures of South Africa », *A.S.A.M.* 27 (٢٠).
GOODY (J.). — éd. 1968. *Literacy in traditional societies*, Cambridge (٧).
GOROG-KARADY (V.). — 1966-1972. « Littérature orale africaine : bibliographie analytique (périodiques) », *C.E.A.* 21, VIII : 243-501 ; 36, IX : 631-66 ; 40, X : 583-631 ; 45, XII : 174-92 (٧).
GOUROU (P.). — 1970. *L'Afrique*, Paris, Hachette, 488 p. (١٣).
GRANDIDIER (A. et G.). — 1903-1920. *Collections des ouvrages concernant Madagascar*, Paris, Comité de Madagascar, 9 vol. (١٢).
GRAY (R.). — 1965. « Eclipse maps », *J.A.H.*, VI-3 pp. 251-262 (٧).
— 1968. « Annular eclipse maps », *J.A.H.* IX, I pp. 147-157 (٧).
GRAY (R.) et CHAMBERS (D.S.). — 1965. *Materials for West African history in italian archives*, Londres (٢٤) (٦).
GRAZIOSI (P.). — 1924. *L'arte rupestre della Libia*, Naples, Ediz. della mostra d'oltremare (٢٣).

GREENBERG (J.H.). — 1948. « The classification of African languages », *A.A.* (١٠).
— 1954. « Etude sur la classification des langues africaines », *B.I.F.A.N.* B, XVI (١٠) (١) (المقدمة العامة)
— 1957. *Essays in linguistics*, Chicago (١٠).
— 1957. « Nilotic hamitic and hamito-semitic », *Africa*, 27 (١٢) (١٠)
— 1963. *Langues et Histoire en Afrique*, Présence africaine n° 45, pp. 35-45 (١٥) (١٠) .
— 1963. « The language of Africa », *I.J.A.L.* 29, 1 (٢٤) (١٢) (١٠) (١)
— 1963. « History and present status of the Kwa problem », *Actes II coll. Intern. L.N.A.*
— 1966. *The languages of Africa*, Indiana Univ. (المقدمة العامة)
— 1966. *The languages of Africa*, The Hague, Mouton, 2ᵉ éd., 180 p. (١٢) .
— 1971. *Language culture and economy*, Stanford Univ. Press (١٠) .
— 1972. « Linguistic evidence regarding Bantu origins », *J.A.H.* 13, 2 : 189-216 (١٢) .
GREGERSEN (E.A.). — 1967. « Linguistic seriation as a dating device for loanwords with special reference to West Africa », *A.L.R.* (١٠) .
— 1977. *Languages in Africa : An introductory survey*, New York-Paris-Londres, Gordon and Breach (١٢) .
GRIAULE (M.). — 1947. « Mythe de l'organisation du monde chez les Dogon du Soudan », *Psyché*, 6 : 443-53 (٨) .
— 1949. « L'image du monde au Soudan », *J.S.A.* 19 : 81-7 (٨) .
— 1952. « Etendue de l'instruction traditionnelle au Soudan », *Zaïre* 6 : 563-8 (٨) .
GRIAULE (M.) et DIETERLEN (G.). — 1951. « Signes graphiques soudanais », *L'homme*, 86 p. (١٠) .
— 1965. *Le Renard pâle*, « I : le mythe cosmogonique », Paris, 544 p. (٨) .
GRIFFITH (F.L.). — 1927. « The Abydos Decree of Seti I at Mauri », *J.E.A.* 13 : 193-208 (٢٨) .
GROVE (A.T.) et PULLAN (R.A.). — 1964. « Some aspects of the palaeogeography of the Chad Basin », F. Clark-Howell and Bourlière (éd.), *African ecology and human evolution*, London, 230-45 (٢٤) (١٦) .
GROVE (A.T.), STREET (F.A.) et GOUDIE (A.S.). — 1975. « Former lake levels and climatic charge in the rift valley of southern Ethiopia », *G.J.* 141, 2 : 177-202 (١٦) .
GROVE et WARREN (A.). — 1968. « Quaternary landforms and climate on the South Side of the Sahara », *G.J.* 134 : 194-208 (٢٤) .
GRUET (M.). — 1954. « Le gisement moustérien d'El-Guettar », *Karthago*, 5, 79 p. (٢٣) (٢٢) .
GSELL (S.). — 1913-28. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, Paris, 8 vol. (٥).
GUEBHARD (P.). — 1907. « Trois abris sous roche fouillés dans le Fouta-Djallon », *B.G.H.D.* 3 : 408-20 (٢٤) .
GUERNIER (F.). — 1952. *L'Apport de l'Afrique à la pensée humaine*, Paris, Payot (المقدمة العامة)

GUILLOT (R.) et DESCAMPS (C.). — 1969. « Nouvelles découvertes préhistoriques à Tiémassas (Sénégal) », *B.I.F.A.N.* B, 31 : 602-37 (٢٤).
GUMA (S.M.). — 1967. *The form, content and technique of traditional literature in Southern Sotho*, Pretoria (٧).
GUITAT (R.). — 1972. « Présentation de pièces pédonculées d'El Azrag (Mauritanie) », *N.A.* 135 : 29-33 (٢٣).
GUTHRIE (M.). —1948. *The classification of the Bantu languages*, Londres-New York, Oxford Univ. Press, 91 p. (١٢).
— 1962. « Some developments in the prehistory of the Bantu languages », *J.A.H.*, 3, 2 : 273-82 (١٢).
— 1967. *Comparative Bantu*, Londres, Faber and Faber (١٠).
— 1969. *Linguistics and history*, Londres, d'Alby (١٠).
HABERLAND (E.). — 1973. *L. Frobenius*, Wiesbaden, Franz Steiner Verlag (٢٦).
HABLE SELASSIE (S.). — 1967. *Source material for ancient and medieval history of Ethiopia*, communication au Congrès international des Africanistes, Dakar (٥).
HADJIGEORGIOU (C.) et POMMERET (Y.). — « Présence du lupembien dans la région de l'estuaire », *B.S.P.P.G.* 1,3 : 111-31 (٢١).
HAIR (P.E.H.). — 1965. « The enslavement of Koelle's informants », *J.A.H.* 6 (٦).
HALKIN (L.E.). — 1963. *Initiation à la critique historique*, Paris, A. Colin (المقدمة العامة) (١٥).
HALL (E.T.). — 1965. « Recent research at the Research Laboratory for archaeology and the history of art », *Proc. Sem. A.S.E.W.A.*, Boston (9).
— 1970. « Analytical techniques used in archaeometry », *P.T.R.S.* 269, 1195 (٩).
HALPERN (J.W.), HARRIS (J.E.) et BARNES (C.). — 1971. « Studying skulls in Egypt », *Research News, Amn Arleor*, The University of Michigan, vol. XXII, n° 1 (٩).
HAMILTON (E.I.). — 1965. *Applied Geochronology*, Londres, Academic Press, p. 47-79 (١٦) (٩).
HAMY (E.T.). — 1900. « La grotte de Kakimbon à Rotoma près de Konakry », *C.R. 12 Congr. Intern. A.A.P.* (٢٤).
HANOTAUX (G.) et MARTINEAU (A.) dir. — 1931. *Histoire des colonies françaises*, Paris, 8 vol. (١).
HARLAN (J.R.). — 1975. *Crops and man*, American society of agronomy, Madison, Wisconsin (٢٧).
HARLAN (J.R.), WET (J.M. DE) et STEMLER (A.B.L.) dir. — 1976. *Origins of African plant domestication*, Paris-La Haye, Mouton (٢٧).
HARLEY (G.V.). — 1950. Compte rendu de « Masks as agents of social control in Northeast Liberia », Peabody Museum, Harvard Univ., vol. XXXII (١٥).
HARRIES (L.). — 1962. *Swahili poetry*, Oxford (٦).
— 1964. « The Arabs and Swahili culture », *Africa* XXXIV : 224-9 (المقدمة العامة) (٥) (٦).

HARRIS (D.). — 1969. « Agricultural systems, ecosystems and the origin of agriculture », P.J. UCKO and G.W. DIMBLEBY (éd.), *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth (٢٧).
HARRIS (J.R.). — 1961. *Lexicographical studies in ancient Egyptian minerals*, Berlin (٢٨).
HARTLE (D.D.). — 1966. « Archaeology in Eastern Nigeria », *W.A.A.N.* 5 : 13-7 (٢٤).
— 1968. « Radiocarbon Dates », *W.A.A.N.* 9 : 73 (٢٤).
— 1970. « Preliminary Report of the University of Ibadan's Hainji Rescue Archaeology Project », 1968, *W.A.A.N.* 12 : 7-19 (٢٤).
HARTMANN (F.). — 1923. *L'Agriculture dans l'ancienne Egypte*, Paris (٢٨).
HASSAN (F.A.) et WENDORF (F.). — 1974. « A sibilian assemblage from El-Elh », *Chronique d'Egypte*, 49 : 211-22 (٢٥).
HAU (E.). — 1959. « Evidence of the use of pre-portuguese written characters by the Bini », *B.I.F.A.N.* XXI (١٠).
HAY (R.L.). — 1976. *Geology of the Olduvai Gorge*, Los Angeles-Berkeley-Londres, 203 p. (١٧).
HAYES (W.C.). — 1964. *Most Ancient Egypt*, Chicago-Londres, K.C. Seele (٢٨).
HAYS, (J.D.), SAITO (T.), OPDYKE (N.D.) et BURCKLE (L.H.). — 1969. « Pliocene-Pleistocene sediments of the Equatorial Pacific : their paleomagnetic, biostratigraphic and climatic record », *G.S.A.B.* 80 : 1481-1513 (١٦).
HEINTZE (B.). — 1976. « Oral traditions. Primary sources only for the collector », *History in Africa : A journal of method*, 3.
HEINZELIN de BRAUCOURT (J. DE). — 1957. *Les fouilles d'Ishango*, Bruxelles (٢١).
— 1963. « Paleoecological conditions of the Lake Albert - Lake Edward Rift », *Viking Fund Publ. Anthrop.* 36 (١٦).
HEINZELIN de BRAUCOURT (J. DE, BROWN (F.E.) et HOWELL (F.C.). — 1971. « Plio-Pleistocene formations in the lower Omo basin (Southern Ethiopia) », *Quaternaria* (١٦).
HENIGE (D.P.). —1971. « Oral Tradition and Chronology », *J.A.H.*, XII, 3 (٧).
— 1974. *The chronology of oral tradition. Quest for 2 Chimera*, Oxford, Studies in African affairs (٧).
HERBERT (E.W.). — 1973. « Aspects of the use of copper in pre-colonial West Africa », *J.A.H.* 14, 2 : 179-94 (٢٤).
HERODOTE. — éd. 1964. *Histories*, trad. George Hawlinson, Londres, Dent, vol. 1, p. XXI + 366 (٢٤).
HERVIEU (J.). — 1969. « Les industries à galets aménagés du haut bassin de la Benoué (Cameroun) », *B.A.S.E.Q.U.A.* 22 : 24-34 (٢١).
HERZOG (R.). — 1938. *Punt*, Glückstadt (١١).
HESTER (J.J.). — 1968. *In* « Comments », *C.A.* 9 (٢٧)(٥).
HEUSCH (L. DE). — 1972. *Le Roi ivre ou l'Origine de l'Etat*, Paris (٧).
HIBEN (F.C.). — 1967. « Lukuliro », *Archaeology* XX : 247-53 (١٩).

HIERNAUX (J.). — 1970. « La diversité biologique des groupes ethniques », *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١١) (المقدمة العامة).
— 1974. *Rapport sur le concept de race*, Paris, Unesco (١١).
HILL (P.). — 1963. *Migrant Cocoa-farmers in southern Ghana*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, XVI + 265 p. (٣).
HINTZE (F.). — 1951. « Revue de l'essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique de M. COHEN », *Z. Phon* 5, 65, 87 (١٠).
— 1955. « Die sprachliche Stellung des Meroitischen », *Deutsche Akademie der Wissenchaften Veröff*, 26 : 355-72 (١٢).
HINTZE (F. et U.). — 1967. *Alte Kulturen im Sudan*, Munich, G.D.W. Callwey, 148 p. (٢٨).
HIRTH (F.). — 1909-10. « Chinese notices of East African territories », *J.A.O.S.* 30 (٥).
HISKETT (M.). — 1957. « Material relating to the state of learning among the Fulani before their jihad », *B.S.A.O.S.* 19 (٦).
HJALMAR (L.). — 1962. « Die Merimdekeramik im Mittelmeermuseum », *Orientalia Suecana*, XI (٢٨).
HOCKETT (Ch. F.) et ASCHER (R.). — 1964. « The Human Revolution », *C.A.* 5, 3 (٤).
HODGE (C.T.). — 1968. « Afro-asiatic 67 » *in Language sciences, Indiana* (١٠).
HODGKIN (Th.). — 1956. *Nationalism in colonial Africa*, Londres (٣).
HODGKIN (Th.). — 1966. « The Islamic literary tradition in Ghana », I.M. LEWIS (dir.), *Islam in Tropical Africa*, Oxford (٦).
HOFFMANN (I.). — 1967. *Die Kulturen des Nilstal von Aswan bis Sennar*, Hamburg (٢٨).
HOHENBERGER (J.). — 1956. « Comparative Masai word list », *Africa*, 26 : 281-7 (٢٦) (١٢).
HOLAS (B.). — 1950. « Notes préliminaires sur les fouilles de la grotte de Blandé », *B.I.F.A.N.* 12 : 999-1006 (٢٤).
— 1952. « Note complémentaire sur l'abri sous roche de Blandé (Guinée) », *B.I.F.A.N.* 14 : 1341-52 (٢٤).
HOLAS (B.) et MAUNY (R.). — 1953. « Nouvelles fouilles à l'abri sous roche de Blandé (Guinée) », *B.I.F.A.N.* 15 : 1605-17 (٢٤).
HOMBURGER (L.). — 1930. « Les dialectes copte et mandé », *B.S.L.* 3, 1 (المقدمة العامة)
— 1930. « Le bantou et le mandé », *B.S.L.* 135, 43 (المقدمة العامة)
— 1936. « Le verbe en peul et en massaï », *Anthropologie* 46 (المقدمة العامة)
— 1941. *Les Langues négro-africaines et les peuples qui les parlent*, Paris, Payot, 350 p. (١٢) (المقدمة العامة) .
— 1948-50. « Eléments dravidiens en peul », *J.S.A.* 18, 2 (المقدمة العامة)
— 1958. « La linguistique et l'histoire de l'Afrique », *B.I.F.A.N.* XX, 3, 4 : 554-61 (١٠).
L'HONORE-NABER (S.L.). — 1931. *Reisebeschreibungen von deutschen Beamten und Kriegsleuten im Dienst der Niederländischen West und Ost indischen Kompanien 1602-1797*, La Haye, 13 vol. (٦).

HOORE (J. D'). — 1964. *Carte des sols d'Afrique au 1:5 000 000 et mémoire explicatif*, Lagos, CCTA (١٣).

HORTON (J.A.B.). — 1868. *West african countries and peoples... and a vindication of african race*, Londres (٦).

HOUDAS (O.). *Documents arabes relatifs à l'histoire du Soudan*, Paris, Leroux (المقدمة العامة)

HOUIS (M.). — 1955. « Problèmes linguistiques de l'Ouest africain », *Guide bleu de l'Afrique occidentale française*, Paris, Hachette (١١).

— 1958. « Quelques données de toponymie ouest-africaine », *B.I.F.A.N.*

— 1961. « Mouvements historiques et communautés linguistiques dans l'Ouest africain », *L'homme*, I, 3 : 72-92 (١١).

— 1971. *Anthropologie linguistique de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١١) (١٠) (المقدمة العامة).

HOWELL (F.C.). — 1965. (The editors of Life) *Early man*, New York, Time Inc. 200 p. (١٩).

— 1969. « Remains of Hominidal from Pliocene-Pleistocene Formations in the lower Omo Basin, Ethiopia », *Nature*, 223,20 : 1234-9 (١٧).

— 1969. « Hominid teeth from White Sands and Brown Sands localities, lower Omo Basin, Ethiopia », *Quaternaria*, XI : 47-64 (١٧).

HOWELL (F.C.), COPPENS (Y.) et HEINZELIN (J. DE). — 1974. « Inventory of Remains of Hominidae from Pliocene-Pleistocene. Formations of the lower Omo Basin, Ethiopia (1967-1972) », *A.J.P.A.* 40, 1 :1-16 (١٧).

HOWELLS (W.W.). — 1972. « 20 millions d'années pour faire un homme, les origines de l'homme », *le Courrier* 8-9 : 4-13 (الخاتمة) .

HRBEK (I.). — 1965. Actes du XII[e] Congrès international des Sciences historiques, t.V, Vienne, Horn Austria : Berger (٥).

— 1966. *Dejiny Afriky*, Prague, 2 vol. (المقدمة العامة)

HUARD (P.). — 1960. « Contribution à l'étude anthropologique des Teda du Tibesti », *B.I.F.A.N.* B, XXII, 1-2 : 179-201 (٢٨).

— 1963. « Gravures rupestres de l'Ennedi et des Erdis », *B.I.R.S.C.*, 2 : 3-39 (٢٦).

— 1964. « Un établissement islamique tchadien ouogayi », *B.I.F.A.N.*, B, XXII, 1-2 (٢٨).

— 1966. « Introduction et diffusion du fer au Tchad », *J.A.H.* 7, 3 : 377-407 (٢٤).

— 1969. « Aires ou origines de quelques traits culturels des populations pré-islamiques du Bas Chari, Logone », *Actes 1[er] coll. Intern. Archéol. Afr.* : 179-224 (المقدمة العامة)

HUARD (P.) et BECK (P.). — 1969. *Tibesti, carrefour de la préhistoire saharienne*, Paris (٢٦).

HUARD (P.) et LECLANT (J.). — 1973. « Figurations de chasseurs anciens du Nil et du Sahara », *R.E.* 25 (٢٦).

HUBERT (R.). — 1922. « Objets anciens de l'Afrique occidentale », *B.C.E.H.S.* 5 : 382-99 (٢٤).

HUE (E.). — 1912. « L'Age de la pierre au Fouta Djalon », *B.S.P.F.* 2 (٢٤).

HUGOT (H.J.). — 1955. « Du Capsien au Tidikelt », *Actes II^e Congr. P.P.E.Q.* : 601-3 (٢٣).
— 1955. « Un gisement de pebble-tools à Aoulef », *Trav. I.R.S.* 13 : 131-49 (٢٣).
— 1957. « Essai sur les armatures de pointes de flèches du Sahara », *Libyca*, 5 : 89-236 (٢٤).
— 1962. *Documents scientifiques des missions Berliet-Ténéré-Tchad*, Paris, A.M.G. (٢٣).
— 1963. « Recherches préhistoriques dans l'Ahaggar nord-occidental 1950-1957 », *Mém. C.R.A.P.E.* (٢٤) (٢٣).
— 1964. « Etat des recherches préhistoriques dans l'Afrique de l'Ouest, 1964-1965 », *W.A.A.N.* 1 : 4-7 (٢٤).
— 1966. « Limites méridionales dans l'Atérien », *Actas V Congr. P.P.E.C.* (22) (٢٤).
— 1966. « Présence d'un faciès archaïque du Paléolithique inférieur à Dakar », *B.I.F.A.N.*, A, 28 : 415-6 (٢٤).
— 1970. *L'Afrique préhistorique*, Paris, Hatier, 128 p. (٢٣) (٢١)
— 1974. *Le Sahara avant le désert*, Paris, Les Hespérides (٢٦) (٢٥)
HUGOT (H.J.) *et al.*. — 1973. *Tichitt I*, rapport scientifique (ronéo) (٢٣).
HUGOT (H.J.) et BRUGGMANN (M.). — 1976. *Les gens du matin, Sahara, dix mille ans d'art et d'histoire*, Paris-Lausanne (٢٣).
HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1956. « The "Nilo-Hamitic" languages », *S.W.J.A.* 12 : 200-22 (١٢).
HUNWICK (J.O.). — 1962. « Arabic manuscript material bearing on the history of the Western Sudan », Supplement, *B.N.H.S.N.* VII, 2 : 1-9 (المقدمة العامة) (٥) (٦)
— 1973. « The mid-fourteenth century capital of Mali », *J.A.H.* 14, 2 (المقدمة العامة) (٢٤).
HUZAYYIN (S.A.). — 1936. « Glacial and pluvial episodes of the diluvium of the old world », *Man*, 36 : 19-22 (٢٣).
— 1941. *The place of Egypt in prehistory*, Le Caire (٢٥).
IAKIMOV (V.P.). — 1972. « Deux grandes théories sur l'apparition des races », *Le Courrier* (août-sept.), (الخاتمة) .
ILIFFE (J.). — 1969. *Tanganyika under german rule 1905-1912*, Cambridge, Camb. Univ. Press, XIII, 235 p. (٣).
INSKEEP (R.R.). — 1969. « Some problems in relation to the Early Stone Age in South Africa », *S.A.R.B.* XXIV, 3-4 : 174-81 (٢٠).
ISAAC (G.L.). — 1966. « The geological history of the Olorgesailie area... », *Proc. 5^th P.C.P.Q.S.* 2 : 125-44 (١٩).
— 1971. « The diet of early man : Aspects of archaeological evidence from Lower and Middle Pleistocene sites in Africa », *W.A.* 2 : 278-98 (٢٠).
— (sous presse) « East Rudolf... », *Proc. 7^th P.C.P.Q.S.*, 1977 (١٩).
ISAAC (G.L.), LEAKEY (R.E.F.) et BEHRENSMEYER (A.K.). — 1971. « Archaeological traces of early hominid activities, east of Lake Rudolf, Kenya », *Science* 173 : 1129-34 (١٧).

ISAAC (G.L.) et MCCOWN (E.R.). — 1976. *Human origins : Louis Leakey and the East African evidence*, Los Angeles-Berkeley (١٩).
ISAAC (N.). — 1836. *Travels and adventures in Eastern Africa*, London, 2 vol. (٦)
ISKANDER (Z.). — 1960. « The scientific study and conservation of the objects and materials found in the discovery of the wooden Boat at Giza », *The Cheops Boats*, Ire partie, Le Caire, Antiquities Department of Egypt (٩).
— 1961. « Chemical identification of the samples found at the Monestary of Phoebanmon », C. Bachatly (éd.), *Le monastère de Phoebanmon dans la Thébaïde*, Le Caire, Société d'archéologie copte (٩).
ISKANDER (Z.) et SHAHEEN (A.E.). — 1964. « Temporary stuffing materials used in the process of mummification in Ancient Egypt », *A.S.A.E.* LVIII (٩).
ISNARD (H.). — 1964. *Géographie de l'Afrique tropicale*, Paris, P.U.F. (13).
— 1966. *Le Maghreb*, Paris, P.U.F., 272 p. (١٣).
JABVU (D.T.). — 1920. *The black problem : papers and address on various native, problems*, Lovedale (٦).
JACQUARD (A.). — 1974. « Distances généalogiques et distances génétiques », *C.A.E.H.* : 11 (١٠).
JANMART (J.). — 1953. « The Kalahari sands of the Lunda (N-E. Angola), their earlier redistribution and the Sangoen culture », *C.D.A.P.C.* 20 (٢١).
JASON (H.). — 1959. « A multidimensional approach to oral literature », *C.A.* X, 5 : 413-26 (٧).
JEFFREYS (M.D.W.). — 1963. « How ancient is West African maize ? » *Africa*, 33 : 115-31 (٢٤).
JOHANSON (D.C.) et COPPENS (Y.). — 1976. « A preliminary anatomical diagnosis of the first Plio-Pleistocene hominid discoveries in the Central Afar, Ethiopia », *A.J.P.A.* 45, 2 : 217-34 (١٧).
JOHANSON (D.C.) et TAIEB (M.). — 1976. « Pliocene hominid remains from Hadar, Central Afar, Ethiopia », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* 120-37 (١٧).
— 1976. « Plio-Pleistocene hominid discoveries in Hadar, Ethiopia », *Nature*, 260, 5549 : 293-7 (١٧).
JOHNSON (S.). — 1921. *The history of the Yoruba. From the earliest times to the beginning of the British protectorate*, Lagos C.M.S. (Nigeria) Bookshops, IX, 684 p. (١٠)(٣).
JOHNSTON (H.H.). — 1919-22. *A comparative study of the Bantu and semi-bantu languages*, Oxford, Clarendon Press, 2 vol. (١٢).
JOIRE (J.). — 1947. « Amas de coquillages du littoral sénégalais dans la banlieue de Saint-Louis », *B.I.F.A.N.* 9 : 170-340 (٢٤).
JONES (D.H.). — 1949. *The prehistory of Southern Rhodesia*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (المقدمة)
— 1958. « Report on the second conference of London on History and Archaeology in Africa », *Africa*, 28, 1 (المقدمة).
— 1970. « Problems of african Chronology », *J.A.H.* XI, 2 : 161-76 (٧).
JOUBERT (G.) et VAUFREY (R.). — 1941-46. « Le Néolithique du Ténéré », *L'Anthropologie*, 50, 3-4 : 325-30 (٢٣).

JULIEN (Ch.-A.). — 1931. *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 2 vol. (المقدمة العامة) (٥)
— 1944. *Histoire de l'Afrique*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة)
— 1952. *L'Afrique du Nord en marche*, Paris, R. Julliard, 439 p. (٣).
— 1978. *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 372 p., 2 vol.
JUNKER (H.). — 1929-40. « Vorlaüfiger Bericht über die Grabung der Akademie des Wissenschaften in Wien auf des neolitischen Siedlung von Merimde, Benisalame (Westdelta) », *Anzeiger des philo-hist. Klasse des Akademie des Wissenschaften in Wien*, XCI-XVIII : 156-248 ; V-XII : 21-82 ; I-IV : 82-6 ; XVI-XVIII : 53-97 ; X : 118-32 ; I-IV : 3-25 (٢٥) (٢٨).
KABORE (V.). — 1962. Le caractère féodal du système politique mossi, *C.E.A.* : 609-23 (الخاتمة).
KAGAME (A.). — 1970. *Introduction aux grands genres lyriques de l'ancien Rwanda*, Butare (٧).
— 1972. *Un abrégé de l'ethno-histoire du Rwanda*, Butare (٧).
KAISER (W.). — 1977. « Zur inneren Chronologie des Nagadakultur », *A.G.* 6 (٢٨).
KALK (P.). — 1972. « Pour une localisation du Royaume de Gaoga », *J.A.H.* XIII, 4 (المقدمة العامة)
KAMARA (Ch.-M.). — 1970. « La vie d'El-Hadji Omar », *B.I.F.A.N.* B, 32 : 370-411 (٣).
KARDINER (A.) et PREBLE (E.). — 1964. *Introduction à l'ethnologie*, Paris, Gallimard.
KEES (H.). — 1961. *Ancient Egypt, a cultural topography*, Londres, Faber and Faber (٢٨).
KELLER (C.M.). — 1970. « Montagu Cave : a preliminary report », *Quaternaria* XIII : 187-204 (٢٠).
KENNEDY (R.A.). — 1960. « Necked and lugged axes in Nigeria », *Antiquity*, 34 : 54-8 (٢٤).
KENSDALE (W.E.N.). *A catalogue of the arabic manuscripts preserved in the university library*, Ibadan (Nigeria) (المقدمة العامة) (٥) (٦)
KENT (P.E.). — 1942. « Pleistocene climates in Kenya and Abissinia », *Nature*, 149 : 736-7 (٢١).
KENT (R.K.). — 1970. *Early Kingdoms in Madagascar, 1500-1700*, New York, Holt Rinehart and Winston, XVI + 336 p. (٣).
KESTELOOT (L.). — 1978. *Da Monzon de Ségou. Epopée Bambara*, Paris, F. Nathan, 2 vol. (الخاتمة)
KHALIL (F.). — 1963. « La faune du continent africain : taxonomie, écologie et zoogéographie », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, pp. 285-325 (١٣).
KILHAM (H.). — 1828. *Specimens of African languages spoken in the colony of Sierra Leone*, Londres, XI + 69 p. (١٢).
KIWANUKA (M.S.H.). — 1967. « Some reflections on the role of oral Tradition in the Writing of the pre-colonial history of Africa », *Acta Africana*, VI, 1 : 63-74 (٤).

KI-ZERBO (J.). — 1964. *Le Monde africain noir*, Paris, Hatier (المقدمة العامة).
— 1957. Histoire et conscience nègre, *Présence africaine*, n° 16, pp. 53-69 (II). (المقدمة العامة)
— 1969. « La tradition orale en tant que source pour l'histoire africaine », *Diogène*, 67 : 127-42 (المقدمة العامة)
— 1978. *Histoire de l'Afrique Noire*, 2ᵉ éd., Paris, Hatier (١٠) (المقدمة العامة) (٢٦).
KLEIN (R.G.). — 1970. « Problems in the study of the Middle Stone Age of South Africa », *S.A.A.B.* XXV : 127-35 (٢٠).
— 1972. « Preliminary report of the july through september, 1970, Excavations at Nelson Bay Cave, Plettenberg Bay (Cape province, South Africa) », *Palaeoecology of Africa* 6 : 117-208 (٢٠).
— 1972. « The late Quaternary mammalian fauna of Nelson Bay Cave (Cape province South Africa) : its implication for Negafaunal extinctions and environmental and cultural changes », *Quaternary research*, 2, 2 : 135-42 (٢٠)
KOECHLIN (J.). — 1963. « La flore du continent africain ; région du sud du Sahara », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, 271-284 (١٣).
KOELLE (S.W.). — 1963. *Polyglotta Africana, or a comparative vocabulary of nearly 300 words and phrases in more than 100 distinct African languages*, 2ᵉ éd., Graz (١٢) (١٠) (٦).
KOELLE (S.W.) et GUTHRIE (M.). — 1970. *African language studies* XI (12).
KOHLER (O.). — 1955. *Geschichte der Erforschung des nilotischen Sprachen*, Berlin (١٠).
KOLB (P.). — 1719. *Vollständige Beschreibung des afrikanischen Vorgebirges der Guten Hoffnung*, Nüremberg (٦).
KOLTHOFF (I.M.), SANDELL (E.B.), MEEHAN (E.J.) et BRUCKENSTEIN (S.). — 1969. *Quantitative chemical analysis*, 4ᵉ éd., New York, Mac Millan, XII + 1200 p. (٩).
KOUYATE (N.). — 1969-1970. *Recherches sur la tradition orale au Mali (Pays Manding)*, mémoire de recherche, non édité, Alger, Université d'Alger (٨).
KRZYZANIAK (L.). — 1972. « Preliminary report on the first season of excavations at Kadero, Sudan », *Trav. C.A.M.A.P.* (avril) (٢٥).
— 1977. « Early Farming Cultures on the Lower Nile », *Trav. C.A.M.A.P.* 21 (٢٨).
KUBBEL (L.E.) et MATVEÏEV (V.V.). — 1960 et 1965. *Sources arabes pour l'ethnographie et l'histoire des peuples d'Afrique au sud du Sahara* (VIIᵉ au XIIᵉ siècle), Moscou, 2 vol. (٥) (٣) (المقدمة العامة)
KUKLA (G.J.) et MATTHEWS (R.K.). — 1972. « When will the present interglacial end ? », *Science*, 178 : 190-191 (١٦).
KUPTSOV (A.). — 1955. « Geographical distribution of cultivated flora and its historical development », *B.A.U.G.S.* 87 (٢٧).
LAJOUX (J.D.). — 1977. *Tassili N'Ajjer*, Paris, Chêne (٢٦).

LALL (B.B.). — 1967. *Indian archaeological expedition to Nubia*, 1962, Cairo, Antiq.·Egypt. Serv. (٢٥).
LAMB (H.H.). — 1974. « Remarks on the current climatic trend and its perspective », *W.M.O.*, 421 : 473-7 (١٦).
LAMBERT (N.). — 1970. « Medinet Sbat et la Protohistoire de Mauritanie occidentale », *A.A.* 4 : 15-62 (٢٤).
— 1971. « Les industries sur cuivre dans l'Ouest africain », *W.A.J.A.* 1 : 9-21 (٢٤).
LANFRANCHI (R.). — 1976. *Rapport des missions d'études et de recherches préhistoriques pour l'année scolaire 1975-76*, Brazzaville, Laboratoire d'anthropologie de l'Université de Brazzaville, 28 p. (٢١).
LAROUI (Abd.). — 1970. *L'Histoire du Maghreb*, Paris, Maspero (٥).
LASSORT (A.). « L'écriture guerzée », *C.R. 1re Conf. afr. Ouest*, Dakar, I.F.A.N. (المقدمة العامة)
LAUDE (J.). — 1966. *Les Arts de l'Afrique noire*, Paris, Le Livre de poche (المقدمة العامة).
LAUER (J.P.) et DEBONO (F.). — 1950. « Technique du façonnage des croissants de silex utilisés dans l'enceinte de Zozer à Saqqarah », *A.S.A.E.*, vol. L pp. 2 et sq. (٢٥).
LAW (R.C.C.). — 1967. « Contacts between the Mediterranean civilizations and West Africa in pre-islamic times », *L.N.R.* 1, 1 : 52-62 (٢٤).
— 1971. « The constitutional troubles of Oyo », *J.A.H.* XII, 1 (المقدمة العامة).
LAWSON (A.C.). — 1927. *The Valley of the Nile*, Univ. Calif. Chron., 29, 235-259 (١٦).
LAYA (D.). — 1972. *La tradition orale : problématique et méthodologie des sources de l'histoire africaine*, Centre régional de documentation pour la tradition orale, Niamey (١٥) (٧).
LEAKEY (L.S.B.). — 1936. *Stone Age Africa*, Oxford (١٩).
— 1949. « Tentative study of the Pleistocene climatic changes and Stone-Age culture sequence in North-Eastern Angola », *C.D.A.P.C.* 4, 82 p. (٢١).
— 1950. « The lower limits of the Pleistocene in Africa », *Report on the XVIIIth international geology Congress* (Londres, 1948), 9 : 62-5 (٢٤).
— 1952. *Proceedings of the Panafrican Congress on Prehistory*, Oxford, Blackwell, VIII + 239 p. (٢٤).
— 1965. *Olduwai Gorge — 1951-1961 — Fauna and Background*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 118 p. (١٧).
— 1971. *Stone Age Cultures of Kenya Colony* ; Cass, Londres (١٩).
LEAKEY (L.S.B.), LEAKEY (M.D.) et al. — 1965-71. *Olduwai Gorge*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, Vol. I-III (٢٠) (١٩) (١٨)
LEAKEY (M.D.). — 1970. « Early artefacts from the Koobi Fora area », *Nature*, 226 : 228-30 (٢٤) (١٧).
— 1971. *Olduwai Gorge, excavations in beds I and II — 1960-1963*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 306 p. (١٧).
LEAKEY (M.D.), HAY (R.L.), CURTIS (G.H.), DRAKE (R.E.), JACKES (M.K.) et WHITE (T.D.). — 1976. « Fossil Hominids from the Laetolil beds », *Nature*, 262 : 460-6 (١٧).

LEAKEY (R.E.F.). — 1970. « New hominid remains and early artefacts from northern Kenya », *Nature* 226 : 223-4 (١٧).
— 1971. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya », *Nature* 231 : 241-5 (١٧).
— 1972. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya 1971 », *Nature* 237 : 264-9 (١٧).
— 1973. « Evidence for an advanced Plio-Pleistocene hominia from East Rudolf, Kenya », *Nature* 242 : 447-50 (٢٤)(١٧).
— 1973. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya, 1972 », *Nature* 242 : 170-3 (١٨)(١٧).
— 1973. « Skull 1470 », *Natural Geographic*, 143 : 818-29 (١٨)(١٧).
— 1974. « Further evidence of Lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya, 1973 », *Nature* 248 : 653-6 (١٨)(١٧)

LEAKEY (R.E.F.), BUTZER (K.W.) et DAY (M.H.). — 1969. « Early Homo Sapiens remains from the Omo River Region of South-West Ethiopia », *Nature*, 222, 5199 : 1137-43 (١٧).

LEAKEY (R.E.F.) et ISAAC (G.L.). — 1972. « Hominid fossils from the area east of Lake Rudolf, Kenya : photographs and a commentary on context », S.L. WASCHBURB and P. DOLHINOW (éd.) *Perspectives on human evolution*, San Francisco, Holt Rinehart and Winston, 129-40 (١٨)(١٧).

LEAKEY (R.E.F.), MUNGAI (J.M.) et WALKER (A.C.). — 1971. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya », *A.J.P.A.* 35 : 175-86 (١٧).
— 1972. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya, II », *A.J.P.A.* 36 : 235-51 (١٧).

LEAKEY (R.E.F.) et WALKER (A.C.). — 1973. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya, III » *A.J.P.A.* 39 : 205-22 (١٧).

LEAKEY (R.E.F.) et WOOD (B.A.). — 1973. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, II », *A.J.P.A.* 39 : 355-68 (١٧).
— 1974. « A hominid mandible from East Rudolf, Kenya », *A.J.P.A.* 41 : 245-50 (١٧).
— 1974. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, IV », *A.J.P.A.* 41 : 237-44 (١٧).

LEBEUF (J.P.). — 1956. « La civilisation du Tchad », *Proc III Internat. W.A.C.* : 293-6 (٢٤).
— 1962. *Archéologie tchadienne*, Paris, Hermann (٢٤).
— 1962. « Caractères particuliers de la recherche historique en Afrique », *Revue de psychologie des peuples* (١٥).
— 1969. « Essai de chronologie sao », *Actes Ier coll. intern. Archéol. afr.* : 234-41 (٢٤).
— 1969. *Carte archéologique des abords du lac Tchad*, Paris, C.N.R.S., p. 171 + cartes (٢٤).

LECLANT (J.). — 1956. « Le Fer dans l'Egypte ancienne, le Soudan et l'Afrique », *Actes Coll. Intern. Fer* : 83-91 (٢٨).

LEE (D.N.) et WOODHOUSE (H.C.). — 1970. *Art on the rocks drawing by Marion Didcott Purnell*, Cape Town - Londres (٢٦).

LEE (R.B.). — 1966. « The kung bushman subsistence : an input/output analysis », D. DAMAS, éd., « Ecological essays », *Proc. Conf. Cult. Ecol.* 230 (٢٧) .

LEE (R.B.) et DEVORE (I.) éd. — 1968. *Man the Hunter*, Chicago (١٩) .

LEFEBVRE (G.). — 1949. *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique*, Paris (٢٨) .

LEFEVRE (H.). — 1974. *La Production de l'espace*, Paris, Anthropos (١٥) .

LE GROS-CLARK (W.E.). — 1972. *The fossil evidence for human evolution*, 2e éd., Chicago, University of Chicago Press, 201 p. (١٨) .

LEIRIS (M.) et DELANGE (J.). — 1967. *Afrique noire, la création plastique*, Paris, Gallimard . (المقدمة العامة)

LENZ (O.). — 1884. *Timbuktu*, Leipzig, 2 vol. (٢٣) .

LEPSIUS (C.R.). — 1863. *Standard alphabet*, Londres, Williams and Norgate, XVIII + 315 p. (١٢) .

— 1888. *Nubische Grammatik*, Berlin, 506 p. (١٢)(١٠) .

LEROI-GOURHAN (A.). — 1943. *Evolution et techniques*, vol. I : « L'homme et la matière », Paris, Albin-Michel (الخاتمة) .

— 1945. *Evolution et techniques*, vol. II : « Milieu et techniques », Paris, Albin-Michel (الخاتمة) .

— 1969. *Sur le « mode de production asiatique »*, Paris, Editions sociales (الخاتمة) .

— 1974. « Analyses polliniques, préhistoire et variations climatiques quaternaires », *in* « Les méthodes quantitatives d'étude des variations du climat au cours du Pléistocène », *Colloques internationaux du C.N.R.S.*, 219 : 61-6.

LEROY (P.). — 1953. « La préhistoire à Brazzaville et dans le Moyen Congo », *Liaison*, 31 : 39-43 (٢١) .

LESLAU (W.). — 1949. « Revue d'essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique », *L.G.* 25 (١٠) .

— 1963. *Etymological dictionary of Harari*, Los Angeles, Berkeley, Univ. California Press (١١) .

LE TOURNEAU (R.). — 1954. « Les archives musulmanes en Afrique du Nord », *Archivum*, 4.

LEVAILLANT (G.). — 1970. *Travels from the Cape of Good Hope into the interior parts of Africa*, Londres (٦) .

LEVI-PROVENCAL (E.). — 1922. *Les Historiens des Chorfa, essai sur la littérature historique et biographique du Maroc du XVIe au XXe siècle*, Paris (٦) .

LEVTZION (N.). — 1968. « Ibn-Hawqual, the Cheque and Awdaghost », *J.A.H.*, 9, 2 : 223-33 (٢٤) .

— 1971. « The early states of the Western Sudan to 1500 », J.F.A. AJAYI et M. CROWDER (éd.), *History of West Africa*, London, Longman, I : 120-37 (٢٤) .

LEWICKI (T.). — 1961. « Les historiens biographes et traditionalistes des Ibadites », *Folia orientalia*, 3, Cracovie (٦) .

— 1971. « The Ibadites in Arabia and Africa », *C.H.M.* XII, 1 : 51-130 (٥).

LEWIN (S.Z.). — 1968. « The conservation of limestone objects and structures », *Study of Weathering of Stones*, ICOMOS, vol. I, pp. 41-50, Paris (١).

LHOTE (H.). — 1958. *A la découverte des fresques du Tassili*, Paris, Arthaud (٢٣).

— 1966. « La route des chars de guerre libyens, Tripoli-Gao », *Archeologia*, 9 : 28-35 (٢٤).

— 1970. « Les gravures rupestres du Sud oranais », *M.C.R.A.P.E.* XVI, 208 p. (٢٢).

— 1976. *Vers d'autres Tassili*, Paris, Arthaud (٢٦).

LHOTE (H.) et KELLEY (H.). — 1936. « Gisement acheuléen de l'Erg d'Admer (Tassili des Ajjers) », *J.S.A.*, 6 : 217-26 (٢٣).

LIBBY (W.F.). — 1955. *Radiocarbon dating*, 2e éd., Chicago, Chicago Univ. Press (٢٨).

— 1970. « Radiocarbon dating », *P.T.R.S.*, Londres, vol. A. 269, n° 1193 (٩)

LIBRA. — 1963. « I Cinesi e l'Africa orientale », *Africa*, 18 (٥).

LICHTENSTEIN (H.). — 1811-12. *Reisen in südlichen Afrika in den Jahren 1803, 1804, 1805, und 1806*, Berlin, C. Sulfeld, 2 vol. (١٢)(٦).

LINARES de SAPIR (O.). — 1971. « Shell Middens of lower Casamance and problems of Diola Protohistory », *W.A.J.A.* 1 : 23-54 (٢٤).

LININGTON (R.E.). — 1970. « Techniques used in archaeological field surveys », *P.T.R.S.*, Londres, vol. A. 269, n° 1193 (٩).

LIVINGSTONE (D.). — 1937. *Missionary travels and researches in South Africa*, Londres (٦).

— 1967. « Postglacial vegetation of the Ruwenzori mountain in Equatorial Africa », *Ecol. Monogr.* (١٦).

LIVINGSTONE (F.B.). — 1958. « Anthropological implications of sickle cell gene distribution in West Africa », *A.A.* 60, 3 : 533-62 (٢٤).

LO (A.). — 1934. « Bindoum Cholofol ti arab toubab », Saint-Louis (١٠).

LOMBARD (J.). — 1935. « Quelques remarques sur le Quaternaire de l'Afrique tropicale équatoriale », *J.S.A.* V : 175-80 (٢١).

LOVEJOY (P.E.). — 1979. *Indigenous African Slavery*, Slave studies conference, Univ. of Waterloo, Ontario.

LUCAS (A.). — 1962. *Ancient Egyptian materials and industries*, 4e éd., revised & enlarged by J.R. HARRIS, Londres, E. Arnold (٢٨)(٩).

LUCAS (C.P. Sir). — 1887-1923. *Historical geography of the British colonies*, 15 vol. (١).

LUCAS (J.O.). — 1938. « Der hamitische Gehalt der Tschadchamistischen Sprachen », *Z.E.S.* 28 : 286-99 (١٢).

— 1948. *The Religion of the Yoruba in relation to the religion of Ancient Egypt*, Lagos, C.M.S. Bookshop, XII + 420 (٢٤).

LUCAS (S.A.). — 1967. *L'Etat traditionnel luba*, deuxième partie, « Mythe et structure politique luba — Problèmes sociaux congolais », 79, pp. 93-116, Kinshasa (٧),

LUDOLF (H.). — 1681. *Historia Aethiopica*, Francfort (٦).

LUKAS (J.). — 1936. « The linguistic situation in the lake Chad area of Central Africa », *Africa*, 9 : 332-49 (١٠).
LYNCH (H.R.). — 1967. *Edward Wilmot Blyden, pan-negro patriot, 1832-1912*, London (٦).
MACAULAY (Th. B.). — 1971. « Minute on Indian Education of February 2, 1835 », Ph. D. CURTIN (éd.) *Imperialism*, New York, Walker, 13 p. (٣).
MAC BURNEY (C.D.M.). — 1967. *The Haua Fteah (Cyrenaica) and the stone age of south east Mediterranean*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (٢٤).
MAC BURNEY (C.D.M.) et HEY (R.W.). — 1955. *Prehistory and Pleistocene geology in Cyrenaican Libya*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (٢٣).
MAC CALL (F.D.). — 1969. *Africa in time's perspective*, New York, Oxford Univ. Press (١٥) (المقدمة العامة).
MAC GAFFEY (W.). — 1974. « Oral Tradition in Central Africa », *I.J.A.H.S.* VII : 417-26 (٨).
MACGREGOR (J.K.). — 1909. « Some notes on Nsibidi », *J.R.A.I.*, vol. 39, pp. 215, 217, 219 (١٠).
MACIVER (D.R.) et MACE (A.C.). — 1902. *El-Amrah and Abydos, 1899-1901*, Londres (٢٨).
MAC NEISH (R.S.). — 1964. « Ancient mesoamerican civilisation », *Science*, 143 (٢٧).
MAES (E.). — 1924. « Notes sur les pierres taillées de Tundidarou », *B.C.E.H.S.* 31-8.
MAHABAVA (J.). — 1922. *The color bar in South Africa*, Lovedale (٦).
MAITRE (J.-P.). — 1971. « Contribution à la préhistoire de l'Ahaggar, I, Tefedest central », *M.C.R.A.P.E.* XVII, 225 p. (٢٣).
MALCOM X. — 1967. *On Afro American history*, New York, Merit. Publishers (المقدمة العامة)
MALEY (J.). — 1973. « Mécanisme des changements climatiques aux basses latitudes », *P.P.P.* 14 : 193-227 (١٦).
MALOWIST (M.). — 1969. *L'Europe et l'Afrique au commencement de l'Exposition coloniale*, Varsovie (المقدمة العامة).
MANESSY (G.). — 1971. « Les langues Gurma », *B.I.F.A.N.* (١٠).
MANSO (P.). — 1877. *Historia da Congo*, Documentos, Lisbonne (٦).
MANTRAN (R.). — 1965. *Inventaire des documents turcs en Tunisie*, Paris (٦).
MAQUET (J.-J.). — 1961. « Une hypothèse pour l'étude des féodalités africaines », *C.E.A.* 6, 11 : 292-314 (١٥).
— 1970. *Pouvoir et société en Afrique*, Paris, Hachette (الخاتمة).
MARET (P. DE). — A paraître. « Premières datations pour des haches polies associées à la céramique au Bas-Zaïre », *Actes IXe Congr. U.I.S.P.P.* A paraître. « Bribes, débris et bricolage », *Coll. C.N.R.S. l'Expansion bantu, Actes*, 1977 (٢١).
MARET (P. DE), NOTEN (F. VAN) et CAHEN (D.). — 1977; « Radiocarbon dates from Central Africa : a synthesis », *J.A.H.*, XXVIII, 4 (٢١).

MARIN (Ph.). — 1972. « Classification formelle automatique et industries lithiques. Interprétation des hachereaux de la Kamoa », *A.M.R.A.C.* 76 (٢١).
MARIN (Ph.) et MOEYERSONS (J.). — 1977. « Subsurface movements of stone artefacts and their implications for the prehistory of Central Africa », *Nature*, 266, 5605 : 812-5 (٢١).
MARIN (Ph.) et MORTELMANS (G.). — 1973. « Un site tshitolien sur le plateau des Bateke (République du Zaïre) », *A.M.R.A.C.* 81, 46 p. (٢١).
MARLIAC (A.). — 1973. « Prospection archéologique au Cameroun », *C.O.R.S.T.O.M.* X : 47-114 (٢١).
MARROU. — 1954. *De la connaissance historique*, Paris, Seuil (٥) (المقدمة العامة) (٦).
MARTIN (B.G.). — 1969. « Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1576-78 », S.M. STERN (éd.), *Documents from islamic chanceries II*, Oxford (٦) (٥) (المقدمة العامة).
MARTIN (D.) et YANNOPOULOS (T.). — 1973. *Guide de recherches. L'Afrique noire*, Paris, A. Colin, 195 p. (١٥).
MARTIN DEL MOLINO (A.). — 1963. « Secuencia cultural en el Neolitico de Fernando Poo », *Trabajos de prehistoria, Seminario de historia primitiva del hombre de la universidad de Madrid*, vol. XVII (٢٤) (٢١).
MARTINS (R.). — 1976. « A estaçào arqueológica da antiga Banza Quibaxe », *Contribuçoes para o estudo da anthropologia portuguese*, Coimbra, IX, 4 : 242-306 (٢١).
MARTY (P.). — 1927. *Les Chroniques de Oualata et de Nema*, Paris, Geuthner (٦).
MARX (K.). — éd. 1972. *Contribution à la critique de l'économie politique*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
MARX (K.) et ENGELS (F.). — éd. 1952. *Formen*, Berlin, Dietz Verlag (الخاتمة).
— éd. 1968. *L'Idéologie allemande*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
MASON (R.J.). — 1962. *The Prehistory of the Transvaal*, Witwatersrand University Press, Johannesburg (٢٠).
MASSAQUOI (M.). — 1911. « The Vaï people and their syllabic writing », *J.A.S.* : 10-40 (المقدمة العامة)
MASSOULARD (E.). — 1949. « Préhistoire et Protohistoire d'Egypte », *T.M.I.E.* III (٢٨).
MATHEUS (A. DE). — 1952. « Nota preliminar Acerca da Estaçào Prehistórica de Nhampasseré », *C.R.C.I.A.O.* IV : 375-86.
MAUNY (R.). — 1947. « Une route préhistorique à travers le Sahara », *B.I.F.A.N.* 9 : 341-57 (٢٤).
— 1951. « Un âge de cuivre au Sahara Occidental ? », *B.I.F.A.N.* 13, 1 : 168-80 (٢٤).
— 1952. « Essai sur l'histoire des métaux en Afrique occidentale », *B.I.F.A.N.* 14 : 545-95 (٢٤).
— 1952. *Glossaire des expressions et termes locaux employés dans l'Ouest africain*, Dakar, I.F.A.N. (١٠).

— 1955. « Contribution à l'étude du Paléolithique de Mauritanie », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 461-79 (٢٤).
— 1955. « Les gisements néolithiques de Karkarichinkat », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 616-9 (٢٤).
— 1957. « Buttes artificielles de coquillages de Joal-Fadioute », *N.A.* 7, 75 : 73-8 (٢٤).
— 1960. « Reviews of Cheikh Anta Diop's "Nations nègres et culture" and "l'Afrique Noire précoloniale" », *B.I.F.A.N.* B, 22 : 544-5 (24).
— 1961. *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition orale et l'archéologie*, Dakar, I.F.A.N. 587 p. (٢٦) (٢٥) (٢٤) (٥)
— 1963. « Contribution à la préhistoire et la protohistoire de la région de Kédougou (Sénégal oriental) », *B.S.A.* 5, 11 : 113-22 (٢٤).
— 1968. « Commentaires sur "West Africa before the Europeans" par Olivier Davies », *B.I.F.A.N.* B, 30 : 1283-4 (٢٤).
— 1970. « Le périple d'Hannon, un faux célèbre concernant les navigations antiques », *Archéologia*, 37 : 78-80 (٢٤).
— 1970. *Les Siècles obscurs de l'Afrique noire*, Paris, Fayard (٢٤) (٥).
— 1973. « Datation au carbone 14 d'amas de coquillages des lagunes de Basse Côte-d'Ivoire », *W.A.J.A.* 3 : 207-14 (٢٤).
MAUNY (R.) et HALLEMANS (J.). — 1957. « Préhistoire et Protohistoire de la région d'Akjoujt (Mauritanie) », *Proc. III P.C.P.Q.S.* 248-61 (٢٤).
MAZRUI (A.A.). — 1969. European exploration and Africa's self discovery, *J.M.A.S.* 7, 4 (٦).
MAZRUI (S.A.). — 1944. *Tarikh al-Mazari*, Arabic MS in photostat in the possession of G.S.P. Freeman-Grenville (٦) (٥) (المقدمة العامة)
MBITI (J.). — 1967. « Afrikaanse begrippen van tijd, geschiedenis en de dood », *Africa*, 21, 3 : 78-75 (٧).
MEEK (Ch.). — 1931. *Tribal studies in Northern Nigeria*, Londres, 2 vol. (١٠).
MEILLASSOUX (C.). — 1972. « L'itinéraire d'Ibn Battuta de Walata à Mali », *J.A.H.* 13, 3 : 389-95 (٢٤).
— éd. 1975. *L'Esclavage en Afrique précoloniale*, Paris, Maspero, 17 études (الخاتمة).
— 1975. *Femmes, greniers et capitaux*, Paris, Maspero.
— 1977. *Terrains et théories*, Paris, Anthropos.
MEINHOF (C.). — 1904. *Linguistische Studien in Ost Africa*, M.S.O.S. (١٠).
— 1906. *Grundzüge einer vergleichenden Grammatik der Bantu-sprachen*, Berlin (١٠).
— 1912. *Die Sprachen der Hamiten*, Hamburg, XV + 256 p. (١٩) (١٢) (١٠).
— 1919-20. « Afrikanische Wörter in Orientalischer Litteratur », *Z.E.S.* 10 : 147-52 (١٢).
— 1932. *An Introduction to the phonology of the Bantu languages*, Berlin (المقدمة العامة) (١٠)
المكناسي (أ) — ١٩٥٣. «أصول وبيليوغرافيات التاريخ المغربي من القرن السادس عشر الى النصف الاول من القرن العشرين، الرباط (٦).

MENGHIN (O.) et AMER (M.). — 1932 et 1936. *The excavations of the egyptian university in the neolithic site at Maadi, first and second preliminary reports*, Le Caire (٢٥).
MERCIER (P.). — 1966. *Histoire de l'anthropologie*, Paris (المقدمة العامة)
MERIVALE (H.). — 1861. *Lectures on colonization and colonies*, Oxford (١).
METCALFE (G.E.). — 1964. « Great Britain and Ghana », *Documents on Ghana history, 1867-1957*, University of Ghana, Londres, Th. Nelson and Sons (٦).
MICHAEL (H.N.) et RALPH (E.K.). — 1970. « Correction factors applied to egyptian radiocarbon dates from the era before Christ », *Nobell Symposium 12* : 109-20 (٩).
MIGEOD (F.W.) — 1911. *The Languages of West Africa*, Londres (١٠).
MILLER (J.). — 1976. *Kings and Kinsmen : Early Mbundu States in Angola*, Oxford (٨).
MILLER (S.). — 1972. « A new look at the Tshitolian », *Africa-Tervuren*, XVIII, 3-4 : 86-9 (٢١).
MINETTE DE SAINT-MARTIN. — 1914. « Note sur une collection préhistorique saharienne », *Revue africaine* (٢٣).
MIQUEL (A.). — 1977. *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI[e] siècle*, Paris-La Haye, 2 vol. (٥).
MISCHLISH (A.) et LIPPERT (J.). — 1903. *Beiträge zur Geschichte der Haussastaaten*, Berlin (٦) (٥) (المقدمة العامة)
MOEYERSONS (J.). — 1975. « Evolution paléogéographique du site de la Kamon », *A.M.R.A.C.* 84 : 18-46 (٢١).
— 1977. « The behaviour of stones and stone implements buried in consolidating and creeping Kalahari Sands », *Earth Surface Processes*, Leeds.
MOFFAT (R.). —1842. *Missionary labours and scenes in Southern Africa*, Londres (٦).
— 1945. *Matabele journal 1829-1860*, Londres (٦).
MOHAMMADOU (A. et E.). — 1971. « Un nouveau manuscrit arabe sur l'histoire du Mandara », *Revue camerounaise d'histoire*, 1 (المقدمة العامة).
مختار (ح) وهيموروبي (أ) — ١٩٦٥ — ١٩٦٦. «جدول مؤقت للمخطوطات الموريتانية العربية المحفوظة بموريتانيا» نواكشوط — ستوكهولم (المقدمة العامة) (٥) (٦).
MOLENA (S.M.). — 1920. *The Bantu, past and present*, Edimbourg (٦).
MONIOT (H.). — 1962. *Pour une histoire de l'Afrique noire, Annales*, 1 (١٥).
— 1965. « Les sources orales dans le problème des sources de l'histoire de l'Afrique noire jusqu'à la colonisation européenne », *Rap. 12[e] C.I.S.H.* II : 198-208 (١٥).
MONOD (Th.). — 1932. « L'Adrar Ahnet. Contribution à l'étude d'un district saharien », *T.M.I.E.* 19, 200 p. (٢٣).
— 1939. *Contribution à l'étude du Sahara occidental*, Paris, Larose (الخاتمة).
— 1945. « La structure du sahara atlantique », *Trav. I.R.S.*, 3 : 27-55 (٢٣).
— 1957. « Découverte de nouveaux instruments en os dans l'Ouest africain », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 242-7 (٢٤).

— 1958. *Majabat al-Koubra. Contribution à l'étude de « l'empty quarter » ouest saharien*, Mém. I.F.A.N., 52 ; 406 p. (الخاتمة) (٢٣)
— 1963. « The Late Tertiary and Pleistocene in the Saharan and adjacent southerly regions », F.C. HOWELL et F. BOURLIERE (éd.), *African ecology and human evolution*, New York, Viking Fund Publications in Anthropology, 36 (٢٣) (١٦) .
— 1969. « Le "Macden Ijäfen" » : une épave caravanière ancienne dans la Majabat al-Koubra », *Actes I^er^ Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 286-320 (٢٤).
MONOD (Th.) et MAUNY (R.). — 1957. « Découverte de nouveaux instruments en os dans l'Ouest africain », *Proc. III P.C.P.Q.S.* (٢٤).
MONTEIL (V.). — 1965. « Les manuscrits historiques arabo-africains », *B.I.F.A.N.*, B. XXXVII (٦) (المقدمة العامة) .
MONTFRANS (H.M. VAN). — 1971. *Palaeomagnetic dating in the North Sea Basin*, Rotterdam, Prince N.V. (١٦).
MOODIE (D.). — 1960. *The record or a series of official papers relative to the conditions and treatment of the native tribes of South Africa*, Amsterdam (٦).
MOORSEL (H. VAN). — 1959. *Esquisse préhistorique de Léopoldville*, Léopoldville, musée de la Vie indigène (الخاتمة) .
— 1968. *Atlas de préhistoire de la plaine de Kinshasa*, Kinshasa, Pub. Univ. Lovanium, 288 p. (٢١).
MORE (B.). — 1969. « Contribution du Liberia à la science de la communication par écrit », *Symposium du Festival Panafricain d'Alger* (المقدمة العامة)
MOREAU (R.E.). — 1963. « Vicissitudes of the African Biomas in the late Pleistocene », *Proceedings of the zoological Society of London*, 141 : 395-421.
MOREL (J.). — 1953. « Le capsien du Kahnguet el Mouhaâd », *Libyca*, I : 103-19 (٢٢).
MORENO (M.). — 1940. *Manuale di Sidamo*, Roma (١٠).
MORET (A.). — 1931. *Histoire de l'Orient*, Paris, Coll. Glotz (الخاتمة) .
MORGAN (E.). — 1973. *La Fin du surmâle*, Paris, Calman-Lévy (الخاتمة) .
MORGAN (W.B.) et PUGH (J.C.). — 1969. *West Africa*, Londres, 188 p. (١٤).
MORI (F.). — 1965. *Tadrart Acacus. Arte rupestre e culture del Sahara preistorico*, Turin, Einaudi, 260 p. (٢٤) (٢٣).
MORITZ (B.). — 1892. *Sammlung arabischer Schriftstücke aus Zanzibar und Oman mit einem Glossar*, Stuttgart-Berlin (٦) (٥) (المقدمة العامة)
MORNER (N.A.). — 1973. « Climatic changes during the last 35,000 years as indicated by land, sea, and air data », *Boreas*, 2 : 33-53 (١٦).
— 1975. « Eustatic amplitude variations and world glacial changes », *Geology*, 3 : 109-10 (١٦).
MORRISON (R.B.) et WRIGHT (H.E.J.). — éd. 1968. « Means of correlation of Quaternary successions », *Proc. VII Congr. I.N.Q.U.A.*, 8 (١٦).
MORTELMANS (G.). — 1952. « Les dessins rupestres gravés, ponctués et peints du Katanga. Essai de synthèse », *A.M.R.C.B.* : 33-55 (٢١).

— 1952. *Contribution à l'étude des cultures pré-abbevilliennes à galets taillés du Katanga : le site Mulundwa*, 1, Bruxelles, Publications de la Soc. Roy. Belge d'anthrop. et de préhist. (٢١).

— 1952. « Les industries à galets taillés (Pebble Culture) du Katanga », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 295-8 (٢١).

— 1953. « La Pebble Culture africaine, source des civilisations de la pierre », *B.S.R.B.A.P.* LXV (٢١).

— 1953. « Vue d'ensemble sur le quaternaire du bassin du Congo », *Actes III Congr. U.I.S.P.P.* : 114-26 (٢١).

— 1957. « Le Cenozoïque du Congo belge », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 23-50 (٢١).

— 1957. « La préhistoire du Congo belge », Bruxelles, *Revue de l'Université de Bruxelles*, 54 p. (٢١).

— 1957. « The Early Pebble Culture of Katanga », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 214-6 (٢١).

— 1959. « Préhistoire et protohistoire du Bas-Congo belge, une esquisse », *Volume de Homenagem ao Prof. Doutor Mendes Corrêa*, Porto, Soc. Port. Anthrop. Ethno : 329-44 (٢١).

— 1962. « Vue d'ensemble sur la Préhistoire du Congo occidental », *Actes IVe Congr. P.P.E.Q.* : 129-64 (٢١).

MORTELMANS (G.) et MONTEYNE (R.). — 1962. « Le Quaternaire du Congo occidental et sa chronologie », *Actes III Congr. P.P.E.Q.* : 97-132 (٢١).

MOSCATI (S.). — 1964. *An introduction to the comparative grammar of the semitic languages*, Wiesbaden (١٠).

MUKAROVSKY (H.G.). — 1966. « ÜBER die Stellung der Mandesprachen », *Anthropos*, 61 : 679-88 (١٢).

MULLER (D.K.). — 1923. *Geschichte der ersten Hottentotenmission 1737-1744*, Herrnhut (٦).

MULLER (F.). — 1863. *Die Musiksprache in Zentral Africa*, Wien (١٠).

— 1867. *Reise der österreichischen Fregate « Novara » um die Erde in den Jahren 1857, 1858, 1859. Linguisticher Teil*, Wien, Staatsdruckerei (١٢).

— 1876-1884. *Grundrisse der Sprachwissenschaft*. Wien. A. Holder, 4 vol. (١٢).

MUNSON (P.). — 1968. « Recent archaeological research in the Dhar Tichitt region of South-Central Mauretania », *W.A.A.N.*, 10 : 6-13 (٢٤)، (٢٣).

— 1970. « Corrections and additional comments concerning the "Tichitt Tradition" », *W.A.A.N.*, 12 : 47-8 (٢٤).

MURDOCK (G.P.). — 1959. *Africa. Its peoples and their culture history*, New York, McGraw-Hill Book Company, XIII + 456 p. (المقدمة العامة) (٣) (١٠)، (١٢).

MURRAY (G.W.). — 1920. « The Nilotic languages, a comparative essay », *J.R.A.I.* (١٠).

المرشدي (حميد بن الحسن بن حميد بافجن) — ١٩٣٧ تاريخ واليس للامو (المقدمة العامة) (٥) (٦).

MUZUE (A.) et NOSEK (E.). — 1974. « Metal examination of iron objects from Niani », *A.A.T.A.*, 11, 1 (٩).

YINT (H.). — 1964. *The economics of the developing countries*, Londres, Hutchinson, 192 p. (٣).
ATIONAL ACADEMY OF SCIENCES. — 1975. *Understanding climatic change. A program for action*, United Committee for the global atmospheric research program, 239 p. (١٦).
EI MASATOSHI et ROY COUDHURY (A.R.). — 1974. « Genetic variation within and between the three major races of man », *A.J.H.G.* 26 (١٠)(١١)
ENQUIN (J.). — 1957-58. « Opgravingen te Sanga » (Fouilles à Sanga), *Gentse Bijdragen tot de Kunstgeschiedenis en de Oudheidkunde*, XVIII : 289-311 (٢١).
1967. « Contribution to the Study of the Prehistoric Cultures of Rwanda and Burundi », *A.M.R.A.C.* 59 (١١)(٢١).
Inventaria archeologica africana, Tervuren (الخاتمة)
EWBURY (C.W.). — 1965. *British policy towards west Africa. Select documents, 1786-1894*, Oxford (٦).
EWMAN (P.) et MA (R.). — 1964. « Comparative chadic : phonology and lexicon », *J.A.L.*, 5, 3 : 218-51 (١٠)(١٢).
ANE (D.T.). — 1960. « Recherches sur l'Empire du Mali », *Etudes africaines*, Conakry (٧).
1960. *Soundjata ou l'Epopée mandingue*, Paris, Prés. afr. (٣)(٧)
1970. « Notes sur les fouilles de Niani, ancienne capitale du Mali », *W.A.A.N.* 12 : 43-6 (٢٤).
ELSEN (O.J.). — 1970. « Human Remains », *Scandinavian joint expedition to Sudanese Nubia*, Copenhagen-Oslo-Stockholm (٢٨).
LSSON (E.). — 1931. « Quaternary glaciations and pluvial lakes, in british East Africa », *G.A.*, 13 : 249-349 (١٦).
1940. « Ancient changes of climate in british East Africa and Abissinia : a study of ancient lakes and glaciers », *G.A.* XXII, 1-2 : 1-79 (١٦)(٢١).
1949. « The pluvials of East Africa : an attempt to correlate pleistocene changes of climate », *G.A.* XXXI, 1-4 : 204-11 (٢١).
1952. « Pleistocene climatic changes in East Africa », *Proc. II P.C.P.Q.S.* : 45-55 (٢٤).
KETIA (H.J.). *History and organisation of music in West Africa*, Legon, Institute of African Studies of Ghana (المقدمة العامة)
ORDSTRÖM (H.A.). — 1972. « Neolithic and A-Group Sites », *Scandinavian joint Expedition to Sudanese Nubia*, Copenhagen-Oslo-Stockholm, Scandinavian Univ. Books (٢٥) (٢٨).
ORRIS (E.). — 1841. *Outlines of a vocabulary of few of the principal languages of Western and Central Africa*, Londres, J.W. Parker, VII + 213 p. (١٢).
ORRIS (Th.). — 1968. *Shinqiti folk literature and songs*, Oxford (٦).
OTEN (F. van). — 1968. « Note sur l'âge de la pierre récent dans la région des lacs Mokoto (Kivu, Congo) », *B.S.R.B.A.P.*, 79 : 91-101 (٢١).
1968. « The Uelian. A Culture with a Neolithic Aspect, Uele-Basin (N.E. Congo Republic) », *A.M.R.A.C.* 64, XIV + 154 p. (٢١).
1969. « A ground axe from Burundi », *Azania* IV : 166 (٢١).

— 1971. « Excavation at Munyama Cave », *Antiquity*, XLV, 177 : 56-8 (٢١).
— 1973. « Mystificatic en Archeologie in Noord-Zaïre » (Mystification et Archéologie au Nord-Zaïre), *Africa-Tervuren*, XIX, 4 : 97-102 (٢١).
— 1977. « Excavations at Matupi Cave », *Antiquity*, LI, 201 : 35-40 (٢١).
— 1978. « The Early Iron Age in the Interlacustrine Region », *J.A.H.* XIX, 1 (٢١).
NOTEN (F. et E. VAN). — 1974. « Het Ijzersmelten bij de Madi » (La fonte du fer chez les Madi), *Africa-Tervuren*, XX, 3-4 : 57-66 (٢١).
NOTEN (F. VAN), CAHEN (D.), MARET (J. DE), MOEYERSONS (J.) et ROCHE (E.). En préparation. *The Archaeology of Central Africa*, Graz, Akademische Druck - u. Verlagsanstalt (٢١).
NOTEN (F. VAN) et HIERNAUX (J.). — 1967. « The Late Stone Age Industry of Mukinanira, Rwanda », *S.A.A.B.* 22, IV : 151-4 (٢١).
OAKLEY (K.P.). — 1961. « Man the Tool-maker », British Museum, *Natural History*, 5ᵉ éd. (١٩).
OBENGA (Th.). — 1970. « Méthodologie en histoire africaine : sources locales », *Africa*, XXV (المقدمة العامة).
— 1973. *L'Afrique dans l'Antiquité*, Paris, Prés. africaine (١٠).
O'BRIEN (T.P.). — 1939. *The prehistory of Uganda Protectorate*, Londres, Cambridge Univ. Press, 319 p. (٢١).
OLABIYAL (J.). — 1968. *Remarques sur l'état actuel des recherches linguistiques au Dahomey*, Paris, Prés. afr. (١٠).
OLDEROGGE (D.). — 1966. « Ecritures méconnues de l'Afrique noire », *Le Courrier de l'Unesco* (١٠).
OLDEROGGE (D.) et POTEKINE (I.). — 1954. *Les Peuples de l'Afrique*, Moscou (المقدمة العامة).
OLIVER (R.). — 1966. « The problem of the Bantu expansion », *J.A.H.* 7, 3 (١٢).
— 1973. « African studies in London, 1963-1973 », *Proc. III Intern. W.A.C.* (non publié) (٣).
OLSSON (I.U.). — 1973. « The radiocarbon dating of Ivory Coast shell mounds », *W.A.J.A.* 3 : 215-20 (٢٤).
ONDE (H.). — 1963. « La géographie régionale et le monde africain », *Genève-Afrique*, II, 2 : 149-62 (٤).
ORGAN (R.M.). — 1968. *Design for scientific conservation of antiquities*, Londres, Butterworths, XI + 497 p. (٩).
ORHONLU (C.). — 1972. « Turkish archival sources about Ethiopia », *Proc. 4th I.C.E.S.* (٦) (٥) (المقدمة العامة).
ORLOVA (A.S.). — 1967. *Histoire de l'Afrique au XIXᵉ siècle et au début du XXᵉ siècle*, Moscou, Institut d'Afr. de l'URSS (المقدمة العامة)
OUSSEDIK (O.). — 1972. « Les bifaces acheuliens de l'Erg Tihodaïne : analyse typométrique », *Libyca*, 20 (٢٢).
OZANNE (P.). — 1964. « Notes on the later prehistory of Accra », *J.H.S.N.* 3, 1 : 3-23 (٢٤).

— 1966. « The anglo-gambian stone circles expedition », *W.A.A.N.* 4 : 8-18 (٢٤).
— 1969. « The diffusion of smoking in West Africa », *Odu*, N.S. 2 : 29-42 (٢٤).
— 1969. « A new archaeological survey of Ife », *Odu*, 3, 1 : 28-45 (٢٤).
— 1971. « Ghana », P.L. SHINNIE, *African Iron age*, Oxford, Clarendon Press, 35-65 (٢٤).
PADMORE (G.). — 1962. *Panafricanisme ou Communisme*, Paris, Prés. afr. 14 (المقدمة العامة)
PAGER (H.). — 1971. *Ndedema*, Graz, Akademische Druck.
— 1975. *Stone age myth. and magic*, Akademische Druck.
PALMER (H.). — 1928. *Sudanese memoirs being mainly translations of a number of arabic manuscripts relating to the central and western Sudan*, Lagos (٦) (٥)
PANKHURST (R.). — 1966. *The royal Ethiopian chronicles*, Oxford (٦).
PARENKO (P. et R. P.) et HEBERT (J.). — 1962. « Une famille ethnique ; les Gan, les Padoro, les Dorobe, les Komono », *B.I.F.A.N.* B, I, XXIV, 3, 4 et 6.
PARKINGTON (J.) et POGGENPOEL (C.). — 1970. « Excavations at De Hangen, 1968 », *S.A.A.B.* XXVI : 3-36 (٢٠).
PATTERSON (J.R.). — 1926. *Kanuri songs*, Lagos (٦).
PAULME (D.). — 1956. « Les sculptures de l'Afrique noire », Paris, *PUF* (المقدمة العامة)
— 1956. *Parures africaines*, Paris, Hachette (المقدمة العامة)
— 1960. *Les Civilisations africaines*, Paris, PUF (المقدمة العامة)
PAYDDOKE (E.). — 1963. *The scientist and archaeology*, Londres, Phoenix House, XIII + 208 p. (٩).
PEDELABORDE (P.). — 1970. *Les Moussons*, Paris, Colin-U2 (١٦).
PELLETIER (A.). et GOBLOT (J.-J.). — 1973. *Matérialisme historique et Histoire des civilisations*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
PENDER CUTLIP (P.). — 1972. « Oral traditions and anthropological analysis : Some contemporary myths », *Azania* VII : 3-24 (٨).
— 1973. « Encyclopedic informants and early interlacustrine history », *I.J.A.H.S.*, VI : 468-79 (٨).
PERLMAN (I.) et ISARO (F.). — 1969. « Pottery analysis by neutron activation », *Archaeometry*, 11 : 21 : 52 (٨).
PERRET (R.). — 1937. « Une carte des gravures rupestres et des peintures à l'ocre de l'Afrique du Nord », *J.S.A.* VII, 71 : 107-123 (٨).
PERROT (C.). — 1974. « Ano Aseman : mythe et histoire », *J.A.H.* XV : 199-212 (٨).
PERSON (Y.). — 1962. « Tradition orale et chronologie », *C.E.A.*, 7, II, 3 (٧).
— 1963. « Classe d'âges et chronologie », *Latitudes*, n° spécial (١٥).
— 1968. *Samori. Une révolution dyula*, Dakar, I.F.A.N. 3 vol (٣).
PETRIE (W.M.F.). — 1901. *The royal tombs of the first dynasty*, Londres (٢٨).
— 1920. « Prehistoric Egypt », *B.S.A.E.* (٢٨) (٢٣).
— 1921. « Corpus of prehistoric pottery and palettes », Londres (٢٣).

— 1939. *The Making of Egypt*, Londres (٢٨) (٢٥)
— 1953. « Ceremonial slate palettes », *B.S.A.E.* LXVI (٢٨) (٢٥)
PETRIE (W.M.F.), MACKAY (E.) et WAINWRIGT. — 1912. *The labyrinth, Gerzeh and Mazghunah*, Londres (٢٨).
PEYROUTON. — 1966. *Histoire générale du Maghreb*, Paris, A. Michel (المقدمة العامة).
PHILIPS (J.). — 1828. *Researches in South Africa*, Londres, 2 vol. (٦).
PHILIPSON (D.W.). — 1976. « The Early Iron Age in Eastern and Southern Africa : A critical re-appraisal », *Azania*, XI : 1-23 (٢١).
PIAS (J.). — 1967. « Chronologie du dépôt des sédiments tertiaires et quaternaires dans la cuvette tchadienne », *C.R.A.S.* 264 : 2432-5 (٢٤).
PICARD (G. Ch.). — 1971. « Le Périple d'Hannon n'est pas un faux », *Archéologia*, 40 : 54-9 (٢٤).
PIGAFETTA (F.) et LOPEZ (D.). — éd. 1965. *Description du royaume de Congo et des contrées environnantes*, trad. et annoté par Willy Bal (2e éd. révisée), Louvain (٤) (١)
PIVETEAU (J.). — 1973. *Origine et destinée de l'homme*, Paris, Masson, 167 p. (١٨).
PIOTROVSKY (B.). — 1967. « The early dynasty settlement of Khor-Daoud », *Campagne internationale de l'Unesco pour la sauvegarde des monuments de la Nubie*, Le Caire, Service des antiquités de l'Egypte (٢٥).
PIRENNE (J.). — 1932. *Histoire des institutions et du droit privé de l'Ancienne Egypte*, Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth (٢٨).
PLAATJE (S.T.). — 1916. *Native life in South Africa before and since the European war and the boer rebellion*, Londres (٦).
— 1930. *Mhundi : an epic of South Africa native life a hundred years agò*, Lovedale (٦).
PLENDERLEITH (H.J.). — 1962. *The Conservation of antiquities and works of art*, Londres, Oxford Univ. Press, XV + 376 p. (٩).
PLOEY (J. DE). — 1963. « Quelques indices sur l'évolution morphologique et paléoclimatique des environs du Stanley-Pool (Congo) », *Studia universitatis Lovanium*, 17, 16 p. (٢١).
— 1965. « Position géomorphologique, genèse et chronologie de certains dépôts superficiels au Congo Occidental », *Quaternaria* VII : 131-54 (٢١).
— 1968. « Quaternary phenomena in the Western Congo », *Proc. VII Congr. INQUA*, 8 : 500-18 (٢١).
— 1969. « Report on the Quaternary of the Western Congo », *Palaeoecology of Africa, the surrounding islands and Antarctica* IV : 65-8 (٢١).
POIRIER (J.). — 1969. *Histoire de l'ethnologie*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
POLOTSKY (H.). — 1964. « Egyptian at the dawn of civilisation », *The world history of the Jewish people*, ser. I. (١٠).
POMMERET (Y.). — 1965. « Notes préliminaires à propos du gisement lupembien et néolithique de Nodjobé », *Mém. S.P.P.G.* II, 45 p. (٢١).
— 1966. « Principaux types d'outils de tradition forestière (Sangoen-lupembien-tchitolien) découverts à Libreville », *B.S.P.P.G.* II, 4 : 29-47 (٢١).

— 1966. « Les outils polis au Gabon », *B.S.P.P.G.* II, 6 : 163-79 (٢١).
POND (W.P.) *et al.* — 1938. Prehistoric habitation sites in the Sahara and North Africa, The Logan Museum, Beloit College, Wisconsin (٢٣).
PORTER (B.) et MOSS (R.L.B.). — *Topographical bibliography of ancient egyptian hieroglyphic texts, reliefs and paintings*, Oxford, The Clarendon Press (٢٨).
PORTERES (R.). — 1950. « Vieilles agricultures de l'Afrique intertropicale », *A.T.* : 9-10 (٢٧).
— 1951. « Géographie alimentaire, berceaux agricoles et migrations des plantes cultivées en Afrique intertropicale », *C.R.S.B.* : 239-40 (٢٧).
— 1951. « Eleusine coracana Gaertner, céréale des humanités pauvres des pays tropicaux », *B.I.F.A.N.* 23 : 1-78 (٢٤).
— 1958. « Les appellations des céréales en Afrique », *J.A.T.B.A.*, 5 (٢٤).
— 1960. « La monnaie de fer dans l'Ouest africain au XIX[e] siècle », *Recherche africaine*, 4 (١٥).
— 1962. « Berceaux agricoles primaires sur le continent africain », *J.A.H.*, 3, 2 : 195-210 (٢٧)(٢٤)(١٤).
— 1972. « Le millet coracan ou Finger Millet », *Burg. Wart. Symp. 56* (٢٤).
POSENER (G.). — 1940. *Princes et Pays d'Asie et de Nubie*, Bruxelles, Fond. égyptol. Reine Elisabeth (٢٨).
— 1960. « De la divinité de Pharaon », *C.S.A.* 15 (٢٨).
POSENER (G.), SAUNERON (S.) et YOYOTTE (J.). — 1959. Dictionnaire de la civilisation égyptienne, Paris, Hazan (٢٨).
POSNANSKY (M.). — 1969. « The prehistory of East Africa », *in* B.A. OGOT et J.A. KIERAN, *Zamani, A survey of East african history*, Nairobi-Londres, Longmans & C[o] Ltd : 49-68 (١١).
— 1971. « Ghana and the origins of West african trade », *Africa quarterly* II : 110-25 (٢٤).
PRESENCE AFRICAINE. — 1971. *Perspectives nouvelles sur l'Histoire africaine*, Paris (٥).
PRICHARD (J.C.). — 1855. *The natural history of Man*, 4[e] éd., Londres, H. Ballière, 2 vol. (١٢).
PRIDDY (A.J.). — 1970. « An Iron Age Site near Yelwa, Sokoto Province : preliminary report », *W.A.A.N.*, 12 : 20-32 (٢٤).
PRINS (A.H.J.). — 1953. *East African age class systems*, Groningen (١٥).
— 1958. « On Swahili Historiography », *J.E.A.S.C.* LXXVIII, 2 (المقدمة العامة)، (٦) (٥).
QUEZEL (P.) et PONS (A.). — 1957. *Première étude palynologique de quelques paléo-sols sahariens*, Alger, I.R.S. (٤).
RABIE (H.). — 1972. *The financial system of Egypt*, Londres (٥).
RADCLIFFE-BROWN (A.R.) et FORDE (D.). — *Systèmes familiaux et matrimoniaux en Afrique*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
RALPH (E.K.), MICHAEL (H.M.) et HAN (M.G.). — 1973. « Radiocarbon dates and reality », *M.N.* 9, 1 : 1-20 (٩).
RAMENDO (L.). — 1963. « Les galets aménagés de Reggan (Sahara) », *Libyca*, II : 43-74 (٢٢).

RANDLES (O.). — 1974. « La civilisation bantu, son essor et son déclin », *Annales* 29, 2 (٢٧)
RANDLES (W.G.L.). — 1958. *South-East Africa and the empire of Monomotapa as shown on selected printed maps of the 16th century*, Lisbonne (٦).
RANGER (Y.O.). — 1962. « Emerging themes of african history », *International Congress of african historians*, Dar-es-Salam (١٥) (المقدمة العامة)
— 1967. *Revolt in Southern Rhodesia. A Study in african resistance*, Londres, Heinemann, xii + 403 p. (٣).
RATTRAY (R.S.). — 1923. *Ashanti*, Oxford, Clarendon Press (٢٤).
REED (C.A.). — 1964. « Natural history study of Karkur Oasis, Libyan desert », *Postilla-Peabody Museum*, 84 (٢٥).
— 1965. « A human frontal bone from the late pleistocene of the Kom-Ombo Plain », *Man*, 95 : 101-4 (٢٥).
— 1967. *Preliminary report on the archaeological research of the Yale University, Prehistoric expedition to Nubia, 1962-1963*, Le Caire, Antq. Depart. Egypt. (٢٥).
REES (A.R.). — 1965. « Evidence for the African origin of the oil palm », *Principes*, 9 : 30-6 (٢٤).
REINDORF (C. Ch.). — 1889. *The History of the Gold Coast and Asante*, Bâle n. d. I C. 183 (٣).
REINISEH (L.). — 1881. *Die Kunama-Sprache in Nord-Ost Afrika*, Vienne (١٠).
REISNER (G.A.). — 1910. *Archaeological survey of Nubia, report for 1907-1908*, vol. I, Le Caire, National Printing Dept. (٢٨).
— 1923. *Excavations at Kerma*, Cambridge, Harvard African Studies (٢٨).
RENAN (E.). — 1855. *Histoire générale et Système comparé des langues sémitiques*, Paris, Impr. Roy., VIII + 499 p. (١).
REVUE de géographie physique et de géologie dynamique. — 1976. N° spécial, « Oscillations climatiques au Sahara depuis 40 000 ans », Paris, Masson (١٦).
REYGASSE (M.). — 1922. « Note au sujet de deux civilisations préhistoriques pour lesquelles deux termes nouveaux me paraissent devoir être employés », *Actes 46e Congr. A.F.A.S.* : 467-72 (٢٣).
— 1923. « Découverte d'outillage moustérien à outils pédonculés atériens dans le Tidikelt, Oued Asriouel, région d'Aoulef Chorfa », *Actes 46e Congr. A.F.A.S.* : 471-2 (٢٣).
RHODENBURG (H.). — 1970. « Morphodynamische Activitäts -und Stabilitätszeiten statt Pluvial -und Interpluvialzeiten », *Eiszeitalter und Gegenwart*, 21 : 81-96 (٢١).
RHODENBURG (H.) et SABELBERG (U.). — 1969. « Zur landschaftsökologisch-bodengeographischen und klimagenetisch-geomorphologischen Stellung des westlichen Mediterrangebiets », *Göttinger Bodenkundliche Berichte*, 7 : 27-47 (١٦).
RHOTERT (H.). — 1952. *Libysche Felsbilder*, Darmstadt, L.C. Wittich (٢٣).

RICHARD (Abbé). — 1869. « Sur la découverte de silex taillés dans le sud de l'Algérie », *Matériaux pour l'histoire primitive de l'Homme*, 4 : 74-5 (٢٣).

RICHARD (C. DE). — 1955. « Contribution à l'étude de la stratigraphie du quaternaire de la presqu'île du Cap Vert (Sénégal) », *B.S.P.F.* 52 : 80-8 (٢٤).

RICHARDSON (J.L.) et RICHARDSON (A.E.). — 1972. « History of an African rift Lake and its climatic implication », *Ecol. Monogr.* 42 : 499-534 (١٦).

RIGHTMIRE (G.P.). — 1974. *Comments on race and population history in Africa*, New York (١١).

ROBERT (D.). — 1970. « Les fouilles de Tegdaoust », *J.A.H.* 11, 4 : 471-93 (٢٤).

— 1970. « Report on the excavations at Tegdaoust », *W.A.A.N.*, 12 : 64-8 (٢٤).

ROBERT (D. et S.) et DEVISSE (J.). — 1970. *Tegdaoust I, Recherches sur Aoudaghost*, Paris, A.M.G. (٢٤).

ROBERTS (A.D.). — 1967. « Oral traditions of the peoples of Tanzania », *E.A.J.* 12 : 23-5 (٧).

— 1968. *Recording East Africa's past : a brief guide for the amateur historian*, Dar-es-Salam (٧).

— 1968. « Oral tradition through the Sieve : Notes and Comments on the Second Conference on Tanzania's oral history », *E.A.J.* : 35-8 (٧).

— 1968. *Tanzania before 1900*, Nairobi, East African Publishing House, XX + 162 p. (٣).

ROCHE (E.). — 1975. « Analyse palynologique du site archéologique de la Kamoa », D. Cahen, *le Site archéologique de la Kamoa (région du Shaba, République du Zaïre). De l'Age de la pierre ancienne à l'Age du fer*, A.M.R.A.C. 84 : 331-7 (٢١).

— 1963. *L'Epipaléolithique marocain*, Lisbonne (٢٢).

RODIER (J.). — 1963. « Hydrologie du continent africain », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, pp. 185-226 (١٣).

ROGNON (P.). — 1974. « Modifications naturelles du cycle hydrométéorologique depuis 10 000 ans. Leur utilisation pour la prévision climatique à long terme », *in Influence* (١٦).

ROSENFELD (A.). — 1965. *The inorganic raw minerals of Antiquity*, Londres (١٤).

— 1972. « The microlithic industries of Rop Rock Shelter », *W.A.J.A.* vol. II : 17-28 (٢٤).

ROTHBERG (R.J.), dir. — 1971. *Africa and its explorers : motives, methods, and impact*, Cambridge, Mass. (٦).

ROTHBERG (R.J.) et ROUBET (F.E.). — 1966. « Présentation comparative d'un gisement côtier, des environs de Berard, à l'ouest d'Alger », *Congr. Préhist. Français*, Ajaccio : 109-28 (٢٢).

ROTHBERG (H.) et ROUBET (C.). — 1968. « Nouvelles observations sur l'Epipaléolithique de l'Algérie orientale. Le gisement de Koudiat Kifène Lahda », *Libyca*, 16 : 55-101 (٢٢).

— 1972. « The microlithic industries of Rof Rock Shelter », *W.A.J.A.* 2, 17-28 (٢٤).

— (à paraître) : *Une économie pastorale pré-agricole en Algérie orientale. Le néolithique de tradition capsienne. L'exemple de l'Aurès* (٢٢).

ROTHBERG (R.J.) et MAZRUI (A.A.), éd. — 1970. *Protest and Power in Black Africa*, New York, Oxford University Press, XXX + 1274 p. (٣).

ROUBET (C.). — 1968. *Le Gisement du Damous el Ahmar*, Paris, A.M.G. (٢٢) (٢١).

— 1971. « Sur la définition et la chronologie néolithique de tradition capsienne », *Anthropologie*, 75 : 553-74 (٢٤) (٢٢).

RUBIN (A.). — 1970. Review of Philip Allison's « African Stone Sculpture » and Franck Willett's « Ife in the History of West African Sculpture ». *Art bulletin* 72, 3 : 348-54 (٢٤).

RUFFIE (J.). — 1977. *De la biologie à la culture*, Paris, Flammarion 598 p. (١٠) (المقدمة العامة)

— 1977. « Génétique et Anthropologie », *Science et vie* n° 120 Hors série (١١).

RYDER (A.F.C.). — 1965. *Materials for West African History in Portuguese Archives*, Londres (٢٤) (٦).

— 1965. « A reconsideration of the Ife-Benin relationship », *J.A.H.* 6, 1 : 25-37 (٢٤).

SABERWAL (S.). — 1967. « The oral tradition, periodization and political system », *C.J.A.S.* I :157-62 (٧).

SAID (R.). — *The geological evolution of the River Nile* (١٦).

SALEH (S.A.), GEORGE (A.W.) et HELMI (F.M.). — 1972. « Study on glass and glass-making processes at Wadi-El-Natrum, 1re partie. Fritting crucibles, their technical features and temperature employed », *Studies in Conservation*, Londres, 17 : 143-70 (٩).

SAMB (A.). — 1971. « Langues négro-africaines et leurs emprunts à l'arabe », *N.A.* (١٠).

SAMPSON (C.G.). — 1972. « The Stone Age industries of the Orange River Scheme and South Africa », *Memoirs of the National Museum Bloemfontain*, 6 (٢٠).

— 1974. *The Stone Age archaeology of Southern Africa*, Academic Press, New York (٢٠).

SANCHO (I.). — 1781. *Letters of the late I. Sancho, an african... to which are prefixed memoirs of his life*, Londres, 2 vol. (٦).

SANDER (E.R.). « The hamitic hypothesis, its origin and function in time perspective », *J.A.H.* X, 4 : 521-32 (١٢) (المقدمة العامة).

SANDFORT (K.S.) et ARKELL (A.J.). — 1929. *Palaeolithic man and the Nile*, Fayum divide. Oriental Institute Publication, 10, (٢٣)

SAPIR (D.). — 1973-1974. « Linguistics in Sub-saharan Africa », *in Current trend in linguistics*, T.A. SEBEOK (dir.), Paris - La Haye, Mouton (١٢)(١٠)

SAUER (C.O.). — 1952. « Agricultural origins and dispersion », *B.M.L.* 2 (٢٧).

SAUNDERS (A.M.C.). — 1964. *World population : past growth and present trends*, Londres (١٤).

SAUVAGET (J.). — 1946. *Historiens arabes*, Paris, A. Maisonneuve (المقدمة العامة).

— 1961. *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris (5).

SAVAGE (G.). — 1967. *The art and antique restorers' handbook*, Londres, Barris et Rockliff, 142 p. (٩).

SAVARY (P.). — 1966. « Monuments en pierres sèches du Fasnoun », *M.C.R.A.P.E.* 6, 78 p. (٢٣).

SAYCE (R.U.). — 1933. *Primitive arts and crafts*, Cambridge, Cambridge University Press, XIII + 291 p. (٢٤).

SAYRE (E.V.) et MEYERS (P.). — 1971. « Nuclear activation applied to materials of art and archaeology », *A.A.T.A.*, 8, 4 : 115-50 (٩).

SCHARFF (A.) et MOORGAT (A.). — 1950. *Ägypten und Vorderasien im Altertum*, München, F. Bruckmann (٢٨).

SCHEUB (H.). 1975. *The Ntsomi : a Xhosa performing art*, Oxford (٧).

SCHLÖZER (A.L. VON). — 1781. *In* EICHHORN J.G., *Repertorium für biblische und morgenländische Literatur*, Leipzig, Wiedmanns Erben und Reich, 1777-1786, 18 parties, partie VIII (١٢).

SCHMITZ (A.). — 1962. « Les Muhulu du Haut-Katanga méridional », *B.J.B.E.* XXXII, 3 (٢١).

— 1971. « La végétation de la plaine de Lubumbashi (Rép. Dém. Congo) » *Publ. INEAC* 113 : 11-388 (٢١).

SCHNELL (R.). — 1967. *Plantes alimentaires et agricoles de l'Afrique noire*, Paris, Larose (٢٧) (المقدمة العامة)

SCHOLLAR (I.). — 1970. « Magnetic methods of archaeological prospecting advances in instrumentation and evaluation techniques », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 103-19 (٩).

SEBEOK (T.A.). — 1963-1974. *Current trend in linguistics*, Paris - La Haye, Mouton (١٢)(١٠).

SECK (A.) et MONDJANNAGNI (A.). — 1967. *L'Afrique occidentale*, Paris, PUF, 290 p. (١٣).

SEDDON (D.). 1968. « The origins and development of agriculture in East and Southern Africa », *C.A.* 9, 5 : 489-94 (٢٧)(٢٤).

SELIGMAN (G.). — 1930. *Races of Africa*, Londres (١٠).

SERVANT (M. et S.) et DELIBRIAS (G.). — 1969. « Chronologie du Quaternaire récent des basses régions du Tchad », *C.R.A.S.* 269 : 1603-6 (٢٤).

— 1973. « Séquences continentales et variations climatiques : évolution du bassin du Tchad au Cénozoïque supérieur », *M.O.R.S.T.O.M.*, 348 p. (١٦).

— 1974. « Les variations climatiques des régions intertropicales du continent africain depuis la fin du Pléistocène », *13ᵉ journée de l'hydraulique, Soc. Hydrotech. Fr.* (١٦).

SETHE (K.). — 1930. *Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter*, Leipzig, F.A. Brickhaus (٢٨).

SEYDOU (Ch.) éd. — 1977. *La Geste de Ham-Bodédio ou Hama le Rouge*, Paris, A. Colin, Classiques africains, 18 (٢).

SCHAPERA (I.). — 1933. *The early Hottentots*, Cape Town (٦).

SHAPERS (I.). — 1668. *The Early Cape Hottentots, described in the writings of Dapper* (٦).

SHAW (Th.). — 1944. « Report on excavations carried out in the cave known as Bosumpra at Abetifi, Kwahu, Gold coast Colony », *Proceedings of the prehistoric society*, Cambridge, 10 : 1-67 (٢٤).

— 1960. « Early Smoking Pipes : in Africa, Europe and America », *J.R.A.I.* (٢٤).

— 1961. *Excavation at Dawu*, Edinburgh, Nelson, VIII + 124 p. (٢٤).

— 1962. « Chronology of excavation at Dawu », *Man*, 72 : 217 (٢٤).

— 1963. « Field research in nigerian archaeology », *J.H.S.N.*, 2, 4 : 449-64 (٢٤).

— 1964. *Archaeology in Nigeria*, Ibadan, Ibadan University Press (٢٤).

— 1964. « Smoking in Africa », *S.A.A.B.* 19, 75 : 75-6 (٢٤).

— 1965. « Spectrographic analyses of the Igbo and other Nigerian bronzes », *Archaeometry*, 8 : 86-95 (٢٤).

— 1965. « Akure excavations : Stone Age Skeleton 9000 BC », *A.N.* 3 : 5-6 (٢٤).

— 1967. « Terminology », *W.A.A.N.* 7 : 86-95 (٢٤).

— 1969. « Further spectographic analyses of nigerian bronzes », *Archaeometry*, 11 : 85-98 (٢٤).

— 1969. « The later Stone Age in the nigerian forest », *Actes 1ᵉʳ Coll. internat. Archaeol. Afr.* : 364-74 (٢٤).

— 1969. « On radiocarbon chronology of the Iron Age in Sub-Saharan Africa », *C.A.* 10 : 226-31 (٢٤).

— 1970. « The analysis of West African bronzes : a summary of the evidence », *Ibadan*, 20 : 80-9 (٢٤).

— 1971. « The Prehistory of West Africa », *in* J.F.A. AJAYI and M. CROWDER, *History of West Africa*, London, Longmans (٢٤).

— 1971. « Africa in Prehistory : leader or laggard ? », *J.A.H.*, 12, 1 : 143-53 (٢٤).

— 1971. *Igbo-Ukwu : an account of archaeological discoveries in eastern Nigeria*, Londres, Faber and Faber, 2 vol. (٢٤).

— 1972. « Early crops in Africa : a review of the evidence », *Burg. Wart. Symp. 56* (٢٤).

— 1973. « Trade and the Tsoede bronzes », *W.A.J.A.* 3 : 233-8 (٢٤).

SHELTON (A.K.). — 1968. « Causality in african thought ; Igbo and other », *P.A.* 15, 4 : 157-69 (٧).

SHEPPERSON (G.) et PRICE (Th.). — 1958. *Independent Africa. John Chilembwe and the Origins. Setting and Significance of the Nyassaland native rising of 1915*, Edinburgh, Edinburgh University Press, X 564 p. (٣).

SHINNIE (P.L.). — 1967. *Meroe, a civilization of the Sudan*, New York, Washington (٢٨).

— 1971. *The African Iron Age*, Oxford, Claredon Press (٢٨) (٢٤).

SIBRAVA (V.) dir. — 1975. *Quaternary glaciations in the Northern hemisphere*, rapport n° 2, Projet 73/1/24, Prague, Unesco, 151 p. (١٦).

SILVA REGO (A. da). — 1949-1958. *Documentos para historia do missoes de Padreoda portuguesa de oriente, 12*, Lisbonne (٦).

SIMPSON (G.C.). — 1957. « Further studies in world climate », *J.R.M.S.* 83 : 459-85 (٢٤).

SIMPSON (W.K.) éd. — 1972. *The literature of ancient Egypt*, New Haven-London (٢٨).

SINGER (R.). — 1958. « The Rhodesian, Florisbad and Saldanha Skulls, G.H.R. von KOENIGSWALD », *Neandertal Centenary*, Utrecht : 52-62 (٢٠).

SINGER (R.) et WYMER (J.). — 1968. « Archaeological Investigations at the Saldanha skull site in South Africa », *S.A.A.B.* XXV : 63-74 (٢٠).

SINGH (G.). — 1973. « Late Quaternary changes in vegetation and climates in the arid tropics of India », *Acts IX I.N.Q.U.A. Congr.* (١٦).

SMITH (A.). — 1974. « Preliminary report of excavations at Karkarichinkat, Mali, 1972 », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).

SMITH (H.F.C.). — 1958. « Source material for the history of the Western Sudan », *J.H.S.N.* 1, 3 : 238-48 (المقدمة العامة) (٥) (٦).

— 1961. « Arabic manuscript material bearing on the History of Western Sudan : a seventeenth century writer of Katsina », *B.N.H.S.N.* VI, 1 (المقدمة العامة) (٥) (٦)

SMITH (H.S.). — 1966. « The Nubian B-Group », *Kush*, XIV : 69-124 (١٨).

SMITH (P.E.). — 1966. « The late Paleolithic of Northern Africa in the light of recent researches », *A.A.* 68 : 326-55 (٢٥).

— 1966. « New prehistoric investigation at Kom-Ombo », *Zephyrus* XVII (٢٥).

— 1967. « New investigations in the late Pleistocene archaeology of the Kom-Ombo Plain », *Quaternaria*, IX (٢٥).

SOGA (T.B.). — 1929. *Intlalo ka Zossa*, Lovedale (٦).

SOMMER (F.). — 1953. *Man and beast in Africa*, Londres, 206 p. (١٤).

SOPER (R.C.). — 1965. « The Stone Age in Northern Nigeria », *J.H.S.N.* 3, 2 : 175-94 (٢٤).

SOUVILLE (G.). — 1958-59. « La pêche et la vie maritime au Néolithique en Afrique du Nord », *B.A.M.* 3 : 315-44 (٢٢).

— 1973. *Atlas de préhistoire du Maroc*, « Maroc atlantique », Paris, C.N.R.S., Etudes d'antiquités africaines (٢٢).

SOW (A.I.). — 1968. *Chroniques et récits du Fouta-Djalon*, Paris, Klincksieck, 262 p. (٦).

SOWUNMI (M.A.). — 1973. « A preliminary palynological study in the Rivers Stat », *Oduma*, I, 1 : 13-4 (٤)
SPARKS (B.W.) et WEST (R.G.). — 1972. *The Ice Age in Britain*, Londres, Methuen, XVIII + 302 p. (٢٤).
SPARRMAN (A.). — 1789. *A voyage to the Cape of Good Hope, towards the Antartic polar circle, and round the world, but chiefly into the country of the Hottentots and Caffres, from the year 1772 to 1776*, Perth (٦).
STAINER (X.). — 1898. « L'âge de la pierre au Congo », *A.M.R.A.C.* III, 24 p. (٢١).
STANTON (W.R.) et WILLETT (F.). — 1963. « Archaeological evidence for changes in Maize type in West Africa : an experiment in technique », *Man*, 63 (٢٤).
STREEL (M.). — 1963. *La Végétation tropophylle des plaines alluviales de la Lufira moyenne*, Liège, F.U.L.R.E.A.C. (٢١).
STROSS (F.H.) et O'DONNALL. — 1972. *Laboratory analysis of organic materials*, USA, Addison-Wesley modular publications, module 22 (٩).
STROUHAL (E.). — 1976. *Problems of study of human races*, Prague (١١).
STRUEVER (S.) éd. — 1971. *Prehistoric agriculture*, New York, American museum sourcebook in anthropology (٤).
STUVIER (M.) et SUESS (H.E.). — 1966. « On the relationship between radiocarbon dates and true sample ages », *Radiocarbon*, 8 : 534-40 (٩).
SURET-CANALE (J.). — 1964. « Les sociétés traditionnelles en Afrique tropicale et le concept de mode de production asiatique », *Pensée*, 117 : 21-42 (الخاتمة)
— 1968. *Afrique noire occidentale et centrale*, Paris, Editions sociales, « I. Géographie, civilisations, histoire », 339 p. (١٣) (المقدمة العامة)
SWADESH (E.). — 1966. « A Preliminary glottochronology of Gur », *J.W.A.L.* (١٠).
— 1966. « Glottochronology », *J.W.A.L.*, III (١٠).
SZUMOWSKI (G.). — 1956. « Fouilles de l'abri sous roche de Kourouno-rokale », *B.I.F.A.N.*, B, 18 : 462-508 (٢٤).
TAIEB (M.). — 1974. *Evolution quaternaire du bassin de l'Awash (Rift éthiopien et Afar)*, Thèse, Paris, 2 tomes (١٧).
TAIEB (M.), COPPENS (Y.), JOHANSON (D.C.) et KALB (J.). — 1972. « Dépôts sédimentaires et faunes du Plio-Pléistocène de la basse vallée de l'Awash (Afar central, Ethiopie) », *C.R.A.S.* 275 : 819-22 (١٧).
TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.) et COPPENS (Y.). — 1975. « Expédition internationale de l'Afar, Ethiopie (3e campagne, 1974) découverte d'Hominidés plio-pléistocène à Hadar », *C.R.A.S.* 281 : 1297-1300 (١٨) (١٧).
TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.), COPPENS (Y.) et ARONSON (J.L.). — 1976. « Geological and paleontological background of Hadar hominid site, Afar, Ethiopie », *Nature*, 260, 5549 : 289-93 (١٧) (١٦).
TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.), COPPENS (Y.), BONNEFILLE (R.) et KALB (J.). — 1974. « Découverte d'Hominidés dans les séries plio-pléistocènes d'Hadar (bassin de l'Awash, Afar, Ethiopie) », *C.R.A.S.* 279 : 735-8 (١٧).

TALBOT (P.A.). — 1923. *Life in Southern Nigeria : the magic, beliefs and customs of the Ibido Tribe*, Londres, Macmillan, pp. 448-464 (١٠).
TARDITS (C.). — 1962. « Religion, épopée, histoire ; notes sur les fonctions latentes des cultes dans les civilisations du Benin », *Diogène*, n° 37 (١٥).
TATTAM (C.M.). — 1944. *A Rewiew of nigerian stratigraphy*, Annual report of the geological survey of Nigeria, 1943, Lagos, Government printer (٢٤).
TAUXIER (L.). — 1882. « Les deux rédactions du périple d'Hannon », *R.A.* 15-37 (٥).
TEILHARD DE CHARDIN (P.). — 1954. « Les recherches pour la découverte des origines humaines en Afrique au sud du Sahara », *Anthropologie* (الخاتمة) .
— 1955. « L'Afrique et les origines humaines », *Revue des questions scientifiques* (الخاتمة) .
— 1956. *Le Groupe zoologique humain*, Paris (١٥).
THEAL (G.M.). — 1896-1903. *Records of South-Eastern Africa*, Londres, 8 vol. (٦).
— 1897-1905. *Records of the Cape colony*, Londres, 36 vol. (٦).
THOMASSEY (P.) et MAUNY (R.). — 1951. « Campagne de fouilles à Koumbi Saleh », *B.I.F..N.* 13, 1 : 438-62 (٢٤).
— 1956. « Campagne de fouilles à Koumbi Saleh », *B.I.F.A.N.* B, 18 : 117-40 (٢٤).
THOMPSON (L.). — 1969. *African societies in Southern Africa*, Londres, Heinemann (٢٤) (المقدمة العامة) .
TIME-LIFE BOOKS. — 1972. « The Missing Link. Emergence of Man », sér. 3 (١٩).
TIXIER (J.). — 1957. « Le hachereau dans l'Acheuléen nord africain. Notes typologiques », *C.R. XV Congr. Préhist. Fr.* : 914-23 (٢٣) (٢٢)
— 1958-59. « Les pièces pédonculées de l'Atérien », *Libyca*, 6, 7 : 127-57 (٢٢).
— 1963. *Typologie de l'Epipaléolithique du Maghreb*, Paris, A.M.G. (٢٢) .
— « Les industries lithiques de l'Aïn Fritissa », *B.A.M.* 3 : 107-247 (٢٢).
TOBIAS (P.V.). — 1967. *Olduwai George. The cranium of Australopithecus (Zinjanthropus) boisei*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 264 p. (١٧) .
— 1967. « Cultural hominization among the earliest African Pleistocene hominid », *Proc. Prehist. Soc.* 33 : 367-76 (٢٠) .
— 1968. « Middle and early Upper Pleistocene members of the genus Homo in Africa », *Sonderdruck aus Evolution und Hominization*, Stuttgart, G. Kurth, 176-94 (٢٠) .
— 1968. *Man's past and future*, Fifth Raymond Dart lecture, Johannesburg, Witwatersrand Univ. Press (٢٠) .
TOBIAS (P.V.) et COPPENS (Y.). — 1976. « Les plus anciens hominidés » *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* (١٧) .
TRICART (J.). — 1956. « Tentative de corrélation des périodes pluviales africaines et des périodes glaciaires », *C.R.S.G.F.* : 164-7 (١٦) .

TRIGGER (B.G.). — 1965. *History and Settlement in Lower Nubia*, New Haven, Yale University pub. in anthropology, 69 (٢٨)

— « Meroitic and Eastern Sudanic : a linguistic relationship ? », *Kush*, vol. 12 (١٢).

TRIGGER (B.G.). — 1969. « Meroe and the African iron age », *A.H.S.* II (٢٨).

TSHUDI (J.). — 1955. *Nordafrikanische Feldsmalereien*, Florence, Sansoni, 106 p. (٢٣).

TUCKER (A.N.). — 1940. *The Eastern Sudanic languages*, Londres (١٠).

— 1948. *Distribution of the Nilotic-Hamitic Languages of Africa*, Londres (١٠).

TUCKER (A.N.) et BRYAN (M.A.). — 1966. *Linguistic Analyses : The non-Bantu languages of North-Eastern Africa*, Londres-New York-Le Cap, Oxford Univ. Press, XV + 228 p. (١٢)(١٠).

TUREKIAN (K.K.). éd. — *Late Cenozoic Glacial Age*, New Haven, Yale Univ. Press (١٦).

TURNER (L.D.). — 1955. « The odyssea of a Zulu warrior », *J.N.H.* 40, 4 (٦).

TWIESSELMANN (F.). — 1958. *Les Ossements humains du gîte mésolithique d'Ishango*, Mission J. de Heinzelin de Braucourt en 1950, Bruxelles, Institut des Parcs nationaux du Congo belge, 125 p. (٢١).

UCKO (P.J.) et DIMBLEBY (G.W.) dir. — 1969. *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth, XXVI + 581 p. (٢٤).

— 1970. « The history of Africa », *C.H.M.* XII, 4 : 527-605 (١٥).

— 1972. « Les origines de l'homme », *Le Courrier*, août-sept., nº spécial (الخاتمة)

اليونسكو— ١٩٦٥ «فن الكتابة»

— ١٩٧٣ «منتخبات نصوص بالعربية مأخوذة من الوثائق المغربية» بقلم الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني، باريس (المقدمة العامة).

— 1974. *Colloque scientifique international sur le peuplement de l'Egypte ancienne et le déchiffrement de la langue méroïtique*, Le Caire, 28 jan.-3 fév. (المقدمة العامة)

U.S. NATIONAL REPORT. — 1971-1974-1975. « American géophysical union, 15th general ass. International union of geology and geophysics, Grenoble », *Rev. geophys. Space phys.*, vol. 13, nº 3, 1110 p. (١٦).

VAJDA (G.). — 1950. « Contribution à la connaissance de la littérature arabe en Afrique occidentale », *J.S.A.* XX : 229-37 (٦) (٥) (المقدمة العامة).

VANDIER (J.). — 1952. *Manuel d'archéologie égyptienne*, Tome I., 1, « La Préhistoire », Paris, Picard (٢٨).

VANDIER (J.) et DRIOTON (E.). — 1962. « Les peuples de l'Orient méditerranéen », II — *L'Egypte*, Clio, Paris, PUF (٢٨).

VANSINA (J.). — 1961. *De la tradition orale : essai de méthode*, Tervuren, Mémoire nº 36 du Musée royal d'Afrique Centrale (٧) (المقدمة العامة)

— 1971. « Once upon a time : Oral traditions as history in Africa », *Daedalus*, 100, 2 : 442-68 (٧).

— 1973. *The Tyo Kingdom of the Middle Congo. 1880-1892*, Oxford, Clarendon Press, XIX + 590 p. (٣).
— 1974. « Comment : traditions of Genesis », *J.A.H.* XV : 317-322 (٨).
VANSINA (J.), MAUNY (R.) et THOMAS (L.V.). — 1964. *The historian in tropical Africa*, Oxford, Oxford Univ. Press (المقدمة العامة) (١٥).
VAUFREY (R.). — 1939. *L'Art rupestre nord-africain*, Paris, Institut de paléontologie humaine, Mém. 20, 127 p. (٢٣).
— 1946. « Le Néolithique de tradition capsienne au Sénégal », *Rivista di Sciencia prehistorica*, Rome (٢٤).
— 1949. « Le Néolithique paratoumbien, une civilisation agricole primitive du Soudan », *J.E.A.* 35 (الخاتمة).
— 1953. « L'Age de la pierre en Afrique, exposé synoptique », *J.S.A.* XXIII : 103-38 (الخاتمة).
— 1955 et 1970. *Préhistoire de l'Afrique*, I. « le Maghreb », II. « Au nord et à l'est de la Grande Forêt », Paris, Masson (٢٣) (٢٢).
VAVILOV (N.I.). — 1935. *Bases théoriques de la sélection des plantes*, tome I, « Sélection générale », Moscou-Léningrad, 1045 p. (٢٧) (١٤).
— 1951. « The origin, variation, immunity and breeding of cultivated plants », Selected writings translated by K. STAAR, *Chronica Botanica*, 13 : 1-6 (٢٧).
VERCOUTTER (J.). — 1959. « The Gold of Kush », *Kush*, VII : 120-53 (٢٨).
VERCOUTTER (J.), BOTTERO (J.) et CASSIN (E.). — 1967. *The New East, the early civilizations*, New York, Delacorte (٢٨).
VERHAEGEN (B.). — 1974. *Introduction à l'histoire immédiate*, Paris, Duculot (المقدمة العامة) (١٥) (الخاتمة).
VERMEERSCH (S.). — 1976. « L'Epipaléolithique dans la vallée du Nil », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* (٢٥).
VIA (Y. et M.). — 1974. *Sahara, milieu vivant*, Paris, Hatier (٢٦).
VIDAL (O.E.). — 1852. *in* CROWTHER (S.A.), A vocabulary of the Yoruba languages, Londres, Seeleys (١٢).
VIDAL (P.). — 1969. *La Civilisation mégalithique de Bouar. Prospections et fouilles, 1962-1966*, Paris, F. Didot, 132 p. (٢١).
VIGNARD (E.). — 1923. « Une nouvelle industrie lithique : le Sébilien », *B.I.F.A.O.* 22 : 1-76 (٢٣).
VOEGELIN (C.F. et F.M.). — 1973. *Index of the World's languages*, Washington (١٢).
VOGEL (J.C.) et BEAUMONT (P.B.). — 1972. « Revised radiocarbon chronology for the Stone Age in South Africa », *Nature*, 237 : 50-1 (٢٠) (٢٤).
VOUTE (C.). — 1962. « Geological and morphological evolution of the Niger and Benue Valleys », *Proc. IV. P.C.P.Q.S.* 1 : 189-207 (٢٤).
WAINWRIGHT (G.A.). — 1949. « Pharaonic survivals between Lake Chad and the West Coast », *J.E.A.* 35 : 170-5 (٢٤).
WAI-OGUSU (B.). — 1973. « Was there a Sangoan industry in West Africa ? », *W.A.J.A.* 3 : 191-6 (٢٤).
— 1974. « Pleistocene man in Africa with special reference to West Africa », *J.H.S.N.* 7, 2 : 357-68 (٢٤).

WATTS (A.D.). — 1926. *The early hunters and explorers in South West Africa*, thesis, Cape Town, Univ. of Cape Town (٦).
WAYLAND (E.J.). — 1929. « Rift valleys and Lake Victoria », *C.R. XV^e C.I.G.* II : 323-53 (٢٤)(٢١).
— 1934. « Rifts, rivers and rains and early man in Uganda », *J.R.A.I.* 64 : 332-52 (٢٤)(٢١).
— 1952. « The study of past climates in Tropical Africa », *P.C.P.*, 1947, Oxford, Blackwell : 66 (٢٤).
WEBB (M.C.). — 1968. « Carneiro's hypothesis of limited land resources and the origins of the state : a Latin Americanist's approach to an old problem », *South Eastern Latin Americanist*, 12, 3 : 168 (٢٤).
WELMERS (W.). — 1973. *African language structures*, Los Angeles, Univ. of California Press (١٢).
WENDORF (F.). — 1965. *Contributions to the Prehistory of Nubia*, Dallas, Fort Burgwin Research Center and Southern Methodist Univ. Press, 164 p. (٢٣).
— 1968. *The Prehistory of Nubia*, Dallas, Fort Burgwin Research Center and Southern Methodist Univers. Press (٢٨)(١٦).
WENDORF (F.), SAID (R.) et SCHILD (R.). — 1970. « Egyptian prehistory : some new concepts », *Science*, 169 : 1161-71 (٢٨) (٢٤).
WENDORF (F.), LAURY (R.L.), ALBRITON (C.C.), SCHILD (R.), HAYNES (C.V.), DAMON (P.E.), SHAFIQUILLAH (H.) et SCARBOROUGH (R.). — 1974. « Dates for the Middle Stone Age of East Africa », *Science*, 187 : 740-2 (١٦).
WENDT (W.E.) et REED (C.H.). — 1966. « Two prehistorical archaeological sites in Egyptian Nubia », *Postilla*, 102 : 1-46 (٢٥).
WERBER (A.). — 1925. *The language families of Africa*, Londres, Society for promoting christian knowledge, VII + 149 p. (١٢)(١٠).
— 1930. *Structure and Relationship of African languages*, Londres-New York, Longmans Green and Co, VII + 61 p. (١٢)(١٠).
WERNER (A.E.A.). — 1970. « Analysis of ancient metals », *P.T.R.S.* 269, 1193 (١).
WESTCOTT (R.W.). — 1957. « Did the Yoruba come from Egypt ? », *Odu*, 4 (٢٤)
WESTERMANN (D.). — 1911. *Die Sudansprachen, eine sprachvergleichende Studie*, Hambourg, L. Friederichsen, VIII + 222 p. (١٢).
— 1927. *Die westlichen Sudansprachen und ihre Beziehungen zum Bantu*, Mitteilungen des Seminars für orientalische Sprachen, Den Haage, de Gruyter (١٢).
WESTPHAL (E.O.J.). — 1962. « On classifying Bushman and Hottentot languages », *A.L.S.* III : 30-48 (١١).
— 1966. « The non-Bantu languages of Southern Africa », A.N. Tucker and M.A. Bryan, *Linguistic analyses*, London-New York-Cape Town (١٢).
WET (J.M.J. DE) et HARLAN (J.R.). — 1971. « The origin and domestication of Sorghum-bicolor », *Econ. Bot.* 25 : 128-35 (٢٤).

WHEATLEY (P.). — 1964. *The land of Zanj : exegetical notes on chinese knowledge of East Africa prior to A.D. 1500*, Londres, Liverpool essays (٥).
WICKENS (G.E.). — 1975. Changes in the climate and vegetation of the Sudan since 20 000 B.P., *C.-R. VIII Reunion A.B.I.F.A.T.* : 43-65 (١٦).
WIERCINSKY. — 1965. « The analysis of racial structure of early dynastic populations in Egypt », *Materialow practical anthropologicanich*, 72 (١١).
WIESENFIELD (S.L.). — 1967. « Sickle cell trait in human biological and cultural evolution », *Science*, 157 : 1134-40 (٢٤).
WILKS (I.). — 1956. « Tribal history and myth », *Universitas*, 2-3 (المقدمة العامة)
— 1961. « Begho and the Mande », *J.A.H.*, 2 : 25-34 (٢٤).
— 1963. « The growth of Islamic learning in Ghana », *J.H.S.*, 2, 4 (٦).
— 1975. « Do Africans have a sense of time ? *I.J.A.H.S.* VIII, 2 (٢).
WILLCOX (A.). — 1963. *The rock art of South Africa*, Johannesburg, Nelson (٢٦) (الخاتمة)
WILLETT (F.). — 1960. « Ife and its archaeology », *J.A.H.*, 2 : 231-48 (15).
— 1962. « The Introduction of maize into West Africa : an assessment of recent evidence », *Africa*, 32 : 1-13 (٢٤).
— 1962. « The Microlithic Industry from Old Oyo, Western Nigeria », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* 2 : 261-72 (٢٤).
— 1964. « Spectrographic analysis of Nigeria bronzes », *Archaeometry*, 7 : 81-93 (٢٤) (٩).
— 1966. « On the funeral effigies of Owo and Benin, and the interpretation of the life-size bronze heads from Ife », *Man*, 1 : 34-45 (٢٤).
— 1967. *Ife in the History of West African sculpture*, London, Thames & Hudson (١٥).
— 1968. « New light on the Ife-Benin relationship », *African Forum*, 3, 4, 4, 1 (٢٤).
— 1969. « New radiocarbon dates from Ife », *W.A.A.N.* 11 : 23-5 (٢٤).
WILLIANS (M.A.J.). — 1966. « Age of alluvial clays in the western Gezira, Republic of the Sudan », *Nature*, 211 : 270-1 (١٦).
— 1975. « Late Pleistocene tropical aridity synchronous in both hemispheres ? », *Nature* 253, 5493 : 617-8 (١٦).
WILLIAMS, CLARK (J.D.), ADAMSON (D.A.) et GILLESPIE (R.). — 1975. « Recent Quaternary research in Central Sudan », *B.A.S.E.Q.U.A.*, 46 (١٦).
WILLIS (R.G.). — 1964. « Tradition history and social structure in Ufipa », *Africa*, 34, 4 : 340-51 (٧).
WILSON (A.C.) et SARICH (V.M.). — 1969. « A molecular timescale for human evolution », *P.N.A.S.* 63, 4 : 1088-93 (٢٠).
WILSON (M.) et THOMPSON (L.). — 1969-71. *The Oxford history of South Africa*, Oxford, Clarendon Press, 2 vol. (٣).
WILSON (W.). — 1966. *Temme and the West Atlantic group*, S.L.I.R., Indiana, 226. 9. (١٠).

WINKLER (H.A.). — 1937. *Völkerbewegungen im vorgeschichtlichen Oberägypten im Lichte neuer Pelsbilderfunde,* Stuttgart (٢٣).
— 1939. *Rock drawings of Southern Upper Egypt,* Londres, Egypt exploration society, 2 vol. (٢٣).
WOLLIN (G.), ERICSON (D.B.) et WOLLIN (J.). — 1974. « Geomagnetic variations and climatic changes 2 000 000 BC-1970 AD », *Coll. C.N.R.S.* 219 : 273-88 (١٦).
WORLD METEOROLOGICAL ORGANISATION. — 1975. WMO/IAMAP. « Symposium on long-Term climatic fluctuations », *Proc. Norwich,* WMO n° 421, 503 p. (١٦).
WRIGLEY (C.). — 1970. « Speculations on the Economic Prehistory of Africa, *in* J.D. FAGE et R.A. OLIVER, p. 69 (٢٧).
WYMER (J.J.) et SINGER (R.). — 1972. « Middle Stone Age occupational settlements on the Tzitzikama coast, eastern Cape province, South Africa », P.J. UCKO, R. TRINGHAM and G.W. DIMBLEBY (éd.), *Man, settlement and urbanism,* Londres, 207-10 (٢٠).
YAMASAKI (F.), HAMADA (C.) et HAMADA (T.). — 1973. « Riken natural radiocarbon. Measurements VII », *Radiocarbon,* 14, 1 : 223-38 (٢٤).
YILBUUDO (J.T.). — 1970-71. *Tradition orale,* Mémoire : séminaire de Koumi, Haute-Volta.
YORK (R.N.). — 1973. « Excavations at New Buipe », *W.A.J.A.* 3 : 1-189 (٢٤).
YOUNG (W.J.). — 1958. « Examination of works of art embracing the various fields of science », *Proceedings of the Seminar on application of Sciences in examination of works of art,* Boston (٩).
YOYOTTE (J.). — 1959. *Dictionnaire de la civilisation égyptienne,* Paris (٢٨).
ZAHAN (D.). — 1963. La dialectique du verbe chez les Bambara. Paris (٨).
ZAKI (A.) et ISKANDER (Z.). — 1942. « Ancient Egypt Cheese », *A.S.A.E.* XLI : 295-313 (٩).
ZEISSL (H.V.). — 1955. « Äthiopen und Assyrer in Ägypten, *Ägyptologische Forschungen,* Heft 14, Glügkstadt-Hamburg-New York, J.J. Augustin (٢٨).
ZEUNER (F.F.). — 1950. Dating the Past, Londres, Methuen (١٦).
— 1959. *The pleistocene period, its climate, chronology and faunal successions,* Londres, Hutchinson Scientific and technical, 447 p. (٢١) (١٦).
ZIEGERT (H.). — 1967. *Dor èl Gussa und Gehelben Ghaama,* Wiesbaden, F. Steiner, 94 p. (٢٣).
ZINDEREN-BAKKER (E.M. VAN). — 1967. « Upper Pleistocene and Holocene Stratigraphy and Ecology on the basis of vegetation changes in subsaharan Africa », *in Background to evolution in Africa,* ed. W.W. BISHOP and J.D. CLARK, Chicago University Press (٢٤).
— 1975. *Paleoecology of Africa,* vol. 1-9 (١٦).

كشاف
أسماء الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

م

ن

هـ

و

ي

أسماء الاماكن

أ

ب

ت

ج

ح

أسماء السلالات الحاكمة

الاسماء العرفية

الموضوعات، والمفاهيم والنظريات الهامة

المختصرات المستخدمة في قائمة المراجع

تمت طباعته في
الربع الأخير من عام ١٩٨٣
على مطابع كانالي
في تورينو (ايطاليا)

Achevé d'imprimer en Italie
par Tipolitografia G. Canale & C. S.p.A. - Turin

الايداع القانوني: الربع الأخير من ١٩٨٣
دار النشر: جون أفريك — ٣ شارع روكيبين — ٧٥٠٠٨ باريس
رقم الناشر: ١/١٣٦٤

لقد ظلت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تخفي عن العالم لزمن طويل التاريخ الحقيقي لأفريقيا. فقد اعتبرت المجتمعات الأفريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ. وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليوفروبينيوس، وموريس ديلافوس، وأرتورو لابريولا، فان عددا كبيرا من الأخصائيين غير الأفريقيين المتشبثين بمسلمات معينة قد ظلوا ينحازون الى القول بأن هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية، مستندين في قولهم هذا بصفة خاصة الى نقص المصادر والوثائق المكتوبة. وقد كان ذلك في الواقع رفضا للاعتراف بأن الأفريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرخ أن يدركها الا اذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، والا اذا جدد منهجه.

وقد تطور الوضع كثيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الأفريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فتزايد حرص المؤرخين على دراسة أفريقيا بمزيد من الدقة والموضوعية والتفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الأفريقية ذاتها.

ومن هنا كانت أهمية «التاريخ العام لأفريقيا»، الذي تبدأ اليونسكو اصداره في ثمانية مجلدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهموا في المؤلف أن يرسوا أولا أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات المخلة التي نتجت عن تصور خطي ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلما كان ذلك ضروريا وممكنا. وجدّوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الأفريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.

ان هذا التاريخ العام يلقي الضوء في نفس الوقت على وحدة تاريخ أفريقيا وعلى علاقاتها بالقارات الأخرى ـــ وخاصة الأمريكتين ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الابداعي لدى أحفاد الأفريقيين في الأمريكتين وتصنيفها تحت عبارة جامعة غريبة باسم الخصائص الأفريقية. أو «الأفريقيات». وغني عن الذكر أن مؤلفي الكتاب الذي نحن بصدده لا يعتنقون هذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيق الذين رحلوا الى أمريكا، وفي ظاهرة «التهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الأفريقيين دوما وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمريكي الأولى وفي حركات التحرير الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للانسانية.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لأفريقيا من علاقات بجنوب آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدمته من مساهمات أفريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة.

ان هذا الكتاب مزية كبرى، هي أنه يطلعنا على آخر تطورات معارفنا عن أفريقيا ويعرض الثقافات الأفريقية من وجهات نظر شتى، ويقدم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.